

تاريخ الحضارات العام

روما وإمبراطوريتها

تاريخ الحضارات العام

موسوعة
تاريخ الحضارات العام
في سبعة مجلدات بإشراف موريس كروزيه

١
الشرق واليونان القديمة

أندريه إيمار — أستاذ في السوربون
جانين أوبوايه — أمينة متحف غيميه

٢
روما وإمبراطوريتها

أندريه إيمار — أستاذ في السوربون
جانين أوبوايه — أمينة متحف غيميه

٣
القرون الوسطى

إدوار برّوي — أستاذ في السوربون

٤
القرنان السادس عشر والسابع عشر

رولان موسنييه — أستاذ في السوربون

٥
القرن الثامن عشر

رولان موسنييه — أستاذ في السوربون
و
إرنست لابروس — أستاذ في السوربون

٦
القرن التاسع عشر

روبير شنيرب — أستاذ فخري في الدراسات العليا

٧
العهد المعاصر

موريس كروزيه — مفتش المعارف العام في فرنسا

طبعة جديدة مع ملحق خاص حتى ايامنا

تاريخ الحضارات العام

بإشراف
موريس كروزيه
مفتش للمعارف العام في فرنسا

المجلد الثاني

طبعة جديدة مع ملحق خاص حتى أيامنا

تاريخ الحضارات العام

روما وامبراطوريتها

تأليف

أندريه إيمار
أستاذ في السوربون

جانين أوبوايه
أمينة متحف غيمه

نقله الى العربية

فريد م. داغر

فؤاد ج. أبوريحان

الطبعة الثالثة ١٩٩٤

مدخل

ما وقعت عيناي يوماً على موسوعة « تاريخ الحضارات العام » في مجلداتها السبعة وهي التي ظهرت أصلاً بالفرنسية، عن «المطبوعات الجامعية الفرنسية» في باريس حتى تولتني لشوة من الغبطة تمنيت معها ان يلهم الله ناشراً يتولى نقلها الى لغة الضاد فيمدّ المكتبة العربية ، ولا سيا باب التاريخ منهـا ، بمرجع هام من مراجع التاريخ العام تعاهدَ فريق من كبار الاختصاصيين وأعلام اساتذة التاريخ في جامعات فرنسا على وضعه على مثل هذا النحو الآمر من العرض والتركيز والتأليف هو أقرب الى تحليل حوادث التاريخ وتعليلها وفلسفتها ، من السّرد المبسط .

وما كنت لأقنط ، وانا أستسلم لهذه الاماني العراض والرؤى العذاب ، في ان يقيض الله لاحدى دور النشر في لبنان فتضطلع بهذه الرسالة وينقطع لها بالرغم مما دون هذا العمل من صعاب وأعباء : مادية وأدبية ومالية، وروحية وثقافية وتقنية ، لا بد من التغلب عليها ، من ناشر عربي يعرف قيمة الكتاب ، متبين لأهميته ، مؤمن برسالته التثقيفية والتهذيبية ، لا يهـاب المصاعب فيلقاها بصدر عامر بالايمان ، اقتناعاً منه بأهمية هذا العمل الذي ندب له نفسه .

كنت يوماً ، من نحو سنتين ، في حديث مع صديقي صاحب هـذه الدار ، حول حاجات الثقافة العربية في عصرنا هذا ، ووجوب تزويد مكتبتنا العربية ، بكتب ثمينة ، دسمة متعافية، رزينة ، رصينة ، إما وضعاً وتأليفاً، واما نقلاً وتعريباً عن اللغات الاجنبية . واخذنا نستعرض معاً هذا التيار الجارف والفيض العارم من الترجمات العجاف تلفظها المطابع ودور النشر في العالم العربي وتنزلها الى الاسواق ، بحيث أصبحت الترجمات اليوم ٩٠٪ من مجموع انتاج العصر في العالم العربي اليوم وأكثرها هشيم من سقط المتاع بعد ان كان تهشيماً للأصل ، تخفى عليك معالمه لما في الترجمة من تلاعب وتغيير وتعديل وتحريف واجتزاء، في عملية عبث وسطو، دونما رقيب او حسيب.

وبعد ان امتد الحديث بيننا نستعرض معاً حاجات ثقافتنا العربية والوضع المؤسف الذي تتردى فيه حركة الترجمـة اليوم ، في العالم العربي ، اذ بصاحبي يسدّد نظره اليّ ويسأل قائلاً : « هل تعرف الموسوعة التاريخية « تاريخ الحضارات العام » التي صدرت تحت اشراف موريس كروزيه ؟ — فقلت نعم ، وهي عندي في مكتبتي الخاصة » . فقال : « وما رأيك في أمر ترجمتها الى العربية ؟ » . فقلت : « حلم جميل « انما دونه خرط القتاد » اذ ان نقل موسوعة تاريخية على مثل هذا الاتساع تتألف من سبعة مجلدات ضخمة كل مجلد يزيد على ثمانمائة صفحة ويبلغ مجموع صفحاتها ٥٦٠٠ صفحة ليس بالأمر اليسير . ان مشروعاً على هذه الضخامة ، يقتضي له شرائط عديدة منها فريق مصطفى من النقلة والمترجمين يجيدون العربية والفرنسية متخصصين بالتاريخ ، ونفقات مالية طائلة، وجلد مرير ومعاناة موصولة ، وفوق هذا ، والى هذا كله، قلب عامر بالايمان الحي ، المحيي ، والغيرة النيرة على الثقافة العربية » . قلت هذا وتفرست في صاحبي فاذا بعينيه تشعان نوراً وايماناً وصدق عزيمة .

وها هو المجلد الثاني من هذه الموسوعة التاريخية يطل على القارىء العربي بعد ان رحب

بحرارة ، بمطلع المجلد الاول ، في اواخر السنة الماضية ، رافلاً بمثل هذه الحلة القشيبة من الاخراج الفني ، بعد ان بذل في سبيل اخراجه ، ما بُذل من عناية وسهر وصبر طويل وبذل كريم . يشهد الله ، وهو خير الشهود ، على ما رافق ترجمة هـذا الكتاب من جهد وحرص على الاصل والدقة في النقل ، بحيث يمكن ان نؤكد القارىء الكريم ان كل كلمة في الاصل الفرنسي نقلت الى العربية بعبارة سهلة صحيحة رشيقة ، دونما ركاكة او عجمة او تعقّد . ولا شك عندنا في ان النقد العلمي سيقول كلمته في هذا العمل بحيث يعرف الناس ما استنفد اخراج هـذا السفر من جهد وسهر وعناية ليخرج على مثل هذا النحو من الدقة والضبط ، وهي من بعض الصفات التي تحلت به منشورات دار عويدات ، في بيروت ، وما تفرّدت به .

يطيب لنا ان ننوه هنا ببعض ما لقي الجزء الاول من هذه الموسوعة من ترحيب النقد الادبي له . فقد نشر اديب فلسطين المشهور الاستاذ عيسى الناعوري ، وهو في الطليعة من رجال الفكر والادب في الاردن ، اليوم ، كلمة في مجلة « الاديب » للقراء ، في عدد يوليو ١٩٦٤ ، في الصفحة ٥٩ — ٦٠ ، ما يلي مخاطباً صاحب الدار الاستاذ احمد عويدات :

« لقد زوّدت المكتبة العربية بهذه الآثار العلمية النفيسة ، في ترجمات أمينة ، وافيـة ، لا تختلف عن الاصل في غير الحروف التي كتبت بهـا ... وأنا أعلم انك تقوم بهذا الجهد الكبير الضخم منفرداً ، وأعرف ما تلاقيه في ذلك من عناء متواصل ، ومن سهر طويل ، وما تبذل فيه الى جانب الجهد والعرق والسهر ، من مال ، ومعرفتي هذه تضاعف من تقديري لعملك ومن اعجابي الكبير به . ويزيد من اعجابي وتقديري ، ذلك العمل الضخم الجبار الذي انصرفت اليه اخيراً ، بكل بذل وتضحية ، وهو توليك نشر موسوعة « تاريخ الحضارات العام » الذي اصدرت منه حتى الآن الجزء الاول ، في قرابة ٧٢٠ صفحة من القطع الكبير ، وفي حلة رائعة من الاناقة الدالة على شدة عنايتك بالكتاب ... وهو كتـاب جدير بعنايتك واهتمامك حقاً . وانا ارجو مخلصاً ان يعينك الله على انجاز جميع أجزائه . فهو ثروة نفيسة للمكتبـة العربية التي تفتقر الى مثل هذا الأثر الضخم الجامع . وآمل ان يجد عملك من تقدير المؤسسات الثقافية العربيـة والقراء ما يكافىء جهدك المبارك وخدمتك الجليلة . اقول هـذا ، وانا اذكر ان الجهود المخلصة يندر ان تجد من يهتم بمكافأتها ، وتشجيعها ...

عندكم في لبنان جوائز أصدقاء الكتاب ، ولكن الناشر المجتهد المخلص لا ينال شيئاً منها كما ينال المؤلف . ان الجمعية تعتبر المؤلف وحده من «أصدقاء الكتاب» او من «اهل الكتاب»... لا ادري . ولكنها لا تعتبر الناشر مثل ذلك . فليتها تهتم بالناشر اهتمامها بالكتاب والمؤلف ، لأراك تنال من تقديرها — وهو أضعف الايمان — ما يثلج نفسك ، ويشجعك على المضي في الدرب النبيل الذي تسلكه مجاهداً مؤمناً بقيمة العمل الذي تؤديه لأمتك » .

ونحن اذ نشارك الاستاذ الناعوري آماله وأمانيه نتمنى معه ان يتم اخراج هـذه الموسوعة التاريخية ، على مثل هذا النحو خدمة للثقافة العربية والدراسات التاريخية الاصيلة .

بيروت في ١٩٦٤/٧/٣٠ يوسف أسعد داغر

القسم الأول

الغرب ووَحدة البحر المتوسط

تناولنا في المجلد الاول من هذه الموسوعة الكلام في حضارة الشرق الادنى الى بزوغ النصرانية . فعلينا الآن ونحن نتعرض لدراسة الغرب ، ان نعود القهقرى قليلاً الى الوراء ، ما يقرب من ألف سنة .

تاريخ المدنيات وتوقيتها التاريخي

التوقيت الزمني هو قوام التاريخ وهيكله . ولذا كان من اولى واجبات المؤلف ان يراعي أحكام هذا التوقيت ويأخذ بأصوله المرعية . إلاّ ان التاريخ سلسلة متلاحقة الحلقات ، قوامها ترابط الوقائع والماجريات على اختلاف انواعها . فالقضايا التي يثيرها ، تنوء عن الحلول المرتجلة . فاذا كانت معرفة الاشياء من الامور التي لا بد منها ، فتفهم الوقائع ، وفحصها ، وتحليلها، اجدى للمرء وادعى . والحال، ان تفهم الحضارة واكتناه جوهرها لا يستدعي الوقوف على المدنيات التي عاصرتها الا بنسبة ما كان لها من اثر بارز في هذه الحضارة . هنالك شعوب ينتظمها مدى جغرافي واحد ، الا انه قد لا يقوم بينها علائق وصلات ، وان قام شيء من هذا فمن ذلك النوع السطحي . وهذه المؤثرات قد لا يكون لها من الشأن الا بمقدار ما هي ذات اتجاه معين . هنالك مدنيات معطاءة ، تعطي الغير ، الكثير من ذاتها او من ذات يدها ولكن قلما تأخذ هي منه او تقبس عنه . ذلك هو في الواقع حال المدنيات القديمة التي قامت بالنسبة للاحقة منها ، بدور المهذب او المربي . وهكذا ألِف الناس النظر اليها وذلك لما لها من الاعراف والتقاليد التي يقدسها المريدون والأتباع . وهذان المدلولان اللذان لا بد من ان يتوفرا معاً ، هما شديدا الاتصال بعضها ببعض ، الا ان ترابطها المنطقي المكين لا يقوى على الثبات والاستمرار اذا ما انفصل احدهما عن الآخر .

استمرار مدنيات الشرق الادنى

هذا هو بالفعل وضع مدنيات الشرق الادنى الغابرة بالنسبة للغرب ، اذ اننا نشاهد بعض هذه المدنيات قائماً قبل عام ٣٠٠٠ ، وليس في غربي البحر المتوسط كله ما يمكن مقارنته بها ، ولو من بعيد . وهذه المدنيات تستمر اجيالاً متطاولة ، متعاقبة ، حية ناشطة ، دون ان تجدد من شبابها الا ما ندر ، لا تشعر او قلما تشعر بالقوى الجديدة والمؤثرات المطلة من البلدان المجاورة حتى في حال بسط سيطرتها عليها ، فكيف بها تتفتح لمؤثرات بعيدة تعمل بالواسطة ؟ اما مدنيات الشرق الادنى التي هي احدث عهداً مما سبقها على رقعة الشرق عامة ، فهي لا تقتبس ولا تأخذ الا مما تقدمها من المدنيات الغابرة . فليس في الغرب المتأخر في نظرها ما يدعو للقبس والتقليد .

فالمدنية اليونانية بنوع خاص ، لا ترى في الاقطار الواقعة منها الى الغرب ، سوى اراض

تصلح للاستعمار والاستثمار ، تقع عليها كلما سنحت منها الظروف ومكنت لها صروف الدهر ، فترسل اليها الجوالي في اثر الجوالي بالعدد الكافي ، والا قنعت منها باستغلالها تجاريا بالحصول على محاصيل الارض فيها،او بجعلها سوقاً تنفق فيها مصنوعاتها وما تحمله اليها من سلع وخرضاوات. وما عدا ذلك ، فلا ترى في هذه الاقطار شيئاً يستحق الاهتمام له او المحافظة عليه ، فهي بالفعل لا تأخذ شيئاً منها . فهذا الشرق المترامي الاطراف ، المتعدد الثروات ، المحير العقول بما بلغت اليه حضاراته من الرفاه والنعمى ، الآخذ بمجامع القلوب بما حقق من انجازات جبارة، والمسيطر على العقول بما بلغت فيه الاديان من العقائد ومناسك العبادة والاحتفالات السامية،والذي يفرض الاحترام لشدة اطلاعه على اسرار الطبيعة ومعمياتها،هذا الشرق، عرف منذ عهد بعيد ان يشبع ما في الاغريق من عطش الى المعرفة ، ومن توق شديد الى الاطلاع على الحضارات الاجنبية . فاي داع بعد هذا ، يحفزهم لعمري ، على الاقتباس من قرطاجة مثلاً ، بينما تكون صور على قيد بضع مراحل منهم ؟ وتروي بعض المصادر التاريخية ان الاسكندر الكبير ، كان يختمر ، قبل وفاته بقليل، فكرة القيام بحملة واسعة تحمله ورجاله ، بحركة التفاف حول القارة الافريقية او عن طريق مصر وقرطاجة ، الى اعمدة هرقل (جبل طارق) ليعود منها الى اليونان عبر شبه إيبيريا (اسبانيا) وغاليا (فرنسا) وايطاليا . فلو صح الحلم واستطاع العاهل المقدوني تحقيق معالم هذه الصورة الجغرافية التي ارتسمت في ذهنه وطالما راودت خياله الجموح ، لعاد ذلك على الحضارة الهلينية بخصائص ومميزات غير التي طبعتها ففردتها. فلو كان هنالك امرؤ ما ، يستطيع الكشف عن افكار مخبوءة يمكن الانتفاع بها في الغرب المحشوشن،لكان هو الاسكندر نفسه الذي عرف ان يكشف ما خفي من مخبوءات الفكر والعلم والثقافة حينما اجتاحت جحافله بلاد ايران الشاسعة . الا ان خلفاءه الذين لم يكن بينهم من يدانيه ، من بعيد او قريب ، نبوغاً حربياً ولا ثقافياً، قبعوا خاملين في الاراضي التي دوخها لهم ، واستكانوا الى ما قيضت لهم الاقدار من ملك وسلطان ، فاقتصرت الحضارة الهلينية على التمكين للروابط التي اقامتهــــا من قبل الحضارة الاغريقية في دوريها البارزين من تاريخها القديم والكلاسيكي المتيد .

تأثير الشرق المتوسط على الغرب

غير ان عدم الاخذ لا يمنع العطاء. وبالفعل هنالك عدد من مدنيات الشرق الادنى امدت او، بالاحرى ، شجعت المدنيـــات الغربية الناشئة ، على الاخذ والقبس . فقد قامت في افريقيا تجاه المضيق الذي يفصل بين حوضي البحر المتوسط ، مدينة قرطاجة ، احدى انشاءات مدينة صور . والوجود الاغريقي الذي قام في الغرب ممثلاً بهذا العديد من المستعمرات اليونانية التي ازدهرت في جنوبي ايطاليا وجزيرة صقلية ، تبلور عن كتلة من الجوالي اليونانية زخرت حيوية ونشاطاً ، كما قدّم العديد من هــذه الجوالي اليونانية في جنوبي غاليا وغربي اسبانيا وجنوبيها . فالشرق السامي والايجي بعث الى الغرب بجاليات اخذت تنتظم على شاكلة المدن الام التي انشطرت عنها ، واقتصرت في تكيفها بالمحيط الجديد على الحد الادنى . الا ان هذه المجتمعات الناشئة في تربة جديدة وبيئات جديدة، أثرت

عميقاً بسلكها وتصرفها ، في غير جهد ولا عناء ، على الشعوب التي عاشت بينها ، وذلك بما كان الحضارة التي تحملها وتتمم بها من سمو وعلو شأن ، فنشرت حولها شيئاً من النظم السياسية والاقتصادية ، التي كانت تأخذ بها وتعتمدها في عيشها ، كما نشرت الكثير من الاعتقادات والافكار والاذواق والاعراف التي قال بها سكان هذه المستعمرات وساروا عليها .

وقد حدث الى جانب هذا كله ، بفضل هذه الجوالي اليونانية ، تأثيرات تمت بالمداورة ، اي بمعزل عن وجود ممثلي هذه المدنيات، اذ قام الاغريق والقرطاجيون بدور السماسرة . وبواسطتهم عرف سكان الغرب ، اذ ذاك ، وجهاً من وجوه الشرق اكثر انطواءً من المألوف، واقل تعبيراً . وليس من الضروري القول مع القائلين ان الاتروسك جيل جاء اصلاً من آسيا الصغرى ، لندرك كيف ان الفن الاتروسكي ، كصنوه الفن الاغريقي القديم ، مر بدور « متشرق » .

والحق يقال ان هذين العاملين ليسا على قدم واحد من المساواة . فالواحد منهما يستخف بالفعل، بالآخر ويزدريه حتى في الحالات التي تقبس فيها مدنيات الشرق الاوسط من الغرب . فجذورها لا تُغرِق ولا توغل الا في تربة شرقية . فهي لا تختار نماذجها ولا تتخير عناصرها المقومة الا من الشرق . والامر الذي لا يُمارى فيه قط ان بعض هذه المدنيات الشرقية تتطور بخطى حثيثة قلما عرفت مدنيات الغرب مثلها ، بعد ان عرفت كيف تفيد من ظروف اكثر ملاءمة، ومن التقدم الذي حققته المدنيات التي سبقتها الى الوجود في سلم الحضارة ومضمار الحياة. وهكذا قدمت هذه المدنيات للعالم البعيد عنها نماذج يستلهمها، وصوراً يترسمها وينسج على منوالها عندما يستيقظ عنده الوعي وتستشري فيه الحياة وتندفع نحو الخلق والابداع. ففي الحين الذي افرغت فيه المدنية الهلينية ، في بوتقة واحدة ، الاختبارات التي جمعتها وألفت بين المثل التي اخذتها عن بلدان الشرق الادنى، عمدت الى صهر هذا كله في إلفة مثالية كان لها من شديد الوقع ما سحر مدنيات الغرب الناشئة، فراحت تتكيف به وتتأثر معه بعيداً ، حتى عندما رأت الحد من هذا التأثير ، والصمود له والوقوف في وجهه .

ومع ذلك إياناً والمغالاة . فالكلام عن شرق رائد وغرب سائر في ركابه ، وعن شرق مهذّب معلّم ، وغرب متتلمذ له ومقتبس منه ، يذهب بالكثير من مفارقات المعنى ، والمدلول. فالغرب لن يفقد أصالته في هذا القبس ، بل الامر على عكس ذلك تماماً . فبعد ان دقت هذه الاصالة طويلاً واسترقت ، راحت هذه المدنيات تعيد منها صلابة العود، عندما دب اليها رسيس الحياة وجاش فيها النشاط من جديد، في مطلع العهد المسيحي ، الى ان قضت الاقدار على هذين العالمين بالانفصال والسير كل منهما في اتجاه مستقل معاكس . فالى هذا التاريخ كانت حركة القبس ناشطة باستمرار ، ولا سيما في الحقل الثقافي . ففي هذه الملاحظة كفاية لتبرير الفارق الزمني البدائي بين المجلد الاول والثاني من مجلدات هذه الموسوعة التاريخية . فقبل قيام الامبراطورية الرومانية ، كانت مدنيات الشرق الادنى ، تكتفي نفسها بنفسها ، وتتعارف فيما بينها وتتفاهم

قبل ان تتعرف الى مدنيات الغرب ، الا ان العكس لا يصح مطلقاً . فعبثاً نحاول فهم مدنيات الغرب ما لم ندرس مدنيات الشرق ونطلع عن كثب ، على تاريخها المجيد .

وحدة سابقة لاوانها في الشرق الادنى وانقسام مستمر في الغرب

من المفارقات القائمة بين الشرق والغرب مفارقة لا ترتبط بشيء بالسابقة ، اذ ليس ما يرغم المجتمعات الغربية ولا ما يجبر المدنيات على التطور والسير بها نحو الوحدة . ففي اواخر القرن الرابع ومطلع القرن الثالث قبل الميلاد، استطاع الاسكندر إنشاء وحدة سياسية، حافظ عليها خلفاؤه من بعده ، تألفت مقوماتها من هذه الاقطار التي لعبت شعوبها ، بصورة مباشرة ، فعالة، دوراً بارزاً — وليس عارضاً — في تاريخ الشرق الادنى . وفي ظل هذه الوحدة السياسية برزت مدنية موحـــدة هيمنت على الشرق بكامله وطبعته بطـــابعها . فالشرق الكلاسيكي ، لم يعد مجرد صيغة او صورة من خلق المعلمين ، متقطع الاوصال الجغرافية . فقد اصبح هذا الشرق الواحد حقيقة واقعية ، حية ، نابضة — لها ككل كائن حي ، شوائبها — كما لكل مجتمع بشري قائم، نواقصه . ولهذه الوحدة المتحيزة، من الكمالات ومن الملء، ما يتضاءل حيالها — كل ما قام او عرف من نظائرها في التاريخ، من قبل .

والحال ، فقد شهد الغرب، في هذه الحقبة قيام مدنيات لا يمكن تجاهلها ، او التغاضي عنها . مع ان بعضها شاخ واندثر ، الا ان القوى المبدعة في هذا الغرب لم تنضب يومـــاً ولم تجف ، ولم تصب بالعقم او القحط . فاذا كانت حضارة الاتروسك الزاهرة ، قد غلـفهـــا التاريخ ولفها بقمط النسيان ، مع ان عهدهـــا لا يزال في الخواطر طرياً ، وفي مرأى العين ، لمدنيّة قرطاجة هي الاخرى ، في أبان زهوها وازدهارها، وروما بدورها ، قطعت ، في هذا السبيل شوطاً بعيداً ، بينما يؤلف الغاليون ، من ناحيتهم ، قوة مادية هائلة بالرغم ممـــا يعتورها من قلة التنظيم ، بعثت الفزع والرعب ببطشها وبأسها . وليس مـــا يحول دون بلوغها يومـــاً من الايام التنظيم المرتجى ، فتصبح إذ ذاك ، بالفعل ، بعبعاً يخشى شره . ففي الوقت الذي تمت فيه وحدة الشرق الادنى ، نرى الغرب شتيتاً ، متقطع الاوصال ، موزعاً بين مدنيات متباينة، تفاوتت درجة تطورها ، واختلفت حيويتها باختلاف منطلقها عبر الزمن . فوضع الغرب آنذاك ، شبيه من جميع الوجوه ، بالوضع الذي كان عليه عالم شرقي البحر المتوسط ، قبـل ذلك بنحو ستة او سبعة قرون ، مع انه ليس وراء ماضي الغرب الذي غبر وانقضى ما يمكن مقارنته ، من قريب او من بعيد ، بهذه المدنيّات التي زهت وازدهرت في مصر، وبلاد ما بين النهرين ، وحوض بحر إيجه ، وما بلغته من تفوق عظيم .

وحدة البحر المتوسط لحساب روما

ومع هذا ، وبالرغم من هذا ، فالمستقبل يفترّ عن بسمة عريضة للغرب ، اذ ان الحصيلة الكبرى التي عادت بها الحقبة التاريخية التي ينتظمها القسم الاول من هذا المجلد ، هي إعداد وحدة أشمل واوسع ، بالرغم من عدم

دخول بلاد ما بين النهرين وايران فيها . إلا انها لعمري ، وحدة سياسية لا غير . الا ان الوحدة المدنية او الحضارية لن تتم بالسرعة ذاتها مع ان عوامل اليسر لا تنقصهـا . ولا بد ، والحالة هذه من حدوث واحدة من هاتين الوحدتين ، فيتاح للأخرى ان تخلق لنفسها الأطـُر والملاكات التي لا بدّ منها للتطور والتقدم . فالفتح المظفر المبين الذي حققه الاسكندر من قبل ، مهّد لطلوع المدنية الهلينية . أما الفتح الاكبر الذي قامت به روما فهو الذي مكن من تحقيق الوحدة القوية التي عرَتها الامبراطورية الرومانية في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد .

علينا أن نقول بالحتمية التاريخية ، هنا ، الى الحـــد الأبعد ، الى ما وراء الحدود التي يبلغ اليهـا منطق المؤرخ ، فنقرر ان الغرب كُتِبَ له لعب هذا الدور ، وقـُدِّر له السير في هذا الاتجاه . ومصير كهذا ، هو من فعـل عناصر بشرية ، مختلفة العروق ، بعضها شرقي الاصل والنشأة ، كقرطاجة مثلاً . والغرب في هذا السير المقدور غير مدين لأية هبة أو نعمة مجانية من الطبيعة ، وذلك بمـا ركز فيه من غرائز وخصائص مفرَدة. قد يرد بعضهم بروز الغرب وتجليه وتساميه الى ما فيه من قوى وقدرات ناشطة ، بينما أخذ الشرق يعاني أوصاب الشيخوخة . انها لعمري ، نظرة فاسدة لنشأة الشعوب بناهضها حيناً مائة دليل ، ويجرحهـا احياناً ألف دليل ودليل . ولعل أقربهـا طراً على الاطلاق الى الصواب ، حكاية الفتح الروماني . فمن ألِف هذه الحكاية الى يائها، ومن بابها الى محرابها، للمفاجأة وللغير المتوقع ، دور حاسم . صحيح ان المفاجيء والطاريء وما ليس في الحسبان ، عنصر ملازم لواقع الحرب وللأحلاف العسكرية والسياسية . فاذا ما استعرضنا التفاصيل ونظرنا ملياً في ماجريات التاريخ، وجدنا ان اكثر من حلف واحد، وان اكثر من موقعة حربية واحدة ، كان مصيرهما في كف عفريت او في ضمير القدر المجهول . هنالك أمور تصدم منطق موقعة او معركة حربية صدماً عنيفـاً . فبينما القدر المجهول يكتنف وضعاً حربياً او ظرفاً سياسياً ، ترى الدولة نفسها مرغمة على التدخـل عسكرياً . في اليونان مثلاً أو في آسيا الصغرى ، قبل ان تظهر نتائج الاعمـال الحربية التي تنهض بهـا ضد قبائل اسبانيا والليغوريين الاشداء البأس ، فتنشيء روما ولاية لها من غاليا الجنوبية تشد بهـــا بين أوصال ولاياتها في ايطاليا وبين الفتوحات التي دوختهـــا جيوشها المظفرة في اسبانيا ، من نحو قرن ونصف ، وذلك بعد عدة سنين من انشاء ولاية مقدونيا وآسيا الصغرى . وفي سياسة روما الداخلية منها والخارجية ، على السـواء ، اكثر من مثل نضربه لك ، يريك كيف ان كثيراً من النتائج التي امكن لروما اعتبارها نهائية ، كادت تصبح موضوع شك وتردد ، كما كان من شأنها ان تجعل مستقبل البلاد كله في خطر ماحق. بعد هذا، يصح ان نتساءل: هل كانت الوحدة الرومانية لتتم ؟ ، وبمثل هذه السرعة ؟ ، وعلى مثل هذا النطاق الواسع ؟ ، ولحساب رومـــا بالذات ؟ قد يكون مجازفاً مغروراً من يجيب بالايجاب عن هذه الاسئلة المحرجة .

فالقوى والعوامل الخفية التي تتحكم بمصائر الدول والشعوب ، هي التي جـــاءت بالجواب

القاطع الجازم ، فقدمت لنا صورة لا شبيه لهـا ولا نظير ، من الرقي والتطور الذي بلغته الانسانية في عهد روما ، كان له من النتائج العظيمة الضخمة ما لم يسبق التاريخ ان سجل مثلها او عرف ما يضاهيها .

علينا ان نستعرض تباعاً ، بعد ان عرفنا العناصر الشرقية التي لعبت هنا دورها البارز في هذا المصير ، والعناصر الغربية التي شاركت فيه ، اقوام الاتروسك الذين افاضوا على ايطاليـا بمدنية سطع نجمها عالياً ، وقرطاجة ، هذه المدينة الشرقية النشأة التي انشأها الاستعمار الفينقي في الغرب ، والغاليين الذين هدد تدويخهم بالقضاء على معالم روما الناشئة ، واخيراً روما التي ارست قواعد امبراطوريتها على حوض البحر الابيض المتوسط .

الكتاب الأول

المغلوبون على أمرهم

الفصل الأول

مَدنيّة الأتروسك ETRUSQUES

شعور الانسان وتحسسه بامور السياسة يفوق كثيراً تحسسه واهتمامه بالمسميات الجغرافية. لنأخذ، مثلاً، اغريقياً متوسط الثقافة من معاصري بركليس. فهو يعرف معرفة تامة ان الدول والممالك تنمو وتتطور، ثم تهرم وتشيخ وتنقرض عن وجه الارض. فهو يسلم مقتنعاً ان بالامكان قيام سيطرة على البحر المتوسط قوامها جنود وموظفون اداريون من اصل ايطالي، مثلاً. الا ان صاحبنا هذا يجهل تماماً ان المصطلحات الجغرافية ومدلولاتها عرضة للتبدل والتغير والتطور. فاذا ما قام احدهم وقال له: ان بعد اربعة قرون تطلق كلمة ايطاليا، على شبه الجزيرة التي تقع بين البحر الادرياتيكي والبحر التيريني وجبال الألب، لكان وقع هذا الكلام عليه اشد من وقع الصاعقة. فالاغريق عرفوا هذا المصطلح الجغرافي واستعملوه بعد ان تسلموه من احدى اللهجات المحكية الوطنية المستعملة في هذه الرقعة من الارض، دون ان نعتمد في اثبات ذلك مصدراً اصيلاً نعول عليه ونأتم به. الا أن هيرودوس اطلق هذا اللفظ الجغرافي، لدى استعماله له، على مقاطعة كالابريا، دون سواها. وليس من الصعب ان نتتبع توسع مدلول هذا المصطلح، في المجال اليوناني اولاً، ثم في المجال الروماني، بالنظر لصروف الفتوحات والمؤسسات الرومانية المتتالية. وقبل عهد يوليوس قيصر بقليل، اي بعد منتصف القرن الاول، قبل الميلاد، اطلقت كلمة «ايطاليا» على شبه الجزيرة المعروفة بهذا الاسم اليوم، بما فيها سهل البو *Pô*، حتى حدود جبال الألب.

وهذا التطور في مدلول المصطلح المذكور يمكن اتخاذه رمزاً. ففي الوقت الذي بلغت فيه الحضارة اليونانية اوجها من الازدهار والتجلي، لم تكن ايطاليا بعد «تعبيراً جغرافياً». فقد استوطنتها شعوب وقبائل مختلفة الاصل والعرق، تتكلم لهجات متباينة اصلاً وفصلاً، وتسير على نظم حضارية متباعدة. فالى الحين الذي جعلت روما حقيقة واقعية لهذه البلاد، لم يكن لايطاليا سوى وجود فكري او عقلي، في عرف الاغريق، حتى ان الايطاليين انفسهم الذين لم يكونوا

ليعنوا الا بشؤونهم الخاصة، ليكونوا ليفقهوا الجغرافية بلادهم معنى ولا يرون لها اية وحدة طبيعية.

الا ان شعباً واحداً من شعوب تلك البلاد، لعب دوراً بارزاً في تاريخها. فكل الدلائل تشير الى ان حضارة زاهية قامت فيها وازدهرت، وان فكرة وحدة البلاد او توحيدها قد تكون جالت في خواطر هؤلاء القوم واتجهوا في تحقيقها الاتجاه السوي. فما كان ينطل القرن الرابع قبل الميلاد حتى رأينا الاتروسكيين يخلون مسرح التاريخ ويغيبون عنه الى الابد.

١ - تاريخ ايطاليا القديم

مشكلات غامضة متشابكة

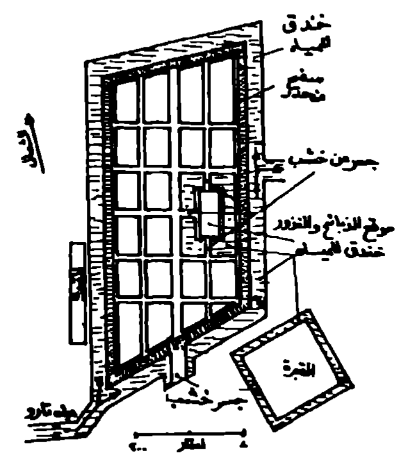
قضية سكان شبه الجزيرة الايطالية وعهد ما قبل التاريخ فيها، هي من الامور التي تثير مشكلة دقيقة ليس هنا مجال البحث فيها طويلاً. فبقطع النظر عن المعلومات الضعيفة الوجيزة، المتضاربة فيما بينها والمستمدة من مؤرخي اليونان، علينا ان نعول هنا على ما يمدنا به علم فقه اللغة وعلم الآثار الايطالية. الا انها معلومات اعجز من ان تزيل الابهام والغموض الذي يكتنف هذه القضية .. ففي الوقت الذي نرجو ان نفيد كثيراً، في المستقبل، من علماء الفيلولوجيا، نرى، على عكس ذلك تماماً، علماء الآثار يزيدون الامور تعقيداً بالآراء المتضاربة التي تثيرها نتائج الحفريات والتنقيبات الاثرية التي يقومون بها والتي بنى على نتائجها العلماء الآمال العريضة. لا مراء انهم عولوا كثيراً على الطقوس الدينية ومناسك العبادة، واتخذوا من مراسم دفن الموتى وحرق جثثهم دليلاً مميزاً لبعض الشعوب ولبعض الحضارات. ولما كنا هنا، والحق يقال، امام جهل فاضح للمناطق والادوار التاريخية المتعاصرة، كان لا بد لنا من ان نقتصر في حديثنا، على العادات المعمول بها، هذه العادات التي تخضع لتقلبات وتغيرات من الصعب تعليلها، وهي تغييرات استمرت حتى بلغت صميم الامبراطورية الرومانية، حيث تغلبت عادة دفن الموتى وساد العمل بها.

فسيفساء عنصرية

والشيء الوحيد الثابت والاكيد معاً، هو تنوع عناصر السكان في البلاد، الامر الذي يحدو بنا النظر اليه نظرة عجلى دون ان نتعرض بكلمة للاتروسك وللقضايا التي يثيرها الوجود الاتروسكي.

نجد الى الشمال الغربي من ايطاليا، والغرب الاوسط من صقلية وجزيرتي كورسكا وسردينيا، عناصر اثنوغرافية قديمة محافظة. ومن الحكمة وحسن الفطن ان ننعتها اجمالاً بـ « شعوب البحر المتوسط ». وبالرغم من المسميات المختلفة التي اطلقت عليها عبر التاريخ القديم، « كالليغوريين » الذي عُرفت به الاقوام التي كانت تحتل، حتى اواسط القرن السادس قبل الميلاد، منطقة اوسع بكثير من المقاطعة المعروفة اليوم بمقاطعة « ليغوريا » اذ كانت تشمل جانباً كبيراً من ايطاليا الشمالية حتى حدود جبال الألب، يبدو من الراجح، ان هنالك وشائج عرقية بين هذه الاقوام و « الايباريين » دون ان يتمكن علماء اللغات الذين يعنون بدراسة الاسماء، من الوصول الى نتائج تحوز الاجماع.

وهذه الجماعة البشرية التي هي ولا شك، اقدم العروق البشرية التي أهلت بها ايطاليا، لا بد ان تكون اكتسحت ايطاليا برمتها . والظاهر انها اضطرت الى الانطواء على نفسها والانكماش الى الغرب امام ضغط الهند الاوروبيين الذين كانوا يسيطرون : على الشمال الشرقي والقسم الاوسط، والجنوب، من شبه الجزيرة الايطالية ، كما سيطروا على النصف الشرقي من جزيرة صقلية . وقد اصطلح المؤرخون على تسمية هؤلاء القادمين بـ « الايطاليك »، بالنظر لاتساع رقعة سلطانهم . فالهند الاوروبيون ، مصطلح فيلولوجي او ألسُني، يتميزون عن اسلافهم الذين حلوا محلهم ، بالوشائج التي كانت تشد اللهجات التي كانوا يحكونها . فبدلاً من ان يكوّنوا كلاً متجانساً، الفوا عدداً من البطون والافخاذ ، بينهم : الفينت ، والأمبريون ، والسابنز واللاتين والسمنيين وغيرهم . ونرى هؤلاء الاقوام في اواخر الألف الثاني ، يستقرون نهائياً حيث نجدهم منذ ظهور الطور التاريخي، الا انهم دخلوا ايطاليا بموجات متتالية ولربما دخلوها من نواح متعددة . وبعض هذه القبائل استقرت على الساحل الشرقي، بينها وبين الايليّريين اواصر متينة تحملنا على الاعتقاد انها انما جاءت عبر البحر الادرياتيكي . ويدور جدل بين المؤرخين ، حول ما اذا كان دخل البلاد، من الطريق ذاته، اقوام اخرى، وما عسى ان تكون ، ولربما دخلوها من الشمال عبر مقاطعة فريول ، او من الشمال، عبر جبال الألب .



الشكل ١ ـ مخطط تيرامارية دوكستيلازو دي فونتنلاتو في ولاية بارما ، وفقاً الحفريات التي جرت في اواخر القرن التاسع عشر والتي يتضارب العلماء اليوم رأياً في تعريلهم عليها.

والى جانب هذه العناصر البارزة من سكان البحر المتوسط، والايطاليك، انضمت فيما بعد اقوام اغراب غزت البلاد بعد حين . ويرى المؤرخ اليوناني توسيذيدس ان قبائل « الأليم » ، التي استقرت الى الغرب من جزيرة صقلية هي اقوام أسيوية هاجرت اليها بعد حروب طروادة وسقوط إلـيُـون. وعلى السواحل الشمالية والغربية من صقلية انشأ الفينيقيون مستعمرات صار امرها فيما بعد، الى ذراريهم من القرطاجيين ، منها مثلاً : بانورموس (باليرمو) . ومنذ القرن الثامن ، اخذ الاغريق ينشئون مستعمرات لهم ومدناً على سواحل ايطاليا الجنوبية التي عرفت فيما بعد باسم «اليونان الكبرى» وذلك في شقة من البلاد امتدت من مدينة كوم شمالاً، الى مضيق أوترانت جنوباً ، كما انشأوا مدناً عديدة لهم على ساحل جزيرة صقلية الشرقي والجنوبي، ثم جاءت قبائل غالية استقرت افخاذها في سهل نهر البو .

اولى هذه الحضارات حضارة التيرامار

كم كنا نتمنى لو نستطيع تحديد كل من هذه الحضارات التي انشأتها كل من هذه الشعوب. ولما كانت هذه الشعوب لم تعش منعزلة، فقد خضعت لمؤثرات شتى تداخلت وتشابكت بعضاً ببعض، يصعب تحديدها وتبيين مقوماتها، اعاقت تطورها الداخلي واخرته. فبدلاً من ان تساعد الحفريات الاثرية على إلقاء اضواء كاشفة، زادت الامور تعقيداً بما أثارته من مجادلات ونظريات متضاربة. وهنا ايضاً، علينا ان نقنع بعد الكثير من التضحيات، ببعض امثلة نسوقها نموذجاً دون ان نحاول عبثاً رسم توافق دقيق بين شعب معين من هذه الشعوب وبين الحضارة التي انشأها.

يتميز تاريخ ايطاليا، في العصر الحجري الجديد، بإقبال الناس على النحاس الامر الذي دعا المؤرخين الى نعت هذه الحقبة بالعهد الحجري النحاسي. ولم يبزغ مطلع الألف الثاني حتى برز معه استعمال الشبهان فاتاح ظهور ما يسميه المؤرخون بحضارة التيرامار (اي التربة الغُضارية) التي تتميز باستعمال الانسان للاوتاد المنصوبة في بطن التربة لتقويتها وتدعيم الاكواخ المصنوعة من الطين، تقليداً او تشبهاً بالدعائم المائية المنصوبة في البحيرات. وتوصل العلماء في اواخر القرن التاسع عشر الى الكشف، في بعض الاماكن، عن تخطيط رتيب لبيوت السكن – وهي نظرية يتنكر لها العلم اليوم – يحيط بها من الخارج خندق وسفح منحدر يستدير حولها، مع تبليط للشوارع وايجاد ساحة او باحة للاجتماعات العامة، واقامة مراسم العبادة عليها.

وكان ممثلو هذه الحضارة يعتمدون في اقامة هذه الانشاءات، على الفؤوس والمناجل والمقاشط والسيوف. وازدهرت حضارتهم في سهول لمبرديا، وفي الجنوب من سهل البو. ويرى البعض ان هذه الحضارة نقلها فاتحون غزوا البلاد من الشمال. إلا ان غيرهم يرى، بعد ان شهدوا معالم حضارات اخرى من العصر الشبهاني في ايطاليا، ولا سيما معالم الحضارة الابنينية (نسبة الى جبال الابنين *Apennin*) بأنها حضارة محلية يبرز فيها بوضوح الطابع الغربيني قامت في سهل يخترقه العديد من الانهر التي تردفه باستمرار بالرواسب والطمي.

الحضارات الفيلانوفية

ثار مثل هذا الجدل بين العلماء، حول تباين معالم الحضارات الحديدية التي قامت في مطلع الألف الاول قبل الميلاد. فراح البعض يردها الى شعوب وقبائل جديدة، مستشهدين على ذلك بعدم عثورهم على دور وسيط من البرونز، كما هي الحال مثلاً في مقاطعة اللاتيوم، أو بروز مفاجيء لعنصر الحديد. وقد لوحظ ان هنالك اماكن تم فيها الانتقال من معدن الى آخر ببطء كليّ، انما باستمرار موصول، الأمر الذي يتنافى مع افتراض غزو جديد.

ولعل ابرز الحضارات الحديدية واظهرها على الاطلاق، هذه الحضارة المعروفة بـ « الحضارة الفيلانوفية » نسبة لموقع يقع على بعد ٨ كلم من مدينة بولونيا. ولعل النموذج الذي يمثل هذه الحضارة خير تمثيل هو جرة العظام المخروطية الشكل المزدوجة، وهي تتألف اصلاً من وعائين من الخزف مقفلين من الاسفل. والغالب في صناعة خزفيات هذه الحقبة، ان الجرة تصنع احياناً من البرونز او الشبهان. فمع ان هذه الحضارة عرفت الحديد وتدبرته واستعملته، فقد آثرت

عليه الشبهان ، فاقبلت على استخدامه والتعويل عليه بعد ان تفننت في طرقه وترقيقه. والشاهد على استعماله بكثرة وشدة الاقبال عليه ، هذه الارقــام الثلاثة نذكرها هنا . فقد كشفت حفريات قامت بالقرب من بولونيا ٤٠٧٣ فأساً و ١٠٧٦٨ اداة اخرى ، كلها من الشبهان ، بزن مجموعها ١٤١٨ كيلوغراماً . وهــذه الحضارة قامت وازدهرت في اواخر القرن التاسع قبل الميلاد ، ثم اخذت تتطور حتى اواخر القرن السادس ، منتشرة في جميع انحاء ايطاليا الشمالية ، الامر الذي حدا ببعض علماء الآثار الى اعتبارها حضارة شمالية ،فردوها الى حضارة «التيرامار» وحضارة ايطاليا الوسطى . فليس بينها وبين حضارة الاتروسك التي انبعثت عنها أي تقاطع .

بعض مميزات الحضارات الايطالية

وهكذا برزت امامنا الحضارة الفيلانوفية التي تفضي بنــا الى الحقبة التاريخيــة فنلجها على مصراعيها . وكذلك قل عن الحضارات الحديدية الاخرى التي تتجلى امامنا ، من وقت لآخر بمعالم مختلفة، متباينة. اما سماتها الخارجية فقلما تبرز لنا واضحة ، جلية الا في حالتين لا غير .

تبدو الاولى في هذا العرف المتبع، المعروف «بالربيع المقدس» وهي عادة درج الناس على اتباعها في الازمات الشديدة وايام الضيق، اذ ينذرون فيها للآلهة، مواليد الناس والحيوانات الأليفة التي تولد خلال فصل الربيع الطالع. ووفاء النذر كان مدعاة ، كما هو مظنون ، لعــادة الذبيحة وتقديم القرابين . انما كان يجري استبدال الذبيحة بفكاك الجيل المولود اثناء الربيع المقدس ؛ وفصله خارجاً عن القوم، عند بلوغه الرشد وطرده خارج القبيلة، وقطع كل صلة له بها. وكان من جراء الاخذ بهذه العادة ان طلعت جاليات صممت على شق طريقها الى الحياة واقتطاع محل لهــا تحت الشمس ، مهما كلفها الامر . فقد عُمل بهذه العادة في ايطاليــا بين قبائل السمنيوم الجبليين وبين السابنز ، ومنهم امتدت الى الرومانيين فاقتبسوها، وعملوا بها على نطاق ضيق حتى القرن الثاني قبل الميلاد ، فاننا نجدها مرعية الاجراء عند الكلتيين في اوروبا الوسطى . ولذا لا بد من القول بوجود عادة من هذا النوع غلب الاخذ بها عند بعض الاقوام الهند الاوروبية .

ويستدل من كتابة اثرية مرقومة على احد الاعمدة المحيطة بـ « جندي كابسترانو » ليس هنا مجال الاستطراد في شرحها وتفصيلها، ان سكان البلاد الأصليين كانوا يعرفون الكتابة ويجيدونها في الوقت الذي تم فيه نحت هذا التمثال، في النصف الثــاني من القرن السادس ، وهي كتابة اخذت ابجديتها من الابجدية اليونانية . ويكشف لنا هذا التصوير البدائي الجــاف ، ولو من بعيد ، وبشكل ملموس، تأثره بالفن الاغريقي القديم.ففي كلا الحالتين نرى المدنية الهلينية بحاجة ماسة للاتروسكيين لتنتقل بواسطتهم الى قلب شبه الجزيرة الايطالية . ومهما يكن من الامر ، فلا بد من ان ننعم النظر ملياً في الاثر الذي خلفته وراءهــا حضارات شرق البحر المتوسط في سكان ايطاليــا .

حضارات شرقي البحر المتوسط وايطاليــا

قامت منذ عهد بعيد علاقات وطيدة متنوعــة ، بين طرفي البحر المتوسط . فان لم تترك حضارة كريت القديمة اثرها في صقليــة ، فقد خلفت فيها تجارة المينيين بعض المعالم . وتزعم بعض الاساطير

الاغريقية ان الملك مينوس، لقي حتفه في صقلية ، عندما كان يقوم بحملة حربية عليها . والفينيقيون انفسهم نقلوا الى شواطىء البحر المتوسط الغربية ، مع ما نقلوا من محاصيل الشرق ، منتوجات صناعاتهم التي حرصوا على تنفيقها وبيعها من سكان تلك الاقطار النائية . والتطور التقني الذي عرفته المدنيات الايطالية في العصر الشبهاني يبقى سراً مغلقاً واحجية محيرة لولا تأثر هذه المدنيات بصناعات الشرق . وزاد اثر هذه العوامل عمقاً عندما راح القرطاجيون والاغريق ببسط نفوذهم على تلك الشواطىء، بما اسسوا عليها من مستعمرات وما انشأوا فيها من جاليـات ، فنشطت بالتالي المبادلات والمقايضات التجارية ، وراح سكان ايطاليا في الجنوب والوسط ، يقبسون ، اسوة بالاتروسكيين، وعلى نطاق واسع ، من حضارات الشرق ، فتزداد طاقات مدنيتهم خلقاً وابداعاً . الا انهم نقلوا عن الاغريق اكثر مما اخذوا من القرطاجيين الذين اقتصر دورهم على النقل والسمسرة. وقد اخذوا بروعة الفن الروماني الذي اثر فيهم عميقاً وهيأهم لاقتبال المؤثرات الدينية . ففي الابجديات الايطالية شهادة عدل ودليل ساطع على بعد غور الاثر الاغريقي فيها . فعبرت الابجدية الفينيقية اليهم عن طريق الابجدية اليونانية . ومهما يكن من ضخامة هـذه الاقتباسات واتساعها فقلما بلغت حد التمثيل والاستمراء . جـاء القرطاجيون والاغريق بمدنيات تفوق بكثير الحضارات الوطنية التي تفتحت براعمها في ايطاليا قديمـاً ، وقد هزتهم مشاعرهم الوطنية فأبوا ان يرعوها ويخلصوا لها السعي الحيد لتأمين إشعاعها، شاهد على ذلك، عدم اكتراثهم بهذه المؤثرات واللقاحات التي تبدى خطها الدقيق لبـاحثين عنيدين ، ورفضوا ان يبذلوا اي جهد في سبيل نشر هذه المدنيات مؤثرين ابقـاء البرابرة في جهلهم يعمهون، ليسهل استمالهم شغيلة وسَخَرة . والحق يقال ان وجودهم في صقلية لم يبق دون اثر . فقـد راح السكان البـدائيون في غربي هذه الجزيرة ، ولا سيما قبـائل الأليم بينهم، وهم أسيويو الجذر، يخضعون في بادىء الامر ، لمؤثرات الحضارة البونيقية ، ثم لم يلبثوا بعـد لأي من الزمن ، ان تأغرقوا ، اسوة بسكان شرقي الجزيرة . ومرد هـذا المسلك ينهجونه، انعزالهم في جزيرتهم، وإقبالهم طوعاً واختياراً ، على مشاركة الاغريق والقرطاجيين ، الحروب التي قاموا بها ، ضد غزاة اغراب . ونشهد شيئاً من هذا يتم في شبه الجزيرة الايطالية . فبقطع النظر عن الاتروسك الذين اشتهروا بمنافستهم للاغريق وبعدائهم الشديد لهم ، لم نر شعبـاً واحـداً بين الشعوب الايطالية يتنكر للغته الام او للغته القومية ، كما اننا لا نرى شعباً واحداً منهم، يتنكر لمنظماته الاجتماعية ونظمه الدينية والعقائدية، ويجحد الروح الوطنية فيه . فلم تصبح ايطاليا يوماً بالنسبة للاغريق، ما كانت لهم آسيا الصغرى من قبل .

المخاطر المستعمرات اليونانية

ولذا تم المقدور ووقع ما لا بد من وقوعه دون ان يترك ذلك على قرطاجة نفسها اي اثر يذكر ، ما لم تكن انشأت لهـا موطىء قدم في شبه الجزيرة الايطاليـة . فلم يلبث اغريق اليونان الكبرى ان تعرضوا لضغط شديد من قبل الايطاليك . فبعد غلبتهم على الاتروسك رأوا انفسهم وجهاً لوجه مع الشعوب القاطنـة الى

الجنوب من سلسلة جبال الابنين ، الذين اشتد منهم الساعد وقويت شوكتهم وأصبحوا مفزعة لجيرانهم ، اثر النجاح الذي لاقوه ضد الاغريق من سكان صقلية . فبعد ان عملوا مرتزقة في جيوش الاغريق ، انتظموا كتائب مدربة استطاعت ان تملي ارادتها على أسيادها . فقد قام مرتزقة المامرتين – عبدة الاله مامرتوس (اله الحرب مارس) بنهب مدينة مسينا ، عام ٢٨٨ ، واتخذوا منها دار سكنى لهم . وكان هؤلاء المرتزقة ، على الغالب ، من قبائل السمنيين ، جاؤوا صقلية في خدمة سيراقوزة والعمل في جيشها . وكانت مدينة تارنت تعاني ، اذ ذاك ، الامرين من عنفوان جيرانها وعنتهم ومطامعهم العريضة ومعاملاتهم السيئة . وهكذا بدت المستعمرات والجوالي الاغريقية في الغرب، أدنى من قاب قوسين الى الزوال والاضمحلال، بعد ان ضعف شأنها في ايطاليا من جراء الحروب الضروس التي خاضت غمارها في صقلية ضد قرطاجة من جهة، وخلال المنازعات الدامية التي أقامت هذه المستعمرات وأقعدتها بعضاً على بعض ، فأنهكتها وجعلتها لقمة سائغة في فم روما ، فبسطت عليها بعد حروب طويلة ، سيطرتها المتقذة وسلامها المنعش .

وقد عرفت هذه الجوالي الاغريقية عهداً يذكر من الازدهار السياسي والثقافي ، فساهمت في القرن السادس، بصورة مجدية، باعلاء ونشر الحضارة الهلينية من الوجهتين الفنية والفكرية. ففي مطلع الجيل الخامس قبل الميلاد ، إبان حكم آل دايمونيذس ، وخلال القرن الرابع أثناء ولاية دنيسوس القديم، استطاعت سيراقوزة ان تنشىء لها نوعاً من الامبراطورية المهيبة الجانب. إلا ان طلائع الانحطاط تفشت في هذه الجوالي ، منذ منتصف القرن الرابع . بالحقيقة ان كل شيء أغرى الاغريق بآسيا : حضاراتها القديمة ، وكنوزها المكتوزة ، والماضي السحيق للمستعمرات التي أنشأوها على سواحل البحر وكثرة الجزر المتناثرة حباتها في بحر إيجه . استطاعت كورنثس ان تنشىء مدينة سيراقوزة في صقلية ، التي بلغت من بعد الشأو وخطر الشأن ما جعل اثينا ترنو اليها ، الفينة بعد الفينة ، باشتهاء . إلا ان قيام الحواضر الاغريقية المغرية على السواحل المطلة من الشرق ، على بحر إيجه ، بينما سواحل اليونان الغربية بقيت عطلاً منها ، لم يكن من فعل القدر الغاشم ، ولا كان جنبها القوي من فعل الخيال . فاستمر الاغريق في تشوفهم الآمر اليها ، وفي تطلعهم نحو الشرق، بعد ان ساهموا ، من حيث لا يشعرون ، ببعث اليقظة ونشر الوعي القومي في ايطاليا ، وعملوا على تحريك القوى والقدرات الكامنة فيها ، وهي قوى وطاقات لم تلبث ان عملت ضدهم وانتصبت في وجههم .

٢ ـــ الاتروسك

كان باستطاعة القدر ان يضع بأسرع مما فعل ، حداً لمصير الاغريق في الغرب ، اذ لم يبلغ تأثيرهم على شعوب ايطاليا ما بلغه من العمق على الاتروسك . فلما ان اشتد منهم الساعد حتى أصبحوا خطراً يتهدد الاغريق فينذرهم بشر مستطير لم تساعد على دفعه وتحويله عنهم، ظروف طارئة . حرصنا حتى الآن على ألا نستفيض بحثاً عن الاتروسك وان لا نتعرض لهم إلا لماماً .

فقد بلغت المدنية التي أنشأوها شأواً عالياً من الازدهار برّت كثيراً ما قام من أمثالها في ايطاليا قديماً . بحيث لا مندوحة لنا الآن من درس هذه المدنية بتبسط .

مصادر البحث

لا بد لنا ان نبين هنا ، حدود المصادر التي يمكن الركون اليها والاعتماد عليها لدراسة تاريخ الاتروسك . فهي من النقص والفقر بحيث توجب التحفظ الذي لزمناه في بحثنا هذا واخذنا النفس به .

اهتم الاغريق والرومانيون بدرس تاريخ الاتروسك والمدنيـــة العظيمة التي خلفوها، فخصوهم بأبحاث هامة لجتزىء منها بذكر مصدرين لأصحابها شهرة واسعة، اولهما ارسطو الذي لم يغفل عن ان يخص الاتروسك بدراسة واسعة بين الشعوب المائـة والثامنة والخمسين التي تعرض لذكرها ، فخص أنظمتهم السياسية بدراسة طويلة . اما الثاني منهما فهو الامبراطور كليوديوس الذي وضع كتابه الموسوم . « حول التيرنيين » وهو كتاب يقع في ٢٠ جزء . إلا ان هذه المصادر كغيرها من الوثائق الأخرى القديمة ، عبثت بها أيدي الدهر وأطاحت بها ، ولم يبقَ مما يتعلق منهـــا بمدنية الاتروسك الزاهيـــة التي تعد أزهى وأزهر ما اطلعت ايطاليا القديمة من مدنيات، سوى نتف مبعثرة متقطعة الأوصال .

اما الوثائق الاتروسكية الاصيلة ، فهي ، على وفرتها ، لا تبل غلة ، لعدم استوائها من جهة، ولافتقارها للدقة المرجوة من جهة اخرى . فهي تتمثل بهذه الآثار العديدة التي عثر عليهـــا الباحثون والمنقبون ، وسوادها الاكبر من القبريات ، بعـــد ان اقبل علماء الآثار على نبش قبور القوم التي كانت تغص بالحوائج المنزلية ، اكثر من اقبالهم على التنقيب بين معـــالم المدن التي استوطنوها وعمروها . وبذلك اعادوا الى النور نماذج من حياة هذا الشعب في معتقداته ومناسك عبادته، وكشفوا بالتالي عما جال في خلدهم من افكار وآراء. والجانب الآخر من هـذه الوثائق التي تعود علينا بمعلومات اوثق واوسع، هي الوثائق المكتوبة، وهي كثيرة متعددة. منهـــا لفائف وعصـائب من الكتان لمومياء مصرية محفوظة اليوم في احد متاحف زغرب ، من اعمـــال يوغوسلافيا، تحمل بضعة عشرة آلاف من الرقُم، معظمهـــا من الرقم الجنائزية والنذرية . وقد امكن قراءة هذه الكتابات بيسر لأن الابجدية الاتروسكية مستمدة من الابجـــدية الاغريقية . ولكن فك الحرف او قراءته لا يكفي وحده لتفهم النص. وبالرغم من ترجمة نحو من ٣١ كلمة هي من نُقل الاقدمين ، وبالرغم من عثور المنقبين على بعض كتابات ثنائية اللسان مكتوبة بالاتروسكية واللاتينية، وبالرغم ايضاً من الجهود الطائلة التي بذلها فريق مجرب من علماء اللغات، لا تزال اللغة الاتروسكية للآن طلسماً وأحجية غامضة وسراً مغلقاً. ولذا لم يستطع العلمـاء ان يستخرجوا شيئاً هاماً من هذه النصوص باستثناء تسميات بعض الآلهة وبعض الاشخاص . وهذا الوضع المؤسف يوضح لنا بجلاء كم هي حدسية، النتائج التي توصل اليها علم الفيلولوجيا الاتروسكية .

قصة منشأ هذا الشعب

من هم الاتروسك ؟ هذا الشعب الذي كان يسمي نفسه : «راسنا» وبهذا الاسم عرفه الإغريق والايطاليون . فالكلمة منحولة من الجـــذر :

« تورس Turs » الذي نجهل منه المعنى الصحيح . وهذا الجذر يبرز في الكلمات : Tyrsenoi و Tyrrhenoi· وهذه الكلمة لا تزال خبية في الاصطلاح الجغرافي المعروف « بالبحر التيريني » . والجذر « Tusci » الذي يظهر في كلمة توسكانا Toscana و Etrusci . والتنويه بهــذا كله في مطلع هذا البحث يبرز جلياً الشك الذي يعتور معلوماتنا حول هذا الشعب .

فالاجوبة عن هذا السؤال المربك يمكن ردها الى ثلاثة ، إثنان منها عرضا بوضوح ، منـذ التاريخ القديم . فقد راح بعضهم ينسب الاتروسك الى شعوب شمالي أوروبا ، ممن دخلوا البلاد عبر هذا القسم من جبـــال الألب المعروفة : بالألب الرّتيك . والبعض الاخرى يرى مـــع القدامى من المؤرخين ان الاتروسك غزاة فاتحون خرجوا من آسيا الصغرى واستقروا بعد تطواف في ارجاء شتى من البحر المتوسط حيث حطوا رحـــالهم، وذلك ربما في اواخر القرن الثالث او مطلع الالف الاول قبل الميلاد . من البديهي الا يكون بين اصحاب هذين الرأيين من يفترض فناء جذرياً او جلاء كاملاً للشعب او الشعوب الذين استباحوا باحته ، اذ ان غزواً يأتي من البحر لا يمكن ان يزحزح او يقتلع امامه سوى عدد محــــدود من السكان ؛ ففرض الغزاة عندما استقر لهم الامر ، على القسم المغلوب على امره ، نظامهم السياسي ولسانهم وعاداتهم . ويرى فريق ثالث ان طلوع المدنية الاتروسكية وازدهارها انمــــا هو حصيلة تطور وتدرج من الداخل بينما اخذت المدنيات الاقليمية او المحلية القائمة على سواحل البلاد، تتدرج وئيداً وتتطور الهوينا، بفضل اتصالاتها البحرية باقوام البحر المتوسط الشرقي ، مستغلة ما تفيضــه عليهم التربة من الخامات المعدنية كالحديد والنحاس . فالاتروسك ، والحالة هذه ، انما هم اصيلون بقدر مـــا يمكن نعت شعوب ايطاليا قديماً بهذا الوصف ، وليسوا مطلقاً غزاة طوارىء اغتصبوا البلاد في بداءة التاريخ في شبه الجزيرة الايطالية والحقب التاريخية التي تلتها .

فكل الدلائل ، من اي نوع كانت : اثرية او لغوية ، ومن اي مصدر جــــاءت : ايطالية بالطبـع، او شمالية او إيجية او اسيوية حتى ومصرية، مما استشهد به المؤرخون في معرض بحثهم هذه القضية التي سلست مقاليدها بعد القرن الثاني للميلاد ، ثم عاد فارتفع الجدل حولها من جديد في القرن الثامن عشر وما بعده ، عقب العثور على النماذج البديعة التي خلفها الفن الاتروسكي ، لا يمكن استعراضها هنا جميعاً ولا يفيد عرضها شيئاً . والقول بان اكثرية علماء العصر يأخذون بالنظرية التي تُغلّب الاصل الشرقي للاتروسك وترجحه ، لا يوجب الاقناع ولا يلزم الاخذ به ، اذ ان معضلات من هذا النوع لا تُحل بالاقتراع وعد الاصوات . فهنالك اليوم علماء بارزون يتبنون هذا او ذاك من الرأيين المعارضين لنظريتنا هذه . فمن الافضل ، والحالة هذه ، الوقوف الى جانب هذه الملاحظة مع العلم ان الوضع الحالي الذي تدعمه الاكتشافــات الاثرية والمناقشات العلمية ، والبراهين التي تؤيد المنبت الشرقي للاتروسك ، تبدو ، بالنسبة لغيرها ، اكثر انسجاماً واقل عرضة للجرح من سواها. اما القول باكثر من هذا ، والذهاب الى ابعدمنه ، ففيه عنت وفيه تغرير وتعلّة بالمستحيل ، اذ ليس في هذه الحجج ما فيــه القطع او الجزم نفياً او إثباتاً .

ومما لا مراء فيه هو ان الموقف الصحيح هو الاعتصام بالنفي ، ولو من اضعف الايمان ، تجـاه الزعم القائل ان لغـة الاتروسك ليست لغة هند اوروبية .

قوة الاتروسك واتساع رقعة نفوذهم

بين القرن العاشر على الابعد ، والقرن السابع قبل الميلاد على الاقرب – وهذا المدى الارحب والاوسع الذي تحدده هذه النظريات الثلاث وتضع فيـه التوقيت الزمني الخاص بالاتروسك – نرى فيه هـذا الشعب ذا نظام قائم ، اذ سيطر على رقعة من الارض تقع بين البحر التيريني ونهري الارنو والتيبر . وعلى هذه الرقعة الضيقة من الارض ، أنشأ الاتروسك عدداً من المدن ، اقدمها عهداً وأنشطها طراً تلك المدائن التي الى الجنوب ، على شواطىء البحر ؛ بينما تلـك التي قامت في داخل مقاطعة اتروريا الشمالية ، لم يبرز لها نشاط إلا بعد ذاك . فليس ما يميز بنوع خاص ، ازدهار الزراعـة فيها، إلا ما جاء في المصادر التاريخية عن أعمال تجفيف مستنقعات ماريم *Maremme* الساحلية. إلى ان هذا الشعب بزّ عالياً الشعوب التي أهلت بها ايطاليافعاصرتهم وذلك بما كان لهمن النشاط في حقل التعدين وتصنيع الحديد. فقد سيطر على جزيرة إلبا، الامر الذي زاد من طاقته على تأمين المزيد من الموارد التي كان بحاجة اليها وتوفير خامات الحديد والنحاس التي تفيض بها مقاطعة أتروريا التي رفلت من موارد الارض وما تحت الارض بما لم ترفل به مقاطعة أخرى من المقاطعات الايطاليـة ؛ وما انصرفت احداها ، عبر التاريخ القديم لاستغلال الثروة المعدنية الكامنة فيهـا كانصراف اتروريا لها ، وعلى مثل هذا النطاق الواسع . ان مدناً مثل بوبولونيا وفيتولونيا الواقعتان تجاه جزيرة البا ، وفي منطقة المعادن بالذات ، يُصرف نشاط الاهلين فيهـا ويُقنّى في سبيل استخراج الخامات المعدنية التيتقوم مدن اخرى باعدادها وتوضيبها للتصنيـع ، فتفتح هذه الصناعة الباب على مصراعيه امام التجارة الخارجية. وهكذا رأى الاتروسك أنفسهم، منذ عهد مبكر ، وجهـاً لوجه مع جزيرتي كورسكا وسردينيا . وليس ما يحول دون ذهاب الفكر او ما يعطل الظن انهم غامروا برحلات أوسع وأبعد الى الجنوب، وحتى الى الشرق، مع ان القرطاجيين والاغريق سيطروا على معظم المرافق التجارية وأمنوا الاتصال بها . فمقاطعـة اتروريا رفلت بمصنوعات الذهب والفضة والحديد ، وأدوات الفخار والخزفيات الثمينة التي كانت تصنع في اليونان وتستورد منها ، من كورنثس اولاً ثم من اثينا ، فتجد عند الاتروسك رواجاً عظيماً . فمن أضرحة الاتروسك ومدافنهم اطلع العالم على أجمـل الخزف اليوناني الذي يرجع صنعه الى القرن السادس وبدء الخامس قبل الميلاد. وكان الشبهان ومصنوعاته مادة اولية للتصدير للخارج . وهكذا توفر لبعض الطبقات الاجتماعية لدى الاتروسك غنى لا ينكره احـد ، وهو ثراء كان الى جانب القوى البشرية والحربية الأخرى التي توفرت لهذا الشعب عاملاً قوياً من بين العوامل العديدة التي أمنت له الازدهار والانتشار في رقعة واسعة من بطاح ايطاليا قديماً .

فقبل غروب القرن السابع سيطر الاتروسك على ثغور نهر التيبر ومعابره ، وذلك باحتلالهم



الشكل ٢ – خريطة قديمة لايطاليا تبين انتشار الاتروسك

١ – اتروريا ، ٢ – مقاطعات احتلها الاتروسك

موقع روما ، وبهذا اقاموا لهم رقبة جسر نحو اللاطيوم وايطاليا الجنوبية. اما في القرن السادس فنراهم يحتلون مقاطعة كمبانيا حيث أسسوا مدينة كابو المشهورة واستطاعوا ان يقيموا بينهم وبين فريق من الاغريق من سكان مدينة بوزيدونيا حالة من التفاهم والتراضي . وكانت هذه المدينة التي تعرف اليوم بمدينة بيستوم مرفأ نشيطاً تؤمه السفن كما كانت ملتقى للطرق البحرية التي ربطتها بخليج ترانت ، عبر جبال البروتيوم . فكانت بوزيدونيا هذه بمثابة البوابة الاغريقية لمقاطعة كمبانيا الواقعة تحت الاحتلال الاتروسكي . اما علاقة الاتروسك بالاغريق ، فكانت على الغالب تتسم بالحروب ، كما انطبعت علاقاتها مع قرطاجة التي اضطروا ان يتنازلوا لها عن جزيرة سردينيا . وعلى هذا قس علاقاتهم مع مدينة ماساليا (مرسيليا اليوم) . وقاموا بحروب مكشوفة مع اغريق مدينة فوقيه *Phocée* الذين جلوا عن مقاطعة ايونيا بعد ان اكتسح الفرس شواطىء آسيا الصغرى الغربية واستوطنوا الساحل الشرقي من جزيرة كورسكا التي اضطروا لمغادرتها عام ٥٣٠ ، بعد معركة ألاليا البحرية ، (اليريا اليوم) ، ثم حروبهم ضد مدينة كوم القائمة في قلب مقاطعة كمبانيا، واخيراً وليس آخراً، حروبهم ضد الجوالي الاغريقية في الجزر الايولية (ليباري اليوم) الواقعة الى الشمال من صقلية .

والمد الاتروسكي يبدو جلياً واضحاً ، في الاتجاه المعاكس ، أي في الشمال ، في أواخر القرن السادس . فبعد ان اجتازوا سلسلة جبال الابنين احتلوا مدينة فلسينا ومنطقتها فأصبحت قاعدتهم الكبرى للانطلاق منها الى الشمال ، ومنها بلغوا سهل نهر البو وسيطروا على معظم القسم الشرقي من مجرى هذا النهر بما فيه ساحل البحر الادرياتيكي، الى الجنوب من مصب نهر الأديج .

عبثاً نحاول التأريخ لهذه الفتوحات التي يقوم بها الاتروسك والتي تؤيدها الكشوف الأثرية الحديثة، وان كان المؤرخون القدامى لا يأتون على ذكرها الا لماماً وبايجاز كلي يقرب من التقتير. ان فقر المصادر حول المد الواسع الذي بلغه الاتروسك وندرتها يبعث في نفس المؤرخ الأسف الشديد. فاذا ضربنا صفحاً عن كثير من التأويلات والآراء العارضة نقف امام نظريتين متعارضتين متعاندتين . فاما ان نرد هذا التوسع بحققه الاتروسك ، الى عصابات من المغامرين اقتفت أثر رائد مغامر حالفه الحظ ، جرّت وراءها تباعاً جوالي متتالية اقعدت نفوذ القوم ومكنت له ، واما ان تكون تمت هذه الفتوحات وفقاً لارادة مدبرة وخطة محكمة موضوعة ، أعدتها حكومة مركزية ، تبينت عن كثب وحدة ايطاليا الطبيعية فراودتها فكرة تحقيق وحدتها السياسية . ولكل من هاتين النظريتين من البراهين والحجج ما يؤيدها إثباتاً ودفعاً . وهذه الحجج المؤيدة والدافعة معاً ، تنعكس ولو غامضة ، في هذه الحدثان التي وسمت العلاقات بين الاتروسك وروما في تطلعها الى السيطرة والغلبة ، كما تبدو من خلال الاقاصيص الاسطورية عند الرومانيين ومن

التراويق التي تزين قبر فرلسوا [١]. ومهما يكن ، وسواء أجاء الأمر قضاءً مقدوراً او تدبيراً مقصوداً ، فالانجازات التي حققها الاتروسك تتسم بالعظمة ، وعلى ايطاليا ان تنتظر طويلاً ليطلع على ارضها وفي سمائها مثل هذه المآتي وعلى مستواها الرفيع، تقوم بها روما التي وفقت الى إقامة وحدة تجاوزت، بكثير الوحدة التي أنشأها الاتروسك في اواخر القرن السادس قبل الميلاد.

التنظيم الداخلي

وكم نتمنى لو نستطيع ان نعرف ماذا كان عليه الاتروسك ، من نظام داخلي . فالاطلاع على هذا الامر عامل قوي يساعدنا على تفهم الاهداف التي ترسمها هذا الشعب والصفات التي لابست السلطان الذي انشأه . الا ان وضع المصادر التي لدينا كثيراً ما يحدو بنا لتفادي الاحكام الرخيصة؛ والانكى، ان نعمم على كل المدن الاتروسكية ما نراه قائماً في روما القديمة ، بينا وضع روما وضع خاص بها ، مقصور عليها وحدها .

مما لا ريب فيه قط ان المجتمع الاتروسكي مجتمع ارستوقراطي الطابع. يشهد على ذلك ما نراه من مظاهر الغنى والبذخ تتكشف عنها معالم قبور القوم ومدافنهم اذا ما قارناها بالمقابر المتواضعة لجمهرة السواد . كانت مقاطعة اتروريا مثوى عدد طائل من الاسر الكبيرة ، ترتبط فيما بينها بروابط الانساب والتضافر والتضامن ، كما نلمس ذلك من خلال بعض المسميات والكنى التي لم يكن ما يحاكيها في عالم البحر المتوسط . فمن العادات التي سار عليها الشرق والشرقيون ان يأتي اسم الشخص متبوعاً باسم والده لتمييز الناس بعضاً عن بعض ، بينما راح بعض الشعوب الاسيوية ، كالليكيين مثلاً، ينتسبون للام، الامر الذي حمل فريقاً من المؤرخين على الظن بسيرهم على النظام الاموي. فقد اتبع الاتروسك الطريقتين المذكورتين واستعملوا معهما اسلوباً آخر او اقتصروا عليه وحده . فاسم الشخص يصبح نعتاً او وصفاً الكنية او الشهرة . والجدير بالملاحظة هنا حرصهم على الانساب والاصلاب، الامر الذي ساعد على تكوين مشجرات عائلية معقدة . والظاهر انهم عرفوا ، هم ايضاً نظام الاتباع ، (*Clients*) الذي نهج عليه الرومان . فمن المفيد كثيراً تحديد تاريخ الاخذ بهذه النظم ، اذ لا بد ان يكون تطور المجتمع الاتروسكي قد ساعد كثيراً على تركيز الطابع الارستوقراطي الذي برز في تاريخ متأخر ، عندما شبت روما وترعرعت ، واخذت تؤثر بعيداً فيما حولها . فاتخاذ الاسم والكنية وقيام نظام (قبلي) متماسك شبيه بما عرف عند الرومان بـ (*Gens*) هو من هذه الاعراف التي

---

(١) هذه النقوش والتراويق هي من حقبة متأخرة ترجع الى اواخر القرن الرابع والقرن الثالث قبل الميلاد . ولو كان بالامكان استنطاقها كما يجب لكشفت لنا كيف ان اهل مدينة فولاي (*Vulci*) تمثلوا حوادث جاءت على ذكرها تقاليد الرومانيين وحكاياتهم . فهي تصف معارك وجنوداً يخوضون وقائع واشتباكات حربية . فبين اسماء جنود الاتروسك والرومانيين شبه عظيم ومحاكاة ظاهرة . من بين هؤلاء المحاربين الذين يلاقون حتفهم في المعركة جندي يدعى *Cneve Tarchunies Rumach* الذي يرادفه باللاتينية *Cnaeus Tarquinius Romanus* فنحن امام جندي روماني من آل تاركينوس.

سارت عليهـــا امم ايطالية عديدة . فلمن الفضل في هذا كله ؟ أللرومـــان ، يا ترى، ام للاتروسك ؟

ينتظم السلك الاجتماعي عند الاتروسك في قيام مدن عندهم . فقد جاء الكتبة الاقدمون على ذكر ما اسموه بـ « الدوديكابول » اي حلف الاثنتي عشرة مدينة الذي قـام في مقاطعة اتروريا . غير ان القوائم العـديدة التي جاءت على ذكر هـذه المدن وتعدادها تختلف فيما بينها وتتعارض فيها الاسماء وتتباين . ومثل هذا التباين يطبع كذلك قوائم اتحادات المدن الاثنتي عشرية التي قامت على شاكلة الحلف الاول في كل من مقاطعتي كمبانيا وسهل البو . والغالب على الظن ان مجالس اتحادية كانت تعقد اجتماعاتها ، الفينة بعد الاخرى ، في الميدان (الساحـة) المحيطة بالمعبد العـام المعروف عندهم *Fanum Voltumnae* المجهول الموقـع . وقد سارت الامبراطورية الرومانية فيما بعد على تعيين« محافظ او والي اتروريا »الذي ربما كان رمزاً لاستمرار رئيس الاتحاد . والذي يبـدو من بعض الحوادث الطارئة ان الوئام لم يكن ليرفرف دائماً بين المدن الاتروسكية، حتى في العهد الذي بلغت فيه المدنية الاتروسكيـة أوجها، وان روابط التحالف التي كانت تشدها بعضاً الى بعض ، تأخذ في التراخي والانحلال في بعض المناسبات .

وهذا الوئام نفسه لم يكن ليطبع دوماً الحياة الداخلية في المدن نفسها . فقـد قامت في تاريخ متأخر جداً، منافسات طبقية،سياسية واجتماعية، بين الارستوقراطيين وطبقات الشعب، وذلك ربما بتأثير ، من رومـا ، في بدء عهدها الاول ، وفي اعقـاب تطور داخلي من العسير تتبع خيطه . ويظهر هذا الوضع بجلاء ابان الحقبة التي بلغ فيهـا الاتروسك عظمتهم ، اذ كانت تبرز هذه الخصومات بمناسبة انتخـاب السلطات العامة وتعيين ممثليها في دوائر الحكم . سار الاتروسك في بدء امرهم على نظام ملكي ، وكان الملك عنـدهم يعرف باسم (*Lucumon*) ، وليس بالامكان الجزم في ما اذا كانت الملكية وراثية او انتخابية لمدى الحياة او لمدة معينة . وقد يكون من المناسب ان نتصور الامور على مثل ما كان عليه الوضع الاجتماعي في المـدن اليونانية التي طبع تطورها، تطور الحكم والادارة في الادارة الاتروسكيـة. فقد دقت سلطة الملك واسترقت تباعاً في المدن اليونانية . وعلى كل ، فالقول بغلبة النظام الاوليغرشي او حـكم الاقلية ، امر يقبله العقل ولا يثير اي اعتراض . وتطور مدلول لقب الملك مع الزمن ، فاطلقوه تارة على كبير القضاة بعد ان جلس الملوك قديمـاً للقضاء طويلاً ، وطوراً على شيوخ او امراء الاسر الكبيرة التي كان الملوك يختارون من بينها . وأحيط الملوك والقضاة بمراسم عظيمـة من التكريم والتبجيل والتعظيم مرت من الاتروسك ، فيما بعـد ، الى الشعب الروماني الذي سار عليها . وعثر المنقبون ، في مدينة فيتولونيا على اداة حديدية تمثل اضمامة من القضبان *Faisceau* يبرز من بينها فأسان . ويعزو الاقدمون ، باتفـاق الآراء ، الى الاتروسك فكرة السلطـة التي يمثلها حَمَلة الفؤوس الـ *Licteurs* الذين كان عددهم يوازي عدد المدن الاثنتي عشرة المتحالفة، ممـا يدل على ان النظام الذي اوجدوه هو نظام اتحادي اكثر منه بلدي، والكرسي المشيخي،والشال

الروماني الموشى بالارجوان ، والرداء الارجواني الذي يتدثر بـه قائد الحرب ، واحتفال النصر وما يصحبه من مراسم التعظيم والتبجيل، وغير ذلك من الشارات التي تنم عن السلطة العليـا والمسؤولية. فالنظم الاتروسكية اثرت بعيداً، ولا شك، في النظم والاعراف التي سار عليها الرومان فيما بعد وكان للاتروسك فضل السبق اليها والعمل بها. فراح الرومان يقتبسونها ويطبقونها في بلادهم.

ديانة الاتروسك

وعلى هذا النحو نهج الاتروسك في ديانتهم وتمتعوا في روما بشهرة واسعة، اذ ان من مميزاتهم المفردة تضلعهم بأمور الدين والامتثال الحرفي لوصاياه ونواهيه.

ليس لعمري ما يميز ديانتهم وأساطيرهم الدينية. فاذا ما وقفنا عند بعض أسماء آلهتهم وجدنا ان بينهـا ما هو اتروسكي محض مثل الاله تين (*Tin*) الذي يرادف الاله جوبيتير ، والاله طوران *Turan* الذي يوازي الالهة فينوس او الزهرة . ويقوم بين مسميات هـذه الآلهة من المواصفات المتشابهة ما يشير الى أصلها الاغريقي اللاتيني . وبعض الآلهة الأخرى ، أمثـال : اوني *Uni* (جينون ، ومنيرفا ، وماريس (مارس) هي ايطالية الاصل او المصدر، او بالاحرى كيّفها الاتروسك بعد اقتباسها بحيث برزت ايطالية الوضع او المنشأ . بينما هنالك آلهة أخرى مسمياتها اغريقية الاصل جرى اقتباسها رأساً من الاغريق، منها مثلاً هرقل *Hercle* او هيرقليس الذي له شأن أكبر عند الاتروسك منه عند اليونان ، بينما الاله ابولو وشقيقته ارتوم *Artume* او ارطميس لم يطرأ عليها، لدى اقتباسها، أي تعديل او تبديل. اما مناقبية هـذه الآلهة والصور المشبهة لها والاساطير المتناقلة بشأنها، والأقاصيص المروية عنها فبينها تباين عظيم من قطر وآخر. ومن الخير والمفيد جداً ان يقوم من يتصدى لشرح الوثائق التي تمت اليها ويحدد منها التـاريخ الصحيح . فالمصادر التي نعوّل عليها هي متأخرة جداً وتشهد عالياً بعملية الهلّـيلة، والتأغرق التي خضعت لها ، وهي عملية تمت تدريجياً وعلى مراحل ، على ضوء الصور والرسوم التي ألهمتها وأوحت بها ديانة اليونان وأساطيرهم .

العرافة والطقوس الدينية

مما يميز الاتروسك ، بالنسبة للأقوام الغربيـة على الاقل ، من وجهة الديانة التي تمت بأكثر من سبب الى ديانة بلاد ما بين النهرين ، هـذا الخضوع والخشوع والاستسلام المطلق لمشيئة القوى العليا التي تحركهـا مقاصد خفية . فالانسان في ضعفه المتناهي، لا سبيل امامه إلا الاستبانة عن هذه الارادة والكشف عنها لئلا يأتي عملاً لا تكون راضية عنه ، وان يبذل في جميع حالات الشك وقلة اليقين ، كل شيء في سبيل استمالتهـا وكسب رضاها . كل الظواهر الخارجية هي ، من حيث المبدأ ، إعلان عن امر ما ، وايذان له ، بشرط ان نتبينه وان نحسن تفسيره وتأويله . فجميع ظاهرات هذا العالم تترابط ، والحالة هذه ، فيما بينهـا وتتماسك بقوة؛ ومدلول كل ظاهرة لا بد ان يتعدى بكثير المسببات، مهما بدت طبيعية . ففي رد الاسباب الى أصولها الصحيحة ، تعبير عن رغبة الآلهة في تحذير البشر منهـا وإنذارهم بشرها . وهذه الانذارات تبرز بأجلى بيـان يمكن للانسان ان يتصوره ، بواسطة

الصواعق والرعود . غير ان أية ظاهرة طبيعية أخرى، مهما دقّ شأنها ، يغاير مظهرها النظام الطبيعي للأشياء ، عدها الانسان من الخوارق وتطير منها . وهنالك علامات وإشارات لا يمكن ان يتبينها الانسان ويفقه معناها ومدلولها إلا بعد جهد وعناء وبحث واستقصاء . وهذا البحث هو على نوعين : الاول زواجر الطير ، كطيرانه من جهة معينة من الجو ، وفقاً لمواصفات دقيقة تلابس الاتجاه وتطبعه . والثاني هو فحص احشاء الذبائح ، ولا سيا الكبير منها ، وموضع اجزائها الدقيق، اذ ان كلا من هذه الاوضاع يرمز الى إله معين من الآلهة، كما يشير بالتالي الى ما هو وضع هذا الاله من الرضى او عدمه. كل هذه الأشياء والأمور تفرض وجود علم باصول، لا يحسنه إلا الضالعون به المتمكنون من أسراره . وكشف الغيب اختصاص يقتضي له التمرس الطويل باحكام تقاليد العبادة والكتب الدينية . فاذا ما روجعت هذه الكتب في الوقت المناسب وجد فيها من يحسن قراءتها وتفسيرها واستنطاق رموزها، الجواب الشافي عن كل ما ترغب الآلهة فيه ، كما يقف منها على الأساليب والطرق والأعمال التي يتوجب على الانسان ان يتقيد بها بكل دقة . ويكفي الانسان ان يتمسك حرفياً بهذه المراسم ويطبقها بنصها حتى يخامره الامل بامكان التأثير على هذه القوى العليا التي بيدها مصيره . ويرافق عملية الكشف عن رغبة الآلهة ومقاصدها الخفية والبعيدة عن ادراك البشر، القيام بعدد لا يحصى من الأدعية والابتهالات والتضرعات والإشارات التي لا بد من الاتيان بها على نحو معين . فقد تركت لنا هذه الكتب وصف المراسم الدقيقة التي يجب التقيد بها عند إنشاء او تأسيس مدينة ما ، واتجاه الشوارع وتقاطعها عمودياً ، وكيفية طمر القرابين المقدسة في حفرة معينة ، ومدى الدائرة المقدسة التي يجب رسمها على المكان الذي تنشأ عليه هذه المدينة ، تشقها سكة محراث ، باستثناء مواقع الابواب الخارجية . والمراسم المتعلقة بانشاء المعابد والهياكل، هي أدق مما وصفنا بكثير. اما ما يترتب على الانسان من اعمال وتصرفات بعد كشف الطالع ، فعدد كبير من المراسم والمناسك والحركات المختلفة ، عليه ان يتمها ويتقيد بأصولها وأحكامها وفقاً لتعليمات الكهان وارشاداتهم ، ووفقاً لمناهج لا يصح الخروج عليها ، من قرابين وأضاحٍ وتكريسات ، وولائم تقام على شرف تماثيل الآلهة وانصابهم .

ومن الطبيعي ايضاً ان تجري خصوصيات الحياة وفقاً لمراسم دينية دقيقة فيحمل الناس التعاويذ والطلاسم التي يرد معظمها من مصر . والسير وفقاً لهذه الاعتقادات يفضي بالمرء الى النجامة والمجوسية ، كما يظهر من بعض الآثار التي وصلت الينا من ذلك العهد . غير ان قلة المصادر تحول دون وصف هذه المراسم الدينية بالتفصيل ، ولا تستفيض الا بذكر المراسم والاحتفالات الخاصة بممارسة الوظائف الرسمية العامة التي انتقلت بحذافيرها الى روما ، لدى اقتباسها النظم السياسية التي اقتبستها عن الاتروسك والتي تؤلف معها قسماً متمماً لها . الم تكن اتروسكية الاصل، هذه الطلاسم والحيوانات المؤلهة التي كان يحملها قضاة روما، وهذه الاحتفالات الصاخبة التي كانت تقام في طول البلاد وعرضها بمناسبة الظفر والنصر في الحروب ؟ الم تكن

اتروسكية علوم الفأل والعصا المعقوفة التي كان يستعملها العرافون في كشف الطالع ؟ وهذه العيافة ، اي عادة فحص امعاء الذبائح واحشائها ؛ اتروسكية الاصل عادة التسلم بالخوارق وكل المراسم والتوسلات التي يجب الاعتصام بها لابعادها وابعاد المصائب التي تجرها. فالاحترام المقرون بالاعجاب الذي كان يكنه الاتروسك للنظام ولعلوم الدين كان الباعث الاول على الاحتفاظ بعلوم الدين وعلى نقلها للغير .

الحياة الاخرى

ساعد الكشف العلمي عن القبور ونبش ما كانت تحويه من توابيق وامتعة ومفروشات ، على تكوين صورة عن فكرة الموت والحياة الاخرى عند الاتروسك قديماً . فالكل كان يعتقد بالحياة والبقاء بعد الموت . وكان الاحياء يحاولون تعويد الناس على فكرة الموت عن طريق الجنائز ومراسمها ، وعن طريق اقامة المآدب والملاهي ، وحرصهم على حفر صورة الميت وزوجته على الضريح ، محاطين بكثير من الحاجيات المنزلية كالاسلحة والحلى وما شاكل . ان ايجاد الجو العائلي في القبر يحمل المرء يعتقد ان الميت انما هو حي ، يعيش بعد ، وبالتالي فما من موجب او داع قط للاسف والاسترسال للحزن العميق ، كما توحي بذلك الرسوم القديمة التي تغشى جدران القبور . صحيح ان هذه الرموس المزركشة هي وقف على الشخصيات الكبيرة ، ولكن ما عسى ان يكون لعمري ، مصير ممثلي الطبقات الفقيرة المسكينة ؟

سار الناس طويلاً على عادة فرش القبور وتأثيثها بالحاجيات المنزلية . الا اننا نرى منذ القرن السادس فكرة جديدة تبرز ، ولا تلبث ان تتحكم بالاذهان منذ القرن الرابع . من النظر ملياً في الرسوم القريبة يتضح ان جميع الموتى ، حتى من كان بينهم من ذوي الجاه ورفعة الشأن ، هم في سبيل رحلة طويلة بعيدة في مملكة الظلام ، وهي رحلة تبعث الاسى الشديد في النفس، يدفعهم أبالسة تصطك لمنظرهم الفرائص، وقد انخطف منهم اللون وشحب المنظر وكشروا عن انياب حادة ، اجسامهم مزيج من اعضاء الانسان والحيوان ، لهم من الطيور الخواطف مناسرها الحادة ، ومن الحصان او الحمار اذنه ، حاملين بايديهم مطرقة لتوجيه ضربة قاضية الى المسافر . وها هو عزرائيل(*Charun*) يخطف الميت من بين ذويه فتتراكض الافاعي والثعابين منسابة حوله تفحّ في اذنه . فيا لها من مملكة تبعث الرعب في النفس والهلع في القلوب لأركونها رأس ذئب ، وقد اختفت البسمة امام مرأى تنين مفارس يحمل بين يديه عدة التعذيب .

فالاثر الهليني يبدو واضحاً في بعض هذه الافكار كما يبدو جلياً في ميثولوجية جهنم . واسماء ملك مملكة الظلام وزوجته فرسبناي *Phersipnai* عند الاتروسك هي نفسها عند الاغريق وهما هاديس وبرسفوني. فاذا كان *Charun* ملاك الموت عند الاتروسك، يأخذ اسمه من *Charon* ملك الموت عند الاغريق ، وعابر الارواح فوق نهر الستيكس (*Styx*) هو النهر الذي يحيط سبع مرات بجهنم حسب معتقدات الاغريق ، يتلبس عند الاتروسك دوراً وصفات

مخيفة. وهؤلاء الأبالسة والشياطين الذين قال الاتروسك بوجودهم ونقلوا الاعتقاد بهم عن أساطير الشرق، إنما دخلوا الميثولوجيا الاتروسكية عن طريق الاغريق. فروح التسلم والرضوخ التي كانت تلطف عند الاغريق من لوعة المحتسب او المفجوع بأحد أعزائه، تختفي تماماً عند الاتروسك ليحل محلها عند الميت، روح متشائمة تعكس تماماً صورة حياة بشرية حطمتها قوى غاشمة لا تلين ولا ترحم.

الفن الاتروسكي

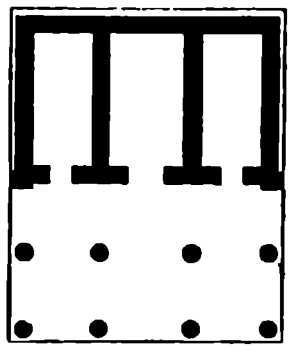
يبرز هذا الفن بجلاء المؤثرات التي تلقاها من الخارج وخضع لها، وهي مؤثرات شرقية، في بادىء الامر، اتصلت بالاتروسك عن طريق الفن الاغريقي القديم الذي عرف هو ايضاً طوراً شرقياً ثم هلينياً بعد ذلك. ولا شك عندنا في ان بعض رجال الفن من الاغريق استدعوا للعمل في مقاطعة اتروريا، فأفاضوا من فنونهم على ما كان معروفاً عند الاتروسك من أصول هذا الفن. ويحاول النقاد المعاصرون جاهدين، ان يتبينوا الصفات المميزة للفن الاتروسكي الأصيل، وهي صفات ملازمة فيه، مفردة له، إنما تبقى محدودة المدى والأثر لئلا تذهب بالانطباع العام.

وهذه الصورة تصدمنا من الوجهة الفنية بما فيها من نقص فاضح. فقد استخدم الاتروسك الشبهان (البرونز) والفخار، على نطاق واسع. وكانوا يدفعون غالياً في سبيل الحصول من الخارج على المواد الثمينة: كالعاج، والذهب، والفضة، فلم يعنوا بنقش الرخام، هذا الرخام الذي غالى الاغريق، ومن بعدهم الرومان، باستخدامه على نطاق واسع، وحفره ونقشه. كثيراً ما عوّلوا في عمائرهم، منذ القرن الخامس، قبل الميلاد، على العقود والقناطر التي اخذوا استعمالها من الشرق وأدخلوا عليها تحسينات جمة، بينما أهمل الاغريق الاعتماد عليها. ويقتصر على الغالب، الأثر الذي احدثوه هنا على فروق بسيطة.

هنالك أنواع شتى من قبور الأغنياء. منها ما نقش في قلب الصخر الصلد او تم بناؤها، تنتظم حُجَره امام ممر، او تأتي على طراز منزل عادي. وأهم هذه القبور هيلَ التراب على سقوفها وشيد حول السطح جدار مستدير ليمنع سقوطه. هنالك قبر او ضريح عثر عليه بالقرب من شرفتري *Cerveteri*، بلغ قطره ٤٨ متراً. أقيم فيه خمس ممرات، تمر من الخارج الى الداخل، ثم يبتدىء ممر سادس، مستدير الشكل، هو الممر الوحيد الذي يبدو ان اللصوص ونباشي القبور احترموه لأنهم لم يدروا به، فلم ينهبوه. والقبر المذكور جرى استخدامه مدفناً لأسرة كبيرة طوال قرنين من الزمن، أي من القرن السابع الى الخامس، قبل الميلاد. وعندما نبشه المنقبون استخرجوا منه، في عداد ما استخرجوا، هيكلين عظميين لبعض الارستوقراطيين، وجرة قبرية متواضعة الشكل، وغير ذلك من الحلي والذهب والبرونز.

والهيكل التوسكاني الطراز الذي ترك فيتروف وصفاً دقيقاً له، كان يتألف عادة من ثلاث حجرات، وهي هندسة كانت تتكرر عملياً في كثير من الهياكل، منها هيكل جوبتير

الكابيتولي ، في روما حيث نرى هذا الاله يعتمد الى الاهلين جونون وميترفا . ولكن آلهة الاتروسك لا تؤلف دوماً ثالوثاً واضحاً ، كما ان بعض هياكلهم كانت تتألف من حجرة واحدة . فاذا كان تأثير الهيكل الاغريقي يبدو واضحاً ، فالهيكل الاتروسكي ، يبدي مع ذلك ، بعض الفروق . من ذلك مثلا انه يقوم على قاعدة حجرية عالية ، كما ان بوابة المدخل الرئيسي تقوم فوق اعمدة ؛ وهي بوابة ضخمة لا تزدان بشيء من النُصب او التماثيل ، قبل القرن الرابع .



الشكل ٣ – تصميم نظري لمعبد اتروسكي عرضه ٦ أجزاء طوله . علو الأعمدة فيه يجب ان تكون ثلث العرض وعرض الحجيرات الجانبية يوازي ٣/٤ الحجيرة المركزية .

والهيكل الاتروسكي ، كصنوه الاغريقي القديم الطراز ، كانت مادته الاولى من الخشب ، اقله الاعمدة والسقف ، الا انه اطول منه بكثير . ولكي يحفظوا الخشب ويصونوه حيثما برز وظهر ، كانوا يغطونه بقوالب من التراب المشوي ، يحلّونها بالنقوش والالوان. وعلى هذا النهج سار الاغريق انفسهم . انما ساحة الهيكل المغطاة بهذه القوالب ، عند الاتروسك ، كانت تتطلب الكثير من القوالب وعناءً كبيراً في الترويق . فالاتروسك يعتمدون هذا الفن بمعزل عن التصميم الهندسي ، ولم يلبث ان اصبح عندهم ابرز معالم النقش ، واعطى آثاراً رفيعة من الدرجة الاولى ، اشهرها واسيرها ذكراً على الاطلاق ، تمثال الزهرة (فينوس) في مدينة فايي (*Veies*) الذي كان يؤلف جزءاً ، من مجموعة فنية لها مقاييس الانسان الطبيعية ، وتمثل احدى اساطير دلف التي تروي حكاية شجار ابولو وهيرقليس بشأن الظبية ذات الرجل النحاسية ، وذلك على مرأى ومشهد من ارطميس وهرميس. وبين الآثار التي اكتشفت ايضاً في هذا المعبد ، معالم تنم عن وجود فئات اخرى . ومن الممكن جداً ان يكون ناحت تمثال ابولو اغريقياً ، الا انه من الارجح ان يكون اتروسكياً ، اذ لا يزال التاريخ يحدث عن شهرة معامل مدينة فايي ومهارة صناعها ، بينهم فولكا (*Vulca*) الفنان الاتروسكي الوحيد الذي احترم التاريخ اسمه ، فاستدعته روما ليشارك ويعاون في تزيين تمثال جوبتير الكابيتولي الذي يمكن ان يضاهي ابرز الآثار الاغريقية من هذا العهد (اواخر القرن السادس ومطلع القرن الخامس قبل الميلاد) وذلك لما في حركة الجسم من حيوية ونشاط ، وبما تفتر عنه البسمة من إغراء ، وبما عليه من نظرة مثيرة تشع على الوجه كله . وهذا التمثال يبز بكثير التماثيل الاخرى التي تمثل الرجال والنساء متكئين الى موائد الولائم ، او تغطي وجه بعض النواويس او الحجرات القبرية . وكثيراً ما تم صنع هذه التماثيل بروح حية ، واقعية ، تقارب أحياناً الرسوم الهزلية ، فيبدو معها ترهل البطن ، وتنافر

أعضاء الجسم ، وبروز العضلات . فنحن هنا ، ولا شك ، أمام آثار اتروسكية الوحي والفن، فيها من الحقيقة العارية ما لا يخلو من طعم ودسم ، بحيث أثرت بعيداً بفن الرسم عند الرومان .

ودراسة الآثار الشبهانية والرسوم الاتروسكية تفضي بنا، هي الأخرى، الى ملاحظات شبيهة بتلك التي أبديناها . فقد كانت الأولى منها تفقد من الوجود لكثرة ما تعرضت له من نهب وسلب ، اذ ان الرومان حملوا من مدينة اتروسكية واحدة غزوها ، ٢٠٠٠ قطعة مختلفة من البرونز . وقد وصلت الينا تحفة رائعة من هذه التحف هي : « ذئبة الكابيتول » حيث يطالعك فن طبيعي عار يتسم بالانسجام . اما الرسم ، فليس بين معالمه ما يبرز على هذا الشكل . فهو خير ما يتجلّى في هذه الرسوم التي تغطي جدران القبور ، فتبرز الشخوص في انسجام حركاتها وتوافقها في هذه المشاهد المتحركة التي أشرنا الى تطورها من قبل . واننا لنلمس هنا لمس اليد أثر الاغريق في إحراز هذا التطور ، وفي هذا المرايا البرونزية التي حرص الفنان على ان يحلي منها القفا بصورة حية .

وصفوة القول، لا يمكن ان ننظر الى الفن الاتروسكي كفن اغريقي محلّي او اقليمي، نوعاً ما، إلا انه فن لا يمكن تفهمه اذا ما ضربنا صفحاً عن مؤثرات الفن الاغريقي ونقله لها واقتباسه لنظرياته ، او تغاضينا عن العديد من الموضوعات الاسطورية التي عالجها وحيّزها في هذه الادوات التي صدرها بمقادير هائلة الى ايطاليا والتي قام ينحو نحوها رجال الفن الاتروسكي من رسامين ومصورين ومفرغين ، ويقلدونها .

المخاطط المدنية الاتروسكية وانتقال تراثها

من الادلة القاطعة على تأثر الاتروسك بالحضارة الهلينية ، الركود الذي اعترى ، الى حد ما ، الفن الاتروسكي خلال معظم القرن الخامس، وهو قرن قام فيه من المشاكسات السياسية والاصطدامات الحربية بين الاغريق والاتروسك ما انقطعت معه العلاقات الثقافية والفنية بين الطرفين. والثابت ان كل ايطاليا الاتروسكية عرفت اذ ذاك ، ازمة حربية وسياسية تركت اثراً بعيداً في حياة البلاد الاقتصادية .

فأزمة النظام الملكي في روما ، ونهاية السيطرة الاتروسكية، وقعتا معاً في وقت واحد، اي في اخريات القرن السادس . وراحت فايي ، اقرب المدن الاتروسكية ، تحاول التحكم بمعابر نهر التيبر . فنتج عن ذلك حروب طويلة بالرغم من المواثيق التي تكرر عقدها ، والمعاهدات التي كانت تضع حداً لها. وقد انتهت هذه الحروب بعد جهاد عنيف دام قرناً بكامله، باستيلاء روما على مدينة فايي . وبعد ذلك بقرن ونصف ، تمكنت روما من السيطرة على مقاطعة اتروريا، اذ اشتد منها العضد وازدادت قوة وبطشاً إثر فتوحات اخرى حققتها . ولكن ، ماذا من القضية منذ البدء ، وما الذي كان عليه الوضع في بادىء الامر ؟ فالمقاومة الشديدة التي ابدتها روما ، والانتصارات التي حققتها تباعاً في حروبها ضد فايي لا يُفهمان ، الا من خلال الموقف الحيادي الذي وقفته منها المدن الاتروسكية الاخرى ، فاضطرت هي ان تخوض الحرب وتدخل المعركة

وحدها ، ناهيك عن الهجمات التي تعرضت لهـا مستعمراتها في الخارج .

اما على ساحل مقاطعة كمبانيا فقد هب سكان مدينة سيراقوزة الاغريق الى نجدة بني قومهم من سكان مدينة كوم (Cumes) ، المشتبكة بعراك طويل مع الاتروسك، وفازوا عليها عام ٤٧٤ ق.م، في موقعة بحرية كثيراً ما غنّاها الشاعر الاغريقي الأشهر بنداريس، والتي خلّد ذكراها في النفوس طاغية سيراقوزة هيرون Hiéron بتكريسه لإله اولمبيا، خوذة العدو وقعت في ايديهم. وما عتّم ان زال اسطول الاتروسك وعمارتهم البحرية ، مما ساعد الاغريق على احتلال جزيرة ألبا، وإنشاء موطىء قدم لهم في جزيرة كورسكا وعلى ساحل البحر الادريا تيكي الشمالي، وهاجموا سواحل اتروريا نفسها . وهكذا بعد ان تم عزل مقاطعة كمبانيا وامتنـع اتصالها بالبحر ، اذ كانت روما تسد المنافذ اليه ، ومن البر ، وقعت غنيمة باردة في أيدي السمنيين الذين انحدروا اليها من جبال الابنين ، متجهين نحو السهل والساحل، واستولوا على مدينة كابو في منتصف القرن الخامس . ولم تلبث ان أصبحت سيطرة الاتروسك على هذه المقاطعة اثراً بعد عين . وتلاشت هذه السيطرة كذلك في سهل البو ، منذ مطلع القرن الرابع ، اثر غزو الغاليين لهذه المنطقة واستيلائهم على مدينة فلسّينا، واستبدلوا اسمها باسم جديد هو «بولونيا» الذي لا تزال تعرف به اليوم ، ولم يبق للاتروسك سوى مقاطعة اتروريا بالذات التي لم تعتم ان وقعت تحت سيادة الرومان وسيطرتهم .

وبالرغم من انقطاع أوصالهم ، صمد الاتروسك في وجه الفتح الروماني . إلا ان مدنيتهم لم تذهب بسقوطهم السياسي. فبعد الركود الذي اعترى هذه الحضارة في القرن الخامس، عادت اليها حيويتها ونشاطها في القرن الرابع ، عقب زوال سيطرة سيراقوزة التي اقام الطاغية دنيسيوس دعائمها وعرف بقوة شكيمته ان يوسع من آفاقهـا . وراح الاتروسك يعيدون صلاتهم بالحضارة الهلينية . غير ان الأزمات والحروب التي خاضوها ضد جيرانهم فمركتهم بثقالها ، فتت في عضدهم ، فسيطر على نفوسهم التشاؤم واستسلموا لقضاء القدر الغاشم . وبعد ان رسخت سيادة روما وأعرقت جذورها في الارض اخذت حضارة الاتروسك تأفل تدريجياً لتزول تماماً مـع ظهور المسيحية . وبعد ان تَلَـتَّنَتَ البلاد ، دخلت حضارتهم في خبر كان، ويأتي مورخو الرومان على ذكرها لماماً ويروون أخبارها نتفاً مبعثرة .

ولم تنتظر هذه الحضارة ساعتها الاخيرة لتنقل للناس تراثها الجيد . فقد اقتبست الكثير من عناصرها المقومة عن الاغريق ، وهو اقتبـاس يبدو أكبر قدراً وأضخم صدراً اذا ما رفضنا الأخذ بنظرية أرُومتهم الشرقية وتعويلهم في التحضر والنقل ، على الايونيين . ومهما يكن مـن الأمر ، فبعد ان تبدت للاتروسك إمكانية تحقيق وحدة ايطاليا السياسية ، انصرفوا لتحقيق وحدتها الأدبية ، معتمدين في ذلك على بسط حضارتهم على الأقوام والشعوب الايطالية . وعن طريق الحضارة الاتروسكية تعرفت شعوب ايطالية كثيرة ، تدريجياً ، الى المدنية الهلينية ،

وبالتالي الى الشرق ، فأمدتهم من ذاتهـــا بالكثير من عوامل التحضير والتمدن كالتقنية المادية ، ونظريات وأفكار وأذواق جديدة أفرغتها وسكبتها بقوالب ايطالية الطابع. ويجب ألا يفوتنا التنويه ، على الاخص ، بمـا لها من فضل كبير على روما بالذات ، مما ألمحنا اليه لماماً في المناسبات العارضة . من ذلك مثلاً ، كما يرجح كثيرون ، نقل الابجدية الى الرومان وان قام من لم يسلم من المؤرخين بهذه النظرية . ومما لا شك فيه ان الرومان نقلوا عن الاتروسك ، في عمارتهم ، الباحة او دار المنزل (*Atrium*)، وهذه الملاهي التي ترافق الجنائز، وكثيراً من عناصر الهندسة المعمارية وقواعد مسح الارض وغير ذلك . فروما مدينة للاتروسك ايضاً بأكثر من هذا : فهي مدينـة لها بكيانها الاول بالنظم الادارية والسياسية التي سارت عليها. فقد نشأت بمعاونتهم ووفقاً للمراسم المتبعة عندهم . وقد حكم روما ، منذ تأسيسها الى قلب النظام الملكي فيها وإعلان الجمهورية ، عام ٥٠٩ ، ملوك مـــن اصل اتروسكي أمدّوا روما بملاكات الجيش وأقاموا أطره وفقاً للمناهج والتنظيمات الاتروسكية .

وهذه المدنيـــة التي كتب عليها الزوال والانقراض ، كانت من أشد العوامل التي ثقفت المنتصرين عليها ، فانتقلت اليهم وعاشت فيهم .

الفصل الثاني

قرطاجة وحضارتها

يتردد المرء كثيراً قبل الجزم بقدوم الاتروسك من الشرق ، بينما ليس من ينكر قدوم القرطاجيين من مدينة صور . فالسلطنة التي انشأها القرطاجيون ، مثال حي لتناقض تاريخي مزدوج ، بقدر ما يعرف التاريخ من متناقضات . ففي الحين الذي نرى فيه المستعمرة الناشئة يشتد منها الساعد ، نرى المدينة الام (صور) تنحط وتهوي . ومن جهة اخرى ، في الوقت الذي تجدد صور فيه شبابها ، وتتأغرق بعد ان عاث بها الاسكندر خراباً ونهباً واستهانة ، نرى قرطاجة تحافظ بغيرة متقدة على الطابع الفينيقي لحضارتها ، وترفض بشمم وإباء ، ان يتسرب اليها شيء من عوامل الهلينية. لهذه المتناقضات ، والحق يقال ، مرد واحد ، هو موقع قرطاجة النائي الذي جعلها بمعزل عن الامبراطوريات الاجنبية ومؤثراتهـا ، تلك الامبراطوريات التي طلعت في الشرق قبل ان يطل عليه شيء من شبيهاتها بزمن طويل . فقد وجدت امـامها في الغرب، ليس المجال الطبيعي للانطلاق والازدهار فحسب، بل ايضاً ما يسّر مهمتها ورسالتها في تشييد استقلال مكين وسلطان ضخم ، وامبراطورية مترامية الاطراف. فالى الحين الذي تصطدم فيه بروما، بعد ان تركتها وشأنها تنمو وتكبر وتبسط سيطرتها التامة على ايطاليا كلها، وتنظمها كما تشاء ، وتصطلي معها بحروب اكول ضروس ، نرى القدر يتراقص بين يديها الى ان يميل عنها ليداعب منافستها الكبرى ، فتتداعى وتهوي الى الحضيض .

هل كان بامكان قرطاجة ان تنتصر ؟ ربمـا استطاعت الى ذلك سبيلاً ، مع ان نصرها بدا مؤكداً في بعض المواقف والمناسبات . ان عملية إفراغ العالم القديم وصهر مدنياته وحضاراته في بوتقة جديدة ، هذه العملية التي تطلعت لها رومـا وقامت تحققها ، لمهمة من نوع آخر ، اشق واصعب ، يكفي لنتبين صعوبتها ، ان نعرف ، كيف ان قرطاجة ، بعد سبعة قرون طوال من الحياة والنشاط العارم، زالت وتوارت عن مسرح التاريخ دون ان تترك وراءها اثراً عميقاً تردد ذكره الاجيال. ومهما يكن الدور التاريخي الذي لعبته المدن الفينيقية ضئيلاً ومتواضعاً، بالنسبة لقرطاجة ، فقد طبعت هذه المدن تطور المدنية باكثر مما طبعته قرطاجة .

اصل هـذا الشعب

من طرابلس الغرب الى اقاصي المغرب الاقصى يمتـد ، على طول الساحل الافريقي الشمالي ، شريط ارضي ، يضيق حيناً ويتسع ، طـاب هواؤه وحلم مناخه ، يمكس الداخل الصحراوي ، فأهله الانسان منذ العصور الخوالي وعمره . وقد عزلته الصحراء عن باقي اطراف القارة السوداء فاصبح ألصق بمنطقة البحر المتوسط واتبع منه بالقارة الافريقية . ولم يُظهر سكان البلاد البدائيون في تلك المنطقة ، اية رغبة او توق ظاهر نحو الاستقلال ، وهم على ما هم عليه من وحـدة العِرق والاصل والارومة والروح ، المحافظة والتمسك بتقاليدهم وعاداتهم التي كانت تشدهم بعضاً الى بعض في الامس الغابر كما تشدهم اليوم . وكان باستطاعتهم ان يختمروا او انهم اختمروا بالفعل ، ببعض المؤثرات المصرية . الا ان بُعـد الشقة بين الطرفين، وما انتصب بينهما حاجزاً من البيد والصحارى، جعل هذه التفاعلات في حكم العدم . ولكي يتأثر هؤلاء الاقوام بمدنية متطورة نامية كان لا بد ان تأتيهم عن طريق البحر . وهذا ما تم لهم بالفعل عن طريق بحارة فينيقيين جاشت نفوسهم بروح المغامرة .

كانت البلاد فقيرةً بالخامات المعدنية ، فاقبل الاهلون على حرثها وزرعها باساليب زراعيـة بدائية . فلم تكن تدر شيئاً يلفت اليه نظر التجار او يغريهم بالقدوم اليها والاستيطان فيها . ولعل من مميزاتها الفضلى انها كانت تقع على الطريق البحري الذي يفضي الى اسبانيا الجنوبية ، التي كانت تفيض بمعادن الفضة والزئبق ، كما تفضي الى البلدان الواقعة الى الشمال الغربي من القـارة الاوروبية (جزر كستيريد *Cassitérides*) التي كانت تدر القصدير ،هذه المادة الضرورية لصناعة البرونز او الشبهان . وليس من يشك في ان البحارة الفينيقيين أطلوا على تلك الارجاء في اواخر الألف الثاني ق. م. سائرين مع الشاطىء يتعرفون ، على مَهَل ، الى الخلجان والمرافىء يؤمونها ليلاً بعد ان يكونوا قطعوا في النهار مـا يقرب من اربعين كيلومتراً تقريباً . فاذا كان سبقهم الى هذه الأقطار سواهم من الناس ، وهو أمر مشكوك فيه جداً ، او سلك وإياهم الطريق ذاتها، فقد كان ذلك بصورة استثنائيـة محفوفة بالاخطار . وعلى كل استطاع الفينيقيون بسط نفوذهم على المنطقة والقضاء بالتالي على كل منافس لهم فيها .

تروي التقاليد المأثورة ان تأسيس أولى المستعمرات الفينيقيـة في المنطقة تم ، على ما يرجح ثقاة المؤرخين، في اواخر القرن الثاني عشر ق. م. فأنشأوا مدينة « عوتيقة » على ساحل تونس، وغاديس (قادس)على ساحل اسبانيا الجنوبي، كما أنشأوا على سواحل المحيط الاطلسي، في المغرب مدينة ليكسوس. اما المستعمرة التي أعدتها الأقدار لمستقبل ازهر، فقد أنشئت بعد ذلك بكثير، أي بعد قرن من هذا التاريخ ، في عرف البعض ، اي سنة ٨١٣/٨١٤ ، وهي السنة التي يرجحها المؤرخون القدامى. وفي « القرية الجديدة » أو« قرت حدشت » او قرطاجة، أسسها مستعمرون باشراف قادة جاؤوا من مدينة صور ، معظمهم من عناصر فينيقية مختلفة الجذور .

نجاح قرطاجة ونشأة امبراطوريتها

على المضيق الذي يربط بين حوض البحر المتوسط وفي طرف شبه جزيرة يعزلها عن القارة عدد من الجزر المتناثرة ، قامت

قرطاجة ، فوق موقع جغرافي ممتاز . فليس باستطاعة أية حتمية ان تفسر لنا كيف ان مدينة عوتيقة ، او قرت عوتيقة القديمة ، التي سماها ابن خلدون وطاقة ، وهي أقدم عهداً من قرطاجة ولها ما لتلك من موقع بحري حصين، لم يكتب لها ان تسيطر وان تنشىء لها ما أنشأته قرطاجة من بسطة السلطان وعزة الشأن . نحن نجهل تماماً الأسباب البشرية والعوامل التي هيأتها الاقدار لاستشراء قرطاجة واستفحال امرها .

تميز نمو قرطاجة مع ذلك بالبطء . فقد سبقها الى الوجود عدد كبير من المستعمرات الفينيقية بينها ما قام على مقربة من البحر ، او على سيف البحر وشواطئه في بعض جزر مضيق صقلية (مالطا وبنتلاريا حالياً) وعلى شاطىء صقلية الغربي وشماليها . لكل من هذه المستعمرات مدن رئيسية ، ولكن ما هي ؟ لا نعرف شيئاً على الغالب من هذا كله ، كما أننا نجهل الجهل كله تاريخ تأسيسها . ولذا نرى أنفسنا أعجز من ان نتصور العلاقات التي شدتها أصلاً الى قرطاجة ، التي عرفت على ما يبدو ان تستفيد كثيراً من الوضع الذي تسكعت فيه المدائن الفينيقية منذ أواسط القرن الثامن ق . م ، بعد ان تثاقلت عليها وطأة الغزاة الأشوريين . وكانت مدينة صور أكثر المدن الفينيقية ، في الشرق ، تعرضاً للنقمة والسلب ، لما عرفت به من الغنى العريض والثروة الطائلة، وشدة البأس، وقلة الاستعداد للخضوع والتسليم . وفي سنة ٣٣٢، بعد ان وقفت في وجه الاسكندر بعناد ورفضت بإباء ان تفتح له ابوابها ، استولى عليها عنوة ودك معالمها الى الارض ، فتجاوبت الآفاق بصدى هبوطها الذريع . وقد كان خفّ عندها كما خف عند المدن الفينيقية الأخرى الشقيقة ، كل رغبة في الاهتمام بالغرب فعرفت قرطاجة ان تستأثر لوحدها بتركة صور وصيدا وتنهض بها الى الاوج .

وقد قامت قرطاجة بعملية التصفية او التجميع هذه لا تلوي على شيء ولا تهتز لأمر ، وسخّرت في هذا السبيل ما جاش فيها من اطماع توسعية وطموح واسع محتفظة لأساطيلها التجارية بجميع مرافق الاتجار والابحار ، جاعلة من المستعمرات الفينيقية الاخرى مجرد مكاتب، وهي تعول في ذلك كله ، على سيطرتها البحرية وبطشها . فأتاح لها غناها إنشاء أسطول تجاري ضخم أردفته، عند الاقتضاء، بعمارة حربية وبجيش بري قوي، اتخذت منه أداة لنجدة الاحلاف أو لبسط سيطرتها على المستضعف منها . وتمكنت بعض هذه المدن من المحافظة ، ان لم نقل على استقلالها التام ، فأقله على شيء من الاستقلال الاداري الداخلي . من هذه المدن مثلاً ، مدينة عوتيقة . وهكذا استطاعت قرطاجة ان تحقق أهدافها الرئيسية كاملة . فقد ابتصفت ، منذ مطلع القرن السادس ق . م ، كل ما كان فينيقي الطابع مما وقع غربي خليج سيرت الكبير . وبذلك حققت في غربي البحر المتوسط وحدة عجزت أمها صور عن تحقيق شيء منه في الشرق.

وأنجزت أكثر من هذا : فتوغلت عميقاً داخل البلاد . وفي هذا السبيل قامت بسلسلة من الحروب الدامية تضرست بها الأقوام التي كانت تعارض طريقها الى التوسع وبسط رقعتها ، او

كانت تقيم على الساحل . وكان عليها ان تتحمل مغبة هذه الفتوحات الغاشمة ، اذ ما كادت روما تضيّق ، فيا بعد ، عليها الخناق وتحصرها في البقعة التي قامت عليها في الساحل الافريقي ، حتى طرأ على سلطانها ما غير من معالمها . فبعد ان كانت سيدة البحار ، عادت دولة برية مهيضة الجناح ، مقلمة الأظافر .

واصطدمت في توسعها النامي ، الفينة بعد الفينة ، بالاغريق . وهذا الاصطدام لم يتميز بالعنف في افريقيا ، عند الحدود التي تفصل بينها وبين القيروان ، حيث تقوم اراض صحراوية منفرّة . اما في اسبانيا فقداضطرت لاقتسام تلك البلاد مع مسّاليا (مرسيليا اليوم) التي اضطرت للتنازل لها عن ممتلكاتها الواقعة على ساحل البحر ، الى الجنوب . وكان الامر على عكس ذلك في صقلية التي اصبحت منذ القرن السادس ، قبل الميلاد ، مسرحاً لحروب متتالية اهرقت فيها جهود طويلة ودماء مطلولة ، اضطر معها سكان الجزيرة الاصليون في الداخل ، للاشتراك بها والتلظي بنارها . وقد تمكن القرطاجيون مراراً من محاصرة سيراقوزة ، الا انها لم تلبث ان ردت لها الضربة بعد ذلك بقليل في عهد طاغيتها اغاتوكليس الذي حاول ، في اواخر القرن الرابع ق.م ، غزو افريقيا وتجنيد حملة عسكرية عليها . وقد رجحت الكفة لقرطاجة في نهاية الامر ، اذ استطاعت ان تقيم لها ، عام ٢٦٤ ق . م ، حامية في قلب مدينة مسينا ، على مقربة من منافستها . وكان ذلك الشرارة التي انطلقت منها الحرب البونيقية الاولى ، اذ كان الرومان قد استولوا على اليونان الكبرى وحلوا محل الاغريق في صقلية ، بعد ان ضعفت شوكتهم وذهب عزهم .

فالحروب التي خاضت قرطاجة غمارها في صقلية هي عندنا ، اقل الحروب التي نهضت بها ، جهلاً باسبابها ووقائعها ، وذلك بفضل ما كتبه عنها مؤرخو الاغريق . اما حروبها الاخرى فنكاد لا نعرف عنها شيئاً يذكر . ونعرف بالتفصيل المحاولة التي قامت بها التوغل في قلب جزيرة سردينيا ، والمقاومة العنيفة التي قوبلت بها من قبل الجبليين الاشداء من سكان تلك الجزيرة ، الذين قابلوا الرومان ببأس اشد عندما حاول هؤلاء ايضاً مهاجمتهم . والشيء المهم الذي نعرفه انها استطاعت ان تسيطر ، بعد تضحيات دامية ، على سكان البلاد البدائيين ، في الداخل ، خلال القرن الخامس ، بحيث خضعت لها كل البلاد التي تعرف اليوم بتونس . ولما راح الرومان يستغلون ضدها الصعوبات التي جرتها عليها « حروب المرتزقة » ، في سبيل اقتطاعهم جزيرة سردينيا ، عهدت بامر الدفاع عن ممتلكاتها في الخارج ، الى هملقار برقا وعينته قائداً اعلى لجيوشها ، فانتهج خطة سياسية كان من بعض نتائجها اخضاع قبائل الاسبان عنوة او صلحاً . وفي اسبانيا اسس مدينة « قرطاجة الجديدة » المعروفة اليوم باسم قرطاجنة . ومن اسبانيا انطلق ابنه هانيبعل ، عام ٢١٨ ق . م ، لمهاجمة روما بعد ان هيأ لحملته جيشاً مدرباً .

ولما بلغت قرطاجة أوج عزها في القرنين الرابع والثالث ق . م ، كانت سلطتها تمتد فوق

امبراطورية مترامية الأطراف ، إلا انها مشعثة الاوصال ، يشدها بعضاً الى بعض ، المواصلات البحرية يؤمنها اسطول ضخم . علينا ان نحترز من المغالاة في تبيان ما كانت عليه هذه الامبراطورية من إصالة وجدّة . فالجديد في سيطرة القرطاجيين على البحر، انها تميزت وقامت في الشطر الغربي من البحر المتوسط الذي لم يكن سبق له ان عرف من قبل، سيادة وسيطرة من هذا الطراز وبمثل هذا الاتساع . فاضطرتها ضرورات الدفاع عن ممتلكاتها في افريقيا واسبانيا الى تركيز سيادتها البحرية على وسائل دفاعية متينة . وهذه المفارقات ، مهما دقّت واسترقت ، لها أهميتها الخاصة، اذ تساعدنا على ان نفقه ليس حقيقة الامبراطورية القرطاجية فحسب، بل ايضاً كل امبراطورية مماثلة لها ، قامت عبر التاريخ القديم ، كما علينا ان نحذر من مقارنتها بهذه الامبراطوريات التي استقام أمرها في التاريخ الحديث .

القوى : الاسطول

قيام هذه السلطنة الشاسعة والحفاظ عليها ، والدفاع الجدي عنها ، كل هذا اقتضى وجود قوات مسلحة ضخمة . إلا أن معلوماتنا حول هذا الموضوع بالذات ، قليلة ومتقطعة ، إلا انها تزداد وفرة وغنىً كلما تعلق الامر بحروبها مع روما ، هذه الحروب التي سماها الرومان : « الحروب البونيقية » ، نحتاً من كلمة *Punicus* او *Poenicus* المشتقة من كلمة *Poeni* وهو الاسم الذي أطلقوه على القرطاجيين .

ففي الطور الاول من هذه الحروب التي كانت تستهدف السيطرة على صقلية ، بلغ المجهود الحربي ذروته في السيطرة على البحر . ويستدل من أوثق المصادر بأن اسطول قرطاجة ، بلغ عام ٢٥٦ ق. م، ٣٥٠ سفينة حربية كبيرة . وتمكنت من المحافظة على هذه القوة طوال الحرب التي استمرت ٢٣ سنة ، خسرت قرطاجة خلالها ٥٠٠ سفينة بينما خسر الرومان من جهتهم ٧٠٠ سفينة . ولم يكن باستطاعة أية دولة هلينية اذ ذاك ، ان تحشد مثل هذا الاسطول الضخم ، كما تلاحظ المصادر الاغريقية التي لدينا . وليس في هذا الصدد ما يدعو للعجب او الدهشة ، اذا ما قارناه بما نعرفه جيداً عن ضخامة اسطول اثينا في عصورها الذهبية . فليس في فن السفانة القرطاجية أي ابتكار او تجديد من حيث الفن الستراتيجي ، ولا من حيث هندسة صنع السفن . صحيح ان السفينة القرطاجية هي أضخم حجماً من السفينة اليونانية ذات صفوف المجاذيف الثلاثة في عهد بريكليس[1] .

والاسطول القرطاجي الذي كان يتألف ، عام ٢٥٦ ، من ٣٥٠ سفينة كان له من الطاقة ما يتسع لـ ١٥٠ ألف محارب ، كما يؤكد مؤرخو العصر ، أي بمعدل ٣٠٠ مجذف أو بحّار و ١٠٠ جندي محارب في كل سفينة من ذوات الخمسة صفوف من المجاذيف . إلا اننا نجهل كل شيء عن

---

(١) انواع السفن المعروفة عند الاغريق هي : الـ *Triere* والـ *Tétrere* والـ *Pentrère* وصفاً للسفن المجهزة بثلاثة او اربعة او خمسة صفوف من المجاذيف، ويقابلها عند الرومان الانواع: *Trirème* و *Quadrirème* و *Quinquèrème*.

طريقة تسليحهم وتجنيدهم . ومهما يكن من كثرة السكان في المدن ، فقرطاجة كانت تجند ، مثلها في هذا مثل أثينا قديماً ، غير المواطنين من سكانها، ليتم لها مثل هذا الحشد الضخم. وكانت المدن الحليفة او الخاضعة لسيطرتها تضطر لتزويدها برديف من أبنائها هي الأخرى ، كما تجند الاغراب الذين يقطنون في مينائها ، كما تجند كتائب من الرقيق . وما ان غلبتها روما على أمرها بعد ان جهزت سفنها الحربية بخطاطيف هابطة تستحيل معها المعركة البحرية معركة برية ، لم يعد بوسع قرطاجة ان تبذل من جديد ، مثل هذا الجهد وتكروره ، فأسقط في يدها .

الجيش

بالرغم من ضخامة الأرقام التي يوردها مؤرخو ذلــك العهد ، لم تبلغ جيوشها العدد المذكور . فــلم يزد جيش هانيبعل في اسبانيا ، على ١٢٠ ألف جندي عند نشوب الحرب البونيقية الثانية. وعندما اجتاز جبال البيرينه (البرانس) متجهاً الى ايطاليا، كان قوام جيشه يتألف من ٥٩،٠٠٠ جندي . وقــد تطور فيما بعد تشكيل هذا الجيش فانخفضت كثيراً نسبة المواطنين فيه . فقد اشتركوا من قبل بحملات عسكرية حاربت خارج البلاد ، فألفوا فيه فرقة مختـــارة . ونشاهد في مطلع القرن الرابع ، الشبيبة الارستوقراطية في قرطاجة تؤلف فرقة خاصة مختارة تعرف بالطابور المقدس، بلغ عدد رجاله ٢٥٠٠ جندي. وقد فني هذا الطابور برمته في حروب صقلية . ومن ذلك الحين اخذت قرطاجة تقتصد بدم أبنائها . فهم لا يدعون للجندية او للحرب، إلا في الملمات الكبرى التي تتهدد مصير البلاد بخطر ماحق، وقد ضعفت نزعة الحرب فيهم لانقطاعهم طويلاً عن التدريب العسكري وإهمالهم له . وهذا التطور في نظام التعبئـــة والجندية ، لم يلحق أي ضرر بقرطاجة اذ راحت تتدبر شؤونها الحربية والعسكرية على الطريقة الهلينية . فكلما امتدت رقعة امبراطوريتها وانفسحت منها الآفاق ، فرضت على اتباعها الجدد نوعاً من الخدمة العسكرية، كما فرضت على الممالك والأقوام المرتبطة معها بمواثيق ومعاهدات ،مدها بفرق مساعدة . وكانت فرقة فرسان النوميد في افريقيا ذخراً لها في الملمـــات ، الى ان جاء مستنيسّا حليف روما ، وحملهم على الانتقال الى جانب روما في اواخر الحرب البونيقية الثانية. ومن جهة أخرى ، نرى قرطاجة تعول كثيراً ، منذ اوائـــل القرن الخامس ق. م ، على تجنيد المرتزقة ، ولا سيما في القرن الرابع ، فتحسن انتقاءهم من بين الافريقيين والاسبان وسكان جزر البَليـــار ، والغاليين وسكان سرديليا وجزيرة كورسكا والليغوريين والايطاليين ، حتى ومن الاغريق. لم يكن تنظيم هذه الاخلاط من أقوام متباينة العرق واللسان والتقاليد، واستخدامهم على الوجه الأصلح، والاستفادة من خدماتهم الى الحد الأقصى ، بالأمر اليسير. وهذا ما يعترف به المؤرخ الروماني بوليب ويشيد عالياً بعبقرية هانيبعل ونبوغه العسكري الفذ ، إذ عرف ان يستفيد من هــذا اللمم الى أقصى حد . وكان هذا الجيش من المرتزقة يعبأ كراديس ، وفقاً لقومياتهم ، يتولى امرهم ضباط مــن بني جنسهم دربوا التدريب العسكري اللازم بقيادة ضباط ورؤساء قرطاجيين، تعيّن لهم أعمال تختلف باختلاف الاسلحة التي بين أيديهم. وهكذا يتدربون على أفانين الحرب حتى يجيدوا أصولها . فاذا ما بدا لنا اليوم جيش هانيبعل من أكفأ الجيوش

التي قامت في التاريخ القديم ، فالفضل في ذلك كله إنما يعود أصلا ، وفي الدرجة الأولى ، لعبقرية هذا القائد الفذ ونبوغه العسكري .

فاذا ما وضعنا جانباً عبقرية هانيبعل الذي كان صاعقة حرب كما تشهد على ذلك موقعة « كان » التاريخية التي عدها شليفن نموذجاً أعلى لنصر حاسم يجندل الخصم ويبيده تماماً ، فالتجديدات التي أدخلها القرطاجيون على فنون الحرب تكاد لا تذكر . وهي تنحصر ، على الاجمال ، بفن الحصار وإقامة التحصينات الحربية وبعض انواع الاسلحة التي استخدموها في حروب صقلية في أواخر القرن الخامس لم يلبث ان قلدها اهالي سيراقوزة ، وعنهم أخذها إغريق اليونان . وكانت أسوار قرطاجة تثير دهشة معاصريها في القرن الثاني ق. م ، اذ بلغ طولها ٣٤ كيلومتراً ، وارتفاعها ١٣ متراً ، وسماكتها ٨ أمتار ، يتخللها ، على مسافة ٦٠ متراً الواحد من الآخر ، بروج واصطبلات يضم الواحد منها ٣٠٠ فيلا و ٤٠٠٠ حصان. وهندسة التحصينات هذه إنما اقتبسوها عن مدينة صور التي اخذتها بدورها عن الاشوريين . ومن مميزات قرطاجة العسكرية انها أدخلت الى الغرب الفنون الحربية المتبعة في بلاد الشرق، ولا سيما استعمال الفيلة في المعارك الحربية ، وهي خطة سار عليها الهند، وعنهم أخذها الاسكندر وخلفاؤه من بعده . وراح الملك بيروس (*Pyrrhon*) ملك ابيروس في القرن الثالث ق. م ، يتخذ من الفيلة عنصراً مفاجئاً في حروبه في صقلية. ومنذ ذلك الحين، أخذت قرطاجة تصطاد الفيلة وتطاردها وتعمل على ترويضها وإعدادها للحرب . غير ان الفيل الافريقي هو أصغر حجماً من الفيل الأسيوي ، ومنظره اقل وقعاً ورهبة في النفس من الأسيوي ، ناهيك عن ان الرومان عرفوا ، فيما بعد ، كيف يتفادون شرها وضرها عندما تقوم بالهجوم .

ليس من ينتقص من قدر القوة الحربية التي عرفت قرطاجة ، انشاءها اذا ما قيست بما درج عليه الغرب طويلاً في هذا المضمار ، قبل ان تسجل روما النجاحات التي حققتها في هذا المجال . وهذه القوة تحققها على الوجه الذي وصفنا ، لا تذهب ، مع ذلك ، بالمشاكل والمعضلات التي اثارها قيام هذه القوة وتأمين استمرارها وبقائها ، منها مثلاً : المشكلة السياسية الكامنة في السلطات الحاكمة ومنزلة اصحابها من الدولة وعلاقاتهم بالهيآت والسلطات الاخرى ، وغير ذلك من الصعوبات الاقتصادية والمالية ، التي تتمثل في توفير الاعتمادات اللازمة لآلة الحرب، والنهوض بها على الوجه الاكمل ، والتعويل على المرتزقة وغير ذلك من المشكلات المتشابكة التي تزيد الأمور تعقيداً وارتباكاً . فالجيش المحترف يمتثل طوعاً لقادته . اما الجند المرتزقة فباستطاعتهم ان يفرضوا ارادتهم ويلحفوا في الطلب ، متشددين في قبض مرتباتهم وأعطياتهم الشهرية ، وإلا ثاروا ، وتمردوا ، وتمردوا واعلنوها حرباً لا تبقي ولا تذر ، كحرب المرتزقة التي قاموا بها في اعقاب الحرب البونيقية الاولى، فكانت ثورة لاهبة اكلت الاخضر واليابس ، وكادت تقضي على قرطاجة اذ افسحت الطريق لما يعرف : « بالحرب التي لا ترحم » والتي قادت قرطاجة الى قاب قوسين وادنى من الهلاك .

النظم السياسية والاجتماعية

يكتنف الغموض هذه النظم ويغلفها الابهام بحيث نرى انفسنا عاجزين عن تحديدها لا سيا وقد خضعت ، هي الاخرى ، لعوامل عديدة قضت عليها بالتحول والتبدل . ومما يبدو من ظواهر الامور ان في المدينة ثلاث قوى او ثلاث نزعات بالاحرى ، تتباين وفقاً للظروف والصروف .

من المرجح ان تكون سارت المدينة في بدء امرها على النظام الملكي ، وهو نظام لم يلبث ان زال العمل به مع مطلع الطور التاريخي ، لتفسح المجال لهيآت حكومية ، تستبدل عاماً بعد عام ، عن طريق الاقتراع العام والتصويت الشعبي . من هذه المؤسسات او الهيآت العليا ، مجلس السوفيت *Suffètes* او القضاة . اما السلطة العليا فكانت تتمثل بمجلس الشيوخ وبمجالس اخرى دونه صلاحيات . ليس بمقدورنا ان نحدد منها: عدد الاعضاء، ولا كيفية التشكيل او التأليف ، ولا الصلاحيات التي كانت تنعم بها . والذي نعرفه عنها يكفي للتأكيد ان هذه السلطات هي في قبضة اقلية ضئيلة من سكان المدينة ، ينعم اصحابها بالثراء الوافر والجاه العريض . ولكن ما عسى ان يكون هذا الثراء؟ اعتماداً على التقاليد المروية، الفئة الحاكمة هي طبقة غلبت عليها هموم التجارة والكسب ، فاقبلت تمسك بنواصيه وتؤمن اسبابه لتستدر الربح الوفير . فسعت اليه ، اينما كان ، وطلبته انما تبدى لها ، وتلقفته باية وسيلة كانت . فهي تسبيح حوله وتضحي في سبيله بكل شيء . فلا عجب ، بعد هذا ، ان يسترسل خصومهم من رومان وغيرهم في رميهم بكل فرية ومعرّة، فيصورونهم بابشع الصور ويرمونهم باقذع الاوصاف . ومهما يكن، فقد قامت عند القرطاجيين ثروات طائلة ، تبلورت وتجسمت : اطياناً وممتلكات شاسعة واسعة ، باتساع رقعة الامبراطورية العريضة التي انشأوها لهم في قلب افريقيا . ففي المدينة طبقة من اشراف البونيقيين ، يعرف ابناؤها ، مع ذلك ، كيف يجودون بدمائهم حفاظاً على الامجاد وذوداً عن الاوطان. وهي طبقة تحب التنعم وتستسلم للذائذها ، وهي بالطبع ليست اكثر من غيرها سوء استعمال، واقل اتهاناً الوظيفة العامة، تستمسك بالسلطة وتتشبث بالكراسي وتسعى اليها . فاية اقلية تخلت يوماً ، طوعاً او اختياراً ، عن سلطة طالما شدت عليها بنواجذها ، وسيجت حولها بكل ما أوتيت من حول وطول ؟

القـادة

كثيراً ما نخص هؤلاء القادة العيش على قرطاجة وكادوا يوردونها مورد الهلكة . ففي مدينة لا تحتفظ في اوقات السلم بجيش يمتص موارد الخزينة العامة ، كان من المعقول جداً ، اذا ما شاءت ان تتفادى طغيان قادة جيش المرتزقة ، ان تختار قادتها من بين الاسر الشهيرة فيها ، وهي اسر معروفة لدينا . من هذه البيوتات العريقة ، اسرة ماغون التي اخرجت لقرطاجة ، ابتداء من القرن السادس . ق . م ، ولمدة اربعة اجيال متعاقبة ، عدداً من القادة تولوا قيادة الحرب ضد الاغريق . ومن هذه الاسر الشريفة اسرة آل برقا التي انجبت فيمن انجبت من مشاهير الرجال ، القادة هملقار وابنه هانيبعل . وهـذه الأسر التي تحدرت

اصولهـــا من الاشراف ، عرفت كيف تزيد المدينة سناءً على سناءٍ ، وغنى ورفعة عن طريق الانتصارات الحربية التي حققتها، كما عرفت ان تؤلب حولها الاتباع والأنصار يشدون منها الازر وينصرونها في الازمات، فيحسبون لها الف حساب . وقواد الحرب هؤلاء، يجري انتخابهم من قبل الشعب ، بعد ان يجري ترشيحهم لهـــذا المنصب من قبل مجلس الشيوخ . فيتسلمون مقاليد الجيش وقيادة الحرب في حملات وغزوات حربية ينتدبون لهـا ، دون تحديد مدة عملهم باستثناء عزل طارىء . يتسلم القادة الامر متمتعين بسلطة مطلقة ، وبمعزل عن نصح المستشارين وعيون المراقبين ، يديرون امور المنطقة التي يعهد بهـا اليهم كما يرغبون . فالقادة من آل برقا هم نواب ملك حقيقيون ، وهانيبعل يصرّف القضايا ويقضي بها باعتباره السيد المطلق غير المنازع ، ويدير الحرب ضد روما ويصرّف دبلوماسيتها حتى ساعة رجوعه الى ارض الوطن . ورؤساء المرتزقة الذين يتولون شؤون الجيش ومهامـــه ، هم رؤساء من قِبله ، لا يعرفون سلطة غير سلطته ، ولا يتحســون باي احترام للادارة المدنية القائمة في قرطاجة . أضف الى هذا كله القـادة الاغريق في صقلية ، وهي منهم على قاب قوسين وادنى ، كيف انهم يستأثرون بملء السلطة في المدن التي ينتسبون اليها ، او في المدن الاخرى التي يعملون على خدمتها ، فيفرضون عليها دكتاتورية غاشمة مستبدة . ففي مثلهم ما فيه من اغراء وتشويق يحفز بقواد قرطاجة على الاقتداء بهم واتيان ما يسمى به هؤلاء للاستئثار بالسلطة .

فلاعجب ، والحالة هذه ، ان تحتاط الادارة المدنية في قرطاجـــة للامر ، وان تتحرز ضد المفاجآت. فهل كان ثمة ما يبرر عندهم مثل هذه الظنة ؟ فالمرويات المتوارثة تأتي احياناً على ذكر بعض محاولات انقلاب من هذا النوع دون ان تستفيض في التفاصيل ، وهي محـــاولات نادرة لعمري ، اذا ما قيست بهذه الاجيـال الطويلة المشحونة بالحروب . ولعل ندرة هذه المحاولات وقلتها تعود اصلاً الى ان جيوش المرتزقة كانت تحارب ، في الغالب ، خارج البلاد ، فلا يرجع القائد اليها بعد انتهاء حملته او مهمته الا ويكون قد سرح الجيش . ومهما يكن ، فالاقليـــة الحاكمة في قرطاجة كانت جد يقظة . وما ان استشعرت بتفاقم نفوذ اسرة ماغون وخامرتهـا فكرة امكان عبثهم بنظام البلاد الاساسي حتى راحت تقرر، في اواسط القرن الخامس ق . م ، إنشاء مجلس قضاء اعلى ، يتمتع بالعصمة يستدعي للمثول امامه ، للمناقشة وتأدية الحساب ، ايّاً كان من الناس ، مهما علا شأنه . وكثيراً ما اصدر هذا المجلس حكمه بالاعدام صلباً على القـادة الفاشلين او العابثين منهم ، او على ذوي المطامع الخطرة بينهم ، حتى اذا ماراح هؤلاء يتفادون بالانتحار العقاب الذي استحقوه ، راح الشعب ينتقم لنفسه منهم بالتمثيل باجسامهم .

غير ان مَثَل القادة من آل برقا يرينا ان الخوف من مغبة الفشل ونتائجه لم يكن ليَفتَّ من عضدهم . فهم في وضع مؤات يحسدون عليه . فالمصادر الرومانيـة تتهمهم باصطناع الاحزاب وشراء الانصار بالمال والاعطيات ، وهو اصطناع محتمل ليس ما يمنع تصديقه . ولكن أنى لنا ان نثق بتهم الاعداء وتقولات الخصوم وتخرصاتهم ؟ فالمناجم المعدنية التي حفلت بها اسبانيـــا

كانت تدر على قرطاجـــة المال الوفير ، كما ان الانتصارات الباهرة التي سجلها هانيبعل على الرومان في بلادهم ، كل ذلك اضفى عليه سناءً ليس بعده من سناء ، وفخاراً لا يزال التـاريخ يحدثنا عنه باعجاب . وكل الظواهر تدل بوضوح انه كان باستطاعتهم ان يعولوا ، في مناهضتهم الطبقة الارستوقراطية الحاكمة ، على قوى اخرى تكمن في الشعب .

الشعب

هو المجهول الاكبر في قرطاجة من الوجهـــة السياسية .

ويؤكد الجغرافي الاغريقي المشهور سطرابون، ان سكان هذه المدينة، بلغ عددهم قبيل زوالها ببضع سنوات، أي من نحو ٥٠ سنة قبل فقدانها امبراطوريتها ، ٧٠٠,٠٠٠ نسمة . فقد كانت تحتل بالفعل، رقعة واسعة من الارض تقع بين بحيرة تونس وهضبة بيرسا (من ضواحي تونس اليوم وهي المعروفة بضاحية سان لويس) وبين ضاحية ميغارا الى الشمال. وكان من نشاط الحركة الاقتصادية والتجارية فيها انها صارت مورد رزق لعدد كبير من السكان، معظمهم بالطبع، من الطبقة الكادحـــة ومن مختلفي العروق والأصول . وكان المنتمون الى العرق السامي في المدن الفينيقية ومستعمراتها يؤمّون «صور الغربية» المزدهرة ، المتدفقة حركة ونشاطاً؛ بينا نرى صور الشرقية ترسف تحت عبودية الفاتحين والغزاة الذين أناخوا على صدرها ، كما ان اغريق صقلية أنفسهم كانوا يتجهون اليها ويقيمون فيها . فقوانين البلاد كانت تبيح الزواج من الأجانب كما يستدل من البطل الماغوني الذي صرعه الطاغيـــة جيلون السيراقوزي في مدينة هيمار *Himère* ، عام ٤٨٠ ، اذ كان ابن إحدى سيدات سيراقوزة .

فكم كانت لعمري ، نسبة الرعايا ، والارقاء في هذا العدد الذي ذكره سطرابون؟ وما نسبة الاجانب او الاغراب بينهم الذين لا حقوق سياسية لهم ؟ وهل كانوا يفرقون – وبالايجاب فعلى أي أساس – بين المواطنين السلبيين وبين المواطنين الايجابيين ؟ وكيف كان هذا الشعب يتوزع ؟ وما هي هيآته ومنظماته ؟ كلها أسئلة ترتسم على الشفاه وستبقى دوماً دون جواب .

والشيء الثابت الاكيد انه قام في قرطاجة ، هيئة شعبية لم تتمتع مدة طويلة بأية سلطة عملية لا تتعدى التصديق والموافقـة على المقترحات والمشاريع التي يضعها مجلس الشيوخ وهيأة مجلس القضاء . وكم تجاهلت هاتان الهيئتان، وجود المنظمات الشعبية ، عندما تكونان على اتفاق ووئام؟ وقد حدث ، فيما بعد ، ما أوجب تطويرها وزاد في شأنها ونفوذها . فهل جاء هـــذا التطور بصورة عفوية ، طبيعية ، ام جـــاء نتيجة عمل مدروس وخطة موضوعة ، تمخض بها الشعب متأثراً ، بمثل المدن الاغريقية ، او مدفوعاً اليه دفعاً من قبل بعض قادة الجيش ، تعبيراً منهم عن معارضتهم لمجلس الشيوخ ؟

مهما يكن ، فما ان انطلقت الحرب البونيقية الثانية حتى راح الشعب يعبر عن إرادته، فبرز بوضوح ، الشأن الذي يحظى بـه حزب هانيبعل في قلب هذا الشعب . ولم يخفّ هذه النفوذ او يضعف على أثر الكارثة المؤسفة التي انتهت اليها هـــذه الحرب ، والشعب يدغدغه الامل بأن



الشكل ٤ – قرطاجة

يتمكن هانيبعل من اصلاح ذات البين والاعوجاج الذي يعتور دستور البلاد، فيضع حداً لِعَبَث الحاكمين ولسوء تصرفاتهم .

هذه النقضبة يثيرها هانيبعل بين صفوف الشعب وطبقاته والآمال العراض التي راودت خياله، كل ذلك حمل خصومه على السعاية بـه عند أعدائه الرومان الألداء ، فصوروه لهم بعبعاً يخشى شره ولا يؤمن جانبه. فقرر ان يتوارى ، ويبتعد عن البلاد لئلا يقع فريسة بين أيديهم فينكلوا به . هذا الحادث بعينه يجعلنا نتصور الصعوبات التي تخبطت بها قرطاجة ، فيما بعد ، أي قبيل الحروب البونيقية الثالثة وفي أثنائهـا ، اذ ما زلنا نتبين بين ثنايا الشعب القرطاجي ، حزباً ديموقراطياً حله، بضغط منه على ان يتخذ إجراءات جذرية. ومهما تكن مصادرنا ضعيفة ومراجعنا قليلة ، هذه المصادر المتعلقة بحوادث سنوات قرطاجة الأخيرة ، فهي تتيح لنا ، مع ذلك، ان نتبين بوضوح ، شيئين مهمين : وقوع أعمال شغب وعنف ، واستعداد فريق من الناس للاستعانة بالأجنبي الدخيل والتعاون معه. فلكل من الرومان ومسّينيسا أنصار وأتباع يظاهرونهم ويشدون منهم الأزر : هذا مندفع في عاطفته، والآخر وصولي مأجور، تحدثه نفسه بالوصول الى الكرسي والاستئثار بالسلطة ، وخطر الموت الزؤام يرفرف فوق المدينة الثائرة ، المهيضة الجناح ، وقد ثارت فيهـا الأطماع ، وتلاحمت المصالح ، وتصادمت متنابذة متقاتلة وأصبحت سوقاً راجت بأسفل الدناءات كما انها حفلت ، من جهة اخرى ، باروع صور البطولة .

فالاسناد التاريخي يعول هنا على التاريخ القديم الذي تتجهم مصادره وتقسو مراجعه، وكيف لا تقسو وهي في غالبيتها مصادر إغريقية رومانية . فلا عجب ان تسترسل في وصف هـذا الوضع المحموم، الشديد الغليان وفقاً لأغراض الكتاب والمؤرخين. وهذا الوضع لأبعد بكثير من ان يصور حقيقة ما كانت عليه قرطاجة يوم كانت هي نفسها . فقد كان لها ، هي الأخرى ، وقفاتها الكبرى وساعات الفصل البكر . والمؤرخ يرغب من الصميم في معرفة مسلك الدولة ، وما هو بالضبط موقف النظام الارستوقراطي ، مـن السلطة الاستثنائية التي تمتع بها فريق من الشعب كان من الطليعة بين من تضرّسوا بهذه الاحداث الجسام وتربصوا بها . فمتى يا ترى ، وكيف ، انتقلت السلطة العليا من يد اوليغرشية ضيقة الى يد الشعب ؟ يؤسفنا كثيراً ولا شك ، ان نجهل كيف سقطت هذه المدينة بين أشداق الموت فتلقفتها ثنايا الدمار ، فدفن، ربما الى الأبد، سر هذه الوقائع والاحداث المنيفـة التي هزت المجتمع الافريقي اذ ذاك ، والتطورات التي مرت بها او عايشتها التي كان من شأنها ان تساعدنا هنـا ، في هذا الظرف بعينه ، على تفهم الحقيقة، وهناك، بعد مقارنتها بظروف شبيهة بها ، على تفهم ما كانت عليه اوضاع القوى الشعبية وميولها المختلفة ونوازعها في خطرها العنيف .

الامبراطورية القرطاجية والتجارة البحرية

من حسن الحظ ويمن الطالع ان يكون الوضع الاقتصادي أقل غموضاً وأكثر وضوحـاً منه في الوضع الاجتماعي

والسياسي، والا لكان أسقط في ايدينا لو لم نر قرطاجة ، وهي مدينة فينيقية في الصميم ، مرفأ بحرياً وميناءً تجارياً قبل كل شيء. الا انه من المثبط للعزم والمخيب للامل الا نستطيع التحديد، على وجه الدقة ، لمواقع احواض هذا المرفأ ، او هذه المرافىء كما هو اصح ، ونتتبع التطورات التي مرت بها وصارت اليها ، اذ كان لها بالفعل مرفآن : احدهما تجاري ، والآخر حربي عسكري ؛ او ان يتعثر بنا الخيال الجنح فنراها مقتصرة على هذه الغدران او البحيرات المتواضعة الماثلة في مرأى العين اليوم . فعلى الخيال ان يلهب نفسه فيوسع من جنباتها لتستوعب هذه الاساطيل الجرارة التي سيطرت، اجيالاً طوالاً، على حوض البحر المتوسط الغربي وتحكمت، سيدة غير منازعة، بمنافذه ومخارجه.

والجدير بالملاحظة هنا مما يُعد ابتكاراً جديداً في تاريخ البشرية ، هذا الدور النير والمساهمة الواعية التي اسهمت بها الدولة لتنشيط الحركة الاقتصادية عن طريق إنشاء عدد من الاحتكارات الحكومية لبعض الخامات او المواد الاولية ، فحصرت استثمارها ونقلها بالاسطول القرطاجي التجاري . ولعل اعجب ما في هذا كله ، وأدعاه للحيرة الحفاظ على سرية العملية والتشدد في صيانتها وعدم البوح بها ، مع بذل الجهد لإتاهة المتتبعين الجادين في الاثر وتعمية معالم الطريق عليهم ، وذلك باشاعة الاخبار المرعبة والمرويات المخيفة حول الطرق البحرية التي كانوا يسلكونها اليها . ولم تكن الدبلوماسية القرطاجية تتورع او تتهيب عن استعمال القوة ، في هذا السبيل ، فعقد أولو الامر في قرطاجة ، مع الاتروسك ، كما عقدوا مع الرومان فيما بعد ، مواثيق واتفاقات تحذر على هؤلاء واولئك تخطي بعض الخطوط او الحدود المعينة. من ذلك مثلاً ، معاهدة عقدوها مع الرومان ، في القرن الرابع، الزموهم بعدم الاتجار مع سردينيا وافريقيا او تشييد مدن لهم فيها، كما منعوا عليهم الرسو فيها الا للامتيار واصلاح ما يطرأ من عطل على سفنهم، ليس الا . فاذا ما ارغمتهم العواصف الهوجاء على ذلك ، كان عليهم ان يغادروها خلال خمسة ايام . وهكذا نرى قرطاجة تحتفظ لنفسها ، سواء أسمحت للسفن دخول مرفئها او مرافىء المدن التابعة لها او التي تسيطر عليها في صقلية ، بحق الإتجار على سواحل افريقيا الشمالية غربي القيروان او في القسم الجنوبي من شبه الجزيرة الايبيرية التي كانت بحق ، اغنى المقاطعات الاسبانية طراً بمناجمها ، ولا سيما بمعدن الفضة والزئبق .

ومما هو ادهى واعظم من هذا ، فقد تجاوزت اساطيلها الى ما وراء منافذ البحر المتوسط ، فاخذت تتلمس لها طرقاً ومعابر جديدة في المحيط الاطلسي ، حرصت على ان تكون بالطبع تحت مراقبتها واشرافها الدقيق . فقد انفذت ، في اواسط القرن الخامس ق.م، بعثة تجارية تحت امرة البحّار الجريء عملقون فبلغ بمهارته الجزر البريطانية بحثاً عن معدن القصدير وايجاد طرق جديدة في تصديره تنأى عن رقابة الغالبين. فلم يكن أخفى على افهام الناس ومعرفتهم، من سبل التجارة البحرية مع اوروبا الغربية والشمالية من جراء محافظة البحارة الساميين على

سرية هذه الطرقات التي كانوا يسلكونها وابقائها بعيدة عن الانظار . فهل كانت هـذه التجارة تتم رأساً ومباشرة او تجري بالواسطة ؟ ومهما يكن فالدلائل تدل على ان قرطاجـة نفسها لم تشترك على نطاق واسع بهذه الحركة ، بل تنازلت عنهـا لابنتها وربيبتها مدينة غاديس التي كانت تعاملها بشيء من الحرية لم تنل بعضه ولم تحظ بمثله المدائن الاخرى الفينيقية الاصل . ولذا راح سكان هذه المدينة يقومون بالامر باسمها وتحت رعايتها ، وهم على اشد من اليقين من مؤازرة قرطاجة لهم في حراستهم الشديدة لمنافذ المضيق الغربية . وهذه الصرامة في التشديد على منافذ البحر تحفزنا للتساؤل كيف تمّ للبحـار المرسيلي بثياس ان يفوز بثقتهم ، ليقوم في اواخر القرن الثالث ق . م برحلة طويلة في هـذه المناطق حملته الى مشارف ايكوسيا في الشمال من انكلترا والى شواطىء الدانيمارك . فلم يبلغ علمنا ان بحاراً يونانياً آخر غيره سبقه الى مثل هذه الرحلة او سار على منواله واحتذى حذوه من بعده في رحلة لاحقة .

اما في الجنوب، على موازاة الساحل الافريقي فقد رغب القوم ان يستوردوا رأساً حاجاتهم من محاصيل البلاد الاجنبية ، فطلبوا الذهب من السودان ، محاولين ما امكن ، الاستغناء عن خدمات القوافل الغالية التكاليف التي كانت تجوب ارجاء الصحراء لتبلغ منهـا مشارف البحر المتوسط. وكانت مدينة غاديس بمثابة مستودعات ضخمة تختزن فيها هذه المحاصيل. ولدينا وثيقة مهمة للغاية ، الا انها فريدة من نوعها مع الاسف ، تثبت ان القرطاجيين جلّوا عالياً في هـذا المضمار . والوثيقة المذكورة نص يوناني يصف لنا رحلة بحرية قام بها رحالة قرطاجي آخر ، من معاصري عملقون ، هو « الملك » حنون ، من اعضاء مجلس السوفيت ، ومن سلالة آل ماغون الاماجد. فقد كتب وصف هذه الرحلة الجريئة ونقشها محفورة على صفائح الشبهان واودعهـا احد معابد قرطاجة . فبعد ان اقلع من المرفأ التجاري وتحت امرته عمارة بحرية تتألف من ٦٠ سفينة حملت زهاء ٣٠ الفاً من المعمرين القرطاجيين ، بين رجال ونساء اتجه غرباً، واسس خلال رحلته هذه سبع مستعمرات، ابعدها الى الغرب مدينة سرنه *Cerne* او قرنة ، على احدى الجزر القريبة من سواحل المغرب. ثم جدّ في المسير بحراً الى ان وصل نهراً « يمـور بالتماسيح وفرس البحر » . وقد راح المؤرخون يمعنون النظر ويطيلون التملي في هذه المعلومـات والفوائد التي تكشف عنها دون ان يتفقوا رأياً على تعيين الأمكنة الجغرافية التي تشير اليها وتحددها. اذ احب بعضهم ان يرى في النهر المذكور الذي تلازمه حيوانات استوائيـة ، نهر السنغال ، في ادنى تقدير ، بينما رأى البعض الآخر فيه وادياً من اودية المغرب . وعسى ان يتمكن علماء الآثار من العثور على ما يلقي ضوءاً جديداً على معلوماتنا هذه، تكشف عن حقيقة المواقع والامكنة التي أهلها هؤلاء المعمرون ، كما تفضي الى تحديد مدى احتلالهم لهذه المواقع عن طريق فحص معالم الخزفيات ودرس بقايا الفخار التي خلفوها وراءهم .

ليس من الحكمة ولا من اللائق بشيء ان نسترسل في التفسير والتعليق ، لأن الغموض لا يزال يكتنف هذا السر من جميع الوجوه . وليس من تقليد رصين ، ولا من تواتر مكين يصح

اعتماده والركون إليه للقول مع القائلين ان القرطاجيين ، كرروا بالمعكوس ، الدورة الجغرافية التي اضطلع بها من قبـل بحارة فينيقيون لحساب فرعون مصر نيخاو . امـا فيما يتعلق بأسفارهم البحرية على محاذاة سواحل المغرب ، فعلينا ان نسترشد بالضوء الكشاف الذي يسلطه هنا ابو التاريخ ، المؤرخ اليوناني هيرودوتس ، إذ وصف لنا في القرن الخامس ، وهو العصر الذي تمت فيـه ، على الأغلب ، رحلة حنون الاستكشافية ، النهج الذي اتبعه وسار عليه البحارة القرطاجيون في اعمالهم التجارية ، وهو نهج يزعم مؤرخنا انه اقتبسه عن القرطاجيين أنفسهم. كان البحارة التجار يرضبون سلعهم على مقربة من الشاطىء ويضعونها في مرأى العين ، ثم ينسحبون داخل سفنهم فيأتي سكان البلاد ، إذ ذاك ، ميممين الدخـان القريب المتصاعد إيذاناً واعلاناً ، فيضعون الى جانب السلع المعروضة مـا يرونه معادلاً من الدراهم أو الخامات الأخرى لثمنها ثم ينكفئون بدورهم ويبتعدون ليفسحوا المجـال من جديد للتجار فيحملوا ثمن سلعهم اذا ما وجدوها متعادلة ، وإلا تركوهـا وشأنها توكيداً للفريق الآخر باجحاف الصفقة واعراباً له عن الضرر الذي ينزل بهم ، وان الثمن المقترح بخس ، وانـه يترتب عليهم بالتالي ، رفعه وزيادته اذا شاؤوا ان يتسلموا البضاعة المزجاة . كل هذا وليس من فريق او جانب يلحق الضرر او ينزل الأذى بالفريق الآخر. فالقرطاجيون لا يأخذون الذهب قبل ان تتعادل قيمته مع ثمن البضاعة ، كما ان سكان البلاد لا يمسّون هذه السلع قبل ان يتسلم القرطاجيون ثمن بضائعهم ذهباً . الصورة جميلة حقاً ، وأخاذة ، ولكن اكثر مما يجب ، وايرادها على هذا الشكل يثير الظنون . فالمدهش في القضية ليس هذه المقايضة وما يتخللها من ثقة أو عدم ثقة ، وقد تكون صورة لما سبق أو جرى في زمن مضى وبين اقوام وفرقـاء ذهبوا وولوا. ولهيرودوتس راوي القصة وعارضها فضل السبق . ولكن ليس مـا يؤكد صحة ما رواه المؤرخ اليوناني في سرده هذه القصة ، ولم يكن سردها على ما نعتقد الا من باب الإيهام للمستحب والتغرير المستملح.

ولعل أسلم المواقف الآن واحكمها هو ان نقتصر عـلى التنويه بالطابع الرسمي والاعتراف الحكومي للمغامرات الجريئة التي قـام بها عملقون وحنون في الكشوف الجغرافيـة التي غامروا في سبيلها . وعندمـا حدثت هذه المغامرات المثيرة لم تكن قرطاجة سوى مدينة استطاعت المدن الاغريقية في صقلية إيقافها عند حدودها . والحال لم يكن إذ ذاك ، في مقدور أية مدينة يونانية ، حتى ولا أثينا نفسها التي كانت آنئذٍ في أوج عزهـا ان يجيش في صدرها شيء من هذا . ففي عـالم البحر المتوسط ذي الآفـاق المحدودة على رحبها ، ارتكض قلب قرطاجة وجاش بأمور عديدة، تدعو للاعجاب، لم تكن لتزول بسرعة لو تيسر لنا من المصادر ما يمهد لنا السبيل السوي للمعرفة الكاملة .

الحياة الاقتصادية في قرطاجة ومواردها الوافرة

لعبت الحركة التجارية في اقتصاديات قرطاجـة دوراً بارزاً في ازدهـار هذه المدينة كما تؤيد ذلك المصادر التي خلفتهـا لنا العصور القديمة .

غير ان قرطاجة لم تعرف يوماً صناعة استبدت جودتها بالاذهان . فقد استطاعت ان تؤمن

لنفسها الخامات التي كانت بحاجة ماسة اليها ، اما لقرب تناولها لها او لنقل القوافل البرية والاساطيل الحربية . من ذلك مثلاً : صباغ الارجوان ، والنحاس ، والقصدير وغير ذلك من المعادن الثمينة وريش النعام وبيضه ، والعاج ، والحجارة الكريمة وخشب الأرز ، وخلاف ذلك ، وهي مواد وخامات لم يبدُ لنا ان صناع قرطاجة تمكنوا فيما ندر ، من صنع حاجيات ثمينة ذات ذوق رفيع يستبد بأذواق الأثرياء وتغريهم باقتنائها ، بالرغم من ارتفاع ثمنها وعلو اسعارها . فلم يبلغنا يوماً انهم توصلوا الى خلق أو استنباط طراز فني معين . فالكماليات الغالية الثمن لم تشبع يوماً رغائب الارستوقراطية المحلية ولا صدّرت قرطاجة شيئاً يذكر منها . فقد قصّرت قرطاجة ، في هذا المضمار ، عن بلوغ المستوى الفني للمهارات الصناعية التي سجلتها المدن الفينيقية في شرقي البحر المتوسط وعرفت ، بالرغم من المنافسة الشديدة التي تعرضت لها ، ان تحافظ عليه خلال الأجيال القديمة المتطاولة . فمن بين هذه المصنوعات التي انتجتها ، عرفت صناعة السجاد وبعض الوسائد ان تستأثر بذوق الاغريق فيجدّون في أثرها .

وعلى عكس هذا تماماً ، توفرت قرطاجة على صنع الحاجيات العادية ذات الاستعمال الدائم وانتجتها بكثرة ، وهي صناعة راجت سوقها واستبدت مصنوعاتها في عهد متأخر من تاريخ هذه المدينة ، مع انها كانت تزخر بما تستورده من هذه المصنوعات ، من بلدان المتوسط الشرقي : من فينيقيا ، وبلاد اليونان ، ومن مصر التي كانت تصدر تعاويذ الخنافس المقدسة . وأخذت بالتالي هذه المستوردات تنقص ويتدنى معدلها كما تشهد على ذلك مخلفات القبور التي عثر عليها المنقبون والتي تنطق عالياً بقيام صناعة وطنية ناشطة ، متنوعة ، منذ القرن السادس ق.م. ، إلا انها صناعة مقلدة في كثير من انتاجها ، تقتبس نماذجها وطرق صنعها ، وطراز زخرفها من الخارج ، اذ ان استيراد هذه الحاجيات لم ينقطع حبله قط ، باستثناء الحاجيات المستوردة من وادي النيل ، التي استبدلت وحل محلها مصنوعات أتروريا وكمبانيا . ومن الطبيعي ان تكون قرطاجة نشطت الى تصدير منتوجاتها الصناعية بأسعار رخيصة ، اذ اننا نرى نماذج كثيرة من هذه المصنوعات في عدد كبير من الاقطار الواقعة حول حوض البحر المتوسط الغربي ، كالفخار والخزف والزجاج . وحري بالملاحظة ان السواد الاعظم من مستهلكي المصنوعات القرطاجية وزبائنها ، كانوا من سكان الاقطار والبلدان الواقعة على مقربة من شواطىء البحر ، وهم على الغالب من رعاياها وحلفائها والموالين لها . اما انتشار هذه المصنوعات وتغلغل استعمالها في الداخل ، بين الأقوام المتوحشة ، فكان يجري على نطاق ضيق . فهي من القلة والندرة بحيث تلفت النظر ، لا سيما في مقاطعات افريقيا الشمالية ، وهو أمر يجب رده أصلاً الى فقر السكان الوطنيين وما كانوا عليه من خشونة الطبع وتخلف الذوق عندهم .

فلم تكن الصناعة ، والحالة هذه ، لتدرّ على قرطاجة أرباحاً طائلة . فالدخل الكبير ، جاءها ، ولا شك ، من تجارتها الواسعة . فقد كانت سوقاً كبيراً لخزن البضائع وتفيقها بلنشاط

في الاقطار الواقعة حول حوض البحر المتوسط . فتحشد في عنابرهـــا ومخازنها الخامات التي كانت قوافلها البرية والبحرية تعمل على جمعها وحملها من الاقطار الغربية . وعــلى هذا المنوال نسجت في معاملاتها التجارية مع البلدان الشرقية ، وهكذا استطاعت ان تؤمّن بيسر،ما تحتاج اليه من المواد الغذائية ، الا انه لم يبد انها صدرت للخارج شيئاً كبيراً منهـا . فالبلدان الإيجية التي كانت تؤلف سوقـــاً كبيراً للحبوب عرفت ان تؤمن حاجتها من البلدان المجاورة لهـا . فبعد ان عولت طويلاً على صقلية وبلاد اليونان وجزرها في سد حاجتهـا من الخمور ، لم تلبث ان اصبحت قادرة فيا بعد ، على بيع مقادير كبيرة من محاصيل النبيذ والفاكهة عندهـــا الى البلدان الغربية . وهذه الحركة التجارية الصارمة التي أمنت دخلاً كبيراً للدولة القرطاجية، خير ما تمثل في اعمال السمسرة والعمولة وحركة النقل . وهذا ما يفسر لنا وجود مثل هذا العدد الكبير من القرطاجيين في المدن الاغريقية : في صقلية وبلاد اليونان وجزرهـا ، كما تشهد بذلك المصادر التي لدينا . أما خارج اليونان فليس مـا يخولنا الجزم بالعكس ، مهما قلت المصادر التي بين ايدينـــا وندرت . فالعلاقات الناشطة التي أقامتها مـــع مدينتي اغريجانت وسيراقوزة كانت ثابتة مستمرة بالرغم من الاصطدامات الحامية المتكررة التي وقعت بين قرطاجة والاغريق في صقلية . فليس من باب الاتفــاق والصدفة ان تكون بعض نواحي حضارتها تفاعلت الى حد بعيد ،بالحضارة الهلينية .

ولما كانت الامور على مثل هذا النحو الموصوف ، كنا نتوق لو نرى قرطاجة سكّت لها العملة في وقت مبكر من نشاطهـــا التجاري المحموم . ولكن شيئاً من هذا لم يحصل . والظاهر انها قررت الأخذ بهذا العرف بضغط من الاحداث ، اذ كان عليهـــا ان تدفع مرتبات جيش لجب من المرتزقة . فمهدت بهذه القضية في بادىء الامر الى مستعمراتها العديدة في صقلية، وذلك حوالي اواخر القرن الخامس ق.م. وكان لا بد من مرور قرن كامل قبـل ظهور القطع الاولى من السكة او العملة القرطاجية ، على انواعهـــا الثلاثة : الشبهان والفضة والذهب . إلا انها سكة خشنة الضرب والصنع . والظاهر انها استعملت في اسواقها عملة يونانية كما تدل على ذلك قطع المسكوكات التي عثر عليهـا بين الانقاض، مع انها لم تكن لتفتقر للمعادن الصالحــة لسك العملة ، مفضلة استعمال السبائك في المقايضات التجارية تجريهـــا بين أقوام بدائية ، متخلفة في تطورها .

ولكن التجارة وحركتها الناشطة لم تكن وحدها سر ثروة قرطاجة وغناها ، هذه الثروة التي صادفت في جمعها ازمات وصعوبات حادة، كما يستدل ذلك من الآثار التي عثر عليها في بعض القبور، خلال القرن الخامس، مثلاً وان كنا لا نستطيع ان نتبين بوضوح ، طبيعتها وماهيتها لقلة المصادر لدينا . ومع ذلك فالانطباع العام الغالب هو انطباع ازدهار كلي . فالى جانب الموارد الطائلة التي كانت التجارة تدرها عليها ، هنالك مناجم الفضة في اسبانيا التي تمكنت قرطاجة من

استملاكها واستثمارها بعد الانتصارات الحربية التي سجلها القادة العسكريون في تلك البلاد ، اذ عمدوا في البدء للحصول عليها والاستئثار بها عن طريق مقايضة مصنوعاتها مع سكان البـــلاد . والى هـــذا يجب ان نضيف ايضاً رسوم الضرائب التي كانت تجبيها بقسوة لا تعرف الشفقة من البلدان والشعوب الواقعة في مدارها وتحت رعايتها . كذلك يجب الا نسقط من حسابنا هنـــا الزراعة ومرافقها العديدة لا سيما بعد ان بسطت هذه المدينة نفوذها المباشر على جانب كبير من افريقيا الشمالية . وبفضل اليد العاملة المحلية التي كثيراً ما رزحت تحت السخرة والاشغال العامة المرهقة ، عرف القرطاجيون الذين كانوا بحارة جريئين وتجاراً ماهرين، ان يبلغوا مكاناً مرموقاً بين الشعوب التي نهضت بمرافق الزراعة الى الاوج في العالم القديم . يجب الا يغرب عن البـال قط كيف ان الفينيقيين اقبلوا على استثمار خيرات الارض الواقعة الى ما وراء البلاد التي كانوا يقطنونها. فكيف بنظرائهم القرطاجيين في افريقيا حيث خصب التربة كان مضرباً للمثـل عند الاقدمين، بجودة محاصيلها ووفرة خيراتها، مما حدا بالقدامى من الكتبة والمؤرخين الى التمثل في هذا المجال بذكر ارقام خيالية في معرض حديثهم عن خيرات الارض ووفرة المحصول: فقد بلغ من خصب التربة ، في مقاطعة طرابلس الغرب ، كما يؤكد هيرودوتس، ٣٠٠ في الواحـــد. وخير ما تمثل به الزراعـــة عند البونيقيين غرس الاشجار المثمرة ، كالدوالي وشجر الزيتون والتين والرمان وغير ذلك . وعنهم اخذ الرومان ، في القرن الثاني ق . م ، شجرة التين الافريقي كما نقلوا معها شجرة الرمان وسموها : « التفاح البونيقي » . وعندمـــا كان كاطون الاب يعرض على انظار زملائه من اعضاء مجلس الشيوخ اكواز التين الطازجةالتي نقلها معه من افريقيا الشمالية، كان يحرص ان يشدد امامهم بالاكثر،على طزاجة هذه الفاكهة وطراوتهـــا ، مورّياً بذلك عن الخطر الداهم الذي كان يتهدد روما في استبقائها قرطاجة بعد معركة « زاما » الفاصلة . ومن الجائز طبعاً، التفكير بانه اختار ، عن سابق قصد وتصمم،هذه الثمار ليعرّض امامهم بهذه المدينة التي كانت خصماً عنيداً وعدواً لدوداً لوطنه ، تشديداً منه على هـــذه المنافسة بين المدينتين المتجلية ، على اتمها ، بين زراعة الاشجار المثمرة المزدهرة في قرطاجة وبين ما كانت عليـه من وضع متواضع في ايطاليا ، دعوةً منه لتشجيعهـا. قامت هذه الزراعة عندهم على اسس ومناهج علمية مدروسة ومتطورة ، اذ كان لقرطاجة مهندسوها وخبراؤها الزراعيون الذين عرفوا ان يفيدوا ، الى حد بعيد ، من كتب الزراعة والفلاحة التي وضعها من سبقهم من الكتبة الهلينيين. ولعل اشهر هؤلاء المهندسين واخلدهم اسماً وذكراً القائد « ماغون » الذي وضع موسوعة زراعية بلغ من ذيوع شهرتها ما حمل مجلس الشيوخ الروماني على اتخاذ قرار بنقلها الى اللاتينية، كما تم نقلها فيما نعرف الى اليونانية، وتولاها كثيرون بالشرح والتعليق والتبسيط .وبقيت هذه الموسوعةطائرة الشهرة طوال العهد القديم، اذ كثيراً ما رجع اليها علماء الزراعة من الرومان واغترف منهـــا مهندسوهم ، وعولوا عليها في تنقيباتهم وتحقيقاتهم، امثـال كاطون (*Caton*) بليني (*Pline*). ويستدل من هذه النقول ان القرطاجيين كانوا اقل اهتمامـــاً بالحبوب منهم بالاشجـار المثمرة

والخضراوات ، والبقول وتربية الماشية ، والنحالة وغيرها من المرافق الزراعيـة التي بلغت من العناية والاتقان ما درّ عليهم الارباح الطائلة .

وليس ما يصور لنا النتائج التي بلغتهـا قرطاجة في هذا المضار أحسن من الوصف الأخاذ الذي تركه لنـا ديودورس الصقلي ، وذلك في معرض حديثه عن الحملة العسكرية التي جرّدها اغاتوكليس على افريقيا ، في اواخر القرن الرابع ق.م. فاسمعه يقول : « فقد افترّت الأرض فيها: عن الرياض الفيحاء والحدائق الغنّاء والجنان السندسية التي كانت ترفل بكل جنس ونوع من الثمار ، تنساب بينهـا السواقي وتتخللها الترع المائية حاملة الى الدقاق منها الدفء والثراء . وكانت المنازل الريفية الجميلة تتناثر أمـام مرأى العين ومأتى البصر ، على مسافات بعيدة ، ساطعة البياض ، حسنة البناء تحدث عالياً بغنى ساكنيها ونعماء اهلها . اما مغروسات الارض فكانت تتناوح بين الكروم وحقول الزيتون وغير ذلك من الاشجـار المثمرة ، تطالعك في جنبات السهول وسفوح التلال ، قطعان البقر والغنم والمعز بينا الريف القصي ، كان ملعباً لقطعان الخيـل . وجملة الخبر ، فقد كانت الارض تفيض بالخيرات وتتدفق منهـا المحاصيل على تباين انواعها ، وقد تقاسم ملكيتها سراة القوم من القرطاجيين واشرافهم يفرغون فيهـا ايامهم بين اللذائذ والاطايب » . بالطبع لم تكن عينا ديودورس الصقلي قد اكتحلتا بمرأى ما وصف لنا. فقد اعتمد في نقل ما نقل ، على شهود عيان حدثوا بما رأوا وحيّزوا مشاهداتهم على الورق. قد يكون احد رفاق اغاتوكليس في حملته المذكورة أخذ بروعة مشهد لم يسبق له ان وقعت عينه على مثله حول سيراقوزة او في ضاحيتها . هذه صفحة حرية بان تحفظ وتروى ، ويستدعى الاستشهاد بها ادخال بعض تعديلات على النظرية التى استبدت بافهام الناس حيناً فجعلت من قرطاجة مجرد مدينة بحرية ، غرقت في الاعمال التجارية واستسلمت لها بكليتها ، مع ما الصقوه بهـا من نعوت واوصاف بشعة اعتادت الروايات القديمة المغرضة تردادها .

الثار بالحضارة الهلينية وآدابها

لم يرع التاريخ القديم لقرطاجة في هذا المجال ، حرمة ، فاسترسل الكتبـة والمؤرخون ، ومعظمهم اغريق ورومان ، في النهش والثلب . فرموا القرطاجيين بكل فريـّة ، وقذفوهم بابشع النعوت والاوصاف. فهم كما صوروهم لنا ، قراصنة يخفرون بالعهد المقطوع ، تيّاهون ، فياشون ، صلف في سيطرتهم ، أخساء في دناءتهم ، قساة القلوب ، خطفـة ، مسترسلون في السوء ، متمرغون في الدناءات. تلك هي بعض قسمات الصورة التي تركوها لنا عنهم . من السهل كما هو مضيعة للوقت وقتله في السفاسف ، ان نتلهى بكشف ما فيها من تجسيم وتضخيم ارادته موجـدة بغيضة ، وحقد حقين. سلّموا لهم ببعض الذكاء دون ان يعترفوا لهم ، من جهة اخرى ، باي نزعة نحو اعمال الفكر واللذاذات الادبية . من الصعب لدينا ان لم نقل من المحال ، ان نستطيع ابداء رأي في هذا كله ، لانعدام مقومات الرأي وانقطـاع المصادر الاصيلة . فما كتبه القرطاجيون بلغتهم الام وهي اللهجة الفينيقية المحكية

في شمالي افريقيا ، لم يبق سوى بعض نتف مجملها في غاية الاقتضاب والايجاز ، لا تمت الى الادب بصلة . والاثر الادبي البونيقي الوحيد الذي لا يلفه الغموض هو دائرة المعارف الزراعية التي وضعها ماغون . والى هذا ، فاذا استطلعنا الصمت الذي تلتزمه هنا المصادر الاخرى ، تبدى لنا انه لم يخرج من صفوف القرطاجيين اي مفكر او مؤرخ، او شاعر، او عالم واحد . فاذا اتفق صدفة ورأى تيرانس(Térence) النور على ارض بونيقية ، فقد وُجِد منذ حداثته الباكرة في الامر ، واقتيد عبداً الى روما واستعمل اللاتينية في كتاباته . ومع هـذا، والى هذا كله، يحدثنا التاريخ عن قيام مكتبات في قرطاجة، امرت روما بعد ان تمت لها الغلبة عليها وظفرت بها ، بتوزيعها بدءاً على ملوك البربر وامرائهم . فقد حوت هذه المكتبات بالطبع مؤلفات اغريقية ، ولكن الى اي حد؟ وعلى اي قدر ؟ ومـاذا كانت نسبتها فيها ؟ فالاغريق شغلوا انفسهم بقرطاجة، فحلت بسيطرتها وسيادتها على الحوض الغربي من البحر المتوسط، من تفكيرهم في الصميم . فها هو ارسطو يعنّي نفسه بدرس مؤسساتها والنظم السياسية والاجتماعيـة التي انتظمت حياة هـذه المدينة . وقام بين الاغريق مؤرخون ارخوا ، باستفاضة ، للحروب البونيقية الاولى والثانية ، بما هو في مصلحة قرطاجة وتبيين فضلها . كثيرون بين القرطـاجيين من جوّدوا اللغة اليونانية واتخذوا منها يداً لهم واداة طيعة احسنوا استعمالها في اعمالهم التجارية الواسعة التي رحبت رحابة البحر المتوسط ومشارفه في الغرب والشرق ، واتخذوا من هـذه اللغة: لغة كتابة وتعبير واداة تفاهم، لدرجة حملت السلطات القرطاجية المسؤولة، ولكن دونما جدوى قط ، على تحريم استعمال اليونانية على رعاياها ، اثر حادث خيانة وطنية ، لا مجال هنا لتفصيله . وقد مر معنا كيف انه نشأت حوادث زواج وإصهار بينهم وبين الاغريق . فقـد اظهر الناس اعجابهم في القرن الرابع ق . م ، من قوة بلاغة وفصاحة احد مراة القرطاجيين في سيراقوزة ، كما ان هانيبعل درس اليونانية ، وهو بعد في اسبانيا، على معلم اسبرطي وضع فيما بعد ، تاريخاً مفصلاً لتلميذه. والطبقات الثرية في قرطاجة وقعت تحت تأثير الهلينية التي عرفت، قبل الاسكندر بكثير ، ان تغزو المدن الفينيقية وتتغلغل في ثناياها .

تأثر قرطاجة بالفن الهليني

ان ما نزل بقرطاجة من خراب مدروس ، ومن دمار مدبر لها، مخطط يزكي ما هي عليه معلوماتنا من فقر مدقع حيـال الفن البونيقي . ازدانت المدينـة ولا شك ، بالأبنية الضخمة ، كما ازدانت شوارعها وساحاتها وميادينها بنصب الآلهة . فلم يبقَ من هـذا كله سوى نتف مبعثرة وحطام شتيت من معالم الفن المعماري عندهم . ولم يسلم من عملية الهدم الجذري سوى أقبية المدافن والقبور ، وعمق بعضها ٢٠ متراً في الارض، وهو القسم الأهم ، ثم أخذوا يضيفون اليها ، بعد ذلك بكثير ، انشاءات علوية بشكل أضرحة واهرام . وهكذا لا نستطيع ان نتبين ما كان عليه القرطاجيون من الذوق الفني إلا من خلال النقائش والخزفيات والحلى التي عثر عليها المنقبون بين القبور . غير ان دراسة هـذه الحاجيات لا تضعنا وجهاً لوجه ، مع فن يمكن وصفه بفن بونيقي أصيل ، اذ ان هذه المكتشفات إما ان

تكون خلواً من كل أهمية فنية او انها تعكس، على الغالب، التقليد المباشر للمصنوعات الاجنبية، ان لم تعكس يد صنّاع اغراب تأثروا الى حد بعيد، بالشرق المصري او الفينيقي الذي اقتبس، هو الآخر من مصر، أكثر من طريقة او طابع وراح يقلدهما في الحين ان الفن اليوناني كان اذ ذاك المؤثر الفني الاكبر في الشرق .

والمصنوعات الحرية بالذكر هنا هي لعمري من جهة، هـــذه الاقنعة المتخذة من الخزف التي تصور لنا أناساً في كشرتهم، ومن جهة اخرى أغطية نواويس عديدة فرشت بالنقوش المحفورة او بالرسوم المتنوعة، عـــثر عليها في مقبرة القديسة مونيقا . والحال، لهذه الاقنعة مثيلات كثيرة في هذه الحقبة من الفن الاغريقي الشرقي القديم . امـا النقائش فأشهرها النقوش الهلينية التقليد، وهي عبارة عن تماثيل اشخاص منتصبي القامة والقوام، نحتها ازميل النحات كأنها مضطجعة او مستلقية على الظهر، بينا يبرز كاهنان برسمان حركة سجود، وامرأة صبية لها وجه صبوح رصين كأنها الإلهـــة تانيت، ملتحفة حتى الخصر، بجناحي عصفور، وممسكة باحدى يديها حمامة وبالاخرى مجمرة بخور . فلا يمكن ان نتردد في الحكم امـام مرأى هـــذه الصورة : فالرخام يوناني الاصل، ويونانية كذلك معالم الطراز والقسمات، وإغريقيّ النحاتون. فقد اقتصروا على رسم مواقف وعادات ورموز الديانة البونيقية، سيان لديهم ان يكون النحت تم في داخل البلاد او جرى بعيداً عنها، مع العلم انه كان في قرطاجة جالية اغريقية بينها ولا شك، فنانون محترفون . وقـــد اكتشفوا عند قاعدة نصب في مدينة افسس، في ايونيا، على توقيع نحّات ينتسب الى « القرطاجيين » . اما اسمه فيوناني الجرس يدعى « بويثوس *Boëthos* » وكذلك أبوه، اذ انه يدعى ابولودوروس .

إنّ تطبع قرطاجة بالطابع الهليني يبرز في مجـال الفن أكثر منه في مجالي الفكر والادب . فالقائـــد الروماني شيبيو اميليان، بادر، عقب فتحه لقرطاجة، عام ١٤٦ ق . م، الى إعادة الآثار الفنية الاغريقيـــة التي سلبها القرطاجيون خلال حروبهم مع المدن اليونانية في صقلية . كذلك حمل معه الى روما عدداً كبيراً من التماثيل والانصاب التي كانت تزين المدينة، ولم يكن ليعنّي نفسه باعادتها الى أصحابها، وهو العليم الخبير بمآثر الاغريق الفنية، لو لم تكن هلينية الطابع والصنع اقتناها القرطاجيون خلال اتصالاتهم بصقلية والشرق الإيجي الذي كان يخضع، اذ ذاك، لملوك مقدونيين. اما عملية هَلْيَنَة المدن الفينيقية فقد كانت قطعت، اذ ذاك، اشواطاً بعيدة واستبد الذوق الاغريقي في النفوس لدرجة يصعب علينا ان نجد أمثلة اوقع في النفس وافعل فيهـــا، على قوة إغراء الحضارة الاغريقية وفرض ذوقها الفني الرفيع عـــلى هؤلاء الاقوام الأسيويين، بينا يقف ابنـــاء عمومتهم، في الغرب، من الاغريق، موقف المنافسين الأشداء .

ألحق بعض جنود القرطاجيين إساءة بالآلهة في جوار مدينة سيراقوزة فرأى القرطاجيون ، تكفيراً عن ذلك واستعطافاً لها ، حمل إلهة الزراعة عند الاغريق : ديميتر وابنتها ، الى عاصمتهم قرطاجة . فالمرء يأخذ بسهولة طقوساً رسمية ليس لها من صدى كبير يذكر ، باستثناء الاعياد الخاصة بالاله سيريس التي اتسمت بطابع لاتيني ونشطت خلال العهد الروماني وارتدت حيوية ظاهرة . وربما كان تأثير هذه الطقوس الدينية أوقع في نفوس الاقوام الافريقية الاصلية منها في نفوس القرطاجيين انفسهم . ومهما يكن من الأمر فهذه الحالة تؤلف شذوذاً او خروجاً عارضاً ، اذ ان الديانة الهلينية لم يكن لها من التأثير ما يغري الشرقيين بها ويجتذبهم اليها ، فوقفوا عند مظاهرها الخارجية ، ولا سيما ما تعلق منها بتمثيل الآلهة وتحييزها تحت أشكال مادية .

ديانة القرطاجيين

وهكذا نرى ان الديانة البونيقية لم تكن مغلقة على نفسها ، منكفئة على ذاتها ، متنفرة النفوس بتصلبها . فقد جاء بها معمرون فينيقيون ، وبقيت في جميع ادوارها محافظة على فينيقيتها في جوهرها وفي كل مظاهرها الكبرى . وديانة المشارقة من الفينيقيين برهنت ، في اكثر من موقف لها ، عن استعدادها لاقتباس مؤثرات اجنبية تعرف كيف تتمثلها . فقد اخذت من مصر ، وهكذا سار القرطاجيون ونهجوا على منوالها . فقد نقلت قرطاجة عبادة إلهة جبل إيركس ، في غربي صقلية ورمزت اليها باحدى آلهاتها ، بينما رمز اليه الاغريق بافروديت . كذلك اقتبست ايضاً آلهة قبائل الافريقيين ، تقرباً منها واستمالة لها وتفادياً لغضبها او لنقمتها ، في بقاع سيطر عليها القرطاجيون . من المتعذر ان نتبين الجديد من هذه العناصر المقتبسة لجهلنا التام ما كانت عليه ديانة هذه الاقوام الافريقية .

وسواءاً أكانت هذه الاقتباسات الدينية ثابتة فعلاً او مسلماً بها ، مقدرة تقديراً ، يجب ان نحسب حساباً لما طرأ على هذه العقائد من تطور وتبدل خلال حقبة من الدهر نيفت على ستة قرون . وكم كنا نود لو تسعف المصادر التي بين ايدينا ، فتزيل الغموض العالق بهذا الوضع المعقد والذي زاده الاغريق ثم الرومان تعقيداً وابهاماً ، بما احلوه لهم ان يتبينوا في آلهة القرطاجيين من وشائج القبس والصفات ؛ الا انها امنية لا تلبث ان تتطاير بدداً وتتبخر هباء ، بعد ان تعطلت وسائل البحث امامنا ولم يبق لدينا من اثر لأي اصل او كتاب يبحث في عقيدة القرطاجيين ولا في اساطيرهم الدينية . فلا عجب ان يقصر هذا النقص الفاضح معلوماتنا على اسماء بعض آلهة عرفناها من خلال بعض الرقم والنقائش التي تلازم عدداً من القرابين او من بعض الطقوس الدينية التي تكشفت معالمها لعلماء الآثار . اما جوهر هذه الآلهة ، وطبيعة الايمان بها ، والنظر في مناسك الطقوس الموقوفة عليها ، فكلها مباحث استطال حولها النقاش وسيستمر الجدل حولها طويلاً ، قبل ان تأتينا جهينة بالخبر اليقين .

فالمسميات والاسماء لا تنقصنا ، لا بل هي مربكة لكثرتها بحيث نرى انفسنا ملزمين

للاخذ باسماء مختلفة لبعض الآلهة والآلهات . فلنقتصر منها هنا على الكبار ، تفادياً للسأم وهرباً من الارهاق والإرهاص . واول هذه الارباب، الإله اشمون الذي يسميه الاغريق : اسكلابيوس (*Esculapius*) دون ان ندرك بالفعل الأسباب الموجبة لهذه التسمية . والمعروف لدى الجميع ان معبده كان قائماً على رأس جبل بيرسا . ثم الاله بعل همون ، أقوى آلهتهم وهو الموازي للاله إيل او بعل ، عند الفينيقيين وهو رب الارباب الذي يشبه في الربوبية الاله زوس عند الاغريق، وجوبتير عند الرومان ، والذي استمرت عبادته باسم زُحَل في افريقيا . ويأتي بعد هذه الأسماء ، الإلهة تانيت المعروفة باسم: بينيه بعل ، أي وجه بعل ، ونحن نجهل تماماً الوجه الحقيقي لهذه التسمية ، هذه الزوجة التي كثيراً ما تظهر بمية بعل همون في الاحتفالات الرسمية ، قد تأتي قبله ذِكراً ، وكثيراً ما يُقتصر عليها وحدها في الصلوات والتضرعات وبذلك تطل علينا كأنها الإلهة الأكثر شعبية . اما الرومان فقد تمثلوا باسم جونون ، شفيعة قرطاجة التقليدية وحاميتها ، كما عرفت في عهد الامبراطورية الرومانية باسم تشلستيس ، أي السماوية .

الطقوس الدينية ومناسكها المختلفة

من العسير حقاً ان نكوّن لأنفسنا فكرة صحيحة عما كان عليه القرطاجيون من التقوى والتمسك بأهداب الدين . فقد صوروهم ، مع ذلك ، في التاريخ القديم بأنهم لم يتورعوا من خداع الآلهة كما لم يتعففوا عن خداع الناس وتضليلهم . كذلك غالى كتبة التاريخ القديم في تصويرهم لهم عبيداً أذلاء يتسكعون لهم في الملمات الشديدة والازمات الخانقة . فهم لا يختلفون في الحوادث المروية المتعارفة عن سواهم من الشعوب الاخرى . وكان كبار الكهنة والكاهنات يؤخذون عادة ، من بين الأسر الشريفة ، كما كانت تقام الاحتفالات الدينية الرسمية تحت رعاية الدولة واشرافها . فقد أظهرت مناسبات عديدة ، هانيبعل متمسكاً بحبل الدين، معتصماً بأهدابه ، مستسلماً للأساطير الدينية . فان شئنا ان نبدي رأياً في المشاعر والاحاسيس ، والافكار التي جاشت بها نفوسهم : من حب وخوف، واخلاق وعادات، وكلها حوافز داخلية للأعمال والسلوك، أسقِط في يدينا، لانقطاع السبيل وتعذر الاعتماد على الاصول الركينة .

والذي ادهش الاقدمين وحيرهم، هو استمرار بعض الطقوس الدينية عندالقرطاجيين التي رأت فيها النخبة من الاغريق والرومان ، عادة متأخرة ، متخلفة ، وحشية الطابع . فبفضل ديانة الاغريق ، اخذ القرطاجيون بالتشبيه أو تجسيم الصفاتية ، كما ركنوا في مناسكهم ، الى الرموز والتشابيه المجازية ، وورّوا اليها بعبادة بعض الحجارة التي ألهوها وكنّوا عنها ببعض الحركات والشارات . فمن عاداتهم المستهجنة : معاشرة البغايا التي زُففن للهيكل . ومن بين الطقوس التي كانوا يتسلون اليها بوحشية تقزز النفوس لمرآها وتشمئز منها لما يرافقها من موبقات : هذه الذبائح البشرية ، حتى ان بعض الملوك تدخلوا لحمل القرطاجيين على الاقلاع عن هذه العادة

الوحشية ، كالملك داريوس الفارسي ، والطاغية السيراقوزي جيلون وغيرهما . كل هذه المساعي ذهبت عبثاً وبقيت العادة سارية بينهم الى عهد الامبراطورية الرومانية المتأخر ، يقيمونها خفية ويقبلون عليها تحت جناح الظلام .

في اوائل القرن الرابع ق . م استولى قائد قرطاجي على مدينة هميرة (*Hémire*) التي اندحر تحت أسوارها من قبل، احد أسلافه الذي راح ينتحر بحرق نفسه امام ابوابها ، تخلصاً من عار الهزيمة ، قبل ذلك باحدى وسبعين سنة. فأخذ الفاتح الجديد، يثأر له اذ أمر بقتل ٣٠٠٠ أسير من سكانها . وكان الرومان يقابلون هذه الاعمال الوحشية بأعمال ليست دونها بربرية كحفلات مصارعة الاسود . وكان القرطاجيون يقدمون ، في كل سنة ، احد أبنائهم من الأسر الشريفة ، ذبيحة للاله ملقرت ، شفيع مدينة صور الكبير ، وحاميها . وكانت نفوس الاقدمين تنقبض هلعاً ، كما تنقبض نفوس المحدثين اليوم من تقديم أحد الاطفال ذبيحة للاله بعل همون ، وهي ذبيحة لم يكن عنها بد في نظر المسؤولين الذين كثيراً ما كانوا يحاولون تجنبها وتفاديها بالتي هي أحسن ، ولا ينفذونها إلا تحت ضغط الدولة والرأي العام، في حالات الخطر الشديد المهدد لسلامة البلاد . « فقد كان هنالك ، كما يقول ذيوذورس الصقلي ، تمثال للاله ملقرت من الشبهان ، وقد بسط يديه بانحناء نحو الارض بحيث ينحدر الولد الذبيح رويداً ليهوي في اتون متقدة يرتفع لهيب النار فيها عالياً » . ومن اليسير ان نتصور الهلع الذي يأخذ بمجامع القلوب ، بالرجوع الى الوصف الأخاذ الذي تركه لنا فلوبير في روايته سلمبو [1] .

فاذا كانت هذه الذبيحة البشرية تقتصر على تقديم البكر من الولد كما نحب ان نعتقد ، فقد كانت ترمز عندهم لتكريس بواكير غلال الارض . وكم يخامرنا الشك في صحة هذه العادة والعبادة ! فما من مجال امامنا الآن لنفيها او لنكرانها ، بعد ان اختلفت الآراء حول تفصيلاتها على اثر الاكتشاف « الاركيولوجي » الاول الذي جاء في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، والحفريات الكاملة التي تمت ، في قرطاجة ، اثر الحرب الكونية الثانية . فقد اظهرت هذه الكشوف الاثرية معالم اقدم هيكل من هياكل قرطاجة على الاطلاق، على مقربة من مرفأ المدينة . فقد عثروا في زريبة استحالت تلاً لكثرة ما تراكم عليها ، بين القرنين الثامن والثاني ، ق . م من عظام الذبائح البشرية والقرابين الحيوانية التي كانوا يستبدلونها بها ، في بعض الاحيان . فقد كان يعلو الذبيحة نصب كتب عليه العبارة التالية : « الى الربة تانيت بينيه بعل ، والى الرب بعل همون تقدمة من فلان ابن فلان . فلتباركه الآلهة » . ففي كرة ككرتنا الارضية، حبا عليها الانسان ودبّ منذ عشرات الألوف من السنين ، قلما يوجد حي للسكن او ناحية في ارباض المدينة يتحفز معه الفكر متأملاً باخلاق الناس وعاداتهم مقدراً التطور الذي قطعته بالنسبة بعضها لبعض .

---

(١) سلمبو تأليف غوستاف فلوبير . ترجمة سامي الريشي ، ٣٥٢ صفحة ، قطع كبير – منشورات عويدات .

الحضارة البونيقية
وسكان البلاد البدائيون

من الطبيعي ان يكون هذا او ذاك من الشعوب التي كانت على تماس بالحضارة البونيقية وقع تحت تأثيرها المباشر، بعد ان رأى فيها احدى الحضارات المتكاملة. ولكن عبثاً نحاول ان نتمثل تمثيلاً صحيحاً كنه هذه الحضارة وعناصرها المقومة. فالقرطاجيون لم يلعبوا يوماً الدور الخلاق الذي لعبه الاغريق في الشرق من قبل.

لا نزال نجهل الى حد بعيد، طبيعة المدنيات التي طلعت في شبه جزيرة ايبيريا، لنتبين مدى تأثرها جميعاً بالمدنية القرطاجية وانطباعها بها. فقد ظهر، وأيم الحق، هنا وهنالك، لا سيا في المناطق الساحلية، نماذج عدة من هذه المدنيات يظهر فيها بوضوح أثر قرطاجة، كما يتبدى لنا الأمر من النظر ملياً في بعض الحزفيات التي وصلتنا منها. ولعل أهم هذه الآثار شأناً، وأبينها تفاعلاً، هو هذا التمثال النصفي الذي يعرف: «بسيدة ألحيه *Dame D'Elche*» الذي عثر عليه بالقرب من مدينة أليكانت. فهو يثير أكثر من سؤال ومعضلة، لا تزال كلها تنتظر الجواب والحل، لدرجة ان البعض أخذ يتشكك بصحته التاريخية.

اما في افريقيا، فاشعاع المدنية البونيقية جاء بالفعل مخيباً لأضعف الايمان ودون ما نتوقع له ومنه بكثير. والحال فالليبيون كانوا بدواً واهل ظعن، يرسفون في وضع متأخر جداً، ولا تنقطع اتصالاتهم بالحدود القرطاجية، كما ان القسم الداخلي من البلاد وقع تحت سيطرة قرطاجة وأصبح من مستعمراتها، يؤمه التجار القرطاجيون في تنفيق سلعهم دون ان يخشوا بأساً. فقد امدّ الليبيون قرطاجة بالشغيلة كما قدموا لها الكثير من المرتزقة في جيشها، مما سهل لهذه الأقوام عملية القبس والنقل، ولو على نطاق ضيق محدود. وقد حرصت الدبلوماسية القرطاجية من جهتها، على تشجيع الاصهار والتزواج بين الطبقات الارستوقراطية او الثرية من كلا الجانبين. ويكفي دليلاً على ذلك وشاهداً على هذه السياسة، قصة الاميرة الحسناء سوفونسبا (*Sophonisbe*). وحرص امراء النوميد على ان يوفروا لأبنائهم تربية عالية في قرطاجة وان يتخلقوا بأخلاق القرطاجيين، ويتطبعوا بطبائعهم، فنقلوا عنهم الرياش الثمينة، والملابس الفاخرة، كما أخذوا عن نسائهم استعمال الطيوب ولبس الحلى والجوهرات. كذلك استقدموا من قرطاجة مهرة المهندسين والرسامين ليتولوا الاشراف على بناء منازلهم وتشييد الاضرحة الجميلة ونقشها وزخرفتها. وهل يحق لنا، بعد هذا، الذهاب في عملية الاخذ بأسباب التحضر والتمدن، الى ابعد من هذا؟ فالأبجدية الليبية اشتقت من الابجدية البونيقية، وفريق من آلهة القرطاجيين لقيت رواجاً وعباداً لها عند الليبيين، وأقيمت هنا وهنالك، للاله بعل همون، وللإلهة تانيت، معابد وهياكل وأعياد موسمية. ومع كل هذا، وبالرغم من كل هذا، ليس في مقدورنا ان نجزم ان افريقيا استسامت او تطبعت بطبائع الساميين.

فالقرطاجيون أنفسهم لم يهدفوا يوماً لمثل هذه الغاية. فسكان البلاد البدائيون لم يكونوا

أكثر من سائغة او مادة يمكن استثمارها والاستفادة منها ما أمكن . وقـد يكون دار في خلد القرطاجيين ، بعد ان عَبَس لهم القدر وقلب لهم ظهر المجن عبر البحار ، ان يحسّنوا سيرتهم مع سكان القارة . غير ان الدهر وقف لهم بالمرصاد ، فأخذ الليبيون ينشدون تحت قيادة رشيدة ، وحدتهم الوطنية ، وقامت من طرابلس الغرب الى المغرب الاقصى مملكة واسعة الارجاء تولى مصيرها مسّينيسا *Massinissa* .

محاولة مسينيسا وجهوده

هو مدين بعرشه للخدمة النصوحة التي قدمها لروما في أواخر الحرب البونيقية الثانية. جعل من مدينة سيرتا *Irta* (قسنطينة)مقراً لحكمه وادارتـه . وسار الحظ في ركابه، فاستولى في هجوم مفاجىء على عاصمة خصمه ومنافسه على السلطة : صفاقس (*Syphax*) ثم اشرأبت نفسه الى ما وراء ترسيخ الحضارة البونيقية بين بني قومه وهدف الى ابعد من هذا بكثير . فقد عرف عن كثب هذه الحضارة وتفاعل بها، وقبس عنها وقيض له ان يستقبل في بلاطه وفوداً قرطاجية. فالصدفة وحدها، أعجز من ان تبين لنا كيف ان أنصاب القرابين اللسمة المؤرخة، التي عُثر عليها بين القطع الأثرية السبعمائة ، في معبد الحفرة (*el - Hofra*) في قسنطينة، عام ١٩٥٠، يتراوح تاريخها ما بين عام ١٦٣ و١٤٧ ق. م. فلم يقف عند هـذا الحد ، فاتصل بالممالك الهلينية، وقبس منها ما شاء من نغم وخطط، فأدخل تغييرات جذرية على وضع بلاده الاقتصادي ، فوطـّن قبائل البدو الرحل حيث التربة والمناخ تتلاءم وطبائعهم، وأخذ بأسباب الزراعة فشجعها ونهض بمرافقها، وعني بانتاج الغلال والحبوب، كما نادى بالاقبال على التحضر والأخذ بأسباب المدنيـة ، فاستقدم فريقاً من الاغريق قدموا القرابين لآلهته في « الحُفرة». وهكذا استطاع ان يُقعِد على نظم وطيدة ، نظاماً ملكياً قوياً وادارة رشيدة ، فضرب السكة باسمه وأقام مراسم عبادة ملكية ، ونهج نهج ملوك الاغريق في لبس التاج والصولجان وأنشأ له صلات مباشرة مع حلف ديلوس *Délos* والعالم الايجي حتى ان احد بنيه فاز باكليل الظفر في حفلات البناثينيه (*Panathénées*) .

فقد سار بنشاط ودهاء ، منـذ عام ٢٠٣ حتى وفاته عام ١٤٨ وله من العمر اذ ذاك ٩٠ سنة، على سياسة رشيدة هدف بها الى تحقيق وحدة البلاد وصهرها في بوتقة وطنية واحدة، بعد ان تم له ما راود خياله من حلم معسول ، وذلك بالاستيلاء على قرطاجة ، المدينة الكبرى ، التي تليق عاصمة للمملكة الطالعة . فقد كان مسعاه لتحقيق هذا البرنامج الضخم سبباً في دمار قرطاجة وزوال امبراطوريتها من الوجود .

زوال قرطاجة واضمحلال مدنيتها

فقدت في اعقاب الحرب البونيقية الثانيـة سيادتها على البحار، كما فقدت مستعمراتها العديدة ، ومعظم الاقاليم التي كانت تسيطر عليها في القارة الافريقية . فقبعت تجار محنتها ، مهيضة الجناح ، تابعة من توابع روما ، تعلل النفس بالاستجمام وباسترجاع قوتها بفضل تجارتها المزدهرة وأساطيلها التجارية . وراودها

مسينيسا على نفسها محاولاً حملها على الاستسلام له عن طريق سلسلة من التحرشات والتعديات والتجاوزات المتكررة ، على أملاكها تارةً ، وطوراً عن طريق التهديد والوعيد . كل هذا وروما من ورائه تشد منه الازر وتغض النظر عن مضايقاته ، وربما شجعته سراً على التمادي في العدوان ، والفتّ من عضد هذه المدينة التي طالما أقلقت مضاجعها وراحتها ، وكادت تورِدُها مورد الهلكة ، فلا بأس من ان تزيدها وهناً على وهن وضعفاً على ضعف . وعندما تبينت روما اللعبة التي كان يلعبها هذا الملك النوميدي ، وبان لها الخطر الذي تتعرض له فيما لو تحققت أحلامه ونجحت محاولاته في بسط سيطرته على قرطاجة بعد الاستيلاء عليها ، راحت ، بدافع من روح البغض والضغن الذي تحمله لها بين الضلوع ، تبيت لها الشر وتعد لها العدة للقضاء عليها ودك معالمها الى الحضيض . فلم تثنِ عن عزمها ولم تحولها عن مقاصدها الشريرة لا دناءة الوسائل الدبلوماسية التي حركتها او اتخذتها ، ولا المقاومة البائسة العنيدة التي لقيتها من خصمها اللدود والبطولة التي تجلت عبثاً واستمرت ثلاث سنوات ، باستمرار الحصار الذي نصبته روما حولها. وفي ربيع عام ١٤٦ انتهى كل شيء خلال الهجوم العنيف الذي شنته عليها ، بعد ان راح آخر المدافعين عنها يجودون بأرواحهم رخيصة في سبيل انقاذ عاصمتهم ، وقد استسلم قائدهم بينما راحت زوجته تطرح نفسها بشمم، بين الحرائق التي شبت في معبد اشمون. ففي الحين الذي كنا نرى فيه شيبيو اميليان ينتحب امام صديقه بوليب (*Polybe*) ويتضور أمىً والتياعاً امام السرعة التي ترافق زوال العظمة البشرية ، راح ينفذ الأوامر التي صدرت اليه لدك معالم المدينة، رأساً على عقب ، كما أخذ يبيع الأسرى من سكان قرطاجة البائسين في أسواق الرق والعبودية .

وراحت روما تضم الى ممتلكاتها، المقاطعات التي خضعت طويلاً لسيطرة قرطاجة لتؤلف منها ولايتها الافريقية . واغتنمت مناسبة وفاة مسينيسا (١٤٧) فراحت تمزق اوصال الوحدة الوطنية التي تمكن من تحقيقها ، وهكذا تمكنت قبل نهاية القرن الثاني ، من ان تقضي على كل محاولة لمقاولة سيطرتها ، اذ استطاعت ان تذل حفيده يوغورطه وتجعله يخضع لنفوذها . وما ان جاء عهد يوليوس قيصر حتى أخذت توسع من حدودها في الغرب بضم ولاية موريتانيا اليها عام ٤٠ بعد الميلاد، بعد ان بسطت، منذ عهد بعيد، حمايتها على كل شمالي افريقيا ، بحيث لم يعد في مقدور احد ان يحاول من جديد تحقيق الأهداف التي وضعها مسينيسا نصب عينيه لاقامة وحدة البلاد الوطنية . وهكذا لم تقضِ روما في افريقيا ، على مراهق تمثل في هذه الحضارة الفينيقية فحسب ، بل ايضاً خنقت في المهد جنيناً لم يكن في مقدورنا ان نتصور ، لو قدر له ان يحيا ويعيش ، المدنية الجديدة التي ستطلع على يده ، هي المدنية البربرية .

قليلة جداً هذه الحضارات التي طلعت علينا قديماً فتركت بعدها مثل هذا التراث المتواضع الذي تركته المدنية القرطاجية . فهدم قرطاجة، والتكالب على نسخ تاريخها ومسخه، وازدراء حضارتها والانتقاص من قيمتها ، كل هذه الاعذار لم تكن لتبرر العبث بكل ما من شأنه ان يحدثنا عنها ويؤثر على تفكيرنا ويزيده نوراً وادراكاً . فالأمثلة لا تعد ، على المتناقضات التي أتاها الرومان.

ولكن في الوقت الذي كانت فيـــه قرطاجة آخــذة في الأفول والغروب عن الوجود ، كانت الحضارة الهلينية تتغلغل في روما وتتمطى في جميع جنباتهــا . فقد ضاقت ذرعاً بهذا الوسيط الدخيل وعزمت على تصفيته . والظاهر انهــا لم تقتبس منه سوى النزر النزير الذي يتمثل على الأخص ، ببعض الفنون وبعض المهارات الزراعية . ومن بـين الذين تولوا ترجمة دائرة المعارف الزراعية التي وضعها ماغون ، عضو من أعضاء مجلس الشيوخ الروماني . وليس في هــذا الذي نتمثل به هنا شاهد كاف للتدليل على انتشار اللغة البونيقية ، فلم يبق من تراثها شيء يذكر . ربمــا كانت الديانة القرطاجية ، بقطع النظر عن ذبائح الأطفال التي مارستها ، عاملاً كافياً لتحريك النفوس واجتذابها . ولكن أنى لروما ، اذ ذاك ، ان تتذوق سحر العبادات الشرقية وهي بعد على سجيتها الفطرية ؟ فلعل زوال قرطاجة واندثارها جاء قبل اوانها ، قبل ان تخلف شيئاً يبقى بعد القضاء عليها .

ولكن ما عسى ان يكون من الامر في افريقيا ؟ امتاز موقع المدينة الجغرافي الذي طالمــا انهالت عليه لعنات الرومان وتمنوا لهـــا بسببه الموت الزؤام ، بفوائد كبيرة لقيامه على البحر منفذاً يحمل اليها خيرات السهول الخصبة في الداخل بحيث لم يكن ليبقى خاوياً من الناس . فمنذ عام ١٢٢ ق. م ، حاول غراكوس (*Gracchus*) ورفاقه ان ينشئوا عليه مستعمرة رومانية ، فلم يكتب لمحاولتهم النجاح . ثم جاء قيصر وأعاد الكرة من جديد فنجحت المحاولة بعد ان طواه الموت، وعادت قرطاجة الى الوجود من جديد، مدينة لم تلبث ان أصبحت ليس أهم مدائن افريقيا الشمالية فحسب، بل من أهم مدن الامبراطورية الرومانية، ازدهرت فيها التجارة ونشطت فيها حركة الاعمال ، إلا أنها كانت عطلاً من كل سمة او طابع بونيقي ، باستثناء استمرار عبادة بعض الآلهة أمثال زُحَل وجونون شلستِس بعد ان تَـلَـبَّـتَـنَـتَ عبادتها. اما ما تبقى من اقطار افريقيا فلا يبدو انها حافظت على أي ذِكر حي للفينيقيين في الغرب. صحيح ان هيكل «الحفرة» لبث مدة غير محدودة ، يستقبل وفود الحجاج وتقادمهم ، منهــا بعض القرابين نقشت أسماء أصحابها باللسان اللاتيني وآخر وثيقة خطت بالحرف البونيقي يعود عهدها للقرن الاول للميلاد . اما اللهجة التي دعاها القديس اغسطينوس : « بونيقية » انمــا كانت اللهجة الليبية التي استمر التكلم بها في المناطق الريفية ، امّ اللهجة البربرية المحكية اليوم .

وهذه النسبة البعيدة هي مــن باب الرمز او المجاز ليس إلا . فعندما فتح العرب افريقيا في القرن السابع للميلاد ، لم يجدوا فيها أي أثر لاخوة ساميين سبقوهم الى الفتح وبسطوا سيطرتهم عليها قبل قدومهم بألف وخمسمائة سنة ، بعد ان غادروا مدينة صور وأنشأوا لهم عليهــا حضارة ، انهال عليها من اللعنات وعوامل الحق ما يجعل عملية استحضارها اليوم امراً عسيراً . فالحضارة البدائية المتواضعة التي خلفها وراءهم الليبيون الرعاة عرفت ان تغالب صروف الدهر وتقلبات التاريخ بأحسن مما غالبتها الحضارة القرطاجية . ولكن ، يجب ألا ننسى اننــا نجهل عملياً هذه الحضارة أكثر مما نجهل المدنية النوميدية الأخرى .

الفصل الثالث

الغاليون

بعد ان استعرضنا لتاريخ الاتروسك والقرطاجيين، بين شعوب الغرب التي غلبها الرومان على امرها ، علينا ان نتناول بالبحث هنا الغاليين الذين أصارتهم الاقدار الى ما اصارت اليه من تقدم ذكرهم من هذه الشعوب ، في وقت أخذوا بأسباب التدرج وئيداً، في معارج التقدم والعمران . غير ان تأخر وقوع هذا المصير المماثل من شأنه ان يلقي ضوءاً على تاريخ الفتح الروماني وانبساط السيطرة الرومانية ، وان بدا عديم الفائدة « لتاريخ الحضارات العام » . ولذا كان في الوسع صرف النظر عنه والسكوت عليه في هذه الكلمة التمهيدية لو لم يتميز ، من جهة اخرى ، تاريخه بمفارقات لها شأنها الاكبر .

عدم اكتمال المدنية الغالية وتأخر الأخذ بأسبابها

فاذا كانت المدنيتان الاتروسكية والبونيقية زالتا من الوجود بعد ان كان بوسعها ان يسيرا في معارج التطور لو قيض لهما البقاء والاستمرار في الحيـــاة ، فقد تمت لكل منهما الظروف الملائمة لبلوغها النضج المرتجى . اما المدنية الغالية نفسها ، فلم يتم لها المدى الزمني الذي لا بـــد منه للبروز والتفتح . فاذا ما نظرنا الى هـــذه المدنية نظرة مجملة برزت لنا وكأنها مدنية بالقوة او بالقدرة . فقد كانت برزت الى الوجود في بعض نشاطاتها العامة ، فاذا بالغزو من الخارج والفتح يصدمانهـــا فجأة وترى نفسها امام حضارة أكفأ وأحوى ، تطبق عليها وتخنقها ، لما لها من طاقات وامكانات عسكرية وحضارية لن تلبث ان غمرتها واستبدت بالبلاد وفرضت نفسها دون ان تلقى مقاومة تذكر — أقله من الوجهة الحضارية . فما عساها ان تكون اعطت وأتأمت ، لو لم يعبس لها النذ الطالع، واستطاعت ان تسير سيرها الطبيعي وتتدرج نحو التكامل الذاتي ؟ فعلى المؤرخ ان يكون حذراً في رسم المنحنى البياني الذي كادت ترسمه الاحداث والوقائع ، ابتداءً من نقطة الانطلاق .

أصيبت المدنية الغالية بضربة مميتة فأصمتها وقضت عليها ، بعد لأي من الزمن جاء في الوقت ذاته متأخراً وسابقاً للزمن الذي تم فيه القضاء على هذه المدنيات الغربية وغيرها مما عاصرها او عايشها . قلنا « متأخراً » بالنسبة للتوقيت الزمني المطلق ، و « سابقاً » بالنسبة لبلوغ هـــذه

المدنيـــة مرحلة التطور المتكامل ، مهما اختلفت مراحل تطورها وتباينت وتباطأ تفتحها وبروزها . ومما يزيد عامل الزمن تعقيداً على تعقيد، الغموض الذي نلاحظه على طبيعة معلوماتنا وأصلها ، وهي معلومات سوادها الاعظم من أصل يوناني او روماني ، ولذا فهي لا تتعرض للغاليين الا بلسبة ما أثاروا من فضول الاغريق والرومان الذين لم يكترثوا لهم إلا في زمن متأخر جداً ، وبصورة غير مباشرة ، ومتقطعة جداً ، بعكس الاتروسك والقرطاجيين . إلا ان هذه الحقبة من تاريخ الغاليين التي تضطرب حولها مصادرنا التاريخيّة فتبدو في فراغ، قد يكون في مقدور الاركيولوجيا وعلم الآثار استدراك هذاالنقص وسد الثغرة ولو جزئياً،بعد ان استطاعت ملء هذا الفراغ في مناسبات وظروف عارضة أخرى، اذ ان هذا العلم لا يستحضر ابداً مدنيات من مستوى واحد في ما لها من مميزات مادية وأدبية . فالوقائع تؤيد هذا القياس النظري وتمنع الشك حول نقطة الانطلاق .

ومع ذلك ، فلا يظنن احد اننا امام وضع أشبه ما يكون بالتوحش او البربرية بالمعنى الحديث لهذه اللفظة ، يحول ، بمـــا له من تكثف وخشونة، دون كل تفتح او ازدهار مبكر. فالغاليون تمتعوا في هـــذه البقعة من الارض التي عاشوا عليها ، وبين هذه المجتمعات البشرية التي جاورتهم بوضع اجتماعي يكاد يكون متميزاً . هنالك لعمري ، في الغرب ، شعوب أخرى ، عُرفت بتأخرها ، منها مثلاً ، شعوب الجزيرة الايبيرية التي وقعت تحت سيطرة روما ، في زمن اسبق ، فلم تتمكن مع ذلك، من ان ترتفع معه الى المستوى الذي تستحيل معه المدنية حضارة. وهنالك ، من جهة ثانيـــة ، شعوب اخرى : فالشعوب الواقعة في قلب اوروبا الوسطى مثلاً ، لم يسعفها بقاؤها مستقلة وصمودها في وجه الفتح الروماني ، ببلوغ هذا المستوى إلا بعد انتهـــاء حقبة التاريخ القديم . من الصعب على المؤرخ ، كما سيتضح لنـــا ، ان يتبين الوشائج التي كانت تشد ، بعضاً الى بعض ، قبائل الغاليين، وهي وشائج كانت على كل حال أمتن واوثق من التي تقوم عادة بـــين الجيران . فان يكن توفر لهم من الوقت أكثر ممـــا توفر لشعوب شبه الجزيرة الإيبيرية وأقوامها ، فقد كان نصيبهم منه ، مع ذلك ، أقل بكثير من نصيب الشعوب الجرمانيـــة .

فمهما بدت هذه الملاحظات عامة، لا تتعدى المظهر الخارجي ، فهي توحي، مع ذلـك ، بأن بلوغ شعب ما مستوىً حضارياً ، لا يتوقف بالضرورة ، على الزمن ولا على استعداده الخلقي . فالأمر يتوقف بالاحرى ، على عوامل أخرى متعددة ، كثيراً ما يعجز الانـسان عن ان يتبين تفاعلاتها المشتركة . والدور الذي يلعبه كل من هذه العوامل التي لا تحصى : كالموارد الطبيعية ، والاتصالات الخارجية ، والظروف المؤاتيـــة ، والنشاطات المتوفرة ، والحوافز الروحية التي يجيش بها الانسان، وكلها عوامل تهيء الانتفاع من الظروف القائمة والوضع المتحيز القائم . فمن كان عرضة للأخذ بالأحكام والتأكيدات المطلقة ، صدمه واقع المدنية الغالية والفن فيه

أكثر من عظة بالغة ، اذ ان الغموض الذي يكتنف مولد هذا الشعب وبروزه، يزداد كثافة امام مر فشل الكفاءات الكامنة فيه والقدرات المخبوءة التي توفرت له .

١ - الكلتيون

الغموض الذي يكتنف نشأة هذا الشعب

أغاليون هم ؟ فالمصطلح الذي وصلنا بالتقليد المتواتر يفتقر للدقة . ففي مطلع الفتح الروماني ، أطلق يوليوس قيصر هذه التسمية على فريق من سكان غاليا المستقلة ، احتل رقعـــة من الارض تقع بين نهري السين والمارن ، من جهة ، وبين الغارون والرون ، من جهة أخرى . فاسمعه يقول : « هؤلاء الاقوام يُدْعون كلتيين بلغتهم ، اما نحن فقد عرفناهم باسم غاليين » . ومع ذلك لم يمنع هـــذا التمييز الظاهر الرومان من ان يحمّلوا « غاليا *Gaule*» مدلولاً أوسع وأشمل، تنويهاً منهم بقربى الأصل والأرومة التي عرفوا ان يتبينوا خيوطها الدقيقة ، بين هــذه الأقوام المسيطرة على تلك البلاد ، فتوسعوا باطلاق اللفظ ليشمل ، على السواء ، سكان ما وقع وراء جبال الألب ممن حددهم جبال البرانس والمحيط الاطلسي ونهر الرين ، فعرفت مقاطعتهم بـ (*Caule Transalpine*) او مـــا وقع قبل هذه الجبال ، الى الشمال من ايطاليا ، وهي المقاطعة المعروفة بـ *Caule Cisalpine* . اما الاغريق فقد استعملوا في التعريف بهم كلمة : كلتيون ، ثم كلمة : « غالاط » *Galates* في العهد الهليني الحديث ، تعبيراً منهم عن شعوب وأقوام سكنت مناطق أخرى تمتـــد من شبه الجزيرة الايبيرية حتى اواسط آسيا الصغرى . فاذا ما اعتمدنا على هـــذه المعلومات المتقطعة والمصرّدة التي توفرها لنا ، لماماً ، المصادر الادبية القديمة المشوشة ، لتكون لنا فكرة تقريبية حول أصل هذه الشعوب ، وحول تاريخهـــا القديم، لأسقط في ايدينا . فمن حسن الحظ ان يتمكن علماء اللغة من مدّنا بمعلومات اوثق وأمتن ، ولو افتقرت لمـــا يفرض الاخذ بالرواية التاريخية . فالنظريات الواسعة الشمول لا تنقصنا ، لا سيما تلك التي تقول بطلوع « امبراطورية ليغورية » بسطت سيطرتها على شمالي اوروبا وغربيها ، والتي قال بها وعلم علماء اعلام ، مع اننا لا نجد اليوم من يدافع عنها .

اوروبا الغربية ومدنيات عصر الشبهان

الغموض يكتنف الادوار الاولى لهـــذا الطور الذي يمتد تقريباً طوال الالف الثـاني ق. م ، في اوروبا الغربية ، وهو طور لم تتحقق فيه قط وحدة المدنية . فالمدنيات القديمة التي تميزت عمارتها بضخامة الحجارة ، أمثال التماثيل (*Dolmens*) ، والوجوم (*Menhirs*) ، والجادّات المبلطة ، او تلك التي تكونت مبانيها وعمائرها من أكواخ وقرى ارتفعت على عُمُدٍ ركزت في قعر البحيرات والغدران ، عمّرت وعاشت بل اتسعت لديهـــا وسائل القبس والتمثل . فالمدنيات التي قامت في جوتلاند والمانيا الشمالية اخذت تمتد وتتسع من غربي فرنسا حتى الهضبة الوسطى (*Massif Central*)

ووادي نهر الرون . اما التي قامت منها في سويسرا فاتجهت في توسعها ، الى الشمال ، في مقاطعة بورغونيا ووادي نهر الرين حتى شارفت نهر الماين. وتبرز في الوقت ذاته مدنيات أخرى ، منها المدنية ذات القبور المخروطية الشكل (*Tumuli*) حيث كانت جثث الموتى تواري تحت أكوام من التراب والحجارة . ظهر هذا الطراز من المدنية في المانيا الجنوبية الغربية ومنها امتدت غرباً لتسيطر عليها وقع من بقاع بين نهري اللوار والسين. وفي أخريات الطور الشبهاني او (البرونزي) ونهاية الالف الثاني ق. م ، تطلع علينا ، ممتدة من جنوبي المانيا ، عبر مقاطعات ستيريا *Styric* ، وكارنتيا *Carinthie* لتسير غرباً عبر مقاطعة بوربونيه *Bourbonnais* حتى حدود كتالونيا في الجنوب ، مدنية جديدة عرفت بمدنيـــة (*Urnenfelder*) (او مقابر الاجران) والجرار ، فأدخلت استعمال حرق اجسام الموتى ، وأنشأت لها مدافن قبورها مسطحة .

وهكذا تختفي من الانظار ، خلال العصر الشبهاني ، هــذه الانعزالية الجغرافية التي طبعت مدنيات العصر الحجري الجديد . فقـــد ازدادت ، ولا شك ، الاتصالات الجماهيرية كما برزت العقائد الدينيـــة وبعض المهارات اليدوية . إلا أننا نجهل تماماً المدلول التاريخي لظهور هــذه المدنيات ومدى انتشارها . فالخاطر يتجه بالطبع ، نحو هـــذه الموجات والتحركات الشعبية . وانتقالها جمـــلةً من منطقة الى أخرى ، لضيق الرزق او لضيق الشقة . غير ان قيام عدة مدنيات متعاصرة ، متباينة السمات بعضها مع بعض يزيد تعقيداً الفرضيات التي نستعين بهـــا اعتباطاً وبصورة تحكمية لتأييد هـــذا الرأي . فالطقوس الدينية التي يسيرون عليها في دفن الموتى ، وزخارف الخزفيات ونقوش الادوات المعدنية التي توصل الانسان الى صنعها ، كل هذه العادات وغيرها كثير ، يمكن ان تنتقل ويشيع استعمالها عن طريق اتصالات عادية يوميـــة . فدخول هذه الاعراف بين الناس وانتشارها عندهم لا يعني حتماً الغزو وحلول شعب محل شعب آخر وإخضاعه لسيطرته ، حتى في الظروف والحالات الاكثر ملاءمة لشيوع عادة الجرار والاجاجين التي يتفق عهد استعمالها مع عهد هذه الاقوام الغازية التي اخترقت المانيا وفرنسا ، بحيث يبقى الغموض يكتنف كل شيء يتصل بالمنشأ الجغرافي وتواريهـــا عن المسرح . صحيح ان علماء اللغة استطاعوا ان يتبينوا في أسماء الامكنة والأنهر جذوراً شاع استعمالها وامتد طويلاً ، إلا ان الامثلة المستمدة منها لا تؤلف دليلاً قاطعاً لتعذر ردها الى مدنيـــات لا يمكن تحديدها وتعيينها بدقـــة . اما الانثروبولوجيا او علم السلالات البشرية ، فهي ، ولا شك ، امام نماذج بشرية متميزة كما أنها تطالعنا كذلك بنماذج بشرية هجين انحدرت من عصور قديمـــة متطاولة العهد .

مدنيات ما قبـــل التاريخ او مدنيات العصر الحديدي

تبرز سمات هـــذه المدنيات بوضوح وجلاء مع طلوع الالف الاول ق . م ، وظهور استعمال الحديد . ولعل أقـدم مناجم الحديد التي استثمرها الانسان منذ القِدم هي مناجم النمسا العليا ، هذه المنطقة التي قد تكون تفاعلت ببعض العوامل المؤثرة التي جاءتها من دنيا البحر المتوسط ، عن طريق

مقاطعة إلليريا (*Illyrie*) . ومهما يكن من الامر ، فأقدم مدنيـــة عالجت الحديد وتدبرته في مصنوعاتها، هي المدنية المعروفة باسم هلشتات (*Hallstatt*) من اسم بقعة تقع على مقربة من مدينة سالزبورغ اليوم والتي استطاع العلماء ان يدرسوا معالمها درساً دقيقاً . وقد نشأت هذه المدنية بين ٩٠٠ - ٨٠٠ ق . م ، وانتشرت فوق منطقة واسعة اشاعت فيهـا ما استقرت عليه من مراسم دفن الموتى في (*Tumuli*) او حرق جثثهم ، كما استنبطت في تسلحها أداة هي أمضى ما عرفت من مادة السلاح ، وهي عبارة عن سيف مشحوذ ، محدد الرأس . معالم هذه المدنية تبرز بوضوح وجلاء في ما تبدى منها في وادي الدانوب الوسيط وفي مقاطعة البوسنة . وقد بلغت في انتشارها، من ناحية أخرى ، مقاطعات المانيا الجنوبية والغربية ودخلت الى جنوبي انكلترا وشمالي فرنسا وشرقيها ، متجهة الى الجنوب لتبلغ منها ضواحي تولوز وسهول شبه الجزيرة الايبيرية . وتبلغ الأوج في سيطرتها على هذه الاقاليم حوالي منتصف القرن الخامس ق . م .

هذه النجاحات التي حققتها ، ليس بين المعالم التي كشفت عنها الاركيولوجيا ما يشير الى ان انها تمت بالعنف والفتح وسفك الدماء وما الى الحروب من خراب ودمار . فقد تحقق كل ذلـك بفضل هجرات الاقوام البشرية ، على موجات بطيئة متلاحقة ، سيراً منها مع اتجـاه الانهر مستبقية معها الانشاءات والاعراف التي سبقت وصولها البلاد والتي لم تخضع إلا لتمثل بطيء، إلا انه مستمر .

سارت الامور ولا شك ، على مثل هذا المنوال ، أقله في بدء الامر من هذه المدنيـة التي ما لبثت ان حلت محل مدنية هولشتات منذ اواخر القرن الخامس. ق . م . وقد عرفت هــذه المدنيـة الجديدة باسم (*La Tène*) وهو موضع في سويسرا ، يقـع في الطرف الشمالي من بحيرة نيوشاتيل يحمـل خير سماتها ومعالمها الاصيلة . فلم تلبث ان حلت تدريجياً محل المدنية السابقة ، وسيطرت على المجال ذاته الذي ازدهرت فيه سابقتها، فاستبدلت منها باكراً ، السيف بالخنجر المدبب وعولت عليه أداة أولى في الحرب، كما استبدلت تدريجياً نظام دفن موتاها باستعمال القبور المحفورة في الارض بدافن تلال التراب . اما الحلى وادوات الزينة التي اقبل عليهـا الناس، والاغراض المنزليـــة التي جروا على استعمالها فهي أكرم مادة وأغنى، بينما المصنوعات المتخذة مادتها من المينا والمرجان ، كما انها اقتبست أشياء أخرى من الخارج جيء بها من بعيد . واخذت بأسباب التطور والسير مع التكامل التقني والتنويع الفني في مراحلها المختلفة ، الى ان بدأت تميل الى الانحطاط والزوال في « غاليا » في نهاية مرحلتها الثالثة والاخيرة، عندما وجدت نفسها وجهاً لوجه مع المدنية الرومانية التي استبدت بتلك البلاد مع الفتح .

الكلتيون

والفارق الكبير بالنسبة للألف الثاني قبل الميلاد ، في نظر المؤرخ، هو قدرته على ان يربط بصورة اوثق بين المعطيات الاثرية وغيرها من معالم هذه المدنية . فالمؤرخ اليوناني هيرودوتس الذي وضع تاريخه في اواسط القرن الخامس ق . م ، استطاع ، عندما اراد

ان يؤرخ لهذه البلدان، بالمعلومات التي اقتبسها من تقدمه من المؤرخين ، في القرون السابقة . ففي معرض حديثه عن شبه الجزيرة الايبيرية ، يأتي على ذكر الكلتيين « ملاصقين آخر شعوب اوروبا في الغرب » . ففي الحين الذي يبدو له ان الدانوب ينبع من بلادهم ، فهو يتصوره منحدراً من مقاطعة الروسيّون في جنوبي غربي غاليا . وهذا الوهم يقع فيه ابو التاريخ لا يذهب بتأكيده المزدوج بأن نهر الدانوب ينبع من المقاطعة الكلتية ومن عند الكلتيين ، وقد صرح به قبل زوال مدنية الهولشتات ، من اسبانيا والبرتغال . جاء بعض المؤرخين على ذكر الكلتيين او البروتوكلتيين *Proto-celtes* في العهد الشبهاني ، وانهم قاموا بهجرات واسعة نحو الغرب . فاذا أبينا مجاراتهم في هذا القول بدافع من التحفظ ، ولم نسلم بوجود أي تشابه بين اقوام المدنية الهولشتاتية والكلتيين في الغرب، فلا بد من ان نسلم بأن هؤلاء اخذوا مع غيرهم من معاصريهم، بأسباب هذه المدنية وساعدوا ، من خلال تنقلاتهم وهجراتهم ، على نشرها في الاقطار التي أهلوها ، اذ الى هذا العهد ترجع عادة لبس القلائد المفتوحة (*Le Torques*) التي عثر على بعضها في مدافنهم ، وهي عقود كان لبسها من مميزات الكلتيين الفارقة على شكل سلاسل من الذهب او الشبهان المفتول وتلتهي أطرافها بكتلة مستديرة . اما مدنية *La Tène* فلا يجوز التشكك حول نسبتها أصلاً ، فهي كلتية في صميمها. واذا اردنا لها تعريفاً ادق، فلا بأس من ان ننعتها بأنها ارفع واتم طراز لمدنية الكلتيين في اوروبا الغربية .

وهذه التسمية لا يمكن ردها على الاطلاق الى واقع اتنوغرافي . فقد أبرز لنا كتبة العهد القديم وفنانوه الصورة الكلاسيكية للانسان الكلتي او الغالي ، اذ صوروه لنا فارع القامة ، شديد البأس ، ازرق العين ، امغر الشعر أشقره . يتخلل هذا الوصف كثير من التقليد الموروث والتعميم المفرط لعرق بشري سيطر ردحاً من الدهر. فلم نعد لنرى ، منذ بدء الالف الاول ق . م ، في اي مكان او رقعة على الارض، عرقاً بشرياً خالص الجوهر والاصل على اطلاق المعنى الطبيعي لهذه الكلمة . فالكلتيون، كغيرهم من العروق البشرية الاخرى، في أي منطقة حلوها، تمازجوا على درجات مختلفة ، مع سكان البلاد الاصليين الذين تهجنوا هم ايضاً وتخالطت عروقهم. وقد تكون الطبقة الارستوقراطية عندها استطاعت ان تحافظ على عرقها الصافي ، وعرفت ان تتفادى التلقيح من الخارج . فاذا صحت هذه الفرضية أمكن رد هذه الطبقة الى جذورها الاولى التي جاءت من الشمال وربطتها بشعوب أخرى. والحق يقال ، فالطابع الذي طبع هذه المدنية ببطء أو اضفى عليها هذه الفروق المشتركة ، هو الذي ميّز هذه المدنية وفردها عن مدنيات الشعوب الاخرى، كالجرمانيين مثلاً او غيرها من الشعوب التي توصلت الى احتلال شبه جزيرة سكندينافيا والمانيا الشمالية ، مع العلم انه قام بين جميع هذه المدنيات المتنوعة اتصالات واسعة .

ولعل خير ما يساعدنا عملياً على توضيح كلمة « كلتيين » هو علم اللغة او الفيلولوجيا، ولكن بشيء من الصعوبة مع ذلك ، لخلو الامثلة العديدة التي يعدنا بها التاريخ القديم، من الدقة والضبط.

فعلم اللغة يضع تحت تصرفنا أسماء اعلام لمسميات بشرية وجغرافية ، وبعض اللهجات المصرية معظمها من جذر كلتي لا يزال معمولاً بها للآن ، منها مثلاً اللهجة الغالية التي يدرج استعمالها حالياً في كل من إرلندا وإيكوسيا . ومنها كذلك اللهجة البريطانية التي عاشت ولا تزال حية في بلاد الغال (انكلترا) ومنها انتقلت الى مقاطعة بريتانيا الفرنسية ، على يد جماعة نزحوا اليها من مقاطعة كورنواي *Cornouailles* ، في انكلترا الجنوبية الغربية، خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد، امام غزوات الجرمانيين وضغطهم المتزايد. ولا نزال نجد انفسنا عاجزين عن تفهم الوثائق المكتوبة باللهجة الوحيدة الحية بين اللهجات الكلتية ، وهي اللهجة الغالية التي عثر علماء الآثار منها على بعض نصوص وجيزة بقيت محفوظة ليومنا هذا . وعلى الرغم من هذا ، توصل العلماء الى نتائج عامة ثابتة لها قيمتها الكبرى في هذا المجال .

وقد جاء علم اللغة بالدليل القاطع على ان اللغة الكلتية ترجع اصولها الى فئة اللغات الهند الاوروبية ، بينها وبين اللغة الجرمانية اواصر قربية ، كما يقوم بينها وبين اللغة الايطالية وشائج وثيقة. وقد يكون مع ذلك، الامر واحداً في اللغة الكلتية كما هو في اللغتين الجرمانية والايطالية من حيث التطور . نتكوين هاتين اللغتين يشهد عليه قيام لهجات اشتُقت منها لم تلبث ان تباعدت عنها وتباينت معها ، مع ما بينها في الاصل من اواصر القربى . وليس من المستبعد قط ان تكون وحدة اللغة الكلتية الاصلية قد ادت ، منذ عهد مبكر ، الى ظهور لهجات خاصة لا نزال عاجزين عن تبيانها وتعيين حدودها .

ومن جهة أخرى ، ساعدت دراسة أسماء الامكنة والانهر والجبال ، علماء اللغة ، على تحقيق اكتشافات يشهد معظمها بشكل ينتفي معه الشك ، على سيطرة الجذر الكلتي ، في المانيا الغربية في منطقة تتناوح بين نهري الرين والدانوب . فلنأخذ على ذلك مثلاً واحداً هو ان جميع روافد نهر الرين ، من جهة اليمين : كالنكار *Neckar* والليب *Lippe* هي أسماء كلتية الجذر . ولذا كان بوسعنا الجزم ، دون تحرج ، بأن هذه المنطقة بالذات ، إن لم تكن موطن الكلتيين الاصلي ، فهي الرقعة التي بلغت فيها اقوام الكلتيين، ولمدة طويلة، أعلى معدل من الكثافة ، كما مثلوا أكبر قدر من سكان البلاد الاصليين .

امتداد الكلتيين

جاء هذا الشعب بالدليل على انه كان خلال بضع مئات من السنين ، أي قبيل منتصف الالف الاول وبعيده، من أكثر الشعوب انتشاراً وانبساطاً. فبين موجات الهند الاوروبيين ، باتجاه الشرق ، في الالف الثاني قبل الميلاد من جهة ، وبين غزوات البرابرة ابتداءً من مطلع القرن الثالث للميلاد ، كانت موجات الكلتيين من أبرز الاحداث البشرية في هذا المجال ، ادت الى نتائج تاريخية غاية في الاهمية ، وان فاتتنا معرفة الكثير منها لعدم توفر المعلومات الخاصة بالوضع السائد قبل وقوعها . فقد جرّت على بعض المناطق تبديلات جذرية ، من حيث طبيعة السكان ، واخترقت بين لجج موجاتها امبراطوريات ، كما ألحقت الهوان وأنزلت

الضعف والمهانة بالبعض الآخر ، من بينهـا مدنية الاتروسك ، مثلاً . فقد شلّوا وألقوا الرعب في قلب مجتمعات تحضرت منذ عهـــد بعيد ، كما جعلوا الهلع يدب في قلب مدنيات بلغت شأواً عالياً من التصور . فالمعلومات المتوفرة لدينا لا تترك مجالاً للشك في مبلغ الخراب الذي انزلوه في ايطاليا والعالم الهليني. فقد كان الشعور العام الذي استحوذ على العالم المتمدين اذ ذاك ، ولمدة قصيرة ، الشعور نفسه الذي تملكه عندما رأى نفسه وجهاً لوجه امام غزوات البرابرة التي دكت العـــالم الروماني . فهل استشعر العالم اذ ذاك انه امام كارثة دهماء ؟ قد يصح هذا في البلدان التي لم تكن تكتظ بالسكان او تلك التي كانت عدة الحضارة والعمران فيها بدائية . ومهما يكن ، فالصمت الذي تعتصم فيه مصادرنا لا يخولنا الجزم نفياً او اثباتاً .

نود ان نعرف الاسباب التي ادت الى انتشار الكلتيين ، أهي لعمري ، كثرة المواليد وما تقتضيه بالتالي من زيادة موارد الرزق والعيش ، او المنافسات الشديدة والإحَن الداخلية ، ام ضغط خارجي جاءهم مـــن الشعوب الشمالية ؟ علينا ان نقر هنا بما نحن عليه من جهل مدقع في هذا المضمار ، وذلك بالرغم من هذه المعلومات المشبوهة المبعثرة التي تعرض لنا . كذلك يهمنا ان نتعرف ايضاً وان نحيط بالظروف والاوضاع التي لابست هذا الانتشار ولازمته . والظاهر ان الامر نتج في الغالب ، ليس عن انتقال شعب او قبيلة من القبائل الكبرى بأسرها ، بل تم تباعاً ولحاقاً بهجرة جماعات في إثر جماعات هامت على وجهها في شتى المناحي والاتجاهات . وهكذا نرى اقواماً من الـ *Tectosages* يستوطنون في آسيا الصغرى وفي تولوز ، كما نجد جماعات مـــن الـ *Tolistoboiens* مستقرين في آسيا الصغرى ، وبعض أفخاذهم من الـ *Boiens* محتلين مقاطعة بوهيميا ومنهم اشتق اسم هـــذه المقاطعة ، وبعضهم استقر الى الجنوب من نهر البو في ايطاليا . وتولى قيادة هذه الجماعات الآخذة بأسباب الاغتراب ، مقدمون من الأسر الشريفة ، اصطحبوا معهم على عربات ومركبات للنقل ، الاولاد والنساء ، واتجهوا على بركة الرحمن ، سيان عندهم أزحزحوا الجماعـــات التي سبقتهم لاحتلال المنطقة ، او انتهزوها فرصة سانحة للنهب والسلب . وهمهم الاكبر ان تقودهم خطاهم الى اراض جديدة يحتلونها ويقيمون فيها ، وهم على اتم استعداد لبسط سيطرتهم عليهـــا بحد السيف ، ولو اقتضاهم الامر ذبح السكان. فان تم لهم الامر بالتراضي ، فحبذ الاتفاق .

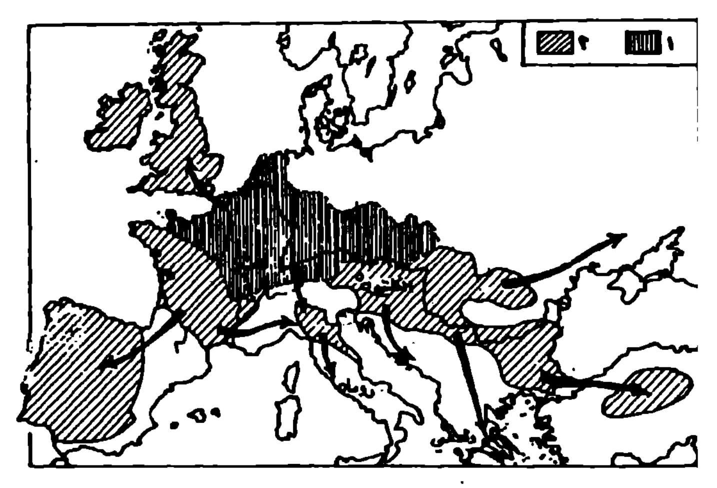
ان هجرة على مثل هذا الشكل من الدوران ، لا ضابط لها ولا وازع ، لا يمكن ان تقع تحت مراقبة التاريخ وحصره . إلا اننا نستطيع ان نتبين عن طريق المعلومات للشحة الذي يعدنا بهـــا علم الاركيولوجيا وعلم الألسنيّة ، الى جانب ما سجله الكتبة القدامى ، النتائج التي توصلوا اليها ، وهي نتائج تتسم بالعظمة خليقة بالاكبار والتقدير العالي .

النتائج التي ادى اليها امتداد الكلتيين

احتل الكلتيون في اتجاههم نحو الشرق ، مقاطعة بوهيميا ووادي نهر الدانوب ، حتى انهم بلغوا ، عبر ترانسلفانيا ، سهول اوكرانيا . اما في الشمال من البلقان ، فقد وجدوا أنفسهم ، منذ فجر القرن الرابع ق.م ، وجهاً لوجه ، مع الإلليريين والتراقيين ومن خلفهم المقدونيين . فقد ارسلوا للاسكندر الكبير وفوداً

مية . وفي سنة ٢٨٠ ق . م ، توغلوا في مقدونيا ، ولم تنجُ عام ٢٧٨/٢٧٩ كنوز هيكل دلف
الوقوع بين ايديهم إلا باعجوبة . غير انهم لم يلبثوا ان ارتدوا عن هذه البلاد لما لقوا فيها من
رد قوة الدفاع ومتانـــة حصونها ومناعتها . فأسسوا في تراقيا دولة استمرت حتى اواخر
ن الثالث . واستطاعوا منذ عام ٢٧٦ ق . م ، ان يقيموا في قلب آسيا الصغرى حول مدينة
ير (انقرة اليوم) وفي منطقة غلاطيا *Galatie* التي اشتقت اسمهـا منهم وأسسوا فيها دولة
فظت على استقلالها حتى عهد اوغسطس .

اما في الغرب فقد انتشروا في جميع أنحاء غاليا ، وقامت موجتهم الاخيرة التي بلغت حدها



الشكل ٥ – انتشار الكلتيين
١ – المناطق التي ازدهرت فيها المدنية المعروفة بمدنية لاتين *La Tène* .
٢ – المناطق التي استقر فيها الكلتيون .

على بقدوم البلجيكيين ونزولهم نهائياً بين نهري السين والمارن ، في القرن الثالث ، واستمرت
قلها الى اوائل القرن الثاني ، وانتهت باقتلاع اقوام الكلتيين الذين كانوا سبقوهم الى السكنى
تلك المنطقة . ومن غاليا دخل الكلتيون ، في وقت غير معروف التاريخ ، بريطانيا العظمى
رلندا ، كما دخلوا من الجنوب ، الى شبه الجزيرة الايبيرية ، كما اورد خبر ذلك ، هيرودوتس ، في
ن السادس . ق . م . ولم يلبثوا ان سيطروا فيها على جميع المناطق الواقعة في الشمال والغرب
وسط . واخيراً تم لهم التوغل في ايطاليا بعـد ان عبروا مجازات جبال الالب ، فاستقروا ،
القرن الرابع ، في (لومبرديا) ، واستوطنوا المنطقة الواقعة الى الجنوب من نهر البو حتى جبال
بنين وشواطىء البحر الادرياتيكي ، فاحتلوا تباعاً ، الواحدة بعـد الاخرى ، حواضر بلاد

الاتروسك ، امثال ملبوم *Melpum* وفلسينا *Felsina* التي عرفت فيما بعد باسم مديولانوم او (ميلانو) وبولونيا (بولونيا)، كما ان بعض مسمياتهم عاشت في المجالات الاخرى التي وقعت تحت سيطرتهم[1]. وفي بعض الاحيان، بعثوا بكراديس نحو الجنوب، استولت بعد عام ٣٩٠ بقليل، على مدينة روما ، وأنزلت بهـا الدمار . ورأينا بعض سراياهم تكتسح مقاطعة كبانيا وتبلغ في اندفاعها نحو الجنوب ، سواحل مضيق مسينا .

كل هـذه الاقاليم والمقاطعات التي اكتسحها الكلتيون على نسب مختلفة مـن الاتساع والاستيطان ، لم تكن لتؤلف ، بالنسبة لتناثرها وتشتتها ، امبراطورية كلتية متجانسة .

وبعد ان اخذوا بأسباب التمدين وضربوا في جنبات الحضارة ، قلما نرى جماعاتهم تبادر لنجدة بعضها البعض ولو جمعتها وحدة الجوار . وقد يحدث أحياناً ان ينضم بعضهـا الى اعداء اخوانهم فيناصرونهم ويظاهرونهم عليهم مع ان مواجهة العدو الواحد المشترك كان يوجب عليهم الالتفاف معاً وحدة متراصة . وعندما هب الرومان لفتح مقاطعة غاليا ، ما وقع منها بعد جبال الالب *Transalpine* او بعدها *Cisalpine* عولوا في أعمالهم الحربية على قوم من الغاليين وقفوا من الفتح موقف الحياد وكثيراً ما شدوا من الفاتحين الأزر وبادروا لنصرتهم . والدول التي أنشئت في المقاطعات التي سيطروا عليها ، لم تتمتع بعضها بتنظيم شديد الامر قويه . فقد افسحوا المجال امام قبائلهم ان تقدم للاجنبي ، ولا سيما للممالك الهلينية، جحافل متراصة من جيوش المرتزقة، فبعثروا وشتتوا على هذا النحو ، قوام البشرية التي كثيراً ما تنكرت لبعضها البعض، وتلاحمت في القتـــال .

ولا يعني هـذا انهم كانوا يجانبون الاخذ بالاعمـال التي تتفتح لها ايام السلم . فاذا ما اتفقت الروايات القديمة على إطراء ما كانوا عليه من روح حربية عالية تنزل الرعب في القلوب وتناقلت عن نمائهم الحكايات المؤثرة البنـــاءة ، فقد اطنبوا بنوع خاص الطرق الناجحة التي اتبعوها في تربية الماشية وأمور الزراعة . ويصف المؤرخ الروماني بوليب الذي قام في القرن الثـاني ، بعد رحلات واسفار ، بشيء من الارتياح والاعجاب ، ما كانت عليه مقاطعة ما قبل جبـال الالب (*Cisalpine*) من وفرة وبحبوحة في اسباب العيش ، بحيث كان يجد المسافرون في الفنادق كل ما يحتاجون اليه ، فيتناولون وجبات الاكل بسعر محدد، موحد، وليس وفقاً لقائمة ألوان الطعام. « فالعادة المتبعة عندهم ان يقدم اصحاب الفنادق والخانات ، لنزلائهم كل ما هم بحاجة اليه مـن الطعام بكميات كافية بثمن لا يزيـــد على نصف دانق ، أي بربع فلس واحد[2] » . وكانت

---

(١) منها مثلاً : شاتوميان (*Chateaumeillant*) في فرنسا ، ومتلين *Metelen* في وستفاليا، والمدن الفرنسية الاخرى المعروفة باسم بولونيـا ، ومدينة بولونيا (فيدين *Vidin*) اليوم ، على نهر الطونة او الدانوب ، بالقرب من بوابات الحديد) .

(٢) أي ما يوازي اربع سنتيمات من سعر العملة في فرنسا عام ١٩١٤ .

فكرة الحرب ، مع ذلك لا تبارح خواطرهم. وها نحن نسمع بوليب نفسه يصف لنا بدقة سكان هــذه المنطقة ، في القرن الثالث ق . م فيقول : « كانوا على بساطة من العيش . فلم يحسنوا سوى الحرب وامور الفلاحة . وهم على يسار من الرزق ، لهم من الذهب وقطعان الماشية ما يجعلهم أغنيــاء، وهي مقتنيات يسهل نقلها وحملها بسهولة في رحلاتهم وتجوالهم، كما يشتهون، وكما تسمح لهم بذلك الظروف السانحة ».

ربما كان عددهم ضئيلاً في بادىء الامر عند أخذهم بأسباب الهجرة ، مع ان المصادر اليونانية واللاتينية تغالي كثيراً بهذا العدد . فلم يتمكن الكلتيون الاحتفاظ بمعالم المدنية التي أنشأوها لهم في الخارج ، بعــد الغزوات المتلاحقة التي أخذوا بها والحروب الدامية التي خاضوا غمارها . والظاهر انهم كانوا على جانب كبير من الاستعداد للقبس من الاوساط والمجالات التي استقروا فيها ومن الحضارات التي حلّوا بينها . ونزعوا على الاخص ، لاقتناء الحلي والثياب الموشاة ، كما اقتبسوا عبادة الآلهة الاقليميين الذين حلوا بين ظهرانيهم . وتبوحاً بأواصر القربى العنصرية التي شدتهم بغيرهم من الاقوام ، جاء الكتبة القدامى على ذكر: الكلتو سكيثيين *Celto - Scythes* ، والكلتو تراقيين *Celto-Thraces* ، والكلتو ايبيريين *Celto - Ebériens* . هذه الأرومة الكلتية التي تجلت في هؤلاء الجنود الأشداء الذين عرفوا ان يدوخوا ، صدفة او اتفاقاً ، جانباً كبيراً من اوروبا ، واقتطعوا قسماً من آسيا الصغرى ، لم تلبث ان تقلصت وتبلورت في قبضة من التقاليد الدينية واللغوية التي فقدت عملياً كل أهمية لها وشأن .

توقف مدنية الكلتيين وأفولها

بلغت موجة الكلتيين الشبح وسجلت حدها الاقصى ، في القرن الثالث ، ق . م، ثم اخذت تبدو عليهم اعراض العناء ويدب فيهم الوهن تدريجياً . فالشعوب المجاورة للغلاطيين ، في آسيا الصغرى ، عرفت ان توقف تقدمهم ، واستطاعت الدولة الأتالية ان تفرض عليهم شيئاً من الحمــاية قبل ان يدخلوا في مدار الفلك الروماني ، كما ان مملكة تراقيا لم تلبث ان تداعت وانهارت . واستطاع السكيثيون والداس *Daces* والجيت *Getes* ان يصدوا الكلتيين وان ينكصوهم على الاعقاب باتجاه هنغاريا . وفي شبه الجزيرة الإيبيرية وغاليا الجنوبيــة ، قام الايبيريون الذين جاؤوا من الجنوب وربما من افريقيا ، بحركة مماثلة تحمل منطقة نهر الرون بعض معالمها . اما في ايطاليا ، فقد قام الرومان ، للمرة الاخيرة ، عام ٢٢٥ ق. م ، بصد الهجوم العنيف المفاجىء الذي قام به الغاليون ومن لف لفّهم من بني جلدتهم في غاليا ما وراء جبال الالب ، واستطاعوا ان يسجلوا عليهم نصراً مبيناً عنــد رأس تيلمون *Télamon* من اعمال اتروريا الجنوبيــة . واخذت روما، على الاثر، تفت من عضد الكلتيين وتقتطع بالتالي من اراضيهم حتى نشرت عليها سيطرتها التامة بعــد العاصفة الهوجاء التي نزلت بها على يد هانيبعل وكادت تجتثها من اصولها . وما ان مالت شمس القرن الثاني ق. م للغروب ، حتى رأينــاها تبسط سيطرتها على الكلت الايبيريين بالرغم من المقاومة العنيفة التي

أبلتها مدينة نومانس *Numance* الواقعة على نهر الدورو *Douro* ، كما استطاعت ان تقيم لهـا مواطىء قدم في غاليا الجنوبية .

فمها كان عليه الكلتيون من سوء التنظيم ، علينا ان نرد انحلالهم السريع وهبوطهم الى عوامل أخرى غير التفسخ الذي انهك قوام والظروف المحلية التي احاقت بهم. منها مثلاً الردات العنيفـة التي قوبلوا بها لدى الشعوب الاخرى . ولو افترضنا ان بعض المعالم التي عثر عليها في سكندينافيا والمانيا الشرقية الشمالية لا تؤيد هذا الرأي ، فلا يمكن مع ذلك التسليم بأن الضعف والوهن فشا فيهم حتى في المناطق التي سيطروا عليها بشدة ومراس ، في المانيا الجنوبيـة والغربية مثلاً.من الجائز مثلاً، ان يكون جلاء البلجيكيين ونزوحهم الى شمالي فرنسا جاء نتيجة لما تعرضوا له من ضغط شعوب جديـدة جاءتهم من الوراء . فمن هم لعمري ، هؤلاء الكمبر *Cimbres* والتيوتنز *Teutons* الذين خرجوا ، بعد ذلـك بقليل ، من جنوب شبه جزيرة جوتلاند ووادي نهر الإلب *Elbe* ،فعاثوا فساداً في النمسا وسويسرا والالزاس، وفي الجنوب من غاليا وشمالي ايطاليا ، بين ١١٣ — ١٠١ ق . م ، قبل ان يتمكن القائد الروماني ماريوس من سحقهم على التوالي : التيوتنز عنـد ايكس آن بروفانس ، والكمبر عند فرساي *Verceil* ؟. أكلتيون هم هؤلاء الغزاة القادمون ام طلائع الجرمان هم ، يدخلون حلبة الميدان ؟ ومهما يكن ، ان وصول هـذه الشعوب المتأخرة ألقى الرعب في قلوب الكلتيين في غاليـا . وعلى كل ، فهؤلاء الشعوب التي اصطلح الاقدمون على نعتهـا بالجرمان ، لم يلبثوا ان ظهروا على ضفاف نهر الرين .

فعند مطلع القرن الاول ق . م ، لم يبقَ في هـذه الرقعة الواسعة التي سيطر عليها المد الكلتي من مجتمعات تمتعت بالاستقلال، إلا ما قام منها فيالقسم الاكبر منغاليا وبريطانيا العظمى. فقدكُتب للفريق الاول منهم ان ينشىء له مدنية ليس من الممكن التغاضي عن ذكرها والمرور بها مرور الكرام .

٢ ـ الغاليون

الغاليون هم هؤلاء الاقوام الذين كانوا يقطنون« غاليا » ما وراء الالب عندما شرع الرومان بفتح هذه البلاد ، على فترتين متميزتين ، يباعد بينهما مدى ٦٠ سنة .

وحدة في التنوع

ظهر مما تقدم من بحث ان هذه الاقوام لم تكن كلتية . فقد تكاثرت هجرات الكلتيين وتتالت موجاتهم بحيث لم تكن الذراري والولد التي خلفوها في البلاد سوى نسبة عدل ، بالنظر لعدد السكان . فاذا ما اخذنا بأقوال الكتـاب القدامى ، كان عددهم عالياً بحيث لم يقل في ادنى حد عن ٢٠ مليوناً ، بينا قدّرهم بعض المؤرخين بأعلى من ذلك

بكثير . اما الكلتيون أنفسهم ، فلا نستطيع ابداء أية فكرة بشأن عددهم ، لا سيا والمصطلح في معناه الحصري غير واضح الاعراق . ولا بأس من ان نؤكد هنا ان السواد الاعظم من سكان البلاد الاصليين تعود جذورهم الاولى الى العصر الحجري . وكم توالى على البلاد ، في غضون العصور المظلمة ، من الانسرابات القومية والفتوحات الدامية ! وكم من الغزاة الطواريء اقاموا في اطراف البلاد الخارجية ؟ وكم يرى التاريخ نفسه في عَمَهٍ بالنسبة لهذه الاضافات الجديدة ، كما انه يعوزنا الدليل القاطع الجزم بالتأكيد . ولا يبقى من هــذا كله سوى الشعور بتنوع الجذور والاصول .

وهذا التنوع ليس ما يدعو للاحظته والتنويه به لولا النتائج العملية التي يُفضي اليها ، ومن العسير تتبعها واقتفاء اثرها . ففي غاليا التي يتأهب يوليوس قيصر لغزوها وتدويخها ، هنالك اقوام الأكيتين (*Les Aquitains*) والغاليين *Caulois* والبلجيكيين *Les Belges* وهي «تتباين بعضها عن بعض بما بينها من مفارقات اللغة والعادات والشرائع » ، دون ان يحدد منها وجوه الاختلاف والتبــاين . ومن الواضح ان قيصر يغلو جداً عندما يتعرض لوصف البلجيكيين الذين لا يمكن فصلهم عن سائر الكلتيين ، بالرغم من حداثة دخولهم البلاد نسبياً واستيطانهم فيها . إلا ان الامر على العكس من ذلك تماماً ، مع قوم الاكيتين وغيرهم من الشعوب القاطنة ، في هــذه الناحية من بــلاد غاليا ، المطلة على البحر المتوسط ، والتي سقطت في قبضة الرومان قبل عهد قيصر . والافخاذ الكلتية التي دخلت البلاد من الشرق او من الشمال ، استطاعت هي الاخرى ، التغلغل في داخل البـلاد حتى بلغت منها مقاطعات البروفانس واللانغدوق *Languedoc* ، بينا نرى جماعات الفولك اريكوميك تستوطن مدينــة نيم وجوارها ، كما تستوطن جماعات فولك تكتوزاج (*Volques Tectosages*) مقاطعة تولوز ، ولم يكن وصل منهم اطراف الارموريك *Armorique* سوى قلة ضئيلة . ومع ذلك فقد تطبّع سكان هــذه المقاطعات البدائيون بأطباع الكلتيين بينا كان سكان الجنوب اقل اخذاً بهــذه الطباع . وفي مقاطعة بروفانس ، لم يأخذ الليغوريون بأسباب هــذا التطبع ، مع اننا نجد فريقاً من الاهلين هم من أرُومة الكلت – ليغور *Celto - Ligures* . وقــد قامت بين شعوب الايبيريين ومقاطعة اللانغدوق ، علاقات على مر السنين حتى مطلع الغزو الروماني للبلاد ، وكل الظواهر تدل على ان الاهلين استعملوا اللسان الايبيري في التخاطب والكتابة . اما مقاطعة اكيتين برمتها حتى نهر الغارون ، فقــد عرفت كيف تحافظ على طابعها الاصيل ، كما عرفت ان تصمد ، فيا بعد ، في وجه الفتح الروماني ، بما فيها من اقوام البيرنيين وما كانوا عليه : من لغى ولهجات ، ومــن آلهة وعادات ، خاصة بهم . ويكفي ان نذكر هنا مثلاً ، شعب الباسك *Basques* وكيف تمكن من الحفاظ على إصالة ارومته وذاد عنها الفتح الروماني . وأخيراً وليس آخراً ، قامت على سيف البحر المتوسط مدينة مرسيليا بما أهلها من جوالي الاغريق وذراريهم ، وهم أصحاب مدنية أسمى بكثير ممــا كان عليه جيرانها ليرضوا بالتخلي عنها والتحلل منها .

فمع ما نشاهد في بدء الامر من عوامل وعناصر هـذا الشعب ، وبالرغم من هذا الصمود، ومن هذه المقاومة لهذه المؤثرات ، فقد وجد الرومان أنفسهم ، عندما أطلوا على غاليا ، شيئاً آخر غير جماعات متجاورة، متخاذلة، متنابذة، منعزلة بعضها عن بعض ، تتفاوت فيما بينها من حيث التطور والرقي الذي بلغته . فقد كان الكلتيون قد سيطروا ، منذ عهد بعيد ، على القسم الاكبر من البلاد ، فاندمجوا بها اندماجاً كلياً بحيث لم يبق أي أثر يذكر لعملية التوطن التي تمت على مر الزمن ، في عهود وأدوار متلاحقة . وقد كانت انتهت منذ امد طويل ، عملية انصهار هذه الاقوام التي قطنت البلاد ، وذابت بعضها في بعض ، بحيث كانت أكثرية الشعب تنظر الى البلاد نظرها الى الوطن الام . وكان من السهل ان نتبين الصفات البارزة التي كانت تفرد غاليا والغاليـين ، باستثناء بعض نقاط محدودة، فتجعل منها ومنهم، بلاداً وشعباً هدفوا معاً الرقي واشرأبت أعينهم التقدم والتطور، الامر الذي يضعنا امام مدنية ناشئة، تستطيع، اذا ما تم لها التكامل المرغوب وشبّت عن الطوق ، ان تزيد وحدة البلاد ارتباطاً وانسجاماً، من الوجهتين العرقية والادبية .

الصالاتهم بالمدنية الهلينية وسبلهم اليها

يجدر بنا ، ونحن نشهد بزوغ مدنيـة جديدة تتطلع للأخذ بأسباب التطور والتكامل ، ان نتساءل ما عسى ان تكون المؤثرات التي تفاعل بها هذا الشعب وعن أي طريق اتته . ومما لا شك فيه قط ان هـذه المؤثرات يونانية الاصل . غير انه يهمنا في الدرجة الاولى ان نعرف كيف تم هذا الاتصال ، وعن أي طريق أتى ؟

اول ما تقع عليه العين ويلفت اليه النظر هو مدينة مسّاليا او مرسيليا اليونانية الاصل ، التي أنشأها معمرون ايونيون ، قبل الميلاد بـ ٦٠٠ سنة ، خرجوا من مقاطعة فوقيه *Phocée* ، من أعمال آسيا الصغرى، فعمروها على شاطىء بحر، كثيراً ما ارتادته ورست عنده السفن اليونانية. وقـد عرفت هذه المدينة ان تحافظ على طابعها الاغريقي وان تحتفظ به طويلاً حتى بعد الفتح الروماني للبلاد . فبالرغم من المنافسة الحادة التي لقيتها من الاتروسك والقرطاجيين، فاستحالت احياناً الى حروب حامية جرت عليها عهوداً من الركود في حركة الاعمال، وانكماشاً في نشاطها التجاري ، فقد برزت بنشاطها البحري ، فأنشأت لها ، في عهود وأدوار اعتصم التاريخ حيالها بالصمت ، مستعمرات عديدة على شواطىء اسبانيا الشرقية ، وغاليا الجنوبية . إلا ان صروف الدهر وتقلباته اضطرتها التخلي عن احدى مستعمراتها هذه ، هي مدينة « ميلبكية » (ملاغا اليوم) للقرطاجيين ، كما ان الايبيريين اغرقوا بحواليهم الكثيفة مستعمرات أخرى تابعة لها ، منها كاليبولس ـ برشينو (*Callipolis - Barcino*) وامبوريلس *Ampourias*) وروديه (*Rosas*) فاستقلت هذه المدن بأمورها . اما في غاليا ، فقد كانت احسن حظاً لا سيما بعـد ان أصبحت حليفة الرومان فناصروها ووقفوا الى جانبها وشدوا منها الازر ، فأنشأت لهـا ما يكاد يشبه

امبراطورية شملت عدداً من المدن والمرافىء ، نذكر منهـــا على سبيل المثل لا الحصر : بيرينه (*Pyrenè*) المرجح ان تكون (*Port - Vendres*) واغاثيه (*Agade*) وثلينيه (ربعـــا (*Arléate - Arles*) ونيكايا (*Nice*) وكيثارستا (*La Ciotat*) وأولبيا (*Hyères*) وانتيبولس (*Antibes*) وموناكو (*Monaco*) . وكانت مرسيليا تؤمن لهـا أسباب العيش عن طريق الاتجار ، مع غاليا، كما يشهد على ذلك الخزفيات اليونانية الصنع بعضها من مصنوعات اثينا . واشهر هذه الخزفيات تلك التي عثر عليهــا بالقرب من مدينة بيزيه . وقد نقل هؤلاء التجار ، بالطبع بعض ما استقرت عليـه المهارات الفنية والاساليب الصناعية وبعض الأفـكار والعــادات الاغريقية الطابع . وهكذا ظهر على لسان القوم المصطلح الجغرافي ، « غاليـــا الاغريقية » . وبين الوثائق والنصوص القديمة أكثر من نص ومرجـــع يحدثنا عن الاثر الطيب الذي تركته مرسيليا . فها جوستن يقول : « وبتأثير من مرسيليا وسكانهـــا ، راح الغاليون يتخلون عن عاداتهم البربرية ، فدمثت منهم الاخلاق ، ولانت عريكتهم واخذوا باسباب الحضــــارة : فحرثوا الارض واقاموا الاسوار والحصون حول مدائنهم ، وألفوا العيش في ظل القانون وتحت حمـــايته ، وتخلوا عن استعمال القوة والبطش في تأمين حقوقهم ومصالحهم ، كما حنقوا من جهة اخرى، تشذيب الكرمة وغرس نصوب الزيتون . فقــــد بدا على الناس وعلى الاشياء كأنما انتقلت اليونان الى غاليا وغاليا الى اليونان » . غير ان هنالك من الوقائع ما يجعلنا نخفف كثيراً من غلو الحدسيات والافتراضات التي طلع بها كتاب محدثون ، جعلت من مرسيليا قطباً للاشعاع الهليني في غاليا .

فقد صورت لنا التقاليد المتوارثة تأسيس هذه المدينة وكأنها انشودة حب عذري ربط مـــا بين هذه المدينة وبين سكان البلاد . فاذا ما قام يوماً ، مثل هــــذا الحب ، فهو لم يعمر طويلاً . فقد لقي الاغريق من المصاعب والعراقيل أثارها في وجههم اقوام الليغوريين الاشداء ، مـــا اضطرهم ، في القرن الثـــاني ، لطلب النجدة من روما ، فبادرت لنصرتهم والتسييج حولهم برعايتها فامنت لهم شيئاً من الاستقرار . كذلك نابهم من الكلتيين بعــــد ان استباحوا مقاطعة بروفانس ، ما نغّص عليهم العيش ، ولم يستطيعوا ان يتنفسوا الصعداء الا عندما دك الرومان حصون مدينتهم أنترمونت *Entremont* .

صحيح ان طبيعة الحرب لم تكن اذ ذاك، لتحول دون التبادل التجاري، غير ان الاخذ بالمصطلح الجغرافي: « غاليا الاغريقية » لم يكن ليخلو من غلوّ . ففي حال تبنيه ، فاللفظ لا يمكن اطلاقه الا على منطقة ضيقة، اقتصرت على بعض وكالات تجارية ومكاتب اعمال تاثرت حياتها حتى مرتفعات الألب المطلة على البحر، ثم تنبسط وترحب مع انفراج الجبل . وهذه الخزفيات المحلاة بالرسوم التي المنا الى خبر اكتشافها بجوار مدينة أنسرون *Ensèrune* هي ، والحق يقال ، من الكماليات التي لم يحدث دخولها في المنطقة اي اثر بيّن في طراز المساكن والمدافن وفرشها من الداخل .

فالمعلومات المصردة التي يمدنا بها علم الآثار اليوم تجعلنا نرتاب كثيراً ونتشكك في صحة الرواية التي روّج لها البعض من امتداد تجارة مرسيليا الى داخل البلاد . وبالفعل ، نجد على طول الطريق الممتد بين نهري الرون والصون والذي يؤلف ممراً طبيعياً للمواصلات التجارية ، فجوات كاملة حتى القرن الثاني تقريباً بين الآثار اليونانية المكتشفة من خزف وشبهان، في هذه المنطقة ، تمتد من نهر الدورانس الاسفل Durance الى نهر الإيزير (Isère) ، ولا تعود تظهر نسبياً ، بكثرة ، الا في مقاطعة بورغورنيا . وقد عُثر بالاخص ، في شمال فرنسا ، على اجمل الآنية المصنوعة من الشبهان ، بين القرنين السادس والخامس ق . م .

ولعل احدث هذه المكتشفات وأبرزها على الاطلاق (كانون الثاني - يناير ١٩٥٣) هي التي عثر عليها في منطقة فكس (Vix) على مقربة من مدينة شاتيون -سير- لاسين[1] وقد عثروا في حفرة هيل فوقها أكوام من التراب ، الى جانب الهيكل العظمي لاحدى السيدات ، على عدد من الآنية من صنع البرابرة، يعود عهدها الى منتصف القرن السادس ، ابّان مدنية الهولشتات، بينها أدوات خزفية أجنبية الصنع ، من العصر ذاته ، ومجوهرات من الذهب والفضة والشبهان يكفي ان نذكر بين الاخيرة منها تاجاً من الذهب زنته ٥٠٠ غراماً ، يحمل في طرفيه حصانين مجنحين . ومن بين هذه المكتشفات الاثرية واحد من هذه الاجاجين البرونزية الضخمة ، زنته ١٧٥ كيلوغراماً ، وعلوه متر و٦٥ سنتمتراً ، محلاة اذناه المنحوتة بشكل قوقعة بحيوانات بحرية بين رمم، على عنقه ثماني مركبات يفصل بينها سبعة جنود. فمن الطبيعي ان تثير هذه المكتشفات جدلاً حاداً بين الاخصائيين من علماء الآثار ، لن ينتهي عن قريب ، يدور بالاخص حول منشأ هذه الآنية ، وحول صناعة المعادن لدى الاتروسك ، هذه الصناعة التي عرفت بنشاطها كما عرفت بتأثير الاغريق عليها . ويدور النقاش فيما بينهم ايضاً حول معرفة الطريق التي سلكته هذه المؤثرات الفنية لتبلغ بلاد غاليا ، دون ان يوحي احدهم بالاقتصار على مرسيليا والاكتفاء بأثرها وحده في هذا المجال . وتتجه الخواطر بالاحرى ، الى طرق برية تنطلق من سهل البو او من البحر الادرياتيكي ، عبر المجازات والممرات الألبية ، كما يقترح غيرهم طرقاً أخرى تنطلق من البلقان وتسير صعداً مع نهر الدانوب .

فاذا تجاوزنا هذا الحادث الخاص ووضعناه جانباً ، علينا ألا ننتقص من أهمية الاتصالات التي أمكن القيام بها ، في تاريخ مبكر ، مع المدنيــة الهلينية في الشرق . فالكلتيون لم يهملوا قط هذه الاتصالات ، فنمّوها عن طريق الإلليريين ، في بدء الامر ، ثم باشروها بأنفسهم فيما بعد . ولم يقم ما يدعو الغاليين الى قطعها او التخلي عنها . فالذهب الذي تم إغراقه في الغدران

---

(١) مما هو احدث من ذلك ايضاً ، العثور، في شهر آذار - مارس ١٩٥٤ ، على قبر في مدينة راينهام (مقاطعة السار) ضم بين ما ضمه من الحلى ، اجمل خرص من الذهب يعود الى القرن الرابع ق . م وهو من مخلفات مدنية لاتين La Tène . ويحمل الطابع الهليني على مثل هذا البعد من مرسيليا .

المقدسة ، على مقربة من مدينة تولوز ، لم يكن قط ، وبكل تأكيد، من مسلوبات معبد دلفي ، هـذا الذهب الذي جلب الويلات وجر المصائب على الرومان عندما اخذوا باستخراجه تباعاً ، فوصفوه بالذهب المكون او المبسول . ويكفي ألا يكون الكلتيون سلبوا معبد دلفي او نهبوا مجوهراته وكنوزه حتى راحت الروايات والتقاليد المتوارثة تفنفر ، باطلاً ، حول هذا الحادث الموهوم ، الاقاصيص المستملحة تروي للسلف المتهيب ، اخبار نقمة الإله ابولو وغضبه المهتاج . كذلك ، فاذا ما تجرأ بعض المؤرخين على القول بأن الكرمة دخلت البلاد عن طريق سويسرا ، فشجرة الزيتون جرى توطينها ولا شك ، على يـد سكان مرسيليا . ويكفي ان نلاحظ هنا ان المسكوكات الغاليّـة الاولى ذهبت في تقليدها الى حد بعيد ، المسكوكات المقدونية دون عملة مرسيليا، لنقتنع بأن هذه المستعمرة الفوقية الاصل ، لم تكن المهذب الاوحد حتى ولا الرئيسي ، في عملية صقل سكان غاليا وبردختهم .

• فالمؤثرات الخارجـيـة تكاد لا تذكر اذا ما قيست بالعوامل الهلينية التي فعلت فعلها في القوم . فالقرطاجيون قنعوا منهم بعلاقات تجارية ضعيفة . اما الرومان ، فلم يأخذ أثرهم يظهر إلا منذ ان استقرّوا نهائياً في الجنوب من غاليا ، اي منذ اواخر القرن الثاني ق . م ، وقـد برز هذا الاثر للعيـان في المجال الاقتصادي ، فمهد بذلك السبيل امام الفتح الروماني وهيأ لهم اسباب الغزو . إلا ان تدخل روما افضى بالفعل ، الى قتـل المدنية الغالية الناشئة وبالتالي الى زوالها .

ومهما يكن من الامر ، فليس مـن اللائق ان نحاول تفسير كل شيء بالمؤثرات الخارجية . فالعامل الرئيسي يكمن في الغاليين أنفسهم ، أي في هـذا الانفعال والتفاعل الذي خضعوا له في النصف الثـاني من الالف الاول ق . م ، مختمرين بما اصطلح عليهم من عوامل التربة والمجتمع البشري الكلتي وطبيعـة الاقليم ، فتفاعل بهذا كله الكلتيون ، على توالي موجاتهم وتنقلات جماعاتهم وبطونهم . ومن نكد الحظ ، فاذا جئنا نحاول التدقيق في هذا كله، بوضع النقاط على الحروف ، في تحديد الفوارق وتبيين المفارقات ، تجاوزت تأكيداتنـا المطلقة نطاق التحليل والمضي فيه بنجاح : فكل محاولة في تعيين نسَب العوامل العرقية بين عناصر السكان وتحديد اقدارها من جهة ، والظروف المحيطة والملازمة لظهور مدنية أصيبت بضربة قاصمة في الوقت الذي اخذت معه في تحقيق وحدة الشعب الغالي ، من جهة ثانية ، كل ذلك ومـا اليه ، يعجزنا ويسقط في ايدينا .

تجزؤ البلاد اقواماً متنافسة

فتطور هذه المدنية الناشئة وصيرورتها الى الوحدة ، لم يكن اكتمل بقيام وحدة سياسية في الوقت الذي راح فيـه يوليوس قيصر يدوخ هذا القسم من غاليا المستقلة والذي كان يؤلف الجانب الاكبر من تلك البلاد .

ضم هذا الجزء المستقل من البـلاد ، اذ ذاك ، نحواً من ستين شعباً ، شدهم بعضاً الى بعض

وشائج متنوعة . وقد درجت العادة عندهم على ان يعقد الكهان — الدرويد — ، كل سنة ، في نقطة تقع في قلب البلاد ، في غابة اورليان ، على وجه التدقيق ، اجتماعاً كبيراً للنظر في القضايا العامة والخاصة منها على السواء. فوجودهم امام خطرٍ مدامٍ ماحق، يهددهم من الخارج، بعث في الجميع شعوراً عاماً بالخطر الماثل، هزهم هزاً وبعث فيهم يقظة وطنية عارمة. إلا انه وقع حادث معركة أليزيا (*Alésia*) فكان هذا الحادث معياراً حسناً لسبر الامكانات العارضة والطاقات الكامنة . فلكي تقوم في غاليا دولة لها من المقومات ما يضمن بقاءها ويمكّن لها في الارض ، تطلب ذلك أكثر من ازمة واقتضى اكثر من نازلة وطنية . فلم نكن نشاهد اذ ذاك ، في البلاد ، سوى شعوب متجاورة ، ابداً متيقظة ، حريصة على استقلالها ، تذود عنه وعن ارضها بقوة السلاح وتمنع عنه تعديات الجيران وتجاوزاتهم .

والكبير العزيز بين هذه الشعوب كان يشرئب باعناقه الى السيادة وفرض سيطرته وسؤدده. وهي اهداف كريمة نزع بعض هذه الشعوب الى تحقيقها وتحييزها . ومثل هذا المصير قد يكون توفرت اسبابه ، في القرن الخامس ، لشعب البيتوريج *Bituriges* (بورج) ووقع شيء من هذا القبيل ، في منتصف القرن الثاني ، لشعب الارفيرن *Arvernes* الذي عرفت الفيالق الرومانية ان تخفض، عام ١٢١ ، من غلواء ملكهم بتويت *Bituit* بعد ان شتت بدداً ، حشوده العسكرية واستولت على مركبته المصفحة بصفائح الفضة ، بالرغم من دمدمة حرسه . وقبيل مباشرة قيصر الفتح، خطر لشعب الادوين *Eduens* (قرب مدينة اوتون *Autun* اليوم) وهو شعب ربطته بروما صداقة ومواثيق ، بانه يستطيع بمؤازرتها تحقيق مثل هذه السيطرة . غير ان الاطماع التي جاش بها هذا الشعب كغيره من الشعوب الغالية الكبرى ، اذ ذاك ، اثارت في وجهه عداءات عنيفة ، زادها أواراً وتعقيداً ، استعانتهم بالاجنبي وطلب النجدة منه .

الاحزاب والفوضى

كانت اوضاع هذه الشعوب الداخلية ، على ما وصفنا : فلم يكن مات فيها ، بعد ، ذكر تنقلاتها في سالف الدهر . وكان بعض هذه الشعوب كالهلفيت ، مثلاً *Helvètes* على استعداد للسير سيرتهم الاولى عندما وقف لهم قيصر بالمرصاد واعترض تحقيق رغباتهم بضم مقاطعة الفارون الى ممتلكاتهم . غير ان معظمهم قد مكن لسكناه في المناطق التي استقروا فيها ، بحيث ترى اسماءهم اليوم تعيش وتخلد في اسماء المقاطعات التي حلوا فيها، من ذلك مثلاً : كاليت *Caletes* وهي اليوم مقاطعة كو *Caux*، وفيلافيي *Vellavii* (مقاطعة فيلاي *Velay*) ، ولا سيا في الحواضر التي كانت عواصم البلاد والمراكز الدينية الكبرى فيها ، امثال: سواسّون وتيرونيس او تور وبواتيه او مدينة بيريغو *Périgueux* ، الخ. و كثيراً ما استعمل قيصر نفسه اللفظ اللاتيني *Civitates* للتعبير عن هذه الشعوب. وبعد ان تم الفتح، راحت الادارة الرومانية تجري في تنظيمها البلاد، على هذا الاساس فتقسمها ادارياً الى «مدن». وكان لعمري ،

الفرق شاسعاً بين المدينة – الدولة (*Cité - Etat*) الصغيرة الحجم ، عند الاغريق والايطاليين وبين الغاليين الذين كانوا يقطنون بلاداً واسعة الارجاء ، تخلو بعض نواحيها من المدن احياناً . وهذه المعادلة المصطنعة بين المسميات الجغرافية ، اخفت وراءها صعوبات كثيراً مـــا اعترضت الرومان عندمـــا حاولوا التخلص من مصطلحات درجوا على استعمالها . ومع ذلك ، فالقوى الاجتماعية ، القائمة اذ ذاك كان من شأنها ان تفضي الى اوضاع يصح معارضتها بالاوضـــاع التي سادت مدن اليونان وايطاليا ، من قبل ، وسيطرت عليها . وهذا التطور السياسي الذي صارت اليه واخذت بأسبابه متأخرة ، الشعوب الغالية ، جاء منه المدى اقصر من المدى الذي توفر للمدن الاغريقية ، الا انه سار في المنحنى نفسه .

والظاهر ان هـــذه الدول سارت ، في بدء امرها ، على نظام ملكي ، لم يلبث ان تطور عند وصول قيصر البلاد واستحال نظاماً ارستوقراطياً ، اذ لم نكن نرى في طول البلاد وعرضها ، اذ ذاك ، أي مجلس للشعب او ما أشبه . وكانت الاسر الكبرى تتمثل في مجلس شورى ، كما كانوا ينتخبون كل سنة ، حكاماً كان رئيسهم الاكبر لدى بعض هـــذه الشعوب ، يلقب بـ *Vergobret* ، الذي نقله الرومان بكلمة قاضٍ . اما في ايام الحرب ، فكان يصار الى انتخاب قائد عسكري عام .

كثيراً ما كان تطبيق هذه الانظمة والعمل بموجبها بصورة منتظمة ، مدعاة للتأسف والتمني فتثار بشأنها المنازعات والمشاكسات يحتكم فيها السيف . ويروي قيصر ان الاجتماعات التي اعتاد كهان الغاليين عقدها لانتخاب رئيسهم الاعلى مدى الحياة كانت مثاراً لتعقيدات لا تحل إلا بالقوة . اما احترام العدالة والتقيـــد بنصوصها فأمور كثيراً ما حفزت ، في بعض الدول الخاصة ، ذوي الاطماع للتمرد على القانون ، واحتذاء حذو طغـــاة الاغريق او بعض سياسيي الرومان محاولين ارجاع الملكية والاستئثار بما توفر من امتيازات . ولهذا الغرض بالذات راحوا يحاولون استمالة الشعب لجهتهم والفوز بتأييده ومناصرته . وكان لا بـــد لهم ، تحقيقاً لمآربهم ، ان يتغلبوا على مقاومة خصومهم من الاشراف وتصفيتهم قبل الاقدام على مغامراتهم . اما هؤلاء فقد عرفوا ان يحتاطوا لانفسهم من مغبة الامر ، وراحوا يفصلون بين السلطة المدنية والسلطة العسكرية . وقد زاد شعب الادوين *Eduens* على هذه التدابير الاحترازية بأن اوجبوا على اخ كل قاضٍ ، وكل عضو في مجلس الشورى تحدثه نفسه بالتربع في مثل هذا المركز ، ان ينتظر وفاة أخيه ليرشح نفسه له . ولم يكن من النادر ان نرى ، هنا وهنالـك ، اوامر تصدر بنفي هذا وإبعاده عن البلاد ، او بالحكم على ذاك بالاعدام ، لاسباب سياسية . فالمواطن الارفرني سلتيلـّوس *Celtillos* ، والد الزعيم الغالي وخصم قيصر العنيد ، فرسنجتوريكس ، بعـــد ان فاز بمنصب امارة غاليا كلها ، وهو منصب لا نعلم من اختصاصاته وامتيازاته شيئاً راهناً ، وحكمت عليه مدينته بالاعدام لانه طمح الى الملكية » .

وعبارة قيصر هذه ، بالرغم مما يكتنفها من غموض وتعريض ، كغيرها من اقواله ، إنمـــا

تشير بوضوح الى هـــذه الانقسامات التي كانت تمزق شعوب أخرى غير الارفيرن من شعوب غاليا . ان ما عرف به الغاليون من تذوق للبلاغة والاساليب البيانية وعنايتهم بأفانين الكلام ، جعل القدامى مـــن المؤرخين يرون في هذا كله ميزة مفردة لهم ، تبدو على أتمها عند اشتداد الجدل واحتدام الكلام في منازعاتهم الحزبية ، وهذه الاحزاب التي كانت تنشأ ، في الغالب ، عن منافسات وأطماع شخصية اكثر منها عن نظريات عقائدية ، لم تكن تحول قط دون قيام علاقات وطيدة بين شعب وآخر من هذه الشعوب ، جعلت الاسر الكبيرة ، تتظاهر بسهولة ، فيما بينها ، ضاربة كشحاً عما يقوم بوجهها من حواجز وحدود وسدود . ومن وراء هذه الحدود كانت المطامع الشخصية تتساند وتتعامد بعضاً الى بعض ، فتتضخم الاطماع الجماعية المشتركة وبذلك ينفسح المجال رحباً امام التدخل الاجنبي ، سواء أكان غالياً او جرمانياً او رومانياً ، فتتأزم الامور من جراء هذه المداخلات وتتحرج الاوضاع . وقـــد عرف قيصر ، بما أوتي من زكانة وبصيرة ومهارة ان يثير الفرص المؤاتية ويتدبر امر الافادة منها . وما كان عليـه إلا ان ينهج نهج الزعيم الجرماني أريوفيست *Ariovisle* ليفيد ، ما امكن ، من هذه الفرص السانحة التي جعلت غاليا برمتها فريسة لعدو مغامر .

النبلاء والاحلاف

وهذه الاوضاع الاجتماعية التي تتردى فيهـــا البلاد وتتضرس بنتائجها، يجب ردها في الغالب الى الاوضاع الاقتصادية. فهي تصور لنا ، على الوجه الاكمل، الوضع السياسي السائد فيها . قد يكون الغاليون مارسوا نظام ملكية الارض المشاعية . ويرى البعض ان مثل هـــذا النظام عمل به قانوناً في القرن الاول ، إلا انه زال بالفعل وانقطع مع ما تعاقب على البلاد من افتئاتات على حقوق التملك ، والاختلاسات والتعديات التي انهالت عليها على مر الزمن ، فاذا بالنبلاء يصبحون مالكي القسم الاكـــبر من الثروة العقارية . ونحن نجهل تماماً ما اذا قام في الريف شيء من الملكية الجماعية . فان صح الافتراض فهي ليست بذات بال ، كذلك نجهل تماماً كيف استثمر الاشراف وكبار الملاكين أملاكهم الشاسعة . ومهما يكن من الامر « فسواد الشعب امره امر الارقاء لا يتميز عنهم بشيء » ، كما يؤكد ذلـــك قيصر وقبله بوليب عندما يصف ، في القرن الثـــاني ، الوضع الذي كان عليه الغاليون القاطنون سهل البو ، في معرض حديثه عن أهمية الاحلاف والانصار في التنظيم الاجتماعي والسياسي . فنفوذ أي امرء يتوقف قبل كل شيء على كفاءته وقدرته في تأليب الناس حوله، والحدب عليه، وحملهم على التعلق به واستعدادهم للبذل حتى بنفوسهم في سبيل تأييده والدفاع عن مصالحه . ولذا نراهم يمتدّون بما لديهم من حسب ونسب ونشب ، ويفاخرون بالمجد الذي جرّوه عليهم وعلى مقاطعاتهم في الحروب والمعارك ، ويباهون بما لديهم من غنى وثراء، وبما يجودون به من مكرمات تتمثل بهذه الهبـــات والعطايا والمساعدات ، ويتبجحون بمـا لهم من حظوة لدى الحكام والقضاة ، وما يؤمنونه للضعيف المهيض الجناح من حماية ورعاية . « وكانت غالبية السكان » ، كما يؤكد قيصر ، ترزح تحت وطأة الديون وبهاظة الرسوم التي تفرض عليهم او الاحكام التي ينزلها بهم كبار القوم .

فلا عجب ان يضعوا نفوسهم وما يملكون تحت رحمة الشرفاء والنبلاء فيتصرفون بهم تصرف السيد بعبده ويسوقونهم سوق النعاج. ولكن لا يقبل احد من هؤلاء النبلاء ان يصاب احد من احلافه وأتباعه بأي ضُرّ او شر ، او ان يضام ويذهب فريسة اضطهاد او ضغط او خداع . فقوته ونفوذه هما بقدر ما له من ضخامة الاحلاف والانصار .

وعندما يحدثنا قيصر ، على الاخص، عن الايكيت *Equites* « الذين يعني بهم في آن واحد: الخيالة والفرسان » تتبدى لنا فعالية الاحلاف والانصار الذين يلتفون حول بعض الشخصيات، والدور الذي يلعبونه في المنافسات الحزبية والسياسية . وعندما يستعين بهذا اللفظ المعمول به في النظم الرومانية فهو انما يريد ان يشدد امامنا على ما كان عليه هؤلاء النبلاء من ثراء طائل ، وما لهم من نفوذ وشأن في الحروب ، والمركز الذي لهم في الدولة . وبين فئة النبلاء والاشراف، كهان الدرويد او طغمة رجال الدين عندهم ، الذين كانوا يؤلفون في المجتمع طبقة ممتازة ، قد يكون قام ما يشبهها عند بعض شعوب الكلتيين . وهذه الطبقة لم تكن منغلقة على نفسها ، منعزلة عن المجتمع ، بل كانت نوعاً من الرهبنة الكهنوتية . هنالك أسر شريفة كانت تحرص ، في الوقت الذي تُعِدُّ فيه اولادها للعمل في امور الدنيا ان تخص احدهم للكهانة فيدخل طغمة الدرويد بعد ان يتلقى ما يجب من دروس وعلوم تهيئه لمهامه الدينية . وهذا الإعداد الكهنوتي الخاص انما كان يعطى ، في غرة الفتح الروماني ، ضمن معاهد خاصة في جزيرة بريطانيا او في غيرها من مناطق غاليا . ويرأس طغمة كهان الدرويد رئيس اعلى يجري انتخابه لمدى الحياة ، فيرأس الاجتماعات العامة التي تعقد كل سنة . وتَنعمَ كهان الدرويد بعدد من الامتيازات والمنافع : فاعفوا من التجنيد العسكري وخُصِّصت لهم ولافراد اسرهم الارزاق الكافية ، يلتف حولهم الانصار والمريدون . وكثيراً ما حدث ان انغمس بعضهم في ما ينشب بينهم من منافسات او يشجر من منازعات بالرغم مما لهم من طابع ديني ، كما كان فريق من النبلاء والاشراف يحتكم الى آرائهم واقضيتهم . الم يكن كاهنا درويدياً هذا المواطن الادوني المدعو *Diviciac* الذي نفي الى روما ثم عاد قافلاً الى وطنه بعد ما تم له من اتصالات واحاديث مع شيشرون ، ووقف في وجه اخيه المغامر دمنوريس *Dumnoric* وافسد عليه مساعيه ودسائسه ، وزود قيصر بمعلومات غاية الاهمية ؟

النبلاء وما كانوا عليه من اعراف الحرب والزهو

اذا ما وضعنا جانباً طبقة كهان الدرويد نرى انه قام بين النظام الاجتماعي في كل من غاليا واليونان ، اكثر من شبه ومحاكاة . فبين مساق حياة بعض الاشراف من كلا الطرفين ما يعيد الذاكرة صور البطولات الهوميرية . قد يكون من المغالاة بمكان، القول بقيام الاوضاع والاشياء ذاتها، لا سيما وقد سلك الغاليون في تطورهم سبلاً اخرى وطرقاً مختلفة . ولكن وجه الشبه والمجانسة لا يدع مجالاً للشك قط . وهذا التشابه في الاوضاع الاقتصادية التي سيطرت هنا وهنالك ، هو سر هذا

التجانس . الا انه يبقى قاصراً عن تقريب حقيقة الامر للافهام . فبالرغم من الغموض الذي يحيق بنا ، علينا ان نسلم ، ولو من باب مراعاة المثل الانسانية العليا ، بوجود تراث واحد ، مشترك من التقاليد والاعراف بين الهند الاوروبيين .

هؤلاء النبلاء هم رجال حرب مجربون مخلصون . تلك هي ميزتهم الاولى لدى الكلتيين ، اينما كانوا وانى حلوا . وها هم المؤرخون القدامى يتندّرون في كتاباتهم بما كان يبديه الاشراف من احتقار للموت ، وباندفاعهم في ساحات الوغى ، وبحماستهم عند الايذان بالحرب ، وخوض غمارها باذلين في سبيلها كل عزيز ومرتخص . وكل ما عندهم من جهد وطاقة على الجهاد فيجودون بارواحهم ويتساقطون عياءً او بأساً . وعلى شاكلة ابطال هوميروس خاضوا المعارك راكبين عرباتهم الحربية ، يقذفون العدو بمزاريقهم ، ثم لا يلبثون ان يترجّلوا ويخوضوا الحرب رجّالة مشاة . وقد اعتادوا ان يحاربوا عراة الى نصف البدن ، الامر الذي ادهش الاقدمين فتفردوا بذلك عن جند الاغريق الذين كانوا يتدرعون الدروع الثقيلة . ونراهم في عهد يوليوس قيصر قد غيروا من عادتهم هذه فاستغنوا عن المركبات الحربية ونفروا عن استعمالها ، باستثناء الكلتيين في بريطانيا ، وتخلوا عن اتخاذ الخيل في الحرب الا كمطية للنقل .

فالخيالة عندهم ، هي افضل الطوابير واكرمها على الاطلاق . ولذا جعلوا منها عدتهم الكبرى وعولوا عليها اكثر مما عولت جيوش الاغريق والرومان . وكان النبلاء الكبار يمدون خيرة الاحلاف والانصار بما يلزمهم من خيل الطعان ، اما الباقون فيؤلفون كراديس المشاة ، عدتهم التروس والسيوف ولا سيما تلك التي صنعت خصيصاً لطعن الخيل . وكان استعمالهم السيف يقتضيهم جهداً جسدياً اكبر ، جعلهم في موقف اضعف من الجندي الروماني الذي كانت عدته الكبرى الخنجر الذي اسلس استعماله في الحرب ومهر فيه . والحق يقال ، ان نقطة الضعف انما تكمن في غير ما ذكرنا . فالجيوش الغالية كانت تتألف ، في الغالب ، من طوابير مرتجلة تبادر القتال عند توجيه الدعوة لها من قبل الزعماء والنبلاء ، لم تكن شجاعتهم والبذل سخياً بدمائهم ليعوض عما كانوا عليه من فوضى التنظيم وقلة الدربة وعدم التمرس بالمناورات الحربية ، وقوة الاحتمال والصمود في المعارك .

وفي فترات ما بين الحروب ومناقشات مجالسهم العامة التي يندفعون فيها اندفاعهم في الحروب ، كان الأشراف والنبلاء يعيشون بين ممتلكاتهم ومزارعهم ، يتلهون بالقنص والصيد فيستعيضون بهذه المسليات عن التجمعات الصاخبة . وقد حال جهلهم لفنون الهندسة المعمارية وتقنية المصنوعات الابنوسية ، دون تجلي بذخهم في مفروشات بيوتهم وتجهيزها بالرياش والاثاث الكريمة . ومن مظاهر الغنى والثراء عندهم هذا التهافت على اقتناء الآنية الثمينة والادوات الجميلة يستوردونها من الخارج ، مهما بعدت الشقة او غلا الثمن : كأسلحة الزينة والجوهرات والخزف الموشى بالرسوم والاشكال ، والحلي والاقمشة المزركشة الالوان . وقد تجلى هذا البذخ

على اتم صوره ، في هذه المآدب السخية حيث ترفل موائد الطعام بأشهى انواع اللحوم وألوان المأكولات ، يتنادمون ويشربون حتى يثملوا فيقعون صرعى فاقدي الرشد والوعي ، وقد أولعوا بخمور الجنوب يقتنونها بأعلى الاسعار ، بينما ينصرف الشعراء والزجالون ، وقد اجزلوا لهم العطاء للانشاد ، متغنين بمآثر الضيوف ومآثر الجدود . وهذا الاسراف يتجلى على احسن صوره ، في القبور والمدافن الجميلة التي تضم في ما تضم ، رماد السيد ، بعد ان عمت عادة حرق جثث الموتى خلال القرن الثاني ق . م ، وعظام الخيول الكريمة ، وعظام الاناسي : من عبيده وخدمه ، وأنصاره وزوجاته ، قبلوا راضين ان يضحوا بأنفسهم مرضاةً لسيدهم وتكريماً له ، كل ذلك برفقة طائفة من الأسلحة والحلى ومن الامتعة المنزلية الغالية الثمن احياناً . كل هذه المراسم تدل بوضوح على تمسك القوم بعاداتهم القديمة المتوارثة سلفاً عن خلف . والواقع ان ملامح الصورة التي رسمناها هنا ، استمديناها ليس من يوليوس قيصر الذي يعتصم بالصمت في هذا المجال ، بل من مصادر أخرى اقدم منه واسبق له ، ومن بعض ما جادت به الاكتشافات الاثرية وما اتاحت من ملاحظات . قد يكون التطور فعل فعلته في القوم وادخل على اوساط القرن الاول . ق . م تغييرات جذرية ، في عاداتهم واخلاقهم واعرافهم ، مع اننا نرى انفسنا عاجزين عن تقدير الشوط الذي قطعتها هذه الحركة الى هذا العهد ، والمراحل العديدة التي مرت بها . والذي نلاحظه هنا هو ان خمسين سنة لاغير بعد قيصر ، لا نرى ما يسمح علينا ، التمييز بين الارستوقراطية الغالية عن غيرها من طبقة نبلاء الرومانيين واشرافهم ، في جميع انحاء الامبراطورية الرومانية .

الازدهار الزراعي

النفوذ الذي تمتعت به طبقة النبلاء والقوة التي تمت لهم ، وما استقروا عليه من اعراف وعادات ، خلال اجيال متطاولة ، كل ذلك يفرض قيام نشاط اقتصادي عم اطراف البلاد ، كان عماده ونقطة الثقل فيه الزراعة . فالسائمة والماشية هي مقياس غنى السيد وكلها دليل قاطع على الشأو الرفيع الذي بلغته تربية الحيوانات في غاليا . فالخيول المستعملة في جيش الفرسان انما تدل على ما كانت عليه تربية الحصان في البلاد ، فلا عجب والحالة هذه ان يرفرف في جميع انحاء البلاد وفي جميع الوية الجيش الروماني ، شعار الإلهة ايبونا *Epona* إلهة الخيل عند الغاليين . ويؤكد لنا المؤرخ الجغرافي سطرابون ، من معاصري الامبراطور اوغسطس ، معتمداً في ذلك على مصادر قديمة ، ان الخنزير كان يربى في الهواء الطلق في جميع انحاء غاليا ، وان خطره على من لم يألف منظره او تربيته لم يقل عن خطر الذئاب . . . وكان لحمه يصدر بعد تمليحه ، بمقادير كبيرة ، الى روما وايطاليا . وليس من المستغرب قط ان يكون المصطلح *Bacon* ، المتحدر الينا من الاجيال الوسطى ، قد اشتُقّ من اوضاع اللغة الغالية ، اذ ان احد الالهة المعروف بهذا الاسم ، بقي موضوع تكريم وعبادة خاصة ، في بلدة شالون سير سون ، الى عهد متأخر جداً . وكانت الزراعة تدر مقادير هائلة من الحبوب على اختلاف انواعها . فبدلاً من ان تصاب مرافقها بالتأخر او تعاني اي نقص في الانتاج ، نراها على

عكس ذلك ، تنمو وتزداد بحيث تبز بمحاصيلها الطائلة انتاج اي بلد من بلدان البحر المتوسط. الم يعز الرومان الى الغاليين ، وقد يكون هؤلاء من غير سكان غاليا ، فضل اختراع البرميل والمحراث ذات العجلات ، وحاصدة تجمع سنابل القمح في عربة متصلة بها ، بعد قطعها ، وينوه الرومان بشيء من الاستغراب ، دون ان يفقهوا للامر سراً، بعادة مزج التربة الرملية بالتربة الكلسية (عملية إصلاح التربة بالسجّيل) . وبلاد غاليا ، لا ترى نفسها مدينة بشيء يذكر لروما ، من جهة الفنون الزراعية بالرغم من التفاوت بين الاقليمين ، واستطاعت دونما عناء ان تؤمن من المواد الغذائية ، حاجة الجيش الروماني اللجب الضارب على ضفاف نهر الرين ، كما تؤمن حاجة روما ، في آن واحد .

ولعل التخلف الوحيد الملحوظ هنا ، هو الذي نلاحظه في زراعة الاشجار المثمرة ولا سيما الكرمة منها . فقد ادخل زراعتها في البلاد ، الاغريق القاطنون على شواطىء البحر المتوسط ، فانتشر استعمالها في غاليا الجنوبية . وعندما وطدت روما ، في النصف الثاني من القرن الثاني ، في جنوبي البلاد ، حظرت على السكان زرع نصوب جديدة من الكرمة ومن شجرة الزيتون ، تمشياً منها حول مصلحة ايطاليا في تصريف محصول البلاد وانتاجها منهما . وقد احتفظ للرعايا الرومان وحدهم ، بحق غرس نصوب جديدة من الكرمة وشجر الزيتون ، في املاكهم . ولما كان عدد هؤلاء المتمتعين بالرعوية الرومانية آخذاً ابداً بالازدياد ، فقد رأينا الزراعة تزدهر مرافقها جيداً في منطقة ناربون ، في القرن الاول ق . م ، حيث تفننوا بالتأصيل عن طريق انتخاب النصوب . وبذلك تم لهم الحصول على انواع متنوعة من الخمور اللذيذة . وهذا التقدم تسجله مرافق الزراعة في مقاطعات البلاد الجنوبية ، لم يبلغ ، على ما نعلم ، هذا القسم المستقل من غاليا ، كما تشهد بذلك مصادرنا الاثرية والادبية ، اذ نراه يستورد من ايطاليا ما يرغب فيه من انواع الخمور ، بينما كروم مقاطعتي بوردليه وبورغونيا لا يرتفع لها ذكر الا بعد ذلك بكثير .

المدن والصناعة والتجارة

امنت سيطرة الرومان وسيادتهم على هذه البلاد ، ازدهاراً كبيراً لمرافق الصناعة والتجارة التي عرفت ان تأخذ باسبابها قبل الفتح الروماني . فاذا ما وجد قيصر حياة الريف عارمة ، فقد شاهد فيه ولا شك ، مدناً ناشطة .

نشأت هذه المدن اصلاً بدافع الحاجة للدفاع عن البلاد . فهي ، على الغالب ، قلاع وحصون، قامت على المرتفعات ، او في قلب غياض ومستنقعات، زادت في منعتها الطبيعية اسوار ترك لنا قيصر وصفاً دقيقاً لها ، اذ كانت مواطن الضعف فيها ممثلة بعوارض الخشب المتصالبة، تسد بالحجارة باحكام كلي . ومهما تكن المساحة الواقعة ضمن الاسوار ضيقة ، : استطاعتها ان تلعب دوراً ملحوظاً في حياة المحلة او المنطقة الاقتصادية . الا ان معرفتنا للوضع الاجتماعي

الذي كان عليه السكان ، من اسوإ مـــا يكون . فهم ، كغيرهم من سكان الريف ، يعولون احيـــاناً ، على مشيئة عظيم من عظماء البلاد . الا انه من الصعب الظن بان الوضع هو واحـــد على الســواء في جميعهـــا ، اذ ان فوران المدن ونشاطها كثيراً ما حمل الناس على التحرر من التابعية ، وعلى التطلع نحو الحرية .

فاذا ما وفت صناعة الخزف وحياكة الصوف بحاجات الاهلين العادية ، فصناعـــة الحديد والتعدين ارتدت ، هي الاخرى ، اهمية بارزة . فالمناجم والمعدّنون ، والساعون وراء فلزات الذهب بين رمال مجاري الانهر ، كل هذا اكتسب شهرة واسعة تجـــاوزت ولا شك ، في بعض الاحايين ، حدود البلاد القصية ، اذ ان الرومان الذين عرفوا بحرصهم على اكتناز المعـــادن الكريمة ، ولا سيا الذهب منها ، فراحوا يتجشمون مخاطر الاغتراب بحثاً عنه ، حز في نفسهم كثيراً ، ان تجدب منه موارد البلاد . اما فلزات الحديد فمتوفرة فيها للغاية ، بينما فلزات النحاس والقصدير الحت وستتيح طويلاً الازدهار لصناعة البرونز في البلاد . فاينما اجلنا الطرف وجدنا المهارات الصناعية تجاوزت في تطورهـــا الصاعد ، الطور البدائي وتعدته بعيداً ، لا سيما صناعة تكفيت المينا وترصيعها ،اذ عرف الصناع الغاليون ان يؤمنوا لهم، في هذا المجال ، شهرة واسعة اوصلت منتوجاتهم الى وادي الدانوب .

وهذه الصفحة المشرقة التي امتدح فيها سطرابون موقع غاليا الجغرافي وتمركزها ، بين البحر الابيض المتوسط في الجنوب والمحيط الاطلسي ، في الغرب ، واتتى عاليا على نظام جبالهـــا وانهارها ، ابتمد سطورها ، ولا شك ، من كتّاب تقدموه . ففي البــلاد شبكة حسنة من المواصلات لا بل من الطرقات العامة ، كما تتوفر فيها اسباب الملاحة النهرية الناشطة . يرد البلاد من الشمال جانب كبير من العنبر ينتهي قسم طيب منه الى البلدان المتاخمـــة البحر المتوسط . وكذلك قل عن القصدير الذي تنتجه جزر كسليتاريد والتي تعمل اساطيل الارموريك القديمة على استيراده ، ولا سيا عمارة الفينيت النشيطة ، متحدية بذلك اساطيل مدينـــة قادش *Cadès* القرطاجية . فالعلاقات بين غاليا وبريطانيا متينة كما يشهد بذلك نظام كهان الدرويد المعمول به في كلا البلدين .

منذ القرن الثالث ق . م ، نرى عدة شعوب في غاليا تضرب لها السكة وهي ، في الاساس ، عملة ذهبية متشابهة تماماً ، حتى في طغرائها ، بالعملة المقدونية التي ضربها الملك فيلبوس الثاني ، والد الاسكندر ، على القطعة الواحدة ، من جهة ، رأس ابولو ، وعلى الجهـــة الثانية مركبة حربية يجرها جوادان . ثم تأخذ نمـــاذج الانواع الاخرى تتغير وتتبدل ، وتتجزأ بصورة غريبة . وفي مطلع القرن الثاني يطل علينا اثر مرسيليا ، ثم اثر روما اكثر فاكثر ، بحيث برزت المسكوكات الفضيـــة والبرونزية ذات النقوش الوجيزة . ولم تلبث ان انتظمت السكـــة وعم استعمالها البلاد ، اذ ما كاد قيصر يطل عليها حتى رأينا تداول العملة يسهل الى حـــد بعيد ، المعاملات التجارية وييسر اسباب الاخذ بها .

في هذا الدور من تاريخ غاليا نرى العديد من التجار الايطاليين يجوبون البـــلاد ، طولاً وعرضاً ، حتى القسم المستقل منها . فقد تغلغلوا فيها وانساحوا في ارجائها في سبيل تنفيق ما لديهم من الخمور الاصيلة . نقرأ في احدى خطب شيشرون خطبة تفيض بالمعلومات حول سوق احدى المدن ، ارهقها الحاكم الروماني بما فرض عليها من الرسوم الباهظة ؛ كما اننا نجد في بعض مقاطعات الرين جراراً ايطالية الصنع جيء بها قبل قيصر بزمان . ومن ثم نرى هؤلاء التجـار يتعاطون بيع الخزف المصنوع في مقاطعات اتروريا وكمبانيا الايطالية ، وهو أدق صنعاً من الخزف المحلي ، كما ان فريقاً منهم يقومون هنـــا وفي انحاء اخرى من دنيا البحر المتوسط ، باعمال مصرفيـــة ويتعاطون الربا . من هذه المدن مدينة جينابوم *Génabum* (*Orléans*) التي تعد بين تجارها عدداً من الرومان اتخذوا لهم منها مستقراً . وهكذا نرى بوضوح ، كيف ان تجارة غاليا الداخلية والخارجية على السواء تمتد وتنتشر بسرعة ، وهي تجارة تجعلها المصادر التي نعول عليها ، ومعظمها روماني الاصل والنبع ، بين ايدي الايطـــاليين . والذي لا مراء فيـــه ان اهمية الدور الذي قام به الغاليون ، بعد قيصر بمدة وجيزة ، يجعل من غـير المقبول ولا المعقول قط ، عدم مساهمتهم في هـــذه الحركة الاقتصادية الواسعة النطاق ، لا سيما سكان مقاطعة ناربون الذين لا يمكن ان يكونوا بقوا ، بمعزل عن هـــذه الحركة ، وتحت تصرفهم طريق من انشط الطرق حركةً هو وادي نهر الرون . فقاموا بدور المهذب والرائد لدى ابناء جلدتهم في هذا القسم المستقل من البلاد .

فوفرة الانتاج الزراعي والصناعي ، وضخامة الحركة التجارية والمبادلات التي ادت اليها ، كل هذه العوامل وما اليها هيأت لغاليا ، اسباب اللحاق بنظام الحياة والمستوى الذي تحقق في بلدان حوض البحر المتوسط الغربي . ولذا جاز لنا ان نستنتج ان ما استهدفت غاليا الى تحقيقه من التطور الاقتصادي ، كان من شأنه ، ولا شك ، ان يفضي بها في التالي الى هـــذا التطور الاجتماعي الذي بدت طلائعه وارتفعت بنوده خفاقة ، ولو أغفلت مصادر العهد عمداً التحدث عنه ، وكلها رومانية مغرضة ، ولم تكن ، بالتالي ، بحاجة قط للفتح الروماني لبلوغه .

الديانة لا تخلو حياة البلاد الدينية من إصالة . فهذه الحياة لا تتمثل في قسمها الافضل بالآلهة التي عبدها الغاليون ، وقـد تكاثر عددها ، وتنوعت صورها ورموزها ، وهي رموز وصور يمكن ردها لأصول نجدها في غير موضع ومكان . فاذا قمنا نحاول ردها الى منابعها العرقية الاصيلة ، أسقط في ايدينا لكثرة ما يطالعنا من تواتر الصلات وتشابك العلاقات بـين الغاليين وغيرهم من الشعوب التي عاصروها وعايشوها . فكم من النواتىء الطبيعية تسربلها سمات الدين شمّت منها مناسك العبادة والطقوس: من قنن الجبال ورؤوس التلال، والحجارة العجائبية المؤلهة، والينابيع المقدسة والاشجار ، المباركة ، والحيوانات المتقدسة . فورّوا باسم « أمهات » عن عبادة الخصب . هنالك آلهة في السماء تشرق على أعمال البشر وتهيمن على نشاطاتهم ، تناقل الغاليون عبادتها عن الكلتيين ، بينها وبين آلهة الاغريق والرومان وشائج وصلات . وقـــد

ألحقوا بها من الصفاتية غير المستقرة الصورة وعقدوا لها من السمات ما أعجز أكفأ القدامى من توضيح او تبيين هذه المعادلات، عندما راحوا في تحليلهم لها، يعولون على مناهج اليونان والرومان في تحديد مناقب هذه الآلهة ومشبّهاتها. فقد رأى قيصر في الإله عطارد احق آلهتهم بالاحترام والتقديس، ثم يليه مقاماً، على التوالي: ابولو، فارس، فجوبتير، لمنيرفا. « فقد رأى الغاليون في هذه الآلهة ما سبق الناس ان رأوا فيها » فاذا ما وازت منيرفا عندهم، الإلهة « بليزاما » التي لا يبدو انها احتلت بين الآلهات الانثى المرتبة السامية التي يحلوا لقيصر اضفاءها عليها، فعبثاً لمحاول ان نضفي على هذه الآلهة الذكور، هذا او ذاك، من الاسماء والنعوت الكبيرة التي أطلقوها على آلهة الغاليين، امثال: توتاتيس، وتارانيس، وايزوس وغيرها كثير. ومهما يكن من تباين المفارقات بين هذه التعريفات، فليس من الصعب قط التعرف الى العقائد العامة التي تجسمها.

لبعض هذه الطقوس الدينية مناسك فرّدتها وميزتها. ورجحان هذه العبادات في الريف يظهر بنوع خاص، في افتقار المدن لهياكل ومعابد كبيرة ذات شأن. فلم يكن يهم الغاليين ان ينشئوا لآلهتهم هياكل. وكانت العادة المتبعة عندهم ان يقيموا للآلهة في قلب الغابات او في سبائخ الارض الموات، اماكن خاصة مستديرة الشكل، يتوافد الاهلون زرافات ووحداناً لزيارتها في الاعياد الموسمية التي كانت في الوقت ذاته، اسواقاً تجارية. ففي اليوم السادس من الهلال، يتقدم كاهن بجلال وأبهة وهو لابس حلته البيضاء، فيقطع بمقضب من الذهب غصون البقس المقدس (*Gui*) احد طفيليات شجرة البلوط فيتساقط على إحرامات بيضاء من الكتان فرشت تحته. فوجوده على السنديانة دليل بأنها مقدسة وشهادة على قدسية المكان. ويتبع عملية القطاف هذه نحر ثور ابيض، ثم تقام الادعية والاوراد وتؤدّب المآدب والولائم العامة. اما استمرار الاخذ بتقديم الذبائح البشرية فظهر من مظاهر التخلف في تطور عادة القرابين، وهي ذبائح عملت السلطات الرومانية على منعها وتحريم الاخذ بها، فاستجاب لهم الاهلون بسهولة. اما الذبائح البشرية التي كانت تقام في حالات بعض الامراض او الاخطار الشديدة فقد رأى فيها قيصر « بحليّ لارادة الآلهة الخالدين التي لا يمكن تهدئتها إلا بالاستعاضة عن كائن حي بحي آخر ». ومن هذه الذبائح ما كان يقدّم باسم الدولة، فيحكون على الضحية، مذنباً كان صاحبها ام بريئاً، بالحرق او الغرق او الشنق.

ولعل خير ما يميز إصالة الحياة الدينية عند الغاليين هو نظام الكهنوت او الدرويدية، وهي عبارة عن رهبنة كهنوتية يسربلها الوقار وتتمتع بنفوذ ديني وسياسي عظيم، ويجعلها تهيمن على الطقوس الدينية، والاحتفالات الطقسية فلا نرى شيئاً من هذا التخصص والانقطاع عند كهان اليونان او الرومان، ولا هذه التعاليم الدينية التي كانوا يطلعون عليها تباعاً وبمقادير تتفق ودرجاتهم، وخلال مدة طويلة تمتد عشرين سنة. وكان عليهم ان ينقلوا بعض تعاليمهم

للمؤمنين والشبيبة النبلاء الموكول اليهم تربيتهم وتنشئتهم تنشئة عاليـــة . وكغيرهم من الكهان قديماً ، فكان يترتب عليهم القيام بأعمال التعزيم وزجر الطير وعيافة الذبائح ، كما كانوا يقومون بأعمال السحر والتعزيم . وهـــذه أمور اوغرت صدر الادارة الرومانية فأوجست منهم شراً لعلاقتهم ببريطانيا المستقلة ، فاتخذت من اعمالهم هـذه ذريعة لمطاردتهم ، قبل ان تأمر بنفيهم خارج البلاد . وقد استطاع فريق من هؤلاء الدرويد قبل الفتح بقليل ، ان يسمو بتفكيره ليبلغ فيه حد التجريد الفلسفي والنظرية العلمية . وكان شيشرون نفسه يجد متعة روحية في احاديثه ومناقشاته مع دفيسياك *Diviciac*. ويشدد قيصر امامنا ان كهان الدرويد، «كثيراً ما استرسلوا في ابحاثهم عن النجوم وما ترسمه حركاتها في الفضاء من دوران وابراج ، كما همهم عظم الكون واتساع الارض وغاصوا في درس طبيعة الاشياء وجوهرها » .

من تعاليمهم الدينية البارزة قولهم بالتقمص وتناسخ الارواح بعد الموت ، وانبعاثها حية من جديد في كائنات حية. ولذا راحوا يرسمون نهجاً للاخلاق الحسنة من مبادئه ضرورة الاعتصام بحبل الدين واحتقار المحارب للموت . ومع ان بين المحدثين أكثر من واحد يتباهى بتشككه ، فمن العسير جداً التسليم بأن القدامى الذين رووا الكثير من اقاصيصهم واخبارهم اعترفوا لهم بهذه الافكار والمبادىء ، مع انهم قسوا عليهم وتجهموا لهم في أمور اخرى كثيرة .

الادب والفن

الدين هو الشكل الوحيد الذي تبلور عليه نشاط الغـاليين الادبي والفكري . ولذا كان لزاماً علينا ان نستفيض ، بعض الشيء ، في بحث اوجه هذا النشاط . فقد كان عندهم ادب تمثل في الشعر الملحمي والشعر الغنائي ، كما كان عندهم شمّار وزجـــالون . وكان لهم بالطبع شعر ديني اذ كثيراً ما بلغت تعاليم الدرويد الشعب شعراً . الا انه لم يسلم شيء يذكر من هذا كله، ولم يصلنا منه الا نتف مبعثرة ، مع انهم اقتبسوا الابجدية اليونانية والحقوا بها بعض حروف ورموز لا تينية ازداد عددها مع الوقت ، وعرفوا الكتابة والخط ، كما يبـدو من نقوش النميّات الغاليّة والنقائش النادرة التي تم العثور عليها، فراحوا في تحرجهم الديني والتعصب المذهبي ومغالاة منهم في الترمت يحظرون نقل هـــذه التعاليم كتابة مؤثرين انتقالها بالتواتر المسلسل والتقليد المروي .

اما من حيث الفن ، فالآثار القليلة التي وصلت الينا من مخلفاتهم ، لا تعبر الا مــا ندر ، عن اهتمامهم بالجمالية . ولعـل اهم هذه الكشوف الفنيـة هي التي عثر عليهـا منذ بضعة عشر سنة في انترمونت ، بعـد الحصن الذي سقط عام ١٢٣ بايدي الرومان ، فاسـوا على مقربة منه مدينة ايكس – آن – بروفانس ، وهي كناية عن نقوش تصور رؤوساً بشرية معدّة لتحل محل رؤوس حقيقية لاعداء وقعوا في الاسر ثم اجتزت رؤوسهم . وهي نقوش تعلق على ابواب الظافرين وفقاً لعادة يرويها لنا سطرابون .

ومهما بدا من فقر العنصر الفني في هذه النقوش ؟ فأثر الفن الاغريقي ظاهر فيهـا . ويتضح

من نقوش اخرى تم نبشها في المنطقة المطلة على البحر الابيض المتوسط ، ان قبيل الفتح الروماني بقليل ، شيئاً جديداً أطلّ على غاليا بفضل اتصالاتها مع الاغريق القاطنين على ساحل البحر .

المدنية الغالية والسيطرة الرومانية

ومهما يكن من وضاعة المولود الجديد، فقيمته لا تظهر على وجهها الصحيح إلا بعد مقارنته بمدنيات اقوى وأشد ، سبق ونوّهنا ببعضها من قبل . وسواءاً أكان هذا المولود جنيناً طري العود ، أو نبتة غضة ، فقد عُدِم كل نشاط ، وفقد كل حيوية من جراء وقوعه تحت سيطرة روما وسيادتها ، بعد ان هيمنت ، بين ١٢٥ – ١١٨ ، على الاقاليم الجنوبية ، ثم امتدت الى المحيط وضفاف نهر الرين على أثر الحملة التي سيرها عليها يوليوس قيصر ، واستمرت من ٥٨ – الى ٥١ ق . م .

تم الفتح الروماني غلاباً وبعنف كلي. فقد عوّل قيصر أكثر ما عول لاستباحة البلاد وتدويخ الغاليين ، على البطش والشدة . من ذلك مثلاً ، انــه امر بقطع أيدي كل المدافعين عن حصن اوكسليدونوم *Uxellidunum* في مقاطعة كيرسي *Quercy* ، آخر معقل من معاقل البلاد . وقد اناخ بكلكله على البلاد ، فاطلّ الدماء غزيراً ، اذ جاوز عدد قتلى الحرب المليون، كما نيّف عدد الاسرى الذين بيعوا في اسواق النخاسة بيع النعاج على المليون . والظاهر ان البلاد عرفت ان تعوض بسرعة الخسائر البشرية والمادية التي منيت بها خلال هـذه الفتوحات . صحيح ان روما فرضت سيطرتها على البــلاد بالقسوة كما فرضت عليها جزية باهظة تدفعها أنجماً سنوية ، ضاربة كشحاً عن فرض نظامها الاجتماعي والاقتصادي ، وديانتها ولغتها . والهجرة الايطالية في سبيل إنشاء مستعمرات رومانية بقيت في حدودها المعقولة . والحقيقة التي لا تماري ، هي ان زوال المدنية الغالية من البلاد ، يجب رده بالإكثار ، الى استجابة الطبقة المسيطرة بسرعة ، أكثر في المدن منها في الريف المتحفظ ، وأخذها بمنافــع المدنية الرومانية ، فأقبل السكان عليها طوعاً واختياراً، دونما تردد او تقزز، وبمعزل عن أي اضطهاد مدبر او ضغط مخطط له من قبل الفاتحين، بداعي الانتقام او الحقد . ومنذ القرن الاول للفتح الروماني ، نعمت المدنيــة الجديدة برضى وعطف قادة الحركات الانتفاضية والردات الوطنية التي كانوا يقومون بها عندما تراودهم وتنتصب امامهم في مآتي العين ، ذكريات الاستقلال المضيع . صحيح ان البلاد حافظت فأبقت الكثير من عاداتها وعباداتها وأعرافها المتوارثة ، حتى ان كلمة فرسخ (*Leuga*) رجح استعمالها في البلاد على كلمة ميل الرومانية . ومع هــذا ، يشعر المرء بشيء من الرضى لهذه المفارقة التي تتمثل في طلوع مدنية جديدة تعرف عندنا بالمدنية الغالية الرومانيــة ، هي في صميمها أكثر رومانيــة منها غاليــة ، ليلهو بعد هذا ، بتملاّت من القشور والتوافه تبدو في بقاء او استحياء بعض التقاليد والاعراف .

ولما كان الفتح الروماني أدى الى فصم الماضي وانقطاعه ، وأدى الى مثل هذه الردة او الارتداد

الشامل ، فهو يمثل حدثاً تاريخياً عظيماً له من النتائج الخطيرة والشأن البعيد ، ما يجعل ذكره او الحديث عنه يلهب الخيال . فبين الافكار العديدة التي تستبد بالخواطر عند النظر ملياً في هـذا الحدث التاريخي العظيم ، فكرتان لا يمكن التغاضي عنهما قط ، اذ يكونان الخاتمة الطبيعية لهذا البحث الذي نسوقه هنا .

فقد حملت روما الى بلاد غاليا حضارتها دون ان تأخذ منها عملياً ، شيئاً يذكر ، اذا ما اقتصرنا على الامور الاساسية . ومع ذلك ، فهي مدينة لهذا الفتح بأشياء كثيرة ، منها هـذه الموارد المادية الطائلة التي عرفت ان تستخلصها والتي تتمثل من ناحية ، بهذه الكنوز المنخورة ، ومن ناحية أخرى بهذه المحاصيل الزراعية والصناعية التي وفرتها لها خلال بضعة اجيال ، بلاد شاسعة الأرجاء ، متنوعة الطاقات والامكانـات الطبيعية تدبرها يد عاملة نشيطة . كذلك افادت ، على نطاق واسع من طاقات البلاد البشرية فأمدتها المقاطعات الغالية بطوابير من خيرة الجند ، منها ما اشترك بأعمال الفتح ، كما أمدتها بفئات عديدة من رجال الادارة ورجال الفكر ، وبامبراطرة ابتداءً من القرن الثـاني للميلاد . فاذا ما نظرنا الى الأمور من علٍ ، استبد بنا الايمان اليقين بأن سيطرة روما على مثل هـذا القطر من اقطار اوروبا الغربية ، أعاد الى الامبراطورية الرومانية هـذا التوازن الذي كاد يفقدها إياه ، فتحها للولايات الشرقية الواسعة الارجاء ، الغنيـة بمواردها والسباقة في تطورها الثقافي والحضاري . فلولا غاليـا ودخولها الامبراطورية ، لم يكن احد ليتكهن ما عسى ان تأتي نتائج الحرب الاهلية عليها . ففي الوضع الناشيء عن انكسار انطونيوس وكليوبطرة في المرحلة الاخيرة من مراحل هذه الحروب التي جرت الخراب على البلاد وتوازعتها بدعاً وشيعاً واحزاباً ، فما هو المنحنى الذي كان لا بد ان تتخذه حركة او موجة تشرق الامبراطورية الرومانية ، لولا الثقل الذي طرحته غاليا والغرب وأثره البارز في الحفاظ على هذا التوازن .

هذا ما خص روما من الامر ، ولكن ما عسى ان يكون الشأن مع غاليا ؟ ليس من الفضول بشيء ان نتساءل هنا ما عسى ان يكون عليه مصير هذه البلاد ، لو لم تبسط روما يدها عليها ، وما هو لعمري ، نوع وطابع هذه المدنية التي كان من المقدور ان تطلع بها لو لم يقع عليها هـذا الفتح ؟ فالمؤرخ الفرنسي كميل جوليـان (*C. Jullian*) مؤرخ غاليـا الاكبر ، الذي قضى الشطر الاكبر من حياته باحثاً منقباً في تاريخ هذه البلاد ، خامره الشك حيناً في كفاءة الطاقات التي تهيء لها المستقبل الطالع امامها ، واعرب عن عدم ثقته بها . الا انه عاد ، بعد ان تكشفت امامه حقائق الامور يؤكد عالياً ، ويثبت قدرة هذه البلاد الكامنة ، على الخروج بمدنية غاليـة ، أصيلة الطراز والسمة ، لما من غنى الطاقات وتنوعها ما كان يسمح لعبقرية شعبها ، بعـد الذي افاده من دروس الحضارة الهلينية ، ان تكيف على الصورة التي تتجلى لها وترغب في تحقيقهـا ، وضع مستقبل هذا الشعب ، ووضع طبيعة أرضه . وهذا الاحتمال المقدور ، حفزه ليصرح عالياً ،



١ – محارب كابسترانو



٢ رأس محارب أتروسك



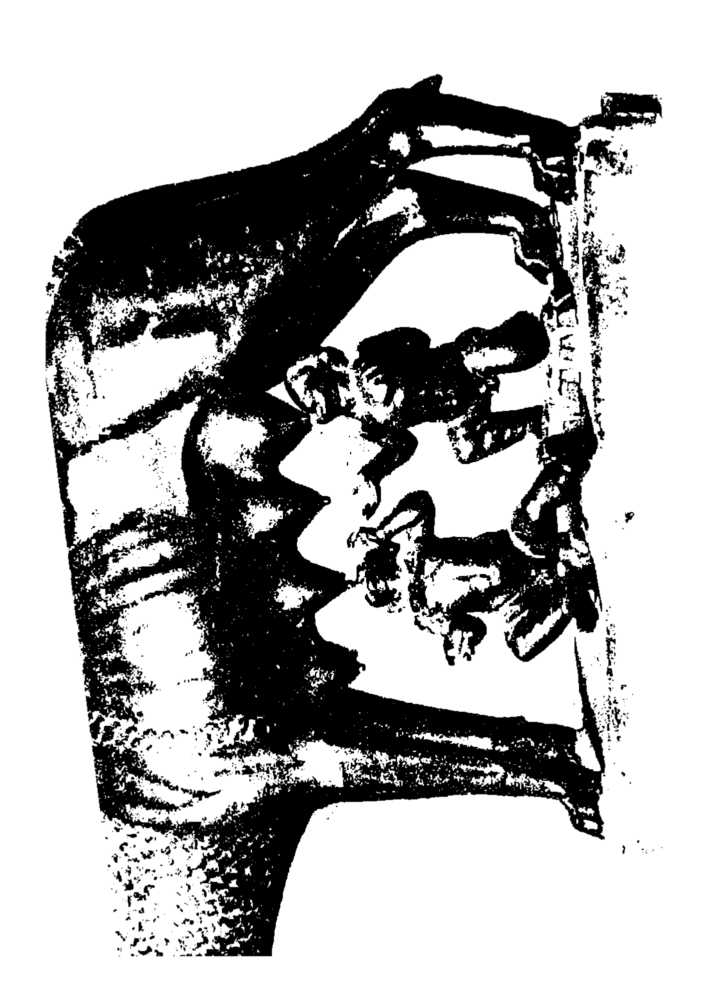
٣ - محارب اتروسك من الخزف







٦ – الخطيب





٨ - القبر المعروف بـ « قبر المسيحية » على مقربة من تيبسا
في الجزائر



٩- سيدة إلكيه



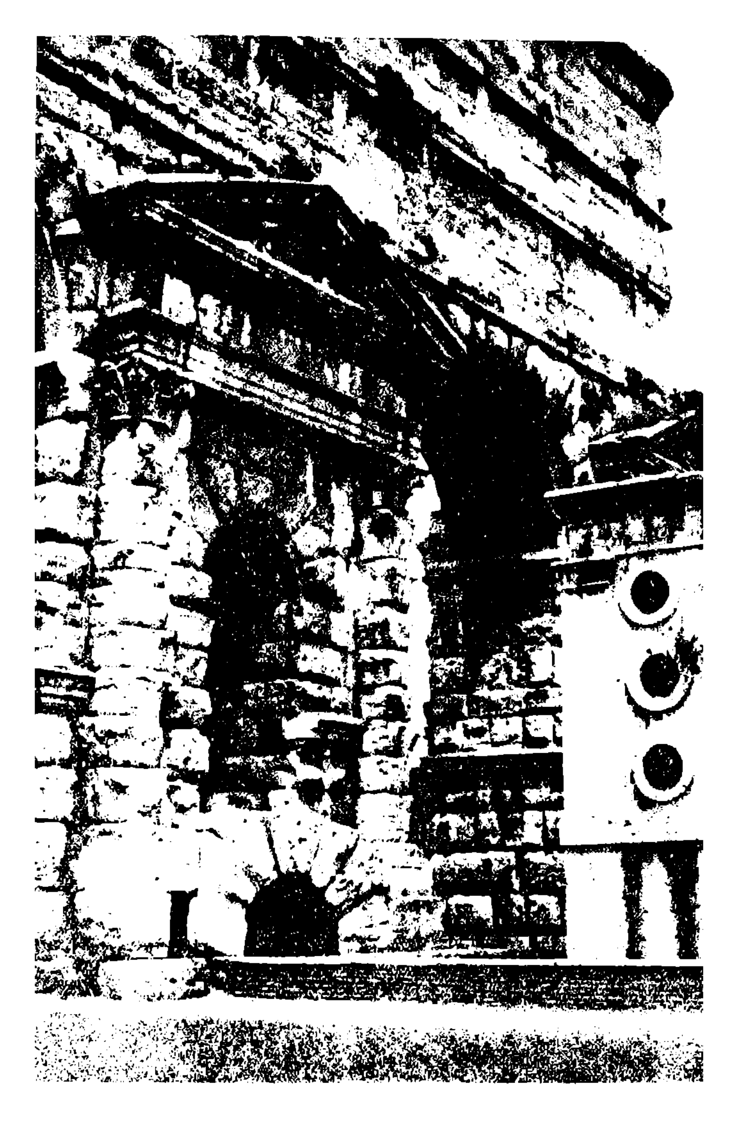


١١ – روما : الفوروم، من خلال قوس سبتيموس ساويروس





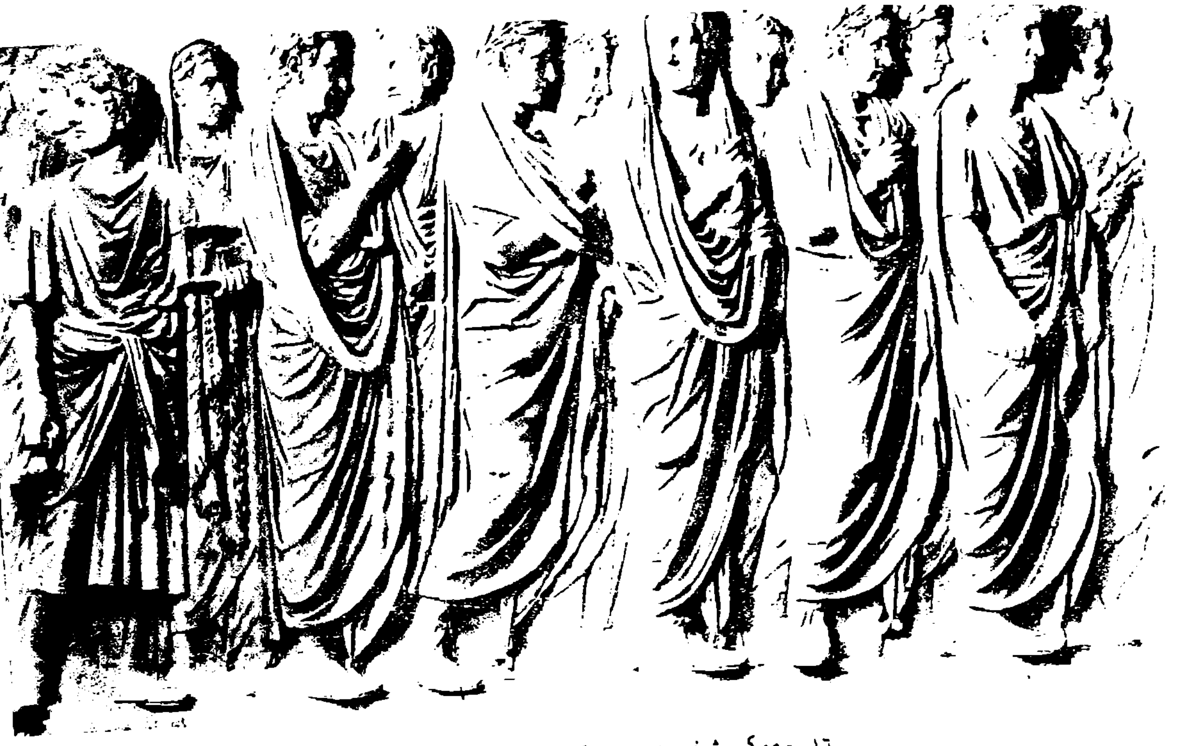
١٣ – روما : اطلال على جبل البالاتين



١٤- روما: الباب الكبير ومدفن الخباز م. فرجيليوس اوريساسيس



١٥ - اوغسطس : رأس رخامي كتشف في أول (القـــرن الاول قبل المسيح) .



١٦ - موكب شخصيات رسمية . نقش في « أرا باسيس »

ويعلن على رؤوس الأشهاد ، في دهشة المحافظين وذهولهم ، بأن الأذى الذي ألحقـه الفتح الروماني بغاليا ، ليس بالنظر للمظالم الوحشية التي صبها عليها فحسب ، بل ايضاً ، وبالاكثر ، لمـا سبب لها من إجهاض التربية الوطنية التي كانت أخذت بأسبابها . وقد قوبلت تصريحاته الحارة هذه بمعارضة من قبل بعض المشنعين ، محتجين بأن استقلال غاليا ومصير مدنيتها ، كان يتعهدهما على السواء ، في الوقت الذي اطل عليها قيصر ، مصير واحد : غزوات الجرمانيين ، بقيادة اريوفيست *Arioviste* والغزو الروماني بين فتح وفتح ، ودمار ودمـار لا مفر منهما . فالفتح الروماني كان ولا شك، أقل شؤماً على البلاد من الفتح الذي كان ينتظرها على يد منافسين زرعوا الهول وعمروا الخوف أينما وطأت سنابك خيلهم .

هذا المصير النظري الذي كان من الممكن ان يصيب كلاً من روما وغاليـا ، يؤلف لعمري مجالاً واسعاً للخيـال الشرود ، والتجريد الفلسفي . فجميع العناصر التي تساعد على المضي في النظر ، ولو من باب المقارنة ، عمليـة هي من بعض حسنات علم التاريخ . فالاستسلام لهـا والانقطاع عنها بشيء من الجامة خطر لا تحمد عقبـاه . فأيّ حكَمٍ يفتي في الامر وضميره مطمئن لقضائه ، وهو حكم يدور ليس على أمر وقع ومضى فحسب ، بل على مـا هو مقدور في ضمير الدهر ؟

الكتاب الثاني

حضارة روما الجمهورية

لننتقل دون إبطاء الى روما .

الشعوب الغربية الاخرى قبل الرومان

مهما يكن من شأن الاتروسك (*Etrusque*) والقرطاجيين والغاليين فان هـــذه الشعوب الثلاثة وحضاراتها لم تُغَطِّ الغرب بكليته قبل الرومان . وعلى الرغم من تلميحاتنا في سياق البحث، حول شعوب ايطاليا الوسطى والليغوريين والإيبيريين واولئك الليبيين الذين ليس اسمهم الحالي « بربر » سوى امتداد خفيّ لاسمهم القديم الواسع الانتشار ، « برابرة » ، وسكان الجبـــال في جزر المتوسط الكبرى وسلسلة الالب ، والجرمانيين الذين اعرض الاباطرة عن إخضاعهم بعد مجزرة « جوقات فاروس » والبريطانيين الذين أخضعوهم حتى مختنق الجزيرة البريطانية عند سكوتلندا الجنوبيـــة ، فالشعور بما تفتقر اليه اللوحة التي رسمناها عن الغرب في الفصول الثلاثة السابقة لا جدال فيه ولا يختلف عليه اثنان .

ولكن كيف لا نتراجع امام هذا التقسيم الكبير الذي هو نتيجة محتومة لعرض أكمل وأكثر شمولاً ؟ اضف الى ذلك اننا لا نعرف هذه الشعوب معرفة تامة . ولكن بين النواحي العديدة التي يجب على مؤرخ الحضارت القديمة ان يعترف بجهلها، ليس ما يتعلق منها بهذه الحضارات ما يحمله على الاسف الاشدّ . واذا كان هناك من فائدة في دراستها ، فان الفائدة الرئيسية ليست في الوقوف على ما كانت عليه هذه الشعوب ابّان استقلالها او ما كان يمكن ان تبلغه لو انها حافظت على هذا الاستقلال . ولكن من شأن تشتتها وتنوعها وصبغتها التي لا تزال مخشوشنة ان تظهر بالمقارنة عمل الوحدة والتربية الذي قامت به روما خير قيام . غير ان عظمة هذا العمل ظاهرة العيان دونما حاجة الى هذه الايضاحات .

روما التي تؤدي اليها كافة طرق العصور القديمة

وهكذا فان روما هي المحور ابداً . ويتضح هنا مرة أخرى ان الكلام عن شعوب اخرى يؤدي اليها حتماً . فهي انما تتسلط على كل من يريد رسم تطوّر المجتمعات على شواطىء المتوسط او في جواره . وفي كلامنا عن الشرق الادنى وعن الغرب على السواء، قليلة جداً هي الفصول التي اختتمت دون ان نأتي على

ذكرها ، وبإلحاح احياناً . ولم يكن القصد من ذلك الإنباء بالمستقبل القريب او البعيد بل تفسير نهاية حضارة ما او زوالها او ديمومتها جزئياً . والواقع هو ان روما كانت الوريث المباشر او غير المباشر لشعوب لا يحصى لها عدّ انصهرت جميع مصائرها في مصير روما . فبعد تعداد شتى التركات المادية والادبية التي ضمتها الى تراثها الخاص ، يجدر بنا ان نرتد اليها وننظر اليها كما استطاع ان يكوّنها عمل معقد أسهمت فيه الطبيعة والبشر والاحداث .

لن نتوقف عند نشأتها ومطلع عهدها ، فهي مدينة بوجودها وجوهر تنظيمها الاول الى الاتروسك . وقد بقيت دون تميز يذكر حتى بعد زوال وصايتهم عليها : مدينة ذات ملامح ريفية ظاهرة ، شأن العديد غيرها من مدن ايطاليا آنئذ ، كما نرجح . وقد يجدر بنا ، مع ذلك، ان ندرسها كما وصفناها لو ان لدينا المعلومات الصحيحة عما كانت عليه اذ ذاك . ولكن صورة ماضيها كما نقلها الينا تقليد تحدّد بعد ذلك بزمن طويل – اي في القرن الثاني قبل الميلاد ، في حال ان التاريخ المسلم به لتأسيس روما كان متأرجحاً حوالي منتصف القرن الثامن – ، وهي تكاد تكون خالية من الالوان المختلفة التي تفسح المجال للمقارنات الجدية ، مردها الى تفسيرات شوهتها تشويهاً لا يرتق فتقه لا بل الى تركيب تحكمي صرف . فمنذ السنة ١٧٢٩ استطاع احد المؤرخين ان يتكلم عن الشكوك التي تحوم حول القرون الاولى من تاريخ روما ؛ ويجدر بنا ، حتى في يومنا هذا ، ان نحفظ هذه المسائل التي لا تزال مطروحة ، لجهود علماء الاجتماع وعلماء الآثار وذوي الاطلاع الواسع .

الفتح والحضارة في روما الجمهورية

هنالك شيء آخر يستدعي الانتباه في ما يستهدفه هذا الكتاب . عنينا في الدرجة الاولى توسع روما ونموه ووسائله وطرائقه ، وفي الدرجة الثانية ، وبنوع خاص ، نتائج هذا التوسع .

اما النتائج التي تتناول الشعوب المغلوبة على نفسها والمعلنة خضوعها فليست اذ ذاك بالنتائج الاكثر اهمية لانها لا تزال سلبية . فحتى اوائل العهد المسيحي تقريباً ، واذا ما استثنينا ايطاليا، نرى ان روما تهدم دون ان تبني شيئاً جديداً متيناً يتناسب مع ما تستولي عليه . وتقتل او اقله تخنق حضارات لا تهتم لاقامة حضارات اخرى مكانها . وتسلب وتفقر وتستثمر دونما اعتبار الى انها تعرض حياة ممتلكاتها للإخطار . وتقتطع دون تعقل من مال اصبح مالها فتستنزفه وتعرض مستقبلها نفسه للخطر . ولن يظهر عملها الايجابي كوصية على العالم ومنظمة له ، وكمربية ايضاً في اكثر من منطقة من مناطقه ، الا بعد ذلك ، في عهد الامبراطورية وبفضل الامبراطورية .

ولكن نتائج الانتصارات ، منذ قبل الامبراطورية بزمن بعيد ، قد بدا اثرها على المنتصرين. فاذا ما تتلمذوا لبعض المغلوبين ووسعوا ادراكهم لمفهوم الانسان وايقظتهم مشاغل فكرية وجمالية جهلوها حتى ذاك العهد واوجدوا لانفسهم ادباً وفناً ؛ فان كل ذلك ، على الرغم من عظمة

اهميته المطلقة ، لا يمثل مع ذلك ، نسبياً ، سوى نتيجة لا قيمة لهـــا . فلا ينجو في الحقيقة اي مظهر من مظاهر حياتهم من ردة الفعل . ويكفي للقضاء على هذه المظاهر ان تدوم الحروب التي تقتلع المواطن من بيئته وتثنيه عن المهام المنتجة . يضاف الى ذلك ، في هذا الافتراض ، اقتناء ونقل ثروات طائلة ، والاتصال بشعوب اعظم تطوراً وبحضارات على قسط كبير من التفخل ، والسيكولوجيا الجديدة التي كيّفها النجاح والسيطرة . فانفجرت من ثم ثورة متعددة الاشكال ، مادية وادبية ، لم ينج منها صقع من الاصقاع . واذا ما بدا التنظيم التقليدي مستمراً هنا او هناك فان واقعاً آخر يتسرب اليه يرسخ اندفاعه بقوة مطردة .

فاتحون يواجهون المعاضل التي اوجدها اثر الفتوحات في ظروف الحياة الفردية والجماعيـة ، وحضارة مدينة ريفية تصبح قسرا حضارة عاصمة في امبراطورية ، وانتصار النظم الاقتصادية الجديدة والاضطراب الاجتماعي الذي يسببه ، وازمة النظام السياسي القديم الذي مضى زمانه ، وتراخي الانظمة القديمة ، وتعذر وضع غيرها ابان اضطرابات الصراع بين مقاومة قوى الماضي وفورة قوى الحاضر : ذلك هو المشهد الذي تقدمه لنا روما الجمهورية والذي ينطوي معنـــاه الحقيقي على قوة مستقلة عن احداث هي اشبه بالمآسي احياناً . وقد يغري بعضهم ان يطيلوا الكلام في موضوع المعاضل التي اوجدتهـــا الانتصارات للمنتصرين . ولكننا سنقتصر هنا على استنتاج نظري : ان المؤرخ قد يبحث دون جدوى عن حالة اخرى يظهر فيها تضافر العوامل العديدة ، في حضارة ما ، على مثل هذا الالحاح وهذا الجلاء ، عن طريق الخلـل الذي يحدثه انهيار احد هذه العوامل ، شيئاً فشيئاً ، في كافة العوامل الاخرى ، وحتى في ضمير المجتمع .

الفصل الأول

الفتح الروماني

بعد ان حددنا قبلة هذا البحث ، نرى من واجبنا ان يتناول الفتح الروماني في الدرجة الاولى: فبدون هذا الفتح يستحيل فهم حضارة روما الجمهورية .

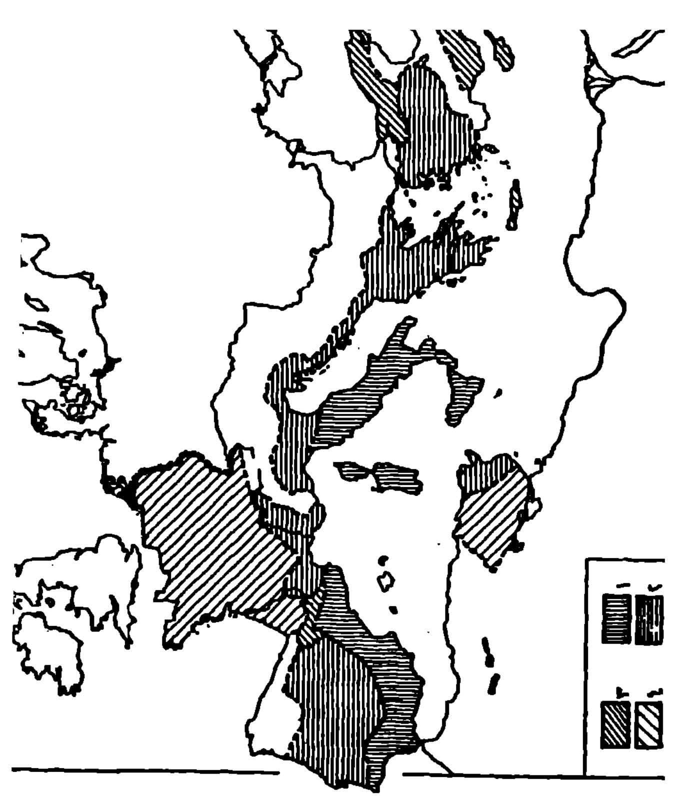
١ ـ التوسع الجمهوري

خلق عالم متوسطي

غير ان اهمية هذا الحدث التاريخي العظيم لا تنحصر في المدينة التي حققت هذا الفتح . فهي انما تقرر لقرون عدة مصير العالم المتوسطي . ولعل ابسط ملاحظة ، بهذا الصدد ، تفرضها نظرة الى الخريطة ، تقودنا ايضاً الى ابعد استنتاج : فان روما قد خلقت هذا العالم بفعل احتلالها اياه .

لم يسبق قط ان قام حتى ذاك العهد في اطار وحدة سياسية لم تدم طويلاً او خارج مثل هذا الاطار ، سوى عالم واحد هو عالم الشرق الادنى الذي تجاذبت مركز الثقل فيه بلاد ما بين النهرين حينا وبحر ايجه حيناً آخر . ولعل الاسكندر هو الوحيد بين قدامى الفاتحين العظام الذي يغلب على الظن انه وضع تصميماً يقضي ، بعد فتح الامبراطورية الفارسية حتى تركستان والهندوس ، بفتح الغرب المتوسطي حتى جبل طارق . ولكن الوقت قد اعوزه الشروع بتنفيذه . فبقي الغرب من ثم في عزلة متروكا لشعوب متخلفة لا تربط بينها رابطة ، يعيش كل منها لنفسه في نطاقه الاقليمي ، ولا تقوم بينها صلات متبادلة او بعيدة سوى تلك التي احتكرت مكاسبها بعض المستعمرات الاجنبية المقيمة هنا او هناك على الشواطىء ، ولا تتأثر سوى تأثر على وبطيء بحياة اقل بداءة تتصف بالانكماش ، ولا تسهم اي اسهام بنجاحات الشرق الادنى ومنازعاته .

ولم يضع حداً لهذه العزلة سوى روما . فبعد ان اصبحت سيدة ايطاليا ، بين حوضي المتوسط ، لم يكن من سبيل امامها للوقوف موقف اللامبالاة منهما. فقامت فيهما، في آن واحد ، بحملة توسعية موازية . فاخضعت البلدان الغربية لملاقي عديدة وادخلتها ، في الوقت نفسه ، في



الشكل ٦ – الفتوح الرومانية في عهد الجمهورية

مقاطعات خضعت لروما في اواخر القرن الثالث اثر الحروب البونيقية الثانية؛ ٢- فتوح القرن الثاني ؛ ٣- القرن الأول قبيل قنصلية قيصر (٥٩)؛ ٤ - فتوح قام بها قيصر وعرف اوغسطس ان يحافظ عليها.

وحدة اعظم اتساعاً . وهي ، اذ اخضعت لشريعتها هذه الاراضي المختلفة الكثيرة المحرومة حتى ذاك العهد من اي اتصال فيما بينها ، قد اوجدت الظروف الاولية لوحدة متوسطية . وستلمهد الامبراطورية فيما بعد تنفيذ هذه الوحدة . وقد اتاحت الجمهورية ، منذ الآن ، بالفتح الذي حققته ، تطور معطية جغرافية الى واقع بشري .

بيد انه يصعب عليها جداً ، في تحقيق عملها العسكري ، الا تسمح بخسارة شيء من عالم الشرق الادنى القديم . فهي لم تنجح في التوسع الى ابعد من نهر الفرات . وهي لم تتوقف راضية عند هذا النهر . فان ذكرى مجد الاسكندر تراود مخيلة اكثر من رئيس بين رؤسائها . وهي لا تجهل خصب بلاد بابل وواقع انتهاء كثير من طرق تجارة الشرق الاقصى اليها . اضف الى ذلك ان خبرتها قد اتاحت لها تقدير الخطر الذي يمثله ، لممتلكاتها في سوريا ، قربها من الفلوات والصحاري التي تظهر فيها ، بصورة مفاجئة ، جماعات غفيرة من الفرسان النبالين . بيد ان إرث الملكية السلوقية ، حين وضعت يدها عليه ، كان قد أنقص انقاصاً ملحوظاً : فايران قد فقدت بكليتها ، وكذلك بلاد ما بين النهرين حيث اقام الفارتيون ، بينما استماد سلاليو ارمينيا استقلالاً تاماً . وقد اجرت روما عدة محاولات ، منذ عهد باكر ، لتوسيع هذا الارث المصغر . فكان بومبيوس بصيراً واكتفى بالمساومات ، وكان كراسوس مغامراً فقاد جوقاته الى المجزرة في سهل كار (*Carrhes*) . واقدم بعض الاباطرة على المغامرة بدورهم فاحرزوا نجاحات متفاوتة سريعة الزوال . وهكذا لم يستطع الرومان يوماً اعادة وحدة الشرق الادنى المقوضة منذ قبل وصولهم : فقد افتقرت امبراطوريتهم الى اجزاء عريضة جداً من الامبراطورية الفارسية وامبراطورية الاسكندر .

ولكن فتوحات جديدة كثيرة ، ايطاليا ودلماتيا وغاليا واسبانيا وافريقيا ، قد عوضت الى حد بعيد ، اقاليم وسكاناً ، عن هذا التخلي الذي قبلت به غير راضية . ولكن نتائج هذا التخلي الحقيقية اكثر من ان تحصى . فبفضله نجت روما من الاندفاع نحو الشرق البعيد وسهلت عليها المهام الملقاة على عاتقها . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار المشاغل التي سببها لها الفرسان الفارتيون في فلوات ما بين النهرين ، هان علينا تصور تلك التي كان عليها مواجهتها في محاربتها بني جنسهم في فلوات تركستان . وهي لم تحتفظ من الامبراطوريات التي سبقتها سوى بالبلدان اليونانية حقاً وبتلك التي رسخت فيها الحضارة اليونانية بعض الرسوخ : فأفادت فيها من رصيد ثقافي ثابت ومن تيار صاعد . فيتضح من ثم ان فقدان مناطق ما بعد الفرات ، هو الذي اطلق ايديها في الغرب ، وأتاح لها أن تشيّد ، عوضاً عن عالم الشرق القديم ، على غرار أسلافها ، عالم البحر المتوسط بكليته .

ان الشكل الجغرافي لهذا العالم لكاف لإعطائه ميزة الجدّة . أضف الى ذلك ان هذا العالم سيستمر حتى اليوم الذي ستنتزع منه انتصارات العرب جميع المناطق التي تحيط ببحره الداخلي من الجهة الجنوبية .

الفتح الروماني على بطئه

ان ما يلفت النظر ، اذا ما نظرنا الى حركة هذا التشييد ، هو البطء الذي تسير فيه . وتبدو المضادة عظيمة بينه وبين السرعة النافذة التي اعتمدها اعظم فاتحي الشرق الادنى ، أمثال قوروش الفارسي والاسكندر المقدوني بنوع خاص . فالاندفاع التوسعي الذي نهضت به الشعوب الايرانية ، الميدية والفارسية ، حتى اذا ما نظرنا الى هذا الاندفاع في مجموعه ، لم يدم سوى قرن وبعض القرن فقط ، منذ احتلال أشور في السنة ٦١٤ حتى سلامين في السنة ٤٨٠ . اما اندفاع المقدونين ، حتى اذا ما ضممنا ملك فيلبوس الى ملك ابنه ، فقد كفاه ست وثلاثون سنة لبلوغ حدوده القصوى . وعلى نقيض ذلك ، فإن التوسع الروماني يتطلب زمناً اطول الى حـدّ بعيد ، إذ ان الحروب الاولى ضد الجيران الايطاليين تبتدىء منذ فجر القرن الخامس ، بُعيد انهيار الملكية الاترورية ، وان ايطاليا نفسها ، عند وفاة قيصر ، في السنة ٤٤ قبل المسيح ، لما يستتب الامر للرومان في شماليها الشرقي بين ايستريا والدانوب .

من الجلي ، ان الخطوات الاولى ، في مثل هـذا التطور ، هي في الغالب تلك التي تصطدم بأشدّ العراقيل صعوبة . وليس من المستغرب ، على كل حال ، اذا ما اعتبرنا نقطة الانطلاق روما ، واضطرارها لمحاربة مدن مماثلة لها ومكان جبال الأبنين الوسطى والجنوبية المشهورين بقوة شكيمتهم وتوقفها أحياناً في نجاحاتها بفعل الغزوات الغالية ، كتلك التي خربتها في أوائل القرن الرابع ، ألا تتوصل ، إلا بعد أحداث طويلة ، لإخضاع ما درجوا ، حتى قيصر ، على تسميته بـ « ايطاليا » أو ما يطلق عليه الجغرافيون اسم شبه الجزيرة الايطالية . بيد ان هذا الاخضاع لا يصبح أمراً ناجزاً ، بعد فتح تارنتا *Tarente* في السنة ٢٧٢ ، وفتح آخر مدينة أترورية في السنتين ٢٦٥ — ٢٦٤ ، إلا قبيل النزول الى صقليا في السنة ٢٦٤ : أي مـا يناهز القرنين ونصف القرن ، لاحتلال شبه الجزيرة ، في حال ان احدى وعشرين سنة كانت كافية لأن يبسط فيلبوس السيطرة المقدونية على اليونان البلقانية !

واذا لم يسر التوسع خارج ايطاليا ، فيما بعد ، بمثل هذا البطء ، فإنه لا ينتهي في الغالب الى ضم المناطق الا بعد المواعيد المقررة لهذا الضمّ . وتؤلف الحروب البونيقية ، في سلسلة الحروب الطويلة التي نشبت ما وراء البحر ، شذوذاً يلفت الانظار ، لانها تنتهي على الفور الى مكاسب اقليمية : الاولى الى كسب صقليا والثانية الى كسب اسبانيا والثالثة الى كسب اقليم قرطاجة . ولكن المجازفات في الشرق الهليني تتأخر في اعطاء ثمارها . فقد تدخلت روما في اليونان منذ السنة ٢١٢ ، وهزمت فيها الجيش المقدوني شر هزيمة في السنة ١٩٧ ، وقضت عليه نهائيـاً في السنة ١٦٨ ، ولم تنشىء ولاية مقدونيا ، على الرغم من ذلك ، الا في السنة ١٤٨ . ولا حاجة بنا لأن نقدّم الامثلة الكثيرة ، بل يكفينا ان نستشهد بمثل مصر الفريد : فقـد بُسطت حماية روما عليها عملياً منذ السنة ١٦٨ ، على الاقل ، وثقلت عليها يوماً بعد يوم كما يتضح من تكرر تدخل الجيوش الرومانية في منازعات البـلاد الداخلية ، ولكن ذلك لم يحل دون احتفاظ

الملكية اللاجية باستقلالها النظري وحتى العملي أحياناً ـ فان كليوباترا قد استخدمت انطونيوس بمقدار خدمتها له على الأقل ـ حتى السنة ٣٠ قبل المسيح .

وجامي

تفوق هذه الملاحظات في اهميتها مجرد التوقيت الزمني . اجل ان تاريخ الفتح الروماني ينطوي على احداث سريعة ، كبسط السيطرة على غاليا المستقلة التي حققها قيصر في ثماني حملات عسكرية . ولكن مثل هذه الاحداث ، بصرف النظر عن ان واحداً منها لا يرتدي طابع الصاعقة الذي ترتديه حملة الاسكندر اذ ضم في ثلاثة عشر سنة الامبراطورية الفارسية الواسعة الارجاء الى المملكة المقدونية ، لا تخرج عن كونها استثنائية . ويبدو بناء العالم الروماني على الصعيد العسكري ، الذي يمتد عدة قرون قبل الميلاد ، والذي سيتكامل بعده ايضاً ، وكأنه في الحقيقة عمل اجيال عديدة جداً .

يستدل من ذلك ان هذا البناء لم يكن ، او لم يكن الا جزئياً ، عمل افراد بارزين . اجل ، لم تفتقر روما الى مثل هؤلاء . وهي لم يعوزها المجد العسكري الذي يقترن عندها باسماء معينة كما عند غيرها. وتفسر مؤهلات العديد من زعمائها الشهرة التي نعموا بها . لا بل ان بعضهم قد لعب دوراً شخصياً حاسماً في توسع الامبراطورية . فقد تصرف بومبيوس في آسيا مثلاً وقيصر في غاليا كما طاب لهما التصرف دون ان يستشيرا احداً : فاختارا على هواهما من يهاجمان وعقدا احلافاً وقررا ضم الاقاليم ، ممارسين بذلك في كاله ، باسم روما ، ودون اغفال اهدافهما ، قانون الحرب والسلم . بيد ان هذه الحرية لا يمكن ادراكها الا في القرن الاخير من العهد الجمهوري ، وهي انما تمثل – وسنعود فيما بعد الى هذا التطور – مظهراً من مظاهر الاضطراب الذي خلقه الفتح نفسه في سير نظام الحكم. فلم يكن القواد، زمناً طويلا، قبل ان يتحرروا رويداً رويداً ، سوى منفذين تسند اليهم مهمة عسكرية معينة . وهكذا فان اكبر واشهر مؤسسي العظمة الرومانية ، كشيبيون الافريقي وبولس اميليوس وشيبيون اميليانوس لم يأخذوا على انفسهم امر اعلان الحرب ، واذا هم ابدوا رأيهم ، المسيطر غالبا، في شروط الصلح المفروض على العدو المغلوب على نفسه ، فانهم لا يعلنون ، مع ذلك ، هذه الشروط دون اشتراك غيرهم في الرأي ، اي دون رقابة .

يبدو هذا القول وكأنه حقيقة بديهية ، اذ ان روما ، في ذاك العهد ، كانت جمهورية وكان عليها بهذه الصفة ، الا اذا رضيت بالدكتاتورية ، ان تحدد مدة القيادات العسكرية ونطاقها الجغرافي وان تنفذ سياستها الخارجية ، ما امكن الانقاذ ، من القرارات الفردية . ولكن كل ظاهر ابتذال يزول اذا ما فكرنا ان تاريخ الانسانية جمعاء لا يقدم لنا اي مثل آخر عن جمهورية تتابع طيلة اجيال عدة ، بمثل هذا الثبات وهذه الوحدة في النتائج ، ان لم يكن دائماً في الاساليب ، سياسة تؤدي الى فتوحات على مثل هذا الاتساع . ففوق الاحداث الطارئة والتحولات الفجائية في الاتجاه وانتهازية التنقلات والجهود ، يؤلف هذا الاستمرار في التوسع

وهذا التقدم شبه المتواصل في القوة والسيطرة ميزة الجمهورية الرومانية . وقد يستهوينا اللجوء الى تفسيرات شتى اكتفى بها اكثر من مؤرخ قديم : حظ روما ومصيرها الذي اعدت بموجبه لان تصبح امبراطورية. ولكن معاصرين كثيرين يعتقدون ان هذه التفسيرات انما تخفي عجزاً عن تبيان تسلسل الاسباب والنتائج تبياناً منطقياً . ويجب الاعتراف بان واحداً لا يستطيع التباهي بايضاح حدث تاريخي على مثل هذا الاتساع كما يجدر الايضاح ، وان المجازفة في الاشارة الى بعض الاسباب العامة التي ادت الى هذا النجاح تقود خصوصاً الى وعي عدم كفايتها . ولكن هل يجب ان يثنينا هذا الاعتراف الضروري عن محاولة التحليل ؟

التنظيم التقني للسياسة الخارجية

ليس واقع الجمهورية الفاتحة بالظاهرة النادرة : فقد اعطتنا المدن اليونانية اكثر من مثل عن ذلك . ولكن جمهورية تكرس في سبيل الفتح جهوداً بمثل هذا الاستمرار ، رافضة التنازل ابداً عن مكسب حققته ، وعاندة بنجاح، باستثناء الهزيمة النكراء التي انزلها البارثيون في « كار » ، في تدارك الهزائم التي تمنى بها ، لشذوذ تاريخي هو اقرب ، في الحقيقة ، الى المغالطة السياسية .

قبل الشروع بتحديد الميزة الحقيقية للنظام الجمهوري في روما ، يجدر بنا ، بغية الاقلال مما يثيره هذا النشاط الذي لا يعرف الكلل من دهشة وحيرة ، ان نلفت النظر دونما ابطاء الى ان السياسة الخارجية لا تقررها في الواقع جمعية المواطنين ، واذا كانت استشارة الجمعية امراً واجباً لاعلان الحرب وفاقاً للانظمة ، واذا كان قرارها نافذاً ، فان الحكام يعرفون كيف يديرونها . فحين رفض الشعب ، بعيد نهاية الحرب البونيقية الثانية ، ان تعلن حرب جديدة على الملك المقدوني ، احالوا القضية للمناقشة مرة اخرى وحصلوا هذه المرة على اكثرية الاصوات . وليس هذا كل شيء : فبعد الاقتراع على اعلان الحرب ، رأت الجمعية نفسها محرومة من الصلاحيات حتى اليوم الذي دعيت فيه للموافقة دون مناقشة على معاهدة الصلح التي وضعت نصوصها على غير معرفة منها ؛ وليس لدى الشعب في هذه الاثناء سوى وسائل غير مباشرة ، وغير حاسمة على العموم ، كانتخاب القضاة الجدد مثلاً ، للاعراب عن اشمئزازه .

تعود ادارة السياسة الخارجية في الحقيقة الى مجلس الشيوخ ، أي الى هيئة مختصرة انتخابها ابعد من ان يتصف بالديموقراطية . يستقبل هذا المجلس السفراء الأجانب ويملي عليهم الأجوبة التي يتلقونها ؛ ويعين السفراء الرومانيين ويعطيهم التعليمات . ويتدخل في توزيع القيادات على القضاة ، ويحدّد أهمية القوى العسكرية او البحرية والمبالغ التي توضع تحت تصرف كل قاض من القضاة . وأثناء العمليات الحربية يتلقى تقاريرهم ويبلغهم مقرراته . يناقش مشاريع المعاهدات ويوفد محلياً ، لأجل تطبيقها ، مفوّضين يشتركون في ذلك مع القائد المنتصر .

ليس من ثمّ ما يشبه الوضع في كل من الجمعية الشعبية والمجلس في الديموقراطيات اليونانية . فبدلاً من أن تخضع السياسة الخارجية لمقررات ، غالباً ما تكون مرتجلة ، يمليها حماس الشعب

ويأسه وهواه، تتعلق هذه السياسة بجهاز يسهل على أعضائه الذين يناهزون الثلاثمائة ان يديروها بطريقة فضلى . ولا ينتمي هؤلاء الى مجلس الشيوخ إلا بعد تلقي تربية معينة . ومن حيث انهم يحتفظون بعضويتهم مدى الحياة ، فانهم يوسعون خبرتهم ويستطيعون السير بموجب فكرة أو تقليد . ولما كانت المعلومات الضرورية تتوفر لديهم ، فإنهم يتمكنون من التوفيق بين المشاريع ووسائل العمل . هذه كلّهـــا امتيازات تقنية جلية عن تنظيم الديموقراطية اليونانية ؛ وهي تتيح أن ندرك ادراكاً أفضل أمتن ادارة السياسة الخارجية .

بديهي على كل حال ، ان هذه اللوحة تفتقر الى تصحيح في مراحل العهد الجمهوري المختلفة . ثم ان القوانين أبعد من ان تطبق زمناً طويلاً تطبيقاً كلّـي الانتظام ، ولا تبقى ، على الأخص ، قروناً عديدة دون ان تتطور . ولا يبرز سلطان مجلس الشيوخ المطلق حقـاً الا إبّان الحروب الحاسمة ضد دول مـــا وراء البحر الكبرى ، قرطاجة والملكيات الهلينية في القرنين الثالث والثاني . وقد يحدث في هذه الظروف نفسها ، ان تصرف الآلة ، وعلى الرغم من ان التقليد الذي وصل الينا بصدد العهود القديمة غير جدير بالثقة نفسها ، فان توزيع الكفاءات في السابق لا ينطوي ، على ما نعتقد ، على فروق جوهرية . ولن تحدث تبديلات هامة الا في عهد لاحق، ابتداء من اواخر القرن الثاني . فتقوم إذ ذاك جمعية المواطنين ، بتأثير قادة حازمين ، حتى في حقـل السياسة الخارجية ، بمبادهات يضطر مجلس الشيوخ ان ينحني أمامهـــا . وقد حدث خصوصاً ان استثمر بعض قادة الجيش حظوتهم لدى الشعب او أقله لدى الجنود ، فشقّوا عصا الطاعة على مجلس الشيوخ . فسار التوسع الروماني من ثم سيراً أشدّ اضطراباً لأن من شأن تهوّر الشعب وحرية العمل التي يحصل عليها القادة ان يدفعا بهذا التوسع الى الامام .

الأسباب العميقة للاستعمار الروماني

مهما كان من فاعلية إحكام وسير النظم السياسية لتنسيق وايضاح التوسع، فإن المعضلة الحقيقية التي يثيرها هذا التوسع تتخطاهما كليهما . وان ما يهمّ تبيانه في الحقيقة هو الأسباب التي وجّهت الحكّام نحو فتح يبدو انهم لم يضعوا له حداً حتى اواخر الجمهورية ، لا بل بعدها بقليل أيضاً . والمقصود هنا هو غير الأسباب التي أدت الى كل من الحروب المتعاقبة التي جروا إليهـا روما جراً : وكلّما بدت هذه الأسباب بوضوح ، بدا أنهـــا مرتبطة الى حدّ بعيد بالمكان والزمان وبعض الرجال . لا بل ان مـــا يستهوينا اكتشافه ، بالنسبة لهذه النزعة المستمرة ، أو بالنسبة لما يجب اطلاق اسم «الاستعمار» عليه بعد ان ننزع من هذا التعبير المستلزمات التي أضافها اليه تطور العالم المعاصر ، هو الاسباب الدائمة ، بما فيها ، وربما في الدرجة الاولى ، تلك التي لا يعيها الممثلون الزائلون وعيـاً كاملاً . بيد ان المؤرخ يشعر ساعتئذ بكثير من التواضع بنقص وركاكة ما لديه من وسائل تحليل .

ان بعض التفسيرات التي قد تقنع في حالات اخرى يجب اقصاؤها في الحالة التي تعنينـــا . فمستنداتنا لا تجيز لنا البتة مثلاً التفكير بضرورة ملحة اوجدتها كثافـة السكان ؛ ولا يبدو ان

روما قد لمست وجوب توسيع « نطاقها الحيوي » ، وان تأسيس مستعمراتها الاولى ، وهو متأخر نسبياً على نقيض ما جاء في التقليد ، انما كان استجابة لاهدافها العسكرية قبل ان يكون معالجة لمعضلة تزايد السكان . وليس كذلك ، طيلة القسم الاكبر من هذه القرون الخمسة ، من معضلة اقتصادية او من معضلة اجتماعية من شأنها ان تحمل روما على البحث عن حلها بواسطة الفتح : فلم تبرز مثل هذه الاسباب الا بعد ذلك بزمن ، اي بعد ان اثارتها الحروب السابقة . وليس ايضاً من نظام سياسي او اجتماعي يحل في المرتبة الاولى طبقة يؤلف فيها المحارب نموذجاً مثالياً ويتلقى تربية ادبية وطبيعية توجه بالتفضيل الى الحرب : وقد نبحث دون جدوى في عهود روما الاولى ، باستثناء بعض الاشخاص النادرين، عن بطل الملحمة الهوميروسية الذي ينزع الى المجد وملذات الحياة المادية ، او النبيل المغامر — الذي عرفته اليونان في عهدها القديم ايضاً — المستعد لكل شيء في سبيل ارضاء طموحه الى السلطة . وليس هنالك اخيراً اي اثر لحرب عقائدية : فان روما لم تفرض يوماً لا تنظيمها ولا ديانتها . وقد جاز لها الاعتقاد احيانا ، كجمهورية ، بان الملوك يمقتونها بسبب ذلك ويستهدفونها باحلافهم . ولكن شيبيون لم يكن كاذباً حين اعلن باسمها انها ليست ساعية لقلب الملكيات . اجل لقد اظهرت، كجمهورية محافظة ، مزيداً من العداء المستحكم للنظم الثورية ، ولكنها قد انتهت راضية اكثر من مرة الى الاتفاق معهم ، مكتفية بمحاولة اتقاء العدوى .

بيد ان هذا الاستعمار لا ينجو بالكلّية من الاسباب العامة التي خلقت قبله أو بعده ، أسباباً أخرى عديدة . ولن يعترض أحد على ذكر الطمع بينها : فمن حيث أن الشعب الروماني شعب فلاحين فانه قد طمع في أراضي جيرانه لا سيما حين تكون اكثر خصباً او افضل استثماراً . ومن حيث انه استوطن اقليماً تمر فيه بعض الطرق ، فإنه قد صمّم على الاحتفاظ بمكاسب حركة التجارة عليها وعلى زيادة هذه المكاسب . وقد صمم أيضاً على الحصول بسهولة على بعض المواد الخام . ولكن لهذا الطمع البدائي حدوده ؛ ويبدو ان مثل روما لا يجوز معه التراجع أمام تفسير لا تحلّه عادة في المركز اللائق به . فيبدو في الحقيقة ان روما لم تخضع لجاذب المكاسب الفورية خضوعها للخوف الذي أثار في كل زمان حروباً يفسّرها كل من الخصوم ، بسلامة طوّية تامة ، كحروب دفاعية حيث يعتبر وجوده بالذات مهدداً ، وحيث غالباً ما يشكل هذا الوجود ، في الواقع ، الهدف الحقيقي . واننا نلمس ، في روما الجمهورية ، هذا الشعور المتزايد والحاد جداً في اليونان — الكلام عن العصور القديمة — بأن سلامة دولة من الدول تعرّض للخطر بمجرد قيام دولة أخرى مجاورة اذا ما بدت قواهما متعادلة أو بمجرد احتمال تحالف لا تكون هي أحد أطرافه ، اذ ان حرصها على المحافظة على استقلالها يدعوها الى القضاء على استقلال غيرها . فالحروب ، من ثمّ ، والفتوحات ، اذا أمنت الحروب النصر ، يستند بعضها الى بعض ، لأن توسيع ممتلكاتها يضاعف الواجبات الدفاعية وظروف الصراع .

فيجد الاستعمار في مكاسبه نفسها مبررات لا تقهر لنقل مطامعه باطراد الى آفاق أبعد ، بحيث لا يكون له حدود بالتالي سوى حدود الأرض المأهولة .

الأسباب الثانوية

ليس من المناسب هنا التبسط في هذا التفسير . واننا نسرع الى القول ، بالاضافة الى ذلك ، انه اذا كان تاريخ الفتوحات الرومانية ، حتى آخر الجمهورية وأبعد من ذلك ، غنياً بالأمثلة الخليقة بتأييد هذا التفسير ، فإن عوامل أخرى تفعل فعلها أيضاً ، مطردة القوة والتنوع ، لا سيا انطلاقاً من القرن الثاني . ولكنها عوامل ثانوية .

فهنالك التيه الروماني، وهو راسخ في القدم ، أو غير حديث العهد على كل حال ، ويسفر عن نتائج متنوعة جداً . أجل انه لا يدفع دفعاً مباشراً الى التوسع حين يسهم في الهام ذاك العناد الجموح الذي أعطى عنه الحكام والشعب بكلّيته البراهين الكثيرة في وجه أشد الصعوبات تعقيداً ، أمام الغاليين وأمام هنيبعل على السواء . ولكنه بعد ذلك بزمن ، ازداد بفعل الانتصارات المتواصلة العظيمة فأدخل في نفوس الجميع – أو في نفوس الاغلبية ، إذ ان شيبيون اميليانوس الذي فكر في انه ليس من قوة دائمة وان وطنه سيعرف يوماً من الأيام المصير نفسه ، نبكي على أطلال قرطاجة التي كان قد هدمها – ثقة لا حدّ لها في مصير روما ، هي الكفيل بنجاح جميع مشاريعها . ولو جاز للمؤرخ نسيان المعنى الخاص الذي ينطوي عليه التعبير في تاريخ اسرائيل ، لأمكن القول ان الشعب الروماني انتهى الى الاعتقاد انه الشعب المختار أيضاً . وان هو لمس انه الأقوى ، فلا يثير فيه ذلك أية دهشة لأنه يعتبر نفسه أعظم الشعوب عدلاً وفضيلة وتقوى . وهذه كلها افضليات تبرر في نظره الهبات التي تغدقها عليه الآلهة . ولكنها كلها دوافع لإقناعه بأن أي شعب آخر لا يستطيع ولا يجب ان يقف في وجهه . وقد أصبحت روما « المدينة » بالذات ، التي ألقيت على عاتقها رسالة اخضاع العالم والتي تخضعه بالاقتصاص دون شفقة من العصاة بممارسة حق المنتصر بكماله في هدم قرطاجة وكورنتس في السنة ١٤٦ ، ونومانس (*Numance*) في السنة ١٣٣ .

وهنالك ايضاً ، في الوقت نفسه ، شهوة الذهب ، والبؤس ، وكلاهما قد زادهما أو أوجدهما الفتح الذي قلب الاقتصاد والمجتمع . فان رجال الاعمال الجشعين يبتغون استثمار نطاقات جديدة ، والجنود غالباً ما يبتغون حروباً جديدة تؤمن لهم الغنائم والمكافآت . وبفعل مصادرة ثروات العدو وتعويضات الحرب المفروضة على المغلوبين وأعطيات الحلفاء المتملقين الى القوة والجزى السنوية التي تدفعها المقاطعات ، بلغت أرباح الاستعمار درجة حصلت معها عامة الشعب على قسطها من سخاء الدولة ، وساندت بحماس سياسة تؤمن لها مثل هذا الكسب . وقد تجاوز بعض رجالات الدولة أنفسهم من ذوي الشأن هذه الأنانية ، فارتأوا أحياناً ان الحرب والفتح قد يساعدان على معالجة صعوبات داخلية ، اما بخلق عملية إلهاء وإما بزيادة الموارد المالية .

وهنالك اخيراً انفلات الأطماع الفردية . استحق النصر أبداً للقائد ، اذا كان حاسماً في نظر مجلس الشيوخ ، مجد « موكب النصر » ، وهو احتفال موروث عن الاتروسك ، يرتدي فيه الرئيس المنتصر الحلّة البرفيرية المطرزة بالذهب ، ويصبغ وجهه بلون أحمر ، ويحمل تاجاً ذهبياً ، ويمسك بالصولجان ، ويمثل جوبتير نفسه ، ثم يصعد الى عربة يتقدمها موكب المغانم المستولى عليها ، ويسير وراءها جنوده مدججين بالسلاح حتى معبد جوبتير الكابيتولي . ولكنه عند نهاية الاحتفال يبرهن عن خضوعه للأنظمة الجماعية ، ويعود الى صفوفِ أمثاله متحلياً بسمعة خادم الدولة الأمين . بيد ان عدوى الأفكار والعادات الهلينية ، من جهة ، والامكانات التي توفرت للرجل الماهر والقوي بفعل انفصام التوازن الاجتماعي القديم وتخلخل النظام السياسي ، من جهة ثانية ، قد اعطت قوة فائقة للجاذب الذي توحيه القيادات العسكرية الكبرى . فان ما نستطيع ان توفره منذ الآن هو المجد الذي يسحر الجماهير ، وهي الثروات التي يشترى بواسطتها التفاني ويتزايد عدد الزبن ، وهم الجنود الذين يرون فيه حبيب الالوهة ويقررون له « موكب النصر » قبل ان يبدي مجلس الشيوخ رأيه ، ويتخذون المبادهة – ويعود اول مثل أكيد عن ذلك الى السنة ٢٠٩ – ويعلنونه امبراطوراً في ساحة الوغى ثم يصبحون مستعدين ، بعد انقضاء قرن ، لأن يسيروا وراءه حتى في الحرب الاهلية . فخلق الفتح الظروف المادية والادبية للفوضى الداخلية ودفعت الفوضى بدورها الى الفتح . وأعلنت بعض الحروب ، دونما تقيد بالاصول الدستورية ، سعياً وراء النصر ووسعت الامبراطورية سعياً من القائد وراء ربط اسمه باخضاع أقاليم جديدة .

مقاومات سريعة الزوال ودون جدوى

لم تحدث طفرات الاستعمار هذه دون ان تصادف مقاومة . ولكن المقاومة ، بعد كل حساب ، كانت هزيلة ودون جدوى .

فقد حارب كاطون (*Caton*) القديم فساد الاخلاق الذي جرّ اليه مثل الشرق اليوناني ، كما حارب تحرر زعماء الجيش واختلاساتهم . ولكن عمله الشخصي ، العسكري او الدبلوماسي ، في اسبانيا واليونان على السواء ، وعناده في محاربة قرطاجة ، يبرهنان ، بما فيه الكفاية ، مع ذلك ، انه لا يذهب من المعاول الى العلّة لاقناع مواطنيه بالاعتدال . وحين ذرف شيبيون اميليانوس ، في السنة ١٤٦ ، الدموع السخية امام اطلال قرطاجة الحارقة ، لم يحمله ذلك قط على كبح غضبه وعنفه ، اذ انه قد برهن بعد ثلاثة عشر سنة عن عزم مماثل لا يعرف الشفقة معنى في حصار وهدم « نومانس » في اسبانيا ، اما التقليد الذي يعزو اليه قوله « ان وضع الشعب الروماني سليم وعظيم » والذي يفترض فيه الخشية من توسع لا حد له لم يبرز الى حيّز الوجود إلا بعد ذلك بزمن ، حين نزل الامبراطوران الاولان ، اوغسطس (*Auguste*) ثم طيباريوس (*Tibère*) ، عند الضرورة الملحة باعتماد سياسة دفاعية فقط .

اتخذ مجلس الشيوخ ، حتى في النصف الاول من القرن الثاني ، تدابير عنيفة حقاً وغريبة عن كل تصميم متلاحم ضد اساءة استثمار رجال المال للفتوحات . ففي السنة ١٦٧ مثلاً ، حينما شعر

بعجزه عن مراقبة سوء تصرفهم في ممتلكات الدولة ، اذا ما ثبتوا اقدامهم فيها ، آثر ان يحظر كل عمل في هذه الممتلكات ، اعني بها مناجم المعادن الثمينة والاملاك الريفية والحرجيـة التي انتقلت الى روما، بعد سحق الملك « بيرسا » (*Persée*) ، في مقدونيا . ولكن اشمئزازه الظاهر من بروز طبقات اجتماعية جديدة لا يمنعه من ان يوعز ، او اقله من ان يقبل بالنزاعـات العظمى التي تفتح امام مستقبل روما آفاق الامبراطورية المتوسطية . ولسنا نلمس اي اعتبار اقتصادي له وزنه في اسباب الحربين البونيقيتين الاولين او الحروب ضد الملكيات الانتيغونية والسلوقية . وعلى الرغم من ذلك فان هذه الحروب قد اندلعت واعطت ثماراً طيبة : فقد كسبت رومـا في الاولين ، منذ القرن الثالث ، صقليا وسردينيا واسبانيـا ، كما أسفرت الحروب الاخيرة ، في ثلاثين سنة ، من السنة ١٩٧ حتى السنة ١٦٨ ، عن بسط سيطرتها على الشرق الايجي .

وقد اعار مجلس الشيوخ نفسه ، من جهة ثانية ، اذناً اكثر اصغاء الى نداء المصالح . فان رؤوس الاموال الموظفـة في افريقيا في ايام جوغورتا *Jugurtha* ولا سيما في الشرق في ايام ميتريدات *Mithridate* ، رومانية كانت ام ايطالية ، اعظم واكثر تفرعـاً ايضاً ، حتى بين مجلس الشيوخ ، من ان يقدم هـذا الاخير على اهمالها . ولكن اين يقف الدفاع عنها واين تبتدىء المساعـدة المقدمة للمشاريع الجديدة ؟ فقـد اصبح محتومـاً على التوسع العسكري ، في القرن الأخير من العهـد الجمهوري ، وباعتراف مجلس الشيوخ ، ان يخدم اكثر من مرة التوسع الاقتصادي .

وكذلـك فان الشكوك الطبيعية التي يثيرها الرجال « المتفوقون » في ارستوقراطية مجلس الشيوخ قلمـا توصلت الى شل عمل هؤلاء الرجال. فمنذ عهد مبكر ، اي منذ الحرب البونيقية الثانية ، لمست هذه الارستوقراطية الخطر الذي يشكله الزعماء المنتصرون ، المتمتعون بتعلق الجماهير المتحمسة والواثقون من اخلاص جيوشهم ، على الانظمة الجمهورية ، اي عليها هي بالذات. ولكنها لا تتوانى ، حتى بالانتقاص من الشرعية ، في اللجوء الى مواهبهم حين تدعو الحاجـة الى ذلك ، سعيدة جداً اذا ما استطاعت اذ ذاك وضع ثقتها في شيبيون اميليانوس مثلاً . وكثيراً ما ترتكب الاخطاء ايضاً ، بفعل الكلل او العمه ، كما حدث لها حين اسندت الى قيصر ، الذي كان لها عليه اكثر من مأخذ ، ادارة غاليا الناربونية ، بالاضافة الى غاليا مـا وراء الألب التي اسند الشعب ادارتها اليه لمدة خمس سنوات ، فقد اتاح هـذا القرار المفاجىء ، لقيصر ، ان يحصل ، باخضاعه ما تبقى من غاليا ، على كل ما كان مفتقراً اليـه حتى ذاك التاريخ ، اي المجد والثروة والجوقات . اما السياسة التي غالباً ما اعتمدت في الواقع فتقوم على خلق التنافس بين ذوي الطموح ، وعند الحاجـة على تسهيل بروز منافس بغية رفعه الى مصف غيره ؛ فان اختيار ت. كوينكتيوس فلامينينوس مثلاً ، في السنة ١٩٩ ، وهو ضل بن ضل قبلاً ، لادارة شؤون الحرب ضد المقدوني فيليبوس الخامس ، وابقاءه في اليونان حتى السنة ١٩٤ ، يستجيبان دونما ريب للرغبة في ايجـاد منافس مجيد لشيبيون المنتصر على هنيبعل في السنة ٢٠٢ . ولكن

مثل هــذه المنافسات ، التي لا تخرج لها احياناً سوى الحرب الاهلية ، – ماريوس وسيلا ، وبومبيوس وقيصر مثلا – تؤدي الى السرعة في التوسع لا الى الحد منه ؛ امــا مثل مصر فمثل شاذ اذ ان ضمها ، الناضج منذ زمن بعيد ، لم يتحقق في ايام الجمهورية لان من شأنه ايقاظ المزيد من المطامع وحـل من يحققه على جانب كبير من القوة .

تناقض ووهن

بديهي ، في مثل هــذه الظروف ، ان السياسة الخارجية لروما الجمهورية لا تنطوي ، اذا ما نظرنا اليها في جزئياتها ، على استمرار العظمة الذي توحيه الينا نظرة سطحية . ويبدو مغرياً ان نعزو اليهــا المخططات العميقة المدروسة والاساليب التي يحسن فيها تعيين مقدار العنف والحيلة. فقد طاب لبوسّويه (*Bossuet*) مثلاً التأكيد بأن الرومان « أرادوا ان يخضع لهم كل شيء ، وهدفوا في الحقيقــة الى اظلال جيرانهم اولاً والعالم كلّه ثانياً في فيء شرائعهم » . ويطيب لأكثر من مؤرخ معاصر ، في كلامه عن دبلوماسيتهم التي قــد يستهدفها « الخطاب حول التاريخ العام » من زاوية مرتفعة جداً ، والتي يفرض احترام وقائعها على علماء البحث فحصاً أكثر دقــة ، ان يفكر بصددها بكلمة « ماكيافيلية » . ولكنه يصبح من العبث حينذاك تبيــان المنعطفات والمتعرجات ، المدهشة في أغلب الاحيان ، التي تصفها ، اذ ان تأثيرات جماعية وفردية كثيرة تفعل فيها فعلها .

والحقيقة هي ان الحكام الرومانيين يخضعون احياناً للاقدام والمجازفة ويستسلمون احياناً أخرى الى كل تراخ مخز . وقد يرتكبون اخطــاء جسيمة في التقدير لأنهم لم يحصلوا على نعمة العصمة في إدراك الامور قبل وقوعها من أية عناية إلهية ، وقد يخشون شيئاً تافهاً او يقلّلون من أهمية الاخطار التي يسهل اليوم ، بعد ان عرفنا ما صاروا اليه ، تبين نشأتها والظروف المؤاتية ، المهملة ، لازالتها دون كبير جهد . يتوجب عليهم توزيع امكانات عنايتهم بين مصالحهم الشخصية الكثيرة والمخطط العام لسياستهم الداخلية والخارجية والحوادث اليومية التي تعرقلها او تنهكها. ويتطورون تطوراً لاواعياً ، من جيــل الى آخر ، ولا يتوصلون ابداً الى تحقيق التضامن الكامل في جيل واحد . فهم بالاختصار رجال كسواهم ، وهم ، اذا حصرنا الكلام عن الهيئة التي تنهض بأثقل مسؤولية واطولها مدى ، جمعية مؤلفة من ٣٠٠ رجل يمتــد عملها الى عدّة قرون ، ولا يجوز إهمال ما تستلزمه هذه التحاديد من انهيار وتناقض وتردد وتقصير .

بيد ان عملهم حقيقــة واقعة ، ولن يرضى أي رجل عاقل بنسبته الى المصادفة فحسب . فيجب بالتــالي الاقرار بصفات الاداة العسكرية التي توفرت لروما ، وهي في الحقيقة صفات نادرة تحلى بها بعض القادة وبرزت في بعض العهود .

٢ ـ الشؤون العسكرية

الكوارث العسكرية

من الاعتباط ان نحقر اعداء روما . فدونما حاجة بنا العودة الى نشأتهــا الوضيعة ، يجب علينا التذكير بانها ، حتى بعد ان تجمعت لديهــا الوسائل

الكثيرة والقوية ، غالباً مـــا واجهت اعداء لا يستهان بقوتهم .

ولعل من المغالطة الظاهرة القول إن اسهل هذه الحروب الهامة عليهـــا تلك التي واجهت فيها اكثر الاعداء امجـــاداً ، اي الملكيات التي تأسست بعد فتح الاسكندر ؛ فاذا ما ابدى الجيش المقدوني القومي مقاومة تذكر ، اقله في العمليات التي سبقت معركتي «سينو سيفال» و« بيدنا »الحاسمتين ، فقد انهارت سلطة السلوقي انطيوخوس الثالث « الكبير » في مغنيزيا بعد حملة لم تكن للجوقات الرومانية سوى مسيرة طويلة انطلاقاً من شواطىء الادرياتيك حتى بلاد ليديا.وفي الواقع فان الجيوش الهلينية التي لم يكن على رأسها قادة من امثال فيلبوس الثاني او الاسكندر قد اصيبت بالجمود منذ قرن ونصف . فقد كانت تعيش على امجاد ماضيها .

بيد ان اعداء آخرين كثيرين ، بفضل نجابة احـد القادة او عناد الشعب ، قد صمدوا صموداً طويلاً امام روما وانزلوا بها هزائم مدوية كان من ضروب المعجزة احياناً ان تستعيد قواهـــا بعدها . وليست هزيمة كانا Cannes سوى اخطر هذه الهزائم بسبب فداحة الخسارة فيها ، التي تقدر ، وفقـاً لافضل ما لدينا من مصادر بـ ٧٢٠٠٠ قتيل و ١٠٠٠٠ اسير من اصل ٨٦٠٠٠ جندي اشتركوا في المعركة تقريباً . وكانت« كانا »، في اقل من سنتين انتصار هنيبعل الرابع ! واذا ما رجعنا الى تاريخ الجمهورية العسكري واستعرضناه من اوله الى آخره ، يتضح لنـــا انه يقدم لنـــا لائحة طويلة من النكبات كان بعضها مخـــازي حقيقية كما حدث في اسبانيا امام « السلتيبير » في « نومانس » ، وفي افريقيـــا امام « جوغورتا » ، وفي « اورانج » امام « السمبر » و « التوتونز » .

التكيف الدائم

اما ما يدعو الى الاعجاب ، بقدر ما يدعو اليه التصلب ، فهو المرونة وقابليـة التكيف التي يبرهن عنها هـــذا التاريخ . فمن النادر ان تبتدىء حرب بانتصارات صاعقة : قـد تكون روما غير مستعدة في الوقت اللازم ، وقد تكون تأخرت في نقل قواها الى ساحة القتال او أسندت قيادتها الى قائد ضعيف او أخذت على حين غرة بأساليب عدو او بلاد لم يسبق لها ان خبرتها خبرة كافية . ولكنها بسرعة متفاوتة ، تحسّن تنظيم مجهودها وتكتشف الرجل الكفء ، وتدخل الاصلاح على تسلحهـــا وتبتكر وتعتمد ستراتيجية او خطة جديدة : والفارتيون هم الوحيـدون الذين سدوا عليها جميع هـــذه الابواب — ولم تنجح الامبراطورية نفسها ، بعد الجمهورية ، في فتحها .

ابدى بوليب ، الواسع الاطلاع وذو الاختصاص والشغف بالفن العسكري ، الملاحظـة التالية : « تفوق الرومان على كل شعب آخر في معرفة تغيير عاداتهم واستبدالها بافضل منها ». وقد قصد بذلك الاقتباسات التي كانت في الواقع كثيرة ومتنوعة : كاقتباس الترس المحدب على استطالة عن الغاليين ، واقتباس « البيلوم » عن « السمنيين » ، وهو قطعة حديد ضامرة مثبتة في ساق من الخشب خفيفة الوزن بحيث يستطيع كل جندي ان يحمل منها اثنتين ، ومتوازنة ، على

الرغم من طولها البالغ مترين تقريباً ، بحيث يمكن القاؤها باليد على جيش الاعـــداء ، واقتباس الخنجر القصير ، الصالح للاستعمال حـــداً وشفراً ، عن الايبيريين ، واقتباس اسلحة الفرسان ، الرمح ذي الحدين المعدنيين والدرع والترس المتين عن الاغريق ، واقتباس الآلات الحربية الثقيلة عن الاغريق ايضاً وعن القرطاجيين . ولما كان الرومان يجهلون في البـدء كل شيء عن شؤون البحر ، فقد طلبوا الى تجارهم ، في اول الحرب البونيقية الاولى ، ان يمثلوا صناعة مركب كبير من مراكب الاعداء وقع في ايديهم . وقـــد استخدموا ، على غرار الجيوش القرطاجية والهلينية ، وحدات من المرتزقة والحلفاء الذين يحتفظون باسلحتهم واساليبهم القوميـة في المعركة : فرساناً نوميديين اتاحوا لشيبيون التغلب على هنيبعل ، ونبالين كريتيين وباليـاريين استخدمهم قيصر حتى في شمالي غاليا ، وفرساناً غاليين ، ثم فرساناً جرمانيين ابان انتفاضة فرسنجيتوريكس *Vercingétorix* الكبرى . لا بل انهم غامروا ، دونما افادة كبرى على كل حال ، بان احضروا الى اليونان وآسيا فيلة حرب تسلموها من قرطاجة المغلوبة على نفسها .

ولكن بوليب قد شدد ايضاً ، في البحث الشهير الذي كرسه للجيش الرومـاني ، على بعض صفاته المميزة . فامتدح بنوع خاص روح التنظيم التي كانت تتجلى في عمليتي التجنيد والتعبئة ، والحرص على ان لا يتوقف الجيش ، حتى ليلة واحدة ، دون ان يشيّد له معسكر نظامي ويحاط بخندق ومنحدر وحباك ، واليمين التي يقسمها الجنود في بدء كل حملة ، وقوة النظام التي تعززها العقوبات الصارمة بما فيهـــا القرع والموت ، حتى النصف الاول من القرن الثاني ، والمكافآت ، تيجاناً واوسمة واسلحة شرفية ، التي تبرهن للمواطنين ان حاملهـا قد اتى مأثرة من المآثر . وكم كنا نود في الحقيقة معرفة ما اذا كان كل ذلك ينسب الى الرومان ام يعود الى عـــادات مشتركة بين شعوب كثيرة من شعوب ايطاليـــا الوسطى ، ولكن رغبتنا ابعد من ان تلقى اجابة اكيدة .

بيد ان تأكدنا يزداد بصدد التحسينات التقنية التي تكفي بعض الامثلة عنها للدلالة على ان الرومان لم يقتصروا على الاقتباس من شتى الجهات . فقد استطاعوا مثلاً اكتشاف علاج مؤقت لتلافي سوء خبرتهم البحرية الذي حال دون قيامهم ببناء سفن خفيفة وسهلة القيادة على الرغم من اقتباسها عن سفن قرطاجة : فابتكروا ، لهذه الغاية ، « الغربان » ، وهي كلاليب كبيرة تؤلف جسراً ضيقاً ، وتجمد سفينة العدو بسقوطها عليهـــا وتحول المعركة البحرية ، بفعل اقتراب السفينتين الواحدة من الاخرى ، الى معركة برية . وهكذا ايضاً فانهم قد مارسوا فن حصار نظامي وثابت كثيراً ما انطوى على اجهزة هائلة للإحاطة بالمدينة المحاصرة ، وليست عمليـات حصار قرطاجة ونومانس على يد شيبيون اميليانوس وحصار « أليزيا » على يد قيصر سوى اشهر الامثلة المعروفة فقط : فالهجوم النهائي بالتالي ، حتى اذا ما بدا ضروريا ، لا يقرر الا بصورة مضمونة النتيجة على محاصرين انهكتهم المجاعة . وهكذا ، وبنوع خاص ، فانهم قـــد كيفوا وحدتهم العسكرية التقليدية ، اي الجوقة .

أداة الانتصارات الحاسمة : الجوقة في اوائل القرن الثاني

بفضل « بوليب » و « تيت – ليف » ، نحسن اليوم معرفة الجوقة في اوائل القرن الثاني . المرونة هي صفتها الاولى ؛ ويقوم النجاح الذي جعل من الجيش الروماني اول جيش في العالم ، في انه حصل على هذه المرونة دونما إضرار بالصلابة .

تبرز هذه المرونة في ضآلة مجموع افراد الجوقة ، – ٤٥٠٠ رجل في ظروف التجنيد العادية ، و ٥٣٠٠ عند الحاجة – مما يسّهل قيادتها ، في حال ان ليس هناك ما يمنع ضمّ هـذه الوحدة الاساسية الى وحدات أخرى .

وتبرز في تنوع الجوقـة الداخلي . فهي تؤلف جيشاً صغيراً قادراً على المحاربة مستقلاً عن غيره . ويمثل مشاة الهجوم فيها ، ويتراوح عددهم بين ٣٠٠٠ و ٣٨٠٠ رجل ، قوّة القتـال الاولى . ويستخدم المشاة ، المسلحون بأسلحة خفيفة والبالغ عددهم ١٢٠٠ رجل ، في المناوشات الاولية، فيحاولون زعزعة قوة العدو قبـل الاصطدام الذي يتوارون عند حصوله . وتضم الجوقة اخيراً ٣٠٠ فارس يشكل عددهم الضئيل ضعف الجوقة الوحيد .

وتبرز في تجزئة وحدة المشاة الحقيقية . اجل لا شك انها قد حاربت في البدء مؤلفة كتيبة متراصة . ولكنها توزعت الآن الى ثلاثة خطوط . وحل الرمح في أسلحة جنود الصف الثالث محل « البيلوم » ، وهؤلاء اقل عدداً من جنود الصفين الآخرين ولكنهم أكبر سناً والفضل تمريناً ويلعبون دور الاحتياط .

وتبرز في تقسيم كل من هذه الخطوط الى عشرة افواج وعشرين كتيبة . اجل قد يكون هذا التقسيم قديماً ، بيد ان المؤرخين المعاصرين يذهبون اليوم الى التأكيد ان تنظيم الافواج قـد تحدّد نهائياً ابان الحرب البونيقية الثانية . تحتل الافواج مراكزها محتفظة بمسافات معينة بين بعضها في الخط الواحد وتنتظم في الخطوط الثلاثة مؤلفة ما يشبه رقعة الشطرنج، فيدخل كل صف المعركة في الوقت اللازم ، دونما تشويش ، ويتصرف كل فوج وفقاً لمقتضيات الظروف وينتقـل لمساندة جيران يبدو عليهم الوهن او لاستثمار شجون ساحة المعركة ونقاط الضعف في جبهة العدو .

وتبرز اخيراً في الفرد نفسه الذي ينتمي الى الجوقـة . ويشدد بوليب ، في صفحة شهيرة أخرى يفسّر فيها تفوق هذه المجموعة الحسنة التوزيع على الكتيبة المقدونية الجامدة، على سهولة الحركة وعلى المبادهة المتروكتين لكل جندي . فانتصارات الجوقـة هي في الحقيقة انتصارات كل من جنودها ايضاً الذين أزاهم تعدد الحروب وتعاقب الحملات بخـبرة مباشرة شخصية او بخبرة رفاق السلاح . ولم يحقق أي جيش قديم ، في وحداته او في رجاله ، وبالقدر نفسه الذي حققه الجيش الجمهوري في القرن الثالث وأوائل القرن الثاني ، ذلك التحالف الوثيق بين الصفات المتوسطة في جيش ممتهن والصفات نفسها في جيش المواطنين المستعدين للتضحية الكبرى دفاعاً عن الوطن وحفاظاً على أمجاده . ولكن هذا التحالف ما كان ليدوم ابداً .

النواقص : الاسطول

أضف الى ذلك انه يجب الاشارة الى بعض النواقص حتى في هذا العهد المعظم .

من هذه النواقص ما لا تبرز خطورته إلا بين الحين والحين . فلا يخلو من المغالطة مثلاً ان روما قد استولت وحافظت على امبراطورية المتوسط دون ان يكون لديها اسطول حقيقي . فأوجدت هذا الاسطول، بفضل الحزم الذي تتحلى به والاستعانة خصوصاً بمدن ايطاليا الجنوبية التي أخضعتها ، حين لمست الحاجة اليه ، في حربها ضد قرطاجة مثلاً . ولكن عليها ، منذ صراعها ضد الملكيات الهلينية ، ان تبحث – وغالباً ما تجد – عن أكثر من عضد في الشرق نفسه ، لدى بعض الحلفاء كأطتال او اوفينوس البرغاموسي وكرودوس بنوع خاص . اضف الى ذلك انها لا تتعهد هذا الاسطول بعد زوال الحاجة التي فرضت بناءه . لذلك فقد تتعرض لمفاجآت مؤلمة كتلك التي دبرها لها ميتريدات بالهجوم الذي شنه في السنة ٨٨ . وكثيراً ما تتغاضى ، حتى بتعريض تموينها للخطر احياناً ، عن تعاظم عمليات جريئة تنهض بها قرصنة تشجع ظهورها الظروف الطبيعية والبشرية في حوض المتوسط الشرقي ، كلما تراخت قوى الامن في الدولة المسيطرة . ولكنها لم تستفد من أية أمثولة . فهي تعلم ان لديها وسائل المقاومة ، وهي تقاوم فعلاً ، ولكن في فترات متقطعة ، لأنها ترفض بذل جهد مستمر . فهي إنما تتكل على جيوشها قبل كل شيء آخر ، على الرغم من التأخير الذي اتصفت به بعض اعمالها العسكرية ، ومن اكتفائها ، طيلة ثمانين سنة ، بتحالفها مع مرسيليا للاتصال بممتلكاتها الاسبانية ، ومن ان سيادتها على قناة «اوترانت» قد بدت لها ، طيلة فترة اطول ايضاً، كافية لاحتلال اليونان البلقانية والسيطرة ، عن طريقها ، على الشرق البعيد . اما الاسكندر فقد كانت له اعذاره الاخرى في إهمال الناحية البحرية في ستراتيجيته وادارته الامبراطوريتين .

القيادة

ينطوي تنظيم القيادة على سيئات كثيراً ما تكون نتائجها ملموسة . ولسنا نعني هنا صغار الضباط بمن فيهم قواد المئة الذين يقودون الكتائب ويقود واحد من اثنين منهم الفوج الذي تؤلف كتيبته جزءاً منه : فكلهم مختارون بين افضل الجنود . ولكن ضمانات الخبرة المماثلة لا تتوفر في كبار الضباط . فالشبان من طبقة الاشراف يخدمون في وحدة الفرسان او في الاركان العامة ، لا في وحدة المشاة ، ومع ذلك فمن بينهم ينتقى كبار الضباط العسكريين الذين ينتخبهم الشعب او يعينهم القائد بمعدل ستة في كل جوقة . والرؤساء بنوع خاص مدينون بقيادتهم لانتخابهم قضاة .

والكلام هنا عن الرؤساء حتى في جيش واحد : فقد قضى التقليد وروح النظام السائد بان يكونوا دائماً اثنين ، كالقنصلين فيما يعنينا ، يستلمان القيادة مناوبة يوماً بعد يوم . هذه كانت الحال حتى في معركة « كانا » في السنة ٢١٦ ولم يستند الا في وقت لاحق ، وبصورة منتظمة ، الى حجة العمليات الحاصلة على جبهات متعددة في آن واحد لتلافي محاذير النظام القاضي باسناد

قيادة كل جيش الى رئيس مستقل . ومهما يكن من الامر فان هذا الرئيس ، مبدئياً ، يستبدل كل سنة . اجل ان مجلس الشيوخ يسهر ويوجه الانتخابات ويقول كلمته في توزيع القيادات و « يمدد » اكثر من سنة ولاية القاضي الذي يرضى هو عنه ، الخ . ولكن هذه التدابير ليست سوى تدابير مؤقتة . فلما كان غريباً عن المعقول ان يسند هذا المركز اكثر من مرة الى الرجل الواحد ، حتى بعد امد طويل ، اصبح من الواجب اكتشاف قنصلين جديدين ، كل سنتين ، يتحليان بما يجعلهما قائدين جيدين ، وهذه لعمري معجزة تفوق امكانات اي مجتمع من المجتمعات، حتى ولو لم يكن للعوامل الاخرى اي ضلع في تعيينهم. ولا مهرب لروما من هذا القياس ذي الحدين : فأمّا تعاقب رؤساء سريعي الزوال ، وقليلي الخبرة غالباً ، وعاجزين تماماً أحياناً ؛ واما خطر الموت الذي يتمثل ، لنظمها الجمهورية ، ببعض القادة الذين يضطرها إلحاح الظروف لأن تحلّهم مركزاً ممتازاً أو لأن تسمح لهم باحتلاله .

التجنيد وعدد الجنود الحقيقي

ليست معضلة عدد الجنود ، والتطور الذي يدخله على التجنيد بأقل خطورة من هذه الظاهرة .

كل شيء في منتهى السهولة نظرياً . فإن القانون المرتكز على ما جرت عليه عادة قديمة في تسريح الجيش أثناء فصل الامطار ، ينصّ على ان كل مواطن ، ابتداء من السابعة عشرة ، يمكن دعوته الى الخدمة للاشتراك في ستة عشر حملة اذا انتمى الى إحدى وحدات المشاة، وفي عشر حملات اذا انتمى الى احدى وحدات الفرسان : فيختار القناصل على هواهم – وترتبط كلمة « جوقة » اشتقاقاً بمفهوم الاختيار – الرجال الذين ستتألف منهم جيوشهم . أضف الى ذلك ان روما قد احتفظت لنفسها بحق طلب المجندين من جماعات الايطاليين المرتبطين بها وفاقاً لأنظمة مختلفة دون ان يتمتعوا بحقوق المواطنية الرومانية ؛ وبعد التحاقهم بالجيش ، يولّى عليهم رؤساء من الرومان ، فيحاربون الى جانب الجوقات دونما انضمام فعلي إليها . أجل هنالك نصوص تحدّد ، فيما يتعلق بعددهم ، متطلبات روما المحتملة ؛ ولكن المصلحة العامة ، في حال تعرّض ايطاليا لغزو مثلاً، تسمح لها بتجاوزها . لذلك ، فان مبدأ الخدمة العسكرية الاجبارية ينوء بثقله على كافة الرجال الأحرار في شبه الجزيرة . ففي السنة ٢٢٥ ، أي سبع سنوات قبل اندلاع الحرب البونيقية الثانية، بلغ مجموع الرجال الممكن تعبئتهم ٧٠٠٠٠٠ رجل، منهم ٢٥٠٠٠٠ مواطن روماني تقريباً .

بيد ان هذه الاعداد الضخمة نظرية ، لأن لواقع الواجبات المالية أثره كما في المدن اليونانية ، وللأسباب نفسها : فعلى الجندي ، من جهة ، أن يتحمّل نفقات سلاحه الشخصي ، أقله بتسديدها من مرتب أقرّ في عهد باكر وجعل متساوياً لجميع المشاة ؛ ويرى الاغنياء لزاماً عليهم ، من جهة ثانية ، ان يدافعوا عن ممتلكاتهم التي تعرّضها الحرب للخطر ، أو انهم يبدون مزيداً من الاندفاع ، كما يسود الاعتقاد ، في الذود عنها . ولذلك فان الفقراء لا يخدمون

إلا في الاسطول ، حين يكون هنالك اسطول ، باستثنـاء حالة واحدة ، تقرّ فيهـا التعبئة العامة التي يوجبهـا الاضطراب ؛ وقد واجه المسؤولون هذه الحالة ، دون ان يحققوها ، لآخر مرة ، في السنة ٢٢٥ ، حين بلغ الخطر الغاليّ الذروة . اما الآخرون فيقدمون ، بحسب ثروتهم، مشاة الوحدات الخفيفة ومشاة الخطوط الهجومية ، بينما يؤمن الأثرياء جنود وحدات الفرسان . ولكن لمـا كان الاثرياء يستطيعون ايضاً الخدمة في الاركان العامـة او القيام بوظائف عامة تعفيهم من التجنيد ، فان عدد الفرسان المواطنين يبقى على الدوام ناقصاً . وتقـع معظم الاعباء العسكرية ، في الواقع ، كما في اليونان الكلاسيكية أيضاً ، على الطبقة الوسطى التي ينتمي إليهـا الفلاحون الملاّكون .

ومن البديهي ان هذه الطبقة ليست معيناً لا ينضب .

في الظروف العادية ، تجمع أربع جوقات سنوياً ، أي ١٨٠٠٠ مواطن ، يُضمّ اليهـا ايطاليون أكثر عدداً بقليـل ، لا سيما في وحدات الفرسان . ولكن الحاجة قد ازدادت ابتداء من الحرب البونيقية الثانية . فبلغ عدد الجوقات ، إبان هذه الحرب ، خمساً وعشرين جوقة؛ وليس من النادر ، بعد ان وضعت الحرب أوزارها، وحتى السنة ١٦٧ حيث يؤلف نصه تيت-ليف ، آخر مستنداتنا ، ان تجمع أربعة عشر أو خمسة عشر جوقة ، غالباً مـا يتجاوز أفرادها الخمسة آلاف رجل ، بينما تزداد نسبة الايطاليين حتى تبلـغ ثلثي العدد الإجمالي . ولا يعني ذلك ان القوى التي تشترك في المعارك تتجاوز ، في ساحـة القتال ، الاعداد التي توصلت اليهـا من قبل الملكيات الهلينية في النزاعات التي قامت بينها ، حيث يبلـغ الجيش ٧٥٠٠٠ كحدّ أعلى . ولما كانت روما حائزة على النوعية فقد اعتبرت من العبث لن تتفوق عـلى خصومهـا عددياً : فليس من ريب مثلاً في ان الامبراطورية الفارسية كانت قد جمعت كتلاً تتجاوز هذه الاعداد تجاوزاً بعيداً . ولكن تعدد مشاريعها هنا وهناك وهنالك ، قد اضطرها الى أن تحارب على عدة جبهات . وليس مـا حظي بالمزيد من عناية روما هو نفسه مـا قد يغرينا ان نعتبره اليوم أعظمها أهمية . وهكذا فانهـا تبقي في اسبانيا وايطاليا جيوشاً اعظم منهـا في الشرق الاعجمي في الوقت نفسه الذي تبسط فيه سيطرتها على هذا الأخير : ولا يأتيها العضد اللازم سوى من الحلفاء الذين تتوفق اليهم محلياً ، لأن اقتصادها الكلّي في القوى أشبه بالتقتير أحياناً . ولكن ليس تحت ذلك كبير أمر : فالمجهود الاجمالي ثقيل، والخسائر ثقيلة ايضاً حتى ولو لم نستطع احصاءها .

أضف الى ذلك ، ان تحليل المعضلة الكامل لا يخضع للطرائق الحسابية لأنه ينطوي عـلى مظاهر أخرى كثيرة . واخطر هذه المظاهر هو تلك الصفة القاسية التي يلتم بهـا الواجب القاضي على الطبقة الوسطى بالاشتراك في حملات وراء البحار تدوم سنين عدّة ، دونما عودة الى البيت العائلي في فصل الامطار . وسنبيّن في مكان آخر نتائجها الاقتصادية والاجتماعية . وقد

استفاد منها الحكام للحصول على بعض النتائج العسكرية . فقد نظم احدهم ، بعد « كانا » جوقتين من ارقاء متطوعين قدمهم اسيادهم للدولة يعتقون اذا ما برهنوا عن سلوك حسن : وهذا تجديد لم يسمع به من قبل ولن يعاد اليه بعد هذه الحرب على الرغم من ان نتائجه لم تخيب الآمال . فقد أولم فيما بعد الاستعانة بمزيد من الايطاليين وحلفاء ما وراء البحر والمرتزقة . وقبل ان ينظم العهد الامبراطوري الدفـــاع عن الامبراطورية بواسطة سكان الاقاليم ، فتحت روما الجمهورية هذه الامبراطورية ، على غير يد الرومان .

اصلاحات ماريوس

ولكن هذه العلاجات لم تكن كافيـــة . وقد نقل الينا التقليد الفكاهي حوادث ذات مغزى : في اليونان ، منذ اوائل القرن الثاني ، طلب بعض افراد الجوقات تسريحهم بالحاح ، كما اثار التجنيد للحرب المقدونية الثالثة تشكيات حـــادة من اختيار الرجال انفسهم اكثر من مرة . وكانت الاغريقيات يفكرن بالجيش حين حاولن ايجـاد طبقة جديدة من الريفيين الملاكين . وعندما اخفق مجهودهن ، لم يبق امامهن سوى حل واحد. وهذا الحل هو الذي طبقه ماريوس في قنصليته الاولى في السنة ١٠٧ .

اعرض ماريوس في هذه السنة عن تعيين مجنديه بفعل سلطته وقرر قبول كافـــة المواطنين الذين يتقدمون للانخراط في الجيش دونما نظر الى ثروتهم او الى فقرهم . فصادفت هذه الطريقة لدى جميع الطبقات الاجتماعية نجاحاً منقطع النظير بحيث انها غدت القاعـــدة فيما بعد : واذا بقيت الخدمة العسكرية الاجبارية واردة في القانون ، فانها لم تطبق الا في حالات استثنائية ، في الحروب الاهليـــة بنوع خاص . ولا مكان لمغالاة في اطراء النتائج المختلفة التي اعطاهـــا هذا الاصلاح .

وقد تحققت اصلاحات تقنية ايضاً . فاصبح من الممكن رفع عدد الجوقـــات وسهل على روما الى حد بعيد تنظيم عدة جيوش في آن واحد لا سيما وانها انتهت بعد ذلك بوقت قصير الى منح حق مواطنيتها جميع الايطاليين . وفقدت الفروق في تسلح الجنود اسباب وجودهـــا فاضمحلت ولم تعد تعكس وضعهم المالي . وامن الحلفاء والمرتزقة دون غيرهم جنود فرق الفرسان وفرق المشاة الخفيفـــة ، وسيخدم جميع المواطنين منذ الآن في فرق المشاة الثقيلة حيث زال التمييز القديم بين الصفوف الثلاثة ايضاً . واصبح من الضروري اضافة شعبة داخلية جديدة الى هذه الوحدة التي رفع عدد افرادها الى ٦٠٠٠ رجل : فأحدثت السرية بجمع الافواج ثلاثة ثلاثة واصبحت قادرة، بعد ان جهزت تجهيزاً كافياً، على ان تقوم بعمل مستقل، حتى ولو عزلت عن الجوقة . فغدت جوقة ماريوس ، بعد هذا التنظيم ، جوقة قيصر نفسه ، وقد كانت في الحقيقة جوقة كراسوس في « كار » ايضاً ، لانها وجدت نفسها دونما منعة امام نبالين يمتطون صهوات الخيول : ولكن هل كان من الممكن لسابقتها ان تبدي منعة اجدى ؟

الجندي والرئيس

بيد ان التبديل الرئيسي كان اجتماعياً ترافقه انعكاسات اخلاقية وسياسية عميقة .

لم تجند الجوقات منذ ذلك الحين ، باستثناء بعض المغامرين ، الا بين الفقراء الذين يستهويهم المرتب وامل الغنيمة بنوع خاص؛ ومن حيث ان الحياة العسكرية قد اقصت عنهم الهموم المادية، فانهم قد رضوا بخدمة اكثر تواصلا خارج ايطاليا . فاصبحوا ، بعد افتراقهم عن مواطنيهم ، جنوداً محترفين ممتازين ، ولكن دون احترام للشرائع والنظام القائم ، مستعدين لان ينفذوا بانقياد اعمى كل مهمة تطلب منهم ، حتى قلب الحكم ، لا يتعرفون الا الى الرئيس الذي خدموا تحت امرته واقسموا اليمين امامه يوم انخراطهم في الجندية والذي قادهم الى النصر .

ولكن يتوجب على هذا الرئيس ، من جهة ثانية ، ان يكون قادراً على اكتساب اخلاصهم. فقد اخفق بعض الرؤساء ، كاوكولوس مثلاً ، اخفاقاً مزريا ، بسبب حرصهم الصارم على احترام النظام وبعدم عن مرؤوسيهم وتشبثهم بسلطتهم . وبرهن غيرهم فطريا عن الصفات التي تثير حماس القساة والبسطاء او عرفوا كيف يتحلون بها بعد اكتشاف سرها : الحزم عند الحاجة في تنفيذ المهام العسكرية ، مع التساهل المقصود ، والتغاضي عن الوساوس التي تحاصر الحيوان البشري بعد المعارك وخلالها ، وشجاعة القائد وطول اناته الشخصيان ، اذ يتحمل قسطه من المخاطر والمتاعب ، والانتباه الذي يعيره الاعمال الفردية والعدل في توزيع العقوبات والعفو والمكافآت ؛ وفن التفوه في الوقت المناسب بالالفاظ التي تشدد الهمة او تثير الحماس ؛ والقدرة على الجمع بين البساطة العائلية ، وحتى الالفة ، في اوقاتها ، وبين العظمة التي تفرض نفسها على الغير ؛ والسخاء والعدل في توزيع الغنائم ، والتأثير والمهارة السياسية اخيراً اللذان يحملان الحكومة ، عند تسريح الجيش ، على اقطاع الجندي ارضاً يؤمن له استثمارها شيخوخة هانئة ينصرف فيها الى تربية اولاده . اجل لم تكن روما ، حتى ذاك التاريخ ، لتجهل مثل هذا الانسان ، ولكنها عرفته على غير اكتمال ، او مثل شيبيون الذي انخرط في مجتمع ورئس جيشاً لم يبلغا كلاهما من النضج ما يتيح له فرض نفسه . اما من الآن فصاعداً فكل شيء يساعد على تفتحه .

يمثل اصلاح ماريوس من ثم حدثا عظيماً في تاريخ روما ، وفي عالم كامل عن طريقها . اوجدته ظروف الساعة الملحة ، فمهّدها هو بدوره وانضم الى اسباب اخرى ليحدد المستقبل . اعطى الجمهورية جيشاً افضل انطباقاً على حاجاتها ومواردها فاعطته هي مثلاً جديداً للرئيس كان ماريوس نفسه احد نماذجه وكان من المحتم ان يؤدي طموحه ، تساعده القوة المادية والسحر الآخذ من الجنود ، الى الكارثة او الدكتاتورية في هول الحروب الاهلية .

عدم الانطباق على المهام الاستعمارية

ان معضلة القيادة التي كانت في البدء عسكرية فقط ، اخذت بالتالي تزداد خطورة لانها اصبحت في آخر المطاف معضلة سياسية ايضاً . وليست هذه بين الضرورات التي خلقها الفتح، الضرورة الوحيدة التي جهلتها روما .

اجل لا يسعنا ان نعزو اليها عدم انجاز الفتح الذي نهضت به اقليمياً : فقد بدأت مرحلة الاضطرابات الكبرى اكثر من سنة بقليل بعد حملات وغالبا، ، وغدت مهمة الخلف انجاز العمل المتوقف . ولكن ما كان محققاً منه قد استلزم ، للمحافظة عليه ، جيشاً دائماً لم تفكر الجمهورية يوماً في تأمينه لنفسها .

كان من الواجب المفروض عليها ، على نهر الرين وفي البلقان وعلى نهر الفرات وفي افريقيا نفسها ، ان تكون في وضع يمكنها من مراقبة جيرانها الاقوياء او المزعجين على الاقل . وكان من الواجب عليها ، في الداخل ايضاً ، في اكثر من منطقة ، ان تفرض احترامها على سكان اخضعوا حديثاً ، او ما زالوا في حالة هيجان احياناً ، ويزيد في استعدادهم للثورة انهم تحت رحمة استثمار اميري واقتصادي لا يعرف حداً ولا يعرف للرحمة معنى . ولم يكن من حاجة ، على ما نقدر ، لبلوغ هذه الغاية المزدوجة ، لاحتلال شامل يستهدف عرض القوة . ولكن كان مفروضاً في الحكام ، على الاقل ، ان ينشئوا جهازاً عسكرياً ويبقوا بعض الحاميات في حصون قائمة في نقاط حساسة ، او وحدة على بعض الاهمية في قلب مجموعة اقليمية .

لم يحدث شيء من ذلك . فقد اهملت روما هذه الواجبات ، الا بصورة عرضية . وان قبضة الرجال التي وضعتها في الظروف العادية تحت تصرف حكام الولايات تمثل قوة رمزية اكثر منها واقعية ، اي العنصر البشري اللازم لموكب ابهة او السند الضروري لعمل بوليسي . ومن حيث هي تنكرت لمبدأ بذل جهد عسكري دائم ، فلم ترض بتجنيد جيش الا للقيام بتنفيذ مشروع معين ، كفتح جديد او هجوم معاكس او قمع ثورة . وحين تنتهي العملية وذيولها ، اي حين تضم الاقاليم او تعقد الصلح او تعيد الهدوء ، لا تتأخر قط في اعادة جنودها الى ايطاليا بغية تسريحهم معرضة نفسها بالتالي الى اخطر المفاجآت . ويمكن القول انها بعد سيادتها على امبراطورية واسعة الارجاء تشبثت بسلوك الطريقة التي سلكتها حين كانت مدينة صغيرة لا يقع على عاتقها سوى الدفاع عن اقليم محدود يسهل الوصول الى جميع اجزائه في وقت قصير جداً ، في حال ان الطرق الكبرى التي شرعت في انشائها او شقها – وهي نادرة ، على كل حال ، خارج ايطاليا : الطريق الاغناسية بين ديراخيوم وتسالونيك ، والطريق الدومسية بين نهر الرون وجبال البرانس (البيرينيه) – لم تلغ المسافات ولم تمنع البطء . فلم تع الواجبات الجديدة التي فرضتها على نفسها ، ولم تلق عليها اختباراتها نفسها اي درس لانها درجت ابداً على تفسيرها كامور عارضة .

ولو فرضنا جدلا انها وعت هذه الواجبات وفتحت اعينها جيداً ، لتوجب عليها بالمقابلة مزيد من المال ومزيد من الرجال . ولو اوجدت لنفسها ادارة ، لتوجب عليها ايضاً الاعراض عن اعتماد الوسائل المرتجلة لتموين جنودها لانه اذا صح ان الحرب قد تغذي الحرب فان وحدة مستقرة للاحتلال والحماية لا تستطيع العيش طويلاً باعتمادها على الغزو دون غيره . ولو وعت

واجباتها لتوجب عليها اخيراً تنظيم ادارة مركزية قادرة على فرض هيبتها على القـــادة وعلى تنسيق المساعدة المتبادلة . ولكن واحداً لم يتصور كل ذلك تصوراً اذ ذاك . فعوضـاً عن ان يكون لروما الجمهورية جيش واحد ، كان لها على التوالي جيوش لا تلبث عاجلاً او آجـــلاً ان تسرحها ، مع ما يستلزم هذا التعدد المتقطع من ارتجال وتشويش وفردية في شخص الرؤساء ، وبالتالي من مخاطر عسكرية وسياسية .

وسنرى في سياق البحث ايضاً ان روما قد امتلكت اقاليم دون ان تجعل منها امبراطورية متراصة ، فكان لهذا النقص نتائجه ايضاً . ونشأت كل هـذه الشوائب من السبب نفسه . فقـد بقيت المدينة الجمهورية مدينة في فتوحاتها ، دون ان تكيف أنظمتها وفاقاً لحاجات دولة كبيرة. وكان من المقدر لها ان تموت بسبب فتوحاتها وتترك النظام الذي سيلتقي إرثها اليه أمر تنفيذ المهمة التي تنكرت هي لها .

الفصل الثاني

المدينة وفشلها

عرف العالم القديم كثيراً من المدن الاخرى . وليس من النادر في التاريخ ان تصبح المدينة جمهورية ايضاً . غير ان الأهمية الحقيقية لهذه الظاهرة تكمن في غير مكان : في تطور أنظمتها الجمهورية ، أي الاختلال الذي أدخلته عليها اسباب تسهل معرفتها . فان المدينة الجمهورية اليونانية التي طابقت ، فوق تنوع الحالات المحسوسة ، مثالاً حضارياً معيناً ، قد عرفت الانهيار بفعل انهزامها امام الملكية المقدونية . اما نجاحات الجمهورية الرومانية ، على نقيض ذلك ، فقد خلقت الازمات التي لم تفلح في التغلب عليها .

١ ـ المدينة *LA CITÉ*

المدينة اليونانية والمدينة الرومانية

ولكن يبدو ، بعد كل اعتبار ، ان هذه المدينة كانت افضل استعداداً للتوسع من مدن أخرى كثيرة . اجل لا تسمح لنا معلوماتنا حول المدن الفينيقية والاتروسكية مثلاً باجراء مقارنة ما ، ولكن المدن اليونانية ، في العهد الكلاسيكي ، التي نعرفها معرفة أوفى ، ترتدي طابعاً لا وجود له في روما : واذا كان إيضاح الفرق امراً دقيقاً في جوهره المثالي ، فانه يبدو اساسياً في نتائجه العملية .

تنكرت المدينة اليونانية لتوسيع حدودها البشرية . وقد ذهب المواطنون الذين يؤلفونها ، احياناً ، الى اقصاء أبناء الزنى وأبناء الأمهات الاجنبيات، فلم يقبلوا برضاهم، في صفوفهم، سوى أبنائهم . اما اولئك الذين لم يمنحهم نسبهم هذا الحق ، فلم يحصل عليه منهم ، في أغلب الاحيان، سوى اشخاص معينين صدرت لمصلحتهم قرارات خاصة . ويقفل باب هذه المواطنية حتى في وجه اليونانيين الذين تربطهم بهم وحدة يطيب لهم الاعتراف بها أثناء الاعياد اليونانية الجامعة ، كأنهم يحرصون ، على ما يظهر ، على إبقاء تفاوتهم العنصرية وعلى حصر التمتع بالحقوق السياسية في إطار ذوي هذه الحقوق من الشرعيين .

لا يسعنا التأكيد بأن روما لم تشعر يوماً بمثل هذه الأثرة . بيد ان تصرفها يبرهن ان هذه

الاثرة لم تسيطر فيها قط سيطرة مستمرة . وفيا يلي ناحية قانونية تدل ان هنالك اكثر من فارق بسيط . ففي اليونان ـ وفي اثينا بالتدقيق ، ولكن هذه المدينة مثال الديموقراطيات اليونانية ـ يخضع عبد المواطن الذي يعتقه سيّده لنظام هو اقرب الى نظام الاجنبي المقيم ، ولا يستطيع حفدته ان يتفلتوا منه إلا في حالة استفادتهم من تدبير فردي . اما في روما فيستفيد العبد نفسه من نظام المواطن مع بعض قيود تفرض عليه شخصياً ولا تلبث ان تزول عن حفدته ؛ ولم يكن هذا الامتياز نظرياً لأن عدد المعتقين قد تزايد باطراد . فلا مجال من ثم للدهشة امام السخاء ، المنقطع النظير في عالم المدن القديم ، وقد ميز عالم الامبراطوريات نفسه بين الرعايا ، حتى ولو جهل المواطن الذي حمل روما على منح حق مواطنيتها كاملاً ، دون ربطه بأي واجب ودون الحصول منه على أية منفعة ، لرجال احرار أجانب : ولعلّ اعداءها بالأمس ، اذا كان خضوعهم على شيء من الصدق ، يحصلون على هـذا الحق قبل حلفائها المتمسكين بطابعهم الخاص ، اذ ان المخضعين يستطيعون بواسطته تحسين مصيرهم .

بدأت المجموعة البشرية الاولى هذا التوسع منذ عهد باكر جداً . فمنذ القرن الرابع قبل المسيح ظهرت أسماء عائلات من الاتروسك والفولسك والكبانيين في لوائح ارفع القضاة الرومانيين مرتبة . ولم تقص الطبقات الاجتماعية الدنيا : فان إيجاد القبائل الجديدة ، انطلاقاً من توسع الاقليم الروماني ، يرفع عدد القبائل الى خمس وثلاثين ، بينها إحدى وثلاثون قبيلة ريفية ، ويضمّهم الى المدينة . لا ريب في ان التجنس القانوني الكامل تفيد منه الارستوقراطيات والبورجوازيات الثانية افادة أسرع . ولا ريب ايضاً في بروز مرحلة توقف ابتداء من منتصف القرن الثالث ، وهو التاريخ الذي يحدّد التقليد فيه بـ ٣٠٠٠٠٠ تقريباً عدد المواطنين البالغين ١٧ سنة على الاقل ، في حال انه يرفعه في اواخر القرن الثاني الى ٤٠٠٠٠٠ فقط بعد إنزاله الى اقل من ١٥٠٠٠٠ . ولكن « الحرب الاجتماعية » ، في اوائل القرن الاول ، تقود روما الى فتح ابوابها لجميع الايطاليين : فأصبح عدد مواطنيها ٩١٠٠٠٠ في السنة ٧٠ . وازداد التوسع بعد ذلك ازدياداً مطرداً سريعاً ، حتى في مصلحة سكان الاقاليم ، اما بفعل الانعامات المتفرقة التي لجأ اليها القادة في بلدان هدّأوها ونظموها ، كما فعل بومبيوس منذ السنة ٧٢ في قلب البرانس (البيرينيه)وكرر فعله في الشرق في السنوات ٦٧ ـ ٦٢ ، واما بفعل الانعامات الشاملة التي استصدر قيصر قراراً بها في السنة ٤٩ لجموع « غاليا »الواقعة وراء جبال الالب .

هل يتمّ ذلك عن تدبير اناني ام عن سخاء؟ لا شك في ان روما تخضع لما ترى فيه مصلحتها. فهي تريد بذلك مواردها البشرية لتجنيد جوقاتها وتأسيس مستعمراتها : في اواخر القرن الثالث استشهد احد الملوك المقدونيين بها وبالفائدة التي تجنيها من أساليبها كي يطلب الى إحدى المدن التسالية استقبال مواطنين جدد. وهي تدرك ايضاً انهـا تقلل بعملها هذا من مرارة الشكاوى التي قـد تدفع الى الثورات ، ويثبت اخلاص سواد الايطاليين الاعظم في أسوأ ساعات الحرب ضد هنيبعل ، انها لا تتعامل دائماً مع ناكري الجميل . وليس من شك ايضاً في انها تستوحي ،

ومنذ عهد مبكر ، نظرة أكثر شمولاً منها في المدينة اليونانية ، اذ انها تزيل الحدود البشرية التي علقت المدينة اليونانية على الاحتفاظ بها أهمية كبرى . وهي فخورة باسمهـا ، وليس حق مواطنيتها باللقب الباطل ؛ ولكنها تتحاشى ان تجعل منه احتكاراً محصوراً في طبقة وراثيـة ضيقة . وقد اعتمدت ، منذ عهد مبكر جداً ، ودون ان يضطرهـا الى ذلك شيء ، سياسة لم تتراءَ اثينا الديموقراطية امكان اعتمادها إلا ساعة انهيار امبراطوريتها . وينطوي مجرد هـذا التجديد على أهميـة عظيمة : فللمرة الاولى في التاريخ يرفع المتصرون المغلوبين الى مستواهم ويدخلونهم في شراكتهم . وكم يؤثر في النفس مدى تطبيق روما لهذا التجديد الذي أخذ يتسع شيئاً فشيئاً حتى شمل عالماً بأكمله .

غير ان روما لا تسير قدماً في التجديد . فقد تنكرت لمثـال المدينة المحصورة كما نادى به افلاطون وارسطو وأبقت على نظم أصبح من السخرية تطبيقها على توسعها البشري والاقليمي . وقد سبق لارسطو ان أكـد انه « لا يبقى هنالك من مدينة اذا بلغ مواطنوها الـ ١٠٠ ٠٠٠ » . بيد ان روما قد تجاوزت هذا العدد تجاوزاً كبيراً وبقيت ، على الرغم من ذلك ، منظمة كما لو كان مواطنوها ١٠ ٠٠٠ او ٢٠ ٠٠٠ . وغني عن القول ان نظمها قد تطورت ، اذ لا شيء يبقى جامداً طيلة خمسة قرون . ولكن تطورها زاد من خطورة المعاضل بدلاً من ان يحلّها .

الاقليم والتقسيمات القانونية

ان تتبع مراحل هـذا التطور يتجاوز امكانات بحثنا . فمع اسفنا للتضحيات الضرورية ، نكتفي بالنظر الى الدولة الرومانية في آخر القرن الثالث والنصف الاول من القرن الثاني . كان اقليمها اذ ذاك منبسطاً جداً .

فهناك في الدرجة الاولى مدينة روما نفسها . ان الارض القائمة داخل اطار مكرس وفاقاً للطقوس لتكوّن المدينة بالذات . هنا يجب تنفيذ كافة الاعمال الهامة في الحياة الدينية والحياة السياسية . ولا مكان في هذه الاعمال لفكرة القوة : فلا وجود اذن للسلطة العسكرية في هذا الاطار؛ ويتوجب عـلى مرافقي القضاة ، حين دخولهم اليـه ، ان ينزعوا فؤوسهم من حزمة القضبان ؛ ولا يجوز لاحد ، باستثناء الاحتفال بموكب النصر ، ان يظهر فيه باسلحته او ببزته الحربية . وبديهي من جهة ثانية ان المساكن مالبثت مع الزمن ان تجاوزت هذا الاطار ، فكان ان بعض الانظمة ، المطبقة فيـه فقط ، — بصدد حقوق الضباط ، مثلاً — قد اصبحت تطبق في دائرة اوسع .

ولكن روما هي « المدينة » ايضاً كما طاب لمواطنيها حينئذ وكما سيطيب لهم اكثر فاكثر ان يدعوها : والمقصود بذلك المدينة الكبرى والاقوى من كل مدينة سواها ، التي يشع مجدها وسلطتها بعيداً .

بين بحرين ، وباستثناء بعض النواحي الصغرى ، يؤلف اقليم المدينة نفسهـا ، الذي يكون فيه السكان الاحرار مواطنين عادة ، معيناً كبيراً يبلغ ضلعه ٢٠٠ كيلومتر تقريباً : وهو لا يشمل سوى منطقة صغيرة جداً من الاتروسك، بحيث ان زاويته الغربية لا تبعد عن مصب نهر

التيبر الا مسافة قليلة . ويبلغ مجموع مساحة هذا المين ٠٠٠ ٢٥ كيلومتر مربع ، روما هي المدينة الوحيدة فيه ، وبالتالي المركز الوحيد لكل حياة رسمية . ولا تحتل المجموعات السكنية الاخرى سوى مرتبة القرى ، وتحمل اسم « البلديات » او « المستعمرات » احياناً حين توطن روما فيها رجالاً تقطعهم بعض الاراضي . ولهذه المجموعات انظمتها المحلية ، ولكن استقلالها الداخلي يبقى محدوداً جداً بفعل خضوعها لاوامر ورقابة الحكومة المركزية .

لروما « حلفاؤها » ايضاً ، وتنطبق هذه التسمية الرسمية على مـا تبقى من شبه الجزيرة الايطالية بنوع خاص . ولكن بعض المدن الايطالية تؤلف « الحلفاء ذوي الاسم اللاتيني » ، وليس لهـذا التعبير مدلول جغرافي بل قانوني فقط . فالمقصود بهذه المدن تلك التي يتمتع مواطنوها بحق شخصي شبيه بحق المواطنين الرومانيين . وان هذا النظـام الذي ابتكر في الاساس لمدن الحلف اللاتيني المنضمة الى الاقليم الرومـاني منذ عهد قديم ، قدطبق على مدن اخرى بعيدة وعلى « المستعمرات اللاتينية » المؤسسة على صورة « المستعمرات الرومـانية » ولكن لمنفعة غير المواطنين . اما « الحلفاء » دون تحديد فقد عقدت معهم روما معاهـدات تنطوي بنودها على تنوع كبير : تخلت على العموم عن كل حرية في نطاق سياستها الخارجية . ولكن جميع هذه التمييزات ، في الحياة العملية ، تفقد الكثير من اهميتها . وتدرك روما انها على جانب من القوة تستطيع معه ان تتخطى الحدود التي يضعها العرف وحتى النصوص امام سلطتها : وليس من رادع ضميري يحول دون تصرف حكامها تصرف الاسياد ، قولاوفعلا ، في علاقاتهم مع « الحلفاء »،لا فرق اذا كان هؤلاء « ذوي اسم لاتيني » ام لا .

ماذا نقول بالتـالي عن الولايات ، غالبا ما وراء الالب ، صقليا ، سردينيا ، كورسكا ، اسبانيا ؟ كل شيء فيها ، سكان وممتلكات ، ملك لروما بفعل الحق الذي يعطيه النصر : ويعود لها وحدها أمر تعديل « قانون الولاية » . واذا ما بقيت ، داخل اقليم الولاية او في جواره ، مدن او شعوب تدين بلقب « الحلفاء » بسبب سلوكها ابّان الفتح ، فان روما تميـل الى عدم الاكتراث ، شأنها في ايطاليا ، بالمعاهدات التي أحسنت بها على هذه المدن وهذه الشعوب .

فهنالك اذن ، منذ هذا العهد ، أقاليم واسعة الأرجاء ومصائر وحياة ملايين عدّة من البشر تتصرف بها الحكومة الرومانية .

جمهورية ذات دستور « مختلط »

اننا لحسن الحظ نعرف هـذه الحكومة معرفة حسنة في تنظيمها وسيرها على السواء . فروما جمهورية منذ آخر القرن السادس، وهو التاريخ الذي يعينه التقليد لنفي تاركوينوس الثاني ، ويحدّد فيه انهيار الملكية وتحرير السيادة الاتروسكية . وقـد قضت بعض الموجبات الدينية بالابقاء على « ملك الضحايا » لا يستطيع ان يمارس أية وظيفة عامة أخرى . وفي حال شغور مراكز القضاء العليا ، يلجأ احياناً الى « ملك مؤقت » لا تتجاوز مدّة سلطته القصوى خمسة ايام ، ويخلفه ملك مؤقت آخر اذا

استمر الشغور مدة اطول . فقد مقتت روما لقب الملك في مفهومه العادي ، وسيهلك قيصر بخناجر المتآمرين لأن نفسه قد سوّلت له ان يحمله .

ولكن هنالك أكثر من مثال للجمهورية. وترتدي الجمهورية الرومانية نفسها أكثر من شكل. فقد بدا تنظيمها للاغريق الذين حاولوا اذ ذاك معرفتها معرفة جيدة كصورة الدستور المختلط الذي سعى واضعو النظريات عندهم ، منذ زمن بعيد ، لتحديد مثله الاعلى : دستور يستفيد في آن واحد من حسنات الملكية والارستوقراطية والديموقراطية ، لأنه يقتبس بعض العناصر عن كل من هذه الانظمة ويعدّل الواحد بالآخر فيتجنب بذلك تجاوزاتها وإفسادها . وبوليب هو أشهر هؤلاء الاغريق وأكثرهم إعجاباً ، وقد وصلت الينا نبذ هامة من البحث الذي كرسه ، في اواسط القرن الثاني ، للأنظمة الرومانية ، تكوّن الاساس الذي لا غنى عنه للدرس الذي قد يحاول هذا او ذاك القيام به اليوم . ولكن الواجب يقضي في الحقيقة تصحيح استنتاجاته : فاذا اعتبر بوليب نفسه ان التوازن في طريق الانهيار ، فانه لا يرى او يتظاهر بأنه لا يرى ان التوازن الذي يغالي في اطرائه ليس في الواقع إلا ظاهراً .

١ ـ الظاهر الملكي
مناصب القضاة

منصب القاضي ، «السلطان» والدولة

يرى بوليب الملكية في القنصلية . والافضل ان يقال بمعنى اوسع ، انه يراها في مفهوم منصب القاضي . نعم ان الدكتاتورية منصب قضاء استثنائي ، فانها تنطوي على طابع اكثر ملكيــــة منه في القنصلية نفسها ، وليس القضاء ، اقله في بعض مظاهره ، ببعيد عن هذه الحقيقة ايضاً . ويستلزم التمييز بين مناصب القضاة العليا مقياساً لهذه الغاية . فما هو هذا المقياس ؟ هل هو « السلطان » *Imperium* ام السدة العاجية ، أم اهمية الوظائف الدينية ؟ ان لكل هذه المقاييس اهميتها . ولكن اعتماد كل منها ينتهي الى اختلاف في التصنيف : وقد تردد الرومان انفسهم معتمدين هذا المقياس تارة وذاك تارة اخرى . وخليق بنا ان نستغني عن هذا التوزيع ونقتصر على الفكرة العامة . فالقنصلية في الحقيقة هي التي تعطينا افضل مثل عنها لانها خير حافظ على وحدتهـــا الاولى ، اذ انها حلت محل القضاء بظهورها بعده . ولكن مناصب قضاة اخرى مختلفة ، وان احدثت دون منطق ، بحسب الحاجـــات او الظروف ، تعكس ايضاً ، في بعض الاحيان ، المثال الاول .

ومما يزيد في اهمية هذه الفكرة انها مبتكرة . ولا يوجب القول بذلك ، على كل حال ، ان يعود الفضل في احداثها الى روما : فان معلوماتنا الاولية حول المدن الاتروسكية والايطالية لا تسمح لنا بنفي الاقتباس عن إرث جماعي . اما الواقع الذي يجب التشديد عليه ، فهو انه ليس ما يوازي ذلك عند الاغريق .

• تشتق كلمة *Magistratus* ، التي تطلق في آن واحد على الوظيفة والقائم بهـــا ، من كلمة

Magister « المعلم ». ثم ان *Magis* تعني « اكثر » ؛ لذلك فالقاضي هو « اكثر » من مواطن. فهو، من حيث تعريفه، ليس بخادم الجماعة، او منفذ لقراراتها او خاضع لرقابتها واوامرها أو قابل العزل بإرادتها : هذا هو القاضي في الديموقراطيات اليونانية، أو بالأحرى ما يضطرنا فقر المفردات التاريخية الى تسميته بهذا الاسم الذي احتفظت اللغة الفرنسية، مع ذلك، باطلاقه على القاضي (*Juge*) ببعض مفهومه اللاتيني. واذا ما عين القاضي الروماني وفاقاً للأنظمة، يتسلم بالوقت نفسه، بمعزل عن الجماعة، وفوق الجماعة، سلطاناً مستقلاً، يجعل منه تجسيداً للدولة، وممثلاً ومستعملاً لسلطتها. سلطان وسلطة : وهنا ايضاً يردّ التضايق الى غموض المفردات العصرية، وعدم انطباقها على الوقائع التي ليست مجرّد فوارق، على الرغم من مرتكزها المثالي. كان الرومان يتكلمون عن الـ بوتستاس *Potestas* التي لهذا المنصب أو ذاك، فنترجم نحن *Potestas* « بقوّة »، في حال ان ما كان يقصد بها هو إمكانات العمل الخاصة بمنصب ما، بحيث يمكن تطبيق هذا المفهوم على الأنظمة اليونانية. ولكنهم كانوا يميزونها نظرياً عن « السلطان »، وهو مفهوم اوسع وأرفع، وخاصية لمناصب قضاء عدّة والدكتاتورية، والقنصلية والقضاء : فكان يعني، في حال المحافظة على وحدته، السلطة العليا في الدولة، وحق القيادة في الحياة المدنية (« في البيت ») والحياة العسكرية. وهذا بالضبط ما جهله الاغريق.

أمام هذا الخلاف الاساسي، بين الاغريق والرومان، يستهوينا كثيراً، ان نربطه بالخلاف الذي بدا لنا سابقاً. فعلى نقيض روما التي تمنح حق مواطنيتها بسخاء، تضن المدن اليونانية به، وليس لديها، عوضاً عن القضاة، سوى موظفين فحسب : ولا شك في أن هذين التناقضين يمكسان، على مستويين مختلفين، تناقضاً واحداً أعظم عمقاً. فالمدينة في نظر الاغريق هي قبل كل شيء، في جوهرها، جمهور المواطنين : جمهور له فرديته، وطّدت وحدته الوراثة الطبيعية والاتحاد الروحي، الذي تتيح هذه الوراثة تفتحه، وبالتالي جمهور معادٍ لانضمام عناصر أجنبية، يمثل في نظره تنازلاً وإفساداً يفقده مزايا أصله، واخيراً، جمهور ذو سيادة في وحدته المحكمة الإقفال يجهل، باستثناء الآلهة الذين يحمونه، كل ما هو سواه. أما الأساس الروحي للمدينة الرومانية فغير ذلك. فالمواطنون يقرون بأن لروما وجودها بدونهم وبأنها، اذا ما تجسّدت في الكائن الجماعي الذي يؤلّفونه عندما يجتمعون، تتجسد أيضاً، في بعض الرجال الذين ينحنون بعض الضمانات. وحين يتكلم هؤلاء الرجال ويعملون باسم المدينة، يمارسون حيال المواطنين سلطة ينحنون أمامها. فمن الطبيعي، في مثل هذه الظروف، أن يشعر جمهور المواطنين، وهو أقل تفاخراً بسيادة لا يحتكرها، بأقل كراهية لانضمام الغرباء اليه. ولكن الديموقراطية الرومانية، على كل حال، لا تتمتع بملء حريتها لكي تتفتح، إذ انه يتوجب عليها، أقله نظرياً، وعملياً ايضاً في غالب الأحيان، أن تحسب حساباً لسلطات اخرى.

الرواسب الملكية

تمثل مناصب القضاء إحدى هـذه السلطات ، وليس من شك ، باستثناء المناصب الخاصة « بعامة الشعب » ، في ان اصولها ملكية . وان في بعضها استمراراً للملكية في كالها تقريباً ، لا سيا حين تمارس قيادة عسكرية . ولم ترث مناصب أخرى عن الملكية سوى قسط محدود من خاصّياتها وسلطتها . بيد انها كلها ، باستثناء المنصب المحصور دوره في التنفيذ والادارة المالية ، تتمتع بسلطة مستقلة لا يفوقها ، في حال المنافسة ، إلا سلطة منصب أرفع . ويكفي ان نجمع بعض الخطوط ، باستعارتها خصوصاً من المناصب المنعم عليها بالسلطان ، لإظهار شأن هذه الرواسب الملكية .

ان القاضي الروماني ، وهو الوسيط الطبيعي بين المدينة والآلهة ، يتولى تقديم القرابين العامة ، ويعرب عن التمنيات التي تلزم روما ، ويدشن المعابد الجديدة ، وينظم الاعياد ، ويشرف على الاحتفال بها . وعليه ، وله وحده ايضاً ، قبل أي عمل يقوم به باسم المدينة ، ان « يستشير الطالع » ، أي ان يحاول بطرق مختلفة ، لا سيا بملاحظة طيران الطيور ، معرفة ما اذا كان الآلهة عاطفين على المشروع .

والقاضي هو مطلق السلطة كقائد جيش . يتمتع وحده ، في روما وفي الحياة المدنية ، بحق دعوة الشعب ومجلس الشيوخ اللذين لا يستطيعان بدونه أن يجتمعا أو ان يدرسا قضية لا يطيب له عرضها عليهما . يوزع العدل وفاقاً لنظم وقواعد يحددها هو نفسه ، شريطة ان يعلن عنها . ينشر القرارات . يفرض أقسى العقوبات ، وقد درج على ذلك زمناً طويلاً ، على الذين يخرجون على أوامره العامة والخاصة . لا يمكن ان يعزل أو يحمل على التنازل او يلاحق عدلياً طيلة مدة ولايته .

ان في مثل هذه السلطة ما يبرر الاحترام اللائق به والشارات الخارجية التي تلفت الانظار إليه . يرتدي الحلّة المحشّاة باطار من الارجوان ويستبدله في الجندية بمعطف قائد الحرب، وهو من الارجوان الخالص. يجلس في الاحتفالات العامة ، بينا يقف المواطنون أمامه ، ومن حقه أن يجلس ايضاً على السّدة العاجية السهلة الثني . يتقدمه في تنقلاته جنود يحملون حزماً من القضبان تتوسطها فأس ، وترمز هذه وتلك الى قدرته على الإكراه ، أي على القسر والعقاب .

التقييدات الواقعية

ولكن هذا المنصب المثالي لا وجود له في الواقع ، حيث يجزئه ويحد منه عدد من الاعراف والمبادىء الدستورية .

فهنالك، في الدرجة الاولى، مناصب قضاء عدة ، ويمتلك أحدها، منصب المحامي عن حقوق الشعب ، أسلحة كافية لشلّ كافة المناصب الأخرى . وهنالك أخيراً اكثر من قاض أصيل لكل من هذه المناصب . ولم ينج من مبدأ هذا التعدد الشامل سوى الدكتاتورية ؛ ولكن مدّتها لا يمكن ان تتجاوز ستة أشهر .

ولا تدوم المناصب الاخرى طويلاً ايضاً، من جهة ثانية ، على الرغم من تعدد شاغليها

الأصيلين . وهي تدفع الى الشك والتنافس بفعل مـا هي عليه ، وما تخلقه من آمال : من هنا كان الحرص عـلى ان لا يستمر فيها أحد زمناً طويلاً . فاذا حق لمراقبي الإحصاء والأخلاق العامة أن لا يستقيلوا إلا بعد سنة ونصف ، فان القضاة الآخرين يتنازلون كلهم ، بعـد مضي سنة ، عن مراكزهم لخلفائهم . أضف الى ذلك ان الاحتياطـات تتخذ للحيلولة دون تجديد انتخابهم أو إعادة انتخابهم في موعد قريب : فبينا استطاع بريكليس ، بطريقة شرعية بدّاً ، ان ينتخب قائداً في أثينا طيلة خمسة عشر سنة متواصلة ، فرض في رومـا ، منذ اواخر القرن الرابع ، فاصل عشر سنوات لإعادة الانتخاب القنصلية ، الوحيدة بين المناصب التي قد يبدو دوام التربّع فيها مغرياً ، الى أن ارتأى الاخوان غراكوس وساتورنينوس ان منصب المحامـاة عن حقوق الشعب قد يكون مغرياً ايضاً . ويحول قانون صادر في أواسط القرن الثاني دون قنصلية ثانية ، ولن يجيزها مجدداً سوى « سيلاّ » بإعادة فرض فاصل السنوات العشر . واذا ما شاب هذا التشريع المتقلب ، عليـا ، بعض السيئات ، فانه يوحي مـع ذلك بالروح التي يستلهمها النظام .

ومن المهم ايضاً تبيان المدى الحقيقي لتعدد الشاغلين . فعـلى نقيض المدن اليونانية ، حيث يعقد القضاة الاجتماعات ، عادة، ويتخذون مقرراتهم بالأكثرية ، نرى ان احترام روما السلطة المستقلة التي ينعم بهـا كل منهم ، أعظم من أن تنزع عن اعمالهم الطابع الفردي ، ولكن هذا الاستقلال الخدّاع يحدّ من حريتهم في العمل ولا يسهم قط في زيادتها . فهنالك حق النقض الذي لا يعود فقط للقاضي الأعلى بالنسبة لقرار مَن هو أدنى منه ، بل لقضاة متساوين بحيث يكفي تشبث الواحد منهم فقط لإبطال ما يقرّ عليه رأي عدد من زملائه . وليس للقاضي الفردي في الحقيقة سلطة اخرى ممتنعة سوى هذا النقض فحسب .

فهل السلطة القضائية وحق اصدار البراءات أعظم استقلالاً ؟ ولكن القاضي مرغم على احترام القوانين ، واذا ما جعلته وظيفته في مأمن من العزل ورفع الدعوى عليه ، فان هذه الحصانة تزول حين يصبح مواطناً عادياً : فهو معرّض إذ ذاك ، دون أن يتوجب عليه تأدية الحسابات كما في أثينا ، لأن تستهدفه دعاوى خطيرة ذات مفعول رجعي ، لأن المدّعين الجسورين كثيرون . وعليه ايضاً ، ان يحسب للعرف والرأي العام حسابهما : فبينا يتمتع القاضي « المدني » بحق نظري يبيح له ، بنشر بيانه حين تسلّمه العمـل ، ان يقلب ، رأساً على عقب ، القوانين والقواعد المرعية في الدعاوى التي سيبتّ بها ، فانه لا يحدث شيئاً الا بحكة ويقتصر عمليـاً ، في اكثر الأحيان ، على اعادة بيان سلفه . ولا يستطيع القاضي بنوع خاص الاستغناء عن العمـل برأي مجلس الشيوخ الذي تفوق سلطته المعنوية والعملية سلطة القاضي الى حد بعيد كما سنرى ذلك في سياق البحث .

وما القول عن حق القسر ؟ يقابله حق العودة الى الشعب . ان هذا الحق الاخير لقديم حقاً ،

ويسبق التقليد تاريخ الاعتراف به بارجاعه الى عهد الملكية . وهو يوحي المزيد من الاعتزاز الى الرومان الذين يرون فيه « سور » و « حصن » حريتهم الفردية ، وللمقارنة بينه وبين قانون *Habeas corpus* البريطاني ، على هذا الصعيد ، ما يبررها كل التبرير . فهو يفتح في الواقع ، امام كل مواطن روماني ، امكان العودة الى جمعية الشعب اذا ما حكم عليه القاضي بعقوبة جسدية : فلا يبقى امام القاضي والحالة هذه سوى فرض الغرامة المالية ضمن حدود معينة . اجل لم يكن لهذه الحماية من وجود في البدء سوى على ارض الاقليم الروماني . ولكنها تمتد رويداً رويدا حتى تشمل ايطاليا والاقاليم الاخرى ؛ لا بل ان بعض القوانين جعلتها تشمل الجيوش في اوائل القرن الثاني .

لا شك في ان بعض القضاة ، لا سيما في ظروف معينة ، تصرفوا بحرية حيال هذه الاوامر : ويكفي لذلك ان نذكّر باعتراض بوبليوس غافيوس المؤثر — *Civis romanus sum* ، « انا مواطن روماني » — اثناء ضربه بالعصي وموته بعقوبة الصليب المخزية الخاصة بالعبيد ، تنفيذاً لامر « فيريس » قاضي صقليا . وفي مستنداتنا امثلة اخرى كثيرة ، دون هذا المثل شهرة لانه اعوزها فن شيشرون وحمّياه لابرازها ، ولكنها ليست دونه تعبيراً . وقد اصدر القنصل شيشرون نفسه — محتميا في الحقيقة برأي ابداه مجلس الشيوخ — قراراً بخنق شركاء كاتيلينا في المؤامرة ، في سجنهم . وأي نظام يذهب في احترام شرعيته نفسها الى حد الامتناع عن الاعتقاد بان « السلامة العامة هي القانون الاخير » ؟ واذا لم يجب فيريس على خطاب شيشرون حول العقوبات ، الذي لم يلق قط على كل حال ، فقد استطاع احد المؤرخين اخيراً ان يقدم لتبرئته اكثر من حجة لها وزنها .

بديهي ان الجيوش هي التي حصلت فيها اكثر واخطر التجاوزات على القوانين التي تحمي « ظهر » وحياة المواطنين من تعسف القضاة : فقد امر « كراسوس » و « قيصر » بالاقتراع على تعيين واعدام رجل من اصل كل عشرة رجال بين الفارين او العصاة . اجل ان للنظام العسكري موجباته التي لا يستطيع اكثر الناس تساهلاً ان ينكرها — ولم يشتهر الكثير من قادة الرومان ، لا سيا العظام والمجيدون بينهم ، بفعل حنو مصطنع غريب عن التقاليد الوطنية — ولكن ما لا شك فيه ، اذا ما وضعنا هذه الضرورات جانباً ، ان سلطة القاضي وسلوكه الملكيين هما بلا مراء ، من حيث القانون والواقع ، اكثر بروزاً خارج روما منهما داخل روما والاقليم الروماني بالذات . فهو وحده في الخارج لا زميل الى جانبه يقف في وجهه : فحين يجتمع جيشان برأسهما قاضيان متساويان ، القنصلان مثلاً ، للقيام بعمل مشترك ، يتولى القيادة كل من الرئيسين يوماً واحداً بالمناوبة . ثم ان بعده يخفف من الوصاية التي يستطيع مجلس الشيوخ ممارستها حياله . وهو ، اخيراً ، يمثل روما ويتصرف بالقوة المادية التي امتّنه عليها ويتعاظم بالقوة المعنوية التي تتجسد في شخصه : فلا يكون رجلاً اذا ما تهرب على الدوام من النزعة الى اساءة استعمالها .

وقد اعترف الرومان انفسهم بان الحاكم ، اي القاضي ، ملك في اقليمه : وسنرى ان ذلك لم يعد بالخير لا على الاقاليم ولا على روما .

مناصب القضاء

ليس من الضروري لعمري ، بعد هذه النظرة العامة ، ان نستعرض بالتفصيل مناصب القضاء المختلفة .

الدكتاتور قاض استثنائي يختاره ويعينه احد القناصل ، بناء على دعوة مجلس الشيوخ في الواقع . ومن حيث انه لا يخضع لأية رقابة او نقض ، فان له سلطة مطلقة على القضاة والمواطنين على السواء . فيتضح من ثم ان أمر تعيينه انما يتقرر لمواجهة الاخطار القصوى ، كتهديد أجنبي مداهم او فتنة خطيرة . ولكن آخر دكتاتور من هذا النوع قد عين في السنة ٢١٦ ، غداة معركة «كانا» وقد عيّن البعض منهم بعد ذلك ، وكلّفوا القيام ، في غياب القاضي الاصيل ، بطقس ديني او سياسي ؛ ولكن ذلك لا يخرج عن مجرد حيلة في الاجراءات الرسمية . ثم انقطعوا نهائياً عن اللجوء الى هذا المنصب . اما دكتاتورية « سيلا » و « قيصر » فليس ما يجمع بينها وبين الدكتاتورية الرسمية القديمة سوى الاسم فقط : فهي تصديق شرعي لاستبداد أقيم بقوة السلاح .

وتتوج وظيفة مراقب الاحصاء والاخلاق العامة المناصب التي يتألب فيها كبار رجال السياسة مقاماً ، ولكنها لا تستلزم امتياز « السلطان » . وقد درجت العادة حتى اوائل القرن الاول ، تاريخ انتشار الفوضى ، على انتخاب مراقبين اثنين كل خمس سنوات . وتنطوي مهمتها ، التي تنتهي باستعراض عام يرافقه احتفال يشتمل على ذبيحة كبرى وتطهير ونذور ، على تنظيم الشعب في سبيل حاجات المدينة العسكرية بنوع خاص . فيقومان ، تحقيقاً لهذه الغاية باحصاء الاشخاص والممتلكات؛ ويوزعان المواطنين طبقات ووحدات تضم كل منها مائة شخص ويضمان بنوع خاص لائحة بالشيوخ ولائحة بالفرسان يستطيعان ان يقصيا عنها اولئك الذين يبدو لهما سلوكهم ، حتى الخاص ، موضع انتقاد وشبهة . ويحدّدان ، لمدة خمس سنوات ، قيمة الضريبة ويلزّمان الواردات والنفقات العامة .

ولكن ما قيل عن منصب القضاء بصورة عامة ينطبق بنوع خاص على القنصلية ، وريثة الملكية الزائلة . فالقنصلان اللذان ينتخبان لسنة واحدة يطلق عليها اسماهما ، يمنحان ملء « السلطان » أي «سلطان البيت» و « سلطان الجندية » . لا ينقطعان عملياً الى الشؤون المدنية ، حتى خلال القرن الثاني ، إلا في فصل الامطار ويقضيان ما تبقى من السنة في احد الاقاليم على رأس جيش من الجيوش . بيد ان هذا الحل الفاسد ، الذي جاز اعتماده حين كانت الحروب تدور على مقربة من روما ، ينطوي اذ ذاك على مساوىء خطيرة . وسيقتضي مع ذلك انتظار « سيلا » في اوائل القرن الاول لاعتماد حلّ آخر كان لا يزال مطبقاً في اواخر الجمهورية . فالقناصل منذ ذاك التاريخ يبقون في روما طيلة سنة ولايتهم ويتولون فيها الحكم المدني فقط . ثم

كلّفوا ادارة شؤون احـــد الاقاليم باسم « بروقنصل » الذي اطلق من قبل عليهم حين كانوا يحتفظون بقيادتهم الى ما بعد الاجل القانوني لوظائفهم .

وكان القضاة العدليون ، في اول عهد الجمهورية ، هم القضاة الرئيسيين . ولكن خلق مناصب القناصل قد أنزلهم الى المرتبة الثانيـة . بيد انهم استمروا في استلام « السلطان » . وأسند الى اثنين منهم القضاء المدني : الاول، « قاضي المدينة » ، للنظر في الدعاوى بين المواطنين، والثاني، القاضي « المتنقل » ، للنظر في الدعاوى التي يكون احد الاطراف فيها أجنبياً . ومنذ نهـــاية الحرب البونيقية الثانية التي استولت فيها روما على صقليا ، عين قضاة عدليون آخرون كي تسند اليهم ادارة اقليم او قيادة اسطول او جيش صغير . وطبق عليهم سيلا اخيراً ، الذي رفع عددهم الكامل من ستة الى ثمانيـــة ، القانون المفروض على القناصل : فأصبحوا جميعهم يقضون سنة في روما متمتعين بصلاحيات عدلية ، ثم يعيّنون حكاماً في احد الاقاليم .

ويشرف نظار الابنيـــة الاربعة على شؤون الامن وصيانة الشوارع والابنية العامة وتموين الاسواق . وما كانت هـــذه المهام التقنية لترتدي أهمية تذكر لو لم يضف اليها تنظيم الالعاب في مواسم الاعياد الدينية : فاستطاع النظار بذلك، حتى ولو كان الثمن تصدّع ثروتهم الشخصية ، اكتساب شعبية تؤمن انتخابهم لمناصب القضاء العليا .

ليس ما يشبـه هـــذه الاستعاضة عند القضاة الماليين – وكان عددهم ثمانية اذ ذاك ثم ارتفع الى عشرين في ايام « سيلا » والى اربعين في ايام قيصر – . فهؤلاء يكتفون بتأمين الادارة المادية لصناديق المال العامة ، بعضهم في روما بحسب مقررات مجلس الشيوخ ، والبعض الآخر ، بمعدل واحد في كل اقليم او جيش ، بحسب اوامر القاضي الذي يخضعون لسلطته .

منصب المحاماة عن حقوق الشعب

يجدر بنا ، دون ان يشمل هذا الاحصاء المناصب الدنيا ، ان نفسح مكاناً خاصاً لمنصب المحاماة عن حقوق عـامة الشعب . فجميع ميزاته ، باستثناء بعضها مما تتصف به مناصب النظار المنتمين الى عامـة الشعب ، كالقدسية مثلاً ، تفصله عن مناصب القضاء الاخرى ، وهو يلعب احياناً دوراً اولياً في الحيـــاة السياسية الرومانية . ولا ريب في انه ، بصورة عامة على الاقل ، تجديد مبتكر يفسره وضع المدينـــة الداخلي في القرن الخامس قبل المسيح وحدّة الصراع القـــائم آنذاك بين عامة الشعب وطبقة الاشراف المسيطرة على كافة مناصب القضاء .

ان « لقدسية » المحامي عن حقوق الشعب ، التي تؤمن له الحرمـــة ، قيمتها الدينية : نجس وملعون كل من يجرؤ على ان يمد اليه يداً او ان يقف في وجهه . كان في الماضي يدفـــع المجرم بنفسه من اعلى الصخرة « الطاربية » ، واذا ما اكتفى ، حتى في القرن الاول ، بالتهويل بخطر هذه العقوبة القديمة ، فقد حدث له ان ضرب المجرم بيده والقـــاه في السجن ، حتى ولو كان احد القناصل . فمن البديهي ان توفر له هذه الامتيازات الهـــائلة كل حرية في ممارسة صلاحياته .

ليست اكثر هذه الصلاحيات بالايجابية . وليس لمهامـــه نطاق خاص به . ولا يستلم « السلطان » . ولا يمثل روما ولا عامة الشعب نفسها التي تنتخبه ، ولكن لديه كافة الوسائل المفيدة للدفاع عن افراد عامة الشعب ، فرديا ام جماعيا ، ضد كل معتد ، باستثناء الدكتاتور الذي يقضي تعيينه بتعليق حقوق هذا المحامي. وانهذه الحقوق التي يمارسها على هواه تحمل اسماء وترتدي اشكالا متنوعة : « العون » الذي يقدمه لمواطن يهدده احد القضاة ، « والاعتراض » على عمـــل او قرار ، حتى « النقض » المسبق لمشروع قانون ما . يضاف الى جميع هـــذه الصلاحيات السلبية والهدامة ، منذ البداية ، حق واحد ايجـــابي ، اعني به حق دعوة عامة الشعب الى جمعية لحملها على الاقتراع على احد المقررات : ونرى في الواقع ، منـــذ اوائل القرن الثالث ان لمقررلت عامة الشعب قوة القانون . بيد ان العرف الذي استقر خلال الحرب البونيقية الثانية والذي اجاز له جمع مجلس الشيوخ لعرض قضية من القضايا عليه،قد زاد بلا شكمن نفوذه دون ان يزيد من سلطته الراهنة .

وهنالك ، بالاضافة الى الدكتاتورية ، استثناء واحد ذو طابع اقليمي جغرافي يحدّ مـــن صلاحياته . فان هـــذا المحامي يغدو مواطناً عادياً اذا ما بعد مسافة ميل(١٤٧٩ م) عن اطار روما . وهذا يعني ان ليس له من سلطة على الجيش ، اذ قد بدا غير معقول ابداً ان يولى حقاً قانونياً في معارضة سلطة القائد العسكري وهي مطلقة بالضرورة . ولكن أهم اعمال الحكومة المدنية تجري ضمن هذا الاطار . لذلـــك فان منصب المحاماة عن حقوق عامة الشعب يمثل قوة عملية عظيمة .

دوره التاريخي

يمكنه ، اذا ما اكتفينا بظواهر الامور ، ان يشلّ كل حياة سياسية وادارية في المدينة . وان ما يجعل المدينة ، في الواقع ، بمأمن من هذا الخطر ، هو ان عشرة أشخاص يشغلون منصب المحاماة في آن واحد، وان باستطاعة كل منهم ان يمارس سلطاته السلبية ضد أي من زملائه وحتى ضد اللسعة مهما بلغ من موافقتهم على عمل مشترك . وليس في تاريخ الجمهورية الرومانيـــة كله سوى حالة واحدة عزل فيه محام عن حقوق الشعب بسبب تصلبه ، أعني به « أوكتافيوس » الذي اقترعت عامة الشعب ، في السنة ١٣٣ ، على نزع سلطته لأنــه تشبث بحق النقض بصدد مشروع القانون الزراعي الذي تقدم به طيباريوس غراكوس والمحامون الثمانية الآخرون ، ولم يستند الى هـــذا التدبير كسابقة فيما بعد . ولنفكر الآن ، لاظهار الفرق، بالسهولات التي كانت لدى الديموقراطية الاثينية لنزع السلطة عن قضاتهـا والتي لجأت اليها حتى ضد بريكليس : وهذا دليل واضح جديد على ان مفهوم القاضي الذي يمثل الشعب والذي يمكن عزله اذا ما فقد ثقة الشعب هو يوناني لا روماني . بيد انه من البديهي ، بالتالي ، ان عمل المحامي غالباً ما يمنى بالعجز : ويكفي الاحتمال السيكولوجي وحده للاقتناع بأن مستغلين كثيرين ، لا بل خونـــة كثيرين ، وجدوا مكاناً لهم بين عشرة رجال ينتخبون ويجددون كل سنة في نظام لم

يعرف احزاباً منظمة على الطريقة العصرية .

على الرغم من هذا الضعف ، أثار عمـل الحامي ، أكثر من مرّة ، مصاعب خطيرة في وجه المسؤولين الرومانيين . ففي قلب دولة يقضي مفهومها الاساسي باعطاء المدينة وجوداً مستقلاً ، في حدّ ذاته ، عن الواقع البشري الذي يكوّنها ، فيضع المواطن في خدمة الدولة قبـل وضع الدولة في خدمة المواطن ، كان وحـده ، مع حق رفع الدعوى امام الشعب ، رادعاً لعمل المسؤولين وعنصر دفاع عن شخص المواطن ، وبالتالي قوة تقابل سلطة الدولة المطلقة . واذا كانت الجمهورية الرومانية ، التي صممته ونفذته ، قد وجدته موافقاً لوجودها وسيرها ، فيجب ان نرى في ذلـك موضوع مراهنة ؛ وقد قدّم الشعب الذي تقيّد به برهاناً ساطعاً عـن تفرده ونظاميته .

بيد انه من الخطأ الاعتقاد بكماله المثالي ، اذ انه قد أسهم في النهاية بايصال روما الى الفوضى . ففوق استخدامه كأداة معارضة سلبية ، استخدمه بعض الرجال الحازمين ، الذين يحسنون سياسة الطبقات الشعبية ويعرفون ما يريدون ، ليس كأداة بلبلة فحسب ، بل كأداة تنظيم وعمل ضد الطبقة الحاكمة . وهو لم يسمح بتعهد وتغذية غليان جرائم الثورة فحسب ، بـل اتاح فرص اصلاحات وحلول جديدة . ولنضرب صفحاً ، للدلالة على ذلك ، عن القرون الاولى التي يختلط فيها التقليد بالأساطير . ولكن فلامينيوس ، قبيل الحرب البونيقية الثانية ، قد قاد ، كمحام عن حقوق الشعب اولاً ، ثم مع الحامين الآخرين زملائـه ، معركة بناءة ضد الارستوقراطية . ثم فتحت أزمة حرب هنيبعل الطويلة ، بتبريرها تقوية وتوحيد السلطة ، عهد احتجاب الحاماة عن حقوق الشعوب ، التي روّضها مجلس الشيوخ آنذاك .

بيد ان ذلك لم يمنعه ، ابتداء من السنة ١٣٣ ، مـن ان يستعيد استقلاله وفاعليته في ايام الاخوين طيباريوس وكايوس غراكوس اللذين شغلا كلاهما هذا المركز ، الاول في السنة المذكورة والثاني بعده بعشر سنوات ، واللذين تمّا كلاهما وتوفقا الى تجديد انتخابها ، فبعثا الحركة الشعبية وأدخلا اليها ، روحاً نضالية مضطرمة وأوحيا لها مرّة أخرى ، بمثلها وحتى بموتها ، القوة التي ينطوي عليها مثل هذا السلاح . فخدم هـذا الوحي « الشعبيين » ، ولكنه خدم المفسدين والمتطرفين والطامعين ايضاً . وبين موت كايوس غراكوس ونهـاية الجمهورية ، باستثناء الفترة القصيرة التي لاشت فيها قوانين سيلا عملياً سلطة الحامين عن حقوق الشعب ، تمثل أسماء ماريوس وغلوشيا وساتورنينوس ودروزوس وكلوديوس وكوريون وانطونيوس — وكان هذان الاخيران مجرّد عميلـين لقيصر — حلقات سلسلة طويلة من الحامين الذين لم ينظر اليهم الافاضل (*Optimates*) نظرة رضى . ولم يرض عنهم النظام الجمهوري كذلك . فقد كشفت هذه الحاماة الغريبة آنذاك عن حقيقة طبيعتها : جهـاز دولة محدث للحيلولة دون تجاوزات الدولة ، لديه وسائل أعظم من ان لا يدعوه امتلاكها لاستخدامها بغية شل الدولة شلاً دائماً .

« تسلسل الامجاد »

على الرغم من ان المحاماة عن حقوق الشعب مدينة بأحداثها الحذر الذي توجيه مناصب القضاء الأخرى في الحكومة والادارة ، فانهـا تدخل مع ذلك ، في نظام مراتب هذه المناصب الذي يمكن القول فيه انه سيرة الاشخاص . ومن حيث ان هذه المناصب توزع بالانتخاب وتتيح ممارسة قسط متفاوت من سلطة الدولة ، فانها « أمجاد » تعتز بها حياة المواطن ولا يهمل ذكراها الحفدة . ولكن هذه الأمجاد غير متساوية في العظمة ، والطموح يدفع كل قاض الى محاولة بلوغ أرفع الأمجاد سمواً التي تسند الى شاغلين أصليين قليلين . لذلك قد يكون أعظم تدابير سيلا فاعلية ضد المحاماة عن حقوق الشعب إقفال باب المناصب الأخرى في وجه من مارسها : فبينما كانت توفر حتى ذاك العهد إمكان الحصول على الشهرة ، اذا بها تكوّن ، حتى إلغاء قوانين سيلا ، طريقاً غير نافذة يتحوّل عنها اولئك الذين يتطلعون الى أبعد من ذلك .

وقد اعتمدت أكثر مـن دولة ولا تزال تعتمد حتى اليوم ، أقلّه ضمناً ، مفهوم التسلسل الضروري في الوظائف العامة ، استناداً الدليل البديهي الذي يقول إن الخـبرة المكتسبة في أدنى الوظائف يبدو مفيداً في أعلاها . اما في روما فقد اتخـذ شكلاً صارماً هو « تسلسل الأمجاد » الذي نظم بكل عناية .

كان العرف والنظام الجماعي ، مدة طويلة ، كافيين لتجنيب السرعة في غير حينها . وخلال الحرب البونيقية الثـانية ، اتاحت بعض الظروف الاستثنائية لشيبيون ان يحتل ، في عنفوان شبابه ، مركزاً لا نظير له. ولكن المنافسين برزوا في وجهه فلمس المسؤولون الحاجة الى رادع . فاكتشفوا دونما ابطاء المبادىء الاساسية : رفع السن التي يمكن ان تحصل فيها المزاحمـة حول منصب القضاء المالي الذي اعتبر نقطة الانطلاق في « التسلسل » ، وذلك بايجاب تكريس عدة سنوات لخدمة الدولة قبل استلامه ، ايجـاب المرور في مناصب قضاء اخرى ، وفاقاً لترتيب معين ، قبل محـاولة بلوغ القنصلية ، ايجاب تمضية فترة محدودة بين تولي منصبين متعاقبين . ولكنهم بعد الموافقة على هذه المبادىء الثلاثة ، اخذوا يتلمسون طريقهم ، والمعـاصرون اليوم ابعد من ان يروا الفوارق التفصيلية بوضوح . ويبدو عمليـاً انهم قد ساروا بين القضاء المالي والقضاء المدلي وبين المحاماة عن حقوق الشعب ونظارة الطرق والابنية العـامة . وبينما كان بالامكان في القرن الثاني ممـارسة القضاء المالي في سن السابعة والعشرين والقضاء المدلي في سن السادسة والثلاثين رفعت السن عمليا في القرن الاول الى التاسعة والعشرين للقضاء المـالي والى الثانية والاربعين للقضاء المدلي .

وتوصلوا ، بالتوفيق بين القانون والعرف ، — لم يتناول الاحصاءَ ومراقبة الاخلاق العامـة اي نص معين ، ولكن هذا المنصب اسند في الواقع الى قناصل قدامى — الى شبه هرم يتناقص فيه عدد الشاغلين الاصليين من درجة الى اخرى ، الشيء الذي كان يسمح باجراء الاختيـار .

وان في هذه الطريقة لاستجابة لبعض النزعات الفطرية في الذهنية الرومانية : حاجة الى النظام والى التسلسل المستقر . ولكن قرار الرأي على وضع صيغة شرعية لهذا التسلسل وعلى اثقال صعوباته وعلى المضي في تأخير بلوغ المناصب العليا يتم بنوع خاص عن انهيار النظامية الفطرية والخوف من المصائر « الخارقة » ! فارادت الطبقة المسيطرة الاحتماء من النجاحات الصاعقة . ولكنها اخفقت ، لا بل ان هذا الاحتباك الماهر قد أفسد احياناً بملء ارادتها . ويجدر بنا في الحقيقة ان نلاحظ ان قيصر الذي فاز عليها قد مر بانتظام في جميع المناصب ولم يشغل كلا منها الا « سنته » فقط اي دون تقدم او تأخير في السن الدنيا المحددة ، بينما طاب لخصمه بومبيوس ان يفيد على الدوام من استثناءات غير شرعية : واذا ما خالف نظام ما شرعيته بالذات ، ففي ذلك ابلغ دليل يقدمه هذا النظام على ضعفه .

٢ - الظاهر الديموقراطي

جمعيات الشعب

جمعيات الشعب في اليونان وفي روما

اذا كانت هذه الشرعية ، في ما يعنينا ، قد صممت بمثابة حيطة ضد الطامعين ، فقد حصرت ايضاً ، بشكل ضيق جداً ، حرية الاختيار المعترف بها مبدئياً للناخبين ، اي للشعب . وقد كتب بوليب : « لو نظرنا الى قوة الشعب ، لبدا الدستور الروماني ديموقراطياً بدون ريب » . ولكن ذلك ليس الا ظاهراً فحسب . فلم يكن كافياً ، على غرار العنصر الملكي الذي مثله القناصل ، ان تقابل هذا العنصر الديموقراطي قوى توازنه . اضف الى ذلك ان المواطنين وجمعياتهم كانوا منظمين بشكل تصبح معه دون جدوى ، في الظروف العادية ، سيادة تثبتها ، على الرغم من ذلك ، تسمية « الشعب الروماني » المستعملة رسمياً للدلالة على الدولة الرومانية .

لنعد مرّة أخرى الى المدينة اليونانية . أجل عرف المسؤولون فيها كيف يحتالون على جمعية الشعب التي لم تمارس في كل زمان وكل مكان سلطة فعلية مماثلة للسلطة التي تمتعت بها في اثينا حين بلغ القمة فيها النظام الديموقراطي الراهن . ولكننا نلمس في الاعراف التي سادت الجمعيات في اليونان وروما ، فوارق تمسّ جوهر الامور : وبفضلها تتجلى حقيقة مفهوم المواطن ومفهوم المدينة .

ان لأحد هذه الفوارق قيمة الرمز ، ولم يفت الرومان ادراك أهميته : ففي اليونان يجلس اعضاء الجمعيات الشعبية على مقاعد حجرية ؛ اما في روما فيقفون في ارض منبسطة ، امام الرئيس الجالس على منصة هي « المنبر » . وبديهي ان مدّة الجلسات تتأثر هنا وهناك بهذا التناقض المادي . ولكن هذا التناقض ، بنوع خاص ، يثبت وجود فارق عميق في طريقة فهم العلائق المتبادلة بين جموع المواطنين والقاضي الذي يترأس اجتماعهم . فان الشعب المجتمع للمناقشة يقوم بواجب ويستخدم حقاً ، في كلا الحالتين . بيد ان هناك خلافاً في الذهنية : فهو يترفه في

اليونان ، كنظير على الاقـــل ، بينا يبدو طبيعياً للرومان ان يكون في وضع المرؤوس ، وهو يرضى بذلك . وان هذا الدليل ، يضاف الى غيره مما سبقت الاشارة اليه سابقاً ، يثبت ان مثالية المدينـة في روما تستلزم شيئاً آخر غير الشخص المنوي الذي يكونه جمهور المواطنين ، شيئاً يشترك فيه القضاة ويجسّدونه .

وهنالك فارق آخر ليس بأقل مغزى . ففي داخل الجمعية الشعبية ، في كافة المدن اليونانية ، تحصى الاصوات على اساس الأفراد لا على أساس الكتـــل . اما في روما فالقاعدة المتمدة هي دائماً على نقيض ذلك ، اذ ان لكل كتلة صوتاً واحداً يعبّر عن رأي أكثريتها الداخلية . ويعني ذلك ان الطريقة المتبعة في توزيع المواطنين على الكتل تأثيراً حاسماً على تشكيل الاكثرية الرسمية في الجمعية . وقد تكون هذه الاكثرية الرسمية مختلفة جداً عن الاكثرية الفعلية ، لأنه قد يقوم أكبر تفاوت عملي بين مواطنين متساوين قانوناً ، بحسب تعبيرهم عن رأيهم الشخصي داخل كتل يكون عدد أعضائها مرتفعاً جداً او متدنياً جداً . ولنضف الى ذلك ، حتى لا نشير إلا الى نتيجة ثانوية بين نتائج كثيرة غيرها ، ان تجنب المواطن لضروب الضغط الخارجي ، حين يقترع في إطار كتلة محدودة بالضرورة ، أضعف منه حين يضم اقتراحـــه الى كافة اقتراحات اعضاء الجمعية . فقد يؤدي هذا النظام الى اكثر النتائج منافـاة للديموقراطية ، وقد أدّى اليه فعلاً كما سنرى ذلك . ولكن هل كان ارتقاؤهـــا السبب الرئيسي في اعتماد هذا النظام والإبقاء عليه يا ترى ؟ يجدر بنا بالاحرى ان نفكر باستمرار التنظيم الداخلي في المدينة والهيئة المدنية وقوة الحرص عليه . اجل لم تجهل المدن هذا الحرص لأن مواطنيها كانوا موزعين قبائل ؛ ولكنهم لا يعيرونه كبير اهتمام في الجمعية ، بينا هو ذو سيطرة على كيـــان الجمعية وسيرها في روما . فيجب ألا نقلل من شأن هذا التناقض ، لأن جهاز المدينة السياسي يعكس نزعات أدبية ووقائع اجتماعية على السواء . وهو يؤدي الى استنتاجين ، اولهما ان روما تضرب بمساواة المواطنين عرض الحائط بينا يطبق الاغريق مبدأها تطبيقاً واسعاً ، أقله في بعض المدن ، وثانيهما ان الدولة في روما أقل اهتماماً بالمواطن الفردي منها في اليونان ، إذ انهـا لا تريد معرفة رأيه ولا تجيز له الاسهام في تكوين الارادة الجماعية الا بواسطة الكتل التي يمكنه الانضمام اليهـا : والحقيقة هي ان تحرّر الانسان المواطن تحرراً كاملاً ، هو مثـــل يوناني لا روماني ، واذا ما بدأ يظهر في روما ، بفضل علائقها باليونان ، في آخر عهد الجمهورية ، فهو لا يتوصل الى فرض نفسه لا على الأنظمة ، التي لم يتوفر لها وقت التكيف عليه قبل زوالها ، ولا على الاخلاق .

كان من المنتظر ، والحالة هذه ، ان تلجأ رومـا الى النظام التمثيلي . ومهما كان من المظهر المغالط الذي ظهر به استمرار الجمعيات اليونانية الاولى في بعض الحالات ، فان له تفسيره في التصميم على الحيلولة دون توسيط اي شي او اي شخص بين المواطن والمدينة . بيد ان الكتلة تتوسط بينهما في روما ، ولا يلزم سوى خطوة واحدة لتوسيط ممثل الشعب ايضـــاً . وكان من

الواجب ان يؤدي الى ذلك ارتفاع عدد المواطنين وتوزعهم الجغرافي . فحين يحق لـ ٢٥٠٠٠٠ مواطن منذ اوائل القرن الثالث ، ولمليون مواطن تقريباً في السنة ٧٠ ، وللرجال الاحرار في كافة انحاء ايطاليا بعد حصولهم تدريجياً على حق المواطنية ، الاشتراك في جمعية واحدة لا يمكن ان تلتئم الا في روما نفسها ، يصبح الحفاظ على ميزة الجمعية الاولى لهذه الجمعية اكثر من مغالطة فحسب : فهو يصبح اذ ذاك سخرية غير معقولة . ولا يوفر التشبث به اية سهولة للطبقة الحاكمة. وخير لها ، على نقيض ذلك ، اقله ابتداء من اوائل القرن الثاني ، ان تكون علاقتها بممثلين قد يفضي اختيارهم الى بعض العناصر المعتدلة من ان تكون بجماهير سجسة تتأثر بتحريض المحرضين. والتهمة التي يجدر ان توجه الى المسؤولين الرومان هي العمه قبل الانانية في استثمار وضع شاذ . فليس من شخص آنذاك يفكر بحل يميل المعاصرون بالفطرة الى اعتباره في منتهى البساطة لانه اليوم رائج التطبيق في مجتمعاتهم. اجل نحن نلمس في الاتحادات الهلينية عقم الخيال نفسه والتقليد نفسه الذي لا يتماشى وحاجات الزمن . ولكن نتائجها اشد خطورة الى حد بعيد في روما التي غدت اقليمياً وبشرياً الدولة الايطالية والتي ابقت على نظمها حين كانت مدينة صغيرة دون ان تكيفها وفاقاً لهذا النمو .

الطرائق المختلفة في توزيع المواطنين والجمعيات

لا تخلو هذه الانظمة من التعقيد . فمنذ آخر القرن الرابع كابعد حد — قد يكون الامر على غير ذلك قبل هذا التاريخ — نرى ان الجمعيات جميعها مفتوحة الابواب لكافة المواطنين الرومانيين دون استثناء . بيد ان المبادىء الثلاثة التي اعتمدت في توزيع المواطنين الواحد بعد الآخر رسخت كلها بحيث ان وجودها قد جرّ الى قيام انواع ثلاثة من الجمعيات التي تنظمت وحدات الاقتراع فيها وفاقاً لمبدأ آخر .

لم يعد آنذاك لاحد هذه الانواع من اهمية عملية ، اعني به ذاك الذي يوزع المواطنون بموجبه، وفاقاً لانتسابهم الوراثي ، الى ثلاثين « وحدة » *Curie* تنحدر هي نفسها ، بمعدل عشرة اشخاص لكل منهـا ، من القبائل العنصرية الثلاث الاول . فجاء منح حق المواطنية لعناصر عديدة غير رومانية ينزع عن هـذا التوزيع كل حقيقة . فلم تعد الجمعيات المؤلفة من ممثلي هذه الوحدات لتجتمع الا شكليا فقط بغية القيام باعمال ذات طابع طقسي ، كمنح « السلطان » القضاة الجدد مثلا .

اما الجمعيتان الاخريان ، على نقيض ذلك ، فليستا مؤلفتين من ممثلين على هذه الندرة .

فالجمعيات « القبلية » تضم المواطنين الموزعين على خمس وثلاثين قبيلة ، اربع منها « مدنية » واحدى وثلاثون « ريفية » . كان لهذه القبائل في البداية واقع اقليمي يخصص به من يقيم فيه او اقله يمتلك الاراضي فيه : ويشبه النظام على هـذه الصورة النظام المعتمد في اكثر من دولة ديموقراطية معاصرة . ولكن التطور اللاحق قد افسده . فان عدد القبائل الريفية الذي ارتفع

مدة طويلة بشكل مواز للاراضي الرومانية *Ager romanus* قد توقف عن الارتفـــاع منذ السنة ٢٤١ : فارتبط المواطنون الجدد منذئذ، حتى ولو حصلوا على المواطنية بشكل جماهيري في منطقة كاملة، باحدى القبائل السابقة التي خسرت، بسرعة ، الشيء الكثير من طابعها الاقليمي. ثم ان القبائل المدنية ، وهي اكثر عدداً وتضم نسبة مرتفعة جـداً من الفقراء ، غدت دون القبائل الريفية شرفاً . ولذلك فقد درج ناظرو الاحصاء الذين يختارون على هواهم ، في مواعيد الاحصاء ، القبيلة التي يخصصونها بمواطن جديد ، والذين ينعمون حتى بحق نقـــل مواطن قديم من قبيلة الى اخرى ، كعقوبة معنوية ، على ان يسجلوا أفراد الطبقات الدنيا ، لا سيما المعتقين منهم ، في القبائل المدنيــة . وليس لكل من هذه القبائل المدنية المتزايدة عدداً سوى صوت واحـد شأن كل من القبائل الريفية التي يحتفظ المواطنون الميسورون فيهـــا بجانب كبير من الأهمية .

وقد أفضى نوع آخر من انواع التوزيع ـ أقدم من التوزيـع عـلى القبائل ولكنه ارتبط به أخيراً ـ الى الجمعية المئوية ؛ ونسب الى الملكية احداث نظــام « الوحدات المئوية » بسبب ارتباطها بتنظيم الجيش : فهنالك وحدة عسكرية ايضاً ، يطلق عليهــا اسم « وحدة المئة » . والجمعية « المئوية » في الواقع ، هي الشعب المعبأ . وهي بالتالي ، ايضاً ، بسبب الموازاة القائمـة بين الثروة وبين الواجب العسكري والمالي ، الشعب الموزع على طبقات يحددها الاحصاء بعد التحقيق الذي يجريه ناظرو الاحصاء كل خمس سنوات . ولكن كيفيات هـــذا التنظيم قد تنوعت . وتشكل هذه التنوعات وتحديد تاريخهــا وارتباطها بالتطور الاقتصادي والنقدي ، منذ زمن بعيد ، إحدى معاضل التاريخ الروماني التي اشتد الخلاف حولهـا . وقد تحقق تبدل هام ما بين السنة ٢٤١ وبدء الحرب البونيقية الثانية . فقد اعطى النظام القديم اكثرية الاصوات المطلقة (٩٨ من أصل ١٩٣) الى الوحدات المئوية في الطبقة الاولى دون غيرهــا ، في حال انه قامت هنالك ، وفاقاً لمستويات الثروة المتعاقبة نزولاً ، اربع طبقات اخرى ايضاً . فاحتفظت الطبقة الاولى منذئذ بـ ١٨ وحدة مئوية من « الفرسان » ينتمي اليهـــا اعضاء مجلس الشيوخ والفرسان ، أي النخبة المحدودة بين المواطنين . أضف الى ذلك انها تشمل ، بمعدل وحـــدة عن القبيلة ، ٣٥ وحدة مئوية من « العقّال » (فوق ٤٦ سنة) ، و ٣٥ وحدة « من الشبان » . أما الطبقات الأربع الأخرى ، فهل تشمل كل منها ٧٠ أو ١٠٠ وحدة مئوية ؟ وما هي طريقة التوزيع فيها ؟ لم نلقَ بعد هذه الأسئلة أجوبة واضحة . ولكن ، مهـــما يكن من الأمر ، فقد أضيفت الى هذه الوحدات المئوية الـ ٣٦٨ أو الـ ١٨٨ ، خمس وحدات فقط ضمت اثنتان منهـا العمال واثنتان الموسيقيين ـ ويقبــل اعضاء هذه الوحدات الأربع في الجيش ـ وواحدة الفقراء الذين لا يستخدمهم الجيش لأنهم لا يمتلكون حتى الحد الأدنى من الضريبة المفروضة على الطبقة الخامسة . وهكذا فان المواطنين الاغنيـاء والميسورين من جهة والمواطنين المسنين من جهة ثانية ينعمون بأفضلية عظيمة تحت ستار المساواة وعلى حسابها . فيتضح ان تكوين الجمعيات المئوية

وتكوين الجمعيات القبليـة على السواء ابعد من ان يستجيبا لموجبات الديموقراطية كما تصورتهـا مدن امن أمثال أثينا وخضعت لها منذ القرن الخامس .

صلاحيات الجمعيتين القبلية والمئوية

على الرغم من ان هذه الحقيقة لا تقبل الجدل ، يجب ألا نغفل ان بعض النجاحات قد حققت بالنسبة للوضع الماضي .

يتعلق احد هذه النجاحات الرئيسية – وهذا لا يعني انه بلغ حداً بعيداً – بدور الجمعيات القبلية . فالجمعية المئوية اقدم عهداً منها ، واذا ما انطبق تنظيمها ، في شكله الاخير ، على توزيع المواطنين الى قبائل ، فان مفهومها العام الذي يفسّر بعض تفاصيل سيرها ، كما سنرى ذلك ، يحد من حرية الحاضرين . لذلك فان كل زيادة تتناول نصيب الجمعيات القبلية تصطبغ بطابع الاصلاح السخي ، ان لم يكن الديموقراطي . وفي الواقـع تناولت الزيادة نصيبها .

يكتنف هذا التطور غموض كبير . بيد انه من المهم ان نشير هنا الى ان الجمعيات القبلية ، في البداية ، كانت ، قبل كل شيء آخر ، جمعيات لعامة الشعب يدعوها للالتئام المحامون عن حقوق هذه العامة ويقصى عنها النبلاء . وكانت بالتـالي تقرر « الاستفتاءات » *Plebiscita* او « مراسيم عامة الشعب » ، التي لا تقيد سوى هذه العـامة ، بينما لم تكن « القوانين » التي تقيد كافة المواطنين لتنبثق الا عن الجمعيات المئوية . بيد ان هذا التمييز قد فقد كل اهمية منذ ان اقرت المساواة القانونية بين القانون والاستفتاء . فنتج عن ذلك ان النبلاء ، الذين انحدر عددهم شيئاً فشيئاً من جهة ثانية ، استطاعوا الدخول دونما صعوبة الى الجمعية القبلية . كما نتج عن ذلك ايضاً ان القضاة آثروا هذه الاخيرة على الجمعية المئوية بسبب السهولة الكبرى التي يلاقونهـا في دعوتها للاجتماع ومراقبة الجلسة وحتى الاقتراع – ٣٥ صوتا بدلا من ١٩٣ او ٣٧٣ . فلم تحتفظ الجمعية المئوية بصلاحية حصرية غير النظر في الدعاوى الخطيرة ، واعـلان الحرب ، وانتخاب القضاة للمناصب العليا . واحتفظت الجمعية القبليـة باقل من هذه الصلاحيات : انتخاب القضاة للمناصب الدنيا فقط. غير ان اكثرية الامور التي قد تطرح على احدى الجمعيتين تعرض عليها ايضاً، كأكثرية مشاريع القوانين بنوع خاص .

الاصول المتمدة

ولقد تحقق نجاح آخر بصدد نظام الجمعيات وتنظيمها المـادي . فقد اضطر المواطن ، لمدة طويلة جداً ، الى التعبير شفهياً عن رأيه ، مما حـدّ ، في غالب الاحيان ، من حريته الفعلية . ثم اقر الاقتراع المدون على « لوحـة » (*Tabella*) فردية في السنة ١٣٩ ، وصدرت خلال ثلاثين سنة تقريباً قوانين اخرى عممت هذه الطريقة على كافة انواع الانتخاب : فتوفر بذلك الشرط الاساسي لسرية الاقتراع اي لحريته . وفي السنة ١١٩ اكتسب ماريوس ، وهو بعد محام عن حقوق عامة الشعب ، شعبية كبرى باقتراح تقدم به وتوفق الى اقراره يقضي بان تضيّق ، بقياس عرض الرجـل ، « الجسور » التي يجب على المواطنين المرور

عليها قبل القاء « لوحتهم » في صندوق الاقتراع : فنجا المقترع بذلك من كل رقـابة ومن كل ضغط . وليست مثل هذه التدابير في الحقيقة بما لا يعبأ به : فالحركة الديموقراطية الرومانيـة تلمس وجوب اجراء بعض الاصلاحات في الانظمة وتحقق بعضها .

ولكن هذه الحركة لا تستطيع الذهاب الى ابعد من هذا الحدّ او لا تجرؤ على ذلك بتعرضها لمبادىء أساسية تسيّر اجراءات الجمعيات. وليس من شك في انّ درس هذه الاجراءات بالتفصيل أمر مستحيل . بيد انـــه يجدر بنا ان نستخلص بعض خطوطها التي تتميز بها وصاية ضيقة على شعب يتمتع بالسيادة مبدئياً .

تلتئم الجمعية برئاسة القاضي الذي يوجه الدعوات الى اعضائها . يقرّر وحده جدول الاعمال ويوجه سير المناقشات . ولا يمتلك الشعب أية وسيلة لفرض ارادته في تقرير الاجتماع وأي حق مبادرة او تحوير في المشروع الذي يعرض عليه . واذا كان الموضوع موضوع انتخابات فلا احـد يستطيع إرغام الرئيس على ان يقدم له جميع أسماء المرشحين ، ولا اعتبـــار إلا للأصوات التي تنالها أسماء يريدها : ولم يكن ذلك مجرّد امكان نظري ، حتى في عهد متأخر نسبياً . واذا كان الموضوع مشروع قانون ، فكثيراً ما يستخدم الرئيس حقاً مماثلاً ، محصوراً فيـــه ، يستطيع بموجبه ان يسانده او يحوّر نصه . ومن حيث ان الجمعيات المئوية هي الجيش ، وتجتمع بالتـالي خارج إطار روما، فلا ينعم بحق توجيه الدعوة لالتئامها سوى قاض « مُنِحَ السلطان » يستطلع الطيور قُبل الجلسة . فلا تعوزه من ثمّ الحجج الدينية لحل الجمعية عندما يطيب له ذلـــك . لا بل ان الواجب يقضي عليه ، حتى لا يقع في خطأ شكلي ، باللجوء الى الحل في بعض الحالات، كحالة نوبة الصرع التي يصاب بهـــا احد الحاضرين — والصرع « مرض الجمعيات » بالذات — او حالتي البرق والرعد ، بحيث انهم انتهوا احياناً ، بغية تجنب عرقلة سير الاعمال ، الى حصر حق « ملاحظة السماء » في بعض الاشخاص فقط او الى إبطاله كلياً . واذا لم تفض الانتخابات الى اي نقاش ، فان مشروع قانون واحد يتطلب عدة جلسات للتشاور والمذاكرة يتمتع الرئيس خلالها، منذ زمن بعيد ، عن استخدام حقه في اعطاء الكلام لمن يريد ، ولكنه استخدم على الدوام حقه في ان يكون الخطيب الاخير. وتكرس الجلسة الأخيرة للاقتراع فقط بالاجابة « بنعم » او« لا» على « سؤال » الرئيس حول مجمل النص ، وحول عدة نصوص متكاملة احياناً. وتتوقف عمليات الاقتراع منذ بلوغ الاكثرية . اما في الجمعية المئوية ، التي تعود الأولوية فيها الى احدى الوحدات المئوية الـ ٣٥ التي تضم « شبان » الطبقة الاولى — الوحدة « الممتازة » التي تنتخب بالقرعة لأن لرأيها قيمة الانباء بالمستقبل — والتي يجري الاقتراع فيها وفاقاً لترتيب الطبقات التسلسلي ، فان وحدات الطبقة الرابعة ولا سيا الخامسة تكاد لا تقترع ابداً . ولا يصبح القرار نهائياً ، اخيراً ، إلا اذا رضي الرئيس باعلانه : وهكذا ، فان القضاة ، على الرغم من تعيينهم عن طريق الانتخاب، يعتبرون رسمياً « خلائق » الرئيس . وان هذه المهلة القصوى المفسحة امام رفض

الرئيس او امام حق القضاة الشرعي بالاعتراض والنقض لم تمر دائماً دون استخدام .

ان هذه العجالة حول الجمعيات الرومانية، على الرغم من إيجازها ، تفضي بنا الى استنتاجات لا يمكن ان تنقضها أية قاعدة او أي عرف لم تتعرض لها . فمن جهة يقلل تنظيم وسير الجمعيات الشعبية الى حدّ بعيد من التأثير العملي الذي قد يكون في الظروف العادية للطبقات الاجتماعية الدنيا مع انها ، شأنها هنا كما في غير مكان ، أكثر عدداً من طبقات الأغنياء . ومن جهة ثانية ، توازي سلطة القضاة سلطة الجمعيات في الدولة ، ان لم تكن متفوقة عليها . ولا ريب في ان هاتين الملاحظتين لا تسمحان قط ، في روما ، بالمساواة ، بين الجمهورية والديموقراطية ، حتى اذا فسرنا هذه الكلمة الاخيرة بمفهومها القديم .

٣ - الظاهر الارستوقراطي
مجلس الشيوخ

مجلس الشيوخ
مجلس قضاة قدماء

يبقى العنصر الارستوقراطي، وهو اقوى عنصر في الدستور الروماني والحياة السياسية الرومانية على السواء . ولم يصعب على بوليب ان يرى ان مجلس الشيوخ هو الذي يمثل العنصر : بيد انه لم يعطه اهميته الحقيقية . وهنالك نقطة رمزية تقابل ما لاحظناه بصدد الجمعية من شأنها ان تكشف لنا عن عظمة هذه الهيئة : الشيوخ يجلسون ايضاً امام رئيس لا يعتلي اي منبر .

تشتق كلمة *Senatus* من *Senex* « المسن » ؛ فمجلس الشيوخ اذن مجلس « قدماء » ويطلق على اعضائه اسم « الآباء » ايضاً ، اي انهم في الوقت نفسه نبلاء ورؤساء العائلات الاولى في روما . ولكن كل ذلك يرتبط بماض سحيق . فقد اضيف الى كلمة « الآباء » ، في عهد متوسط ، اسم المفعول *Conscrpiti* « المسجل على اللائحة » . فكانت اللائحة ، ولكن تأليفها غدا آليا .

عدد الشيوخ العادي هو ٣٠٠ . رفعه سيلا الى ٦٠٠ وقيصر الى ٩٠٠ ولكنه في كل الحالات لم يحدد بنص قانوني ؛ وليست الزيادات التي حققها الدكتاتوريون سوى نتيجة الزيادة التي ادخلوها على عدد القضاة الماليين . فالعرف قد جعل من التعيين في منصب القضاء المالي ، حتى قبل القانون ، شرطاً ضرورياً وكافياً للدخول الى مجلس الشيوخ .

اخذ قضاة الاحصاء والأخلاق ، منذ اواخر القرن الرابع ، وكل خمس سنوات ، بوضع لائحة بالشيوخ . وكان لهم الحق في إقصاء من يريدون إقصاءه من أعضاء اللائحة السابقة ، ولكنهم لا يلجأون الى هذا القرار الجزئي إلا لاعتبارات اخلاقية ، أي في حالات نادرة ، اذ ان الشيخ اذا ما سجل على اللائحة يبقى عملياً في منصبه مدى الحياة . اما اختيار الأسماء الجديدة

فيجب ان يتناول اعظم النبلاء شرفاً . فلا يرى قضاة الاحصاء والاخلاق بالتالي افضل من ان يأخذوا بعين الاعتبار الاشخاص الذين يعينهم الشعب في مناصب القضاء . وقــد استقرت هذه العادة خلال الحرب البونيقية الثانية، بغية سد الفراغات العديدة التي اوجدتها الهزائم العسكرية الاولى ثم شملت شيئاً فشيئاً ، خلال القرن الثاني ، مناصب القضاء الاخرى التي ليس من حاجة بسبب ارتفاع عدد شاغليها ، اللجوء الى المواطنين العاديين . واخيراً سن « سيلا » قانوناً يكرس قبول القضاة الماليين في مجلس الشيوخ : واكتفى قضاة الاحصاء والاخلاق بعد ذلك بإبرام وضع راهن – وذلك حين يكون هناك قضاة احصاء واخلاق ، لان تعيين خلفائهم لم يعد منتظماً منذ هذا التدبير الذي يجعل من احدى صلاحياتهم الرئيسية امراً وهمياً .

انخفض من ثم عمر الشيوخ الوسطي انخفاضاً كبيراً : فقد كانوا يحتلون مناصب القضاء المالي في سن مبكرة. وتطور طابع مجلس الشيوخ الرسمي ايضاً: فغدا مجلساً مؤلفاً من القضاة القدماء، مما يترك صداه حتى في ترتيب اللائحة . ففي اعلى اللائحة ، اقله قبل « سيلا » الذي يلغي هـذا اللقب الشرفي ، يسجل اسم « الاول في المجلس » الذي يختاره قضاة الاحصاء والاخــلاق بين الشيوخ المرموقين . ويليه في اللائحة ، وفاقاً لمرتبة وظائفهم ، القضاة القدماء ، « الاحصائيون والاخلاقيون »و«القنصليون» و « المدليون » ، الخ ، يرافق ذلك ترتيب داخلي في كل فئة وفاقاً لاقدمية القضــاة في مناصبهم . ويدعى القضاة لابداء رأيهم بحسب ترتيب اللائحة ، ولكن الاولوية تعطى ، في الفئة الواحدة ، القضاة المعينين ، اي الذين جرى انتخابهم فعلاً ولم يستلموا بعد مهامهم والذين يلفت النظر اليهم اقتراع الجمعية الشعبية الحديث العهد .

ولكن مجلس الشيوخ لم يفقد شيئاً بفعل هــذا التطور . فهو في الماضي قد مثل نخبة الشعب المتميزة بنسبها وثروتها وسنها وخبرتها ، وكلها عناصر تكوّن الاعتبــار الاجتماعي . ولم يعين القضاة عملياً ، باستثناء السن ، وفاقاً لمقاييس اخرى . فيضم مجلس الشيوخ كافة الاسمــاء الكبيرة ، وكل عضو من العائلات الكبيرة لا تقصيه مبدئياً عن الحياة السياسية نقيصة ظاهرة ، ويكل من درس في شبابه على ابيه واجبــاته المقبلة فتولى بعد ذلك شؤون ومصالح الدولة . فبفضل العظمة المليئة بالحكمة التي يضفيها على اعضائه نسبهم وتربيتهم ووعيهم لواجبهم ، يجسد مجلس الشيوخ روما وتقاليدها واستمرارها وكيانها الدائم ومصيرها ، اي انه هو ايضاً ، شأن القضاة ، ذلك الكيان الادبي المستقل عن جمهور المواطنين المنتظمين جمعية شعبية .

مجلس الشيوخ والقضاة

الفرق كبير بالتالي بينه وبين « مجلس » المدن الديموقراطية اليونانيــة . كان هذا الأخير مستشار الجمعية يحرص على تنفيذ مقرراتها ويراقب حياة المدينة بأجمعها . اما مجلس الشيوخ فلا علاقة له بالجمعية بل بالقضاة في القيام بدورهم المستقل . تمتع في البداية بالـ *Auctoritas* ، ومعناها الاشتقاقي « الزيادة » ، أي بالقدرة على إكمال قيمة قرار شعبي لا يعلنه إلا في وقت لاحق ، وهذا يعني حقه في إلغاء القرار . ويبدو ان السمي قد بذل لشلّ

هذه السلطة ، خلال النصف الثاني من القرن الرابع ، بحصر حق الاستفادة منها قبـل جلسة الجمعية فقط . اجل ان لهذا الاصلاح أهميته القانونيـة ، ولكنه لا يسدّد في الواقع ضربة مؤلمة لسلطة الشيوخ . فاذا لم يكن هناك ما يحول دون اطلاع الشعب على ترشيح او مشروع لا يرضى عنها مجلس الشيوخ ، فنادراً ما يحدث ان يخالف رأيه قاض من القضاة . وقـد كمنت قوّته العملية ، في الحقيقة ، في نزول القضاة عند نصائحه .

لا يعطي مجلس الشيوخ مبدئياً سوى « المشورات » *Senatusconsulta* ، ولكن أصول جلساته ، وهي على جانب كبير من الاختلاف عن اصول جلسات الجمعية ، تحلّه منذئذ عـلى صعيد غير صعيد الجمعية . وهو ايضاً لا يستطيع الاجتماع إلا بناء لدعوة احد القضاة — او عدة قضاة ، اذا كانوا يقومون بعملهم متضامنين — الذي يترأسه ويختار على هواه القضايا التي يعرضها عليه . وحين يطلب الرئيس رأي احد اعضائه ، يتمتع كل من هؤلاء بحرية القول التامة . ويحق العضو ان يتكلم ساعات كاملة ، أي ان يلجأ الى العراقيل ويقترح التعديلات ويثير قضية لا يتعرض لها الرئيس ويطالب بأن تكرس لها جلسة مقبلة، الخ . فاذا بدا على المجلس انه سيوافق على هذه المطالبة ، فسيكون دائماً هنالـك قاض على استعداد للموافقة عليها ، وهو الرئيس اخيراً ، شأنه في الجمعية ، الذي يحدد موضوع الاقتراع ، وهو الذي يستطيع ، بعمله هذا ، ان يستخدم تحكمه استخداماً عريضاً، فيرفض التعديلات مثلاً او لا يقبل إلا بحلين متناقضين ويهمل كل الحلول الاخرى . ولكن الاقتراع فردي قد ترافقه ، في حالة الشك ، عملية احصاء دقيق بعد جمـع الأعضاء في مكانين مختلفين من القاعة . ثم يأتي اخيراً دور وضع صيغة « المشورة » *Senatus - Consulta* ، فاذا كان الرئيس مسيطراً سيطرة كافيـة ، يتوجب عليه تعيين شيوخ يشاركون في عملية التحرير ويحرصون بالتالي على ان لا ينم النص النهائي عن شعور الاكثرية .

بيد انه يجدر بنا ان نرى في هذه الاصول معلولاً لا علـّة ، وظاهرة لا تفسيراً . «فالمشورة» تتضمن دائماً التعبير المقيّد « اذا ارتأى » او « اذا ارتأوا » الذي يحفظ في الظاهر حرية القاضي او القضاة في التقرير ، ولا يتفق هـذا النص مع الطواعية الدائمة — باستثناء حالات نادرة وفاضحة — التي يبديها القضاة حيال نصائح يعملون بها كما لو كانت أوامر .

حتى ولو اخذنا بعين الاعتبار النفوذ السياسي والأدبي الذي يدين بـه مجلس الشيوخ للتقليد ولانتخابه وللخدمات التي يؤديها للمدينة ، فلسنا ندرك مثل هذا الانقياد اذا لم نفكر بكل ما يرتبط به في حياة الرجـل السياسي الروماني . فمن حيث ان الشيوخ ينعمون بالتأثير الاجتماعي الذي يوفره النسب والثروة ، فانهم يستخدمونه استخداماً مجدياً ابان الانتخابات . وان مجلس الشيوخ بنوع خاص ، اذا ما نظرنا اليه كهيئة ، يجد في صلاحياته المعتادة أكثر من إمكان لجعل مهمة القاضي سهلة ومجيدة احياناً ، ولإقامة العراقيل ايضاً في طريقه ، اقله بتشجيع معارضة احد زملائه او احـد المحامين عن حقوق الشعب ، والحكم عليه بأن يبقى مغموراً . وهكذا

تطبق على القاضي دائرة لا يستطيع النجاة منها إلا بواسطة صراع سافر : فهو يدفع بمجاملاته ثمن رضى الأكثرية في مجلس الشيوخ .

صلاحيات مجلس الشيوخ

تشمل سلطات مجلس الشيوخ في الواقع نطاقات متنوعة جداً بفضل العادات التي اتخذت صفة القانون والتي يجب إصدار قانون لتعديلها .

وقد سبق لنا ورأينا مدى هــذه السلطات في كل ما يختص بالسياسة الخارجية وملحقاتها والأقاليم والجيوش . ومع ذلك فللتشدّد عليها ، لأن المجلس يمارس ، في هذا الحقل بنوع خاص ، ضغطاً غير مباشر على أسمى القضاة مرتبة بواسطة احباناته وغضباته . ولمـا كان عليه تعيين الأقاليم التي سيسند الحكم فيها الى القناصل والقضاة المدليين في سنة ما، وتلك التي سيبقى الحكم فيها في أيدي من تولاه في السنة السابقة وستمدّد ولايته عليها ، فانه يخدم الأشخاص المعنيين او يضر بهم بوحي من شعوره نحوهم . ولم يقدم ، زمناً طويلاً ، على توزيع الأقاليم هذا ، إلا بعد الانتخابات : وقد وجب انتظار قانون اقترحه كايوس غراكوس ، في السنة ١٢٣ ، حتى يضطر للبت به قبل معرفة أسماء المنتخَبين ، الأمر الذي عرقل تدابيره دون ان يكفي لإلغائها . وكما انه يستقبل السفراء الأجانب ويجيبهم على أسئلتهم ، فانــه يعين السفراء الرومان ويزودهم بالتعليمات : فليس بالتالي من حرب نظامية دون رأيه ، وليس من صلح ايضاً اذا لم يوافق على بنود معاهداته.. وهو الذي يحدّد ، قاضياً قاضياً ، العدد اللازم للجيوش والأساطيل والوسائل المالية المقابلة . وهو الذي يمنح او يرفض « موكب الفوز » للقائد المنتصر . وهو الذي يوجــه اليه قادة الاقاليم وحكامها تقاريرهم ويرفع اليه الشاكون مظالمهم : فبرز من ثم نوع من السلطة القضائية الخاصة بمجلس الشيوخ يوزع بموجبها اللوم اذا لم يستطع فرض العقوبات الاخرى . اضف الى ذلك ان الشيوخ ، حتى استلام كايوس غراكوس منصب المحاماة عن الشعب، وطيلة السنوات العشر التي بقيت فيهـا قوانين سيلا سارية المفعول بعد ذلك ، قدموا وحدهم اعضاء مجالس المحلفين « الدائمة » : وكان احد هذه المجالس مختصاً بالنظر في دعاوى سرقات امناء الخزينة التي ترفع على حكام الاقاليم بنوع خاص .

اذا كانت صلاحيات المجلس الاخرى اقل تأثيراً مباشراً على ارتقاء القضــاة في المناصب ، فانها مع ذلك قد اسهمت في جعله يلعب دوراً حاسماً في الحياة الاجتماعية .

لنفصل عنها السلطات الدينية التي تعبر عن شيء من طبيعته الحقيقية ، اعني به اشتراكه في الكائن غير المادي الذي هو روما . فحين شغور « السلطان » المطلق ، اي شغور منصب الملك من قبل ، وشغور منصب القنصلين الآن ، الذي قـد يعقّده شغور منصب الدكتاتور ايضاً ، يعود الى « الآباء » حق استطلاع طيران الطيور وتعيين « الملك المؤقت » . وفي الظروف العادية يسهر مجلس الشيوخ على القيام بالاحتفالات والطقوس ، ويقرر الاعياد ويحدد ميزانيتهـا ويجيز عبادة الآلهة الجدد او يصدر حكمه عليهم ، الخ .

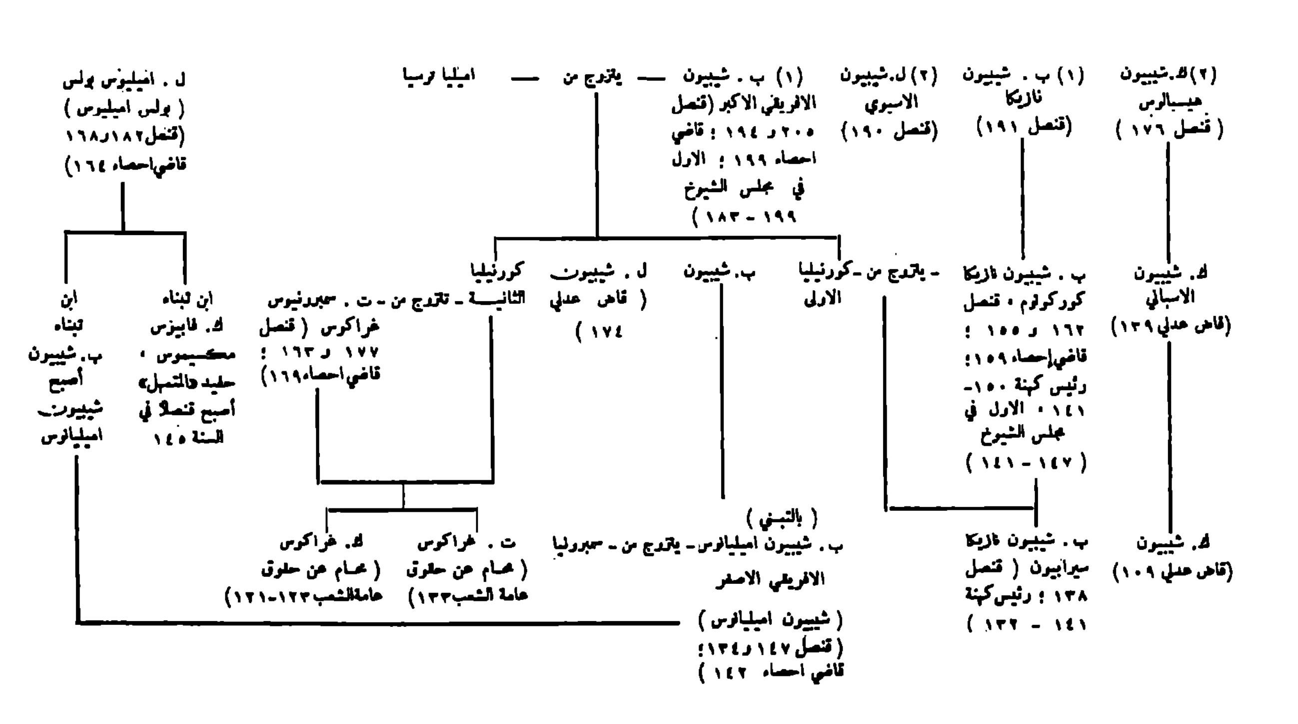
اما ما تبقى فادارة مـــادية . من ذلك ادارة ممتلكات المدينـــة مثلاً : فهو يقرر انشاء المستعمرات لانه يجر الى هبة قطع الارض المسلوخة من الاملاك العامة ، وفي المدة التي تفصل بين تعيين قاضي الاحصاء الخلف وانتهاء مدة قاضي الاحصاء السلف ، يبت بالشؤون المتعلقة بنفقات وايرادات الدولة ، ولا يتصرف القضاة الماليون المسؤولون عن الخزانة الا وفاقـــاً لاوامره ، وهو الذي يجيز اصـــدار النقد . بحيث ان اكثر القطع النقدية تحمـــل الحرفين . *S.C.* (*Senatus - Consulto* اي بموجب « مشورة ») .

لم يعترض على اية من هـــذه السلطات حتى آخر الجمهورية . ويكتفي ألد اعداء مجلس الشيوخ بالقول انها ليست وقفاً عليه وان الجمعيـــة الشعبية ، ذات السيادة ، تستطيع ان تحد منها . ويستصدرون عند الحاجة قانوناً يدخل تعديلاً عليها او يقضي بقرار خاص : فرز قطعة من الاملاك العامة ، واسناد ولاية اقليم الى احد القضاة ، الخ . اجل ، ان المجلس ينظر شزراً الى هـــذا الانتقاص من امتيازاته التقليدية ، ولكنه لا يتجاوز في اعتراضه حداً معقولاً ويقرر الانحناء في النهاية .

بيد ان الوضع قد تغير في السنة ١٢١ ، حين اقرت ، في حمّى الصراع ضد كايوس غراكوس المشورة « القصوى » التي تلزم القنـــاصل بالحرص على ان « لا تصاب الدولة باي سوء » . وقـــد اعتمدت هذه الصيغة إبان الازمات اللاحقة ، ولكنها بقيت مبهمة . غير انها ، في الواقـــع ، قد سمحت باسم السلامـــة العامة ، كما فهمتها آنذاك اكثرية المجلس الساحقة ، بالاقدام ، دون اية محاكمة ، على اعدام عـــدة مئات من انصار كايوس غراكوس في السنة ١٢١ ، وساتورنينوس وغلوشيا واصدقائهما في السنة ١٠٠ ، وشركاء كاتيلينا في المؤامرة ، بامر القنصل شيشرون ، في السنة ٦٣ . فهي اذن تمنح القضاة سلطات دكتاتورية مطلقة وتوقف مفعول كافـــة الضمانات الشرعية ، ابتداء بحصانة الحامين عن عامة الشعب وحق رفع الدعوى امـــام جمعية الشعب . وهذا لعمري حق جديد يدّعي به المجلس دون استناد الى اية سابقة . ولكن خصومه اذا ما هم ثاروا على اللاشرعية وتوصلوا من ثم الى الحكم على شيشرون بالنفي في السنة ٥٨ ، فانهم قد لجأوا هم ايضاً الى المشورة « القصوى » في السنة ٨٣ مثلاً ، حين توجب عليهم الدفاع عن انفسهم ضد « سيلا » ورأوا انفسهم اسياد المجلس الى حين . فلسنا في الحقيقة امـــام تجديد دستوري ، بل امام تدبير قوة : النظام يتخبط في ازمة ولا يعبأ بالشرعية .

النظـــام المجلسي واسباب ازدهـــاره

مر من قبل في مراحل عظيمة هادئة مسلم بها . وهو قـــد ارتكز الى اسس ادبية تفوق باهميتها نصوصاً مكتوبة هي عمل بشري قابل التحوير . وليس باستطاعتنا ان نرد هذه الأسس الى الوحدة ، لا بل ليس باستطاعتنا معرفـــة مدى أهميتها النسبية بالضبط : فهي متشابكة كلها . فكان هنالك احترام الـ *Mos majorum* « عرف الجدود » الذي يفرض الايمان بالحكمة القديمة ، أي بالعهد الذهبي نوعاً ما : ان هـــذا


(٢) ك.شيبيون
هيسپالوس
(قنصل ١٧٦)
(١) ب . شيبيون
نازيكا
(قنصل ١٩١)
(٢) ل.شيبيون
الاسيوي
(قنصل ١٩٠)
(١) ب . شيبيون
الافريقي الاكبر (قنصل
٢٠٥ و ١٩٤ ؛ قاضي
احصاء ١٩٩ ؛ الاول
في مجلس الشيوخ
١٩٩ - ١٨٣)
يتزوج من
اميليا ترسيا
ل . اميليوس بولس
(بولس اميليوس)
(قنصل١٨٢و١٦٨
قاضي احصاء ١٦٤)
ك. شيبيون
الاسباني
(قاض عدلي ١٣٩)
ب . شيبيون نازيكا
كوركولوم ، قنصل
١٦٢ و ١٥٥ ؛
قاضي احصاء ١٥٩ ؛
رئيس كهنة ١٥٠-
١٤١ ، الاول في
مجلس الشيوخ
(١٤٧ - ١٤١)
- يتزوج من -كورنيليا
الاولى
ب. شيبيون
ل . شيبيون
(قاض عدلي
١٧٤)
كورنيليا
الثانيـــة - تتزوج من - ت . سمبرونيوس
غراكوس (قنصل
١٧٧ و ١٦٣ ؛
قاضي احصاء١٦٩)
ابن لبناه
ك. فابيوس
مكسيموس ،
حفيد «المتمهل»
أصبح قنصلاً في
السنة ١٤٥
ابن
تبناه
ب. شيبيون
أصبح
شيبيون
اميلياوس
ك. شيبيون
(قاض عدلي ١٠٩)
ب . شيبيون نازيكا
سيرابيون (قنصل
١٣٨ ؛ رئيس كهنة
١٤١ - ١٣٢)
(بالتبني)
ب . شيبيون اميلياوس- يتزوج من - سمبرونيا
الافريقي الاصغر
(شيبيون اميلياوس)
(قنصل ١٤٧ و ١٣٤؛
قاضي احصاء ١٤٢)
ت . غراكوس
(محام عن حقوق
عامة الشعب ١٣٣)
ك. غراكوس
(محام عن حقوق
عامة الشعب ١٢٣-١٢١)

الاحترام هو الذي أعطى التقليد قوّته ، لا بل أعطى ، الى حد ما ، كل سابقة قيمتها . وكان هنالك الاعتراف بالقوى المتجسدة في غير العدد الأكبر . وكان هنالــك ما يشبه الحاجة في النفوس الى النظام والتظامية . وكان هنالك ما ينتزع قبول الفرد بالانتماء الى المراتب التسلسلية ، أعني به الشعور بأن الانسـان يوازي بما يمثله ، لا سيما في ماضيه ، اقله ما يوازيــه في حاضره . وقد اسهم كل ذلك في اقرار سيطرة مجلس الشيوخ . ولم يفت هـذا الاخير ، على كل حال ، ان يلجأ الى بعض التمييزات المقيتة : فقد أصدر حكمه مثلاً ، في تعاليمه حول الماضي ، على الملكية وبرع في إزالة أضرار رواسبها في مناصب القضاء العليا . وتهيب بنا هذه الملاحظة الى ان نذهب في بحثنا الى ما وراء المثاليــة : فكما ان المؤرخ لا يستطيع نكران ما تنطوي عليه مشاعر واعتقادات الجماعة من أثر خاص في تحديد حياتها السياسية ، كذلك لا يستطيع ان يتجاهل ان هذه العوامل الروحية تقتصر في أغلب الأحيــان على السموّ بوضع راهن وان اتفاقها مع غيرها يقرر على كل حال أهميتها العملية .

ان التحاليل السابقة تناولت عن قصد ، في الدرجة الاولى، عهداً يبتدىء في السنوات الاولى من القرن الثالث ويمتد الى الارباع الثلاثة الاولى تقريباً من القرن الثاني . في هذا العهد ازدهر في كماله ، بعد ان تعرض لعاصفة قبل ذلك ، ما يجب تسميته بالنظام المجلسي . فهو قد نشأ ، بهذا الشكل ، عن الحرب البونيقية الثانية التي نسبت هزائمها الاولى ، لا سيما هزيمتا بحيرة ترازيمينـا و«كانا» الى قواد شعبيين سبق لهم ان حاربوا مجلس الشيوخ. ومنذ « كانا »، وحتى نهاية الحرب ، نهض هذا الاخير ، بسبب احداق المخاطر وتعدد الجبهات الحربية وتغيب عظام القضاة وعـدد كبير من المواطنين المجندين تغيباً شبه مستمر ، وطيلة خمسة عشر سنة تقريباً ، بمهمة الحكم غالباً، والتنسيق دائمـــاً على الاقل ، وقد نهض بذلك وحده. او باستخدام قضاة من المراتب الدنيـــا كالمحامين عن حقوق عامة الشعب . وقد برهن آنذاك ، من جملة ما برهن عنه من صفات ، عن حزم وثبات امنا النصر لروما ووفرا له سلطة لم يعرفها من ذي قبل . وان كثيراً من الطرائق والسوابق التي لجأ اليها بعد ذلك قد ظهرت اثناء الحرب حلولا موقتة، وما كان تعاقب النجاحات العسكرية الكبرى في القرن الثاني ليستطيع الانثناء عنها.

بيد ان سيطرة مجلس الشيوخ ، حتى في هــذه الحقبـــة ، قد ارتكزت الى سبب آخر غير الانظمة ومهارة احد اجهزتها في جعلها تخدم مصلحتها بالذات . فالنظام المجلسي قد منح السلطة طبقة عبر وجودها الراهن ، دون ان يكون له بعد اي طابع رسمي ، عن شراكة في المصالح . ولحن سنعود الى هذا الواقع الاجتماعي في سياق البحث . بيد ان الاشارة تجدر منذ الآن الى ان الشيوخ كانوا آنذاك اوسع المواطنين ثروة واعظم الملاكين العقـاريين ، وانه كان لديهم « زبن » عديدون سيطروا بواسطتهم على الناخبين،وان مصاهرات متبادلة كثيرة قد جمعت بين عائلاتهم، وان ابناءهم كانوا يدخلون « مراتب الامجاد » بقوة ويدخلونهـــا وحدهم تقريباً ، وان « نبلاء »

مجلس الشيوخ كانوا بمثابة طبقة ومناصب القضاء بمثابة وقف عليهم . وقد تتيح الاحصائيات الاستشهاد ببراهين عديدة تثبت هذا القول ، ولكننا نكتفي ببعض الارقام التي لا تحتاج بلاغتها الى اي تعليق . من السنة ٢٣٣ الى السنة ١٣٣ ، اي خلال مئة سنة ، تعاقب على روما مئتا قنصل ينتسبون الى ثمان وخمسين عائلة فقط ؛ لا بل حدث اكثر من ذلك ، فقد قدمت ست وعشرون عائلة ١٥٩ قنصلاً ، وعشر عائلات اخرى ٩٩ قنصلاً . فكيف لا يتحقق الاتفاق للابقاء على هذا الوضع واستثماره .

٢ ـ فشل النظام ونواقصه

منشأ الازمات

على الرغم من ذلك انفجرت الأزمات، مرتدية باطراد مزيداً من الخطورة، حتى الحروب الأهلية التي ستفضي الى النظام الامبراطوري . فيتوجب علينا من ثم البحث عن أسبابها وراء الرجال الذين تسببوا فيها .

كان أحد هذه الاسباب محتوماً ، كما رأينا ، اذ ان مجلس الشيوخ قد تساهل في استمرار حروب دائمة أو عجز عن ان يضع لها حدّاً : فحصل بعض القادة على المجد والغنيمة بانتصاراتهم وأمنوا تعلّق جيوشهم التي غدت جيوشاً محترفة ، فوجد بينهم من يرفضون العودة الى الحياة المدنية حين يضمنون احترام أمثالهم . بيد ان الطموح الى السلطة ما كان ليراودهم لو لم يكن النظام ضعيفاً .

تسرّب الضعف بالفعل الى النظام عن طريق اختلافات الارستوقراطية الجلسية . فقد ساعد ضيق إطارها على تشكيل عُصب من الدساسين حول بعض الزعماء . وقد لعبت العلائق العائلية في هذه العصب دوراً لم يكن حاسماً على الدوام لأن الحسد وحتى البغضاء قد ينشآن بين الانسباء الأقارب : فان ب . كورنيليوس شيبيون نازيكا سيرابيون وطيباريوس غراكوس ، والأول هو قاتل الثاني ، كانا ابنين لشقيقتين. وكان للصداقات او العداوات الشخصية وللخدمات المتبادلة او منافسات الوظيفة دورها ايضاً. ويصطدم المؤرخون اليوم بعدم توفر المستندات لوضع دراسة عن هذه الاحزاب وتتبع تقلباتها التي من شأنها ان تلقي نوراً ساطعا على أكثر من قرار من قرارات السياسة الرومانية . ومهما يكن من أمر ، فان تضامن النبلاء قد شابته الخلافات المتأصلة ، ولم تتراجع الاهواء الهائجة امام افظع الفضائح: فلم تكن حياة كاتون القديم مثلاً سوى سلسلة من دعاوٍ رفعها على غيره او رفعها غيره عليه ، كما ان شيبيون الافريقي نفسه قد غادر روما ليقضي آخر حياته بعيداً عنها ، مختاراً النفي وثائراً على البشر ومحتقراً كل الاحتقار التهم الموجهة اليه .

وضعف النظام كذلك ، اخلاقياً ، باستئثار أسياده لسلطتهم استئثاراً أنانياً . وقد شدّد بوليب على حرص القضاة الرومان في التصرف بالأموال العمومية وفضلهم بقوة على مواطنيه

الاغريق : « قد يضع الاغريق عشرة عقود ويفرضون عشرة أختام ويستعينون بعشرين شاهداً، ولكنهم يعجزون مع ذلك عن القيـام بوظائفهم بنزاهة . اما عند الرومان ، فبمكنة القضاة والسفراء التصرف بمبالغ ضخمة ، وهم يبرهنون عن نزاهة كلية احتراماً منهم لقسمهم فقط » . بيد ان بوليب قد أشار ، في مقاطع أخرى ، الى تبدل هذه الاخلاق . أتاح حكم الأقاليم وقيادة الجيوش ، في الواقع ، الفرص للغوايات والتجارب القوية . فخضع لها أكثر من واحد ، كما خضع لنشوة السلطة المطلقة عـلى اجساد وحتى على حياة الكائنات البشرية له . فقـد ورد في احدى خطب كاتون ، الذي لم يجد الجرم ما يجيب به عليه ، ذكر حادثة قتل حقير اقدم عليه عند نهـاية احدى الولائم ، ل . كوينكتيوس فلامينينوس نفسه ، القنصل السابق واخو بطل سينوسيفال ، كان ضحيته فارٌ غاليّ يطلب الحماية، وذلـك لغاية واحدة هي ارضاء قرطاجي عزيز عليه أبدى الاسف امامه ، حين اضطر لمغادرة رومـا بسرعة، لعدم تمكنه من مشاهدة مصارعة المسايفين . اضف الى ذلـك عدم كفاءة عدد كبير من هؤلاء الرجال السياسيين الذين تسلموا القيادة ارتجالاً ولم يمارسوها وقتاً كافياً لاكتساب خبرة تعوزهم . فلا غرابة اذا ما توفرت الفرص الكثيرة لأعداء مجلس الشيوخ لاحتقار النظام كله من وراء الافراد المسؤولين .

وقد انضم الى كل ذلك ما هو أدهى : اختلال التوازن الاقتصادي والاجتماعي الناجم عـن الفتوحات . فقد قامت في روما طبقـة من المواطنين الكادحين ، المتزايدين عدداً ، المستعدين للاندفاع وراء كل تيار وللاشتراك في كل ثورة. فسيطر الخوف، باكراً جداً، على الطبقة الحاكمة، من امكان تأثير بعض القادة الحربيين النافذين على هذه الطبقة . ولكن الخطر داهمها من جهتين. فحصرت همها في محاولة إحكام هؤلاء الرجال بتنظيم ارتقائهم وايقافه . ولم تفكر بالاصلاحات - او لم تعقد العزم عليها - أي بالتضحيات التي كان من شأنها ان تخفف من الخطر الثـاني ، الحقيقي ، الذي أثاره وجود الجماهير الشعبية في المدينة والقلق المسيطر عليها . وكان الأوان قد فات حـين حاول شيوخ ينتسبون الى العائلات الشهيرة ، آل غراكوس وأصدقاؤهم ، تدارك الداء . ولكن أكثرية المجلس الساحقة تكتلت ضدهم ولجأت هي نفسها الى العنف الفوضوي في سبيل محاربتهم . فجاء موتهم انتصاراً لها - وفي الواقع حكماً عليها بالزوال .

الفوضى والحروب الاهلية

ان الاضطراب الذي ابتدأ على هذا الشكل لم يعرف نهـاية حقيقية . فتقابلت فئتان منذ ذلك الحين تضطرم فيهما احقـاد متبادلة : فئة « الشعبيين » وفئة « الافاضل » ، وقد ساندت كلا منهما مداورة فئة الفرسان . ولكن فئـات النخبة الاجتماعيـة ، حتى ولو اتحدت حين يتضح خطر الثورة ، مـا كانت لتستطيع التغلب على الديموقراطيين ، الذين يفوقونهـا عدداً ، الا باللجوء الى الرشوة والتهويل ، والقوة عند الحاجة .

فدرجت العادة ، عند الطرفين ، على ان لا يتراجعا امـام اية مغالاة في سبيل السيطرة على

الشارع والجمعيات ، وفرض مرشحيهما للانتخابات ، وشل عمل القضاة الذين حلوا هم زملاءهم على انتخابهم . وتوصلوا لان ينظموا فرقـــاً من الانصار ، وعند الحاجة من المسايفين العبيد حاملي الدبابيس والاسلحة الحقيقية في غالب الاحيان . ولنا في القرن الاخير العهد الجمهوري الف مثل عن اعمال عنف افضت الى معارك دامية يتقاسم مسؤولياتها الطرفان. ويكفي هنا ان نستشهد بالوقيعة المفاجئة التي تصادمت فيها ، في شهر كانون الثاني من السنة ٥٢ ، على بعض المسافة من روما ، زمر العدوين ، كلوديوس وميلون ، المهيجين المتطرفين المنتمين الاول للشعبيين والثاني « للافاضل » . ومع ان السنة الجديدة قد ابتدأت ، فقد كانت المدينة دون قضاة في المناصب العليا ، اذ ان الانتخابات لم تجر ولم يعين « ملك مؤقت » فسقط كلوديوس جريحـاً ونقل الى منزل حيث اجهز عليه حرس منافسه . ولكن اصدقاء الضحية احرقوا ، في اليوم التالي، قاعة اجتماعات المجلس ، فاستخدمت وقوداً لترميد الجثة . فغرقت روما في الفوضى .

وغرقت في الحرب الاهلية ايضـــاً ، لانه كان من المحتم ان تستدعي اضطرابات الشارع ، عاجلاً ام آجلاً ، تدخل الجوقات . وكانت الجوقات في قبضة قادتها الذين نزعوا بصورة طبيعية الى ان يجمعوا بين قضيتهم الشخصية وقضية الفئة التي هم مدينون بالقيادة لعضدهـــا . كانوا في البدء لا يزالون يحترمون الشرعية ، فاكتفوا باستخدام رصيدهم لدى الشعب واخلاص جنودهم القدامى . ولكن هذا التحفظ ما كان ليستمر، فخطا الخطوة الحـاسمة ، مرة اخرى ، على غرار ما حدث حين قتل طيباريوس غراكوس ، احد افراد فئة « الافاضل » . فسيلا هو الذي حقق ، في السنة ٨٨ ، اول انقلاب عسكري باقحام جيوشه في « المدينة » حتى داخل الاطار الذي لم يسمح للقادة والجنود بدخوله الا للاحتفال « بموكب النصر » . كانت هذه سابقة اسرعوا من الجهة الثانية الى الاقتداء بها . فتحول التنازع السياسي الى حرب اهلية تزيد من مجد وطموح اولئك الذين كانوا يتزعمونها . وكان من شأن قهر جيش الخصوم ، وهو اشد ضمانة من هيـــاج جمعيات الشعب ومن سلطة مجلس الشيوخ من حيث انه يسمح بتحطيم الحواجز الشرعية بضربة واحدة ويجعل الاغتيال عملية رسمية عن طريق لوائح المحكومين بالقتل دونما محاكمة ، ان يولي السلطة ، اي سلطة من السذاجة الاعتقاد بان مستلمها سيتخلى عنها دائماً ، على غرار مـا فعل « سيلا» بعد ان سن للجمهورية قوانين جديدة .

لمات النظام الجمهوري تاركاً المكان للملكية الامبراطورية .

نواقص المدينة الجمهورية

بعد تفكيك هـذا التلاحم ، لا تستدعي نواقص النظام الأخرى درساً طويلاً . بيد انه تجدر الاشارة اليها على الاقل : فكما ان المدينة لم تعرف كيف تكيف جيشها وحكومتها المركزية على الحاجات الناجمـــة عن الفتح ، كذلك لم تفلح في القيام بمهمة الادارة اليومية قياماً حسناً .

اجل لم تشك قط من عجز مالي. فقد عرفت في الحقيقة ، خلال الحرب البونيقية الثانيــة ،

صعوبات من هذا النوع حين اضطرت لأن تغرف من احتياطيها الذهبي لسكه ، ولتخفيض وزن القطعة الفضية ، الدرهم ، بمعدل السدس ، ولرفع قيمته مع ذلك من عشر قطع برونزية الى ستة عشر ، ولمضاعفة الضريبة المباشرة المفروضة على رأس المال مرّتين وحتى ثلاث مرات ، ولخلق حماس متفاوت التلقائية في مواطنيها الأثرياء بغية الحصول منهم على قروض او هبات . ولكن النصر وضع حداً لهذه المتاعب التي زالت نهائياً . فقد أفضت حروب القرن الثاني العظمى ، في بلدان الشرق الهليني ، الى كسب غنائم ضخمة كانت تودع الخزانة العامة بعد استعراض كل من مواكب النصر ، وتغذت الخزانة ، بالاضافة الى ذلك ، من تعويضات الحروب التي كانت تدفع أقساطاً ، ولا سيا من موارد الأقاليم ، كالضريبة السنوية ودخل الأملاك العامة (المناجم بنوع خاص) . فغدت المدينة على جانب من الثروة استطاعت معه ، منذ السنة ١٦٧ قبل المسيح ، ان تلغي الضريبة المباشرة المفروضة على مواطنيها : ولم تجبَ هذه الضريبة بعد هذا التاريخ . وفي السنة ١٢٣ أخذت تصدر ، مع كايوس غراكوس ، سلسلة القوانين « الحنطية » التي أرغمت الدولة ، وفاقاً لتطورات النزاع بين الاحزاب ، على بيع القمح للمواطنين بسعر مخفض تارة ، وحتى على توزيع بعضه مجاناً تارة أخرى : وحين فرض قيصر دكتاتوريته ، كانت لوائح المستفيدين من هذه الاعطيات العمومية السخية تضم ٣٢٠٠٠٠ اسم .

بيد ان هذا اليسار المالي ارتبط الى حدّ بعيد بطابع جهاز الدولة الذي بقي بدائياً جداً . فاذا ما استثنينا مرتبات العسكريين والطريقة الخاصة المعتمدة في تموين المدينة عن طريق بيع القمح بخسارة او توزيعه مجاناً ، انحصرت النفقات الرئيسية في العبادة والاشغال العامة . اجل كانت الألعاب التي تقام للترفيه عن الشعب في مواسم الاعياد الدينية باهظة النفقات ؛ ولكن نظار الأبنية والطرق الذين عاد اليهم أمر تنظيمها كانوا يتحملون نصيباً كبيراً من الأكلاف اهتماماً منهم بالمحاورة الانتخابية . اما الابنية ، بالاضافة الى ان سخاء الافراد ، او اقله سخاء القادة من دخل غنائمهم ، قد ساهم بأكلافها ايضاً ، فما زالت في حالة وسط نسبياً : فقد نمت روما شيئاً فشيئاً دون نظام معين ولم تحاول بالتالي ان ترتدي مظهراً خارجياً لائقاً بقوتها ، ولن يحوّلها سوى الملوك خدمة لنفوذهم الشخصي ؛ ولا شيء من جهة ثانية ، باستثناء الطرق ، في ايطاليا والاقاليم . اما الاقتداء بالدول الهلينية العظمى ووعي ضروريات الحياة المادية فلم يصبحا أمراً ملحاً إلا ببطء ؛ واستمرت روما في العيش كأنها مدينة صغيرة ، مستشهدة مبدئياً بتفاني واعتزاز مواطنيها الاولين بغية التقليل الى أقصى حد من نفقات ضرورية لتحقيق المهام الجديدة الملقاة على عاتقها. ولم يتقاض الشيوخ والقضاة والكهنة أي أجر اذ ان وظائفهم كانت «شرفية». وقد عاونهم كتبة ومساعدون دائمون مختلفون تولت الخزانة دفع أجورهم ؛ وكانوا كلهم من الفقراء لا يبلغ مجموعهم عدداً كبيراً ولم يؤلفوا يوماً دوائر قمينة بتأمين استمرار ادارة يتبدل المسؤولون عنها تبدلاً سريعاً .

لم يكن لهذه الادارة من وجود في الواقع ، أقله بقدر ارتباطها بالدولة . ولعل

أسوأ ما هنالك ان الدولة ، المتصلبة في تهربها من واجباتها ، سمحت بقيام ادارة خاصة حقيقية ، ادارة المزارع ، وتمادت في السماح لها بالعمل على حساب قوّتهـــا الخاصة وفي سبيل القضاء على مرؤوسيها : وان نظرة على تنظيم الاقاليم ومصيرها سيلقي ضوءاً على هذه المغالطة الظاهرة .

الاقـــاليم . لم تحدث روما ، طالما هي لم تبسط سيادتها الا على ايطاليا ، اي جهاز خاص لممارسة هذه السيادة . فقد عاد امر مراقبة سلوك الجماعات المحلية ، في اطـــار الاستقلال ، الى مجلس الشيوخ والقضاة العاديين. وكان باستطاعة هؤلاء ان يفوضوا الحكام « *Préfets* » بتأمين هذه المهمة : وقد وُجد هؤلاء في كبانيا بنوع خاص ، عينهم قاضي المدينة العدلي في البداية ، ثم انتخبهم الشعب ، بغية توزيع العدل . بيد ان النتائج اتت متوسطة فقط وغالبا ما افسدهـــا تحكم القضاة ، فحاول قيصر ادخال النظام الى هـــذا التنوع وتنظيم الحكم المحلي في الوقت نفسه تنظيماً اقرب الى الديموقراطيـــة ، بواسطة قانونه « البلدي » . غير ان الشكاوى لم تكن قط عامة او خطيرة .

ولكن رومـــا ، منذ منتصف القرن الثالث ، سيطرت وحافظت على اراض تقع وراء البحر — صقليا في الدرجة الاولى — فتوجب عليها استنباط نظام جديد : فغدت هذه المناطق « ولايات ». وقد عنى هذا التعبير في البدء، ولمدة طويلة جداً ، المهمة المسندة الى احد القضاة ، اي صلاحيته الخاصة : السلطة القضائيـــة ، وقيادة الاسطول وادارة الحرب الخ . فصدر شيئاً فشيئاً عن هذا العمل الاخير ، الذي كثيراً ما يقوم به قضاة المناصب العليا ، مفهوم الاقليم ، اي الاقليم حيث تدور العمليات، او الاقليم المحتل المسندة ادارته الى حاكم ، اي الى قاض . وقـــد درجت العادة ، حتى سيلا ، على ان لا تتجاوز مدة الاسناد سنة مهمة القـاضي . ولكن تطور المفهوم هذا لم يزل مفهوم المهمة الفردية: فالرجل الذي يتسلم اقليماً من الشعب الروماني ، يتسلم منه تفويضاً بجميع سلطاته على هـــذا الاقليم ؛ وكان من جهة ثانية يتمتع فيه « بالسلطان » العسكري الكامل .

كان من شأن هذا النظام ان اخضع الاقليم الى تبديلات متكررة في الحكام : وقد حدث ذلك مبدئياً ، وعملياً كل سنة ايضاً في اغلب الاحيان ، حين لا « تمدد » ولاية القاضي . وقد اخضعه بنوع خاص الى تعسف الحاكم ، بسبب السلطات الواسعة التي يمنحها هذا الحاكم الحق الذي يؤتيه اياه النصر . اجل لقد اقر « قانون الاقليم » حين انشائه ؛ وكان هذا القانون له بمثابة الدستور ، يحدد بقعته ويعين النظام الخاص الممنوح ، مثلاً ، للمدن التي عقدت معاهدة مع روما واستحقت صفة « المتحدة » — وقد اعترف ببعضها « حرة » احياناً — ويبين مبلـــغ التعويض المفروض ، كيفية استيفائه ، الخ . ولكن الحاكم ، ممثل سلطة روما وقوتها ، المتمتع بحق توزيع العدل ، البعيد عن كل رقابة او خطر باستثناء خطر الدعوى التي قد ترفع عليه بعد عودته الى ايطاليـــا ، كان حراً طليقاً في اخضاع سكان الاقليم لتطلباته حتى غير الشرعية ناهيك عن التسهيلات التي وفرتها

له بعض العادات كالتلاعب في الرسم المفروض على الحنطـة ، وهو يختلف عند الشراء عنه عند البيع ، او كالواجب المفروض على الاقليم بتأمين معيشته ومعيشة بطانته .

الى هذا الاغتصاب يقدم عليه السيد ، انضاف اغتصاب المزارعين . فالجمهورية الرومانيـة لم تحاول قط ، في الحقيقة ، تنظيم اقل ادارة مالية ، لا لنفقات الخزانة ولا لوارداتهـا ولا لاستثمار املاكها العامة . وقد وكلت هذا الامر الى مزارعين هم على العموم جمعيات ذات شأن كثيراً ما تفرض نفوذها على الحكام المكلفين مبدئياً مراقبة اعمالها . وقد ارتبط هؤلاء بها باشكال مختلفة ابتداء من الرشوة حتى التهديد بالتشهير تلميحاً او تصريحاً . وقد شاركها الكثيرون في ارباحهـا عن طريق وسطائهم . وقد تمتعت هي ، عن طريق ثروتها واشخاص اعضائهـا ، بنفوذ سياسي عريض في روما ، لا سيما حين قضى « القانون العدلي » ، الذي سنه كايوس غراكوس ، باستدعاء الفرسان ، اي اعضائها واصدقائهم ، كمحلفين في المحاكم . وبعد ان توسع هذا الحق ، ثم الغـاه سيلا ، ثم اعيد في اعقـاب الدعوى التي هاجم فيها شيشرون قاضيَ صقليا العدلي السابق، فيريس ، جعلهم اسياد دعاوى سرقة الاموال العمومية المسلطة على الحكام . اجل لجأت المدن والملكيات اليونانية ايضاً الى تلزيم الاموال بغية تجنب انشاء ادارت دقيقـة . ولكنها جزأت التلزيم ، وغالباً ما افرطت في التجزئة ، ومارست مراقبة شديدة على الملتزمين ، حائلة دون حصولهم على قوة اجتماعية وسياسية . اما الرومان فلم يحافظوا على هذا النظام الا في صقليـا والغوه في المناطق الاخرى كما حدث في المملكة الاطالية القديمة التي اصبحت الاقليم الأسيوي . فقصروا في واجباتهم الاولية نحو انفسهم ونحو رعـاياهم بسبب افتقارهم الى ذوي الاختصاص ، وخوفهم امـام تعقيد المعضلة العملية ، وانانيتهم وقسوتهم كفاتحين يعتبرون كل شيء جائزاً للمنتصرين . وكان من مصلحتهم في الحقيقة تأمين بقاء الرعـايا ، فحدوا من جهة ثانية ، من حريتهم الشخصية بسماحهم لارستوقراطية مالية ان تنمو وتصبح الحكم في نزاعاتهم الداخلية .

كانت الاقاليم اذن خاضعة لاستثمار لا حد له تقريبـاً. فحتى ولو لم يل الحكمَ الاقليمي حرياً حقيقية واسند الى هذا او ذاك لمناسبة الفوز بقضاء عدلي او بقنصلية، فانه قد بات وسيلة طبيعية لاعادة بناء ثروة بذرها بذخ الحياة في رومـا او النفقات الانتخابية . ومع ان شيشرون كان حاكماً نزيهاً على كيليكيا في السنة ٥٠ ولم يقم سوى بحملة قصيرة ضد الجبليين المساكين ، فقد جمع بعد انقضاء السنة ما يعادل ٥٥٠٠٠٠ فرنك في السنة ١٩١٤ . اضف الى ذلك ان الاقاليم قد تعرضت لغزو « تجار » من جميـع الطبقات ، بينما لم يكتف عملاء الملتزمين بفرض ما يفوق حقهم في جباية الضرائب او بفرض الاشغال الشاقة في المناجم والمحاجر والامـلاك العمومية الاخرى الملتزمة ، بل عمدوا، لا سيما مع الجماعات، الى الربى الفاحش — ٤٨ ٪ واكثر احياناً . وقد حمل الحكامَ على الحكمة ما حدث للوكولوس الذي اراد وضع حد لفضيحة هذا الربى والذي افضت المعارضة الفعّالة لدى جنوده انفسهم ، في السنة ٦٧ ، الى فقدان حظوته وانهزامه ، فتغاضوا عن كافة هذه التصرفات ، لا بل اشتركوا فيها احياناً باقراض جيوشهم والحكم في الدعاوى .

ذلك كان منذ القرن الثاني ، واستمر حتى عهد الامبراطورية ، النظام السائد في الاقاليم الرومانية . وكان منه في الحقيقة ان ادخل عوامل فوضى إضافية الى مدينة شكت من المزيد منها . فليس هنالك من دولة ؛ وليس من وحدة وحتى من تضامن ؛ وليس من ادارة، بل اقاليم معزولة لكل منها حاكمها الذي هو ملك يتمتع بسلطة مطلقة وسريعة الزوال في آن واحد ، وأراض توفر المال والاسلحة احياناً لأسيادها في ثوراتهم على الحكومة المركزية ، وبلدان نهبت أثناء الفتح واستثمرت بعده دونما شفقة ، لا لمنفعة المجموع بل لمنفعة مواطنين أثرياء ، وشعوب انتزع منها ليس استقلالها فحسب بل ممتلكاتها المادية ايضاً فغدت مستعدة لاستقبال أي محرر : فبعد انتصار ميتريدات مثلاً ، شفى العالم اليوناني غليله في السنة ٨٨ بتقتيل ٨٠٠٠٠ روماني وايطالي في آسيا الصغرى ، و ٢٠٠٠٠ بعد ذلك في ديلوس ، بينما كان ملك البونت — ولكن التقليد يعرف كيف يبتدع الأماليح الرمزية والكلمات التاريخية — يسكب الذهب المذوّب في فم احد القناصل السابقين .

ليس من ريب في ان الجمهورية قد تركت ، عند زوالها ، عملاً ضخماً شاقاً للنظام الذي سيخلفها .

الفصل الثالث

التطوّر الاجتماعي والاقتصادي

اذا لم تكيف المدينة الجمهورية أنظمتها ، بسبب لامبالاتها او عجزها ، وفاقاً للنتائج المباشرة وغير المباشرة التي أدى اليها الفتح ، فقد أصبح من الحتم ان يقلب هذا الأخير ظروف حياتهـــا الاقتصادية والاجتماعية رأساً على عقب . وان التطور الذي نلاحظه في هذه الحقول لمن أشدّ الاحداث تأثيراً في تاريخ العصور القديمة من حيث اتساعه الخاص ومن حيث انعكاساته .

فليس من تبدل ، في أي مكان ، اعظم بروزاً منه في جهاز وفرع حياة الطبقة الحاكمة ، تلك التي توفر لنا مستنداتنا حولها مزيداً من المعلومات .

١ ـ الطبقة الحاكمة

الاقتصاد والمجتمع الاوليان

كانت روما في البداية مدينة فلاحين يتعاطون الزراعة وتربية المواشي. وقد بقيت الحياة البسيطة التي يمارسها في الحقول ملاّك يعنى بقطيعه ويحرث ارضه بنفسه، مثلاً قومياً أعلى، وان كان على العموم مثلاً مبتذلاً كما هو طبيعي . ولكن التربة الرومانية بالذات ، لم تكن صالحة جداً للاستثمار الريفي حتى ولو صرّفت مياهها وفاقاً للتقنيات الاتروسكية . لذلك فان روما وسكانها قد لبوا دعوة أخرى ، هي دعوة موقع روما كمدينة ـ جسر هي أقرب المدن الى مصب التيبر حيث يتوجب على الملاحة البحرية ان تفرغ شحناتها وحيث تلتقي بالتـــالي طرق برية او مختلطة : احداها موازية للساحل تقريباً ، من اتروريــا الى كمبانيا،والثانية تحاذي النهر وتسير عليها المواكب التي تنقل الملح ـ ولذلك سيطلق عليها اسم « طريق الملح » ـ قاصدة جبال « الابنين » الوسطى. فيتضح بالتالي ان نشاط روما التجاري قديم جداً حتى قبل ان يحمل منه تزايد سكانها امراً واجباً ويفرض استيراد كميـــات متزايدة من الحبوب لسدّ نقص الانتاج المحلي . فلا مجال بالتـــالي ، منذ عهد مبكر جداً ، لأن نهمل ـ الى جانب الريفيين ـ مدنيين نشيطين ايضاً مع انهم يعيشون حياة اخرى .

فهل يجدر بنا التشديد على هذا الخلاف لتفسير توزيع المواطنين منذ القدم الى طبقتين، طبقة

الأشراف وطبقة عامة الشعب ؟ منذ زمن قديم تناولت معضلة أصول هـذا التوزيع الاجتماعي الثنائي حلولاً مختلفة جـداً : ومن الجرأة ، حتى اليوم ، ابداء رأي قاطع في هـذه الاصول . اما في الواقـع ، فحين يتراءى الفرق بين هاتين الفئتين من المواطنين ، أي حين يبدأ التقليد ، الذي يشك بالكثير من رواياته وتفسيراته ، في الكلام عن النزاع بينهما ابتداء من اوائل القرن الخامس ، تبدو طبقة الاشراف كأرستوقراطية من الملاكين العقاريين وطبقة عامة الشعب كطبقة مؤلفة من عناصر مختلفة جداً يتجاور فيهـا صغار الملاكين الاحرار والصناعيون والتجـار . ومهما يكن من الامر ، وحتى ولو سلمنا بان الاختصاص الاقتصادي كان له دوره في اصل هـذا التوزيـع ، فان خلافـات اخرى متنوعـة قد برزت وارتدت مزيداً من الاهمية .

كان الاشراف وحدهم في الواقع منظمين عائلات كبرى *Gentes* يحمل كافة اعضائهـا اسم (*Gens*) ، مما فرض استعمال اسماء شخصية وحتى القاباً . وقد تفرعت هذه العـائلات الى عائلات صغرى خضعت كل منها الى سلطة « ابي العائلة » (*Pater familias*) وكان لكل منها تقاليدها ، واعرافها وعاداتها الخاصة ، واملاكها المتجاورة على العموم ، الجماعيـة احياناً ، والمتمتعة ، على الاغلب ، بامتياز اشبه بحق استرداد المبيع منها . وبالاضافة الى افراد العـائلة (*Gentiles*) حفدة جـد الـ (*Gens*) او المرتبطين بذريته بالتبني ، كان للعـائلة « زبنها » ايضـاً اي اناس « يسمون » كلمة السيد ، مرؤوسون تقليديون بالوراثة . وكان بين هؤلاء معتقون ، ولكن واحداً منهم لم يمتلك كثيراً من العبيد بعد . ولذلك فقد كانوا في اغلبيتهم رجالاً ، وفلاحين احياناً ، وضعوا انفسهم ، لاسباب مختلفة ، اقتصادية احياناً ، تحت حماية احد المقتدرين القانونية والمادية ، « نصيرهم » ، متعهدين له بالمقابلة بان يسيروا وراءه ويساندوه حتى باموالهم في بعض الحالات . اجل ان قيام الروابط بين رجل ورجل ، احـدهما يحمي الآخر ويدخله في خدمته ، له ما يشبهه في كثير من المجتمعات القديمة وحتى من مجتمعات احدث عهداً . ولكن هذه الروابط لا تبرز في أي مكان آخر أعظم اتساعاً وفعاليـة منها في روما لأن نظام الاستزلام (الزبن) الذي كان في البدء خاصاً بطبقة الاشراف قد اصبح شيئاً فشيئاً نظاماً عاماً استفاد منه كل غني ومقتدر ، وأثر ، حتى النهاية ، في تنظيم وحياة المجتمع الروماني . وقـد سمح هـذا النظام ، في تلك الأزمنة القديمة ، لبعض العائلات بتأليف مجموعات بشرية هامة : يقال ان عائلة فابيا (*Fabia*) كانت تضمّ ، في السنة ٤٧٩ ، بالاضافة الى ٣٠٦ افراد ، ما بين أربعة وخمسة آلاف « زبون » . فيظهر جلياً ان هـذا التأثير على أعضاء الطبقات الدنيا ، بالاضافة الى الدور العسكري الذي لعبه الاشراف بفضل ثروتهم وتربيتهم ، قـد وفـّر لهم احتكار السلطة السياسية الوطيد العلاقة باحتكار الحماية والرعاية .

بيد ان بعض « الزبن » ، على الرغم من مساعي الاشراف – ان قانون « اللوحات الاثنتي

عشرة يعاقب خيانة الزبون – وحتى دون زوال العائلة ، قد حطموا هـذه القيود ، منذ عهد باكر جداً ، للالتحاق بعامة الشعب او العودة اليها . فهنا لا يجد الانسان نفسه محاطاً بمثل هـذا النظام الديني والاقتصادي والاجتماعي . وقد تمسك الاشراف بهـذا الفارق ضناً منهم بامتيازات طبقتهم ، فرفضوا زمناً طويلاً الاعتراف بشرعيـة الزواج المختلط ، في حال انهم وافقوا عليها دونما صعوبة ، وعلى قـدم المساواة ، بينهم وبين عائلات نبيلة من مناطق ايطالية مضافة الى الارض الرومانية ، شرط ان يكون تنظيمها شبيهاً بتنظيمهم . وجهلت عامة الشعب المجموعات العائلية التي لم تظهر فيها إلا تدريجياً ، خالية من معناها الحقيقي . وكذلك ، فقـد اختلف اختلافاً بيّنا ايضاً التنظيم الجماعي ، المتميز ، الذي جعل من العامة ما يشبه مدينة قائمة بذاتها لها قضاتها الذين انتخبتهم ليدافعوا عنها ضد طبقة الاشراف ، ومرد ذلك الى ان هـذا التنظيم كان مستقلاً عن الوراثة والاطارات الاجتماعية التي رسمها ، والى انه وضع جنباً الى جنب مواطنين متساوين مبدئياً .

انهيار طبقة الاشراف وطبقة النبلاء

أفضى هذا الصراع الطويل والعسير احياناً الى بلوغ المساواة المدنيـة والاجتماعية والسياسية بصورة تدريجية ، فكانت النتيجة المحتومة انهيار الطبقة المحظية .

حافظ الاشراف على حقهم في بعض وظائف كهنوتية نادرة جداً او على وظائف يغلب عليها الطابع الديني كوظيفة الملك المؤقت مثلاً. وقد احتفظوا كذلك بأولوية أدبية من الصعب جداً، على كل حال، تحديدها ومعرفة مداها : فقد احترم الرومان نظام المراتب المستند الى التقليد . ومما يدعو الى الدهشة البطء الذي رافق ظهور بعض مبادىء المساواة في الوقائع بعد بلوغهـا . فهكذا بعد ان حصل الشعبيون في القرن الرابع على حق استاد احـد منصبي القنصل او قاضي الاحصاء الى احدهم بالضرورة ، انتزعوا ، في منتصف القرن الثـالث ، حتى شغلهما كليهما في آن واحد . ولكن القنصلين لم يعينا من بين عـامة الشعب ، للمرة الاولى ، الا في السنة ١٧٢ وقاضي الاحصـاء الا بعد القنصلين باربعين سنة ، ولم تدرج هـذه التجديدات في الاعراف والعادات . لا بل ان نسبة الاشراف في كافة الاجهزة الحاكمة ، باستثناء مناصب قضاة عامـة الشعب فقط ، قد بقيت مرتفعة اذا ما قيست بعددهم الحقيقي .

بيد ان هذا الواقع ليس ذا شأن لانهم ما كانوا ليجدوا فيه سوى ارضـاء لانانيتهم او دور ابهة دون اثر سائد لا يحسب لآرائهم فيه اي حساب . فقـد اسهم كل شيء في ان ينزع عنهم طابع الطبقة المتميزة بنوع حياتها : تكرر الزواج المختلط وتراخي زوابط استزلام الزبن الذي غدا اوسع شمولاً ، وتجزئة الاملاك العقارية العائدة الى عائلاتهم ، واثراء عناصر اجتماعية اخرى. ومن جهة ثانية اخذ عددهم بالانخفاض لان انضمام العائلات الجديدة اليهم بعد انصهارها في المدينة الرومانية قد زال منذ القرن الثالث : ففي آخر الجمهورية ، على ما نعلم لم يبق هنالك سوى اربعة

عشر من هذه العائلات الكبرى تضم ثلاثين عائلة صغرى تقريباً . وبالاختصار ، فان الماضي ، على هذا الصعيد ، قد ادركه الموت ، وان الدم الجديد الذي وفره الاباطرة ، تمسكاً مفرطاً منهم بالشكليات الدينية ، لم ينجح قط في اعادته الى الحياة .

وقامت ارستوقراطية اخرى اطلق عليها اسم طبقة النبلاء « *Nobilitas* » وكان مقياسها في ذلك عضوية رئيس العائلة في مجلس الشيوخ : فهي قد جمعت اذن ، في آن واحد ، عائلات من عامة الشعب وعائلات من طبقة الاشراف . وقد فتحت ابوابها مبدئياً للجميع بمجرد الانتخاب لمنصب من مناصب القضاء . ولكن هذه الابواب قد اوصدت عملياً اذا ما نظرنا اليها كطبقة اجتماعية . ومرد ذلك الى انه يغلب ان ابناء الشيوخ الذين استطاعوا حضور جلسات مجلس الشيوخ وقوفاً وافادوا ممن تضامن النبلاء اثناء الانتخابات قد دللوا على نقائص لا تعوض اذا هم لم يرتقوا سلم المراتب . وعلى نقيض ذلك فقد كان هزيلاً جداً حظ المرشحين الآخرين ، « الرجال الجدد » – ولا ينطوي هذا التعبير على مفهوم دقيق ، بل استعمل على العموم للاشارة الى اولئك الذين لم يتوصل واحد من جدودهم الى اعتلاء منصب ذي « سلطان » . وكان من الندرة المستهجنة وصول احدهم الى القنصلية : اربعة فقط ما بين السنة ٢٠٠ والسنة ١٤٦ ؛ اما في القرن الاول فقد كان شيشرون اول من توصل اليها في السنة ٦٣ ، بعد ماريوس الذي توصل اليها في السنة ١٠٨ .

وقبل ان يحظى النبلاء باعتراف الدولة الرسمي ، استفادوا من عادات راسخة في التقليد حتى يتميزوا عن الطبقات الاجتماعية الاخرى . اجل لقد فقدوا امتياز الخاتم الذهبي الذي شمل الفرسان قبل ان يشمل كافة المواطنين ، ولكن الطريدة الارجوانية المخيطة على القميص من اعلى الى اسفل كانت عندهم اوسع عرضاً منها عند الفرسان . وكان لهم وحدهم الحق في انتعال الاحذية الحمر . وكان لهم اخيراً « حق الرسوم » ، اي حق عرض اقنعة او تماثيل جدود العائلة المجيدين في المواكب الجنائزية .

وهكذا فان هذه الارستوقراطية التي برزت في القرون الاخيرة من العهد الجمهوري قد تمتعت بامتيازات وافرة جوهرية وشرفية على السواء . ومهما كان من أمر نجاحات الحركة الديموقراطية ، فقد تنكرت النخبة الرومانية لعملية التمهيد والمعادلة . اجل يستحيل علينا نكران ما تنطوي عليه من أهمية قانونية التنازلات التي انتزعتها عامة الشعب من طبقة الاشراف خلال صراعها الطويل . ولكن هذه الاصلاحات قد عادت بالفائدة على رؤساء عامة الشعب بنوع خاص ، أي على اولئك الذين كانوا في الواقع مساوين لخصومهم . وقد برهنوا ، بعد بلوغهم مأربهم ، عن النخبية الطبقية نفسها التي شكا منها جدودهم : فان والد الاخوين غراكوس مثلاً ، الذي شغل منصب القنصلية مرتين ومنصب قضاء الاحصاء مرّة واحدة ، لم يكن ، على الرغم من انتمائه الى عامة الشعب ، اقل عجرفة ولا اقل قسوة نحو الوضعاء من أي شريف من الاشراف .

لم يكن هنالك مبدئياً من ضريبة « مجلسية » ولم يفرض قضاة الاحصاء ، لإبقاء احد الشيوخ على « اللائحة » ، حداً أدنى من الثروة . وكانت المزاحمة الانتخابية وطريقة الحياة المحترمة ، من جهة ، تفرضان نفقـــات باهظة ؛ ولكن الوظائف التي تمارس خلال الحياة السياسية كانت تتيح ، من جهة ثانية ، التعويض عن هـــذا الانفاق وتحقيق المكاسب بطرق تتفاوت نزاهة . فكان الشيوخ اذن من الأثرياء ، لا بل اوسع الرومان ثروة على العموم ، وكانت ثروتهم مجمدة في الممتلكات العقارية لأن تخصيصها لغاية أخرى كان محظراً عليهم نظرياً كما سنرى ذلك قريباً .

الفرسان

هل احتفظ لهم ولأعضاء عائلتهم ، أثناء عمليـــات الاحصاء ، بالوحدات المئوية المعروفة « بوحدات الفرسان » ؟ يبدو ذلك ثابتاً في البداية ، ولكن التطور اللاحق غامض في توقيته وكيفياته الرسمية . فقد فقد المدلول الذي يحدّده اسم الفارس معناه العسكري الاول . وبهذا المعنى ، كان الشيوخ وابناؤهم ، هم ايضاً ، وهم خصوصاً ، من « الخيالة » . وبعد ذلك ، اي خلال القرن الثالث كأبعد حـــد، تميز الاسم بفارق جديد بحيث لم يعد من الممكن ان يعني سوى « الفرسان » . وقـــد عنى في الواقع المواطنين الاثرياء الذين لا ينتمون الى مجلس الشيوخ ؛ ويبدو ان الحـــد الادنى للثروة الضرورية قد انتهى الى ما يعادل /١٠٠٠٠٠/ فرنك (١٩١٤) في القرن الاخير من العهد الجمهوري ، وهو معدل ضرائبي يخوّل حق الانتخاب وقد يكون هو نفسه ايضاً معدّل الطبقة الاولى بين الطبقات الانتخابية الخمس .

تميز هؤلاء الفرسان خارجياً عن المواطنين الآخرين : فقد اجازت لهم عادة درج عليها منذ اواخر القرن الثالث بحمل الخاتم الذهبي والطريدة الارجوانيـــة الضيقة ؛ واعطاهم قانون سنّه كايوس غراكوس الحق في مقاعد خاصة اثناء التمثيليات المسرحية . ولكنهم افادوا من امتياز عملي هو اثمن من كل ذلك الى حدّ بعيد : كان باستطاعتهم ، على نقيض الشيوخ ، استثمار رؤوس اموالهم ، كما استطاعوا، بسبب إقصائهم عن مناصب القضاء ، احتكار العمليات المالية في روما. اجل لم يتعاطوا جميعهم الشؤون الكبرى : فقـد انتمى بعضهم الى بورجوازية المدن الصغيرة في ايطاليا ، وحتى الى بعض الملاكين العقاريين الذين اكتفوا بادارة املاكهم . ولكن تعاوناً وثيقاً قد وحّد هذه الطبقة التي ليس بمكنتنا تقدير عددها المتزايد باطراد بفعل انتشار الثروة . وقد افضى تعاونهم الى خدمة المضاربين الذين اداروا مصالح ضخمة وتوصلوا في الحياة السياسية الى سلطة يبررها دورهم الاقتصادي ومركزهم المتوسط بين المجلس وخصومه ، ان لم يبررهـــا عددهم . وبسبب عدائهم للأنانية المجلسية ، وللفوضى الاجتماعية بنوع خاص ، فانهم قـــد ساندوا هذا الحزب تارة وذاك الحزب تارة اخرى ، وقبضوا ثمن مساندتهم تسهيلات في سبيل توسيع ثرواتهم.

الثروات والبذخ

ألـّف الشيوخ والفرسان اذن نخبة المجتمع الروماني ، تلك النخبة التي عادت لها السلطة بصورة مباشرة او غير مباشرة . وقد توصل بعضهم ، لا سيا من بين

الشيوخ ، – اقله اذا صدقنا التقليد الذي يميل الى الامالح وينقطع بالتفضيل الى الاشخاص المنظورين – الى تكديس ثروات طائلة جداً . ويبدو ان اعظمهم ثروة كان ، كما يبدو ، كراسوس الذي أطلق على جدوده ، منذ عدة اجيال ، لقب « الاغنياء » (*Dives*) . فقد ورث ما قيمته ٠٠٠ ٨٠٠ ١ فرنك (١٩١٤) ؛ ولكن مضاربات شتى ، ابتداء من تلك التي وفرتها له احكام « سيلا » بالنفي ، رفعت ثروته الى أكثر من ٠٠٠ ٠٠٠ ٥٠ فرنك ، وعلى الرغم من الخسائر التي لحقت به ، فما زالت تقدّر بـ ٠٠٠ ٥٠٠ ٤٢ حين انتقل الى الشرق حيث لقي حتفه . وباستطاعتنا ان نستشهد بلوكولوس وبومبيوس ايضاً . ودون ان نعمّم هذه الحالات الاستثنائية يمكن القول بأن ثروة تقدر بعدة ملايين – وليس من ضرورة لان تكون نقدية ؛ ولكن ذلك قضية اخرى – غدت شيئاً عادياً ، ابتداء من القرن الثاني ، في هاتين الطبقتين الحاكمتين . ولا يستحق النظام عملياً سوى اسم البلوتوقراطية (حكم الاثرياء) .

ولم ير الشعب في هذا القدر من الثروة ما يهين شعوره . لا بل ان خطب التأبين استندت اليه لتمجيد الميت . وقد نظر الرومان على الدوام الى مفهوم المُلك والى العناد في الدفاع عنه وتوسيعه والى الاقتصاد وحتى الى البخل نظرتهم الى ضروب من الفضائل . وان كاتون القديم الذي تظاهر ، في اول القرن الثاني ، بتقشف روماني الازمنة القديمة ، قد كره التبذير وتباهى بضبط ادارة املاكه ولم يتراجع امام اية وسيلة شرعية لتوسيعها : ففي نظره ، « عجيب والهي هو الانسان .. الذي يترك اكثر مما اعطي » . وقد شدد بوليب ، في كلامه عن سخاء شيبيون اميليانوس ، على هذا الطابع من الخلق القومي . « يبدو هذا السلوك ، عن حق ، حسناً في كل مكان . ولكنه يبدو في روما مدهشاً وذلك لسبب بسيط هو ان اياً من اهاليها لا يعطي احداً مما هو له ... فكلهم يبرهنون عن حرص مفرط في شؤون مصلحتهم » . وان ما اعجب به بوليب قد ادهش عمّي تلميذه وصديقه ، المتربعَين في المرتبة الاولى بين النبلاء ، على الرغم من انهما قد استفادا من هذا السلوك .

في روما هذه حيث اعتمد المجتمع الرفيع ، فيما مضى ، تقتيراً عسيراً ، وحيث قدمت الاطعمة للسفراء القرطاجيين المدعوين عند بعض الشيوخ في الاواني الفضية نفسها التي استعاروها الشيوخ مداورة ، نشأت الفضيحة ، بالضبط ، من التبذير الذي ظهر في ازدياد الفخفخة بنوع خاص؛ فثار مهذبو الاخلاق على هذه الاخيرة واصدروا حكمهم عليها كهدامة للاملاك التي كان تسلسل درجاتها في الاساس من جهاز الدولة نفسها ، وكهدامة للانظمة القديمة الفردية والاجتماعية . ولكن الثروة اعطت نتائجها المحتومة في كل مكان ، لا سيما على رجال اتصلوا بشرق يفيض خبرة ودروساً فيما يعود لملذات الحياة المادية . ففرض كاتون ، دون جدوى ، العقوبات الصارمة ، خلال اعتلائه منصب قضاء الاحصاء في السنة ١٨٥ – ١٨٤ ، مخمناً حلى النساء وعرباتهن وعبيدهن الشبان الباهظي الثمن بما يوازي عشرة اضعاف الثمن الحقيقي وفارضاً

على رأس المـــال ، المقدر على هذا الاساس ، ضريبة توازي ثلاثة اضعاف الضريبة العـــادية .
وحاولت القوانين « التقتيرية » ، دون جدوى ايضاً ، اصلاح الاخـــلاق بالحد من الانفـاق .
ويطول بنا الكلام بسردها كلها ، ابتداء من قانون اوبيوس الحـامى عن حقوق الشعب الذي سن بعد كارثة « كانا » والغي بعد سبع سنوات من الانتصار على قرطاجة على الرغم من معارضة كاتون ، القنصل آنذاك ، حتى قانون الدكتاتور قيصر ، وجميعها اريبة في تفصيل ما منعته بصدد بهرجة النساء او الافراط في الانفاق على الولائم او بصددهما معاً ، ولكنها جميعها بدون جدوى ، اذ يكفي تكرارها لاثبات ذلك . اما منذ القرن الاول ، فقد غدا البذخ احد توابع مرتبة اجتماعية معينة : فقد درج شيشرون مثلاً على مداعبة صديقه اتيكوس بسبب اعتداله المفرط .
وكان من الواجب امتلاك فندق خاص وحدائق في رومـــا وبيتاً مزداناً بالتماثيل وزرائب الحيوانات وبيوتاً للطيور في مناطق مختلفة من ايطاليا ، وحتى على الشاطىء الكمبـــاني الذي يقصده المجتمع الرفيع صيفاً . كما كان من الواجب اقتناء جمهور كبير من العبيد الشخصيين وامناء السر والحوذيين والخدام : فقد اعتبر بؤساً متناهياً ان يضطر بومبيوس الهارب الى حل سيور حذائه بنفسه ، وقد انفق شيشرون ، خلال خمسة اشهر من السنة ٤٤ ، مـــا يعادل ٥٠٠٠٠ فرنك (١٩١٤) للمحافظة على مستوى معيشته الخاصة .

الافساد السياسي والديون

ليس من ريب ، من جهة ثانية ، كما شكا من ذلك المعجبون بالتقشف القديم ، في ان عدوى هذه الاخلاق الجديدة قد اضرت احيـاناً بالدولة ؛ ولن نشدد على الفجور والزنى والطلاق الذي انتشر ، خلال القرن الاول ، في صفوف الطبقة الحاكمة : لم يكن الرومان الاقدمون ليهتموا بطهارة الذكور ، وقـــد بدا تحرر النساء بنتائج اخرى كثيرة لن يرضى احد اليوم بان يثور ثائره عليها ؛ وعلى الرغم من الاشمئزاز الذي ولدته بعض الفضائح ، فقد برهنت هذه الارستوقراطية ، في الحروب الاهليـــة ، انها لم تكن متخنثة قط وان الكثيرات من نسائها قد تحلين بصفات الرجولة . ولكن وجه استخدام المـال قد اسهم في الاساءة الى نظام في طريق الانهيار. فقد ازداد الانفاق في سبيل التوصل الى مناصب القضاء ، لا سيما وانها تقود الى وظائف تسهل معها اعادة بناء الثروة المفقودة ومضاعفتها . وقد درج نظار الابنية والملاعب على زيادة المبلغ الذي يخصصه مجلس الشيوخ للالعاب العامة فتنافسوا في تنظيمها ببذخ مبتكر : فكان من قيصر مثلاً ، في السنة ٦٥ ، ان وضع برنامجاً لتبارز ٣٢٠ زوجاً من المسايفين ، المجهزين جميعهم بدروع فضية . وكذلك فان كل انتخاب ، على الرغم من قوانين غير نافذة تشبه بعدم جدواها القوانين «التقتيرية» ، قد افضى الى افلات الدسيسة من قيودها بشكل افساد مخز ، في الغالب ، لعب دوره في الدعاوى ايضاً بشراء المحلفين .

فلا غرابة والحالة هذه ان يلجأ كثيرون ، بعد انفاق دخلهم على الرغم من ضخامة ثرواتهم ، الى قروض تضمنها املاكهم ولا سيا ، في الواقع ، الثقة التي يوحيها مستقبلهم السياسي . اجل ان

شيشرون لم يعر الشؤون المالية عناية كبرى ؛ ولكنها ، طيلة حياته ، لم تترك له مجالاً للراحة ، في حال ان ممتلكاته يمكن ان تقدر بما يوازي ٥٠٠ ٠٠٠ ٧ فرنك تقريباً (١٩١٤) . وقد اعترف قيصر ، قبيل سفره الى احد الاقاليم الاسبانية الذي أسندت ولايته اليه بعد انتهاء سنته في منصب القضاء ، بأن ديونه تفوق كل ما يملكه بما يوازي ٠٠٠ ٠٠٠ ٦ فرنك ، ما حدا بدائنيه لأن يعضوا في الاعتراض على مغادرته روما حتى الساعة التي كفل فيها كراسوس هذه الزيادة .

وتكفي هذه الامثلة التي يسهل علينا تأييدها بكثير غيرها لإظهار ركاكة مثل هذا النظام القائم على الدين . فاذا ما انفجرت ازمة وألقت الرعب في قلوب الدائنين وحملتهم على رفض تجديد القروض وعلى إنذار المدينين بالدفع ، حصل انهيار شطر كبير من الارستوقراطية يزيد من خطورته انخفاض أسعار الممتلكات العقارية المعروضة للبيع . ويتضح بالتالي ان كثيرين من غير الفقراء قد ثقلت عليهم وطأة الديون ، وان تيارات الثورة الاجتماعية التي خلقها هذا الوضع الوخيم ، « بمؤامرة » كاتيلينا في السنة ٦٣ وحتى أثناء دكتاتورية قيصر ، قد جمعت أكثر من مناصر ، ورؤساؤها انفسهم من افضل الطبقات العليا : «جمهور من الرجال الغارقين في الديون» ان لم يكن في جميع الجرائم التي اسرع شيشرون ونسبها اليهم .

وكان كل ذلك ابعد من ان يدعم الطبقة الحاكمة والنظام .

٢ ـ الثورة الاقتصادية

ان الوقائع التي اوردناها أعلاه تعود الى القرن الاخير من العهد الجمهوري بنوع خاص : فالداء الذي كشفت عنه قد ارتدى اذ ذاك مزيداً من الخطورة . ولكن اعراضه قد برزت قبل ذلك لأنه النتيجة المباشرة للثورة الاقتصادية التي فجرتها الحروب الظافرة والفتوحات .

١ ـ جمع رؤوس الاموال في ايطاليا

احتلال ايطاليا وتوسيع مصالح روما الاقتصادية

غدت روما شيئاً فشيئاً سيّدة شبه الجزيرة الايطالية فاتسع أفق علاقتها التجارية . وقد توجب عليها ان تعوض عن نقص انتاجها الزراعي باستيراد الحبوب من الخارج . وتوجب عليها ايضاً ، اقله لتسليح جنودها ، ان تضاعف مصنوعاتها او تتوفق الى اقتناع من يعمل لحسابها في المناطق الأخرى . وفي الواقع قامت في ايطاليا اقاليم اخرى أعظم خصباً وتقدماً تقنياً من « اللاتيوم » : اتروريا (الاتروسك) وكمبانيا واليونان الكبرى . فلجأت روما اليها منذ عهد مبكر ، أي زمناً طويلاً قبل اوائل القرن الثاني التي شهدت اخضاعها لسهل « البو » الخصب اخضاعاً نهائياً . وهكذا زادت حاجاتها وعملها بفضل الوحدة الاقتصادية في شبه الجزيرة التي سبق للتوسع الاتروسكي والتجارة اليونانية ان مهّدا لها تمهيداً عريضاً . وقد سبقت هذه الوحدة الاقتصادية في الزمن الوحدة المعنوية التي خيبت متانتها آمال هنيبعل . ومن حيث ان الواحدة دعمت الاخرى ، فقد حصل شيبيون من المدن

الاتروسكية على مؤن هامة وتلقائية من المنسوجات والعتاد والحديد والاسلحة على انواعها فجهز الاسطول والجيش المعدين لحملته على افريقيا في السنة ٢٠٤ ، ولا ريب في ان اتروريا قد امتلكت آنذاك قوّة صناعية وضعتها تحت تصرف روما . ولكن ليس مدهشاً ان تجمع في ذاك التاريخ بين قضيتها وقضية الرومان لأنها ارتطبت منـذ امد بعيد بجهاز المحالفات الذي أقيم في ايطاليا . فالمدهش المدهش هو الوضع السابق للوحدة المعنوية حين لم يكن لدى روما شيء تعوّض به عما يأتيها من الخارج. وقد يجوز الاعتقاد بأن قوة روما العسكرية ، منذ القرنين الخامس والرابع ، قد وفرت لها ، بفضل الغنيمة والاحتلال ، المساعدة الضرورية ، ويقول التقليد بأن المرتب العسكري قد اقر ابّان حصار « فييس » (*Véies*) الطويل ، الذي يغلب انه استمر من السنة ٤٠٦ حتى السنة ٣٩٦ ؛ ولم يكن من المستطاع اقراره لو لم تتصرف روما بموارد يستحيل على غير الحرب وحدها ان تؤمنها في ذاك الوقت . •

جنت روما بالتالي في عهد باكر ، فائدة مادية من انتصاراتها ، بيد انه يغلب على الظن ، من حيث وصايتها ، التي اتصفت بالحزم والتفهم والعطف في آن واحد ، انها لم تهمل مصالح اولئك الذين يصبحون رعاياها او محميهـا . فلم تخرج عن حدود معتدلة في استثمار ثرواتهم المكدسة ومواردهم الطبيعية وامكانات نشاطهم البشري . وقد سارت حيالهم — وكان ذلك عاملا حاسماً في تكوين وحدة ايطاليا المعنوية — على سياسة تعاون اقتصادي جزيل النفع للجميع . فكان من واجبهـا مثلا الحرص على استمرار علائقهم التجارية التي لم تخـل من النشاط فيما يتعلق بالاتروسك او الاغريق . وقد قامت به خير قيام كما يتضح من معاهداتها الاولى مع قرطاجة او من الحروب التي خاضت غمارهـا ، في النصف الثاني من القرن الثالث ، ضد القرصنة الإلّيرية المضرة بسلامة البحر الادرياتيكي والبحر الايوني . ولكنهـا لم تبق هي نفسهـا بعيدة عن تلك النشاطات التجارية التي لم يفت مواطنيها الاسهام فيها برؤوس اموالهم وباشخاصهم . ولم يؤلف هؤلاء يوماً ، كما حدث لشعوب فاتحة اخرى ، ارستوقراطية من المتمصرين عاسمة في تنظيمهم العسكري ومقتصرة على مراقبة المغلوبين . فلم تخل صفوفهم من رجال الاعمال الذين ارتفع عددهم باطراد . اجل ان معتمداتنا لا تتيح لنا تتبع هذه النجاحات . بيد انه من الواضح ان فتوحات روما الايطالية قد جعلتها تهتم بالحياة الاقتصادية في العالم المتوسطي ، وهي حياة قطعت اشواطاً بعيده في التطور • وانها اقتطعت فيها لنفسها مكاناً مطرد الاتساع.

ولنا في تاريخها النقدي الادلة المقنعة على ذلك على الرغم من الشكوك التي تحيط بهذا الموضوع ومن الخلاف بين علماء المسكوكات القديمة . فلم تبدأ روما الا في عهـد متأخر نسبياً في ضرب المسكوكات الحقيقية ، ولم يحدث ذلك قبل القرن الرابع . ولم تضرب آنذاك سوى المسكوكات البرونزية . وحين بدأت في ضرب الفضة ، في اوائل القرن الثالث كما يغلب على الظن ، انما حصل هـذا الضرب في كبانيا لا في روما حيث تأخر حصوله حتى السنة ٢٦٨ . ثم حدثت بعض

الاضطرابات بسبب النفقات الباهظة التي اقتضتها الحربان البونيقيتان الاوليان ، واستقر النظام النقدي الروماني في اواخر القرن الثالث او اوائل القرن الثاني . فارتكز الى الدرهم الفضي اساساً الذي يزن اربعة غرامات تقريباً اي انه يوازي عملياً الدرهم الاوسع انتشاراً في العالم اليوناني ، الدرهم الأثيني الذي اعتمده الملوك المقدونيون . ولم يضرب الذهب الا في ظروف استثنائية . اما البرونز الذي كان « الآس *As* » وحدته الاساسية ، وعادلَ في النهاية $^{1}/_{16}$ من الدرهم ، فقد فقد اهميته الماضية .

على الرغم من إيجاز هذه العجالة ، يظهر هذا التطور الانتقال التدريجي ، البطيء جداً حتى القرن الثالث ، والسريع نسبياً بعد ذلك ، حين أمنت روما سيادتها على ايطاليا ، الى اقتصاد اقل انكاشاً يمتد شعاعه باستمرار . فأحس اللاكون الريفيون ، الذين تألفت منهم الطبقة الحاكمة ، بمصالح جديدة ، وفي المشاغل التي أقامتها في وجههم فتوحاتهم الايطالية ، لعبت المدن اليونانية في ايطاليا الجنوبية دوراً دونه دور سكان جبال الابنين الشكسين .

استثمار فتوحاتهم خارج ايطاليا

لماذا حدث يا ترى حين اصبحت روما ، بفضل توسع افقها السياسي والعسكري ودبلوماسيتها وانتصاراتها منذ « زاما » لا سيدة ايطاليا فحسب بل سيدة كل الحوض المتوسطي ، وحين وجدت في نفسها القدرة ، المباشرة او غير المباشرة ، على تشجيع او خنق كافة المراكز الكبرى لحياة اقتصادية نشطت وازدهرت منذ زمن بعيد ، كقرطاجة مثلاً ولا سيما بلدان الشرق الهليني ؟

ان سلوكها ليخفي مفاجأة كبرى للمؤرخ .

فهي ، حتى عندما بدت انتصاراتها وكأنها وضعت ايطاليا في مأمن من خطر الغزو ، لم تدخل أي تبديل في الأساليب التي اعتمدتها حيال شعوب شبه الجزيرة . اجل ليس هنالك من مجال ، على الصعيد القانوني وحتى العملي احياناً ، بصدد توزيع المغانم على الجيش مثلاً ، الكلام عن شراكة على قدم مساواة تامة بين مواطنيها والايطاليين غير المواطنين . ولكن هذه التمييزات ، مهما بلغ من ثقلها على اولئك الذين تألموا من وضع متدنٍّ ، لم تتناول الجوهر ، اقله في الحقل الاقتصادي . وحتى قبل ان تمنح روما حق مواطنيتها للجميع ، درج سكان الاقاليم والاجانب على اطلاق اسم « الرومان » ، دون أي تمييز آخر ، على المواطنين وغير المواطنين شرط ان ينتسبوا الى ايطاليا : فقد كان هؤلاء واولئك ، في الواقع ، شركاء في الاستثمار المالي والاقتصادي الذي اخضعت له الفتوحات الجديدة .

بيد ان الجدة هي في ما يلي : ان كلّ الشعوب وكل الاقاليم خارج ايطاليا ، بما فيها صقليا مع انها قريبة من شبه الجزيرة ومأهولة بسكان من الاغريق أو المستفرقين لا يتميزون عن سكان اليونان الكبرى ، قد خضعوا لنظام آخر . ولم تمرّ الحرب عليهم مرور العاصفة فحسب بما يرافقها من شدة محتومة ولتفلات غرائز . فقد استمر النهب ، بعد عقد الصلح ، باعتماد الوسائل الرسمية

او غير الرسمية التي كان لها من الرواج والاستمرار ما جعل المستفيدين منها يعتبرونها قانونية .

فما هو مردّ هذا التناقض ؟ ان المفاجأة، والحق يقال ، اذا ما نظرنا الى تاريخ العصور القديمة – وقد برهن أكثر من استعمار معاصر عن تمام مماثل – حيث استسلم المنتصرون لجشع مغر لا يعرف الشفقة معنى ، قد تنشأ خصوصاً عن معاملة الايطاليين معاملة ممتازة . فقد قامت روما حيالهم بشيء جديد كان مقدمة لعملها الاكبر في عهد الامبراطورية .

ولكن ما يلفت الانظار انها حصرت، في العهد الجمهوري، تصميمها على التعاون الاقتصادي، في ايطاليا دون غيرها. وكان من الممكن ان نفسر ذلك بتضامن عنصري لاواعٍ لو انها لم تشمل بهذا التصميم اغريق اليونان الكبرى انفسهم ، دون حاجة منا الكلام عن الاتروسك الذين امتزجوا منذ عهد بعيد بحياة شبه الجزيرة : فلماذا ادخلتهم فيه يا ترى واقصت عنه اخوانهم في صقليا ؟ لا ريب في ان تحقيق الوحدة المعنوية السابق قد أسهم في ذلك : فقد تكوّن – على غير اكتمال – شعب ايطالي اكثر منه روماني أفضى بـه وعيه التضامن الى احتقار الآخرين احتقاراً انانياً والشعور بأن كل شيء جائز حيالهم . ويجب ان نأخذ بعين الاعتبار ايضاً ظروف الفتح العسكرية وتشكيل الجيوش المعروفة بالرومانية مع ان نصفها « حليف » اي ايطالي ، في حال ان سكان الاقاليم والاجانب ، في العهد الجمهوري، لم ينخرطوا فيها إلا بنسبة ضئيلة جداً . ويجب ان نفكر اخيراً ، وربما خصوصاً ، بالتبدلات السيكولوجية ، الفردية والجماعية ، التي احدثتها امتلاك الثروات الاولى . فأثار النهب شهوة مفرطة للذهب ، اما مذاق البذخ ، فبالاضافة الى انه لا يعرف القناعة ، فقد امتد الى طبقات اجتماعية اعظم اتساعاً . وأية وسيلة لتحقيق الثروة أيسر من تعرية اولئك الذين اجاز قانون الحرب معاملتهم وفاقاً لهوى المنتصر ؟

ومما لا ريب فيه ، بهذا الصدد، إن الانحراف الحاسم قد سببته الحروب الظافرة العظمى التي دار رحاها ، خلال النصف الاول من القرن الثاني ، حول شواطىء بحر ايجه . فقد وجد المنتصرون انفسهم هناك امام ثروات طائلة كدستها اجيال لا تحصى في مناطق نعمت بحضارة قديمة تفوق ما غنموه في افريقيا حول قرطاجة . فلم يقاوموا التجربة ، وكان ما جمعوه نقطة انطلاق إثراء ايطاليا المدهش بما ولّده من رغبة في الاستزادة . وليس ما يشبه هذا الحدث، في تاريخ حوض المتوسط القديم ، سوى مصادرة الكنوز الفارسية على يد الاسكندر . فقد وفرت هذه المصادرة للمنتصر ثروات اعظم شأناً، وتمت في وقت اقصر،اذ انها لم تتطلب خمس سنوات. بيد انها جرّت الى نتائج اقل تأثيراً . ومرد ذلك في الدرجة الاولى الى ان القسم الأكبر من هذه الكنوز كان مجمداً بشكل سبائك مفرغة في خوابٍ مخبأة في دهاليز القصور الاخمينية : فكانت النتيجة ان البذل من ممتلكات السكان كان خفيف الوطأة . ومرده في الدرجة الثانية الى ان الكسب من هذه المصادرة قد توزع جغرافياً توزعاً اعظم اتساعاً : واذا ما عاد بعض الجنود القدماء والموظفين وغيرهم من الاغريق بقسم كبير منه الى اوروبا، فقد استقر كثيرون غيرهم

نهائياً في البلدان المحتلة ، فوثب النشاط الاقتصادي في هـــذه البلدان ، بفعل وجودهم ورؤوس الاموال التي وضعوها في التداول ، وثبـة عظيمة جداً الى الامام . اما الفتح الروماني فلم يحدث فيه شيء من ذلك . فهو قد استولى على الثروات الحية والمتداولة والثروات المكتنزة على السواء. كما انه قد ادى الى انتقال تدريجي وشامل نحو منطقة واحدة هي شبه الجزيرة الايطاليـة حيث مالت طبعاً الى التجمع رؤوس الاموال المنتثرة حتى ذاك الحين في كافة انحاء الحوض المتوسطي. ولم يعرف مثل هـذا التجمع سابقة مماثلة بالاتساع الذي بلغه آنذاك ، كما ان الحدث الاقتصادي الذي يمثله لم يتكرر مراراً فيما بعد .

الغنيمة وتعويضات الحرب والغرامات و«الاملاك العامة»

لقد تم الانتقال وفاقاً لكيفيات مختلفة . كان ابسطهـــا الغنيمة التي يعود بها القادة ويدفعونها الى الخزانة العامة بعد عرض الموكب الظافر الذي قد يستغرق وقتاً طويلاً . وكثيراً ما يحدث ان تتضمن مصادرنا بيانات مفصلة بها ، تتفاوت كمالاً وصحة على كل حال . وقد يكون من الممل ان نستشهد بكافة الاحصاءات المعروفة . فلنقتصر اذن على معطيات هي في الوقت نفسه شاملة – اذ انها لا تتناول مواكب النصر التي تلت الحملات الأسيوية على الملك السلوقي والغلاطيين والحملات الاسبانية والايطالية الشمالية – وجزئية ، اقتبسناها عن دراسة بصيرة جـداً . فبين السنة ١٩٤ والسنة ١٦٦ بلغت الغنيمة التي اسفرت عنهـــا الحروب في شبه الجزيرة اليونانية فقط ، ذهباً مسكوكاً او فضة مسكوكة او ذهباً وفضة قابلين للسك فوراً ، قيمة تناهز السبعين مليون درهم ، اي ما يوازي سبعين مليون فرنك (١٩١٤) . وفي هذا المجموع تمثل غنيمة بولس اميليـــاوس الذي قضى في «بيدنا» ، في السنة ١٦٨ ، من الملكية المقدونية ٠٠٠ ٥٠٠ ٥٢ درهم .

واضيفت الى الغنيمة التعويضات المفروضة على المغلوب لاستيفاء نفقات الحرب التي تحملها المنتصر . وكانت هذه التعويضات تشمل عادة مبلغاً يدفع حين عقد الصلح من الممكن ان يحتل مركزه في الغنيمة الظافرة وعدداً مختلفاً من الاقساط السنوية: ٠٠٠ ٢٠٠ ١درهم دفعتها قرطاجة كل سنة ، طيلة خمسين سنة ، بعد معركة زاما ؛ و ٠٠٠ ٠٠٠ ٦ درهم دفعتها الملكية السلوقية سنويا طيلة اثنتي عشرة سنة بعد السنة ١٨٨ ، الخ .

لم تفرض هذه التعويضات الا على الدولة التي تحافظ على كيانها القانوني بعد نهاية الحرب . اما الدول الاخرى فكانت تفرض عليهـا الغرامات السنوية التي تعتبر دائمة . لا بل ان روما لم تتردد في فرض غرامة قيمتها ٠٠٠ ٦٠٠ درهم على مجموع الجمهوريات الاربع التي نظمتها في مقدونيا بعد «بيدنا»مع انها منحتها« لمدة عشرين سنة» استقلالاً سريع الزوال ؛ ولكنها لم تفرض الغرامة في الظروف العادية الا على الاقاليم التي تمارس حيالهـــا سيادة حققتها بالنصر : وقد رمزت هذه الفريضة الى حقوقها المطلقة ، كما مثلت الغرامة ، من جهة ثانية ، القسم الاكبر من الضرائب التي تحصلها من اراض تعود اليها . وقد حدد قيمتها وتفاصيل جبايتها القانون الذي ينظم البـــلاد

ولاية . وغالباً ما استوحى القانون ، بصدد هذه القيمة وهذه التفاصيل ، الوضع السابق للفتح ، اذ ان الغرامة عادة قديمة واساسية من عادات الدول القديمة ولا سيما الملكيات منها . فلم تأت روما بجديد ، كما انها لم تهتم بالتوحيد بنوع خاص . بل حاولت ، رغبة منها بسلوك اسهل السبل واقصرها ، الاستفادة الى اقصى حد مما كان قائماً قبلها واعتاده رعاياها الجدد . لذلك فان الغرامة قد ارتدت اشكالاً متنوعة . ففي الشطر الاكبر من مدن صقليا ، وبفضل الابقاء على القوانين التي سنها ملوك سيراكوزا ، تألفت الغرامة كما في السابق من ضريبة عينية توازي ، بعد مراقبة البذار والحصاد ، عشر محاصيل الارض من حبوب ونبيذ وزيت وبقول . اما في الجمهوريات المقدونية الاربع ، على نقيض ذلك ، فكان لزاماً ان تدفعها نقدا طوائف السكان التي توزعها وتجبيها كما يطيب لها ، وهي لم تمثل في مجموعها ، على كل حال ، سوى نصف الضريبة التي كانت تجبيها الملكية الزائلة .

وكانت روما اخيراً ، عند الاحتلال ، تضع يدها على ممتلكات الدولة او الملك الذين تحل محلها . وقد شملت هذه الممتلكات على العموم ، بالاضافة الى الاملاك العقارية ، اهم المناجم والمحاجر والاحراج والملاحات . وهي كثيراً ما ضمت اليها ما تصادره من الجماعات والافراد الذين تصمم على معاقبتهم بسبب موقفهم منها . فأنشأت بالتالي ، على غرار ما فعلت في ايطاليا، « أملاكاً عامة » (*Ager Publicus*) شاسعة ومتنوعة جداً ووافرة الدخل احياناً كانت هي تنشط في تنظيم ادارتها . ففي اواسط القرن الثاني تطلبت بعض مناجم الفضة في ضواحي قرطجنة في اسبانيا ٤٠٠٠٠ عامل وأدخلت عليها ٢٥٠٠٠٠ درهم يومياً.ولم يمض مجلس الشيوخ طويلاً في ريبته من الملتزمين التي جعلته في البدء يمنع العمل في مناجم الذهب والفضة في مقدونيا ويحصر بعد ذلك عدد العمال في مناجم الذهب في ايطاليا الشمالية .

اتيح من ثم لروما ، بفضل الغرامات واملاكها العامة ، ان تتلقى سنوياً من ولاياتها ، بعد ان تزايد عددها ، كمية اجمالية ضخمة من الخيرات . بيد ان كل ذلك ، لا سيما الغرامة بحد ذاتها وبعض الرسوم غير المباشرة ، الضئيلة اجمالاً ، والمعدة لاكمالها ، لم يشكل اوقاراً لرعاياها الاقليميين : فالنهج الذي جعل الاستثمار عبئاً لا يطاق قد لجأ الى طرق اخرى .

الاستثمار الخاص

ادار مجلس الشيوخ روما ادارة حكيمة فكنّزت بصورة خاصة الذهب الذي لا يسك في الظروف العادية ؛ بيد ان القسم الاكبر من هذه الموارد كان يلقى في التداول بفضل انفاق الدولة والمرتبات العسكرية ونفقات الاشغال العامة والعبادة . فانتقلت الموارد بالتالي من الجماعة الى الافراد مضافة الى الفوائد التي جناها المواطنون من الغاء ضرائبهم المباشرة وبيع القمح بسعر منخفض وتوزيعه مجاناً بعد ذلك . ولكن استثمار الافراد المباشر للفتوحات والولايات قد اتسع اتساعاً غريباً .

وكانت هنالك ، كما هو بديهي ، وفاقاً لما درجت عليه الجيوش آنذاك، غنيمة الجنود الفردية

تضاف اليها ، بصورة عادية منذ اوائل القرن الثاني ، المنح التي يهبها القائد جميع جنوده لمناسبة موكبه الظافر . وترينـــا احدى الحوادث الطريفة الجنود الرومانيين انفسهم يستفيدون من مغانمهم لاستثمار قنوتهم بالمرابات المحدودة والتجارة على نطاق ضيق مع الاجـــانب . وليسوا في الحقيقة ، مع التجار الثانويين ، بمن فيهم مشترو الغنـــائم البشرية المعدة لاسواق الرق ، الذين يسيرون دائماً وراء الجيوش ، سوى مقدمة جيش لجب من التجار والمضاربين الذين يتوافدون على البلاد فور تهدئتها .

انتمى هؤلاء الى كافة الطبقات الاجتماعيـــة – باستثناء الشيوخ – فكان منهم المواطنون الرومانيون و « الحلفاء » الايطاليون والاحرار والمعتقون ، فيعملون لحسابهم الخاص او يمثلون شركات كبرى ، ويستوردون او يصدرون ، مستعدين في الواقـع لشراء كل شيء ونقل كل شيء وتسليف كل شيء بغية استلاب كل شيء . وغـــدت جزيرة ديلوس الصغيرة الواقعة في قلب بحر ايجه والمعادة الى اثينا في السنة ١٦٧ ، شرط ان تجعل منها مرفأ حراً ، احدى قواعد عملياتهم الرئيسية في الشرق وغيره حتى اليوم الذي امر فيه ميتريدات بتقتيلهم وبنهب الجزيرة في السنة ٨٨ . وقد وقفنا بواسطة الكتابات على نشاطاتهم المختلفة ، وثروتهم التي تثبتهـا الأبنية التي شيدوها ، وجمعياتهم بشكل اخويات دينية ، وتأثيرهم ايضاً على السلطات النظاميـــة التي استولوا في الواقع على صلاحياتها . ومرد ذلك الى انهم ، في ديلوس كما في غير مـكان ، وحتى في البلدان الحليفة ، اصحاب اخاذات كانوا ام مستقلين حين يسمح لهم بالدخول اليهـــا ، يحملون طابعاً مشتركاً على الاقل : فانهم يعملون في مأمن من نفوذ وقوة روما .

جمعيات الملتزمين

في عداد هؤلاء « التجار » يبرز علاء جمعيات الملتزمين (*Publicani*) . ويقصد بـ *Publicani* اولئك الذين يعنون بالـ *Publica* أي بشؤون الدولة المالية ، اولئك الذين تلزمهم الدولة جبـاية وارداتها واستثمار أملاكها وتنفيذ مشاريعها وتأمين تموين جيوشها ، الخ . وينطبق الاسم في الواقع على كبار الملتزمين الذين يتوجب عليهم ايجـــاد جهاز كامل من المساعدين والقبول بتسليف اموال هامة : يفسر اتساع شؤون الدولة وتنكرها لانشاء ادارة لا تستلزم سوى الاستعانة بصغار الملتزمين ، كيف انهم بلغوا مكانـــة كبرى . وترادف الكلمة في الواقع كلمة « فرسان » ايضاً ، وهم الملتزمون الحقيقيون المنتسبون كلهم الى هذه الطبقة الاجتماعية والممثلون أوسع اعضائها ثروة .

وكان من البديهي ، المسلم به ابداً ، ان يقصى الشيوخ وأبناؤهم عن الالتزامات من حيث ان رقابة وادارة الاموال العامة شكلتا إحدى صلاحيات المجلس الرئيسية . وقـــد حظر عليهم بالاضافة الى ذلك اقتناء مراكب يزيد محمولها عن ثلاثمائة قارورة أي ثمانية اطنان تقريباً . وقد اتخذ هذا التدبير قبيل الحرب البونيقية الثانية في مرحلة الصراع بين « الشعبيين » و« الافاضل » . ولم يبلغ التدبير حتى في اوج النظام المجلسي لأنه يتفق اتفاقاً تاماً وبعض العقائد الراسخة في روما ،

كما رسخت من قبل في اليونان ، التي اعتبرت كل نشاط تجاري امراً معيباً . وفي الواقع ما كانت التجارة البحرية الواسعة — لم يكن هناك من تجارة كبرى سواها — لتكتفي بهذا الحد الادنى من المحمول ، فحظرت ، عن طريق هذه المداورة ، على غرار تلزيمات الدولة ، على الشيوخ وابنائهم. فكانت النتيجة ان هاتين الطريقتين لتوظيف رؤوس الاموال الخاصة ، وفي كليهما بعض المغامرة مع انهما وفيرتا الارباح في حال النجاح، غدتا وكأنهما وقف على اوسع المواطنين ثروة بعد الشيوخ، أي على الفرسان .

ولم يفت ذوي الاقدام بين هؤلاء ان يستفيدوا من ذلك . فتوجب عليهم العمل المشترك بغية جمع المزيد من رؤوس الاموال وتقاسم الاخطار ، وخصوصاً بغية توسيع إطار التأثيرات الاجتماعية والسياسية التي قد يكون استخدامها مفيداً . ويعود اقدم توحيد للمصالح في سبيل مفاوضة الدولة ، على ما نعلم ، — وقد جرى ذلك بمناسبة دعوى في موضوع ضرر مقصود ألحق بأحد مجهزي السفن — الى الحرب ضد هنيبعل . ثم تألفت جمعيات قانونية نعرف الشيء الكثير عن تنظيمها في القرن الاول . فهي ترتدي مظاهر أشبه بما ندعوه اليوم مجلس الادارة والمدير العام والمساهمين والمتعهدين : فقد اقتضى الحرص على توفير ادارة حسنة البحث عن الحلول المبتكرة . بيد اننا لا نعلم شيئاً عن عدد هذه الجمعيات ، واننا نرجح ان جمعيات سريعة الزوال قد تألفت للالتزامات الطارئة كتشييد الأبنية مثلاً . اما بصدد الالتزامات الكبرى ، كمناطق المناجم او ضرائب الولايات ، فلا ريب في ان عمل الجمعيات المجهزة كان دائماً في الواقع لان وجود لوازمها وموظفيها في امكنة الالتزام لا يترك مجالاً لأية منافسة .

يضع قضاة الاحصاء دفاتر الشروط ويحررون التلزيمات لمرحلة السنوات الخمس القادمة، ولكن عوامل كثيرة تقضي الى تخفيض واجبات الملتزمين ، وليس التشدّد الذي يبديه كاتون اثناء ولايته ، على الرغم من تدخل مجلس الشيوخ « الذي نزل عند توسلات ودموع الملتزمين »، سوى تشدّد استثنائي وعابر . وليس من جهة ثانية ما يمنع الجمعيات من القيام بنشاطات اخرى الى جانب النشاط الذي تتحمل مسؤوليته أمام الدولة. وان في ذلك لفائدة لها لأنه يؤمن استخدام عمالها ورؤوس اموالها استخداماً ابعد استمراراً . ولذلك فهي لا تتوانى عن القيام بها متعاطية الأعمال المصرفية بنوع خاص — وقد غدت عمليات تحويل النقود ونقل الأموال اختصاصاً من اختصاصاتها لأنها تؤلف بالنسبة لها واجباً اساسياً — والمراباة ، ولا يتوانى بعضها على الاقل ، عند الحاجة ، عن تعاطي التجارة الواسعة . ولكن تعهد هذه الشؤون الخاصة جعلها تتداخل في الشؤون ذات الطابع العام وتستفيد من التسهيلات المتوفرة لهذه الاخيرة بفضل تنفيذ هذه وتلك في الاماكن نفسها وبواسطة الرجال انفسهم ورؤوس الاموال نفسها . وقد رأينا فيما سبق نقص الرقابة التي يستطيع ممثلو الدولة ممارستها حيال تصرفات رجال المال في الولايات .

تآزر من ثم عمل « التجار » والملتزمين وعمل الدولة لادخال المعادن الثمينة الى ايطاليا

بكميات ضخمة . منذ اواسط القرن الثـــاني ، وبفعل تيار ذي اتجاه واحد متزايد السرعة لا يقابله تيار آخر على بعض الاهمية ، اتخمت شبه الجزيرة الايطالية برؤوس الاموال في حال ان المناطق الاخرى في العالم المتوسطي اخذت تفتقر لمصلحتها .

٢ - النتائج الاقتصادية

لم يحدث ما حدث دون نتائج اقتصادية تأثرت بها الولايات وايطاليا على السواء .

عـــالم الولايات

ان الشرق الذي بلغ ، قبل وصول الرومان بزمن بعيد ، درجة رفيعة من التطور الاقتصادي ، قد تألم من هذا البزل اكثر من غيره . وهو قد استطاع ، في البداية ، ان يعوّض عنه بعض الشيء بفضل التقدم التقني في زراعته وصناعته اليدوية . انفتحت ايطاليا امامه سوقاً غنية بالمال ومتشوقة لارضاء حاجات جديدة ، في مصنوعات الفخفخة خصوصــاً . وحولت الاسكندرية ورودس نحوها جانباً هاماً من تجارتها . ولم تعرف ديلوس يوماً الازدهار الذي عرفته ما بين السنتين ١٦٧ و ٨٨ ، اي في فترة انتشار التجار الايطاليين فيهـــا بكثرة نادرة ؛ ولكن تفوق النفوذ الروماني ، اذا ما استثنينا مصر التي حال استقلالها المستمر دون اسوأ المظالم ، قد افضى منذ القرن الاول الى اوخم العواقب . فقد بيع في جزيرة ديلوس ، في يوم واحد احياناً ، حتى عشرة آلاف عبد يجر جلبهم نحو ايطاليا . ولم يحصل ذلك دون ضرر . فقد اخذت ايطاليا تنتج بعض المصنوعات ، وهي لم تكتف نفسهـــا من بعض الاصناف فحسب ، بل صدرت بعضها الى الخارج ايضاً . فعرفت المصنوعات الشرقية الكساد بفعل ارهاقها بالرسوم وانكماش زبنها المحليين في اعقاب افتقار الارستوقراطيات القومية . وفي صقليا نفسها التي صدرت الحنطة زمناً طويلاً ، انثنى السكان عن العمل : لم تكن الجزيرة ، في اواخر العهـــد الجمهوري لتستطيع ان تلعب الدور الذي لعبته في تموين روما خلال القرن الثاني . فاصيب الشرق كله ، قبيل الحروب الاهلية ، بتقهقر اقتصادي اعتبره بعضهم داء عضالا .

كان الغرب احسن حالاً لانه كان ابعد تخلفاً : وقد بقي فيه اثر الاغريق والقرطـــاجيين التربوي محدوداً . وهو قد ضم اكثرية كبيرة من البلدان الجديدة التي اخذت رومـــا تحث على استثمارهـــا ، مدخلة اليها رؤوس الاموال وتجهيزات الانتاج والتقنيات . وقد اقدمت على مـــا اقدمت عليه بدافع اناني محتفظة لنفسها بالقسم الاكبر من الارباح ، وبالارباح كلها احياناً ، كما فعلت في مناجم اسبانيا مثلا . ولكن بعض هذه البلدان اخذت تحتل مركزها في الاقتصاد العام العالم المتوسطي : غاليا الناربونية ، قاعدة العمليات التجارية المثمرة في اتجـــاه غاليا المستقلة ، وخصوصاً اسبانيا . فأفادت من ذلك عناصر غريبة قامت فيها قبل روما وعناصر قومية ايضاً : ويبدو ان مرسيليا وقادش عرفتا آنذاك ازدهاراً اعظم منه في السابق .

فما هو المستقبل الذي سينتظر الغرب اذا ما استمر النظـــام الروماني في التغاضي عن هؤلاء

« التجار » ، هؤلاء الرجال المحترمين جداً » ، الذين تولى شيشرون ، في اشارته الى ارتفاع عددهم في غاليا وفي قدحه في الغاليين ، مديحهم وتقريظهم رغبة منه في الدفاع عن الحاكم فونتيوس ، سنة بعد هجومه على الحاكم « فيريس » ؟

ايطاليا : الانتاج والمقايضات

تبدل كل شيء في ايطاليا أيضاً .

يجب أن تتكيف الزراعة . فقمح شبه الجزيرة ، لا يستطيع منافسة الحبوب المستوردة ، إن لم يكن من غاليا ما وراء الألب بسبب الافتقار الى طريق ملاحة ، فأقله من صقليا وافريقيا ، ومن مصر ايضاً التي تتميز بانتاج أفضل ، ويرضى المنتجون فيها بمستوى حياتي أدنى . وضعت حرب هنيبعل أوزارها في السنة ٢٠٢ : فبين السنتين ٢٠٣ و ٢٠١ بيع القمح في روما بربع سعره العادي ، وبيع في السنة ٢٠٠ بثمن هذا السعر . وستتكرر بين آن وآخر الظروف الاستثنائية التي أدت الى هذا التدني . وحين تأخذ الدولة على نفسها ان تبيع القمح بسعر منخفض وان توزعه بعد ذلك بالمجان ، تضطر الى الحصول عليه من غير مكان بفضل الغرامات المفروضة عيناً أو عن طريق الشراء بأسعار محددة متدنية جداً يعينها حكام الولايات . ولم يعد انتاج الحبوب عملية رابحة في ايطاليا ، فعدل عنه المستثمرون بملء اختيارهم .

وجهوا من ثم عنايتهم الى تربية المواشي لأن الانعام يعسر نقلها مسافات بحرية طويلة ولأن لديهم عبيداً يسهل عليهم استخدامهم رعاة . ووجهوا عنايتهم بنوع خاص الى الزراعات التي تتطلب معارف خاصة : زراعة البقول في المباخ وزراعة الأشجار المثمرة كالكرمة وشجرة الزيتون وشجرة التين . وقد دفعهم الى ذلك كل شيء . فهم يمتلكون رؤوس الأموال التي تتيح لهم الانفاق الضروري . وأظهر ارتفاع الثروة لدى المستهلكين أذواقاً اكثر تطلباً . واستفادت ايطاليا ، أخيراً ، في ما يعنينا ، من الخبرة والمعارف الزراعية الكثيرة التي حصل عليها الشرق الهليني وقرطاجة ؛ وبعد ان أصدر مجلس الشيوخ أمره بهدم هذه المدينة في السنة ١٤٦ ، حرص على ترجمة البحث الزراعي الذي وضعه القرطاجي ماغون . فكانت هذه الأساليب الجديدة موضوع دعاوة رسمية ساندها الاختصاصيون الايطاليون في الزراعة منذ كاتون .

ظهرت جدوى مثل هذه الجهود بشكل واضح . فقد أنتجت خلال القرن الثاني خمور جيدة أشهرها خمر « فاليرنا » الكمباني . ولكن الانتاج الرائج ، المتوسط الصنف ، كان أهم من المحاصيل البنخية . وقد بلغ من غزارته ، أن المسؤولين قد اهتموا لتصريفه ؛ فصدر قانون حظر بموجبه على البلديين ، حين لتنظيم الولاية الناربونية ، زراعة كروم جديدة واشجار زيتون جديدة . بيد أن المعضلة لم تبرز بعد بكل خطورتها . فإن ما يحسن عمله ، كي تدر هذه الزراعات دخلاً عريضاً ، هو أن يعنى الملاك بمراقبتها شخصياً ؛ اما الشاب الأرعن الذي يعوزه المال ، فعليه ، كما يزعم شيشرون ، ان يبيع كرومه ويحتفظ بأحراجه . وقد بيع النبيذ

الايطالي في ديلوس نفسها ، وابتاعت غاليا المستقلة ، طيلة القرن الأول ، نبيذاً مستورداً من شبه الجزيرة . واذا كانت هذه الاخيرة ، بسبب تقدم تربية المواشي ، قد اشتملت على مناطق ريفية انخفض عدد سكانها كثيراً ، فانها قد اشتملت ايضاً على مناطق أخرى يلفت الانظار ازدهارها وتقدم الزراعة فيها . وقد خصّص لها العالم الزراعي « فارون » ، وهو معاصر لقيصر ، صفحة شهيرة امتدح فيها بحرارة نوع منتوجاتها ؛ ويجب ألا ننظر الى هذا المديح نظرنا الى مجرّد مغالاة أدبية : فإن الاكتشافات التي أجريت في كمبانيا ، حيث تنتشر في جوار بومبيي « معاصف » تقسر المعاصر وسقائف صنع الخمر شهرتها ، تؤيد هذه اللوحة ايما تأييد .

لم يختلف الوضع اختلافاً كبيراً في حقل الصناعة . فالايطاليون لم يحققوا أي اكتشاف حقيقي . وهم ، شأنهم شأن الاغريق ، لم يفكروا بابتكار الآلات ، وقد اكتفوا بتقنيات الصناعة اليدوية ، وأتاح لهم اتصالهم بالشرق تحسين تلك التي اعتمدوها منذ أمد بعيد . وكان من شأن استيراد العبيد بأعداد لا تحصى ، وقد يفضل بعض الشرقيين منهم اسيادهم على صعيد المعرفة ، أن ضاعف طاقات عملهم . فازداد الانتاج بالتالي ازدياداً عظيماً . وليست صناعة الكماليات ما وجهوا عنايتهم نحوها ، بل صناعة الضروريات الرائجة الاستعمال المنتجة بكميات كبيرة وبكلفة ضئيلة يمكن معها تصديرها حتى الى الشرق نفسه أحياناً . ولدينا عن هذا التقدم مثلٌ مميّز توفره لنا الخزفيات التي نعرف عن صناعاتها القديمة ما لا نعرفه عن الصناعات الأخرى لأن حطامها لا يفنى . فقد اقتدي في البداية بالخزفيات « الساموسية » ببرنيقها الأحمر ونقوشها الناتئة ، ثم حلت محلها ، قُبيل وبُعيد العهد الميلادي الخزفيات المعروفة بـ « الأريتية » نسبة لـ « أريتيوم » (أريزو *Arezzo*) في اتروريا ، التي كانت المركز الأول لصناعتها . وقد صُدرت الخزفيات الكمبانية ايضاً ، لا سيا نحو غاليا . ثم انضمت صناعة المعادن ، لا سيا الشبه ، الى الخزفيات ، لتجعل من اتروريا وكمبانيا أوسع المناطق الايطالية نشاطاً .

كانت النتيجة تجارة ناشطة ، لم تكن الصادرات فيها كمية مهملة ، على الرغم من رجحان كفة الواردات . وقد مثلت الحبوب الجانب الأكبر من هذه الأخيرة ، بينما اشتملت الأولى ، بنوع خاص ، على النبيذ والخزفيات والمصنوعات المعدنية . ثم أضيفت اليها تجارة المستودعات الوسيطة . قضت روما ، في السنة ١٤٦ نفسها ، على مركزين اقتصاديين هامين هما كورنثوس وقرطاجة . ولم تستطع ايطاليا ان ترث سوى قسط زهيد من تجارة كورنثوس التي يغلب انها توزعت على المرافىء الإيجية . ولكنها ورثت تجارة قرطاجة ، أي ان التجارة ما بين البلدان الغربية تمت عن طريقها ، فلعبت ايضاً ، بقدر ما استلزم ذلك افتقار الشرق ، دور السمسار بين حوضي المتوسط . ويفسّر تعدّد هذه العلائق نشاط المرافىء الايطالية الذي برز في القرن

الاول بروزاً خاصاً في اثنين منها . امـــا الاول ، كما هو بدهي ، فثنائي روما – اوستيا عند مصب التيبر ، الذي استخدم في الدرجة الاولى لتموين المدينة ، لأن الصناعيين لا يعملون فيها للتصدير . وأمـــا الثاني ، فهو بوتيولي « *Puléoli* » (*Pouzzoles*) في كمبانيا ، وقد تميز آنذاك بنشاط واسع جداً ، وبالتوازن التـــام في تجارته ، فغدا مدخلاً ومصرفاً لمنطقة كثيفة السكان، وذات اقتصاد متطور جداً .

يجب ألا تخدعنا بالتالي زفرات علمـاء الأخلاق القدامى . فإذا مـا نظرنا الى شبه الجزيرة كمجموع ، نرى أن الفتوحات لم تسيء الى طاقات انتاجها ومقايضتها . فعلى نقيض ذلك دفعت بها الى الأمام بتزويدها ايطاليا باليد العاملة ورؤوس الأموال والتقنيات ، وبخلقهـــا حاجات مجهولة تسعى بشق الطرق لإرضائها ، وبشدّها اليها شتى خيوط الحياة الاقتصادية العامة في العالم المتوسطي . أجـل نحن لا ننكر أن هذا الازدهار الذي أوجدته الانتصارات واستند الى القوة ينطوي على بعض الصنعة . وليس من شك في ان المنافسات الظافرة ستبرز حالمـا تخف الأعباء التي تشلّ الولايات ، وحالمـا يزداد تقدم بلدان الغرب الجديدة في الثقافة والتجهيز ، وهـــما شبه مفقودين آنذاك . ولكن السعة الاقتصادية ، في القرن الاخير من العهـد الجمهوري ، واقع راهن .

روما وسط مالي كبير

تقدم لنا ، روما في ايطاليا النشيطة هذه ، المكبّة على الانتاج والمقايضات ، مشهداً مختلفاً كل الاختلاف . فالبطالة تزداد فيهـا باطراد يشجعها ، في اوساط المواطنين، سخاء الدولة والافراد الاثرياء. تمارس فيها الصناعة اليدوية، ولا سيما صناعة المهن الحقيرة ، طبقة كادحة من العبيد والأجانب . ولكن هذه الطبقة لا تعمـل للتصدير : فنحن أمام حوانيت خشبية ، لا أمام مصانع . ان رومـا تتعاطى الاستيراد فقط : منتوجات غذائية بكميات ضخمة لتغذية سكانهـا المتزايدين باطراد ، تأتيها من المناطق القريبة والبعيدة ، ومصنوعات ايضاً من شتى الانواع .

ولكنها تلعب مع ذلك دوراً رئيسياً في اقتصاد العالم الذي تسيطر عليـــه سياسياً : دور الوسط المالي المنظِم الحركة ، وفي الواقــع دور السوق الوحيدة لرؤوس الأموال . وهي تضطلع من ثم بمهمة لا سابقة لها ، لم ترثها عن أي مركز آخر ، لأن مدينة واحدة، لم تجمع من قبل ، بالدرجة نفسها ، القسم الأكبر من الثروات القائمة في اطار على مثل هذا الاتسـاع . فاضطرت الى التجديد كما اضطرت الى تكييف أساليبها الدقيقة جداً، وفاقاً لأهمية المصالح المواجهة واتساعها الجغرافي وبروزها في كل مكان ، ان لم يكن الى ابتكار هذه الأساليب ابتكاراً. ومن البدهي ان هذا التكييف كان في الوقت نفسه تدرجياً وأنانياً ، وتحقق وفاقـاً لازدياد رؤوس الأموال الايطالية ، ولمصلحتها دون غيرها ، بغية الاستفادة منها بدخل أفضل وبمكاسب جديدة، دونما اهتمام – وهو اهتمام لم يزعج المستفيدين في أي مكان آخر – لشقاء اولئك الذين يدفعون أثمانها .

ولكنه على الصعيد التقني تكييف يلفت النظر بمرونته وتنوع أشكاله .

كانت شراكة رؤوس الاموال احد التجديدات الرئيسية ، اقله على هذا الصعيد . وقد سبق لنا ورأينا التنظيم الممتاز الذي أدت اليه بصدد جمعيات الملتزمين . وليست هذه الاخيرة سوى الطراز الرسمي الاول : كانت الدولة تعترف بها كل خمس سنوات وتحتاج ، في مفاوضتها ، لمعرفة أسماء مديريها وأهم مساهميها . ولكن مساهمات أخرى كثيرة لم يعلن عنها ، وأشكال شراكة اخرى كثيرة ، كانت تعمل خارج الجمعيات المصرح بها . وعلى الرغم من المنع الذي استهدف الشيوخ ، بصدد الاموال العمومية والتجارة على السواء ، فلم يمتنعوا بل اقرضوا الاموال واستخدموا المعتقين مستعيرين أسماءهم لهذه الغاية . وفيما يلي مثل فيه الدلالة كل الدلالة على مهارتهم ، لا سيا وانه غير مرتقب . فقد روى بلوتارك ان كاتون المتقشف نفسه اهتم التجارة البحرية حاثـًا دائنيه على تأليف جمعية قادرة على تجهيز خمسين سفينة وعاهداً الى احد المعتقين تتبع العمليات الجماعية حتى النهاية : وهكذا جعل توزيعُ المخاطر التجارةَ بواسطة القروض ، التي عرفها الشرق واليونان، امراً أضمن الى حد بعيد من المغامرات الكبرى . وتعود هذه الرواية في وقائعها الى النصف الاول من القرن الثاني : فيمكننا بالتالي ان نتصور بسهولة ما اقدم عليه في القرن الاول رجال هم دون كاتون اخلاقاً .

والحقيقة هي ان رؤوس اموال كافة الطبقات الميسورة في جميع نواحي ايطاليا ، اي الشيوخ والفرسان وغيرهم ، قد اخضعت آنذاك الى حركة محمومة . فانطوى توظيف الاموال في العقارات نفسها على بعض مظاهر المضاربة لأنه انما يستهدف الدخل الوفير وارتفاع الاسعار . وقد عكف بعضهم على انتاج المآكل والحور النادرة المعدّة لموائد ذوي الاذواق الرفيعة . وضاعف كراسوس ثروته بتخصيصه ٥٠٠ من عبيده نجارين وبنائين ، وبابتياعه ، بثمن بخس ، وابان الكارثة بالذات ، البيوت المجاورة لمركز أحدى تلك الحرائق التي كثيراً ما اندلعت في روما القديمة . ومع كل ذلك فهو المال بالذات الذي آثروا الاتجار به عن طريق اقراضه لقاء ضمانات او عن طريق تشغيله في شؤون متنوعة . وكانت الساحة العامة القديمة في روما ، الفوروم *Forum* ، مركز مصفق حقيقي يتفق فيه على القروض والديون ووثائق التحويل على الثروات البعيدة والمساهمات في المشاريع المالية والتجارية . وقد بلغ النظام من الكمال ما جعل العمليات تتم ، القسم الاكبر من قيمتها ، بوثائق مخطوطة تجنب نقل المعدن الثمين نقلاً فعلياً الى مسافات بعيدة . ويعوزنا اليوم ما حفظته ارض بابل ووصل الينا احياناً عن عهود ابعد قدماً : المحفوظات الخاصة برجال الاعمال . لكن مراسلات شيشرون تشهد بتعدد الصلات بينهم والتسهيلات التي توفرها لزبائنهم واصدقائهم وبأهمية المصالح التي يديرون شؤونها . فاذا صح ان العالم القديم قد نظم وطبق تقنية المصرف الكبير في الاعمال ، فانما حدث ذلك في روما في القرن الاخير من العهد الجمهوري .

بيد ان بناء على مثل هذا التعقيد لا يمكن ان يكون إلا مريع العطب بسبب التضامن الذي يوجده بين كافة عناصره . وقد برهن عن انـــه يتأثر بالشائعات : فما القول عن الاضطرابات والحروب الاهلية والصعوبات العسكرية ؟ وللأحداث البعيدة صداها الخاص اذا ما جرت في الشرق الأيجي ، أي في أغنى منطقة توظف فيهـا رؤوس الاموال الايطالية . وان خطب شيشرون التي استهدفت ، في السنتين ٦٧ و ٦٦ ، تكليف بومبيوس مهمة تنظيف البحر من القراصنة وتولي الحرب بعد ذلك ضد ميتريدات بعد ان أخفق فيها لوكولوس ، قـد صادفت في الزمان الاضطراب الذي ستكون « مؤامرة » « كاتيلينا » منتهاه في السنة ٦٣ . وتظهر هـــذه الخطب الخطورة الحقيقية التي ينطوي عليها قلق بل ازمة تهدّد بالخطر مصالح عظيمة ، متداخلة من أعلى السلّم الاجتماعي الى اسفله : وليس من ريب في ان هذه الازمة هي التي خلقت هـــذا الاضطراب بتجميد رؤوس الاموال وبمنع تشغيلها ، ان هي لم تقوضها ، وبحمل الدائنين على الالحاح في المطالبة بديونهم . ومنذ السنة ٥٠ ، ادت القطيعة بين قيصر من جهة ومجلس الشيوخ وبومبيوس من جهة اخرى ، الى ازمة مماثلة. فروما قد ضاعفت شجونها في الوقت الذي ضاعفت فيه ثروتها لأن الاطمئنان ليس نتيجة اقتصاد يتطور في هذا الاتجاه .

٣ ـ الطبقات الدنيـــا

كان للتطور الاقتصادي صداه في تكوين المجتمع وفي نشاطات ومصير طبقاته المختلفـــة . وقد قلنا ما يجب قوله ، بصدد الطبقة الحاكمة ، في مستهل هذا الفصل . فلا يزال امـامنا سوى ما يتعلق بجمهور السكان الذين لن تمنعنا لامبالاة المصادر القديمة حيالهم من تراني مصيرهم .

١ ـ الرق وحروب العبيد

عدد العبيد

كان من نتيجة الحروب الظافرة والاثراء الذي عقبها ان دخل ايطاليـــا عدد لا يحصى من العبيد . اجل كان هنالك عبيد منذ اقدم العهود : فقـــد استطاعت روما ، بعد «كاناه» ان تجند منهم جوقتين. ولكنهم غدوا الآن جماهير غفيرة. وان قانون الحرب الذي تمشى عليه كافة المتحاربين — اصبح بعض اسرى هنيبعل عبيداً في اليونان — وقـد غذّى الاسواق بهم منزلاً اليها ، في الظروف العادية ، اسرى الحرب ، بل جميع سكان المدن المفتوحة عنوة في اغلب الاحيان . وقد حدث مـــا هو اسوأ من ذلك : التنكيل الذي لا يعرف الشفقة معنى . ففي السنة ١٦٧ ، بعد النصر واخضاع الاهالي ، اصدر بولس اميلياوس أمره باختطاف وبيع ١٥٠٠٠٠ شخص من سكان الابير . وفي كل مكان اذن ، في البلقـــان وآسيا وافريقيا واسبانيا وغاليا ، باع قضاة المالية بالدلالة، مرافقي الجيوش من التجار ، الغنائم البشرية التي كانت تنقل بعد ذلك، مواكب كئيبة ، الى الاسواق الخاصة : ويجب الا ننسى ان قيصر قد امر ببيع مليون من الغـــاليين . وان المصادر الاخرى من قرصنة ، وعبودية دَين — لم ينتج منها سوى

المواطنين – واستيراد برابرة ، لا اهمية تذكر لها اذا ما قورنت بهذا المصدر . ولن تخف تغذية الاسواق بالعبيد ما دامت روما قادرة على خوض الحروب الظافرة . وقد انتهى الى ايطاليـا ، اوسع البلدان المتوسطية ثروة آنذاك ، العدد الاكبر من هؤلاء العبيد ، او على الاقل افضلهم قوة وذكاء وجمالاً . وبديهي ان ليس لدينا اي احصاء في هذا الموضوع ، ولكننا لا نشك في ان العبيد الذين دخلوا شبه الجزيرة بلغوا الملايين .

استخدامهم ومصيرهم

كان العبيد فئات متفاوتة الكفـاءات ، وقد استخدموا في شتى الاعمـال .

فكان هنالك عبيد للابهة يستخدمهم سيدهم للمتعة والتباهي؛ وكان اخرون خداماً مدربين ؛ واستخدم غيرهم ، من المثقفين ، امنـاء سر يوثق بهم ؛ وقام آخرون باعمـال تتطلب خبرة واختصاصاً ؛ الخ . وقد ادى تدريبهم الى نوع من التجـارة مارسه كاتون وكراسوس من قبله . وكانت اكثرية العبيد من الاغريق والشرقيين الاذكيـاء والماهرين . فبدأ تأثيرهم على المجتمع الرفيع يزداد اهمية منـذ هذا العهد : ومن ميزات شيشرون الفائتة دالته المعطوفة على الجيته في الحقلين الادبي والمالي الذين لم يفته ان يعتقهم . وفي اثناء حركة النفي والاعدام التي تولاها سيلا ، غضّ الطرف عن مرقات امين سره ، المعتق خريسوغونوس . وليس مينودوروس ، اميرال اسطول بومبيوس ، سوى عبد معتق ايضاً .

وقد استخدم بعض العبيد عمالاً اختصاصيين في مشاريع خاصة صغرى . فاذا اتقنوا مهنتهم، غدا السماح لهم ، لا سيا في المدن ، بممارستها لحسابهم الخاص ، لقـاء اتاوة معينة ، امراً اعظم نفعاً ، بحيث ان النظام اليوناني حول العبد صناعياً صغيراً او حانوتياً« مقيماً وحده » ، قد ساد روما ايضاً . وغالباً ايضاً ، على غرار ما حدث في اليونان ، ما منح السيد الحرية القانونية لا سيا وان هذا المنح ما كان ليمنعه من اضافة واجبات مالية الى الحقوق التي يخوله اياها القـانون على المعتق . وهكذا انصهر هؤلاء العبيد القدماء بسرعة نسبية في سكان المدن وأثروا تأثيراً عميقاً في اخلاقهم . واذا ما حالف الحظ نشاطهم في العمل ، بلغ بعضهم مراتب رفيعة : فاتما كان عبداً معتقاً ذلك الخباز الثري ، م . فيرجيلوس افريساسيس ، الذي ابتنى لنفسه ، في اواخر العهد الجمهوري او اوائل رئاسة اوغوسطس ، على مقربة من المدخل « الاعظم » في روما ، الضريح المكعب المدهش ذا الكوى الواسعة المستديرة التي تمثل فوهات الفرن .

بيد ان هنالك عبيداً آخرين ايضاً . نذكر منهم ، في الدرجة الاولى ، المسايفين ، المقاتلين جيداً والمدربين في مدارس كبانيا الضاحكة . ونحن سنراهم فيما بعد حين يعم الميل الى الالعاب الدامية في كافة انحاء العالم الروماني . وقد رسخ هذا الميل في روما في اواخر القرن الثـاني ، فاستلزم اشباعه ممثلين ينتظرهم الموت كانوا عبيداً في اكثريتهم على ما نرجح . ونذكر في الدرجة الثانية عمال المشاريع الكبرى ، الاشغال العامة والمناجم . ولا حاجة لان تتوفر لدينا حولهم

المعلومات ، التي تنقصنا كلياً آنذاك ، لتقدير شقائهم بسبب ظروف ناصبة احاطت بعمل قاموا به فرقـــاً وافرة العدد . ونذكر اخيراً العبيد الريفيين وهم بدون شك اكثر العبيد المقيمين في ايطاليا عدداً : وانما يهمنا معرفة مصيرهم .

تكلّم كاتون في بحثه حول الزراعة ، عن اولئك الذين تخيلهم في أملاكه ، ويقــدر عددهم بالثلاثين . ويتضح من فحص القواعد التي يضعها بصددهم انه لا يغفل رأس المال الذي يمثلونه،فلا يرضى بأن يموتوا جوعاً او عملاً مرهقاً او ضرباً . واذا ما اشار ببيعهم عندما يتقدمون في السن او يمرضون ، فلا يشير بأن يباعوا مع« العربات والحدائد العتيقة » فحسب، بل مع « الثيران الطاعنة في السن » ايضاً . فكل شيء يؤول ، بالنسبة له ، الى مسألة انتاج مماثلة لمسألة انتـــاج المواشي التي يغذيها صاحبها ويحرص على ان لا ينهكها ولا يسيء معاملتها. ولا شك، على نقيض عمال كاتون الذين يشتغلون في بساتين الكرمة والزيتون، في انه توجب على أكثرية العمال الريفيين ان يكونوا رعاة ، لأن العناية بالقطعان ، وحدها تقريباً ، تتيح باستمرار تشغيل رجــل يقتفي تعهده طيلة السنة . ولكن هذا العمل ، بالاضافة الى انــه يبعد العبد عن رقابة مستمرة ، لم يغير شيئاً في طبيعــة الحساب الذي كان على الاسياد ان يحسبوه والذي حال دون الافراط في القسوة وفي الاقتصاد الغذائي او غيره . لذلــك ، اذا ما اخــذنا بعين الاعتبار اعمال العنف التي يأتيها ، في غياب السيد المتكرر ، وكيل هو نفسه عبد في اغلب الاحيان ، لا يجب ان نبالغ في تصور السجون المظلمة والتقييد بالسلاسل وعقوبات الشنق . ولكن يجب ألا ننسى النتـــائج الأخرى للحساب نفسه. فقد منع السيد ، إلا في الظروف الاستثنائية، من اعتاق العبد الذي يعجز عن استمالة جميله او يجمع بعض المـــال الذي يبتاع به حريته . وقد منعه ايضاً من القبول بالمحاذير والنفقات التي تستتبعها تربيـــة اولاد العبيد ، وهم قليلون على كل حال بسبب ندرة النساء بين العبيد . وهكذا فقد انحط العبد الى مرتبة الحيوان وفقـــد كل امل بالعطف وبمستقبل افضل ، فتألم في نفسه ، ان لم يكن في جسده ، كلما وعى طبيعته البشرية ولو وعياً غامضاً .

حروب العبيد

اذا لم يكن هذا الاحساس فطرياً فيه، فقد كانت الحياة الجماعية كافية لأن تثيره فيه لأنه يجد فيهــا ابداً رفيقاً اعظم نباهة قد يكون منحدراً احياناً من النخبة الاجتماعية في بلاده. اضف الى ذلك ان العبيد الآتين من الشرق الهليني قد جاؤوا بصدى الآراء او التيارات الثورية . ولا يدهشنا ان تكون أشدّ الثورات خطورة قد طارت شرارتها من صقليا وايطاليا الجنوبية أي من المناطق اليونانيـــة المتأثرة تأثراً خاصاً بالتطور المؤاتي لاقتناء الاملاك الواسعة . وقد توصلت تدابير الأمن الشديدة ، في الظروف العادية ، الى كبح اضطراب خفي دائم الغليان : وكانت السلطات المحلية تتولى ذلك ، بمساعدة القضاة عند الحاجــة . بيد انه حدث ثلاث مرات ، تفصل بين الواحدة والاخرى ثلاثون سنة تقريبـاً ، ان حادثاً محلياً ، وحتى عائلياً ، قد اثار ، لأنه لم يقمع فوراً ، حريقاً يغذيه شيئاً فشيئاً المثل الذي توفره اليائسين

اعمال العنف الاولى . وقد اطلق الرومان على هذه الثورات الكبرى اسم « حروب العبيد » لأن قمعها قد تطلب عمليات عسكرية حقيقية .

ففي هذه الحروب توجب على قوات الامن ان تقابل ، لا عصابات متشتتة ، بل كتلا تحس بالحاجة الى الاتحاد تضم بضع عشرات الالوف من الرجال احيانا . وكل مرة تولى قيادة هؤلاء الثائرين زعيم لا ريب في انه تحلى بصفات غير عادية حتى توصل الى فرض نفسه على مثل هؤلاء الاتباع ، واذا ما هو لجأ ، كما تشير الى ذلك مصادرنا ، الى اساليب الخرقة ، فان هذه الاساليب هي التي تفعل فعلها في جماهير لا يمكن ان تتصف بروح نقدية عالية . وكان لهؤلاء الزعماء مساعدوهم ، وقد حاولوا تنظيم زمرهم وانتهاج بعض الخطط العسكرية بواسطتها . فاحرزوا على قوى الامن المحلية وعلى الجيوش المعبأة بسرعة انتصارات عديدة . ولكن ضعف تسلح الثائرين قد ظهرت نتائجه الحتمية امام جوقات مدربة نظامية . وهل يمكن من جهة ثانيـــة ان يفرض عليهم نظام ما ؟ فهم قد خضعوا لغرائزهم الثأرية البدائية مكدسين الضحايا والخراب . فكان اندفاعهم بالتالي خطراً على الاسس الاولية للنظام الاجتماعي والحضارة . فتكونت ضد هـذا الاندفاع في روما الجبهة الموحدة التي ضمت اشد الاحزاب تخاصماً . اجل كان من المستطـــاع ، في حمى الاشتباكات والحرب الاهلية ، تسليح بعض العبيد وتجنيدهم . ولكن اعظمهم جرأة قد تراجعوا امام الخطر الشامل : فاحس الايطاليون الاحرار بتضامنهم كما لو كانوا به امام ثورة في ولاية . فثوار سبارطة الهلينية ، في اليونان مثلاً ، قد تجاوزوا اقصى ما توصل اليه « الشعبيون » الرومانيون ونرجع ان السبب البسيط في ذلك هو انهم لم يهتموا ، على غرار الشعبيين ، لمكاسب الفتح المادية .

انفجرت حربا العبيد الاوليان في صقليا على يد زعماء وجيوش من اصل شرقي ؛ ولم تنتقل العدوى آنذاك الا الى بعض النقاط من ايطاليا الجنوبية . وقد قاست الجزيرة الامرين من هذه الثورات ومن قمعها . وتفسر هذه الاخيرة جزئياً انهيار انتاجها الزراعي ، الملموس في القرن الاول . وتفسر ايضاً تشدد الحـــكام ، حتى فيريس ، في توزيع العـــدالة ، لانهم مضطرون للاستمرار في تشديد الرقابة البوليسية حيال محاولات الدعاوة والاضطراب .

اما الحرب الثالثة فأعظم شهرة : وهي تلك التي تزعمها ، في ايطاليا هـــذه المرة ، رجل تراقي ، ربمـا من اصل ملكي ، هو سبارطاكوس . فقد جر وراءه اولاً ، في السنة ٧٣ ، رفاقه المسايفين في مدرسة « كابوَا » ثم ، شيئاً فشيئاً ، ما لا يقـل عن ٦٠٠٠٠ رجل: ملحمة غريبة مفجعة ، دامية ووحشية الى اقصى حد ، تخللتها احداث اتصفت بالفظاعة حيناً وبالعظمة حيناً آخر . وليس اقل هذه الاحداث تأثيراً ، حتى اليوم ، ذلك الذي أرغم فيه هؤلاء المسايفون ، الذين كانت العائلات الكبرى تضطرهم الى الاقتتال لمناسبة جنازة احد اعضائها ، مائتي زوج من الأسرى على الاقتتال بعد موت احد معاوني سبارطاكوس . ولكن عظمة هذا الاخير لا تتجلى

في تطبيق شريعة السن بالسن تطبيقاً فظيعاً، بل في اتساع الخطة التي رسمها. فعلى نقيض سابقيه، الذين قادوا رجالاً شرقيين بنوع خاص، اضطر هو، بعد الحروب ضد «الكبر» و «التوتونز»، وبعد نمو علائق روما بالبلدان الشمالية، الى قيادة عصابات تضم كلتيين وجرمانيين في الدرجة الاولى. لذلك، معوضاً عن ان يفكر بالسلب دون غيره، واقتناعاً منه بأن الفشل والموت سيكونان نصيبهم المحتوم في ايطاليا، قد قرّر ان يقودهم الى الحرية الحقيقية بشق طريق اوطانهم لهم من الجهة الشمالية. ولكن المأساة التي لا نعلم أسبابها الحقيقية - ونرجح ان احدها هو جاذب ثروة شبه الجزيرة - قد حدثت حين عاد الى ايطاليا الجنوبية بعد ان بلغ غاليا ما وراء الالب ظافراً. فقد قرر عمله هذا مصير الثائرين. كان كراسوس قد أعطي صلاحيات استثنائية وجند عشر جوقات فدحرهم حتى طرف شبه الجزيرة، بينما كان فيريس يفرض رقابة شديدة على صقليا. وجاءت النهاية في اوائل السنة ٧١ وطورد الهاربون في كل مكان ولم يرحم المنتصر - وبومبيوس - الذي اصطدم في بلاد الاتروسك باحدى عصاباتهم - شخصاً واحداً منهم: وقد نصب كراسوس على الطريق «الآبية *Appia*» بين كابوا وروما ٦٠٠٠ صليب علّق على كل منها رجل محكوم بالموت.

اذا ما نظرنا الى الرعب الذي أثارته ادوار الازمة رأينا ان الارهاب الظالم لم يحل المعضلة. وعلينا ان نكتفي بالافتراضات، اقله بصدد اواخر الجمهورية واوائل الامبراطورية، لنفسر عدم اندلاع حرب اهلية بعد ذلك. واقرب هذه الافترضات الى الحقيقة ان الحروب الاهلية قد وفرت امكانات عديدة لابعد العناصر مغامرة وعنفاً. وفي سبيل تجنيدهم، اعتق الخصوم العبيد او استقبلوا الفارين. وانتسبت قوات سكستوس بومبيوس، الذي كان مقيماً في صقليا وارغم اكتافيانوس فترة من الزمن على التخلي عن حقوقه للاتفاق معه، في أكثريتها الى هذا الاصل، وبعد ان اسلتند اليها المنتصر حجة من حجج دعاوته، لم ير ضيراً في ان يستخدم جنود المغلوب وبحارته. ونحن نرجح ان اعتماد هذه الطريقة قد ساعد، بفعل انتهازية تخضع لمشاغل اخرى، على تجنيب الخطر الاكبر، حين لم تكن روما لتستطيع بذل الجهد الذي بذلته ضد سبارطاكوس ثلاثين سنة من قبل. وبعد ذلك، في عهد الامبراطورية، تضاءل الخطر تلقائياً، دون ان يعالج قط، بعد معرفة حقيقية بالضبط، بالادوية اللازمة: ولكن ما حدث، باستثناء بعض التوقف بعيد الحروب الظافرة الكبرى، هو ان عدد العبيد قد اخذ يتناقص تدريجياً بسبب العدول عن السياسة الداعية للحرب وتزايد عدد المعتقين وهبوط ايطاليا اقتصادياً.

٢ ـ الفلاحون الاحرار

ان ازدياد اليد العاملة العبدية، المقابل للفتوحات العظمى في القرن الثاني، ما كان ليجر سوى العواقب الوخيمة على المصير المادي لرجال احرار يعيشون من عملهم. ونحن نعرف، من هذا القبيل، متوسطي وصغار الفلاحين الذين كانوا يزرعون اراضيهم بأنفسهم. ولكنهم في

الحقيقة ألفوا ، في شبه الجزيرة التي عرفت فيا مضى اقتصاداً زراعياً بسيطاً، غالباً الى حد بعيد، طبقة وسطى ، وعامة ايضاً ، لأنهم قدموا لروما هيكلا اجتماعياً وعسكرياً – جمع المشاة من بينهم – لا نظير له من حيث المتانة . فكل ما قد يصيبهم يهدد بالخطر ، اول ما يهدد، الدولة التقليدية .

الازمة: الاملاك الخاصة والاملاك العامة

لا مراء في ان عددهم قد تدنى . وليست منافسة العبيد السبب الوحيد وحتى الاهم في ذلك لانها قد اضرت في الدرجة الاولى بالعمال الاحرار الذين يؤجرون سواعدهم للملاكين . بيد انها ، بصورة مباشرة ، وبتسهيل استثمار الاملاك الواسعة، قد اضرت بالاملاك الصغيرة . واثر واقع الحروب نفسه تأثيراً مؤسفاً، فخلال السنوات الخمسة عشر التي امضاها هنيبعل في ايطاليا اتلفت الجيوش الارياف . ثم ان التجنيد المتكرر وطول مدة الحملات فيا وراء البحر قد سلخا الفلاحين عن املاكهم التي حرمت من ثم ادارة وعمل السيد. واذا هم عادوا من هذه الحملات بالغنائم، فقد اكتسبوا عادات لا تشجع العمل الشاق المستمر . ولكن جميع هذه الاسباب ، مباشرة كانت ام غير مباشرة ، تتضامل امام تطور الاقتصاد الزراعي الايطالي . وقد سبق لنا وبينا كيف استحال العيش على الفلاحين الايطاليين من بيع الحبوب باسعار متدنية فرضتها الواردات وكيف اضطروا لان يوجهوا عنايتهم الى نشاطات اخرى لا سيا تربية المواشي وزراعة الاشجار المثمرة . ولكن ذلك لم يتوفر الا لذوي رؤوس الأموال القادرين على توظيف المبالغ الضرورية لهذا الغرض . وقد توفرت رؤوس الاموال هذه باطراد للاغنياء ، المستفيدين الرئيسيين من اثراء الحروب . فتجمعت بالتالي الاملاك العقارية ونمت بينما هاجر الملاكون القدماء المستثمرون الى المدن ، والى روما بالتفضيل ، او تحولوا الى عمال ريفيين مأجورين، بائسين بفعل منافسة العبيد .

وازدادت خطورة الداء بسبب وجهة استخدام الاملاك العامة في ايطاليا، وهي بالضبط ما كان بالامكان ان يوفر له الدواء . فقد شملت هذه الاملاك مساحات كبرى من الاراضي المصادرة لمنفعة روما حين الفتح او بعد الثورات ، وقد انمتها الخيانات التي حصلت اثر نداء هنيبعل . وطالما استعملت الدولة بعض اقسامها ، بين وقت وآخر ، لتوزيعها انصبة مجموعة او متفرقة على مواطنين رومانيين او حلفاء « لاتين » : فحدث من ثم بزل في طبقة كادحة قديمة او حديثة العهد وتألفت مرة ثانية طبقة من الزراعين الاحرار . ولما كان امر ادارة ممتلكات الدولة يعود لمجلس الشيوخ فان هذا الاخير هو من تولى هذا التوزيع . غير ان احد المحامين عن حقوق الشعب قد تجاسر مرة واحدة ، في السنة ٢٣٢ ، وطلب الى الشعب الموافقة على ان تفرز وتوزع على المواطنين الفقراء منطقة محتلة وراء الابنين بمحاذاة الادرياتيك . ولكن مجلس الشيوخ ، بفضل السلطة التي جعلته الحرب البونيقية الثانية يستعيدها ويوطدها ، قد توصل الى تجنب تجدد هذا النهج الذي اعتبره نهجاً ثورياً . واستفاد من احتكاره للسلطة فقرر في اوائل القرن الثاني

بعض التوزيعات وانشأ بنوع خاص قرابة عشرين مستعمرة . ثم وضع حداً لهذا التوزيع : فالاملاك العامة ، في نظر الاوليغارشية الجلسية ، يجب ان تستخدم لغايات اخرى.

لقد بيعت منها بعض القطع فقط لان الخزانة العامة لم تشك من العجز الانادراً . وحاول الكثيرون استئجارها ، وتولى مراقبو الاحصاء التلزيم الذي تناول اجمالاً مساحات كبيرة: ذاك كان مصير البراحات *Landes* والمراعي بنوع خاص.واخيراً كان مسموحاً لاي كان ان «يحتل» الارض التي لا يشغلها احد مقابل ضريبة سنوية الغاية منها التذكير بملكية الدولة . وعملياً ، اذا استمرت الجماعات المحلية ، عن طريق الالتزام او بدونه ، في استثمار اراضي الجدود التي سلخها منهم الفتح الروماني مبدئياً ، فإن الريفيين المفتقرين لم يستفيدوا من الاملاك العامة الا بهذه المداورة مستكلين تغذية مواشيهم القليلة في المراعي المشتركة . اما ما تبقى منها فقد استأثر به الاغنياء بالنظر الى ان استثماره او مجرد استخدامه يستلزم ابداً رؤوس الاموال؛ وقد تألفت جمعيات من الملتزمين لتعاطي تربية المواشي كما وظف كبار الملاكين ولا سيما الشيوخ اموالهم في الاراضي المجاورة لاملاكهم لان تشغيل ثرواتهم في الاستثمار الريفي كان وحده جائزاً . ولهذا السبب احجم مجلس الشيوخ خلال الربع الثاني من القرن الثاني عن توزيع القطع الفردية .

وهكذا لم يتلق الفلاحون الاحرار ، في ازمتهم الخانقة ، اي شيء يعوض عليهم ، وعوضاً عن ان تساعد املاك الدولة على استمرار التوازن الاجتماعي فانها قد ضاعفت امكانات التوسع التي توفرت من قبل للاملاك الخاصة في التطور الاقتصادي .

الحركة الاصلاحية

لقد لوحظ نهج هذا التطور منذ العصور القديمة . ويبذل المعاصرون اليوم جهدهم في اكتشاف بعض مفارقاته . وأهمها اختلاف زمن حصوله وفاقاً لمناطق ايطاليا . لنستثن في الدرجة الاولى ايطاليا الجنوبية التي هي ، كما نظر اليها بوليب ، حديقة غناء مخصبة زهيدة الاكلاف . فقد كان ايضاً في شبه الجزيرة مناطق يعسر الوصول اليها من الساحل ولا يدخل القمح الاجنبي اليها ، اعني المناطق الجبلية في ايطاليا الوسطى . اما على مقربة من روما ، في اللاتيوم واتروريا الجنوبية ، فقد فضل الاثرياء توظيف رؤوس اموالهم في الاراضي حتى يستطيعوا مراقبة استثمارها مراقبة اجدى. ومن جهة ثانية غدت ايطاليا الجنوبية كلها ، وهي التي قد عمها الخراب خلال الحرب البونيقية الثانية ، المنطقة النموذجية لتربية المواشي على نطاق واسع : ولعل نظامها الزراعي الراهن قد تحدّد منذ القرن الثاني قبل الميلاد .

اكتشف بعض المسؤولين الرومانيين الداء ، اقله من خلال بعض نتائجه . فلمسوا الصعوبات في تعبئة الجنود ولاحظوا انخفاض مستواهم : حصلت حوادث مؤسفة مؤلمة لا سيا خلال الحملات على نومانس في اسبانيا . ولاحظوا ايضاً الارتفاع العددي في الطبقة الكادحة المدنية والرذائل التي اذلتها. فبرز في ايطاليا النقص في الرجال الذي علموا ان اليونان شكت منه ولا تزال - اجل نحن نفتقر الى المعطيات الواضحة حول الايطاليين الاحرار غير المواطنين ، ولكن قضاة مدنهم

قد اشتكوا احياناً من الصعوبة التي يصادفونها في جمع المتطوعين للجيش الروماني. اما المواطنون فان عددهم بعد ان بلغ الرقم القياسي ٣٣٧٠٠٠ في السنة ١٦٤ قد اخذ بالانخفاض ، من احصاء الى احصاء ، الى ٣١٨٠٠٠ في السنة ١٣٦ ، أي ما يقارب ٦ ٪ . فرأى الداء بعض المسؤولين الذين رضوا بفتح عيونهم وادركوا بسهولة احد اسبابه : طغيان الاملاك الواسعة واقتصادها المبدي على الاملاك الصغيرة : يعزو بلوتارك الى كايوس ان اخاه طيباريوس غراكوس ، حين مروره في اتروريا ، « رأى هذه البلاد الجميلة المقفرة التي لا زراع ولا رعاة فيها سوى الاجانب والبرابرة » .

برز كذلك اثر الافكار الداعية الى حب البشر وحتى الى المساواة التي طلع بها بعض المفكرين الهليليين . فلا مجال مثلاً لنكران هذا الاثر عند طيباريوس غراكوس . ولكن اذا وجب ربط اسم هذا المحامي عن حقوق الشعب بحركة الاصلاح استناداً الى مبادرته ونهايته الفجعة ، فان فكرة وكيفيات هذا الاصلاح قد لاقت صداها لدى شيوخ من المرتبة الاولى ، من امثال «رئيس المجلس» آنذاك . وفي الحقيقة فكر هؤلاء الارستوقراطيون المستنيرون ، في الدرجة الاولى ، تفكير رومانيين مفعمين بالتقاليد القومية ، وبمفهوم دقيق لمصلحة روما ايضاً . وكلنا يعلم المضادة البليغة الشهيرة التي جعلها طيباريوس غراكوس بين الوحوش البرية التي تملك اوجرتها على الاقل وبين اولئك الذين يموتون ذودا عن ايطاليا وليس لهم بيت تأوي اليه عائلتهم. ولكننا نلاحظ ، اذا ما امعنا قراءة صفحة بلوطارك بكاملها ، ان الخطيب لم يقصد سوى المواطنين دون غيرهم الذين « يطلق عليهم اسم اسياد العالم » والذين « لا يملكون مدرة » . فلا قيمة من ثم لاعتراض المعترضين انه يستحيل عليه التفوه بغير هذا الكلام امام جمعية من المواطنين .

فلم يفكر المصلحون ، لا في بداية حركتهم ولا بعدها ، بالاقليميين الذين كان استغلالهم وبؤسهم ، مع ذلك ، في الاساس من انهيار الفلاحين الايطاليين : وكايوس غراكوس هو الذي نظم لمصلحة الملتزمين جباية الفريضة على ولاية آسيا . لا بل لم يفكروا في البداية بالايطاليين غير المواطنين الذين كثيراً ما لجأت اليهم روما في جمع المتطوعين لجيوشها والذين اقصاهم القانون الزراعي عن توزيع الاراضي ، مع انه اخضعهم ، شأن غيرهم ، لمبدأ استعادة الاراضي المقطعة . اجل لقد تطوروا بسرعة بصدد هذه النقطة واقترحوا ، منذ السنة ١٢٥ ، حلاً يقضي بتعميم حق المواطنية في ايطاليا ، اي بجعل الايطاليين يستفيدون من القانون ؛ وان المثل الاعلى في المساواة القانونية الذي قالوا به لم يزل بعد ذلك من برنامج الشعبيين . ولكنهم لم يقولوا به الا لاعتبارات انتهازية ، اي رغبة منهم في جمع الحلفاء من حولهم والقاء مسؤولية الثورة على خصومهم . واذا ما اوجبت المعضلة الزراعية بحث المعضلة الايطالية جدياً ، فانها تحتفظ في نظرهم باولوية منطقية تتأيد في اولويتها الزمنية ، ولم يحملهم على التصدي للمعضلة الثانية الا تصميمهم على حلها هي .

هكذا افضى الاصلاح الى اصلاح آخر ، وافضى في الواقع تدريجياً الى عدة اصلاحات اخرى . ومرد ذلك الى ان الاصلاح الزراعي لم يكن ليتم الا على حساب الاوليغارشية العقارية التي ضمت اكثرية طبقة النبلاء المجلسيين . فاقتضى مواجهة مقاومة عنيدة تبديها هذه الطبقة اذ ان هزيمتها لا يمكن ان تعني سوى انهيار النظام السياسي الذي عرفته روما منذ الحرب البونيقية الثانية والذي القى في الواقع بزمام السلطة الى مجلس الشيوخ . امام مثل هذه النتائج لا يدهشنا ان يتخلى عن آل غراكوس بعض انصارهم الاول .

التشريع الزراعي

بديهي انه يستحيل هنا عرض تطور التشريع الزراعي عرضاً مفصلاً لا تتفق عليه الآراء احياناً .

كانت نقطة انطلاق هذا التشريع القانون الذي اقره الشعب بناء على اقتراح طيباريوس غراكوس المحامي عن حقوق الشعب ، وقد تقدمه بصورة اكيدة قانون آخر على الاقل . اختلف العلماء حول عدد هذه القوانين وتاريخها . ولكن لا نعبأن بذلك اذ ان قانوناً واحداً لم يطبق . وقد وضعت ايضاً ، منذ زمن قريب ، مشاريع كان مصيرها الحبوط . واستندت كافة القوانين او المشاريع الى المبدأ القانوني الذي احتفظ للدولة بمبدأ تملك جميع الاملاك العامة التي لم تنقل ملكيتها الى شخص آخر وفاقاً للانظمة المرعية الاجراء : فكان باستطاعتها من ثم استعادة الاراضي « المحتلة » او المؤجرة والتصرف بها كما يطيب لها . ولم يعرف القانون الروماني ، وشأنه في ذلك شأن القانون اليوناني ، الاستملاك الذي تلجأ اليه الاصلاحات الزراعية الحالية. واكتفى قانون السنة ١٣٣ ، على غرار النصوص السابقة ، بتعيين حد اعلى ، على بعض الاهمية ، – ما يعادل ١٢٥ هكتاراً لرب العائلة من « محتلي » الاراضي ، يضاف اليها ٦٢,٥ هكتاراً لكل ولد – تنزع بعده الاراضي العامة الايطالية من مستثمريها ، ومقابل ذلك يصبح هؤلاء مالكين شرعيين للاراضي الباقية . وتقسم الاراضي المستعادة وتوزع على المواطنين انصبة مساحة كل منها ٧,٥ هكتارات لا يمكن بيعها وتخضع لفريضة سنوية تسمح بمراقبة مصيرها : فتتكون مرة اخرى بالتالي طبقة صغار المستثمرين التي اعتبرت ضرورية لعافية المجتمع والدولة .

ذلك كان النظام . وقد أثار في الواقع ، بسبب بساطة تصميمه ، صعوبات سرعان ما تمسكت بها المعارضة . ولم تعرف هذه الاخيرة كللا في معارضتها .فادى عنادها الى حوادث تعتبر من اعنف حوادث تاريخ روما الداخلي كموت طيباريوس غراكوس في السنة ١٣٣ وموت شقيقه في السنة ١٢١ . وكانت لها الغلبة احياناً : اجل لم تجرؤ قط على الغاء المبادىء المتفق عليها ، ولكنها علقت تطبيقها او اخرته او حصرته في مناطق ثانية هي ثانوية في نظر طبقة النبلاء . ولكن الاصلاح ، بفضل سلسلة طويلة من القوانين الزراعية ، اعتمد في النهاية ونقح ووسع توسيعاً اعظم سخاء على المنتفعين به . ولنكتف هنا ببعض التعديلات . فلم يقتصر على

حصص الـ ٧,٥ هكتارات : بل توصلوا الى ال ٥٠ هكتاراً ، وألغوا الضريبة المفروضة عليها ، الشيء الذي سهل ، من جهة ثانية ، نقلها الى الغير ، واعترض من ثم الهدف المنشود . ولم يقتصر على الاراضي المستعادة من شاغليها : فقد ابتيع منها بمال الدولة . ورغبة في جعل التوزيع اكثر ثبوتاً ، جمعت الانصبة وانشئت المستعمرات . وسلكوا اخيراً ، بتخوف كلي ، الطريق المعدة لان تكون طريق المستقبل ، بان شرعوا بتطبيق هذه التدابير ، ليس في ايطاليا فحسب ، بل في الاقاليم ايضاً حيث شملت الاملاك العامة كثيراً من الاراضي الخصبة. وقد سبق لشيبيون ، في السنة ٢٠٦ ، قبل ان يغادر اسبانيا التي انتزعها من البونيقيين ، ان اسس ايطاليكا ، قبالة اشبيليا الحالية ، باسكانه فيها العاجزين والمتقاعدين من جنود جيشه . ولكن هـذا المثل لم يقتد به بعد ذلك . ثم عادوا الى هذه الفكرة في عهد كايوس غراكوس ، ولعل هذا العود كان مداورة للتخفيف من صعوبة استعادة الاراضي في ايطاليا ، فاقروا انشاء مستعمرة في افريقيــا هي « المستعمرة الجونونية القرطاجية » التي تأسست على مقربة من الموقع اللعين الذي قامت عليـه المدينة المهدمــة في السنة ١٤٦ . فاخفقت المحاولة . ولكن انشاء ناربونا ، في السنة ١١٨ ، قد عرف نجاحاً كلياً .

وتطور في الوقت نفسه المنتفعون بهذه القوانين . فقد اراد المصلحون الاولون تخفيض عدد المواطنين الفقراء بالاستفادة منهم فوراً . فسُمح منذ ماريوس للكادحـين بالانخراط في الجوقات وحرص جميع القادة الظافرين على ايثاق تعلق جنودهم بهم بتأمين المكافأة لهم ، فلجأ المصلحون الى القوانين الزراعيـة كي يوزعوا على الجنود انصبتهم من الاملاك بعيد تسريح الجيش . ويضاف هذا النصيب الى الغنيمة الفردية ، فيحدث التوق اليه اقبالاً على التطوع عندمـا تندلع الحرب : كان الريفيون البؤساء يرضون بالمخاطرة بحياتهم بضع سنوات رغبة منهم في تأمين الحصول على قطعة ارض بعد نهاية الحرب . لا ريب في ان الهدف الاجتماعي قد تحقق ، ولكن بمداورة مادية ، وبما هو اخطر من ذلك ، اي بانحراف اخلاقي . والدليل على ذلك ان الارض المقطعة لم تعبر عن اعتراف الدولة بواجبها في مساعدة المواطن على العيش من عمله بل اصبحت مكافأة على خدمات مؤداة . ولكن لماذا اديت يا ترى ؟ في اغلب الاحيان ، لطموح قائد يستخدم جيشه في الحرب الاهلية دونما خجل لا سيا وان انتصاره ، بما يستتبعه من مصادرات ونفي ، يوفر له الاراضي التي يستطيع اسكان جنوده القدماء فيها : وكان سيلاّ اول من نهج هـذا النهج . وقد وجب ان يأتي قيصر ويستصدر خلال قنصليته في السنة ٥٩ ذلك القانون الذي طبقه الى حـد بعيد خلال دكتاتوريته ، حتى يعود الى توزيع الاراضي على المواطنين الفقراء على نطاق واسع ويستمر في الوقت نفسه في الانعام بسخاء على الجنود القدماء: فأسكن في كمبانيا ٢٠٠٠٠ ربّ عائلة لكل منهم ثلاثة اولاد على الاقل ، ولجأ بنوع خاص الى المعتقين المرسلين الى روما لاعادة بنـاء كورنثوس التي كانت قرطاجة قد هدمتها في السنة نفسها .

نتائج القوانين الزراعية

على الرغم من اللجوء الى الاستعمار الاقليمي، بقيت ايطاليا ، دون ريب، قبلة انظار الايطاليين . ويجب ان لا نقلل من اهمية النتائج التي اسفرت عنها الصراعات الحامية طيلة قرن تقريباً ضد استئثار الطبقات الحاكمة بالاراضي. اجل بقي عدد الاملاك الواسعة مرتفعاً لا سيا في ايطاليــــا الجنوبية : وقد سمح ببقائها للنصيب المتروك لشاغلي الاملاك العامة ، وتولى العمل الباقي حصر الثروات العقارية الطبيعي عن طريق الارث ام الشراء. ولكن الملكية الصغيرة ، في عـــدة مناطق ، لا سيا المتوسطة ، كانت قد عادت الى الوجود . وألّف الملاكون الجدد بورجوازية بدت وكأنها مستقرة. فهل عملوا بسواعدهم ؟ لا يمكننا اثبات ذلك . ولكنهم اقاموا في املاكهم وراقبوا استثمارها مراقبة دقيقة . وتوفر لهم المال أكثر من ذي قبل ، لا سيا اذا كانوا جنوداً قدماء ، فاستطاعوا اعتماد طرائق اوفر دخلاً : وليس ازدهار الكرمة والزيتون في اواخر العهد الجمهوري سوى ثمرة اتعابهم في اغلب الاحيان .

وليس هذا كل شيء . فقد افضى انتقال الملكية الى فرج سكان ايطاليا . اجـــل لا يمكننا اليوم قيـــاس الصهر المنصري . ولكن تقدم الوحدة اللغوية ، وهي عماد قوي للوحدة الادبية ، يمكن تتبعه خطوة خطوة . ففي القرن الاول زال استعمال اللغة الاتروسكية كما زال في بومبيي ايضاً استعمال اللغة الاوسكية *Osque*؛ وقد أسهمت في هذا الزوال القوانين الزراعية، تساعدها في ذلك عوامل اخرى كثيرة، ولا فرق اذا استفاد منها المدنيون ام قدامى العسكريين.

لا سبيل لمعرفة ما اذا كان باعثو هذه النتائج قد ارادوها وارتقبوها : فعلى غرار جميـــع الظواهر الاجتماعية ، يغلب ان هذه النتائج تمثل تسوية بين التطور التلقائي المتعدد الاسباب وبين الاعمال البشرية المقصودة التي تحاول تعجيل ودعم واستمالة او مقاومة نتائج هذا التطور. ولكن الحقيقة الثابتة هي ان مجهوداً كبيراً قـــد بذل بغية تقويم نتائج الفتح الوخيمة بالنسبة للفلاحين الاحرار ، وان هذا المجهود قد ذلل أسوأ الصعوبات فلم يبق دون ثمرة . وامام هؤلاء الملاكين المتوسطين وتقدم اللغة اللاتينية تعود بنا المخيلة الى توطين المستعمرين اليونانيين الذي حققته بعض الملكيـــات الهلينية . ولكن الموضوع ههنا انتزاع الملكية من الطبقة نفسها التي في يدها زمام السلطة . لذلك يجوز التأكيد بأن تاريخ العصور القديمة لا يعطينا أي مثل آخر شبيه بهذا المثـــل عن تدخل الدولة النافذ بغيـــة التأثير ، على حساب فئة من مواطنيها ، على الواقع الاجتماعي، وبغية اعادة تكوين طبقة هي في طريق الزوال .

٣ ـ الطبقة الكادحة المدنية

غير ان هدفاً على الاقـــل ، بين الاهداف التي سعى وراءها القائمون بالاصلاح الزراعي ، لم يتحقق بلوغه . فهم قـــد توخوا تخفيض عدد الكادحين الذين يتجمعون في روما ، حيث تفسد اخلاقهم، باعادتهم الى العمل الحر في الحقول. ولكن هذا العدد لم ينخفض بل استمر في التضخم؛

وجل ما نستطيع قوله هو انه كان من شأن هذا العدد ، لولا القوانين الزراعية ، ان يزداد أكثر من ذلك . وليس في واقع هذا الفشل ما يثير أية دهشة : فبين البؤس في البطالة والكدّ المشكوك في نتائجه لم يترك الانحطاط الاخلاقي لذوي العلاقة مجالاً للتردد ، وقد وجب ان يبرز دكتاتور من امثال قيصر حتى يجرؤ على القيام حيالهم بعمل قسري ، ولو غير مباشر . اضف الى ذلك ان خصوم القوانين الزراعية لم يكونوا ليهملوا حجة فوضى الحكم . ويمكن الحكم على مهارتهم بقراءة تحريضات القنصل شيشرون مقاوماً ، في السنة ٦٣ ، مشروعاً تقدم به رولوس : « قال هذا الحامي عن حقوق عامة الشعب في مجلس الشيوخ ان لعامة الشعب المدنية مزيداً من الاهمية في الدولة وانه يجب « تفريغ » المدينة منها . هذه هي الكلمة التي استعملها كأنه يتكلم عن فنطاس ما لا عن طبقة من خيرة المواطنين . اما انتم ... فلا تتنازلوا عما هو ملككم ، الرصيد السياسي ، والحرية ، والاقتراع ، والكرامة ، والمدينة ، والساحة العامة (الفوروم) ، والالعاب ، وايام الاعياد وغير ذلك ، ما لم تفضلوا على بهاء هذه المدينة ، بتخليكم عن كل ذلك ، الاستيطان ، بقيادة رولوس ، في جفاف مدينة « سيبونته » او في طاعون مدينة « ساليبس » . فكانت الغلبة لشيشرون . وكانت الحجة مفحمة ، ولكن لجوءه اليها ، مع توفر غيرها لديه ، لم يخدم سمعته كرجل دولة .

اهمية ووحدة الكادحين المدنيين

لما كانت روما المدينة الوحيدة الجديرة بهذا الاسم في ايطاليا ، فان الكادحين المدنيين الوحيدين الذين كانوا على بعض الأهمية العددية هم الكادحون الذين اقاموا فيها . وكانوا كافين لتعمير اكثر من مدينة . وبسبب افتقارنا الى المعطيات الاحصائية الاخرى ، نرانا مضطرين لأن نقبل بالعدد ٣٢٠٠٠٠ الذي كان ، حين استلام قيصر السلطة ، عدد المواطنين المقيدين على لوائح توزيع القمح المجاني . ومع ذلك فلا يكفي هذا العدد لايقافنا على الحقيقة الكاملة . فلو افترضنا انهم لم يدونوا في هذه اللوائح سوى المواطنين القاطنين روما ، فهل أقصي عنها مبدئياً اولئك الذين بلغوا حداً أدنى من اليسار ؟ وما هو خصوصاً المعدل الذي يجب ان نضرب به هذا العدد اذا ما اردنا ان نأخذ بعين الاعتبار عائلات الذين يتقاضون الحصصات ؟ فهو لا يعطينا بالتالي سوى مقياس لأهمية الكادحين ، ولكنه في واقعه لا يخلو من قوّة التأثير . ويمكن ان يقدر تقديراً افضل اذا ما قورن بتأكيد ذلك الحامي عن حقوق الشعب الذي قال في نهاية القرن الثاني ان ليس في روما « ألفا رجل ممن يملكون شيئاً ما » . وعلى الرغم من ان شيشرون لا ينفي هذا التأكيد حين يستشهد به ، فانه يبدو مغالى فيه جداً . ولكن التفاوت العددي ، على كل حال ، كان عظيماً جداً بين الاغنياء والفقراء .

ليست هذه الطبقة مدينة بتكاثرها — الذي نجهل مراحله — لارتفاع عدد الولادات . واذا ما اعوزتنا الارقام فان الشهادات تتفق اتفاقاً كافياً للاعراض عن هذه النظرية . فقد جاز للوالدين الرومانيين ، على غرار الاغريق ، ان لا « يربوا » اولادهم اي ان يلقوا في الشارع مواليدهم الجدد ، ولم يستخدموا هذا الحق ، على كل حال ، بمقدار استخدام الاغريق له . ولكن الوفيات

بين الاطفال كانت مرتفعة. لمن اصل الاثني عشر ولداً الذين انجبتهم كورنيليا والدة آل غراكوس، لم يبق في قيد الحياة سوى ثلاثة فقط. فما هي حال الطبقات الفقيرة يا ترى ؟ حين تقرر، منذ قيصر، تشجيع العائلات الكثيرة العدد، بدا وجود ولد ثالث مقياساً كافياً.

بعد استبعاد هذا السبب يمكن القول ان تكاثر السكان مرده الاستيطان الذي ليس من مر في اسبابه : زيادة دور المدينة سياسياً واقتصادياً ؛ نزوح الفلاحين الايطاليين المفتقرين اليها بعد ان ارعبتهم او ارهقتهم حياة المأجورين التي ارغمتهم عليهـــا، في الريف، خسارة الارض التي اعتاش منهـــا جدودهم ؛ نمو الرق الذي كان يفضي، بشكل شبه عادي في رومـــا، الى الاعتاق

واذا كان المستوطنون احراراً، تمتع شطر كبير منهم بصفة المواطنين حتى قبل اقامتهـم. اما الآخرون، الحلفـاء « اللاتين » او الحلفاء الايطاليون، فان التشريـع، الذي عاملهم بكل سخاء في اوائل القرن الثاني، قد غدا فيما بعـــد اشد قسوة، ولكنه لم يتوصل قط الى الحيلولة دون حصولهم على حق المواطنية، مع انه قد لجأ عند الحاجة الى مداورات لا تخلو من الغش. وحدث الشيء نفسه للاجانب غير الايطاليين، وهم قلة على كل حال في عهد الجمهورية. امـــا المعتقون فقد استفاد كل منهم من نظام سيده القديم. وهكذا فان التمييزات القانونية، التي لا اهمية لها خارج العلائق بالدولة، كانت تتلاشى خـــلال جيل او جيلين على الاكثر : ولم تقوض وحدة الطبقة الكادحة الرومانية.

يصح القول نفسه في التمييزات العنصرية. فالعناصر الوحيدة الغريبة حقاً والكثيرة نسبياً قد وفرها العبيد المتعددو الأجناس : وما كان اعتاقهم ليتحقق الا بعد فترة اختبارية يمارسون خلالها اللغة ويقتبسون العادات السائدة. بيد ان الشرقيين لم يتخلوا عن عاداتهـم بسهولة، لا بل انهم نشروا حولهم عقائدها وطقوسها. ومهما يكن من الامر فان الوحدة الادبية قد كلت بالتالي الوحدة القانونية. ولسنا نعرف في روما آنذاك، بين جماهير سجسة بالفطرة، خصومات شبيهة بتلك التي برزت في كبريات مدن الشرق كالاسكندرية مثلاً : ولن ترتدي الكراهية، التي استهدفت اليهود والمسيحيين بعد ذلك، طابع العنف الا بايعاز من السلطات.

البطـالة

كان من البديهي، في مدينة بلغت هـــذا العدد الكبير من السكان، أن تبرز في الفوارق الاجتماعية ومستويات الحياة المادية خلافات شتى كثيرة. وليس من ريب في ان طبقة الكادحين هــذه ضمت عمالاً شجعاناً وشرفاء ؛ فليست امكانات العمل مـــا اعوزهم. وقد بلغ بعضهم اليسار بمهارتهم وجدّهم، لا بل توصلوا الى الانصهار في طبقة الاغنياء. ولكن معرفتنا بهذه الطبقات الوسيطة بسيطة جداً. ولا تلقي مستنداتنا ضوءاً آنذاك إلا على طبقات أشد غمراً، واكثر عدداً. بيد انه يعوزنا معرفة النسبة التي تنطبق عليها، في هذه الطبقات، الصفات المادية، والاخلاقيـــة، التي تعزوها المصادر الى مجموعهـــا. والحقيقة الوحيدة هي، ان

مثل هذه الفوارق التي لم تبد ضرورية للمعاصرين آنذاك لا تبدو كذلك ضرورية لاولئـك الذين يحاولون اليوم ادراك وتفسير ما حدث يومئذ في روما .

فنحن لا نسعى وراء المغالطة ، والقعقعة الكلامية ، بل نقتصر على ملاحظة واقع عندما نؤكد ان القسم الاكثر نشاطاً ، في هذه الطبقة ، هو ايضاً اكثرهـــا بطالة . وقد يكفي مجرد وجودها ، بسبب ضخامة عددها ، لأن يثقل على حياة المجتمع كـله وعلى مصير المدينة نفسه . وباستطاعتنا تصور ما يمكن ان تأتيه بفضل سهولة العمل السجس التي توفرهـا لها بطالتهـــا .

ما هو عدد هؤلاء الفقراء الذين يجهلون العمـــل المنظم ، ويتوصلون مع ذلك الى تأمين معيشتهم ؟ يستحيل تقدير نسبتهم في مجموع لا يقع هو نفسه تحت تقدير . ولكن هـذه النسبة تتجاوز ، على كل حال ، تجاوزاً بعيداً مـــا يستطيع ان يقبل به مجتمع حريص في المحافظة على توازن عادي . وشرّ ما في ذلك ، من جهة ثانية ، هو ان هذه البطالة تقمل فصـــل الطعم . فهي تجتذب الى روما ، بالاضافة الى الكسالى بالسليقة ، كافة اولئك الذين يلاقون صعوبة مـا في تأمين معيشتهم من نتاج عملهم العادي ! فالكادحون العاطلون عن العمل في المدينة يرتفع عددهم ارتفاعاً مستمراً ، ولاحدود نظرياً لطاقاتهم ما دام معيلوهم قادرين على تحمل هذا العبء.

فالبطالة تستلزم الطفيلية .

الطفيليـــة

قامت الطفيلية في البداية على حساب الاغنياء . وقد انحرف نظـــام الزبن القديم الذي استتبع حماية « السيد » الأدبية والقانونية عن مفهومه الأول . وقد اصبح من السهل وغير النادر ان ينتخب « السيد » دونما تقيد بأي تقليد عائلي ، كما اصبح من واجب السيد ، الذي لا فرق بين قدرته وثروته المتكاثفتين ، ان يؤمن الزبون حماية مادية ؛ هي أعطيـــة مادية أطلق عليهـــا اسم « سبورتولا » التي تعني اشتقاقاً « السلة الصغيرة » الملأى بالمواد الغذائية ، ولكنها استبدلت تدريجياً ببعض القطع النقدية . وقد أضيف اليها ، كما هو طبيعي ، الاشتراك في ولائم الأعياد العائلية او الاحتفالات العامة . ومـــا كان الاغنياء الحريصون على الدعاوة لأنفسهم لأن يقصروا سخاءهم في هذه المناسبات على زبنهم دون غيرهم . فالولائم التي ينظمونها يقبل فيهـا الجميع ، ومن لا يستطيع احتلال مكانه حول الموائد التي تمدّ حتى في الساحـات العامة يعطى « السلة الصغيرة » وحتى « اناء الزيت والنبيذ » الذي يستبدل بمبلـغ من المـــال ايضاً . وليس هـذا السخاء سوى ثمن التأثير الاجتماعي والسياسي . ومن واجب الرجل الذي قدّرت له الثروة ان يفيد بها مواطنين أقل حظاً : فامتناعه عن ذلك دليل بخل أي دناءة نفس. أجل لم يجهل الشرق الهليني هذا المفهوم ؛ ولكن نظامه السياسي قد جعله ، عملياً ، مقتصراً على الملوك . ومن حيث ان نبلاء الرومان قد تمثلوا بالملوك وتمتعوا ، كجماعة ، بسلطتهم ، فانهم قد تبنوا هذا المفهوم ، راضين بما يجره من موجبات : ويمكننا أن نتصور التجاوزات التي تدفعهم اليها ثروتهم ومنافستهم على السواء .

أفضى منطق النظام الى الطفيلية التي انتشرت على حساب الشعب - الملك نفسه ، أي على حساب الدولة ، ولكن ببطء . فبينما بدأ عهد اسباغ النعم الكبيرة الخاصة في اوائل القرن الثاني ، اكتفت الدولة خلال فترة طويلة نسبياً بأن تكرس ، شأنها في الماضي وشأن اكثر من مدينة يونانية ، جزءاً من موازنة الاعياد لنفقات الولائم العامة . ولم يفتها من جهة ثانية ان تترك لمنظمي هذه الولائم من القضاة الحرية في ان يجعلوها ، بجودة اصناف مآكلها وبعدد المدعوين اليها ، تتجاوز الاعتمادات الرسمية ، اذا طاب لهم ، في هذه المناسبة ، ان يتباهوا بالانفاق من اموالهم الخاصة . ثم بدأت في ١٢٣ ، مع كايوس غراكوس ، سلسلة القوانين « الخنطية » التي يكفي هنا ان نستعرض تطورها العام . يبدو ان قانون السنة ١٢٣ قد اقتصر على القليل من الموجبات : فمن حيث انه ارغم الدولة على ان تبيع كل مواطن كمية شهرية معينة من الحبوب بسعر محدّد ثابت ، كان بمثابة ضمان ضد ارتفاع الاسعار وطبق عملياً ، على ظروف روما الخاصة التي تجبي عيناً الغرامة المفروضة على صقليا ، مجهوداً سبق للمدن اليونانية ان بذلته . ولم يتبدل القصد إلا بعد ذلك بواسطة مشاريع او قوانين تدخل على ثمن المبيع تخفيضاً عظيماً . واخيراً ، في السنة ٥٨ ، سن كلوديوس قانوناً يقضي بالتوزيع المجاني .

ان هذا التطور لمفيد ببطئه ، وباستطاعتنا ان نكتشف له اسباباً كثيرة لا تتنافى بل ترتبط ببعضها على ما نرجح: قصر نَفَس الاغنياء الحاكمين الذين لا يمكن لسخائهم ان يرافق ازدياد عدد الافواه الواجب اطعامها ؛ اهمال المفهوم الاول للقوانين الزراعية واعتمادها لمنفعة قدامى الجنود وحدهم تقريباً ؛ المزايدة المحتومة في التدابير المتراخية لمصلحة طبقة كادحة اخذت تعي قوتها المتزايدة وتستخدمها ؛ اثراء لا نظير له تحققه دولة توسع فتوحاتها توسيعاً مطرداً . وقد انطلق بعضهم من العدد ٣٢٠٠٠٠ المسجلين في السنة ٤٦ واكدوا ان الانفاق السنوي قد بلغ آنذاك اكثر من ١٩ مليون فرنك (١٩١٤) : ولكن هذا الحساب يستند الى معطيات غير اكيدة وغير ثابتة . ومهما يكن من الامر فالعبء ثقيل . لذلك ، وعلى الرغم من ان الدولة تستطيع حينذاك تحمله دون ان تفرض ضريبة مباشرة على المواطنين ، يجدر بنا ان نلاحظ ان قبولها بهذا العبء يرتبط ، شأنه شأن امور اخرى كثيرة ، بمفهوم الحق ، الذي يعطيه النصر ، في سلب اموال المغلوب : فلماذا يجعل الاستثمار بمنافعه وقفاً على اقلية من الحكام ورجال الاعمال ؟

وهكذا فان المواطن الطفيلي ، سواء دان بغذائه للاغنياء الذين يحمون او يستعيدون ثرواتهم على حساب الولايات ، ام للخزانة العامة التي تمولها الغنائم والغرامات ، يعيش عيّلَ العالم الذي فتحته روما او لا تزال مستمرة في فتحه : ان المجتمع الروماني تحوّل الى نقابة نهابين .

اسباب التسلية

تفسر كثرة المشاهد اعتبارات ووقائع مماثلة . اجل لقد سيطرت على نشوء مواكب النصر والالعاب ومبارزات المسايفين اعتقادات دينية موروثة عن الاتروسك . ولكن معناها التقوي ما لبث ان زال . ولما كان جمهور المواطنين عاطلاً عن العمل ،

توجب توفير اسباب التسلية له . فصرف الذهن في ابتكار الألاهي وفي مقاومة ملله بتنوعها وجدتها . ولما استحال جعل مواكب النصر أكثر تكرراً ، وزع استعراضها على عدة ايام وأدخلت عليها مشاهد تذكر بأهم حوادث الحملة ؛ ثم أحدثت ألعاب جديدة ، استثنائية في البداية ، ما لبثت ان أصبحت عادية . وكثيراً ما حدث ، بحجة الاخطاء الشكلية ، ان أعيدت الالعاب يوماً ثانياً وثالثاً وأكثر احياناً ، حتى سبعة ايام ، منذ السنة ٢٠٥ . ثم تنوع وتحسن برنامجها : فأضيفت ، الى الاحتفالات والتمارين الرياضية ومباريات العدو ، الرقصات الايمائية والتمثيليات المسرحية وعرض الحيوانات الغريبة وتقتيلها ، واخيراً مبارزات المسايفين التي لم يعد الافراد ينظمونها تقدمة لأرواح موتاهم بل غدت ، منذ اواخر القرن الثاني ، جزءاً لا يتجزأ من الالعاب المنظمة باسم الدولة . وباستطاعتنا ان نسرد ، في الكلام عن هذا التطور ، تفاصيل لا تحصى . ولنكتف بثلاثة ارقام : أمر سيلا بقتل ١٠٠ اسد ، فرفع بومبيوس هذا العدد الى ٣٢٥ وقيصر الى ٤٠٠ .

وسيتولى الاباطرة ما هو افضل من ذلك . ولكن النظام الجمهوري ، بصدد « الخبز » و « الالعاب » ، لا يلتزم موقفاً وجلاً : فقد حصل الشعب على قسطه من الملذات التي تسمح بها الثروة ، وخشي المسؤولون عن تأمينها له ، منذ ذاك الواقت ، ان يملّ نمطها الواحد .

الافساد والعنف

وجدت هذه المشاهد والالعاب والمبارزات المزيد مما يتممها في تلك التي وفرتها السياسة . ومرد ذلك الى ان الجمهورية لم تقص عنها عامة المواطنين كما ستفعل الملكية بل برهنت عن سخائها النادر في تقديم المشاهد التي لا يمكن حتى للمتطلبين ان يحكموا على الحياة والتنوع فيها بأنها غير كافيين. ومما زاد في جانبها ان ليس ما يمنع احقر الناس من ان يلعب فيها دوراً نشيطاً ، لا بل ان لعب هذا الدور ، الذي هو الامتياز الملكي بالذات ، كان ، نظرياً ، حقّ وواجب كل مواطن . ولكن شتان بين النظرية والواقع . فمن الجلي ان ابسط المستحيلات المادية لا يسمح لـ ٣٢٠٠٠٠ المسجلين في السنة ٤٦ ، حتى ولو كانوا قاطنين روما ، ان يجتمعوا كلهم ، أي ان يمارسوا كلهم معاً نشاطاً سياسياً، لا مستمراً فحسب،بل مقتصراً على العمل الحاسم الذي هو الاقتراع . وقد غدا هذا النشاط بالضرورة وقفاً على شبه محترفين ينضم اليهم احياناً فضوليون تستهويهم احدى المناقشات الكبرى . فهل يمكن ان ينتمي هؤلاء الاختصاصيون لغير العاطلين عن العمل ، او الهواة ، او المأجورين للمتنافسين ؟

افساد : ولكن لا نستعملن الكلمة بدون تروّ . فان الرابطة بين الحامي والمحمي التي تفرض مساعدة السيد في الحياة العامة تعني ارتزاقاً في نظر المعاصرين . ولكن الرومان ، انطلاقاً من المفهوم الاول ، يرون غير هذا الرأي : لا استعطاء ولا شراء،بل حماية وعرفان جميل توقيري . وكذلك يبقى السخاء الخاص الذي يتناول الشعب بكليته ، في نظرهم ، بعيداً جداً عن التصميم على الافساد الجماعي : انه انعام مجرّد عن الغايات ، وان القوانين التي حاولت ، في القرن الثاني ،

الحدّ منه ، يجب ان تفسّر كقوانين تقيد النفقات المفرطة . ولكن هذه الفوارق لا تنافي الحقيقة العارية : فعدد الزبن العظيم والمآدب والالعاب تؤمن النجاح السياسي . اضف الى ذلك ان قوانين اخرى حاولت تنظيم « المنافسة » ، أي الدعاوة الانتخابية ، وعاقبت خصوصاً شراء الأصوات الفردية الذي مورس على اتساع وقحة متفاوتين . ففي السنة ١١٠ صاح جوغورتا قائلاً : « مدينة معروضة للبيع وناضجة للزوال اذا وجدت من يشتريها » . وهو انما يفكر بالحكام خصوصاً ؛ ولكن هؤلاء مرغمون ، في الدرجة الاولى ، على شراء وظيفتهم التي تتيح لهم ، بعد ذلـــك ، ان يبيعوا انفسهم . ظروف جديـــدة للكسب تسنح للفقراء ، وضربات موجهة الى سير النظام الطبيعي .

وهنالك ما هو اسوأ من هذا الافساد المتستر او السفيه : العنف الذي يدفع اليـه الاخلاص المهووس لرجل او لقضية والضمير المسلكي الذي يتميز به الطاغوت المأجور لتنفيذ كافة المهام . وفي ارض الطبقة الكادحة المدنية تجمع عصابات المرجفين، من المواطنين وغيرهم الذين تنفلت صيحاتهم وفظاظاتهم انفلاتاً يزداد تكرره ، مقاطعة مناقشات الجمعيات والاقتراعات ومفضية احياناً الى الحريق والجريمة . ومنذ فاز طيباريوس غراكوس بمنصب المحامي عن حقوق الشعب، اضطرت جميع الاحزاب لان تلجأ الى مساندتهم ، لان العنف بدا وكأنه الحماية الوحيدة من العنف . فاستقرت الفوضى استقراراً دائماً: وهي مدينة بنجاحاتها المستمرة لوجود جمهور عاطل عن العمل تتولى عناصره المتطرفـــة ، في خدمة مستخدميها ، إرغام الباقين على الصمت حين لا تجرهم وراءها جراً .

البؤس والديون

الاحتداد امر يسير حين نحاول تهذيب الاخلاق. وفي ما يعنينا، لا يمنع الوقوف موقف الحذر من هذه المحاولات من النزول عندها قسرا ، حتى اذا اخذنا بعين الاعتبار تفرّض الذين يلقنونا الدروس والذين تفسر ثروتهم الاحتقار المهوس عند اكثر النـــاس انسانية . ولكن هذا الانحطاط مصدره البؤس . فمنذ القرن الثاني ، اتخذ التعبير « عامة الشعب المدنية » معنى ازدرائياً : فاتلسي آنذاك ، بشكل نهائي ، المعنى القديم لـ « عامـة الشعب » وتحدد معناها المزدوج ، المادي والادبي ، الذي يرافقها حتى اليوم . وان شيشرون ، الذي يمالق الجماهير حين يتوجه اليها، ليعبر في ظروف اخرى عن اشمئزازه : « قذر المدينة وثمالتها ». لم تخل اية مدينة كبيرة منها ولا تخلو منها اية مدينة كبيرة حتى اليوم . بيد ان المخيف في روما، في القرن الاخير من العهد الجمهوري ، هو اهميتها العددية . ولذلك يمكننا القول بهذه الاستعارات على ان لا ننسى آلام هذه العامة ولامسؤوليات اولئك الذين شاهدوا قيامها لامبالين ، فتركوها تنمو وتتألم ، مستخدمين عيوبها وسجسها ومحركين حماستها وغضباتها .

اجل ليست اسباب التسلية ما اعوزها . وان غذاءها شبه مؤمن تقريباً شرط ان يبقى عدد افراد العائلة محدوداً . وهي تجمع بصعوبة بعض النقود بقيامها بعمل غير مضمون يزيد في ندرته

وجود العبيد . ولكن ما تجمعه لا يكفي لسد النفقات ، ولسنا نفكر هنـــا بتلك التي تنجم عن البطالة نفسهـــا . فما هو السبيل بنوع خاص لتأمين السكن في مدينة يزداد سكانهـــا بسرعة مطردة ؟

ان تشييد المساكن الكبيرة الجماعية حيث يتكدس الفقراء محرومين من كل رفاهية ، تجارة راودت مخيلة ذوي رؤوس الاموال وانتظروا منها ارباحاً هامة . فالاجور مرتفعـــة والتشريـع قاس على المستأجر . واذا كان الاختلاط يفسد الاخلاق ، فان الاستدانـــة والقلق الذي تثيره يفعلان فعل خمير الثورة . وان مسألة الديون ، التي تجعل منها ادنى ازمة معضلة حادة لا تواجه المبذرين الاغنياء فحسب . فهي اعظم اقضاضاً بالنسبة للفقراء الذين يجـد المهيّجون الفوضويون بينهم عدداً كافياً مـن البائسين لتعريض النظام السياسي والاجتماعي للخطر . وقد سبق ورأينا ان مؤامرة كاتيلينا قـد صادفت في الزمن احد هذه الاندفاعات المحمومة . وكانت بداية الحرب الاهلية الكبرى الثانية منطلقاً لاندفاع آخر ، لا سيما وان بعض انصار قيصر قـــد اعتقدوا ان الساعة قد حانت ، بانتصاره ، لتحقيق كل بحبوحة ورخاء . وقد انتهز بعض الحامين عن حقوق الشعب غياب الدكتاتور واقترحوا ، في السنة ٤٨ ، وفي السنة ٤٧ ايضاً ، تأجيـل دفع الأجور وإلغاء الديون ، ولم يعد النظام الى نصابه دون اشتباكات دامية . وحين عـاد قيصر ، توفق ، بعد صعوبات شتى ، الى سن قانون تقدمي يقضي بحسم الفوائد وتأجيل الدفـــع سنة واحدة والغاء سجن المدينين .

ان هذه الاضطرابات ، بتكررها وخطورتها ، تمّ عن شيء آخر غير السجس الخاص بهذه الطبقة : بؤس مادي وأدبي يجعل من ضحاياه أدوات في ايدي عنف أعمى .

الخاتمـــة

ان هذا العرض أبعد من أن يستطيع تبيان كافة مفارقات الحياة الاقتصادية والاجتماعية في روما وايطاليا . ولعل عيبه الاول انه لم يعط استقلالاً كافياً لطبقة لن تهب ريحها إلا في العهد الامبراطوري مع انها اخذت تبرز ، ناشطة جداً ، في العهد الجمهوري : اعني بها « بورجوازية » البلديات الايطالية ، والطبقـــة الوسطى في المدن الصغرى . وهي في الحقيقة تكاد لا تتميز عن الفرسان الذين انضم اليهم أكثر اعضائها حظاً والذين لا يتميز جمهورهم ، بدوره ، عن الملتزمين العموميين . واتصفت بالنشاط فدانت هي ايضاً لاستثمار الفتوحات برؤوس اموالها الاولى ، حتى ولو وظفتها بعد ذلك في الاراضي التي راقبت تحسينها. غير ان دورها السياسي ، اذا كان دورها الاقتصادي هاماً ، قد بقي في العهـد الجمهوري بلا أثر له تقريباً : ولكن عناصر بشرية نشأت فيها لن يفوت النظام الامبراطوري الاستفادة منها للادارة ، وحتى لتولي شؤون الدولة في عهد فسباسيانوس .

لذلك فان الكلام عنها كطبقة مستقلة تقابل الطبقات الاخرى لن يبدل شيئاً في الاستنتاج العام. فقد هدف كل هــذا العرض الى تبيـــان مدى العمق الذي بلغه الفتح الروماني في قلب الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الشطر الاعظم من ايطاليا . فهو قد حقق ، على دفعات قوية تلتها تقنية منظمة ارهقت المناطق التي اخضعت لها ، انتقال كنوز ، الى شبه الجزيرة ، كدستها اقدم وأغنى حضارات شواطىء المتوسط . وبفضل هذه الكنوز ، احدث في ايطاليا اقتصاداً دقيقاً وركيكاً بفعل تركيبه . فأتاح للبعض جمـــع ثروات طائلة وهوّر البعض الآخر بمنافسة المصنوعات المستوردة والعبيد الغرباء ، واوجد بالتـالي تفاوتاً اجتماعياً بيّناً وأثار معاضل عجز النظام ابداً في معالجتها عن اعتماد حلول غير الحيل واستخدام القوة ، او عن اكتشاف هـــذه الحلول نفسها .

ليست اهمية التطور الاقتصادي والاجتماعي ، بغيـة تفسير « موت » الجمهورية الرومانية ، دون اهميــة التطور السياسي نفسه ، وقـــد وجه التطورين على السواء مدى الفتوحات وتوسعها الدائم .

الفصل الرابع

هلينة روما : الديانة

لقد برز ايضاً تطور عظيم في حياة الرومان الادبية ومعتقداتهم وطقوسهم الدينية ومثلهم الجمالية . ومع انه يشبه ، باتساعه ، التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، فانه ينطوي على بعض المميزات الخاصة .

مميزات التطور الثقافي

من هذه المميزات انه اقل استقلالاً حيال التأثيرات الخارجية . ويمكننا في الواقع تحديد هذا التطور بكلمة واحدة : « هلينة ». وبديهي ان هذا التحديد موجز ، شأن كل تحديد . لذلك سنحاول في هذا البحث ان نضيف اليه ما ينقصه بالضبط . ولكنه على العموم تحديد مقبول : فان الاغريقي الذي ينزل روما ، في اواخر العهد الجمهوري ، لا يستطيع ، دون اطلاع مسبق ، ادراك المعاضل السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بينما هو لا يستغرب المشاغل الدينية والفنية والفكرية . ولا يعني ذلك ان قرب ومثّل الحضارة اليونانية ، الحاسمين هنا ، لم يتركا اثراً هناك . فهناك ايضاً قد فعلا فعلهما وقد سبق وألمحنا الى ذلك ، كاثر مثّل الفاسيلفس (الملك) على القادة الظافرين . ولكن هذا الاثر ، المحدود دائماً ، لم يلعب سوى دور ثانوي ، ضائعاً بين العوامل الرومانية بالذات . وليس بالتالي ما يستحق المقارنة بما سيظهر الآن .

لما كان هذا التطور قد استطاع ان يجبل ، بصورة ابعد عمقاً ، النفوس والعقول وفاقاً لنماذج اجنبية ، فهذا يعني بالضرورة انه كان مطلق الحرية في العمل . ولا عجب في ذلك . فالدولة والمجتمع قد ابديا مقاومة افضل لان الانظمة والمصالح قد ساندتها ، بينما كانت الحياة الادبية اكثر مطاوعة . وقد اسهم التطور الذي تناولها في خلخلة التنظيم القديم لانه بدّل مثال الانسان الذي توافق معه هذا التنظيم . ولكن نتائجه كانت ابطأ ظهوراً : فهو لم يصطحب اية ثورة فورية في نظام الطبقات المختلفة وعلاقتها المتبادلة . لا بل لم يتضح قط للمعاصرين ان الملكية الامبراطورية قد استندت اليه لتجعل من نفسها وريثة الفوضى الجمهورية . فعلى نقيض ذلك ، حلول النظام الجديد ، اقله في اول عهده ، مقاومة بعض الشخصيات التي اعتبرها المحافظون

على التقليد افساداً وشراً . فعلى الصعيد الديني تظاهرت النزعة التي يمثلها اوغوسطس بالمحافظة على ما هو قديم . ولا فرق هنـــا اذا كانت صادقة وفعالة ام لا : ولكن الشيء الاكيد ان التطور الثقـــافي لم يرتبط ارتباطاً مباشراً ، بنسبة غيره ، بالتيار الذي افضى بروما الى نظام جديد .

ومن هذه الميزات ايضاً – وهو يرافق الاول – ان التطور ، على هذا الصعيد ، كان اسرع حصولاً . اجل لقد ازدادت سرعته وغدا اثره اعظم انتشاراً وعمقـــاً في القرنين الاخيرين من العهد الجمهوري . ولكنه اخذ بالبروز قبل ذلك بزمن بعيد . ويرد تقدمه النسبي الى انه اقـــل ارتباطاً بالظروف المادية ، ولاسيا الثروة . كان لهذه الاخيرة اثرها : وان نكران ذلك ، بصدد الفن مثلاً ، معناه المغالاة ، حتى الولودية ، في الخوف من التدنيس المادي . ولكن الارتباط ، على صعيد الديانة والادب ، لا يظهر بهذا الوضوح الملزم . لذلك فقـــد اكتفى الرومان ، دون ان ينتظروا الفتوحات الكبرى واستثمارهـــا ، بروابط ابسط وايسر اقامـة . منـذ عهد باكر ، لعب الاتروسك دور الوسطاء مع الحضارة اليونانية ، بالاضافـــة الى اثرهم المبـــاشر المعظم بفضل سيطرتهم . ناهيـك عن ان الحضارة اليونانيـــة لم تكن محصوره في الشرق المتوسطي . لمنذ القرن الثامن استوطن بعض الاغريق ايطاليا الجنوبية . وكانوا على صلة بكافة مناطق شبه الجزيرة . واقتبست عنهم روما الشيء الكثير حتى قبل ان تخضعهم . ومنذ ان بدأت تتدخل في اليونان البلقانية ، في اوائل القرن الثاني ، تكلّم كثيرون من قادتها وساستها اللغة اليونانية بسهولة : منذ ذاك الوقت ، جبلت النخبة الاجتماعيـة بثقافة اجنبية كان من الطبيعي ، بعد تسربها ، ان يزداد انتشارها . لا بل كان من شأن تفوق الحضارة اليونانية وجاذبها ونفوذها ، لو استطـــاع العالم الهليني المحافظة على استقلاله ، ان يضمن هلينة روما ، ولو ببعض البطء . ولكن فتحه قد زاد ، بفضل الصلات المتعددة ونقل الرجال ورؤوس الاموال من الشرق اليوناني الى ايطاليا ، في سرعة تطور ترقى اصوله ونتائجه الاولى الى عهود قديمة جداً .

اجل « ان اليونان المحتلة قد احتلت قاهرها الفظ » . ولكن هوراتيوس ، حين أكّد ذلك ، قـد فكّر بأدب معين ، وحتى بعَروض معين . لذلك فلنحذرن الامثال السائرة : اذ ان هذا الجار الفظ لم ينتظر احتلال اليونان كي يلتمس دروسها .

١ ـ الديانة والحياة الدينية التقليديتان

تبدو سرعة هذا التطور بوضوح خاص في الحياة الدينية .

الديانة الاولى

لم يأل الاختصاصيون جهداً في البحث عن الديانة الرومانية الأولى وادراكها . وقد ساعدت مجهودهم هذا ، ولا تزال ، ظروف مؤاتية : معلومات علمـاء الاجتماع وأصول الشعوب عن الذهنية الاولى ، لتقدم الألسنية ، اعتماد أساليب المقارنـــة ، اخيراً ،

وخصوصاً ، – اذ ان هذه الظروف ليست وقفاً على الدروس عن الديانة الرومانية – الوفرة ، اقله النسبية ، في المستندات الموجودة المدينة ، هي ايضاً ، للتعبير الاستثنائي الذي عرفته اسماء وطقوس يرفع التحليل ، بجلاء متفاوت، الستار عما يحييها من معتقدات. ولذلك فقد ادى هذا المجهود الى نتائج اكثر اقناعاً ، بوضوحها ، من تلك التي ادت اليها حتى اليوم دراسة الديانة اليونانية مثلاً .

ليس في اي مكان غير روما ما يفرض بمزيد من الاقتناع ، المقارنة المؤثرة بين النزعات الدينية في شعوب العصور القديمة ونزعات شعوب اليوم المتخلفة. فعلى غرار هؤلاء ألّه الرومان الاولون القوة الحيوية والطاقة الخفية والقوة التي تتحكم بالعمل وتحققه ، سواء كان هـــذا العمل بشرياً ام مستقلاً عن الانسان : والعامل ، يد او شيء جامد ، وهو غير منظور احياناً ، لا قدرة له بدون الارادة التي تستخدمه لعملها . فهذه الارادة اذن ، او ارادة غيرها تناهضها ، هي التي يتوجب على الانسان ان يحاول استمالتها حتى تنفعه اذا كانت متعطفة وحتى يبطل اذاهـــا اذا كانت مضرة .

ان هذا الاعتقاد الذي استمر حياً ، يفسر ميلا طبيعياً دفع الرومـــان الى ان يكرموا ، كآلهة او عفاريت تدير هذه الأعمال ، اقل عمل ، لا بل اقل مرحلة من مراحله . وقـد اعترف الرومان بعدد لا يحصى من « القوى » او الارادات وخصوها بحركة احترام او تقدمة او صلاة قصيرة : فالطفل يرضع بفعل قوة من هذه القوى ويشرب ويأكل بفعل غيرها ، وتقوم « قوة » بالحراثة الاولى ، وغيرها بالحراثة الثانية والاسلاف وقلب الارض ونزع الأعشاب ، وتكون « قوة » عقَدَ جذع الحنطــة ، واخرى تعطي الحبة غلافها ، الخ . ان هذا الاستعداد العقلي ، الذي لم يتلاش في يوم من الأيام ، قد ادى بسرعــة الى تأليه مجردات هي خاصيات رمزية لبعض الآلهة ، ثم افضى ظهور الفلسفة الى اعتماد هذه الطريقة اعتماداً متزايداً : فكان لكونكورديا (اتفاق) معبدهــا منذ السنة ٣٦٧ ، وليبرتاس « *Libertas* » (الحرية) ايضاً في السنة ٢٣٨ ، ولهونوس وفيرتوس (الشرف والفضيلة) في السنة ٢٣٣ ، الخ .

لم تمنع هذه النزعة المزدوجة الى تعميم ما هو الهي وتجزئته الى ما لا نهاية له من اعتبار بعض « القوى » اعظم شأناً من غيرهـــا . ومن البديهي ان تسلسل مراتبهـــا قد اختلف باختلاف الأوساط الاجتماعية وباختلاف الزمان . ويثير اكتشاف اسباب هذا التسلسل واختلافه صعوبات كبيرة ، لأن تأثيرات كثيرة ، تتفق تارة وتتناقض اخرى ، قد فعلت فعلهـــا منذ عهد قديم جداً ، ولذلك فان الترتيب ، كما تجدر محاولته ، يرافقه بالضرورة ارتياب وتحكم .

ولا يعقل ان لا يكون الرومان قد ورثوا شيئاً عن اقدم شعوب ايطاليا الاصلية التي انتمت هي نفسها الى مجموع « المتوسطيين » . ولعله من الجائز ان ننسب الى هذا المنشأ عبـادات تتجه في الواقع ، من وراء آلهة مختلفة الاسمـاء ، الى مبدأ الخصب ، ويبدو ترجيح المنشأ نفسه ممكناً

لبعض مظاهر عبادة الاموات لا سيا وان ارتباطها بالعبادات الزراعيـــة ، عن طريق اعتقاد مشترك بالتجديد والبقاء ، امر طبيعي جداً من جهة ثانية .

ويتمثل اسهام الهندواوروبيين بالآلهة السماويين : فان اسم جوبتير ، إله النور والزوبعة ، يحتوي على اسم زفس الذي اضيفت اليه في حالة رفع الاسم ، تسمية « *Pater* » (الاب) . ومما لا ريب فيه ايضاً ان عبادات المنزل (فيستا) والعائلة تتصل بالمنشأ نفسه .

واخيراً فعلت بعض التأثيرات الاتروسكية واليونانية فعلا تنظيمياً بغية تقريب « القوى » المتجاورة واعطاء بعض الآلهة شخصية مميزة . ولكن الاتفاق ابعد من ان يتحقق آنذاك حول طاقتها وتحديدها وموعد مفاعيلها .

تعدد الآلهــة

اضف الى ذلك ، ان هــذه التأثيرات الأخيرة ، مهما بلغ من قوتها ، لم تحد قط ، بشكل محسوس ، من تكاثر مطرد لامتناه في عـــدد الآلهة الذين اعترف بهم الرومان . فقد عرفوا أكثر من جوبتير واحـــد يُخص كل منهم بنعت عبادي يميزه ، ويعبد او مذبح ايضاً . فقد حمل هذا الاسم آلهة سياسيون : إله المدينة الاعظم الذي اقام له الملوك الاتروسك معبداً على الكابيتول ، وإله اتحاد المدن اللاتينية ، لاتيـــار (*Latiar*) او لاتيال (*Latial*) الذي كان له معبده على الجبل الالي ؛ وآلهة سماويون ، فكان هنالـــك جوبتير لوسيتيوس (*Lucétius* اللامع) واليسيوس (*Elicius* الممطر) وفولغور (*Fulgur* الزوبعة) وسومانوس (*Summanus* البرق الليلي) وتونانس (*Tonans* الرعد) ؛ وآلهة تستجلب السعد ، فكان هنالك جوبتير فيرياتريوس (*Férétrius*) ، إله الشجرة التي تعلّق عليها غنائم العدو ، ولابيس (*Lapis*) ، الإله الذي تمثله صوانة ، ويغلب انه استمرار لعبادة الفأس في عهد ما قبل التاريخ ؛ وآلهـــة عسكريون ، فكان هنالك جوبتير بروبونياتور (*Propugnator* المدافع المحارب) ، وستاتور (*Stator* « موقف » الهاربين) وديبولسور (*Dépulsor* « طارد » الأعداء) وفيكتور (*Victor* المنتصر) . وباستطاعتنا ان نمضي في التعداد بعيداً وان نقوم بتعداد مماثل لكثير من الآلهة .

يبدو على بعض الوضوح ، من ثم ، ان مجهود التنظيم ، الذي لم يصبح قط قياسياً ، والذي لم يتجل إلا بالمماثلة ، قد حقق نتائج محدودة جداً . ويمكن القول نفسه عن مجهود التوضيح . فان الرومان بفعل اعتقادهم بانتشار المبدأ الإلهي في الطبيعة انتشاراً شاملاً ، يبدون وكأنهم قـــد رضوا ابداً عن مفاهيم متردّدة ومبهمة . فهم لم يهتموا إلا بقناعة قصوى مدهشة، لإعطاء شخصية لآلهتهم وحتى التثبت مـــن هوياتهم . فلا التشبيه ، ولا الميثولوجيا ، على ما تجيزه من فوارق ، شكلا بالنسبة لهم حاجات او قناعات حقيقيـــة ، حتى ولو تعلموا مبادئها على يد الاجانب . ودرجوا على ان يدخلوا على صلواتهم صيغاً متحذرة كهذه « ذكراً كنت ام أنثى » او « أياً كان الاسم الذي تؤثر اطلاقه عليك » . ومنعهم الاعتقاد نفسه من ابداء أي اعتراض مبدئي

على استقبال إله جديد : فقد كفاهم في السنة ٣٩٠ ان ينبىء صوت مجهول احد المواطنين ، ليلاً، بوصول الغاليين قريباً ، حتى يشيدوا ، دونما اعتبار آخر، مذبحاً لأيوس لوكوانس او لوكوتيوس (*Aius Loquens ou Locutius*) (المتكلّم) . وهكذا ايضاً يمكن تفسير احدى خصائصهم الدينية البارزة ، أعني بها قابليتهم ، التي لا نظير لها في الشعوب القديمة ، حيال الآلهة الاجانب . فقد كانوا مستعدين لكل تقارب ، معتمدين دون صعوبة ما أسموه « بالتأويل الروماني » . أي اكتشاف إله يعرفونه ويعبدونه ، في الإله الاجنبي ، ولم يكونوا من جهة ثانية اقل استعداداً لتبني الإله الجديد باسمه الاجنبي دون ان يبحثوا في زونهم عن إله مماثل او إله يدخل هذا الإله الجديد في الزون (البانتيون) .

الانسان امام الآلهة

مهما يكن من ارتفاع عدد هـذه القوى الخفية المبهمة ، وربما بسبب عددها الذي حال دون رغبة المؤمن في ارضائها جميعها ، فقد حدث للمؤمن ان خشيها : ولكنه كان من المستحيل عليه ان يحبها . وليس المقصود هنا بالشعور العاطفي : فكل شيء قد اقتصر على طقوس حدّدت تفاصيلها ووجب الخضوع لها .

لا ريب في ان هذه الطقوس قد ارتدت في الاصل طابعاً سحرياً مكرماً القوة التي تقـام الطقوس من اجلها . ولم يزل هـذا الطابع عنها كلياً : فان استعمال بعض الادوات والجوء الاضطراري الى لباس التنكر يرتديه المشتركون في الطقوس ، وحتى الشخص الرئيسي ، كالقائد الظافر في موكب النصر ، لا تفسير آخر لها؛ واستمرت بعض الصلوات ايضاً بمثابة رقى حقيقية، ولم يتجاسروا في سواها ، إلا بكلّ عناية واهتمام ، على تعديل أية كلمة من كلماتها . إلا ان هذه الطقوس ، حين نستطيع فهمها ، ترتبط في مجملها بالاصول القانونية التي تتفرع ، مع ما يرافقها من ايماءات وصيغ ، عن السحر ايضاً . واننا لنجد احياناً مطابقة مدهشة بين ايماءات وصيغ مماثلة ، نقلت نقلاً احياناً من طقوس الى اخرى ، في ممارسة القانون المدني وممارسة الديانة . « فالتقوى » تعتبر قبل كل شيء آخر كعدالة نحو الآلهة ، أي كتنفيذ ، غاية في الامانة والدقة ، لكل ما هو متوجب لهم وما نعلم علم اليقين بأنه يرضيهم ، حتى نستميلهم لاستجابة ما نطلبه منهم . اضف الى ذلك ، في اغلب الاحيان ، ان الصلاة والذبيحة يرافقها نذر ليس سوى صفقة مؤخرة الاجل ، يعبـر المؤمن فيه ، بكلمات يجتهد معها الحؤول دون أي تهرب ممكن ، عما يلتمسه وعما يتعهد بتنفيذه حين يستجاب ملتمسه .

اجل ليس هذا المفهوم خاصاً بالديانة الرومانية : فالانسان ، في ضعفه يستخـدم كل وسيلة لديه تجعله يأمن شرّ القوى الفائقة الطبيعة . ولكنه لا يبرز ، في اية ديانة اخرى ، بمثل هـذا الوضوح وهذا الشمول .

الديانة العائلية

كان هنالك تعبّد خاص . ومع ان الدولة لم تفرض اية عقيدة ، فقد كان لها الحق في مراقبته . ولكنها لم تستخدم هذا الحق الا عرضاً ، وفي عهد متأخر ، بغية منع العبادات التي اعتبرتها خطرة . ولذلك فقد ارتدى هذا التعبد اشكالاً مختلفة جداً . ونحن

نشاهده خصوصاً في مظاهر العبادة المنزلية لا لاننا نعرفها معرفة جيدة عند الرومان فحسب ، بل لانها عندهم اعظم شأناً منها عند اي شعب آخر .

فهل كانت علـّة ام معلولاً يا ترى ؟ وهل هي قاعدة تنظيم العـائلة الرومانية الوطيد ام انعكاس وجودهـا السابق على الصعيد الديني ؟ لقد اخذ فوستيل دي كولانج ، بقوة منطقه المعروفة ، بالتفسير الاول جاعلاً من العائلة بعد ذلك الخلية الاولى التي كونت المدينة بانضمامها الى خلايا اخرى. ولكن اكثرية الناقدين الساحقة تميل منذ زمن بعيد نسبياً ، كما يبدو ، الى التفسير الثاني . ومهما يكن من الأمر ، فان هذه العبـادة قد جاشت بحيوية ومقاومة اقوى منها في العبادات الرسمية .

استلزمت عبادة فيستا العائلية ، التي لم يكن مذبحها سوى الموقد المنزلي الذي لا تنطفىء ناره ، والذي تلقى فيه القرابين في ساعات معينة ، فيندلع منه اللهب الراقص ، ويقدم له رب العائلة قرينته حال زواجه منها وطفله حال ولادته . واستلزمت ايضاً عبادة « جن » العـائلة الذي غالباً مـا تمثله حية مرسومة على الحائط قرب الموقد ، وهو روح الجدود والقوة الحيوية للذرية المتجسدة في رب العائلة ، بينما كان لربة العائلة إلهة حامية هي « جونون » . ولم تهمل العبـادة شتى « قوى » المنزل وحياته ، ابتداء من آلهة البيت (*Pénates*) الذين اشتق اسمهم من كلمة *Penus* (المؤن) . وقد دخل عليها آلهة من الخارج لا سيما الـ « لار » (*Lares*) آلهة الاملاك : فمنذ اواخر القرن الثالث يتأيد وجود « لار » عائلي.

وما كانت الديانة المنزلية لتنسى الموتى . ولكن عبادتهم على ما يبدو ، كانت الجزء الاضعف فيها ، ما لم يشتركوا ، كجدود ادنين ، في عبادة جن العائلة ورئيسهـا . ولكنهم اعتبروا مستمرين في حياة غامضة ، دون ان يشعر ذووهم بحاجة الى توضيح اقامتهم تحت الارض . وكان من المهم ارضاؤهم بالقرابين ، وقد عنى اسم « مان *Mânes* » ، الذي ظهر في عهد متأخر نسبياً ، الموتى الذين امكن ارضاؤهم . امـا اعمال الموتى الآخرين ، الـ «لارف» (*Larves*) والـ « ليمور » ، فقد بجعلهم يعودون الى الأرض ، قلقين ومؤذين : حاولوا من ثم طردهم من المنزل باحتفالات خـاصة . وهنالك اكثر من سبب يجعلنا نشك في ان كل ذلك كان رومانياً حقاً في الأصل . وانما تجدر الاشارة الى ان الذعر الذي استحوذ على الاتروسك لم يتسرب قط الى هذه العبادة .

ديانة فلاحين

لما كانت حياة الروماني القديم العادية حياة فلاح ، فقد رافق العبادة المنزليـة بالضرورة عبادة لمنفعة الأملاك ، معدّة للمحافظة على المواشي والبذور والحصائد وازدهارها . ولدينا ، بهذا الصدد ، في بحث « كاتون » في فن الزراعة ، تفاصيل عديدة دقيقة عن الاعياد الواجب الاحتفال بها والذبائح الواجب تقديمها والصلوات الواجب تأديتهـا وتطواف الحيوانات الواجب تنظيمه حول الأملاك . فكل عمل من اعمال الحياة الزراعية يجب ان يرافقه

عمل ديني يلتمس نجاحه او يحاول تهدئة غضب اله المكان ، قبل القطاف ، تقدمة نبيذ وامعاء خنزيرة لـ « سيريس » ، ونبيذ وبخور ونوع مختلف من الحلوى يضاف الى كل منهما لـ « جانوس » وجوبتير ؛ وقبل تخفيف شجر الغابة او الشروع باحياء الارض ، تضحية خنزير ؛ الخ . وكان يتولى تقديم هذه القرابين فرد من الأفراد ، كرب العائلة للعبادة العائلية . ولكنه بذلك كان يسهم في الأزدهار الجماعي : فقد اقتنع « كاتون » بانه مواطن فاضل حين يقوم بواجبه كملاك فاضل .

ومن جهة ثانية تسربت المشاغل الزراعية تسرباً عميقاً الى الديانة الرسمية ايضاً . اجل لم تأت أبعد الروزنامات قدماً ، التي نسب تحديدها الى الملك « نوما » (*Numa*) ، على ذكر جوبتير الكابيتولي ؛ ولكن العدد الاكبر من الاعياد التي لحظتها هذه الروزنامة وغيرها قد مثلت ، بمواعيدها ، وطقوسها حين يمكننا تفسيرها ، وبالآلهة موضوع العبادة ، أعياداً من الحياة الريفية . وقد اشترك عدد كبير من عظام الآلهة في هذه الحياة منذ القديم او اشتركوا فيها بمداورة ما . فكان هنالك « جوبتير ليبر » (*Jupiter Liber*) إله الكرمة وأعياد النبيذ الجديد . وقد كان « نبتون » (*Neptune*) إله الينابيع قبل ان يغدو إله البحر . واشتق اسم « ساتورن » *Saturne* من كلمة *Sata* التي تعني « الاراضي المزروعة » . وان « مارس » *Mars* نفسه ، الذي اعتبر في النهاية إلهاً الجيش والحرب ، قد قام في البداية بدور ليس دون هذا الدور شأناً كحام للعمل الزراعي ومحاصيله : فهو من أقيمت لأجله احتفالات « التطهير » بتطواف دائري تعقبه ذبيحة كبرى ، وصفها « كاتون » كما وصف الصلاة ايضاً ، مورداً كلماتها الكثيرة التدقيق «ان تمنع وتطرد وتبعد الامراض المنظورة وغير المنظورة والجدب والتخريب والكوارث وآفات الفلك ... » .

الديانة الرومانية القديمة هي قبل كل شيء آخر ديانة ارباب العائلات والفلاحين : ويجب ان نفكر هنا بما كانت عليه ، زمناً مديداً ، حياة الطبقة الحاكمة اقتصادياً واجتماعياً في روما حيث اتاح التملك قيام واستمرار العائلة المجموعة حول رئيسها. وليس حرضاً انها كانت في الوقت نفسه ديانة حقوقيين : فليس من التحكم ان نكتشف فيها ، مع اعترافنا بأن هذه المشاعر قد بلغت في هذا الشعب درجة خاصة من القوة ، الحرص على المصالح وتفهم الواقع ، وكلاهما محتومان ، او أقله أكثر طبيعية من الظواهر الصوفية الحارة ، في ملاكين ورؤوساء كتل عائلية يتحملون اعباء المسؤولية . فكان من المتوجب ان تتبدل أمور كثيرة كي تتبدل نفس البشر وتتبدل معها ديانتهم ؛ ولكن هذه الديانة ، بفعل القوة التي يوليها التقليد ، قد قاومت التبدل مقاومة عنيفة .

الكهنوت

تبلت المدينة بين الآلهة الكثيرين عدداً كبيراً ، ولم تكف عن تبني آلهة جدد ، دون ان ترضى ، في أي حال ، بالتخلي عن إله قديم واحد . وسيتباهى اوغوسطس بأنه أعاد بناء ٨٢ معبداً في روما : فاذا ما فكرنا بالمعابد السليمة والمذابح البسيطة جاز لنا ان

تتخيل عدداً مرتفعاً جداً . وقد اقتضى لهذه العبادات الرسمية من يؤمنها ويحتفل بأعيادها باسم الدولة . فعاد نصيب كبير من هذا العبء ، كما في المدن اليونانية ، الى القضاة الذين هم الوارثون الرئيسيون للسلطات الدينية التي تمتعت بها الملكية القديمة ، لا سيما حق استطلاع الحظ وتقديم الذبيحة باسم الجمهور والتعهد بالنذور التي تقيده . ولكن بينما كان لدى الاغريق كهنة دائمون قليلون ، كان لروما عدد كبير منهم .

ان كلمة « *Sacerdoce* » تنطوي على واقع من الصعب جداً تحديده بسبب فقدان كل صفة مشتركة حقيقية . لا بل ان التحديد السلبي نفسه يجب ان يفسح مكاناً للاستثناءات . واذا ما نحن أهملنا اقل هذه الاستثناءات خطورة، يكفي ان نقول ان أعضاءه لم يؤلفوا اكليروساً او هيئة كهنوتية . فجماعاتهم قد بقيت مستقلة بعضها عن البعض. وكانوا جميعهم مكرسين ترافقهم صفتهم الكهنوتية حتى الموت . ومع ذلك فقد عاشوا في الوقت نفسه حياة المواطن العادية دون ايقاف نشاطهم السياسي الذي قد يرغمهم ، مثلاً ، على التغيب عن روما وتولي قيادة احد الجيوش . إلا ان وظائفهم لم تكن شاغلة ، ولم تجعل منهم وسطاء بين المدينة والآلهة. فقد قاموا خصوصاً بدور القيّمين والمستشارين الدينيين لدى السلطات العامة. بيد انه يجدر القول مرة ثانية هنا ان أياً من هذه التأكيدات لا ينطبق تماماً على كافة الأعضاء . فقد مثل الكهنوت الروماني سلسلة من المؤسسات المتلاصقة التي ظهرت في تواريخ مختلفة واستجابت لرغبات مختلفة بمصادرها ومبادئها وتنظيمها . لا بل لا يجوز القول ان الكهنوت بجميع فئاته قد خضع لتطور عام: فكان للتطور سرعته الخاصة في كل من الفئات التي تناولها ، وقد تملّص بعضها منه .

فبالنظر الى مثل هذا التنوع في الفئات الكهنوتية والى عددها الكبير ، نرانا عاجزين عن استعراضها استعراضاً كاملاً ، لذلك نكتفي ببعض الأمثلة .

كان هنالك كهنوت فردي . حافظ « ملك الذبائح » (*Rex Sacrorum*) على الصلاحيات الدينية التي لم تنتقل الى القضاة . وأشرف على الذبائح والولائم المقدسة والاعياد : وليس هذا سوى دور تمثيل . وكان هنالك ١٥ كاهناً خاصاً افرد كل منهم لإله معين ؛ وقد خدم ثلاثة منهم إلهاً عظيماً ، جوبتير ، ومارس ، وكويرينوس (*Quirinus*) . واحيط دياليس (*Dialis*) ، كاهن جوبتير ، بأمجاد عظيمة ، ولكنه اخضع ، كما أخضعت امرأته « الكاهنة » لمراسم عبادية ملزمة جداً ولألف تقييد ، كلها قديمة المنشأ وغالباً ما يخيم الغموض على تفسيرها . فيجب ألا يلبس الجلباب ويشذّب الكرمة ويستهلك شراباً او طحيناً مختمراً ويرتدي ملابس كتانية او غيرها مما يقتضي عقدة او حلقة ، ويلمس او يمتطي الحصان ويرى سلاحاً او يشاهد ميتاً ، الخ . وتفسر شدة هذه المحرمات ، دون جهد ، كيف ان هذه الوظيفة ، في اواخر العهد الجمهوري ، قد بقيت شاغرة طيلة ثلاثة ارباع القرن بسبب عدم تقدم مرشح اليها بين الأشراف الذين استبقيت لهم .

ومع ان الفيستاليات (*Vestales*) قـــد انتظمن في هيئة ، فانهن قمن ايضاً بدور نشيط ككاهنات . كن ثلاثاً في البدء ثم غدون ستاً ترئسهن احداهن ، « الفستالية العظمى » ، وكانت مهمتهن الرئيسية الانتباه الى العناية بالنار المقدسة ، رمز حياة المدينة ، التي يجب ان تشتعل باستمرار في معبد « فيستا » . وكن يلتخبن صغيرات من العائلات الكبرى ، ويقمن في المعبد الذي يجب ألا يلجه أي رجل . وكن يؤدين ، من جهة ثانية ، نذر عفاف تعرضهن مخالفته لأن تدفن حيّات في حال ان عقوبة السوط تكفي لمن تكلف منهن العناية بالنار فتتركها تخبو . ولكنهن ، في سن الثلاثين يعدن الى الحياة العامة ويستطعن الزواج .

اما اعضاء بعض الاخويات ، كاللوبيرك (*Luperques*) والساليين (*Saliens*) والأرفال (*Arvales*) ، الخ ، فقد احتفلوا باعياد طقوسها قديمة جداً تستلزم التطوافات وسباقات العدو والرقصات والأغاني . ولكن احتفالاتهم ، في الحقيقة ، ترتبط بالعبادة العادية . وعلى نقيض ذلك فان هيئة العشرين قاضياً وكاهناً تكتفي بايفاد بعض اعضائها للقيام بالطقوس التي لا حرب « عادلة وتقوية » بدونها ، اي معلنة وفاقاً لقواعد القانون الانساني والديني ، ولا معاهدة مقبولة شرعاً : فلاعلان الحرب يلقي احدهم بقوة نبلة لا رأس لها في ارض العدو بينما يحمل آخر اعشاباً مقدسة مجموعة من الكابيتول يسلمه اياها احد القضاة .

ولا تتعدى الطقوس الظرفية ايضاً تلك التي يقوم بها ، بفعل دعوة إلهية ، الاحبار المجموعون في هيئة من ثلاثة او خمسة اعضاء اولاً ، ثم من تسعة ابتداء من القرن الثالث ، واخيراً من ١٥ منذ سيلا ، يرئسهم « الحبر الأعظم » (*Pontifex maximus*) . انطلق هؤلاء من وظائف وضيعة واعترف التاريخ القديم كله بان اسمهم عنى « صانعي الجسور » ، ويبدو هذا المعنى الاشتقاقي واجباً على الرغم من تردد بعض المعاصرين . فقد اسندت اليهم ابداً مهمة العناية بجسر « سوبيسيوس » ، الوحيد والمهم جداً ، الذي وصل ضفتي نهر التيبر ، ويغلب انه بني من الخشب فقط دون اية قطعـــة معدنية . ولكن تطورا لجهله جعلهم يسمون الى مصف حراس التقليد ، ومفسري الأنظمة ، وقضاة القانون الديني ومنظمي ومراقبي التعبد الرسمي . وبصورة خاصة راقب رئيسهم الفيستاليات ؛ وكانت مراسم الهيئة حول الاخطـــاء الشكلية ملزمـة القضاة والكهنة الآخرين . فمن الطبيعي اذن ان يتمسك اوغوسطس وجميع خلفائه بحمل لقب « الحبر الأعظم » . واذا مـــا اقصرنا الكلام على العهد الجمهوري ، نرى ان تقدم سلطة الاحبـــار على حيـــاة روما الدينية قد ادخل النظام اليها ، ولكنه اسهم ايضاً في إحاطتها بالحظر والتمسك المفرط بالشكليات .

وكانت مهمة هيئة العرافين المؤلفـــة من ثلاثة ، ثم من تسعة ، ثم من خمسة عشر ، تطبيق تقاليد العلم التفاؤلي ، لا سيما بموجب مراقبة طيران الطيور داخل بقعة محددة في الفلك وبواسطة القضيب المنحني الذي اسمي الشارة الرمزية للعرافين : ومن حيث انهم يعرفون مـــا اذا كانت

استعدادات الالهـة موافقة ام غير موافقة ، فان آراءهم يجب ان تتقدم كافة افعال الحياة العامة .

وانيطت العرافة ، عن طريق استقراء امعـاء الضحايا ، ولا سيما كبدها ، باختصاصيين اطلق عليهم اسم *Haruspices* ينتمون باغلبيتهم الى اتروريا بسبب ما اشتهر عن الاتروسك من اتقان هذا العلم والاحتفاظ به .

احل التقليد في عهد الملوك الاتروسك اتباع مجموعة من الأوامر الطقسية وهتافـات الغيب صادرة عن عرافة كوم *Cumes* في كمبانيا ، اي في منطقة يونانية . وبغية المحافظة على « كتب العرافة » هذه ، واستشارتها – حين تبرز الحاجة الى ذلك لمجلس الشيوخ – وتفسيرها ، نظمت هيئة من عضوين ، ثم من عشرة في القرن الرابع ، واخيراً من ١٥ منذ سيلا ، كان يشار اليهم بهذا التعبير « القائمون بالذبائح » مـع ذكر عددهم . فهم يكلفون ترؤس الاحتفـالات التي يستصدورن امراً بها بعد استشارة الكتب . وان سلطة هذه الكتب اعطت الهيئـة دوراً فعالاً جداً في ادخال العبادات والطقوس الهلينية الى روما .

كهنوت الدولة

لا نذهبن الى ابعد من ذلك في استعراض الكهنوت الروماني . فهو كاف لتبيان عدد الفئات الكهنوتية وتنوعها والأهمية والمرتبة اللتين احتلهما بعضهم في تنظيم المدينة . كانت مثل هذه المؤسسات شبه مجهولة في المدن اليونانية . ولكن معرفتنا بها في روما، على ما رأينا ، لا يستنتج منها انها ابتكار روماني : فان لاكثر من كهنوت مما استعرضنا ، كما نرجح ، اصوله في العادات الاتروسكية او الايطالية . اما ما يلفت النظر، وما قد يكون رومانياً حقاً ، فهو ، على الرغم من تعدد هذه الفئات ، نفوذها والدور الذي سمحت لها المدينة بان تلعبه في حياتها بالذات : ويفسر هذان الواقعان احدهما الآخر ؛ على كل حال ، فقد كان لهـا خلال زمن طويل ، يدوم بالنسبة لاكثرها حتى آخر العهد الجمهوري ، قوة جـاذب حقيقية ، ومن الطبيعي جداً ان يعلق قيصر ، الذي لم يكن بعد متقدماً في مراتب الأمجاد، اهميـة استثنائية لنجاح ترشيحه لقب « الحبر الأعظم » ، فلم يكن ذلك ، بالنسبة له مجرد لقب ، بل وظيفة من الدرجة الاولى . ولكن شيبيون الافريقي كان « ساليا » الشيء الذي اوجب عليـه ، في زمن العيد ، ان يبقى شهراً واحداً دون تنقل من مكان الى آخر ، وهو واجب مزعج حقاً لقائد من القواد . وقد تباهى شيشرون بلقب العرافة . وفي العهد الذهبي للنظام الجلسي ، سعى النبـلاء وراء وظائف الكهنوت ، وقد بلغ منهم انهم جمعوا منها اكثر من واحـدة حين استطاعوا الى ذلك سبيلا . وكانت هذه المهام ، شأن مناصب القضاء ، « امجاداً » تذكر بعنـاية في الكتابات المدفنية التأبينية ، التي تنوه بمراحل تألب الراحلين منهم في المناصب . وكان اغلبها في البداية ، شأن مناصب القضاء ايضاً ، وقفاً على الاشراف ، وقد احرزت عامة الشعب نصراً ، في السنة ٣٠٠ ، حين فتحت لها ابواب الهيئات برفع عدد اعضائها الى تسعة ، على ان ينتمي خمسة منهم

الى هذه الطبقة . وهدفت الحركة الشعبية بالاضافة الى ذلك ، اقله فيا يتعلق بالهيئة الحبرية ، الى تغيير طريقة التعيين بواسطة الهيئة نفسهـــا : فقد فرضت ، في اواخر القرن الثاني ، ان يتولى المواطنون انتخاب سبعة عشر قبيلة ، بالقرعة ، بين القبـائل الخمس والثلاثين الراهنة ، واذا ما الغى سيلا هذا الاصلاح ، فان اعادته في السنة ٦٣ قد جاءت في الوقت المناسب لتسمح بانتخاب قيصر حبراً اعظم .

كل ذلك يكشف لنا بوضوح الطابع الديني العميق الذي ترتديه المدينة الجمهورية . فالحيـاة السياسية والحياة الدينية فيها قـد ألفتا كلا واحداً يقوم به الرجال انفسهم . حمل رب العائلة مسؤولية العبادة المنزلية . وتوجب كذلك على المسؤول الروماني ان يتحلى في آن واحد بخبرة دينية وخبرة سياسية ، كما توجب على علمه القانوني ان يتخطى القانون المدني والقانون العام ويشمل القانون المقدس . وقد لفت شيشرون النظر الى ذلك بحق : « ان الذين اكتسبوا المزيد من المجد في حسن ادارة شؤون الدولة مكلفون الاهتمام بالديانة ، كما ان اوسع مفسري الديانة علماً مكلفون المحافظة على الدولة » . وقد عم الاعتقاد بأن روما مدينة بعظمتها لتعطف الآلهة الذي قابله ، بكل نزاهة ، ارضاء لمتطلباتهم بلغ دائماً الحد المطلوب ، دون ان يتخطاه .

العبادة العامة

المثل الأعلى هو التوازن ، او ما دعي « بالصلح مع الآلهة » .

فاذا ما حدث ان اختل ، بفعل خطيئة بشرية لم يعلم بهـــا احد ، فان الآلهة يظهرون استياءهم الحق « بالمعجزات » . ولم تنطو هذه الاخيرة ، بحسب مفهومها الاول الذي لم يتبدل قبل اواخر الألف الثالث ، على أية دلالة طبيعية على المستقبل؛ وليس من مفسر يستطيع ان يقرأ فيها مستقبلاً لا تنبيء به . فلا معجزة مفيدة اذن . بل كلها ، الصاعقة ، والفيضان ، ومطر الحجارة ، وولادة المسخ الغريب الخلقة ، وعرق او حركة التمثال في المعبد ، وصعود الثور الى السطح ، الخ . تشير ، بانقطاع مجرى الامور الطبيعي ، الى الغضب الإلهي . فيقدم بها احد القضاة تقريراً الى مجلس الشيوخ الذي يتخذ المقررات او يشك في علمه فيلجأ الى الاحبار او الهيئة الموكول اليها امر استشارة كتب العرافة او مستطلعي امعاء الضحايا ، وينتظر اجوبتهم التداول فيها . وهكذا تصدر الاوامر باقامة احتفالات التطهير والتكفير التي تشكل « علاج » المعجزات وتعيد الصلح .

كان من الافضل ، في سبيل تجنب فترات تأزم غـــير متقض ، اذ ان كل شيء يتم وفاقاً لاجراءات حازمة مدهشة، بل مستكره، الانتباه بعناية ودون ملل الى تأدية كافة واجبـــات الجماعة نحو الآلهة . فانصرفت السلطات الى ذلـك . وكان لكل معبد عام نظامه الذي حدده العرف القدماء و « قانون » حقيقي الجدد، وفصل الاحبار في صعوبات التفسير . فكانت النتيجة طقوساً لا يحصى لها عد ، تخلو منذ زمن بعيد عن فهمها، كما ان العلماء المعاصرين ابعد من ان يفهموها فهماً افضل .

فهنالك في الدرجة الاولى ، الذبيحة ، أي تقدمة الغذاء للإله . ليس من ريب في ان الذبيحة البشرية قد اعتمدت في العصور القديمة . وقد عادت الى الظهور بين الحين والآخر . ففي السنة ٢١٦ ، تحت تأثير القلق الذي أثارته كارثة « كانا » وبعد استشارة كتب العرافة ، دفن زوجان، يونانيان وغاليان ، لا يزالان على قيد الحياة، واذا ما أكد « تيت ليف » *Tite - Live* ، بهذا الصدد، ان الطقس « ليس رومانياً على الاطلاق »فقد يقصد بملاحظته احدى طرائق الاحتفال فقط. بيد ان هذه الضحايا البشرية ليست دموية . فقد اكتفي على العموم ، بظواهر خداعة كالاشخاص الخشبية السبعة والعشرين التي ألقي بها في نهر التيبر أثناء عيد الارجيه (*Argées*). ولم يذبح سوى الحيوانات المختارة . فلكل إله تفضيلاته ولكل احتفال تقاليده فيما يعود للنوع والجنس والسن – حيوان لا يزال رضيعاً ، او نبتت اسنانه العليا والسفلى، او بلغ أشدّه – واللون وانعطاف الجزة : ففي احتفال التطهير العام الذي جرى في ظروف مختلفة ، فرض « مارس » ذبيحة قوامها خنزير ونعجة وثور . ولم تقدم الدولة ، شأن الافراد ، على الاستعاضة عن الحيوانات بأشكال من الخبز والشمع . ولكن ضحاياها رافقتها قرابين أخرى ايضاً ، زهور وسنابل وطحين وحلويات وحليب وعسل ونبيذ الخ . وليس لكل ذلك من قيمة ، على كل حال ، إلا اذا لم يبد الإله استعدادات مضادة بإشارات غير موافقة ، كتلك التي يستطيع الاختصاصيون إبصارها جلياً بفحص امعاء الضحايا . ومن المهم جداً ، فوق كل ذلك ، ألا يرتكب أي خطأ او اهمال في القيام ببعض الايماءات واستخدام بعض الصيغ في الصلوات والنذور : بينما يتوجب على الحاضرين المحافظة على صمت مطلق . ومن شأن اقل اخلال بأحد هذه الشروط ان يجر الى بطلان العمل وايجاب إعادته .

وهنالك الأعياد ، الثابتة او المتنقلة ، التي يعود أمر تحديدها للأحبار . فقد ورد ذكر خمسة واربعين عيداً في الروزنامات الكتابية التي وصلت الينا ، ولا تحجم الدولة عن التدخل ، مكتفية بنشاط الأفراد ، الا في عدد ضئيل منها . وقد تنوعت الطقوس بصدد الاعياد بنوع خاص مضاعفة المراسم المختلفة المنشأ والدقيقة التفسير . فلنأخذ مثلاً ، بين امثلة اخرى كثيرة ليست دونه غنى بالالغاز والاحاجي ، طقوس « حصان تشرين الأول » في عيد « الاكويريا » التي يحتفل بها في الخامس عشر من هذا الشهر : اكراماً لمارس . يقلد جيد الحصان الأيمن في العربة محرزة السبق عقداً من خبز ، يذبح كاهن مارس الخاص الحيوان الذي يتنازع رأسه سكان محلتين بغية اثباته في هذا البناء او ذاك ، يحمل المداوّون الذنب الى منزل الحبر الأعظم حيث يرفعونه فوق الموقد حتى يتساقط دمه عليه . تحتفظ الفيستاليات بما تبقى من الدم مع رماد الحلان المستخرجة من بقرات مذبوحة في عيد آخر ، مع العلم ان هذا الرماد نفسه يستخدم لتطهير المواشي في عيد ثالث . ولن يعجب احد من التردد والاقرار بالجهل حين يتوجب تفسير طقوس على مثل هذا التعقيد .

الفت الألعاب المشهد الرئيسي ، والوحيد احياناً ، في الأعياد التي تجري هي فيها . ويثير

كل منها مسائل شائكة جداً في اغلب الأحيان : تاريخ ظهورها كالعاب غير اعتيادية ، ثم تقريرها كالعاب عادية ؛ طقوسها الأولى وتطورها ، مثلاً ومغزى العناصر القديمة في هذه الطقوس . فبدون ان نتعرض لهذه المشادات يكفينا اقصار الكلام على ما هو اكثر بساطة وأقرب الى المعقول . ان التقليد ، الذي يُحل في العهد الملكي تأسيس ابعد الألعاب قدماً ، « الالعاب الرومانية » ، اكراماً لجوبتير الكابيتولي ، التي بقيت ابداً « الألعاب العظيمة » وحتى « العظمى » ، والتي شيد من اجلها « الملعب المستدير الاعظم » ، نصيباً كبيراً جداً من الصحة . فقد استلزمت منذ البدء تطوافا ورقصات ايمائية واستعراضات وحركات جماعية وتمارين . ثم اضيفت الى برنامجها السباقات ، والمصارعات ، وفي النصف الاول من القرن الرابع ، عرض ممثلين عرفوا باسم « هيستريون » ، وهو اسم اتروسكي ، و « لوديون » ؛ ومنذ عهد باكر نسبياً ، ووفاقاً لعادة تمشت عليها شعوب ايطالية اخرى ، تركت حدة ذهن الممثلين الشعبيين المرتجلين لنفسها العنان ، بهذه المناسبة ، في انواع التمثيليات المضحكة . فاعدّ بذلك ادخال التمثيليات المسرحية على الطراز اليوناني ، في عهد لاحق . منذ القرن الثالث فعل التأثير الهليني فعله دون وسطاء : فله يعود الفضل في الملاكمات والجوقات المنظمة والمهازل والمآسي . وعلى الرغم من ذلك استمرت بعض العادات الاتروسكية سائرة . ومن هذه العادات ، على الرغم من اقتباس اسمها عن اليونانية ، عادة « الباميا » او التطواف الذي تفتتح به الألعاب الرومانية حتى في اواخر العهد الجمهوري والذي يقفو اثر موكب الظافر حتى في لباس القاضي الذي يرئسه . ومنها ايضاً عادة مدعوة لانتشار غريب ، هي معارك المبارزين التي ضمت الى الألعاب العامة في اواخر الألف الثاني دون ان تدخل على برنامجها بالذات .

فقدت الالعاب اخيراً طابعها الديني : وكانت قد فقدته في اليونان ايضاً الى حدّ بعيد . فنظر اليها الحاضرون نظرتهم الى مجرد مشاهد . وان في الهوى الذي أثارته لدى الجماهير تعليلاً لمضاعفاتها السياسية التي سبقت الاشارة اليها ولتطويل مدة كل منها ولتزايدها ، فقد استغرقت الألعاب الرومانية خمسة عشر يوماً في عهد قيصر . وظهرت « الالعاب الشعبية » بعدها بأمد قصير ، وأضيفت اليها بعد ذلك إكراماً لابولون وسيريس والام الكبرى (*Grande Mère*) وفلورا (*Flora*) . وفي اواخر العهد الجمهوري غطّت الالعاب العادية خمسة وستين يوماً من ايام السنة . وأكملتها ألعاب ظرفية بعضها عام « ينذَر » خلال الحروب والبعض الآخر خاص كالألعاب « المأتمية » اكراماً للموتى . اما الالعاب « القرنية » المعدّة لافتتاح قرن جديد — ولكن طرائق الحساب عديدة — فلم تبلغ بعد الشأن والروعة اللذين سيعطيها اياهما اوغسطس .

تلك هي الطقوس العبادية الرئيسية في الجمهورية الرومانية . اجل لقد كانت هنالك طقوس كثيرة غيرها : ولكن هذا البحث ، تجنباً للاطالة ، لا يستطيع ان يتناول بالوصف ، على الرغم

من طرافتها ، لا « الالتماسات » التي يزور المؤمنون أثناءها المعابد طيلة ايام عدة بغية استنزال انعامات الآلهة على المدينة او بغية تأدية الشكر لهم ؛ ولا « المآدب » المقدمة لإله أو عدة آلهة التي يشترك فيها القضاة والكهنة والمواطنون العاديون ايضاً ؛ ولا المآدب المقدمة للآلهة الغرباء حيث توضع رسوم الآلهة وفاقاً للجنس ، على غرار الآدميين ، على أسرّة او على كراس ؛ ولا « الوسادات » التي توزع هذه الرسوم عليها بغية السماح لها بمشاهدة الالعاب او السماح للمؤمنين بتأدية واجب الاحترام لها ؛ الخ .

العبادة والدولة

مهما يكن من الامر ، فقد قيل ما فيه الكفاف للاعتراف بأن المشاغل الدينية تعتبر بين المشاغل الرئيسية في الدولة الرومانية . وهي لا تنفصل عن المشاغل الاخرى ، بـل ترافقها ابداً وتشترك معها اشتراكاً حيماً. وهي نتيجة وجود روما، والواجب الاول الذي يفرضه هذا الوجود عليها ، وشرط مستقبلها .

اجل ليست الفكرة جديدة في التاريخ القديم . لا بـل نحن نرجح ، اذا ما اقتصرنا على الحالات المميزة ، ان مصر وبلاد ما بين النهرين قد خصتا الديانة بنصيب مماثل في حياة الدولة . ولكن يجب ألا نقارن إلا ما يمكن مقارنته ، سواء في شكل الدولة او ذهنية الرجال الذين تضمهم : ففي كل مكان وزمان ، حرصت الملكية على الابقاء على الانظمة الدينية التي اعتبرتها بمثابـــة سور من اعز اسوارها ، وليس تضامن العرش والمذبح ابتكاراً من ابتكارات القرن التاسع عشر الذي اشتهر بمناداته بالحرية المدنية والدينية وبمعاداته للاكليروس . فلا يبرز تميز روما من ثم إلا بمقارنتها بالمدن اليونانية بنوع خاص . الفرق بينهما ، في الحقيقة ، فرق في الدرجة لا في الجوهر : فان ما يستمر هنا خاضعاً لتسوية معتدلة ، ينمو هناك نمواً عظيماً جداً . ولكن هناك أكثر من ذلـك ، اعني الفرق في التفكير، اذ لا نصادف إلا في روما ذاك الحرص القانوني وذاك التمسك بالشكليات اللذين سيطرا على تفسير الفرائض العبادية ولم يحد عنهما المسؤولون . كان الروماني رجل واجب ، ولعله كان بنتيجة ذلك رجل حق ايضاً .

٢ ـ المستحدثات

الروابط الدينية بالحضارة اليونانية

كان الاغريقي اوسع مرونة وأعمق تميزاً . وهو لم يدن بهذا العمق وهـــذا الاتساع الى سرعة تطوره فقط . وليس من ريب في ان لنجابته الخاصة نصيباً كبيراً في ذلك ، اذ ان سرعة هذا التطور ليست نتيجة المصادفة . فهو قد كان شاعراً وفناناً قادراً على تخيل الاساطير والاشكال العارمة بالسحر والظرف والحياة. وكان عالماً وفيلسوفاً يميل بالسليقة الى ان يذهب الى ابعد حد بتفكيره حول الكون والطبيعة ونفسه بالذات . وقـــد تجاذبته نزعة عقلية تقوده الى أعظم الانكارات جسارة ونزعة صوفية غذاها ابداً اتصاله القديم المستمر بالشرق ونفخ فيها التعايش الذي اوجده فتح الاسكندر قوة

عجيبة نادرة . اما روما ، فقد استطاعت ، بفضل ثروتها ، ان تضفي على الاحتفال بعباداتها فخفخة ما كان العالم اليوناني ليستطيع مضاهاتها . ولكن العالم اليوناني قد برهن عن تفوق واضح في كل ما لم يكن ثروة مادية ، أي في الفكر والعاطفة الدينية والذوق في مظاهره الخارجية .

كان من الممكن ان يبدي الرومان ، بفعل تعلقهم بتقاليد ملزمة محددة ، مقاومتهم لكل جديد . ولكننا رأينا ، في ما سبق بيانه ، ان مفهومهم الواسع للالهيات لم يكن ليقبل بهذا التعصب . ولعلهم شعروا ايضاً ، شأن آدميين كثيرين ، بحاجة الى شيء آخر هو القناعة العاطفية والفكرية والجمالية التي لم توفرها لهم عباداتهم الخاصة . ولم يبلغ بهم الامر ، في عهد الجمهورية ، ان يسمحوا بتفتح التقوى الفردية في صوفية حارة متحررة من شتى ضروب الضغط . فقد حرصت الدولة على الاستمرار في التنظيم والرقابة . بيد انها قبلت بعبادات وطقوس غريبة دون ان تعي انهـا بذلك تفتح ، للمستقبل ، ابواب المدينة لحصان طروادة .

والدليل على انها قامت بذلك دون جزع وتردد ان الاقتباسات الاولى قد حصلت في عهد مبكر جداً . لم يتم ذلك باتصال مباشر باليونان نفسها ، او اقله لا يمكننا إثبات ذلك على ذمة روايات يشك في صحتها ، بـل عن طريق الاتروسك والشعوب الايطالية حيث تركت الحضارة اليونانية اثراً عميقاً لا سيا في الاتروسك . اضف الى ذلك ان هذا الاثر قد صادف ، في روما ، ارضاً خصبة متمثلة بالجماعات الهندو اوروبية المنشأ التي كانت لها بعض النزعات الدينية . واقتصرت السيطرة على كمبانيا في القرن الرابع وعلى كافة أنحاء ايطاليا الجنوبية في القرن الثالث على تسهيل استمرار تسرب – تعود بدايته الى ما قبل التاريخ – سابق للوقت الذي كان باستطاعة روما فيه ، حين وعت قوتها ، ان تحاول ، بدافع الكبرياء ، – ولكنها لم تحاول – مقاومة تقليد المغلوبين .

الاقتباسات القديمة

يجدر بنا ان نعطي فكرة عن اهمية الاقتباسات القديمة ، دون حاجـة منا الى تعدادها وخصوصاً الى توقيتها والبحث عن طرق حصولها .

منذ العهد القديم جاء روما من اليونان آلهة يغرينا ان ننعتهم « بالجاهزين » سواء حافظوا على اسمائهم اليونانية ام لا : ابولون الذي كان موضوع اكرام عظيم لا سيا في مدينة فييس القريبة ؛ سيريس، التي ليست سوى ديميتير (*Demeter*) ؛ مركور الذي هو هرميس ***Hermès*** نفسـه ؛ كاستور وبولوكس ، الخ . ومنذ هذا العهد ايضاً مثلت ببعض الآلهة اليونانيين آلهـة ايطاليين تبنتهم او « قوى» جسدتها ، ولم يحصل هذا التمثيل قط دون تنقيح منقول عن النماذج اليونانية : فاقتربت ديانا من ارتيميس، وجونون من هيرا الخ . فغدا من ثم الزون الروماني ، في جوهره ، تابعاً من توابع الزون اليوناني ، ان لم يكن نسخة وفق الأصل عنه . امـا الميثولوجيا فقد اقتصرت ، منذ ان وجد ادب روماني ، على نقل او تقليد الميثولوجيا اليونانية .

وتبنت روما بعض الطقوس ايضاً . وقد سبقت الاشارة الى مـدى التحويل الذي طرأ على

برنامج الألعاب القومية الكبرى ، بحيث استلزم هـــذا البرنامج تمثيليات مسرحية على الطريقة اليونانية . واذا صعب علينا تحديد زمن دخول المآدب المقدمة للآلهة الغرباء ، مع ما تتطلبه من أسرة ووسادات ، فليس من ريب في انهـــا مقتبسة عن الطقوس اليونانية . ويبرز الاثر نفسه بوضوح في ممارسة العرافة . فلم تتح الطرائق الرومانية سوى معرفة مـــا اذا كانت استعدادات الآلهة مؤاتية ام غير مؤاتية . ولذلك فقد لجأوا ، بغية التزود بالنصائح ، الى هاتفي الغيب من الاغريق . وقد جاء في التقليد ان آخر الملوك تاركوينوس قد اوفد من يطرح الاسئلة على ابولون في « دلفي » . وكي لا يقطعوا هذه المسافــة الطويلة اكتفوا على العموم باستشارة الكتب التي ابتاعها الملك نفسه من « العرافة » (*Sibylle*)، نبية ابولون في كوم . فلا عجب من ثم اذا ما ادت هذه الاستشارة اكثر من مرة الى تبني عبادات وطقوس يونانية . ولنأخذ مثلاً عبادة الاله الشافي اسكلابيوس : ففي اوائل القرن الثالث ، وبمناسبة انتشار احد الاوبئة ، ارسلوا الى بلاد ارغوس من يطلب اسكلابيوس في ابيذوروس (*Epidaure*) مركز عبادته الرئيسية ؛ نزلت الحية التي تمثـل « قوته » الى اليابسة في الجزيرة التيبيرية حيث شيّد معبده ؛ تولى الإله المعالجة فيه ، كما في المعابد اليونانية ، بأن أرسل الى المرضى الذين يقضون ليلهم فيه ، أحلامـاً فسّرها الكهنة واعطوا « الوصفات » اللازمة . ثم أخذت « المعجزات » تدريجياً ايضاً ، كما حدث في اليونان ، تعتبر دلالات على المستقبل ، لا دلالات غير مؤاتية فحسب .

ازمة الحرب البونيقية الثانية

قد تجيز بعض العلائم الاعتقاد بأن الجماهير قد برهنت ، في هذه الحقبـــة القديمة ، انها اكثر قابلية لمثل هذه الأشياء الجديدة من مجموع المسؤولين . بيد ان هؤلاء ايضاً قد اضطروا الى تغيير موقفهم . وقد اضطروا الى ذلك خلال الحرب البونيقية الثانية بنوع خاص، حين هزت مداهمة الخطر الضمير الديني في روما كلها حتى أعماقه . وقد وصف كافة المؤرخين القدماء الدّوار الجنوني الذي استحوذ في بعض الفترات على النفوس . فكتب تيت ـ ليف ، بصدد السنة ٢١٣ : « خيّل ان تغييراً مفاجئاً أصاب البشر أو الآلهة . فلم تلغ الطقوس الرومانية خفية فحسب ، أي بين جدران المنازل ، بل ان جمهوراً من النساء لم يتقيدن ، حتى في الخارج ، في الفوروم وعلى الكابيتول ، في ما يعود للذبائح والصلوات الى الآلهة ، بالعرف الموروث عن الجدود » . اتخذ المجلس بعض التدابير آنذاك ، فأمر بتسليم كافة « مجموعــات النبوءات وكتب الصلوات والدراسات حول الذبائح » ، وحظر « تقديم الذبيحة في مكان عام أو مكرس ، وفاقــاً لطقس جديد أو غريب » . لكن هذه الابتغاءات التأثيرية قد بلغت من القوة حداً لم يعد من مورد للحاكين إلا محاولة تقنيتهـا : ولم يهتموا ، كما سنرى ذلك ، لاتلاف الأوراق التي سلّمت اليهم دون ان يطلعوا عليها .

يبدو كوينتوس فابيوس مكسيموس (*Quintus Fabius Maximus*) ، في مرحلة الهزائم الأولى الكبرى ، وكأنه تجسيد التقوى الطقسية . وفي الحقيقة نمت هذه التقوى ، بفعـل حثّه

المنظم ، مع ما تستلزمه من شدّة : فبسب إخلال بنذر العفاف دفنت احدى الفيستاليات حيّة وانتحرت أخرى ، بينما مات شريكها في المخالفة تحت ضربات العصي التي كالها الحبر الأعظم بنفسه . ولكن هـــذا التدقيق لم ينحصر في العبادات الرومانية بالذات ، لا بل ان صلات « المتمهل » (Temporisateur) ببلاد الاتروسك ، قد فتحت أمامه آفاقاً أوسع . فهو الذي كرّس « الجبــل اريكس (Eryx) » الذي كان فيا مضى حصن السيطرة البونيقية في غربي صقليا ، معبداً لفينوس الاريكسية (Vénus Erycie) : فكانت هذه الإلهـــة المتعددة العنصريات ، وهي صقليّة متأثرة الى حـد بعيد بمشارت الفينيقية وافروديت اليونانية ، الإلهة الاولى التي قام معبدها داخل النطاق الروماني . وفي السنة ٢١٦ أوفد أحد اعضاء طائفتهـا ، المؤرخ فابيوس بيكتور ، لاستشارة هاتف الغيب في دلفي ، ولم يهمل شيء ممـــا أوصى به هذا الهاتف . وقد حظيت عبادة أبولون العراف آنذاك بنفوذ كبير . فأرسلت بانتظـام الى دلفي قرابين من أصل الغنائم المجموعة من العدو . وفي السنة ٢١٢ ، وبموجب نبوءة اكتشفت في مجموعة صودرت في السنة السابقة وأيدتها استشارة كتب العرافة ، نظمت إكراماً للإله ألعاب أثارت الحرارة الشعبية وما لبثت ان اصبحت سنوية : ومنذ البداية اعتمد الطقس اليوناني بشكل صريح بصدد الذبيحة التي تفتتحها .

كانت اليونان متصلة بآسيا الصغرى ، ومنذ زمن بعيد كان لأسطورة « اينه » (Enée) التي تربط روما بطروادة ، صفة رسمية . وهكذا ، في اواخر الحرب ، وبغيــة استمالة طالع جديد اليهــا ، قبيل حملة شيبيون على افريقيا ، قرّ الرأي على الاقتبــاس عن عالم غير العالم اليوناني . وقد جاءت فكرة هـــذا المسعى عن كتب العرافة ايضاً التي اضاف اليها هاتف الغيب في دلفي نصائح عملية . وفي السنة ٢١٤ اخيراً ، عاد وفد يرئسه شيخ تولى فيا سبق منصب القنصلية مرتين ، من فريجيا (Phrygie) حيث حصل في «بسينونتي» (Pessinonte) ، بفضل الملك البرغامومي أطال الاول (Attale 1er) ، على « الحجر الاسود » ، رمز « سيبيل » (Cybèle) «ام الآلهة» و « الام الكبرى في جبال ايدا (Ida) » . وعملاً بمــا فرضه هاتف الغيب ، حمل « افضل » رجل في المدينة ، كان ب . كورنيليوس شيبيون نازيكا في نظر المجلس ، الإلهة من المركب الى شاطىء « اوستيا » (Ostie) ، ورافقتها « السيدات الرومانيات الاولى » الى روما حيث احتلت مكانها ، هي ايضاً ، داخل « النطاق » الروماني . لا سبيل لنكران أهمية هذا الحدث الشهير الخالد الذكر . فللمرة الاولى تنظم في روما عبادة إلهة شرقيـــة ؛ وقام بخدمة معبدها خصيان فريجيون كانوا يتجولون في الشوارع ، ايام الاعياد ، بأزيائهم وينشدون ترانيمهم القومية الغريبة . يجدر بنا ألا نهمل الاحتياطات المتخذة : منع عبادة اتيس (Attis) الشبيهة الى حدّ كبير بسيبيل ، وتحظير الانتماء الى الاكليروس على المواطنين . ولكن الخطوة الاولى قد خُطيت وستعقبها خطوات .

القمع

بيد ان هذه الخطوات لم تحدث فوراً . فغداة الحرب بدا النظام المجلسي اقل حفاوة : ولعله خشي انتقال العدوى الى الجيوش المرسلة الى اليونان وآسيا . ومـــا لبثت مقاومة العادات الجديدة، التي تجسّدت في كاتون وتأيدت في فترة تسلمه منصبقاضي الاحصاء ، ان ظهرت على الصعيد الديني .

تظهر لنا هذه المقاومة خصوصاً في فضيحة الرقصات الخلاعيـة ، حيث لا يزال الغموض محيطاً بنقاط عديدة ، على الرغم من جهود المؤرخين ، ولكن ملابساتها الكثيرة لا تحول دون بقائها قضية دينية في الدرجة الاولى . في السنة ١٨٦ اكتشفت الشرطة الحكومية او تظاهرت بأنها اكتشفت ان أسرار ديونيسوس قـــد حققت تقدماً مخيفاً في جميع انحاء ايطاليا الجنوبية وتسربت الى روما نفسها ، وان فجوراً مخزياً يقترف فيها مقترناً بالاختلاسات والتقتيل ، وان المؤامرات تعد فيها لا لإفساد الاخلاق فقط بل لإفساد المجتمع والدولة ايضاً . فتوالت آنذاك ، طيلة خمس سنوات ، التحقيقات والوشايات والاستجوابات وأعمـــال التعذيب . وانفجرت اعمال القمع : دخل السجون سبعة آلاف شخص تقريباً وقضي على عدد كبير بالاعدام بعد محاكمة سريعة .

ليست قضية الكتب البيثاغورية دون هذه القضية مغزى مع انها دونها عنفاً . كانت رومـا حتى ذاك العهد قد افسحت المجال للبيثاغورية ، تلك الفلسفة المتشبعة بصوفيـــة حافظت ، على الرغم ممـــا اعترضها من صعوبات ، على حيويتها في ايطاليا الجنوبية ، ولا سيما في طارنتا . ومن حيث انها لم تنفّر الرومانيين ، فأننا نرجح ان تلطيفات ملموسة قد ادخلت عليها . ومهما يكن من الأمر ، فان التقليد الذي جعل من الملك « نوما » تلميذاً مباشراً لبيثاغور ، قد حفظ ، فيما يعود لعهود اقل قدماً، ذكرى قرارات رسمية مؤاتية . ولعل« كاتون » نفسه، قبيل السنة ٢٠٠ ، حين مر في طارنتا ، اعار اذناً صاغية لبعض الأحاديث . ومـع ذلك ، ففي السنة ١٨١ ، حين اكتشفت في احد المدافن نصوص بيثاغورية تعزوها احدى الكتابات الى نوما ، كان كافيـاً للمجلس ان يعلنها احد القضاة ، بعد الاطلاع عليهـــا ، متنافية والديانة الرسمية ، حتى يأمر باحراقها دون أن يقرأها احد .

عدم جدواه : ادخال العبادات الشرقية

ولكن انّـى لمثل هذه الديانة الفاترة التي لا تهتم للاجابة على سؤال مقض يطرحه الفرد حول مصيره بالذات ، ان تجد ، في عون السلطات دون سواه ، الوسائل لمقاومة نجاحات عقـائد افضل تجهيزاً واعظم نفوذاً ؟ وأنى لها ايضاً ان تقاوم العدوى بين الرومان.موجودون في الشرق وبينما الشرق ، اقله بواسطة العبيد ، موجود في روما؟فالموضوع، منذ ادخالسيبيل وتوسع المصالح الرومانية،لم يعد موضوع الآلهة الذين كيفتهم ونقّتهم الحضارة اليونانية الكلاسيكية، بل اولئك الذين خوّلهم العالم الهليني وتبناهم ارضاء لفرديته المخالفة الصواب ، واولئك الذين توفق العـــالم الشرقي الى ابقائهم

بعيدين عن كل تأثير يوناني ، احياناً . اجل كان من المعترف به ، في القرن الاول ، ان تتلقى الشخصيات الرومانية المرموقة ، اذا ما مرت في اثينا ، مبادىء اسرار الفسيس (*Eleusis*) . ولكن هذا نفسه لم يعد كافياً اذ ان الشيء الذي لا مفر منه قد اخذ بالظهور .

قارن بعضهم احياناً قضية الرقصات الخلاعية بالاضطهادات التي سوف تتناول الديانة المسيحية . ولكن المقارنة عرجاء ، اذ ان المحاكمة الامبراطورية ستلاحق الديانة المسيحية كديانة بينما لم يتجاسر مجلس الشيوخ ، في السنة ١٨٥ ، على تحريم ممارسة الطقوس الديونيسية على المؤمنين الزاعمين بانها مفروضة عليهم بنذر شخصي . فقد اجازها لجماعات محدودة يجب ان لا تتجاوز رجلين وثلاث نساء لا يخضعون لتنظيم ولا تربطهم عهود متبادلة ، ملزماً اياها بالاعلان عن نفسها للسلطات وبالحصول على موافقتها بحسب القانون . ولكن هذه التسوية انطوت على محال هو استمرار الرقابة الشديدة . فاختفى النهر على المرسوم المجلسي ، وفي اواخر العهد الجمهوري ، احتفل باسرار ديونيسوس في منازل كثيرة من « بومبيي »

اما ما تبقى ، مما لم يتناوله اي اضطهاد ، فلم يكن بحاجة لاي سماح بالدخول . وسنعود فيما بعد الى كل ما كان مدعواً للشهرة . فلنكتف اذن بالاشارة الى انه قامت في روما ، في زمن قيصر ، طوائف بيثاغورية على جانب من التأثير ، وان وجود عبادات شرقية مختلفة في ايطاليا لامر ثابت ؛ فمنذ الحملات على « ميثريدات » ، استورد الجنود عبادة عرفوها في آسيا هي العبادة الدموية للإلهة الكبادوكية « ما » (*Mâ*) التي اسرعوا واطلقوا عليها اسم « بلّونا » : اثناء العيد ، وفي وسط الشارع ، ينشد كهنتها الاناشيد ويجرحون اجسامهم بالفأس المزدوجة التي ترمز الى الإلهة ؛ وسنكتشف في احد معابدهم أوان خزفية ملأى باللحم البشري . ومنذ القرن الثاني نشاهد عبادات سيرابيس(*Sérapis*) ، وايزيس الاسكندرية في ديلوس حيث يتعاطى التجارة ايطاليون كثيرون ، وفي بوزوليس ، المرفأ الرئيسي في ايطاليا ؛ وتدخل ايزيس روما في عهد سيلا . ثم يدخل « ميترا » نفسه ايطاليا بواسطة قراصنة كيليكيين سابقين وجنود اشتركوا في حملات بومبيوس الشرقية . ولعل صمت المصادر حيال آلهة آخرين من قبيل المصادفة لا من قبيل عدم وجودهم في ايطاليا . ومهما يكن من الأمر فان روما تجتذب اليها ، في عهد مبكر ، عرافين ومنجمين شرقيين لا يخامرهم شك في انهم سيجدون فيها زبناً كثيرين .

من الثابت ان الدولة قد تحاشت ان تتبنى اية من هذه العبادات تبنياً رسمياً . لا بل ان المجلس قد اتخذ احياناً تدابير بوليسية سريعة الزوال : طرد المنجمين في السنة ١٣٩ ، وفي اواسط القرن الاول اصدر اوامره تكراراً بهدم معابد ايزيس التي شوهدت حتى على الكابيتول .

ولكنها استيقاظات باطلة ، ونادرة على كل حال . فباستثناء عبادة « ما – بلّونا » ، ستعرف هذه العبادات الشرقية ، وعبادات اخرى كثيرة ، في تاريخ لاحق ، نجاحات مدهشة واسعة

جداً . اجل لم تكن بعد في اواخر العهد الجمهوري سوى في مرحلتها الأولى . ولكن وجودها ينبىء بالمستقبل ويحضّره .

المظاهر الاجتماعية والسياسية للتطور الديني

ان موجة التدين القلق هذه عمت الطبقات الاجتماعية الدنيا بنوع خاص . فهي بفعل تألمها أكثر من غيرها قد شعرت أكثر من غيرها بحاجة الى التأثر والوعود . اضف الى ذلك انها كانت على اتصال يومي وودي بعبيد ينتمي الكثير منهم الى الشرق . وقد بدا هذا الميل نفسه خطراً للحكام . اجل ، لقد اعتبروا الديانة امراً ضرورياً للشعب . فمنذ اواسط القرن الثاني لم يتردد بوليب ، الذي عاش قريباً من شيبيون اميليانوس ، في ان يرى في العبادات الرومانية بناء صنعياً مصمماً خير تصميم لخير الدولة والمجتمع : « بخيـالي ... ان الوجل الخرافي يحمي مصالح روما ... وبتنمية هذه العاطفة ، انما فكروا بالشعب في الدرجة الاولى . قد لا يكون هـذا الاحتياط ضرورياً في دولة لا تضم سوى العقلاء ؛ ولكن لما كانت الجماهير تتصف بتقلب الرأي والاهواء المشوشة والاحقاد العنيفة والغير المتبصرة ، تستحيل السيطرة عليها إلا بالخوف من كائنات غير منظورة ، وبشتى انواع الاوهام » . وقد نجد هذه الفكرة عند كثيرين غيره بأقل وقاحة في التعبير . ولكن العبادات الغريبة ، من حيث هي تتوجه الى مؤمنيها دونما اهتمام للاطارات الاجتماعية التقليدية ، كانت في نظرهم خطراً ممكناً على النظام الضروري للمجتمع والدولة .

لذلك ، قامت النخبة الاجتماعية ، في ما يعنيها ، بجهود كبير للابقاء على تنفيذ كافة الطقوس . أما دلائل التخلي التي يمكن ملاحظتها فنادرة ، ولا أهمية حقيقية لها : الاهمال في ترميم بعض المعابد، والشغور المستمر ، منذ آخر السنة ٨٧ ، في منصب كاهن جوبتير الخاص . وفي القرن الثالث ، قام بين المسؤولين أنفسهم ، من يتظاهر بالالحاد في ممارسة وظائفه بالذات، ولا يتقيد بنصائح العرّافين . ولكن مصلحة الدولة ، خلال الحرب البونيقية الثانية ، والتضامن الطبقي ، بعد الحرب ، وضعا حداً لهذه الجسارات : وان احتقار قيصر للمراقيل الدينية التي أقامها ، في السنة ٥٩ ، زميله في القنصلية ، في وجه قوانينه ، يمثل الشذوذ الوحيد عن القاعدة. ولكننا عبثاً نبحث عن تقوى حقيقية وراء هذه الظواهر المؤثرة . فلم يقم في الارستوقراطية الحاكمة - على ما نعلم ، أي مشايع للعبادات الشرقية بالذات ، التي تركت للشعب ؛ بل على نقيض ذلك ، قـام بعض الملحدين ؛ وقام بنوع خاص تلاميذ مذاهب فلسفية تنظر الى الآلهة التقليديين كما الى رموز أو خاصيات . ويبدو شيشرون معبراً عن الحقيقة ، حين يكتب في بحث عن العرافة : « على العاقل ان يحافظ على عادات الأجداد بالتقيد بالعبادات والطقوس . وبرغمنا جـال العالم ونظام الأجسام السماوية على الاعتراف بوجود كائن أزليّ يتوجب على الانسان إكرامه ، والاعجاب به » ؛ حكمة سياسية من جهة وتفسير فلسفي من جهة ثانية : لقد زال الايمان من الديانة الرسمية .

أعطى العالم الهليني ، باستمراره في ممارسة ديانة الأولمب القديمة ، المثل عن هذه المواقف . ولكنه أعطى ، كذلك ، المثل عن المثالية الدينية التي توفر للملكية مرتكزها : الانسان المتفوق الذي يختاره الإله ويلهمه. أنى لروما من ثم ان تنجو من العدوى؟ فقد سمح شيبيون الافريقي، قبلاً ، بأن تنتشر حول ولادته الالهية أساطير مماثلة للأساطير التي انتشرت فيا مضى حول ولادة الاسكندر ، وأمضى ساعات كاملة في معبد جوبتير الكابيتولي يناجي « أباه » الذي ينعم عليه بنصائحه ، فاتهمته مصادرنا بالهرطقة والخداع . واقتفى الكثيرون اثره منذ اواخر القرن الثاني ، على الرغم من عنادية عدد كبير منهم كانوا أشد اشمئزازاً من ان يحافظوا على أقل ايمان ، وأبعد مهارة من ان يهملوا التظاهر بأنهم مختارون من الله منذ الأزل . واتجه تفضيلهم الى فينوس ، والدة « اينه » وإلهة روما القومية . فعزا سيلا انتصاراته الى فينوس « السعيدة » ، وتبنى هذا اللقب لنفسه؛ والتمس بومبيوس النعمة من فينوس« المنتصرة » ؛ وأدى قيصر بأبهة العبادة لفينوس « الأم » ، إذ ان عائلته ، آل جوليوس ، تنحدر منها مباشرة .

وهكذا ، فبينا كان كل شيء يخلخل الدولة الجمهورية ، وحين لم يعد هيكلها الديني سوى مجرد ظاهر ، تباهى أشد خصومها خطراً ، امام الجماهير المستعدة لأن تؤمن بكل معجزة ، بالانعامات الفائقة الطبيعة التي دانوا بنجاحاتهم لها . فانضم التطور الديني من ثم الى التطورات الاخرى في سبيل القضاء على النظام القائم

الفصل الخامس

هلينة روما:
اليقظة الفنية والفكرية

بدأت اقتباسات روما الفنية والفكرية عن الحضارة اليونانية ، شأن اقتباساتها الدينية ، قبل تدخل الدبلوماسية الرومانية والجوقات الرومانية في قلب العالم اليوناني بزمن طويل : فان التأثيرات التي اصابت الاتروسك وانتقلت بواسطتهم قد فعلت فعلها منذ عهد مبكر جداً ، كما فعل فعله ايضاً مثل اليونان الكبرى وتعليمها عن طريق كبانيا والشعوب الايطالية . ولعل الاستدالة ، على هذا الصعيد، من هذه الحضارة المتفوقة، قد فاقت الاستدانة على صعيد المعتقدات الدينية . فليس هنا من معطية سابقة ، ولو بدائية ، يكفي تنظيمها وتصعيدها وانماؤها ، بل طاولة شبه ملساء ، او شعب خشن جداً استيقظ ، بصلاته غير المباشرة ، على مشاغل جديدة ؛ ومنذ ان برزت مثل هذه المشاغل في روما واخذت تلقى فيها رضى ليس على شيء من السخرية، تتراءى اثر الحضارة اليونانية .

بيد ان هذا الاثر قد برز بقوة نادرة منذ ان بسطت روما سيطرتها المباشرة على ايطاليا الجنوبية . وقد شعر المؤرخون القدماء ، من هذا القبيل ، باهمية الاستيلاء على طارنتا في السنة ٢٧٢ واشاروا اليها . فاستُعرض آنذاك للمرة الاولى، في احد مواكب النصر ، بعض الاسرى اليونانيين أو المستغرقين ، والتماثيل ، واللوحات ، والزخارف والنقوش التي ازدانت بها مدينة يونانية كبرى : غنيمة مزدوجة اجاز قانون الحرب للمنتصر التصرف بها تصرفاً واحداً ، وكان لامتلاكها اثر واحد دائم ، اذ قد اكل الاسرى العبيد ، بقولهم وبانتاجهم ، التربية التي وزعها ، صامتاً وساحراً ، مشهد التحف الفنية . ولم يكن ذلك ، في الزمن ، سوى الانتقال الاول بين انتقالات بشرية ومادية ، على مدى واسع ، ضاعفتها الانتصارات اللاحقة وتمادى فيها ، بعد الانتصارات ، استثمار الاقاليم اليونانية استثماراً لا يعرف الشفقة معنى. وان التقدم الذي احرزه العالم اليوناني منذ زمن بعيد قد جعل من فتنة هذه التحف وهؤلاء الرجال قوة لا تقاوم : فاستسلم الرومان لها دونما صعوبة لا سيما وان تمرنهم قد بدأ قبل ذلك العهد .

مهما يكن من الأمر ، فانهم لن يلبثوا ان يدينوا بالكثير لفن اليونان وفكرها . ولكن الى اي حد سيتركون هذا السحر يفعل فعله فيهم يا ترى ، وماذا سيفعلون من هذا الدرس ؟ كان بامكانهم ، اذا مـــا استفادوا من خبرة الغير وحافظوا على ميزتهم ، ان ينقلوا التقنيات المجربة الكاملة الى خدمة نزعاتهم الخاصة . وكان بامكانهم ايضاً بفضل القوى الجـديدة والثروات المادية التي فاض بها شبابهم ، ان ينوبوا ، على طرق شقها متفوقوهم ، عن حضارة يونانية اتعبها مجهودها وانهكهـــا السلب الذي كانت خاضعة له . وكان باستطاعتهم اخيراً ان يبقوا تلامذة منقادين لاساتذة قد يستمرون في التقدم عليهم،او اقله مجرد زبن لعملاء ماهرين في إرضـــاء اذواق اوجدوها فيهم .

ثلاثة امكانات غدا كل منها ، هنا او هناك وبحسب العهود ، امراً واقعاً . وليس من ريب ، على العموم ، اقله خلال العهد الجمهوري ، في ان الامكان الثالث هو الذي كان غالباً : وعلى الرغم من الفوارق التي سنشير الى اهمها، ومن الازدهار الادبي الذي برز اخيراً في روما ، فان رومـــا آنذاك قد دخلت في فلك العالم الذي اخضعته لسيطرة قسوتها المغرورة الجشمة .

١ ـ الفـــن

لا يستدعي هذا التأكيد ، تحفظاً يذكر بصدد الفن .

الاثر الاتروسكي

لما كانت روما قريبة جداً من مركز حضارة زاهرة هو اترورِيا، فقد دانت لها بفنها البدائي . فالملوك الاتروسك الذين اعطوها انظمتها الاولى كمدينة انعموا عليها بابنيتها الاولى ايضاً . وقد اجمع التقليد على ان يذكر بين هذه الأبنية المعبد المكرس على جبل الكابيتول لجوبتير ولاقرانه من الاناث.فقد رمّم، واعيد بناؤه وربما حوّر اكثرمن مرة ، وبقي على الدوام المعبد الرئيسي للديانة الرسمية . وقد حافظت روما ابداً، حتى بعد ان وطدت استقلالها بالقضاء على الاستبداد الاجنبي ، على الروابط الثقافية التي شدتها الى بلاد اسيادهـــا القدماء . ثم احتلتها تدريجياً ولم تهمل الكسب الفني الذي احرزته باحتلالها : فكم وكم من عملية استلاب مجهولة اقدم الرومان عليهـــا في مدن اخرى قبل عملية استلاب الـ ٢٠٠٠ تمثال من فولسينيا في السنة ٢٦٤ ؟ لذلك فقد جاءت التربية الاولى من الاتروسك بنوع خاص .

تميزت هذه التربية ، من جهة ثانية ، بالسرعة، في مدينة لم تخل ، كما رأينا، من الموارد المالية، وتجنبت النخبة الاجتماعية فيها ، التي أحسنت استقبال نخب المدن الايطالية الاخرى ، كما رأينا أيضاً ، احتقار ما من شأنه تجميل اطار وجودها . ومن الخطأ الفادح الاعتقاد بأن الرومان ، في القرون الاولى منالعهد الجمهوري،لم يكترثوا بالمشاغل الجمالية.فعلى الرغم من استمرار صفة حياتهم الخاصة بذلوا الجهد لكي يكرموا بأبهة الآلهة الذين دانوا هم.بالنجاح لرضاهم، وقد حرصت كل عائلة كبيرة على تخليد ذكر الجدود الذين أكسبوها الشهرة . لا بل ان بعض الرومان على الاقل

قد شعروا بسحر الفن الدنيوي اللطيف الذي تعلموه بواسطة جيرانهم . اجل يبدو انهم افتقروا الى العبقرية الخلاقة ؛ ولكنهم يستقبلون التحقيقات الاجنبية بسهولة ، وقد حدث ان استساغوها بمرونة .

الفن البدائي

منذ القرن الخامس شيدت روما عدة معابد . وقد عكست معابدها طرازاً اتروسكياً طبع هندسة العمارة الدينية الرومانية بطابع دائم . تميز هذا الطراز عن الطراز اليوناني ببعض الصفات الخاصة التي يجدر بنا ، دونما حاجة الى تبيانها كلها ، ان نشير الى أهمها ، او بالحري الى تلك التي تظهر بأجلى صورة في شكل هذا الطراز . فقد بقي تلاصق قاعات المعبد الداخلية الثلاث ، مثلاً ، التي فرضها جمع بعض الآلهة في ثواليث (جوبتير وجونون ومينرفا ؛ سيريس وليبير وليبيرا) طرازاً كلاسيكياً دائماً في معابد جوبتير «الافضل والاعظم» (*Optimus Maximus*) أي جوبتير الكابيتولي . ثم ان الرومان قد شيدوا عدداً كبيراً من معابدهم على مصطبة او قاعدة على بعض الارتفاع في البنــــاء ؛ فاضطروا من ثم الى تجهيز سلّم يؤدي الى جبهة المدخل بينما انتصب جدار القاعات الخلفي ، والجدران الجانبية في أغلب الاحيان ، على حافة القاعدة تقريباً .

شيدت هذه المعابد الاولى بالأخشاب ، واستخدم كثيراً ، في سبيل صيانتها وتزيينها ، الخزف المتعدد الالوان : وكانت هذه العادة واسعة الانتشار ، ليس في اتروريا فحسب ، بـل في كبانيا وايطاليا الوسطى ايضاً . ولم تسفر أعمـــال التنقيب في روما ، حتى اليوم ، عن اكتشاف أي شيء يذكرنا بمجموعة ابولون في فييس . ولكنه يتوجب علينا ، مع ذلك ، القول بأنهم لجأوا بمهارة الى التزيين الناتيء بواسطة لوحات التلبيس الترابية التي نضدوا فيها النقوش السعفية الشكل والرؤوس الصمراء الوجه وابتكروا مجموعات التماثيل لأعلى جبهات المعابد والمثلثات في الجبهات نفسها والتماثيل المنصوبة داخل المعابد . فمن الثابت ان فن التشكيل بالفرين قد اعتمد بالتفضيل طيلة قرنين او ثلاثة قرون في روما ، وقد حدث ، حتى في عهد سيلا ، انهم لجأوا اليه ، احتراماً منهم للتقليد ، لتزيين المعابد الجديدة ، بينما كانوا قد اخذوا يستخدمون للمدافن والتماثيل المدفنية النصفية ، مواد أغلى ثمناً واقل قصماً .

وفسّر فنّ التصوير طريقة أخرى للتزيين . فان الذوق الذي أوحى به الرومانيين ، وهو قديم ايضاً ومقتبس عن الاتروسك والكبانيين واللاتين ، قد استمر زمناً أطول . وقـد لجأوا اليه في داخل المعابد وعلى جدران المدافن تحت الارض وحتى على جدران الابنية العامة ، ان لم يلجأوا اليه آنذاك – ترتقي اقدم رسوم بومبيي الى زمن أكثر تأخراً – على جدران المنازل الخاصة . ولم يأنف بعض اعضاء النخبــة الاجتماعية من ان يتعاطوه شخصياً : فهنالــك معبد دشن في اواخر القرن الرابع بعد ان زين جدرانه بالرسوم المدعو ك. فابيوس فحمـــل ، بفضل ذلك ، لقب « المصور » الذي انتقــل الى ذريته . لم يبلغ الينا شيء من التصوير الديني . وعلى نقيض ذلك ،

ظهرت في احد مدافن الاسكويلينوس بقايا مشاهد تاريخيــــة ، معركة ومفاوضة ، رسمت في القرن الثالث على الارجح ، يبرز فيها نشاط قائد روماني يدعى ك . فابيوس . وكذلك فقد أمر م . فاليريوس مكسيموس ميسالا ، في اوائل الحرب البونيقية الاولى، بتصوير معركة ظافرة على جدار قاعة جلسات مجلس الشيوخ . ومن الجائز ان نرى ، في اختيار هذه المواضيع ، ظهور ميــل مبكر سوف يُجنح الفن الروماني إجناحاً دائماً نحو تمثيل الأحداث الواقعيــة التي تستعاد بوقار اظهاراً لمجد روما ومجد حكامها وآلهتها : المعــارك ، الاستعراضات الظافرة ، الذبائح ، الاحتفالات العامة .

جلي ان هذه المشاهد التاريخية قد جمّلت ونظمت بدافع من حرص الفنانين على إظهار عظمة تحرك العواطف، كما ستجملها وتنظمها فيما بعد النقاشة العظمى . وعلى نقيض ذلك ، فقــد برزت منذ اوائل عهد صورة الشخص المصنوعة بالتراب او المنقوشة ، واقعية فظة جداً وكأنها تعمد في ان لا تخفي أية بلية من بلايا الطبيعة او السن. وقد تولدت هذه الصور من قوالب شمعية تؤخذ عن وجه الموتى بغية صنع « الصور » والاقنعة والتماثيل النصفية التي تحفظ في الاروقة العائلية ويؤلف منها موكب في جنائز الحفدة. لم تبلغ الينا أية قطعة قديمة من هذا النوع ، وانما يمكننا ان نتخيلها بالاستناد الى مجموعة الرؤوس شبه الهزلية التي سارت على هذا التقليد حتى اوائل الامبراطورية ، وهي مجموعة تحرك النفس ولا تعرف الشفقة معنى .

لذلك يستهوينا ان نعرف ما كان من امر التماثيل التي يغلب انها نصبت في روما منذ عهد باكر اكراماً لأبطال قوميين ، وحتى لألقيبيادس وبيثاغوروس : فهذان الاخيران هما اللذان لم يتردد مجلس الشيوخ في أن يعترف بأنهما ، كل فيما خصه ، الاولان بين الاغريق بسالة وحكمة ، واللذان امر هاتف غيب دلفي ، حين استشير أبان الحرب ضد السمنيين في القرن الرابع ، دون أي ايضاح ، بأن تنصب لهما التماثيل . واذا ما تعذر الكلام آنذاك عن الصور المتقنة ، فما هو الحد الذي بلغه النقاشون ، حتى الاجانب منهم ، الذين توجب عليهم ان يأخذوا اذواق زبنهم بعين الاعتبار ، في مساعهم لتحقيق تعبير مثالي شامل ؟ ولكن المصادر القديمة التي تشير الى هذه التحف لم تترك لنا وصفها .

بدت اذن بعض المقاصد الجمالية على الصعيد الجماعي . اما البذخ الخاص ، باستثناء مظــاهر تكريم الموتى ، فلا نعرف منه سوى نتاج صناعـــة تعدين الشبه الناشطة والمتقنة جداً منذ ذاك العهد عند الاتروسك والمنتشرة بواسطتهم في جميع انحاء ايطاليا الوسطى . ومن اطرف هــــذا النتاج مرايا وعلب مستديرة مزدانة برسوم محفورة بالازميل . ويبدو منذ القرن الرابع ان المركز الرئيسي لهذه الصناعة كان برينستا *Preneste* (بالسترينا الحالية)، احدى مدن اللاتيوم. واما المرآة « فيكوروني »، وهي واحدة من اجمل امثالها، فتحمل كتابة تثبت انها صنعت في روما على يد فنان اجنبي لاحدى نساء برينستا. واستوحى الفنانون طريقتهم والمشاهد المصورة من الرسوم

المصورة على الخزفيات المزخرفة ، وقد صدرت اليونان القديمة زمناً طويلاً – كورنثوس اولاً ، ثم اثينا – هذه الخزفيات الى ايطاليا ، ثم استوردت ، ابتـداء من القرن الرابع ، من اليونان الكبرى ، ثم من فاليريا ، وهي مدينة قريبة جداً من اترورريا والتيبر ، شمالي روما .

الحضارة اليونانية والحضارة الايطالية والحضار الرومانية

تمثل الصور المحفورة على مرآة فيكوروني احدى حوادث رحلة الارغونوط : والاثر اليوناني جلي فيها باختيار الموضوع وبمعالجته ، ولعلـها تقليد لتحفة من تحف فن التصوير المعظم . وباستطاعتنا ان نسرد امثلة اخرى كثيرة عن الاثر اليوناني في الفن الروماني البدائي . ثم ان اكثرية التحف التي عرفت مباشرة او عن طريق الوصف لا يمكن ان تفسر الا باللجوء الى الميثولوجيا اليونانية او الديانة اليونانيـــة . ونحن نعلم من جهـــة ثانية مدى اقتباس الاتروسك عن الفن اليوناني . كما ان اليونان الكبرى وكمبانيا قد ضمتا مراكز اخرى لنشر هذا الفن . وقامت اخيراً علائق مباشرة احيـاناً : فمنذ اوائل القرن الرابع اتى الفنانان اليونانيان ، داموفيلوس ، وغورغاسوس ، وهمـا مصوران على الارجح ، الى روما بغية زخرفة معبد سيريس .

ولكن هناك بعض الطوابع وبعض الميول التي لم ترتد قط في اليونان الحيوية نفسها مع انها لم تكن مجهولة تمامـــاً فيها : قد يمكننا التجادل حول قيمتها الجمالية ولكن لا يمكننا التجادل حول حقيقة وجودها . لا يجوز ، على ما يبدو ، نسبتها الى الرومان دون غيرهم اذ اننا لا نجدهـا في روما وحدها بل نجدها دائماً في فن مدن اخرى من اللاتيوم ايضاً وحتى في كافة انحاء ايطاليـا الوسطى . واذا ما استهدفت جهود المؤرخين اليوم استخلاص هذه الميزة ، فان اكتشافات علم الآثار لا تهيب بنا الى نسبتها الى الرومان فحسب بل الى الايطاليين عموماً . وليس في الحقيقة ما يثير الدهشة في ذلك . فالحضارة الاتروسكية نفسها ، حتى اذا سلمنا باصولهـــا الشرقية ، قد استساغت إرثاً ايطالياً ونزعات ايطاليـــة . اضف الى ذلك ان روما، على الرغم من اسطورة «اينه» الطروادي،لا تمثل جسماً غريباً في شبه الجزيرة . وما كانت عناصر سكانها الاولى لتختلف كثيراً عن عناصر سكان المدن المجاورة. اما ما يكوّن شخصية روما بينها فهو في الدرجة الاولى موقعها في مكان انتقال وبالتالي تلاقي البشر والمحاصيل ؛ وهو في الدرجة الثانية مصيرها العجائبي في تحقيق الفتوحات . وقبل ان تصبح عاصمة العالم فانها قد اصبحت عاصمة ايطاليا مبتلعة وناقلة باسمها للمستقبل كل ما بقي من الميزات الايطالية الخاصة .

الاشغال العامة الكبرى

هل كان بمكنة ظروف اخرى ورجال آخرين تأمين بقاءات اكبر عدداً وابعد مغزى ، وتميزاً احلى عذوبة؟ قد يصح القول بذلك. انما يجدر بنا، على كل حال ، الاعتراف بان روما ، بفضل عنادهـــا الصبور والجرأة التي عرفت كيف تبرهن عنها في وجه المسائل العملية ، قد خدمت ما ابقت عليه من هذه الحضارة الايطالية .

لا شيء ، في هذا الصدد – اذ لم يكن هنالك من حد فاصل بين الفن ، الذي قلمـــا يكون

اختياريا ، وبين الاشغال الكبرى ذات المنفعة العامة – يعطينا شهادة ابلغ من تحقيقات مهندسيها الاول . فقد كان علمهم وتقنيتهم مدعوين لان يبقيا احد اختصاصات رومـا الجيدة . برزا منذ هذا العهد القديم وبقي اسم ابيوس كلوديوس ، الذي لقب « بالاعمى » (*Caecus*) في شيخوخته السقيمة ، مرتبطاً بمشاريع عظيمة كانت منطلقاً ، طيلة قرون عدة ، لسلسلة متصلة الحلقـات دامت ما دامت روما بالذات .

تولّى منصب قاضي الاحصاء في السنة ٣١٢ وبنى « القنـاة الآبية » التي جرّت الى روما مياه ينبوع يبعد مسافة تتجاوز ١٦ كيلومتراً . اجل لقد امكن ، في الريف الروماني ، توصلا لهذه الغاية ، استخدام أقنية سابقة محفورة لأعمال التجفيف توفرت للاتروسك والايطاليين الخبرة القديمة فيها . وعلى الرغم من ذلك فان تحقيق هذا المجرى تحت الارض كان نجاحاً جيلاً لا سيا وقد جهّز على أكثر من ١٥ متراً عمقاً في بعض الاحيان ، بعلوّ ١٫٥٠ متر وبعرض متر تقريباً . ولم تستند القناة الى الاقواس إلا مسافة قصيرة جداً (٩٠ م) فوق منخفض في المدينة . ومنذ السنة ٢٧٢ ، استلزمت قناة جديدة ٣٠٠ متر من القناطر . ولما كان ارتفاع عدد سكان المدينة والاهتمام برفاهيتهم قد زادا باطراد ، فقـد أفضى ذلك تدريجياً الى أبنية ازدادت أهميتها شيئاً فشيئاً ايضاً : « فالقناة المارسية » التي شيدت ما بين السنة ١٤٤ والسنة ١٤٠ قـد بلغت ٩٢ كيلومتراً طولاً منها ١١ كيلومتراً على القناطر .لا شك في ان الاغريق، منذ زمن بعيد ، – تعود قناة افبالينوس في ساموس ، مع النفق الذي استلزمته ، الى القرن الرابع – قـد حققوا مثل هـذه الاعمال المعدّة لتموين مدنهم بالمياه . ولكنهم لم يحققوا ، ولم يصمموا على ما نعلم ، أعمالاً على مثل هذه الأهمية .

تجدر الملاحظة نفسها بصدد الطرقات . فان شعوباً أخرى قد أنشأت طرقات في السابق : وهنالك تقليد ، يشك فيه كثيراً على كل حال ، يعزو الى الرومان انهم استوحوا في ذلـك أساليب القرطاجيين في صقليا . ولكننا لا نستطيع ان نغمطهم فضلهم في إنشاء اولى الطرقات الطويلة المدى . فحين كان ابيوس كلوديوس قاضي احصاء ايضاً ، وضع تصاميم الطريقة « الآبية » ولزم اعمالها، وهي التي وصلت روما بـ «كاپّا» –١٩٥ كم – في كبانيا ، والتي سيدعوها احد شعراء العهد الامبراطوري « ملكة الطرقات » . وقد اخترقت المستنقعات البونتية بخط مستقيم فوق ردميـة بلغت ٢٨ كم طولاً . واعتمدت في إنشائها الطبقات الحجرية التي شدّها الملاط الى بعضهـا البعض وتناقصت قياسات حجارتها بين الاساس والسطح ، والوحات التي غطت هذا السطح فيا بعد ، فكانت اول تطبيق لتقنية ستعطي ، طيلة قرون وتحت كل سماء ، في الجبال والمنخفضات ، براهين أخرى كثيرة عن تفوقها . وفي العهد الجمهوري اخترقت ايطاليا بنوع خاص ، في كل الاتجاهات ، طرقات عظيمة مماثلة تولت الجمهورية بعد ذلـك تعميمها على الاقاليم على نطاق واسع . لكن هذه الطرقات لم تستخدم للسير السريع . فان هدفها الرئيسي

كان تسهيل انتقال القوات المسلحة والبريد ؛ كما ان عمليات المساحة قد استندت اليها في تقسيم الاراضي . فجعل منها هذا الدور العسكري والاداري ، مع اتساع شبكتها ، دعامة من اوطد دعائم السيطرة الرومانية على ايطاليا اولاً وعلى الامبراطورية بعد ذلك .

فهل كانت هذه المشاريع وهذه النزعات رومانية يا ترى ؟ العدل يقضي ، في الحقيقة ، ان نصفها بالايطالية ، او باللاتينية على الاقل : اذ ان عائلة كلوديا سابينية المنشأ . فيجب بالتالي ان لا نضفي قيمة نوعية على العنصرية التي يفسّر الانصهار البشري الباكر استخدامها التقليدي في مفهومها العريض. واذا ما تم الاتفاق على ذلك، فان الاشارات الوجيزة السابقة الى هذه الاشغال العظيمة تكفي للدلالة على ان التصميم على قهر الطبيعة المعادية واستخدام الطرائق الفعالة في هذا السبيل قد سبقا ، في روما ، قيام الاتصال الودّي بالحضارة اليونانية خلال القرن الثالث . فقبل هذا الاتصال توفقت جرأة مهندسيها الى الانطلاق وأثارت سواعد عمالها الاعجاب – ولكن كم بينهم من العبيد ؟ – كما قام جنودها ، في كل مرحلة ، ببناء معسكرهم .

قبل ذلك بألوف السنين ، حققت حضارات الشرق الادنى الامبراطورية اعمالاً اعظم ضخامة . فهل كان ما أتته ابعد تجرداً عن المصلحة يا ترى ؟ يجدر بنا ان نجد مقياساً مشتركاً للمصلحة . فان اليد العاملة ، مندفعة كانت ام راضية بنصيبها ، التي استنفدت قواها في خدمة الآلهة وابنائهم او خلفائهم الملكيين ، قد آمنت بأنها توفر للجماعة ، على الدوام ، احسانات قوى كلية القدرة . اما الرومان فقد كونوا ، عن المنفعة العامة ، فكرة اقل غموضاً واقل بعداً . فمن حيث ان ديانتهم كانت ديانة قانونيـــة ، او دنيوية اذا صح التعبير ، فانها لم تفتح امامهم آفاق مثل هذه الاعتبارات . ومن حيث هم لم يؤدوا واجباتهم مسبقاً لآلهتهم، بل اكتفوا نحوهم بوعود مشروطة ، فانهم قد تحاشوا القيام بتعهدات على مثل هذا النطاق . وهم قـــد كيفوا مجهودهم ، لا ضناً به، بل اقتصاداً، وفاقاً للكسب المباشر الذي ارتقبوه منه .ولم يبرز كبرياؤهم في الاعتداد بقوتهم وثروتهم إلا بعد حين ، وقد بقي زيغانه الشنيع امراً نادراً .

لا يجدينا ، على كل حال ، ان نسير الى ابعد من هذا الحد في مقارنة تصرفات على مثل هـذا التباعد : فالمقارنة المفيدة يجب ان تجرى مع الاغريق . في الحقيقـة تفوق الرومان عليهم على هذا الصعيد : اجل لقد اعوزهم ذلـك الانسجام المرن وذلك التآلف السهل بين المنطق والتأثير اللذين احلا الفن اليوناني في المرتبـة الاولى . ولكن ما ان شعروا بحافز المنفعة التي فهموها على طريقتهم والتي لم تختلف قط عن طريقة الاغريق ، حتى برهنوا ، باكراً جداً ، كما رأينا ، عن حدة خيال وسعة تفكير . وحين توفرت لهم بعد ذلك وسائل خلق ما هو اعظم ، عرفوا كيف يضفون على تحقيقاتهم العملية ، الخالية من الزخرفة، والمطابقة، منذئذ ، لمثل أعلى من الجمال الوظيفي ، طابعاً من الجلال الصافي .

نقل التحف اليونانية

حافظ الرومان اذن ، فيما يعنينا ، على عبقريتهم الخاصة . ولكنهم لم يحافظوا عليها على صعيد الفن الحقيقي .

فقد حدث امر جديد هو احتلالهم لايطاليا الجنوبية وصقليا وشبه الجزيرة اليونانية وآسيا الصغرى المستغرقة . وقد حدث معه ، لا استلهامهم فناً لم يكونوا ليجهلوه ، بل استئثارهم وتمتعهم المباشر بكل ما استطاعوا، مادياً، نقله الى وطنهم بعد ان اختاروا ما طاب لهم اختياره من نتاج كدّسه ارفع الشعوب فناً .

وليست الامثلة ما ينقصنا عن هذا الاستيراد الضخم للتحف الفنية . لن نعود مرة اخرى الى مواكب الظفر التي كانت تقدم ، طيلة ايام عدة احياناً ، لاعجاب الجماهير ، الغنائم التي تشترك فيها . فلننظر بالاحرى الى تصرفات القنصل ل . موميوس الذي هزم ، في السنة ١٤٦ ، الجيش الآخي على مقربة من كورنثوس . ويعود الفضل الاكبر في شهرة هـذا الحدث الى تقليد ثالب طبع بعض الروايات بطابع مضحك فاظهر هذا الروماني بمظهر الخشونة والبربرية. واذا هو اقدم على هدم كورنثوس بعد نهبها فانما فعل ذلك نزولاً عند أمر مجلس الشيوخ ؛ وان بوليب ، الذي شاهد زمر الجنود يلقون باللوحات الشهيرة ارضاً ويلعبون عليها بالكعاب، يمتدح اعتداله وتجرده الشخصيين . وما ان علم بقيمتها حتى اسرع والغى بيع لوحة ، ضربت بجمالهـا الامثال ، الى الملك البرغاموسي اطّال الثالث واحضرها الى روما حيث وضعها في معبد سيريس . وعندمـا انذر ملتزمي نقل اللوحات والتماثيل الى ايطاليا بوجوب التعويض عما يفقد منها بغيرهـا ، فان انذاره يكون اقرب الى الصواب اذا ما نظرنا اليه كفكاهة لا كانذار حقيقي . اضف الى ذلك ان اعادة الاعتبار للرجل ليست هنا من الاهمية بمكان : فان قيمته كحالة نموذجية تختلف كلياً . وفي نظر « بلين القديم » ، اذا كان القادة الظافرون في آسيا الصغرى مـا بين السنة ١٩٠ والسنة ١٨٨ قد ادخلوا الى روما عادة المصنوعـات الفضية المنقوشة والأقمشة الثمينة والاسرة المنزلة بالشبَه ، ان موميوس قد ادخل عادة المصنوعات الشبهية الكورنثية واللوحـات الفنية . وقد عزا احد معاصري اوغوسطس الى مغانمه اكثر واجل التماثيل التي ازدانت بها روما . فحين كان قاضي احصاء في السنة ١٤٢ وزع القسم الأكبر منها على كل انحـاء المدينة تقريباً واستطاع بالفائض منهـا ان يوزع الهبات على البلديات الايطاليـة وحتى على مستعمرة ايطاليـكا في اسبانيا .

هذا مثل بسيط بين امثلة اخرى كثيرة . ولكن المجال ليس مجال احتداد وتظاهر بالفضيلة. فان فاتحين كثيرين قبل الرومان قد اعتمدوا طريقة الاستلاب هـذه التي تغري ، حتى اليوم ، اكثر من منتصر معاصر . ولعل الاغريق وحدهم انقطعوا ، منذ اواخر العصر القـديم ، عن استلاب كنوز « البرابرة » الفنية لانهم تغلبوا على هذا الميل — وليس هـذا اقل الدلائل مغزى على استقلالهم الجمالي . ولم يبد خصومهم ، الفرس والقرطاجيون والغلاطيون مثلا ، ترفعاً مماثلا .

أما الرومان ، فقد سبق لهم ونهجوا هذا النهج في حروبهم ضد الاتروسك ، ولم تنطو الأساليب التي اعتمدوها في العالم اليوناني على أي جديد باستثناء وفرة دخلهـا النادرة التي تفسرها رحابة هذا العالم ، ومـا يمكن ان ندعوه بكثافته الفنية . ولم تستلب الممتلكات الخاصة استلاباً منظماً إلا من قبيل العقوبة الفردية أو الجماعية ، وغالباً مـا تحلى الرومان بظرف تقوي قضى باحترام المعابد بين الممتلكات العامة . ومع ذلك ، فقد كانت النتيجة وابلاً وتكديساً في مدينة لن تلبث ان تطفح بهذه التحف .

وساعد على ذلك ان النقل الذي اجري لحساب الدولة قد رافقه في الوقت نفسه أو في وقت لاحق نقل اجري لمصلحة الأفراد . وحصلت كذلك صفقات واغتصابات سهّلهـا تسهيلاً نادراً التفاوت المالي والاداري الذي أوجده الفتح بين الأسياد والرعايا . فما هو مصدر الشحنات الفنية المجموعة في مركبين غرقا في القرن الأول قبل الميلاد ، واكتشفا في اوائل القرن العشرين، الاول في انتيكيثيروس (*Anticythère*) جنوبي البلوبونيز ، والثاني في مهديه على شاطىء تونس الشرقي ؟ هل هي غنائم حربية استولى عليهـا سيلا في اليونان ابان العمليات ضد ميتريدات ؟ أم صفقات وطلبيّات ؟ أم مجموعات أرسلها السماسرة بغية بيعهـــا في أغنى الأسواق أموالاً ؟ مهما يكن من الأمر ، فليس أبلـغ ، في استعادة الماضي ، من تنوع - أعمدة ، وقطع رخامية وشبهية ، وتماثيل مختلفة الاشكال والقياسات ، ونقوش ناتئة ، وأوان ، الخ .. — وجمال بعض القطع الذي يلفت الأنظـــار : بفضل هذه الاستيرادات المستمرة ، جمعت روما ، التي غدت مدينة ـ متحفاً ، ثروات فنية يونانية تفوق ما جمعته أية عاصمة هلينية عظمى .

سيطرة الفن اليوناني والفنانين اليونانيين

يكشف هذا العناد المستمر في تحقيق هذا المطلب ، دونمـــا ريب ، عن شعور بكبرياء جشع فطري عند حديثي النعمة : كان من واجب الشعب — الملك عـلى نفسه ان يبزّ الملوك الهلينيين ، وان تبز مدينته مدنهم والمدن الجمهورية اليونانية ، كأثينا ورودوس ، الذائعة الصيت بفخامتهـا . ولكنه قد وعى في الوقت نفسه مفهوم واجب الاحترام الذي يؤديه المنتصرون لتفوق المغلوبين الفني .

قارب بعضهم أحياناً بين ما حدث في روما ، خلال القرن الثالث وفي اوائل القرن الثاني ، وبين الصدمة التي شعر بها الفرنسيون في اواخر القرن الخامس عشر بعد ما قطعوا جبال الألب ودخلوا ايطاليا . فاذا كانت كل مقارنة قابلة للانتقـــاد ، فان هذه بنوع خاص تموّه الحقيقة تموهاً . فبصرف النظر عن أهمية الاتصالات السابقة ، يؤخذعليها ، في الدرجة الاولى، انها تهمل فقدان أية حركة توازي النهضة في البلدان اليونانية وفي روما : وما المقصود هنا ، دونمـا تعرض لمصادر الوحي ، سوى حركة فنية جديدة وقوية ، ربما أسهم فيها هنا وهناك فنانون قوميون .

يلاحظ « بلين القديم »، في اواسط القرن الثاني ، انبعاث الفن اليوناني بعد تقهقره السابق : ولكنه يعني ، وهذا امر آخر ، استعادة الازدهار المادي . شهدت الحضارة الهلينية من قبل

عادة المجموعات . ودرجت هذه العادة في روما مستهدفة التحف اليونانية وغيرها . فقد جمع الرومان منها ما يعود العهد الكلاسيكي ، وما لبثوا بعد ذلك ان جمعوا مـــا يعود العهد القديم ايضاً . وشهد الشرق ، في نطاق لجارة المصنوعات الفنية ، ازدياد النشاط في اوساط هذه التجارة التقليدية، أثينا ورودوس وبرغاموس،التي تردد اليها أثرياء الرومان مبتاعين منها لأنفسهم أو لأصدقائهم أحياناً ، كما فعل اتيكوس (*Atticus*) الذي وثق الناس بسلامة ذوقه . ثم دخلت هذه التجارة روما مع ما يرافقها من حرف تابعة ، كالترميم ، او طفيلية ، كالتزييف . فكان من شأن هذا الولع بالماضي ، انه أضر بالتجديد الذي بدا ، مع ذلك ، وكأن كل شيء يشجّعه : انتشار التقنيات ، ووفرة الأموال ، وامثولة التحف المدروسة على هينة ، وتميز بعض النزعات الايطالية . ولكن كل ذلك بات دون جدوى . أجـــل لم تكن كثرة النتاج السابق لتسد حاجات زبن متزايدين باطراد . ولذلك ، فالنتـــاج الجديد لم يهبط ، بل أخذ في الاتساع بنسبة الطلب المتزايد وبفعل انتشار الثروة ؛ ولكنه لم يتبع أي تيـــار مجدّد ، ولم ينعشه أي نسغ جديد . فاقتصر أبداً على النسخ ، وعـــلى بعض الاقتباسات احياناً عن أصول برهنت عن نجاحها في البلاطات والمدن الهلينية .

غير ان هذا الجمود ليس مثاراً لمزيد من الدهشة ؛ فقد كان للاغريق ، بعـــد كل حساب ، مصلحتهم في استثمار مهارتهم وصيتهم . ولكن ما نجد مزيداً من الصعوبة في ادراكه هو كيف ان القليل القليل من الفنانين الرومانيين أو الايطاليين ، عـــلى الرغم من الظروف الكثيرة التي توفرت لهم التحصيل الفني، قد لاقوا آنذاك من التقدير ما أتاح للمصادر أن تحافظ على اسمائهم. فحتى اواخر العهد الجمهوري — ولن تتبدل هذه الحـــال ، في العهد الامبراطوري ، إلا ببطء — لم تذكر هـــذه المصادر فناناً رومانياً يحمل اسماً لاتينياً ، سوى كوسوتيوس المهندس المعماري . في السنة ١٧٥ كلّفه الملك السلوقي ، انطيوخوس الرابع ، اتمام معبد زفس الاولمبي في اثينا الذي أوقف بناؤه منذ اواخر القرن السادس ، والذي لن ينتهي ، على كل حـــال ، إلا بعد مرور ثلاثة قرون . كان هذا الملك معجباً جداً بالعادات الرومانية ، فاكسبه ذلك ، وغير ذلك من الغرابات ، ما اشتهر عنه انه نصف مختـــل . ولكنه كان ماهراً في العناية بشعبيته ، لا سيا في اثينا . ولذلك يغري بعض العلمـــاء أن يروا في كوسوتيوس مواطنـــاً رومانياً حديث العهد ، يوناني الاصل ، أضاف الى اسمه الصيغة اللاتينية .

ان صفة التحكم في هذا الافتراض اليائس تنطوي على بعض الرمزية : انهـــا الحالة فريدة وشبه مشينة ان يكلف اغريقي فناناً رومانيـــاً القيام بهذا العمل . وعلى نقيض ذلك فليس من سبيل لاحصاء الطلبيات المنفذة في البلاد اليونانية ، والصناعيين والفنانين اليونانيين المجموعين رضى او قسراً والمتقولين فرقاً كاملة والمستدعين او الآتين باختيارهم الى ايطاليا للعمل في خدمة الرومان. فاذا ما انطوى نتاج مغفل ما على بعض الجمال فان تحليل نمطه يدفع بالنقاد في اغلب الاحيـــان

الى نسبته الى فنان يوناني مجهول. اجل قد تبدو استنتاجاتهم مشوبة بذلك الميــل اللاواعي نحو الحضارة اليونانية الذي لا يتخلى عنه مؤرخ الفن الا بصعوبة . ولكنها في الواقع تتفق مع كل ما نشاهده من العلائق الفنية بين الشعبين . وللدلائل الصغيرة بلاغتها احياناً : فقد درج الرومان حتى ذاك العهد على استيراد المرمر من الأتيك (*Attique*) والجزر الايجية ولم يستخدموا مرمر ايطاليا في روما قبل عهد قيصر .

وليس اقل بياناً ان رومانياً واحداً لم يتذمر من هذه السيادة الأجنبيــة . فالتقليد الذي لا ينضب معينه في الكلام عن انتقادات كاتون اللاذعة ضد فساد الأخلاق والبذخ والفلسفة والشعر نفسه والطب عند الاغريق ، لا يروي عنه اي انتقاد ضـد فنهم : ولعله اكتفى بالاعتراض على عدد التماثيل المفرط – ولكن اصبح له تمثاله اخيراً – وعلى استخدام الصور الالهية لاهداف دنيوية. والحقيقة هي انهم خضعوا جميعهم للتيار ولم تبد المتع التي جنوها منه وخيمة العاقبة لاي منهم . ولم تفتهم قط حطة فنهم او بالاحرى عدم وجوده . نحن لا نشك في ان الوطنيين المثقفين قد تألموا من ذلك بعد ان زالت النشوة الأولى التي أثارها فيهم الاعتقاد بان هــذه البدائع اصبحت منذئذ ملكاً لهم ، ولكنهــم لم يعترفوا باستذلالهم . فان شيشرون الذي بحث بشغف عن التحف اليونانية كي يزين بها مقاصفه والذي دفع ثمنها غالياً على الرغم من مشاغله الماليــة قد تظاهر بنسيان اسم بوليكليت احتقاراً حين وقف خطيباً في جمهور كبير. اذا كان هذا الاسم قد راوده دونما جهد في القسم الاول من كتابه (*Tusculanes*) ، فانه بذلك يحاول تفسير خضوع روما حيال الفن اليوناني بلامبالاة الجدود المرعبة : « لو أدي لفابيوس الاكرام الخليق بموهبته التصويرية ، وهو رجل ينتمي الى ارفع طبقات الاشراف ، امــا كنا احصينا بين الرومان فنانين عديدين من امثال بوليكليت وباراسيوس ؟ »اما في الواقع ، فقد اكتفوا كلهم بعذر واهٍ ، معلن او ضمني : كان للرومان ، فاتحي العالم وحكامه ، مشاغل اخرى اعظم شأناً .

النقـاشة

يجوز لنا والحالة هــذه ان نمر مرور الكرام بنتاج ليس رومانياً إلا بجنسية زبنه . فنقتصر خصوصاً على الفنون العظمى .

ان منتجات النقاشة لا يحصى لها عد . فالدولة ، او بالأحرى القضاة الذين يمثلونها والذين تباروا بنخاً بالاسهام فيها بثروتهم الخاصة ، وزعت المزيـــد منها على الساحات العامة والأبنية القديمة او الحديثة في « المدينة » . وقد بلغ من زحمة الفوروم بتماثيل النبلاء التي أقامها ذووهم او المعجبون انه تقرر ، منذ السنة ١٥٨ ، ان يزال منه كل تمثال لم تصدر اجازة رسمية باقامته . ولم يهمل الأغنياء متعتهم الخاصة ومقتضيات العرف السائد فزينوا منازلهم في المدينـــة ومقاصفهم وحدائقهم . وحدث مثل ذلـــك في جميع انحاء ايطاليا حيث سارت المدن الصغيرة على خطى المدينة الكبيرة . فقامت حركة لا تقاوم ، شبيهة بتلك التي جرّت وراءها المجتمع الهليني منذ أواخر القرن الرابع ، مقتبسة طرائقها وتحقيقاتها على كل حال ، على انها أقوى منها لأنهــا

اقل ذوباناً في الزمان والمكان وأوفر موارد مادية ، فجرّت وراءها كل المجتمع الايطالي الرفيع والمتوسط .

لا ينتظر من هذا الانتاج ، الرائج والوفير ، كما لم ينتظر ذلك من قبل من الفن المليني ، ان يكون في مجموعه انتاجاً من النوع الاول . ونحن نميل ، امام غزو الفن الاجنبي الذي لم يتجدد لمنفعة زبنه ، الى الاسف لما حلّ بالميزات التي برزت في فن القرون الاولى من العهد الجمهوري ، باقصائها الى مرتبة دنيا ، ان لم يكن باضمحلالها اضمحلالاً كلياً . فلو حوفظ عليها بأن يوضع في خدمتها ما امتلكه الفن اليوناني ، لزمن طويل، من تقنية وقوة منطق وأناقة وتحريك العواطف، لأدّى ذلك الى نتائج ذات قيمة كبرى . واذا ما استمر انتاج الصور الواقعية، فانها قد بيعت لغير اعضاء الطبقات الاجتماعية العليا ، وما كانت لتطلب من الفنانين المتمتعين ببعض الشهرة : فللتماثيل النصفية والنقوش الناتئة في الانصاب المدفنية ، آنذاك ، أهميتها كستندات عنصرية واجتماعية ، لا كتحف فنية .

على الرغم من ذلك ، ترك لنا هذا العهد بعض النقوش الجميلة ، ويحاول الاختصاصيون اليوم تعيين تواريخها بغية تبيان تطورها . ليس من ريب في ان أهم عهد ، بهذا الصدد ، هو القرن الاول ، حين استطاعت مفاعيل الثقافة المتبادلة ان تستقر وتحدّد بعض النزعات وتشرع في تثمر بعض المذاهب . وتهتم المصادر القديمة اهتماماً كبيراً لحالة اغريقي من ايطاليا أصبح مواطناً هو باسيتيليس الذي بلغ قمة الشهرة منذ زمن سيلا ، وتتلمذ عليه كثيرون ممن بلغت الينا أسماؤهم حتى ما بعد العهد الميلادي . وتصفه لنا عالماً بأصول الفن وممارساً النقاشة . ولكن لم يصل الينا شيء مما صنعته يداه . وهكذا ، باستثناء حالات نادرة جداً لا شأن علمياً لها ، فان كل ما وقعنا عليه غفل ، وما زالت تواريخ التنفيذ التي يهمنا معرفتها موضوع جدل حاد .

لنستعرض اذاً أهم هذه الآثار دون حاجة منا للتعرض لهذا الجدل . فنذكر مثلاً بعض تماثيل نصفية جافة الوجوه آذاها الهوى، ذلك الهوى نفسه الذي سيطر على المدافعين العنيدين عن هذه الفكرة او تلك في الحروب الأهلية التي اندلعت في زمن ماريوس وسيلا . ونذكر ايضاً تمثالاً لبومبيوس وآخر لشيشرون وآخر لقيصر يتجلّى فيها التحليل السيكولوجي العميق : ولم تضر امانة الصورة فيها بالتعبير الجليّ والعميق . ويجدر بنا ان نشير خصوصاً الى نقشين ناتئين ، احدهما في مونيخ والثاني في اللوفر يعودان الى مذبح دوميتيوس اهينوباربوس . فقد قرّ الرأي تقريباً على انها إحياء ذكرى تأسيس تاريخ على يد احد جدود ناقشها ، في السنوات الاخيرة من العهد الجمهوري على الارجح . وهما انتاج فنانين مختلفين ، وعلى الرغم من ان المشهد الميثولوجي الممثل في النقش المونيخي على جانب كبير من المهارة والظرف ، فان النقاد يعلقون مزيداً من الاهمية، على ما يتصف به من جفاف وتصنع، على نقش اللوفر الذي يمثل ذبيحة ومشهداً رسمياً اما لتسريح الجيش ، واما لتسجيل المواطنين المعدين لاستيطان المستعمرة الجديدة كما نرجح. وان

مثل هذه القطعة لدليل على استمرار النزعة الخيرة ، اقله عرضاً ، الى معالجة المواضيع التاريخية بنبل ، وهي نزعة ستلهم الكثير من روائع الفن الامبراطوري التي لا اعتراض عليها .

كان على هندسة العمارة ، شأن النقاشة ، ان تواجه تزايـــداً عظيماً في الطلب .

هندسة العمارة

وقد وجدت هندسة العمارة بواعثها ، ونماذجها الكثيرة ايضاً ، في ابتكارات التجميل وتزيين الأبنية التي حققتها الحضارة الهلينية . أضف الى ذلك انها تفوقت على النقاشة في مطابقة الميل الروماني الى التقنية المتينة والمادية التي تتيح للبشر إثبات وجودهم على هذه الارض.

بنى الرومان كثيراً ، عمداً على عين ، بغيـــة إعلاء روما فوق العواصم الكبرى في العالم المتوسطي ، والمدن الايطالية الصغرى اقله الى مرتبة شبيهاتها اليونانيات . ولكنهم في الظروف العادية بنوا بلا تبصّر ، دونما تخطيط جامع . وكان هذا الشتات ثمناً لتعاقب القضاة وتنافسهم . وكان على مجلس الشيوخ ، تلافياً لذلك ، ان يقوم برقابة مستمرة : ولكنه شغل بأمور أخرى ولم ير الأشياء من زواياها الطبيعية ، على هذا الصعيد ، بتأثير الفطنة المحافظة ، والحقيرة طوعاً. ولذلك لا نشاهد برنامجاً حقيقياً ، لا مـــن حيث وفرة الأبنية الجديدة فحسب بل من حيث تلاحمها الداخلي ايضاً ، إلا حين عادت السلطات الادارية ، او اقله السلطة الادبية ، لفترة طويلة نسبياً ، الى الشان تتوفر لديه الاموال الضرورية ويرغب ، على غرار المستبدين او الملوك اليونانيين ، في تأمين العمل للكتل العماليـــة وافتتان الجماهير الشعبية بالتباهي بسخائه وفرض ذكره على الاجيال اللاحقة . فحدث ان توفرت هذه الشروط مجتمعة في القرن الاخير من العهد الجمهوري ، حين لم يعرف ارتقاء الطامعين حدوداً . فحتى ذلك العهد اقدم هذا القاضي ، او هذا القائد خصوصاً ، على نذر معبد ، وذاك الاخير ، لا سيا بين قضاة الاحصاء الذين كانت الاشغال العامة احدى مهامهم الرئيسية ، على تشييد معبد ملكي – كان كاتون اول من شيّد معبداً ملكياً أطلق عليه اسم بوركيا (*Porcia*) باسم عائلته ، ثم سار على خطاه كثيرون غيره – او رواق او مستودع . لكن الدكتاتورين سيلا وقيصر ، وبينهما بومبيوس ، كانوا أرحب أفقاً فصمموا أبنية كبيرة غير مألوفة ، ومجموعات ايضاً ، وأنفقوا في سبيل تحقيقها دونما حساب بقدر الغنائم التي كدّسوها .

يجب ان تضاف الى هذه الابنية المعدة للاستعمال العام المنازل الخاصة التي تزايدت حتى في الريف بفضل القاصف : منازل بسيطة جداً يتكدس فيها الوضعاء متألمين من عدم توفر الاسباب الصحية وغلاء الأجور ، ولكنها اعظم اتساعاً وزهواً من ذي قبل بسبب نمو الثروات والسعي وراء الرفاهية ، ووراء البذخ الصاخب في اغلب الأحيان .

توجب اذن على مهندسي العمارة ان ينهضوا بعمل ضخم لا سيا في روما . وكان لعدد هـذه الابنية والسرعة في انجازها دور سنحددهـا تحديداً افضل لدى دراسة هندسة العمارة في العهد الامبراطوري الذي اتصف بها للاسباب نفسهـا . لم يكن استخدام الملاط ، وسد الفراغ في

الجدران بالرخام ، والترميد والتلبيس التزييني اموراً مجهولة في المنطقة المستغرقـــة ، فاضطر المهندسون الى اللجوء اليها بصورة قياسية . وكذلك ، فاننـــا لن نستعرض ، الا بمناسبة درس الامبراطورية ، اهم نماذج الابنية : ظهر بعضها آنذاك ولكنها لم تعم الا فيما بعد . يكفي الآن القول بان ما يمكن رده منها الى اصول رومانية ليس كثيراً ، لا بل ان اكثر من معبد قـد بني آنذاك على الطراز اليوناني . وقد اتى التكييف الضروري بطيئاً جـــداً ، وكان حصوله وفاقاً للتقاليـــد القومية ، من جهة ثانية ، اقل منه وفاقاً لحاجـــات المجتمع الرومـاني والعادات الرومانية .

فلنحاول بالتفضيل اعطاء فكرة عن العمل الذي حققه « الأباطرة » العظام في القرن الاول والذي يبشر اتساعه بالتحقيقات الضخمة في العهد الامبراطوري .

لسنا نعرف معرفة تامة ما انجزه سيلا في روما بسبب اعمال الترميم والتحوير اللاحقة . بيد اننا نلاحظ انه اعاد تنظيم حي الفوروم القديم رابطاً بينه وبين مرتفع الكابيتول المشرف عليه من الشمال الشرقي . وشيد بين قمتي هذا المرتفع دار المحفوظات التي اطلت على الساحة العامة بجبهة تبلغ ٧٠ متراً طولاً مستندة الى اساس يعلوه رواقان من القناطر . ونرى ان هذا الطابع الفخم ، تتصف به هندسة تستمد نوعــاً من التزيين المسرحي ، كما اعتمد من قبل في برغاموس عـــاصمة الاطاليين ، ولكن بتناسق يتفوق والنمطية الرومانية ، اشد بروزاً في معبد اله الحظ في برينستا الذي رممـه ووسعه : كان هنالك عشرة سطوح منضدة على منحدر الجبل ، مـــع ما يرافقها من اروقة وسلالم ، تؤدي الى بناء مستدير ذي قبة ترتفع ١٢٠ متراً فوق قاعدة الجبهة . وليست هذه المدينة الوحيدة في ايطاليا التي استفادت من سخاء الدكتاتور .

اما بومبيوس فقد شرع في روما بتنظيم ميدان مارس وراء الكابيتول . فبعد عودته من الشرق ، شيد فيه اول مسرح مبني بالحجر في المدينة ، ومعابد عديدة ورواقاً ذا اربعة صفوف من الاعمدة تحف بالحدائق ، وبناء لجلسات مجلس الشيوخ .

اما قيصر فقد قصد ان يبز سلفيه . ولا سبيل لعمري لاحصاء كافة الاعمال التي قام بهـــا في روما وايطاليا وحتى في الولايات . فهو قد شرع بشراء الأراضي وتنفيذ الاعمال خلال حملاته على غاليا ، قبل ان يصبح دكتاتوراً ، وشيد المعبد الكبير « جوليا » الى جانب الفوروم القديم . ولم يتردد في تنظيم الفوروم الجديد بعد ان نزع الاتربة والانقاض من ارضه . وقد استخدمت هذه الساحة الفسيحة — ١٦٥ م × ٧٥ — المحاطة بالاروقة ، اطـــاراً لمعبد نذره ، يوم انتصاره على بومبيوس ، للالهة التي جعل منها جدة عائلته ، فينوس الام . وقد انتصب قبالة هذا المعبد تمثال الدكتاتور ممتطيا حصاناً مفلوّج الحوافر على غرار اصابع الانسان كان العرافون قـد تنبأوا بان مالكه سيسيطر على العالم .

هكذا قدّمت روما في تجهيزاتها وابنيتها الجديدة الدليل على التغييرات في نظامها السياسي

واخذت ترتدي شكلاً خليقا بقوتها وثروتها وخليقاً ايضاً بالرجل الذي تولى فيها السلطة . لاشك في ان التطورين، البنائي والسياسي ، سيحدثان على كل حـــال وان الموازاة بينهـما ستظهر ايضاً : فالطبيعة البشرية ، في وضع روما آنذاك ، كانت تستدعي ذلك . ولكن ما حدث انما حدث بسرعة بتأثير من سنى الحضارة الهلينية الساحر: فقد عينت هذه الاخيرة الابنية الواجب تشييدها وقدّمت اليد العاملة القادرة على النهوض بهذه المهمة بفضل تعليمها مثلاً اعلى في العظمة لا ترضى السلطة معه ، اقله التأثير في مخيلة الجماهير ، باطـــار عادي هو دليل الشح والجهل . واذا نحن نظرنا الى ملكية قيصر من زاوية برنامجها الفني ، لرأينا انها هلينية لا رومانية .

ولكن مدينة كبرى لا تتجدد في فترة دكتاتورية دامت سنوات معدودات . فقد توفي قيصر باكراً جداً . غير ان المثل الذي اعطاه سيراود الاباطرة ابداً .

٢ ـ التطور الفكري

على الرغم من ان الحياة الفكرية في روما قد تأثرت بالحضارة اليونانية ايضاً ، فانها تتصف بمزيد من التميز . فقد كانت الحضارة اليونانية لها مهذباً وقدوة. ولكن مجرّد الاستقلال اللغوي قد تنافى والنقل بلا شرط ولا استثناء الذي سهل تحقيقه بصدد النتاج الفني . كما ان الحاجة الترجمة ، بالاضافة الى ما اوجدته من اتصال اوثق اتضح انه أعظم فائدة من حيث الاساليب ، قد افضت اقله الى التغيير والتبديل . وقد تفاوت عمق التبديل ومدى الاضافات الشخصية التي كان هو منطلقاً لها باختلاف المؤلف واللون الادبي والعهد . وقد تطلع بعضهم ، بعـــد تفكير عميق ، بشطر الذرى يدفعهم الى ذلـك حنان متغطرس نحو وطنهم تجيش به قلوبهم . فصمموا على استخدام مرونة مهارة الفكر واللغة والنسق التي اعترفوا بأنهم مدينون بهـــا الى المؤلفات الاجنبية رغبة منهم في ان يجعلوا لروما تراثاً فكرياً يتفق والنزعات القومية الخاصة التي يعود الفضل في بقائها او يقظتها اليهم . واذا لم يحالفهم النجاح التام في كل الحقول ، فانه قد جاء هنا وهنالك نجاحاً لا جدال فيه . وعند زوال الجمهورية كان الرومان قد تجاوزوا مرحلة الوعود . ففي نطاق بعض النشاطات الفكرية ومعرفة بعض العواطف والتعبير عنها تراهم وقد قطعوا مرحلة التلمذة والشراء فيما يعود لبهجة نظرهم وتزيين مدنهم ومنازلهم .

١ ـ اليقظة

شعب فلاح وواقعي

ان التركيب العقلي في شعب من الشعوب ابعد من ان يبدو ، بعد التحليل ، حاصلاً بسيطاً ، كما انه لا يلتبث كما تلتبث النظريات الهندسية . ولكن من يحاول تحديد وفهم هذا التركيب عند الرومان ، يرى ان مفهوم الشعب الفلاح حقيقة ملازمة لا تقاوم . فان عامة الشعب الروماني التي تعيش من نشاطها التجاري تتميز منذ عهد مبكر

باختلاطها وتأثرها بالتيارات الكثيرة وبقلقها واندفاعها وحتى بقابليتها. ولكنها لا تحمل الناس على الانقياد لقدوتها . فروما لاتينية وايطالية قبل ان تكون رومانية بالذات بما لهذا التعبير من مفهوم ضيق ومدني . فان ما يعتد به في الدوحة الاولى هو الارستوقراطية الحاكمة والطبقة الوسطى اللتان تتألفان في أكثريتها من الملاكين الريفيين القريبين من الارض المتهمكين باستثمارها شخصياً المتفانين في الدفاع عنها الموزعين اوقاتهم بين الحقول والجيش ومناقشة الشؤون العامة .

هل من داع للدهشة ، والحالة هذه ، اذا ما ساد الحس العملي والواقعي والملموس ؟ فهو قد سيطر على اللغة نفسها التي لم تدخل عليها التعابير المجردة الا في عهد متأخر نسبياً دون ان تتمكن يوماً من تبديل التيارات الصرفية والانشائية التي فرضتها عليها سمتها الاولى . وقد قام احد علماء اللغات ممن يحسنون اكتشاف الفوارق الدقيقة بدراسة « اللاتينية لغة فلاحين » و « اللاتينية لغة المحسوس » فانتهى الى ان اكثر من كلمة ذات معنى ادبي تشتق من الحياة الريفية كـ (*Egregius*) مثلاً (وهي تعني اشتقاقاً « المفصول من القطيع »)فاصبح معناها بالتالي « السامي » ، « الجيد » .

وعلى الصعيد العقلي تميز الشعب الروماني بميل قليل نحو العلوم ، لا سيما المجردة منها كالرياضيات ، ونحو الفلسفة ، وهما النطاقان اللذان شغف بهما الفكر اليوناني وغالباً ما خلط بينهما . اجل لم يعوز الرومان التفكير او الميل الى التنظيم المنطقي . ولكنهم آثروا تطبيقهما على الواقع القريب وعلى الابحاث ذات المنفعة المباشرة. ولن تغريهم العلوم قط إلا بتطبيقاتها العملية: الاحصاءات ، الاشغال العامة ، الشؤون المالية ، المساحة ، الزراعة ، الخ . ومن حيث ان الروماني مجدّ وصبور وكثير التدقيق، فانه يراقب نفسه ، ويطيب له درس الاخلاق وما يفضي اليه من قدح يتفاوت عنفاً وسخرية ؛ ومن حيث هو عضو في مجموع ، يستهويه الاهتمام بالاحداث السياسية والاجتماعية التي يطيب له تقديرها ومحاولة فهمها ؛ وهو يعتز بماضي عائلته ووطنه ويريد ان يجد فيه دروساً للمستقبل . وهذا ما سيملي عليه موقفه حين يواجه نظامين فكريين : فالتاريخ سيستهويه دراكاً لا بما يعرضه من حقيقة مجردة عن الغاية بل كامثولة في السلوك الفردي والجماعي ؛ اما الفلسفة فستستهويه بقدر ما تكون سيكولوجية اخلاقية وتحليلا لانظمة الدول والمجتمعات لا نسجاً نظرياً فحسب . ولم يفته اكتشاف ما للكلام من قوة في النظام الجمهوري ، ولكن ما اعتبره اعظم قوة هو السلطة التي توفرها للمواطن الممتاز ، كما حدده بلوت ، « الثروة والثقة والاعتبار والجد والحظوة » ، بحيث ان البيان المنمق لم يغره قط . وبالمقابلة ، افضى به عنفه الشديد وحرصه على المصلحة والعمل الى ابتناء نظام فكري جديد هو نظام القانون : فلم يظهر الفكر الروماني في اي حقل آخر ، وبشكل افضل ، طاقاته العقلية واستعداده التصميم المنظم وحتى لحدة التصور ، شرط الانطلاق من حالات حسية والخلوص في درسها الى وسائل حل سواها .

يجب ان نحذر الاوهام بصدد وضوح ومتانة مثل هذا التسلسل : فان التاريخ والعلوم التي تتناول معطياته لا تستطيع حتى اليوم – وهل ستستطيع ذلك يوماً ؟ – اثبات طابعه الكافي والضروري . من اليسير ان نعزو ما حدث الى بعض الجذور ، ولكنه من البساطة الكلية الاعتقاد بان ليس هنالك جذور اخرى او بان الجذور التي اكتشفنا ما كانت لتنبت فروعاً اخرى . فكم نوابت مجهولة اجهضت يا ترى ؟ وما هي التآليف الخفية المتسعة التي اتاحت تفتح ما ازدهر من هذه النوابت ؟

مهما يكن من الامر ، فليس ما ورد في بحثنا سوى امكانات فقط ، قد لا تكون الوحيدة على كل حال . وكان لا بد من تحقيقها .

اليقظة البطيئة والعسيرة

ولكن تحقيقها كان ابطأ منه في كثير من الحقول الاخرى . فقد اجمع التقليد على واقع هذا البطء لا بل اعلنه اعلاناً : لم يشعر الرومان يوماً بكبرياء لا طائل تحته في تقديم تاريخ يقظتهم الفكرية ولا في انكار فضل الأجنبي عليهما اي ، فيما يعنينا ، فضل الاغريق الجلي المباشر .

قد تقضي بنا معرفة الاتروسك والشعوب الايطالية معرفة اكمل الى اطالة لائحة اقتباسات روما القديمة عنهم . ولكن هذه اللائحة حتى تاريخه موجزة جداً . فليس من ينكر اليوم بان روما مدينة بابجديتها للاتروسك الذين استمدوها من اغريق « كوم » على الارجح . اما عن الشعوب الايطالية فقد اقتبست في عهد مبكر ، لاغانيها البطولية الشفهية التي كانت تتلى في الجنائز والمآدب ، الشعر « الساتورني » المتميز بوزن تتخلله المقاطع القصيرة والطويلة . وقد احتفلت معهم باعياد شعبية يطلق فيها العنان للتنكر الهُجري والقدح الهازل ؛ ثم اعتمدت رسمياً ، في السنة ٣٦٤ ، الألعاب المسرحية على الطريقة الاتروسكية التي اشترك فيها الراقصون والممثلون الهزليون المحترفون ، فادخل ذلك بعض التنظيم على هذه الاعياد ، ولكن المسرح اللاتيني ، حين قام واقتفى اثر المسرح اليوناني ، قد حافظ على بعض هذه الغرابات .

اما ما تبقى فيغلب ان الاغريق مصدره المباشر منذ ذاك الحين حتى اواخر القرن الرابع . ولا يتردد البعض في هذا الاعتقاد .

تضعنا الشريعة التي حفرت ، في أواسط القرن الخامس ، على « اثنتي عشر لوحة » من الشبه ، امام مسائل كثيرة . فهي اجلّ أثر من آثار الادب القومي ، وقد استخدم نصها زمناً طويلاً لتدريس التلامذة . ونحن لا نعرفها إلا عن طريق استشهادات مجزأة لا يتيسر جمعها وفاقاً لترتيبها الاصلي بصورة أكيدة . اضف الى ذلك عقم البحث فيها عن نظام قانوني حقيقي : فهي قد وفرت سلسلة من القواعد المختلفة المصادر التي يعود بعضها الى ماض جاف ونم بعضها الآخر عن أفكار أكثر انسانية . واذا ما صدقنا التقليد ، فقد استلزم تحضير تحريرها ارسال مفوضين يستفسرون في البلاد اليونانية ، حتى اثينا ، عن شرائع صولون . بيد ان الرومان يتباهون

باطراء تفوق القانون المدني الذي حدّدته على قانون أية مدينة يونانية . ولكن قيمة هـذا التقليد وهذا الحكم موضوع نقاش بين المعاصرين . وتقوم أهمية هذه الشريعة التي لا نزاع فيها في انهـا حددت ونشرت للمرة الاولى قانوناً واحداً لكافة المواطنين . فاذا كان جلياً ان الرومان قد استوحوا في عملهم هذا المثل الذي أعطاه الاغريق منذ زمن بعيد ، فان هـذا التأثير سياسي واجتاعي لا فكري .

هل يجدر بنا ان نذهب الى ابعد من ذلك بصدد ابيوس كلوديوس « الاعمى » قاضي الاحصاء العظم في السنة ٣١٢ ؟ فهو قـد تقدم الرومان النبلاء المولعين بالالسنية فطبق الابجدية على العلم اللاتيني في تركيب الاصوات . لم يكن حرف *C* الأصمّ كافياً لهذا العلم ، فأوجد من ثم ، — ولكن الرومان لم يتخلوا عن عادة كتابة « *Caius* » الذي يلفظ *Gaius* — الحرف *G* وأحله محلاً أصبح شاغراً بعد إقصاء الحرف *Z* النافل . وكرّس زوال الحرف *S* بين حرفي علة وابداله بالحرف *R* : فـ « *Fusius* » مثلاً أصبح « *Furius* » . وقد تقدم ايضاً ، على ما نعلم ، سلسلة نبلاء الرومان الذين افتخروا بالكتابة المقيدة ، في مواضيع عملية ، فألّف بحثاً قانونياً ومجموعة حكم اخلاقية منظومة . وقد رأى بعض القدماء أنفسهم ، في هذه الحكم ، أثر حكم بيثاغوروس الذي ما زال منهبه منتشراً في اليونان الكبرى والذي تجعل منه الاسطورة معلّم الملك نوما. ولكن النتف القليلة جداً التي بلغت الينا من مؤلفاته لا تسمح لنا بالفصل في ما دان به هـذا المجدّد للحضارة الهلينية .

سرعة انتشار اللغتين معاً

غير ان بعض الشيوخ الرومانيين ، منـذ هذا العهد ، قـد تكلموا اللغة اليونانية . ولكنهم كانوا عادمي الحذاقة فيها: ففي السنة ٢٨١ استقبل احد الموفدين الرومانيين بسخرية سامعيه حين خاطب سكان طارنتا بلغتهم . ويدل ذلك ، فيما يدل ، على ان المجتمع الراقي ، الذي يغلب انه امتلك عبيداً يونانيين او مستغرقين واستخدمهم « مربين » ، قد شعر بحاجة الى « لغة ثقافـة حين لم يجد في التراث القومي ما يرضي بعض الاذواق ». وما لبث فتح ايطاليا الجنوبية، ثم فتح صقليا بفضل الحرب البونيقية الاولى ، ان زادا سرعة هذه الحركة .

ارتفع عدد العبيد الاجانب ارتفاعاً عظيماً . وأتى رجال أحرار وأقاموا في روما وفتحوا، على غرار المعتقين مدارس علموا تلامذتهم فيها اللغتين اللاتينية واليونانية في آن واحد . فتعين اذ ذاك ، لقرون عديدة ، استخدام اللغتين على كافة العائلات التي فرضت على أبنائها متابعة دروس لا تقف عند حد الدروس الابتدائية . وما كان هذا المثل الأعلى ليبقى اضغاث احلام ، وليس نجاحه الشامل في حقل التربية اقل ما يدعو الى الدهشة في تاريخ روما الثقافي .

منذ اواخر القرن الثالث واوائل القرن الثاني أصبح باستطاعة بعض الرومان العريقين ان يضعوا باللغة اليونانية مؤلفات هامة . فان موفد مجلس الشيوخ الى دلفي بعد معركة « كانا » ،

ك . فابيوس بيكتور ، قد كتب باليونانية « اعمال الرومان » ، وحذا حذوه احد معاصريه : ويبدو ان ما دفعهما الى ذلك ليس حرصهما على تأدية الاكرام الواجب لمهارة المؤرخين اليونانيين التي ما كانت اللغة اللاتينية لتسمح لهما ببلوغها ، بقدر رغبتهما في تعريف الاغريق بماضي مدينة اخذت عظمتها في الامتداد الى عالمهم . ولم ينتظر كاتون نفسه سن الشيخوخة ، على الرغم مما جاء في تقليد معين ، حتى يتعلم لغة شعب بدا له انحطاطه داءاً سارياً : فقد كان في الخامسة والعشرين حين أتاحت له مصادفات الحرب البونيقية الثانية وبطاقات السكن ان يتلقى دروساً في البيثاغورية في طارنتا ، واذا هو امم استخدم ترجماناً خلال جولته الدبلوماسية في اليونان ، فقد تظاهر بالجهل ، كما يوضح بلوتارك ، بدافع من الفطرسة القومية ، وفي العقد الاول من القرن الثاني بدا بطل« سينوسيفال»،تيتوس كوينكتيوس فلامينينوس ، للاغريق كواحد منهم يحادثهم ويداعبهم : وقد حررت ونقشت باليونانية كتابة اهداء التمثال الذى نصب له في روما . وقد نشر والد الاخوين غراكوس خطاباً ألقاه في رودوس باليونانية : ومما يثير الدهشة عدد المفردات اليونانية التي يستعملها حتى الكتاب الذين يوجهون كلامهم لحشد شعبي « كبلوت » مثلاً – وهذا يكفي لاستبعاد المقارنة بينه وبين رونسار – مقتصرين على انهائها وفاقاً للطريقة اللاتينية : ومن حيث ان عامة الشعب المدنيـــة هي في الاصل مختلفة الاجناس وتشترك بفضل حركة المرفأ التجارية ، في حياة اعظم اتساعاً ، فانها قد احتكت باليونانية على الاقل في اختلاطها اليومي بالعبيد والمعتقين .

شعراء العظمة الرومانية الأولون

ولكن غزو اللغة هـــذا ، من حيث هو رافق في الزمان نقل روائع الفن اليوناني بالجملة الى روما ، قد أسفر عن نتائج مختلفة جداً . فبدلاً من ان ينجم عنه استسلام فاتر ، رافقه مجهود واع لتزويد روما بشعر لاتيني . بدا الادب أبسط بوادر النشاط الفكري، لأن اللغة واقع راهن ، ولأنه في متناول الجميع. وقد وفر الشعر ما لم يحسن توفيره النثر المخصص للحاجات التقنية التي لا شأن للفن فيها ، أي شكل التعبير ، وهو أكثر اغراء ، بفضل روابطه بالموسيقى ، وأكثر انطباقاً على حاجات الحيـــاة الدينية والجماعية ، بفضل تسهيلاته التذكيرية . وقد نهض بهذا المجهود الاختياري للتواصل أسمى النبلاء اعتباراً بالاتفاق مع الاجهزة الرسمية . فطلب مجلس الشيوخ قصائد تناسب الظرف خلال الحرب البونيقية الثانية؛ وشجع التمثيليات المسرحية بمضاعفة الالعاب وزيادة مخصصاتها ؛ واجاز إنشاء هيئة من الممثلين والمؤلفين تجتمع في احـــد المعابد . قلما احرزت هذه المشاريع نجاحاً تاماً ، ولكن يجدر بنا حقاً ألا نستهزىء بالنتائج .

لم يكن المؤلفون الاولون من اصل روماني . انتسب باعث الحركة ليفيوس اندرونيكوس (*Livius Andronicus*) الى طارنتا التي جعل منه احتلالها عبداً – في الثامنة من عمره اذا كان المقصود حادثة السنة ٢٨٢ . أصبح مربياً في عائلة من قبيلة (ليفيا) الكبرى وأعتق منذ السنة

٢٤٠ كأبعد حدّ حين أخرج أولى مسرحياته « القانونية » أي المنطوية على مغزى متواصل . وجاء الآخرون ، وهم من الاحرار ، من ايطاليا الجنوبية حيث استساغت الحضارة اليونانية ، منذ امد بعيد ، طبقات بلدية كبيرة . اما نافيوس ، وهو مواطن اشترك في الحرب البونيقية الأولى ، فكان كمبانياً ، وان مطالبته بحرية القول التامة وجرأته في انتقاد العائلات الكبرى التي أدّت به الى السجن ، وربما الى الموت في المنفى ، لا يفسرها تشاغه بمواطنيته الرومانية فحسب : اذ اننا نلمس فيها صدى الفردية اليونانية المتأججة . اما اينيوس الكالابري اخيراً فكان جندياً « حليفاً » في اواخر حرب هنيبعل حين اختاره كاتون وأحضره الى روما حيث حماه شيوخ نافئون : ضمه احدهم الى حاشيته خلال حملة في اليونان واستحصل له ابنه على حق المواطنية . ففتح ، على غرار ليفيوس ، مدرسة يونانيــة – لاتينية في روما . يتضح من ثم ان الحضارة اليونانية انمــا اثرت في نشوء الادب اللاتيني عن طريق رجال طبعتهم الى حدّ بعيد بطابعها الخاص .

أبدى هؤلاء الرجال نشاطاً واسعاً جداً بغية تحقيق نتاج متميز في كل الحقول . فألف كل من الثلاثة في مواضيع شتى : المآسي والمهازل والملاحم وقصائد المناسبات ، لا بل ان اينيوس قد وضع بعض الابحاث الفلسفية . وقد توجب عليهم النسج عــلى منوال الاغريق الذين غالباً مــا اقتصروا على تقليدهم ، لا بل على النقل عنهم كما فعــل ليفيوس اندرونيكوس بصدد الاوديسه (*Odyssée*) . واستوحوا التمثيليات اليونانية ، فاختاروا لمآسيهم احداثاً ميثولوجيــة عالجها أوربيبيد من قبل ، او أي مؤلف يوناني سواه ، وجمعوا احياناً مهزلتين يونانيتين في مهزلة واحدة وفاقاً للطريقة المعروفــة « بالإعداء » . ولم يتردد نافيوس احياناً في إلباس بعض مهازله اسمــاء يونانية صرفة : اكونتيزومينوس *Akontizoménos* « الرجــل المصاب بالنبلة ») أو كولاكس (*Kolax* « المتملّق ») . ولم يتراجع اينيوس ، الذي أهمل الوزن « الساتورني » الممل واعتمد وزناً دونه مقاطع قلّد به وزن الشعر اليوناني ، أمام قصيدة تعليمية ، ورد فيها ان هذه او تلك من الأسماك أو من الأصداف ، لا قيمة لها إلا اذا كان مصدرها هذه او تلك من المدن اليونانية .

مهما يكن من علاقة هؤلاء الشعراء بالحضارة اليونانية ، فإنهم عــلى الرغم من ذلك اعطوا الشعر اللاتيني استقلاله . واينيوس هو الوحيد بينهم الذي وصل الينا منه أكثر من نتف حقيرة : ٦٠٠ بيت شعر من ملحمة بلغت أبياتها ٣٠٠٠٠ . وهو لا يزال فيها متصنعاً ومتلبكاً على الرغم من تقدمه الملموس بالنسبة لسابقيه . فقد كتب : « لم يهتم أحد من قبلي لفن اتقان الكلام » . ولكنه ، على ما يبدو ، افرط في هذا الاهتمام ، بينما هو مــا كان ليستطيع الاعتماد على لغة مرنة وذوق سليم . لذلك فقد برهنوا كلهم عن تردّد وخشونة وصبوة . ولكنهم كلهم كانوا عند حسن ظن الارستوقراطية الحاكمة التي ما كانت لترضى بأن يبقى وطنهــا خالياً من الاناقة الضرورية . فعرفوا كيف ينشئون مسرحاً رومانياً ، حافظ ، على الرغم من اقتباساته عن المسرح اليوناني ،

على بعض التقاليد الايطالية التي كانت من جهة ثانية قد اثرت في المسرح في اليونان الكبرى وصقليا . وحاولوا بنوع خاص معالجة المواضيع القومية. ويبدو ان الأوديسّه نفسها التي نقلها ليفيوس اندرونيكوس – مهملاً الالياذة – قد اختيرت عن قصد لأنها تأتي بأوليس(*l'lysse*) الى ايطاليا ، وتوحي بأنها ملحمة ادرياتيكية لا ايجية . وازداد بروز الناحية القومية في مؤلفات نافيوس . فقد دعيت احدى مآسيه « رومولوس » ؛ وكان موضوعُ مأساة اخرى اسمها كلاستيديوم ، النصر الذي أحرزه الجيش الروماني ، في جوار هذه المدينة ، على الغاليين، حين أقدم القنصل م. كلوديوس مرسلّوس ، في السنة ٢٢٢ ، على قتل الملك(فيردومار) بنفسه . أما ملحمته فهي « الحرب البونيقية » التي تنطلق من« اينه »و«ديدون»، قبل ان تصل الى قصة الحرب الاولى ضد قرطاجة بما فيها المعاهدة النهائية التي وضع نصها شعراً . أما اينيوس فقد عالج مؤلفه المظيم« الحوليات »، (*Annales*)بجمل تاريخ روما بنَفَس ملحمي حقيقي احياناً ، أقله في القسم الأول الذي ينتهي بهزيمة هنيبعل ، بينما يتناول القسم الثاني ، على مر السنين ، الاحداث التي عاصرته .

وهكذا ، خلال ثلاثة ارباع القرن تقريباً ، اي من السنة ٢٤٠ حين اخرج ليفيوس اندرونيكوس مأساته الاولى ، الى السنة ١٦٩ حين توفي اينيوس ، كان مجهود المؤولين المتأثرين بجمال الادب اليوناني آخذاً باعطاء ثماره : أفرغ الفكر الروماني الفخور بماضيه وبتميزه في قوالب لا يمكن ان تقتبس الا عن اليونان لانه لا يمكن تصور قوالب اعظم كمالاً .

بلوت *Plaute* خلال العهد نفسه برز شعراء آخرون، ولكن شاعراً واحداً هو في نظرنا اكثر من مجرد اسم : بلوت ، الذي ولد ومات قبل اينيوس بخمسة عشر سنة تقريباً والذي يجب ان ندرسه على حدة لانه يختلف كل الاختلاف عن السابقين .

نحن هنا امام ايطالي من شمالي روما ينحدر من اصل شعبي على الارجح ويمارس اكثر من مهنة قبل ان يتعاطى المسرح ويتعلم اليونانية اتفاقاً ، كلما سمحت له حياته المضطربة بذلك في الأرجح . الآخرون احرار في التفكير بارضاء وتثقيف جمهور راق . اما هو فلا اعتبار عنده الا للجماهير التي يعرف لغتها وآراءها السائدة وجهلها للدقة العاطفية وغبطتها الفطرية الزاخرة في ايام الاعياد . فهي الجماهير التي اخذ على نفسه اضحاكها معترفاً دون خجل بان المال الذي يدفعه له ملتزم المشاهد يؤمن حياته المادية . ولكنه ، بفعل قربه اليها ، يسر باطلاق العنان لقريحته الشخصية . ولذلك فالمواعظ ليست قسمته ، واذا برز وطنياً يحتقر الاغريق راضياً ، فبدون غطرسة وادعاء وجفاء وتذمر ، بل اقتناعاً منه بواقع تفوق جلي تثبته الانتصارات المتكررة : لا تشغله قط ابهات ماضي روما ولا هموم المستقبل ايضاً . وليس في مؤلفاته ملحمة او مأساة. ولا يريد ان يكون سوى شاعر هزلي، مع انه طرق المأساة – المهزلة مرة واحدة في موضوع مقتبس عن الاسطورة، امفيتريون *Amphitrion* .

قبل ذلك بقرن، طرق سيراكوزي الموضوع نفسه بالطريقة نفسها : لذلك فبلوت لم يكن مجدداً. وهذه هي حاله في تمثيلياته الاخرى ، التي بلغت الينـــا باتفاق هو اشبه بالمعجزة : فمن اصل الاحدى والعشرين تمثيلية التي اعتبرها فارون اصلية في عهد قيصر ، وصلنا عشرون تمثيلية كاملة ونتف من الحادية والعشرين . لا ريب في انه لم يضع النماذج الجـديدة ؛ ولكن يجب الا نأسف لذلك حتى نتمكن من الحكم على بلوت : فهو يتباهى بالانتحال رغبة منه في ارضـــاء مشاهدين شغفين بالتمثيليات التي لا يعرفونها الا بما ذاع عن مرحها ، ونحن نعلم من جهة ثانية انه لا يحجم عن التركيب والتشويه كما يطيب له ذلك . وتسيطر الركاكة ايضاً على عقدة مهـازله التي هي في نظره مجرد لحمة ينسج عليها المشاهد التي تعجبه . واذا كانت افضل « مهزلة جديدة » هلينية قد نوعت درس الامثلة البشرية والسجايا والعواطف ، فان بلوت لا يحفل لهذا الدرس ايضاً . وليس ابطال تمثيلياته سوى دمى متحركة او ادوار مكرسة : شيخ قاس او حليم ، شاب مبذر ، فتاة ذات جاذب ، عبد محتال ، تاجر عبيد وقح وطفيلي ، جندي مجيد ، الخ . الحياة مفقودة فيها ، والناحية الهزليـــة صنعية مبتذلة . ولكن الضحك الجديد ينفجر من المواقف التي تبتكرهـــا وتنوعها مخيلة لا تعرف الملل بجموح طليق من كل وادع لا يخشى التحكم ويثق بتوفير التسلية بالتسلي ، فيكثر من المفاجآت والالتباسات والحركات والسورات في المهزلة . وينفجر كذلك من الكلمات وتصادم الاجوبة البديهية السريعة والدعابات والشراسات الكلاميـة التي تستخدم مفردات لا ينضب لها معين بفضل الاقتباسات المختلفة والمشتقات المضحكة المستنبطة . ويوفر التحريف اخيراً قسماً هاماً – بينما يسحر القسم الآخر بلمعان شعره – من القطع الغنائيـــة المنشدة ، الغزيرة جداً اذ انهـــا تشغل ثلثي التمثيلية احيـــاناً ، التي تمثل تراث المسرح الايطـــالي .

وهكذا فان بلوت ، على غرار شعراء عصره ، يفرغ في قوالب يونانيـــة مادّة رومانية ، ولكنها مادة من طينة أخرى : لا العظمة الارستوقراطية التي تريد ان تسمو بالنفوس حتى تتفوق على نفسها ، بـــل المرح الشعبي الذي يحييه نسغ التربة القادر . ومن المؤسف ان ينتهي الانحدار المادي والاخلاقي في عامة الشعب المدنية والاهتمام لكرامة رسمية الى وضع حدّ ، بعد ذلك ، لهذا الانفجار الطليق المستعذب .

٢ ـ مقاومة الحضارة اليونانية وانتصارها

كاتون والصراع ضد الحضارة اليونانية

ان كاتون نفسه لا يجسّد مثل هذه الحركة إلا بصورة جزئيـــة ، زائلة ، وغير حاسمة على كل حال. اجل يجب ان يحسب حساب لبلاغته حيث لا يعوز حدّة المعنى ، في المبنى ، لا الافتان ولا الجرأة : عشرون سنة فقط تفصل ولادته عن ولادة بلوت ، واننا لنجد في بعض نبرات قريحته الساخرة « الرجل الجديد » المنحدر من طبقة الفلاحين ، ان لم يكن من طبقة الكادحين . ولكن التبدل الحاصل تبدّل في

الفكر المتصلب تصلباً يائساً في صراعه دفاعاً عن مفهوم قديم – لا بل ضيّق -- الحضارة الرومانية والحضارة الايطالية في الوقت الذي برز امامها المزيد من الامكانات لكي تطلا على بشرية ارحب .

ان هذا الانسان يفضل الدور الذي يريد ان يلعبه : ولا تتوصل خشونته المصطنعة الى اخفاء ثقافته . ووراء دوره الاجتماعي وقيمته كمثل اجتماعي اللذين اضطررنا للالماح اليهما اكثر من مرة، يجدر بنا انلا نصغّره لا على الصعيد الفكري ولا على الصعيد الأدبي. وليس كونه اقدم ناثر لاتيني وصلت الينا بعض آثاره ما يسترعي الاهتمام فيه، ولا يمكن من جهة ثانية ان يكون الاهتمام له من هذه الزاوية الا نتيجة مقارنته بمن سبقوه ، وهذا امر مستحيل . ولكن غرابته عظيمة ومؤلفاته اعظم . حرص على الديمومة بشهرته وعمله وعرف ان المناقشات السياسية لا تؤمّنها ، فصمم على الكتابة وكتب ونشر دون كلل. ليس من لون ذي شأن الا وطرقه : خطب وادب وتاريخ وحِكم وقانون وفن عسكري واقتصاد ريفي . وقد جدد معالم هذه الالوان احياناً ، كما فعل في التاريخ الذي طارد فيه غطرسة الاشراف حتى انه لم يذكر في « الاصول » اسماً علماً غير اسم احد فيلة بيروس ، والذي وسع آفاق دراسته فتخطى روما الى ماضي المدن الايطالية . والشعر في نظره تبلد ؛ ولكنه اكتشف اينيوس ، ولم ينتقد الا في عهد متأخر جداً، الحماية ، النفعية في نظره ، التي احاطه بها نبلاء يكرهم . وقد استسلم عند الحاجة الى الصنعة الفنية ولكنه حاول اخفاءها جهد المستطاع . وهو قد آثر في كل ذلك الظاهر الخشن على الواقع .

ولكن انى لنا ان ننسى انه يوجه الى الفكر الاجنبي ، اي اليوناني ، تهماً واحقاداً تعميه ؟ فهو لم يرض سوى مرة واحدة بالتمييز بين الاطلاع المفيد على ادب الاغريق الذي قد ينطوي على اشياء ممتازة وبين درسه المتعمق المضر . امطر بلوائحه الشنيعة كافة امجادهم : سقراطهم ، الفصيح الثرثار الفاسد ؛ وايزقراطهم ، التافه ؛ واطباؤهم السفاحون الحلفون لتقتيل جميع « البرابرة » ، الذين لم تعوزهم الحيلة لايجاد الثقة في حمل المرضى على دفع اجورهم . ان في مثل هذه المبالغات مثاراً القلق في كل نفس .

كان النجاح حليف الحركة التي جسدها ، في فترات قصيرة ، ضد الفلاسفة وعلماء البيان الذين يلقون دروساً غوغائية ، ولا سيما ضد الابيقوريين ، الذين تمنى احدهم ، فابريكيوس – فابريكيوس روسو – منذ اوائل القرن الثالث ، لو ان مذهب « اللذة » يستهوي اعداء روما دون غيرهم : في السنة ١٧٣ اقصي اثنان من ممثلي هذه الطائفة . وبعد ذلك باثنتي عشرة سنة اتخذ تدبير مماثل بحق جميع الباقين بتهمة تعلم مبادىء نظرية وعملية تسيء الى المبادىء الاخلاقية التي يرتكز اليها بناء الدولة . ولكن جاء غيرهم ، حتى من برغاموس واثينا احياناً ، بصفة موفدين : فاستفادوا من الانتظار الذي يفرض عليهم والقوا المحاضرات . ويعود اشهر حادث

من هذا النوع الى السنة ١٥٥ حين اوفد الاثينيون ، على جناح السرعـــة ، الى مجلس الشيوخ ، رؤساء المدارس الفلسفية الثلاث الرئيسية ، الرواق والكلية والأكاديميا . فكان ان مثل هـذه الاخيرة بنوع خاص ، وهو كرنياد ، قد سحر مستمعيه بالرشاقة الجريئة التي اتصف بهـا جدله غيرَ الحافل بالآراء السائدة والقادر على الدفاع ، على التوالي ، عن نظريات متناقضـة . حينذاك استصرخ كاتون الناس على الفضيحة وحث مجلس الشيوخ على الفصل سريعاً في القضية الدبلوماسية ، « حتى يعود الموفدون الى مدارسهم ويناقشوا ابناء الاغريق ، وحتى يخضع ابناء الرومان ، كما في الماضي ، الشرائع والقضاة » . يتضح من ذلك وجه الخـــلاف : ترويض الفكر الفردي ويقظة الروح النقدية هنـا وقبول الانظمة التقليدية ككل وكعقيدة هنالك . وهو لا يختلف في الحقيقة عن المسألة التي أثارها في وجه الاغريق ، في القرن الخامس ، تعليم السفسطيين . وهي مسألة حاضرة ابداً يجيب عليها كل منا على طريقته الخاصة . ولكن هـــل يحق لأولئك الذين ترفعهم هذه الأنظمة الى السلطة وتثبتهم فيها ان يفصلوا في هـذه المسألة باسم المواطنين ؟ ومن يجرؤ على الجزم بان رومان ذاك العهد قد بلغوا التقدم الذي يتيح لهم طرح هذه المسألة على انفسهم ؟

ندوات الثقافة اليونانية في القرن الثاني

غير ان النظام المجلسي اعجز من ان يقدم على تنظيم حيـــاة المواطنين الخاصة ، اذ ان من توفرت لديهم الوسائل المادية كانوا مطلقي الحرية في السعي وراء كل اناقة فكرية . فقد راجت رواجاً لم يسبقه نظير سوق « المهذبين » اليونانيين ، واخذ اوسع النبلاء نفوذاً ، ممن تفرض عليهم وظائفهم الاسفار المتكررة الى الشرق والاقامة فيه ، يستميلون رجال الفكر من الاغريق ويستقبلونهم في منازلهم الرومانية استقبالاً ودياً ضنوا به على الفنانين الذين لم يميزوا بينهم وبين الصناعيين تمييزاً واضحاً .

تألفت من ثم عدة ندوات للثقافة اليونانية في الارجح . فكان هنالك ندوة في كنف الاخوين غراكوس ، وليس اقل ما يميزها الدور الذي لعبته فيها امرأة ، هي والدتها كورنيليا ، الراغبة في ان تؤمن لابنيها ، بعد ان اصبحت مسؤولة عنهما بفعل إرمالها المبكر ، خير تربيـة وتفتح صفات الرجولة فيهما . فبرزت ردة فعل محافظة عنيفة ضد بعض الأغريق ممن نسب لهم اعداؤهم تأثيراً مشؤوماً : فاعدم احد علماء البيان وطيباريوس وابعد فيلسوف رواقي .

وتنبئنا المصادر القديمة ، لا سيما بوليب وشيشرون ، بوجود مـا اتفق على تسميته بـ « ندوة شيبيون اميليانوس » . احاط والد هـــذا الاخير ، بولس ـ اميليوس ، طفولته وفتوته بمعلمين يونانيين وكتب يونانية ، ولم يحتفظ لنفسه من المغانم التي اسقطها في يديه القضاء على الملكيـــة المقدونية ، سوى بمكتبة الملك « برسيه » بغية اهدائها ابناءه . وبعد مرور سنوات عدة ، صادق الشاب بوليب الذي كان قد نفي الى ايطاليا وابقي فيها سبعة عشر سنة مـع غيره من الآخيين . وعاش معه حياة حميمة كانت جزيلة النفع لكليهما ؛ فدان بوليب له بسهولة الانتقـــال وسهولة

الاستطلاع اللتين اتاحتا له تصميم وتحرير « تواريخه »، بينما استفاد شيبيون من خبرة صديقه العسكرية ومن ثقافته الفلسفية .وبعد ذلك بزمن استُقبل الفيلسوف باناييتيوس الرودسي، بجدد الرواقية، بدوره، في بطانة ذلك الذي سينتصر على قرطاجة ونومانس . وقد اشترك في احاديثهما رومانيون عديدون، اقارب واصدقاء ينتسبون الى العائلات الكبرى، ممن يتدرجون في « سلم الامجاد » . وكي لا نحصيهم كلهم نقتصر على ذكر كايوس لاليوس وسبوريوس موميوس ـ سبق لنا وتكلمنا عن اخيه ـ الذي يكفي وجوده في هذه الجمعية لالقاء الشبهة على سمعة الفظاظة التي الصقت بهادم كورنثوس . هؤلاء الرومان هم الذين يطيب لشيشرون نسبة الحوار اليهم في مؤلفاته الفلسفية، واذا هو لم يهتم، في ما يعنينا، للأمانة في التاريخ، فانه يعيد امام اعيننا جواً واقعياً لثقافة رفيعة ورقيقة . اضف الى ذلك ان هذه الندوة قد نادت الى حد بعيد بمبدأ الاختيارية الاجتماعية وبسطت حمايتها على احد المعتقين، هو الشاعر تيرنس، فانتشرت شائعات – لنتذكر هنا النظريات العصرية المماثلة في موضوع شكسبير – عزت الى شيبيون ولاليوس ابوة مهازله : ترهات لا قيمة لها لعمري، ولكنها قد تكون مستوحاة من بعض النصائح المعطاة في اطار ضيق .

ينتشر حتى اليوم سحر اخاذ من مثل هذه الندوات التي يجتمع فيها عظماء هذا العالم تسهيلاً لاحتكاك الآراء وبحثاً عن بهجات الفكر . ولكن يجب ان لا نتجاهل خطرها الذي تعرضت له الارستوقراطية الرومانية في القرن الثاني لاسيما وان الثقافة التي تهلل لها ثقافة اجنبية . فخطرها كامن في التنكر لميزة الخلق القومي والانقطاع عن القوى التي تنعش الشعب وتفجر فيه حياة خالصة طبيعية دائمة الجدة. اضر التصدع بالشعب لانه حرمه من عضد فكري كان على النخبة ان تؤمنه له . وقد اضر بالنخبة ايضاً لانه قادها الى البرودة والكلفة .

أدب الثقافة اليونانية

ان هذه الندوات لم تبلغ هذه المرحلة بعد، أو ان المصادر لا تقدم الدلائل الواضحة على ذلك . ولكن الادب اللاتيني، على أي حال، لم يفِ آنذاك بالوعود التي قطعها في اوائل القرن الثاني .

كان من بعض نبلاء الرومان، كبولس كورنيليوس شيبيون، ابن الافريقي ووالد اميليانوس بالتبني، ان ذهبوا بالمغالطة، الى الكتابة باليونانية . فوضعوا بنوع خاص كتباً تاريخية و « حوليات »، وكان فابيوس بيكتور أول من أعطى المثل . ولكن السبب الذي دفعه الى ذلك قد زال منذ زمن بعيد، وكان الظرف مؤاتياً لقريحة كاتون التي لا ترحم، فثار على واحد منهم لم يكتف بمثل هذا المقصد الغريب، بل شعر بحاجة لطلب المعذرة عن خرقه؛ فقد بلغ من هؤلاء الرومان انهم اعتقدوا بأن التاريخ الذي ابتكره الاغريق وأشهروه لا يمكن ان يكتب إلا بلغتهم : لم يعتبروا ان النثر اللاتيني قد بلغ النضج اللازم، ولم يثقوا، في سرد الاحداث الرومانية، إلا بمرونة الأداة التي استخدمها معلمون أثاروا اعجابهم .

بيد ان بعض مؤرخي الحوليات ، قد كتبوا ، منذ هذا العهد ، باللاتينية ، وبديهي ان هذه اللغـــة كانت لغة الخطباء . فقد جمعت ونشرت خطب عديدة سعياً وراء الشهرة الأدبيـة والدعاوة ، لا سيا منذ الأخوين غراكوس اللذين وسع عملها حقـل المنازعات السياسية وزاد في حدّتها . لم يصل الينا أي نص كامل ، ولا نستطيع ابداء رأينا في هذه البلاغة إلا بما نقل عنها فقط أو ببعض مقتطعات ، أهمها ما بلغ الينـــا من كايوس غراكوس . تبدو فيها البلاغة ، على الطريقة اليونانية ، على شيء من تحريك النفس المصطنع والغليظ . ولكن طيباريوس غراكوس، على الرغم من الحرارة التي تجيش فيه ، قد أدرك قيمة صحة اللغـة والاعتدال كما أدرك أخوه ، المتفوق عليه تأثيراً ، قيمة الإيقاع. وهكذا نشأت الفصاحة اللاتينية كعـلم وفن ، بفقدان بعض بداهتها ونضارتها .

لم يقض تقدم النثر على تفوق الشعر . حاد هذا الأخير عن الملحمة وانكبّ عـلى المسرح بنوع خاص. وما فتىء ازدياد الألعاب يحمل على طلب عظيم جداً على الرغم من اعادةالتمثيليات مراراً ، فكانت النتيجة نتاجاً وافراً في المآسي والمهازل . وهنا خصوصاً ، يبرز تيـار الثقافة اليونانية بقوّة .

أعار النقاد القدمـاء ، شعراء المآسي اهتماماً كبيراً آنذاك . أمـــا نحن فلا نعرفهم إلا بالمقتطعات التي وصلت الينـا منهم ، ونرى خصوصاً انهم ولعوا بسعة الاطلاع وبالكلاسيكية الصافية ، فتوجهوا آنذاك الى سوفوكليس واسشيل مفضلينها على أوريبيد . وعلى نقيض ذلك، فقد بلغت الينا المهازل الست الوحيدة التي ألّفهـــا تيرنس العبد الافريقي المعتق – من أصل قرطاجي لا نوميدي على الأرجح – الذي أدركته المنية قبل سن الثلاثين : فهي تنطوي عـلى صفات وسيئات الالمام المراقب وتمّ عن اتصال حصري بالأدب الأجنبي .

ولد تيرنس حين توفي بلوت . وبين هذا وذاك عالم حضارة منظمة وموسّعة ومصمّدة . فعلى غرار بلوت ، اقتبس تيرنس عن المهزلة الجديدة الهلينية ، لا سيا عن ميناندروس والسائرين على خطاه ، مواضيع تمثيلياته التي احتفظ بأسمائها . ولكنه ، شأن الذين نقـل عنهم ، يتوفق الى تصور عقدة محكـــة متماسكة . يعرض عن المشاهد التحكية والفواصل الموسيقية . فينتقل من المداعبة الى المهزلة التي تسيطر الوحدة على مختلف مشاهدها . واذا ما حافظ على أمثـلة الأبطال التقليديين ، فانه يعرف كيف ينوعها ، وقـــد ينجح في طبعها بطابع مميز أحياناً اذا أحسن فحص الطبـــاع . ويتفق التحليل السيكولوجي ، الدقيق والمؤثر ، عند الشعراء اليونانيين ، ونزعاته الخاصة : فهو يعتمده ويتوسع فيه ويدخل عليه مفارقات قد تكون شخصية . فهـــل يعني ذلك انه يتسامى فوق ما تسامى اليه بلوت من حقيقة ؟ نعم ، اذا كان المقصود حقيقة عامة أو مجردة ، اذا صح التعبير . اما اذا كان المقصود حقيقة رومانية فيختلف الأمر . يعوزه فتنـة المشاهدة بأم العين : وهو لا يدعي ذلك على كل حال ، اذ ان روايته تدور فصولهـا في البلدان

اليونانية التي رآها للمرة الاولى حين توفي فيها . أما بصدد مراقبة الاخلاق ، فان اتجـاه تفكيره يحمله على ان يرى التفاهة بدلاً من حمله على الاستشاطة غيظـــاً . ان فهمه اوسع من ان لا يعذر ويغضي . وأفضل مـــا يصفه جملة يضيّق النص صداها ولكن طاب للقدمـاء ان يوردوها منفصولة عن النص ويحملوها بمثابة مجاهرة بعقيدة ايمانية : « أنا انسـان ولا شيء في نظري ، ممـا هو بشري ، بغريب عني » .

كثير من الاناقة اذن : وربما مزيد من الاناقة المفرطة في الارستوقراطية ، مع مزيد من الدقة والفكر الواعيين . ولا تلاحظ هذه الرقة إلا عند القراء ، اذ ان وحدة المنوال ، على المسرح ، تخفيها . فلا عجب من ثم اذا تذوقت الجماهير الرومانية هذه الميزة ، بينما هي طالبـة ضحك ، دونما اهتمام للنوع . فان « الحمـــاة » (*L'Hécyre*) قد أخلت المسرح مرتين قبل ان تحظى بالاصغاء حتى النهاية : في المرة الاولى اعلن عن مصارعة ورقص على الحبـال ، وفي المرة الثانية عن معركة بين مسايفين . هذه اماليح ، حقاً ، ولكنها ستؤدي الى نتيجة لأن لهـــا مغزاها . فالمسرح الروماني سيزول منذ اواخر القرن الثاني وستخلفه كل المشاهد الاخرى : أفليس مرّد ذلك الى انه لم يعرف كيف يسمو باولئك الذين اسندت اليه مهمة التوجه اليهم دون ان ينزل هو نفسه الى مستواهم ؟ فالمسرح الاثيني لم يقطع الأشواط بسرعة قبل ان يثقف مشاهديه .

نشوء الهجـاء :
لوسيليوس (*Lucilius*)

لم يكتب لوسيليوس للمسرح ؛ ولكنه ، لو فعل ، ربما خدمت صفاته المهزلة . واذا ما انتمى هو ايضاً الى ندوة شيبيون اميليانوس ، فانه قد عاش قرابة ثلاثين سنة بعد انفراط عقدها ، ولعل استقلاله البارز ، مع انه يوفق بينه وبين احترامه الفائق لصديقه الشهير ، قد ازداد عزة بفعل هذا الفاصل الزمني. ومهما يكن من الامر ، فبدون قدوات يونانية هذه المرة ، اقله من حيث المبنى ، قد اوجد لوناً جديداً هو الهجاء . وسيقول كوينتليانوس : « انه روماني بكليته » . وفي الواقـــع ، اذا لم تكن السخرية وقفاً على شعب واحد ، فان تخصيص القصائد لها امر مميز ويتجلى الخلق القومي في الواقعية الطبيعية والأدبية التي كانت منذ البدء دستور هذه القصائد.

ان تيـــار الثقافة اليونانية ، الذي يهزأ بعاداته الغريبة المستهجنة ، لا يظهر الا في لغـــة لوسيليوس . اما ما تبقى فتسيطر عليه قريحة سليمة صادقـــة ، لا تتردد في ذكر اسماء الاعلام وتبرهن عن قوة عظيمة في وصف الطبائع التي تحيا حياة حسية ، عاكسة عهدها وبيئتها وكيانها الباطن . وهي تعتمد في إثارة الضحك ، وغالباً ما تمزح عن قصد ، وتداعب احيـــاناً . وتتحلى بالاساطير والامثال والنوادر والحوار . ويفوت مؤرخ المجتمع شيء كثير اذا هو لم يتمكن من قراءة كل ما ألفه لوسيليوس ؛ ومؤرخ الادب ايضـــاً ، اذ ان الادب مدين له ، على الرغم من النقد الذي وجهه اليه هوراتيوس ، بسلسلة طويلة وجيدة من الهجاء الروماني .

٣ - تفتح الأدب اللاتيني

انطلاقة القرن الثاني

يكفي مثل لوسيليوس للدلالة على ان اخذ النخبة بالثقافة اليونانية لم يستنزف ينابيع العبقرية الرومانية . واذا استمر القرن الثاني على جانب من الجدب بوجه عام فانه قد حضر ازهرار القرن الاول الذي يوافق ، قبل اوغسطوس ، اوائل الكلاسيكية باكثر من نصف قرن . فقد ساعد هذا الاستغراق على خلق لغة متينة ومرنة معاً لا يشوبها سوى انفصالها عن اللغة الشعبية الذي يحول دون التجديدات والزيادات التلقائيـــة . ووفر الناثر جملة جديرة بان تفرغ في قالب فكره وان تقيس التأثير الذي يريد احـداثه . وعلم الشاعر بعض اسرار وزن الشعر العلمي . وادخل الشعور على النفوس بان سلخ عنها قسوتها الاولى وبان حثها على تحليل احساساتها ان لم يكن بعد قد حثهـــا على العطف على احساسات النفوس الاخرى . وفتح الاذهان يجعلها تلج معرفـــة كدستها حضارة عرفت كيف تعمـل للانسانيـــة جمعاء . انتهت قرون التمرين : فالادوات والمواد والطرائق ، كل شيء اصبح جاهزاً او كاد يصبح جاهزاً .

فليست ساحات القتال ، من ثم ، الحقل الوحيد الذي تستطيع روما فيه ان تدعي بانهـــا وريثة الحضارة اليونانية : فان عدد الرومان الذين يطمعون في متابعة عمل هذه الحضـارة يزداد باطراد . اما عامة الشعب المدنية ، المتروكة وشؤونها ، فقد احتفظت بلامبالاتها ، وبعدائهـا احياناً . ولكن الاثراء يفضي ، في وطن يتسع يوماً فيوماً ، الى انتشار بورجوازية رافق رقيهـا الثقافي رقيهـــا المادي وايده تأييداً . واذا ما استمر تأليف النـدوات ، فهي لم تعـــد تحتكر الشغف الفكري الذي يتسرب الى طبقات اخرى غير ارستوقراطيـــة ويجد فيها اتباعاً جدداً متحمسين .

لا شأن للمنازعات التي مزقت روما حينذاك: فهي اقل حدة من تلك التي مزقت العـــالم اليوناني فيما مضى دون شلّ انطلاقة حضارته . اجل ليس من روماني خليق بهذا الاسم يستطيع اهمال الشؤون العامة : فلن يبرز الميل الى الابراج العاجية الا في عهـــد لاحق . ولكن النشاط المقيد للمدينة (*Negotium*) لا يتنافى ونشاط الفكر الذي يشرّف وقت الفراغ ويبرره. ولد الرجال الذين اعطوا روما ، للمرة الاولى ، الزينة الفكرية التي اعتبرها الجميع ضرورية لمجدها ، بعد ان انفجرت الاضطرابات—البكر ، فارون، في السنة ١١٦ ، واخواه التوأمان ، سالوستوس وكاتولوس ، في السنة ٨٧ — وعاشوا في جو اضطرابات اشد حدة لعب فيهـا قيصر وشيشرون اعظم الادوار نشاطاً .

وليس من قبيل المصادفة ، عندما انتهت السلطة الى ايدي حاكم فرد ، ان يغدو هذا الاخير، وهو قيصر ، سيد الفكر والادب في عهـــده وادهى سياسيه وانبغ قواده . وليس من قبيل المصادفة كذلك ان يستخدم دكتاتوريته لمحاولة نشر ثقافة يبدو له الانسان بدونها وكأنه يخون

الرسالة التي تحددهـا له مواهبه . فيكفيه ان ينقطع الشخص ، ببعض الجدارة ، الى « الفنون الحرة » في روما لتبرير حصوله على حق المواطنية : انها لمكافأة عادلة للخدمات المؤداة ، وطعم ممتاز لاستمالة الذين قد يكونون قادرين على تأدية مثلها . وكذلك فأنه قد انشأ في ملحقـات الفوروم الجديد المكتبة العمومية الاولى في المدينة . فشق بذلك طريقـاً لن يتوانى احد من الاباطرة عن السير فيها على خطاه؛ اجل لقد كان اكثر قناعـة من الملوك الهلينيين في عواصمهم واكثر قناعة ايضاً منه في حقلي التجميل والفن ، ولكنه نقل الى رومـا مفهوماً تجهله هو المفهوم الهليني لواجبات الجماعة وواجبات من يحـددها حيال شؤون الفكر .

الجمـود العلمي

بقي تفتح روما الفكري متفاوتاً على الرغم من اتساعه . واذا مـا ظهرت بعض التأخرات الزمانية ، فهناك تأخرات اخرى لم يتوصل الفكر الرومـاني الى التعويض عنها ، لا بل لم يحاول ذلك في يوم من الأيام .

ان هذا الجمود يلفت الانظار في الحقل العلمي بنوع خاص . فليس في روما من علماء طبيعة ورياضيين . ونادرون جداً اولئك الذين اعاروا علم الفلك اهتمامهم : وليس من الجسارة الافتراض بان البحثين ، او الابحاث الثلاثة التي روي عن نشرها تقتصر على نقل المؤلفات اليونانية . وقـد لجأت روما الى الاقتباسات حتى في التطبيقات العمليـة . ففي السنة ٢٦٣ وضعت في الفوروم ساعة شمسية ؛ ولكنهم لم يضعوا ساعة اخرى ضبط عليها خطا الطول والعرض لرومـا الا في السنة ١٦٤ . واذا سارت روزنامات اخرى كثيرة على الاشهر القمرية ، اسوة بالروزنامـة الرومانية ، فقد اتاحت بعض الانظمة القانونية اصلاح اخطائها عن طريق اضافة يوم الى السنة . اما في روما ، فان اقرار الاشهر الاضافية كان منوطاً بهيئة الاحبار الذين ادى جهلهم ووساوسهم الدينية وحتى تحزبهم السياسي احياناً – اذ ان القرار المتخذ يطيل او يقصر السنة ، وبالتـالي مدة سلطات القضاة – الى اضطرابات خطيرة : فقد بلغ التقدم على الشمس لربعة اشهر في السنة ١٩٠ ، وستة واربعين يوماً حتى في السنة ٤٦ ، وقد تخللت هذين الاصلاحين تغييرات اخرى تثير صعوبات مؤلمة في وجه المؤرخين المعاصرين .

حينئذ ، واخيراً ، جاء قيصر ، أو بالأحرى ، جـاء من مصر ، حيث أتاحت له اقامته بالقرب من كليوباترا الوقوف على النجاحات التي حققها العلم اليوناني ، بفضل ملاحظات الشرقيين الألفية ، علماء اسكندريون كان اوسعهم شهرة سوسيجينيس (*Sôsigénès*) . فطرد الدكتاتور الوساوس التقوية وفرض منذ السنة ٤٥ الروزنامة « الجولية » الشمسية التي كانت تحدد السنة بثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع اليوم . وهنالك تفصيل اضافي يلقي نوراً فاضحاً عـلى جهل الرسميين في روما آنذاك : لـمـا كان قيصر قد مات منذ السنة ٤٤ دون ان يتمكن من اجراء رقابة شخصية عـلى القرار القاضي بتمييز السنة « الكبيس » الاولى ، أساء الأحبار تفسير نص قراره فعينوا في البداية اليوم الثلاثمائة والسادس والستين كل ثلاث سنوات؛ ولم يُصلح خطؤهم إلا بعد مرور اثلتين وخمسين سنة .

على الرغم من النقص الذي انطوى عليه اصلاح قيصر حينذاك ، اذ أن البابا غريغوريوس الثالث عشر قد اضطر لاعادة النظر فيه ، فانه قد اثبت ابعد نتائج علم ذاك العهد تقدماً . ولكن هذا العلم كان اسكندرياً . فقد اقتصر فضل روما ، في ما يعنينا ، على اعتماد احدى هذه النتائج العملية اولاً وعلى تعميم استخدامها ، بفضل شمول امبراطوريتها . وجدير بنا ان نقدر هذا الدور حق قدره ، لا بل جدير بنا ان لا نخشى من اعطائه قيمة الرمز : اذا كانت روما قد نقلت الى البشرية جمعاء ما توصل الاغريق الى اكتشافه ، فان الطريق المختصرة تنطوي على حقيقة مؤثرة ايضاً . ومما يزيد في ملاءمة المثل ان حضارة شرقية قديمة قد اسهمت في العمل المشترك بتقديمها المواد الاولى . ولكن الحقيقة ، على الصعيد الفكري ، هي ان اسهام الاغريق قد استظهر على كل اسهام آخر .

أما الطب ، وهو التعليم الآخر الذي تلقى الاغريق من الشرق مبادئه الأولى التي حاولوا تنظيمها كعلم ، فلم يقف الرومان منه موقفاً مختلفاً . فما قام بينهم حينذاك عالم بأصول هذا العلم ، واذا وجد ممارسون بلديون – يكفي ان يعلن كاتون عن الحذر الذي يوحيه اليه اطباء الاغريق حتى يحكم على استدعاء كل طبيب – فلا يمكن ان يكونوا إلا جهالاً . وباستطاعتنا التكهن بمستوى خرافات الجماهير ، عندما نرى كاتون، في بحثه عن الاقتصاد الريفي ، يبدي النصائح ويصف الصيغ السحرية ويتوسع في فضائل الملفوف الذي يقي من كل الأمراض ويشفي من كل الجروح والدمامل ، الخ .. فكيف يعرض الناس عن اطباء الاغريق الذين أموا روما بعدد كبير بغية ممارسة فنهم فيها ؟ ثم برز جرّاح قبيل الحرب البونيقية الثانية ، فعرف في البداية نجاحاً كبيراً : حصل على حق المواطنية ، وابتاعت له الخزانة العامة بيتاً كي يقيم فيه . وزالت بعد ذلك شهرته ، لأن قسوته في « القطع » و « الاحراق » قد اعتبرت مفرطة . فاقتضى ، هنا ايضاً ، انتظار قيصر حتى تدرك الدولة واجبها : انعم الدكتاتور بصفة المواطن على كافة الاطباء الممارسين في روما وكل من يجتذبهم مثل هؤلاء الاطباء اليها .

النزعة الى العلم الواسع والمعارف المتنوعة والقانون

استسهل الرومان المهام التي وافقت واقعيتهم القريبة ، بفعل طابع أقل خطراً ارتدته طرائقهم ، والنتائج المرتقبة منها . ويمكن استخدام التعبير « علم واسع » لجمع هذه المهام : فهو يقابل ، في مفهومه العريض ، أقله ميلاً فكرياً ، أعني به ذلك الميل الى الابحاث الدقيقة حيث يتوفق الجدل احياناً الى بلوغ نتيجة ثابتة . واذا ما اقترن هذا الميل بميل موازٍ يتناول المعارف المتنوعة والتربية معاً ، بغية عرض المعلومات المكتسبة عرضاً واضحاً ومنظماً – ان مسائل التربية و « المتاع المفيد » التي سبق وتسلطت على عقل كاتون ، ستجد أبداً رومانيين حريصين على درسها ، مما ينسجم كل الانسجام ودور روما التاريخي في التكييف والتعلم – فانه لا يبقى دون فعالية منذ العهد الجمهوري . بيد انه يجدر بنا ، بعد الاشارة الى هذه القدّرات القومية نوعاً ما ، ان لا نقلل من شأن العضد الذي استطاع البحاثون الرومان اكتشافه في العمل الذي انجزه قبلهم ، في المعنى نفسه ، العلماء الواسو الاطلاع والمتنوعو المعارف في العالم الهليني . وان

هذا العمل الذي أفضى الى نتائج عظيمة ، لم ينقطع في المراكز الشرقية الكبرى ، حيث اعطى بحاثون لا يعرفون الكلل ، من امثـال أمين مكتبة برغاموس ، كراتيس ، الذي اوفده الملك أطال الثاني سفيراً الى رومـا حيث طرأ عليه طارىء أطال اقامته فاستفاد منهـا لالقاء المحاضرات ، ومن امثـال الاسكندري ديديموس « *Chalkentere* » ايضاً ، امثلة حية أسرع الرومان الى الاقتداء بها . وكان فضل هؤلاء الاكبر في توجيه مجهودهم شطر الشؤون الرومانية .

أدى لهم خدمة جلّى أمرٌ أصدره الحبر الاعظم بوبليوس موسيوس سكيفولا في أواخر القرن الثاني بنشر « الحوليات العظيمة » حيث دوّن الاحبار حتى ذاك العهـد ، سنة فسنة ، الاحداث الرئيسية ، في نظره ، في الحياة الرومانية. ولكن ما هي نسبة ضبط اعادة جمع هذه الحوليات التي أدركتها النيران في السنة ١٤٨ ؟ مهما يكن من الامر ، فان مجموعة احداث ، دينية في الدرجة الاولى ، وسياسية وحتى اقتصادية ايضاً – اسعار الحنطة مثلاً – وضعت ، على هذه الصورة ، تحت تصرف البحاثين . وكان باستطاعة هؤلاء ايضاً اللجوء الى لوائح القضاة وتقاليد العائلات الشريفة التي يشتبه بها على كل حال .

نهض بعمل البحث هذا رجال كثيرون ، وقد حفظت لنا المصادر القديمة أكثر من اسم. ومن التفه وعدم الجدوى احصاؤهم لا سيا وان شيئاً لم يبلغ الينا من نتاجهم تقريباً . فأجدر بنا بالتالي ان نقتصر على اقلهم تمقيداً وأعظمهم شأناً ، أعني به فارون . فقد عمّر طويلاً ، مناهزاً الثمين وبلغ من ذيوع شهرته ان مبادئه الجمهورية المحافظة لم تمنع قيصر من اختياره لادارة المكتبة العامة التي أسسها . وفي الواقع ان اتساع وتنوّع اعماله وشغفه شبه الشامل وانتاجه الخصب النادر – ٧٤ مؤلفاً في ٦٢٠ كتاباً – قد بررا هذه الشهرة . انكب على الادب الصافي ، ربما في شبابه خصوصاً ، فكتب ١٥٠ كتاباً في الاهاجي المينيبية [1] حيث مزج النثر والشعر ، ومزج كذلك السخرية والتحريف الهزلي والتفكير الرصين والادب الشعبي والنقد الادبي . واهتم اللغة والادب اللاتينيين فكان نحوياً ولغوياً ومؤرخاً للشعر المسرحي . وكان مؤرخاً لماضي روما في مؤلفات عديدة لا سيا الواحد وأربعين كتاباً في « الآثار البشرية والدينية » ، ذلك المرجع الزاخر الذي انتهلت منه دونما انقطاع الأجيال اللاحقة . وألّف موجزاً تربوياً تضمن كل ما يجب ان يدخل في التربية الجيدة . وجعل من نفسه اخيراً ، في سن متقدمة ، عالماً في أصول الزراعة والاقتصاد الريفي في كتابه « شؤون الريف » الذي جاء نشره موافقاً لفرجيل مؤلف « الجيورجيات » حول اعمال الزراعة وتربية المواشي.لم يبق اليوم من هذا الانتاج الضخم سوى الحطام. «فالشؤون الريفية » وحده وصل الينا كاملاً ؛ ولا يمكن، بالاضافة اليه ، الحكم على فارون إلا بواسطة بعض الفصول الملأى بالنواقص من بحثه في « اللغة اللاتينية » وبواسطة بعض النتف التي ينتسب اوفرها

---

(١) نسبة الى الفيلسوف اليوناني مينيب *Ménipe* ، وهو من اتباع المذهب الكلبي ، الذي اعتمد في لواذعه اشعاراً مختلفة الاوزان في القصيدة الواحدة .

الى « الآثار » . اجل نحن لا نلمس عنده مزيداً من التوقد . ولا يعني ذلك انه افتقر الى الذكاء النقدي والعقل الرشيد وحتى النزاهة الفكرية . ولكن أنى له ، حتى بمساعدة كتبة يرجح انه لم يستغن عنهم ، الوقت الضروري لأن يراقب ابداً التقاليد التي جمعهـا ويُغذي فكراً متميزاً حقاً ؟ ومهما يكن من الأمر ، فان الرجل الذي استطاع انجاز مثل هـذا العمل ، غير زاهد في تقلبات زمانه ، يفرض الاحترام .

يمكننا دون تحكم ان نضع ، في جوار الحركة التي نهض بها فارون ، الابحـاث العديدة التي كرست في القرنين الثاني والاول للحق الخاص والحق العـام : دروس وتعليقات مرتكزة الى تفسير النصوص ، لا سيما نص شريعة الاثنتي عشرة لوحة ، والى التاريخ . وقد اعتبر رجـالات روما الاول وضع مثل هذه الابحاث عمـلاً مجيداً . ونذكر على سبيل المثال حبرين اعظمين ، «ب.موسيوس سكافولا» الذي نشر الحوليات الحبرية، وابنه كوينتوس، واضع مؤلف ضخم اعتبر اساسياً لمدة طويلة لانه المؤلف الاول الذي عني بتوزيع مادة الحق المدني وفاقاً لتبويب منطقي . بفضل هذه الجهود المتواصلة ، وفي الوقت نفسه الذي زال فيه تدريجيـاً من التشريع كل اثر للماضي القديم ، اعد مـا سيشرف العهد الامبراطوري ، اعني به تفتح العلم القـانوني الروماني تفتحاً كلياً .

التـاريخ

كان لمادة ونتائج هذه الابحاث اهمية تاريخية : فقد تجمعت مصادر اكيدة وواضحة . وفي الوقت نفسه اقدم بعض ذوي المراكز العليا ، على الطريقة الهلينية وبدافع أدبي مزعوم ، على تدوين مذكراتهم : ونكتفي على سبيل المثل ان نذكر سيلا بعد استقالته . كان من المفروض في هذه المذكرات تبيان السيئات التي هي دستور هذا اللون ، ولكنهـا اوضحت السيكولوجيات وفاقت ، من حيث القيمة ، الذكريات التي يشوهها الكبرياء العائلي . كان الرومان فخورين جداً بماضي وطنهم ومنساقين بدافع السياسة في منازعات الاحزاب والافراد، لذلك فان عقليتهم النقدية كانت بحاجة قصوى الى ان تستيقظ : فاستيقظت عند النخبة . وقـد لعب تأثير بعض الاغريق الشخصي دوره في الاتجاه نفسه. فالمؤرخون الهلينيون لم يبالوا كلهم بأمر الوساوس : فقد قام بينهم خطباء خطرون يهوون التأثير المذوق في النفوس ، ويغلب انهم اوقعوا بعض الضحايا في روما. ولكن اقامة بوليب الطويلة فيها والعلائق التي ربطته ببعض رجالاتها، لا سيا وانه ينتمي الى غير هذه الطبقة ، كان لها صداها . امـا الاثر الاقوى ، خلال القرن الاول، فهو أثر بوزيدونوس، ذلك العقل الشامل والرواقي الذي جمع الى التاريخ علم الاجتماع وحق الجغرافيا العلمية: لن تحقيقاته الطويلة والرصينة في الغرب وصلت الينا، عن طريق غير مباشرة، اكثرية معلوماتنا عن الغاليين قبل قيصر . بيد ان المؤرخين الرومانيين كانوا اقل اهتمـاماً لمسألة العلل من هؤلاء الاساتذة اليونانيين المتأثرين بالفلسفة الى حد بعيد . ولكنهم تعلموا منهم اولوية الوقائع والحاجة الى تبريرها الفردي او الجماعي وقيمة انشائهم الواضح. وهكذا تسامى التاريخ

الى مرتبة لون ادبي لاتيني كبير واقتبس في الوقت نفسه اقله بعض الفضائل العقليـــة التي كونت عظمة مبدعيه اليونانيين .

ولن نذكر ، هنا ايضاً ، بين اسماء كثيرة ، سوى بعض الاسماء الجديرة بالذكر . اضف الى ذلك ان اسماً واحداً ، بين الاسماء المهملة ، قد عرف ببعض مؤلفاته ، هو كورنيليوس نيبوس . ولكن جامع النوادر الموجزة هذا لا فضل له سوى انه ادخل الى روما لون الترجمة باهتمامــه حتى للأجانب .

هل قيصر مؤرخ يا ترى؟ اعوزه لذلك الوقت والميل : فهو رجل تشرب ثقافة رفيعة جداً، ولكن ثقافته لم تلاش تصميمه المتأجج على العمل بل خدمته وزادته تأججاً ؛ وهو عقل يستهويه كل ظرف يمارس فيه نشاطه ولكنه لا يحيد ابداً عن هدفه الأوحد : السلطـة ، وهو ذو ذوق رقيق يقدر بهجات الفكر وغيرها ويسعى وراءها ولكنه لا يخضع لسيطرة واحدة منهـا . فقد نظم اشعاراً والف مسرحيـة – على غرار الاسكندر – ووضع درساً في النحو ، وذاعت شهرة خطبه بين المتطلبين . ولكن لم يصل الينـــا منه سوى « تعليقاته » على حرب الغاليين وعلى الحرب الأهلية التي انجزت على يد غيره . وهي لعمري مؤلفات دعاوة قام بتحريرهـا على عجل في فترات راحته ونشرها تتفاً متعاقبة بغية تثقيف الرأي العام تحت ستار إعلامـه . ولا وجود مطلقاً للاهتمام التاريخي الصافي ، على الرغم من تجرد ظاهر ليس في الواقع سوى ارب متناه وفن خالص واسلوب ماهر احسن استخدامه بغية ارغام القراء ، ارغاماً افضل ، على ان ينظروا الى الاحداث ويفسروها بحسن التفات وقبول . وليست « تعليقاته » بالاختصار سوى مذكرات فورية وتقارير موجهة .

ولكنها تصدر عن خير شاهد يمكن ان نحلم به لانه لعب الدور الاول؛ وعن اكثر الناس شغفاً بكل شيء ايضاً ، على الرغم من انه اعظم ذكاء ورغبة في العمل من ان لا يقيس مجهوده بالفائدة التي يستطيع جنيها منه ؛ وعن ابعد الناس سيطرة على نفسه اخيراً واشدهم حرصاً على ان لا يبدو عليه اقل شعور قد يؤثر من قريب او بعيد في وضوح رأيه . فالاديب والرجل قد ارادا عملا خالياً من العصبية ، فكان ما اراداه؛ وقد جاء مطبوعاً باعتدال لا يضاهيه اعتدال في تركه الوقائع تصدر حكمها بالمديح او باللوم . وقد اسهم خلوه من العصبية في وضوحه الذي بلغ من كماله اننا لا نشتبه بصنعيته ، بل علينا التفكير ملياً كي نكتشف ان كل شيء لم يُقل مما يجب ان يقال ، وان كل شيء لم يحدث بمثـــل هذه السهولة . فحتى نعرف ونفهم حقيقة فتح غاليا ، يعوزنا « تعليقات » قائد غالي كبير . كان باستطاعة قيصر ، بفضل مواهبه الكثيرة ، ان يصبح مؤرخاً لا يجارى لو انه طمح الى ذلك ، ولكنه ، لو فعل ، لما كان قيصر .

على نقيض ذلك ، تغلب المؤرخ على رجل العمل في سالوستوس أحـد اصدقاء قيصر وأحد اولئـك الانصار المتحمسين ، الجوحين ، والمتبكّين احياناً ، الذين يستميلهم كل رئيس حزب .

أضف الى ذلك ، أن رجل العمل لم يجد عملاً بعد اغتيال الدكتاتور ، فتوارى أمـــام المؤرخ في المنزل الفخم الذي أتاحت له اغتصاباته الحصول عليه في قلب رومــا . لذلك ، فان التطور جليّ بين « مؤامرة كاتيلينا » و« حرب جوغورتا – دونما حاجة الى ذكر كتاب « التواريخ »المكرس لفترة مـــا بين السنتين ٧٩ و ٦٦ ، اذ لم يبق منـه سوى نتف فحسب . منذ البدء ، اقتفى سالوستوس آثار توسيديد ، واستوحى انشاءه الموجز ، والجامـح حتى الخشونة . ولكنه قد اقتدى به احياناً ايضاً في حرصه على استنزاف المصادر بالاستفادة من اقامته في افريقيا للاستعلام حتى عن البلديين وبالجهد الذي بذله في الفراسة السيكولوجية والتحليل الاجتماعي . وغني عـن البيان ان المشايع لا يمكن ان يتوارى في هـــذه الفترات من ماض قريب لا يزال حياً . وهو لا يهتم ، كما توفق قيصر الى ذلك ، لاخفاء اهواء تعبّر عنها دفاعاته ومهاجماته. بيد ان تمرّده يزداد يوماً فيوماً ، فيقدم هـــذا الديموقراطي أخيراً لقارئه عناصر اكرام لممثلي الحزب المناوىء : وهـــذا ما يزيد في قيمة الداعي الى الاخلاق الذي نتمنى كثيراً لو يكون دون مأخذ في حياته الشخصية .

البلاغـــة

على غرار المؤرخين اليونانيين ايضاً ، أكثر قيصر وسالوستوس من الخطب بأسلوبهـا المباشر او غير المباشر . ولكن الجملة الصافية عند الاول ، والغامضة عن قصد عند الثاني ، والموجزة على غير تمبق عند كليهما، تنحدر من علم البلاغة اللاتيني الذي تمثل هي احدى نزعاته . فمنذ ذاك العهد كانت البلاغة اللاتينية ، وهي ابنـــة البلاغة اليونانية ، مسيطرة على اساليبها ، أي على النثر الذي ابتدعته ، سيطرة كافية لكي تناقش في استخدامها . ان هذه المنازعات، المستوردة من العالم اليوناني الذي انهمك بها منذ القرن الرابع على الرغم من فقدانـــه حرياته في تلك الاثنــاء ، ازدهرت في روما حيث لعب الكلام في الجمعيات والمحاكم دوراً مماثلاً لذاك الذي لعبه من قبل في اثينا الديموقراطية . فكان على الروماني الحقيقي منذ امد بعيد ان يكون حقوقياً وخطيباً . واذا ما تحلى ببعض الذوق ، فلا يستطيع ان يكون خطيباً دون فن ودون تأمل في فنه . وعبثاً اراد المتمسكون بالتقليد مقاومة أثر البلاغة العلميـــة التي أتاحت حيلها تأمين الغلبة لقضية باطلة . فقـــد درّست وفاقاً لتربية مستوحاة من المدارس اليونانية بقواعد نظرية دقيقـــة جداً وتمارين على مواضيع خيالية . في السنة ٩٢ اقفلت مدارس البلاغة اللاتينية ولكنها لم تلبث ان فتحت ابوابهـا . ولعل التدبير املته ظلامية معادية للديموقراطية ، لأن الخطباء اليونانيين قـــد تركوا وشأنهم منذ اواسط القرن الثاني ولأن النخبة اخـذت ترسل اولادها في القرن الاول الى رودوس واثينا كي يتابعوا علومهم. فانتقلت من ثم الى روما الطرائق المختلفة المعتمدة في العالم اليوناني والمجادلات التي زعزعته .

اعتمد بعضهم اللون المعروف بـ « الأسيوي » لانه نشأ في آسيا ودرّس في برغاموس بنوع خاص . ومن حيث انه كان منمّقاً جـداً أي مثقلاً بالصور والمفردات المؤثرة ، فقد سعى ايضاً وراء الايقاع الذي هو أشبه بالغناء عند الالقاء . وخير ممثل لهذا اللون في اوائل القرن الاول

هو هورتنسيوس وانكسب البعض الآخر الى الذوق « الأتيكي » بطموحهم الى النقاء الدقيق ، والموجز على بعض الجفاف ، والمتين . وكان هذا بالضبط مثل قيصر الاعلى ؛ وهـــذا المثل هو الذي احرز الغلبة ، في اواخر العهد ، في اوساط الشباب .

وقال غيرهم اخيراً انهم اكتشفوا في رودوس درساً ومثلاً في التسوية : فلا افراط في العري ولا إفراط في التنميق الصنعي ، بل غزارة انيقة في خدمة معنى رصين ومتين . وهذا كان برنامج شيشرون .

شيشرون

انه مدين للفصاحة بارتقائه الاجتماعي . وقد بدأ ارتقاؤه هـــذا بالاثراء اذ ان خدماته قد قابلتها الاعطيات والهبات عن طريق الوصيات والنصائح بالتوظيف المثمر . وبدا خصوصاً بسنى الحياة السياسية ، اقله في مرحلتها الاولى ، فأتاحت نجاحاته الخطابية « للانسان الجديد » ، المنحدر من عائلة فرسان في بلاد « الفولسك » ، ان يتوصل الى القنصلية منذ السنة ٦٣ ، « سنته » ، في السن الدنيا المفروضة لذلك . فمارس ، طيلة السنة التي تولى فيها الحكم ، دكتاتورية كلامية حقيقيـــة ، منتزعاً من مجلس الشيوخ سلطات خاصة لسحق محاولة كاتيلينا الثورية ، واستطاع التباهي بعد ذلك ، ربما « بفعل سبب ، ولكن دون غاية » ، بأنه خلّص الدولة والمجتمع . ثم أتى دور الكسوف . ولكن موت قيصر جعله يستعيد دوراً اوليـــاً نهض به بسذاجة وهوى وشجاعة معاً . واذا ما هو مات ضحية طامعين َعنِدَ هو في ملاحقة احدهما واعتبره الآخر شخصاً احمق ، فقـــد مات دون ضعف ، على الاقل ، وماتت معه الحرية الرومانية . وهكذا فانه دان بارتقائه الى حدّة فصاحته العلمية ؛ ودان لها ايضاً بنهـــاية ديموستينس . وانمـــا هو مدين لها حتى اليوم بجوهر شهرته التي لا يضاهيها حقاً سوى شهرة ديموستينس : فالمعاصر الذي يطلب اليه تأليف « تراجم متوازية » لن يتردد في الوقوف موقف بلوطارك ويرى فيه الشريك الضروري للخطيب الاثيني .

لدينا اليوم حوالي الستين من خطبه ، أي ما يعادل نصف الخطب التي عرفها التاريخ القديم . وهو قد اعاد النظر فيها قبل نشرها ، وبلغ منه انه نشر خطباً لم يلقها قط : كأكثرية الخطب « الفرينية » مثلاً . ولكنها ، حتى في مبناها الشفهي قـــد تضمنت مقاطع أعدت كتابة ، وكانت ، على كل حال ، نتيجة تحضير متقن . واذا ما انسجم فن شيشرون مع مزاجه الشخصي ، فانه قـــد خضع مع ذلك الى تقنية بالغة المهارة والتفكير كما يتضح من الابحاث النظرية العديدة حيث اطال التكلم عنها بغية تبرير اسلوبه . فقد رفع هـــذا الاسلوب الى مستوى النظرية في ما يعود للصوت والاشارات ، والتركيب العام ، وإنماء الافكار بالثقافة العامة ، والبحث عن الحجج وعرضها ، والوقت المناسب للجوء الى السخرية والحفظة ، وتنضيد الجمـــل واختيار المفردات . فاليقين والاقناع والتأثر والاغراء ، من حيث ان كل ذلك يسهم في بلوغ هدف واحد ، يمكن تحقيقها في نظره باعتماد صفات فطرية تزيد في قوتها التربية والمهنة .

ان ما يلفت النظر اليوم هو صنعية هـــذه الاساليب الماهرة . ونحن لنتسلم حتى الى الملل امام هذه الجمل الطويلة وتوازن اقسامها المرتقب مسبقاً . ويستهوينا غالباً ان تتصل اتصالاً مباشراً بالرجـل وبهواه الصادق الضائعين في عموميات تافهة وتمحكات حقيرة . ونكون سعداء جداً حين يحدث له ان يكون سيء النية ، لا بدافع بصيرة المحامي في شدة الضيقة ، بـل بدافع الحدّة والحميّا ؛ فنحن حينذاك امام حملات لا ترحم تشن بسخرية متفوقة في المرافعات وبغضاء جنونيـــة في اعنف الخطب السياسية ، كالخطب الكاتيلينية والفيليبية ، مثلاً . ولكن الحقيقة – اوليس ذلك هو الاهم بالنسبة لمحارب خطيب ؟ – هي انه توقف في بعض الظروف الى اثارة حماس مستمعين معادين مبدئياً . والحقيقة ايضاً هي ان اجيالاً متعاقبة كثيرة لم تر ، طالما آمن الناس بفعالية البلاغة ، افضل من ان ينحنوا على كماله حتى ينتزعوا منه الاسرار .

بيد ان الخطيب لم يحدد الرجل كله الذي كان اشد كبار المفكرين الرومـــان ايماناً بامور الروح ، ان لم يكن اعظمهم كمالاً واناقـــة – يجب الا ننسى قيصر – في القرن الاخير من العهد الجمهوري .

الف قصائد رصينة جداً وتعليمية – نقل كتـاب « الظواهر » السماوية لاراتوس السولي – وسياسية تاريخية : بيد ان فقدانها لم يحرمنا من الروائع في الارجح .

راسل صديقه اتيكوس بصورة متواصلة . ولم يخضع نشر رسائله، بعد وفاته بتسع سنوات، لاعتبارات الصداقة والادب فحسب ، ولكنه قد اخطأ هدفه بدون شك اذا كان مـــا املاه تصميماً على الثلب والتعيير . ولم تكن مجموعات الرسائل امراً جديداً ! فقد نشر الاغريق اكثر من واحدة منها دون تدقيق في صحة النصوص التي تألفت منها . ولكن الشيء الأكيـد ، على الرغم من ان مجموعة سابقة واحدة لم تصل الينا ، هو ان المجموعات السابقة لم ترتد طابع الغزارة والاهمية الذي ارتدته هذه المجموعة . ومهما يكن من الأمر فان هذه المجموعة لا توفر لنـــا ، بالحياة التي تجيش فيها ، شهادة مشوقة حول عهـد شيشرون وبطانته فحسب ، بل خير شهادة تولد فينا الميل الى البداهة الانسانية والحدة البديعة او المطوقة في ردات فعله .

بحث اخيراً، في الاثني عشرة سنة الاخيرة من حياته، عما يحوله عن شتى خيبات آماله وآلامه– عن كسوفه السياسي وعن انفلات عزن تستسلم له قوى تفوقت عليه ومزقت منافساتها وطنه ، وعن الدكتاتورية القيصرية التي كمت حرية الكلام ، وعن وفاة ابنة احبها – في وضع الدروس الفلسفية . وقد غذى بعمله هذا طموحاً الى إنماء تراث روما . وبديهي ان المقصود هنا هو التراث الادبي ، كما جرى له في دروس البلاغـــة المعاصرة لهذه الدروس : وقد توصل الى ذلك بفضل طريقتها الحوارية ، المقتبسة عن افلاطون ، وبفضل اللهجة المازحة او الحصيفة ، وبفضل اتقان النثر الذي جعلت منه هذه الدروس، بعد الخطب ، وسيلة تعبير واضحة وقوية ومرنة اعتمدها جميع الكتبة اللاتين اللاحقين . كما ان المقصود هو التراث الفكري ايضاً الذي كان يشكو ، اذا

ما قورن بالتراث اليوناني ، من نقص يحز في وطنيته . ولكنه كان بعيد الهمة في ذلك . وفر له الفكر اليوناني نقطة الانطلاق : فعرض بجلاء ، حيال المسائل المختلفة التي تناولها ، المذاهب التي بدت له جديرة بالاهتمام ، اي مذهب ارسطو ومذهب الرواقية ، راجعاً الى الاصول بغية تفسير ما صارت اليه آنذاك ، فقابلها وانتقدها بغية التوصل الى « اختيارية » وسيطة معقولة . ولكن الجهد العظيم الذي بذله قد تأثر بالسرعة التي بذل فيها ، على الرغم من صفات استساغة وذكاء حاد قل نظيرها . اضف الى ذلك ان شيشرون قد حول برضاه صوب علم الاخلاق والسيكولوجيا والحق ، ولا سيا الحق العام ، نظريات لم يتح له فهمها على الأرجح . فمن السخرية ، والحالة هذه ، ان نضيف الى مجده صفة الفيلسوف التي طمح هو اليها . ولكن هذه الناحية من نتاج ادبي مدهش باتساعه وتنوعه وثروته قد اسهمت ، بوضوحها ، والشغف الفكري ، ونوع المسائل المطروقة ، والثقة الموضوعة في العقل وفي تفاعل الأفكار ، والعناد في معرفة الانسان وخدمته ، والشعور الأدبي ، في جعله اعظم الادباء الذين دانت بهم روما اخيراً لمخالطة الحضارة اليونانية .

موت المسرح الادبي

وهكذا فان النثر اللاتيني الذي بقي قاصراً لمدة طويلة ، قد حصل على براءة النبل . لا بل انه تغلب مؤقتاً على الشعر .

وتعود دونية الشعر جزئياً الى انه فقد حقلاً كاملاً صمتت النداءات التي كانت تأتيه منه والتي كانت له طيلة قرنين حوافز فعالة . فالمسرح الادبي يعاني في الواقع سكرات الموت على الرغم من المساعي المبذولة لاعلاء شأنه لدى الجماهير عن طريق البذخ في الاخراج : استعراض ٦٠٠ بغل في السنة ٥٥ لتمثيلية كليتمنسترا (*Clytemnestre*) و ٣٠٠٠ دن لتمثيلية « حصان طروادة » . وتخلت المأساة والمهزلة عن مركزهما لالوان قبلت اصلاً في آخر التمثيليات وحاول بعضهم عبثاً المحافظة على بعض ما اتسمت به من اعتبار وحشمة : فهناك ضرب من المهازل المضحكة ينحدر بسرعة الى الابتذال ، كما ان نصيب الكلمات المستعذبة يتلاشى تدريجياً في « التمثيلية الايمائية » التي يتوجب على ابطالها ان يكونوا ماهرين في الرقص والمزاح .

الفلسفة والشعر
لوكريس (*Lucrece*)

ولكن الشعر ، في الوقت نفسه ، يسلك طرقاً جديدة : ومنها الفلسفة على الرغم من قصيدتين قصيرتين قلد فيهما ايليوس مؤلفات يونانية .

غدت بعض المذاهب الفلسفية اليونانية منذئذ مذاهب معترفاً بها في روما . فلنهمل البيثاغورية التي سمحت لها ارتباطاتها الايطالية بالدخول قبل غيرها : فبعد ان برزت بعض وجوهها الاولى ، نراها آنذاك في روما حيث أسس نيجيديوس فيغولوس *Nigidius Figulus* جمعية دينية حقيقية في عهد قيصر ، هي أقرب الى الديانة منها الى الفلسفة . وقد سبق لنا ورأينا ان المعتقدات الاخرى قد صادفت لدى « كاتون » واصدقائه مزيداً من المقاومة في النصف الأول من القرن الثاني . ولكنها تغلبت على هذه المقاومة : اذ كيف يمكن العزوف عن افكار اعتبرها الاغريق أثمن زينة عقلية للانسان ؟ وكان لتعلم الفلسفة في رودوس واثينا الشهرة نفسها

التي كانت لتعليم البلاغة ، وقد استهوى ، على غراره ، الشبيبة الرومانية . وألقيت محاضرات عديدة في روما نفسها . وتجدر الاشارة هنا الى افتقار روما الى مدارس فلسفة يوزع التعليم فيها باللاتينية على غرار مدارس البيان: فليس من موجب عملي يرغم على ذلك ، وليس ايضاً — وهذا ما يفسر طموح شيشرون — من مذهب متميز نشأ في الغرب يفرض مفرداته الخاصة وتقدمه العقلي .

ان الرواقية ، بين المذاهب المنتشرة في العالم اليوناني قد احرزت في روما أعلى درجة من النجاح . وقد خدمها في ذلك اقامة اهم ممثليها في روما الذين كان لهم من قوّة الفكر ما جعلهم يطبعون آراء اسلافهم بطابعهم الشخصي : باناييتيوس ، صديق شيبيون اميليانوس في القرن الثاني ؛ وبوزاييدونيوس الذي برع في أكثر من حقل من الحقول الفكرية ، في القرن الاول . ومنذ البداية ايضاً ، اقله في ما يعود للنزعات الادبية ، تجمعت ظروف عديدة وقدّرت « للرواق » الانتشار : فهو يوصي بالعمل الذي يتوجب على الروماني الا يحيد عنه ؛ ويدعو باسم العقل الى التحلي بالفضائل العابسة ، العدل والشجاعة والقناعة ، التي تطابق المثل القومي التقليدي ؛ لا بل ان الخضوع نفسه للنظام الإلهي في العالم قد انطوى على بعض ما يأخذ بمجامع القلب في مدينة تنهض بواجب تنظيم الامبراطورية التي سلطها عليها القدر . اجل لن يتم الفوز العظيم إلا في عهد لاحق ، أي في العهد الامبراطوري ، ولا يمكننا الاستشهاد إلا باسم كاتون الأوتيكي حتى تحاول آنذاك ، ولو ببعض التكلف العقائدي وبعض الخور الذي تمحوه عظمة موته ، التوفيق بين سلوكه والمعتقد الذي اعتز بالمناداة به . ولكن وجود الرواقية امر راهن منذ الآن ، وهي على اتم استعداد للتسرب بعيداً الى النفوس التي سيثيرها الاستعباد .

على نقيض ذلك ، وقبل اعصار الحروب الأهلية الطويلة ، يبدو ان الأبيقورية ، في ظاهر أنانيتها اللامبالية ، وفي حقيقة نبل تجرّدها على السواء ، لم تستمل سوى عدد قليل من المشايعين في روما : فهي أبعد من ان تثير اعجاب نخبة متعطشة الى العمل . ولكن فخرها ، الفريد من نوعه آنذاك بين كافة المذاهب ، انها قد ألهمت شاعراً كبيراً هو لوكريس .

ان لهذه الملازمة وزنها ، ولكن ليس ، لسوء الطالع ، ما يوضحها : فالرجل غير معروف إلا بقصيدته التي لا تتضمن أية دلالة على حياته . لا ريب في انه تألم أقله من المشهد الذي وفره له معاصروه . ولكنه تباهى بأنه اكتشف تهدئة لآلامه في حكمة ابيقور ، فأخذ على نفسه تعليمها . فتميّزه من ثم ليس في المعنى ، بل هو ، فكرياً ، وفي الدرجة الأولى ، في شغف علمي متأجج يحمله ، بعد عرض نظرية ديموكريت المادية والذرية التي سبق لابيقور وتبناها ، على درس عدد كبير من الظواهر بغية تقديم الدليل على انها كلها قد تقبل تفسيراً ، او تفسيرات احياناً ، لا تمت الى ما فوق الطبيعة بصلة . فلم يتراجع في هذا الصدد امام أية جسارة وحذا حذو أكثر من اغريقي . واذا نحن لم نستطع اليوم تقدير أهمية إسهامه الشخصي حق

قدرها ، فالاحترام الذي يوجبه مدى ونشاط هــذه المحاولات لا يقبل أي تحفظ . ان تميزه ، – وهو يبدو بذلك ذا طابع روماني اعظم – يقوم ايضاً في تصميمه على الانشاء التعليمي وفي طابع البرهان العقلي الذي يطبع به اسلوبه . فهو يريد اقناع القارىء بأن العالم ليس سوى مادة، وان كل شيء فيه ، حتى النفوس، مركب من ذرات يتنوع جمعها وفاقاً لمصادفة التقائها ويحررها الموت حتى تُجمع بعده جمعاً اتفاقياً جديداً . ان هذا اليقين وحده سيخلّص الانسان من رعبه حيال الموت ، الذي لا تعقبه أية مكافأة او اية عقوبة ، وحيال الآلهة الذين لا اثر لهم في العالم والذين « يقضون في هدوء دائم اياماً دون اضطراب وحياة دون غمام » . وان تمـيزه اخيراً وخصوصاً تميز ادبيّ قوامه الجمع العجيب بين قوّة هذا المنطق وانفعال الشاعر الحاد . لمن حيث انه يفيض شفقة على البشر بسبب ألمهم المادي وآلامهم الادبية الناجمة عن مخاوفهم ، يشعر برغبة جنونية في اشراكهم في حقيقته وفي احلالهم معه في « المناطق الصافية » : غير ان هــذه اللهجة الحادة في كافة اجزاء قصيدته تناقض ، بهذا الصدد ، الهدوء الذي يدعي تلقين سره . اضف الى ذلك انه يهتز اعجاباً ببهاء الطبيعة العظيم ويعبر عن اعجابه بنبرات يغذي حرارتهــا شعور زاخر . فهــل ينمّ مؤلفه « طبيعة الاشياء » عن « فن كثير » كما كتب شيشرون الذي يعتقد بأرجحية نشره بعد وفاة لوكريس ؟ اجل قد ينمّ قدم اللغة والنظم عن تقليــد مقصود للملاحم القديمة . ولكن لا يمكننا والحالة هذه ان نتصور اتفاقاً أكمل بين المقاصد الجمالية وقوّة مزاج الفنان .

الشعر الغنــائي
كاتولس (*Catulle*)

في الوقت نفسه تقريباً الذي ظهر فيه شعر لوكريس الفلسفي ، ظهر في روما الشعر الغنائي الذي سيتمثل فيها بسلسلة اطول من الشعراء . نشأ في الأندية المجتمعية التي لم ينقصهــا سوى شخص « الفاسيلفس » حتى تشبه ، حتى بالتأثيرات النسائية ، بلاطات الملكيــات الهلينية ، لا سيما بلاط الاسكندرية ، اعظمها رقة وذوقاً سليماً . ويصبح من ينتمي اليها « احدث سناً » ، باعطاء هذا التعبير معناه المزدوج ، الحقيقي والمجازي ، والجدة الجمالية والسن على السواء . وعلى من ينتمي اليها ان يتحلى بثقافة رفيعة اقتناعاً بان نظم القصيدة جدير بالعناية نفسها التي يتطلبها العمل السياسي ، الذي لم ينصرف بعضهم عنه بعد ، او بالعقدة الظريفة التي غالباً مــا تُداخل كلا من القصيدة والعمل السياسي : فاذا لم يزل هناك قسوة في الحملات ، حتى المنظومة منها ، فهنالك ظرف في الغزل ، وكثير من التصنع المقصود ، وعــلم ميثولوجي واسع ، ووزن في النتاج الادبي ، وقد وفرت المدرسة الاسكندرية امثلة كثيرة على ذلك .

كاتولّوس هو الوحيد بين هؤلاء الكتاب الذين وصل الينا منهم مجموعة قصائد غير كاملة على كل حال : حوالي مائة قصيدة بعضها لا يتجاوز البيتين ويبلغ اطولهــا ٤٠٨ أبيات – وقد أدركته المنية قبل الخامسة والثلاثين من سنه – ؛ وهي قصائد مختلفة الاوزان والالوان ، طرق فيهــا الهجاء والمجون والنشيد الديني ، والرواية الاسطورية . وينمّ كل ذلك عن ادراك لكمال

المبنى ومهارة في اللغة ، وجموح مرن وسهل ، تمثل ، على ما نعلم ، ما يقابلها من تقدم حديث العهد وجليل الفائدة . ولكن صدق الشعور المتواتر لأثمن قيمة ايضاً . أحب كاتولوس تلك التي يطلق عليها اسم « لسبيا » (*Lesbia*) التي ليست سوى شقيقة المهيّج كلوديوس . كان باستطاعته ان يختار افضل منها ، ولكن كان من شأن اختياره ، لو فعل ، ان يدعو الى الاسف ، لأنه تألم من خيانات عشيقته ، فوفرت له هذه الآلام نفسها ، بانماء وإعماق شعوره ، ظروفاً جديدة للتعبير عنه . اجل لقد وجدت « صافو » من قبل ، وعرف كاتولوس مؤلفاتها ومؤلفات الاسكندريين الذين نقل عنهم الى اللاتينية عدّة تمثيليات ، « كشعر بيرينيس » مثلاً (*La Chevelure de Bérénice*) لكلّيماخوس. ولكن التعبير عن الهوى الذي يعمي البصيرة ، تلك الشِرّة الهائمة والالم الصارخ ، نادر في ادب العصور القديمة اليونانية والرومانية . فقد وجب ، للاقدام على ذلك بمثل هذه القساوة ، قوّة نضرة يتمتع بها شعر في شرخ الشباب ، لم تصل اليها الكلفة بعد . غير ان خلفاء كاتولوس ، الذين سيدينون له بالكثير من مهارتهم التقنية ، لن يسيروا وراءه في هذه الطريق .

الخلاصة

تأيّد اذن ، حتى قبل نهاية العهد الجمهوري ، نجاح روما ونضجها الادبيان على نقيض ارتباطها الفني وجمودها العلمي . فما اعظم الشوط الكبير المقطوع منذ ترددات الادب الاولى في النصف الثاني من القرن الثالث ! فان هلينة روما قد انبلت فيها ادباً يتمتع بكيان مستقل وينتج روائع لا تتأخر أبهى الحضارات عن الاعتزاز بها . ولم يحدث شيء من ذلك تلقائياً : اذ ان اختيار القدوات قد وفر تسهيلات نادرة جداً . اضف الى ذلك ان النجاحات كانت بطيئة ، وشاقة في أكثر الاحيان ، يتخللها التسكع والاجهاض . كان العقل اليوناني الفضل في انه خلق ، وخلق بسرعة ، في قرنين او ثلاثة قرون ، ما قد صرفت روما أربعة قرون في ادراكه وتقليده وتطبيقه على مواردها وعلى نزعات عبقريتها الخاصة . ولكن الانطلاقة قد حدثت ، وباستطاعتها ان تسير طريقها حتى ولو قطعت جسور الاتصال بينهما .

ثم ان مثل كاتولوس يتيح لنا ان نحدّد ببعض الوضوح المرحلة التي بلغتها آنذاك النخبة الادبية الرومانية . فهي ، من حيث احساسها المرهف بالجمال وتعودها لذة الابحاث الفنية ، تستسيغ في جوهر كيانها كل الحضارة اليونانية منذ العهد القديم حتى المدرسة الاسكندرية ؛ وهي لا تزال تنهل منها وتنقلها الى اللغة اللاتينية ولكن غايتها الوحيدة هي التمرّن والممارسة . فهي في الوقت نفسه قد استعادت بعض الميزات الاصيلة او حافظت عليها ؛ فلم تذهب بالاناقة حتى التصنع ؛ وبرهنت على قدرتها على نظم « اشعار قديمة » في موضوع « الافكار الجديدة » ، وعلى

التعبير ، في صيغ لا يغرب عنهـــا أي سر من اسرارها ، عن آراء ومشاعر طبعتها هي بمفارقاتها الخاصة .

وباستطاعة كاتولوس ان يرمز الى شيء آخر ايضاً ، فهو قد أتى الى فيرونا (*Vérone*) في ايطاليا الشمالية ، البلاد الثالثة ، الى روما التي سبق لها واستقبلت في القرن السابق تيرنس مـن افريقيا . وهكذا فان روما التي دانت بيقظة ادبها لايطاليين جنوبيين مستغرقين قـــد أمّنت تعبئة حاجتها منهم في الغرب ، فنقلت الى هـــذا الاخير الثقافة التي تلقتها من الغير وكيفتها . ولكنها اجتذبت اليها وضمت الى مجدها القوى الحية التي برزت فيه . وان هذا الدور ينبىء ، من زاوية هذه المظاهر المختلفة بالدور الذي ستلعبه طيلة العهد الامبراطوري الاول .

فهي قد عقدت منذ الآن ، على طريقتها ، ولمصلحتها ايضاً كما هو بديهي ، خيوط شبكة العلائق المختلفة التي أمسكتها بيدها . واحتلت منذ الآن ايضاً ، بفعل تقبلها واعطائها وتحويلها ما تتقبله ومحاولة رقابـــة تحويل ما تعطيه ، مركز حضارة ناشئة ستشمل الإطار الاقليمي والبشري الذي اوجدته فتوحاتها — تلـــك الحضارة التي هي المصدر الأم والمباشر للحضارة « الغربية » الراهنة .

القسم الثاني

مدنيّات الوحدة الرومانية

الكتاب الأول

المدنيّة الرومانيّة في عهد الأمبراطورية الأولى

(القرنان الأول والثاني)

وصلنا في بحثنا اخيراً ، الى هذه الامبراطورية العظيمة التي ابتلعت في تآليفها كل ما تقدمها من امبراطوريات ، وعنها انبعثت الممالك التي نشاهدها اليوم ، ولا تزال نفوسنا تكن لشرائعها الاحترام العميق . فيجب علينا بالتالي ان نقف على اخبارها أكثر من أي امبراطورية كانت. وقد لاحظت يا سيدي الامير ، ولا شك ، أنني أعني الامبراطورية الرومانية .

(بوسويه)

من كتابه : « خطبة في التاريخ العام »

على منحدر جبال الابنين مقابل البحر الادرياتيكي ، قام نهر الروبيكون حداً فاصلاً بين مقاطعة غاليا قبل الألب ، وبين القسم الايطالي الواقع تحت ولاية حكام روما ومجلس شيوخها مباشرةً. وعندما اجتاز قيصر هذا النهر وعبر منه الى الضفة الثانية، في منتصف شتاء ٥٠ – ٤٩ ق . م ، واتجه منه الى الجنوب ، على رأس فيالقه المظفّرة التي كانت اداته الطيّعة في فتح غاليا ، في حملات ثمان متتالية ، كرّست زعامته وجعلت منه الزعيم الذي كان ، شكّل عمله هذا ، خروجاً على السلطة الشرعية، فانطلقت بذلك شرارة حرب اهلية استمرت قرابة عشرين سنة تخللتها فترات قصيرة من الهدنة المؤقتة ، وامتدت حتى غرة آب سنة ٣٠ وهو اليوم الذي أطل فيه ، صاحب معركة اكتيوم ، على الاسكندرية فكانت إطلالته تلك ، إيذاناً بانتحار كل من خصميه : انطونيوس وكليوباترا .

من هذه الهزات الدامية التي نزلت بالبلاد ، أطلت اشياء وطلعت عليها اشياء . فاذا على هامة روما سيد هو القائد الاوحد لجيوشها حامية ذمار البلاد واستقلالها ، يوجه منها السياسة ،

ويفرض القانون ، ويُشرف على الادارة ويحطها بمعزل عن طمع الطامعين اليهـــا ، الطامعين فيها ، وفي مأمن من جشّع الجشعين . وبفضله قامت دولة استطاعت ان تؤمن لرعاياها ، ما لا بد منه لدولة تروم عيشاً كريماً : حدود منيعة الجانب في الخارج ، وأمن مستتب في الداخل ، وصحة في ميزانية الدولة وماليتها العامة . صحيح ان ممالك اخرى عرفت ، هي ايضاً ، ان تحقق على اقدار متفاوتة ، مثل هذه الامور ، فرسمت لها الدول الهلينية سوابق عرفت هي ان تَفيد منها وتتعظ بهـا . ولكن ، الى جانب الجدة التي طبعت معظم الحلول التي طلع بها ، لم يسبق لتجربة مضت ، ان عرفت نجاحاً ملازماً كالنجاح الطويل الذي حالفه ، مما لم يتم مثله او بعضه ، لدولة تمت لها رقعة على هذا النحو من الاتساع ، وتألفت من مثل هـــذا العدد من الشعوب والاقوام المتباينة . وهذا الجديد الذي تبلور على مثل هـذا الشكل واستمر في الصدد المرسوم بضعة قرون ، تم تحت سيطرة اوكتاف اوغسطس وإشرافه المباشر ، فترامت أقاصيه وتباعدت نهاياته : من مضيق جبل طارق غرباً حتى شطآن البحر الأسود شرقاً ، ومن مصابّ نهر الرين شمالاً، الى مشارف شلالات النيل جنوباً . ولأول مرة في التاريخ، يصبح البحر الابيض المتوسط برمته، بحيرة داخلية ضمن الامبراطورية ، فطوت حوضيه : الشرقي المتهلّين ، والحوض الغربي الذي، بالرغم مما تحالف عليه تباعاً من عوامل إغريقية وبونيقية واخيراً رومانية ، بقي على سماته البربرية الاولى . وعلاوة على ذلك ، فهذه الامبراطورية التي تجاوزت اطرافها بعيداً الأراضي الواقعة حول هذا البحر ، عرفت كيف تحافظ على التوازن الذي أمّنته لها المركزية المعمول بها في روما . وبفضل هذه الوحدة التي حققت ، والتضامن الذي ارست دعائمه في عوالم كانت في الامس الغابر تجهل بعضها البعض ، استفاض افقها ورحب امام الجميع ، واتسعت منه الحدود بحيث استحالت الاتصالات التي قامت فيا بينها ، أمتن واوثق . فقد أطلّ على البشرية جمعاء ، المتخلف منها والمتطور ، عهد جديد ، لم تعرف المدنيات التي مرت على مسرح التاريخ ، مجتمعة ومنفردة ، ظروفاً وأوضاعاً، اكثر حلماً واوفر مؤاتاة من التي غمرته في هذا العهد . فهل تستفيد مما تم لها ، فتتلاقح الاذهان وتتفتح الاكمام عن قطوف متنوعة الجنى والثمار ، تجود بهـا عبقرية كل شعب من هذه الشعوب ، ام تنصهر كلها معاً في وحدة متماسكة ، شاملة ، قادرة ؟

الفصل الأول

من الحرب الأهلية الى السلام الروماني

بعد ان قلبت الحرب الاهلية التي استمرت عشرين عاماً الاوضاع الراهنة في رومـــا ظهراً لبطن، ورأساً على عقب ، هيأت العالم الروماني بأمره مصيراً جديداً .

المدينـــة الجمهورية اعجز بكثير من ان تدير الامبراطورية

كان لا معدّ من ازمة ولا محيص عن حل لها ، وهي ازمة عرفت البلاد من قبل ، مثيلات لها فشلت جميعاً . فلا بد ان تفشل هي وتهيض مهيئة المجال لطلوع غيرها بعدها حتى يتمهد السبيل امام المصير الذي لابد منه ولا حيدة عنه . فالاشخاص الذين قاموا بالدور الاول على مسرح هـــذا المجتمع ، امثال قيصر وبمبيوس ، وانطونيوس واوكتافيوس ، والعديد من الممثلين النكرة ، طبعوا الاحداث التي لازمت هذه الازمة الفاصلة وصاحبتها ، بطابعهم الخاص . وقد تكون جاءت على شكل آخر واوضاع اخرى ، لو قام بتمثيلهـــا غيرهم من الممثلين . ولكن النتيجة الاخيرة لم تكن لتأتي الا وفقاً لما صارت اليه : اي قيـــام سلطة فردية شخصية . كان لا بد لهذا المخاض وما رافقه من آلام وأوجاع ان يشهد مولد امبراطورية نحتت قسمات صورتهـــا ، الظروف المتحكمة المائلة ، وشخصية الفائز منها ، وتوازن القوى التي لم يكن من مفر من تفاعلها والتعويل عليها .

كان لا بد لهذه المدينة الجمهورية التي أعطيت مثل هذه السيطرة الممتدة الى أراض نائية مترامية الاطراف ان تدفع الثمن غالياً .

فعندما ساوت في رعويتها بين الايطاليين ، عرفت كيف تصون بهذا التدبير الحكيم نظمها الادارية ، وهي نظم تسرب اليها الخلل عندما اتسع تطبيقها المصطنع ، ليشمل مثل هذه الرقعة من الاتســاع ، عجزت معه ندوتها عن ضم جزء ضئيل من هذا الجسم الاداري الاخطبوطي الشكل . وقد بدا عجز النظام المعمول به وعدم استجابته للوضع الماثل شيئاً لا يحتمل ولا يطاق ، لا سيا اذا كانت روما ماضية في فرض سيطرتهـا على الولايات الخاضعة لحكمها . ان توسيع الحل الذي

فرضته على ايطاليا بحيث يشمل الولايات الاخرى ، محاولة ملؤهـا الهزء والسخرية ان لم تكتمل باصلاح جذري ، لأداة الحكم وبخلق نظـام اداري جديد ، على اساس من التحالف او التمثيل العام . ومثل هذا الحل لم يخطر اذ ذاك على بال احد . والى هذا ، فالامر يتعلق في الدرجـة الاولى ، بالسيادة والسيطرة ، وهي سيطرة كريهة في جشمها ، يفرض الأخذ بها ، في الاساس ، إنزال الرعب في الناس ، وتطمين رعاياها المتحفزين دومـاً للانتفاض والثورة ، والاعتماد على القوة والبطش لارهاب الشعوب الواقعة وراء تخوم امبراطوريتها المترامية الاطراف الذين يتربصون الفرص السانحة للانقضاض عليها .

ولذا كان لزاماً على روما ان تـبقي لديها ، جيوشاً جرارة يتعرّض معها وجودها وكيانها بالذات لخطر الحروب الاهليـة . فاذا ما نجحت جمهوريات العصر الحديث ، على ضوء التجربة والخبرة المؤلمة التي خبرتها ، ان تتفادى ، حيناً ، خطر الجيش الضاغط على صدرها ، وتتجنبه ، وتأمن شره ، فالجمهورية الرومانية لم يخطر لها يوماً على بال ، مثل هذا الامر ، ولم تحتط لنفسها يوماً ضد هذا الخطر الماثل الجاثم على صدرها . فقد تغافلت عن الرباط الذي شد السلطة المدنية الى السلطة العسكرية ، فتحلل دون ان تبالي ، من الاسفل ، وهمها ان يبقى شديد الامر في الرأس . فجيوشها تألفت وحداتها من جنود محترفة ، لم يألفوا الانصياع لغير امر قائدهم . وكم سولت النفس الامّارة بالسوء لهؤلاء القادة ، ان يستعينوا، تحقيقاً لمآربهم الخاصة ، بهذه الاداة الطيعة بين ايديهم ، فجرّت منافساتهم المغرضة واطماعهم المتعارضة ، المذلّة والهوان للوطن ، والفوضى للبلاد .

وعلى هذا الشكل موت الجمهورية الرومانية ، وقد أعجزها حل قضية غايةً في الدقة ، هي قضية العلاقات التي يجب ان تشد السلطة المدنية الى السلطة العسكرية، فبرزت حدتها وخطورتها عندما تعلق الامر بالسلطة العليا في الامبراطورية . وقـد حمل موت الجمهورية معه موت مدينة روما نفسها . رأت النور مدينةً ، فلم يكن في وسع روما ان تتصوّر لها كياناً غير هذا الكيان الذي كانته ، فلم تستطع ان تكيّف نُظُمها المدنية للدور الذي تستوجبه سيطرتها على اراض شاسعة . صحيح انها برهنت في هذا المجال عن مرونة ولباقة تصرف لم تُبدِ مثلها مدينـة مـن المدن الكبرى التي برزت في التاريخ القديم ، وذلك بمنحها رعويتها بسخاء لم يسبق ان سخت مدينة بمثله من قبل . وهـذا الامتداد البشري له حدوده وطاقته ، وهي حدود لا يمكن ان تتخطاها مدينة كان من الانظمة التي سارت عليها ان يتولى جمهرة الناخبين فيها التشريع والقوانين وتعيين الحكام الاداريين . ولكي يُتاح لها الإبقاء على هذه الاقطار التي فتحتها ، والاقوام التي أخضعتها لامرتها ، وضمتها بعضاً الى بعض ، كان لا بـد من تغيير وضع الدولة ونظام الحكم والقيام بتشكيل اداري جديد ، وذلـك بسن نظام جديد قادر على تنظيم الامبراطورية على أسس جديدة ، ونشر نظام حياة مشاركة ينعم بنعمائها الشعب الملك ورعاياه على السواء .

الامبراطورية والحرب الاهلية

هي حروب قاسية مريرة ، فرقت شمل الوطن ، وأسالت الدماء غزيراً ،وأرغمت الخصوم على اتخاذهم يدأ من كل شيء، والاستعانة بكل أيد ، وطلب المعونة من أي بارقة ، عركت الكل بثقالها ، لم توفر احداً ، بعيداً كان ام قريباً ، وهددت بسوء المصير والشر المستطير ، كيان الامبراطورية ، وسيادة رومـــا وتفوقها ، على السواء .

ولم يتورع بعضهم في تأليبهم الاحلاف والانصار حولهم ، من استنفار حتى اعدى اعداء الرومان الفارثيين انفسهم ، خصومهـم الالداء . فقد سولت النفس لبمبيوس طلب مؤازرتهم . الا انه عرف ، بما له من لباقة وكياسة وتصريف للأمور ، ان يتفادى الخيانة العظمى ، غير ان الحقد الازرق والموجدة حمل كوينتوس لابيانوس سليل احد قواد قيصر البارزين ابان حروب الفتح في غاليا ، ان يتولى قيادة جيش من جيوشهم ، في هجوم له ناجح ، قام به باتجـــاه البحر المتوسط. وتمكن احد ملوك الدولة الارزادية Arsacides ، من احتلال سوريا وفينيقيا وفلسطين وبسط سيطرته عليها . بينما راح لابيانوس نفسه يبسط سيطرته على كل آسيا الصغرى، وضرب السكة باسمه ولقب نفسه امبراطور الفارثيين . اما اذا كان انطونيوس فشل فيما بعد في تجريدته العسكرية على ميديا Médie ، فقد كان له الفضل في ارجـــاع حدود الامبراطورية الى ضفاف نهر الفرات .

ولحسن حظ روما، لم يكن في الغرب بين الشعوب المنضوية تحت لواء الامبراطورية الرومانية، شعب له من شدة الشكيمة والبأس ، مـــا عرف معه ان يفيد من الأزمة الخانقة التي تخبطت فيها روما . فالعالم الذي كان اذ ذاك ، يأتمر بامرها ، بقي في مجمله، صامداً متماسكاً، فالمحاولات التي قامت بها بعض البلدان الدائرة في فلك الامبراطورية ، بقصد التحرر وخلع النير الرومـــاني الذي رزحت تحت ثقله ، لم تلق النجاح المرتجى . وهكذا، بدلاً من ان تنكمش رقعة الامبراطوية وتتقلص ، راحت ، على عكس ذلك ، تتسع وتمتد وترحب ، باحتلالهـــا ولو بصورة مؤقتة ، اقطاراً في كل من آسيا وافريقيا ، لم يبرهن حكامها عن خضوعهم التـــام ولا امتثلوا ، كما يجب ، للنواهي التي وصلتهم من روما . كذلك تم لها اخيراً ، ان تضم الى ممتلكاتها الواسعة ، مقاطعة جديدة لها وزنها وقيمتها ، هي مصر التي كانت للآن ، من البلدان الحليفة المرتبطة بالامبراطورية بمواثيق ومعاهدات .

وهكذا كل من ارتبط بروما رأساً او بالواسطة ، وشد مصيره الى مصيرها ، اضطر ، طوعاً او قسراً، ان ينحاز لهذا او ذاك من هؤلاء الزعماء المتناحرين، الذين جاشت نفوسهم على السواء ، باطماع أشعبية وزخرت بنشاط محموم وبحيوية لا تعرف الملل في تحقيق الرغائب. ولو كان بالامكان تقويم الخسائر البشرية والمادية التي جرتها على البلاد هذه الحروب الاهليـة النَهمَة ، الاكول ، لبلغت أرقامها عدداً مرعباً . وهذه الحروب ، بما اتسمت به من حول وطول ، وبما رافقهـا من

تكالب مرير ، ومن قوى ضخمة تشابكت فيها وتلاحمت في جميع الميادين ، تجـــاوزت بمراحل كل ما سبقها من حروب أهلية نشبت في تلك البلاد، وشتت منها شمل العباد ، اذ لم تبلغ مطامع الخصوم المتشابكين في الحروب الماضية هذا الاتساع في الطمع والجشع والاهـداف الواسعة التي رمت هذه الحرب الاخيرة الى تحقيقها . والحق يقال ، فالولايات الغربية لم تتضرس بها كثيراً . ففي غاليا ، تعرضت مرسيليا وحدها للأذى والضرر ،إثر محاصرة قيصر لها وإرغامها على التسليم له . أما اسبانيا وافريقيا ، فقد كانت كل منهما ، ساحة حروب دامية ، وقعت في عهد قيصر . وعلى عكس ذلك تماماً ، ففي الحقبة التي عقبت وفاة قيصر مباشرة ، وهي اطول ادوار هـذه الحرب الضروس ، ازدادت العـــاصفة هيجاناً كما ازدادت نار الحرب أواراً ، فاكتوت بلهيبها جميع انحاء الامبراطورية لاسيما ايطاليا والشرق وصقلية، وتجلى العنف على اشده وبرز في جميع اشكاله والوانه : من نفي،وإبعاد بالجملة،ومصادرة الاملاك والمقتنيات، ووضع الجوائز والاعطيات لمن يأتي برأس خصم معين،وهمجية الجند وفظاظتهم والاعمال الوحشية التي قاموا بها ، ونهب المدن التي تؤخذ غلاباً او قهراً وسلبهـــا ، وذبح السكان ذبح النعاج وبيعهم اسرى في اسواق النخاسة والرق ، واستفحال شأن قراصنة البحر وقطاع الطرق بعد ان اختل الأمن واختلط الحابل بالنابل،والاستعانة بالعبيد والارقـــاء وتجنيدهم كما فعل سكتوس بمبيوس ، ومصادرة الاملاك والكنوز المدخرة ، والاموال المكنوزة ، وفرض التجنيد العسكري العام على جميع القادرين من الرجال، وفرض الرسوم والضرائب ، والغرامات الباهظة على المنظمات والجمعيات واعتصارها بشتى الوسائل، والقروض الاجبارية والضرائب الاعتباطية والمصادرة على جميع انواعها، الى غير ذلك من ضروب العسف والابتزاز

وبالرغم من اعفاء الرعايا من الضرائب المباشرة ،وهو امتياز نعموا به منذ اكثر من قرن، لم تنجح ايطاليـا في فرض الرسوم البـــاهظة عليها ، ولا من اعمال التعصب والسلب والنهب والابتزاز ورؤوس الاموال التي كانت الشركات التجارية تستثمرها وتستغلها في اعمال الاتجار، راحت فريسة المغتصب المستبيح. وقد كتب على ايطاليا ان تمد كلا من الزعمـــاء المتنافسين ، بالرجال القادرين على الحرب ليؤلفوا منهم الكتائب التي يستعملونها مطايا للوصول الى اهدافهم وتحقيق اطماعهم . ومهما كان من فظاظة اعمال العسف والضغط والارهاق التي تعرضت لها ، فالشرق الهليني أستهدف لاكثر منها وافظع. فبعد ان سُلبت اقطاره ونُهبت مقاطعاته خلال حروب الفتح الروماني، واستغلها الحكام ورجال الاعمال ابشع استغلال بدت موارده الطـــائلة وكأنها لا تنضب ومصادره لا تنقطع.فكل فريق من هؤلاء الزعماء المتشابكين وقعوا تحت اغرائه واخذوا بما لهذه الاصقاع من سحر جذاب وثروات طائلة فراحوا يمتارون منها ، تباعـاً ما فيه قوام الحرب وعدتها ومادتها.وهذه الاعتدة المخيفة التي أتيح لانطونيوس جمعهـــا ، والنفقات الباهظة التي تكبدها، استمدها من الشرق،بينما لم ينعم اوكتافيوس، في الغرب ، ببعض هذا ، او بما يمكن مقارنته به.

الشرق الهليني ينازع روما الصدارة

ليس من المستغرب قط ، والحالة على ما وصفنا ، ان يبدو الشرق حقلاً مقفلاً حاول معه ذوو الاطماع من الرومانيين تصفية منازعاتهم ووضع حد لهذا الوضع المتأرجح . فشهد أعنف المعارك الفاصلة واشدها هولاً : موقعة فرسال في تساليا،حيث قيّض لقيصر ان يسحق جيش بمبيوس،ومعركة فيلبس في مقدونيا حيث ثأر لنفسه من قتلة ١٥ آذار ، ومعركة أكتيوم في ابيروس، اذ ادى انتصار اوغسطس الى هرب كليوباترا وانسحابها من المعركة، الى هرب انطونيوس واللحاق بها متخلياً عن اسطوله وجيشه . وقد بدا الشرق في نظر المتحاربين ، انه خير الاماكن لتحركات الجيوش ومناوراتها ، فيه من الموارد الطائلة ما يساعد ، الى حد بعيد ، على الكر والفر ، والهجوم والدفاع ، على ايطاليا محط الآمال والانظار . ولما ظهر لبمبيوس اولاً ، ثم للفئة الجمهوريين الذين اغتالوا قيصر ان لا حيلة لهم في البقاء في روما والاحتفاظ بها ، قرروا الانسحاب واللجوء الى الشرق ليقيموا فيه عدتهم للحرب من جيوش وعتاد . وقد حالفهم النجاح الى حد بعيد ، بحيث قرر خصومهم مبادرتهم حالاً بالحرب لئلا يقوى منهم الجانب . اما انطونيوس ، فقد كان عليه في اعقاب معركة فيلبس ان يقرر أي الشطرين يفضل . فما عتّم ان آثر الشرق تاركاً الغرب وقضاياه المربكة وشؤونه المحرجة لاوكتافيوس. وبذلك حسن اختياره وتمت له الحصة الفضلى . وبالفعل ، فقد أنشأ له في الشرق ، قوة حربية ، ضخمة اقتضت خصمه عشر سنوات من الجهد المرير ، والتنمية المدروسة ، والتخطيط ليؤمن التوازن والتعادل معه . ومن بين الدروس البليغة الكثيرة التي أتاحت لنا هذه الازمة الخانقة ، استنتاجها ، الدرس التالي وهو ان العالم الهليني الذي بدا في اعين البعض عييّاً، متعباً ، ومنهوكاً منذ عهد بعيد ، كان بالفعل ، ولا يزال يملك ، في الفترة الاخيرة من تاريخ الجمهورية الرومانية ، حيوية عارمة وطاقات هائلة ، لم يلبينها اصدق الرومانيين فراسة .

فاذا كان ، والحق يقال ، المظهر المادي من هذه الحيوية هو الذي يبرز للعين ، للوهلة الاولى ، فالمادة ليست وحدها مما يستبد بالاذهان ، لا سيا وهنالك عالم الفكر ودنيا الحضارة ، ولكل منهما سطوه على الخواطر ، ووقعه في النفوس .

ففي عالم ، على مثل هذا القدر العظيم من غنى التجربة الطويلة والخبرة الواسعة التي تمت له ، من اي لون او جنس كانت، ألم يكن لروما ان تجد الكثير مما يليق بها اقتباسه واخذه، بالرغم مما اقتبست عنه من قبل واخذت ؟ ففي الشرق وحده ، يمكنها ان تجد الحلول المرتجاة للمشكلات الشائكة التي تتخبط فيها ، والتي لا يصح بعد ، التسويف في حلها .

فقد وضعت احداث الحرب الاهلية الكبرى ، من هذه الناحية ، الخصمين وجهاً لوجه امام تغييرات وتطورات لم تنته الى نتيجة حاسمة . فبتعويل بمبيوس على الشرق الذي عرف ان ينشيء له فيه نفوذاً عظيماً ، بفضل الحملات المظفرة التي قادها من قبل ، ومكثه الطويل بين ربوعه

وبين شعوبه ، ادرك جيداً مـا سيلاقي في هذه المنطقة من امكانات وموارد يفيد منهـا . وباعتماده ، من جهة ثانية ، على مجلس الشيوخ او الندوة الرومانية ، جعل الشرعية والتقاليـد الرومانية المرعية ، الى جانبه ، بقدر ما بقيت هذه التقاليد صحيحة . اما قيصر ، فباعتماده على غاليا، وبما له من نفوذ وسلطان في كل من ايطاليا واسبانيـا ، جعل مقومات قوته وطاقته مرتكزة على الغرب . ومع ذلك ، فقـد تبدى لقيصر انه هو نفسه أقرب من خصمه بمبوس ، الى طريقة التفكير الهليني ونظرته السياسية لأمور الدولة . فقبل ان نتعرف مباشرة ، على الملكية المصرية المؤلهة ، كان عزم في قرارة نفسه ، ان يقوم بإصلاح جذري في نظـام الدولة السياسي والديني معاً ، هذا النظام المتبع في جميع انحـاء الامبراطورية الرومانية . وهكذا تبدت لنا هذه الامبراطورية منقسمة على نفسها الى شطرين، انتصبا ، بفضل خصومة زعيميها ، الواحد في وجه الآخر ، ونهضا بقضية ، لا كبير شأن لهما بها في الاساس . وهذه المفارقة بالذات عرضت عام ٤٢ ، في الواقعـة الكبرى التي ادت الى انتصار قيصر وورثته الناهضين بامره بعد مقتله ، كما افضت بالتالي الى تصفية الجمهوريين ومن لف لفهم .

وقد سارت ماجريات الأمور على عكس ذلك في الطور الاخير من الأزمـة التي وجدت حلها النهائي في معركة اكتيوم . فإقامـة انطونيوس طويلاً في الشرق وتفاهمه مع كليوباترا طرحت من جديد ، وجهاً لوجه ، على بساط البحث اساس الوسائل المادية التي اعتمد اليها وعول عليها ، كل من الخصمين المتنافسين ، كما تناولت بالمثل ، النزعات التي كانا يمثلانها . وقامت الدعاية التي اطلقها المنتصر الفائز تسخر من الشرق ، وتهزأ به ، على أبشع وجه ، هذا الشرق الذي كان شركاؤه ودعاته « لحياة لا مثيل لها » هم أنفسهم زعماء المعسكرين وممثلوهما ؛ وهمـا في نظر فرجيـل : « الإله النبّاح انوبيس *Anubis* » ذو الرأس الذي يشبه رأس الكلب وغيره من مسوخ الآلهة . وقد انتصبوا ، شاكي السلاح، في وجه نبتون وفينوس ومينرفا ، في هجومهم على اوكتافيوس يحف به « اعضاء مجلس الشيوخ والشعب ، وارواح السلف الصالح ، والآلهـة الوطنيون العظام » ، وهو جدل اساسه واقـع صارخ . ففي حال فوز انطونيوس تمسي هذه الامبراطورية التي قامت وارتكزت على سواعد الفيالق الرومانية غير رومانية ، عاصمتهـا الفعلية الاسكندرية ، وليست روما .

نتيجة الصراع

فاذا ما انعمنا النظر في النتائج التي سيفضي اليها ، ولا شك ، نقل العاصمة واستبدالها ، برزت امامنا في الحال ، كلمة باسكال[1] : « انف كليوباترا » . فلو كان هذا الانف اقصر مما كان ، لتغير وجه التاريخ . فاذا مـا تملينا النظر في هذا الانف لبدا لنا بالفعل ، أنه اطول من اللازم . غير ان طابع هـذا الصراع لم يكن ليتوقف على شَوَه أرادته الطبيعية لصاحبة هذا الأنف . ومع ذلك ، فطوله يبقى عميقاً بعيد الغور . فبقاء قوات جرارة في حوض البحر المتوسط الشرقي على أهبة الاستعداد وأتمه ، من شأنه ان يزرع الرعب في القلوب لا سيما اذا ما تولى امرها الرومان ، بعد مـا أخذوا بسحر المدنية الهلينية ، ونفخوا فيها من عبقريتهم في التنظيم ، ومدها بالأطر والملاكات اللازمة ، أمرٌ مجرد التفكير فيـه يهز

(١) باسكال : حياته ، فلسفته ، منتخبات تأليف اندرية كريسون ـ زدني علماً ـ منشورات عويدات

فرائص القوم في روما ، ويخلع قلوبهم هلعاً ، بحيث تحرّج الشاعر الابيقوري هوراتيوس عن اخراج خموره المعتقة من مستودعاته ليستمتع بأطايبهـا . فقد ذهبت أقدار الحرب ومصائرها الآن بهذا الجـزَع بعاري روما، واصبح في مقدورها ان تحتفظ لنفسها ، بالصدارة الأولى الى ان يصبح في مكنة القسطنطينية، بعد لأيٍ من الدهر ، تنازعها إياهـا . وكان يكفي شيء بسيط جداً في الثاني من ايلول ٣١ ق.م ، لتفقد روما كل شيء ، عند ساحل أبيروس ، امـام رأس اكتيوم *Actium* .

فبقاء روما « المدينة » الاولى ، لم يحل دون تعرضها لتغييرات جذرية ، بينها أكثر من واحد يحمل في الصميم طابع هذا الشرق الذي تغلبت عليه وفازت بـــه . فالاخذ بالنظام الملكي أتاح للأحداث المتتابعة فتح الابواب على مصراعيها امام المؤثرات الهلينية التي تجاوزت بكثير هـذه المرة ، وعلى نطاق اوسع ، تلك التي تفاعلت بها في عهد الجمهورية ، ومهدت لها الطريق للتغلغل، والتمطي على شكل لا يقاوَم . وقد اقتضى هذه المؤثرات وقتاً طويلاً لتمكن عروقها وترسخ ، بعد ان صهرتها البوتقة الرومانيــة وأنضجتها وهيأتها للاستعمال ، قبل ان تنتقل بدورها الى الغرب . فلم يتم هذا كله بعملية تسلم وتسليم ، ولا بلسخ حرفي . فليس بمستغرب قط ان يقتصر المعاصرون لهذه التطورات ، عن التحسس بهذا كله ، او ان يستشعروا مسبقاً بمصائر المستقبل .

السلام الروماني : مقوماته ووسائله

وبالمثل ، فقد تأثروا عميقاً بالنهج الذي سار عليه، منذ البدء ، النظام الجديد، فاتسم منذ اللحظة الاولى من إطلالته ، بالمتانة والمهابة . والذي كان من شأنه ان يبدو غريباً ، بدا ، على عكس ذلك ، لمعظم سكان الامبراطورية ، خيراً لا يثمّن ، تمثل في هذا السلام الذي رفرف فوق رؤوس الجميع ، مشيعاً الطمأنينة في الداخل ، والامن في الخارج . اما نتائجه فلم تكن آنية ولا سطحية . فبمجرد ان استتب هـــذا السلام وبُذل في سبيل ترسيخه ما بذل من وسائل وأساليب ، ترك طابعه العميق في هـذه المدنية التي أتاح لها الازدهار مدة قرنين من الزمن . فقـــد سميت بحق : « بالسلم الروماني » وهو تعبير من المستحب الاحتفاظ به لما له من المدلول الخاص الذي سنحاول في ما يلي، ان نكشف عما يتضمنه من المعاني والحقائق الأولية . ومثل هذا التحليل ليس بعملية يسيرة ، كما انها ليست من الهنات الهينات هذه المهمة يضطلع بها الضالع بها بتمهل كلي وتؤدة ، وقد لاقى في مقارعة خصمه العنيد انطونيوس أشد المناة والجهد في الانتصار عليه ، وفي توفيقه الى حل قضية ، بدت على ضوء المحاولات السابقة ، غير قابلة للحل ، مستعصية له . وقد حافظ خلفاؤه من بعده ، على السمات الاساسية التي ألبسها الحل الذي ارتآه ، وقـــد مهد لجيشهم تصميم اصيل قوامه الرغبة الشديدة التي جاشت في صدره ، والوصية التي سلمهم اياها ليتموا الرسالة التي كان بدأها . وهكذا يصح لنا ان ننعت هذا « السلام الروماني » ، بالسلام الاوغسطي ، وقد عرف بهذا الاسم فعلاً ، في اعقاب استتبابه .

ولكي يقيم دعائم هذا السلام على أسس وطيدة ، راح اوكتافيوس اوغسطوس يستغل العياء العام الذي تملك الناس بعد ازمة خانقة كانت 'تخمد منهم الانفاس . إلا ان الافادة من مثل هذا الشعور العابر لم يكن كافياً وحده لتأمين النجاح والاستقرار لهـذا المولود الجديد الذي جاء على يده .

ولكي يوطد عهد هذا ، ويقيمه على أسس ركينة، 'عهد ، عن سابق قصد وتصميم الى روما ، بمهمة تهذيبية سامية . فالسلام الروماني لم يكن بالطبع غير هذا السلام الذي يصون المدنية التي ظلعت بها روما ، هذه المدنية السامية ، وبعبارة اخرى ، هذه الحضارة المنقطعة النظير ، وراح يضارب بكثير من النجاح والتوفيق ، بما أوتيت من سحر وجاذبية ممثلة بهـذه القوى المادية والروحية التي تشع من كل فجّ وصوب .

فقد عرفت روما ، قبل وصوله الى الحكم ، ان تتمثل دون ان تكاد تشعر بذلك او حتى تريده ، عدداً من الشعوب البرابرة ، إنما على نطاق ضيق . فقد خطر لقيصر من قبل ، ان وضع خططاً منهجية اوسع وارحب ، قصد بهـا ، ورمى منها الى خدمة روما بالطبع ، وخدمة مصالحه الشخصية في الدرجة الاولى،على شاكلة ما قام به الاسكندر المقدوني، قبل ذلك بقرنين، وبعض الممالك الهلينية التي أطلت من حطام امبراطوريته . وهـذه الخطة التي أورثها قيصر خليفته ، راح هو ، أي اوكتافيوس ، يتدبرها من جديد بحكمة وتؤدة ، في حدود ضيقة وبقوة اقل ، وبسرعة اخف، وبالتالي بصورة أدعى للنجاح واضمن . فقد راح يخفف من سرعة السير ، ويباعد بين الخطى والمراحل . وعندما قام بعض خلفائه من بعده ، ولا سيما غاليغولا وكلوديوس يوسّعان : هذا من رقعة الامبراطورية الخاضعة للادارة الرومانية ، وذاك يوزع بسخاء كلي ، الرعوية الرومانية وما تخوله لصاحبها من منافع عريضة وامتيازات ، فقد خرجا على ما كان شرع به اوغسطس ونداً عن الصدد . وقد انفسحت امامها ، والحق يقال ، الامكانات لقطف ثمار الغرس الذي غرس ، والبذور التي بذر . يتحتم علينا ألا نأخذ بحرفيـة المصطلح الذي كرّسه الاستعمال، وهو : « مدينة مغلقة » وهو اصطلاح، كثيراً ما استعمل للتعبير عن السياسة التي رمت للتشديد على الصفات التي يجب ان تتوفر في من 'يمنحون الرعوية الرومانية . ويقابل هذا، الوضع المعروف : « بالمدينة المفتوحة » للتدليل على السياسة التي انتهجها قيصر وسار عليها خلفاؤه من بعده ، اذ راح يكثر ، حتى في الظروف التي لم تكن تضطره للاكثار من الانصار عن طريق توزيع الرعوية من عدد المواطنين الجدد ، ولكن على نطاق اضيق واصغر ، رافضاً اعطاء الترقيمات القانونية إلا لمن تتوفر لهم الشرائط الثقافية والمناقب الحضارية . وسلك المسلك ذاته مع افريقيا وآسيا ، حيث ابقى ، في حال وجودها ، واعاد الى الوجود ، عندما تسنح له الفرصة المؤاتيـة ، الممالك والدول التي احتلتها جيوشه من قبل ، فجعل منها دولاً توابع له ، بدلاً من ان يتركها ولايات خاصة، رافضاً ضمها وإفراغها في قالب السلطنة إلا بعد ذلك بكثير . وهكذا وفـّر لها فترة للانتقال، يتولى خلالها الحكم والادارة امراء عرفوا بولائهم للامبراطورية،

واعتنقوا ، قلباً وقالباً ، المثُل الرومانية ، وهو من ورائهم يرشدهم ويبذل لهم النصح في المهمة التي يضطلعون بها ، مهيئاً لهم بذلك ، على مر الزمن ، سبل القبس والتمثيل .

والسلام الذي عرف ان يؤمنه على هذا الشكل ، ويحققه في داخل الامبراطورية وعلى حدودها الخارجية ، عن طريق استمالة الناس لِمثُل المدنية الرومانية ، شابه شيء من التفاؤل الرخيص . ولكن بعد ان انتهت الحروب الداخلية الى ما انتهت إليه من إقرار السلام، لم يكن أحد ليجهل ان باستطاعة ابناء الوطن الواحد ان يثوروا بعضاً على بعض ، ويتلاحوا بعنف أشد من العنف الذي يقع على البلاد من الأجنبي الغازي . فضرب اوغسطس بهذا الاعتبار عرض الحائط، وراح يدافع عن مذهبه الواقعي،ويبحث عن أسباب اخرى وبواعث تزيد النفوس طمأنينة وايماناً .

والنظام السياسي والاداري الذي عرف ان ينشئه أمّن له بالفعل السلطة ، ان لم يكن ليدير بنفسه كل شيء ، فانه ليشرف على كل شيء ، ولذا كان من خطل الرأي القول بان التشريع الذي استنّ كان الحافز اليه شهوة الوصول الى الزعامة الفردية . فمظاهر الاعراض او الترفع الذي بدت عليه ، في اعقاب معركة اكتيوم للإبقاء على هذه الامتيازات اصلاً ، والتوسيع لها فيا بعد ، لا يمكن ان تخدع احداً . ولكن هذه المظاهر الهزلية كانت تخفي وراءها شعوراً صادقاً لا يشوبه اي طمع او طموح شخصي ، اذ انه اعتقد اعتقاداً ثابتاً وطيداً بانه لا بد لروما وللامبراطورية من سيد اعلى . وبالفعل ، فجمعه بين يديه السلطة السياسية والعسكرية ، كان الوسيلة الوحيدة الكفيلة بمنع الويلات والاضرار التي لا بد ان تنزلها بالبلاد ، أطماع الزعماء وجشع المتنافسين على السلطة . ثم ان تنظيمه للجهاز الإداري وإحلاله القانون والعدل في فرض الضرائب ، وجباية الخراج والرسوم — وكلها اصلاحات لا بد منها لوضع حد للابتزازات والاختلاسات التي تبعث على التذمر وتثير الخواطر — كل هذا قضى عليه ان يفرض قبضة قوية، شديدة الوطأة ، لا تراخي فيها ولا تحللاً . كان لا بد من امبراطور يفرض نفسه وهيبته على الاحزاب والولايات وقادة الجيش ، ورجال المال واهل الثراء . فلا سلام داخلي الا بهذا الثمن ، وعلى هذا الاساس . وقد استصوب الناس مثل هذا التدبير الحكيم، بعد الاختبارات المريرة التي مرت بهم وبينوا ما فيه من نفع جزيل لهم .

القوة اساس السلام الداخلي

بعد هذا الذي عرضنا له ، بقي علينا شيء اساسي لا بد من المجاهرة به . فالسلام الروماني الذي نظمه اوغسطس وعرف خلفاؤه من بعده ، ان يصونوه ويحافظوا عليه ، طيلة قرنين كاملين ، لم يكن معنى هذا النوع من السلام الغرّ ، المترهل، المستضعف، « رومانياً » فقد كانه في الصميم ، لان روما تحتت منه القسمات وفرضته ، وقامت تراقبه وتسهر عليه ، ولم تهمل كبيرة او صغيرة حتى يبقى لواؤه مرفرفاً فوق الجميع ، خفاقاً في جميع الارجاء ، مستعدة دوماً لاستعمال القوة لصيانته من عبث العابثين .

كان من الممكن بعد ، ان تهب على البلاد ثورات في الداخل . فالعالم الروماني ، فيه ، هو الآخر ، فريق يعاني الحرمان ، لم تكاثرث له الحكومة إلا بالقدر الذي يرغمه على احترام القانون والنظام الاجتماعي والتسليمّ بالوضع القائم. ثم ان ما لهذه المدنية من سحر وفتنة يختلف وقعه على الرعايا ، طاقة وقدراً بين الفعل والقوة ، ما يستحسن معه فرض اقل ما يكون من السلبية . ثم إن في استمرار الولايات على تذكر ايام استقلالها ، واستمرار الاهلين على تذكر امجاد السلف ومآثيهم وامجادهم ، كل ذلك يكوّن مرتعاً خصباً للثورات والحركات الانتفاضية . صحيح انه لم يحدث في القرن الاخير من العهد الجمهوري اضطرابات في الولايات اختل لها حبل الامن وتعكر السلام . ولعل اهم حادث من هذا القبيل هو ما حدث في آسيا الصغرى وبلاد اليونان ، في عهد متريدات ، اذ انه غزا البلاد واحتلها ، بعد ان اهاج منها خواطر الاهلين بدعاياته ونداءاته ، وسوّل لهم الانتقاض على الرومان . وباستثناء بعض المناطق الجبلية الصعبة المنال ، والوعرة المسالك ، وبعض القطاعات الجبليـــة في اسبانيا وسردينيا والساحل الجنوبي لآسيا الصغرى ، أدرك الناس عدم جدوى الانتفاضات التي قاموا بها لزحزحة النير الروماني عنهم ، فاستسلموا صاغرين للمصير الذي انتهوا اليه . وقد اتسعت اطراف الامبراطورية بما ضم اليها من الولايات ، منها غاليا، مثلاً التي تم فتحها قبل نشوب ازمة الحروب الاهلية ، ومنها ايضاً مصر التي دخلت الامبراطورية مقاطعة من مقاطعاتها، عندما كانت جذوة هذه الحروب آخذة في الخمود . فكيف السبيل ، والحالة هذه، الى اطمئنان روما لولاء هذه الاقوام ، بعد ان عانت ، في عهد الجمهورية، الكثير من الحركات الانتفاضية وخروج الولايات عليها ، لعدم اعتصامها بالفطنة والحكمة في تصرفها نحوها ؟

والحل الذي توصلوا اليـــه اخيراً ، لم يكن قط قائماً على إقامة حاميات عسكرية في قلب المقاطعة او الولاية . فاستعيض عن هذا كله بأقل عدد ممكن من شراذم الجند ، وهو امر يبدو لنا غير قابل التصديق. من ذلك ، مثلاً ، فرنسا، هذه البلاد الشاسعة الاطراف ، التي تم فتحها في ايام قيصر ، باستثناء الالزاس واللورين ، فقد كان فيها طابور واحـــد لا يتجاوز عدد افراد رجاله الالف ، يعملون الى جانب سرايا اخرى مخيمة بالقرب من الحدود. والامبراطرة الرومان لم يعرضوا سوى عدد ضئيل من فيالقهم تفادياً لاستعمالها ، اذ انهم كانوا يعوّلون ، بالاحرى ، على الحاميات القوية المرابطة على الحدود ، والتي كان باستطاعتها ان تعود ادراجها الى الوراء ، اذا ما دعت الحاجة الى ذلك .

وبالفعل ، فقـد حدثت بعض حروب داخلية ، بالرغم من التدابير الاحترازية التي اتخذت من قبـل ، منها مثلاً ، الحروب التي نشبت بمناسبة الازمة العسكرية ، التي اندلع لهيبها عام ٦٨ – ٦٩ ، بعـــد الميلاد ، ومحاولة اغتصاب السلطة التي قام بها أفيديوس كاسيوس ، في عهد الامبراطور مارك اوريل . فقد وقعت كذلـك انتفاضات في الولايات التي معظم سكانها من الحضر ، إلا انهـا كانت نادرة لم تدم طويلاً . وعندما كانت قوى الامن الموضوعة تحت تصرف

الادارات المحلية عاجزة عن اعادة الامن الى نصابه بعد ان تكون الطبقات الاجتماعية ممالئة للحركة الانتفاضية في البلاد ، تتولى ، اذ ذاك ، الجيوش المرابطة على الحدود ، مهمة إخماد الفتنة وتتولى الامر بأهون السبل . وعندما راحت الامبراطورية تخمد الثورة التي نشبت ، عام ٦٩ – ٧٠ في الجهة الشمالية الشرقية من غاليا ، او تحاول إخماد « الحرب اليهودية » التي نشبت في اول عهد الاسرة الفلافية في عهد الامبراطور هدريانوس ، لم تضطر للاستنجاد بقواتها كلها لاعادة الأمور الى مجراها الطبيعي . اما البلاد التي اهلها من البدو الرحل، او صعبة المرتقى لطبيعتها الجبلية فالمهمة فيها كانت اشق واصعب ، لأنها كانت تتجدد كل يوم ، فيقتضي ذلك الاكثار من الوحدات الخفيفة التي تتحرك بسرعة ، من مراكز للمراقبة ، للوصول بعد طول جهد وعناء ، لنتائج تكاد لا تذكر .

القوة الخارجية

فاذا كان السلام لم يتوفر ، على أكمله ، في داخل البلاد فهو لم يستتب ابداً ، مع الخارج . انتصب في قلب روما ، على مقربة من الفوروم (الساحة العامة) هيكل على اسم الإله جانوس ، عُرف باسم جانوس كويرينوس ، كانت ابوابه تبقى دوماً مفتوحة على مصراعيها طالما كانت الامبراطورية ، رسمياً ، في حروب مع الخارج . ولعل آخر مرة أُغلقت فيها ابواب هذا الهيكل ، كانت سنة ٢٣٥ ق . م . اما في عهد اوغسطس الذي جعل من السلام قضيته الكبرى ، واناط بها شهرته في الخارج ، فقد أُقفلت ابواب هذا الهيكل ، ثلاث مرات لا غير ، إلا انها لم تكن لتلبث ان تُفتح من جديد ، مع العلم انها كانت مفتوحة عندما حانت ساعته الاخيرة. وبعد وفاته ، أُقفلت ابواب الهيكل مرات معدودات، لم يتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة ، حتى مطلع القرن الرابع للميلاد .

فالامبراطورية الرومانية نهضت ، والحالة هذه ، بأعباء حروب عدة متنوعة الاهداف والاتجاهات ، قلّ ان تكون دفاعية ، بالمعنى الحصري ، اي مبعثها تعديات من الخارج . وأهم هذه الحروب هي التي وقعت في عهد الامبراطور مارك اوريل، في منتصف القرن الثاني للميلاد، عندما تجاوبت حدود الامبراطورية ، في الشمال بتحركات الشعوب التي تغلي بها عالم البرارة في الشمال والشمال الشرقي من اوروبا ، وتمخض بها ليطلع منها ، في ما بعد ، بتلك الغزوات التي انهالت على العالم الروماني . وهذه الحروب ، كانت الغاية منها في الغالب الفتح وتلبست وجوهاً متعددة .

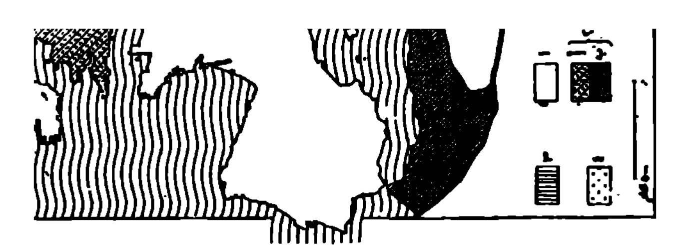
قام بعض هذه الحروب بدافع السيطرة وبسط رقعة الامبراطورية رغبة بضم مقاطعات طمعاً بخيراتها الوافرة . فقد رغب الامبراطور كلوديوس بمناجم بريطانيا ، فأرسل الفيالق الرومانية تحتلها . كذلك طمع الامبراطور ترايانوس بمناجم داسيا ، فيمم شطرها وعبر اليها ، مجتازاً نهر الدانوب . وهكذا كانت الاسباب الاقتصادية الباعث الاقوى لهذه الحروب ، يقوم بها ترايانوس في الشرق : فيحتل شبه جزيرة سيناء وما وراء الاردن، وأنشأ منها ولاية رومانية

جديدة ، عرفت « بالولاية العربية » ، كما راح يحاول تقليم اظافر الفارتيين ويستخلص من ايديهم بلاد ما بين النهرين وبابل ، مسهلاً بذلك التجارة مع بلدان الشرق الأقصى فيرهقها الفارتيون بفرض رسوم باهظة .

وهنالك حروب اخرى قامت بها الامبراطورية لتوسيع رقعتها في الظاهر ، بينما الغاية التي رمت اليها كانت بالفعل تنظيم وسائل الدفاع عن الامبراطورية، على نطاق اقليمي او موضعي ضد خطر قائم ، او محتمل الوقوع . فكانت هذه الحروب تشنها الدولة الرومانية ، دروساً بليغة لجيرانها المشاغبين من جهة ،ومن جهة اخرى تقوية لشبكة دفاعها على الحدود، وذلك بانشائها سلسلة حصون وقلاع تقيها هجماتهم، او لاحتلال مراكز ستراتيجية جديدة اكثر ملاءمة من القديمة فتوفر بذلك عليها بعض الفرق ، عن طريق حذف نتوءات بارزة او اختصار خط الدفاع الأمامي . فالحروب التي خاضتها الامبراطورية في جرمانيا ، وهي حروب ليس هنا مجال التبسط بها ، تعد خير دليل وشاهد على هذه الستراتيجية الهجومية التي كانت في صميمها ، دفاعية محض ، اذ كانت غاية خطة اوغسطس من الحملة التي عهد بها الى قائده فاروس ، والتي فشلت ايما فشل ، التقدم حتى نهر الإيلب *Elbe* ،فيتم له بذلك ربط البحر الشمالي بنهر الدانوب، عن اخصر الطرق واقومها ، وهو خط الحدود الذي انشأه قيصر . ومن هذه الحروب التي شنها الرومان تحقيقاً لستراتيجيتهم المرسومة ، المركز المعروفة بحقول الديكومات *Champs Décumates* (راجع الشكل ٨ ص٢٨٣)وهي الأراضي الواقعة تحت سيطرة الرومان بين الغابة السوداء وسلسلة جبال الجورا الصوابية ، وكانوا اقاموا حولها شبكة من القلاع والحصون المنيعة .

لم تؤثر هذه الحروب جدياً على امن البلاد في الداخل، ولم تتضرس بها سوى الولايات الجانبية . فاذا ما اصاب ايطاليا منها بعض الرذاذ ، في عهد الامبراطور مارك اوريل ، فقد اقتصر الضرر على الولايات الشمالية دون سواها ، على اثر اختراق خط الدانوب. وقلما حدث ، باستثناء الحقبة التالية ، حروب تناولت عدة جبهات معاً في وقت واحد ، وهي حروب لم تؤلف ، على ما يظهر ، عبئاً ثقيلاً للامبراطورية . والثابت انها تكاثرت وتواترت ، فاقتضاها النهوض بها جهداً موصولاً ويقظة مستمرة . عرفت روما مصير كل الامبراطوريات الضخمة التي اعتبرت قوتها مصدراً لحقوقها ، هذه الحقوق التي تلزمها ايضاً بواجبات لا محيد عنها . غير ان روما لم تكن في عداد هذه الامبراطوريات التي ارتضت مثل هذا المصير، بل على عكس ذلك ، كانت بالاحرى ممن تتحكم به .

فالحقوق والواجبات هي من صميم رسالتها . فاسمع ما يقوله فرجيل بهذا الصدد : « تذكر جيداً ايها الروماني ان عليك ان تحكم الشعوب، هذه هي فنونك الجلية: ان تتعرف الى حقوقك وان تنهض بواجباتك . فليس بينهما ما يصدم المثل الرومانية التي ألفتت على السواء، القوة والاخلاق الحربية ، والتي تنسجم على لمثل ما يكون مع المثل الامبراطورية التي لم تكن غير مثل دولة عسكرية .



الشكل ٧ – الامبراطورية الرومانية في آخر الدولة الانطونية داخل الحدود.

١ - الامبراطورية عند وفاة أوغسطس ؛ ٢ - ١ - الفتوح الرومانية من أوغسطس الى ترايانوس ؛ ٢
بـ عند وفاة اوغسطس والتي تم ضمها الى الامبراطورية فيما بعد ، خلال القرن الاول ؛ ٣ - فتوح
الولايات التي ألحقها ترايانوس بالامبراطورية ثم عادت فانفصلت عنها بعد وفاته .

وهكذا ، مهما بدا هـذا السلام ناقصاً ، مهدداً ، او دوماً في وضع المهدد ، فقد كان « رومانياً » وأوغسطياً ، له وقعه في النفوس واحترامه في القلوب ، ابداً على استعداد لامتشاق الحسام لزرع الخوف وفرض الاحترام ، وهي سياسة لم يكن في مقدوره انتهاج غيرهـا : فقد كان في اتم سعوده : سلاماً مدججاً .

قصور الحلول العسكرية الجديدة

لنُلق، منذ الآن نظرة متملية على الجيش الامبراطوري ، قوام السلام الروماني وأداته الطيّعة ، والتُكأة التي قامت عليهـا المدنية الرومانية خلال هذين القرنين .

مجرّد تشكيل هذا الجيش لم يكن من الامور البسيطة ، ولا من المهـام اليسيرة ، يراعى العمل به وفقاً لمقتضيات الوضع القائم . فامتداد رقعة الامبراطورية ، وتباين اقوامهـا : عروقاً وأجناساً واجيالاً ، وامتداد اطرافها ، وقيام شعوب وقبائل مزعجة ، مشوشة بجوارها ، كل هذا وما اليه ، اقتضى حلولاً جديدة . من الامور التي ميزت النظـام الامبراطوري وأبرزته بوضوح عن العهد الجمهوري الراحل ، قيام جيش دائم لم يتوقف انشاؤه ووجوده عـلى ظرف طارىء وحادث معين ــ هو حالة الحرب المستمرة ــ كما كان عليـه الوضع الراهن في العهد الجمهوري . فكيان هـذا الجيش وقوامه ، انبثقا من صميم النظم الجديدة التي طلعت على الامبراطورية . ولم يخلُ قيـام الجيش وبقاؤه من مشكلات عديدة ، معقدة ، لم يتوصلوا الى حل بعضها إلا بتسوية واهية من التوازن المتأرجح .

وهذه الفيالق ، كيف السبيل الى تكتيبها وتعبئتهـا ؟ وانّى يجب ان ترابط وتقوم ؟ لم يكن من المستطاع الرجوع القهقرى الى الوراء ، الى نظام الخدمة العسكرية الإلزامية العامة التي انتسخ الأخذ بها ، منذ عهد ماريوس ، فكان الرجوع اليهـا في الحروب الداخلية تدبيراً تعسفياً طالما تذمر منه الناس وتململوا . قد يرضون عن مثل هذا التدبير عندمـا تتعرض البلاد لاخطار داهية ، دهماء ، توردها الهلكة . ولذا أبقوا عليها من حيث المبدأ ، ولم تطبق الا في الحـالات القصوى النادرة جداً . ولم يكن في طاقة احد ، ولا في مقدور اي انسان كان ، ان يفرض على الناس اجمع ، تحت اي سماء عاشوا ، وفي اي مكان حلوا من هذا العالم المتمدين ، او كانو في اقاصي اطراف الامبراطورية ، حيث تمر الحياة رتيبة ، كئيبة ، ليس ما يميزها في هذه الحصون النائية ، حياة تفرغ على نغم واحد في المراكز والقلاع الامامية ، والمناورات الحربية والاشغال اليدوية الاجبارية . ولهذه الاسباب مجتمعة ، كان لا بد من جيش محترف ، تضرّس افراده بالانتظـار الممل ، وألفوا مواجهـة المخاطر والطوارىء . وجيش على هذا النحو لا يمكن ان يقوم الا على متطوعة يقبلون ، طوعاً واختياراً ، على الخدمة العسكرية ويتدربون على فنون الحرب والجهاد ويشبون على المهنة ، ويتمرسون بها طويلاً من خلال مزاولة يومية ، وتمارين مستمرة .

وهذا الوجوب ، اقتضى بالطبع ، وجوباً آخر : إلزام بإلزام . فقد كان من المحال اجتذاب

مثل هذه الحشود من المتطوعة ، وعلى القدر الكافي وبالعدد الوافي ، بمثل هذه التعلات التافهة التي لوحت بها الجمهورية السالفة . فالولايات التي تعسكر فيها الكتائب الرومانية باستمرار ، كان لا بد من بقائها وحفظها سليمة ، فلا تتعرض ، بتشجيع من المسؤولين او بتغاضيهم ، لأعمال الابتزاز والاعتصار . فالحروب لم تعد مورد رزق ورجعة رابحة ، لندرتها من جهة ، ولوقوعها، في أكثر الاحيان ، في بلاد غير ذي خصب ولا عطاء، من جهة اخرى. والتطوع في الجيش يجب ان يُقبِل عليه الناس لما في السلك من غنم وارباح : كالمرتبات والجرايات، والمكافآت العينية او النقدية التي يصار الى توزيعها في بعض المناسبات، وتعويضات سخية تعطى لهم لدى التسريح من الجيش ، او الترفيع الى مرتبة اجتماعية او قضائية اعلى . كل هذه منوّعات ومغريات كانت تتبلور بالفعل ، عن نفقات ومصارفات ترزح كاهل الدولة الى جانب ما كانت تُرزح به الخزينة في هذه الدولة ، من اعباء ومسؤوليات يقتضيها تأمين وسائل العيش لأفراد الجند ومدّهم بما يلزم من عدة الحرب والسلاح .

ولذا كان لا بد من الاستعانة بمادة بشرية استخدامها يكلف الدولة اقل بكثير من الاستعانة بالعناصر البشرية المتباينة العروق والاجناس التي تألف منها مجموع سكان روما ، الذين اصبحوا ، مع الزمان ، وبفضل المآتي التي حققها السلف الصالح ، الطبقة الارستوقراطية في المدينة بحيث انها اخذت تمج الحياة العسكرية ، وتكره ما فيها من مضايقات ، لا يرضون بتحملها مها لحقهم من منافع وامتيازات في حال قبولهم بالتجنيد . ولهذه الاسباب راحت الامبراطورية تدعو للخدمة في جيشها ، سيراً منها مع التقاليد التي تمشت عليها الجمهورية من قبل ، لتأمين سلامتها وصيانة أمنها ، ليس رعايا احدث عهداً بهذه الرعوية فحسب ، بل ايضاً فرقاء ، دونهم وضعاً اجتماعياً ، تختارهم من بين سكان الولايات ومن بين الاجانب ، فألفوا معاً نصف الجيش المحترف تقريباً . فقد أغرام العمل والخدمة في جيش روما الفاتح اغراءاً تجاوز في نظرهم الربح المادي الذي طمعوا في الحصول عليه ومنّوا النفس به. وهذا ابرز واوقع ما تميزت به المدنية الرومانية من قوة الجذب والاغراء. فبعد ان نشأت السلطنة الرومانية على سواعد حلفائها ودماء رعاياها، اذ بنا نرى روما اليوم ، تتوجه اليهم ، مرة اخرى ، في مهمة الحفاظ على هذه الامبراطورية والذود عنها .

فالقضية العسكرية ألتفت ، الى جانب المادة البشرية التي هي عماد الجيش ، مشكلة مادية لا تقل حدةً عن الاولى . فمنذ عهد اوغسطس ، كان على المواطنين الرومان المعفين من الخدمة العسكرية ، ضريبة بَدَل خدمة، مقدارها واحد في العشرين من اصل التركات المورّثة ، لتغذي صندوق الجيش وتعويضات الصرف من الخدمة . ومهما بلغ من غنى الامبراطورية اذ ذاك ، وضخامة فيئها ، فقد كان عليها ان تواجه ، الى جنب الاعباء المالية المترتبة على حشد مثل هذه الحشود الضخمة من الجند ، النقص البشري الذي كانت تعاني منه ، أكثر من اهتمامها بعجز خزينتها ، اذ كانت تنوي جمع هذه المبالغ من رعاياها ، دون سواهم . وقد لاقت في هذا السبيل

الكثير من العنت والازعاج حتى في ابان عزها وأوج ازدهارها . فكان عليها ان تسن وتشرّع ما هو في طاقتها ، اذ لم يكن في وسعها توفير اسباب السياسة التي تمنى بعض امبراطرتها اتباعها والسير عليها .

وتنظيم قيادة الجيش العليا هو نفسه ، لم يلاق عندها الحل الامثل والاكمل ، اذ ان ارتباط هذه القيادة بشكل الدولة والنظام الاجتماعي الذي كانت عليه ، كان يحول دون النظر الى هذا المنصب الخطير بتجرد . ولذا كان لا بد من ان ترتبط قيادة الجيش العليا ، رأساً ، بالامبراطور نفسه . فبقاء الامبراطور واستمراره في الحكم، ارتبط الى حد كبير ، ببقاء الجيش ، واستمراره هو الآخر، يتوقف على استمرار الامبراطور نفسه. وهذا الجيش المرابط معظمه على الحدود ، كان يتألف بالفعل من عدة جيوش ، لكل منها قائده. فكيف السبيل ، والحالة هذه الى انتقاء هؤلاء القادة ، وكيف يمكن الحيلولة دون تسخيرهم الانتصارات التي يحققونها لمصلحتهم الخاصة ، واستغلال منزلتهم في الجيش ونفوذهم عليه ، للوصول الى السلطة العليا ؟ ومن جهة اخرى ، فالجنود انفسهم ليسوا بشيء يذكر مـا لم تتوفر لهم الأطر والملاكات التي تنتظم سلكهم . فما السبيل ، لعمري، لتأمين هذه الملاكات،وتأمين تدريبهم الفني والمسلكي؟ وعلى أي اسس يجب ان تقوم ترقيتهم ، وان تنتسق ترفيعاتهم ، وما هي القاعدة الذهبية لتحقيق هذا كله ، على الوجه الاكمل ؟ وما عسى ان يكون محلهم في السلم الاجتماعي ؟ وكان من مصلحة النظام الجديد الذي طلع على البلاد ، الفصل بين السلطة المدنية والسلطة العسكرية، وذلك بتحديد إختصاص كل منها وتأمين الانسجام والترابط بينها. كذلك، كانت المصلحة العامة تقضي ان لا ينظر، عند الانخراط في الجيش وتقرير الترفيعات ، الا لمن أنسوا منه الميل العميق للسلك العسكري ، ومن توفرت له الاستعدادات الخلقية اللازمة ، وبرهن عن كفاءاته العسكرية في المعارك الحربية ، دون ان يُؤبه الى شيء آخر : كالاصل والفصل ، والحسب والنسب . وسنجهل ابداً، ما اذا كان الامبراطرة اوضحوا هذه الأمور كلها وحددوا لها الأهداف ، او انهم لم يتمكنوا ، او بالاحرى لم يحاولوا ضرب عرض الحائط بهذه العوامل والتخلص من التقاليد المرعية .

فقد بقيت ابواب مجلس الشيوخ موصدة امـام ابناء هؤلاء الاعضاء بينما بقيت كل مراكز القيادة وقفاً عـلى هؤلاء الاعضاء . فالخروج عن هذه التقاليد التي كانت تشد بعضها الى بعض الجهازين الاداري والعسكري، كان بمثابة خروج على مجلس الشيوخ. فالانتقال من جهاز الى آخر، لم يكن امراً مستحيلاً، وإن دقت سبله او ضاقت منافذه. فالوصول الى مجلس الشيوخ ، والتقلب في وظائفه : ترقية وترفيعاً ، هو من هذه المكافآت المحفوظة لخدام الدولة الامناء . وكلها امور يُرجَع بها الى الهيئة من المحكمين، تخضع قراراتها وترتيباتها الانتخابية لمواقف الاحزاب المتنافسة وتأثيراتهم . وقد اوجب رفع عدد ملاكات الجيش ، لعمري ، الاستعـانة بطبقات اجتماعية اخرى ، اذ ان اعضاء مجلس الشيوخ ،فقدوا ، لقلة عددهم وضـآلته ، هذا الاحتكار الذي مارسوه ، من هذا القبيل، وتمتعوا به طويلاً، وحدهم دون سواهم . فأخذنا نشاهد ، عـلى مر

الزمن، طلوع فرسان وضباط، وضباط صف،من بين افراد الجند. الا ان السعي لاملاء الملاكات لم ينحط ليبلغ ادنى دركات السلم الاجتماعي . فالوحدات الجديدة افرزت لها قيادات جديدة احتفظت بها واقتصرت عليها وهي ، على الغالب ، ادنى مرتبة من الاخرى ، ودونها جذباً واغراء ، بينما بقيت القيـــادات الاولى تعاني النقص . ولم تتم المنافسة بين الفريقين الا بعد ان خضع ضباط الثانية لتدريب طويل او عند ما راح الملك يغمر برعايته وعطفه، ضباط الشفاليه حتى اوصلهم الى مرتبة المشيخة .كما اوصل ضباط البيــادي الى فرقة الخيالة . والتدرج الحكيم في هذه المراتب دعا ابناء الطبقات الى شيء من الحماسة وحملهم بالتالي ، على التنافس والمبــاراة فيما بينهم ، فساعد ذلك عـلى صيانة المجتمع من التفسخ والانحلال ، كما ساعد الامبراطور على الاحتفاظ بسلطته على الجيش وسيطرته عليــه ، اذ مكنه من ان يكافىء الاخلاص ويشجع الكفاءة الشخصية . الا ان الامر ألحق بعض الاذى بالقيادة : وانتقص من قيمتهــا والمؤهلات التي يجب ان تتحلى بها . فقد كان من اثر هذه التدابير ان اقتضت وقتاً اطول لبروز الكفاءات كما اقصرت التجلي والظهور على بعض الظروف والمناسبات كوقوع الازمات ، مثلاً.

تنظيم القوة : البحرية

طرأ عـــلى تنظيم الجيش وتشكيله ، خلال القرنين الاولـــين من عهد الامبراطورية ، تطورات كثيرة يقتضينا تقصي مراحلهــا استطرادات وتفاصيل لا محل لذكرها هنا. فلنقتصر على نظرة عابرة نلقيها على خير العهود التي قامت فيه القوات الرومانية بدورها العسكري ، على الوجه الامثل ، باعتبارها حصن العــالم الروماني الحصين ودرعه المتين ، اي في منتصف القرن الثاني للميلاد ، خلال حكم هدريانوس وانطونين .

فالاسطول البحري لم يكن له شأن يذكر . فالبحر المتوسط الذي اصبحت جميع شواطئه وما وراءها من اقطار خاضعة جميعها للسلطة الرومانية، هو نفسه بحاجة للأمن ولبعث الطمأنينة في النفوس . ففي هذه البحيرة الداخلية التي تقع في قلب الامبراطورية ، تمر خطوط المواصلات التي تربط روما بجميع الولايات التابعة لها . واعمال القرصنة البحرية التي كان لا بد من ازالة كل خطر لها في القرن الاول ، كادت تفقد ، الا ما ندر ، كل اثر لها . وهذه الاساطيل الحربية التي كانت تمخر عباب اليم في اواخر الحروب الأهلية ، فقدت الكثير من شوكتها وشكيمتهـا . فمنذ ان انتصف القرن الأول اصبح في استطاعة السلطة ان تسحب فرقتين رومانيتين اضافيتين من اصل جيش المشاة الذي عهد اليه العمل على ظهر الاساطيل الحربيـة ، والحقتا نهائياً بالجيش البّري . ولعل العمارة الوحيدة التي حافظت على قوتها وبأسها ، هي العمارة التي عهد اليها بتأمين المواصلات مع بريطانيا، ومراقبة سواحل البحر الشمالي ، مؤمنة الاتصال بجيش الرين السفلي . اما الطرق النهرية الواقعة على الحدود ، ولا سيما على الرين والدانوب ، فقد قامت فيها عـمارات اخذت ، هي الاخرى ، نصيبها في الدفاع عن الامبراطورية متعاونة مع الجيش البري على ذلك. وكل هذه الاساطيل لم تكن لتؤلف شيئاً يذكر في امر الدفاع . فقوة روما هي قوة جيشهـــا البري . فالبحارة والقوى العاملة على هذه السفن الى جانبهم ، لم يكن لها من الشأن مـا يمكن

مقارنته بأقل فرق الجيش البري. ولم تند الامبراطورية هنا عن تقاليد روما التي رأيناها دوماً، طوال تاريخها المديد، تعجز عن القيام بجهود بحري حربي استطال اكثر ممـــا اقتضته حرب معينة، الأمر الذي جعلهـــا دوماً تفاجأ بخطر انتصب امامها بغتة، وسبب لها الكثير من المتاعب ووجع الرأس.

الجيش الروماني: اللجيون

استأثر الجيش بعناية الاباطرة ورعايتهم. فقد بلغت قوةهذا الجيش نحواً من ٣٥٠٠٠٠، وهو لعمري عدد ضئيل جداً بالنسبة لعدد سكان الامبراطورية البالغ ما لا يقل عن ٥٠ مليون نسمة. وهذا العدد الضئيل جـــداً، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار التسعة آلاف كيلومتر من الحدود البرية، بقطع النظر عن الصحراء الكبرى وبلاد العرب التي تتنقل فيها قبائل البدو الرحل الذين دئبوا على أعمال السلب والنهب. ويجب الا ننسى ما كان يترتب على هذا الجيش من أعباء المراقبة حتى ما تعلق منهـا بشؤون الادارة الداخلية احياناً، وغيرها من المهام التي كانت تستنفد جانباً من الجيش العامل، المكلف بأمور الدفاع عن البلاد ضد كل خطر خارجي. من ذلك مثلاً، وضع الحامية الرومانية في رومـــا نفسـها، وهو تدبير اجرته الادارة الجديدة في العهد الامبراطوري دون ان يقوم ما يماثله في روما خلال العهد الجمهوري. وكان لا بد من هذه الحامية لأمن السلطة المركزية وسلامتهـا، وللأمن الداخلي في المدينة. فمن اصل الـ ١٢٠٠٠ جندي الذين كانت تتألف منهم الحـــامية، في عهد الامبراطور طيباريوس، شكل قسم منهم، بلغ عددهم ٤٥٠٠ جندي، الحرس الامبراطوري الخاص. وتألفت الحامية من ٩ طوابير هي عماد الأمبراطور وعدته في الحملات التأديبية التي كانت تدعو الحاجة اليها من وقت لآخر. وما تبقى من هـــذه القوة، بين كتائب خاصة بالمدينة وبالحراسة ليلاً، لم يفارق المدينـــة بحيث يؤمن لها ما تحتاج اليـــه من قوة بوليسية وسريّات لمكافحة الحرائق عند نشوبها. وعلى هذا النحو تقريباً كان وضع القوات الرومـــانية المرابطة في اسبانيا، سواء منها القائمـــة في شبه الجزيرة الايبيرية او التي كانت منها تعمل في مقاطعة موريتانيا – المغرب اليوم – فلم يكن من مهمتها التصدي للأجنبي.

وهكذا يتضح ان الجيش الامبراطوري كان بحاجة الى كل فرد من افراده، والى كل مـا تمتع به من كفاءة عسكرية ومهارة في فنون الحرب، ليقوم على الوجه الاكمل، بالمهمة الموكولة اليه والتي قام بها بشكل مرضي.

اما الوحدة النموذجية الكبرى، سيدة المعارك المعبأة، فلا تزال تحمل الاسم الذي عرفت به من قبل، وهو «اللجيون»، هـذا الاسم الذي ارتبط ابداً بالامجاد التي حققتها الفتوحات الكبرى التي عليها نشأت السلطنة الرومانية، وهي فرقة لم تدخل عليها الامبراطورية تعديلات تذكر، باستثناء سريّة من الخيالة ألحقت بها، لم يتعدّ عدد افرادها ١٢٠ فارساً. واللجيون،

وحدة مشاة في الاساس ، يتراوح عددها بين ٥٠٠٠ – ٦٠٠٠ جندي ، وهو عدد تباين الكتبة والمؤرخون الاقدمون في تحديـــده . وتتألف اللجيون من : طوابير *Cohortes*، وكراديس *Manipules* وسريات *Centuries* ، ينتظمها جميعاً ملاك قيادي ، متين ، يتألف من ٦٠ ضابطاً برتبـة قائد مائة يعرف عندهم بـ : *Centurion* ، وهم ضباط خرجوا من بين صفوف الجند بما أظهروه من كفاءة ومقدرة، ورقوا تباعاً ، الدرجات العسكرية، وكانوا يتولون قيادة السريات الاولى في الكراديس . اما ترقيتهم الى درجات أعلى ، فأمر بقي نادراً جداً في القرن الثاني . ولم نرَ بينهم من وصل الى قيادة الفرقة او اللجيون ، هـــذه الوظيفة المحتفظ بها ، اصلاً ، لأعضاء مجلس الندوة او اعضاء مجلس الشيوخ ، إلا في مصر ، حيث كان يتولى قيادة الفرقة ضابط مـن رتبة شفاليه .

على كل افراد الفرقــة ان يكونوا حاصلين على الرعوية الرومانية ، وهو امتياز لم يكن من العسير قط الحصول عليــه ، اذ كانت الدولة تمنحه بكل طيبة خاطر ، لكل من يتطوع في الجيش ، وقد عرفت الادارة ان تفيد من هذا الامتياز خلال الحروب الاهلية . وقـــد اخذت الامبراطورية ، في القرن الثاني، تعود لهـــذا العُرف وتضعه موضع التنفيذ ، فلا تمنح حق الرعوية إلا لعناصر بشرية ضربت بأسباب الحضارة بسهم كبير ، لدى انخراطها في الجيش . وكانت الفرقــة ، في تشكيلها تعتمد ، الى حد كبير ، على التطوع المحلي ، فتعمل على استكمال وحداتها وتشكيلاتها العسكرية حيث ترابط، مؤثرة في ذلك ابناء الجنود وتفضيلهم على سواهم، بعد ان نُشّئوا على شيء من الانضباط العسكري ، وأرضعوا حب الحرب .

الوحدات الاضافية

الفرق الرومانية الصرف لم تكن لتؤلف سوى نصف الجيش ، اذ ان النصف الآخر كان يتألف من كراديس غير نظامية ، افرادها من غـــير الرعايا الرومان ، فيشكلون وحدات اضافية مساعدة تنضم الى الفرقة وتؤلف معها وحـــدة تخضع لقيادتها العامة مباشرة .

وكانت هذه الوحدات تضم ما بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ جندي، مسلحين على الطريقة الرومانية ، وتنهج في الحرب النهج الحربي الروماني، تحت امرة ضباط يحملون الرعوية الرومانية . فالجناح كان يتألف حوماً من فرسان الخيـالة ، بينا كانت الكراديس تتألف من المشاة واحياناً من عناصر مختلفة . وكان كل كردوس يحمـــل اسم البلدة او المنطقة التي تشكل من رجالها . غير ان اضطرار هذه الكراديس للخدمة ، احياناً كثيرة ، بعيدة عن مناطق نشأتها وتكوينها ، جعلها تحمل فيا بعد ، اسماء المقاطعات التي كانت ترابط فيها . ومهما يكنْ ، فأفراد هــذه الوحدات الاضافية هم من مستوى اجتماعي وحضاري أدنى من افراد الفرق الرومانيـــة الاصل . ولم يَترومَنوا إلا بعد انتهاء خدمتهم العسكرية ، واذ ذاك فقط ، تسلم اليهم براءة رسمية يمنحون بموجبها حق الرعوية الرومانية .

وألحق بالجيش الروماني ، في القرن الثاني ، فرقـــة اضافية اخرى غير التي اتينا هنا على ذكرها ووصفها من الفرق المساعدة ، عرفت عندهم باسم *Numeri* ، هي على الغالب مـــن نوع القنّاصة تعمل الى جانب الوحدات الرومانية . لأفرادها أسلحتهم وعتادهم وطرقهم الحربية ، هي الطرق الجاري الاخذ بها في بلادهم . وهي على الغالب وحدات خفيفة السلاح ، سريعـــة التحرك والتنقل ، يعهد اليها بمهات تقتضي السرعة والمفاجأة .

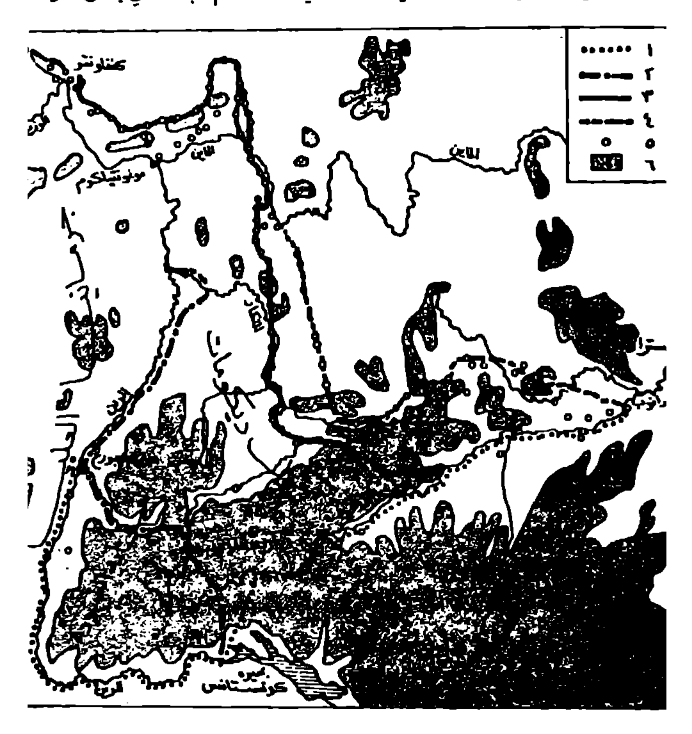
الجيوش

فالجيوش الرومانية وما اليها من قوى اضافية مساعدة تضاعف عددها ، كانت تؤلف الوحدة العسكرية التي تشبه الى حد بعيد ، فرق الجيوش الحديثة . كان عدد هذه الفرق، عند وفاة أوغسطس، ٢٥ فرقة، تتغير قليلاً فيما بعد وفقاً لمقتضيات الظروف ، بين زيادة او نقصان ، او حُل بعضها احياناً ، في حالات التمرد والعصيان مثلاً . فاذا بهذا العدد يرتفع الى ٣٠ فرقة في عهد الامبراطور ترايانوس ثم يهبط الى ٢٨ في عهد هدريانوس. وقد شكل الامبراطور مـــارك اوريل فرقتين اخريين ، كما شكل الامبراطور سبتيموس ساويروس ثلاث فرق جديدة في عهده .

وكانت هذه الفرق توزع على مختلف المناطق والولايات وفقاً لمتطلبات الحاجـة العسكرية ، وضرورات الدفاع والمحافظة على الأمن. فاذا ما رأت الادارة تخفيض قواتها في ولاية ما،او نقل الحامية المرابطة فيها، أجرت هذا التدبير بتمهل كلي وبتحفظ، اذ كثيراً ما يكون استقرار الأمن في البلاد صورياً لا غير. ولعل اكثر جيش روماني استهدفت فرقه للتعديل والتبديل والتغيير هو الجيش المرابط على الرين ، وهي تغييرات استمر الاخذ بها طيلة قرن تقريباً . فبعد ان تألف في عهد اوغسطس من ثمـان فرق، انخفض عددها الى اربـع عند وفاة هدريانوس ، بينما كان جيش الدانوب في هـذا الوقت بالذات ، يتألف من ثمان فرق ، وجيش آسيا من ٨ فرق ايضاً ، وقام ثلاث منها في بريطانيا ، بينما رابطت ثلاث في كل من اسبانيا وافريقيا ومصر .

هذه الجيوش ، في معظمها هي جيوش تغطية، وتوسعاً ، جيوش احتلال . فهي تغطي الولاية او المنطقة وترد عنها عوادي الطـامعين من الغزاة وتصون أمنهـــا ، ليس عن طريق الحشد والتكتيب والتأليب ، وكلها امور لم يكن في مقدورها وحدها القيام بها، لولا وحدات اخرى اضافية مرابطة في البلاد . وعلاوة على هذا ، لم يكن هنالك من جيش احتياطي ، ولذا ، كان من العسير جداً ، ان يتحول الى جيش مناور ، متحرك محارب ، الا اذا مـا استنفر وحدات إضافية من جيوش اخرى قريبة او بعيدة ، او صير الى تقوية هذه الجيوش المرابطـة ، وذلك بدعوة المحاربين القدماء، ومثل هذا الاجراء لم يكونوا يرجعون اليه إلا عند خطر مداهم. وكانت الامبراطورية ، بالنسبة للوضع الذي يكتنف جيشها ، وطريقـــة توزعه على البلاد، لا تستطيع الصمود على جبهة معينة إلا بإضعاف حاميتها المرابطة في جبهة ثانية ، ولذا كان عليها ان تلزم

دفاعية بحتة . فكل هجوم ، مهما كان مداه او طبيعته ، كان يعتبر امراً كالياً لا يمكن
نه إلا ما ندر ، وعند ضغط خارجي يكوّن خطراً على البلاد . وهكذا نستطيع ان
التردد الذي كان عليه الامبراطرة في بعض الأحيان وانشاءهم فجأة ، في بعض الآونة



الشكل ٨ ـ الحدود بين الامبراطورية الرومانية وبين جرمانيا ومقاطعة ريتيا
١ ـ الحدود قبل الامبراطور فسبسيانوس ؛ ٢ ـ الحدود في عهد فسبسيانوس ؛ ٣ ـ الحدود في عهد الأسرة الانطونية ؛ ٤ ـ الحدود في آخر عهد الاسرة الانطونية ؛ ٥ ـ بعض الحصون والقلاع الدفاعية ؛ ٦ ـ المراكز الواقعة على اكثر من ٥٠٠ متر .

ـات وحملات عسكرية كانوا اخذوا بها وساروا فيها اشواطاً ، ثم مالوا عنها ، على غير
ـلار ، لتكاليفها الباهظة . ولذا كانوا يفضلون القيام بحركات هجومية محدودة ، والـ
ـحية يجرونها على مراحل ، قد تمتد عشر سنوات وأكثر ، اذا ما اقتضى الامر . كـ
ـروا القيام معاً ، وفي آن واحد ، بالحرب على جبهتين ، وضعاً يتهدد البلاد بكارثة ،
ـه بأي ثمن .

فالجيش الامبراطوري قام ليتدبر وضع الامبراطورية العادي ، وليؤمن استمراره النظم وسيره الرتيب ، لا ليعالج ازمات عارضة ، طارئة ، لا سيما ما كان لها صفة الشمول والاتساع . فهو لا يوحي في النفس ، ولا يدخل في الروع سوى طمأنينة زمنية ، آنية ، واهية . فاذا ما نعمت البلاد بشيء من هذا في القرن الثاني ، فبفضل الهدوء النسبي الذي سمحت لها بـه الشعوب المجاورة لهـا ، وليس بفضل تفوق الامبراطورية العسكري او الحربي . فاذا كان من الصعب على قادتها، او كانوا عاجزين عن ان يتصوروا الاخطار التي ستتعرض لها الامبراطورية في المستقبل الطالع ، فمـا فات أكثرهم فطنة وبصيرة ، ان يستشعروا ما هم عليه من وضع لا يوحي قط بالطمأنينة . فالحرص الذي تجلى عند الامبراطرة بالاقتصاد بقواتهم عن طريق اختصار الحدود وإزالة النواتىء ، او عن طريق إقامة الحصون والقلاع الدفاعية على طول خط هذه الحدود،هو الدليل بعينه على انهم لم يكونوا ليغفلوا او ليتجاهلوا، ما هو عليه الوضع من وهن كما ان في هذا ، البرهان على رغبتهم الصادقة في معالجة هذا الوضع وتدبر الامور بشكل يبعث الطمأنينة وتأنس له الخواطر .

الاشراف على الحدود وتنظيمها

ولكي تبقي الامبراطورية ولاياتها الواقعة على الحدود البرانيـة بمعزل عن هجمات البرابرة وتهديداتهم ، راحت تحـاول جهدها ، لتيسير المهمة الموكول الى الوحدات العسكرية تنفيذها ، وهي مهمة عسيرة ، شاقة تقوم بمراقبة الحدود والصمود في الدفاع عنهـا ، عند حدوث ما يهددها . وتحقيقاً لهذه الغـاية ، أخذت الامبراطورية ، في بادىء الأمر ، تقيم الحاميات ، على طول شواطىء الانهر الكبيرة ، القائمة على هذه الحدود او على مقربة منها ، كالفرات في جزء من مجراه ، والدانوب ، والرين ، ان تعذّر اقامتها امام نهر الإيلب . ولكن طمأنينة تقوم على الجيش وحده لم تكن لتكفي او ليقنع بهـا أحد. ولذا اخذت ، خلال القرن الثاني، تقيم لها او تستصلح ، في نقاط عديدة ، خطاً من التخوم والحدود اصطلحوا على تسميته بـ « *Limes* » .

ولعل خير ما يرسم في خاطرنا صورة مثلى للمراكز الدفاعية التي يتألف منها هـذا الخط الحصين ، هو مخيم يحيط به خنـدق ، يليه منحدر يقوم دونه سياج ، ثم يأتي سور خارجي تتقاطعه ابراج للمراقبة ، وحصون تقوم وفقاً لمقتضيات طبيعة الارض ووضعهـا الطوبوغرافي ، او وفقاً لما يخططه لها المهندسون العسكريون . وخير مثال او صورة مثلى لهذه الحدود الحصينة هو هذا الجدار الحصين الذي قام في بريطانيا قديماً وعرف بجدار هدريانوس، فينطلق من نهر التاين *Tyne* ويمتد ليدخل بموقع صولواي فيرث *Solway Firth* . وامعاناً في منعة الخط ، اضيف اليه في القسم الشمالي منه ، جدار آخر عرف بجدار انطونين ، امتد من فيرث الى فورث حتى نهر الكلايد . ومثل هذا الخط الحصين قام كذلك بين نهري الرين والدانوب — وهو الخط المعروف بخط الحدود الجرمانية — هذا الخط الذي حرص امبراطرة الاسرة الفلافية (*Les Flaviens*) ،

عقب وفاة الامبراطور انطونين ، على تقوية دفاعه ومضاعفة مناعته . ودخل ضمن هـــذا الخط المنطقة المعروفة عندهم بحقول ديكومات *Champs Décumates* ، الممتدة ٥٠٠ كيلومتراً ، بينها ٨٠ كيلومتراً في خط مستقيم ، ثم يبتعد عن نهر الرين على مساواة مدينـــة « بون » ليعود فيدخل بالدانوب ، على ارتفاع مدينة راتسبون . وكأن بهذا الخط الذي شابه سور الصين فبعث الرهبة في النفوس ، شيئاً خارق الطبيعة .

وهنالك مثال آخر لهذه الحدود الحصينة ، انما على نسبة اقل ، من الضخامة والعظمة ، كان مع ذلك ، لا بد من ارادة جبارة وجهد طائل لاقامته وتشييده ، هو هـــذا الخط الذي يقوم الى الشرق من سوريا، في خط ينحدر جنوباً حتى القارة الافريقية مواجهاً الصحراء. ويتخلل هذا الخط : خنادق ومنحدرات وحصون وقلاع هي ادنى شأناً واهمية من التحصينات الواقعة على الخط الاول . ويستمد هذا الخط قوته ومناعته الاولى من سيطرته على موارد المياه والتحكم بها بواسطة شبكة محكمة من الاستحكامات وما فيها من حصون وقلاع، يتخللها عدد من الآبار التي تم حفرها واعدادها في المناطق الجدبـــة ، وشبكة جيدة للري وسقاية الأرض ، في منطقة تصلح للزراعة ، يتعاون فيها سكان المزارع والقرى مع افراد الجيش على استثمارها واستغلالها ، وعلى رد غزوات البدو عنها .

وعلى كلا الخطين ، اردف هذه الاعدادات العسكرية والتحصينات الحربية ، شبكة ممتازة من الطرقات الجيدة وما اليها من تفرعات وتشعبات ، تصل مراكز الدفـــاع والحصون بعضها ببعض ، كما تؤمن اتصالهـا بمؤخرة البلاد ، حيث تقوم عـــادة مخيمات الجيش الرئيسية ، اذ لا بد من تأمين وصول الامدادات العسكرية والمؤن اللازمـــة للمرابطين على الحدود والمدافعين عنها .

والبحث العلمي عن معالم هذه الحدود الحصينة لم يجر بعد بصورة دقيقة مرضية ، إلا في بعض الأماكن منها ، كألمانيا وبريطانيا . ثم جاء التصوير الطوبوغرافي من الجو يؤازر هـــذه الكشوف العلمية ويصححها ويبرزها للنظر . ومهما كانت النتائج الأخيرة التي ستؤول اليهـــا الحفريات الأثرية عن معالم هذه الحدود الحصينة في مناطق اخرى، ومهما بلغ من دقتها في المستقبل الطالع، فلن تبطل او تخلخل النتائج الأكيدة التي توصل اليها العلم حتى الآن . فاننا وجدنا معـــالم بعض الحصون التي قامت في مراكز واماكن معزولة ، وفي تقاطعـات بعض الطرق القديمة ، امكننا ان نجزم ، بكل تأكيد ، اننا امام مخيمات لبعض وحدات الجيش الروماني . ففي كل تخم من تخوم الامبراطورية الرومانية ، تبرز بصورة واضحة جلية ، معالم هذا الجهد الطائل الذي بذله المهندسون العسكريون العاملون في خدمة روما وخدمة جيشها ، ليؤمنوا للامبراطورية جمعاء ، ومـــا اليها من ولايات دخلت تحت سيطرتها واشرافها ، اكثر مـــا ترغب فيه من الأمن والطمأنينة والسلام .

الحياة في مخيمات الجند

عرف الجندي الروماني ان يحافظ ، من الوجهة الحربية ، على ما اشتهر به من كفاءة ومقدرة عسكرية . فالجندي ابن مهنة وان شئت ، فقل ابن سلك . فهو اختصاصي ، احترف مهنة الحرب . وبالرغم من انه روماني التبعة والرعوية بالتبني ، وروماني التبعة لأمد يقصر او يطول ، فهو فخور بهذا الشرف الذي أوتيه بانخراطه في الجيش ، وشرف موروث له وقعه في النفوس . تهتز نفسه وتطرب لبريق الأوسمة التي تزين صدره ، على قلة ما سخوا بها في القرن الاول ، ثم راحوا يبخلون في توزيعها ، في القرن الثاني حتى بلغوا فيه حدود التقتير ، ناهيك عما كانت توفره للجندي من منافع مادية وادبية اخرى. فالراتب كان يزداد ويرتفع حتى في هذا العهد الذي استقر فيه النقد ، كعهدي اوغسطس وفسبسيانوس،ولم ترتفع قيمته إلا في اواخر الدولة الانطونية *Les Antonins*. والجندي الروماني حسن العدة والعتاد والذخيرة ، تؤمنها له مصلحة التوريدات في الجيش ، وهو ينعم كذلك بالتسهيلات والمنافع التي تؤمنها له مصالح الجيش الفنية والهندسية . ولذا فهو يُقبل على الخدمة راضياً مرضياً ، وقد اتقن المهنة بعد ان تفقه بأمورها واسرارها مدة طويلة ، يقبل بنشاط وحماسة على المناورات وينقطع اليها بكليته ، لا سيما في عهود بعض الامبراطرة ، كعهد الامبراطور هدريانوس مثلاً . فالامبراطور خبير بأمور الجيش يكثر، من دورات التفتيش ويتشدد بأعمال المراقبة ، كما يشهد بذلك الامر اليومي الذي اصدره في ناحية لمبيز (الجزائر) *Lambèse* ووجهه الى جميع مفارز الفرقة الافريقية وما اليها من كراديس وأجنحة تعمل معاً في حروب المناوشات .

وهنالك مهام واعمال اخرى غير التي ذكرنا ، تملأ ايام الجندي في اوقات الخدمة ، كالتمارين التي يقوم بها ، وحراسة القلاع والحصون ، واعمال الدوريات بين مخفر وآخر . ولكي يجنبوا الجندي اوقات الفراغ ، تفرض عليه القيادة القيام ببعض الاعمال التي لها اتصال بالمنفعة العامة ، كاصلاح مناطق الحدود وتهيئتها ، وشق الطرقات وتعبيدها ، وبناء الجسور والعبّارات ، وتشييد الاسوار حول مواقع الدفاع وتحصينها ، وبناء المساكن الخاصة بالادارة ، والمعابد والمسارح والحمامات ، والقناطر لإسالة المياه ، وإيصالها للمعسكرات ، وغير ذلك من الممرات . هنالك عدد من وحدات الجيش لها مقالع خاصة لاستخراج حجارة البناء ، ومعامل لصنع القرميد والطوب ، كما يوجد ، تحت تصرفها ، الاحراج والغابات والمناجم ، حيث تعمل فرق مختلطة من الجيش والعمال تحت اشراف ضابطصف،واعمال التعمير والبناء وما تقتضيه من اعمال صيانة وحراسة ومحافظة، اعمال اتقنت الاخذ بها وحدات الجيش في العهد الجمهوري ، ورسخت اصولها ، وتوطدت اساليبها ، في العهد الامبراطوري ،مع قيام الجيش واستقرار نظمه ، وقيام معسكراته ومخيماته وحامياته بتعمير المقاطعات المتأخرة عن سواها في رقعة الامبراطورية وتجهيزها بالانشاءات اللازمة . غير ان الرغبة في التوفير والاقتصاد ، من جهة ، والحاجة الملحة للملاكات الفنية والتقنية في المقاطعات النائية عن مراكز الحضارة ، كل ذلك حمل الجيش ، من

جهة اخرى ، على النهوض بمشاريع عمرانية لها ادارتها ودوائرها الخاصة ضمن الجيش .

ولكن هـذا الوضع بالذات لم يكن ليخلو من محاذير تلحق بالجندي فتترك اثرها في قدرته الحربية وكفاءته العسكرية . فالأخذ بأسباب المدنية والسير قدماً في معارج التطور ، كان لا بد من ان يترك اثره بارزاً في نفس الجندي ، مهما بلغ من حرص الامبراطورة الحد من فعل هذا التطور . فبين الانشاءات التي اقامها الجيش في معسكراته ومخيماته لتأمين راحة الجندي والترفيه عنه ، والتي تتوفر فيها، على اقدار وانصبة مختلفة اسباب الطمأنينة ، أين يقع منها النافع اللازم، وأين يبتدىء الكمالي الزائد ؟ ولذا راح بعض الغُيُر من المتشددين على الاخلاق يتهمون هـذه الانشاءات بتمييع وتخنيث من يجب ان يتحلوا بالقوة والشدة والبأس لمواجهة شظف العيش ، وقسوة الحيـاة العسكرية ، وإحن الحرب ومشقاتهـا . وبعد ، فامتداد الخدمة العسكرية واستمرارها مدة طويلة ، أمر لم يكن ليخلو من المحاذير . فبعد ان كانت مدة الخدمة ١٦سنة للجنود النظاميين ، و ٢٠ سنة للعاملين في الفرق الاضافيـة الأخرى ، و ٢٥ سنة لجند القناصة وغيرهم مـن افراد القوات السيارة ، نرى هـذه المدة تخفّض ٤ سنوات ، في عهد اوغسطس وتخفض لفترات أقصر ايضاً ، في عهد طيباريوس . وكثيراً ما كانت مدة الخدمة العسكرية الفعلية تمتد وتطول اكثر من ذلك بكثير ، إذ ان التسريح من الجيش والصرف من الخدمة ، لا يتمان إلا بأمر رسمي ، قد يتأخر صدوره سنة وربما سنتين . وقد يمضي بعضهم في الخدمة ٣٠سنة وربما اكثر من هذا ، عند تجديدهم لمدة تطوعهم في خدمة العَـلم . ويروي أحد المؤرخين حادثة جندي قضى في الخدمة العسكرية ٤٠ سنة . ومردّ ذلك ، على ما نعتقد ، الصعوبات المالية التي كان يتخبط فيها بيت المال ، فيعجز عن مواجهة ما يترتب عليه من التزامـات نقدية وعَيْنيّة لمن يجري تسريحهم من الجيش . ثم ، فالنظـام العسكري الذي كان ساري المفعول ، إذ ذاك ، كان يحظر على الجندي ، عقد زواج شرعي ، كما ان إقامة هذا الجندي مدة طويلة في المعسكر أو المخيم كان مشجعاً له على التسرّي الخفي . وقد انتشرت العادة رغم استفحالها بعد ان قـام على مقربة من انشاءات الجيش ومخيماته ، مبانٍ مدنية عمّرها المتّجرون مع الجيش والمتعاملون معه ، ومعظمهم من اوساط مشبوهة ، دخل عليهم فيما بعد ، وحلّ بينهم عناصر أقـل شبهة . وعلى كرّ الايام ومر السنين ، زادت هذه الانشاءات المدنيـة الى ان أصبحت مدناً وحواضر ذات شأن . من ذلك مثلاً ، مدينة ستراسبورغ ، ومايانس وبون، وهي مدن نشأت على مقربة من معسكرات الفرق الرومانية الثلاث التي كانت ترابط على خط الرين . وهكذا لم تلبث ان تجسـد اسرة الجندي ، وهي قريبة من ربها ومعيلها ، التسهيلات المادية اللازمة لها . وتغضّ القيادة النظر عن المخالفة في بادىء الأمر ، ثم لا تتم أن تعترف بالأمر الواقـع وتقره ، لمـا يوفره لها من منافع ولما يجنبها من مصاعب . وعلى هذه الصورة ، تم تحضير البلاد وتمدينها ، وأخذت الاقوام المتخلفة من سكانها بأسباب التمدين والتخلص تدريجيـاً من التأخر الذي كان عليه البرابرة ، فيروح الناس يعمرون الارض ويزرعونها ، فيسهل بالتالي ، على ادارة الجيش ،

توفير المهات والمؤن اللازمة له ، كما ان حركة الاسكان تسهل لها امر المتطوعة ، مادة الجيش وذخره ، اذ يجدونهم على مقربة من المعسكرات . ولا يمضي كبير وقت حتى ينضم الى هذه المجتمعات البشرية ، المحاربون الذين يسرحون من الجيش بعد انتهاء خدمتهم او انتهاء الحرب ، فتقطعهم الدولة من املاكها الاميرية اراضي ينصرفون لإحيائها واستثمارها . وهكذا يتألف منهم ومن ذراريهم رديف يستعين به الجيش عند الملمات ، لقربه من مراكز الدفاع اولاً ، ولسهولة الاعتماد عليه والاستعانة به ثانياً . ولكن كل معالم هـذا التطور الذي يأخذ الجندي الروماني بأسبابه لا يلبث ان يترك اثره الظاهر في كفاءة هذا الجندي ، وخلخلة مؤهلاته من الوجهتين العسكرية والحربية .

على ضوء الموازنة

وهكذا لا تعتم مناطق الحدود ان تتحول الى عالم خاص قائم بذاته ، عليه ان يؤلف وحدة بل ينصهر في هذا العالم الروماني الذي أنيط به الدفاع عنه والسهر على أمنه وسلامته ، بعد ان أمّن له هذا العالم الموارد اللازمة لأوده وعيشه . فاذا ما استمر يتلقى من روما : حكامه وولاته ، ونظامه والأوامر التي عليه ان يتقيد بهـا ، فالجانب الأكبر من رجاله ومن توريداته ، يَرِدُ عليه من المؤخرة ، التي تتقلص رقعتها رويداً وتنكمش . وهـذا الجيش الذي يرابط عند الخط الدائري للامبراطورية ، لا يلبث ان يتطبع بطابع السكان العائشين على مقربة منه ويتخلق بأخلاقهم ، وهو طابع يتبدى ، ليس في ما يقوم من فوارق بين الجندي المحترف والمدني المعمر فحسب ، بل ايضاً في ما هو أدهى من هذا بكثير ، في هذا الجهل او نصف الجهل الذي يباعد بين المؤخرة ، أي داخل البلاد ، وبين منطقة الحدود . وعندمـا تنقل الأزمات الحادة الطارئة الحرب الى داخل البلاد ، الى المؤخرة ، سواءاً اكانت حرباً اهلية او غزواً خارجياً ، يشعر السكان بصدمة عنيفة ، وبشيء من الهلع عندما تتبدى لهم حقيقة الجيش الروماني وواقعه .

ومع ذلك فمنطقة الحدود تلعب اكثر من دور بارز. فهي تقوم ، بدء ذي بدء ، بدور الدرع الواقي والترس الدافع . فقد رأينا المتاعب التي عانت منها ادارة الجيش في وضع خططهـا الستراتيجية وتنفيذها . ومن جهة اخرى ، فشاهد الحياة العسكرية التي يحدثنا عنها المؤرخون في ما بعد ، تزيد هي الاخرى ، من حدة هذه المتاعب والصعوبات في وجـه الجيش وتضطره للمرابطة على الحدود للاقتباس ، في حياته اليومية العادية مما يراه او ينتصب امـامه في بيئته المادية والبشرية ، فتضعف منه القوة على الحركة والخفة في التنقل. وعندما يحوّل البرابرة الغزاة بضغطهم المتزايد ، طبيعة القتال ، من حرب حركات والتفاف الى حرب دفـاع عن المواقع العسكرية، يلهب ضغطهم هذا بكل العراقيل ويجبر الامبراطورية على ادخال تعديلات اساسية على النظم المتبعة لديهـا في تعبئة جيشها وتنظيمه . غير ان الحاجة لهذه التغييرات لم تكن استبدت بعد ، في القرن الثاني ، ولا يزال في مقدور القوات ، بالشكل الذي ارتضته لها روما ،

ان تقوم بالدور المترتب عليها . والعالم الذي يخضع السيطرة الرومانية ، يستطيع ان يستمتع بطمأنينة وامن لا مثيل لهما على الاطلاق ولا كفاء،من الوجهة المادية والادبية . ففي اي قطر أو صقع من الاقطار والاصقاع الخاضعة لهذه السيطرة قد تحدث بعض الأمور : كثورة عسكرية او انتفاضة محلية يقوم بها سكان هذه او تلك من المقاطعات ، او غزوة من قبل البرابرة الغزاة ، او منافسة بين الزعماء الذين يطمحون الى السلطة العليا . الا انها تبقى احداثاً محلية ، فردية ، استثنائية ، لا غير .

ولكن هذا « السلام الروماني » لم يحمل الى المدنية الرومانية في عهد الامبراطورية الاول ، الخير العميم فحسب ، القائم في تجنيبه البلاد ويلات الحروب ، بل ايضاً ساعد كثيراً على تطويرها من حيث المفهوم العام والمناهج المرسومة لسيرها . وبذلك تسبب في بقاء ما نرى من معالم النظام الاجتماعي ليتلاءم وحاجات الطبقات الهائلة وليزيد من سحر واغراء بعض المنافع والخدمات التي من شأنها اجتذاب الناس نحو المثُل الرومانية ، ويساعد على الأخص في جعل التطورات التي تمر بها تؤول لتحسين مناطق الحدود فتبعث فيها الحركة والنشاط عن طريق تشجيع الانتاج ، وتنشيط مرافق التجارة فيها ، وبناء الطرق والمدن ، وتثبيت السكان في المدن والارياف ، ومد الجيش بالعناصر البشرية الخشوشنة الطباع والمعروفة بروح المغامرة والتي يمكن ان تتحول الى عناصر شغب وقلق وإزعاج. فاذا بهذه العناصر التي خضعت للانضباط الروماني، وتأثرت به ، وعاشت في ظله ، وتخلقت بالتالي بالاخلاق الرومانية ، وتطبعت بطباع الرومان ، واخذت أعرافهم ، وتبنّت لغتهم ولسانهم ، تباهي وتفخر بما تم لها من صيرورة ومصير ، وبما عادت عليها خدمتها الطويلة في الجيش ، من وضع جعلها على قدم المساواة مع الرومان انفسهم .

فالجيش الروماني بالمفهوم الذي عرضنا له ، وبالعمل الذي حققه في القرنين الاول والثاني للميلاد، هو اداة طيّعة، فعالة لروْمنة وليْتنة هذا القسم الواقع على اطراف العالم الروماني.

الفصل الثاني

الدولة بين النظر والواقع

الثورة السياسية وطابعها النهائي

في مساء ذلك اليوم من عام ٤٢ ق . م ، الذي فيه انتحر قتلة يوليوس قيصر بعد الهزائم الشنعاء المتتالية التي لحقت بهم ، كان النظام الجمهوري في روما يلفظ أنفاسه الاخيرة. فالإصطدام الذي وقع في اكتيوم بين اوكتافيوس وبين خصميه انطونيوس وكليوباترا ، كان لا بد ان يؤدي الى ظهور سيّد على روما والعالم الروماني ، اذ لم يكن من المعقول قط ان ينسحب المنتصر ويتوارى متخلياً عما تم له من الامر ، بعد ان قضى على القوى المتمردة ، وعرف كيف يستميل ولاء ما تبقى من جيش منافسه . فالتجرد البشري له حدوده مها بلغ من بذل الذات . قد يكون اوكتافيوس تلبّس بمظهر الزهد في الحكم ، ورغب عن السلطة فراح يضع ، بعد ثلاث سنوات من موقعة اكتيوم الفاصلة ، خلال الجلسة التي عقدتها ندوة الشيوخ في ١٣ كانون الثاني عام ٢٧ ق . م ، مقاليد السلطة بين يدي « مجلس شيوخ الشعب الروماني » بعد ان آلت كلها الى جماع قبضته . إلا انه عرف كذلك كيف يستجيب ، في اليوم ذاته ، للالتماسات والتوسلات التي انهالت عليه من كل فج وصوب وينزل عند رجاء ورغبات الضارعين اليه بألاّ يتخلى عن الحكم ، بل يرضى منه ببعض الامر . كذلك لم يكن بُدٌّ له ، من الانصياع لقبول لقب : « اوغسطس » هذا الإصطلاح الذي تشدّه الى كلمة « سلطة » *Auctoritas* ، أكثرُ من آصرة اشتقاق وجذر ، بحيث راح خلفاؤه من بعده ، يحملون هذا اللقب الشهرة الذي اصبح رمزاً للسلطة التي تسلموها ونهضوا بأعبائها .

وهكذا فالمظاهر التي تشددوا باحترامها تبدّت مظاهر جمهورية ، وتلبست بالشرعية لينطلي بها الامر على المتفئلين الاغرار السذّج ، بعد ان اخذ النظام الجديد كل سمات وخصائص الملكية وشاراتها المعلنة . وقد اخذت سلطات اوغسطس الامبراطور تتسع وتشتد ، وهو بعد في قيد الحياة ، بعد ان رأى ان الظروف العارضة تسمح له بالكشف عن ورقته ، او ان حادث تسلم السلطة جعل من المحتم عليه ان يقبض على الادارة بيد من حديد .

فقد فعل الدهر فعلته . كان لاوغسطس ، عند انتصاره في معركة اكتيوم ، ٣٢ سنة من العمر ، ومات سنة ١٤ للميلاد ، قبل بضعة اسابيع من بلوغه السابعة والسبعين . وهذه الحياة المديدة النادرة يُقضي معظمها في الحكم وعلى رأس الادارة ، ساعدت النظام الجديد الذي أسسه ، على التوطد والرسوخ ، ومكّنت له الاسباب المستحكمة ، من الإعراق . قد يكون بعض

خلفائه من بعده، قام هو الآخر بمثل هذه المسرحية التي اجاد تمثيلها في ٢٧ ك٢ (يناير). وقد يكون قام في عهده او بعده، دسائس وفتن رافقتها محاولات قتل كالفتنة التي وضعت حداً لمخافات كاليغولا ومهازلاته، والتي رمى أصحابها منها الى العودة بالحكم الى النظام الجمهوري. فقد ظل في الامبراطورية أناس غاظهم قيام العهد الجديد، كما بقي في روما خصوم له ألداء، راحوا يترصدون الفرص المسعفة، والظروف المؤاتية. أفلم يضطر اوغسطس نفسه لخنق بعض المؤامرات في المهد! ولكن أنى لكل هذه الألاعيب وما اليها من مكايد ودس ان تطرح على بساط البحث، ما تم من هذه المآتي الغرّ، والانجازات السياسية التي ألمعا على مثل هذا النحو من العظمة، وعلى مثل هذا القدر من المجد المؤثل، لم تلبث ان استحالت حيالها المقاومة، اسفاً شديداً واعجاباً، كالثناء العاطر لمآت ألهبت الخيال وثالت تقديس الاجيال. فقد قام ابداً، على رأس السلطة «اول» لم تبرز ملامحه وتتضح قسماته الا بقدر ما اراده طبع هذا «الاول». وليس القوى المندفعة في خصومته. وعندما قام، لفترة قصيرة، على السلطة، في عهد مارك اوريل، صاحبان يتلسبانها، لم تمس ازدواجية الشخصية، مبدأ الأولية، حتى في أحلك عهود الامبراطورية ظلمة، يوم راحت تتخبط في فوضى ماحقة. وهكذا وجه اوغسطس الحياة السياسية في روما التوجيه الغائي الفصل، وراح التطور الذي اخذت سياسة الدولة بأسبابه يُبرز قسمات هذا النظام الملكي مع اكتماله.

١ ـ الامبراطور

قام على رأس النظام الجديد اولٌ او مقدّم *Princeps*، وهو اصطلاح ارادوا به التعبير عن صاحب السلطان الحقيقي، مع ان ليس في صيغة هذه اللفظة واشتقاقها شيء خاص ينم عن هذا او يشير اليه، بل كان الكلمة، على عكس ذلك تماماً، صلة استعمال في النظام الجمهوري. فقد عرف منذ عهد بعيد، بين نظم الجمهورية ومراتبها، وظيفة معينة يُعرف صاحبها بـ «امير مجلس الشيوخ» كانت ميزته الوحيدة، المبادرة، قبل غيره من اعضاء مجلس الشيوخ، الى ابداء الرأي في امر مطروح على النقاش. وعندما يتنزّى شق القلم عند شيشرون بهذا التعبير، وهو تعبير كثيراً ما ورد على لسانه، فكلمة *Princeps* عنده، انما تدل على الاولية الادبية في التوجيه المؤثر. فاذا ما ازدادت هذه الأولية شأناً لصالح الامبراطور، فلم يكن هذا سبباً او علة، بل جاء نتيجة او معلولاً، السلطات والصلاحيات التي تمتع بممارستها.

١ ـ الحكم

الامبراطور هو القائد الاعلى للجيش

اولى هذه السلطات واخطرها شأناً وأبرزها أثراً هي بالطبع السلطة العسكرية، التي آلت اليه قانوناً وشرعاً، ومارسها فعلاً وعملاً. فهي أس او أصل السلطة التي يمنحها الشعب، او بالاحرى، التي تُمنح باسم الشعب، في بدء كل عهد من عهود السلطة، ولمدة السلطة ومدى عهدها. وهذه السلطة (*Imperium*)

توصف رسمياً *Proconsulare Majus* اي السلطة البروقنصلية العظمى . وهـــذا النعت *Proconsulaire* يولي حامله او صاحبه ، السلطة العليا التي يتمتع بها صاحب الولاية او حاكمها ، ويمارس بحكم منصبه هذا ، جميع السلطات والصلاحيـات التي تمارسها روما نفسها . اما الصفة المشبهة « العظمى » او الكبرى فلكي يشدد على ان السلطة الممنوحة تبلغ اعلى درجة وأعظمها ، وتعلو فوق سلطة اي حاكم او قنصل آخر ، مهما بلغ من شأنه .

جاءت الامبراطورية الى الوجود ، واطلت على العالم الروماني ، نتيجة الإختبار والتجربة وليس نتيجة التجريد والنظر الفلسفيين ؛ استدعى وجودها وطلوعهـا ، الرغبة الصادقة في قطع الطريق على الحروب الاهلية ، وما تجره في ثناياهـا ومطاويها : من شرور وويلات وأهوال ، والرغبة ، من جهة اخرى ، في توفير الطمأنينة والأمن في الداخل والخارج ، للعالم الروماني عن طريق الاحتفاظ بجيوش رومانية جرارة ، كما يشهد على ذلك ، إنتصار اوغسطس في اكتيوم ، والحوادث الدامية التي وقعت عام ٦٨ — ٦٩ بعد الميـــلاد ، واسفرت عن تغلب فسبسيانوس وتفوقه على خصومه ومنافسيه . فكأن الحل الذي تم على هذا الشكل ، جيء به لاقرار وضع قائم وُجدت فيه البلاد ، بعد انتهاء هذه الازمات ، ولتكريس ديمومته ، والإبقـــاء على زعيم وحيد اوحد ، على رأس الجيش الروماني ، مهما نأت معسكراته ، وتباعدت مخيماته وحامياته عن العاصمة روما . فبتسلم السلطة اليه وبالقـاء مقاليد الحكم بين يديه ، تأمنت له اسباب السؤدد والسيادة وسلس له الأمر ولان ، بعد ان يكون صاحب هذا الأمر : إما انه لا يستطيع ، وإما انه لا يرغب في تولي قيادة الجيش . اما كل هؤلاء الذين يمارسون جانباً من قيادة الجيش فيوصفون بكونهم : *Praefectus* ، اي والي او متولٍ . وكثيراً ما اطلقوا عليهم وصف *Legatus* اي منتدوب او معتمد . امـــا الاول من هذه الالقاب ، فكان يحتفظ به ، وفقـــاً لاعرق التقاليد الرومانية ، لمن يتولى ولايته من الحاكم العام ، وليس من الشعب الروماني نفسه مباشرة . واللقب الثـــاني أبين مدلولاً ، واوضح معنى اذ يراد به او يقصد منه : التفويض والاعتماد . فالوالي والمعتمد يستمدان سلطتهما من مشيئة الامبراطور وارادته المعبر عنهـا بقرار او مرسوم . ولذا فهو يسحبها منهما ، متى شاء وكيفما شاء . وكلاهما مسؤول امامه عن امور الوظيفة التي يقومان بمهامها ، يؤديان له عنها حساباً ، ويأتمران بأمره وحده دون سواه . هنالك استثناء واحد لا غير على هذه القاعدة العامة الاساسية بدر في مطلع العهد الامبراطوري . وهـــذا الخروج على القاعدة المذكورة يتمثل في منصب افريقيا المشيخي ، وتحت امرة صاحب هذا المنصب فرقـــة رومانية . وهذا الاستثناء الوحيد الذي جرى إلغـــاؤه في عهد كاليغولا ، وانقطع الاخذ به ، واصبح بالتالي ، آمرُ الفرقـــة المذكورة ، خاضعاً رأساً للسيد الاول *Princeps* وتابعـاً له ، بينما حاكم المقاطعة العسكرية يصبح ، بعد انقطاعه عن الولاية المشيخية القديمة ، حاكم ولاية نوميديا الامبراطورية .

لمن نتائج حصر ملء القيادة العليا بصاحب السلطان الاول (الامبراطور) ، أن يُنسب

اليه كل فضل او خير ، او نفع او كسب ، مادياً كان او سياسياً ، يؤمنه للامبراطورية ، فوز عسكري ونصر حربي ، يؤتاه قائد من قواد الجيش، حتى في حال بقاء قيادة (*Ductus*) العمليات الحربية الفعلية في ايدي القواد ؛ اذ من المفروض ان يكون الفضل في هذا النصر للامبراطور نفسه ، لانه هو وحده ، له الحق بترؤس حفلات زجر الطير واستطلاع الطلع ، واستخراج الفأل ، والقيام بالمراسم الطقسية التي تسبق المعركة وتهيء لخوضها . فهو الذي يوحي ، مبدئياً ونظرياً ، البت بالأمور ، والجزم في المعضلات ، لانه هو وحده ، مهبط للوحي والالهام الالهي ، وحامل بركة الآلهة وموضع مسرتها ورضاها . فهو وحده ، ابداً ، ابو النصر ، وسبب كل ظفر . فكل نصر يؤتاه ، وكل ظفر يناله ، فرصة مناسبة « للهتاف » باسم صاحب الأمر « الامبراطور » . وعلاوة على هذا ، فهو وحده صاحب الحق الاول بترؤس الاحتفالات التقليدية التي تفتتح حفلات الإبتهاج بالنصر ، وهي عادة لم يسجل التاريخ الروماني المديد ، غير عشرة استثناءات لها لا غير ، وقعت كلها في مطلع عهد الامبراطورية ، يقوم فيها احد اعضاء الاسرة المالكة بترؤس هذه الاحتفالات . اما بعد طيباريوس رأساً ، فالقادة الذين استحقوا شكر الدولة والوطن ، وكانوا في حظوة من البلاط ، لم يكن ليترك لهم سوى « الطواف » او الفخر الاصغر ، « بالملابس المظفرة » دون ان يرتفعوا الى درجة الابطال الأول في مثل هذه الحفلات الفخمة . وهذا ما يفسر لنا هذه الارقام التي يباهي اوغسطس بسردها في مذكراته : « امور الحكم » عندما يفخر علانية، وعلى رؤوس الاشهاد: « وقع علي الاختيار » للطواف مرة، ولزياح النصر ثلاث مرات، وأعطيتُ لقب امبراطور ٢١ مرة ... للانتصارات التي سجلتها في البحر والبر ، اما شخصياً او بواسطة وكلائي ومعتمديّ، وأمر مجلس الشيوخ قيام صلوات شكر عامة للآلهة ، إقراراً برعايتها ، وعرفاناً بجميلها ٥٥ مرة . وهكذا بلغ عدد الأيام التي عيّد فيها الشعب مبتهجاً ، بناءً على اوامر مجلس الشيوخ ٨٩٠ يوماً » .

وهذه الفكرة بعينها يعبّرون عنها ، بصورة مادية او رمزية ، في سلسلة متصلة الحلقات من الوقائع والاحداث . فالامبراطور وحده يلبس الباليوم (*Paludamentum*) او الرداء الارجواني الخاص بقائد الجيش الاعلى ، إلا انه يجانب لبسه وهو في روما او ايطاليا ، وذلك ، ليس تكرماً منه ، بل خشية من ان يمس مشاعر المواطنين وإحساساتهم . فهو قائد حرب في الصميم ، وقائد دائم ، اينما وُجد ، على عكس القواد في العهد القديم ، اذ كانت صلاحياتهم العسكرية محدودة ، تقتصر فقط على زمان ومكان معينين ، فما ان تنتهي مهمتهم حتى يلفهم النسيان في المناطق التي تولوا امر القيادة فيها تحت امرة حاكم مدني . ومن حقه، وهو في روما ، ان تسير في ركابه مفرزة خاصة من الجيش الى جانب الحرس الذي يقوم دوماً بحراسته . فالجيوش تنادي باسمه امبراطوراً ، وتؤدي له القسَم المقدس ، قسم الولاء والطاعة ، وبدون موافقة هذه الجيوش وهتافاتها والمناداة باسمه ، فلن يصبح امبراطوراً . فهو الذي يقبل المتطوعة في الجيش ، ويتولى عملية تسريح من يجب تسريحهم من الخدمة العسكرية . وبيت المال الذي

يترتب عليه دفع التعويضات العائدة للمسرّحين، لا يتحرك بدون اشارة منه او كلمة يقولها هو. فهو الذي يهب الاوسمة الحربية لمستحقيها ، ويُعيّن الضباط ، ويقر الترفيعات لذويها . فإليه وحده ، يعود تقرير تشكيل الجيوش ، وتعبئتها ، وبقاؤها ونشاطها .

وهكذا ، فالقائد العام هو السيد غير المنازع للقوات العسكرية . وله الرأي الأخير والكلمة الفصل ، في كل امر ومشكلة ، مهما كان طرفها الآخر . فعلى أثر الحوادث الدامية التي سببت مقتل كاليغولا ، دون فائدة تذكر ، والأزمة التي أنشبت اظافرها في البلاد ، عام ٦٨ — ٦٩ الميلاد ، لم يبق احد ليخدع نفسه . فالسر الحقيقي لهذه السلطة ، كما يراه المؤرخ الروماني تاسيت *Tacite* ، يكمن في تفاني الجنود والملاكات التي تنتظم عقدهم، لمن نادوا باسمه امبراطوراً.

سلطاته المدنية

وهذه السلطات والصلاحيات العسكرية التي تمت له وتمتع بها ، لا يمكن فصمها او عزلها او تجريدها قط عن الصلاحيات والسلطات المدنية الواسعة ، حسبما يدل عليه مدلول كلمة *Imperium* القديم الاستعمال . وهذا المعنى نفسه بدا مع ذلك ، غير واف بتأدية المراد ، واقتضى ، بالتالي ، تضمينه عدداً من السلطات والصلاحيات الخاصة جرى استنباطها من لا شيء ، او جُرّدت اعتباطاً من بعض الوظائف والمراتب التي لم يمكن ان يستقيم لها كيان او قوام بدونها . وأُلبست الامبراطور عن طريق العرف وإطلاق العادة ، او عن طريق قرارات قانونية سوّغت استعمالها ، كالصلاحيات التي نصّت عليها مواد القانون الذي كرّس فسبسيانوس امبراطوراً ، واولاه ما اولى ، من سلطات وصلاحيات ، وقد حفظ لنا التاريخ نصّ هذا القانون مكتوباً على احدى النقائش . وليس في وسعنا ان نستعرض هنا بالتفصيل والتبسيط الوافيين هذه السلطات ، فلنقف عند بعضها هنيهة.

لما كان الامبراطور من طبقة الاشراف *Patriciens* مولداً، في عهد الاسرة «اليوليو-كلودية»، او شرعاً بقوة القانون ، فيما بعد ، فلا يمكنه ، والحالة هذه ، ان يصبح تريبوناً *Tribun* يتحدر من طبقة الكادحين او الطبقة الشعبية . وقد رؤي ، مع ذلك، ان يُعطى هذا اللقب لاوغسطس وخلفائه من بعده ، فتتم له ولهم ، بذلك ، السلطات والصلاحيات الملازمة ، شرعاً وعرفاً ، لهذه الوظيفة *Tribunicia Potestas* التي تُولي صاحبها ، جميع الحقوق التي تمتع بها الـ *Tribuns* في العهد الجمهوري . فالامبراطور على شاكلة التريبون ، شخص مقدّس ، مكرّس ، لا يمكن مسّه . وعلى مثالهم ، يستطيع ان يأمر بتوقيف أي كان وان يقاصص اياً من اعتدى عليه او هزىء به او سخر منه . وعلى شاكلتهم ، له ملء السلطة والحق بأن « يشفع »، أي يعارض كل قرار او مشروع قرار ، يتخذه مجلس الشيوخ او الحاكم . وعلى شاكلتهم ، يستطيع ان يدعو للاجتماع ، اعضاء مجلس الندوة ، في الحال ، وان يرأس اجتماعات مجالس الهيئات الحكومية ، وان يتقدم اليها بما يرى من اقتراحات وتوصيات . فاذا صح النظر ، وكانت هذه هي بالذات الامتيازات والصلاحيات التي نعم بها ومارسها تريبون الشعب ، فهنالك مع ذلك فروق بعيدة

وتباين عميق ، بين ما تم للامبراطور منها وبين هؤلاء التريبون . فالسلطة التريبونية تُعطى لسنة واحدة ولذا اقتضى تجديدها وإقرارها سنة بعد سنة ، ولو بصورة شكلية . فالصلاحيات التي تخولها لصاحبها ، يُعمل بها وتبقى سارية المفعول ، على بعد ١٠٠٠ خطوة من روما . والى هذا فالتريبون الآخرون ، الذين يجالسهم ويصاحبهم ، ويجلس معهم الى مقعد واحد ، ليسوا طبعاً ، رصفاء له ولا زملاء . فليس في مكنتهم قط ، ولا لهم الجرأة ، ان يمارسوا ضده ، حق الرفض او الاعتراض . ولذا كانت السلطة التريبونية من هذه الدعائم الاساسية التي قامت عليها سلطة الامبراطور وصلاحياته الواسعة

ومع ان الامبراطور ليس من فئة التريبون ، فهو لا يتنزل ليمارس اية وظيفة من الوظائف الخاصة بحكدار البلدية . ومع ذلك فقد ألقى الامبراطور قبضته الشديدة على شرطة المدينة وعهد بها الى موظف ينعم برعايته ، يستطيع هو ، متى شاء ، عزله وطرده . كذلك عهد الى احد خاصته ، بمهمة تأمين وسائل الاعاشة لروما وسكانها ، وهي وظيفة أُلقيت مقاليدها بين يديه . وحرص على ان يحتفظ بها ويؤمّن مهامّها بعد ان تم له من الامر والسيطرة المطلقة على مصر ، اخصب اهراء روما واغناها على الاطلاق . فنهض بأعباء مهمته هذه ، على احسن وجه ، بعد ان استتب الامن في البلاد وتقلص خطر القراصنة في البحر .

وحرص الامبراطور على ألا يُهمل مبدئيا ، او يسخر ، او يُغفل او ينتقص من صلاحيات اية وظيفة من الوظائف العليا المعترف له بها شرعاً وقانوناً . وهمه جداً ان يقوم بها وفاقاً للتقاليد المرعية ، اي بالاستعانة بأحد الزملاء له في هذه الوظيفة . وكان باستطاعته ان يردد ما كان يردده اوغسطس حين يقول: «لم يكن لي من الصلاحيات أكثر مما لزملائي في الوظيفة الفلانية» . ولكن ما عسى ان يستطيعه زميل له ، وللامبراطور مثل هذه الصلاحيات ، ومثل هذه القوة والسطوة ؟

وتطل علينا ، من وقت لآخر ، في القرن الاول ، وظيفة *Censure* وصاحب هذه الوظيفة (*Censor*) هو القيّم على النظام الاجتماعي في المدينة . وهي وظيفة كانت دوماً من وظائف «الرجل الاول» في الدولة ، إلا مرة واحدة جاءت ضد اوغسطس نفسه . وقد اتفق مرة ان قرر الامبراطور دومتيانوس الاحتفاظ بهذه الوظيفة ١٨ شهراً أي أطول من المدة المعينة لها قانوناً ، فأصدر قانوناً اصبح معه *Censor Perpetuus* ، أي «سنسور» الى الابد. ولم تلبث هذه الوظيفة ان تتومى امرها ، فزالت الى الابد . وقد استطاع الامبراطرة ، بها او بدونها ، ان يراقبوا بعين يقظة ، النظام الاجتماعي والتسلسل الطبقي عن كثب ، فرفعوا الى طبقة الفرسان *Chevalier* او الى مرتبة الشيوخ ، من شاؤوا من الناس ، دونما رقيب او حسيب وأنعموا برتبة *Patriciat* على من شاؤوا من افراد الاسر الرومانية .

اما وظيفة القنصلية ، فهم يتقلدونها كلما رغبوا فيها ، ومالوا اليها . ولذا نرى الامبراطرة

يعينون لها ، عدة مرات ، طيلة حكمهم ، ويقبضون عليهـا كلما تم لهم الامر . فالبعض منهم تولاها بصورة آلية في غرة كانون الثاني او (يناير). فالقنصليات التي هي من هذا النوع ، ملؤها الفخار ، لان السنة تُعرف اذ ذاك باسم القنصل. فمن اصل عشر سنوات ، فات فسبسيانوس منها اللقب مرتين ، وابنه تيطس ثلاث مرات . وعلى كل ، فلا نعرف احداً تولى هـذا المنصب في حياته ، اكثر مما تولاه الامبراطور اوغسطس .

ومهما يكن من شأن هذه الوظائف والرتب ، وضيعة كانت ام رفيعة ، ومن النفوذ الذي توليه صاحبها ، فسيان لدى الامبراطور اسقاطها واهمالها بالكلية او التمرس بصلاحياتها بصورة رسمية قانونية . فبفضل النصوص القانونية ، وبمـاله من قوة النفوذ ، فالامبرطور وحده يعين اصحاب هذه المراتب ، اما رأساً او يوصي بتعيينهم او يسمح لهم بتقديم ترشيحهم لها . فليس من امل قط ان تؤول احداها الى عدو له ، او شخص تحوم حوله الشكوك والظنون . وليس لاي من هذه الوظائف ، اي مدلول سياسي حقيقي ، فهي تتيح لحاملهـا او لصاحبها بالاكثر مناسبات الظهور امام الحاكم في الحفلات العامة وتلفت اليه النظر ، كما تتيح له ، في افضل الحالات واحسنها ، ان يكون موضوع تكريم ، مكافأة له على خدمة اداها . وعلاوة على ذلك ، له الحق الكامل بانشاء وظائف شرفية ، تمكنه من تعديل سلم المراتب المعمول بها في ترفيعهم ، ويُقحمهم في طبقة حاملي عضوية مجلس الشيوخ وفي المرتبة التي يحلو له تعيينهم فيها .

هذه الامثلة ترينا ولا شك ، مدى الصلاحيات المدنية المضافة الى صلاحيـاته او السلطات العسكرية الأساسية التي يتمتع بها . في وسعنا ان نمضي قدماً في مثل هذا العرض ، ونجري مثل هذا التحليل على مجالات اخرى من مجالات الادارة العـامة في الامبراطورية ، ولا سيما في حقل السلطة التشريعية او السلطة القضائية ، فننتهي معها الى النتائج ذاتها . فالسلطة التي تمتع بهـا الامبراطور دوماً ، كانت سلطة مطلقة لا حد لها . فبعد ان كانت هـذه السلطة ، في بادىء الأمر ، ضمنية ، مستترة ، اذ بها تبرز وتتفتح بشكل اوضح ، في القرن الثاني . فعندما يكتب الفقيه الروماني اولبيانوس ، في مطلع القرن الثالث : « ان الشعب يولي الامبراطور جماع السلطة التي له ، كما يوليه كل سلطان *Auctoritas* *Imperium* » فهو انما يعترف ويؤكد النتائج التي آل اليها التطور الذي خضع له الحكم في العهد السابق .

السلطة *Auctoritas*

منذ البدء ، نرى اوغسطس يضيف شيئاً جديداً على جماع السلطات التي تمت له واستقرت في قبضة يده . فقـد رأينا عندما قرأنا العبارة التي وردت في : « امور الحكم » ، كيف انـه كان يدعي بأنه لم ينعم من السلطة ما جعله يتقدم به على رُصفائه ، في أي من « الوظائف والمناصب التي صارت اليه » . وقد قال بعكس ذلك تماماً في الفقرة السابقة لها ، كما يعترف ، هو نفسه ، عندما يقول : « فقد تَنوّقت في السلطة على الجميع » أي على جميع الموظفين . فليس في التصريحين المذكورين أي تناقض كما يبدو لأول وهلة ، لأن كلاً منها يُنَاظر ناحية خاصة .

فالاصطلاح الاداري *Auctoritas* له مدلول فقهي ودستوري ، اذ ينظر الى صلاحيات الوظائف واختصاصات كل منها والتدابير الصادرة عنها . غير ان لهذا المصطلح اللاتيني من غموض المعنى وقلق المدلول ، ما لا نرى معه أي نص في القانوني الروماني يوضحه او يزيل منه ما يحف به من إشكال: فهو يوحي معنى سلطة ادبية مشوبة بسلطة دينية . وهذه السلطة يستمدها اوغسطس من مجموع ما تم له من صلاحيات واختصاصات ، نالها شرعاً وقانوناً ، لا ندري انها توفرت لأحد غيره من قبل ، عرف كيف يتلبسها ويصيّرها اليه بعد ان تظاهر ، في بدء الامر ، بالإعراض عنها والزهد فيها . وهذه السلطة أتته صاغرة بعد ان فاضت خواطر الناس وأحاديثهم بالخدمات الجلى والمآتي العظام التي أداها للبلاد ، كما أتته من إعجاب الشعب وتعلقه به وعرفانه لكبير جميله وتقديره السامي له . كل هـذا جعل منه الرجل الاول – الامير (*Le Princeps*) ليس بين اعضاء مجلس الندوة فحسب ، بل ايضاً بين جميع المواطنين . وهكذا نرى اوغسطس يقطع بصورة جازمة ، ويفصّل بلا لبس ولا غموض ، ويحدد المضامين والمدلولات التي تمور تحت كلمة امبراطور ، وهي مفاهيم تتجاوز كثيراً ، كما سنتحقق ، فيما بعد ، الإطار الفقهي للكلمة . ومع ان خلفاءه من الامبراطرة لم يحظوا بشيء ، من هـذا الماضي الثريّ الذي تم له ، فهم يستمسكون بهذه الكلمة ويشدون عليها بالنواجذ .

صاحب الجلالة في حمى القانون

وهـذا الإبهام الشامل ، والغموض يغلّف كذلك ويلفّ « قانون الجلالة » الذي جرى تطبيقه ، منذ عهد اوغسطس ، لصالح الامبراطور ، كما نرى بعض الامبراطرة بعده ، ولا سيما طيباريوس ، يحرصون على تطبيقه بحذافيره. فنحن امام قانون مسنون قائم . ولذا لا بد لموضوع هذا القانون ، وهو افراغ « الشعب الروماني » في شخص الامبراطور ، وتجسده فيه ، ان يتم ، ولو شكلياً ، بطريقة شرعية قانونية . فأمر تفويض السلطة الذي يجعل من الشخص الاول الممثل الحقيقي للشعب الروماني ، هو كنه هـذه السلطة وجوهرها وصلبها . ومن ثم ، فصلاحيات التريبون التي حملها وتمتع بها ، كان لها هي الاخرى ولا شك ، اثرها العميق في جمام هـذه السلطة ، اذ تجعل من الشخص الاول ، الممثل المكرّس ، المقدس ، للطبقة الكادحة *Plèbe* والوريث الادبي لوظيفة استخدمت في الماضي ما لها من صلاحيات واسعة ، للوقوف في وجه أعداء هذه الطبقة الكادحة المتقمصة في الشعب الروماني .

وهذا القانون الذي اورثته الجمهورية كان يعاقب بشدة وبلا رحمة ، كل من تجرأ على النيل من « جلالة » الشعب الروماني . وهذا المصطلح له من الطواعية والمرونة ما يجعل منه اداة رهيبة في يد الامبراطرة الذين تنتابهم وساوس الظنون والشكوك . فكل مخالفة او عبث لقسَم « اداء الامبراطور » والاخـلال بواجب الاحترام ليس نحو شخصه فحسب ، بل ايضاً نحو تماثيله ، وابداء أي رأي معارض ينتقص من ارادة الامبراطور ومشيئته ، من قريب او بعيد ، كل ذلك اسباب كافية لملاحقة المتجنين قضائياً ، والحكم عليهم بالموت في اكثر الأحيان . ولذا تكاثر عدد السعاة والوشاة والعيون ، وراحوا يأخذون في غيرة آكلة ، الناس في الظنة ، ويرسلونهم امام

الحاكم ، طمعاً في حظوة صاحب السلطان ، او في المكافآت التي تعود عليهم بحسب القانون ، من مصادرة ثروات المتهمين .

وهكذا ، فالقانون الذي كان يراد به الحفاظ على « ذات الجلالة » والتسييج حوله، استحال، في بعض العهود ، سيفاً مصلتاً فوق الرؤوس ، يُنزل الرعب والهلع في الطبقة المشيخية ، حيث يقوم المعارضون وينعصمون ، في القرن الاول ، اذ كان معظم من راحوا ضحية هذا القانون من اعضاء هذه الطبقة . ولما كان اعضاء الندوة يقومون هم انفسهم بالمحاكمات والنظر في قضايا ذات الجلالة ، فكم رأينا اعضاء هذه الهيئة ينحدرون الى ادنى دركات الجبن والخنوع في تنفيذ رغائب الامبراطور وتصفية من تحوم حولهم الشكوك ، الأمر الذي غذى الحقد والبغضاء في قلوب الناس ، ضد هذه الطبقة ، كما يشهد على ذلك ، أدب ذلك العصر . فاذا كان من المتعذر علينا ان نعرف اليوم الحقيقة كاملة حول اكثر من قضية من هذه القضايا ضد ذات الجلالة ، فالقانون المذكور كان ، ولامراء في ذلك ، خير عدة واداة ، وخير مسعف لتأييد سيادة الامبراطور وسلطانه .

٢ ـ الرجل الذي أعدته العناية الالهية

الهالة الروحية التي تجلل الامبراطورية : تطورها ومنابعها

ولكن هذه الامبراطورية الملكية لا تقنع بجمع السلطة في قبضتها، ولا يكفيها ان يسير القانون صاغراً في خدمتها : فهي تدرك اكثر من سواها ، ما في هذا وذاك ، من وهن وضعف لما يتعرضان له من تقلب وتحول وتغير . فاذا كان فيها ما يرضي او يقنع ملكاً لا يقيم وزناً لنوازع الروح ، فالواقعية الجامدة ، تبدو جافة في نظر مواطنين تتطلع نفوسهم الى المثل الروحية ، بعد ان صقلتها الحضارة الهلينية . ولذا راحوا يحيطون الملكية بهالة من الرمزية الروحانية ، من الخير والمفيد لنا معاً أن نتعرف الى قسماتها البارزة . كذلك من اللائق ان نشير هنا بوضوح الى ما كان لهذه الهالة من وقع عميق وتأثير عملي . وبالطبع يجب الا يخامرنا الشك قط انها تطورت ،ودخل على الفكرة الاساسية ، مع الامبراطرة الذين تعاقبوا على الحكم ، والأجيال التي عاصرتهم، تغييرات اقتضتها موجبات الزمان والمكان . فكل نص قانوني ، وكل رمز من هذه الرموز التي احاقت بالامبراطور ، يؤلف حادثاً متميزاً عن غيره ، يتعذر على المؤرخ تقويمه وفقاً للمقاييس العلمية المعمول بها .

كان اوغسطس الرائد الاول في هذا المجال ، وأول من نسج على المنوال . فكل شيء حوله يبسط الأمور. من ذلك مثلاً، الجميل الذي يرعاه له الجميع من دواني الامبراطورية الى اقاصيها ، عندما اعاد اليهم السلام والطمأنينة بعد ان اكتووا بلظى حروب اهلية ضروس لا تبقي ولا تذر ، نأوا بكلكلها وتضرسوا بويلاتها. وهذه الوحدة العميقة الجذور التي حققها فلّت الشعث، وجبرت العظم المهيض ، وهذه الامبراطورية التي شيدها فبرهنت ولاياتها الشرقية ، خلال هذه

الحروب ، عما تجيش به من حيوية عارمة ، مادية وأدبية على السواء . فالتجربة التي قام بها تباعاً ، قيصر ثم انطونيوس بعده ، اوضحت له الاخطار التي تكمن وراء نقل فلسفات الشرق ونظرياته الى روما ، نقلاً حرفياً مادياً . من المستحيل الا نظهر اعجابنا هنا ، كما اظهرناه من قبل امام مرأى البناء السياسي المشمخر الذي شيده ، بهذه الروية والفطنة والتحفظ يبديها في اقتباس بعض هذه المستوردات الأجنبية الصنع ، معرضاً عما جاء في غير اوانه ، مسقطاً منها ما لا يصلح للاستعمال في روما . كل هذه الحيطة حملت النـــاس على الشك في إخلاصه . فقد برهن عن كتـامة ، ولربما عن تحيّل ايضاً ، وبكل تأكيد ، عن شعور حاد بالممكن الحدوث او الوقوع . ولكن ، مع هذا علينا الا نسقط من حسابنا ما كان عليه من روح تقوية ، صحيحة ، حملته احياناً على الاستسلام للخرافات والاوهام ، واثارت فيه التشكك كغيره من الناس .

ومهما يكن ، فقد ترك لنا ، لدى وفاته ، تراثاً ادبيـــاً له من وفرة الغنى ما نعجز معه عن الإحاطة به . وتم له من الألقـاب والرتب ما لم يتوفر مثله لاي من خلفائه . والقسم الاوفر من هذه التركة التي خلفها بعده ، لم يلبث ان ردها الناس الى فضل الوظيفة التي تمت له ، بمعزل عن الرجل . غير ان تطور هذه الحالة الرومـــانية التي جلببت الامبراطور ، تم وئيداً ، وبتمهل ، بخلاف التطور السريع الذي رافق السلطة السياسية . وقـــد راح بعض الامبراطرة : امثال كاليغولا ودومتيانوس وكومود يستعجلونها ، بينما سار فيها البعض الآخر الهوينا ، ان لم نقل القهقرى . وبجمل القول ، ففي الحين الذي تبلغ فيه الاسرة الانطونية أوجها ، في القرن الثاني ، وتزداد فيه سلطة الامبراطور قوة وفعلية ، لم نلحظ قط ان هذه الحالة اتسعت وتضخمت عما كانت عليه في عهد اوغسطس. فعلينا ان ننتظر الحقبة التالية وبروز فعل المؤثرات الشرقية لنرى تغييراً ملحوظاً يطرأ على هذا الوضع .

ففي عهد اوغسطس نفسه ، كان تأثير العامل الهليني واقعاً متحيزاً لا داع لوجه الغرابة فيه . فمن بين البلدان المتمدينة الاكثر اتصالاً بروما ، هـــذا الشرق الذي عرف ضروباً من الملكية المنبثقة من انتفاضات عسكرية اخذت بتلابيبه منـذ فتوحات الاسكندر ، وخضعت لعوامل التطور والتكامل ، حتى بلغت تمامها ، اقله من الوجهة النظرية . وباستطاعة هـذا الشرق وحده ان يقدّم سوابق يمكن تطبيقها والنسج على منوالها بصورة فعلية ، بحيث ان كل ما أنتجته هذه السوابق من المجازات فنية ، وآثار فكرية ، ونظريات فلسفية ، عاد عليها بتأثير عظيم ، سواء أسقطت هذه الممالك تحت هجمات الجيوش الرومانية المتتالية ، ام انها راحت فريسة الفوضى ، فتداعت للخراب ، وزالت من الوجود ، دون ان ينتقص ذلك من سناء البنيان الفكري الذي شيدته . ومع ذلك ، فقد كان على النظام الملكي الذي اطلّ من جديد على روما ان يحسب حساباً لتقاليد روما ، هذه التقاليد التي في السير عليها والاخذ بها ، فخر له وحافز للمباهـاة . فمن الطبيعي ، والحالة هذه ، ألا يُهمل العناصر المستمدة من اعماق التقاليد الرومانية التي منهـا استقى سيلاّ من قبل ، وعنها اخذ قيصر من بعـــد ، ومنها اغترف اوغسطس وعنها صدر .

وكثيراً ما ظهر في آخر الامر، ان هذه العناصر المتباينة المنشأ والاصل، بين شرقي وبين روماني قومي محض، التي كونت هذه الحالة، قام بينها أكثر من شبه ومجانسة ساعدت على انصهارها معاً وذوبانها بعضاً ببعض في إلفة وانسجام.

وهكذا نرى انفسنا امام فلسفة متنوعة العناصر يحاول المؤرخون اليوم جاهدين، منذ أكثر من ثلاثين سنة، تعيين وتحديد منشأ كل من هذه العناصر المقومة، وتحديد قدر كل واحد منها، وكيفية تفاعلها بعضاً ببعض، وأهمية الدور الذي لعبه كل واحد منها. وامام هـذا الضجيج المتصاعد من هذا الجدل العلمي المحتدم، نرى، برة اخرى، ان من المستحيل ألا نقتصر إلا على بعض امثلة لا غير.

الامبراطور الحبر

بين هذه العناصر، عنصر روماني الاصل، يعبر عن تقليد مكرّس، يرى في الامبراطور: الحبر الاعظم او الكاهن الاعظم. فقـد حرص اوغسطس الحرص كله، وهمه كثيراً ألا يُهمـل او ينتقص قط، من قيمة هذه الوظيفة التي تلازمه مدى الحياة. فلم ينتزعه عنوة من صنوه ومناقسه ليبدس، بل لبث طويلاً ينتظر وفاته عام ١٢ ق.م، ليطالب بـه وينتسبه لنفسه. وحرص خلفاء اوغسطس من بعده، على التمتع بهذه الرتبة والوظيفة عند اعتلائهم أريكة العرش. فالحبرية العظمى تولي حاملها وصاحبها سلطات دينية غاية في الأهمية. وقد أعطى اوغسطس المثل في ممارسته لمهام هـذه الوظيفة بدقة واهتمام زائدين، وهو مَثَل حرص خلفاؤه من بعده، على احتذائه واقتفاء اثره.

والى هذا، فالامبراطور عضو بارز في مجمع كبار الكهنة والاحبار، بحيث يراقب عن كثب نشاطهم ويُهيمن على انتقائهم واصطفائهم وتعيينهم في مراكزهم. ومن بين هذه الرتب الكهنوتية، رتبة يباهي بالانتساب اليها والنهوض بأعبائها، كما يستدل جيداً من الاوراط والميداليات التي تحمل صورته. وهذه الرتبة هي رتبـة العرّاف او العائف، وذلك بالنظر للدور الذي يلعبه هؤلاء الكهان في الكشف عن الفأل واستطلاع الطالع. وقد رمزوا الى هـذه الرتبة بالعصا المعقوفة المعروفة عندهم باسم *Lituo* التي اصبحت، فيما بعد، من الشارات المميزة للامبراطورية.

وهكذا يبرز الامبراطور على رأس الحياة الدينية ويطل رئيساً لجميع الاحبار، ويصبح بالتالي، الوسيط بين الدولة والآلهة. فالواجبات والحقوق التي تخوله اياها رتبة الكهنوت، تزيد كثيراً من شأن السلطات والصلاحيات التي يتولاها رأس الادارة و«الاول» في الدولة. فهو يرأس شخصياً أهم الاحتفالات الدينية ويضفي حضوره على أبسط الاعمال وأتفهها مهابة الطقوس الدينية ومراسمها. فهو المسؤول الاول عن بناء المعابد والهياكل، وعن صيانتها وتأثيثها وحفظها. وموجز القول، فالاسم الذي يحمله «اوغسطس»، مشتق من أقدم المراسم الدينية واعرقها اصطلاحاً عندهم، هي رتبـة العرافة *Augure*، وهي رتبة تضفي عليه شيئاً من الجلال وتجلببه بهالة من التقوى والخشوع بما لهذه الكلمة في مفهومها الحديث من قوة المعنى، بينما الكلمة اللاتينية *Pietas* لهـا

مدلول أعم واوسع . وبهذه الصفة يستمطر على الشعب الروماني عطف الآلهة ، ويستمد منهـا الرعاية والهداية . فالتعدي ، والحالة هذه ، على سلطته او مس شخصه ، هو التجني بالذات على الدين وعلى روح الانضباط الذي يمثله في المجتمع .

حالة النصر الامبراطوري

وهذه الآلهـة التي تحرس الامبراطور وترعاه في حله وترحاله ، تُظهر عطفها وحدبها عليه بما يُؤتاه، على يدها، من نصر مبين وتوفيق عظيم ، في جميع اعماله الحربية . فكل المظاهر الحربية التي تلازمه كقائد أعلى للجيش ، يجب ان تحمل عميقاً ، طابع الحالة الدينية . فالقازيلوس في بيزنطية ، مثله مثل الامبراطور في روما ، مدين بما يصيب من فوز مبين في ساحات الوغى ومن نصر في الحروب ، لفضل الآلهة وهديها . وهكذا نلتقي هنـا ، مرة اخرى الايديولوجيا الملكية التي انطلقت من فتح الاسكندر ، بالنظريات الرومانية القديمة ، فيتمازجان وينصهران معاً . وهكذا نرى الايديولوجيا تؤيد الى حـد بعيد ، هـذه التقاليد وتلوّنها ، وإلا ، تعذر علينا ان ندرك كيف ان ، على شاكلة كلمة *Basileus* ، تصبح كلمة *Imperator* ، لدى قيصر اولاً ، ومن ثمّ لدى اوغسطس ثم بسرعة، لجميع خلفائه ، اللقب الرسمي الذي يَردُ قبل كل الالقاب والرتب والكنى التي يحملها الامبراطور . وعلى هـذا تصبح كلمةامبراطور مرادفاً لكلمة المظفّر او المنتصر ، والمؤهّل من قبل الآلهة والمصطفى، بحيث راحوا يُضفون صفة الالوهية ، على نصر اوغسطس ، فيقولون : *Victoria Augusti* ، كما راحوا يرفعون هذا الرمز : النصر المجنح، على المباني الرسمية وأثبتوه على العملة والنقد. وفي عهد الاسرة واليوليز كلودية، كل شيء كان يدل على ان هذه الإلهة هي بالفعل، الإلهة ذاتها التي رعت مؤسس الاسرة ذاته ، أي اوغسطس المظفر، ومن ثم راح هذا المؤلّه ينتقل من امبراطور آخر ، غلداً رمم اوغسطس الحي الدائم .

ثم تطور الامر بحيث راحوا يُفرّدون،أكثر فأكثر، هذه الإلهة .فاستنبطوا وتضرعوا وشكروا بالرمة *Victoria parthica* ، وطوراً *Britannica* ، وحيناً *Germanica* أي الإلهة التي بفضلها، تمت الغلبة على الفارثيين والبريطانيين والجرمانيين. ثم تطل علينا فكرة جديدة عُمل بها، بكل تحفظ وحيطة، منذ العهد الجمهوري، قامت بتسمية ابن الملك او ولي عهده، باسم العدو المغلوب على امره . واول حادثة نشاهدها من هذا النوع تعود الى عهد اوغسطس نفسه ، اذ لقب ربيبه دروسوس بلقب جرمانيكوس. ولم يمض كبير وقت حتى تركزت العادة في الامبراطور نفسه . وتفادياً للادمان الناجم عن العادة المتكررة، تتكاثر الالقاب والكنى وتضافـاليها نعوت وأوصاف تزيدهـا قوة ومعنى. فالامبراطور مارك أوريل لا يلبث ان يلقب بـ :صاحب الارمن او صاحب الفارثيين المعظم ، بينما الامبراطور ترايانوس لم يلقب إلا *Parthicus* لا غير ، كما عُرف ايضاً بـ : صاحب الماديين ، وصاحب الجرمان ، وصاحب السرماتيين . وهذه الالقاب ، مثلها مثل قطع النقد الرومانيـة الحاملة صورة الامبراطور متوجاً بالنصر او الحاملة لرسوم أسرى حروب مجّد ، اشارة البلدان التي اخضعتها الجيوش الرومانية ، انما يراد منها أكثر من مجد باظل لا طائل تحته . فهي ترمز الى

الشراكة التي لا انفصام ، لها بفضل القوة الإلهية، هذه الشراكة المؤلفة من الامبراطور ، ومن الظفر عربون السلام على الارض .

الفضائل الامبراطورية

كثيراً ما تتغنى الشعراء « بفضائل » ملوك الإغريق وبعطفهم ، ولذا راحوا يُضفون عليهم القاباً وكُنىً منها : المنقذ او المخلّص. ولم تلبث هذه الالقاب ان انتقلت بعد ان تحورت قليلاً ، الى شخص الامبراطور . فقيام صاحب الأمر في روما هو عربون سعادتها ، ومنتهى الإسعاد ، كما يقول هوراتيوس في خطبة له القاها مرحّباً بعودة اوغسطس بعد غياب طال أمده : « فعندما تطل بطلعتك البهية على الشعب ، تستحيل ايامه بهجة ، بسامة ، كأيام الربيع الضاحك والشمس في رأد الضحى » . فمع اوغسطس نرى رتاج الصرح الامبراطوري مزيناً بالغار يعلوه اكليل من خشب السنديان ، هو « الاكليل الشعبي» الذي يقدمه المواطنون لمنقذيهم . فالامبراطور ، هو بالفعل ، منقذ الدولة ، كما هو منقذ الرومان ، هو *Conservator* او *Servator* لا، بل هو اكثر من ذلك ، هو مخلص الجنس البشري بأمره . فالخلاص او الفداء الذي بذله ، يبرر الى حد بعيد ، لقبه : بابي الوطن ، هذا اللقب الذي اصبح من ألصق القاب الامبراطور . ففي بهو اجتماع مجلس الندوة الروماني في روما ، كان يُرى ، على مقربة من مذبح إله النصر، ترسٌ مذهب نقش تحته ما يشير الى انه تقدمة من مجلس الشيوخ والشعب لاوغسطس اعترافاً بما يتحلى به من فضل ، وحلم ، ومن عدل ، ومن تقى . وكأن بقطع النقد الروماني ، في عهد اوغسطس ، سبحة لا تنتهي ، تقص على الناس في تداولهم لها ، هذه الفضائل الاساسية التي تحلى بها ، كما انها تحاول ان تحيّز ، بما تحمل من شارات ورموز ، مناقب الامبراطور، ولا سيما الشعار الآخر الذي تحمله ويرمز للعناية الالهية تنويهاً بالخيرات التي اسبغها ، والمنافع التي افرغها على الشعب الروماني والامبراطورية الرومانية : رمز السلام على الأرض ، والإسعاد لبني البشر .

وهذه الايديولوجيا الامبراطورية ، وما فيها من مفهوم ومدلول ، تفيض بالطبع ، ببعض الألفاظ والتعابير الرومانية الاصل والطابع. فاذا ما شاعت وذاعت بالسرعة التي نرى، فالفضل في ذلك ، للسوابق الهلينية التي اعتمدتها. فليس من المستغرب قط والحالة هذه ، ان نشهد عبادة الامبراطور تتعلق بفكرة الرسالة او الدعوة الالهية التي تمت على يد شخص هو فوق البشر ، فتتبلور معالمها في ما رأينا من هذه المظاهر على اختلاف نواحيها .

عبادة الإمبراطور

متشابهون وليسوا انداداً اكفاء . أوتي اوغسطس من الفطنة ما صانه من الانزلاق الى مبالغات قيصر وتطرفه في روما ، ولا سيما من سفاهات انطونيوس وشططه في الاسكندرية . من يستطيع غيره ، باستثناء من اصيبوا بمس في عقولهم او دُخل على نفوسهم ، ان يطلب لنفسه المجد والتكريم الذي ليس فيه ما يؤهله له ؟ فباستثناء بعض حالات شاذة ، غاية في الندورة ، ليس من يندفع في شهوة الشهرة بحيث يطلب لنفسه التأليه

الكامل او المطلق ويُعترف له بذلك رسمياً . يكفي الانسان ويرضيه ان يقترب او يدنو من الالوهية ، او يبلغ منها نصف المرتبة او درجة وسطى فيها . وهذا التحفظ يبدو واضحاً جلياً في بادىء الأمر ، من خلال الحرية المتروكة للمبادهات المحلية او الفردية ، والتي يُفترض فيها ان تأتي عفوية تلقائية ، او عن طريق براعة الطلب واستدراج العرض ، بضغط من الهيئات الادارية الحاكمة . وكلها حالات تتبلور عملياً عن صور واشكال متباينة . فالتعميم لا يأتي الا بعد حين ، وبصورة تدريجية ، وعلى مراحل . وعهد فسبسيانوس الذي اطل على البلاد عام ٦٨/٦٩ بمثابة مولد ثان او جديد للامبراطورية ، يعتبر مرحلة حاسمة من مراحل التطور الذي مرت به هذه الفكرة ، مع بقائها غير مكتملة ولا مستجمعة لكل شرائطها . ولكن خلافاً للعرف المعمول به لدى بعض الممالك الهلينية ، فالامبراطور هو موضوع عبادة ، وهو في قيد الحياة ، تقدمها له هيئة عامة : كالدولة او الولاية او المدينة ، بصورة عادية وبصفته فرداً .

فالدولة ترفع له تكريماً إلهياً وتجعل من بعض ذكرياته الخاصة اعياداً وطنية عمومية، فتطلق مثلاً على الشهر الذي ولد فيه قيصر باسم « يوليو » ، كما تطلق على الشهر الذي نال فيه اوغسطس القنصلية لاول مرة ، وفيه سجل اكبر انتصاراته الحربية : اسم اوغسطس . ودرج الناس على استعمال هذه المسميات المصطلحة حتى يومنا هذا. والحلف او القسم باسم الامبراطور، هو شيء مقبول جائز ، كما ان رسومه وصوره هي من المقدسات. وراحت الحكومة تشرك عبادة جن اوغسطس او نبوغه بالتكريم الذي كانت احياء روما ، تقدمه للارواح المشرفة على مفارق الطرق او تقاطع الطرق، فتصبح في الاصطلاح العام: الآلهة الاوغسطية. فالمعجم الهليني غني بمثل هذه المسميات. فاستمدوا منه اسماء الاشهر ،والقسم مثلاً. هنالك اكثر من شبه بين الجن *Génie* ، وبين تيخه *Tyché* . فالقدرة على الابداع لا تنضب .

ويتمتع الافراد ، في هذا المجال بحرية اكبر وأوسع . هنالك إهداءات وتقادم مؤثرة الغاية تشرك رأساً او مداورة ، اسم الامبراطور او احد افراد الاسرة المالكة ، بشتى اسماء الآلهة ، فنشأ في معظم المدن جمعيات تحتفل بهذه العبادة وتقيم لها المراسم والاعياد ، وتقدم الذبائح والقرابين على شرفها . وتنظر السلطات الادارية الى هذه المواسم التذكارية بعين الرضى . وهي تتدخل لتنظمها . وبعد ان كانت هذه الهيئات تحمل في الشرق اسماء شتى ، نراها على عكس ذلك، في الغرب اللاتيني ، اكثر انسجاماً وانضباطاً ؛ من هذه الهيئات مثلاً هيئة الرجال الستة ، التي ما ان تنتهي مدتها القانونية حتى تتحول الى جمعية او شركة حقيقية .

ففي هذه الهيئات التي نوهنا بها ، ومن بينها *Seviri* ، يهيمن اسم واحد هو اسم اوغسطس الذي يتغير مدلوله ومفهومه مع تعاقب الايام والازمان. « فأوغسطس » انما يشير في اول الامر، الى مؤسس لامبراطورية وموطد اركانها : فطالما هو في قيد الحياة ، فاللفظ إنما يشير الى فرد معين ، واليه تتجه ، بالطبع ، كل عبارات التكريم والتبجيل والعبادة . ثم يصبح الاسم لقباً او كنية ، يحرص على حمله كل خلفائه من بعده . واذ ذاك تفقد مظاهر التكريم والتقديس طابعها

الفردي او الشخصي ، وتتجه بالأكثر ، الى الرتبة والوظيفة أكثر منها الى حامل اللقب .

وهذا التحول نلاحظه كذلك ، يطرأ على عبادة « روما اوغسطس » التي انتشرت كثيراً خارج ايطاليا ، وهي عبادة لها طابع رسمي . تضطلع بها جمعيات عامة وتطبع هذه العبادة بطابع الامبراطورية نفسها من الوجهتين المحلية (البلدية) والاقليمية . فمنذ العهد الجمهوري ، استبدلت مدن الشرق ومقاطعاته عبادة ملوكها *Basileus* بعبادة روما . غير ان اوغسطس رفض ان تقام عبادة خاصة به ، إلا انه يسلم بانشاء عبادة خاصة : « بروما واوغسطس » تخصص لها الاعياد والمراسم ، إلا ان مدلولها الفردي الخاص ما لبث ان ضعف ، وفقد من شأنه في هذه الازدواجية واختفى تماماً مع خلفائه . وهذه العبادة تأخذ بالانتشار والاتساع بفضل مؤازرة السلطات الادارية لها ، فيجري الاحتفال بها على نطاق البلديات المحلية ، ليصبح الاحتفال ، فيما بعد ، في إطار يشترك فيه عدة بلديات . وهكذا نرى انفسنا امام احتفالات تقوم في الولاية او تشترك بها مجموعة من الولايات ، وهي احتفالات تقام بانتظام ، وعلى قدر كبير من الابهة والفخامة فتنفق المدن عليها وعلى المباني الخاصة المعدة لها ، وعلى الالعاب والملاهي التي ترافقها ، وعلى الموظفين المكلفين بالسهر عليها وعلى اعدادها ، مبالغ طائلة كثيراً ما استنفدت موازنتها. من هذه الاعياد ما عرف في الغرب باسم *Flamines* او *Sacerdotes* ، بينما قام منها في الشرق مواسم اتخذت مسمياتها من اسم المدينة متبوعاً بكلمة رئيس . فانتشار هذه الاعياد ، ومدة قيامها ، والاحتفال بها ، والآلهة التي تكرّم فيها ، انما يشير بوضوح الى اشتراك النخبة الاجتماعية في هذه الاعياد الموسمية التي تقام في الولاية .

اما في روما ، فالدولة نفسها تنشىء عبادة خاصة هي عبادة الامبراطور الراحل ، وعملية التأليه هذه ، يقررها مجلس الشيوخ ، فيرفع الامبراطور الى مصاف الآلهة . ويكفي لذلك ان يتقدم شاهد الشهادة من الهيئة المذكورة ويؤكد ، بيمين مغلظة انه شاهد ، اثناء الاحتفال بجنازة الامبراطور وحرق جثمانه ، روحه تطير على اجنحة نسر . وهكذا يحتفظ مجلس الشيوخ بطريقة يرفض معها تكريم امبراطرة ، سيئي السيرة والسريرة . ورفضه هذا بمثابة حكم قاطع عليهم . إلا ان الطريقة لا تخلو قط من الخطر ، ولا تسلم دوماً من سوء المغبة ، ولذا تحفّظ المجلس بالمجازفة فيها إلا في الحالات الوراثية التي لا يتنطح فيها الخلف للدفاع عن سمعة السلف والحفاظ على ذكراه . وعلى كل حال ، فالاصطلاح الذي سار عليه اوغسطس في ما لقيصر ، واتبعه طيباريوس في ما لاوغسطس ، وكرسه العرف والاستعمال ، هو ان الامبراطور الراحل لا ينادى به إلهاً بل إلهي . فهو لا يؤله ، انما يكرّم كالآلهة . والبون شاسع بين الوضعين والاصطلاحين . ومع ذلك لم يحُل هذا دون تشييد معبد للراحل الإلهي ، ولا دون إنشاء مجمع كهنوتي او رهبنة خاصة تنقطع لتكريمه ، تحمل اسمه ، ينتخب اعضاؤها من بين أغنى طبقات المجتمع .

بين الجرأة والتشكك

استعرضنا في ما اجرينا من بحث ، للاستشهاد بكثير من الحالات والحوادث الفردية . فقد رأينا مثلاً ، أعضاء اسرة احد الامبراطرة يفوزون جميعهم بالتكريم الإلهي . كما جرى ذلك بالفعل للامبراطور ترايانوس : فقد لقي ابوه وشقيقته وزوجته

مثل هذا التكريم ، كما جرى إشراك عدد من المتألهين والمتألهات في عبادة جماعية واحـــدة ، وذلك ، لأسباب ورائية، خلافية او عملية ، كانتشار عبادة احد هؤلاء المتألهين في مدينة ما او أكثر ، من مدن الولاية ، فيخفف ذلك من حدة او من رواج عبادة « روما اوغسطس » وغير ذلك . فعلى ضوء هـــذه الوقائع المتباينة في كل من المناطق والجماعات والافراد ، نرى عبادة الامبراطور ، على عكس ذلك تماماً ، يزول ما بينها من فوارق، فتتوحد او تكاد، دون ان تبلغ مع ذلك ، درجة كبيرة من التجانس والانسجام .

ولا يخطرنّ على بال احد ان الامر كله انتهى الى فشل ذريع . فهذا التجانس يأباه امبراطرة القرنين الاول والثاني ، ولا يرضون قط بتأليههم المطلق . فهم يرفضون ان يصيروا الى ما صار اليه الملوك البطالسة او بعض ملوك الدولة السلوقية . فهذا القلق او التشكك يجب رده اصلاً الى نفور بعض الامبراطرة ، امثال طيباريوس وكلوديوس وغيرهما ، من التكريم الإلهي . هـــذه العادة التي عرفها على أشدها وسار عليها إغريق بلدة « جيثيون » ، من اعمال ولاية لاكونيا ، وإغريق الاسكندرية . وهذا الإعراض او المجافاة مرده ، على ما يظهر ، لما أنسوه من اشمئزاز سكان روما ومن فشل التجربة المؤسفة التي قام بها كل من كاليغولا ونيرون ، ودومتيانوس وكومود ، فراح الشعب يقتص لنفسه منهم ، وأماتهم شر ميتة ، كانت درساً لقوم يعقلون .

ولكن النظام الملكي له منطقه الذاتي وهو اشد امراً من التدابير والاجراءات المصطنعة مهما تفننوا في إعدادها وصياغتها . ومهما يكن من السبة او اللعنة التي لحقت بهؤلاء الامبراطرة الذين تجرأوا على التمادي في هذا المجال فدفعوا غالياً ، بدمائهم ، السخافات والاسفافات التي أتوها ، الى جانب تجنيبهم الاثم ، فقد ساهموا ، مع ذلك في إعداد المستقبل وتهيئته اكثر مما ساهم فيه الامبراطرة المترددون . فقد خشي هؤلاء أشد ما خشوا منه ، الا يستطيعوا ، اذا ما هم وحّدوا النهج ، الاستجابة لالتماسات عفوية تلقائية . وعلى هذا الأساس اشتطوا في التنظيم وذهبوا فيــه بعيداً ، بحيث ان عبادة التكريم التي كانوا موضوعاً لهـــا ارتدت طابع نظام حكومي او بالاحرى ، نظم حكومية ومؤسسات رسمية ساروا عليها وفقاً للتسلسل الاجتماعي والوظائفي الذي وضعته الدولة ، اذ مهما كان عرفان الجميل والاعجاب عميقاً ، فلا بد ان يفقد شيئاً من الحماس اذا ما افرغا في قوالب جاهزة وجرى التعبير عنها وفقاً لمراسم تضعها السلطات الادارية . وعلى هذا قس ايضاً الفوارق التي تميز الامبراطور المؤله عن الإله، حتى اذا ما نُظر اليهـــا نظرة واقعية ، قتلت او اضعفت الشعور الديني ، ومنعته من الانطلاق والتجلي على السجية، بينما اعتبارها اجراءات سياسية ينتقص كثيراً من مبدأ العبادة في الصميم لما تحركه في المرء من تردد وتثير فيه من تشكك .

فالمستقبل ينفتح بالاحرى امام طرق اخرى ، وهي طرق يصح ان نتساءل معها ما اذا كانت انفع وأجدى ؟ بالطبع لا ، انما هي اوضح وأبين وأنصع ، كما انها اكثر ارتباطاً والتصاقاً ببعض الأفكار التي يزداد الاقبال عليها . فالامبراطور كاليغولا يتبجح بما تم له من مناقب وخصائص

هي من صفات الآلهة ، التي اقرها التقليد الموروث ، ويعمل على الانصهار فيها والذوبان معها .
ونرى صوراً للامبراطور نيرون على بعض النقود الرومانية متوجاً باكليل يشع من كل صوب ، رمزاً الشمس المشرقة وتشبهاً بها . ففي الحين الذي يحرص فيه الامبراطور دومتيانوس على الظهور والبروز كرب *Dominus* نراه يتشبث ويتشدد في المناداة به إلهاً *Deus* . وفي عهد الامبراطور كومود ، برزت العادة باعتبار كل ما يختص بالامبراطور او يتعلق به « مقدساً » ، وكلها سوابق لم يلبث ان استفحل امرها وعظم بعد ذلك .

ولما كان الأمبراطور يباهي ويفخر بالرسالة السامية التي يعتقد بائتمانه عليها: الا وهي الدفاع عن الامبراطورية من تعديات البرابرة، بؤرة الفساد على الارض، وتأمين السلام، والحفاظ على النظام في البلاد، وتوزيع الخير والرفاء على الأرض، فهو بالطبع، يغض الطرف عن الذين يرون فيه إشعاعاً وانبثاقاً، ومن ثم تجسيداً للالوهية او للآلهة التي تسيطر، تحت اسماء شتى، على النظام الكوني. وفي عهد الامرة الانطونية التي احسنت الحفاظ على الكثير من هذه المظاهر ، رأينا هذه الافكار بعينها تستبد بالخواطر ، لتبرز بوضوح وجلاء الناس في عهد امرة سفيروس .

٣ ـ الخلافة في الاسرة
بين الواقع والنظر

الخلافة الامبراطورية : البديل في الوراثة الممتنعة

ليس في هذا كله ما فيه حل المشكلة ، التي تلازم كل نظام امبراطوري أو ملكي من أي نوع كان . وهذه المشكلة هي اشد خطراً على الخلافة والوراثة الامبراطورية التي جاءت في اعقاب سلسلة من الانتصارات الحربية والامجاد العسكرية، والتي سيبقى مصيرها مرتبطاً الى الابد بالجيش، وبنسبة ولاء الجيش لهذه الامبراطورية . كل هذا يجعلنا نتساءل : كيف السبيل الى تأمين استقرار نظام الحكم القائم ، اي انتقال السلطة الشرعية الى امبراطور، من صلب رسالته ومهمته ان يؤمن لروما وللامبراطورية ما يطمعان فيه وينتظران منه بحق ؟

رفض اوغسطس حل مشكلة الملكية، لمنعه رفضه من الاخذ بالحد الادنى من الحق الملكي الذي استبد في اقطار الشرق الهليني . فمبدأ الخلافة الوراثية، لم يكن من الممكن قبوله والاخذ به منذ اعلان العهد الجديد . ومع انه لم يكن احد ليجرؤ على الجهر به ، فمبدأ الحق الوراثي فيها كان كامناً او مضمراً ، اذ انها اي الوراثة ، نتيجة منطقية حتمية لكل نظام ملكي . وقد شاءت الاقدار ان يكون بين الـ ١٧ امبراطوراً الذين تعاقبوا على الملك والحكم خلال قرنين من الزمن ، ثلاثة منهم لا غير ، هم : كلوديوس وفسبسيانوس ومارك اوريل، كان لهم ، عندما حانت منيتهم ، ابن شرعي يخلفهم على العرش . كذلك قضت الاقدار ان يكون الامبراطور كلوديوس ملكاً مستضعف الجانب ، ركيك الارادة والادارة ، ينال منه بيسر ، رهط من الافاكين الدساسين في بطانة لا ذمار لها ولا زمام ، عرفت كيف تقصي ابنه ووريثه الشرعي

بريتانيكوس لصالح حفيد اخيه وربيبه نيرون . ومن المؤسف لعمري ، ان تصبح الخلافة تقليدية في مثل هذه الظروف التي لابستها ، لتصبح فيما بعد ، شرعية بقدر ما يمكن لمثل هذا الامر ان يتم ويتوفر لنظام قام اصلاً ، على مبدأ إيلاء سلطة الشعب الروماني والعهد بسيادته ، الى رجل احد ، فرد .

ولئلا تضطر الدولة للاحتكام للسيف وبالتالي لحروب اهلية ، للبت في قضية الخلافة ، كلما اطلت من خلال موت امبراطور ، كان لا بد من إيجاد بديل له او عوض عنه ، فاتخذوا عدداً منهم ، بعضهم جرى اشراكهم معاً في وقت واحد . واكثر الذرائع استعمالاً ، كان التبني الذي يتلاءم جيداً والعرف المتبع واحكام قانون الاسرة عند الرومان . ولهذا العرف سوابق تقره، وتزكيه ، في سلوك قيصر بالذات الذي تبنى ابن اخيه او كتاف المعروف تباعاً باسم اوكتافيان ثم اوغسطس، كما يبرره سلوك اغسطس في اعمال التبنّي التي اتاها في عهده المديد. وكثيراً ما اضافوا الى هذا الأسلوب طريقة اخرى هي اشراك المتبني في سلطات وصلاحيات امبراطورية صرفة: كالسلطة التريبونية والسلطة البروقنصلية . وكان من جدوى هذا الاسلوب ومنافع الطريقة التي ساروا عليها، الا تجعل العرش يشغر عند وفاة صاحبه الاول. والى جانب هذا التفويض الشرعي او بدونه احياناً، كانوا يعمدون الى تعيين الوريث او ولي العهد بصورة واضحة ، بعيدة عن اللبس والاشكال ، وذلك بتوليته وظائف كبرى ، قبل بلوغه السن القانونية ، مع ما في هذا من مغايرة للعرف المتبع ، او باعطائه ألقاباً تجعل منه بحق، المتقدم ادبياً. وهكذا نرى دومتيانوس يعيّن ست مرات قنصلاً ، قبل وفاة اخيه تيطس ، كما ان الامبراطور هدريانوس جاد بلقب « قيصر » لمن رشحه لمنصب « اوغسطس » .

وخطا الامبراطور مارك اوريل خطوة أبعد الى الامام ، اذ منح تباعاً لقب « اوغسطس » لوسيوس فيروس *L. Verus* ، ابنه بالتبني ، ثم بعد موت هذا الاخير ، لابنه كومود ، واحتفظ لنفسه وحده ، دون سواه ، في كلا الحالتين ، بلقب ووظيفة كبير الاحبار ، وما تجرؤوا على الفصل بينهما إلا بعد ذلك بنحو ثلاثة ارباع القرن . وفي ما عدا ذلك ، كانت المشاركة كاملة فقد حق للاثنين ان يقابلا بالتحية الامبراطورية الرسمية ، كما استحقا ان يحملا الالقاب ذاتها التي في حلها إعادة لذكرى الامجاد الحربية . فبدلاً من ان تحمل قطع النقد الرومانية الجديدة صورة « نصر اوغسطس » *Victoria Augusti* ، فأصبحت تحمل رسم واسم *Victoria Augustorum* . وهذا الجديد الذي طلع به علينا مارك اوريل ، ما لبث ان أصبح القاعدة التي ساروا عليها ، والمثال الذي احتذوه في القرن التالي .

وهذا الاجراء بالذات ، يعيد الى الاذهان، عهد الوصاية المشتركة التي عُمِل بها حيناً في بعض الأسر الملكية الهلينية . فالطريقة كانت مرعية العرف ، متبعة لما كانت عليه من بساطة ويسر . ومن الغرابة ألا تكون الانظار اتجهت اليها والا تكون الامبراطورية الرومانية اخذت بها قبل سنة ١٦١ بعد الميلاد ، مع انها كانت تدبيراً معروفاً عُمِل به وجرى تطبيقه ، منذ أكثر من

مائتي سنة . إلا انه اتضح أكثر من مرة لمن يعنيهم الأمر عجز هذه الطريقة عن تأمين انتقال الخلافة بسلام . ولذا صح لنا ان نعتبر هذا التأخير ، مظهراً جديداً لموقف المداراة والتحفظ الذي اضطر العهد الجديد للوقوف عنده ، تمييزاً له عن نظام ملكي لم تكن روما لترغب فيه او لتتحمس له .

تطور الحق السلالي والاسرة اليوليو ـ كاودية *Julio – Claudienne*

كان لفكرة خلافة الأسرة وقع ، ولا شك ، شديد في النفوس . وهذا الاغراء بالذات كان له أثره البارز في واقع الخلافة السلالية . فالانسان نزّاع بطبعه ، للبقاء والديمومة . ونظرية الرجل الذي أعدّته العناية الربانية ، مهّدت السبيل طبعاً امام الفكرة الثانية وهي فكرة الأسرة المصونة ، الملهَمَة بنعمة الآلهة . فالامبراطورية الاولى تقدم للمؤرخ ثلاثة امثلة لكل منها طابعه الفردي المميز .

فمن عهد اوغسطس الى عهد نيرون ، برهنت السلالة اليوليو – كلودية عما لاثنين من افراد هذه الأسرة من تأثير ونفوذ عظيمين، هما قيصر الذي كان من اسرة يوليوس ، واوغسطس الذي كانت جدته لأمه من هذه الأسرة ايضاً ، ولم يلبث ان اصبح منها في الصميم بعد ان تبناه قيصر نفسه . وقد تزوج من والدة الشقيقين : *Claudii* ، واذ لم يُعقب تبنّى أكبرهما سناً ، وأرغمه على ان يتبنى بدوره ، ابن اخيه الاصغر ، بعد ان مات ابوه من قبل . وهكذا انصهرت اسرة يوليو بأسرة كلودي . وقد ازدادت الوشائج بين الاسرتين ، فيما بعد ، لصوقاً ومتانة ، على إثر المصاهرات والزيجات التي وقعت عبر الأجيال بين الاسرتين ، فضمت ابنة اوغسطس الوحيدة وبناتها من بعدها الى افراد الأسرة الكلودية ، وقد وقع من حوادث التبني بين افراد الأسرتين وأفخاذهما وبطونها، ما يجعل من المستحيل اليوم ، تتبع خيوط هذه الوشائج المتشابكة . ولكي يبدو هذا التعقيد على أتم صوره يكفي ان نورد هنا شاهداً واحداً . فعندما تزوجت أغريبين الثانية من خالها كلوديوس ، كانت لحماً ودماً ، ليس فقط ابنة حفيدة اوغسطس وحفيدة ابنة اخته ، بل كانت ايضاً بالتبني ، ابنة حفيدته . كل هذا التشابك والتراكب والتداخل لم يخل من نفع وفائدة ، على شرط ان يعرف المستغلّون كيف منه يفيدون ، ومثل هذا الأمر لم يغب عن فطنة أغريبين وزكانتها . فآصرة التبني التي شدتها الى اوغسطس كانت اجدى هذه الوسائل التي تذرعت بها لتحمل كلوديوس على تبني نيرون ، احد افراد اسرة دومتيوس *Domitius* ، فاستطاعت بذلك ان تقصي عن الخلافة بريتانيكوس ابنه الشرعي ، الذي كان بحسبه ونسبه ، بأبيه وامه ، حفيد اوغسطس .

وهكذا بدت الأسرة اليوليو ـ كلودية في عيون معاصريها، من هذه الاسر المختارة، المصطفاة، والمهيأة ، ان لم يكن شرعاً فوضعاً ، للاحتفاظ بالرتبة والسلطة الامبراطورية . غير ان مسائل هذه الشجرة وفروعها المتعددة ، وتشابكها بعضاً ببعض، كان من الأسباب التي حالت او منعت

تأمين انتظامها وانضباطها . فقد كان بوسع الامبراطور طيباريوس ان يلزمها التسلسل المدرّج ، وبعبارة اخرى ان يقصرها على التدرج المسلسل الذي كانت تفتقر اليه ، لو عرف كيف يحتذي حذو اوغسطس ويأتم بهدي فطنته ، عندما نظّم قضية خلافته ووراثته . غير ان ما كان عليه طيباريوس من نفرة الناس ، وابتعاده عنهم وبجافاته لهم ، كل ذلك وقف حجر عثرة دون المرتجى والمرغوب . ومنذ ذلك الحين ، اصبحت الوراثة السياسية كرة او ألعوبة ، تتقاذفها شعبية المرشح في الرأي العام ، وقادة الجيش ، والدسائس المحبكة وراء الكواليس ، وسخرية القدر وعبث الأقدار . وعندما بادر حرس القصر كلوديوس بالتحية الإمبراطورية ، إعلاناً له باعتلائه أريكة الحكم ، خاف وأخذت فرائصه ترتعد هلعاً ، فتوارى خلف سجف القصر وستائره. وهذا الوضع حمل كل امبراطور على ان يتخلص من انسبائه وذويه عندما يرى فيهم منافسين له على السيادة والسلطة . وهكذا أخذت الاغتيالات السياسية والسموم المدسوسة بعلم وفن ، من قبَل طامع في الحكم خالع العذار ، امثال «سيجان» ، تفعل فعلها الذريع بين الامرة الامبراطورية العديدة الفروع ، فحصدت افرادها البارزين حصداً ، وكادت تودي بها الى الهلكة والزوال . وعندما أجبر نيرون على الانتحار عام ٦٨ بعد ان تخلى عنه حرسه ، لم يكن بقي احد من افراد الأسرة ليطالب بإيجاد قيصر وأغسطس ، ويضرّح بها تعريفاً وانتساباً . وهكذا اصبحت الدولة والسلطة العليا فيها ، فريسة الاقوياء يتجاذبونها كلما اشتد من احدهم الساعد او تراءى للقوي بسمة يفاز بها الحظ .

الاسرة الفلافية
Les Flaviens

اما الرجل القوي في هذه الامرة فهو تيطس فلافيوس فسبسيانوس ، اول امبراطور اخرجته للناس هذه العائلة ، التي تولت الحكم مدة قصيرة لم تزد على ٢٦ سنة ، الا انها ألفت كتلة بزت بتجانسها وتراصّها ، ما تم منه للامرة اليوليو – كلودية . كان تيطس بن فسبسيانوس البكر ، ولما لم يعقب الا ابنة ، فقد خلفه على العرش الامبراطوري ، عند وفاته ، شقيقه دومتيانوس . وهكذا نرى ان الحظ سار في ركاب هذه الاسرة ، فرتبت أمر الخلافة فيها ببساطة كلية ، وبذلك ، عرفت ان تجري ، في روما ، حقاً وراثياً قام على قاعدة : الخلافة للبكر الذكر ، وجعلته بمعزل عن تقلبات الرأي ودسائس الدساسين .

وعرف الامبراطور فسبسيانوس ، بما أوتي من حزم وعزم ، ان يفيد من مؤاتاة الحظ له وسيره في ركابه . فما ان قبل تسنم أريكة الامبراطورية حتى رأى في وجود ولديه الى جنبه ضمانة كافية للخلافة في ذريته . « وكان له من الجرأة ان عالن مجلس الشيوخ » ، كما يؤكد المؤرخ سويتون ، بان ولديه سيخلفانه ولا احد غيرهما » . وفي هذا السبيل عمل ما يترتب عليه عمله ، فعهد الى ابنه تيطس بالسلطة التريبونية والسلطة البروقنصلية ، كما رفع ابنه الثاني دومتيانوس الى رتبة القنصلية وثبّته فيها عدة مرات. وبفضل هذه الاجراءات الحكيمة والتدابير الرشيدة ، بدت السلطة بين يديه حقاً وراثياً قائماً في الاسرة ، ينتقل من السلف الى الخلف بصورة تلقائية ،

دون صريف او صرير . ثم راح بعد هذا ، ينصرف من جهة اخرى ، لتنظيم عبادة الامبراطور وتقديسها . فليس ما يصدمنا او يثير دهشنا قط ، ان نرى ونقرأ على احدى النقائش التي عثر عليها في بريطانيا ، ، العبارة التالية التي كتب لها ان تعمر طويلاً ، وهي : « البيت الإلهي » وبعبارة اخرى : « الاسرة الإلهية » ، تنوها بالأسرة الامبراطورية واشارةً اليها .

هذه النظم والانشاءات المستحدثة كان يلزمها ، لتعيش وتُعرق في نفوس القوم ، ان يطول بقاء هذه الأسرة على الحكم ويدوم الى مــا شاء الله . غير ان تصرفات دومتيانوس وسفاسفه كانت سبباً في هــلاكه وقتله . وما كاد جثمانه يوارى الثرى ، حتى راح مجلس الشيوخ يلغي قرارات التبني التي كان اتخذها الامبراطور الراحل ، اذ كان تبنى بعد وفاة اولاده ، اولاد شقيقه الذين كانوا في الوقت ذاته ابناء عمومته . وهكذا وجدت خلافة الامبراطورية نفسها امام فراغ جديد وعلى حافة هاوية عميقة .

الاسرة الانطونية واختيار الاصلح

عرف المتآمرون ، هذه المرة، ان يُحكموا الحبكة ويسددوا الضربة، وينفذوا بدقة ، التدابير المقررة ، فلم يجد العنف طريقه الى تعيين الامبراطور الجديد. فالامبراطور الجديدالذي نادوا به : نيرفا ، قبل به الجيش راضياً مرضياً ، فكان طليعة الأسرة الانطولية التي اطلت على الحكم في شخصه واستقام لها الأمر قرناً تقريباً اي من سنة ٩٦ الى سنة ١٩٢ للميلاد. اما قضية الخلافة في عهد هذه الأسرة، فليس في التاريخ كله، بما فيه تاريخ روما والأسر الملكية التي تعاقبت على الحكم، اسرة أعلق في النفس واشد غرابة من هذه الأسرة. فالغرابة تكاد تلامس الخروج على العرف المألوف .

ولئلا نستطرد الى ما لا طائل تحته ، يكفي التأكيد هنا ان كل الاباطرة الذين أطلعتهم هذه الأسرة ، باستثناء واحد منهم، هو الأخير بينهم، الذي تم على يده وأدْ الأسرة ، مع انه الوحيد الذي جاء منها الى الحكم بحق الوراثة الخلافية ، قد تعاقبوا على الحكم على أساس التبني وليس على أساس البنوة الطبيعية . ويجب ان نذكر هنا انه حدث مثل هذا لطيباريوس ، اذ كان ابناً بالتبني لأوغسطس . فاستمرار تعاقب الأمر على هذا النحو ، يكوّن بحد ذاتــه ، حدثاً جديداً ، يستدعي النظر . صحيح انه كان هنالك وشائج من القربى بين السلف والخلف، كأبناء العمومة أو الخؤولة ، والمصاهرات التي ربطت بين الآباء والابناء ، بررت وزكّت اعمال التبني هذه . وليس من الغريب قط، لعمري ، ان نفرض ، في بعض حالات هذا التبني – وهو أغرب مــا في هذا النوع – وجود بنوة طبيعية ، ولكن غير شرعية . ومن المؤكد كذلك أن عمليــة التبني عند هؤلاء الاباطرة لم تكن سوى تدبير أعرج ، أخِذ به في الحالات القصوى ، بعد ان رأى من لجــأ الى هذه الطريقة من بينهم ، أنفسهم بدون عقب يخلفهم. وأول امبراطور منهم رزق صبياً ، بادر للحال لتأمين الخلافة له ، حتى أن الامبراطور مارك أوريــل نفسه رأى ذاته ملزماً للأخذ بالقانون الطبيعي مع انه جاء في مصلحة كومود نفسه . فاذا كان ثمّة مــا يبرر ، بالفعل ، قرارات التبني هذه ويزكيها، فالشيء الذي يبقى غريباً ويصدم العرف ، لا بل يكوّن

المفتاح الحقيقي لهذا السر المغلق وينأى بعيداً عن الواقع : هو قبول الجيش لمثل هذه الاجراءات التي اتبعت لتأمين الخلافة والأخذ بها دون ان يحدث في الغالب ما يعكر صفو الأمن ، اذ كانت ترفع الى السلطة العليا قوّاداً ليس لهم من الحسب ولا من المجد العسكري – باستثناء ترايانوس – ما يستحقون معه ثقة الجيش والولاء الذي عرف بـــه ، وهم في الغالب افراد لمعوا في بطانة الاباطرة الذين دُعوا لخلافتهم ، أو برزوا في المجتمعات الرومانية التي عرفتهم وقدرت مواهبهم بمعزل عن الجيش الروماني ؛ فاذا ما عرفوا ان يفوزوا بولاء الجيش فبفضل مــا جاؤوا به حالاً من دليل على كفاءتهم ومواهبهم ، أو بفضل ما كان عليه الجند اذ ذاك من احترام لروح الانضباط ، بلغ حداً من العمق لم تعرف البلاد له مثيلاً من قبل ، وهي فترة قصيرة الأمد ، اذا ما قيست بمدة بقاء الامبراطورية ، ولكنه طويل بالنسبة للاباطرة الأنطونيين الخمسة ؛ فعرف هؤلاء الملوك ان يفيدوا من هذا التوازن المدهش الذي جمع بين القوى الأدبية والقوى الاخرى المتفاعلة في الامبراطورية .

هذه الملاحظات العابرة أعجز من أن تستنفد الاهتمام الخليق بالأسرة الانطونية ، والظروف التي أحاقت بها ، والوضع القائم الذي أوجب تكوين طبقة اجتماعية مُوجّهة تكون في مأمن من وصول اباطرة الى الحكم يجيء بهم الجيش على سنان الرماح . واقتصرت هذه النظرية على تثبيت وضع قائم ، والترسيخ له في النفوس ، والعمل على رفع مستواه ، بعد ان قررت الأخذ بالنظام الامبراطوري ، وجعْل الخلافة في الاسرة من حق « الأفضل » و « الأمثل » لها . وتحرص العهد على تسمية الوريث الأفضل ، واعلان امره ، وذلك تقوية للاباطرة الذين أقر مجلس الشيوخ الروماني خلافتهم . ولم يكن المؤرخ تاسيت ، وهو من معاصري الامبراطور ترايانوس إلا ترجمان حال زملائه من اعضاء هذا المجلس عندما راح يقصّ علينــا في « تواريخه » قصة تبني الامبراطور غلبــا *Galba* لبيزون *Pison* أو مقتل نيرون ، فكتب على لسان المتبنّي : « لا يعني هذا قط ان لا أنسباء لي ولا رفاق سلاح ، ولم أبلغ الحكم لأني طمحت اليه ، وسميت له ، كما يشهد على ذلك ، ممارستي السلطة بنَصَفَة ، وبمعزل عن الأخذ بالوجوه ، وتفضيلي لك على باقي الناس ، ليس على خاصتي فحسب ، بل على خاصتك ايضاً ... فهذا الاختيار الذي صدر عنا هو الحرية بعينها . أمــــا الآن بعد ان انقطعت اسرة اليوليين واسرة الكلوديين ، فالاختيار والانتخاب أساسه : الأمثل والأفضل . ان يأتي المرء الى الوجود ودم الأمراء يسري في عروقه ، فأمر من صميم الحظوظ والاقدار ، التي يتعطل معهـا الفكر وينعدم النظر . فالمتبني هو الذي يقطع ويحزم في ما يُفتصّل . فاذا ما قرر الاختيار كان له الرأي العام هادياً » . ورسالة الاطراء والمديح التي وجهها «بلين الاصغر» *Pline Le Jeune* للامبراطور ترايانوس تتضمن ، هي الاخرى ، تصريحات من هذا النوع . فالأخذ بهذه النظرية ولو ظاهراً ، أضفى كثيراً على السلالة الانطونية شيئاً من الوقار والنبل في تفكيرها : فعبثاً نحاول العثور على غيرهــا من الامر الامبراطورية تتفتح في ظلها وعهدها ، مثل هذه الافكار السمحاء التي لم تنقضها الحوادث والماجريات الواقعية التي حدثت خلال أجيال متعاقبة . إلا ان هذا النقص كان لا بد له من ان يقع ويحدث . وقد شاء

القدر العابث، الساخر، ان يأتيها على يد مارك اوريل نفسه .

عدم اكتمال تجربة النظام الملكي الامبراطوري

قيّض لنا ان نشهد، ونحن بصدد الحديث عن طقوس عبادة « روما واوغسطس» او عبادة الإلهي *Divi* ، عدم اكتمال الملكية الامبراطورية وبلوغها التمام، اذا ما قارناها بالملكيات الاخرى . هل كان من شأن تطوير أسرع في المظاهر الدينية ومناسك العبادة، ان يساعد أكثر في تطوير نظرية الملكية لامبراطورية ليبلغ بها الى الكمال والتمام ؟ فالعبادة الامبراطورية كانت تفتقر، بالفعل، الى الكثير من روحانية الدين. فلا عجب ان يقابلها الكثيرون بالتشكك وان يعرضوا عنها ويولوها ظهرهم.

فلو بلغ هذا التطور تمامه لكان جاء، على عكس الواقع، بنتائج فعالة، ربما تبلورت عن وضع قانونٍ لوراثة الخلافة الامبراطورية، ثابت، واضح، وهو وحده القادر على ان يشيّد النظام الملكي على أسس ركينة من الشرعية والدستورية فيجعل من هؤلاء البشر المقدّر لهم ان يحصدهم الموت، والذين تعاقبوا على الأريكة الامبراطورية، كلاً متجانساً، اذ ان عدم توفر هذا العنصر الاساسي عرّض الامبراطورية، الفينة بعد الفينة، لهزات عنيفة وخضات شديدة، أورثتها الفوضى والوهن . وهذه الامبراطورية، باعتبارها مؤسسة بشرية، وملكية عسكرية، لم يكن لها بدٌّ من التضرّس بما تضرّست به من إحنِ الدهر وصروفه ودُوَله، انما قد يكون جاء هذا كله، على نطاق اضيق وبعدد اقل . فغموض النظام الذي سارت عليه، والإشكال الضمني الذي اتصفت به، اقاماها، منذ الاساس، على خواء، وجعلها واهية، متداعية في الصميم. هنالك، بالطبع، عدد من النظم الملكية، عانت، منذ البدء، الداء نفسه، إلا انها عرفت، فيما بعد، كيف تنفض عنها اعراض هذا السقم فتعود اليها العافية سريعاً. ومسؤولية عدم اكتمال فكرة النظام الامبراطوري في روما، انما مردها قبل كل شيء، والحق يقال، الى الظروف التي لابست هذه الامبراطورية وأحاقت بها، وللأفراد الذين تولوا مقدّراتها خلال القرنين، وهي الفترة التي امتد اليها عهد الامبراطورية الاولى، وما خامرهم من شكوك وتردد وما أتوه من مخافات وترّهات .

ومع ذلك، وبالرغم من هذا النقص الجذري في التكوين والبنيان، استطاعت هذه الامبراطورية ان تحيا وتبقى وان تنتظم، ان لم يكن نظرياً فأقله واقعياً .

٢ ـ النظم القديمة

عرف النظام الامبراطوري ان يشق طريقه في الدولة، وان يحقق نجاحاته على حساب النظم والمؤسسات الجمهورية التي لم تلبث ان خفتت حيويتها وضؤل نشاطها، يوماً بعد يوم .

الاجتماعات الشعبية *Les Comices*

استمر العمل بالهيئات الشعبية القائمة، انما قلت دعوتها للانعقاد. فاذا ما عقدت جلساتها، فلأمور تافهة وبصلاحيات اخذت تضيق وتدق، شيئاً فشيئاً . وقد يحدث ان تدعى، في القرن الاول للاجتماع، عند مناسبة

عارضة للتصويت على بعض مشروعات القوانين ، بعد ان حُرمت من فرصة مناقشتها ، مع العلم ان قرارات مجلس الشيوخ والامبراطور ، لها وحدها قوة القانون ، بحيث لم يعد يبقى لهذه الاجتماعات الشعبية أية قيمة تشريعية على الاطلاق .

كذلك فقدت هذه الهيئات ما كان لها من صلاحيات انتخابية، بعد ان بطل العمل بها فعلاً، منذ عهد اوغسطس، وذلك على أثر تمتع الامبراطور بحق التوجيه وتقديم الاقتراحات التي احتفظ به لبعض الوظائف الكبرى بعد ان جرى تحويلها بكل بساطة ونقلها الى يد مجلس الشيوخ . واكتشفت عام ١٩٤٧ بعض كتابات ألقت ضوءاً على وجود نظام وسيط ، جرى العمل به قبل هذا الانتقال ، تظهر بوضوح ، دهاء النظام الذي تم وضعه عام ٥ ق . م ، ثم أدخلت عليه تحسينات عديدة في الفترة الواقعة بين عامي ١٩ و ٢٣ للميلاد ، جعلت منه مجرد عملية انتخاب شعبي بسيطة . وكان اعضاء مجلس الشيوخ وخيرة طبقة الشفاليه يتوزعون وفقاً للقرعة ، الى هيئات مائة *Centuries* تتولى اختيار مندوبين اولين *Destinati* ، من بين عدد من المرشحين تعرض قوائمهم على الهيئات الشعبية لاقرارها والتصديق عليها . وكان عشر من هيئات المائة *Centuries* تحمل اسم حفيديْ اوغسطس ، توُفيا يافعين . وعندما توفي ابن طيباريوس وابنه الآخر بالتبني، جرى إنشاء خمس هيئات مئة جديدة عند كل وفاة منها حملت اسماءهما. والاعتقاد السائد هو ان هؤلاء الأمراء الذين رُفعوا الى مصاف الابطال كانوا اداة وحي وإلهام الناخبين المشاركين بعملية الاقتراع كما يقترحون ، هم أنفسهم ، أسماء الاعضاء الجدد للهيئات الشعبية . إلا اننا نجهل الجهل كله ، الوقت الذي امكن فيه الاستغناء تماماً ، عن مثل هذه الاساليب . ومهما يكن ، فالاقتراع لم يكن سوى عملية صورية ، وهمية ، لا طائل تحتها البتة .

وقد بدا لاوغسطس وخلفائه من الامبراطرة الذين تعاقبوا على الحكم بعده انه اذا كانوا يريدون فعلاً الاستقرار للعهد الجديد ، كان عليهم ان يجعلوا الحياة السياسية في البلاد بمنأى من الدسائس والاضطرابات والقلاقل التي طالما اتصفت بها اجتماعات الهيئات الشعبية وافسدتها . فالشعب الملك كان بالفعل قد فقد كل سلطة له ، عند اعتلاء الامبراطور العرش ، وفقاً لقرار يصدره مجلس الشيوخ يقتصر عادة على المناداة به امبراطوراً، وتقليده مقاليد الولاية والسلطة. وقد حفظ لنا التاريخ نص القانون الذي تمت بموجبه الولاية لفسبيانوس . فالامبراطور وحده يكفي لادارة مصالح الشعب والدفاع عنها .

المناصب والوظائف

فهذه الوظائف الكبرى التي كان الامبراطور يقلدها لأصحابها، اما رأساً ، كالقنصلية مثلاً ، او بالواسطة عن طريق البوح برغبته الخاصة ، بشأن بعض المرشحين ، لم تكن لتتمتع ، بالفعل، باي استقلال خاص. فهي مراتب بقي معمولاً بها كالقاب لا غير، لها درجاتها ورتبها المتسلسلة في الادارة، باستثناء وظيفة المراقب العام التي كان الامبراطور يحرص على الاحتفاظ لنفسه بكل صلاحياتها واختصاصاتها ، سواء أحمل هو نفسه ، هذا اللقب او لم يحمله ، وكثيراً ما ، لم يكن لهذه الالقاب سوى مظهر تبجيل خارجي تثقل على حامليها

احياناً ، نفقة تمثيل. ويذكر ديون كاسيوس في معرض حديثه عن الامبراطور كلوديوس ، ان عدداً من القناصل الرومانيين تخلوا عن الرتب القنصلية التي كانوا يحملونها ، مع ما هي عليه من علو الشأن ، لانهم عجزوا عن تحمل تكاليف تمثيلها .

هنالك ناحية من هذا التطور الذي خضعت له وظيفة القنصلية ، يمكن الوقوف عندها ملياً واتخاذها قياساً ، للدلالة على ما خسرته هذه الوظائف والرتب من قيمة الشأن البعيد الذي كان لها من قبل . ورتبة القنصلية التي بقيت محتفظة بكل شاراتها الفخرية وبعنايتها ببعض المراسم الدينية ، فقدت ، في الواقع ، كل ما كان لها من شأن وشأو ، بعد ان برز الامبراطور على رأس الدولة ، وتخلى مع نوابه وممثليه ، بما يتحلى به من سلطات واختصاصات عالية. وخسرت هذه الرتبة من قدرها وشأنها بعد ان ازداد عدد الحاصلين عليها ، مع انه لم يكن يوجد منهم معاً في الوظيفة، في وقت واحد، اسوة بما كان عليه الوضع في الماضي ايضاً، اكثر من مائتي قنصل. فالذين كانوا يتقلدون هذا المنصب في غرة كانون الثاني (يناير) كانت السنة تحمل اسماءهم. وهذا الفريق من القناصل هم القناصل « العاديون » الذين تأثرت رتبهم والقابهم باقل مما تأثر به اخرى ، بالنظر للامتيازات التي تمتعوا بها . وقد جرت العادة ان يستقيل هذا القنصلان ، قبل بدء السنة الجديدة بقليل ليفسحوا المجال امام قنصلين جديدين يحلان محلهما . وكانوا يتعاقبون بسرعة في الوظيفة ، بحيث كنا نرى ، في القرن الاول ، القنصل يعين لفترة اربعة اشهر . وليس بالغريب او النادر قط ان نرى قناصل قبلوا التعيين لمدة شهرين او لشهر واحد . وهذه العادة كان لها ما يبررها من رغبة الامبراطور في ان تتوفر له سهولة اكبر في اختيار اصحاب بعض الوظائف التي لا يقوم عليها إلا من كانوا قناصل من قبل . وهكذا فقدت هذه الوظيفة كل شأن لها .

هذا الاستخفاف ينزل برتبة القنصلية يبرز على اشده ، عندما نعرف ان القنصلية كانت السبيل او الطريق المؤدي الى البروقنصلية التي لصاحبها سلطات شبه مطلقة على الجيش او الولاية التي يتولى ادارتها . فلم يبق في الامبراطورية سوى مركزين لصاحبيها سلطة البروقنصلية، يجري اختيارهما من بين فئة القناصل : هما بروقنصل آسيا (مركزه افسس) وبروقنصل افريقيا (مركزه قرطاجة) ويتقاضيان عن وظيفتهما هذه مرتبات ضخمة للغاية تنقطع معها شهوة الارتكابات والاختلاسات وسوء الائتمان . وفضلاً على ذلك ، ان الاول منهما انتزعت منه ، في غرة العهد الامبرطوري ، كل سلطة على الجيش ، وكذلك الثاني منهما كان له المصير ذاته ، وكلاهما يخضع لسلطة الامبراطور ، يساعدهما في حكم الولاية وادارتها موظفون يأتي تعيينهم من قبل الامبراطور نفسه ، كما ان مدة تعيينهم في هذه الوظيفة لا تتعدى السنة ، ولا يمكن تجديدها عند نهايتها ، بأي حال . وهكذا يبدو ان معظم افراد الطبقة القنصلية لم يكن أمامهم من امل سوى التطوع في خدمة الامبراطور ووضع أنفسهم تحت تصرفه للانعام عليهم بأية وظيفة يتدبهم لها . ولم تكن وظيفة القنصلية تعطى إلا لمن برهنوا عن كفاءتهم ، وجاؤوا بالدليل القاطع على ولائهم للامبراطور ، فاذا ما قبلوا بما يعرض عليهم منها انفتح امامهم الباب لوظائف أكبر وأعلى

تبقى دوما تحت المراقبة الضيقة واشراف الامبراطور المباشر .

ومثل هذا التحول والتبدل يطرأ على الوظائف الاخرى ، ولا سيا وظيفة البروقناصل الذين يعهد اليهم بحكم الولايات الامبراطورية وادارتها . ويجري انتقاؤهم غالباً من بين طبقة الـ المقدّمين *Préteurs* الذين لم يكونوا أسعد حظاً، ولاأرفع حالاً من حكام ولايتي آسيا وافريقيا. « ان سلك التشريفات والامجاد » هو بيد الامبراطور وتحت رحمته . والوظائف المختلفة التي تلمع لمثل هذه التبجيلات لا تعطى ولا يعهد بها إلا لمن يقوم بمهام وظائف الادارة الامبراطورية .

مجلس الشيوخ *Sénat*

بين المؤسسات الجمهورية التي تضرست بالتغيير ونابها من التحويل والتبديل اقل من غيرها في الظاهر كان مجلس الشيوخ ، لا بل يبدو لمن يرى الامور من الخارج، انه نال المزيد من السلطات ، لأنه حل محل الهيئات الشعبية في الانتخابات التي كانت وقفاً على هذه الهيئات ، كما ان القرارات التي كان يتخذهـا ، كانت بمنأى عن الاستفتاءات الشعبية والانتقادات او الاعتراضات التي يثيرها في وجهها التريبون او محامو الشعب . وكان من سياسة اوغسطس ومعظم خلفائه حتى اواخر القرن الثاني ، الاعتماد ظاهراً ، على هذا المجلس في تجنيب البلاد ، خطر الاضطرابات الشعبية . فقد رموا من وراء ذلك الى تعزيزهم نفوذ هـذه الهيئة والرفع من شأنها . غير ان هذه المشايعة او السلطة الثنائية ، *Dyarchie* ، كما يسميهـا المؤرخ الالماني مومسن *Mommsen* ، لم تكن بالحقيقة، سوى تغرير او تعلة. هل كان الامبراطور يرغب فعلاً ، باقتسام السلطة – وهو أمر يتنافى أصلاً مع رغبة الفرد بالسيطرة المطلقة – مع مجلس يتألف من ٦٠٠ عضو يضم العديد من العناصر التي لا يمكن استخدامها أو الانتفاع بهـا ، بينهم كثيرون معروفون بيولهم الجمهورية وحدبهم عـلى نظم العهد البائد ، كما ان بينهم من عرفوا بأطماعهم الاشعبية وطموحهم، وغيرهم من اصحاب الزلفى والمدلسين؟ ونرى اكثر من امبراطور يدخل في خصام مكشوف ، ان لم يكن مع مجلس الشيوخ، كهيئة قائمة بذاتها لم تكن لتجرؤ على الوقوف بوجهه ، فإنه مع بعض الشيوخ الذين تحوم حولهم الشكوك ويرتاب جداً باخلاصهم له، ويشك في ولائهم نحوه ، فيتفادى شرهم بقطع دابرهم أفراداً وافواجـاً . فالمزاج الشخصي الذي فرّد هؤلاء« الطغاة » الذين وصفهم مؤرخون من مؤرخي العصر ، كانوا مثلهم اعضاء في المجلس المذكور ، أمثال تاسيت ، بأبشع الأوصاف كان سبباً في ذلك أن عدداً كبيراً منهم ذهب ضحية الدسائس التي حاكوهـا ، كما ذهب غيرهم فريسة الوشاة النفاثين والأرصاد المبثوثة عليهم . ولم يصفُ الجـو ويصحُ إلا في عهد الدولة الأنطونية ، باستثناء حكم هدريانوس وكومود ، بعد ان لعبت عوامل كثيرة دورها الملطّف والمهدّىء ، منها مثلاً كفاءة بعض الاباطرة الذين عرفوا ان يفرضوا الاحترام حولهم ، وقدرتهم على التعالي بالاحقاد ، والتحسينات التي أدخلت عـلى تشكيل مجلس الشيوخ بعد ان اعتمدوا في الاختيار ، قاعدة جديدة هي خبرة العضو الجديد وحنكته ، دون حسبه ونسبه أو نشبه ، والرغبة المشتركة في تجنيب البـلاد أزمة كالأزمة التي وقعت فيها ٦٨-٦٩ ق.م. غير ان الحقبة لم تطل كثيراً ، اذ ما كاد ماركاوريل يتوارى ويخلو

العرش بموته حتى عادت الخصومة على أشدّها .

وفي هـذا القران الافلاطوني الاستثنائي ، لم يتمتع مجلس الشيوخ ، مع ذلك ، بأية سلطة مستقلة ، اذ كان الامبراطور يشرف عن كثب ، على انتقاء الحكام وكبار الموظفين ، في حال عدم توليه امر تعيينهم بنفسه ، ويخلق وظائف شرفية لا طائل تحتها ، كما يحرص اشد الحرص على تشكيل اعضاء المجلس وتأمين التسلسل الدقيق في المراتب والدرجات . فالمجلس لا يخطر له يوماً على البال ، معارضة رغبات الامبراطور ، والقرارات التي يتخذها هـذا المجلس، تختفي وتنسخ عندما يصدر الامبراطور مراسيمه فيبادر اعضاؤه الى إقرار المشروعات التي يعرب عنهـا في خطبه وتصريحاته . وللامبراطور ، كما لمجلس الشيوخ ، حق الاعتراض ، والاحتكام برفع القضايا الى مجلس أعلى ، غير ان الاعتراض ينتهي دوماً لمصلحته هو ، وليس لمصلحة المجلس . فاذا ما نال مجلس الشيوخ ، في عهد الأسرة الانطونية ، وحده ، الحق بمحاكمة احد اعضائه جزائياً ، فهو يحرص على ان يتبين رغبة الامبراطور وارادته الخفية في الأمر وسريرته قبل اصدار حكمه ، كما انه يبادر في الحال الى الاعراب عن أسفه وندمه ، اذا ما خانه الظن وطاش فأله . ولعـل اهم امتيازات مجلس الشيوخ الروماني ، هو ان يفوّض ، من قبل الشعب ، وباسم الشعب ، السلطة للامبراطور الجديد . غير انه لم يكن لرأيه إلا ما ندر ، وزن حاسم ، كما وقع للامبراطور نيرفا وللامبراطور ترايانوس . والموقف العادي المألوف الذي يقفه هو الاعتراف بن وقع عليه اختيار الجيش واقراره له ، او المصادقة على قرار الامبراطور السلف بشأن الخلافة .

ولكي يتوفر له غير ما توفر من سلطة وهمية ، كان عليه ان يضطلع بتوجيه سياسة البلاد الخارجية ومراقبة حكام الولايات وما تحت إمرتهم من جيوش ، والسيطرة على اموال بيت المال . غير ان تحرر قادة الجيش ، قبل نهاية الحكم الجمهوري ، جرّد المجلس المذكور من كل هـذه السلطات والصلاحيات ، ثم جاء عهد الامبراطورية فأجهز على ما كان تبقى له منها . فحقّ الحرب او السلام هو بيد رئيس الجيش الاعلى . فمنذ اوغسطس ، خضعت البلاد لتقسيم اداري أدخل عليه فيما بعد تعديلات لم تتعدّ الاساس القائم ، والمبدأ المعمول بـه . فالولايات المشيخية وحدها هي التي لا تقوم فيهـا فرق من الجيش ، وهي الولايات التي استتب فيها الأمن ولا اضطراب على حدودها الخارجية . تابع مجلس الشيوخ ، في اول العهـد الامبراطوري ، مراقبة الموظفين الذين يتولون ادارة بيت المـال ، الملقب « بهيكل ساتورن » والذي لم يكن يتغذّى إلا من الرسوم الجباة من ايطاليا والولايات المشيخية ، وهي رسوم لم تكن لتغطي مصروفات الدولة في هذه المقاطعات . فعلى خزانة الامبراطور ان تبادر لسد العجز . ومنذ عهد نيرون ، اخذ الامبراطور يُعنى شخصياً بتعيين ولي بيت المـال « *Aerarium* » والحدّ من صلاحية مجلس الشيوخ في ضرب العملة إلا البرونزية منها . كان في روما قطاعات واسعة في الادارة العامة يقتضي لها الاختصاص والتقنية ، كما يقتضي لها المضي في الخطة العامة الموضوعة لها . من هذه الادارات : مديرية البوليس ، ودائرة التموين *Annone* ودائرة القناطر المائية *Aqueducs* ، ومجرى نهر التيبر وشواطئه ، والمجارير

العامة ومباني الدولة ، وكلها دوائر بمعزل عن اختصاص الموظفين ، ترجع لاشراف الامبراطور مباشرة .

فالشكليات التشريفية والمظاهر الخارجية استمر العمل بها بعد ان بولغ في الحفاظ عليها. غير ان انحطاط النظم القديمة كان قطع مراحل بعيدة بالرغم من الاحتفاظ بالهيئات الشعبية ونظام الوظائف الادارية ، ومجلس الشيوخ ، وبذلك ألبس العهد الامبراطوري النظامَ الملكي الذي اقامه في البلاد ، رداءً جمهوري المظهر .

٣ ـ النظم والمؤسسات الجديدة التي طلعت بها الحكومة والادارة المركزية

ضرورة التطور ومصاعبه

قابل انحسار العهد الجمهوري ، في الجانب الآخر ، قيام ادارة جديدة اقتضت ما اقتضته من نظم ومؤسسات اخذت تتفتح وتنتظم تحت اشراف الامبراطور ومعيته ، فضمت عدداً من الموظفين عُهد اليهم الاضطلاع ببعض نواحي الادارة ومساعدة الامبراطور في الحكم . ففي خلال هذين القرنين ، لم يقم احد من هؤلاء الامبراطرة ، حتى من اشتهر بينهم بموقفه المعتدل من مجلس الشيوخ ، وباستعداده الطيب نحوه ، بمالأة هذا المجلس الذي لن تسنح لنا الظروف بالتنويه به ، إلا بنسبة ما يتصل بأتفه الاحداث التي رافقت هذا التطور بعد ان اصبح لا يُقاوم . صحيح انه قطع بعض المراحل بسرعة ، وهي سرعة لم تتم في عهد الامبراطرة الأكثر فظاظة او ذوي النزعات الأكثر اضطراباً ، امثال كاليغولا ودومتيانوس مثلاً . فقد جاء هذا التطور على يد امبراطرة تأثروا كالامبراطور كلوديوس ، مثلاً ، بنُصح بطانتهم النيّرة ، او كالامبراطور هدريانوس ، الذي كان عهده حاسماً ، فوضعوا نصب أعينهم ، في الدرجة الاولى ، مصلحة الدولة العليا .

وهذا التطور الموصول ، لا يمكن ان يفوت معناه احداً على الاطلاق . فمن شتيت من المقاطعات ولَمِّ الولايات ضمت بعضاً الى بعض ، بعد ان تم فتحها على يد مدينة مظفّرة ، حكمتها ونظّمتها بوسائل مرتجلة ، وأمّنت حاجاتها كما تبدت لهذه المدينة ، وراحت تطبق هذه الاساليب بالذات ، حقاً او بطلاً ، على العالم الذي خضع لها ، كان لا بد للامبراطورية الرومانية ان تهدف لنظام دولة ، وان تصبح بالفعل ، دولة لتحقق الاهداف التي تضعها نصب عينيها ، والرسالة التي تضطلع بها . فقد تأثرت ، ولا شك ، بما عرفت من خبرات الممالك الهلينية التي قامت في الشرق او ربطتها بها علاقات نامية واخذت الكثير من نظمها السياسية والادارية. فأين يمكن لها ان تجد ، في هذا المجال ، احسن من الشرق الهليني تجربة ناضجة ، مكتملة ، والمناهج القويمة التي لا بد لدولة عظيمة ، من الاعتماد عليها والركون اليها ؟ فلا عجب ، ان يَرِدَ الامبراطرة الرومانيون على مثل هذا المعين الثري يعبّون منه ويصدرون عنه . إلا انهم كانوا متحفظين جداً في ما

نقلوا ، وحرصوا ألا يكون القبس تقليداً حرفياً ، ونقلا أعمى ، فراحوا يكيّفون ، وفقاً لأغراضهم وحاجتهم ، بعض النظم التي تلقّفوها ، كما استنبطوا من جهتهم حلولاً جديدة للمشكلات التي عرضت لهم .

يجدر بنا ، ونحن نستعرض لهذا كله ، ألا نعوّل كثيراً على تضارب آراء الكتبة الاقدمين وجدلهم الصاخب ، الذين رددوا ، من حيث يدرون او لا يدرون ، ورجّعوا ، عن وعي او غير وعي ، رأي مجلس الشيوخ المعروف بتمسكه بماض مرّ وانقضى ، أفزعه طلوع طبقات اجتماعية جديدة في البلاد ، وهاله سفح « الحرية » ، واستبداد النظام الملكي من كل جانب . ففي التاريخ القديم ، على ادنى تقدير ، لم نر أي نظام ملكي ، حتى هذا النظام الامبراطوري نفسه ، يقبل ، راضياً مرضياً ، على الأخذ بمثل هذه الوظائفية في الادارة . فهو يشعر مسبقاً بفقره واحتياجاته الشديدة للموظفين الفنيين ، الأمناء المخلصين ، كما انه لا يجهل قط كيف ان رسوم الجباية والضرائب مهما زيدت ، تقصر عن تغطية الزيادة الحاصلة في بابي النفقات والصرف ؛ فلا بد ، والتالي ، ان يصاب نشاط الدولة بشيء من الوهن والضعف ، من هذا كله . فلا يُقبل على الأخذ بالنظم الجديدة إلا بضغط من الضرورات القصوى . ففي هذا الظرف بالذات ، فلذة الاستبداد لا تدخل في الحساب ، بل الحاجة الملحة للتنظيم ، لجعل الادارة أكثر فعالية ولانقاذها مما عانت من سوء التصرف ، ومساوىء عدم الكفاءة وعدم الانسجام التي تضرست بها من قبل .

ففلسفة العهد في مرحلته الاولى ، لم تكن ذات نزعة مطلقة . فهي على عكس ذلك تماماً ذات نظرة شورى . فالألوف من القضايا والامور التي كانت تُعرض من قبل لنظر ، كبار الموظفين ، أو لحكام الولايات ، أصبحت تُرفع ، منذ الآن فصاعداً ، للامبراطور رأساً . وهذا التوزع الذي ساد الادارة من قبل ، وحال دون خلق دوائر وإحداث مصالح فيها ، ولو بشكل بدائي ، أولي ، زال وانقضى وحل محله تجميع اداري جعل من الضرورة انشاء مثل هذه الشبكة الادارية وتنظيمها . فلم تنشأ كلها دفعة واحدة ، مكتملة الجهاز والاختصاص . والذي تأخر ظهوره ، ولا سيا في بعض المصالح ، هو الاعتراف بالطابع الرسمي لهذه المصالح ، مع انه كان باستطاعة الاباطرة فرضها بالقوة قبل ذلك بكثير ، انما آثروا بقاءها والاستعانة بها كأدوات مساعدة خاصة . وقد بدا ، لعمري ، شيء من التناقض ، ولو في الظاهر ، بين العهد الجديد ، من حيث كنه وجوده وطبيعته ، وبين النظام الوظائفي الذي تبناه وسار عليه ، هذا النظام الذي قام في الأصل ، على التفوق البارز الذي تجلى في مؤسسه ، فاذا بالدولة تخفض من أثره المباشر فاقتصرت عمله الاكبر على التوجيه ، والاشراف على ادارة لها كيانها الخاص وتنعم بالديمومة والاستمرار .

مجلس الامبراطور الخاص .

هذه الملاحظات التي ابديناها هنا ، تلاحظ على الاخص ، مجلس الامبراطور الخاص ، والمصالح العديدة الاخرى التى اقتضاها حسن سير العمل في هذا المجلس ، والتي لم تدخل في صلب تكوين الدولة الا من عهد هدريانوس .

كان لاوغسطس، منذ البدء، اصدقاء حميمون، بينهم « مكيني » و « أغريبا » ، كما كان يحف به، في اوقات الحرب، رفاق سلاح لم يلبثوا ان ألّفوا حوله اركان حربه . وهذا العرف التقليدي، له اصوله الرومانية البعيدة الجذور والمحترمة معاً — فعلى كبير القوم ان يستشير من حوله — كما له اصول هلينية ، ولذا استمر الاخذ به والحفاظ عليه . ومـــع ذلك لم يبلغنا قط ، ان هؤلاء « الاصدقاء » ألّفوا يوماً، بالرغم مما بين الاسماء من مشابهات، طائفة او هيئة مسلسلة الدرجات والرتب، شبيهة، من بعض الوجوه، بما كان معروفاً من امثال هذه الهيئات، في الممالك اليونانية.

فالاهمية المتزايدة للدور النامي الذي لعبه الامبراطور في الحقلين العدلي والقضــائي هي التي تُبرز التقدم الذي تحقق في انشاء « مجلس الملك » الذي كان يجتمع بصورة غير منتظمة ، كما ان تشكيله كان يختلف في عهد اوغسطس ، ولم يصبح قائماً ، ثابت الشكل إلا في عهد طيباريوس . وقد تجدد تشكيله رسمياً واعيد النظر جذرياً في قوامه ، في عهد هدريانوس . وكان اعضــاؤه يقسمون الى ثلاثة فئات ، ويتقاضون مرتبات سنوية ويعقدون جلساتهم برئاسة الامبراطور او برئاسة كبير امناء البلاط ، في حال تغيبه . وهم يتألفون عادة ، من شفاليه وشيوخ ، يقر مجلس الشيوخ نفسه تعيينهم في هذه الوظيفة . وبين اعضاء المجلس عدد من كبــار الفقهاء والمشترعين، يتحلون، مهما كانت الظروف، بالكثير من الحنكة والخبرة الواسعة ونفاذ البصيرة. وذلك للبت بالقضايا الحالة الى مجلس الامبراطور او المستأنفة اليه للنظر فيها من جديد، وذلك تفسيراً لقانون جديد ، او شرحاً او تكملة لتشريع خاص . ففي مجال الشرع ، حقق مجلس الامبراطور الخاص *Concilium principis* عملاً تشريعياً عظيماً من ابرز الاعمال التي قام بها العهد الامبراطوري .

المكاتب الادارية

لا بد للامبراطور من كتابة سر او ديوان، اسوة بسراة القوم وعظمائهم عند الرومان . فاستخدم اوغسطس ، في هذا السبيل ، أمثل ما لديه من الأرقــاء أدباً ، وارفعهم ثقافة ، وابرزهم علماً ، وهم على الغالب ، اقوام اغارقة او شرقيون ، اعاد اليهم حريتهم ، وأعتقهم ، بعد ان رضفوا في العبودية طويلاً فاعتقهم وحررهم ، تقديراً منه للخدمات الجلى التي أدوها .. وكانت امانة السر في بادىء الأمر ، ديوان كتابة خاص ، لا مشاركة له في الصلاحيات والاختصاص . ومثل هذا الديوان تم انشاؤه على يد الامبراطور كلوديوس ، الذي انشأ ايضاً عدداً من الدواوين والمصالح ، فجعل واحداً منها للآداب ، وآخر للمظـالم ، وآخر للتحقيق القضائي، وآخر للدراسات، وبعد ذلك قام ديوان آخر هو ديوان بيت المال او المحاسبة. واستمر العمل بهذه الدواوين لتيسير مهمة الادارة ، كما نشأ غيرها كثيراً فيما بعد ، كديوان المخطوطات *Archives* . وهكذا قام الى جانب الحكومة المركزية اجهزة ادارية أتيح لها ان تقوم بعمل رتيب ، رصين ، موصول الاصول ، لم يكن بد منه للانضباط .

ويبقى رؤساء هذه الدواوين او المصالح الادارية ، لمدة ثلاثة ارباع القرن ، بين يدي المعتقين من الرق . من أشهرهم في عهد كلوديوس الامبراطور : نرسيس *Narcisse* وبَلاّس . فالنفوذ العريض الذي تم لهما ، والغنى الوافر الذي جمعـــاه بطرق وأساليب تختلف أمانة واستقامة ،

والاجلال الذي أحيطا به وهما في بطانــة الامبراطور ، والملق الذي لاقوه من ذوي الالتماس ، جعل اعضاء مجلس الشيوخ يحرضون في ريقهم حسداً ، كل ذلــك لم يخفِ عن الناس ، الأصل الوضيــع الذي انطلقوا منه . فاذا ما خدموا الامبراطور فخدمتهم هذه تذهب لسيدهم بكل ما في الكلمةمن قوة شرعيةأكثر مما تتجه للامبراطور نفسه. وعلينا انننتظر طلوع عهد هدريانوس لنرى تغييراً جوهرياً في طبيعة هذه الدواوين ، اذ اخذ الامبراطور يسندها ويلقي بهـــا الى شخصيات لها شأنهـا في المجتمع ، فيأتي بهم ، في معظم الحالات ، من صفوف الشفاليه . فأعضاء مجلس الشيوخ لا يمكن الاعتماد كثيراً على ولائهم ، كما ان المنزلة التي لهم باعتبارهم اعضاء الندوة المذكورة ترشحهم لوظائف أكبر ، من الوجهة العملية ، مع انها ترتبط بالامبراطور من الوجهــة النظرية .

وصاية ونيابة

وأجهزة التقرير والتبليــغ هــذه ، كانت تهتم بشؤون العالم الروماني كله بينا أنشأ الامبراطرة عدداً من الوظائف الاخرى ، عُمل بها في ايطاليا وببعضها في روما فقط ، وهي وظائف وادارات لا يمكن فصلها عن الحكومة المركزية بشكل من الاشكال نعمت كلها بصلاحيات وسلطات محلية وفقاً لدوائر ادارية معينة، كما لعبت دوراً مهماً في عالم السياسة.

وهذه الوظائف المتباينة في طبائعها وصلاحياتها وفي مسؤولياتها ، من الملل والنافل معاً ان نحاول هنا استعراضها جميعاً ؛ يعهد الامبراطور ببعضها الى مفوض او مندوب يدير شؤونهـــا ويتحمل مسؤولياتها كوظيفة « نواب » *Préfets* ، اما الاخرى فوظائف مزدوجة لهاطابع فني او تقني ، تستوجب من صاحبها الاختصاص والاستمرار ، وهي شروط لا تتوفر عادة في الحكام والمراقبين الذين ينتدبون لمدة سنة . ومن بين هؤلاء الموظفين : الاوصياء *Curateurs* الذين يتألف من مجموعهم لجان تقوم بالاعمال التي كان يعهد القيام بها من قبل الى « سنسور » المراقب. والخاصة المميزة لهؤلاء الموظفين هي انهم يعيّنون من قبل الامبراطور، وهو يدفع لهم مرتباتهم ويخضعون للترقية والترفيع ، والعزل والرفت ، حسبما يراه مناسباً . وبما ان الادارة لا تنفصل عن العدل والعدالة ، فالامبراطور يتدخل بواسطة المندوبين والمعتمدين في معظم شؤون الدولة : العامة والخاصة ، على السواء .

بين هذه الوظائف ، عدد كبير يحتفظ به لاعضاء مجلس الشيوخ ، منها وظائف الاوصياء ، باستثناء ما كان منها خاصاً بالطرقات الثانوية او الفرعية الواقعة في ايطاليا ، ومنهـــا الطرقات الرئيسية او الدولية ، وقناطر روما ، ومصلحة ضفاف نهر التيبر ومجارير المدينة ، الى غير ذلك. ومن هذه الوظائف : نيابة المدينة التي انشئت ، في الأصل ، لتمثيل الامبراطور في رومـــا ، عندما يكون غائباً عنها ،وبقيت وظيفة دائمة ، استمر العمل بهـــا ، بعد مكث الامبراطور طيباريوس الطويل في جزيرة كابري . وعلى صاحب هذه الوظيفة، ان يسهر على الامن واستتبابه في جميع انحاء المدينة ، وتحت تصرفه ثلاثة طوابير من البوليس البلدي . وبعد ان استهدف صاحب هذا المنصب لمنافسة شديدة طويلة، بقي على رأس القضاء الجنائي، في روما وضواحيها ،

على مسافة ١٠٠٫٠٠٠ خطوة او ما يوازي ١٥٠ كلم. فاذا ما جمع الى وظيفته وهي عضوية مجلس الشيوخ، عد ذلك تكريماً لمجلس الشيوخ كما عـد اعترافاً من الدولة بالدور الجيد الذي لعبه هذا المجلس في تاريخ روما والامبراطورية التي انشأتها.

اما النيابات الاخرى فيشغلها موظفون من فئة الشفاليه، بينها ثلاثة خليقة بالاحترام تستحق التنويه بها بشيء من التفصيل.

فاولى منها هي نيابة الـ *Prétoire* او الولاية وتشبه رئاسة الاركان، وهي عبارة عن مركز عالٍ متعدد النشاطات والصلاحيات. فنائب الولاية هو قائد حرس الامبراطور قائد الجيش الاعلى، الذي يتألف عادة من تسعة طوابير، يعد الواحد منهـا بين ٩٠٠ – ١٠٠٠ جندي، ومركزها روما منذ عهد طيباريوس، بينما لم يكن منها في عهد اوغسطس، في ايطاليا كلها، سوى ٦ فرق لا غير. وهذه القوة مكلفة بالسهر على الامن وتأمين اسبابه، وتمكين الامبراطور من ممارسة سلطته غير المحدودة باعتباره القائد الاعلى للجيش.

ورئيس الحرس يحمل دوماً خنجراً صغيراً رمزاً لوظيفته والصلاحيات الواسعة التي يمارسها، يقلده اياه الامبراطور تنويهاً منه بأن له حق الموت والحياة. ويقوم نائب الولاية، من جهة ثانيـة بدور رئيس اركان الجيش، ويتعهد تجهيزاته لا سيما في اوقات الحرب، ويمارس، في ايطاليا، السلطة الجنائية، على مسافة ١٠٠ ميل، كما ان موظفي هذه الفئة هم، بحكم الوظيفة التي يشغلونها، اعضاء مجلس الشورى، كما نظمه الامبراطور هدريانوس. فصاحب هذه الوظيفة يأتي في قمة سلم الدرجات الوظيفية، وهي وظيفة تحفظ عادة لفئـة الشفاليه. غير ان أباطرة العهد الاول يترددون في امر صاحب هذه الولاية، يعهدون بها، من وقت الى آخر، دونمـا تميز او تحديد في الصلاحيات، الى اثنين من الموظفين، او الى واحد، على السـواء. الا انهم يفضلون، مراعاة منهم للفعالية وحسن التنفيذ، وضبطاً للادارة، إسنادها، في الغالب، الى موظف واحد، مع ما عرف عنهم من حذر وتحسب له مـا يبرره، اذ ان قصة سيجان، في عهد طيباريوس، وبيرينتيس، في عهد كومود لا تزال ماثلة في الأذهان. فلا عجب، والحالة هـذه، ان يوجس الاباطرة شراً مـن العهد بمثل هذه القوة والسلطة الى نائب تجيش نفسه بالاطماع. ومن الامراض التي اوهنت العهد وفتت كثيراً في عضد الدولة لتفشيهـا، عدم توفر الولاء في هؤلاء الحكام، وافتقار الموظفين للاخلاص، وحب الانتفاض والثورة التي كثيراً ما تخض بهـا جنود الولاية. فلا عجب ان يكون والي الولاية هو المسؤول الاول عما يحدث في الولاية من امور تخل بالامن.

اما الولايتان الاخريان الاقل نفوذاً وتأثيراً: ولاية الحراس *Vigiles* (شرطة الليل وسرية مكافحة الحرائق) ومصلحة التموين والتوريدات *Annone*، فلم يكن من خوف او تحوط من اصحابها. فقد أولت ظروف الحياة وملابساتها المتشعبة والمعقدة في روما، هاتين الوظيفتين، اهمية كبيرة لما كان يجب ان يتحلى به صاحباها من الاستعداد الفني والتقني. فلا عجب، والامر كما ذكرنا، ان يُضفي عليهما منصب والي الولاية، بعض الظلال الكاسفة، وذلك بالنسبة للقوة

العسكرية والحربية التي كانت توضع عادة تحت تصرف هذا الوالي .

عدد كبير من هذه الوظائف المستجدة يعيد الى الاذهان سوابق من الوظائف الهلينية. فمدير الحرس يذكرنا حتماً ، بقائد الليل *Stratège de nuit* لدى البطالسة ، ووالي الولاية نفسه المستمد صلاحياته من القانون الروماني العام يحمل طابع قائد الحرس الملكي في الممالك اليونانية التي قامت في اعقاب خلافة الاسكندر المقدوني بما اعتوره من شوائب ولازمه من عورات . وذلك يعود بالفعل ، الى طبيعة الوظيفة ومهامها الاساسية لدى الطرفين : فهي واحدة هنا وهنالك، اذ تقوم اصلاً بالاشراف ، والعمل على كل ما من شأنه ان يزيل الاضطرابات والقلق والفوضى . فاذا ما عرفت الامبراطورية ان تحل المشكلة على مثل هـــذا النطاق الواسع من الاجراءات والاحتياطات، وعلى مثل هذا الاهتمام الشديد والمستوى العالي الذي لم يُبلغ الى مثله او بعضه في الممالك الاخرى، فمرد ذلك ، من جهة، الى انها افادت كثيراً من التجربة التي تلقتها من الخارج، كما انها راعت ، من جهة ثانية ، ما كان يحف بروما من وضع معقد بالنسبة لعدد سكانها الكبير والاهتمام الذي هم به جديرون والامجاد التاريخية التي يمثلون . ومهما يكن من الامر، فالاباطرة، لم يعودوا ليعنوا ، هم انفسهم ، بحل المشكلة عن طريق ايجاد مصلحتين لهذا المنصب او دائرتين، طالما راح غيرهم يبحث عن مثل هذا الحل ، ان لم يكن توصل بالفعل ، الى حله بعد . من ذلك مثلاً انهم اقاموا حاميات دائمة مستقرة ، كما عهدوا بالامر ، من جهة ثانية ، الى عملاء ، لهم كل الثقة بولائهم فأولوهم صلاحيات ومسؤوليات انتزعوها ، على نطاق واسع ، من مجلس الشيوخ ومن بعض الحكام ، بحيث يستطيعون معها تأمين الادارة البلدية .

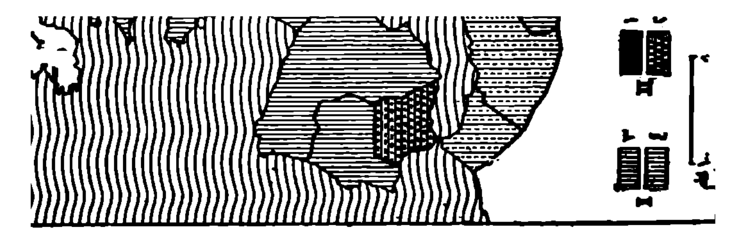
فالنتائج النظرية جاءت جلية ، وواضحة بينما كانت هذه النتائج ، من الوجهة العملية بسيطة لا يؤبه لها كثيراً . علينا مع ذلك ان نلاحظ هنا ان الصعوبات العملية جاءت من قِبل قسم من الجيش والحاميات المرابطة دون ان يشارك الشعب بهذه الاضطرابات او يساهم في إثارتها ، كما حدث في كل من الاسكندرية وانطاكية .

٤ ـ الادارة المحلية والاقليمية

كذلك كان من الضرورة بمكان، تأمين ادارة رشيدة للامبراطورية ، تبرز معها المسؤوليات، تقتضي وحـــدة في السياسة ، كما تقتضى مواصلة العمل على تحقيقها . وكان من المحتم على السلطة الامبراطورية ان تبرهن ، منذ البدء ، عن سيطرتها المطلقة وامتلاكها ناصية الامور والاشراف على الادارة الحكومية التي اخذت بالاتساع والتضخم .

ايطاليـــا

مجرد التفكير بتجريد ايطاليا مما لها من وضع ممتاز في الامبراطورية ، والقضاء على الامتيازات التي كانت تنعم بها ، منذ عهد بعيد ، كان من شأنه ان يثير وحـــده ، الغبار ويطلق الشكوك . ففي هذا القطر الذي كانت فيه روما تنعم بما تنعم به من وضع مدني



الشكل ٩ — خريطة التقسيمات الادارية للامبراطورية الرومانية في اواسط القرن الثاني

I ـ ولايات مشيخية يتولى الحكم فيها حكام من رتبة بروقنصل : ١ ـ ولايات حكامها قناصل قدماء ؛ ٢ ـ ولا
حكامها بريتور متقدمون.

II ـ ولايات امبراطورية يتولى ادارة الحكم فيها : ٣ ـ مندوبون بروبريتوريان من فئة قنصل قديم او ،
قديم ؛ ٤ ـ بروكوراتور او ولاة من رتبة شفاليه .

من العسير تحديد الفئة التي كانت عليها جزيرة كورسكا ـ لم تكن ايطالية منقسمة اذ ذاك الى ولايات .

ممتاز ، كان الشعب يتمتع بشبه ادارة مستقلة، وتتولى الهيئات الشعبية ادارة شؤونها البلدية تحت مشارفة مجلس الشيوخ والحكام الاداريين المحليين . وقد أدخلت ، بعد ذلك بكثير ، تعديلات على هذا التقليد الموروث : فالشؤون البلدية فيها لم تستبد بالطبع بالاهتمام، كما استبدت به روما، ولا عرفت الحدة والدقة في الادارة التي اقتضتها روما في هذا المجال . ومع ذلك كان لا بد للادارة العامة من الالتفات لهذه الناحية ، وذلك بتعيين مندوب *Curateur* لهذه او لتلك من المدن التي تعاني البلبلة وعدم الانتظام في ميزانيتها ، وآخر ليعنى بشؤون العدل والعدالة. وقد طلع علينا الامبراطور هدريانوس في هذا المجال بتدبير جديد ألغاه خليفته ، ولم يلبث ان عاد اليه مارك اوريل وأصبح من بعده تدبيراً مرعي الاجراء رسمياً ، اذ قسم شبه الجزيرة الايطالية الى أربعة محافظات او ولايات ، قام على ادارة كل منها ، شيخ من اعضاء مجلس الشيوخ يحمل لقب « قاض »، اذ كان بين اختصاصاته القطع بالقضايا المدنية، بينما القضايا الجنائية كانت من اختصاص ولاة المدن والولاة الذين كانوا يعنون بمراقبة سير الحياة في المدن ، ويتدخلون بشؤونها ، كلما سنحت لهم الفرصة لذلك . وهكذا تم تدريجياً إعداد ايطاليا وتهيئتها للمصير ذاته الذي آلت اليه الولايات الأخرى ، بعد ان رؤي ادخال تحسينات جديدة على اوضاع المدن في الولايات الأخرى .

توزيع الولايات والحكام

تقدم ذكر الخطط الادارية الكبرى عندما جرى البحث عن وضع الولايات . ففي ١٧ كانون الثاني (يناير) عام ٢٧ ق . م ، صدر مرسوم قسمت معه الولايات الرومانية خارج ايطاليا، بين مجلس الشيوخ وبين اوغسطس ، على أساس من التوازن بين الجانبين . وما لبث هذا التوازن ان اختل فيما بعد ، لصالح الامبراطور، التعديلات التي طرأت على هذا الاتفاق ، ولا سيما بعد ان ضمت الى الادارة الامبراطورية ، ولايات جديدة تم فتحها في وقت لاحق . ففي اواسط القرن الثاني ، كان الوضع بالنسبة للولايات الرئيسية التي كان حاكمها برتبة شيخ من اعضاء مجلس الشيوخ ، ومن بينها ولاية مصر التابعة طبعاً للادارة الامبراطورية، كما يلي: ٢٣ ولاية أمرها منوط بالامبراطور رأساً، و ١٠ ولايات مرتبطة ادارياً بمجلس الشيوخ .

كان الامبراطور ، بالطبع ، يسيطر عن كثب ، على حكام الولايات الخاضعة لادارته ، وهم، في الغالب ، من اعضاء مجلس الشيوخ، سبق لهم ان شغلوا من قبل، مراكز قناصل او مفوضين، وفقاً لأهمية الولاية او الحامية العسكرية المرابطة فيها . فهم يحملون لقب « نائب اوغسطس » ، تدليلاً على تابعيتهم ، ويضاف الى لقبهم هذا الوصف *Propréloriens* تدليلاً على التحاقهم بالامبراطور لأن له الحق وحده في الدولة بأن يلقب بروقنصل في الولايات الآنفة الذكر . اما حكام الولايات الأخرى ، أي تلك التي أنيط امرها بمجلس الشيوخ ، فكانوا يؤخذون من طبقة الشفاليه ، ويعرفون باللقب *Procurateurs* ، فكانوا يتولون شؤون الولايات الصغيرة ، او ادارة المقاطعات التي لم تكن قطعت بعد شوطاً بعيداً في مضمار التطور الحضاري، مثل مقاطعات

موريتانيا الواقعة الى الغرب من افريقيا الشمالية . وعلى كل ، لم يكن تحت حكام هذه الطبقة أية فرقة من فرق الجيش. وعلى هذا الوضع بالذات كانت مصر وصاحبها يعرف بـ والي . وكانت مصر مركزاً لحامية عسكرية، اختلف عدد فرقها على توالي الزمن ، فكانت ٣ في القرن الاول، ثم اثنتان ، ثم واحدة منذ عهد هدريانوس . وقد دعا الى قيام مثل هذه الحامية في مصر ، ما كان لوادي النيل من أهمية بارزة ، في مدّ روما وايطاليا بما تحتاجان اليه من المواد الغذائية . ويكشف لنا المؤرخ الروماني« تاسيت »ما كانت تخفيه تولية الامبراطور لولاية مصر من سر خفي، اذ كان يحذر الحذر كله من دخول أي عضو من أعضاء مجلس الشيوخ، او أحد من فرقة الشفاليه له شهرته الواسعة ، مصر ، بدون ترخيص خاص منه مسبق ، وذلك لما يتعرض له من اغراء شهوة الخيرات الوافرة التي كانت ترفل بها تلك البلاد ، والرغبة في الاستمتاع بهـا ، فيأخذ في تبييت الدسائس وحبك المؤامرات للاستئثار بهذه الخيرات . فيحاول منع تصديرها الى الخارج، وفي ذلك ما فيه من تهديد لسيطرة الامبراطور نفسه ولروما بالمجاعة. ولذا كان الامبراطور يولي الوظائف الادارية الكبرى لاداريين من رتبة الشفاليه ويعهد اليهم بوظيفة حاكم في الولايات الخاضعة لسلطته مباشرةً .

ومهما يكن من أمر هؤلاء الحكام، شيوخاً كانوا او شفاليه، نواباً للملك او ولاة او مفوضين، فهم من رجال الامبراطور وخاصته ، يصطفيهم بنفسه ، ويعينهم على رأس الادارة ، فيبقون فيها ما طاب له بقاؤهم عليها ، وهم مسؤولون عن ادارتهم امامه وحده ، او امام من ينتدبه من قبله لمحاسبتهم ، ينزل بهم القصاص الصارم ، اقله الرفت والعزل ، اذا ما اساؤا الى ما أؤتمنوا عليه ، من مهام ومسؤوليات ، او يجزيهم خيراً بمنحهم الألقاب الفخرية وترفيعات سنية ، اذا ما رضي عن اعمالهم ونتائج ادارتهم .

ولم يكن من النادر قط ان ترى موظفاً من اعضاء مجلس الشيوخ يتقلب تباعاً بين الوظائف الكبرى فيمارس تارة وظيفة *Proprétorieus* او بروقنصل، اذ لم تكن مثل هذه الوظائف توزع على فئتين من الموظفين : اصحاب الاولى من الشيوخ الذين يمكن نعتهم بالحياديين او الأحرار ، واصحاب الثانيـة من الموظفين التابعين للادارة الامبراطورية . فهذه المناصب الادارية ذات الدرجة الادارية المشتركة والصلاحيات المختلفة التي اقتضت مصلحة الدولة وحسن سير الاعمال انشاؤها بكثرة ، وما يحدد لها من مسؤوليات وصلاحيات واغراض، لم تكن سوى درجات في سلم التوظيف الخاص بالشيوخ ، وفقاً للعرف المتبع ، يعملون جميعاً ، كل واحد ضمن اختصاصه ، في خدمة الدولة ، وتأمين مصالحها . والى جانب الأخذ بهذا العرف الاداري المعمول به ، كثيراً ما كان الاباطرة يتخذون ، ابتداءً من مطلع القرن الثاني ، قرارات ومراسيم ، بتعيين عدد من كبار الموظفين يُنتقون من فئة الشفاليه ، في رتبة توازي عضوية مجلس الشيوخ أو أعلى درجة من بين الحاصلين على الرتبة الأولى من هذه العضوية ، الأمر الذي أدى بالتالي الى توحيد السلك الاداري ، وتأمين التجانس بين سلم الدرجات. وهكذا اصبحت هذه المفارقات النظرية،

بين مرتبة وأخرى ، لا معنىً لها وليس ما يبررها . فالاشخاص الذين يقع عليهم الاختيار لملء هذه الوظائف ، سبق ان اعطوا الدليل على كفاءتهم وعلى ما يتحلّون به من قدرات ومؤهلات ادارية، وعلى جدارتهم المسلكية للمهمات التي ينتدبون اليها او تناط بهم. فتعيينهم لهذه الوظائف يُعتبر ترفيعاً استحقوه ، بعد ان عرفوا ان يحمموا الى الاختصاص الذي يحملونه ، شعوراً قوياً بالاخلاص للمصلحه العامة المشتركة التي يعملون على خدمتها ، وان يزدادوا ولاءً للامبراطور ، بمنأى عن روح الزلفى والملق التي تطبع عادة رجال الحاشية والبلاط .

روح جديدة تغمر الادارة

في هذه الروح تقوم بالفعل احدى المفارقات التي ميزت العهد الجديد الذي طلع على البلاد ، والى مثل هــــذه النتائج الطيبة ، افضت التطورات التي طرأت على جوهر الادارة المحلية في الولايات .

فالمركزية الادارية التي سار العهـــد الجديد على مبدئها وطبّقها في الولايات ، لم تجلب معها المزيد من الحرية لسكان الولايات . فمثل هــذا الجهاز الاداري البطيء الحركة والثقيل الوطأة لم يقتصد عليهم بالمتاعب . فالحريات التي ما زالت بعض الجماعات والهيئات الشعبية المحلية تتمتع بها ذهبت ، هي الأخرى ، ضحية الاصلاح الاداري ، فجرت على الأمور الادارية وقضاياها شيئاً من البطء والتمهل في معالجتها ، والتثاقل في تحريكها والانتقال بها ، اذ كثيراً ما كانت الادارة المحلية تضطر لرفع الأمر للادارة المركزية للموافقة على التدابير والاجراءات التي تتخذها في امر معين . فانشاء مصلحة البريد الرسمي للدولة وتنظيمها في عهـد الامبراطور هدريانوس تحمّل اعباءها ، السكان القريبون من طريق البريد ، اذ فُرض عليهم ان يُؤمّنوا ما يحتاج اليه البريد من حيوانات الجر ووسائل النقل .

ومع ذلك ، فاذا ما رحنا نقارن بين المنافع التي عادت على الشعب في العهدين شالت كفة الامبراطورية ورجحت . فالولايات التي لم تكن لتبالي باحتضار مجلس الشيوخ وحشرجته ، لم تتضرّس كثيراً بما حيك من دسائس في البلاد ومن الاغتيالات السياسية التي أتأمتها احياناً . فالمصالح الادارية الكبرى عرفت ان تؤمن التعاون بين مختلف الدواوين، وان تطبّق بحذافيرها، نصوص القوانين المعمول بهـا من قبل ، وذلك حتى في احلك الأزمات التي هزت الامبراطورية وفي عهد أسوأ الاباطرة . ان امبراطوراً من طينة نيرون مثلاً ، لم يكن كله سيئات، فترك اثراً اختلف قدراً لدى سكان الولايات. فما عسى ان يكون الوضع ، والحـالة هذه ، مع اباطرة خيرين ، عرفوا بنشاطهم العارم ، وتفرغوا للعمل الجدي على صعوبته ، امثال : طيباريوس ، وفسبسيانوس ، وترايانوس ، ومـــن جاء بعدهم . وهكذا جاشت الحكومة بادارة جديدة ، غمرها ، أكثر فأكثر ، شعور الولاء للسلطة ومكّنت لهـذا الشعور في نفوس الناس وقلوبهم ، صهرتها التجربة ، وصقلتها الاختبارات الماضية فتأثرت ، الى حد بعيد ، بالنظريات والفلسفات الهلينية ، ولا سيا بالنظرية الانسانية التي تنزّت بهــا فلسفة الرواقيين فانسجمت مع النزعات الرومانية بعدان لقحتها. وتمتعت هذه الادارة، الى جانب الثقة التي اولتها السلطة الامبراطورية،

بما يلزم من الوسائل لفرض مشيئتها والتعبير عنها بأعمـــال واجراءات حظيت بتأييد السلطة ومساعدتها . وهكذا رأينا حكومات الولايات تنعم ، هي الأخرى ، بجهاز اداري ، تم له في جميع درجاته ، الملاكات والأطر اللازمة ، والمؤهلات الادارية التي لا بد منها . فكان من المتوجب على كل حاكم ولايـة ان يراقب ، عن كثب ، مرؤوسيه ، كما كان يخضع ، هو الآخر ، لمراقبة أعلى ، من قبـــل الادارة المركزية ، بما حوله من عيون مبثوثة وأرصاد قائمة . وقام الى جانب الوالي دوائر ومكاتب ديوانية محلية ، انتظمت أعمال الادارة ، وسارت بها على شكل ما قام من امثالها في روما . ولم يكن ليبدو لأحد قط ان الأمر بلغ حد الكمال والتمام في هذا كله ، انما ساد الجميع شعور بأن الوضع الإداري احسن حالاً بكثير ، مما كان عليه من قبل .

العـــدالة

برزت هذه الحقيقة على أنصع صورها في مرفقين هامين من مرافق الادارة العامة في الامبراطورية ، هما : العدل والوضع المالي في البلاد .

قام فوق السلطات البلدية حاكم الولاية الذي أخضع ما كانت تتمتع به هذه البلديات من حريات، لقيود وتضييقات متزايدة. فكان قطب الادارة الاقليمية ومرجعها الأكبر. فهو الذي يتولى النظر في أهم القضايا المدنية التي تعرض عليه ، ويُقِرّ الأحكام بالموت التي تصدرها المحاكم ، كما حدث ذلك لبيلاطس البنطي ، والي اليهودية ، عندما صدّق على الحكم بصلب السيد المسيح . كان للرعايا الرومانيين الحق بأن تجري محاكمتهم في روما اذا ما راحوا يتمسكون بحقهم هذا، فيمثلون امام محكمة الجزاء فيها وليس امام مجالس الهيئات الشعبية التي فقدت تباعاً كل صلاحياتها القضائية . وقد افاد القديس بولس وغيره كثيرون ، من هـذا الحق الذي تمتعوا به بوصفهم يحملون الرعوية الرومانية . وهنا مجال للتساؤل كيف ان تكاثر عدد من يحملون هذه الرعوية لم يفضِ الى ازدحام هذه المحاكم بالمتداعين، إلا ان يقال بوجود حالات خاصة متميزة ، او الافتراض بأن بعض الحكام تجاوزوا صلاحياتهم دون ان ترتعد فرائصهم او يؤنبهم الضمير . فها مثلاً الحاكم « غلبا » ، نائب الامبراطور في اسبانيا ، قبل اعتلائه العرش ، يأمر بقتل متهم يحمل الرعوية الرومانية بالرغم من احتجاجه بجنسيته الرومانية، ويعلّق على صليب ابيض عال ، آخر لتسميمه ربيباً له،ثم تراه هو ذاته،بعد ان أصبح امبراطوراً، يحكم بالموت على نائب الامبراطور ومثله في جرمانيا السفلى، لاهماله التماس مجرم رفع محاكمتـــه الى روما فضرب بالتماسه عرض الحائط . ومهما يكن ، ففي بعض الحالات عندما تكون الجريمة فاضحة نكراء ، كانت القاعدة المألوفة ان تجري المحاكمة في المكان الذي تقع فيه الجريمة .

حرص كل الولاة الرومانيين عـلى ان يقوموا بواجباتهم القضائية خير قيـــام . ولذا نراهم يجرون دورات تفتيشية منتظمة في ولايتهم ، ويقيمون مجالس العدل والنظر في أمور الناس ، في كل المدن الرئيسية التي يمرون بها ، وهم في هذا كله ، يستعينون بأهم رجال القانون ومشاهير الفقهاء ، فيتولون بأنفسهم ، او بالوكالة ، التحقيقات القضائية التي لا بـــد منها . وكانت بعض الولايات تقسم الى أقضية ولكل قضاء نائب عمومي يقوم بالمحاكمات . وكانت طبيعة الأحكام التي

يصدرها الحاكم هي الدليل الأكبر على ما فيه من مقدرة وعلى ما يتصف به من نزاهة ونصفة ، اذ لم يكن هنالك مجال قط لتجد الرشوة طريقها اليه .

والخطر من ان يركب القاضي رأسه فيُصدر احكاماً اعتباطية ، كان يحدّ منه حق المتهم بطلب محاكمته في روما كما كان للامبراطور الحق برفع كل قضية اليه . فعلى صاحب الظلامة ، في الولايات الامبراطورية ، ان يرفع ظلامته للامبراطور نفسه . اما في الولايات المشيخية ، فبإمكان المتظلم ان يلتمس محاكمته امام الامبراطور او امام مجلس الشيوخ ، إلا انه كان يفضل دائماً المثول امام الامبراطور . وبالفعل كانت الأحكام تستأنف أغلب الأحيان ، حتى ان الحكام انفسهم ، كانوا لدى أدنى شك يخامرهم في قضية ما ، يبادرون باستئنافها الى روما . وهكذا نرى النشاط الحقوقي والقضائي يحتدم كثيراً في الحكومة المركزية، وفي اصغر الدوائر القضائية التابعة لها ويتوسع. فالامبراطور الذي كان ينزع في الصميم ليصبح المصدر الوحيد للتشريع والقانون ، كان يغتنمها فرصة ذهبية لتوجيه هذا التشريع حسبما تقتضيه الضرورات والنظريات الجديدة والعمل على توحيدها . وهذا التطور عاد بالنفع ليس على روما وايطاليا فحسب ، بل بالأكثر ، على الولايات التي عانت ما عانت من تَعنّت الحكام المتعاقبين ، سنة بعد سنة ، على الحكم واستبدادهم في الأحكام التي كانوا يصدرونها .

المالية : استمرار التفاوت بين ايطاليا والولايات الاخرى

وعلى مثل هذا قس وضع المالية في الدولة . فالولايات كانت ملزمة بتقديم القسم الاوفى من مواردها ومحاصيلها . ومهما تعرضت له من احداث مفاجئة كان عليها ان تستمر في تقديم ما كان يتوجب عليها تقديمه لسد الحاجات المشتركة. فالامبراطور كان يتولى ادارة واستغلال املاك التاج، وهي ممتلكات واسعة كان دخلها يسد جانباً من النفقات العامة . وممتلكات التاج هذه ، كانت تتألف اصلاً ، من عقارات خاصة صادرتها الدولة في إثر احكام سياسية صدرت على اصحابها ، ومن تركات اوصى بها اصحابها للامبراطور ، وهي عادة جرى عليها مراءاة القوم في روما ، ومن بعض ولايات بينها مصر ، التي كانت تخضع لنظام استثماري خاص، وتدر على الدولة الرومانية فيئاً يبزّ بضخامته كل ما كانت تدره ممتلكات التاج الأخرى مجتمعة. والى هذا، يجب ان نضيف الرسوم المستوفاة كضرائب غير مباشرة تُفرض على سكان الولايات والرعايا الرومانيين على السواء الذين كانوا يتحملون وحدهم ضريبة على التركات تعرف بضريبة واحد من عشرين ، أي ٥ ٪ من اصل التركات التي تذهب الى ابعد الأقارب التي كانت قيمتها تتجاوز ١٠٠ ٠٠٠ *Sesterces*[1] . وهذه الضريبة كانت تغذي « صندوق الجندي »، هذا الصندوق الذي كان يدفع تعويضات لأفراد الجيش عند صرفهم من الخدمة العسكرية . وكان اوغسطس يشعر ببعض الأسف لفرضه مثل هذه الضريبة على المواطنين ، لأنها تمس في الصميم، الإعفاء من الضرائب المباشرة ، هذا الامتياز

(١) السسترس عملة رومانية تساوي ربع دينار فضة.

الذي تمتعوا به منذ عام ١٦٧ ق. م . غير ان الولايات الايطالية بقيت وحدها بمعزل عن الضريبة الكبرى وهي الضريبة التي تقع على الولايات التي تم امتلاكها بالفتح ، وذلك بفضل ما تمتعت به من امتياز : « الحق الايطالي » *Jus Italicus* الذي ساواها بالعاصمة ، فاعتبرت بموجبه ارض الفاتحين . وهكذا لم نلبث ان تطلع علينا اخيراً ما عُرف بتبرع التاج *L'or Coronaire* وهو تبرع اختياري ، من حيث المبدأ ، إلا انه بالفعل تبرع الزامي ، على الجميع ان يقدموه للامبراطور ، سواءً أكانوا حاملين الرعوية ام لا ، وذلك في مناسبات خاصة ، كوقوع حوادث هامة سارة . فاذا ما رفض ترايانوس رفضاً كلياً مثل هذا التبرع عند اعتلائه العرش ، او اقتصر الامبراطور انطونين على تقاضي نصف هذا التبرع ، من الولايات الأخرى وأسقطه عن ايطاليا ، لما هذه ، إلا بعض حوادث يمكن اتخاذها دليلاً على ان هذه الاجراءات المستجدة كان في الإمكان ان تفضي الى طريقة في توزيع الضرائب أكثر انصافاً ومساواة ، إلا أنها بقيت ، مع الأسف محاولات بدائية لا غير . فالمساواة امام الضرائب ، كالمساواة امام القضاء او الادارة ، لم تكن ساعتها قد حانت بعد . ومما هو أدهى من ذلك ، فالاقتراب من مثل هذا الوضع كان يتم بتردد كلي لما فيه من مساس لمصالح الطبقات الممتازة الشديدة الحساسية .

للادارة الضرائبية وتوحيد رسوم الجباية

استمرت الولايات تتحمل وحدها تقريباً هذه الأعباء المالية المرزحة التي زادها وطأة قيام جيش لجب ، دائم ، وادارة متشعبة ، متداخلة ، تُدفع لها مرتبات وأجور آخذة بالارتفاع والصعود ، يوماً بعد يوم .

والجدير بالملاحظة هنا انه لم يسبق للامبراطورية ان عرفت عهداً من اليسر والازدهار المالي كالعهد الذي مر عليها اذ ذاك . فقد راحت تنفق بسعة على مشروعات كانت تعد، اذ ذاك، من الكماليات ، وذلك بانشاء بلاط فخم كثير التكاليف ، وتزيين روما وزخرفتها بالمباني والصروح الفخمة ، والترفيه عن الشعب ، ولا سيا عن سكان روما ، بتأمين أسباب عيشه ولهوه ومرحه . وهذه التكاليف الباهظة اقتضاها جوهر النظام الذي سار عليه العهد الجديد ، اذ يكفي ان يتجاوز امبراطور ما ، كما حدث لنيرون مثلاً ، الحد المألوف في الانفاق حتى يدب الاضطراب والبلبلة في مالية الدولة وتُرمى بالعجز والعسر. وقد رأينا فيا سبق، كيف ان الوضع العسكري في الامبراطورية كان يتأثر، في الأوقات العادية ، من نتائج سياسة التقتير التي تضطر الدولة للسير عليها ، في بعض الأحيان ، مع انه لم يكن اذ ذاك ، ما يحول دون فرض ضرائب جديدة او زيادة معدل الضرائب القديمة . كل هذا دليل قاطع على ظهور روح جديدة لدى الأسياد الذين تعاقبوا على الحكم . فقد اختفى من بينهم رجل الدولة الروماني ، المتعنت المعروف بخشونته او جفائه ، وبرزت للعيان مثالية ملك يهمه في الدرجة الأولى تأمين رفاهية رعاياه الى ابعد حد . وهذه المثالية جاءتهم ولا شك ، من هذه الممالك الهلينية مع ما جاءهم من النظم السياسية التي اقتبسوها عن ملوك هذه الدول: كالبطانة، والبلاط ، والحاشية ، والمظهر الخارجي الفخم لمدينة روما ، التي اصبحت ، ليس فقط عاصمة البلاد وقاعدتها الكبرى بل ايضاً كرسي المملكة .

كل هذا الجديد يوحي بفكرة الحكم عند السيد ، كما يوحي بما يكنه من رعاية وعطف وروح النَصَفة للجميع .

وهذه المؤثرات الهلينية تظهر في أكثر من ناحية من نواحي النظام المالي الذي سارت عليه الامبراطورية الرومانية. فبعد ان فرضت سيطرتها على مصر ، راحت هذه الامبراطورية تفرض عليها نظاماً اقتصادياً أساسه : الاحتكار ، والاقتصاد الموجه ، وضرائب متعددة ترتكز على التعداد، والمراقبة الشديدة، التي أمنت للبطالسة مثل هذا الغنى الذي رفلوا فيه، وللامبراطورية الرومانية صندوقاً عامراً بالنضار . وهذا الاستغلال المنظم الذي خضعت له مصر حسبما سمحت به تقاليد البلاد ، والنظام الاجتماعي السائد فيها ، لم يمكن تطبيقه في كل مكان . فقد اقتبست الامبراطورية من النظام المعمول به في وادي النيل ما رأت فيه نفعاً لها . من ذلك مثلاً فكرة الضرائب غير المباشرة على المبيعات بالمزاد العلني او الخراج ، بمعدل ١ في المائة ، كما فرضت رسماً مقداره ٤ ٪ على عمليات بيع الرق ووسعت العمل بهذا المبدأ وطبقته في تحصيل الضرائب وجباية الرسوم .

ولعل أهم الضرائب المباشرة هي الضريبة على العقارات . وفي هذا السبيل اخذت الدولة ، منذ اوغسطس حتى عهد الامبراطور ترايانوس، بعملية مسح للامبراطورية. كذلك كان هنالك ضريبة أعناق ، على أساس إحصاء لعدد النفوس . وفي عهد مارك اوريل ، أنشئت مصلحة الأحوال الشخصية وإلزام الناس بالتصريح بالمواليد . كل هذه الطرق كانت مرعية الاجراء في مصر منذ عهد بعيد . وقد تطورت اساليب جباية الضرائب، بعد ان توارت عن المسرح، خلال ازمة الحروب الأهلية التي عانت منها البلاد الامرّين، جمعيات الجباة والعشارين القوية. وامام هذا النقص في الجباية ، راحت الدولة تعتمد ، في بادىء الامر ، تلزيم الخراج الخاص بالضرائب غير المباشرة ، ثم اعتمدت الطريقة المتبعة في مصر ، وهي تلزيم الخراج ولذا استعانت بجباة من الطبقة الاجتماعية المتوسطة حتى ومن الطبقة السفلى ، وفي ذلك تيسير لعمل هؤلاء الجباة لسهولة اتصالهم بالناس من جهة، ولسهولة مراقبة عملهم من قبل الادارة المركزية وتقويمها عند الاقتضاء. اما الضرائب المباشرة ، فقد استغنوا فيها عن المتعهدين والملتزمين وعهدوا اليها للادارة البلدية ، كل في ما يعنيها ، وبعد الجباية يكلف موظفون كبار باستلام المبالغ المحصلة ليجري تسليمها لبيت المال .

ففي الوقت الذي انقطع فيه دابر عهد الارتكابات والاختلاسات التي اتاها متعهدو الخراج، انقطع فيه كذلك،او قلّ كثيراً جداً، سوء تصرف الحكام والولاة وإرهاقهم الأهلين بصنوف من المظالم بعد ان اخضعوا لمراقبة شديدة من قبل مفتشين ماليين، مسؤولين مباشرة أمام الامبراطور. كما أجبروا على ارسال معظم الاموال التي يجبونها من الولايات الامبراطورية الى بيت المال *Fiscus* الذي كان يخضع مباشرة للامبراطور . كذلك ، كان المفتشون يراقبون ، عن كثب ، أعمال الجباية في الولايات المشيخية ، ويؤمنون تحصيل الرسوم والضرائب المترتبة على أصحابها، ولاسيما

الرسوم المفروضة على الارث والتركات ، فيرسلونها لمصلحة صندوق الجندي ، كما كانوا يؤمّنون، من جهة اخرى ؛ ادارة املاك التاج ويرسلون بدخلها الى صندوق الامبراطور الخاص . وهؤلاء المفتشون الماليون كانوا برتبة تحصيلدار ، اما الذين كانوا في الدرجات العليــا ، فكانوا من فئة الشفاليه . وهكذا نرى هذه الطبقة الاجتماعية تؤمن ، هنا ، في العهد الامبراطوري ، ما كانت تؤمنه في النظام الجمهوري السالف، من جبــاية الضرائب والاموال المستحقة للدولة. إلا ان هذه المشابهة لم تكن لتصح الى هذا الحد ، وسنرى بعد قليــل ، التغييرات التي طرأت على تشكيل طبقة الشفاليه . ويكفي ان نشير هنا ، ولو بصورة عابرة ، الى التعديل في الدور الذي كانوا يقومون به . فلم تعد الدولة لتختار من بينهم متعهدين لتأمين الضرائب والخراج ، بل أصبحوا، من الوجهة النظرية، على الأقل ، مديري مال، بعد أن كانوا رجال اعمال ، في خدمة رجل يحكم الدولة ويدير شؤونها ، أي انهم اصبحوا ، اكثر فأكــثر ، موظفين اداريين يقومون بواجباتهم بروح جديدة .

مجالس الولايات

ليس بتغريب قط ، ان يرتاح سكان الولايات ارتياحاً شديداً لهــذه التغييرات المدهشة التي طرأت على هذا القطــاع من الخدمة العامة في الدولة ، فراحوا يعبّرون عن غبطتهم للامبراطور ، بشتى الوسائل ، منها مثلاً ، عبادة « روما واوغسطس »التي أدى الاحتفال بها الى ما عرف من بعد ، باسم « مجالس هيئات الولاية ».

فاللفظ المستعمل لا يعبر عــن المعنى المقصود الا بصورة تقريبية . والمراد بهذه المجالس : اجتماعات سنوية لمندوبين يختارون من بين المدن والحواضر القائمــة في هذه التقسيمات الادارية التي تتباين مساحتها وتختلف، لتشمل حيناً ، ولاية بكاملها ، وأحياناً اكثر من ولاية أو أقــل . من ذلك مثلاً مجلس « غاليــا » الذي كان يُعقد كل سنة ، في مدينة ليون ، فيجتمع فيه ممثلون عن الولايات الغاليّة الثلاث . وهكذا كان المجلس الواحد يؤلف وحدة تضم جمهرة الممثلين للأفراد الواقعين خارج نطاق بلديات المدن ، وهي الوحدة التي كان من مصلحة الادارة الاعتراف بها ، لما توفره لها من منافع وخدمات : كالشرطة والادارة المالية وغير ذلك . والتسليم بوجود هذه المجالس والاعتراف بها كان بمثابة تنازل من قبل روما عن بعض قوتها وسلطتها ، للشعوب التي أخضعتها لسيادتها والتي لم تشأ ، ان تكف ، كما كان باستطاعتها ان تفعل، عن العمل على التفريق بينها ، عملاً بالمثل القائل: فرق تسد . وهذا المجلس كان يتشكل عند الشعب الذي يمثله ، وفقاً للتقاليد المرعية عنده ، وحسبما يقتضيه واقعــه العنصري أو السلالي ، ويؤلف عاملاً ضامنــاً يزيد من وحدته ويشد من روابطه .

وهذه الفكرة بالذات تفسر لنا كيف أنه لم يظهر مثل هذه المجالس في قطرين اثنين من أصل الاقطار التي تتألف منها الامبراطورية الرومانية ، هما مصر وايطاليا .

اما الأولى ، فقد كان لهامن غنى مواردها الطائلة ، ووفرتها ما جعل الهجوم الذي قامت به كليوباترا على روما مليئاً بالتهديد لهــا ، وخطراً شديداً على مصيرها بالذات . ولهذا ، رأى

الرومان، في كل وحدة أو محاولة تكتل تقوم فيها خطراً يهدد الامبراطورية الرومانية في الصميم، عدا عن انه لم يكن يقوم فيها، اذ ذاك، سوى عدد قليل من المدن. اما ايطاليا فقد كان عندها ما هو افضل بكثير من هذه المجالس، اذ ان سكان المدن فيها كانوا رعايا رومانيين، لاسيا وان وحدتها برزت على احسن صورة ومثال، في هذه الحكومة المركزية التي قامت فيها وانبثقت منها بالذات. وهذه النظرية تفسر لنا كذلك القيود التي وضعوها للحد من نشاط هذه المجالس خشية ان يساء استعمالها ويوجه في غير الاتجاه الذي حدد لها عند قيامها. فلم يكن باستطاعتها ان تقيم فيما بينها شيئاً من التحالف او التوحيد، فتعمل معاً لهدف واحد مشترك، لا سيما ومهمتها الأساسية هي التعبير عن عواطف من انتدبوها لتمثيلهم بهذا الاحتفال الديني أكثر من اجتماعهم لتكريم سيدهم وولي امرهم. وهكذا كان هؤلاء السادة، المعدود الاصفر المشترك لهذه المجالس التي تمثل مختلف شعوب واقوام الامبراطورية الرومانية. فقد كانوا ما هم عليه، لأن اوامرهم كانت عنصر انسجام وأداة تأليف للجهود المبذولة، ولأن العبادة التي كانوا موضوعها كانت العاطفة الوحيدة التي تسمح لها بالتعبير عن نفسها.

إلا انه عندما اتضح للسلطة الرومانية، على مر الزمن، ان لا خوف عليها ولا خشية قط، من هذه المجالس، راحت تخفف من القيود والتضييقات الموضوعة على اجتماعات هذه المجالس ونشاطاتها. فالاحتفال بعبادة الامبراطور، وتعيين الكاهن الذي يتولى باسم جميع المجالس ترؤس الاحتفال المشترك، بقي وحده غاية الاجتماع وهدفه الاوحد. فلم يعهدوا اليها بأية مهمة ادارية كتوزيع الضرائب مثلاً بين البلديات، او تنفيذ الاشغال العامة ذات المنفعة المشتركة. فاذا ما احتج احدهم ببعض شواهد فهي من الندرة ما يؤلف شذوذاً دعت اليه واقتضته ظروف خاصة. فاقتصروا على ان يسمحوا لهؤلاء المندوبين بالاعراب عن وجهة نظرهم بشأن ادارة حاكم انتهت مدة حكمه، على شرط ان يجملوا تفويضاً من قبل من انتدبوهم للتكلم باسمهم في هذا الموضوع بالذات. وعلى هذا، كان يحق للمجلس ان يتخذ اذ ذاك، حسبما تقتضيه الظروف، قراراً بالثناء او بتوجيه الشكر للحاكم السابق، أو إقامة تمثال له، وإلا فارسال قرار الى روما للمطالبة بمحاسبته حساباً عسيراً او بملاحقته امام القضاء.

وهذا النهج الذي برز وتبلور منذ القرن الثاني انما ينم، ولا شك، عن نزعة متحررة إلا انها ما تزال مترددة وستبقى خافتة مكبوتة لوقت طويل بعد. ولربما تجاوز المرء الواقع بعيداً وبصورة تدعو للاستغراب، اذا ما حاول ان يتخذ من هذا المسلك دليلاً على طلوع او بروز شيء من المركزية، ان لم نقل صورة باهتة لنظام تمثيلي مر في الخاطر. وهذه المحاسبة العسيرة او بالاحرى هذا الحكم الجماعي لا يأتي إلا بصورة عكسية، اذ ان الحكم الذي يعمل على رأس الادارة لديه أكثر من وسيلة ليوفر على سلفه، إلا في الحالات الفاضحة التي لا يمكن طمسها، إهانة تحقير بتوجيه اللوم اليه بصورة رسمية. غير ان محاكمته لا يمكن ان تقع او تأخذ مجراها إلا اذا سمح الامبراطور بذلك. فاذا رأى من المصلحة ان الأمر يهمه ويستلزم المزيد من المعلومات،

فالطلب الذي جاءه من الولاية ليس سوى وسيلة من الوسائل الكثيرة التي تتوفر لديـه لدرس القضية وتكوين فكرة صحيحة له عنها ، وان لم تكن أفعل الوسائل وأقطعها . ومهما يكن من الأمر ، ان هيئة دينية في الاساس لا يصح ان تتحول الى مجلس للمداولة والجدل الرصين ، ومن الصعب ان تتصور المدن تعمد الى تعيين مندوبيها ، قبل ان تقطع في مؤهلاتهم وصلاحياتهم للتشكي والتذمر لدى الامبراطور .

الادارة المحلية والمبادىء التي قامت عليها

هذه النزعة التحررية عُرفت مع ذلك ، انما على نطاق آخر ، في نطاق المدينة المتمتعة بالرعوية الرومانية ، وهي نزعة لم تنبثق عن أية نظرية فلسفية او حقوقية حول الحرية والمساواة وما للانسان من حقوق طبيعية اخرى . فقد أوحى بهذه النزعة اعتبارات عملية بحتة ، بعضها مادي الطابع والغاية ، والبعض الآخر على مستوى ارفع ، وعلى صعيد أعلى وأسمى .

فالرومان كالاغريق قبلهم ، رأوا في المدينـة الإطار الأمثل ، لا بل الاوحد والممكن ، للانفتاح على الحضارة والاستبحار فيها ، وحرصوا كما حرص البطالسة من قبل ، على قطع السبيل امامها في مصر وسد الطريق في وجهها اليها ، اذ جل همهم كان ان ينصرف النـاس فيها للعمل الصامت ، والشعب للانتاج ، ليس إلا . ومع ذلـك ، فامهات المدن في المحافظات المصرية وحواضرها ، استحالت تدريجياً ، بفضل ما استجابت له من تطور بطيء لم يحاول ذوو الأمر مقاومته والحد منه ، الى وضع قريب من وضع المدن المتمتعة بالرعوية الرومانية . اما في غير مصر ، فالامبراطورية تشجع الأهلين وترغبهم على الاخذ بأسباب الحياة في المدينة . فقد حرصت الحرص كله على المحافظة على وضع هذه المدن والاستمرار عليه ، كما حرصت على خلق ما يشبه هذا الوضع حيث لم يكن معروفاً . فالى جانب هذا الدور المتعدد الوجوه الذي تستطيع ان تؤديه ، المدن التي تتمتع بمثل هذا الوضع ، وهو دور لا نود هنا الاستطراد في تفصيله وتبسيطه ، فقد كان من شأنه ان يسهل كثيراً مهمة الادارة المركزية ويخفف من مسؤولياتها ، اذ يحررها من واجبات ومهمات ومتاعب كان عليها ان تتربص بها . فالدولة كانت على أتم استعداد لأن تترك لرعاياها المؤهلين ، معالجة الأمور العادية المحدودة الأفق ، لا سيما والعهد الجديد ، لم يكن تم له بعد ، لطراوته ، الموظفون الاكفاء للاضطلاع بالادارة .

وكان لا بد ، بالطبع ، ان يبقى هذا الاستقلال الاداري محدوداً ، وفي نطاق تقسيمات بلدية صغيرة الحجم ، نادراً متوسطة ، تعجز عن النهوض بأوَد ثورة مسلحة . هذا هو بعينه تحديـد المدينة . ففي البلاد التي لا يمكن انشاء أكثر من ٦٠ مدينة فيها ، تتمتع بالرعوية الرومانيـة ، كمقاطعة غاليا مثلاً التي تم فتحها على يد قيصر ، حيث حركة تجميل المدن البطيئة كانت تضطر الادارة الى توسيع الدائرة الجغرافية للمدينة الواحدة ، قضى التطور الحضاري والأخذ بأسبابه ، بتكوين مجتمعات مدنية لم تعتم ان رُفعت الى مستوى المدن المتمتعة باستقلالها الاداري . كذلك ، من الواضح ايضاً ان كل الوسائل كانت تتخذ لتصبح ادارة هذه المدن ، اينما قامت ووُجدت ،

في ايدي عناصر اجتماعية وحضارية توحي الثقة لروما وترتاح اليهـا ، كطبقة الارستوقراطيين والبورجوازيين ، وجنود دوماً على استعداد لكبت أية اضطرابات تنشأ في المقاطعة ، ورعايا رومانيين قديمي العهد في رعويتهم ، وإلا فمن عهد حديث ، وجنود متقاعدين ألِفوا النظـام ، وشابوا على روح الانضباط ، وأقاموا على الولاء للسلطة ، او سكان أصليين في البلاد ، أخذوا بالمثُل الحضارية الرومانية ، وهم على اشد من اليقين بوجوب التعاون مع الحكومة لنشر هـذه المثُل بالذات ، تحمساً منهم بالواجب المترتب على المواطن الواعي بوجوب الاخـذ بأسباب التمدن . وهكذا اصبحت الإدارة البلدية معيناً أمدّ الامبراطورية باداريين أكفاء خدموها خدمات صادقة ، وبرهنوا ، أثناء توليهم الوظيفة ، عما أوتوا من مواهب مخبوءة تتفتح ، بينما يتدربون على اعمال الادارة ويتمرسون بها. كذلك من الواضح ايضاً ، ان السلطة المركزية كانت تمارس مراقبة شديدة لهذه الخلايا الاجتماعية الناعمة ببعض الاستقلال الاداري ، وذلـك لتحول دون انتقاضها او تمردها ، او لتحول دون انزلاق أمورها الى الفوضى ولتقوّم منها العوج ، وتصحح الاتجاه عند انحرافه .

وكان بالإمكان التعويل على الادارة الامبراطورية المحترزة والتي لم تكن لتلقي بالكلام عـلى عواهنه والتي لم تكن لتتهاون بأمر التحذيرات الصادرة عن صميم الشعور بالسلطة، والمستوحاة من تصرفات الدولة السلوقية ، فارضى بالتنازل لهذه المدن عن بعض صلاحياتها الادارية في القطاع المحلي. فحذت الامبراطورية حذو سياسة خلفاء الاسكندر المقدوني في آسيا ونزلت عند الأسباب ذاتهـا التي نزل عندها هولاء الملوك ، فطبقوا سياستهم الجديدة على نطاق ارحب ، وفي اقاليم واقطار اوسع بكثير، محتفظين فقط ، وبصورة استثنائية ، بإدارة الأملاك التابعة لهم ضمن هذه الخلايا الاجتماعية شبه المستقلة ادارياً. فلو قُيِّض لهذه التجربة ان تأخذ مداها الكامل، لأصبحت الامبراطورية عبارة عن شبكة متصلة الحلقات من وحدات متجاورة بعضاً من بعض ، متمتعة بحرية ، تعمل الادارة المركزية على توجيهها وتأمين التنسيق والانسجام بـين جهودها في كل ما يؤول لخدمة المصلحة العامة ، وتأمين اسباب الدفاع عن الامبراطورية . غير ان هـذه المحاولة لم تؤت أكلها حتى في عهد الاسرة الانطونية التي كانت أقرب الى تحقيقها وتمييزها من سواها . ومن ثم راح تنظيم المدينة يخدم فيما بعـد اغراضاً أخرى . فتعميم هذا النظام وانتشاره لم يكن ليكوّن خطراً يهدد الامبراطورية ، بل جـاء على عكس ذلك تماماً في خدمتها ومصلحتها لأنه هيأ لشيء يقرب من الوحدة الادبية فيها ، كما يكن ، من جهة اخرى، بَدْوة من بدوات سلطة نزقة مستبدة . فقد تجاوز هذا الاستقلال الاداري للبلديات ، في مفهومه وكيفية تطبيقه عـلى الوجه الذي جروا عليه ، طاقات هذه المدن وامكاناتها الصميمة .

المؤسسات البلدية

عرفت مدن الشرق الاغريقي ، منذ عهد بعيد ، النظم البلدية ومؤسساتها . فقد جاء تشكيلها مطابقاً للطراز الذي اتّبعته روما في المدن التي كانت تعترف لها بحق الرعوية . وبالرغم من مفارقات عديدة عرضية في تفصيلاتها، تتعلق بالحكام، فقد توصلوا

مع ذلك بيسر ، الى نموذج واحد مشترك بين الجميع .

اشتملت هذه التنظيمات فيما اشتملت عليه ، هيئـــة اولية للمواطنين في المدينة مهمتها ، في الدرجة الاولى ، تعيين الموظفين الاداريين ، واتخاذ القرارات التي تقتضيها ادارة البلدية ، بعـد بحثها ومناقشتها . كذلك ضمت الى جانب هذه الهيئة ، مجالس الاختيارية ، ويضم الواحد منها مئة عضو ، مهمته مراقبة الموظفين وتزويدهم بالتوجيهات والارشادات والتوصيات التي يقتضيها حسن سير الادارة . كذلك تضمنت هذه التنظيمات عدداً من الوظائف يقوم عليها موظفان يُنتخبان في كل سنة ، ويتدرّجان تباعاً في سلم المراتب الفخرية . وكان الاعلى درجـــة بينهما يُكلّف ، في نهاية كل خمس سنوات ، باعداد جدول مفصل ، لشيوخ البلدة ، حسب درجاتهم ومراتبهم ، تذكر فيه أسماء الموظفين القدامى ، كما تذكر في لائحة أخرى اعيان المدينة ووجوهها البارزين .

كل هذه الهيئات والمجالس كانت تخفي تفاوتاً بين مدينة وأخرى . إلا ان ما خضعت له من تطور مزدوج من قبل الحكومة ، عفوياً كان ام موجهاً ، أوجد بينها تجانساً كبيراً .

من هذا التطور ما تناول وضع هذه المدن بالذات ، على ما بينها من تفاوت بيّن واختلاف ظاهر . فبينما كان بعضها خاضعاً لارادة الحاكم المستبد ولمشيئته ، كان يتنظم البعض الآخر منهـا شيء من التحالف او الاتحاد وتنعم ، بفضل المواثيق والمعاهدات السابقـــة التي عقدتها ، بحق التمتع باستقلالها الاداري ، شريطة المحافظة على ولائها في الأمور السياسية والعسكرية . وهذا الوضع نزع ، اينما قام وَوُجد ، الى التوحيد ، سواءاً أكان على نظام « المستعمرة » او « البلدية » *Municipe* ، او بموجب « الحق اللاتيني » ، او ، في احسن الحالات ، « الحق الرومـــاني » . وراحت المدن تلتمس من الامبراطور ، الإنعام عليها بمثل هذا الوضع وما استتبعه من مثل هذه الحقوق ، وان فقدت معه شيئاً من أصالتها ، لما في ذلك من ربح أكيد وفائدة كبيرة للمواطنين ، اذ يكتسبون ، باعداد أكبر ، وبصورة تلقائية ، الرعوية الرومانية ، فيصبح المواطنون ينعمون بالحق اللاتيني المألوف ، كما ينعم مجلس شيوخها ، بالحق اللاتيني «الأكبر» الذي اعطاه الامبراطور هدريانوس ، وجمهرة المواطنين بكل الحقوق الرومانية .

أما الوجه الثاني لهذا التبدل أو التطور الذي لم يكن بد منه بعد ان أخذت روما بأسبابه منذ مطلع الامبراطورية ، فانه أحال شبه طيف أو خيال ، الهيئة البدائية ، مع استمرارها على عقد اجتماعاتها كمألوف عادتها . كذلك راح مجلس الاختيارية يجرّدها من كل صلاحية ، بعد ان أخذ من الألقاب والكنى اعلاها وأسناها ، منها مثلاً : « النظام الإلهي » . وجرت العادة ، في عهد مبكر ، وهي عادة جاء نص رسمي يكرسها ، بالتبرع لصندوق البلدية ، بمبلغ من المـال ، عندما يحظى المرء بترقية أو تعيين في رتبة : كالكهنوت ،أو عضوية لمجلس الاختيارية اوالحاكمية . وكثيراً ما دعا حب الظهور المقرون بمحبة الوطن الأصغر ، التنافس فيالتبرع والسخاء . وهكذا آلت الادارة البلدية الى أيدي الطبقةالبورجوازية في المدينة ، تحت رعاية الامر النبيلة ورعايتها

وفقاً للتقاليد المتوارثة أباً عن جد . أما الطبقات الوسطى ، فقد كانت دوماً بعيدة عن الادارة، لأنها لم تحظ بحق الرعوية في المدينة ، هذا الحق الذي فقد عند الفقراء والمعدمين ، كل معنى ومدلول ، ما لم يتدرج الواحد منهم في السلم الاجتماعي ، قاطعاً درجاته عن طريق الاثراء .

سير الادارة وبدء الأزمة

كان باستطاعة الادارة المركزية ، والحالة هذه ، ان تتظاهر بالتسامح والتجاوز : فهي تترك السلطات البلدية المحلية طائفة من الاعمال والمهام الصغيرة ، كالمحافظة على النظام ، وتأمين أسباب العدالة ، وتشييد الأبنية البلدية وصيانتها ، وتنظيم امور العبادة والطقوس الدينية ، وإدارة الاملاك البلدية ، وتنظيم موازنة المدينة ، حتى وجباية الرسوم والضرائب المباشرة العائدة للدولة ، وغير ذلك . وقد عرفت ان تحتفظ بحقها في التدخل بشوون المدينة وان تمارس هذا الحق في كل مناسبة ، وتمارسه اكثر فأكثر ، وبصورة اوسع .

فقد نال هذا النظام رضى الفريقين ، وبالرغم من بعض الشكوك والصريف يتردد صداه ، الفينة بعد الفينة ، فقد بدا للجميع انه نظام قابل العيش والبقاء . فبفضل هذا النظام، كثيراً ما استطاعت مدن عديدة ان تزدهر ، كما عرفت ان تشيد المباني والصروح فتبرز في اطار مادي فخم ، كما انه أفسح المجال أمام التمثيل الحضاري ليحقق نجاحات عظيمة استطاعت الطبقة البورجوازية معها ان تنعم بالرعوية الرومانية . وبفضل هذا النظام ، عرف الاباطرة ان يختاروا من بين المواطنين الحديثي العهد بالمواطنية الرومانية ، ما هم بحاجة اليه من الموظفين الاداريين الذين اتصفوا بالرصانة ، وصدق الولاء ، والتجربة الواسعة . وهذا النظام عينه يفرض وجود أقلية مختارة في الولاية تباهي بما تتمتع به من مراتب ومراكز، هي ابداً على استعداد للاهتمام بالشوون البلدية وتخصيص ما يلزم لها من الوقت والمال ، الى ان جاء وقت رأت فيه هذه الأقلية المتميزة أن تتوارى عن مسرح عملها ، بعد ان تبينت ان الغُرم الذي تابها يفوق الغُنم الذي تنعم به،وهو غُنم لا يتفق ومنزلتها بين الجماعة، كما ظهر لها انها لا تستطيع سد النقص الذي طرأ على ثروتها.وهكذا لم تعتم انقامت الصعوبات . ومن الراجح جداً انالادارةاضطرت حتى في عهد ترايانوس، الى تعيين أعضاء مجالس الاختيارية ، غصباً عنهم وبغير رضاهم . ولعل ما هو أدهى من هذا وأنكى ، ما وقع في عهد الأسرة الأنطونية ، وهو عجز الأموال الجباة محلياً عن تغطية نفقات العيش الرضي الذي سار عليه عدد كبير من المدن. فسخاء بعض أغنياء المواطنين وكرمهم الحاتمي لم يستطع سد العجز ، فراح الأباطرة يغدقون المساعدات لها ويتنازلون لهذه المدن عن متأخرات الضرائب المستحقة عليها ، الى ان اضطروا للذهاب الى أبعد من هذا ، بصورة فردية ، آنية اولاً ، ثم بشكل أقوى وأبقى ، وذلك بتعيين مندوبين ، وفي الغرب سموا مفوضين *Curatores* ، وعند الاغريق مفتشي مالية *Logistai* ، بغية تحقيق التوازن بين المدخول والمصروف . وهكذا أخذ استقلال هذه البلديات بالزوال .

الخلاصة

النظام الملكي وبناء الدولة

عند انتهاء هذين القرنين لم يبق شيء من الأوضاع والاحوال التي لابست الحياة السياسية والادارية في الامبراطورية .

فزوال عهد الجمهورية وحلول النظام الملكي محله ، هما ابرز هذه التطورات وأقربها النظر . لمن المغالطة والخطل في الرأي ان يحاول المرء تجاهل هذا التبدل او الانتقاص من شأنه وأهميته . وهذا التغيير تردد صداه ليس في الخارج فحسب، بل في النفوس والأذهان ايضا. فقليل من الواقع السيكولوجي يكن دوماً وراء التعابير والاصطلاحات والرموز الرسمية . ولكي يستمر الأخذ بهذا التطور في عهد اباطرة كثيراً ما صدم سلوكهم كما صدمت اعمالهم اعتقاد الناس وايمانهم انهم من جِبلَة فوق جبلة البشر ، وانهم "مسار" الآلهة ، لا بد ان يكون أطلّ شيء جديد على العالم . وهذا الشيء الجديد الذي لا يمكن لأحد نكرانه او تجاهل ضرورته وجدواه هو الدولة، دولة لها جماع الطاقة وجماع القدرة ، بعكس السلطة التي زالت وتوارت ، تستطيع ان تؤمّن الحد الأدنى لوحدة ادبية تشد العالم الروماني بعضاً الى بعض، وتحافظ على اسباب الامن وتصونها من عبث العابثين والطامعين، وتعرف كيف تستمد منه ما يلزم للدفاع عن كيانها ، وان توزع الضرائب بالعدل والسوية ، دون ان ترهق فريقاً او تزهق الآخر ، وموجز القول دولة لها من السلطة ما يؤمّن اشاعة نمط من العيش شامل ، رتيب . وقد سارت النجاحات التي حققها تنظيم هذه الدولة جنباً الى جنب مع النجاحات التي حققتها السلطة الملكية بحيث لا يمكن لعمري فهم هذه دون تلك ، لما بينهما من تفاعل وانفعال.

ليس ما يحول، من الوجهة النظرية، دون النظام الجمهوري لتحقيق مثل هذه الدولة التي تؤدي مثل هذه الخدمات . والامر الثابت الذي لا مراء فيه هو ان الجمهورية لم تتمكن من تحقيق مثل هذه الدولة ، مع ان العهد الذي جاء بعدها استطاع ذلك .

فالدولة الجديدة كانت لها نظمها ، ومؤسساتها المركزية التي عرفت ان تؤمن لها الاستقرار والبقاء بمعزل عن شخص الامبراطور ، كما كانت لها نظمها الاقليمية التي عرف الامبراطور ان يراقب منها النشاط وان يوجهه ، وكان لها موظفوها الاداريون وخبراؤها الذين تحلّوا ، على الإجمال، بالنزاهة والمهارات الضرورية ، لأنها عرفت ان تفوز من الطبقات الاجتماعية التي كانت تصطفي من بينها هؤلاء الموظفين ، بالاخلاص للمناهج والأساليب التي اخذت بأسبابها، فراحت تطبقها لمصلحة الجميع .

فقد دفعت البلاد غالياً من حرياتها الرومانية والايطالية ثمناً لهذا كله ، وهو ثمن مشروط لم يكن به منه ولا محيص عنه . فقد جعل ازدياد عدد المواطنين الرومانيين وانتشارهم في جميع اطراف العالم الروماني ، وجود المجالس البلدية امراً يدعو للهزء والسخرية . اما مجلس الشيوخ الذي اعجزه الحفاظ على روح الانضباط في الجيش ، فلم يكن اسعد وضعاً ليؤمن بواسطته حكام ينتخبهم كل سنة ـ كثيراً ما تجلى تَخطلهم ـ حسن سير الادارة المدنية مع هذه المشكلات

العويصة التي كانت تعترض سبيله . فالفوضى الكيانية التي كان لا بدّ لهذه المجالس التمثيلية ان تخلقها ، لم تشهد ابتداءها في هذه المجالس الاقليمية ذات الدور المتواضع الخاص . ولذا كان أكثر فعالية وابسط للأمور ان يصار الى نظام ملكي .

وقد جاءهم بالفعل مثل هذا النظام، واضطروا للإقبال عليه والايغال فيه اكثر فأكثر. اما ما طرأ من تغيير على استقلال البلديات الاداري ، فدل على ان كل خطر أطلّ منه تهديد لحسن سير اداة الحكم والادارة المركزية للدولة، أعقبه بصورة عفوية توطيد للسلطة الامبراطورية وترسيخ لها في النفوس . فمن يستطيع ان يتبين التقدم الذي كان بامكان هذا النظام ان يحققه في البلاد لو لم تصدمه أزمات مفاجئة ؟

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية والاجتماعية

لا يمكن للوحدة الادبية في الدولة ان تكتمل ما لم يتحقق حد ادنى لوحدتهـــا الاقتصادية والاجتماعية تشد بين اطرافها جميعاً . فالجمهورية ليس انها لم تفعل شيئاً في سبيل تحقيق مثل هذه الوحدة ، بل لم تهيء لها الظروف لظهور عفوي ، اذ ان جل همها انصرف لاشباع حاجات روما المباشرة بالنهب والسلب ، والان توفر للايطاليين ، غالباً بغير رضى منها ، المنافع التي يتمتع بهـا المواطنون من سكان المدينة ، دون ان تمدّهم للوضع الحقوقي الذي ينعم فيه المواطن الروماني. اما الامر فقد تم على غير ذلك مع الامبراطورية ، تحت تأثير ارادة واعية ، مدركة لاغراضها ، ناشدة لاهدافها ، من جهة ، ومن جهة اخرى ، بفضل هـذا التطور الذي خضع له وضع الامبراطورية العام بعد أن عرفت ان تهيء له الأسباب. وأهم هذه التغييرات كان ، فعلاً : « السلام الروماني » وانتظام الادارة في الولايات الرومانية . وقد صحب هذه التغييرات انقطاع دابر الارتكابات ، وتوقف استثمار هذه الولايات المفرط لصالح اقلية ضئيلة من اصحاب الامتيـازات . صحيح انه بقي شيء من هـــذه الامتيازات في الدولة الجديدة انحصرت في بعض مقاطعات وفئة من الناس تميزت على غيرها من هذه المناطق والطبقات . الا ان الفارق الذي كان يميز وضع هؤلاء عن وضع اولئك ، لم يكن ليثير الحفائظ ويبعث الحسد والضغينة في القلوب والنفوس ، بينما انتقاء اصحاب هذه الطبقات ، اقله فيما يتصل بالافراد ، اخذ يتم بصورة اوسع ، وبشكل ارحب ، ووفقاً لقواعد واصول جديدة . وهكذا أطلّ على الدنيا ، في الحقلين الاقتصادي والاجتماعي ، طراز حيـاتي جديد ، شاع وعم ولم يلبث ان رسخ في الارض واعرق. وكان من اسباب هذا الوضع ومن نتائجه ايضاً ان روما لم تشارك فيه على قدم المساواة وبقيت محافظة على بعض مـــا كانت تتمتع به من امتيازات ، الا انها عولت الا يكون دورهـــا فيه غير دور عاصمة تؤمن الانسجام بين الاجزاء المقومة وتجري بينها العدل بالسوية .

١ ـ الاقتصاد

والشعور الذي ساد الجميع ، هو ان الحياة الاقتصادية تميزت ، خلال هذين القرنين ، بالانطلاق والازدهار . هنالك ، لعمري ، نقط سود في الصورة : أفول نجم ايطاليـا ، وتشابك التبادل

والعطاء مما لا بد منه لتأمين شيء من التوازن المرغوب ، وعدم الاستقرار في ما كان عليه الوضع من سرعة العطب . الا انه لم يحدث شيء مهدد للآن ، والازمة الايطالية التي استشعر الناس قرب وقوعها وثقل وطأتها ، امكن ايجاد ملطّف وقتي لهـا ، اذا ما امتنع الدواء . فساد الهدوء والاطمئنان القسم الاكبر من القرن الثاني، بحيث اصبح جائزاً القول بطلوع شعور عام بالرضى والارتياح .

هموم الحكام وهواجسهم : روما والجيش

راح معاصرو العهد يعزون الفضل في هـذا كله للادارة الامبراطورية ، ولا سيما للاباطرة انفسهم، وهم في ذلك انما يرددون ما تنفخ به ابواق الدعاوة الرسمية . الا اننا لا نستطيع ان نعزو ذلك اليهم الا بالمداورة، نتيجة فرعية لسياستهم الحربية والادارية . فقد احترزوا كثيراً من تطبيق سياسة اقتصادية ، ولا سيما من وضع فلسفة اقتصادية . ولعل خير مـا كانوا يرجونه الا يتدخلوا في امـور وموضوعات كثيراً ما اعوزتهم الحيلة لمعالجتها بعلم واصول . وما كانوا أرغموا التمرس بمثل هذه الأمور لولا اضطرارهم لمواجهة قضيتين عصيبتين هما : تأمين تموين رومـا ، وتموين الجيش الرومـاني .

فقد كانت روما ، اذ ذاك ، مدينة ضخمة جبارة ، اختلف المؤرخون وتباينوا كثيراً فيما بينهم ، حول عدد سكانها ، وذلك لقلة المصادر الركينة التي يصح الاعتماد عليهـا . فقد فرّط بعضهم وراح يقترح ٢٠٠٠,٠٠٠ ، عدد سكان هذه المدينة ، بينما القول بمليون لم يكن بمستغرب قط . ومهما يكن من الامر ، فهذه الجماهير الجمهرة التي تعمر بها العاصمة ، لم تكن لتنتج كبير امر ، منذ عهد بعيد . فقد اقتصر نشاط اليد العـاملة فيها على بعض مصنوعات يدوية لسد الحاجات المحلية . فالمدينة قبل كل شيء مستهلك ، أكول ، دون اي بديل او عوض . وهي الى هذا ، مستهلك ، ألف منذ عهد سحيق ، ان يعيش حيـاة رخيصة ، نظراً التدابير التي كانت تتخذها الحكومة لتبقى اسعار الحنطة رخيصة، ولتوزع الطحين مجـاناً على المواطنين الفقراء والمعوزين . ولما كان من المستحيل مجرد التفكير بقطع هذه التقاليد المرعية وضرب عرض الحائط بها : فروما سيدة العالم ، وهي في الصميم من هذه الفتوح الرومانية العريضة ، وما الى ذلك من مشاعر ومصالح واعتبارات تتعلق بهذه الجماهير التي ترى في الامبراطور الخليفة الشرعي للحزب الديموقراطي ، ويمثل التريبون حامي الشعب ونصيره .

فكان على الامبراطور ، والحالة هـذه ، ان ينظم على احسن وجه ، مصلحة التجهيزات والتوريدات ، لتأمين أوَد العيش ، لما لا يقل عن ٢٠٠ ٠٠٠ او ما ينقص قليلاً عن هذا العدد ، في عهد اوغسطس ، من رؤساء الأجناس القاطنة في روما، الموزعين على ٤٥ دائرة، يتلقون على مدى ايام الشهر ، مجاناً ، كمية القمح اللازمة لاعالتهم . اما الباقون فكان على دائرة التموين ان تسعى جهدها لتأمين حاجاتهم بصورة منتظمة، وبأسعار مقبولة. اما في اوقات الفاقة والمجاعات،

كما حدث، سنة ١٩ مثلاً بعد الميلاد ، في عهد طيباريوس ، فكان الامبراطور يدفع مبلغاً للتجار لتأمين أسباب العيش للشعب .

كل هذا وما اليه ، الى جانب الاعياد والالعاب المعدّة للترفيه عن الشعب ، كالأعطيات التي توزع عيناً ، ومقدارها ٤٤٥ ديناراً في عهد اوغسطس وهو الرقم المألوف ، ثم ارتفعت الكمية في القرن الثاني بحيث تجاوزت ٦٥٠ في عهد ترايانوس ، وبلغت ١٠٠٠ في عهد هدريانوس ، لتنزل الى ٨٥٠ في عهد مارك اوريل ، واستقرت على ٨٠٠ في عهد كومود ، وهي مبالغ كانت توزع على المواطنين ، الذين لا يستفيدون من المساعدة المجانية ، اثناء بعض الاعياد . هذا فيما يتعلق بالمساعدات النقدية . اما من جهة الادارة الفنية ، فكان ذلك انما يعني إنشاء مفوضية التموين *Annone* ، ومصادرة وسائل النقل البحري ، واعداد أرصفة نهر التيبر وتجهيزها ، الى جانب تجهيز مرفأ مدينة اوستي ايضاً .

اما امر تموين الجيوش ، وتجهيزها بالعدد والعتاد ، فقد وضع الدوائر المعنية امام مسؤولية ثقيلة، كان حلها مع ذلك ابسط واسهل من تموين الشعب . فمجموع افراد الجيش المطلوب اعالتهم كان اقل بكثير من إعالة هذه الجماهير الشعبية التي يجب مساعدتها في روما . ثم ان هذا الجيش لم يكن مجتمعاً او محتشداً كهذه الجماهير المتراصة في روما والتي تعجز اخصب السهول المجاورة عن إشباعها ، بل كان موزعاً على الحدود: حاميات تحمي حمى الاراضي والمزدرَعات التي كانت تستغل في المؤخرة . وكان يكفي لتأمين حاجته ان يحصل من الولايات القريبة منه فائضاً كافياً من محصول الارض ، وان يؤمن نقله بحيث يصل للمستهلكين بسلام . فالمشكلة الاولى كان يمكن حلها بواسطة النرام . اما المشكلة الثانية ، وهي ادق وأصعب لوقوع هذه الحدود في منأىً بعيد عن البحر المتوسط وموانئه . وهذا ما دعا لشق طرقات برية عندما يتعذر النقل النهري . وفي سبيل هذا التجهيز وتأمين اسبابه المزدوجة الغرض — اذ ان الطرقات كانت تستعمل لنقل الجيوش ايضاً — امكن توفير اليد العاملة ، وذلك بتسخير افراد الجيش وتشغيلهم في شق الطرقات وتوسيعها .

العالم الروماني وجهاً لوجه مع مسؤولياته

وهذه المسؤوليات الحكومية، تقتضي للنهوض بها المال والاخصائيين . فاذا ما نظرنا اليها بمنظار العالم الروماني ، والمستوى الحضاري المادي الذي حققته بعض اجزاء هذا العالم، فلم تكن هذه المهام والمسؤوليات التي توجبها ، فوق طاقته ، اذا ما توفرت له ادارة حكمية رشيدة . فالمال الذي كان لا بد منه لتحقيق هذا كله ، كانت توفره موارد البلاد الاقتصادية ، ولم يكن ليكلف عبئاً ثقيلاً عليها .

فباستثناء مصر التي بقيت خاضعة لنظام خاص من الاستغلال والاستثمار لا رحمة فيه للفلاح المصري ، كان الوضع القائم مؤاتياً لحياة اقتصادية ناعمة تعم جميع اطراف الامبراطورية ، لا سيما والاستقرار الذي تنعم به البلاد كان يشجع على القيام بهذه الجهود . فروما والجيش ألّفا في الامبراطورية ، سوقاً للاستهلاك لا حدود لها تقريباً ، اذ كان من اتساع هذه الحاجات وتنوعها

ما يتطلب المزيد من انتاج محاصيل الارض . فالى جانب الحنطة التي كانت تؤلف اساس الغذاء وقِوام أوَد العيش، يجب ان نضيف محاصيل غذائية اخرى متنوعة يطلبها الكثيرون من الزبائن والمستهلكين ، ومقادير هائلة من المنسوجات والمصنوعات المعدنية التي يمكن نقلها على الطرق القائمة في جميع اطراف الامبراطورية .

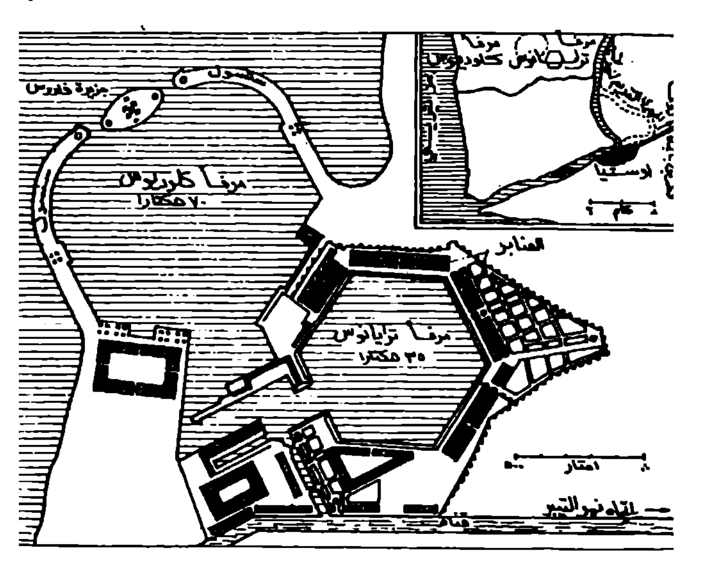
فقد كانت روما قطب جذب ومركز ثقل هائل، لكل ما يمكن ان يبلغ في طريقه الى موانىء البحر الابيض المتوسط ، حتى ما كان منها من الكماليات الغالية الثمن ، لوجود اصحاب ثروات طائلة في احيائها وصروحها . اما قيام الجيوش: حاميات على اطراف الامبراطورية وحدودها المتاخمة لشعوب البرابرة ، فقد بعث في هذه الاقطار المتأخرة في تطورها عن ركب الحضارة ، نشاطاً عارماً لم تكن لتعرفه ، كان من بعض نتائجه الخيّرة ، احياء موات الارض وإعمارها ، وحرثها وتزايد السكان فيها ، وانشاء المصانع والمعامل في ارجائها . ثم ان إنشاء شبكة اتصال منتظمة الحلقات ، بين هـــذه الحدود والاقطار الواقعة في مؤخرتها امتدت الى اطراف البحر المتوسط الذي كان ، مع ايطاليــا ، واسطة العقد وملتقى الخطوط ، ساعد على إنشاء المجاري المائية او النهرية الكبرى والطرقات الرئيسية ، ومهّد السبيل امام حركـة تجارية جبارة ، لم تقتصر المبادلات فيها على بضائع الاستهلاك وحدها .

وهكذا ، فالنتيجة المحسوسة الكبرى التي تهم الى حد بعيد المؤرخين اليوم كما همت المعاصرين لهذه الحركة الاقتصادية، تبلورت عن تشعب العلاقات التجارية وتشابكها، وضم الاقطار الشاسعة الواقعة على شواطىء البحر الابيض المتوسط الغربية الى الوحـدة الاقتصادية التي اقتصرت ، من قبل ، على شواطىء البحر المتوسط الشرقية ثم ربطتها الفتوحات الرومانية بقلب ايطاليـــا ، واخذت هذه الوحدة تتسع لتضم في نطاقها : قطاعـات الدانوب والرين ، وجنوبي ايكوسيا . وهكذا نرى البريطانيين يتجرون مع منطقة بوردو، كما راح سكان مدينة آرل يتـّجرون مع لبنان، في الوقت الذي كان فيه التجار السوريون يجوبون جميع اطراف العالم الروماني الذي كان قبل كل شيء وحدة سياسية وعسكرية ، لم يلبث ان اصبح وحدة تجارية واقتصادية ناشطة ، حيـة ، بفضل الروابط التي شدت دوانيه الى اقاصيه عبر البحر المتوسط .

التجارة ووسائلها التقنية

وهذا الازدهار التجاري توفرت له عوامل تقنية في غاية الملاءمـة . فمن مقومات هذا الازدهار ، هذه الامبراطورية المترامية الاطراف ، ذات الانتاج المتنوع ، والغلال المتعددة ، والمحاصيل الزراعية المختلفة ، والاساليب الصناعية المتباينة. وكان السفر والتجوال والرحلة في جميع أطرافها حر لجميع رعايا الامبراطورية، لا يحد من امكانات الرحلة إلا هذه الازدواجية في اللغة : اليونانية في الشرق ، واللاتينية في الغرب . ومع ذلـك لم تؤلف هذه الازدواجية عقبة كأداء، استعصى حلها . وانتقال المحاصيل الزراعية حظي بالحرية نفسها ، باستثناء الحبوب المصرية التي لم يكن الامبراطور يسمح بتصديرها لغير ايطاليا إلا في ما ندر . وكانت هـــذه المبادلات تخضع، بالطبع ، لرسوم وضرائب لم تكن ابداً رسوم حماية ،

عدلة في أقدارها ونسبها . من هذه الرسوم ، مثلاً ، رسم الدخولية وهو رسم كان يجبى
اخل بعض المدن ومنها رسم اقليمي *Portoria* ، تجبيه الدولة عندما تجتاز البضاعة ش
ق مركزية ، كما لو مرّت في غاليا مثلاً ، بما فيها المقاطعات الألبية التي تفصل بينها وبين ايط
في اقاليم آسيا الصغرى . كان معدل هذه الرسوم المختلفة يوضع على نسبة قيمة البضاعة المست
لمصدرة . وقد بلغ الحد الأعلى لهذا الرسم في صقلية ٥٪ مع انه قلما تجاوز ٢،٥٠٪ عادة .
وقد أنشأت الدولة شبكة من الطرق الممتازة وتعهدتها بالصيانة والرعاية . وتبرز أهمية



الشكل ١٠ — مرافىء أوستي القديمة
في هذا الرسم تظهر القناة المؤدية الى المرافىء القديمة وتدعى الفيوميسيو

رق اذا ما قارناها بما كان منها ، من قبل ، اذ كانت مجرد معالم مسالك تسلكها حيوانات ا
. حقق مهندسو الطرقات إنجازات هندسية جبارة تُعد بحق ، من المعجزات اذ ذاك ، لت
ن النواتىء الطبيعية ، من جبال ووديان ومنحدرات صعبة الاجتياز . كما ان هـــذه الا
دسية كانت مثالاً للجرأة . فكل عهد من عهود الأباطرة الرومانيين الذين تعاقبوا على ا
. آثاره المعمارية البارزة التي تحدت الدهر في بقائها ، ولا يزال بعضها ماثلاً للعيان حتى
ا . ولكن حذار من ان نضخم أكثر مما يجب ، واقعاً متحيزاً ، لا نزال نطاطىء الرأس
عته . فالخرصانة الرومانية (الباطون) التي اقتضت من المهندسين جهداً كبـــيراً من
صور ، لم يعتمد عليها في رصف الطرقات ، فاستعاضوا عنها بالبلاط القوي المقصوب ، يره

به الطرق رصفاً جيلاً. كذلك لم تأتِ وسائل استخدام الحصان كحيوان للجر والنقل على مستوى النجاحات التي حققها الفن الروماني في مجال بنـــاء الطرق . فبيطرة حيوانات الجر بقيت عادة محدودة لم يشع استعمالها . وطريقة كدن الحصان الى العربة لم تعرف، على ما يظهر استعمال طوق المنكبين ، بل استمروا في استعمال سيور يؤثر ضغطهـــا على صدر الحيوان وحركة تنفسه. ولذا قلما زادت حمولة عربة يجرها جوادان على ٥٠٠ كيلو غرام ، وهي كمية قليلة تبهظها تكاليف السفر والرسوم وترهقها . فالطرقات الامبراطورية التي كانت تبعث في النفس الدهش والإعجاب لانسيابها في صراط قويم غير مبالية بالنواتىء الطبيعية ، كانت تصلح لتنقلات الجيوش والمسافرين الذين لم يكونوا ليحملوا معهم مهاماً كثيرة ، كما تصلح لسير البريد الذي ينقل المخابرات الادارية .

ولهذا راحت الحركة التجارية تعول بالأكثر، على النقل البحري. فقامت عمارات وأساطيل يقودها مجذفون ، تذرع مجاري الأنهر ذهاباً وإياباً ، حتى ما كان منها صعب المسالك ، عسير المرتقى كنهر الرون ونهر الأود . ولو اقتضى الامر جر السفن بالحبال او نقل البضائع على الظهر . فمن الغريب جـــداً ألا يعمد المهندسون الرومان ، الذين عرفوا بجرأتهم ومغامراتهم في مجالات التعمير ومرافق أخرى ، الى حفر الترع والأقنية . ومن الأقنيـــة القليلة التي عرفت عنهم ، قناة تتعلق بمجرى الرين الاسفل ، ولا سيما القناة المعروفـــة اليوم باسم إيسّيل التي كانت تربط النهر المذكور ببحيرة فليفو *Flevo* المعروفة اليوم ببحيرة زويدرزيه .

وعرفت الملاحة في البحر المتوسط ازدهاراً غريباً، بعد ان قضي او كاد ، على اعمال القرصنة التي تعرضت لها ، وذلــك بفضل يقظة البوليس وحراسته الصارمة للطرق والمسالك البحرية . فالسفانة لم تسجل تقدماً ملموساً ، وبقي حجم السفن على مثل ما وضعته عمارة السفن البحرية في تلك العصور ، اذ كان ، على الاجمـــال متوسطاً ، باستثناء الاسطول الخاص بدائرة التموين ونقل الحبوب من مصر الى ايطاليا ، اذ كانت هندسة هذه السفن تخضع لتصميم خاص اتى «بلين الأكبر» على وصفه، حتى ما كان منها معداً لنقل مسلة فرعونية او قاعدة تمثال لا يقل وزنه عن ٥٠٠ طن ، بقطع النظر عن صابورة السفينـــة التي كانت تبلغ احياناً ٨٠٠ طن ، وهي ، على الاجمال ، من العدس . اما الترعـة التي شقت برزخ كورنثس لتفادي الدوران حول شبه جزيرة البيلوبونيز ، والتي وضع تصميمها قيصر ، وتابع نيرون العمل فيها ، فلم يتم انجازها . وقد أدى إعداد المرافىء : البحرية منها والنهرية ، وتهيئتها ، الى اشغال عظيمة ، حذا فيها المهندسون الرومان حذو اسلافهم المهندسين الاغريق ، وبزّوهم في اشياء كثيرة . ولم تبلغ هذه الاشغال من العظمة والجهد ما بلغه إعداد مرفأ مدينة اوستي وهو مرفأ روما المفضل . ولا تزال ماثلة للعيان معالم الإنشاءات الجبارة التي قام بها هؤلاء المهندسون على شواطىء ايطاليا والشرق الادنى ، في مواقع على سيف البحر ، مثـــل شنتوميليه ، وتيرّاسينا ، وترابيزو واسكندرية–ترواد ، وبمبيوبوليس في كيليكية ، وبقايا الارصفة الضخمة التي اقاموها لكسر قوة الامواج المهتاجة ، والجزر الاصطناعية ، والمنائر الكبيرة ، والارصفة التي اقاموها في وجه الامواج العاتية . ولعل

غلطتهم الكبيرة هي انهم لم يفطنوا الحؤول دون غشيان الرمول لاحواض السفن ، او لترسب مياه الانهر . لما من مرفأ من هذه المرافيء عرف مدى كالمدى الذي عرفه ميناء الاسكندرية ، اذ كان تيار مائي يحول دون غشيانه بطمي النيل .

النقد الرومـاني والعملات المستعملة

نام في خدمة التجارة ، حتى اواخر القرن الثاني ، نقد روماني قوي، سليم. فقد اجيز لعدد من المدن الكبرى في الشرق نعمت بالرعوية الرومانية ، سك بعض النقود من البرونز والفضة. ومثل هذا الامتياز الذي كان قابل الالغاء، خضع بطبيعته ، لمراقبة شديدة من قبل السلطات الرومانية . والتعامل بهذه العملات التي وصفها علماء النُميّات في عصرنا هذا « بالمسكوكات » الاستعمارية ، وكان التعامل بها في نطاق ضيق ، فتح المجال امام اعمال صرافة محلية عرفت الحركة التجارية العامة ان تتفاداها بيسر، لوفرة النقد الرسمي المتداول بين الناس أماكن سكته.

فالعملة البرونزية كان سكها حقاً محصوراً بمجلس الشيوخ، ويخضع بالتالي، لمراقبة شديدة من قبل الادارة الامبراطورية لانها كانت عملة رسمية للدولة . وهكذا عرفوا ان يتفادوا ، في آن واحد ، تضخم النقد وهبوط قيمته. اما هبوط قيمته ، فقد اعتُمد في تفاديها خليط من الرصاص والزنك مع النحاس والقصدير . فقطعة البرونز المثاليــة كانت قطعة الـ *Sesterce* التي كانت تساوي ربع دينار فضة . وهذه القطعة بقيت الوحدة الاساسية في التداول ، حتى في المبـــالغ الكبرى ، اقله في ايطاليا والغرب .

واحتفظ الامبراطور لنفسه بحق سك العملة الذهبيـــة والفضية ، بمثلة بريال الذهب ، والدينار . وقد طبق دوماً ، خلال هذين القرنين ، القرار الذي صدر في عهـد اوغسطس يجعل قيمة ريال الذهب تساوي ٢٥ ديناراً ، بالرغم من التطورات التي لحقت، فيما بعد ، بهاتين العملتين بنسبة الواحدة الى الاخرى، وكان من جراء سيطرة الامبراطوريةعلى مناجم الذهب في مقاطعة داسيا ، بعد فتحها على يد الامبراطور ترايانوس ، ان اضعف القيمة الشرائية لعملة الذهب ، التي بعد ان كانت ١٢ ضعف قيمة الفضة ، في عهد اوغسطس ، اذ بها تهبط الى ٩ اضعاف. وهذا بعينه يفسر لنا الهبوط الذي لحق بالدينار من حيث وزنه وعياره. فاذا ما بقي عيار ريال الذهب عالياً ، اي بنسبة ٩٦ ./· ، واذا كان وزنه لم يهبط الا بنسبة عشرة في المائة ، فالهبوط الذي لحق بالدينار كان أشد ، لا سيما ما تعلق منه بالعيار ، اذ سقط من ٩٨ ./· في عهد اوغسطس ، الى ٨٨ ./· منذ مطلع القرن الثاني .

هذه المعطيات والارقام التي اتينا على ذكرهـا اعلاه ، تثبت بوضوح ، ان الاباطرة ، عموماً، باستثناء الامبراطور نيرون، لم يلجأوا الى المضاربات والتلاعب بالنقد للتخلص من الصعوبات المالية التي كانوا يعانونها ، وهي صعوبات طفيفة ، غير ذات بال على الاجمـــال ، الى عهد مارك اوريل، فصادفت الامبراطورية الرومانية ، اذ ذاك ، من جميع الوجوه ، صعوبات ارغمتها على الاخذ بالتضخم المالي الذي صحبه هبوط مريع في عيار الدينار .

بالرغم من تنوع ولاياته وتباعدها وتنائيها ، بقي العالم الروماني قبل كل شيء، عالم البحر المتوسط،وان أطلّت بعض اقاليمه على المحيط الاطلسي. وهـذا العالم الشاسع الفسيح كان اعجز من ان يشبع مطلب الطبقات الاجتماعية وحاجاتهـا لبعض المنتوجـات والحاصيل التي تصنع في الخارج ، وهي منتوجات ، استبدت بأذواق هذه الطبقة المرفهة ، المترفة ، التي نما فيها هذا الترف خلال اتصالاتها الطويلة العهـد بسراة الشرق المليئي واغنيائهم ، فتطبعت بأذواقهم وتخلقت باخلاقهم وعاداتهم . هنالك لعمري ، اقطار ومدن عرفت الاتجار مع هذه الأقطار النائية فكان ذلك باعثاً على ازدهارهـا وغناها . فقطع هذه الاصناف عن رومـا فيه ذهاب هذه الثروات عن اهلها . وهكذا اكتملت التجارة في الداخل بحركة تجارية في الخارج لم يكن ليستهان بها، وان كانت دون الاولى اهمية وشأناً. وهذه التجارة الدولية ، على نشاطها، اكثر من دليل وبرهان، في اكثر من مصدر ومرجع ، كما عليها اكثر من دليل ، في هذه الآثار المادية التي خلـّفتها ، اذ نجد في بعض انحاء الامبراطورية حاجيات اجنبية الصنع ، كما نجد نقوداً وعملات رومانية من جميع الفئات في بلدان اجنبية مختلفة .

وهكذا راح المؤرخون يدرسون اليوم ويبحثون قضية الميزان التجاري في الامبراطورية الرومانية . والأمر الذي لا شك فيه هو ان الميزان التجاري كان يشكو عجزاً تسبب في خروج المعادن الثمينة من البلاد وانسرابها الى الخارج . ويرى بعضهم ان حركة نزوح الاموال هذه ، بلغت من الشدّة بحيث نشأ عنها هبوط اقتصادي محسوس .

فالاتجار مع شمالي اوروبا وشرقيها لم يسجل اي هبوط من هذا الشكل. فبعد ان كان العنبر (الكهربا) يتبع في انتقاله ، طرقاً شتى ، كان ينتهي به المطاف الى ايطاليا عن طريق مدينة اكيليه التي بقيت، حقبة طويلة ، عقدة للمواصلات التجارية مع بلدان الدانوب. وقامت في القرن الثاني حركة تجارية انطلقت رأساً من بلدان نهر الرين الاعلى باتجاه الدانوب ، كما ان بلاد غاليـا الشمالية كانت تصدّر على نطاق واسع ملاقطها ومشابكها الموشاة بالمينـا . واخذ الغز او السكيثيون ، في جنوبي روسيا ، يصدرون عن طريق نهر الدانوب الاسفل ومرافىء البحر الاسود اليونانية ، الى جانب القمح والسمك المعد لاستهلاك الجيران الاقربين ، الفراء والرقيق ، ثم تنقل هذه السلع الى الموانىء النائيـة . وكان هؤلاء الاقوام يحرصون على شراء المشابك ومصنوعات الخزف والزجاج ، اذ نجد بعضاً منها في القبور والمدافن التي عثروا عليها في انحـاء روسيا الجنوبية . كذلك نجد نقوداً رومانية السكة يجري التداول بها في القرن الثـاني ، في اصقاع سكنديناڤيـا اذ ان خروج مثل هذه العملات لم يكن ليتسبب قط بنزيف مالي يهدد الامبراطورية الرومانية باي خطر .

وعلى هذا المنوال جرى الأمر مع اواسط افريقيا . فالتجارة عبر الصحراء الكبرى بقيت دوماً ، قليلة الشأن . فقد عوّلوا في النقل على الجمل ، مركبة الصحراء الأولى ، واتخذوا منـه

الرواحل التنقل بين الشرق والغرب ، فلم تبلغ هذه الحركة بعض الاهمية الا مع مطلع القرن الثالث . فالبدو الرحل في الصحراء ، كانوا قبل كل شيء ، اهل غزو وسلب ونهب ، ولذا لم يكن بالامكان تنظيم قوافل تعمل على مواعيد منتظمة . والاستيراد اقتصر على شراء بعض أرقاء الزنج اذ كان اقتناؤهم من سمات الغنى والثراء ، يثير وجودهم لدى البعض الشهوة والرغبة عند البعض الآخر ، في اقتنائهم . كذلك كانوا يستوردون بعض حيوانات غريبة ، مرآها يثير دهش الجماهير وحيرتها . اما التجارة عن طريق صعيد مصر ، فكانت ناشطة ، كما ان الحبشة وبلاد اريتريا ألّفت سوقاً رائجة لمصنوعات الاسكندرية تصدّر هي ، في المقابل ، الاخشاب الصلبة النادرة والعاج والذهب ، وغير ذلك من انتاج تلك البلاد ، الامر الذي جعل الميزان التجاري مع هذا الجانب من الارض حسناً .

اما الاتجار مع الشرق الاقصى ، فقد ألّف المشكلة الكبرى، اذ كانت الطبقة الثرية في روما تسعى وراء محاصيل تلك البلاد النائية الثمينة . فإلى جانب الطيوب والعطور والروائح الزكية ، والبخور والمر والافاويه على انواعها ، والحجارة الكريمة ، واللآلىء والماس ، وكلها مواد كانت تستورد ، منذ عهد بعيد ، من بلاد العرب والهند وأقطار آسيا الجنوبية الشرقية ، يجب ان نضبط الآن ، بالرغم من احتجاج المترمتين من الاخلاقيين ونواهي الامبراطور بمنع الرجال عن لبسه وارتدائه ، الحرير الذي كان يستورد من الصين . وكانت هذه البضائع الخفيفة الوزن ، والغالية الثمن ، تدرّ ارباحاً طائلة اذ كانت تباع بأسعار لا تعرف حداً إلا ما يضعه لها المترفون ممن ألِفوا اقتناءها وأطلقوا العنان في امتلاكها . ولذا كانت هذه السلعة الغالية تتحمل بسهولة ، نفقات النقل : رسوماً وضرائب متعددة وعمولة الوسطاء . ولذا نشبت مناقسة شديدة حول استعمال الطرق التي تتبعها في سبيلها نحو الغرب ، والمشرفين عليها والمتحكين بها (راجع شكل ٣٠ : طرق المواصلات بين اوروبا وآسيا) وهي اصناف وبضائع من شأنها ان تثير أعنف الرغائب وافواهــا وان تسيل اللعاب في حلوق طالبيها . فبعد ان رأت حكومة الامبراطورية نفسها ، عدم جدوى الحملة التي شنتها على هذه الكماليات ، راحت تترك الحرية لرعاياها والواقعين تحت حمايتها للاتجار بها ، ثم اخذت تشجعهم وتدافع عنهم، ولو بقوة السلاح احياناً ، وهي الدولة التي لم يكن يهمها التدخل في الشؤون الاقتصادية .

وكانت مملكة الفارثيين التي خلفت السلوقيين وحلت بسيطرتها محلهم على بابل وقسم من ايران ، تهيمن على عدد من هذه الطرق التي تسلكها التجارة مع الصين . وكانت احدى هذه الطرق البرية تجتاز ايران من الغرب والشمال لتصل الى مدينة مرو في ولاية مراغا ، ومنها تتفرع الى مفترق يتجه احدها نحو التركستان والآخر نحو الهند عن طريق كابول . وهنالك طريق بحرية كانت تنطلق من مصب دجلة والفرات (شط العرب) فتصل الى مصب نهر الهندوس . ولكي نفهم حقيقة هذه الحروب القاسية التي قامت ، غبّاً ، بين الفارثيين وترايانوس على الاخص ، ثم تتابعت متواصلة بينهم وبين مارك اوريل ، يجب ألا نهمل من حسابنا الدور

الكبير الذي لعبه فيها اعداء الامبراطورية من وراء الكواليس الذين كانوا وسطاء هذه التجارة وعملاءها .

هنالك امبراطرة اكثر تمسكاً بأهداب السلام ، اهتموا بهذه القضية وراحوا يبحثون عن يغنيهم مؤونة هؤلاء الوسطاء. فاتجهوا بأنظارهم شطر البحر الاسود بعد ان اهمل الاغريق امره، غب تدويخهم لايران وفتحهم لها . وما الكتاب الذي وضعه المؤرخ تيريان بعنوان: « رحلة حول البحر الاسود » سوى تقرير مفصل رفعه صاحبه الى الامبراطور هدريانوس، هو حلقة في سلسلة من هذه البحوث حول هـذا الموضوع ، سبقها كما عقبها محاولات اخرى . فبعد ان يبلغ التجار التركستان متجنبين بحر قزوين شمالاً او عابرين له، يتجهون منه شمالاً نحو مجرى نهر الاوكسوس القديم (اموداريا اليوم) ليلتقوا بالتجار الصينين القادمين من لوب - نور . وهنالـك سبيل آخر لتفادي طريق الفارثيين ، وذلك باتخاذ مسالك الجنوب . فقد الحت الرياح الموسمية ، منذ عهد بعيد ، قيام علاقات بين بلاد العرب والهند ، عادت عليهم بأرباح ومغانم طائلة . فقـام اوغسطس بتجريدة كبيرة ضد العربية السعيدة بين المدينة وعدن. وبعد فشل هذه الحملة انصرف الرومان لتنظيم علاقات تجارية انطلقت من الموانىء المصرية الواقعـة على البحر الأحمر ، مثل ميوس هورموس على مقربـة من خليج السويس ، وبَرَنيكي ، الواقعة على موازاة اسوان ، فربطت هذه الموانىء مع الهند مباشرة ، او عن طريق الاسكلة التي قامت الى الجنوب من شبه الجزيرة العربية قبل الإيغال في مضيق باب المندب . ويُعزى الى احـد البحارة الاغريق المدعو هيبالوس اكتشافه الرياح الموسمية في الصيف ، هذه الرياح التي عرفت بموسمية الصيف . اما تاريخ هذا الكشف الجغرافي ففيه نظر ، اذ يرجع بعضهم به الى اواخر القرن الثاني ق . م ، بينما يردّه البعض الآخر ، الى بدء ظهور النصرانية ، وهو الاصح على ما يراه الثابتون في العلم.

وعلى هذا الشكل استطاعت السفن الرومانية بلوغ الهند وسيلان والوصول منها الى الهند الصينية . ويذكر الجغرافي المؤرخ اليوناني بطليموس أقصى نقطة انتهى اليها البحارة الرومان : كاتّيغارا الواقعة ما وراء كيرسونيز الذهب، وهي شبه جزيرة الملايو، ولعلها التونكين او الصين الجنوبية . فقد عثر على حوائج واغراض من صنع الرومان ، في ضواحي مدينة بُنديشري في الهند ، وعند مداخل « اوك - ايو » في الكوشنصين، وفي هذا دليل على ان بعض التجار الغربيين بلغوا في رحلاتهم البعيدة ، هذه المناطق النائية ، وان لم ينشئوا لهم فيها مستعمرات ثابتـة . ويحدثنا التاريخ عن وفادتين ارسلها احد ملوك الهند ، تحملان هدايا سنية لاوغسطس وهو مخيم في بلدة تاراغون ، في اسبانيا ، وفي جزيرة ساموس ، عام ٢٥ و ٢٠ ق . م . وهنالك روايات تحدثنا عن سفارات اخرى وردت على ترايانوس وبعض خلفائه ، كما تحدثنا الروايات الصينية عن جهة اخرى من بلاد : تا - تسين التي كانت تقع فيما يرجحون ، عـلى شواطىء البحر المتوسط الشرقية ، وعن عاصمتها الكبيرة وصروحها الخمسة الشهيرة التي قد تكون مدينة انطاكيا بالذات وهي تنوه على الأخص بقدوم موفدين ، عام ١٦٦ ، أي في عهد الامبراطور مارك اوريل ، من

قبل آن ـ لون ، وبلوغهم الصين الجنوبية . والمعروف ان مارك اوريل الذي تبنـّاه الامبراطور انطونين ، كان يحمل هـذا الاسم عندما جرى تبنيه . وليس مـا يمنع ان يكون هؤلاء تجاراً تكنـّوا بهذا الاسم الرسمي .

فالحركة التجارية ، التي قامت على هذه الطرقات ، بلغت شأواً مهمـاً ، ولا شك . ويقول سترابون ان ١٢٠ سفينة كانت تنطلق كل سنة ، في عهد اوغسطس ، من مدينـة ميوس هورموس في اتجاهات عديدة . والكتاب الذي ظهر تحت اسم : « رحلة في بحر اريتريا» (البحر الاحمر) ، كان يشير الى بعض السلع ، كالنبيذ والزجاج ، ومصنوعات معدنية متنوعة، ويذكر بلين الكبير ان المرجان كان نادراً في جميع انحاء الامبراطورية ، لانه كان يصدّر الى الهند. وقطع الفخار والخزف الاحمر ، ذات الرسم النافر التي عثر عليها المنقبون في الاماكن الاثريـة في الشرق الاقصى ، تشهد على تصدير الادوات الفخارية . غير ان الصنـّاع الهنـود تمكنوا من تقليد هذه الاصناف . كذلك عثر المنقبون في هذه المواقع الاثرية ، على بعض الحلى والمجوهرات وان جاءت على نطاق ضيق جداً . وكان الرومان يقبضون ثمن هذه السلع معادن ثمينـة ويقدر بلين بـ ١٠٠ مليون سسترس (٢٥ مليون فرنك فرنسي من عملة ١٩١٤) مبلغ مـا يصدرونه من هذه الاصناف الى البلاد العربية والهند والصين ، كان نصفها يمر عبر البحر الاحمر. وكان سكان الهند ، يبحثون باهتمام ، عن النقد الروماني ، والعمـلة الامبراطورية ، ثم راحوا يقلدونها ويزوّرونهـا ايضاً ، اذ ان قطع الذهب الهندية كانت من نفس عيـار الريال الذهب الروماني ، حتى ان كلمة دينار *Denarius* اللاتينية الاصل انتقلت الى اللغـة السنسكريتية. واكثر العملات الرومانية التي يعثرون عليهـا اليوم في الشرق الاقصى ، يعود تاريخها الى مطلع العهد الامبراطوري ، اي الى هذا العهد بالذات الذي تنوّه به كتابات بلين وسترابون . ولكن فلنحذر الاستنتاج بسرعة لنقطع جازمين بأن التجارة خفـّت حركتهـا بعد هذا العهد . فسكان الشرق علقت نفوسهم بهذه السلع ، وكانوا يحرصون الحرص كله على الحصول على ذات البضائع والمصنوعات التي ألِفوا تعاطيها .

وقد راح الأمبراطور طيباريوس يتململ ، أمام مجلس الشيوخ ، من أن ثروة الامبراطورية وغناها يتسربان الى البرابرة ، والى الاعداء ، ثمناً للحرير والحجارة الكريمة، والحلى والجوهرات التي كان الأغنياء يسعون وراءها ويتيهون بلبسها . غير ان طيباريوس الذي عُرف بروحـه التشاؤمية ، كان من هؤلاء النفر المترمتين المنقطعين عن معاشرة الناس . ولكي نتمكن مـن تقرير الأذى الذي لحق بتجارة الامبراطورية الرومانية لا بد لنـا من احصاءات دقيقة حول مقادير المعادن الثمينة المنتجة اذ ذاك ، ومقارنتها بما يتسرب منها الخارج . يبقى بعد هذا أن ليس بين هذه البضائع والسلع التي كانوا يتصيدونها بأغلى الاثمان ، ما كان ضرورياً ، فراحوا يسعون وراءها ترفاً ويتباهون بحملها. فقد حالت اخلاق العصر المتمكنة من النفوس ، دون امتثال الناس لتوصيات السلطة ونواهيها ، وفوّتت على الامبراطورية ، امكانية الاكتفاء الذاتي

المتوفرة لديها، وهكذا راحت طبقة غنية ثرية في روما تستسلم بكليتها لتيارات البذخ والاسراف والتنعم التي استبدت ، منذ القدم ، بالطبقات الثرية في الشرق .

الزراعة : قصور وسائلها التقنية

هذا الاكتفاء الذاتي توفرت امكاناته ، من حيث المبدأ ، في المجال الزراعي . ومع ذلك لم تستطع الامبراطورية ان تلسى يوماً ، او تتناسى ، خطر المجاعة الذي كان يطل عليها من وقت لآخر ، فيقلق منها البال ويقض مضجعها .

ليس من الخطل بشيء ان نرد اسباب هذا الخطر ودوافعه الى هذا الوضع الزري الذي كانت تتسكع فيه الاجهزة الزراعية وعتادها ، من الوجهتين العلمية والفنية . وتنقضي الأيام وتجري الأمور ، والزراعة ، كالصناعة ، في شبه دوامة تدور على نفسها ، ليس من تحسين او تكامل في الانتاج . وكيف تتطور ، وقد خيّل الى المسؤولين وعلية القوم ومن بيدهم الامر والتوجيه ، انهم انما يأتون إذاً اذا ما هم خصوا شؤون الحياة الدنيا وضرورات العيش ومقتضياته ، ببعض الشيء من الجهد الكريم الذي بذلوه وجادوا به، في هذه الانشاءات العظيمة التي اتوها ممثلة بهذه الموانىء والمباني، والطرقات العريضة والصروح الشاهقة . وقد نظروا الى هذه الانشاءات، ملوكاً كانوا ام نصراء العلم ، كبناء لا بد منها لتأمين حاجة المدينة بالماء والغذاء ، يخلدون بانشائها ويبذلون في سبيلها ما أوتوا من قدرات وسخاء . فأمور عادية كاحياء موات الارض ، والفلاحة والزرع ومضاعفة الانتاج قمحاً وحنطة، أمور لا تضفي على صاحبها الجاه ، ولا تعود عليه باي فخر ، ولا تجعله في مأتى الغين ، او تشرئب اليه الأنظار . فقد جهلوا او تجاهلوا ان في هذا كله خير ما يترتب عليهم من مهمات ، وفي تحقيق هذه الامور ، اسمى المسؤوليات التي يضطلعون بها ، وان هذا الواجب يجب ان يعلو سواه من الواجبات المترتبة على ذوي السلطان . ولعل افتقارهم للاحصاءات حال دون بروز هذه القضايا امامهم بوضوح وجلاء . غير ان الكرب المزمن الذي عانت منه بعض مناطق الامبراطورية كان من شأنه ان يفتح عيونهم ويزيل الغشاء عن نواظرهم . ومما لا ريب فيه البتة ، ان القضية ازدادت تعقيداً وارتباكاً نظراً لما كانت عليه اليد العاملة من ندرة في أكثر من ولاية ، غير ان أسباب هذه الازمة كانت اجتماعية اكثر منها ديموغرافية . ولم يكن المستوى العلمي ، اذ ذاك ، ليضيق ذرعاً عن الحد من وطأة الحاجة الماسة لليد العاملة ، عن طريق تحسين انتاج العامل .

ففي هذه الاقطار المترامية الاطراف التي تألفت منها الامبراطورية الرومانية ، كان همهم الاكبر ، وحرصهم الاشد ، الا يقع اي تغيير في محل كان . فقد همّ الادارة الامبراطورية ان تُعنى بمصر وان تُسيّج حولها . او ليست مصر اهراء روما الاولى ؟ فترمم اقنيتها ، وتجفف غياضها ومستنقعاتها في ضواحي الفيوم . كل ذلك واجب محبب في سبيل تأمين عيش روما . فقد اقتصرت عناية الادارة على الترميم والاصلاح، دون التفكير في التعمير والاحياء. فلا عجب ان يرتفع محصول البلاد وانتاجها ، في عهد الرومان ، على ما كان عليه في ايام دولة البطالسة .

صحيح ، هنالك تطورات ملحوظة ، لا ينكرها إلا كل عنيد مكابر ، برزت معالمها العيان في كل من اسبانيا وغاليا . ولذا يصبح من نافل الامور التأكيد بان محاصيل هذه البلاد سجلت ارقاماً لم تسجل مثلها من قبل، لانه لم يسبق في تاريخها ان خطط احد لمثل هذه التنمية في الانتاج.

فالثرة هذه القوى والطاقات الطبيعية ، جاءت استجابة لوعي عفوي أكثر منها لتوجيه او تشجيع ، يحيثها من فوق ، وهو وعي مصدره الاستقرار والطمأنينة التامة ، وتحسين طرق المواصلات واصلاحها لتصدير السلع والبضائع الى بلاد بعيدة نائية، ونمو المدن وتطورها الاجتماعي، مما زاد من حاجاتها ومستلزمات العيش ، واخيراً هذا التفاعل السياسي والاقتصادي الذي مهّد السبيل لتلاقي الحضارات والبلدان النامية . والشيء الذي افتقر اليه الجميع ، لعمري ، في كل قطر ومصر ، مع انـــه كان من حق الجميع ان يروه ماثلاً امام اعينهم ، محققاً ، لو ان الاباطرة الرومان اهتموا بتطبيق الاساليب والمناهج التي سبق لبعض الدول الهلينية ، ان طبقتها في بلادها فأعطت بذلك المثل الصالح ، هو مساهمة الدولة ومعاضدتها لهذه الحركة ، قولاً وفعلاً ، نظرياً وعملياً ، على السواء. فالدولة حاولت دوماً، انما بتردد، وبشيء من الوجل ، ان تلطـّف وتخفف من هول الخطر الجلل الجاثم على الصدور ، والفاغر ابداً شدقيه ، للانقضاض. والشيء الذي كان الجميع بحاجة اليه هو رعاية هذه الطبقة الموجّهة التي كان في مقدورها ان توجه عمل الفنيين .

وهكذا لم يحدث ، على الاجمال ، أي تغيير جذري ولا أي انقلاب ثوري، في مرافق الزراعة يتبلور عن طلوع مزروعات جديـدة ، وبروز اساليب ومناهج جديدة ، وعدة فنية جديدة . فقلما نرى اعمالاً واسعة لاحياء موات الارض ، وان حدث شيء من هذا فندرته تعفو ذكره . وبدلاً من ذلك اخذت الطبقات الاجتماعية الممتازة ، ولا سيما الطبقة الارستوقراطية في مختلف الولايات ، بأسباب هـذه الرياضة البدنية وهي الصيد والقنص . فلم نرَ اعمال تجفيف ولا اشغال تصريف في البـلاد . فقد اقتصرت معظم أعمـال الري والسقاية ، عـلى المناطق نصف الصحراوية الواقعة على تخوم الامبراطورية الخارجية ، وذلك بدافع من اعتبارات عسكرية وسياسية اكثر منها زراعية . فنظام تحويل الاراضي ، كل ثلاث سنوات ، لم يسجل اي تطور ، كما بقي على حاله ايضاً نظام فلاحة الارض الموات. وهنالك لعمري، بعض النباتات او بالأحرى، بعض الاشجار تدخل الغرب . والكرمة ، هذه الغرسة الخاصة ببلدان حوض البحر المتوسط ، راح الرومان يزرعونها في أقاليم لا تصلح كثيراً لهـا . وهكذا استبدت زراعتها في مناطق لا تزال زراعة الكرمة مزدهرة فيها اليوم ، كما هي الحال في مقاطعة بوردوليه وبورغونيا ، مع ان هنالك من يزعم ، أن ظهور الكرمة في هذه الاقطار ، سبق عهد سيطرة الرومان عليهـا . كذلك ازدهرت زراعة الكرمة في وادي الرين والموزيل. فالحد الذي تقف عنده زراعة الكرمة في المانيا ، اليوم ، هو حد المقاطعات التي خضعت لسيطرة الامبراطورية وسيادتها . والكـكلنا انتشرت زراعتها في فرنسا ، كما أن شجرة الدراق أو « تفاح الفُرْس » ، كما يلقبونها ، دخلت ايطاليا ، في أواسط القرن الاول للميلاد ، بنوعيها : الصيفي والخريفي .

وهكذا ، فالتطور الذي طرأ على الزراعة ، اقتصر ، في أجلى مظاهره ، على الانتعاش الذي عرفته زراعة الاشجار المثمرة ، وعلى البستنة . وكلاهما مدينان بهذه الحركة لنمو الحياة في المدينة ، ولزيادة الاستثمار في مرافق الزراعة الاخرى ، انما استثمار قلما جاء مدروساً أو موجهاً ، اذ كان الاغنياء ينزعون ، اذا ما شغّلوا أموالهم في الارض ، لكسب المباهاة والجاه الاجتماعي والتأمين على أموالهم ، أكثر منه الى إنشاء مزروعات يسخون عليهـا بالمال والجهد والعمال ، يتعهدونها بعرق جبينهم ، لتؤتي أُكُلها ، لهم ولذراريهم من بعدهم . ومهما يكن من أمر هذا التطور ، فلم يُحدث ، ولم يكن في مقدوره أن يُحْدِث أي تحسين في انتاج المواد الغذائية الاساسية ، أي الحنطة ، بل النتيجة الكبرى كانت في إشباع حاجات بعض الطبقات الاجتماعية على تنوعها ، ولا سيما ما قام منها في المدن .. وبهذا يمكن مقارنتها ، الى حد مـا – مع الأحتفاظ بالنسبة – بالتوسع الذي بلغته التجارة الخارجية .

الجاعة : خطرها وواقعها

كان من بعض نتائج هذا التطور الذي لمسناه في بعض مرافق الزراعة ، أن وجد العالم الروماني نفسه ، في بحبوحة من الاثمار والفاكهة ، من أي نوع كانت ، ومن الزيت والخمور على ألوانها ومذاقاتهـا . بينما بقي انتاج القمح على غير انتظام ولا استقرار ، لا يوحي للأهلين بأي طمأنينة للغد الطالع . ومعالجة لهذا الوضع المتأرجح ، أصدر الامبراطور دومتيانوس الذي ندين له بالكثير من التشريعات العصرية ، مرسوماً حذّر بموجبه انشاء كروم جديدة في ايطاليا ، كما قضى بوجوب إتلاف نصف الموجود منها في الولايات الرومانية . إلا انــه عدل هو نفسه عن تنفيذ قراره هذا ، استجابة منه لمـا لقيه قراره من المعارضة ، ولما أثاره من الاحتجاجات الصارخة ، وهو لو أراد العمل بـه لامتنع عليه التنفيذ لتجاوزه كثيراً امكانات الادارة التقنية . وابعد ما يمكن ان نذهب اليه في الافتراض ، هو ان الادارة تسلحت بهذا القرار لتحول دون إنشاء كروم جديدة لو لتحد من توسيع رقعتها في البلاد . وهكذا لم تسجل أية نتيجة ملحوظة في هـذا المضمار . فبالرغم من التحسينات التي أدخلت على اسباب النقل ووسائله ، عرفت البلاد ، خلال القرن الثاني ، ازمات مزعجة جرت عليها الوبال لشدتها وتكرارها .

وخطر الجاعة كان أشد بالطبع ، على الولايات الشرقيـة في الامبراطورية منه على الولايات الغربية . فالولايات التي عرفت دوماً ، بنقص انتاجها الزراعي وعدم كفايتــه ، أوصدت في وجهها اسواق التموين التي كانت تعول عليها ، منذ عهد بعيد . لمناطق البحر الاسود كانت تمد جيش الدانوب بحاجاته ، كما كانت بلاد ما بين النهرين ترزح تحت سيطرة الفارثيين . واحتفظت روما لنفسها بمحصول مصر وانتاجها ، بعد ان كان هذا الانتاج ، في ظل دولة البطالسة ، نعمة الممالك الهلينية وبركتها . كذلك احتفظت ايضاً بقمح افريقيا ، مع انه سبق لهذه الولاية ان ارسلت ، في عهد سينّا ، شحنات من قمحها لمناطق بحر ايجه . وتتفق المصادر الادبية والنقائش الأثرية ، على التنويه بأخطار الجاعة التي كانت عرضة لها مقاطعات اليونان وآسيا الصغرى ، كما

تأتي على وصف التدابير المتخذة لتفادي مثل هذه الأزمات او التخفيف من حدتها . من ذلك ، مثلاً ، ان تعهد الحكومة ، في أكثر الأحيان ، الى اغنياء القوم وكبار المتمولين بينهم في المدينة، بتدبير شؤون التموين والاعاشة بأسعار معقولة ، فتنعم عليهم بألقاب فخرية ورتب تشريفية تضطرهم عند استلامها للانفاق بسخاء، كلٌّ بحسب امكانياته. إلا انالادارة كثيراً ما اضطرت لجوء الى المصادرة .

بقطع النظر عن هذه الولايات التي كان انتاجها الزراعي يخضع لتقلبات الاقليم وتغيرات الأحوال الجوية ، عانت بعض مدن ايطاليا ، من وقت الى آخر من هذا الخطر الذي كان دوماً ماثلاً ، وعرفت القلق فريسة لهذه الهواجس . وكثيراً ما تحدثنا المصادر التاريخية التي لدينا عن مندوبي مصلحة التموين *Curatores Annona* الذين يشبهون ، الى حد بعيد، مراقبي الأسواق او مفتشي تجار الحبوب في الشرق الاغريقي . عرفت افريقيا ومصر، هما ايضاً، مثل هذه الأزمات من القحط والجاعة ، نشأت عندهما ، على ما يظهر، ويرجح العارفون ، عن مصادرة كميات أكبر من انتاجها الزراعي . فالولايات الواقعة غربي الامبراطورية ، ومن بينها غاليا، في مقدورها ان تكفي نفسها بانتظام فتسد مطلب الاهلين كما كانت تلبي حاجات الجيوش المرابطة على مقربة منها وتمدها بالميرة اللازمة .

فاذا ما نظرنا الى وضع الامبراطورية في المجال الزراعي في كلا شطريها : الشرقي والغربي ، رأينا ان الحالة السائدة في كل منها لم تكن مؤاتية لايطاليا قط ، التي لبثت باجماع المعاصرين ، منذ عهد طيباريوس ، فريسة سهلة للمجاعة . فقد انخفض انتاج الحبوب فيها منذ عهد بعيد ، إلا ان ازدهار زراعة الاشجار المثمرة اتاح لها ، منذ عهد اوغسطس ، تصدير كميات كبيرة منها ، استطاعت معها ان تتلافى حاجتها الشديدة للحنطة . غير ان تكاثر انتاج الفاكهة والأثمار في كل مكان راح ينافس المحصول الايطالي ، حتى في عقر دار المدن الايطالية وفي روما بالذات . وهكذا اصبح انحطاط مرافق الزراعة في ايطاليا ، شغل الحكومة الشاغل ومبعث هواجسها ، لا سيما بعد ان اصبحت شديدة الحساسية لكل قلق ، او لأي رسيس اضطراب يلوح في البلاد المجاورة .

والواقع الذي همّ الجميع هو وحدة العالم الروماني ، هذه الوحدة التي برزت على اشدها ، في هذه الحركة التجارية التي عمت جميع اقطار هذه الامبراطورية وشملت جميع ولاياتها واخذت بالاتساع والنمو . كانت مرافق الامبراطورية الزراعية ناشطة ولا شك ، على الاجمال ، غير انه ازدهار سريع العطب ، وسر عطبه ناتج ، شيء لا يصدق ، عن ازدهاره بالذات . وهذا الازدهار قوامه وفرة انتاج البلاد من الزيت والخمور ، وسلع الكاليات ونصف الكاليات . اما سر هذا الأزدهار فيكمن ، قبل كل شيء ، في امكانية تصريف هذا الانتاج وتنفيقه . وهذا نفسه قائم على مستوى رفاهية العيش الذي ينشط الاستهلاك ، كما يكمن في حسن شبكة المواصلات وأمنها . والذي زاد هذا الوضع سماجة ، القلق المستحوذ على النفوس في كثير من هذه الولايات،

لعجزها عن تأمين حاجتها من الحبوب . فحسن سير الجهاز الاداري ودقته ، مُرتهن دومـــاً ، بعوامل متعددة ، غير مستقرة لا يمكن التحكم بهـا . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تؤدي الحوادث المؤسفة التي ألمت بالامبراطورية ، منذ اواخر القرن الثاني ، فارزحتها واقعدتها ، لأن تسبب لها بعض الشلل .

فقدان التجدد الصناعي وانعدامـــه

والصناعة كالزراعة ، عانت ، هي الاخرى ، أعراض ركود فني وتقني ، ارزحتها فاقعدتها . فقد تم لمهندسي العصر ، في هذا المجـــال ، من العلم والمهارات ، ما لو حاولوا معه ، صادقين ، وضع هذه المعلومات الفنية ، موضع التمييز والتحقيق ، بعزم واصول ، لكانوا احدثوا ثورة صناعية عارمة .

ويروي لنا المؤرخ «سويتون» كيف ان الامبراطور فسبسيانوس وعده مهندساً ميكانيكياً قدم اليه مشروعاً ادعى معه انه يستطيع نقل أعمدة ضخمة دون كبير كلفة ولا عناء الى ساحة الكابيتول، بإجزال سني العطاء ، بينما اعرض الامبراطور نفسه وضرب عرض الحـائط باختراع او اقتراح زعم صاحبه انه يمكن الامبراطور من « تدبير إعالة الشعب بيسر وسهولة » . قد يكون من المغري والمحرك الشجون ان نضفي على هذه النادرة قيمة رمزية فنفرض بداهة او نتصور عفواً ، ان هذا الاقتراح انما دار على انشاء مشاريع انسانية من شأنها كسب عطف الطبقات الموجهة ، او انه تبدى لصاحب الاقتراح ، بثاقب بصره ، ما يكمن في بعض الآلة من قوة مدهشة تستطيع ان تأتي بالمعجزات ، غير ان تفرد هذه الطريقة يمنعنا من ألا نرى فيهـــا اكثر من رمز او تورية للامكانات والطاقات الكامنة في بعض ميكانيكيات العصر ، اذ ذاك .

والحقيقة التي لا مراء فيها هي ان إعالة روما ومن فيها من طبقات كادحة ، يُرزح الدولة ويُفدحها ويؤلف وضعاً استثنائياً خاصاً . فاليد العاملة في جميع انحاء الامبراطورية ، وفي كل مرافق العمـل ، لم تكن لتفيض عن الحاجة ، ناهيك عن ان حاجات السوق الداخلية ، بقطع النظر عن الاسواق الخارجية ، كان يمكن توسيعها لو امكن تخفيض كلفة الانتاج بعض الشيء ، وجعلها بالتالي ، في متناول زبائن جدد .

وهـــذا التفكير القديم الذي يكره انتـاج البضائع التي يتوقف تنفيقها على رغائب الزبائن بقي مسيطراً على الناس ، وان خفت وطأته ، مع انه بقي متحكماً بالاذهان في الشرق الهليني . ولم يبلغنا انه دخل الغرب ، ولم يحُلْ ، اقله في ايطاليا ابان العهد الجمهوري، دون انصراف بعض اصحاب رؤوس الاموال الى إنشاء معامل لصنع القرميد والطوب والخزف . وقد تألفت هـذه المعامل من وُرَش او مشاغل ، قامت جنباً الى جنب ، لكل واحد منها نشاطه وشأنه ويتولى ادارته والاشراف عليه مهني يتمتع بثقة صاحب المعمل . ومهما يكن ، فلم نرَ احداً يبذل صادقاً، أي جهد موصول في هذا الصدد، او يعوّل على رأس مال كبير، جعل نصب عينيه اكتشاف او اختراع آلات ميكانيكية جديدة ، او حاول ادخال تحسينات تذكر على ما كان منها قيد الاستعمال .

فعمل من هـذا النوع كان جر على صاحبه ، لو وقع في بلاد اليونان ، العار والشنار ، ادبياً واجتماعياً .

فلا عجب ، والحالة هـذه ، ان تأتي النجاحات التقنية ضعيفة جداً ، ان لم نقل معدومة . فالطاحون المائي اخذ استعماله يطل على الناس ، مع ظهور المسيحية ، وان تباطأ انتشاره . فتقارب الناس بعضاً من بعض بفضل هذا النمط الجديد من الحياة المشتركة ، وتواصل الاقطار بعضها من البعض ، على ما بينها من جهل الواحد للآخر ، بالرغم من تجاورها ، كل ذلك سهل ايضاً انتشار استعمال القوالب اليدوية والآلة . وقد عرفت التقاليد والاعراف المهنية المحلية ان تحافظ على نشاطها ، ولو جاءت مغايرة لكل منطق سليم . من ذلك ، مثلاً ، اختراعان تمّا على يد بعض الغاليين ، في ايطاليا الشمالية ، هما : برميل الخشب ، والمحراث ذي السكة . فبالرغم من المنافع الجزيلة التي كان في مكنتها توفيرها الناس ، فقد بقي القوم يعوّلون في شؤونهم المنزلية على الجرة المريعة المعطب ، وعلى المحراث الخشبي الذي يكاد يخدش اديم التربة وسطحها البراني . فقـد سجّلت كل مهنة او حرفة على حدة ، تطورات مدهشة . فصناعة الزجاج ، مثلاً ، استطاعت ان تسجل تقدماً محسوساً عن طريق انتقاء احسن ، للمواد الاولية التي تستخدمها ، واستعمال طريقة جديدة في النفخ او الإفراغ في القوالب ، فأخرجت الناس زجاجاً شفافاً متنوع الاشكال. غير ان انعدام البحث العلمي ، وعدم طلوع طرق ومذاهب فنية جديدة ، كل ذلك حمل الناس على الاعتصام بالتجربة الشخصية او الاكتفاء باحتذاء ما يسير عليه العمال الصناع من عدة وأساليب.

لامركزية صناعية

ومع ذلك ، برز النشاط الصناعي في العالم الروماني ، اذ ذاك ، على شكل ترك اثره العميق في الخواطر . نرى ولا شك ، ما بلغته ايطاليا من انحطاط صناعي ملحوظ ، منذ منتصف القرن الاول . فبعد ان كانت تصدّر ، في عهد اوغسطس ، الكثير من مصنوعاتها المعدنية والخزفية ، ان لم نقل النسيجية ، فقد فقدت كل قدرة صناعيـة وعجزت عن تقديم اي انتاج صناعي لتسويق السفن بعد تفريغ شحنها في الموانيء الايطالية . ومع ذلك ، فوضعها من هذا القبيل هو افضل بكثير مما كانت عليه مرافق الزراعة فيها ، اذ انها عرفت ان تحافظ على البقية الباقية لصناعة صغيرة تستطيع معها ان تلبي حاجاتها الاوليـة ، بينما نرى عدداً من الولايات الاخرى في الامبراطورية يعرض خدماته لاشباع مطالبها الاخرى . والمثير للعجب ، هو ، بالفعل ، هذا النشاط المتجدد او الجديد الذي نرى بوادره تطل على الولايات. فبعد ان نعم الشرق الاسيوي ومصر ، بالنظام ، وخيمت الطمأنينة على ربوعها ، انصرفت هذه الأقطار الى إنتاج هذه الكماليات التي عُرف بصنعها وانتاجها ، منذ القدم ، صنّاع مهرة ، وفرت لهم اسباب التمدن ، ما يحتاجون اليه من الخامات والمواد الاولية التي ترد من الخارج . اما الغرب ، فقد عرف نشاطاً وحركة من الازدهار لم يسبق ان عرف لها ، من قبـل ، مثيلاً ، ولاسيما مقاطعة غاليا التي سرعان ما تعرفت الى اسرار الحرف اليدوية عن طريق ايطاليا وقد توفرت لهـا اليد العاملة الماهرة والخامات الاولية . وخير مثل على ذلك ، صناعة الخزف ، اعرق صناعات ايطاليـا واجددها طراً . فعند مطلع المسيحية ، كانت ايطاليا بلداً يصدر بكثرة مصنوعات

الفخار والخزف الموشى بالرسوم الناتئة. وما ان انتصف القرن الأول حتى نرى غاليا تبز ايطاليا بهذه الصناعة فتبلغ فيهـــا المرتبة الاولى ، ولاسيما مقاطعات الاقليم الجنوبي . فبرزت فواخير *La Graufesenque* (في مقاطعة افيرون) فغزت مصنوعاتها ايطاليا واخذت تنافسها في عقر دارها . فقد عثر المنقبون بين انقاض مدينة بومبيي التي انساحت تحت حمم بركان الفيزوف، في ثورانه التاريخي الفظيع ، عام ٧٩ ، على صندوق مليء بالمصنوعات الخزفية في غاليا ، لم يكن فتح بعد . ولم يلبث ان انتقل مركز انتاج الخزف والفخار الى شمالي غاليا وتركز في مقاطعة الالزاس ، في رينانيا . وهذه اللامركزية الصناعية هي من المميزات العامة للصناعـة اذ ذاك فقد شملت المقاطعات التي تم فتحها منذ عهد قريب أو أخذت حديثاً باسباب الرقي والتطور، وراحت بدورها تسام في هذا النشاط الصناعي الشامل . فافريقيا اخذت تصنع المصابيح وتصدرها الى الخارج . وهنالك مشروع استغلال مناجم الرصاص والقصدير في بريطانيـــا . كما راح الناس يستخرجون الذهب والحديد من مناجم داسيا . وهكذا قابل هبوط ايطاليـا الصناعي نشاط صناعي عم انحاء الامبراطورية وزاد من انتاج السلع على اختلافها .

الانتاج ومشكلاته

كل الدلائل والنتائج المسجلة تشير بوضوح الى ان هـذا الانتاج كان ضخماً . وكيف لا يكون ضخماً، ليستطيع العالم الروماني ان يجهز جيوشه الجرارة، ويلبّي حاجات تجارة عريضة ناشطة ، مع ما تستلزمه من وسائل النقل ، ويحقق مثل هـــذه الانجازات والمشروعات العامة، ويشيد مثل هذا العدد من المدن والصروح والفيلات، التي تفيض رفاهية ، وترفل بالبذخ والجاه العريضين، ويرفع مستوى الحياة لدى الطبقات المتوسطة ، اذا ما كان يفتقر الخامات الضرورية والمواد الاولية اللازمة لمهرة الصناع ، فيخرجونها للناس ادوات وحاجيات؟ والثابت فعلاً ، ان نمو الانتاج وازدياده، واللامركزية الصناعية يصحبه دوماً هبوط في الجودة . فالمستوى الاجتماعي الوسط وذوق الزبائن انحط وهبط بعـــد الذي بلغ من اتساع وانتشار . وعلى هذا يجب ان تقيس تجربة اليد العاملة الآخذة بالازدياد وحرصها المتزايد عـلى التجويد والاتقان . ويكفينا دليلاً على ذلك تناقص صناعة الاوعية المنمقة امام ازدهار صناعة الخزف المطلي المحلى بالرسوم البارزة . ومقابل هذا تضاءلت صناعة الفخار الغليظ الصنع ، ذي الطينة الدكناء ، الخالي من كل حلية ، او على الاصح اقتصر استعماله على الطبقات الاجتماعيـــة الدنيا . وهذا شأن كل الحضارات المادية، فتدفع غاليا ما يترتب عليها دفعه مقابل كماليات لم يعد استعمالها مقصوراً على قلة ، او فئة صغيرة من الناس محظوظة .

ومع ذلك فالتوازن لا يزال غير مستقر ، اذ نرى ، منذ اواسط القرن الثـاني ، تطل علينا بعض البوادر التي جعلت فريقاً من الناس يستشعرون الخطر الطالع ويعمل جاهداً على تجنبه .

وبالفعل ، نرى الدولة تتدخل رسمياً لتنشيط الانتاج وتوجيهه وتنظيمه ، بعد ان كان تبدى لها انه من الافضل ترك شؤونه للمبادرة الفردية . فقد اتسعت املاك هذه الدولة واطيانها . فبعد ان كانت دوماً ، وبازدياد مطرد من كبار الملاكين ، فقد رأيناها تصبح بالفعل ، المالك الوحيد

للمناجم وللمقالع الحجرية المهمة، الموجودة في جميع اطراف الامبراطورية. فقد سارت من قبل، في استثمار الثروات الدفينة في بطن الارض، على تلزيمها لعدد كبير من المتعهدين، بعد أن حددت مواصفات هذه الاستثمارات المتنوعة ، وحددت منها الحقوق والواجبات ، وذلك تسهيلاً منها لعملية مراقبة الملتزمين والمتعهدين ، الذين ترسو عليهم العطاءات . ثم لم تلبث ان اعتمدت طريقة الحكر وانتهجت في ادارته نظاماً عسكرياً ، اذ اسندت الى ضباط الجيش ، ادارة هذه الاحتكارات ومدها بما يلزم من الموظفين. وفي الوقت ذاته ، تطالعنا استثمارات عديدة للمقالع، كما نشهد تأسيس معامل وورشات عمل جديدة او استئناف العمل في ورشات قديمة ، عُهد بادارتها الى عسكريين . وهكذا اخذت مؤسسات وفرق تضطلع بمهام اضافية جعلت منها بحق دوائر استثمار في المجال الصناعي . فاتساع نطاق هذا النهج الجديد في الاستثمار لا يبرره عدم اطمئنان الحكومة لهذه الفئة من المتعهدين والملتزمين، بل هو امر طبيعي تلتزمه كل ادارة ترغب في ادخال تحسينات على مناهجها والموظفين التابعين لها ، والاستفادة على وجه افضل ، من اوقات فراغ اليد العاملة في الجيش، بل يجب ان نرى فيه وسيلة لتفادي النقص في طبقة المتعهدين، كما يشهد على ذلك ، قانون صدر في عهد الامبراطور هدريانوس ، عثر عليه المنقبون في منطقة المناجم ، تقع الى الجنوب من البرتغال .

والى هذا ، اخذت الدولة بتنمية علاقاتها مع النقابات العمالية والجمعيات المهنية وتوطيدها . فقد وقفت ، في البدء ، من هذه التكتلات المهنية ، موقف المتسامح المتساهل الذي اعترف بوجودها ، ثم اخذت تسبغ على بعض اعضائها انعامات خاصة انطلاقاً من الهيئات النقابية التي لها علاقة بتموين روما وتأمين وسائل إعاشتها ، لتشمل ، فيما بعد ، اصحاب السفن المتخصصة بنقل الحبوب والحنطة ، وذلك منذ عهد الامبراطور كلوديوس ، واصحاب الأفران والخبازين ، في عهد تراجانوس . فلا عجب ان تتقاضى بانتظام ، بعد هذا ، رسوماً خاصة من هؤلاء العمال ، وهي رسوم اتسمت بالاعتدال في بادىء الأمر. فاذا ما اضطرتها الأيام الى تعميم هذه الرسوم وزيادة وطأة هذه الضرائب ، فقد كان لها من مثل هذه السوابق ، حجة .

هنالك ايضاً ثورة اخرى تبرز بوادرها في هذه الحقبة بالذات ، لم تعتم ان قويت بسرعة وتضخمت وبقي اثرها ظاهراً في الاجيال التالية . فقد عرف الشرق ، منذ القدم ، مصانع وورشاً صغيرة ، قامت الى جانب الهياكل والمعابد الدينية المعروفة بوفرة غناها وبما تملكه من أملاك واقطاع واسعة ، عمل فيها العديد من الفعلة والعمال في وضع لا يختلف كثيراً عن وضع الارقاء تقريباً . وقد بقيت هذه المشاغل تعمل بعد زوال معامل الخزف التي يملكها متمولون ايطاليون ، او انخفض نشاطها . وظهر في بعض الولايات الغربية ، خلال القرن الثاني ، كبار الملاكين، ينشئون لهم على مقربة من استثماراتهم الزراعية ، مشاغل تعنى بصنع الاغراض والحاجيات الحديدية والانسجة ، صدّرت منتوجاتها الى مناطق نائية . فمن المشاغل الريفية التي انشئت في الشمال من غاليا ، خرجت هذه المشابك او الملاقط التي جرى تصديرها الى بلدان

وادي الدانوب ، بحيث استطاع العالم الاثري الفرنسي فرانز كومون ان يحدثنا بحق، ولو بصورة لا تخلو من الغلو ، عن « رئيس ورشة الحدادين » في مقاطعــة الأردين . وكان من جملة أهداف هذه المشاغل ان يفيد صاحب الأرض من ايراد ارضه وخيراتها، فيستعمل خاماتها لما فيه مصلحته ونفع السكان الواقعين تحت حمايته ورعايته . وقد ينتهي مثل هذا التصرف العام الى اللامركزية الصناعية . كذلك من المستحيل الا نرى في هذا ايضاً دليلاً على ان الصناعة في المدن لم تكن لتفي بحاجات سكان الامبراطورية .

فعدم استقرار الوضع الاقتصادي في جميع أنحاء الامبراطورية كما تشير الى ذلك الحوادث التي أتينا على ذكرها والنظر في الاسباب التي هيأتها ، كل ذلك من شأنه ان يضع المؤرخ امام مشكلة يتعذر تناولها بالنقد الدقيق ، لعدم توفر الاحصاءات اللازمة . فعليه ان يقنع من ذلك بانطباعات واحاسيس دون البراهين والادلة القاطعة . فقد رأينا ما كانت تعانيه البلاد من ركود تفشى في جميع مرافقها . كذلك نوهنا بالوهن الذي عرف به التوازن الزراعي، وهي علة مزمنــة لمدنية كل ما فيها يقوم على الزراعة التي تمد الانسان ليس بالمواد الغذائية فحسب ، بل ايضاً بالمواد الأولية الضرورة له : كالمنسوجات والجلود والخشب . ولا بد من الاشارة اخيراً الى ما كان عليه النظام العام من تشابك وتعقيد يتطلب انتظام المبادلات الدولية التي تتأثر بأقل الحوادث ، مهما كانت طفيفة . وبعد هذا الذي ذكرنا ، يبقى علينا ان نذكر أشياء أخرى كثيرة ، هي بالطبع أهم وأخطر ، بحيث نبحث عنها في غير النظام الاجتماعي الذي كان عليه المجتمع إذ ذاك .

٢ - المجتمع

جاءت الامبراطورية ثورية ، في نشأتها ودوافعها ، ولا سيما تلك التي أخرجتها من مصطرع الأحزاب التي مزّقت روما شر ممزق ، وأقامتها بعضاً على بعض ، وراحت تحاول حمل الثورة ونقلها بقضها وقضيضها ، الى المجتمع الروماني . فقد قامت ، اصلاً ضد مجلس الشيوخ ، فجردته من كل سلطة سياسية فعلية كانت له ، ثم اخذت بمصانعة الطبقة المشيخية وممالأتها بعد ان أبقت على امتيازاتهــا الفخرية وما جمعته من ثروات طائلة ، ان لم تبق على المرتبات التي كانت تدفعها لأصحاب هذه الطبقة . فهي لم تكن تتحسس، من حيث الاساس ، بأي موجدة أو حقد عليها ، انما وجدت نفسها ، عندما أطلت على الحيــاة ، امام وضع قائم شهد زوال الثروات المختزنة واضمحلالها، ابان الحرب الاهلية الماحقة، وقبلت بالامر الواقع لانها لم تكن لترضى بتجديد مثل هذه الثروات على حساب رعايا روما والمواطنين الرومانيين . وقد كان همها الاكبر ان تبقي الطبقات السفلى في روما ، ناعمة بالهدوء والسلام ، فلا تشكل لها عبئاً يبهظها ، طالما لا تستطيع التخلص منها، فعلى الاقل، الحد من خطرها باصطناعها . وهكذا بدا اوغسطس صاحب تجربة تشربت نفسه بنزعة محافظة . فما عسى ان يكون تصرف يوليوس قيصر لو كان محله ؟ شيئاً آخر ، ولا شك في ذلك ، مع الاعتراف بالعجز، على وجه التحديد ، فليس بين خلفاء اوغسطس من حاول

ان يجاريه او يبزه جرأة في الاصلاح والتجديد ، فخضعوا في كل ما يتصل بالمجتمع الروماني ، لضغط الحوادث ، بدلاً من ان يعملوا وفقاً لتدابير حكيمة ، وخطة مرسومة .

وهكذا طلعت على العالم حركة تطورية لم تبلغ قط حد الثورة أو الانقلاب الجذري . فهذا المجتمع الذي قام في جمهورية ارستوقراطية ، بقي هو نفسه قائماً ، في عهد النظام الملكي ، كما ان المجتمع الذي ساد مدينة فاتحة ، غازية ، اصبح هو نفسه ، مجتمعاً لدولة كبيرة سادها النظام والانضباط .

وهذا التطور الذي تم تدريجياً ، أعرق في الارض ، ورسخ وطيداً بالفعل ، ولذا تحتم علينا ان نعرف المدى الذي بلغه ، والحدود التي وقف عندها .

١ ـ النظام الملكي واقع اجتماعي

وعلى رأس هذا المجتمع الروماني القديم قام ملك . وهذا الحادث البارز الذي يوجز وحده التاريخ الروماني في هذا العهد ، استأثر لعمري باهتمام الكتبة والمؤرخين القدامى الذين اطلعتهم ارقع طبقات المجتمع الروماني ، او خاطبوها في كتاباتهم . الا ان اعترافهم باهمية هذا الحادث لا يعني قط مقاسمة الاغلاط والمساوىء التي شابتهم .

الامبراطور

« الاول » بين المواطنين . فالامبراطور ، هو ايضاً ، الأول بين اشراف روما ورأس ارستوقراطيتها . وفي مقدمة هذه الارستوقراطية : آل يوليوس وآل كلوديوس الذين جمعوا المجد من اطرافه : حسباً ونسباً ونشباً . فالاسرة الامبراطورية التي توارثت الملك بعدهم وتعاقبت عليه ، خرجت من الارستوقراطية الايطالية الوسطى ، كالاسرة الفلافية ، او من بين مواطنين سكنوا الولايات القديمة ، كمعظم افراد الاسرة الانطونية ، محاولة جهدها الارتقاء لبلوغ مستواهم ومصافهم . فالانتماء الى الارستوقراطية هو من حق كل امبراطور جديد . فالامبراطور ليس بالواقع ، سوى سري او نبيل من سراة القوم ونبلائهم اضطلع بواجبات ومسؤوليات تفوق بكثير المسؤوليات والواجبات التي يضطلعون بها . وهكذا نراه بالفعل يبرز سريعاً عن الارستوقراطية ويتميز عنها، مع ان التقاليد والاعراف الرسمية تستمر على اعتباره واحداً منها . فهذا « الأول » لا مثيل له ولا كفاء البتة . فبدون ان نعود بالفكر الى ما كان عليه من تسام وما يتحلى به في طبيعته البشرية وشخصيته الدينية ، من افضلية على الناس طراً ، وبدون ان نأتي من جديد ، على تعداد رتبه ووظائفه وسلطاته ، وما كان يحف به من حرس وجنود ، وما يعمل في خدمته من موظفين ومأمورين ، فمن الجلي الواضح، انه على الصعيد الاجتماعي ، لا يمكن مقارنته ولا تصح مقابلته ، باي سليل لهذه الأسر الأرستوقراطية ، مهما سما او تعالى . فالثروة التي له ، والتي هي دوماً في ازدياد وارتفاع مطرد من جراء المواريث والمصادرات العديدة والفتوحات الواسعة ، تبز بكثير اية ثروة يمكن ان تتم لانسان ، اذ ان

خزينته الخاصة وخزينة الدولة التي يرأسها ويتصرف بها، لا تختلف الواحدة عن الاخرى بشيء، فهما تابعتان له . وهو الغني الاكبر ، والثري الامثل ، الذي يمكن بسخائه وجوده وكرمه ، ان يأتي العجب العجاب.

فهل من غرابة او دهشة ، بعد هذا ، ان تقوم حوله ، حاشية ، عريضة ، وان تلتف حواليه بطانة قوية ؟ ووجه العجب الوحيد في ان لا يكون لهذا البلاط عند تكوينه ونشأته ، ما بلغه فيا بعد ، من مهابة وفخامة وعظمة . وقد قيل : اذا عرف السبب زال العجب . علينا ان نحسب حساباً هنا للأصول التي انطلق منها نظام الملك الجديد ، والاتفاق الظاهري الذي جاء عربوناً له او رمزاً اليه . « فبيت » الامبراطور ، لا يمكن ان يرتفع على غير غرار البيوتات الارستوقراطية العليا ، ليصبح بعد ان يخضع لحركة تطورية تقدمية لا تقاوم ولا تضام « بلاطاً» حقيقياً ، شبيهاً من جميع الوجوه ، بالبلاطات الهلينية ، الا انه يحتفظ تقريباً ، في العهد الاول للامبراطورية ، بطابعه الاساسي . والى هذا ، فكلا المثالين تجمع بينهما اكثر من ميزة واحدة . فمنذ ان راح عظماء روما يتصلون، في القرن الثاني قبل الميلاد ، بهذه البلاطات الهلينية ، اخذوا يحتذون حذوها وينهجون على منوالها ، واضعين نصب اعينهم المستوى المادي لحياة ملوك الاغريق ، سواء لجهة رفاهية العيش ، او لجهة ما تحمله الملكية من رمز للرجل السوبرمان . فقد مثلت الملكية اليونانية في اعينهم الحضارة الرفيعة بالذات .

وكان لا بد من « بيت » للامبراطور ، في روما ، فشيد اوغسطس له صرحاً متواضعاً فوق رابية البلاتين حيث كان سبق لفريق من سراة الرومانيين، من بينهم شيشرون ، ان شيّدوا لهم عليها من قبل ، الصروح والحدائق الغناء . وما عتمت ان زالت هذه البيوتات الخاصة ، عندما راح طيباريوس وكاليغولا وغيرهما من اباطرة الاسرة الفلافية ، يشيدون لهم صروحاً عليها ؛ ولهذا صارت رابية (*Palatin*) رابية الصروح *Palatium* والقصور ، ومنها اشتق الاصطلاح الفرنسي *Palais* — او المدينة الامبراطورية ، داخل العاصمة روما . وكأن هذا التوسع لم يكف اباطرة الاسرة اليوليو – الكلودية ، فقد توصلوا ، بطريقة او بأخرى ، الى امتلاك معظم الجنائن والحدائق الواقعة على هضبة الاسكلين. ثم اغتنم الامبراطور نيرون مناسبة حريق روما ، عام ٦٤ ، فاستولى على الاملاك الواقعة عليها وأنشأ محلها ما عرف في التاريخ بـ « الصرح الذهبي » وزيّنه بأبهى حلل الزينة ، بحيث ان قبة الصالة الكبرى ، وهي صالة الطعام ، كانت تدور على نفسها كالقبة الزرقاء ، ليل نهار ، بينما أنشأ له ، في الحديقة المجاورة ، بحيرة حاكت البحر في مواتئها ومواقعها ، احاطت بها المباني إحاطة السوار بالمعصم ، متخذة شكل المدن ، يليها منظر ريفي أخاذ، تنسرب فيه الحقول والكروم والمراعي الخضراء ، وتسرح فيها وتمرح، قطعان الغنم ، وانواع الحيوان والطير . وقد اتضح فيا بعد ، ان هذه البقعة كانت حائلاً دون انتظام شبكة المواصلات . وما ان صار الامر الى الاسرة الانطونينية حتى بادر اباطرتها الى دك معالم هذه المباني ، وشق طرقات فسيحة فيها قامت على جوانبها المؤسسات والمباني العامة .

والى جانب هذه الابنية الرومانية الفخمة ، لم تلبث ان قامت فيلات حرص أغنيـــاء القوم في ايطاليا ومراتهم ، على تشييدها وفقاً للتقاليد المرعية . وحرص كل امبراطور على ان يكون له صرحه الخاص، وبعضهم عدة صروح، يتفنّنون في هندستها وعمارتها ما شاء لهم التفنن، حسب رغائبهم ونزواتهم ، ويشيدونها على شاطىء البحر او على هضاب منطقة اللاتيوم . وأشهر هذه الفيلات وأبهاها طراً ، الفيلا التي شيدها الامبراطور هدريانوس ، في تيبور *Tibor* (*Tivoli*) وراح يتفنن بحدائقها الغنّاء بانشاء المناظر الطبيعية ، او المباني التاريخية التي ورد ذكرها على لسان الادباء والرحالة ، امثال الليسيه ، والاكاديمي، ورواق بيكيل *Poecile* في اثينا، ووادي تمبه في تساليا ، وكانوب في دلتا النيل ، والجحيم عند قدماء اليونان .

وعبثاً تبحث في روما او في خارجها، عن «القصر» الامبراطوري او الملكي بالمعنى الحديث، الذي يستوقف منك النظر بمظهره الخارجي ، وبفخامة رياشة من الداخل ، بصلح بما فيه من اثاث وحُجر ، وصالات فسيحة ، لمظاهر الابهة والفخامة . فالامبراطورية لم تشيد بعد لنفسها ، مثل هذه المباني الفخمة .. فهي لا تقيم منها إلا ما يؤمّن راحة المالـــك سعيداً الفعلي او الرمزي معاً ، الا وهو الشعب ، فارتفع في طول البلاد وعرضها : الهياكل الضخمة ، والميادين الشاسعة ، والساحات العامة ، والحامات والمسارح العظيمة . وأمثل هذه المسارح وأفخمها طراً « المسرح الفلافي » المعروف اليوم باسم الكوليزيه.. فقد احتل قسماً من قطعة الارض التي انشأ نيرون فوقهــا « صرحه الذهبي » . وبدلاً من قصر منيف ، يفكر الامبراطور بانشاء الحدائق الملكية التي تحاكي من قريب ، الحدائق التي قامت في العواصم الهلينية ، حيث كانت تطالعك المبـــاني الفخمة ، تحيط بهـــا الحدائق السندسية . فاذا ما انعمنا النظر ملياً في هذه المنازل او البيوت الملكية رأينا لكل واحد منها شبيهاً او مثيلاً يضاهيها حسناً ورواء في هذه الفيلات التي يروح اصحابها يتنافسون في فن يبز الواحد منهم الآخر ، في زركشتها وتحليتها وترويقها من الخارج والداخل. والفارق الاكبر الذي يميز منزل الملك عن غيره من منازل سراة القوم وعِليّتهم ، هو عدد الفيلات التي يملكها ، وتعاقبها الواحدة تلو الاخرى ، على هضبة البلاتين .

كذلك بقيت على نطاق ضيق مراسم الاستقبال الرسمية في القصر الامبراطوري . فالوصول الى الامبراطور ، والدنو منه ، والمثول بين يديه ، ميسور كل يوم ، لاصدقائه الخلص وخاصته ، ولاعضاء مجلس الشيوخ ، كما كانت ابواب قصره مفتوحة على مصراعيها ، للاستقبالات بالجملة في ايام الاعياد ، بأعداد كبيرة من الزوار. فهو يدعو من يشاء لتناول الطعام على مائدته ، كما يقبل بدون صعوبة ، الدعوات للخارج ، ويحرص ، مع كلوديوس ، على ان يرافقه ، فريق من حرسه الخاص، بينما نرى الامبراطور ترايانوس يضرب بهذه العادة ، عرض الحائط. فاذا ما نال اعضاء الاسرة الامبراطورية إنعامات وألقاباً ومراتب ، فليس عملاً بقاعدة مقررة ، او اخذاً بعادة مرعيـــة . فالالقاب : « سيد وسيدة » (باليونانية كيريوس وكيريا) وباللاتينية دوميليوس ودومينا ، لم يجر العمل بها بصورة عامة ، مع وصول الاسرة الانطونية الى الملك ، عندما يوجه

الكلام الى الامبراطور او الى احد اقاربه. فلم تعتم هذه الالقاب ان عم استعمالها وانتشرت بين المجتمع المثقف . كذلك مرت بين هذه الطبقة عادة القبلة او التقبيل بعد ان ظهرت سوابق لها في البيئـــة الامبراطورية ، شجبها الامبراطور طيباريوس لانها تنقل عدوى الامراض الجلدية ، شأنها في ذلك شأن تقبيل اليـــد ، وكلا العادتين اغريقية الاصل والمنشأ . اما عادة ، السجود وتقبيل القدم التي شاء الامبراطور دومتيانوس فرضها على زائريه ، فقد زالت بزواله وموته لانها مُحِطة من شأن المرء ومهينة له .

كل هذه الأمثلة والشواهد ، تدل صريحاً على أنه لم يكن هنالك أي فارق نوعي أوجوهري ، بين حيـاة الأمبراطور الخاصة وحياة سراة الرومانيين وأغنيائهم . فالشبه القائم بين الجانبين ، الذي يمكن ملاحظته بسهولة ، إنما يعود ولا شك ، لاعتباره نظرياً على الأقل ، بأنه واحد من الرومانيين . وتستمر هذه المحاكاة على أساس من الزلفى والملق، فيسارع علِيّة القوم الى الاقتداء بالمثَل الهابط من فوق احتذاء حذوه ، فيعتمد الناس في مخاطبتهم نيرون ، مثلاً وتوجيه الكلام اليه ، على الصور البيانية والمحسنات اللفظية والتوريات الشعرية وعلى التنغيم ، كما يعتمدون ، مع مارك أوريل ، الأسلوب الفلسفي . ويأخذ الرجال بارسال لحاهم تشبهاً بالامبراطور هدريانوس، كما أن النساء أخذن تأتم ، بزي الامبراطورة ، في لبسها وهندامهـا ، فيأخذن بتصفيف الشعر وعقصه وتعصيبه ، وغير ذلك من الازياء التي تعتمدها الامبراطورة . كل هذه العادات انمـا تدل دلالة واضحة الى التطورات التي ألـمّت بنمط الحياة في البلاط. وقد ساعدت على بقاء الامبراطور على الصعيد البشري وعلى احتفاظه بأعلى مستوى حياتي لأرفع الطبقات الاجتماعية في الامبراطورية.

بطانة الامبراطور

وهذا الامبراطور الذي يأتمّ الناس به في كل مـــا ينهج ويشرع ، هو أقوى الناس ، وأشدهم بأساً ، وأوفرهم غنىً وثروة . ليس في مقدور أحد أن يجاريه في ما ينهج ، وفارق الدرجة أو الرتبة بينه وبينهم ، بقطع النظر عما بينه وبينهم من فارق الجوهر ، أو الطبيعة ، يزداد بروزاً وظهوراً . وعلى شاكلة ملوك اليونان في العصر الهليني ، فهو قبلة أنظار الارستوقراطية الرومانية ، وموضوع تقليدها وعما كانتهـا له ، نرى الامبراطور الذي في مقدوره وحده أن يعدلـهم وأن يبزّهم ، يأخـذ تحت حمايته ورعايته شؤون الفكر ، وحملة الأدب ، فيحتاط بعدد كبير منهم ، بين فلاسفة وخطباء وعلمـــاء ، ويجزل لهم العطاء والتكريم . ويعين لامراء العائلة المالكة مهذّبين ومربين لهم شهرتهم الواسعة ، ويتشدد في انتقائهم واصطفائهم ، فيعين الفيلسوف سنيكا مهذباً لنيرون ، والخطيب المفوّه كونتليانوس مربياً لدومتيانوس ، كما يختار من بين مشاهير الاساتذة في عهد مارك أورل ، المربين: فرونتون وهيرودوس أتيكوس. وإلى هذا العدد العديد من الاطباء الذين أوكل اليهم السهر على صحة رجال حاشيته ، فالامبراطور لا يحجم أمام أية تضحية ليُلحِق ببطانته أشهر نطس الاطباء ، إذ ذاك . وعندما رفـع الامبراطور كلوديوس ، الى ٥٠٠٠٠٠ سسترس (١٢٥ ألف فرنك فرنسي من عملة ١٩١٤) ، فقد ضاعف المرتب الذي يُعطى عادة لطبيب الامبراطور، وذلك لكي

يحمل الطبيب اسكلابيازيس ألكوسي ليكون في عداد أطبائه الخاصة ، كما أصبح فيما بعد ، الطبيب المشهور جالينوس البرغامي (Gallien) الطبيب الاول للامبراطور مارك أوريل ، ثم للامبراطور كومود .

ومن باب التنويه بالفرق ، من حيث الرتبة او الدرجة، بين ما عليه بلاط الامبراطور وبطانة اغنى ثري من اثرياء الرومان ، في اواخر العهد الجمهوري ومطلع العهد الامبراطوري ، هذا العدد الذي لا يحصى ، من اصحاب اللهو والتسري والحشم ، من كل لون وصنف ، والسراري ، والجواري ، والمهرجين والممثلين ، والمغنين والراقصات والقيمين على الالبسة الخاصة بالممثلين والممثلات . وكان السواد الاعظم من هؤلاء الحشم والخدم عبيداً ارقاء او من المماتيق ، الذين انتقلوا الى حاشية الامبراطور في جملة ما انتقل اليه من مقتنيات وخدم بالوراثة، او أهدوا اليه متاعاً من قبل اقارب واصدقاء. وبين هذا الحشد عدد كبير من الاغريق او المشارقة المتأغرقين، صَقُلت طباعهم ، ورهفت اذواقهم ، فبزوا بعيداً هؤلاء الغربيين المخشوشنين . فالاقاصيص والنوادر المستملحة التي نرى المؤرخ سويتون وواضعي كتاب : « تاريخ اوغسطس » يتندرون بروايتها، وقصائد الهجو والثلب التي يتبارى شعراء البلاط القول في بعضهم البعض، تملأ صفحات بكاملها مع اسماء الأشخاص التي قيلت فيهم هذه النوادر المضحكة . وبين سوانح الكلم هذه ما فيه عبرة وعظة ، اذ ان الغيرة على الاخلاق حيناً ، والحسد احياناً ، اتخذ اداة للحنق او للاستشاطة ، لمرأى هذه الشواذات أو لهذه البدوات يأتيها بحضور ملك أبْطرته النعمة ، أو أسكرته الكأس ، فريق من الناس جرّأهم الإغضاء عن الخروج على المألوف ، كما شجعهم على ذلك ، تساهل الامبراطور مع خلانه ومحظياته ، وهذه الأعطيات الجزيلة ، والالقاب الفخرية العريضة التي يُنعم بها عليهم ، وهذه الدناءات والزلفى يأتيها المتملقون المدلسون الذين يشترون بدناءتهم أو بذهبهم مداخلات الملك لصالحهم. ونقرأ في هذه الكتب النوادر والنكات المستملحة حول بخل فسبسيانوس وخساسته ، اذ يرغم احد الاكارين العاملين في اسطبلاته ان يدفع له ، نصف ما قبضه من صاحب قضية ، تعويضاً لتسهيل مقابلة له مع الامبراطور ، او يصورونه لنا يبيع المقاعد ، بواسطة احدى محظياته ، هي انطونيا تشانيس ، وهي أمَةٌ أعتقتها والدة كلوديوس التي كانت ابنة انطونيوس من شقيقة اوغسطس .

في مقدورنا متابعة هذا السرد دون توقف، الى ما لا حد له. فاذا ما أسقطنا من هذا القصص، ما هو ثرثرة وهراء، يبقى مع ذلك، واقع مؤسف: هو هذا الدس، وهذه المويقات المخجلة والمجرمة احياناً . وكيف السبيل الى تجاهل هذا الزبد وهذه الرغوة الطافية التي تبرز في جو كل حاشية وبطانة ، حتى ما ليس منها بقديم ؟ والشيء المهم ، بعد هذا كله ، ان لا نقف عند هذا وحده، بل ان نردّه الى مسبباته الحقيقية ، ألا وهو ضعف الطبيعة البشرية ، وعدم تدرع الناس بتهذيب صحيح ، وفقدان تقاليد ادارية في دولة حاول الامبراطور إنشاءها فراحوا يرتجلون لها ادارة قوية . وقد اضطروا ، بعد ان أرغمتهم الحاجة ، سيراً منهم مع العادات المرعية بين سراة القوم

في روما ، ان يلجأوا ، كما رأينا ، الى خدمات من لديهم من حشم وخدم ، هم ، على الغالب ، ممن أعتقوهم من الرق . فلا نعرف في روما غير ثروة احـد الخاصة المدعو نرسيس التي بلغت ٤٠٠ مليون سسترس والتي راح جوفنال يقارنها بثروة قارون او بكنوز ملوك الفرس . غير ان « حكم دولة المعتقين » الذي ازدهر في عهد كلوديوس، زال وتوارى عن الأنظار عندما استطاعت الدولة ان تجهّز نفسها بالأطر والملاكات الادارية التي كانت تفتقر اليها عند تأسيسها .

اصل كلمة « نظام »

فلنعد الى ما هو أسمى من هذا وأهم بكثير ، الى هذا الجهـد الموصول الذي انطلق من اوغسطس وبلغ ذروته مع الامبراطور هدريانوس فاستهدف تنظيم الطبقات الاجتماعية العليا وفقاً لمقتضيات حاجات الدولة ، من جهة ، وللخدمات التي باستطاعة هذه الطبقات ان تؤديها لها من جهة أخرى . وهـــذا الجهد كان الغرض منه تأمين الامتيازات والمنافع التي حَلمت هذه الطبقات دوماً بها، والمرتبات المعينة للوظائف العامة الموقوفة على اعضاء هذه الطبقات، ودخلاً كافياً للحفاظ على منزلتهم الاجتماعية . فتحقيق تكافؤ من هذا النوع كان ابداً من المثـُل الرومانيـة القديمة التي دغدغت خواطر القوم منذ القِدم . فجاءت الامبراطورية الرومانية تجعل من هذه الرغائب نظاماً ، كما ان اضطرارها لإنشاء دولة لها هيكلها الاداري القويم ، أوجب عليها ، توفير الأسباب التي تساعد على تحقيق هـذه المـُثـُل . وهكذا باشرت مهمتها وسارت في عملها على بركة الرحمن وأخذت تكـّله وتوسّع فيه الى ان استقامت لها ادارة بزت ما عُرف من أمثالها من قبل ، فيهـا الكثير من أساليب مصر الفرعونية كما ابتسرت بعض عناصر الـ « تشن » *Tchin* الرومي .

وهذه الطبقات الاجتماعيـة العليا تتألف من « منظمتين » هما المنظمة الشيخية او السناتوس ومنظمة الشفاليه. فالمصطلح « منظمة » او نظام جَروا على استعماله من قبل ، لا سيا عند التكلم عن الشيوخ الذين كانوا يسيرون على نهج يستوجب بالفعل مثل هذا الوصف او النعت . ويستبدّ هذا التعبير مع الاستعمال ويجري تطبيقه على هاتين الطبقتين الاجتماعيتين او هاتين المنظمتين ، اذ يتضمن دلالة جديدة لا تتوفر في كلمة « طبقة » او فئة . فاللفظ يفيد معنى النظام والتنظيم ، وهو عنصر اساسي ، مميز في حياة المنضوين الى هاتين الطبقتين ، اتضح مدلوله ، وبرز وخلص مما عَلِق به من غموض او لـُبْس ، مع بقائه مع ذلك ، مرناً مطواعاً . فاذا ما أُدخل عليه التنظيم والتقييد، اصبح مفهوماً، وسهُل بالتالي، على العقل ادراكه. وهكذا يجب ألا يتبادر الى الذهن من كلمة طبقة، شيء وراثي، ان لم يكن بالاسم فبالفعل، ولكن مع شيء من القيد وبشروط معينة، وعلى شيء من التسلسل او التابعية المسلسلة ، على أنساب محددة ، واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ، بحيث لا يمكن لدخيل ان يندسّ بين الصفوف، او لصاحب درجة سفلى ان يندسّ بين أصحاب الدرجات العليا . والدخول في هاتين المنظمتين او الطبقتين ، والبقاء فيها ، والترقي في معارجها ، لا بد من رضى الامبراطور وموافقته ، وكثيراً ما يكون هو نفسه المرجع الصالح ، الأول والأخير ، للترفيع والانتقال من مرتبة دنيا الى مرتبة عليا . فاذا ما نظرنا الى قيام النظام

الامبراطوري من هـذه الزاوية وما كان له من نتائج اضافية على تنظيم الدولة ، برزت امامنا من جهة أخرى ، النتائج الاجتماعية الخطيرة التي ترتبت على هاتين المنظمتين .

ومع ذلك ، يجب ألا نجهل او نتجاهل ان الامبراطورية ، باعتمادهـا مثل هاتين المنظمتين ، قبلت مسبقاً ، أن تقيد حرية تصرفها ، من حيث اختيارها موظفيها الاداريين وترقيتهم . فقد التزمت الدولة بمراعـاة المبادىء العامة المرعية الإجراء ، دون خرقها خرقاً فاضحاً ، هذه المبادىء التي ترعى وتصون هذه المثُل القائمة في احترام التسلسل الإجتماعي . وعلينا ان ننتظر طويلاً ، أي حتى أواخر العهد الامبراطوري ، قبل أن نرى الدولة تضرب بهذه المبادىء عرض الحائط ، أو أن تعبث كما تشاء بهذه الأنظمة المعمول بها .

طبقة الشيوخ وطبقة الشفاليه

الانتساب لهاتين المنظمتين يقتضي له الغنى الوافر ، أي مليون سسترس لطبقة الشيوخ ، و ٤٠٠ ألف لطبقة الشفاليه. وقد حرص العهد الامبراطوري الحرص الشديد ، على أن لا يدخل على هذا الترتيب أي تعديل ، مهما كان طفيفاً أو صغيراً . وقد حرص أوغسطس عـلى الحفاظ على هذه التقاليد . وقد طُلب من هذه الطبقات الموسرة اكثر مما طلب اليها في الماضي ، وبروح جديدة غير الروح القديمة ، أن تتفرغ لخدمة الدولة ، وينقطع أفرادها لهذا الأمر . وتعويضاً لها على خدماتهـا ، وعربوناً الثقة التي يشرّفها بها الامبراطور ، فهو يحتفظ لها وحدها ، بهذه المنافع . فقد أصلح ببعض العطايا السخية التي جاد بها في مناسبات معروفة قـوة المبدأ وصلابته . فاقتسام الإرث ، من جهـة ، ونوازل الدهر من جهة أخرى ، كثيراً ما هددت أحد أعضاء هاتين المنظمتين بفقدان رتبته وبانقصائه ، بالتالي ، عن العضوية . وكثيراً ما حدث أن أغضى الامبراطور عن مثـل هذا الوضع ، وبادر لمد يد المساعدة لمن ذهب فريسة الأقدار أو لمن عضه الدهر ، من ماله الخاص ، اذا ما رأى انه يستحق مثل هذه المساعدة . فما بلغ علمنا قط ، خبر أو ذكر احدى هبات امبراطورية أريدَ بها رفع صاحبها للمستوى اللازم . غير انه لم يكن من الصعب على موظف يخدم الدولة بأمانة أن يوفر من مرتبه ما يلزم لإصلاح شأنه ، اذا مـا عمل بجد موصول ، وعرف أن يقتصد من نفقاته اليومية . كذلك لم يهملوا الأخذ بمبدأ التحوط المتبادل : فالغنى والثراء وحـده لا يولي صاحبه الحق بالوصول تلقائياً ، الى هذه أو تلك المنظمة أو الطبقة . فالثلاثون مليون سسترس التي أنفقت على وليمة تيملكيون ، كما جاء في الرواية « ساتيريكون *Satiricon* » للمؤلف الروماني : بيترون لم تفِد صاحبها شيئاً ، ولم تقدم أو تؤخر في إيصاله الى عضوية احدى هاتين المنظمتين . وكيف تبلغ به هذه المرتبة ، وهو لم يستمع يوماً لفيلسوف ، ولم يُسمع له شعر ولا روى شعراً لأحد . فهو جاهل لا ثقافة له . كذلك تنوه القصة بأصله : فقد طلع من العدم : كان رقيقاً فأعتق ، ثم بسم له الحظ ، فجمع ما جمع بشتى الطرق والأساليب الملتوية ، هـذه الثروة الطائلة . فاذا كان وصول بعض المعتقين الى مرتبة الشفاليه عُدّ خروجاً عـلى المألوف وشذوذاً عن القاعدة ، فقد أوصدت في وجوههم تماماً ، أبواب المرتبة المشيخية ، وحيل بينها وبينهم مطلقاً . وكان سبق

لأوغسطس أن حظّر عقد أي زواج بين معتق أو معتقة وبين أحـــد اعضاء مجلس الشيوخ . فالعضوية في الطبقة المشيخية يقتضي لها العضوية في مجلس الشيوخ ، وان يكون حاملهـا مارس بصورة قانونية ، صلاحيات ومسؤوليات أدنى الوظائف الموقوفة ممارستها على أعضاء مجلس الندوة ، وهي المراقبة *Quaestura*. ويحق له أن ينعم هو وزوجته وأولاده بامتيازات هـــذه الطبقة ، وفقاً للدرجة التي هو فيهـا . وبالفعل ، فأولاد عضو مجلس الشيوخ يصبحون دونما صعوبة ، مراقبين بعد أن يكونوا أدوا الخدمة في الجيش ، ضباطاً في بعض وحداته ، أو عملوا موظفين في إحدى الوظائف الادارية الصغرى . والتسلسل في داخل هذه المنظمة ، يجري وفقاً لجدول أو لائحة يضعهـــا مجلس الشيوخ ، ويأخذ بالتدرج صُعُداً في سلم المراتب والدرجات . فالمناسبات عديدة أمام الامبراطور لإظهار عطفه أو عدم رضاه ، عن صاحب العلاقة . وقـد أخذ يمارس أكثر فأكثر ويطبق حقه المشروع ، في تعيين من يشاء من أعضـاء طبقة الشفاليه في العضوية المشيخية ، وفي المرتبة أو الدرجة التي يريدها له .

وهنالك مـــا هو أغرب من ذلك وأوقع . فالانتماء الى طبقة الشفاليه مرتبط أبداً بارادة الامبراطور وحده ، دون سواه . فليس في الأمر أية عملية اقتراع أو ما يشبه ذلك ، في تعيين المراقبين ، وتلقائية الإرث عند هذه الطبقة ، أقل بروزاً هنا ، منهـا في الطبقة الممتازة الأولى . ولذلك ، فنشاط الشفاليه ، يُصرّف ، منذ عهد اوغسطس ، في خدمة الامبراطور ، فيختار من بينهم الوكلاء الذين يُدعون للخدمة في بطانته ، الى أن ينتقلوا الى الخدمة في الادارة العامـة . فهو يختارهم كما يشاء . ومن الطبيعي ان ينعم أبناء الشفاليه ، هم الآخرون ، بشيء من الاطمئنان الى مستقبلهم ، انما لا بد من اختيارهم وبلـو ولائهم . ومهما يكن ، فعددهم لا يفي بحاجة الادارة التي اتسعت وتشعبت كثيراً ، وأخذت تستوجب المزيد من الموظفين. وهكذا رأينا كيف انهم ، خلال هذين القرنين ، تفننوا كثيراً في طريقة تزويد الإدارة بحاجتها من الموظفين . فوضعوا في هذا السبيل ، القوانين اللازمة لاختيارهم وتدريبهم ، وفقاً للحاجات البادية . فبينا كان الامبراطور يفرض ، في بادىء الأمر ، على المرشحين للعمل في الادارة ، الخدمة في الجيش : ضباطاً في الفرق الاضافية ، وهم بعد في سن الشباب ، كثيراً ما نراه في القرن الثاني يختار من صفوف الادارة ، من يحتاج اليهم للعمل في الجيش ، ويرقـّم الى الدرجات العليا قواد المئة ، أي هذا الفريق من الضباط الذين خرجوا وبرزوا من بين صفوف الجيش . فـــاذا كان الامبراطور هو المتصرف الأوحد ، والمهيمن الأول والأخير ، على الانتساب الى طبقة الشفاليه ، فمن الطبيعي جداً ، ان يكون السيد المطلق في كل ما يعود الى ترقيتهم وترفيعهم في داخل هذه المنظمة ، فيعين مرتباتهم وفقاً لدرجاتهم ، اذ كانت نهايات المرتب في السنة تتراوح بين ٦٠ الف سسترس للصغرى ، و ٢٠٠ الف للكبرى .

السلك وامتيازاته

فالمنظمتان المذكورتان ، هما بمثابة سلكين اداريين . فسلك الرتب الفخرية الذي عمل به في العهد الجمهوري استمر وبقي معمولاً بـه على نطاق اوسع في السلك المشيخي . فالدرجات والرتب تكاثرت وتفرعت وتشعبت مع تنوع الوظائف في العهـد

الامبراطوري وتكاثرها في الادارة الجديدة. والتجديد الأكبر في هذا المجال تمثل في انشاء السلك الشفاليه الذي كان يُفضي بصاحبه : اما للسلك الشيخي ، وإما لوظائف عالية أخرى كالولاية ، التي تأتي في القمة من هذه الوظائف ، وتليها النيابة ولا سيما نيابة مصر ، وادارة مصلحة التموين *Annone* . ومن بين الوظائف التي يؤلف التدرج فيها اساساً للسلك ، هي وظيفة الكهنة والقضاة الذين لم يكونوا ليتناولوا مرتبات ولا أجوراً، بينما اصحاب الوظائف العليا كالبروقنصل في آسيا وافريقيا ، كان الواحد منهم يتناول مليون سسترس مرتباً سنوياً . فما من احد ، بعد الذي ذكرنا ، حتى من كان من الموسوسين، يقضي حياته معدماً في خدمة الدولة ؛ بل على عكس ذلك تماماً ، ففي استطاعة الموظف ان يكوّن ثروة له ويزيد من غنـــاه . وعلاوة على ذلك ، يتمتع الموظف بامتيازات اجتماعية كثيرة هي سبيله الى الإثراء والغنى : كالاخلاص للمصلحة العامة ، والتمتع برعاية الامبراطور ، والنفوذ الذي يلازم الانتساب لهذين السلكين. فقد احتفظتا بكل مراسم التشريعات الخارجية التي عمل بهــا منذ عهد الجمهورية ، كالطوغة الارجوانية التي ُتخاط على الرداء طولاً او عرضاً ، والخاتم الذهبي ، والأحذية الخاصة بأعضاء الشيوخ ، والمقاعد التي تحفظ لهم في المسارح وحفلات الألعاب الرياضيــة . وقد نالوا ، مع الزمن ، امتيازات ومنافع جديدة لم تلبث ان أصبحت من مستلزمات السلك ، منــذ منتصف القرن الثاني للميلاد ؛ اذ ان كل اعضاء الطبقة الشيخية ، بما فيهم النساء والأولاد، وجب في مخاطبتهم وتوجيه الكلام اليهم، استعمال ألقاب وألفاظ خاصة بكل رتبة ومرتبة، منها مثلاً « السَّنِيي او السنيّة » ، بينما اعضاء الشفاليه ُيخاطبون بنعوت وألفاظ فخرية ، منها : نيافة *Eminentissimus* ، وهو نعت يوَجّه لمدير الشرطة او لقائد الحرس عنـــد مخاطبته ، او « كلي الكمال *Perfectissimus* » لكبار النواب والمفوضين ، او « سامي *Egregius* » . وهكذا فالتسلسل الاداري يقابله تسلسل بروتوكولي او تشريفاتي في المخاطبات الرسمية وفي المعاملات العادية. وهكذا أطلّ على الادارة، طبقة من النبلاء ، تألفت من زهرة الموظفين .

الشعب الروماني

وهذه الطبقات الممتازة تهمنا ايضاً من نواحٍ عديدة أخرى . إلا انه يحسن بنا ان نقف عند هذا الحد لنتابع النظر في الأثر الذي أحدثه في المجتمع الروماني النظام الامبراطوري الجديد .

لنرَ ، قبل كل شيء ، أثر هذا النظام على سكان روما وشعبها . والشيء البارز في الأمر هو اضطلاع الدولة بمهمة ومسؤولية إعالة السواد الأعظم من مواطنين روما الفقراء ، وذلــك بتوزيعات منتظمة من القمح والطحين على أقدار وأنساب معينة ، وتوزيع الدراهم عليهم ، في بعض المناسبات البارزة ، لتوفير اسباب العيش لهم ، بينما توفر لهم الاعياد والاحتفالات الرسمية والألعاب كل ما يحتاجون اليه من وسائل الترفيه والسلوى . « الخبز والملاهي » *Panem et Circenses* كلمتان اوجز بهما المؤرخ الروماني جوفنال الوضع الذي هيمن على روما واستبد بها . ويكفي ان نشير هنا الى هذا الهوَس الجنوني ، والاندفاع الحامي ، والشعبية التي لا حد لها ،

التي كانت تراقق بمجرد التلفظ بأسماء الممثلين والمغنين ، والراقصين ، وسباق المركبات في حلبة المصارعة او حلبة الطراد اذا كان الميدان الكبير يضم أكثر من ٢٥ ألف مقعد في عهد الانطونيين، والتنافس الحاد الذي كان يجري بين فرقاء يرتدون ثياباً من ألوان مختلفة للتمييز بينهم : احمر ، وازرق ، وابيض ولخضر ، الى ان أضاف اليها الامبراطور دومتيانوس الذهبي والارجواني ، ومعارك المصارعين التي كان يحضرها ١٥٠ ألف متفرج جالسين على مقاعدهم في كوليزيه تيطس، يشارك في احدى حفلاتها الضخمة ، وهي حفلة التدشين ، ٩٠٠٠ حيوان . فقد برهنت الجماهير، في كل أين وآن ، عما تجيش به من نزوات الاستبداد والبطش والقوة ، كما برهنت دوماً ، من جهة أخرى ، عن عفوية حماستها ، وعن ثورة غضبها . ولذا ترتب على ذوي الأمر ان يعرفوا كيف يثيرون هذه ويتفادون تلك .

فما من امبراطور حاول جاداً، ان يقاوم هذا الهوس حتى عندما كان يوجس شراً من نتائجه المالية وتأثيره الأدبي السيء ، بل على عكس ذلك ، نرى معظم الاباطرة يتملقون الجماهير ويتحببون اليها محاولين ان يبز الخلف منهم السلف في هذا المضمار . فقد أحيا الامبراطور ترايانوس، بعد ان تكاثر عدد الأسرى والعبيد، إثر حروبه في مقاطعة داسيا (رومانيا اليوم) وتدويخه لها ، نحواً من ١٢٠ يوماً على التوالي ، من الأعياد الصاخبة وحفلات المصارعة اشترك ١٨٠٠٠ مصارع ، في هذه الأعياد الشعبية الضخمة التي أحياها عام ١٠٩ . غير ان هذه الامبراطورية لا يمكن ان تستمر على هذا النحو من الإنفاق والإسراف والاملاق . ولكن ألا يحق لهذا الشعب ان ينعم ، مقابل ما يقدمه للامبراطور ، من سلطة يوليه إياها ، وسمات ملك عريض عزيز، وجيوش جرارة، بالخبز واللهو والمسرح، وان ينال كل ما يطمع فيه او يطمح اليه؟ كما يقول جوفنال . ويحقّ نَطَقَ وقال. كل هذا يمثل بالفعل الثمن الذي يدفعه النظام الجديد تزكية لوجوده وقيامه ، وهو ثمن زهيد جداً ، امام اعتزال الشعب الملك ، أي كل السلطة الفعلية وتخليه عنها ، طوعاً واختياراً للامبراطور . ففي تأمين أوَد عيش هذا الشعب ، وتوفير اسباب تسليته ، والترفيه عنه ، أمْن الامبراطور نفسه وسلامة النظام ، وصَوْن له من أيّ انقلاب سياسي يقوم به الشعب ، ودون أية انتفاضة تخطر له على بال ، كما ان نهجاً من هذا النوع يجعل الطبقات الممتازة بمعزل عن كل ثورة اجتماعية . وبالفعل ، فالخطر عليه وعليها لا يمكن ان يطل من هذه الناحية .

غير أن البطالة داء قتال بالفعل ، وفيها الخطر كل الخطر على العاصمة روما . فالشعب فيها لا يتألف من هؤلاء المواطنين المسجلة اسماؤهم في سجلات الاعاشة المجانية . فهنالك حشود بين هذه الجماهير لا ينالها شيء من هذه التوزيعات ، بينهم مثلاً : المواطنون القادمون من الولايات الاخرى ، القريبة والنائية على السواء . فعلى هؤلاء ان يعملوا وان يشتغلوا ليكسبوا عيشهم اليومي ، عندما تبوء بالفشل محاولتهم الانضمام او الانضواء تحت حماية او رعاية أو تبعية بعض الزعماء والاثرياء المعروفين بالجود والسخاء. فقد كان ، في روما، ما يوازي اصحاب المهن الحرة عندنا

اليوم . فالانصراف لهــذه المهن لا يؤمن لاصحابها ثروات ضخمة أشبه بالثروات التي يستطيع تحقيقها نطس الاطباء، مثلاً . ويوجد الى جانب هذه الطبقة « طبقة وسطى اخرى » هي طبقة الشغيلة والمستخدمين وأصحاب الحوانيت والصناع. فبالرغم من كثرة المصادر الأدبية التي تصف لنا اخلاق العصر أكثر مما تستطيعه الرُقم والنقائش ، فهي تلتزم الصمت التام عنـدمـا تتعرض لذكر الطبقة البورجوازية المتواضعة . وهــذه المصادر بالذات ، سواءاً أكثرت من النصح والموعظة ام راحت تقدح في الاخلاق، فهي لا تفرق بين هذه الطبقة وثقالة الشعب. فان لم تَخلُ مدينة كبيرة او عاصمة مملكة من الممالك،من رُعاع تفح منهم رائحةالعطن والنتن، فمثل هذه الحثالة كبيرة في روما الامبراطورية الى حد مدهش . فهي تجد في جو الاغنياء والاثرياء مرتعاً خصباً لتنمو وتتكاثر ، شأنها في ذلك شأن المدن الضخمة التي لا حركة تجارية كبرى فيها ، ولا انتاجاً ضخماً لها فتحاول الدولة ان تحملها، مع المواطنين العاطلين عن الاشغال، في مأمن من عضة الجوع أو لسعة الفاقة ، حؤولاً منها دون انحدارها الى ادنى دركات البؤس والتعاسة .

اليد العاملة في املاك الدولة

والبطالة عند هذا الفريق من الناس يجب ان يقابلها العمل عند الفريق الآخر . فالامبراطور اعجز من ان يواجه هذه الاعباء المالية الضخمة ، لولا ما هو عليه من غنى وثروة طائلة يستمدهما من استثمار أملاكه الواسعة واطيانه التي لا حد لهــا ولا حصر . فهو اكبر ملاك في الامبراطورية ، واملاكه الواسعة هذه لا قيمة لها ولا شأن الا بنسبة ما يستطيع استغلالها واستثمار ما فيها من خيرات دفينة ، وذلك بفضل اليد العاملة التي يتصرف بها .

نحن نجهل تماماً، كم هو عدد العبيد الارقاء في حوزته. فهم ولا شك يتجاوزون بضع عشرات من الألوف بينهم قلة من الخدم والحشم . وترينا النقائش الأثرية التي عُثر عيهــا ، هؤلاء العمال موزعين الى فئات وطوابير، مكتّبين في كتائب شبه عسكرية، تحت أمرة عدد من ضباط صف أو باشراف بعض المتقين ، وقد توزعوا على أملاك الامبراطور في جميع أطراف الامبراطورية ، ليقوموا بجميع الاعمال التي يقتضيها استثمار هذه الأراضي ، بعضهم كتبة في الادارة ، وبعضهم يعمل في المناجم او المقالع . فالحياة التي يعيشونها ، والآمال التي قد تبتسم لبعضهم في المستقبل تختلف كلياً بين الواحد والآخر . اسعدهم حظاً وأقدرهم كفاءة لا يلبثون ان يُعتقوا من العبودية التي يرسفون فيها ، فينالون بذلك أولى خطوات الحرية . اما الباقون الذين يكدحون في المناجم والمقالع ، فوضعهم قاس ، مرير ، إلا ان وضع « ارقاء قيصر » ، كان أخف وطأة مع ذلك ، مما كان عليه وضع الذين كان حُكم عليهم بالاشغال الشاقة ، أولئك الأرقاء الذين كانوا يعملون في هذه الاشغال التي يتعهدها ملتزمون . هنالك بعض تدابير خاصة كانت تتخذ مسكّناً لهم بعض الشيء ، كاعفائهم من ثمن احذيتهم ورسوم الحمامات ، ورسوم غسل الثياب والحلاقة، كما يستدل من النظام العمالي الذي عمل بموجبه في مقاطعة المعادن ، في بلدة فيباسكا ، في البرتغال ، مما عثر عليه مؤخراً . وفي هذا دليل على رسيس من عاطفة الشفقة والرحمة التي تجلت بصورة اجلى في اواسط القرن الثاني . وكان كَم الادارة الاكبر في ان تتمكن من تجديد هــذه اليد العاملة ،

وقد استفحل امرهـا بحيث أصبحت مشكلة كبرى في عهد الأسرة الأنطونية عندمـا خفت الحروب، وقلّ بالتالي ، عدد الأسرى الذين كانت تؤمنهم هذه الحروب .

ومع ذلك ، فهذا العدد العديد من الارقاء ، لم يكن ليكفي قط لاستثمار أملاك الامبراطور على الوجه الاكمل ، اذ ان جانبـاً كبيراً من اليد العاملة الممثلة بهؤلاء الاسرى ، لم يكن ليصلح للعمل في الحقول والزراعة . ولذا نرى الامبراطور يستعين بعمال أحرار . ومـع ذلك فهو يجد صعوبة في توفير حاجته منهم . والطريقة التي كان يعتمدها عادة ، هي تلزيم استثمار أراضيـه الى متعهدين وملتزمين *Condoctores*- وفقاً لعقود خاصة يعقدها معهم ، على ان يترك أمر مراقبتهم لوكلاء يعينهم الامبراطور . فالكتابات الاثرية التي وجدت في مقاطعة المناجم في فيباسكا ، تبين المصاعب والمشاق التي كان يجدها هؤلاء المتعهدون قياماً بتعهداتهم الاستثمارية ، وذلك لقلة اليـد العاملة . وقد أصدر الامبراطور هدريانوس قانوناً خاصاً بالمناجم ، أجاز بموجبه لاي كان، ان يستثمر لحسابه الخاص ، أي منجم أو مقلع أهمل المتعهد الرسمي استثماره مدة ٦ أشهر متعاقبة. كما ان القانون المذكور ، حدد الواجبات المترتبة على كل من المتعهد القـديم والمستثمر الجديد . ويدل عدد من الرُقم والنقائش التي عثر عليها في تونس ، ان تدابير من هذا النوع اتخذت بشأن أملاك الامبراطور المتروكة بوراً من قبل المتعهدين ، أوسع حرية من السابقة ، وهذه الاراضي هي عادة أراضي ممسكة ، لا تصلح لزراعة الحبوب ، ولا لها كبير مردود . والقانون المذكور ينصح بالاستعاضة عن الحبوب ، بزراعة الاشجار المثمرة كالزيتون مثلاً ، والكرمة والتين ، كما انه ينص على تأجيل جباية الرسوم عنها لمدة سنوات. وعلى الاعتراف بملكية الارض لمن يقوم، من تلقاء نفسه ، باستثمارها فيجعلها بجده وتعبه ، تثمر وتغل . وعندمـا لا يتوفر للامبراطور متعهدون نشيطون او يحتاج لليد العاملة ، نراه يستعين بأناس يكونون بمأمن من السخرة او من تعسف الملتزمين ، وهو يستجيب في ذلك ، ليس لعاطفة انسانية ، بل لضرورات اقتصادية ، حتى اذا ما أعجزته الحيلة ، التجأ الى وسيلة اخرى هي السخرة .

٢ ـ وحدة الامبراطورية والمجتمع الروماني

فاذا ما أثـّر واقع الامبراطورية على تطوير المجتمع الروماني ، وأحياناً بشكل قوي عنيف، فهناك عامل آخر لم يقل شأناً وأثراً ، في توجيه هذا التطور وطبعه بميسم خاص ، يتمثل بهذه الاتصالات والعلاقات التي ربطت بين مختلف أقطار الامبراطورية وأمصارها ، فكان في آن واحد ، عِلة ومعلولاً ، في تكوين دولة ، ان لم نقل أمة ، من هذا الفيف من الولايات التي كانت، من قبل ، متجاورة متلاصقة ، غـير متعارفة . وهكذا يبدو لنا ، مرة أخرى ، أثر هؤلاء الاباطرة البارز في بنـاء هذه الدولة الرومانية وترسيخ أسسها . وليس بغريب، قط ، ان نرى هذا التطور يأخذ مجراه، على عكس اراداتهم، بعد ان عجزت عن الصمود في وجه التيار المعاكس.

روما مرآة الامبراطورية وبوتقتها. حركة العتق

وهذا التقارب يجري بين مجتمعات متباينة أصلاً وفصلاً ولساناً، توافرت له عوامل كثيرة للالتقاء والاندماج والانصهار. وهذا الانصهار والاندماج يتم في روما: عاصمة الامبراطورية ونقطة الثقل فيها ومقر عظماء الرجال وأصحاب المال والأعمال، وقبلة انظار الطامحين والطامعين الذين راودتهم الحُلُم الذكية والأمجاد الأدبية والفنية، وملتقى المغامرين والمتآمرين، من رجال ونساء في سعيهم وراء الشهرة وتصيد الحظوظ. وقد تلاقت في هذه المدينة العظيمة جميع العناصر والأقوام والشعوب، ممثلة على أدنى حد، في هذه الأعداد المتزايدة من الأرقاء والعبيد الذين يردفون الأسر الثرية بحشود من الخدم والحشم تتجاوز الألوف، هم غنى وثروة الطبقات الارستوقراطية من التوابع واللواحق، من كل عرق وصنف ولون. والمشارقة بينهم، كثر، حاذقون، مَهَرة، دوماً على استعداد لكل خدمة، هم، في الغالب، على مستوى طيب من الثقافة والمعلومات العامة، وعلى أتم استعداد للقيام بالمهمات المشبوهة، وبكل أعمال الشطارة والمخرقة حتى أحطّها وأدناها، يمارسون النجامة والعيافة والقيافة والعرافة، والسحر والكهانة، ويشاركون في كل الطقوس والحرتقات الملتوية، ويتّجرون بكل شيء، حتى بأنفسهم وبغيرهم من الناس، وبالفنون والألعاب حتى بأخس الأصناف. فلا عجب بعد هذا، ان ينشد الشاعر الروماني قائلاً: «منذ عهد بعيد راح نهر العاصي يدفق مياهه في نهر التيبر»، ومثل هذا الانصباب لم يبتدىء بالطبع مع الامبراطورية. إلا ان هذا الدفق تضخم مع الزمن وتجاوز الزبى، بعد ان عم الرخاء وتشعبت الادارة العامة وفروعها.

فلا عجب ان يوجس الاباطرة خشية من هذا التيار الجارف، فيعهدون، من حين الى آخر، الى الشبرطة باخراج العناصر الطارئة واقصائها بالجملة، كما حاولوا جهدهم، ان يحدّوا من حركة العتق التي انتشرت عادتها وأصبحت زياً يتنهجه كبار القوم، ومادة دعائية يتنافسون بها ويتبارون. ولذا قام اوغسطس يحاول، بما عرف عنه من روح اجتماعية محافظة، الحد من حركة العتق هذه، فأصدر عدداً من القوانين الرادعة، لمنع العتق عن الرقيق قبل ان يبلغ الثامنة عشرة من عمره، كما حظر عتق الخمس من العبيد، دفعة واحدة، وباصدار براءة عتق رسمية كما كانت تقضي العادة المتبعة. كذلك شدد في تطبيق الأحكام القانونية الصادرة من قبل التي لم تكن لتسمح إلا لحفيد المعتوق ان يتمتع بكافة الامتيازات الخاصة بالرعوية الرومانية.

وقد بقي معمولاً بهذا القانون في حياة صاحبه، انما بصورة مخففة، لأن الملك الذي يتمتع بحق الاعفاء، لا يستطيع ان يقاوم التماسات أصحابه والمقربين اليه من معتوقيه أنفسهم. ومهما يكن، فالحواجز التي أقامها، لم تستطع سوى التخفيف نوعاً من سير هذه الحركة التطورية العارمة التي لا تقاوم. وبفضل حركة العتق الواسعة هذه، استطاعت روما ان تمازج بين العناصر المتباينة التي تألف منها السواد الأعظم من سكانها، بعد ان قصدتها من جميع اقطار الامبراطورية وأطرافها النائية. وهكذا اختلطت ذراري الفاتحين بذراري المغلوبين على أمرهم واندمجت بعضُ

ببعض . وهذا الانصهار العرقي ، صحبه ، من جهة ثانية ، حتماً انصهار أدبي وخلقي .

استبدال السكان ونقلهم

وقد تم في الولايات شيء من هذا القبيل ، أشد فاعلية ، وأعمق أثراً، وان جاء على شكل أقل ظهوراً وبروزاً، لأنه لم يقتصر، على العاصمة وحدها .

قلما عمد الأباطرة الى نقل السكان بالجملة من بلادهم الاصلية واقتلاعهم منها لإسكانهم في قطر آخر . فلم يكن في أيّ من البلدان التي دوّخوها وكونوا منها امبراطوريتهم الشاسعة فائض بشري يصح استخدامه في إعمار أقطار أخرى قليلة السكان . فالاجلاء الجذري ، المنهجي ، لم يكن من الوسائل المحببة عندهم لتأديب الخارجين على السلطة او المارقين على القانون . فقد اعتمدوا بدلاً عنه ، الاستعباد والرق بالجملة . فالرعب والهلع الذي أنزلوه بفلسطين بعد سحقهم الثورة الدامية التي قام بها اليهود تحت أمرة شمعون بركوكبا، في عهد الامبراطور هدريانوس، أجبر اليهود على الهرب والجلاء عن البلاد ، الامر الذي أدى الى إقفارها . وكذلك قل عن مقاطعة داسيا . فبفضل هجرة فردية موصولة ، خلواً من كل ضغط ، كما يبدو ، تَلَيْتَنت هذه الولاية بعد فتح ترايانوس لها . وهكذا نرى ان الامبراطورية الرومانية لم تلجأ حتى آنذاك، لاساليب العنف والإرهاق التي سبق لبعض الدول الغاشمة ان عوّلت عليها من قبل ، وان اعتمدت على مثل هذه التدابير ، فيما بعد ، حتى أصبحت عندها تدبيراً مألوفاً . وهكذا نرى بعض الاباطرة ينقلون من أقطارهم ، اقواماً من البرابرة ، غرباء عن الامبراطورية ، ليسكنوهم مقاطعات ايطاليا الشمالية ، كما فعل اوغسطس ، في منطقة الرين ، ونيرون في منطقة الدانوب ، ومارك اوريل في بعض الولايات الدانوبية . فكان هذا التدبير الذي لجأوا اليه ، ذريعة من الذرائع التي مكنتهم من توفير ما يحتاجون اليه من يد عاملة لاستثمار الاراضي التي استباحوها ، كما أتاحت لهم ان يتفادوا الضغط الذي تعرضت له تخوم الامبراطورية من قبل شعوب وأمم استهواها فاجتذبها الازدهار الذي نعمت به الامبراطورية، لم يسبق ان رأت مثل هذا الازدهار أو ما يشبهه في بلادها . وكان وضع هؤلاء الدخلاء ، في بادىء الأمر ، وضعاً متدنياً لا يختلف كثيراً عن وضع الأرقاء تقريباً . إلا انهم لم يلبثوا ان اختلطوا بالشعوب القائمين بينها او المجاورة لهم وانصهروا فيها واندمجوا معها .

وقد تفاعلت عناصر اخرى بهذا الاندماج . فقد سبق واشرنا من هذا القبيل ، الى الدور الذي لعبه السوريون في الحركة التجارية ، بعد ان انتشروا في كل قطر وصقع ، وحلوا تحت كل سماء . والشيء الذي لا يمكن ان نمر به هنا في غير مبالاة ، هو هذا الاضطهاد الديني الذي اكتوى بناره مسيحيو مدينة ليون ، في عهد الامبراطور مارك أوريل . فقد بلغنا خبره من رسالة باللغة اليونانية أرسلها مسيحيو مدينة فيينا وليون الى أخوتهم في الايمان، في آسيا وفريجيا. وهنالك عامل غير عامل التجارة يجب الا نسقطه من حسابنا ، ساعد كثيراً في تعجيل خطى هذا التطور ، وهو يتمثل في هذه التناقلات التي استوجبتها مقتضيات الخدمة العسكرية وموجبات الادارة العامة . فمعظم طوابير الجيش وفرقه كان يجري تشكيلها ضمن المقاطعات

القريبة من معسكراته . غير ان دواعي الدفاع عن حدود الامبراطورية ، والذب عن حياضها كثيراً ما تسبب في نقل فرقة بكاملها ، من الشرق الى الغرب ، فيفضّل من بلغ من أفرادها ، سن التقاعد، عند انتهاء خدمتهم العسكرية، ان يقيموا ويستقروا حيث هم، منصرفين الى استثمار قطعة الارض التي كانت تُقطع لهم عند خروجهم من الجيش ، بعيدين عن وطنهم الاصلي . ومهما يكن فحياة الضابط في الجيش كثيراً ما تكون عرضة لتنقلات عديدة ، شأنها في ذلك شأن موظفي الادارة ، ولو كانوا من الدرجة الوسطى . فالازدواج اللغوي ، في الامبراطورية ما كان قط حائلاً دون ابناء الغرب الذين كانوا يحسنون اللاتينية ، في ما تلقوا من تربية . وهذه الازدواجية اللغوية ، لم تعد لتؤلف ، منذ القرن الثاني ، حائلاً دون الاغريق في شرقي الابيض المتوسط ، بعد ان صارت الامبراطورية ، منذ عهد هدريانوس ، تعتمد على خدماتهم ، فراحوا يستسهلون الصعاب في سبيل تعلم اللاتينية ، بعد ان انفتحت امامهم ابواب الوظائف ، سواء في الجيش أو في الادارة . وقد استتبع ذلك حركة مصاهرة وتزاوج ، بين بعض طبقات المجتمع، بين قطر وآخر وبين هذه الطبقات بالذات التي كانت ذخر الامبراطورية وعمادها ، تمدها بالملاكات والأطُر الادارية ، فأدت هذه الحركة الى التخفيف من حدة الفوارق الدينية والتصديقات العقائدية ، وتصادم الافكار والآراء ، والتوحيد فيما بينها . وهي حركة ستقوى وتشتد في المستقبل الطالع .

الاعتراف المتزايد بحقوق الرعوية الرومانية للمدن

فما من شيء أثّر ، مع ذلك ، أكثر من انتشار نظام البلديات الذي كانت تشوبه نزعة غلابة نحو المزيد من التجانس والتقارب ، عملاً بالمُثُل التي جاش بها هذا النظام ، ونتيجة لهذه الانعامات التي كان الامبراطور يجود بها ويسخو ، مثله بحق الرعوية الرومانية التي كان يسبغه على بعض المدن .

فقد تباين الاباطرة الأول سخاءً في هذا المجال ، بين مُكثر من هذه الانعامات ومُقلّ . ولكن لا نستطيع التأكيد ، لئلا نفرط في القول ونغلو ، ان اوغسطس وطيباريوس قد « اوصدا باب المدينة » ، اذا صح القول ان غيرهما من الاباطرة ، كالامبراطور كلوديوس مثلاً ، قد « فتحوا منها الابواب وشرعوها على مصراعيها » . اما الشيء الثابت والأكيد، فالقضية قضية نسبية ونزعة عامة ، اذ لم يتخلف احد من هؤلاء الملوك ، عن الإنعام بمثل هذا الحق ، ولمرات عديدة ، لعدد كبير من الموطنين الجدد . وحق الرعوية الرومانية يكتسبها بصورة تلقائية، هذه او تلك من الطبقات الأجتماعيـة الوجيه ، ضمن نطاق البلدية ، وفقاً لوضع مدينتهم الشرعي . ويستتبع هذا الحق امتيازات فردية وانعامات خاصة تُعطى لمن يتطوعون للخدمة في الجيش أو عند انتهاء خدمتهم العسكرية في فرق الجيش الاضافية . فاذا ما خفت الحركة أو تباطأت في عهد ترايانوس ، فقد استشرت واتسعت في عهد الأسرة الانطونية ، اذ انعم اباطرة هذه الاسرة ، على معظم المدن الكبرى وقواعد الولايات ، بحق الرعوية للرومانيـة ، بحيث ان كل المواطنين في المدينة يكتسبونها اذا لم يكن يتمتع بها بعضهم من قبل ، بصورة شخصية . وهكذا فالظهير

الامبراطوري الذي كان كركلا سيصدره عام ٢١٢ فيعترف فيه بهذا الحق لجميع الرجال الاحرار الذين ولدوا ضمن الامبراطورية ، كانت قد تهيأت له اسباب الإعداد وزكاه شمول الحركة .

من العبث أن يحاول المرء التقليل من شأن هذه الحركة الشاملة التي كانت ترمي لإقامة وضع شرعي قانوني، يساوي بين الشعوب المغلوبة على أمرها في الامبراطورية والشعب المظفر الغالب. وهذه الحركة تجري بالطبع تحت سيطرة ومشارفة امبراطور ، مطلق السلطة والارادة، امتدت سلطته الى أقصى أطراف الامبراطورية ، لا تجرّ على سكان الولايات ،غنماً مادياً ملحوظاً ، بل على عكس ذلك ، تعود عليهم ببعض الغُرم ، إذ يصبحون بفضل ما كسبوا من حق جديد ، عرضة للضرائب التي لا تقع إلا على المواطنين ، إلا اذا كانت مدينتهم تتمتع – وهذا شيء نادر جداً – برعاية « القانون الايطالي » ، فيُعْفَون إذ ذاك من ضريبتي الأملاك والمستقفات . ومع ذلك ، فهذا الحق كان يولي صاحبه امتيازاً كبيراً ، إذ يؤمن له المساواة القانونية والأدبية بالمواطنين الرومانيين . ولكي يقدر المرء هذا الحق قدره وفضله ، في المراحل التي قطعتها هذه الحركة في تطورها الصاعد، عليه أن يرجع بالفكر الى ما كان عليه وضع سكان الولايات الرومانية في آخر عهود الجمهورية .

فالإنسانية لم تعرف في تاريخها القديم دولاً كثيرة سارت الى النهاية ، على هذا النهج الذي سارت عليه الامبراطورية الرومانية .

الواقع الاجتماعي في المدن : البورجوازية البلدية

وهذه الحركة التطورية ، لم يكن لها أن تحدث لو لم تقترن بحركة تطورية مماثلة لها ، طلعت في المجتمع الريفي ولفته لفاً، فتفاعلتا معاً وتكاملتا . فمثل هذه الحركة لم تكن بمستجدة، في الشرق الهليني. فقد جاءت فيه تتمة لحركة بدائية ، انطلقت عنده من زمن بعيد . أما في الغرب ، فقد اقتضى لها التأسيس والتمهيد من الأصل ، والنشاء كل شيء من البداية ، أي من نقطة الانطلاق . فالأمر ، في نظر الامبراطور ، ليس مجرد إنشاء هيئة أو منظمة محلية ، يتنازل لها عن مهام الادارة المحلية . فهي عنده بمثابة مَشْغل ، أو بوتقة تُطلِع طبقة اجتماعية يريدها ان تتعاون معه وتخفف عنه بعض الأعباء. فالطبقة الارستوقراطية في هذه الولايات التي عانت ما عانت من حروب الفتح الروماني ، وتضرست بويلاته ، لم يكن في مقدورها قط أن تقدم له المادة البشرية اللازمة للادارة . وهو ، من جهة ثانية ، لا يثق بالطبقات السفلى المشاغبة ، غير المثقفة. ولذا ترتب عليه أن يشجع هنا ، وان ينشىء هنالك ، طبقة وسطى ، عريقة ، رصينة ، مثقفة ، وبالاختصار ، طبقة بورجوازية . وهكذا ترتدي السياسة التي اتبعها في حمل المدن على الأخذ بأسباب الحضارة، طابعاً اجتماعياً له أهميته الكبرى .

ومها تنوعت طرائف تكوين هذه البورجوازية البلدية وتباينت وسائلها ، فهي لا تمثل مع ذلك ، من حيث عناصرها المتومّة ، قطاعاً مصغراً لسكان الامبراطورية . فلم يدخل فيها ، إلا في القليل النادر ، عناصر من الطبقة الريفية الأكثر عدداً ، هي طبقة العمال الزراعيين ، اذ كانت

لا تملك ، في البدء ، سوى رأس مال متواضع ، فارغمهم الحاجة العمل في الأرض عند الآخرين .
ولم يدخل ابداً في هذه الطبقة من كانوا يؤلفون اليد العاملة ، ولا سيا هؤلاء الذين كانوا يقومون بأحط الأعمال وأشقها ، كالعمل في المناجم والمقالع الحجرية والأشغال الشاقة الأخرى . فقد كان وضع العيش عند هؤلاء واولئك ، على السواء ، على جانب كبير من الشظف بحيث لو أوتوا العجائب في ما كانوا عليه من تقتير وتوفير وحرمان ، لما استطاعوا ان يوفروا الحد الادنى من الكفاف الذي يسد بلغتهم ، ولما كانوا ، من جهة أخرى ، خارج المدن ، لا سمير لهم ولا عشير سوى رفقة لهم في العمل والشقاء معاً، يفصل بينهم وبين رؤسائهم هوة اجتماعية عميقة تنعدم معها كل علاقة بين الجانبين . ولذا لبثوا عاجزين ، متخلفين عن تحصيل أي قدر ونصيب من العلم او الثقافة حتى ولو رغبوا في ذلك ، حتى من نَعمَ بينهم بحريته الشخصية . وقلما نعموا بحق الرعوية المدنية ، اذ كانوا في نظر الأحوال الشخصية مجرد « قاطنين » او مستوطنين لا غير .

وهذه الامكانات التي حُرموا منها ، توفرت مع ذلك ، لعناصر اجتماعية أخرى من الاثرياء وكبار الملاكين وأصحاب الأقطان كبيرهم وصغيرهم ، وسكان المدن . وقد جاءت السابقة من الأغنياء من بين سكان الولايات الذين لم يلبثوا ان انضموا الى الطبقة الاجتماعية العليا ، وانصهروا فيها ، كما جاءت من المواطنين الرومانيي الايطاليي المنشأ ، او من اقدم الولايات الرومانية ، او من قدماء المحاربين الذين نالوا الرعوية الرومانية ، او عن طريق اصحاب الاراضي والاطيان او صغار الموظفين الذين اصبحوا فيما بعد ملاكين بعد ان أقطعوا بعض الاراضي واشتروها . وكثيراً ما شكل هذا الفريق ، الى جانب سكان المدن ، مجتمعاً ثانياً واستقروا معه على وضع عُرفوا به قانوناً *Conventus Civium Romanorum* الذين بالرغم من قلة عددهم ، كانوا اسوة طيبة لغيرهم . وهذه الشواهد نأتي على ذكرها هنا ، ألقت مثالاً احتذاه معظم سكان المدن ، وقد ساعدهم على تحقيق ذلك ، التسهيلات الاقتصادية والثقافية ، التي توفرت لهم من جراء سكناهم في المدن وحواضر البلاد الكبرى . وهكذا رأينا عمالاً وصناعاً من اصل متواضع جداً لا يختلف وضعهم عن الوضع الذي كان يرسف فيه مواد المعتقين، يصبحون من أشدّ الناس ولاء للامبراطور ويصبحون ، بعد لأي قصير ، اعضاء في هيئة نقابتهم ، *Seviri Augustales* ثم يباشرون وظائف البلدية ويتحملون مسؤولياتها . وبقيت أسمى هذه الوظائف وأعلاها مرتبة ، مع ذلك ، موصدة تقريباً امام الجيل الاول لهؤلاء الناس، الى ان انفتحت ابوابها على مصراعيها امام ذراريهم فيما بعد ، عند اول بسمة يفترّ عنها ثغر الحظ ويرضى بالسير في ركابهم .

وهذه النجاحات جاءت تعبيراً عن يسر مالي متزايد ، كما كانت ، من جهة اخرى ، توجيهاً آخر للنشاط الاقتصادي . عمل الانسان بيده ، لا بد منه عند الانطلاقة الاولى ، وما ان يلبث الدكان الخشبي حتى يستحيل مشغلاً يعمل فيه بعض الارقاء والعبيد . فالتجارة ، هي ولا شك في ذلك ، اوسع يداً وأرحب مجالاً ، لا سيا اذا ما عرف صاحب المتجر ان ينظم عماله وان يقيم له عملاء ومراسلين في أماكن أخرى ، فلا يلبث ان يستوي في مرتبة اجتماعية أعلى . والفئة

المختارة بينهم كانت تحاول توظيف قسم من ثروتها في شراء الاملاك والاقطان ، وبذلك يتاح لاصحابها النهوض الى مرتبة الاعيان والوجهاء في الناحية او القضاء .

فالاعتبار الاجتماعي للمرء كان يختلف باختلاف طريقة استثماره لما يملك من رأس مال ، والدخل الذي يؤمنه ، كان يعود عليه بأشياء لا يقل تأثيرها بشيء عن نمط الحيـاة التي يحياها ، والمظهر الخارجي الذي يظهر عليه ، كالعلاقات التي تربطه بمن هم عيال عليه ، او بمن هو دونهم ، وكيفية استمتاعه بأوقات الفراغ التي تتوفر له ، فيتصرّف بها على هواه ، والتربية التي كان يحاول تنشئة بنيه عليها ، وغير ذلك من وجوه الحياة . فالاهتمام بأمور الفكر والادب احتل محلاً بارزاً بين المُثُل التي دغدغت هذه البورجوازية . ولم تكن تتحرج من استقبال اصحاب المهن الحرة التي عرفت ان تؤمن لأصحابها السَعة وراحة البـال . اما اهل الادب ورجال الفكر وحملة الاقلام فكانوا ، اينما حلوا ، موضع التجلّة والاكرام .

سخاء البورجوازية وجودها

من بين المناقب التي لا بد للبورجوازية من الاتصاف بهـا : الكرم والجود ، الذي يدفع اليه مبدئياً ، حب الوطن الاصغر ، والرغبة في رؤيته اجمل وأبهى ، محتفلاً دوماً بالاعياد ، يشارك بها الناس القادمون اليها من بعيد ، فيكتسب بذلك شهرة ويذهب صيته بعيداً في الولاية بين المدن والقرى والدساكر . فلا عجب ان يحتـاج صندوق البلدية للمال الوافر يستطيع معه مواجهة مثل هذه النفقات ، التي لا يمكن للرسوم الجباة ان تؤمنها ، حتى ولا تلك التبرعات التي يجود بها ، نقداً او عيناً ، وفقاً للتقاليد المرعية والشرائع المعمول بها ، من ينال من ابناء البلد ، منصباً جديداً ، مهما صغر شأنه أو دق وزنه . ولذا كانت ترد على صندوق المدينة ، رأساً او بالواسطة ، هبات شتى وتبرعات مختلفة . فلا غرو ان تشتد في مضمار التبرع ، منافسة حامية بين البورجوازيين القاطنين في المحلة ، وبين هؤلاء الذين أتاح لهم وضعهم المالي القوي ومنزلتهم الاجتماعية ، ان يعيشوا بعيداً عنها . فقد همهم بعد ان برّزوا وترقوا في درجات السلم الاجتماعي ان يبقوا دوماً على اتصال وثيق بمنشئهم الاول ، او بالبلدة التي رأت نشأتهم الاولى ودرجوا صغاراً على دروبها ، ولا تزال تربطهم بهـا وشائج من القربى والمصلحة والاملاك ، وغير ذلك من المقتنيات ، وهي بدورها تفخر ببنيها المبرزين وتجليهم ، وتحرص على الاحتفاظ بهم ، وتحفل بهم عند حضورهم اليهـا ، فتسجل أسماءهم في سجل النابهين من أعضاء البلدة جذباً لهم واستمطاراً لأعطياتهم ومبراتهم .

وهكذا راح كل واحد ممن طلعوا فلمعوا ، يتفنن كل على طريقته الخاصة ، بتمثيل دور النصير ، تشبهاً منهم بالاباطرة والملوك في حدبهم على المواطنين ، والعطف عليهم والبر بهم ، واكتساب محبتهم وولائهم عن طريق التبرع بسخاء . وهكذا نستطيع اليوم بفضل ما عُثر عليه من الرقم والنقائش التذكارية ، اعداد قائمة بهؤلاء المحسنين لا آخر لها ولا حد . فلنقتصر من ذلك على بعض شواهد وأمثلة لتكوّن فكرة صحيحة عن ماهية هذه الهبات ونوعها ومقدارها . من ذلك مثلاً المبالغ التي ضرب بها أصحابها الرقم القياسي بالسخاء ، والمآدب الحافلة التي أدّبوها ، والولائم

السخية التي أولوها ، والتوزيعات التي قاموا بتوزيعها عيناً ، واقامة الانصاب التذكارية ، وتقديم النفقات التي أوجبها تشييد بناء ذي مصلحة عامة او تزيينه وتحليته بالاثاث والرياش ، او خدمة مثلى أداها لبلده او مدينته ، او محلته او للامبراطور ، او تسليف الادارة المحلية ما تحتاج اليه من مال ، والاكتتاب بالمبالغ اللازمة لتموين البلدة ، او السعي لتوفير ما يلزمها من حنطة واستيرادها على نفقته الخاصة في اوقات الجدب ومواسم القحط ، والتركات التي يُوصُون بها لأغراض شتى ، وغير ذلك .

وغني عن القول ان بعض وجوه هذا السخاء كانت تذهب لبعض الفئات او الهيئات الخاصة ، فيتتفع بها فريق معين دون أهل المدينة كلهم . فالحصول على ترفيع او تقدير او ترقية ؛ مهما كان صغيراً او متواضعاً ، يكفي وحده مبرراً لإبراز أريحية صاحب الانعام وكرمه ، وإلا لما عُدّ أهلاً لرتبة أعلى وأرفع .

وكان الترفيع من رتبة دنيا الى رتبة أعلى يستدعي حتماً من صاحب الحظوة اظهار كرمه وجوده على وجه دخل معه الناس في شبه سباق يتبارون فيه ، ويتنافسون . فان فاتتنا المصادر الوثيقة هنا ، فشيء من علم النفس يحملنا على الظن ، بأن ممارسة بعض الوظائف كانت تؤمن ولا شك ، لأصحابها ، بعض المنافع المادية . فالبورجوازية البلدية كانت تؤمن ادارة المدينة ، إذ كان عليها أن تسهر ، الى جانب الموظفين الامبراطوريين ، على تأمين الشرطة واستتباب الأمن والنظام فيها ، وهي امور حرصت على تأمينها الحرص كله . فهي تعرف كيف توفق بين مصلحتها ومصلحة الأشخاص التابعين لها ، في كل ما يتصل بتوزيع الضرائب ، حق البلدية منها ، وجبايتها . ولكن هذا الاحتمال الثاني ، لم يكن ليتوفر في المستويات الدنيا . ومهما يكن من مبررات هذه الشكوك ، فهي لا تمنعنا من أن نؤكد هنا بأن هذا النظام كلف الطبقة الوسطى غالياً . فقد كان هنالك حوافز اخرى تحفزها على العمل كالمُثُل التي ترسمها المدينة ، وهي مثُل لا تتعدى عادة ، المنفعة الشخصية المبنية على المباهاة والتفاخر في الخارج . فالواهب او المتبرع كان ينال ، لقاء سخائه وتبرعه ، مكافأة له أو تقديراً لعمله ، قراراً يأخذه أعضاء المجلس البلدي يشيد بسخائه وكرمه ، اذ كان خبر هذه التبرعات ينقش على الرقم والأنصاب تخليداً لاسم صاحبها ، او تنصَب له ولذويه التماثيل . وكثيراً ما كان يأخذ هو نفسه ، على عاتقه ، تكاليف هذه الكتابات أو كلفة صنع التمثال ورفعه . وعلى كل ، فالشاهدة التي توضع على قبره ، بعد الوفاة ، كانت تحدّث القوم عن ألقابه وأخبار أياده ، ووجوه كرمه ، والأشياء التي ابتدرها لمصلحة البلدة .

الحياة البلدية عنصر من عناصر وحدة الامبراطورية

فأمام هذا التنويه العالي والأماديح الفخرية التي تطالعنا بها كتابات الرقم والنقائش التي لا تحصى ، يعتري الواحد من رجال هذا العصر شيء من الإشفاق والتصاغر عندما يرى هذه المباهاة والمنافسة ينبري لها المحسنون تخليداً لاسمائهم في اذهان مواطنيهم . كذلك فهي لتثير في النفوس غير هذا التأسف

ايضاً. فقد كان بالامكان، ولا شك، الافادة من هذه التبرعات في وجوه أفضل اذ كثيراً ما ذهبت جزافاً، في سبيل شهوات ونزوات لا طائل تحتها، لا سيما اذا عرفنا انه لم يكن من السهل دوماً جمعها، الا بشق المرائر، مسخرين في سبيل ذلك العديد من الناس.

ولكن، هل يجوز بعد هذا، ان نجهل او نتجاهل بان الولايات مدينة لهذه المشاعر والاحاسيس الكريمة بالكثير من هذه التبرعات والانعامات الجزيلة التي أسبلت عليها، كما انها مدينة لها بالكثير من هذه المباني والزخارف الفنية المدهشة التي تتباهى بها اليوم، والذي وحّد بينها: ذوق مترف يتجلى على أتمه، في هذه الزخارف، بالرغم من تباعدها بعضاً عن بعض. فالادارة الامبراطورية التي عولت كثيراً على هذه البلديات في تحقيق رسالتها التمدينية، واخذت بتشجيعها ومؤازرتها، وجعلت من حياة البلديات، اذ ذاك، عاملاً كبيراً وعنصراً قوياً مشتركاً في عملية دمج الأقوام التي تألف منها سكان الامبراطورية وصهرها، وتأمين الوحدة بينها، وذلك من جراء قيام مثل هذه المثُل الفنية، في كل أطراف الامبراطورية، والشكل الذي استقرت عليه في تحقيقها وبلورتها. فاينما دفعت حوافز الحياة، المواطن الروماني، وانى رمت به ظروف الوظيفة او المهنة او ترزق الطبع، فهو لا يحس نفسه غريباً عن بلاده، في كل ما يتصل بالمهام والمسؤوليات التي يضطلع بها كفرد من افراد المجتمع، مهما كانت الولاية او المقاطعة التي ألقت به اليها الأقدار. فاينما هبط او حل، طالعته، في خطوطها الكبرى، نظم سياسية واحدة، واعراف واحدة، وتقاليد واحدة، والقيم الاجتماعية ذاتها، أدبية كانت او مادية، والزخارف المعمارية الواحدة، والاعياد ذاتها، وبمختصر القول، الكثير من مقومات الحضارة الرومانية الواحدة. فلا عجب والحالة هذه، ان يرى نفسه مأخوذاً بقوة هذه الحضارة وسطوها اينما برزت وكيفما تجلت، فيقتنع في قرارة نفسه بانه أمام الحضارة الوحيدة التي تستحق هي وحدها، دون سواها، هذا الاسم، فتنبعث فيه عاطفة نبيلة من الزهو والفخر والمجد عندما يرى نفسه جزءاً منها، كما تمتلىء نفسه جميلاً لهذا النظام.

المثل المدني لهذا النظام

من الواضح ان التطور الخلاّق الذي تم من هذا القبيل، خلال القرنين الاول والثاني، كان تكملة واستطالة لهذه الحركة التطورية التي أخذ الاغريق بأسبابها ونهضوا بها منذ ان جعلتهم فتوحات الاسكندر أسياد العالم الفارسي، وهي حركة لم تتعدّ في الشرق رقعة ضيقة، حدّها قيام دولة الفارثيين على الفرات، بينما بلغ مدها الزُبى في الغرب مع الفتوحات الرومانية. فاتساع المدن القديمة، وإنشاء الحواضر الجديدة، وتزيينها بالمباني، وتحليتها بالزخرف، والتطور الذي طرأ على الطبقة البورجوازية في المدن التي كانت تتمتع بيسر مالي مكنها من ان تجود بما جادت به من تبرعات سخية دعائية، وجمعت الى رغبتها في توفير المرفّهات المنزلية الاجتماعية، الهمة في توفير ثقافة فكرية. كل ذلك جاء تعبيراً صادقاً لهذه النزعة التي حاول السلوقيون، جاهدين، وبكل ما أوتوه من قوة وسلطان، تحقيقها. وأخذ الاباطرة بدورهم في تشجيع هذه الحركة، اذ انهم، بعد ان تبنّوا المبادىء

الحضارية ذاتها ، راحوا يعملون على توسيعها والترحيب لها والدفاع عنهـا ، اذ وجدوا في هذا المسلك ، الطريقة المثلى لتوطيد السلام ، في الداخل ، ومقاومة هجمات البرابرة وغزواتهم ، في الخارج . فبعد ان عرفوا كيف يفيدون من اختبارات الماضي ومن إقبال الجنة في المدن عـلى هذه المـُثـُل ، استطاعوا ان يبزّوا ملوك اليونان من هذه الناحية بكرمهم وروحهم السمحة ، فهيأوا لحواضر الولايات ، في مصر اسباب الاخذ بهـذه النظم التي رأيناها تطلع في ولايات رومانية أخرى ، باستثناء الاستقلال الاداري ، بالطبع .

المستحدثات الرومانية : الصارعون

هنالك ولا شك ، أكثر من وجه من وجوه التباين بين هـذه المدنية التي انتشرت على هـذا الشكل ، في جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية ، بفضل العمل الاجتماعي الذي قامت به هذه المدن ، ضمن إطارها البلدي، وبين الحضارة الهلينية التي تقدمتها وسبقتها الى الظهور . فالجديد ، في الاثر الروماني ، يبرز على الأخص ، في هذه القوة او الصلابة التي امتازت بهـا النـُظـُم الادارية عند الرومان ، وفي اهتمام أولي الأمر الكبير، بالمصلحة العامة . فعندما نتملى النظر في الموقف الذي وقفتـه الطبقات البورجوازية في الشرق من الامبراطورية الرومانية وأسيادها في روما، لا نرى شيئاً يمكن مقارنته بهذا في الموقف الذي وقفته هذه البورجوازية من الدولة السلوقية والعراقيل الكثيرة التي أقامتها في وجهها . فلم تقتصر روما في عملها على إخضاعها وبسط سيطرتها عليها ، فراحت تغرس فيها شيئاً من كرامة الذات والمهابة الرومانية ، وذلك عملاً بفلسفة الرواقيين وتعاليمهم .

من بين هذه التغييرات الأدبية التي تجلت بصورة أوضح من خلال المظاهر الخارجية ، لا بد من ان نذكر هنا ، بنوع خاص ، هذا الجديد الذي طلع بـه الرومان فلم يلبث ان احتل حيزاً كبيراً في حياة المدن في جميع أنحاء الامبراطورية ، وان أثار اليوم دهشة المحدثين من رجال هذا العصر وبعث فيهم النفور والاشمئزاز ، الا وهو ألعاب المصارعة . وكان سكان المدن يحدون في معارك المصارعين ، منذ عهد بعيد ، سلواهم المفضلة، بعد النجاح العظيم الذي لقيته هذه الالعاب أينا قامت. فاذا ما شيدوا في الشرق من المسارح اقل مما شيدوا منها في الغرب، فلأنهم استعملوا لها ما كان قائماً من هذه المسارح والملاعب في المدن الشرقية . فالصفوة الثقافية والأدبية عنـد الاغريق قلما اظهرت نفرتها من هذه الالعاب ، بل على عكس ذلـك لقيت لديها الاستحسان ، بينا النخبة الاجتماعية التي رضيت طوعاً واختياراً بتحمل النفقات المالية التي أوجبتها هـذه الملاهي، راحت تزهو بها وتفخر، كما تشهد على ذلك النقائش العديدة، من يونانية ولاتينية ، على السواء . فلم تثر هذه الملاهي الدموية التي طلعت علينا بها ايطاليا ، أية عاطفة نفور او اشمئزاز في هذه البلدان التي تعاقبت عليها عصور وعصور من الحضارة المرفـّهة .

فالظروف الواحدة والمطالب الملحفة الواحدة تلاقت متشابهة في كل مكان. فالمصطلح اليوناني *Philodoxos*, *Philotimos*, *Philotimia* أصبح فيا بعد مرادفاً للمصطلح اللاتيني *Munerarius* و *Munus* ، وهو يفيد معنى : العطاء والبذل ، ثم اكتسب فيا بعـد ، لدى كهنة عبادة

الامبراطور معنى المركة والمصارعة ولا سيا المعركة بين البشر ، ثم تصارع أناس ضد البهائم والوحوش لإثارة حماسة الجماهير . وكان النظارة يحفلون بالمعارك التي يستعمل بها السلاح المثلوم وهو سلاح كان المصارعون يستعملونه . فالمعركة ، في نظرهم لا قيمة لها ان لم يتخللها عطاء او بذل شيء . كذلك لم يكونوا ليحفلوا كثيراً بالمعارك التي لا تساوي فيها ولا كفاء ، او تلك التي يلتقي فيها منافسان تنقصهما الخبرة لأنها اعجز من ان تثير اللذة او الحماسة ، كما ان خلوها من الشجاعة والإقدام يُعطّل عند المشاهدين كلعاطفة إعجاب وإكبار وإيثار . ومهنة المصارعة *Gladiature* كثيراً ما أعادت الينا وبعثت فينا صورة : « الجحيم في التاريخ القديم » ، وهي معارك فيها من اللهو البشري الوحشي ما تتضاءل دونه لذة مشاهدة مصارعة الثيران او سبق الخيل . ويكفي المؤرخ ان يسجل وقوع مثل هـذه المصارعة وما كانت تثيره في النفوس من أحاسيس وانفعالات مهتاجة ومهيجة . والحال ، فاذا كانوا يستخدمون لها أرقاء مدربين يتعهد بتقديمهم ملتزم معين او يبيعهم بيع خيول الاصطبلات ، فكثيراً ما كان يبرز لهـذه المعارك ، رجال أحرار طمعاً منهم بالربح والجوائز التي كانوا يفوزون بها ، اذ كان يتقاضى المصارع المتمتع بحريته ، ربع قيمة الايجار ، بينا يأخذ المعتوق خمسها ، ناهيك عن التنويه بهذه الأمجاد ، وذلك بحفرها على شواهد قبورهم .

ومهما يكن ، فالنفقات التي كان يتحملها المتبرعون في هذا السبيل ، كانت باهظة ، مرهقة . وبلغ من شدة تنافسهم وهَوَسهم في التبرع ما أربى على الجنون ، بحيث اضطر مجلس الشيوخ ، في عهد الامبراطور مارك اوريل ، الى إصدار قرار نظّم فيه أصول هـذه المصارعة وضبط أساليبها ضبطاً محكماً جعل من اللازم اخذ نصف المتصارعين في اليوم الواحد من الفئة الأرخص والأقل كلفة . وكان المصارع الواحد من هذه الفئة يؤجر نفسه بمبلغ ١٥٠٠ سسترس . ونرى في غرة القرن الثالث ، عيناً من اعيان الغاليين أصله من مدينة فيدوكاس (بالقرب من مدينة كان في نورمنديا) ، ترقى فيما بعد ، الى رئاسة الكهان في منطقة ليون ، يحافظ على أحكام هـذا القرار ومنطوقه ، عندما يتعهد بتقديم ٣٢ زوجاً مـن المصارعين ، كل يوم ، ولمدة أربعة ايام فقط ، بأجر بلغ ٣٢٢٠٠٠ سسترس. وهكذا نرى كيف ان مبالغ طائلة هدرت هدراً في سبيل ترهات ومجد باطل ، كان بالامكان استخدامها في وجوه أكثر نفعاً ، وأبقى للمصلحة العامة من هذه السخافات والاستباحات التي لا طائل تحتها .

الطبقات الممتازة : احتياجاتها والملع الامبراطوري

هذا الدور الذي لعبته الطبقة البورجوازية في البلديات ، لم يقتصر على المدن وحواضر البلاد الكبرى . فقد وجـد فيها الأباطرة الرومانيون المعين الاكبر الذي أمدّهم بالعناصر الطيبة التي ألـفوا منها طبقة الأشراف في الدولة . وكان من جراء هذا التغيير ، ومن طبيعة الحياة الاجتماعية التي طبعت نهج العيش في المدن ، ان جعل الامبراطورية الرومانية أكثر تجانساً وأشد صلابة .

فعندما أنشأ اوغسطس نظامه الجديد ، تألّفت الطبقة المشيخية ، في سوادها الأكبر ، من

أشراف روما وسُراتها ، بينا تألفت طبقة الشفاليه ، على عكس ذلك ، تماماً من أعضاء جرى اختيارهم واصطفاؤهم من بين الطبقة البورجوازية في المدن الايطالية ، ولعبت الوراثة دورها في كل من هاتين الطبقتين، إلا ان دوافع عديدة متباينة حملت الأباطرة على توسيع النطاق الجغرافي في تشكيل هاتين الطبقتين . من ذلك مثلاً، حاجتهم المحافظة على العدد المعين أو المحدد لكل منها . فاذا كان عدد اعضاء الشيوخ ٦٠٠ عضواً كما كان في عهد سيلا ، فرضت ظروف وصروف لا يمكن التحكم بها ، على الاباطرة ان يعينوا عدداً لا يحصى من الشفاليه الجدد ، سداً منهم لحاجة الادارة ، وإملاءً للمناصب والمراكز المختلفة التي أنشأتها الدولة تباعاً . ولعل أهم هـذه العوامل كلها : الضمور والانحلال الذي اعترى تدريجياً الأسر الممتازة القديمة .

فالمؤامرات والهول الذي كان يزرعه الاباطرة في قلوب الناس، القضاء عليها، حملهم في القرن الاول ، على التخلص ، دونما شفقة او رحمة ، ودفعة واحـــدة ، بعدد كبير من صفوف اعضاء مجلس الشيوخ. فمجرد حوم الشبهة او اخذ البعض بالظِّنة في محاولة اعتداء على صاحب الجلالة ، كان كافياً وحده ، لحملهم على الانتحار ، امتثالاً منهم القدر الغاشم ، وغيرةً منهم على شرف الرتبة بشكل يحرك مشاعر النفس ويثيرها . فليس من عجب ان يسيطر الهلع على اعضاء مجلس الشيوخ خلال ملك طيباريوس ونيرون ودومتيانوس، ويدفع بالكثيرين الى الانتحار تخلصاً مما يحوم حولهم من شبهات . وعندما خفت حدة هذا الخوف وخففت وطأة هـذا الهلع ، نوعاً ما ، في عهد نيرفا وترايانوس ، راح الناس يسلقون هذه العهود ، بألسنة حداد مستمطرين عليها وعلى أصحابها اللعنات . فاذا ما كانت الأسرة الانطونية ، في مجموعها – باستثناء الامبراطور هدريانوس الذي لم يتردد بانتهاج سياسة البطش – عرفت ان تضع حداً لهذا العهد المرعب ، فمرد هذا يعود بالأحرى ، الحلم الذي اتصف به افراد هذه الأسرة الحاكمة ، بل لهذه الروح الجديدة التي تجلت بين صفوف المنظمة المشيخية بعد ان جددت شبابها ونفضت عنها ما تراكم عليها من غبار الماضي ، وقطع أعضاؤها كل صلة لهم بالدسّ والتآمر . وهكذا قطفت الاسرة الانطونيـة ثمار سياسة الضغط والشدة التي انتهجها أسلافها من قبل .

الثراء وقلة الإنجاب

وعملية الفتك، بالجملة ، بالعديد من اعضاء الطبقة المشيخية، لم تكن بالطبع، لتقضي وحدها عليها بالفنـاء والمحق ، كما ان هذه الأحكام بالاعدام لم تكن لتلحق الأذى المادي في أبناء المحكومين، هذا اذا ما سلمنا بوجود اولاد لهم . والفجيع في الأمر، هو ان معظمهم لم يكن لهم اولاد . ومما زاد الطين بلة والامر حرجاً هو ان طبقة الشفاليه لم تصب ، على الاجمال ، بسوء في عهد الارهاب والهلع الذي سيطر على اعضاء مجلس الشيوخ ، لأن خطرهم كان دون خطر اولئك ، على الاباطرة . وكانوا ، على الغالب ، يموتون دون ان يعقبوا اولاداً. وقد لفتت ظاهرة الاضمحلال التي اعترت الطبقات الاجتماعية العليا، نظر المؤرخ الروماني بوليب ، فسماها *Oliganthropia* ، وعرّض الكتابة عن هـــذه الظاهرة في معرض حديثه عن المجتمعات اليونانية في العهد الهليني . وعندما راح يُحلل اسباب هذه الظاهرة ، ويُعلل الدوافع

التي أدت اليها، وقف في تحليله لها عند الاسباب الخلقية والادبية دون سواها ، بعد ان تدهورت الاخلاق العامة بين أبناء الطبقات الممتازة في روما ، خلال العهد الامبراطوري ، واتخذ هـذا التدهور صوراً وأشكالاً من الفساد والشر. وقد تجاوز بوضوح عن ذكر أسباب أخرى ، محافظة منه، ولا شك في ذلك، على الاخلاق العامة، مع ما استرسل اليه من اللوم ، والشجب والانتقاد، ولو تعرض هو نفسه لتهمة الموعظة والارشاد .

كان المجتمع الروماني العالي يغص بالغنى ويرفل بالثراء . فقد بلغت اكبر ثروة بلغنا خبرها ، اذ ذاك ، ٤٠٠ مليون سسترس ، ملك احداها معتوق يدعى نرسيس ، من توابع الامبراطور . اما الثانية ، فخصت احد اعضاء مجلس الشيوخ ، في عهد اوغسطس . فلاعجب اذا مـــا راح بلين الاصغر يشكو امام مشاهدته هذه الثروات الهائلة ، زمانه وقسوة حظه ، ويقابلها بامكاناته المتواضعة ، مع العلم انه خلّف، وراءه ، كما تنص عليه وصيته الأخيرة ، وفقاً لمنطوق احدى النقائش التي وصلت الينا ، ٢٠ مليون سسترس لا غير. وقد رأى بالطبع ، مجتمع على مثل هذا الغنى ، ان يستمتع بالحياة ، على ما يرغب فيه ويشتهي . فقد شهد القرن الاول للامبراطورية بذخاً لم يعرف العالم مثله من قبل ، كما انه بلغ حداً من الترف لا مزيد عليه ، والكل يحاول ان يبز غيره في لذائذه ، ويتفنن بالاستمتاع بها حتى الخروج على المألوف ، وذلك ببذخ واملاق تجلى في كل مظاهر الحياة المادية : في هذه القصور الشاهقة ، وهذا الجيش اللجب من العبيد والارقاء ، وهذا الاثاث والرياش والملابس الفخمة والحلى والجوهرات ، والولائم المترفة ، وانواع اللذائذ على اختلاف طعومها والوانها . من السهل ان نورد على هذا ألف شاهد وشاهد ، هي من الواقع بحيث تبدو صعبة التصديق تبعث الشك في النفوس لشدة غرابتها لولا اتفاقهـــا مع النصوص الأدبية والتاريخية التي خلفها لنا الأقدمون فتجعلها فوق شبهة ومظنة . وهذه الشواهد التاريخية ، على صحتها ، هي من الكثرة والتوفر اوردها كتاب وشعراء أقدمون ، بحيث لا خوف قط من ان يعوزنا الدليل . وبالرغم من الأمثلة الكثيرة التي جمعهـا المؤرخ الألماني لودفيغ فريدلاندر ، في كتابه الضخم الموسوم : « تاريخ الآداب والأخلاق في روما قديماً »[1] لا يزال هنـــالك مجال واسع لاضافات كثيرة من النقل والمأثورات . ومهما تكن الصورة التي تطبعهـا في النفس قراءة هذه الوقائع التاريخية التي أخرجت للناس حديثاً ، أفلاماً سينمائية تضؤل كثيراً أمام ما نقرؤه عنها في آثار كتبة الرومان ، أمثال بترون *Pétrone* و مرسيال وجوفنال ، فهي تبقى دون الحقيقة بكثير .

ومهما بلغ من زهو هذه الحياة التي عاشها اغنياء الرومـان ، والبذخ الذي تجلى في مآدبهم ، والتفنن الذي بلغوا فيه القدح المعلّى في ولائمهم، بحيث انهم فاقوا كل ما عُرف من امثاله في التاريخ القديم ، فالذي يهمنا هنا ، من هذا كله ، هي النتائج الديموغرافية التي ادى اليه هـذا المسلك . ففي روما ، كما في اليونان قديماً ، لم يكن الاب الذي يستطيع ان يورث أولاده ثروة بعد موته

(١) *Histoire des Moeurs de Rome*

يطرحهم في الشارع . غير ان الانصراف لحياة الحرة ، الطليقة ، المترفة ، جعل كثيرين من الشباب ، يفضلون البقاء عازبين حتى اذا ما تزوجوا في ما بعد ، لم يعقبوا ، هذا ان لم يتعرض زواجهم للطلاق ، وان أنجبوا ، فبعدد قليل وتعرض اولادهم للوفاة . وهـذا النقص الفاضح في المواليد جاء يُتم ، من جهته ، عمل الفتك والتقتيل بالجملة ، الذي امتاز به عهد بعض الاباطرة .

فشل قوانين محاربة البذخ والتشريعات الديموغرافية

حاول المسؤولون جهدهم ان يكافحوا ما أمكن ، اسباب الداء وان يجتزوا الداء من الاساس . واقتداء بالقوانين التي سبق لقيصر ان سنها من قبل ضد بَطَر البذخ والاسراف والاملاق ، راح ابنه اوغسطس يشترع بدوره قوانين بهذا الصدد للحد من موجة الانفاق بامـلاق وأسراف جنونيين . فحدد بـ ٢٠٠ سسترس لليوم نفقة الأيام العادية ، و٣٠٠ سسترس لأيام الأعياد ، و ١٠٠٠ سسترس ليوم الزفاف والتالي بعده . ثم أصدر قانوناً جديداً ، لم يكن له اثراً اكبر من غيره ، نظم فيه كيفية مراقبة المشتريات بصورة عملية . وقد رفض الامبراطور طيباريوس ، بما عرف عنه من سلامة المنطق ، الاستمرار في تطبيق هذه القوانين ، معلناً بان الاسراف على شؤون التغذية ليس سوى وجه من وجوه الاملاق والبذخ ، متسائلاً : « كيف نبتدىء الاصلاح وما الذي يجب تخفيضه ، في الدرجة الأولى ، للرجوع بالاخلاق الى البساطة الاولى؟ هل نبتدىء بتخفيض مساحة البيوت التي نشيدها في الأرياف ؟ او هل نخفض هـذه الجيوش الجرارة من العبيد والارقاء ؟ او هذه المبالغ الضخمة من الفضة والذهب ؟ أو بالاحرى هذه الاواني المنزلية البديعة الصنع ، من البرونز ، أو هذه الرسوم التي يعنّي الرسام نفسه برسمها بصبر جيل ؟ أو هذه الثياب الفخمة الفاخرة ، أو هذه المقادير من الحجارة الكريمة والجوهرات ؟ هذه القوانين التي سنها السلف ، وغيرها مما استنّه اوغسطس وعفي العمل به او ما هو ادعى للخجل ، مما الغي احتقاراً للقانون ودوساً له . كل هذه القوانين والتشريعات ، ألم تشجع على الإثم وتدعو الشر » .

ومضى الامبراطور اوغسطس في سن القوانين الرادعة وتحسينها ، للحد من اسراف الطبقات الثرية ، ولحملها على الإكثار من الولد والبنين . وقد أوصت هذه التشريعات على املاء مناصب البروقنصل من بين اعضاء الشيوخ الذين لهم أولاد ، كما انها تصببت في قضايا الطلاق . وفي مصلحة أرباب الاسر ، ولاسيما الاسر التي تضم ثلاثة أولاد واكثر ، راحت تفرض رسوماً على العازبين وتحول دون ان يتناولوا من إرث يأتيهم من ثالث او من نسيب بعيد القربى ، اكثر من مبلغ معين . وهذه القوانين التي كان من الصعب فرضها على الناس وتطبيقها ، ازعجت الى حد بعيد الطبقة الاجتماعية الراقية ، حيث كانت عادة التوصية بالارث تتبع بسخاء منذ عهد بعيد . ولكي يحولوا دون تطبيق هذا القانون راحوا يعقدون خطوباتهم مع بنات صغار ثم يلغونها بعد قليل ليعقدوا غيرها ، الامر الذي كان يستدعي إيقاف مفعول القانون . وكثيراً ما كانوا يبرمون عقود تبنٍّ مزيفة . غير ان اكثر الوسائل استعمالاً اسهلها على الاطلاق . فقد اعطى اوغسطس نفسه المثل على ذلك ، اذ انه اعترف لزوجته ليفيا التي لم يكن لهـا غير ولدين ، بذات الحقوق

المستحقة لزوجة لها « ثلاثة اولاد » . وقد احتذى كثيرون من الاباطرة ، فيا بعد حذوه ، الى حد اساءة الاستعمال والتجاوز المفرط ، الامر الذي حدا بالامبراطور ترايانوس لان يُعين حداً اعلى للمنتفعين بهذا التحيّل على القانون . ولكن كيف يستطيع اباطرةعرفوا بقلة الولد ، ان يصمدوا ولا يلينوا امام أولادهم ، هذا ان كان لهم أولاد ؟ وعلى عكس القوانين الخاصة بمكافحة البذخ ، استمر العمل جارياً بالقوانين الديموغرافية ، اذ ان في المحافظة عليها مصلحة لصندوق الدولة التي كانت تضع يدها على المواريث الواهية او المشكوك بها . ومع ذلك ، بقيت عاجزة عن معالجة الوضع .

الاستعانة بالنخبة في الولايات

وهكذا لم تلبث الدولة ان وجدت نفسها امام عجز فاضح ، ألحق الضرر بمصالح الحكومة وبالادارة على السواء . صحيح ان الطبقة الاجتماعية الوسطى في ايطاليا عوضت بعض الشيء ، إلا انها لم تكن تتجدد بالسرعة اللازمة بعد ان اخذت البلاد تشكو من تأخر الوضع الاقتصادي ومن هبوطه . فلم يكن بدّ ، والحالة هذه ، امام الدولة ، من اللجوء الى النخبة في الولايات والاستعانة بها ، وفيها معين لا ينضب ولا يجف من المادة البشرية ، بعد ان كانت هذه الولايات اخذت بأسباب الحضارة الرومانية واقبلت عليها تستمرئها . وساعد الازدهار الذي نعمت به أمور عديدة ، على بلوغ هذا الوضع الاجتماعي. وجاء هذا التدبير تتمة او بالأحرى ، نتيجة لانتشار حق الرعوية الرومانية للمدن ، لما بين هذين الاتجاهين من ترابط وثيق . فقد سبق للجمهورية ان أعطت المثل الاول ، وذلك بتعميم هذا الحق تدريجياً على كل المدن الايطالية والشروع بإيلائه للمدن القائمة في اقدم الولايات الرومانية ، في الخارج . غير ان الدولة سارت في هذا بتمهل كلي ، كما برهنت من جهة أخرى عن إمساك مفرط في كل ما يتصل بالوظائف الكبرى ، اذ ان الارستوقراطية الايطالية استطاعت وحدها ، ان تبلغ مرتبة الشيوخ بعد ان امتزجت بالارستوقراطية الرومانية وانصهرت بها . وكان لا بد من حدوث الحرب الأهلية وما جرته معها من اضطرابات وويلات ، كما كان لا بـد من ظهور دكتاتورية قيصر ، بالتالي ، لتشهد وصول سكان الولايات الى مجلس الندوة الروماني ، اذ نرى ، عام ٤٠ ق. م ، اسبانياً يعيّن قنصلاً ، كما رأينا ، سنة ٣٥ رجلاً غالياً من ولاية ناربون ، يعين هو الآخر ، في مثل هذه الوظيفة . إلا ان هذه السياسة الجديدة لم يتسع الاخذ بها إلا في ظل العهد الامبراطوري .

وهذه السياسة الجديدة ، حريّ بنا ان نقف عندها ونتملى فيها النظر ، اذ كان عليها ان تتغلب على عاطفة النفور ، وأحياناً على المعارضة المكشوفة ، ان لم يكن من قبل الطبقتين الممتازين ، فأقله من الطبقة العليا . ففي عام ٤٨ ، وقف مجلس الشيوخ موقفاً عدائياً صريحاً من التماس رفعه وجوه « غاليا » وأعيانها ، بعد ان تم تدويخها على يد قيصر ، رجوا فيه إعطاءهم حق الوصول الى الوظائف الرومانية العليا ، أي الى مجلس الشيوخ ، بعد ان نالوا حق الرعوية الرومانية ونعموا بما توليه من امتيازات لحاملي هذا الحق . فاضطر الامبراطور كلوديوس نفسه التدخل في الأمر ،

في خطاب ألقاه بهذا الصدد، عُثِر على موجز له في مدينة ليون، مكتوباً على لوحة من البرونز. وبالرغم من تحمسه للقضية ، والحرارة التي ابداها في تأييده هذا الطلب ، فلم يستجب مجلس الشيوخ لهذا الالتماس إلا تدريجياً ، وعلى مراحل ، مبتدئاً من شعب الأدُورِن (اروتون اليوم) بوصفهم اقدم حلفاء روما في غاليا قديماً ، ثم جاء تباعاً دور الولايات الاخرى . فولايات افريقيا لم يطلع منها قناصل قبل عهد الاسرة الفلافية ، والشرق الاغريقي ، بعد ذلك بكثير . ثم قوي التيار واصبح لا يقاوم . وعندما انقرضت الاسرة الانطونية كانت مصر وحدها ، بين الولايات الرومانية الكبرى ، الولاية التي لم تُطلع قنصلاً رومانياً بعد . وسيصبح لها واحد في عهد أسرة سفيروس *Sévères* .

ولم يستفد من هذه السياسة ، حتى عهد الاسرة الفلافية ، سوى الطبقة الارستوقراطية العليا التي حاكت ، بما تم لها من غنى وثراء ، الطبقة الارستوقراطية الرومانية ، اذ كان بامكانها ان تقتني لها، املاكاً طائلة في ايطاليا وان تستوطن روما مع احتفاظها بمصالح واسعة لها في منشئها الام، أي في الولايات التي انطلقت منها . الا ان ما كانت عليه من قلة العدد اجبر السلطة على توسيع طريقة انتقائها العدد اللازم لها ، وذلك على اساس النظام الاجتماعي دون الاقتصار على النطاق الجغرافي وحده . وقد باشر السياسة الجديدة الامبراطور فسبسيانوس الذي خرج ، هو نفسه ، من الطبقة البورجوازية الصغرى . فقد كان ، قبل ارتقائه العرش الامبراطوري، الاول في مجلس الشيوخ كما كان ابوه ، الشفاليه الاول من بين اسرته . وبعد ان تسلم مقاليد السلطة العليا ، إثر ازمة ٦٨/٦٩ ، لم يتردد قط ان أدخل ، الى عضوية الشيوخ ، عدداً من الشفاليه من اصل ايطالي او اختارهم من بين الولايات الاخرى . وسار خلفاؤه من بعده على شاكلته ، بحيث ان الطبقة المشيخية عدت بين صفوفها ، اعضاء خرجوا من بين الطبقة الوسطى ، ازداد عددهم مع الزمن .

اما طبقة الشفاليه ، فلم يكترث الامبراطور يوماً باي اعتراض او مقاومــة من قبل مجلس الشيوخ مما لم يضطره يوماً للدخول معهم في مساومات ، اذ انه كان السيد المطلق ، والمشرف الاوحد على تعيين اعضاء هذه الطبقة ، يختارهم ويصطفيهم كيفما شاء . وكان يكفيه ان يكون المرشح حاملاً الجنسية، مسجلاً في دائرة الاحصاء والنفوس ، معروفاً بولائه للامبراطور الذي لم يكن غير الولاء للدولة ، له الحد الادنى من الخبرة ، وعلى استعداد لاكتسابها. وعندما أطلت هذه البورجوازية في الغرب راح الامبراطور يستفيد منها . ولكي يستفيد منها في الشرق حيث كانت طلعت وبرزت منذ عهد بعيد ، ترتب عليه ان يتغلب على بعض الصعوبات منها حَنَق الشرق على الغرب اللاتيني ، كما ان الاخذ باسباب الحضارة الرومانية كان شرطاً لا بد منه في المرشح العتيد . ولكن هذه المحاذير لم تلبث ان فقدت شيئاً فشيئاً من حدتها ، ابتداء من عهد هدريانوس . فبعد ان كانت الولايات الغربية تقدم لهذه الطبقة ، عدداً اكبر من العدد الذي كانت تقدمه الولايات اليونانية في الشرق ، فقد خف هذا التفاوت كثيراً واصبحت منظمة

الشفاليه ، من حيث تشكيلها ، تعبيراً صحيحاً لوحدة الامبراطورية .

التغييرات التي لحقت بالمنظمة المشيخية

لما راح الامبراطور يُرَقي الى عضوية مجلس الشيوخ من يرغب بتكريمه وترفيعه من اعضاء منظمة الشفاليه الذين لا يرغب في الاحتفاظ بهم لتسلم الوظائف والنيابات الكبرى ، كانت المنظمة المشيخية قد لحق بها ، منذ القرن الثاني ، تغييرات جذرية من نتائجها المباشرة ، هذا الشعور العام الذي بدا على الجميع ، بالتوازن والاعتدال والجدية وغير ذلك من المناقب التي ميزت « عصر الاسرة الانطونية » .

فالأسَر التي برزت في العهد الجمهوري قد انقرضت وغربت أسماؤها عن جو مجلس الشيوخ . فاذا ما عمّرت واستمرت – وهذا أمر نادر الغاية – فبتدبير مصطنع أي عن طريق التبني. ولذا ألّف الأعضاء الذين جرى انتقاؤهم من الولايات ، أكثرية ساحقة في المجلس المذكور . فقد طلعوا، على العموم ، من أسر برهنت ، على مر الزمن ، عن كفاءتهـا وتوصلت تدريجياً ، الى مصفّ الأشراف والنبلاء ، غلاباً وجهاداً ، بعد ان أدخِل على الادارة دم جديد من الموظفين المؤهلين، تم لهم، مع الزمن ، خبرة واسعة في الأمور الادارية والعسكرية . وهكذا قُيّض لهذه الطبقة ان تقدم للامبراطور مساعدين أكفاء يعتمد عليهم في تصريف الأمور وتدبير شؤون الامبراطورية. ولما كان الامبراطور يتحرج من مجلس كثير الاعضاء ، نزّاع للمناقشات والمجادلات التي لا طائل تحتها ، فقد آثر ان يكون تعاونه مع قلة منتقاة من بين أعضائه ، يختار من بينهم الموظفين الذين يرى نفسه بحاجة الى خدماتهم . وعلى هذا ، نما في هذا الفريق ، الحس بالمصلحة العامة ، والوعي الوطني أكثر من ذي قبـل ، وأدركوا ان الامبراطورية هي غير روما ، وانها تشرّع وتعمل للملايين من البشر موزعين بين ولاياتها .

وقد تبدلت اخلاقهم وعاداتهم . فكان اعضاء المجلس على جانب من الثراء ، انما اقل ثراءً من اسلافهم في المجلس . وقد جمع معظمهم ما تم لهم من ثروة ، من مصادر لا تمت بأي سبب للمضاربات وأعمال الابتزاز والاعتصار او النهب ، بعد طول عناء وجهد موصول ، استمرت عليه اجيالاً متطاولة . ولذا كانوا يستعملون هذه الثروة بفطنة وحكمة وتحفّظ . فبلين الاصغر الذي كان يملك في عهد ترايانوس، الى جانب صرحين له في مقاطعة كوم الواقعة الى شمالي ايطاليا، حيث مهبط رأسه ، يسمى الاول تراجيديا ، والثاني كوميديا ، امتلك ايضاً صرحين آخرين ، في ايطاليا الوسطى ، هما : صرح لورانتس بالقرب من مدينـة اوستي ، وصرح توتشي ، عند منحدر جبال الابنين ، كان يُمثل طبقة في سبيلها الى الانقراض والزوال . ونهج الحياة الذي سار عليه اعضاء مجلس الشيوخ ، اذ ذاك في روما ، كان اقل زهواً وفخفخة مما مضى ، لأن معظم اعضاء المجلس كانوا يقتنون لهم اقطاناً واسعة في المدن التي تعتبر عتداً لاسرتهم . فكان عليهم ، والحالة هذه ، ان يحتفظوا بحد أدنى من المبلغ المخصص لماصحتهم ، يستثمرونه في شراء عقارات تقع في ايطاليا . وهذا الحد الادنى تدنى وتناقص هو الآخر : فبعد ان كان الثلث ، في عهد ترايانوس ، اصبح الربع في عهد مارك اوريل . فلم يبق لهم من اثر ظاهر على محيطهم إلا عندما

يقطنون ، ولأمد قصير ، في احدى فيلاتهم المحببة القائمة وسط املاكهم الواسعة في الولاية .
وهذه البقية الباقية من النفوذ في محيطهم الريفي ، يجب رده الى عوامل ادبية : فقد كان وليد إعجاب سكان المنطقة بالنجاح الذي حققه العضو الجديد من اعضاء المجلس ، وبالنفوذ او الحظوة التي كانت له عند اولي الامر في العاصمة .

بقي مع ذلك شيء هنالك : بالرغم من هذا التغيير الجذري ، وهذا الضمور الذي يلاحظ على هـذه النخبة الاجتماعية ، وعلى الرغم من انقضاء عهد الدسائس والمؤامرات والاغتيالات واحكام الاعدام بالجملة ، فلم تكن أية أسرة مشيخية لتعمر أكثر من جيلين او ثلاثة اجيال ، اذ تكون جفّت فيها وماتت هذه الحيوية الجاهدة التي برهنت عنها الاسرة قبل تحقيقها ما حققته من اهداف ، وما استشرفت اليه من مآت وامجاد. وذلك على اثر انغماسها بموجة الترف والبذخ التي اجتاحت روما واغرقتها في لججها .

الارتقاء الاجتماعي

وهكذا فالسير الاجتماعي صُعُداً لم يكن ليقف او لينقطع . وهـذا المد التطوري ، بما بلغه من اتساع ومع ما كان عليـه من استمرار نظيم ، يؤلف احدى المميزات التي اتصفت بها مدنية الامبراطورية الرومانية في هـذه الحقبة المتأخرة من تطورها ، وفرّدتها عن المدنيات الأخرى التي تقدمتها .

ويحسن بنا مع ذلك ، ألا نجهل الحدود الجغرافية لهـذا التطور وعدم تساوي الفرص التي وفرتها هذه المدنية ، للولايات التي تألفت منها الامبراطورية الرومانية . فقد كان من المسلّم به اساساً ، ان باستطاعة المعْدَم من النـاس ان يتمكن من تكوين رأس مال له يكون ، على وضاعته ، نقطة انطلاق الأسرة في جهادها نحو الرقي والتطور ، يعمل اولاده من بعده ، على استثماره وإنمائه . ولم نكن لنشاهد في ايطاليا أي مصير من هذا النوع، بالنظر لما كانت عليه من تأخر والحطاط في اقتصادياتها ، ولا في مصر ايضاً (بالنسبة لما كانت ترزح تحته اليد العاملة فيها من كابوس مرهق) . كذلك كانت ضعيفة ايضاً امكانات الصعود الاجتماعي امام سكان الأرياف ، وفي الولايات ، إلا من جاشت نفوسهم بالطموح من أبناء الشعب، فيُقدِمون، وهذا أيسر السبل، على الانخراط في خدمة الجيش، فيقطعون مراحل الترقي على مهل ، فتنفتح امام صاحبنا ، عندما يرقى الى رتبة قائد مائة ، ابواب طبقة الشفاليه . فكان مدن الولايات أتيحت لهم الافادة من مثل هذا الوضع عن طريق تدرجهم من مهنة يدوية الى طبقة البورجوازية البلدية، ومنها يتدرجون الموبناء ، الى ابواب منظمة الشفاليه ، ليصلوا منها الى ابواب المنظمة المشيخية . وهـذا الصعود كان يقتضي له عدة اجيال . فقد عرف العهد الامبراطوري ان ينظم هذه الترفيعات في محاولته تجديد طبقة الاشراف ، هذه الطبقة الآخذة بالانقراض والزوال ، مهما كان من الأمر . دون ان يحدث انقلاباً جذرياً في السلم الاجتماعي ، اذ عرف ان يحافظ على هذه المراحل ، ناهيك عن ان تنظيم الحياة الاقتصادية ، اذ ذاك ، لم يكن ليساعد كثيراً على بروز أغنياء جدد . كل هـذا يقتضي له جهوداً موصولة واخذ النفس باقتصاد صارم ، وحساً مرهفاً يعرف معه صاحبه كيف

يحافظ على التوازن بين الاقتصاد النظيم والبذل الحكيم في المناسبات العارضة . كل ذلـــك ، الى شيء من تفتح العقل والذهن ، ومسحة من الثقافة المتوسطة ، والتمرس بوظيفة ادارية . كذلك اقتضى الأمر الاعتصام بشيء من التقاليد والاعراف المتبعة في القطاعين الاجتماعي والسياسي ، إذ ان بطء الارتقاء كان يساعد على التكيف واكتساب الخبرات . وكان على المعني بالامر ان لا يظهر ، في أية مرتبة بلغها ، انه من حديثي النعمة ، كما كان عليه ان يحترز من إثارة الشكوك حول ولائه للدولة .

وهذه الطريقة التي قامت على الاختبار والتي اكتملت بفضل التجارب التي مرت بهـــا عبر الأجيال ، وفقاً لمقتضيات الظروف خلال القرن الأول ، سارت سيرهـا النظم خلال القرن الثاني . فقد أمدت العهد الامبراطوري بهيكل اداري شغله أكفاء الموظفين ، كان خير ما عرفه التاريخ القديم من امثال هذه الملاكات ، وكان له فضل عمم في تأمين هذا التجانس الذي ، وان لم يبلغ تمامه ، فقد فاق ، مع ذلك ، ما عرفت من أمثاله ، اكبر دولة قامت في التاريخ الى ذلـك العهد. ومن بين الاشكال التي تبلورت عنها ، فكانت قواماً لها ، كما كانت تعبيراً صادقاً عنها ، بعد ان ربطت بينها مثل المدنية الواحدة التي كانت امتداداً لها ، هذه الوحدة العميقـــة الجذور ، المثلة في هذه الطبقة النبيلة التي تتألف من كبار موظفي الدولة ، الذين جيء بهم من ولايات متباعدة ألفوا معاً طبقة واحدة تمرست بهذه المناقلات التي خضعت لها وفقاً لمقتضيات الوظيفة. فالفروق بين اصل الاباطرة الرومانيين الطبقي ، سواء اطلعوا من هذه الارستوقراطية الرومانية القديمة ، كالاسرة اليوليو ـ كلودية ، او من طبقة البورجوازية الايطاليـة المتواضعة ، كالاسرة الفلافية ، او جاءت من بين هذه النخبة التي أطلعتها الولايات الرومانية القديمة كاسبانيا او مقاطعة ناربون الغالية ، كالاسرة الانطونية ، لا تبرز على نصاعتها إلا متى وضعناها جنباً الى جنب مع هذه الحقيقة . فبنظر هذه الطبقات الموجهة ، كانت الامبراطورية الرومانية تؤلف امة .

غير ان حسن سير النظام الامبراطوري كان يستدعي استمرار الازدهار الاقتصادي ، مصدر كل ثروة واساس كل ارتقاء اجتماعي وكل حركة تقدمية . كذلك كان يستدعي طاعة الطبقات الاجتماعية الدنيا ، واقبالها على هذه النظم تستمرئها وتتمثلها .

٣ ـ الطبقات الاجتماعية الدنيا

والحال ، كان هذا الازدهار سريع العطب ، والطبقات الدنيا تتألم وتتضور . فغنى الطبقات الثرية يقوم على عمل ذوي الحرمان الذين لا حصر لهم ولا حد .

اليد العاملة عرف الشرق ان يحافظ على هذه المشاغل والورش المهنية التي كانت تقوم في ظلال الهياكل والمعابد ، وعلى من فيها من أيدٍ عاملة كادحة ، شبه مستعبدة . وعلى هذا سارت المدن فاحتفظت بدورها ، بالمشاغل الصناعية واصحاب الحرف . ومعلوماتنا حول وضع هؤلاء العمال ، قليلة ، مضرّدة ، لا تفي بالغرض . إلا أنه ، على الاجمال ، وضع لا يوحي بالرضى

ولا بالارتياح ، اذا ما اخذنا ببعض الظواهر العارضة . قد تكون المُثُل اليونانية القديمة التي اعتمرت بها النفوس فبعثت روح الثورة الاجتماعية ، بقيت تعتمل في الاذهان وتختمر بها الارواح ، اذ ما كادت روما تبسط ، منذ عام ١٣٣ ق . م سيطرتها على اقطار آسيا الصغرى الغربيـــة ، وترسّخ نفوذها فيها ، حتى اضطرت لمواجهة ثورة هبت في وجهها بقيادة أرستونيكوس قوامها هذه الطبقات الاجتماعية الدنيا في مملكة أتـّال القديمة . ومما لا ريب فيه قط ان مواسم القحط وارتفاع اسعار الحبوب ، في اواخر القرن الاول ، فعلت فعلتها في النفوس ، بالرغم من محاولات الحكام الاداريين التخفيف من حدتها . فقامت في اواخر القرن الاول ، في هذه الاقطار الأسيوية إعتصابات اثارت شكوك الامبراطور ترايانوس وأهاجت حفيظته ضد الشعب في مدن مقاطعة بيثينيا *Bithynie* ، كما يبدو من مطالعة الرسائل المتبادلة بينه وبين صديقه بلين الاصغر ، حاكم تلك المقاطعة وممثل الامبراطور فيها .

وكان الأمر يتعلق ، في الدرجة الأولى ، بهذه النقابات المهنية المعروفة عندهم بـ « كوليّج *Collège* » ، وهي في الأساس هيئات دينية الهدف ، جنائزية . تألفت ، على الغالب ، من رفاق متواضعي الحال ، يتعاهدون فيما بينهم بدفع رسوم معينة ، للاحتفـال براسم بعض العبادات وتأمين جنائز محترمة لذويهم ، يدخل عضويتها ، بصورة طبيعية ، أصحاب المهنة أو الحرفـة الواحدة ، بدافع من شعور التضامن والتكافل ، الذي يشدهم بعضاً الى بعض . وقد قام مثل هذه الهيئات أو النقابات في الشرق قديماً ، قبيل الفتح الروماني ، ونشأت مثيلات لها في روما ، خلال العهد الجمهوري ، وفي غيرها من حواضر البلاد الايطالية . ولما كانت هذه الحركة النقابية أخذت تلعب دوراً شبيهاً بدور النوادي ، وأخذ اعضاؤهـا يشاركون بالمظاهرات السياسية ، راحت الامبراطورية ، في مطلع عهدها توجس شراً منها ، وتنظر اليها بالتالي شذراً ، ولذا اشترطت عليها ان تأخذ علماً وخبراً بتأسيسها ، ووضعت لنشاطها حدوداً وسدوداً ، عرفت الشرطة البلدية ان تلزمها بها فلا تتعداها . ولما تغير موقف السلطة من هذه الهيئات بعد ان أولتها رضاها في القرن الثاني ، أطلقت لها حرية العمل والاجتماع ، واعترفت بها رسمياً من الوجهتين القانونية والمالية . ومرد هذا التحول في موقف الحكومة من هذه الحركة النقابية ، انتشار الروح الانسانية والمبادىء التي تلوح بها ، كما أن اعتبارات اقتصادية لعبت ، هي الأخرى ، دوراً فعالاً في هـذا التطور . إذ راح أولو الأمر ، يتوقعون من هذه النقابة بعض الخدمات والقيـــام بدور حساس في تطوير الطبقات الدنيا من الوجهة الاجتماعية .

أما في الغرب ، فقد اخذ عقد هذه النقابات ينتظم مع مطلع العهد الامبراطوري ، فساعدت بما لهـــا من نصراء يرعونها ، ومن مجالس ادارية تنتظم سلكها ، ومن أعياد تقيمها في بعض المواسم الخاصة ، في طلوع البورجوازية البلدية ، وتلقيح هذه الطبقة والمناطق الريفية بدم جديد . فاليد العاملة في المدن ، لم تكن أخذت تشكل بعد ، مشكلة اجتماعية في هذه المناطق ، وذلك نظراً لما كانت عليه التجارة والحرف المهنية والصناعية من ازدهار ، اذ كان كل شيء يتوقف عـلى

استمرار مثل هذا الازدهار، واستبدال الشغيلة أو اليد العاملة التي لم تلبث ان برز شأنها في المجتمع.

اليد العاملة في الريف

أما وضع اليد العاملة في الريف فجاء على شكل آخر. فالملكية العقارية الواسعة كانت دوماً آخذة بالنمو والازدياد. وهنا تبرز لنا الكلمة المأثورة التي جاءت على لسان بلين الأصغر، إذ قال: «كبار الملاكين، هم الذين جلبوا الدمار لإيطاليا»، وهي عبارة يحسن تكلمتها بالفقرة التالية: «وكذلك قل عن الولايات ايضاً، اذ ان ستة لا غير من كبار الملاكين، كانوا يملكون نصف افريقيا (أي تونس اليوم)، عندما حكم عليهم الامبراطور نيرون بالموت. أي ان نيرون صادر أملاكهم وضبطها»، غير ان طريقة استثمار هذه الأملاك الواسعة لم تتبدل، سواء أخضعت للامبراطور أو كانت ملكاً للخاصة. والطريقة التي انتهجها نيرون في توزيع هذه الأراضي على الفلاحين، قطعاً صغيرة بعد ان تم مسحها على أيدي مهندسين مساحين، جيء بهم من المدن، لم تخفف من تضخم هذه الملكية. فأينما استمر الاخذ بهذه الطريقة، كان استثمار الاراضي الصغيرة على ايدي اصحابها آخذاً بالتدهور، قبيل طلوع النظام الامبراطوري، على البلاد.

واستثمار الاراضي بكاملها على يد فريق دائم من الارقاء يضاف اليهم عدد آخر من الاجراء عند تمام المواسم ونضجها، يعملون جميعاً، جنباً الى جنب، تحت اشراف صاحب الارض المباشر او وكيله، قل جداً بحيث اصبح نادراً. ولم يكونوا يلجأون لمثل هذه الطريقة التي لم تكن نتائجها مرضية إلا في هذا القسم من الارض الواقع على محاذاة قصر رب الارض او على مقربة منه، اذ يصبح الاشراف على عملية الاستثمار اذ ذاك، أسهل وأيسر، فيضحي ببعض المنافع الاقتصادية. وكانوا يفضلون العبيد باعداد كبيرة كيد عاملة في المعامل والورش الصناعية القائمة على مقربة من صروح الملاكين. اما الباقي من هذه الأملاك، فقد كان، على الغالب، يستثمر مباشرة، من قبل صاحب الارض، او بالواسطة، عن طريق شركاء مرابعين، احياناً، لقاء قسم من غلة الارض، يعود «للمعمرين» الاحرار بالاسم، وان كانوا، بالفعل، خاضعين لارادة صاحب الارض وهواه.

وهؤلاء العمال، احراراً كانوا ام عبيداً، اتسمت حياتهم بالبؤس والشقاء. ولدينا في هذا الصدد معلومات دقيقة تتعلق على الاخص ببعض الاقطار. فقد قاست مصر، مثلاً من افراد العبيد (*Anachorésis*) الذين كانوا يعملون في الاراضي الزراعية، ليختبئوا بين غياض المستنقعات وأجمات الغدران الملتفة، في الوجه البحري (الدلتا) وهو امر شكت منه مصر، في عهد البطالسة، واستفحل شأنه في القرن الثاني. وتطالعنا نقيشة عثر عليها في افريقيا تحمل نص عريضة دفعها المعمرون الى الامبراطور كومود يتململون فيها مما يرهقونهم به من اعباء فيحملونهم اكثر مما يستطيعون ويسلطون عليهم الجيش لاجبارهم على دفع ما يترتب عليهم دفعه، ويزجون بهم في غياهب السجون مكبلين بالسلاسل الحديدية، ويقاصونهم بالجلد. ونطالع في رسائل بلين الأصغر وصف الصعوبات والمشقات التي يلاقيها الملاكون، اذ يرفض الفلاحون دفع المتأخرات

المستحقة عليهم . وإنشاء نظام الاعاشة في الارياف الايطالية وتوسيعه على مختلف الولايات فيها ، انما يدل بوضوح على ان صغار الملاكين الذين يعملون في اراضيهم واملاكهم يلاقون صعوبات جمة في تدبير امور معيشتهم. وقد جمع نظام الاعاشة هذا بين الاسعاف العام وبين التسليف الزراعي. فمنذ عهد ترايانوس ، راح الامبراطور او بعض الخاصة من كبار الاثرياء ، يؤسسون شيئاً اشبه ما يكون بالبنك الزراعي او مصرف تسليف، برأس مال معين عند المباشرة بالعمل ، يستطيع معه المزارعون الاستلاف بفائدة ٥ ٪ بدلاً من ١٠ – ٢٠ ٪ كما هو المعتاد ، مبلغاً من المال ، لقاء رهن ارضهم ،على ان تخصص هذه الفوائد في توزيعات شهرية، الغرض منها مد يد المساعدة لأولاد الاسر الفقيرة . غني عن التنويه ان مثل هذا التدبير اقتصر على ايطاليا في الدرجة الاولى ، بعد المنافسة الشديدة التي لاقتها من الانتاج الزراعي في الولايات الاخرى المعروفة بخصب تربتها ، اذ كان انتاجها الزراعي آخذاً بالتدهور والانحطاط .

من الواضح ان العمل في الزراعة لم يكن ليكفل الغنى لصاحبه ، حتى في هذه المناطق التي لم تسمع يوماً ان ارتفع فيها اصوات شاكية او وقع فيها ما يثير الحفائظ.

الشعور بالعاطفة الانسانية

ومع ذلك نشاهد ان الشعور الانساني والانعطاف على المساكين والفقراء اخذ يرقّ وينمو في المجتمع . والدليل على ذلك الاخذ بنظام الاعاشة، وحركة العتق، وتحرير الارقاء، والاتساع الذي اتخذته ، على اساس من المباهاة والدعاوة اكثر منه نتيجة تفكير سليم . ومع ذلك لم تخل هذه الحركة من تأثير طيب على حرية الفرد ، بالرغم من القيود القانونية والشرط التي قيدوا المعتوق بها بالنسبة لسيده القديم . ومن جهة اخرى نرى مجاميع التشريعات القضائية تأتي على ذكر نصوص كثيرة هي في صالح الارقاء والمعتوقين .

سار هذا التطور سيرته الاولى ، وئيداً في بادىء الامر . فقد استند أولو الامر ، في عهد نيرون ، على قانون قديم ، كما استنجدوا بالجيش ، لسوق فريق من العبيد ، بلغ عددهم ٤٠٠ رقيق ، كانوا تابعين لاحد اعضاء مجلس الشيوخ عُثِر عليه مقتولاً ، وذلك بالرغم من احتجاج سكان روما، بحجة انه كان عليهم ان يسهروا على سلامة سيدهم. وقد أخضعوا التعذيب والتنكيل، في عهد ترايانوس ، كل العبيد التابعين لاحد سُراة القوم وجد مقتولاً ، وذلك لحملهم على الإقرار والاعتراف بكل ما يعرفونه حول قضية مقتل هذا الرجل . وفي عهد خلفه على كرسي الحكم ، اقتُصِر في عملية استجواب الشهود، على من كان منهم على مقربة من مكان الجريمة. فالتعديلات التي أدخلت على التشريع القديم الذي كان يعترف لصاحب العبد بحق الموت والحياة، لم تظهر إلا في القرن الاول ، ثم اخذت بالاتساع والانتشار، منذ عهد هدريانوس ، اذ اصدر امراً حظر معه على مالكي الأرقاء واصحابهم، بيع أية أمَة ما للمتجرين بالنخاسة او القوادين، او بيع رقيق لأي من المتعهدين حفلات المصارعة والمصارعين ، او بإجراء عملية خصاء له ، او بالحكم عليه باسم ما كان يتمتع به سيد العبد من الحقوق المنزلية ، دون الرجوع في امره الى القضاء . وأوردت مدونة يوستنيانوس (*Digeste*) أكثر من ٧٠ نصاً او مرجعاً ، صدرت كلها في القرن الثاني ،

توصي بالدفاع عن الرقيق العامل في بيت صاحبه . والنزعة الواضحة التي تبرز ، أكثر فأكثر ، فيما بعد ، هي الاعتراف بشخصية الرقيق الفردية . وهنالك نصوص اخرى يجب وضعها بإزاء النصوص التي أشرنا اليها أعلاه ، تقف الى جانب الحرية والعتق في الحوادث التي يشتبه فيها بوضع فرد ما : عبداً كان ام حراً . فالحرية والعتق هما من حق ابن ، نعمت امه بحريتها ، ولو ليوم واحد ، خلال حبلها به . ونشاهد ، في الوقت ذاته ، تطوراً يلحق وضع العتقاء ، اذ يحظر على كل منتفع من هبة او من وصية إرث، من بين شروط تنفيذها العتق ، استعمال أساليب ملتوية للتهرب من الواجبات المترتبة عليه ، والاعتراف بصورة سريعة للمعتوق بالحقوق التي من حق الانسان الحر ان يتمتع بها *Natalium Restitutio* ، وفقاً للامتياز الذي طالما جاد به الامبراطور، بعد عهد مارك اوريل .

وهذا التشريع الجديد لا يمكن فصله بالطبع عن هذه التدابير والاجراءات القانونية التي طالما اعتمدوا عليها، فيما بعد، وكان الغرض منها الحد من سلطة الاب الشرعية على زوجته واولاده ، او من سلطة الوصي الشرعي على الارملة واليتيم . ومنذ عهد مبكّر ، لم يعد للأب الحق بأن يفرض على ابنته زوجاً لا ترغب فيــه ، او لا ترضى عنه . فحوادث القارمة لزيجات مبكرة تُفرض على الاناث ، يجب اعتبارها خطوة لها معناها الرمزي عند الاخذ بهـذا القانون والعمل بموجبه ، بالرغم من ندرة وقوعها . كذلك ، نرى الاب ، في القرن الثاني ، يجرّد من الحق الذي كان معترفاً له به ، نظرياً وعملياً ، بالغاء زواج ابنه . وهنالـك امثلة وشواهد عديدة يمكن الاتيان بهـا ، تكفي وحدها ، اذا ما ضمت الى زوال هذه الزيجات ، وفقاً للاعراف والتقاليد القديمة ، اذ كان للزوج فيها كل حق على زوجته واولاده، لنتبين كيف تم القضاء على حقوق السلطة الوالدية *Patria Potestas* . فقد تطور هذا الحق في مفهومه ومدلوله ، واخذ أكثر فأكثر ، بعين الاعتبار ، قيمة الشخصية الانسانية .

ان وفرة هذه النصوص التشريعية والتوافق الكبير الذي نراه بينها، تُعبّر مجتمعة، عن تطور عميق لحق بالاخلاق والعادات المرعية ، اذ ذاك . فبدلاً من ان تحاول هذه النصوص والاحكام التي تنطق بها ، خلق عادات جديدة، نراها تقتصر ، بالاحرى، على تكريس العادات والاعراف التي في السير عليها والأخذ بها ترسيخ لها بين الناس ، والتي كانت مخالفتها تثير الشكوك وتوجب ملاحقة المخالفين لانزال ما يستحقون من عقاب . فليس بغريب ، بعد هـذا ، ان يعيش الرقيق والعتقاء في روما ، منذ زمن بعيد، وفي عهد الامبراطورية المتأخر ، على اختلاط مع الاحرار من سكانها ومعايشتهم . فهل من عجب ، بعد هذا ، ان تتقارب الاوضاع نصاً وروحاً ، بعد ان تشابهت بالفعل ! ففي الطبقة الاجتماعية العليا في روما ، حيث يتكاثر عدد العبيد والارقـاء الشرقيون ، اخذ تأثير الاخلاق والافكار اليونانية التي عُرفت بقلة تصلبها وبانعطافها الانساني ، يتغلغل بين التقاليد الرومانية ، وينتشر بينها أفقياً وعمودياً . فقد لاقت الفلسفة الرواقية ، على الاخص رواجاً عظيماً بين سراة القوم من الرومان بحيث جعلت الفيلسوف سنيكا يتساءل بحق

قائلاً : « أعبيدٌ هؤلاء الرجال ؟ ، لا لعمري ، انهم بشر – أعبيد هم ؟ – لا بل عشراء لنـــا وندامى ، ورفاق الحياة – أعبيد هم ؟ – لا بل اصدقاء حميمون ، أعبيد هم ؟ – لا ، بل إخوة لنا يرسفون في قيود العبودية اذا عرفتَ ان الأقدار لها عليك كما عليهم ، مثل هذا السلطان ».
صحيح ان سنيكا لم يأخذ هو نفسه بتطبيق فلسفة الرواقيين بصورة عملية ، لا بوصفه فرداً من أفراد المجتمع الروماني يهتم بادارة ورعاية ثروة طائلة ، همه الوحيد أن ينميها وان يزيدها ، ولا بوصفه من رجال بطانة الامبراطور وحاشيته ، مهذباً لنيرون ومستشاراً له ، وكان على اتصال مباشر بهذه المؤامرات التي حيكت خيوطها ، وهدرت ما هدرت من دماء مطلولة ، كما اتصل عن كثب بالإدارة الحكومية . ومن كتاباته الفلسفية نرى جيداً ، كيف أن أغنيـاء الرومان ، رموا ، هم أنفسهم ، الحجر الأول ، ووجهوا الضربة الاولى لهذا الحصن الذي أقاموه من فظاظتهم الخلقية ، وما لبثوا ان انفتحوا لهذا التعاطف الانساني الخيّر ، والحدب على الفقراء والبائسين . فتطور هذه الأفكار التقدمية الذي اقتصر في بادىء الأمر على مجالات الفكر ، لم يلبث انأدخل الى القانون الروماني القديم ، قانوناً « طبيعياً » يجعل الناس كلهم سواءاً ومتساوين .

حدود هذه النزعة الانسانية وقيودها

مهما برزت مظاهر هذا التعاطف الانساني ، وتكاثرت الشواهد على تجـلي هذه المشاعر الرقيقة التي ألانت الأخلاق ولطّفت من حدة القوانين الرومانية ، فلم يتجمع هذا كله في ثورة اجتماعية عارمـــة .

ولا يحسن بنا قط أن نتخذ من هذه الظواهر دليـلاً على التحسس بالخوف ، فأوحى هذا الشعور بمثل هذه التنازلات: فلم نرَ فرداً واحداً بين كبار الملاكين وصغارهم ،رأى في هذه الظاهرة نذير خطر مداهم. فاذا ما راح أحدهم يلبي لأسباب دينوية، نداء عاطفة انسانية نحو الطبقة الفقيرة الكادحة ، فلم يبدُ لأحد منهم ، من قريب أو بعيد ، احتمال قيام ثورة في هذا المجـال . إن اطلاع المؤرخين المحدثين على حوادث لاحقة لهـــذا العهد ، حملهم على الظن بأحقاد تتجمع وضغائن تتكدس . إلا اننا ، من جهتنا ، لم نرَ سوى شكاوٍ وتذمرات وتململات لم تتبلور يوماً عن كلمة سر أو صرخة استنفار تدعو للثورة . فالفلاسفة المرشدون الذين عُرفوا ، في الشرق، بدعوتهم للثورة ، كالفلاسفة الكلبيين مثلاً (*Cyniques*) لم يخطر في بالهم قط إهاجة الجماهير وإثارتهـا ، بل على عكس ذلك تماماً ، دعوا لرذل الغنى واحتقاره . وعلى هذا الحـال سارت الديانات الشرقية ومن بينها المسيحية الناشئة التي لم ترَ محلاً ولا زمناً تتم فيه المساواة إلا في الحياة الاخرى الباقية . وتناقص عدد العبيد والأرقاء جعل بدوره حروب الاسترقاق أثراً بعد عين . فالنظام الاجتماعي القائم،هو في نظر المعاصرين جميعهم،وباتفاق الرأي ، نظام قوي،متين، راسخ.

وهذا النظام ، عرف أن يقيم لمراكز دفاع تُحسن صد العدوان، والصمود في وجه المهاجمين. فليس في النظـام الامبراطوري نفسه أي مغمزَ ضعف أو مكن وهَن . فالإدارة المركزية التي كانت تراقب بعين يقظة ، وعن كثب ، الهيئات البورجوازية القائمة في المدن ، لم تكن لتتهاون معها في التخفيف من شكيمتها على الشرطة . والعقوبات القانونية ، هذا السيف المُصلّت فوق

الرؤوس ، بقيت على شدتها ولم تتخفف بشيء . صحيح ان الحُرج الديني كان يوجب الحكم بالموت على مَن مِن كاهنات الفستال *Vestales* تعبث بنذر العفة أو تحدثها نفسها بالتحلل منه . ففي عهد دومتيانوس مثلاً ، صدر الأمر بوأد رئيسة كاهنات الفستال حيةً لعبثها بنذر العفة ، كما أن شريكها في هذه الفعلة النكراء، وهو من مصاف الشفاليه، لقي من الضرب الشديد والجَلْد العنيف ما قضى معه في العذاب . أما في ما يختص بالحق العام ، فالأحكام التي يصدرها لم تفقد شيئاً من قسوتها ولا فظاظتها ، بالرغم من المراحل التي قطعها الشعور الانساني . فالامبراطور هو نفسه بحاجة ماسة « لمن يحكم عليهم بالاشغال الشاقة في المناجم » ، فلا يستثني منها إلا من عنده الدليل القاطع ، على انه يعاني من مرض عضّال مزمن ، تنفيذاً منه لواجب يترتب عليه في الدرجة الاولى . وجماهير الشعب هي الاخرى بحاجة ماسة للمحكوم عليهم بالموت ، وتنفيذاً لهذه الاحكام، تعرض اجسامهم للوحوش المفترسة فتتناهشها وتنهبها نهباً، اوبتعليقهم على الصليب إمعاناً في تحقيرهم واذلالهم ، أو بجلدهم وتعذيبهم ، أو بحرقهم أحياء أحياناً ، كما حدث لبعض المسيحيين الذين استشهدوا في روما اثناء الاضطهاد الذي رماهم به نيرون ؛ كل هذا ألوان من التنكيل تزيد في حماسة النظارة والمشاهدين الذين يتلذذون بمرأى هذه المظاهر الوحشية . وقام سنيكا يشجب بشدة بروقنصلاً عاملاً لروما على إحدى الولايات في آسيا، لقتله ، دفعة واحدة، ٣٠٠ من فجّاج الآفاق وقطـــاع الطرق . ونرى موظفين في بعض المدن يبحثون جادين عن محكومين بالاعدام ، وعندما تعييهم الحيلة يلتمسون من مدن مجاورة لهم تزويدها بشيء من هذا.

فاذا ما رأينا ، من حين الى آخر ، بعض الملطّفات تؤخذ في هذا المجال ، فليس بالطبع ، في مصلحة منكودي الحظ تبذل . فمراعاة المراتب الاجتماعية لها مقتضياتها ومستلزماتها ، وهي اعتبارات يشتد التمسك بها ، لما يقوم بين هذه المراتب الطبقية من تضامن ووشائج تشدها بعضاً الى بعض . فأعضاء منظمتي الشيوخ والشفاليه يحملون شارات مميزة ويُعرفون بألقاب شرفيــة وكنى فخرية. وتخطو الحُظوة خطوة أخرى الى الامام ، في عهد الأسرة الانطونية. فالاشراف والاعيان يُستثنون ، من حيث المبدأ، من التعذيب والتنكيل ، ومن الحكم بتعريضهم للحيوانات الضارية. ومنذ هذا العهد فصاعداً ، اخذ التشريع الروماني ، ببطء ، في بدء الأمر ، ثم بسرعة، فيما بعد ، يميز بين الاحكام الواحدة، من حيث شدتها او خفتها، وفقاً للطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها المحكوم عليه ، فلتشتد وتقسو ، ان كان من الطبقات الدنيا او السفلى *Humiliores* ، وتلطف وتخلُم ، ان كان من الطبقات المحترمة *Honestiores* . وهذه النعوت ، بما بينها من مفارقات ، تنتقل بدورها الى المعجم الرسمي . فهي تميز من جمهرة الشعب ، هؤلاء الذين تجمع بينهم روابط شتى : كالعضوية في المنظمات ذات الامتياز ، او الهيئات البورجوازية في المدن .

من العبث ان نحاول هنا التخفيف من حدة التضاد العنيف القائم بين هذه النزعة التي ترغب في ان تبرز على هذا الشكل ، والنزعة الاخرى التي لمسنا محاولاتهـــا التخفيف من حدة القوانين المتداولة ، في سبيل حماية الضعيف والدفاع عنه . وهـذه النزعات والميول كانت تعكس ، ولا

شك ، نظريات متضاربة ، متباينة : ادبية اخلاقية ، هنا ، سياسية هنالك . ويكفي ان نتبين هنا انها ازدادت شدة وقوة ، من كلا الجانبين ، لنسجل ان المعاصرين نظروا اليها نظرتهم الى أشياء تكميلية .

٤ ـ الازمة الطالعة وأسبابها القريبة

وهكذا نرانا ، من جديد ، وجهاً لوجه ، مع المشكلة الكبرى التي تثيرها المدنية الرومانية في عهد الامبراطورية المتأخر ، من الوجهة المادية ، وهي كيف ان هـذا النظام الاقتصادي والاجتماعي الذي بلغ ، ان لم نقل الكمال ، فأقله جانباً كبيراً منه ، عاد فظهرت عليه ، منذ اواسط القرن الثاني ، امارات الضعف والوهن .

حضارة ذات طابع مديني مفرق

بعبارة تستبد بالفكر لعمقها ودقتها لانها تصدم دونما عنف ، هذه الأوهام التي وجدت طريقاً سهلاً الى الاذهان ، هي هذه التي تفوه بها انطوان البرتيني ، بعد ان أبى عليه علمه الا ان يرى في العـالم الذي سيطرت عليه الاسرة الانطونية ، شيئاً آخر « أقل سوءاً بين هذه العوالم التي عرفها التاريخ قديماً ». وقد بنى حكمه بعد ان رأى بثاقب نظره ، الوضع الخطير الماثل في هذه الازمات الاقتصادية المتكررة ، وما ألحقته مراراً ، في الطبقات الاجتماعية العليا ، في مناطق كثيرة تابعة للامبراطورية الرومانيـة ، من اوصاب وما جشمتها من مشاق . وهي حقيقة تبرز صحتها لكل عين باصرة. وليس من الغلو في الجرأة بشيء ، ان نبحث عن سبب آخر ، أعم واعمق لهذا الوضع ، وان نجده ، كما نعتقد ، في فقدان الانسجام بين البناء السياسي والحياة الاجتماعية لهذا العالم الروماني ، وبين الاوضاع الاقتصادية التي استبدت بها وهيمنت عليها .

فالنظام الجديد – وهذا هو دوره – فكّر ، قبل كل شيء ، بتأمين المقتضيات السياسية والادارية التي يستلزمها العهد. فقد شجع وناصر هذا التطور الذي تمناه والذي جاء معظمه عفوياً ، واوجد روابط وثيقة بين الدولة وبين الحضارة التي ساهم في بنائها وتشييدها ، متنكباً تارة ، عن العنف المنهجي ، ومتجافياً طوراً ، عن وسائل الضغط ، مقتصراً في اغلب الأحيان ، على توفير اسباب الاغراء ووسائله ، وعلى توزيع المكافآت بالتقتير . وهي دولة لقي العهد العنت في إقامتها وتنظيمها لفرط حاجتها للموظفين الاكفاء ، وحضارة الححت لها النجاحات الجغرافية والبشرية التي حققتها ان تخفف كثيراً ، من وطأة هذه الحاجة بعينها ، فلم يطلع عليها من المثل غير التي تبينها الشرق الهليني من قبل بكثير ، والجمهورية الرومانيـة نفسها ، التي لا تزال نصب اعين الطبقات المتطورة . وهذا الترابط او المشاركة التي رُغِب فيها والتي لقيت قبولاً لدى كل هؤلاء الذين دعاهم العهد للتعاون معه ، ليس من احد ينكر النجاحات الباهرة التي اصابتها ، ولا عظمة الإنجازات التي استطاعت تحقيقها ، فكانت موضوع اعجاب الجميع ودهشتهم .

ولكن ، هل كانت هذه الحضارة ضخمة ، واسعة ؟ فقد تجاوزت في محاباتها وتفرضهـا ،

واخذها بالوجوه ، حد المنطق ، اذ قصرت عنايتها واهتمامها على المدينة دون سواها ، وحرصت على تأمين وسائل التطور والتألق لها ، لتبرز زاهية ، مشرقة على حساب غيرها .

فانشاء المدن الجديدة في جميع ارجاء الامبراطورية ، والازدهار العجيب الذي عرفته هذه المجتمعات المدنية ، وإلباسها هذه الحلل القشيبة من انواع الزخرف والنقش والتحلية ، بدا ، في نظر الجميع ، اكمل تعبير لهذه الحضارة واجمل صورة لها . والنخبة التي بيدها مقاليد الامور ، وهي بمعظمها من المدينة ، أصلاً ومنشأ ، كانت تتيه فخراً بهذا كله ، فلم يبق مـــا يدعو خيال الامبراطور ومخيلته للتفتق والخروج بشيء اكمل وأمثل ، اذ كان يجد في هذه المدن الادارات الثانوية التي تخفف عنه اعباء المسؤوليات التي يضطلع بها ، والاداريين الذين ينبرون لخدمته بعد ان يتمرسوا بالاعمال الادارية ويبرهنوا عن شديد ولائهم له . فبعد ان اهمل هؤلاء الاباطرة ، عن سابق قصد وتصميم ، امور الريف وشؤون الولايات ، امعنوا في هدر مصالحها في سبيل مصالح المدن التي اخذ عددها يتكاثر وينمو باطراد ، وافرطوا في تجميلها وتزيينها . فقام فيها من المباني الفخمة والصروح الجبلة الضخمة اكثر مما يجب ان يقوم ، وعقدوا فيها من الاعيـــاد والحفلات واسباب اللهو ، اكثر من المألوف ، وأنفقوا عليها جزافـــاً ، بصورة تقرب من الجنون ، وبدون طائل ، ما انهك خزينة الدولة فأرزحها ، وجمعوا لها من الحيوانات والسباع والرجال ، مـــا لا يقع تحت حصر ولا عد . وبعد ان اخذت هذه الحضارة بألق هذا الغنى وبالدعة التي عرفـالعهد ان يؤمنها لها ، شأن غرّ أخذ بثروة هبطت عليه بغير توقع منه ولا انتظار ، فلم تستطع العيش، فتكبّت بها الحياة بعد أن أعجزها توفير مثل هذا الفيء العظيم الذي تم لها من قبل، الا في ارتهان الحاضر ، وارتهان ما هو ادعى للخطر : ارتهان المستقبل .

حاجاتهـــا

ولكي تتمكن الامبراطورية من السير على هذا المنوال كان لابد لها سنوياً من تأمين محصول طيّب من المواد الغذائية ومن الخامات الأخرى التي لا غنى لها عنهـــا ، وان تؤمن المزيد منها ، منذ الآن على ان تضاعف هذا الانتاج فيما بعد ، بحيث يكفي كل مطلب طارىء . ولكن لم يحدث شيء من هذا في سبيل تحقيق هذين الشرطين .

فأدوات العمل وعدته لم يدخل عليها أي تحسين يذكر ، واصحاب رؤوس الاموال المتوفرة ، لم يحاولوا يوماً توجيهها في الصدد القويم والصراط المستقيم ، فأنفقوها في وجوه لا تجدي فتيلاً ، كما انهم أهملوا الافادة مما عرض لهم من عبقريات خلاقة ونوابغ مبدعين ، فواكبوا الحركة العلمية التي نشطت اذ ذاك وساروا في ركابها . هنالك مدنيات عديدة قامت في التاريخ قديماً ، تكشفت عن مثل هذا النقص الفادح ، وعن مثل هذه الحاجات . غير ان التفوق الذي بلغته الحضارة الرومانية في ما تمّ لها من الوسائل المادية والذرائع العلمية ، جعلها وجهاً لوجه امام مسؤوليات أكبر وأخطر .

وهكذا ، فأمام عدم كفاءة العدة ، وقصور الوسائل اللازمة ، رأينا الانتاج مرتبطاً الى حد بعيد ، باليد العاملة . ومها كان من الغرور في ان يحاول المرء تكوين رأي له حول هذا الموضوع ،

عليه ان يعتمد على انطباعات محتملة التصديق بعد ان فاتته الاحصاءات العلمية الدقيقة . والحال، فاذا لم يكن من شك قط بأن سكان الامبراطورية زاد عددهم ، على العموم ، فليس من شك قط ايضاً ، في ان هــذه الزيادة جاءت متفاوتة غير متعادلة ، بين الولايات المختلفة التي تألفت منها الامبراطورية، وذلك باختلاف النشاطات التي تجلت فيها . فولاية غاليا ، كما يبدو ، أفادت أكثر من أية ولاية أخرى . هنالك عدد من المؤرخين يعزون اعتباطاً ، الى جميع ولايات الامبراطورية ما يجب إقصاره على ولاية غاليا وحدها . فالمدن ، اينما كانت، هي التي استفادت بالأكثر من هذا التطور ، الأمر الذي أفضى الى المزيد من الاستهلاك . ومهما يكن ، فلم نر في أي محل كانت ، اليد العاملة في الزراعة او في صناعة التعدين ، مع انها عماد الانتاج في البلاد وعليها يتوقف تأمين مثل هـــذا المحصول الاساسي ، تسجّل أي زيادة يمكن مقارنتها بالزيادة التي سجلها نمو عدد السكان في المدن .

ومن الثابت ايضاً ان عدد السكان تناقص ، هنا او هنالك ، في بعض الولايات . فالوضع الذي أحاط بالسكان لم يسؤ ، وقد يكون سجّل ، مع ذلك ، بعض التحسن . ولكن عنـــد معارضة هذا الوضع بالوضع الذي كان ينعم به سكان المدن ويتحملون هم ، أي سكان الارياف كل أعبائه ، فكيف لا يجدون وضعهم أثقل من قبل ؟ ومن هنا هذا التظلم ، وهذه التشكيات ، وهذا اليأس ، وحوادث الفرار المتكاثرة ، وهرب العمال المتزايد في مصر *Anachoresis* الذي كان نذيراً بتأزم الوضع. اضف الى ذلك تناقص عدد العبيد والأرقـاء . فحوادث العتق بالجملة جعلت عددهم ينخفض باستمرار . صحيح ان حركة العتق هذه أفادت كثيراً هذا الفريق العامل منهم في المنازل ، او الفريق الآخر الذي يتعاطى، في المدن، الحرف والمهن الصغيرة ، او يعملون مع مولاهم فيهبهم العتق والحرية على حسابهم الخاص ، لقاء رسم يدفعونه له كل يوم ، ويحتفظون بالفائض لحسابهم ، وهي عادة جرى عليها القوم في اليونان، قديماً. ولكن هذه النخبة من الارقاء كان يؤتى بها من الرق ، احدى نتائج الحروب ، الأمر الذي كان يوجب بقاء هذا المعين الأكبر العبيد على معدل عالٍ . فاذا ما كان اسياد العبيد واصحابهم ، عملاً منهم بالروح الانسانية ، او طمعاً في زيادة دخلهم عن طريق منحهم بعض الاعفاءات ، قبلوا بسخاء أكبر من الماضي ، قيام المحادات لهؤلاء الارقاء ، فالمواليد بقيت نسبياً ، قليلة لأن الاشغال الكبرى التي كانت تستهلك العبيد وتستنفزهم ، لم تكن لتأخذ سوى الذكور منهم . ولعل ما هو اقطع من ذلــك ، هؤلاء المواليد الجدد من العبيد الذين يرضى مولى امهاتهم باعالتهم وإعاشتهم الى ان يبلغوا سن المراهقة. فلم تر مدنية واحدة من بين المدنيات القديمة ، رضيت بأن تضارب بتربية العبيد ، وذلك بالنظر لما يخبئه هذا النوع من التجارة من خطر . ومن جهـة اخرى كانت اسواق الرق اقل ازدهاراً في هذا العهد منها في الماضي ، كما ان مادتها كانت تتجدد اليوم بصعوبة أكثر من الماضي ، وذلــك بعد ان قلّت الحروب وانقطع عن هذه الاسواق ، سيل هذه القطعان البشرية التي كانت تباع في اسواق النخاسة بيع السائمة . ومن جهة اخرى ، فاتساع حدود الامبراطورية جعـــل شراء العبيد أكثر صعوبة بعد ان راحت الامبراطورية تجاور شعوباً لا ترضى ببيع رجالها بيع النعاج.

واخيراً وليس آخراً ، لمعارك المصارعين ، ومصارعة الوحوش جاءت هي الاخرى ، ضغثاً على أبالة ، وثالثة الاثافي فتحصد صفوفها ، فتنتقص من عددهم ، وتستنزف دماءهم في هذه المعارك الوحشية ، فأحدث هذا كله رد فعل سيء جداً . كل هذه الاسباب جعلت المورد الرئيسي الذي اعتمد عليه الرومان لتوفير ما هم بحاجة اليه من اليد العاملة يجف ، وينقطع بالتالي معينه . فاذا كان عدد اليد العاملة الخشنة ، لم يطرأ عليها أي نقص من حيث قيمتها المطلقة ، فقد سجلت مع ذلك نقصاً لا يستهان به من حيث قيمتها النسبية ، مع انه كان من المتوقع ان تزداد ، قيمة وعدداً ، بحيث تستطيع مواجهة الطلب وتلبية حاجات المدن والجيش معاً .

خطر الازمة واولى مداخلات الدولة

وهذه المدنية الرومانية المفرقة في حركتها الحضارية والتمدينية معاً والتي انحصر كل هم السلطة في الدفاع عنها والعمل على بسطها ونشرها ، لم تهتم هي ، الإهتمام الكافي ، بتأمين حاجاتها من الانتاج . فكانت النتائج ما لا بد ان تكون ، وجاءت على الشكل الذي لا يمكن ان يكون سواه . فالاستقرار الغذائي ، في اكثر من ولاية ، بقي تحت رحمة موسم رديء ، او مرتبطاً بعدم انتظام وسائل النقل في ارجاء الامبراطورية . فاذا ما أضفنا الى الجهود التي كان لا بد للدولة من بذلها لمواجهة حرب تطل عليها من الخارج ، والخراب الذي ينتج عن غزو طارىء او عن كارثة طبيعية ، مهما كانت محدودة ، تبيّنا الاضطراب الذي يلم بالبلاد ، والمدة الطويلة التي يقتضيها ليعود الاستقرار الى نصابه . فاذا ما تضافرت كل هذه العوامل والمسببات واتفق حدوثها معاً في آن واحد ، رأت البلاد نفسها امام ازمة تهزها من الاركان .

فبعد ان كانت هذه الأزمة في الاساس أزمة انتاج ومواصلات ، كان من المتوقع لها ان تستفحل ويتسع نطاقها بحيث تهدد بالخطر ، اكثر ما تهدد المدن الكبرى ، أي ، نقطة الثقل في النظام الاجتماعي والاداري في الامبراطورية . وقبل ان يستفحل أمر هذه الازمة كان الوضع الحرج الذي تتخبط فيه المدن يبدو قاتماً ، مقلقاً من خلال هذه الاعراض والمظاهر الخارجية التي تطبع نمط الحياة فيها ، والتي يجب ردها الى هذا الغلو في الترف ، وهذا الاسراف والاملاق المتجاوز لحدود العقل ، في البذخ والزهو ، الأمر الذي ارهق الطبقة الثرية في هذه المدن وارزحها . وقد رأينا كيف ان بعض هذه المدن اخذ يعاني شديداً من الضيق المالي الذي اطبق على خناقها . كذلك رأينا كيف ان هذه القصور التي كانت محل دعة واستجمام لسيد الأرض ، اخذت تصبح تدريجياً ، عالماً صغيراً باستطاعته ان يكفي نفسه بنفسه ، بفضل ما له من انتاج زراعي كاف ، وبفضل هذا الدخل الطيب الذي تؤمنه له معامل وورش النسيج ، ومصانع الحديد القائمة على مقربة منه . واخذ الاغنياء يهجر المدن الى الريف ليتفرغوا ، اكثر فاكثر ، لاملاكهم ويعنوا باستغلالها ، متفادين بذلك مضايقات الجماهير التي اخذت تضايقهم بتبرعات شخصية . فامام هذه الحركة العفوية الاقتصادية اللامركزية ، اخذت الصناعة والتجارة في المدن تفقد قسماً من زبائنها من سكان الريف ، كما انها كثيراً ما وجدت نفسها امام منافسة شديدة مع الفيلات التي بعد ان كانت ،

مدة طويلة ، عيالاً على المدن ، اصبحت اليوم مزاحمة لها . فاذا ما بدت هذه الاعراض وبرزت العيان في اوقات الرفاه والطمأنينة ، منذ اواسط القرن الثالث ، فما عسى ان يكون الوضع ، والحالة هذه ، عندما تتعقد قضية تموين المدن وتصبح مشكلة خطيرة بعد ان تتعطل حركة المقايضات التجارية ، الامر الذي يهدد بانقطاع الثروة عنها ويساعد تدريجياً، على تقلص الثروات الخاصة فيها ، كما يهدد بنضوب صندوق المدينة ، فتقف بذلك حركة العمران ، وتنعدم اسباب الترقي والتطور ، ويحال دون انتقال، او بالاحرى ، دون استحالة الطبقة الكادحة، الى الطبقة البورجوازية ، وانتقال هذه الاخيرة الى طبقة النبلاء والاشراف في الدولة .

يشك المؤرخ في ما اذا كان الاباطرة الرومان تحسسوا بمثل هـذه المخاطر التي كانت تتهدد الامبراطورية في الصميم . فلم يسبق لهم ان خبروا او تمرسوا بمثل هذه الازمات . وهب ان تمّت لهم مثل هذه التجربة، لكانوا أبَوْا ان يُذعنوا للواقع ويسلّموا، انهم ورعاياهم ، أولَوا بعض مظاهر الحياة في المدينة ، من العناية والاهتمام ، أكثر مما يجب : فهل في مقدور حضارة ما، ان تقرّ وتعترف بأذى او بعدم ملائمة المُثُل التي راودتها فتمثلتها ؟ وهكذا ما كادت تصدمهم المصاعب الاولى حتى راحوا ، بشجاعة واقدام ، يعالجون الوضع ، بوسائل تجريبية ، خلواً من كل خطة ومنهجية ، تحدوهم الرغبة الصادقة لمعالجة وضع لم تفتهم نتائجه الخطيرة ، دون ان يتمكنوا من النفاذ الى اسبابه الحقيقية وتحليلها . فاذا ما كانوا اقوياء او ظنوا انهم أقوى بكثير، بالنظر لما هم عليه من وهم او جهل، راحوا يعتقدون ان ليس من صعوبات تعترض سير الدولة يستعصي حلها، او لا يمكنهم التغلب عليها ، وذلك لأنهم لم يلاقوا ، حتى الآن ، سوى احداث بسيطة ، تافهة الغاية ، وبالاكثر ، ازمات محلية لا تذكر . فالتدابير التي تسلحوا بها لا تشير بشيء الى الاتجاه الذي سيضطر ضغط الحوادث، خلفاءهم ، لاتخاذها عندما يجدون انفسهم ، وجهاً لوجه، امام أزمة عامة كاسحة : اهو التدخل المباشر او الشدة والعنف ؟

فالمبادىء التي تقوم عليها العاطفة الانسانية لا تكذب القول القائل : عندما تتصرف الدولة التمكين للاخلاق والترسيخ لها ، تصبح بذلك حامية للمستضعفين ، وهو شيء لا يصعب علينا اليوم رده للنزعة التي تدعو للتدخل . وستحتفظ الدولة بهذا الدور تلعبه الى نهـاية التاريخ القديم ، مضيفة اليه ، ما لم تأخذ به من قبل ، الا وهو الشدة او الضغط ، وذلك حفاظاً منها على سلامة الواقعين تحت رعايتها ، اذا لم يدفعهم تحسن وضعهم القانوني للانصراف له .

فالقوانين والتشريعات التي سنها هدريانوس بشأن الاراضي الموات، واستثمار المناجم، عنَت، في الدرجة الاولى ، صغار الناس ، وذوي الحال المتواضع . غير ان ما اتسمت بـه من إرهاق ووقفها الى جانب القانون المعمول به، يدل بأن الدولة كانت على استعداد لبذل كل شيء في سبيل المحافظة على الانتاج . كذلك ، فاذا كانت المنافع التي نالتها النقابات المهنية ارضت ، على السواء، العمال ومتعهدي الاشغال في المدن ، فقد اخذت الدولة تفرض عليها رسوماً جماعية ألحقت الضرر

بالمنظمات البورجوازية في المدن وأصابتها في صميم حرياتها الاقتصادية ، كما اخذت من جهة ثانية ، تشدد على النبلاء والأشراف وتجبرهم على قبول الوظائف البلدية غصباً عنهم ، ولم يتورعوا من تجريدهم من حق ادارة شؤونهم المالية المحلية . إلا ان الامتيازات الجديدة، من فخرية وقضائية، التي أسندت الى الطبقات « الارفع منزلة » جاءت تعوض ، بعض الشيء ، عن هـذه التدابير القاسية ، اذ كان لا بد من المحافظة على عامل الاغراء اللازم اصلاً للوظائف العامة ، والتي ، في السعي للفوز بها ، ما فيه من منفعة الدولة والحضارة معاً .

اما نحن الذين نعرف جيداً المصير الذي آلت اليه هـذه التدابير ، فقد رمزت الى المستقبل وهيأت له الأسباب. ولم يكن في وسع احد، اذ ذاك، ان يفهمها او يدركها على وجهها الصحيح، اذ لم يكن بوسع احد ان يتصور أهمية المشكلات التي لا بدّ من إيجاد حل لها يوماً . هنالك شيء واحد أكيد ، لا يمكن الاستغناء عنه، لأنه وراء كل دولة كما انه وراء كل حضارة، ولا سيما هذه الحضارة المدنية بالذات ، فيفرض نفسه ، في كل الظروف وفي كل مكان .



- روما وامبراطوريتها





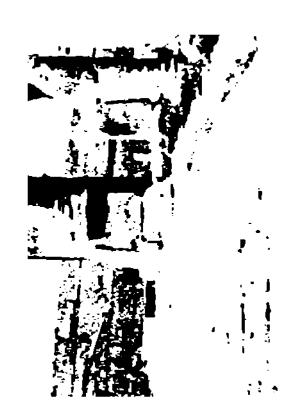








٢٣ – روما : عمود ترايانوس







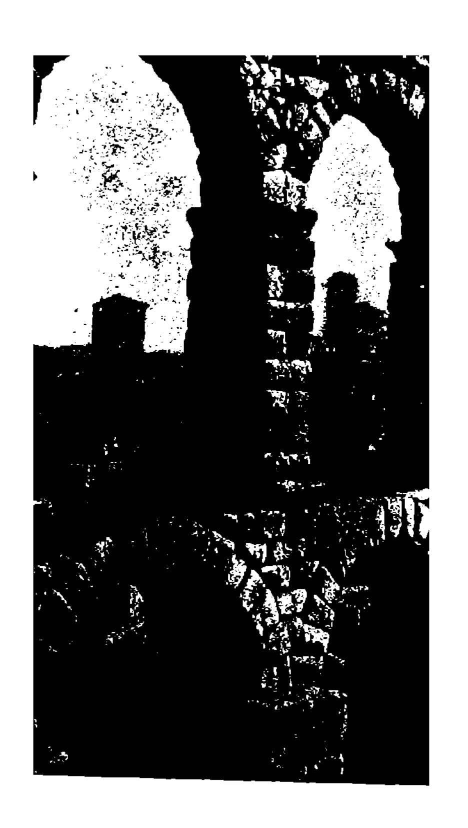
٢٦ – ضريح آل جوليوس في سان ريمي في مقاطعة بروفنس .



٢٧ – بقايا مسرح اوستيا

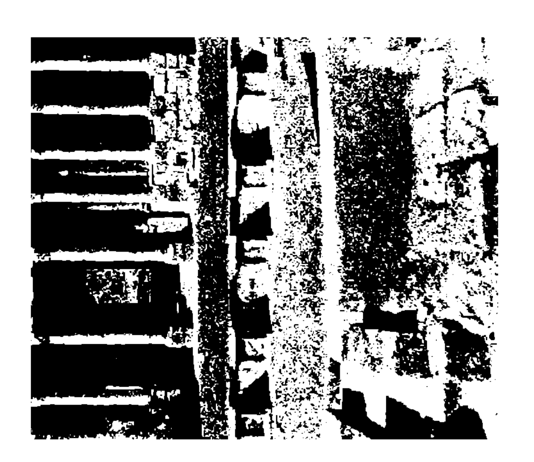


۲۹ – ميترا يقدم الثور قرباناً



٣٠ - قناة ماء سيغوفيا (اسبانيا) .

٣١ – الفوروم في هيبون (عنابة ـ الجزائر) .



الفصل الرابع

الديانات القديمة والجديدة

الوضع الديني في عهد الامبراطورية المتأخر كان أكثر دلالة على المستقبل من الوضع الاقتصادي والاجتماعي ، يكشف عنه بصورة اوضح واجلى . فالعقائد الدينية المتباينة ، قامت في هذا جنباً الى جنب بعد ان يسّرت الاتصالات بين الولايات المتباعدة ، وسهّلت سبلها ، وانفتحت منها الابواب على مصراعيها امام الديانات والعقائد الأجنبية ، فأدّت المنافسات التي اشتدت بينها قبل نهاية القرن الثاني ، الى فوز العقائد التي حُوربت بعنف في الماضي ولاسيما مع مطلع الامبراطورية ونشأتها ، باعتبارها منافسة للنظام القائم في البلاد ومغايرة للتقاليد الرومانية . فبعد ان لقيت بعض الاغضاء والتسامح لم تلبث ان فازت بحق الرعوية وأصبحت مهيأة ليس لزعزعة الامبراطورية فحسب ، بل ايضاً لنفخ روح جديدة فيها وبعثها من عثارها والركود الذي صارت اليه .

العاطفة الدينية

اوغسطس وموقفه من الديانة

اتصفت النخبة التي تولت مقاليد الحكم في روما ، في اواخر العهد الجمهوري ، بعدم مبالاتها بالدين . فهذه الطقوس الدينية الرسمية التي ارتبطت مظاهرها بحياة الدولة ، والتي كانت تمثل بقية من هذه العقائد الايطالية الرومانية ، أضيفت اليها فيما بعد ، عناصر يونانية لم تكن تمثل في نظر هذه النخبة ، سوى مراسم لا بدّ منها للنظام العام القائم ، رمزاً بالاكثر ، لمبدأ ديني عاني ، هو الآخر ، من هذا القلق الروحي الذي استبدّ بالأذهان . فالاعياد تُهمل جانباً ، ويعفو ذكرها ، ويُتناسى أمرها ، والهيا كل يتجافى الناس الدخول اليها ، والوظائف الكهنوتية يُزهد بها ويُعرض عنها فتبقى شاغرة ليس من يملؤها .

وما ان أطلّ اوغسطس بعد ان تم له من الأمر ما تم ، حتى راح يصحح الاوضاع ويكافح هذا الإعراض ، ويُحِدّ من تدهور المشاعر الدينية . فقد تمنى ان يكون ، وأصبح بالفعل ، المصلح الحقيقي للديانة الوطنية حتى في اقدم مراسمها ، وأخذ يرمم المعابد ويعيد اليها رونقها ويضفي على هذه المزارات الدينية والاساطير التي تمثلها او ترمز اليها ، بهاءً لم تعهد مثله من عهد بعيد ، ويملأ الوظائف الكهنوتية الشاغرة . كذلك حَرص ان يعيد تشكيل المنظمات والجمعيات

الدينية وينفخ فيها نشاطاً جديداً بدخوله في عضويتها . هنالك حادثان يمثلان خير تمثيل سياسته الدينيـة : رفضه انتزاع لقب « رئيس الاحبار » *Pontifex Maximus* من ليبدس *Lépide* ، زميله السابق مع انطونيوس في الحكومة الثلاثية *Triumvirat*. فقد آثر ان ينتظر حلول أجَله حتى يُكرَّس ، هو نفسه ، في هذه الوظيفة السامية ، وفقاً للقوانين المرعية لتتم له بذلـك أعلى سلطة دينية دون ان يمسّ الشرعية بشيء . اما الثاني ، فاحتفاله بأبهة وجلال ، طوال ثلاثة ايام وثلاث ليال ، بالأعياد القرنيّة *Jeux Séculaires* التي كانت تحيي ذكرى تأسيس روما ، وذلك باستمطار البركات السماوية على المدينة الخالدة وعلى سكانها .

وبعد الجهود التي بذلها العلماء لِسَبر مشاعر اوغسطس الدينية ، وتحليل نوازع نفسه الدفينة، من حيث حقيقة موقفه من الدين ، يبدو من المستحيل اليوم ، التشكك في اخلاص سلامة نواياه او الارتياب في صدق عواطفه الدينية الصادرة عن إيمان حي . فالعمل الذي انجزه في هذا المجال ينسجم كل الانسجام مع العمل السياسي العظيم الذي قام به والذي رمى منه الى اصلاح الدولة والنظام الاجتماعي القائم في الامبراطورية . غير ان النجاح الذي اصابته السياسة العـــامة التي انتهجها لا تسمح لنا بان نرى فيه غير مصلح واداري ماهر، كما ظهر بالفعل رجلاً شديد الايمان برسالته . فاخلاصه يبرز بهـــذا الاستمرار في العمل الذي اضطلع به ، وبمواصلة الجهد فيه ، والإستدامة عليه ، وفي مداخلاته المتكررة ، وفي سخائه وبذله على شؤون الدولة واصلاحها ، وفي هذا الأهتمام الذي برهن دومـاً عنه والذي طالما نوه به وألمع اليه باسهاب وبشيء من الرضى الذاتي ، في كتابه : « امور الحكم »،وفي خطبه التي شدد فيها على هذه الامور وبالاخص على هذه العناصر الجديدة التي اقحم بها الديانة الرومانية في محاولته اصلاحها والرفع من شأنها . وقد ادخل على هذه الديانة التي كانت عبارة عن طقوس دينية تشير الى هذا الترابط بين الألوهية من جهة ، وبين المؤمن او جماعة المؤمنين ، من جهة اخرى ، شعوراً حياً اتصف بالعمق ، وصدق العاطفة ، وهذا الوقار والجلال الذي اضفاه على الاحتفالات الدينية الرسمية . فاخذه بالخرافات والاساطير جعله يستنطق الأحلام التي تراوده ، ويطلب تفسيراً لهـــا ، ويعتمد على زجر الطير ، وتعليل الحوادث الطارئة التي تملأ النفس دهشاً : كالصواعق والالتقاءات المفاجئة ، والحوادث العادية في الحياة ، وكلها ظواهر طبيعية حاول الرومان ، منذ القدم ، ان يلبسوها معنى خاصاً ، وغيرها من الامور التي يعلقون عليها في الخارج ، مدلولاً رمزياً خاصاً ، كالطالع الذي اخذ له وهو بعد حدث يافع ، وبرج الجدي الذي ولد تحته ، وهي طوالع خلدوا ذكرها بنقشها على احدى قطع النقود الرومانية ، كما حُفرت حفراً نافراً ، على رصيعة عُرفت برصيعة « فيينا » . وقد تأثر هو وبطانته تأثيراً عميقــاً بالفيثاغورية الرمزية ، كما راح يستلهم بعض الطقوس المستمدة من الشرق الهليني وأبى ان يدخل يوماً هيكلاً في مصر ليسجد للإله ابيس او هابيس(*Apis*) ويقدم له القرابين، وامتدح حفيده لأنه رفض ان يقدم القرابين، هو الآخر، لإله اليهود في القدس، وحظر الاحتفال بعيد إيزيس على ارض روما ، بينما أظهر مشاعره الدينيـة نحو الآلهة اليونانية المنشأ والمصدر ،

المشهود لها بالحسب وشرف المحتِد . وقد علّق أهمية كبرى على اشتراكه بأسرار الفسيس ، والاعياد القرنية التي حدد وقوعها بدقة كلية ، هذه الاعياد التي لقحت التقاليد الرومانية بأشياء كثيرة استمدها من الميثولوجيا عند اليونان وديانتهم وطقوسهم العبادية . كل هذه الامور تشير بوضوح الى انه صدر في الحركة الاصلاحية الدينية التي قام بها ، عن يقين صادق وايمان حي وطيدين ، وانه لم يرض او يقنع بنظام ديني ، حرفي ، جامد ، بـــل اراده ان ينبض بعاطفة دينية مشبوبة .

ليس من يُنكر قط ان الحركة الاصلاحية الصادقة التي قام بها تركت اثراً عميقاً في التطور الادبي الذي طلع على المجتمع الروماني . فلم يستدع عمله الاصلاحي بين الطبقات الشعبية الوسطى والدنيا جهداً كبيراً ، لأنها كانت ، على الاجمال ، بمعزل عن موجتي الكفر والالحاد اللتين غمرتا الطبقات العليا ، ولأن مثل الامبراطور وسلوكه كان له أكبر الوقع كما كان أكبر مشجع لها . فالشواهد الكثيرة التي يمدنا بها علم الآثار ، والرُقم القديمة التي عثر عليها المنقبون في ايطاليا وفي غيرها من الولايات الرومانية ، تنطق عالياً بما كانت عليه هذه الطبقات من عاطفة دينية ملتهبة بالرغم مما شابها من خرافات صبيانية . اما الطبقة الاجتماعية العليا التي غمر الكفر والالحاد معظم بنيها ، فقد انقلب فيها الوضع فجأةً . ويميل المرء الى الاعتقاد بأن طيباريوس ، وهو من أتباع مذهب العقليين ، كان خاتمة الملحدين ، اذ ان استلطاف الامبراطورة بلوتين لتعلم الفلسفة الابيقورية ، كما تشهد على ذلك ، احدى النقائش التي عُثِر عليها في اثينا ، لا يستدعي قط ، تسلم ارملة الامبراطور ترايانوس بالنتائج التي تفضي اليها تعاليمهم . وليس من الحق ولا من العدل بشيء ان نعزو الفضل كله لنفوذ اوغسطس وسطوته . فالقلق النفسي الذي استحوذ على نفوس النـــاس خلال الحرب الاهلية الدامية كان له تأثيره الظاهر ، ولا شك ، هو الآخر ، اسوةً بهذه العقائد والفلسفات التي قدمت من العالم اليوناني . وليس من الصدفة بشيء ان يكوّن عهد اوغسطس الطويل الذي شهد مطلع الامبراطورية ورافق نشأتها ، من هذه الناحية ، نقطة الانطلاق لتطور حاسم خلاق .

الفلسفة والدين

وهذا التطور الذي اخذت الامبراطورية بأسبابه ، مهّد لازدهار التعاليم والنظريات الفلسفية الكبرى ، كما اسهم في النجاح الذي لقيه الناهضون بالدعوة لها والعاملون على نشرها ، بحيث لو اخذنا نبحث ، منذ الآن ، في تعاليم هـــذه الفلسفات ونمعن النظر في مبادئها ، قبل ان نتفرغ لدرس الحياة الفكرية والادبية التي ازدهرت في ارجاء الامبراطورية اذ ذاك ، لكنا وقعنا في مغالطة فاضحة ، ليس من حيث الشكل فحسب ، بـل من حيث الاساس ايضاً .

بين هذه المذاهب الفلسفية ، يمكن ان نضرب صفحـاً ، عن ذكر ، الفلسفة التشككية أو السفسطائية التي لم يكن لهـا أي صدى ، والفلسفة الكلبية التي اتجهت بالأخص من الجماهير والشارع وبقيت كلتاهما شبه مجهولتين في روما . فالفلسفة الابيقورية (*Epicurisme*) وحدها ، كانت ملحدة ، معطّلة ، اذ أن الخوف والرجـاء المرتبطين بالعمل الإلهي المتوقع ، ينصبان

بالهدوء التام الذي تتوقف عليه سعادة الانسان . فقد عرفت هذه الفلسفة ان تحافظ بكل دقة، مصونة من كل تغيير أو تبديل ، على فكرة المعلم الذي وضع اسس هذه الفلسفة ، في مطلع القرن الثالث ق.م . كما عرفت أن تحتفظ بحب الناس له واحترامه . فقد اطلعت في روما ممثلها الاكبر لوكريس، اذا شئنا ان نضرب صفحاً عن هؤلاء الذين بعد ان شوّهوا تعاليمها وغيروا من مقالتها، راحوا يدعون ان فيها ما يبرر إشباع شهواتهم وملذاتهم . وقد خف تأثيرها، أفله في روما، بعد ذاك . أما في الشرق الهليني حيث راح أتباع هذه الفلسفة ينتظمون في نواد وحلقات خاصة ، فقد تمكنت من ان تحافظ على نشاطها الى عهد الامبراطور مارك اوريل ، فأسند اليهم أحد الكراسي الأربعة التي أسسها في أثينا ، ولم يتورع اتباعها من اظهار كفرهم وجحودهم في هذه المناقشات والمجادلات ، وفي هذه المظاهرات العامة التي قاموا بها إذ ذاك ، فأثاروا تشكك الجماهير ، واستهدفوا ، نتيجة لهذه الأعمال ، لردود خصومهم المفحمة ولرشقهم بالشتائم وبأقذع الكلام أحياناً .

فراحت الشيع والمذاهب الفلسفية الاخرى تتكتل ضدها، بعد ان تجند من رجال الفكر بينها من تصدى لها بالرد العنيف، اذ لم يكونوا ليفرقوا بين الفلسفة والدين . « يا بني ، كن ورعاً تقياً » كما جاء في نص يوجز جيداً الكثير من مأثور الكلام في هذا المجال»؛ « فالتقوى هي رأس الحكمة ، كما ان ليس باستطاعة أحد ان يبلغ التقوى الحقيقية بدون الفلسفة » .

أما الفيثاغورية *Pythagorisme* ، فقد تقدمت من أذهان الناس ديناً جديداً اكثر منها فلسفة . فقد عاف الناس التحدث عن نظرية الارقام والاعداد التي قال بها مؤسس هذه الفلسفة وعلّم ، كما انها تخلت ، هي ايضاً ، عن تحرياتها وتقصيّاتها العلمية التي كانت يوماً ، سبب شهرتها ومجدها . وبعد مراسم عديدة من التطهير، ومجالدة النفس بالصبر وطول الاناة ،وشظف العيش والاعتصام بحبل الاخلاق الفاضلة ، راحت تعلل اتباعها بالسعادة في الحياة الاخرى. وقد راح بعضهم ينتحل القدرة على اجتراح المعجزات والتنبؤ بالكشف عن الغيب كالمجوس . فقد نهج السواد الاكبر بينهم نهجاً ليناً في الحياة ، مفضلاً الانطواء على نفسه ، رحيماً ، حليماً ، وانقطع التأمل والتجريد العقلي ، مرتدياً لباساً من الكتان الابيض وهو مسترسل الشعر .

فالاعمال التي قام بها في روما نيجيديوس فيغولوس، في اواخر العهد الجمهوري وسكستيوس، وحفيده ، في عهد اوغسطس ، عادت على الفلسفة الفيثاغورية بنجاح عظيم ، كما يشهد على ذلك نشيد مبنى « الباب الكبير » *Porte Majeure* وقد أهمل هذا المبنى ، فجأة ، في اواسط القرن الاول ، لاسباب نجهلها . ولم تحافظ المدرسة الجديدة على حيويتها ونشاطها إلا في اليونان. فوقع بلوتارخوس (بلوطرك) نفسه تحت تأثيرها ، كما عدّت لها ، في عهد الاسرة الفلافية ، ممثلاً كبيراً في شخص ابولونيوس دي تيان ، الملقب بصانع العجائب *Apollonios de Tyane* .

لم يتمكن الافلاطيون من كسب اتباع لهم في روما، بينما تكاثر عددهم في الشرق الهليني، فقد عرفوا ان يقوّوا الدعوة الدينية التي بشّر بها مؤسس هذه الديانة ، وجعلوا من فكرة الله ،

أكثر من أي وقت آخر ، محوراً لتأملاتهم ، وحاولوا ان ينقّوا هذه الفكرة من الشوائب التي علقت بها ، وان يعيدوا اليها صفاءها ورواءها ، فجردوها وأبعدوها عن صفاتية العالم المادي ، واقاموا بين الله والعالم وسطاء ممثلين بهؤلاء الابالسة الذين لا حدّ لهم ولا حصر ، وبذلك انفتح المجال للأخذ بكل صور الديانة وأشكالها بما فيها من الخرافات والاساطير الشعبية .

ولم يختلف الوضع كثيراً هنا عما كان عليه في الفلسفة التي سجّلت أكبر قدر من النجاح اذ ذاك ، هذه الفلسفة التي طلع بها زينون والمعروفة بفلسفة زينون *Stoïcisme* . فبعد ان كان زينون رقيقاً عند احد معتوقي الامبراطور نيرون ، وطرده دومتيانوس من روما ليعود اليها من جديد في عهد هدريانوس ، تمكن أبكتيتس من مواصلة النهج ذاته الذي وضعه باناييتوس وأكمله بوزيدونيوس. وهكذا استطاعت فلسفة زينون ان ترفع باسم الفضيلة صوتها عالياً في وجه الاباطرة الذين عُرفوا بشططهم ، في القرن الاول ، كما استطاعت ، في القرن الثاني ، ان تؤثر عميقاً في حلقات المثقفين ونواديهم وجمعياتهم ، قبل ان يساعد مارك اوريل بسلوكه على تكثير اتباعها ولو في الظاهر . وبقيت هذه الفلسفة ناشطة في الشرق طيلة هذين القرنين . فقد عرفت تعاليمها بعض التطور اثر وفاة مؤسسها زينون ، واحتلت القضايا الادبية او الاخلاقية محلاً مرموقاً من اهتمامها ، كما انها جعلت من الإله الذي آمنت به وحدة نظام هذا الكون وباعث الحياة فيه . فالقدرية بقيت قائمة كما بقي من واجبات الانسان ان يرتفع الى مستوى النظام العام ليصبح بطاعته وخضوعه « جندي القدر » . إلا ان تابع هذه الفلسفة لم يلبث ان تبيّن الضعف البشري الذي عليه الانسان ، والحافز الذي يحفزه التعلق بالالوهية ، الا وهو القلق المستحوذ عليه أكثر من دافع العقل . وكان بحاجة لمن يُقنعه بأنه في حراسة الالوهية التي تسهر كذلك على الانسان ، فكلاهما موضوع حبها . وقد برهن مارك اوريل عن تقوى مفرطة حتى حدود الخرافة ، مُعنياً نفسه بتقديم القرابين والاضاحي وبطوالع الغيب ، حتى ان بعضهم تاهوا وراء رمزية سقيمة .

العناية الإلهية

تلاقحت هذه النظريات الفلسفية الدينية وتمازجت . ولم تبق على صفائها سوى الفلسفة الابيقورية ، وذلك بفضل ما عرفت به من صلابة العقيدة؛ وقد قبست مقالات فلسفية أخرى كثيراً من تعاليمها . وقد تكاثرت أسباب التلاقي والاتصالات بين هذه المذاهب الفلسفية لكثرة ما بينها من تجانس وتقارب في نزعاتها الدينية . وزاد هذا الاختلاط فيا بعد ، لما قام من تجانس بين المبادىء الاساسية لتعاليمها وبفضل اتصالات الحياة العامة ، باستثناء الاتصالات التي قامت بين مختلف فئات هذه الشيَع . وقد تفادوا المجادلات الدينية ولاسيا بين اتباع هذه الفلسفات التي عرفت بمشاحناتها الشديدة في اقطار آسيا الصغرى المتهلّينة .

فلا عجب ان يوجد بينها في امور الدين ، من يقول بوجود عناية إلهية او ربانية ، وان اختلفت هذه التعاليم فيا بعد ، حول نسبة تدخل هذه العناية في تقرير مصائر الحياة على الارض، ولا سيا حياة البشر ، اذ كان الاعتقاد السائد لدى العموم انها تتدخل في بعض الظروف الخاصة، اما مباشرة او بالواسطة . وقد توصلت الى شيء يشبه الإجماع فيا بينها ، إذ سلمت بأن هذه

العناية هي عطوفة على الانسان ، فيقف حيالها موقفاً كله أمل ورجاء ، يستنزل بركاتها ، كلما أنس من نفسه الضعف والتعاسة ، وهو ابداً على استعداد ليعرب لها عن شكره وامتنانه بجميع الوسائل التي بين يديه .

ومع ذلك ، فهذه الفلسفة التي خضعت لتطور ذاتي ، هل بقيت صالحة لتكون هادياً أميناً، أم انها اقتصرت على تطوير تعاليمها وفقاً لتيار عقائدي أو شعوري غلاّب خارج عنها ؟ فبدون ان نقطع في الامر نفياً او اثباتاً ، يكفي ان نرى ، على الاقل ، كيف توفرت جميع الظروف الملائمة لقيام شيء من اتفاق المشاعر بين الاوساط المثقفة وبين الطبقات الجماهيرية التي سيطر عليها الجهل فوحّد بينها بقدر الامكان . وبالفعل ، لم نرَ بين كل المدنيات التي قامت قديماً وتركت وراءها ما يحدثنا عنها ، مثل هذا الاجماع او الاتفاق التام . ومن الواضح جداً ان تحقيق مثل هذا الاجماع لا يتطلب ان يكون الشعب بلغ مثل هذا المستوى الرفيع المعقول . فالوضع ، على العكس من هذا تماماً ، اذ بقيت الاوساط المستنيرة في المجتمعات الهلينية ماضية في انطلاقها الى الامام ، منذ عهد الاسكندر ، أي متنكّبة عن النظرة العقلانية ، متوقفة عن تنقية الدين من المعطيات المادية . وهذا الانطلاق اشتد قوة واندفاعاً ، اذ انــه انتهى عند الكثيرين ، ولكن ليس عند افضلهم مع هذا – مثال ذلك مارك اوريل – الى الاقتناع عن بذل أي جهد قوي . أوليس من الاعتباط بمكان، ان نجد في هذا كله، اثراً لنظام سياسي آمر، سيطر على كل سكان الامبراطورية فخضعوا ، في مشارقها ومغاربها لرئيس او سلطان واحد ؟ فالصورة التي تجلت لهم في سلطة امبراطور كلي القدرة ، اوحت ، ولا شك ، بأكثر من سبب لمقارنتها بفكرة العناية الإلهية .

النتائج المترتبة على هذا الاعتقاد

وقد نتج عن مثل هذا الوضع ، في المجال الديني ، نتائج عدة . منها ما يتفق لعمري ، مع هذه المشاعر التي تأثر بها أوغسطس نفسه ، الا انها تجاوزتها بشكل غريب بعد ان اضفت عليها من إتساع وشمول كان من شأنه ان يسمّر الخوف في قلب اوغسطس . من ذلك مثلاً ، هذه العاطفة الدينية المفرطة التي تغلغلت الى اعماق شعور الانسان ، والتي ، ان قادته من جهة ، الى حلم معسول راودته فيه رؤىً من الاماني العذاب ، فقد عرّضته من جهة اخرى ، الى مواقف مخزية من التسكع والتذلل. ومن ذلك مثلاً الاعتقاد بما توجه هذه الآلهة من وعد ووعيد، بحيث يرى المرء نفسه مضطراً لتصديق بالعجائب والمعجزات تطالعه كل يوم لتفسير وتعليل ما يتعاقب عليه من بركات. ومن هذا الباب المسدوف ، اي الذي فتحه اوغسطس قليلاً، تدافعت الى الاذهان والنفوس والعقول اغرب العقائد تصديقاً وأصدمها العقل السليم ، فاستقرت فيها واستبدّت بها . فكيف السبيل بعد الآن ، للابقاء على هذه الحدود والسدود التي يعزون اقامتها الى اوغسطس ضد بعض الآلهة ، وفي وجه بعض العبادات والطقوس الغريبة المنشأ .

فقد سلموا ، بالفعل ، بوجود وسطاء او آلهة ثانوية ، بين العناية الالهية وبين عالمنا الهيولي

هذا. وبين هولاء الوسطاء من هو مجردفكرة، مجهول، غير معروف البتة. ومن الطبيعي جداً ان ينزل الانسان، حتى من كان منه عالي الثقافة، جميع آلهة الوثنية، هذه المنزلة: فالتضرع اليها ليس فيه ما يضر او يسيء. وهكذا يحافظ الانسان على الطقوس والعبادات التقليدية، وعلى مراسم عبادة هذه الآلهة وتكريمها. كذلك يحافظ على الاعتقاد بهواتف الغيب، اذ يرى ان باستطاعة الجن او الابالسة تقديم النصح لابناء البشر. ومها يكن، فالتقليد الوطني او ما ينزلونه منزلته، لم يعد في وسعه ان يقدم، في هذا المجال، ركيزة يمكن قبولها او التعويل عليها. فهذه العناية الإلهية التي تغمر الكون باسره، لا تعرف الحدود والسدود. فالتمييز بين إله وإله، غريباً كان ام يونانياً ام رومانياً، متهلينياً كان ام متليتناً، لا محل له على الاطلاق. فعلى نسبة استلطاف الناس لهذه الآلهة يأتي تأثيرها، مشروطاً بدرجة الاخلاص، وحرارة العاطفة، ونوع التكريم الذي يرفع اليها. وفي هذه المنافسة الحرة، فلا عجب ان تحظى الآلهة الغريبة او الاجنبية، ولا سيما آلهة الشرقيين بينها، بالمرتبة الاولى، وذلك بفضل ما تتمتع به من طابع غير رسمي، وبفضل مالها من غنى الرمز، وبفضل ما توحي من ثقة بالنجاة والخلاص.

ومع ذلك، ففوق الاسماء والكنى والالقاب والجنسيات تلاحظ المشابهات بأيسر مما تلاحظ الفروق، عند الذين لم تعطّل حرارة العواطف والرغبة في التمتع بالعطف والحماية، القوة العاقلة والناقدة في النفس. ومن هنا طلعت حركة التوفيق بين الاضداد المتباعدة التي ربما انتهت الى شيء من توحيد العنصر الالهي اينما وجد. وهذا بالذات ما حدا باديب بثينيا، ديون ده بروس الذي لقب بحق: «فم الذهب» الى ان يكتب في اواخر القرن الاول ما يلي: «أخذ البعض يدّعي ان ابولو، وهيليوس (الشمس) وديونيسيوس هم واحد، وانت تقول القول ذاته. واكثر من هذا بكثير يجمع عدد كبير من الناس ببساطة كلية. على ان يروا، في كل الآلهة مجتمعة، قوة واحدة، وقدرة واحدة، بحيث لم يعد من فرق قط، بين تكريم هذا أو ذاك، من بينها».

وأخيراً اخذ الناس يعللون النفس ان باستطاعة الابالسة، اخياراً كانوا أم اشراراً، حتى الصغار منهم الذين يسمون فوق ضعف البشر بكثير، ان يرغموا الناس، ببعض الوسائل المغرية التي لديهم، على التصرف حسبما يريدونه منهم. وهكذا نرى باشكالها المختلفة، اعمال السحر، والتعزيم والشعوذة آخذة بعضها برقاب البعض، في حياة الانسان.

وهكذا شهدنا طلوع ثورة دينية حقيقية، تجلت في الشعور الديني، بفوز الرمزية الفردية. اما الحياة الدينية فقد تلبست مظاهر لا حصر لها ولا حد، لم يلبث بعضها ان زال ومات، تاركاً وراءه مغزى الطقوس الدينية التي تجلى بها ومعناها، بينما استأثر البعض الآخر بكل الشهرة. فالمراسم الميتة هي التي احياها اوغسطس وبعثها حية منجديد. اما الحية منها فهي التي أقصاها او وضع لها حدوداً لا تتعداها. والتطور السياسي الذي اخذت الحضارة الرومانية بأسبابه انما تم وفاقاً للاتجاه الذي أراده اوغسطس واستطاع ان يوجهه. اما التطور الديني فقد تم بصورة معكوسة تماماً.

٢ ـ الوثنية وطقوسها

العبادات

من الجائز ان نمر سريعاً على ما يسمونه بالعبادات التقليدية، أي هذه الطقوس التي سِيرَ عليها في الديانة اليونانية اللاتينية ، وفي عبادة الامبراطور . فقد ازداد عددها : فالاولى منها هي عبارة عن فلسفات جديدة انضمت الى الايديولوجيا الامبراطورية ، وفقاً لاعراف سِير عليها في روما منذ عهد بعيد ؛ اما الثانية فتقوم في هذا التقليد المتبع عند الاباطرة وأعضاء أسرهم اذ يصبحون متألهين ومتألهات *Divi et Divae* عند وفاتهم . ولهذه الطقوس العبادية ميزة مشتركة تقوم في ارتباطها جميعاً بالدولة . وعلى الدولة تتوقف حياة هذه الطقوس واستمرارها وازدهارها ، والاحتفال بمواسمها بشكل انتظام ، اذ ان هذه القوى او الكائنات الالهية التي تتجه اليها مراسم العبادة ، هي الحارسة لروما ، وهي التي تلهم الحكام، وتهديهم الصراط المستقيم .

ولهذه الاسباب ، كانت اجهزة الدولة تحرص الحرص الشديد على الاحتفال بهذه العبادات بكل دقة . فالامبراطور يعطي فيها المثل الصالح ، كما ان مجلس الشيوخ لا يمكن له ان يتهاون يوماً بأمرها . فليس من منصب ديني إلا ويُملأ ، وليس من رتبة دينية إلا ومن يمارسها ، اذ لكل واحد دوره وعمله المحدد ، في هذه الرُّتَب التي تتدرج صُعُداً لتبلغ أعلى المراتب . فالوظائف الكهنوتية الصغرى والمحلية كانت تُمهّد الطريق لاصحابها الى البورجوازية ، بينما ينال الشفاليه درجات صغرى تخول حاملها رؤس الاحتفالات الدينية التي تقام في ضواحي روما وأرباضها، كما كان يؤخذ من بين اعضاء مجلس الشيوخ، اعضاء الجامع الرومانية. اما الامبراطور فكان يرقي امرأً جديدة الى مرتبة الحاكمية وذلك لتوفير ما يلزم من الموظفين لإشغال بعض الوظائف الخاصة ، ككهانة المشتري وجوبتير ، مثلاً . ولم تكن المعابد والهياكل يوماً ، أكثر منها عدداً ، ولا أبهى منها زينة ، كما لم تكن الذبائح والاضاحي أسمى منها وأبذل . والاعياد لا افخم ولا أبهى، موزعة على ايام السنة. والرغبة في ممالأة الشعب والتزلف الى الجماهير، والظهور بمظهر السخاء والبذل والعطاء ، كل ذلك جعل سراة القوم واعيانهم من الامبراطور الى حكام المدن الصغيرة يندفعون في هذا المضمار . وعبثاً حاول مارك اوريل تحديد عدد الاعياد الرسمية التي تقفل فيها ابواب المحاكم بجعلها ١٣٥ يوماً في السنة . فما كاد يتوارى عن المسرح حتى عادت الامور الى مجراها الاول باندفاع لا يقاوم . وكان إطار هذه الاعياد وجوّها خالياً من كل تقوى او خشوع حقيقي ، إلا اذا رغب المرء ان يرى فيها تعبيراً خاصاً ومدلولاً يبتعد كثيراً عن الفكرة الاولى .

ولكن لم يكن في الامكان ان تزدّ هذه التقوى الى الرغبة في تقليد روما وذلك عن طريق تبني حضارتها ، ولا إضفاء شيء عليها من عواطف الشكر والولاء لها . وقد راحت المدن في كل مكان، ولا سيما في الولايات الغربية التابعة للامبراطورية الرومانية حيث حركة البلدنة كانت

ترادف التقدم الثقـــافي والاجتماعي والقضائي ، تتبنى آلهة الديانة الرومانية . فالمستعمرات الرومانيـــة واعضاء المجالس البلدية كان يهمهم جداً ان يشيدوا « كابيتول » أي هيكلاً خاصاً بعبادة جوبتير « العظيم » الخيّـر » الكبير » ؛ فكان ذلك التكريم موجهاً بالفعل لروما ولمظاهر حضارتها الخارجية أكثر منها لعقائدها . قـد تكون عبادة الامبراطور في الاساس ، أكثر تعقيداً ، اذ انه "حدَثٌ" تبدو مظاهره ولا شك ، عفويةً طوعية ، قامت بها جماعات مــن متوسطي الحال ، بحيث أصبحت هذه العبادة، بالضرورة، متشابهة بالنسبة لاستمرارها وللازدياد المطرد لجماعة المتألهين (*Divi*) الذين كان لا بد من تصنيفهم الى فئات حسب الأمر . زد على ذلك ان تكاليف هذه الطقوس الدينية الباهظة ، كثيراً ما أرهقت ، ان لم يكن في روما ، فأقله في البلديات والنواحي الاقليمية، موازنة هذه الهيئات والمنظمات، كما انهكت موارد الخاصة . وعندما ذابت هـــذه الثروات الخاصة امام النكبات والازمات الاقتصادية ، اخذ اصحابها يُعْرضون عن الوظائف والمراتب الكهنوتية ويتحولون عنها. وهكذا زهد الناس بهذه الوظائف كما زهدوا بالوظائف البلدية الاخرى ، مما حدا بالحكومة على فرض هذه الوظائف بالقوة ، كما اجبرت البعض على قبول وظيفة رئيس العشرة *Décurion* . غير ان لجوء السلطة الى الاساليب ذاتها ، انما يعني ، ان هـــذه الوظائف ، في نظرها ، هي على مستوى واحد في كلا الجهازين الاداري والسياسي .

العبادات الاجنبية : الغرب

فالحياة الدينية الحقة لم تكن هنا في روما . فقد كانت خارج روما ، حيث كان باستطاعتها ان تجد ، كما وجدت فعلاً ، الآلهات والعبادات التي لم يكن تبنيها من قبل الدولة والأعتراف بها، ليجعل منها مؤسسات رسمية ، كما كان من شأنها ان تتحجر وتجمد من جراء إشراكها بالاحتفالات الرسمية . فباقتباس روما هذه العبادات: تارة من رعاياها ، وطوراً من الخارج ، جعلها تصدر عن تقليد عرفته من عهد بعيد ، وسارت عليه طويلاً . فقد عرفت ان لا تقصر نفسها على السلبية ، بل استقبلت باهتمام كلي ، وبحثت جادة ، عن مؤثرات دينية طلعت من ايطاليا واليونان . فرحابة الامبراطورية واتساعها وسّع امامها مجال القبس في امور العبادة والدين ، لم تقف الحدود الجغرافية حائلاً دون عملية الاختيار والاصطفاء . فالعلاقات التجارية التي كانت تستأنف بسهولة في فترة ما بين حربين ، كانت تحمل مع السلع التجارية ، آلهة وعبادات جديدة .

فباستثناء افريقيا القرطاجية القديمة ـ وقرطاجة جزء لا يتجزأ من الشرق ـ كان من الطبيعي جداً ان يقل اقتباس روما من الديانات والعبادات المعمول بها في الغرب. فهي لم تقف موقفاً معادياً لهذه العبادات، ولم تضطهدها قط، انما تشددت في تحريم القرابين والذبائح البشرية، كما راحت تجتث من الاساس ، في غاليا ، لاسباب سياسة محضة ، المنظمات الدرويدية وتشكيلاتها الكهنوتية . فالمدنيات التي قامت فيها مثل هذه الطقوس الدموية ، هي من التأخر ، في نظرها ، بحيث لم يكن بين هذه العبادات ما يغري بالاقبال عليها . ورغبةً من الموظفين الرومانيين في اكتساب

عطف احد الآلهة المحليين واستمالته ، وعملاً بإيمانهم بقوة إلهية شاملة تتجلى بكائنـات متعددة الاشكال ، راحوا يقدمون ، هنا وهنالك ، حتى من كان بينهم من أصل ايطالي ، وفقاً لظروفهم الادارية والتنقلات التي تفرض عليهم من جانب الادارة المركزية ، بعض القرابين والنذور لبعض هذه الآلهة التي هي موضوع عبادة محلية ، في اسبانيا او في غاليا . ثم ان طبيعة الجيش الروماني وطريقة تشكيله وتكوينه من عناصر عرقية متباينة ، وتنقل فرق هذا الجيش من مركز الى آخر ، كثيراً ما تسبب في توطين احد الآلهة الغريبة عن البلاد، في المنطقة المرابط فيها الجيش ، فتظهر فيها طقوس وعبادات جديدة . ففي بعض فرق الخيالة مثلاً ، نرى الإلهة إبونا الغالية ، تراسم بصورة غير متعادلة، عبادة الإلهة التراقية الاصل« هيرون »التي انتشر تكريمها والتعبد لها بين الاوساط العسكرية المحلية ، وغير ذلك من الشواهد والامثلة التي تبقى ، مع ذلك حوادث فردية لا كبير شأن لها. فروما لم تقتبس من الغرب ، في الدين ، شيئاً يذكر . فهي ، على عكس ذلك تماماً ، اعطت الغرب كثيراً من طقوسها وعباداتها الاصيلة كما اعطته عبادات اجنبية بعد ان اضفت عليها لبوساً رومانياً ، او انها كانت ممراً لهذه العبادات في انتقالها من بلد الى آخر .

تغرق الشرق وتساميه الديني

وقد حدث عكس ذلك في الشرق تماماً ، حيث نشاهد عملية إلباس الآلهة المحليين لبوساً رومانية . فالإله بعـل ، الذي كان موضوع عبادة في مدن سوريا كهليوبوليس .(بعلبك) ودمشق ، والإله دوليخـه الذي كانت عبادته تقام في مقاطعة كوماجين والذي اخـذ الاغريق بتسميته زفس استحال المشتري « جوبتير » عند الرومان ، دون ان يجري تجريده من الصفات والمناقبية التي عرف بها في مواطن عبـادته الاصلية ، كما حاول الغرب السير على هذا النهج ذاته مع الآلهة التي اقتبسها ، دون ان يبدّل من عباداتها وطقوسها الدينية . فقد اقتبسـت روما الكثير ، دون ان تعطي الشرق شيئاً يذكر ، وذلك بالرغم من موقف اباطرتها المعارض ، الذين لجأوا ، للحد من هـذه الحركة ، الى اساليب شتى من العنف والشدة كالنفي ، ان لم تقل الاضطهاد ، صحبها حوادث اعدام بالجملة . فبعد ان تم لاوغسطس النصر على انطونيوس وكليوباترا ، اخذ على عاتقه إصلاح الديانة الرومانيـة وبعث مناسكها ومراسمها من جديد ، فوقف في وجه هذا التيار للحد منه . وسار سيرته طيبـاريوس ونهج نهجه بصورة اشد واعنف . ثم عقب ذلك فترة من التساهل والتسامح والتقبس من جديد لم يكن الاباطرة قط بغرباء عنها .

هنالك دوافع كثيرة وبواعث عدة لهذا الاندفاع الشديد الذي لا يقاوم. فالشرق أمدّ روما بالكثير من الأفكار الجديدة والنظريات الفلسفية على اختلاف ألوانهـا من سياسية واقتصادية وفكرية، كما أمدها بالكثير من الرجال والأرقـاء الذين امتازوا بحدة الذكاء وبالمرونة، وبالخدمات التي أدّوها لأسيادهم ، كما أتاحت لهم حركة العتق التي نشطت بين صفوفهم ، مخالطة جميـع الطبقات الاجتماعية . ومع هـذا الدّفق من الهجرات ، وهذه المجاري الفكرية التي دخلت روما، دخلها في الوقت ذاته ، عدد كبير من آلهة الشرق وما لها من عبادات ومراسم وطقوس، عرفت

ان تستبد بنفوس الرومان ، وتغلب عليهم مشاعرهم ، وذلك بما أضفت على الحياة الدينية من أشياء لم تكن معروفاعندهم من قبل، لقيت هوىً في قلوب الرومان لإشباعها منازعهم الروحية، وعرفت ان تجتذبهم وان تُغريهم على اعتناقها . وهذا الاغراء او الانجذاب خضع له الاغريق من قبل ، قبل ان تضمهم فتوح الاسكندر وجهاً لوجه مع الشرق ، فكان لها الوقع الآمر نفسه على الرومان ، للأسباب ذاتها . فهذه الطقوس الجافة والمراسم الباردة التي كان يحتفل بها رسمياً باسم الدولة وتجري برئاسة أولي الامر فيها ، كانت تتجه من الفرد دونما نظر الى وضعه الاجتماعي ، اذ كان يجد نفسه معها امام آلهة قريبة الى نفسه، بعد ان احسن تجريدها مما أضفوا عليها من مسحة الخلود والجبروت والقسوة ، وهي آلهة جاشت مثله بالاحاسيس والمشاعر : كالخوف والقلق والحب، تتألم وتموت ثم لا تلبث ان تنفض عنها غبار القبر، ناهضة مشرقة، جياشة بالحياة، تشبهاً بالطبيعة . وكثيراً ما كانت هذه الطقوس تثير في نفسه الشجى والأسى، كما تثير فيه الرجاء بالخلاص بعد قيامه ، بما توجب عليه من مراسم الوضوء والتطهير والنضج ، جسدياً وروحياً ، بعد ان زكت وطابت بهذه القرابين التي يرفعها لها عن رضى وطيب خاطر . ففي مشاركة القوم هذه الاحتفالات وما يجري فيها من طقوس العبادة ، وفي مشاركتهم الأسرار الدينية ، كانت نفوسهم تقع في شبه انخطاف وذهول روحي ، بعد ان خلُصت من ادران المادة . وكانت هذه الطقوس في مراسمها المختلفة، تفسيراً لهذا الكون وتعليلاً لأسرار الحياة، وذلك باشراكها الفرد نوعاً ما ، في عمـل القوى الغامضة التي تسيطر على مصائر الانسان ، كما تمطيه ، عن طريق السحر والنجامة ، مسحة من العلوم الطبيعية. وهكذا أشبعوا بهذه المراسم ، شتى الرغائب والمنى التي كانت تجيش في النفس البشرية ، بينما طقوس الاحتفالات الرسميـة كانت تجري في جو بارد ، جاف ، عار من الوقار الرسمي ، برئاسة وإشراف ممثلي السلطة .

الفوران الديني في الشرق

ولكن هيهات ان يأتي هذا الفوران الديني خالياً من الشوائب . فقد راح فريق من المشعوذين والمخرقين، والسَحَرة والمنجمين، والمجوسية والمريدين الكلدان ، واتباع إيزيس ، ممن عجّت بهم روما افواجاً وفرقاً لا حد لها ولا حصر ، يستثمرون سذاجة عاطفة هذه الجماهير الدينية ، بالرغم من سهر الشرطة واستعمالها الشدة احياناً، وذلك بما يأتونه ، مأجورين، من ألاعيب تتزيّى بالخداع والغش والتضليل . فاذا ما رأينا انفسنا عاجزين اليوم عن تحديد التبعة التي تقع على جوفنال في ما نمّ به من الافتراءات التي غلّف بها الشتائم التي كالها ، فقد وجد في هـذه الاعمال المشبوهة ما يغذي حقده الحقين . ولكي يُلهبوا الاخيلة ويهيّجوا الأعصاب ، لم يكونوا ليتورعوا قط عن اللجوء الى أقذع الوسائل وان يفتعلوا الحوادث الغامضة، ليثيروا دهش الجماهير فيقيموها ويُقعدوها، فينصبون في الأماكن التي تجري فيها حفلات الاشتراك بالأسرار الدينيـة ، التماثيل الناطقة او المتحركة ، وأطياف من الصوت والضوء، والابواب التي تنفتح او تغلق من ذاتها ، والتنكر بالازياء والملابس الغريبة اثناء الحفلات الدينية ، والآلات الموسيقية الصائتة ، والهتافات الهستيرية والصياح المهتاج . لمن الطبيعي جداً

ان تتحرك مشاعر الجماهير وان تهتـــاج ، وان يطفو عليها زَبَد الطفيليات و نزَق المتطرفين والروافض وأعمالهم النكراء : فالحفلات الخاصة بقطع العَنْفص *gui* ، وتمثيل بعض الاسرار الدينية المخالفة للآداب العامة ، او حفلة رش المؤمنين بدم الذبائح ، كلها أمور وشؤون من شأنها ان تثير في نفوسنا اليوم الانقباض والاشمئزاز. ولكن ، هل كانت بعض الطقوس الدينية الأكثر مراعاة للتقاليد ، بأقل إثارة لأذواق المعاصرين اليوم ؟ ان تاريخ الاديان المقارَن يقدّم لنا أكثر من مَثل وشاهد على ان التقوى والورع كثيراً ما تلبّسا بمظاهر انقبضت لها النفوس ، وأثارت المقت والكره، ومع ذلك يجب ألا يغرب عن بالنا قط، ان الطقوس الدينية الشرقية التي اقتبسها الرومان ، بعد اليونان ، غذّت نفوساً وأعدّت قلوباً عُرفت بنبل الاخلاق والمبادىء السامية.

وقد زخر الشرق بمثل هذه الديانات وخصبت فيه العبادات . وهذا الخصب الذي افترّ عنه منذ ألوف السنين ، لم يبد ما يشير الى انـــه أصيب بالنضوب والنزوح . فطلوع النصرانية ليس بالشاهد الوحيد على هذه الخصوبة . فلنقتصر هنا على الدليل الذي تمدنا به ، بكثير من التفاصيل المثيرة ، وان لم تكن كلهـا صحيحة ، الرسالة النقدية التي وضعها لوكيانوس *Lucien* بعنوان : « الكسندروس او النبي الكاذب » يقصّ فيها على لسان احد الملحدين الكـفَـرَة ، مولد احـد الآلهة المعنيين بالكشف عن طوالع الغيب ، في أحدى مدن بفلاغونيـا الصغيرة ، يُعرَف باسم ابونوتيخوس ، في عهد الاسرة الانطونية . وهذا الإله تلبّس صورة أفعى لها رأس انسان ، عُرفت باسم غليكون وهي تجسيد للإله أسكلابيوس . وقد راح الكسندروس يوحي من الآلهة يستقبل الإلهة وأحلها محلاً لائقاً بها ، في احد المعابد ، واخذ يجيب باسمها على الاسئلة التي يتلقاها او تطرح عليه، ويردّ عليها بهاتف صوتي يخرج من قمقمة جهاز تألف من عدة مواسير او انابيب رُكّبت على وضع خاص . ومثل هذا الهاتف كان يكلف طالبه أغلى بكثير من الهواتف العادية الاخرى . وسواءٌ أصحّت ام لم تصح، تُهم التضليل والخداع التي عزاها لوكيانوس القائمين بهذه الألاعيب ، فالمهم في الامر تلاقي مثل هذه المعلومات وصَهْر هذه التقاليد والاساطير المتباينة الاصل والمنشأ في ألفة تامة ، وذلك بفضل مذهب توحيد الآراء ، في الحقلين الروحي والطقسي الذي كان ضارباً أطنابه اذ ذاك . كذلك من المهم ايضاً هذا النجاح البعيد ، المستمر ، تلقـــاه هـــذه العبادة الجديدة ، وهو نجاح بلغ من الشدة والقوة بحيث ان احد اعضاء مجلس الشيوخ ممن تولوا منصب القنصلية في روما من قبل ، وأصهر فيما بعد ، لالكسندروس المذكور أعلاه، نقل الى الامبراطور مارك اوريل ، هاتف غيب ، يدعو الامبراطور لإلقـاء أسدين في نهر الدانوب فيؤمّن بذلك، النصر على البرابرة. اما شاهد الاستمرار فيقوم في ان، بالرغم من وفاة الكسندروس، حوالي عام ١٧٠ ، نرى نقوداً تضرب في بلدة ابونوتيخوس التي اصبحت تعرف في عهـد مارك اوريل بـ : إيونوبوليس ، وهو اسم نجهـــل وجه التسمية فيه ومعناه ، انما بقي باسمه الحديث : اينبولي ، وتحمل صورة غليكون ، بعد ذلك بخمس وسبعين سنة .

هذا المثل ضربناه، يرينا الى اية درجة بلغ الاختمار الديني في ربوع الشرق بعد الازدهار المظلم

الذي نعمت به الامبراطورية ، والسهولة التي كانت تتم بها اتصالات الناس بعضهم ببعض ، فجاء ذلك يكمل الفوران الديني والغليان الروحي الذي طبع العهد الهليني من قبل. فعبادة الإلهة تيخه خسرت كثيراً من جراء الطابع الرسمي الذي اتسمت به عبادتها . ومثل هذا الأمر لم يخل من اثر بيّن على طالع الامبراطور والمدينة او الجماعة. فالاهتمام بامر الخلاص، وتوق النفس البشرية اليه، كل ذلك أوجب حلولاً اكثر فردية وتحللاً من الرسمية الجامدة : فلم تلق يوماً الآلهـة الصانعة العجائب، والآلهة التي في طقوس عبادتها اسرار، من الرواج، ما لقيته ، اذ ذاك . فقد تكاثرت انواع هذه الآلهة واصنافها، وكانت تماثيل سيرابيس وهي من الفئة الاولى، تنافس اسكلابيوس، كما نافست تماثيل ديونيسوس ، وهو من الفئة الثانية . كذلك انتشرت عبادة هذه الآلهة الشفيية واقيمت لها هياكل ومعابد في اماكن كثيرة : منها هيكل برغاموس على اسم اسكلابيوس ، حيث رأى والد الطبيب المشهور جالينوس حلماً أوحي فيه اليـه بوجوب تعلم ابنه الطب ونال هذا الهيكل من سمة الشهرة ما وازى الشهرة التي تمتع بها هيكل أبيدور . فاينما يتجه المرء كان يطالعه ناطقون بهواتف الغيب ، من كل شكل ونوع ، يتوافد اليهم، الكشف عن طوالع الغيب واسرار المستقبل ، اكثر الناس اخذاً باسباب الثقافة ، وتصديقاً منهم للغرائب والمدهشات التي طالما نعتوها بالمعجزات ، او سعياً وراء تفسير الرؤى والاحلام. وانتشرت بالتالي اعمال النجامة لاستطلاع طِلع الأقدار المخبوءة أيما انتشار . وهذا الاتجاه العارم الذي بلغ الهوس ، نحو القوى الخارقة الطبيعة ادى الى حركة شاملة من تبادل الطقوس والعبادات ومزجها بعضاً ببعض .

العبادات الشرقية في الغرب

كل هذا السيل الجراف من عديد الآلهة ومناسك عباداتها وطقوسها الغريبة الطابع ، سواء أصدرت من الشرق عامة ، او من هذا الشرق الخاضع لسلطة روما وسيادتها ، او من هذا الشرق الأبعد مثلاً ببابل وايران ، الخاضعتين للفارثيين ، اندفع نحو الغرب ، فاغرق ايطاليا وروما بسيله ليتجاوزهما أبعد الى الغرب: الى الولايات اللاتينية اللسان واللغة .

فما من إله شرقي قط ، الا ونرى أتباعه ومريديه يروّجون له لدى جميع الشعوب ، وفي كل صقع وناد ، جاهدين مجاهدين لكسب المزيد من المريدين . فمن المغرب الاقصى الى اصقاع بانونيا في شرقي اوروبا ، نرى افراداً في الجيش الروماني من اصل عربي يُحيُون مناسك آلهتهم الوطنية ويقيمون مراسم عبادتها ، كالإلهة ثيانذروس ، ومنف . من الثابت كذلك ان بعض المواطنين الرومان من الافارقة اصلاً، ادّوا خدمتهم العسكرية ، في الفرقة « التدمرية » فادخلوا طقوسهم الدينية الى بلدة القنطرة في المغرب ، ومنهـا جنوباً الى لاغوات ، وقدموا نذوراً لإله بليرا : ملاغبيل . فمن غير ان نأخذ بتعداد هذه الطقوس والعبادات المختلفة ، نقتصر منها على تلك التي لقيت عبادتها رواجاً اكبر . « قرينة الآلهة » سيبيل، الفريجية الاصل ، جرى توطينها في روما منذ نهاية القرن الثالث ق.م . الا ان عبادتها وتكريمها وفقاً للطقوس الشرقية ، لم تصبح رسمية الا في عهد الامبراطور كلوديوس ، عندما أدخل الى روما عبادة الثالوث الذي تألف من ابنها

وعشيقها أتّيس . وقد احتاط الامبراطور للامر عندما راح ينظم هيئة الكهنة الذين عهد اليهم بالكهانة لهذه الإلهة . الا ان اهم مادة في هـــذا التنظيم بقيت حبراً على ورق : ففي الحين الذي كان فيه القوّامون (*Archigalles*)على هذه العبادة يُختارون من بين المواطنين الرومان وتجري تسميتهم في روما ، من قبل مجلس الشيوخ ، وفي الملحقات ، من قبل الادارة المحليـة ليتولوا رئاسة خدمة المعابد ، كنا نرى عُبُداً (*Galles*) من الخصيان ، يمارسون ، بالرغم من الشرائع والقوانين التي كانت تمنع الخصاء وتحرمه ، هذه المراتب الدينية في بلدان لا تقع في آسيا ، وهي القطر الوحيد الذي سمح بقيام هؤلاء الخصيان بمثل هذه المراسم .

وكان هؤلاء الكهان يحتفلون بهذه الطقوس ، علانية في شوارع المدن خلال فصل الربيع ، في مواسم يستمر الاحتفال بها ١٣ يوماً متواصلاً . وكان يسبق هذه الاعياد مراسم من الصوم ، وطقوس من التطهير تشبه هذه الطقوس التي كانت تذكرنا بقصة أتّيس وما اليهـــا من نوح النائحين وندب النادبين ، وتشويه الرافضة اجسامهم بصورة وحشية تقشعر منها الابدان ، خلال حفلة الجنائز ، تمازجها قهقهات صاخبة من الضحك خلال تمثيـل عملية قيامها من بين الاموات . والحفلة الوحيدة المعروفة تفاصيلها لدينا بالتدقيق ، هي تلك الحفلة التي كان يرافقها ذبيحة الثور *Taurobole* او الكبش *Criobole* ، اذ كانت ترمز الى انتقـــال عنصر الحياة من الضحية الى الانسـان الذي يُنضح بدمائها ، فيكون ذلـك عربوناً لخلوده ، ويُرمز الى دفنه في القبر بوجوده في حفرة ، والى تنقيته من ادران الخطيئة وتجدده ثانيةً . كما ان في ذلك إشارة الى الولاء السياسي وان كنا نجهل وجه الرمز في هذه الضحية التي كثيراً ما تُقدّم لخلاص الامبراطور ، واحياناً لخلاص افراد أسرته .

وكان يشارك سيرابيس في هذه العبادة ، الإلهة المصرية إيزيس التي ما لبثت ان تغلبت عليها . فبعد ان حظّر كل من اوغسطس وطيباريوس الاحتفـــال بمراسم هذه العبادة في روما ، راح كاليغولا يعترف لها بحق المواطنية . ومنذ ذلك الحين احتُفِل بأعيادها وطقوسها بكل حرية دون ان يثير الاحتفال بها أية معارضة . وما ان أطلت سنة ٦٩ حتى كان لها هيكل ارتفع على هضبة الكابيتول . واضطر يوماً الامبراطور دومتيانوس ان يتنكر بزي أتباع ايزيس لينجو من مطاردة جنود خصم ابيه له . وكانت مناسبة الاحتفال بأعيادها مجلى لحشود شعبية ضخمة ، ويقوم على مراسمها طغمة من الكهان بثيابهم البيضاء ، حالقي الشعور ، يسيرون وئيداً ويقيمـون خطاهم على وقع انغام الزمر والقيثارة . فتعاري الجميع هزة من الغبطة والفرح بعد بكاء ايزيس وذرفها الدموع سخينة على جثمان اوزيريس . وكانت تقام مع هذه الاحتفالات اسرار من شأنها تأمين الحياة في دار البقاء للمريدين . واذا كانت هــــذه الطقوس تفرض على المؤمنين واجبات قاسية وفرائض شديدة من الوضوء والتطهيرات ، كالاستحمام في مياه نهر التيبر خــلال فصل الشتاء القارص ، فقد كانت ، من جهة ثانية ، تعبيراً ، ولا شك ، عن كفّارة تعيد الى الخطاة نقاءهم الروحي . وكانت ايزيس تبرز للناس : الإلهة المثلى بين اناث الآلهـات ، وذلك حسبما تصورها

التقاليد المتوارثة، في حنانها الأموي وضراعتها القوية. وكان اتباعها يقومون بعملية إزالة هذه الفوارق في ما هو لصالح هذه الإلهة. «ها انا ذا»، نراها تؤكد في آخر اسرار *Métamorphoses d'Apulée*، قبل ان توحي الى الحمار لوسيوس الممسوخ، بكيفية استرجاعه شكله وقوامه البشري ...
«ها انا ذا» القادرة، الوحيدة التي تعمّ عبادتي الارض كلها بأشكال مختلفة، وطقوس متباينة، وتحت مسميات لا حد لها ولا عدد، بعد ان عُرفت بأسماء: سيبيل، ومنيرفا، والزهرة، وديانا، وبروسيربين، وسيريس، ويونون وبللونا، وهيكاتا ونيميزيس.

لنضرب صفحاً هنا عن الإلهة السورية أترغاتيس هيرابوليس، وقد راحت زمرة من الخصيان تطوف القاطمة تجمع لها، على نغم المزمار، التقادم والعطايا التي يجود بها المتعبدون لها. كذلك، لنضرب صفحاً عن الإله السامي الاصل: بعْل، بأشكاله وصوره المختلفة، منها بعل حمص الذي رُفع، لفترة قصيرة، الى مصافّ الآلهة العظام في الامبراطورية، وعقد قرانه على الإلهة شلسلس، أي الإلهة تانيت، إلهة قرطاجة، وذلك بفضل عبادة وغيرة رئيس أحبارها: إيلاغابال *Elagabal* الذي تولى، من سنة ٢١٨ ـ ٢٢٢، مقاليد الامبراطورية الرومانية. الا ان التطور العظيم الذي عرفته هذه العبادة فيما بعد، يحملنا على ان ننوّه هنا باسم الإله ميترا *Mithra*.

هو إله فارسي المنشأ ومن المرتبة الثانية بين آلهة الايرانيين القدامى. وقد تطورت عبادته فيا بعد بما أضيف اليها من لواحق وزوائد اقتبسها من الطقوس الأسيوية السامية. وقد تجلى للناس كالنور والشمس، وارتبط اسمه بالنظام الكوني، يحمل بين يديه الظفر والخلاص كما يهب الفضائل الكبرى: كالحقيقة، والولاء، والإخاء، واحترام القسم. وقد انتشرت عبادته فعمّت جميع انحاء الامبراطورية، وأقيم له، بفضل العناصر الشرقية العاملة في الجيش الروماني، من الهياكل والمعابد ما تعجب لكثرتها في ضواحي نهري الرين والدانوب. وقد كان له بالطبع أتباعه ومريدوه الكثر في روما، بحيث ان الامبراطور كومود همّه أن يشترك في اسرار عبادته ويدخل عضواً في هيئاتها. وكثيراً ما كانوا يعبدونه في المغاور والمنحنيات المعزولة عن الناس، فتبرز ثمة صور الاله الشاب مرتدياً ثياباً شرقية ومعتمراً قبّعته الفريجية بعد ان أرغم الى الارض ثوراً ضخماً وأدماه. وبعد مدة طويلة من الاختبار يمر بها المريد، يخضع لمراسم أشبه ما تكون بمراسم العماد، واذ ذاك فقط يحق له الاشتراك عملياً بالاحتفالات الطقسية وما يتخللها من ولائم. وكانت عملية الاطلاع على اسرار المذهب لا بد ان تقطع سبع مراحل او مراتب هي مرحلة: الغراب ـ الخاتم ـ الجندي ـ الأسد ـ الفارس ـ بريد الشمس، الى ان يصل في خاتمة المطاف الى «ابي الآباء». وكل مرتبة من هذه المراتب توجب على صاحبها واجبات ادبية ومراسم طقسية عليه ان يتقيد بها بدقة. وكان يترتب على الضالعين في اسرار عبادة هذا الاله ان يتحلّوا بالصبر، ومجالدة النفس، وطول الأناة بحيث يُسهمون في إعلاء الخير على الارض، لينالوا المثوبة التي عرفوا ان يستحقوها، يوم الدينونة العظيم، برئاسة الاله ميترا.

وهذا النجاح العظيم تلقاه عبادة هذا الإله جاء صدمة عنيفة للعرف العام اذ جاء دليلا ، اذا ما اعوزنا الدليل، على مدى النوازع الدينية في الامبراطورية الرومانية وإقبالها بتوق، على تمجيد وتبني إله، وتعاليم دينية اقتبستها من ايران وهي اذ ذاك اعدى اعداء الامبراطورية الرومانية ، واحاطته بمثل هذه المظاهر من التبجيل والتكريم ، وأحلته من آلهتها مثل هذا المحل الرفيع . وقد حملت عبادة هذا الإله الاجنبي المنشأ، الغريب الاصل، معها، للنفوس العطش وللقلوب الظمأى تقوى حية ، وسمواً في الآداب والاخلاق لم نعرف له مثيلاً عند الرومان من قبل . ومنذ القرن الثاني اصبح الوثني شخصاً نكاد لا نميزه ولا نتبين معالمه . فهو انسان يختلف تماماً عما كان عليه في زمان كاتون، حتى وفي عهد اوغسطس نفسه.

٣ـ الديانات الموحّدة وأتباعها

الشرك والتوحيد

هذه المستحدثات الدينية تمثلت في ديانتين رأتا النور في الشرق ، هما اليهودية والمسيحية . فكيف نفسر ، والحالة هذه الموقف المداني الذي وقفته منها الامبراطورية الرومانية ، بعد الموقف اللين، العطوف ، الحليم ، الذي وقفته من الديانات الشرقية الاخرى ؟ فبعد ان وقفت منها هذا الموقف الخشن والعنيف احياناً ، عادت فألانت لها الجانب وتركت لها مجال العمل حراً طليقاً وعملت على تشجيعها . فبعد ان وقفت من اليهودية والمسيحية موقفاً متساهلاً في بادىء الامر ، عادت فقلبت لها ظهر المجن ولجأت الى القوة والعنف للحد من انتشارها .

فالمنطق السليم يدعونا للظن بان ما امتازت به هاتان الديانتان من طابع التوحيد الذي فردّها ، جعلها غير مقبولتين لدى الوثني المشرك . فقد كان يسلم بآلهة غير الآلهة التي يعبدها شريطة ان يسلموا هم بالآلهة التي يؤمن بها هو ويقول بوجودها، اذ ان تعداد الآلهة وتنوعها من شأنه ان يفتح المجال اما للانتقاء والاختيار بين هذا العديد من القوى الفائقة الطبيعة، ولكل منها قيمته ومنزلته ، يمكن التوحيد بينها في عملية إزالة الفوارق المتضادة وبالباسها شيئاً من الصفاتية المشتركة، نسج خيوطها الاغريق من قبل، ونسج على المنوال نفسه الرومان من بعد . فليس شيء من هذا مع التوحيد او عقيدة وحدانية الله ، وهو قول يجمع في نظر المشرك الخطل في الرأي ، والعناد المتشاوف والتعصب الشديد . ففي هذه المقالة نفي جذري وحكم قاطع ، لا استئناف فيه ولا تمييز، في نظر القائلين بوجود آلهة اخرى، فضلاً عن ان رفض عبادة الامبراطور من شأنه ان يخرج الحكومة عن موقف اللامبالاة تقفه ازاء الاديان .

فاذا ما اخذنا بهذا التعليل والتخريج نكون اعطينا أهمية كبيرة لمتناقضات متماندة نظرياً. فالتاريخ السابق لليهودية وضع ملوكاً فالحين امام مشاكل من هذا النوع، قبل ان يواجه الرومان شيئاً منها ، وقبل ان يُعنّي الاباطرة الرومانيون انفسهم بها ، كما ان أمثلة مستمدة من تاريخ الامبراطورية الرومانية تنطق جلياً بما تم من تسويات في مثل هذه الظروف العارضة . فالاصطدام

الاشد خطراً انما قام فعلاً ، على صعيد أدنى بكثير ، ونشأ من مواجهة وضع بعينه قائم في ماجريات الحياة اليومية . فالحقد والعداء ، كثيراً ما ظهر من الجماهير التي تنكرت لغرابة الطقوس الجديدة والتعاليم الاخلاقية فأحدثت فيها صدمة دونها بكثير الصدمة التي أحدثتها التعاليم الدينية المستحدثة . فالحكومة تستجيب عادةً لردة الشعب وقلّ ان تسبق الجماهير الى الخطوات الاولى ، فلا يستحوذ عليها القلق . ويضطرب منها البال بصورة عفوية وبغير حدوث شغب او اضطراب الا عندما تأنس خطراً كبيراً يهدد مصالحها السياسية ، ومثل هذا الأمر لم يحدث الا ما ندر .

اليهودية واليهود

وعذر اليهود ، في نظر الرومانيين هو انهم يعبدون إله آبائهم . فكان تمسكهم العنيد بالناموس وبشريعتهم ، هو مثار فخارهم عبر التاريخ الذي ربطهم بروما منذ القرن الثاني قبل الميلاد . فقد عرف زعماؤهم ان يؤدوا لهم خدمات تذكر وان يظهروا ولاءهم في الوقت المناسب: لقيصر اولاً ولاوغسطس ثانياً ، خلال الحرب الاهلية التي مزقت البلاد ، فقدر لهم اوغسطس موقفهم هذا وبدا نحوهم متسامحاً ، لين الجانب احياناً .

إلا ان خلفاءه من بعده احتلوا بلادهم واضطلعوا فيها بمسؤولية الادارة بينما حرص اوغسطس ان يترك شؤونها الداخلية لملوك توابع . وقد جاء تعيينهم لبعض الولاة غير موفق ، لا بل سيء الطالع ، كثير الشؤم ، اذ كان لا بد للحاكم الروماني من لباقة ومقدرة ادارية تقارب الاعجوبة ليستطيع معها تفادي الاحداث لكثرة الاسباب التي تولدها . وقد توزع اليهود الى شيع وانقسموا فيما بينهم الى طوائف عديدة متشابكة متداخلة ، اقامها بعضاً على بعض ما بينها من اختلاف في الرأي والنظر ، حول قضايا كثيرة تتعلق بالعقيدة والتشريع وطقوس العبادة لدرجة نعجز معها عن تعدادها والتعريف بها. من بين هذه الفرق: فرقة الفريسيين وفرقة الصدوقيين[1]. فقد عرفت الاولى بتصلبها وتمسكها بتفسير الناموس وتطبيقه حرفياً بينما استمسك اتباع الفرقة الثانية بالناموس المكتوب ، ومنها كذلك فرقة الأسنيين (الورعين — القديسين) الذين كانوا يعيشون هانئين ، جماعات معاً ، في عزلة تامة عن العالم ويخضعون لنظام وقوانين القت عليها اضواء كاشفة ، مجموعة المخطوطات النادرة التي عثروا عليها حديثاً بجوار البحر الميت. من بين هذه الفرق كذلك فرقة المغالين او الرافضة (*Zélotes*) التي عُرِفَت بشدة طباعها وحبها القتال ، الأمر الذي حدا بالرومان الى تلقيب اتباعها بـ القتلة *Sicaires* المشتق من كلمة *Sica* اللاتينية ومعناها : الخنجر ، اذ كانوا دوماً على استعداد لينتضوا الخنجر ويستعملوه للتخلص من خصومهم السياسيين . وقد بلغ من شدة هوسهم وضغائنهم ان راحوا يقذفون الكهنة بأقذع التهم ويرمونهم بالخيانة ، والمروق عن جادة الدين اذا ما أنِسوا فيهم ميلاً الى مصانعة الحكم الروماني في البلاد . ولعل ما هو ادهى من هذا كله المنازعات التي كثيراً ما شجرت بين سكان المدن خارج اليهودية ،

---

(١) نسبة الى صدوق رئيس الكهنة في القدس ، خلال عهد الملك داود .

بين اليهود والوثنيين ادت الى معارك دامية بين الطرفين . ولا بد من الاعتراف هنا ان المحافظة على الهدوء والنظام في فلسطين كان عبئاً ثقيلاً ومطلباً عسيراً ، فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تضطر الفيالق الرومانية التدخل في الامر واعادة الهدوء الى نصابه بدون رحمة او شفقة .

غير ان هذه القضية او قضية اليهود لم تكن مقتصرة على يهود فلسطين . ففي الخارج جوالي عديدة منهم بعد ان بدأ شتاتهم (*Diaspora*) باكراً منذ القرن السابع قبل الميلاد مع سبي العديد منهم الى بابل . وقد ازدادت حركة تشتتهم اتساعاً مع توالي الحكم الاجنبي على فلسطين وانتقاله تباعاً الى الفرس ، فالبطالسة فالسلوقيين ، فالرومان . ومنذ انتهاء العهد الجمهوري ، كان يوجد في معظم مدن الشرق الكبرى جاليات يهودية قامت منها في روما نفسها جالية مهمة تجاوز عدد افرادها الألوف ، مما حمل طيباريوس اولاً ثم الامبراطور كلوديوس على اتخاذ تدابير شديدة ضدهم ، منها النفي والاجلاء ، دون ان يكون لها تأثير يذكر . وبلغت هذه الجوالي شأناً كبيراً في عواصم الشرق الكبرى كانطاكية ولا سيما الاسكندرية الواقعة على مقربة من فلسطين . وقد اخذت هذه الجوالي ، منذ عهد بعيد ، بالجانب الثقافي من الحضارة الهلينية حتى ان بعض افرادها وقعوا تحت تأثير الفلسفة والادب اليونانيين وهذا يبدو واضحاً في آثار فيلون الاسكندري الكتابية اذ راح في القرن الاول ، يفسر حوادث التوراة تفسيراً مجازياً ، منها ظهور يهوه ومداخلاته في شؤون بني البشر . وهكذا توصل بفضل ما اقتبس من نظريات افلاطون وزينون الفلسفية ان ينسخ كل اتصال مباشر لله مع العالم الخارجي . ومع ذلك بقي عدد المارقين والمعطّلين ضئيلاً جداً ، بينما راح السواد الاعظم من اليهود في الشتات يعتصمون باهداب الدين ويستمسكون بالناموس الاسرائيلي . ولذا لم تذب هذه الجوالي في الاوساط والمجتمعات التي عاشت بينها ، حتى في حال تمتعها بالرعوية المحلية والرومانية منها . فليس بعجيب قط ، ان يشعر نحوها سكان المدن ، ولا سيما اليونان منهم بشيء من الكره والاحتقار ، بالنسبة لاخلاقهم وعاداتهم الخاصة ، دون ان نرى اثراً لاي عاطفة او شعور تم عن قطيعة اقتصادية . حدث ولا شك في ذلك ، ارتدادات بين الوثنيين اعتنقوا اليهودية . ولكن ليس عندنا اية فكرة عن عددها : اكثيرة كانت ام نادرة ؟ ولعل هؤلاء المرتدين قد اقتصروا إجمالاً ، بسبب الختان ، على ان يكونوا في عداد « خائفي الله » بعد ان أخذوا بالديانة اليهودية ، فقنعوا منها ببعض التعاليم والوصايا ليس الا . وقد بقيت غالبية السكان في المدن تكنّ اليهود بغضاً وعداءً ، كثيراً ما ادى الى مشاجرات لم تكن بذات بال الا انها لم تلبث ان استحالت الى اشتباكات دامية . فقد ارسلت كل من جوالي اليهود والاغريق في الاسكندرية ، وفوداً معاكسة ، الى الامبراطور كاليغولا ، يرأس الاولى فيلون ، ويرأس الثانية العالم اليوناني أبيون . وكم رأى ولاة الرومان انفسهم مضطرين التدخل لاعادة السلام الى نصابه والأمور الى مجاريها بين الكتل والفئات اليهودية التي شجر بينها من الخلافات ما عكر صفو الأمن ، قام بعضها من جراء الكرازة بالنصرانية الناشئة حديثاً .

وبالاختصار ، لقد كان اليهود في نظر السلطات الرومانية شعباً صعب المعاشرة ، صعب

الانقياد والحكم، كما كانوا من جهتهم، يرمين بسيطرة الرومانيين عليهم يستثقلون ظلها ويتحينون الفرص السانحة للتخلص منها . فهل نعجب ، بعد هذا ، من هذا التكالب وهذا العناد يظهره كل فريق ضد الآخر ، في هذه « الحرب اليهودية » التي نشبت بين الفريقين . قام منها إثنان في فلسطين نفسها، دامت الأولى منهما من سنة ٦٦ — ٧٠ وانتهت بسقوط القدس بيد القائد الروماني تيطس ، بعد حصار عنيف مميت امتد بضعة أشهر، استسلمت بعده المدينة وراحت طعماً للسلب والنهب والحرق والهدم . اما الثانية ، فقد وقعت في عهد الامبراطور هدريانوس ، واستمرت من سنة ١٣٢ — ١٣٥ ، بقيادة « امير اسرائيل » شمعون بن كوزيبا الذي رأى فيه مواطنوه : المسيح المنتظر الذي يخلص شعبه . وقد حدث في فترة ما بين الحربين ان اضطر الامبراطور ترايانوس الى وقف حملته ضد الفارثيين ، ليتفرغ الى إخماد فتنة واسعة قام بها اليهود في جميع مدن الشرق ، بين سنة ١١٥ - ١١٧ . وقد جرى الدم أنهراً في كل من هذه الحروب العنيفة . ويروي لنا ديون كسيوس كيف ان يهود القيروان ثاروا في عهد ترايانوس ، و « ذبحوا الرومان واليونان وأكلوا لحومهم ، وتمنطقوا بامعائهم ، ونضحوا أجسامهم بدمائهم ، وصنعوا لهم ألبسة من جلودهم ، ونشروا من الوسط عدداً كبيراً منهم ، وعرّضوا جماعات عديدة منهم للسباع والضواري ، وأرغموا بعضاً منهم على العمل مصارعين في حفلات وملاهي المصارعة » . وهكذا فقد فتكوا بأكثر من ٠٠٠ ٢٢٠ منهم ، بعد ان فقدوا هم في حروبهم ضد هدريانوس ٠٠٠ ٥٨٠ قتيلاً ، ما عدا الذين قضوا نحبهم « جوعاً او حرقاً بالنار » . ومهما يكن من تجسيم هذه الارقام ، فهي تعطينا، مع ذلك، فكرة صحيحة عن هذه الوحشية والفظاظة التي اصطبغت بها هذه الحروب التي رأى العالم الروماني نفسه امام اليهودية ليس كديانة فحسب ، بل كقومية تمثلت في مثل هذا الشعب ، وهذه الامة، وهذه المدنية الاسرائيلية.

اما النتائج فقد كانت خطيرة، فادحة . فقد اتسع شتات اليهود، ونجا كثيرون منهم بأنفسهم ورحلوا عن فلسطين . وحل محلهم فيها اقوام جديدة من عروق مختلفة . وقد قام محل القدس التي حُظّر على اليهود دخولها الا مرة واحدة في السنة ، مدينة جديدة عرفت باسم : « إيليا[1] كابيتولينا » وشُيد فيها هيكل لجوبتير ، في المحل الذي كان فيه هيكل سليمان . وأحيوا في المدينة الجديدة عبادة الامبراطور ونصبوا تمثال الزهرة عشترت فوق جبل الجلجلة . وأجبر اليهود في جميع أنحاء الامبراطورية على دفع رسم معين ، بدلاً من الرسم الذي كانوا يدفعونه من قبل للهيكل، ويذهب لخزينة الدولة، وهو رسم زهيد للغاية : لا يزيد على عُشر الدراخم الواحد أي ما يوازي فرنكين فرنسيين ، في عام ١٩١٤ . وبذلك تمكنت الدولة من احصاء عدد اليهود في الامبراطورية ومن مراقبتهم مراقبة شديدة . وقد حُظّر عليهم البطالة يوم السبت كما حُظّر عليهم الختان ، وهي مراسم كثيراً ما أثارت حفائظ الناس عليهم وأهاجت الشعب ضدهم . إلا

---

(١) هو اسم اسرة الامبراطور هدريانوس قبل ارتقائه العرش .

ان الامبراطور انطونين رأى من الحكمة التخفيف من حظر الختان – بالرغم من بعض الاضطرابات التي قام بها اليهود – وأقصر مراسمه على اليهود وحدهم الذين يستطيعون ان يبرهنوا عن صحة محتدهم . كذلك حظر عليهم القيام بأية دعوة او دعاوة للدين اليهودي .

المسيحية واليهودية

وهذه الدعوة كان قد امتنع عليهم القيام بها امام التوسع والانتشار الذي حققته ديانة جديدة أطلّت على العالم من بين قمط اليهودية ، فاطّرحت جانباً طقوسها المتعارفة وقطعت كل صلة لها او نسب مع اسرائيل .

وعندما قام يسوع يبشر العالم بالدين الجديد، في عهد الامبراطور طيباريوس، ظن كل من سمع بخبر الكرازة الجديدة ، بما فيهم الوالي الروماني بيلاطس البنطي الذي صادق على الحكم بالموت – هذا الحكم الذي أصدره عليه رئيس المجمع اذ ذاك قيافا – ان الامر لا يتعدى ظهور شيعة يهودية جديدة . وهو أمر لم يأت عندهم بشيء جديد ، وطالما خبروا منه مثل هذه الدعوات ، بين شعب حرص دوماً على بقاء العاطفة الدينية مشبوبة بين بنيه ، وحرصت كتبه المقدسة على تغذية نفوسهم بأمل مجيء المسيّا ، وفي امة أطلعت على مر السنين ، مثل هذا العدد من الشيع والملل . ولم تكن الشيعة الجديدة، لتختلف ، في مناهج دعوتها وانتشارها وفي اوليات تعاليمها، ظاهراً ، كثيراً عما عرفنا من شؤون الشيع اليهودية الأخرى . وقد راح أولوا الامر والمسؤولون عن شؤون الشعب اليهودي ، يحكمون بالصلب على المسيح ، تفادياً منهم لحركة انشقاق وقيام اضطرابات بين الشعب ، الحد من دعوة ناشطة رأوا فيها الخطر كل الخطر عليهم ، وقد فاتهم ، في تصرفهم هذا التصرف انهم يبتدعون جديداً .

ففي كل بساطة ودعة ، قام يسوع يعلن للناس من ذوي المسرة ، عواطف نبيلة : اقتراب يوم الدينونة ، ممهداً الطريق امام ظهور ملكوت الله ، محبة الله ومحبة القريب ، الايمان الحي ونقاء القلب وطهارة النفس من كل رجس ، وكلها تعاليم افضل من التمشي على طقوس حرفية . وعلى هذه البشارة الجديدة والمبادىء التي عمل بها وعلم، وختم على صدقها بدمه وايدها بقيامته من بين الأموات ، اسس اتباعه إيمانهم ، وهو ايمان، اهل لعمري ، بان يغري على اعتناقه واتّباعه، البشر من اي امة كانوا ، ومهما كانت تربيتهم السابقة . كل هذا كان يقتضي له بالطبع ، تحديد مفهوم بعض الاشياء وتوضيحها وإغنائها ، وان يوسع نطاق الدعوة والكرازة بالدين الجديد الى مجالات اوسع من اليهود ، بعد ان اقتصرت الدعوة في بادىء امرها عليهم وحدهم .

وفي سبيل هذا التطور ، قام بولس بالخطوة الحاسمة ، وهو يهودي من ابناء الشتات ، ولد في مدينة طرسوس من اعمال كيليكيا ، حيث كان ابوه ينعم بالرعوية الرومانية . كان يزاول مهنة صنع المضارب او الخيام ولا يزال الجدل يرتفع بين العلماء والمؤرخين حول نوع التربية التي تلقاها والمؤثرات التي تأثر بها قبل اعتناقه المسيحية ، ومـا تدين له المسيحية من اثر الفلسفة والديانة الهلينية . ومهما يكن من الأمر ، فمن الثابت انه راح يبشر الامم، فرَدَّل في هذا السبيل، وحل

الناس على رَذْل الناموس اليهودي لانه لم يعد صالحاً للاستعمال ، لا يفيد بل يضر . فالقطيعة لم تتم دون ان تحدث مشاقات بين جماعة المؤمنين الاول والكنيسة التي انشأوها في القدس وملأتهم غماً. وقد سهّل القطيعة، الاضطهادات التي تعرض لها المسيحيون من قبل السلطات الدينية. وكان من جراء الحرب اليهودية الاولى ان حملت جماعــة النصارى المتهوّدين على الفرار من القدس والجوء الى بعض المدن الشرقية حيث بقيت جواليهم، عدة قرون، بين بين، لا نصارى معروفين ولا هم بيهود . ولولا هذه القطيعة لبقي باب المستقبل موصداً امام الديانة الجديدة . وقد انفتح هذا الباب على مصراعيه بفضل النشاط الذي بذله بولس . ولم تمتم ان رسّخت العقيدة الجديدة أقدامها في سوريا وآسيا الصغرى اولاً ، ثم في مقدونيا وبلاد اليونان ، وحملها الى روما مبشرون نجهل امرهم قبل ان يصلها بولس ، حوالى عام ٦٠، ويَمْثُل امام«قيصر» ليحاكم، أي امام والي الولاية ، بناء على طلبه بعد ان ابرز رعويته الرومانية .

اضطهاد نيرون

طبيعي ان تحتاج الحكومة الى بعض الوقت لتستطيع التميز بين المسيحيين واليهود . فقد اختلط الامر على الامبراطور كلوديوس نفسه ، عام ٤٩ ، اذ راح يأمر بنفي اليهود من روما وابعادهم عنها لما « سببوه فيهـا من الاضطرابات بسبب المدعو المسيح » . اما خلفه نيرون فقد كان اكثر احاطة بالامر واطلاعاً عليه ، ربما عن طريق محظيته بوبيه *Poppée* التي تزوجها فيما بعد، والتي قُيّض للمؤرخ فلافيوس يوسيفوس ان يلقاها في احدى وفاداته الى روما، ووصفها بانها «تبارك الله» اي انها على عادات اليهود ، كما هو مرجح . وبالفعل فقد عرف نيرون ان يميز المسيحيين لما هم عليه من وضع متميز، حتى جعلهم مسؤولين عام ٦٤، عن الحريق الذي شب في المدينة ، اذ ذاك ، والتَهَم جانباً كبيراً منها .

وشهرة الحادث بعينه لا تمنع من بقائه غامضاً جداً. فكل محاولة لإلقاء بعض الأنوار الكاشفة عليه هنا، لا تفيد شيئاً لا بل هي مضيعة للوقت . فالجماهير كانت تحمل البغضاء للمسيحيين لأنها كانت تجهل عنهم كل شيء . وكانت تحمل البغض ذاتــه لليهود الذين لم يكونوا احسن وضعاً بالنسبة لها ، حتى في عهد ترايانوس ، اذ راح المؤرخ تاسيت ، الذي كان في وضع يمكنه مع ذلك من الاطلاع على الحقيقة ، يأخذ بالأقاويل المغرضة والتهم التي يعزونها جزافاً الى هؤلاء واولئك على السواء دونما تميز ، وينسب اليهم جميعاً « الحقد » الذي يحملونه على النـــاس أجمعين . ومع ذلك، فقد كانوا يعرفون ان بين الجماعتين أكثر من فارق يميز بينهما، وبالرغم من الجدل والمناقشات التي دارت حول الموضوع اذ ذاك، وأكثر الاحتمالات اخذاً بالتصديق ، راح الامبراطور نيرون، تفادياً لنقمة الشعب وغضبه من جراء الحريق الذي التهم روما، والذي اتُهم به هو نفسه، ينسب هذه التهمة لأقل هذه الفئات عدداً. فاذا لم تأت المبادرة من الجماهير فقد عرف ان يستغل البغض الذي كانت تجيش به ضدهم .

ومن الثابت ، على كل حال ، ان الاضطهاد الذي اعلنه انما اقتصر على روما وحدها ؛ وهذا

ما يقلل من قوة عبارة تاسيت عندما يؤكد : « العدد الغفير » ممن اكتووا بلهيب هذا الاضطهاد الدامي، وهو اول اضطهاد يعلن عن سابق قصد وتصميم، وينفذ بمنهجية، تميزت بأساليب التعذيب وأفانين العذابات التي اخضعوا لها المسيحيين. وهل من بأس في الامر، بعد ان اصدر الامبراطور مرسوماً اعتبر جناية تستوجب الموت، مجرد اعتناق المسيحية . وهكذا فقد كان قرار نيرون فاتحة عهد وبدء تاريخ طويل مديد، من التعصب الديني عبر الاجيال .

الاسرة الانطونية والمسيحيون

فالاجتماعات التي كان يعقدها المسيحيون سراً ، وإعراضهم عن المناصب الاجتماعية وبهارج هذه الحياة ، ومقاطعتهم العلنية لكل التقاليد المتوارثة ، والتأثير على الموعوظين من غير اليهود للنسج على منوالهم ، وعدم اشتراكهم بعبادة الامبراطور ، والدعاية التي كان يشنها بعضهم ضد الزواج والحياة العسكرية ، كل هذه الأمور وما اليها ، أدخلت القلق على أولي الأمر ، في عهد الأسرة الانطونية . فقد كان متوقعاً من واحد من أتباع الفلسفة الرواقية ، كمارك اوريل مثلاً ، ان يقدّر عالياً قوة ارادة الشهداء وحماستهم ، ومع ذلك فلم يستطع ان يرى في مثل هذا التصرف سوى مظهر من مظاهر التعصب النمم ، وطريقة دعائية ليس إلا . « أي نفس هذه ، يا ترى ، التي تأنس من ذاتها القدرة على الزهد بالحياة والتخلي عنها في الحال ؟ قلت القدرة ، وعن سابق قصد وتصميم ، لا عن عناد او اصرار ، بل عن طيبة خاطر ، كما يفعل المسيحيون ، بحيث يؤثر اقناعهم ويقينهم الوطيد ، على الآخرين ، بدون زهو منهم او مباهاة » . كما جاء في مذكراته ، بالحرف الواحد . فالمسيحيون لم يأتوا بحركة ابان « الحروب اليهودية » ، هنالك ، الى هذا شعور ، بالعدالة وبالكرامة الانسانية ، كان يحول في خاطر الحكومة ويحملها على سلوكها هذا المسلك . وفي هذا ما يكفي لحملها على التحلي باللين والحلم .

فاذا صح ان الامبراطور نيرون استند في المرسوم الذي أصدره الى الجريمة التي عزوها الى المسيحيين كما يؤكد ترتليانوس ذلك ، وان دومتيانوس تأثر بهذا المرسوم الى حد بعيد ، فقد ألغت الأسرة الانطونية المرسوم المذكور وأبطلت كل مفعول له . وعندما راح بلين الاصغر يستفتي صديقه الامبراطور ترايانوس ، الموقف الذي يترتب عليه وقوفه حيال المسيحيين الموجودين في ولاية بيثينيا ، بلغه رد الامبراطور بألا يسعى اليهم ، وألا يكترث بالسعايات الغُفل التي ترده ضدهم ، وألا يصدر أي حكم على من لا يرضى منهم بالصلاة للآلهة . فاذا ما راح ، بعد هذا ، يحتاط لسلامة الاجراءات القانونية فلأنه بقي يرى في اعتناق المسيحية جرماً يعاقب عليه القانون . إلا ان مثل هذه الحيطة زالت في عهد هدريانوس ، عندما أصدر امره لوالي آسيا بألا يحكم إلا اذا وجّه بعضهم اتهاماتهم الى أشخاص بالذات ، وجاؤوا بالدليل على مخالفتهم لقوانين البلاد ، كما حرص على ان يأتي القصاص معادلاً « لأهمية الجرم » المقترف عمداً وعن سابق تصور وتصميم . وقد حافظ الامبراطور انطونين *Antonin* على هذا المبدأ ، وان لم يكن لدينا أي برهان حسي يخولنا الجزم بأن مارك اوريل ألغاه بالفعل .

ومع ذلك ، فالأحكام بالموت لم تقل في عهد الانطونيين . فالتقليد المتبع في إحصاء سيَر

القديسين الذين استشهدوا في عهد كل من الاباطرة ، هو ان يصار الى وضع قائمة متصلة بهم ، لا يستطيع النقد الصارم ، مهما تشدد واقتطع من نوافل الاوصاف والاستطرادات التي زينوا بها قصة استشهادهم ، ان يدعي بطلانها او يقول بعدم صحتها . وقد اكتظت القوائم التي وضعت في عهد مارك اوريل بأسماء الذين بذلوا حياتهم في سبيل دينهم واستشهدوا من المسيحيين . فقتل ٤٨شهيداً في مدينة ليون، عام ١٧٧، بينهم الاسقف بوتين الذي مات في زنزانته ، وله من العمر ٩٠سنة، بينما الأمة الشابة بلاندين التي عرّضوها عبثاً لفتك الاسودالضارية، أجهزوا عليها بضربة سيف وهي في الحلبة، ثابت بفضل وثيقة تاريخية لا يمكن دحضها او تجريحها، هي الرسالة التي بعث بها شهود عيان هم خدام المسيح ، القاطنون في مدينتي فيينا وليون ، في غاليا الى إخوتهم بالرب، في آسيا وفريجيا. ولا سبيل الى الانكار ان الامبراطور مارك اوريل وافق على هذه المجزرة وأقرها بعد ان عرض حاكم المدينة الامر عليه، اذ كان بين المحكوم عليهم واحد يحمل الجنسية الرومانية، أجلسوه على صاج أحمي على النار ثم اجتزّوا رأسه .

فهل يحمل الامبراطور الفيلسوف انطونين ، كما يلقبه التاريخ ، وزر الجريمة والمسؤولية المترتبة عليها ، كما يحمل خلفاؤه جريرة الشهداء الذين قُتلوا في عهودهم ؟ لا شك في ذلك ، إنما بنسبة ما سمحوا ، لدى مراجعتهم واطلاعهم على إنزال ما أنزلوه بهم من آلام مُبرّحة ، ومثلوا بهم مثل هذا التمثيل الوحشي ، دون ان يأمروا بملاحقة الذين اتوها . غير ان معظم تراجم هؤلاء الشهداء تردّ ، في معرض وصفها لعملية استشهادهم بكل إسهاب وتفصيل ، هذا كله ، لحماسة الجماهير وهيجانها وهي تطالب ، بالحاح ، ملاحقة المسيحيين . فلم يتمكن الحكام ، امام هذه المظاهرات العدائية الصاخبة إلا ان يرضخوا ، على اقدار من التواطؤ معهم ، تقل او تكثر، حتى اذا ما رُفع الامر الى الامبراطور وجد نفسه مسوقاً تحت ضغط الشارع ، النزول عند الطلب . فالرأي العام بقي ، في كل مكان تقريباً ، معادياً للمسيحيين . ويطالع المرء بشيء من الذهول ، التهم الدنيئة يلصقونها بالمسيحيين ، وما نسبوا اليهم من اعمال الفسق والفجور ، التي لم يتورع أناس مستنيرون امثال الكاتب الروماني فرونتون ، وهو من مشاهير رجال الفكر ، اذ ذاك ، ومن اقرب المقربين الى الامبراطور انطونين ومن جاء بعده ، من الأخذ بها وتأكيدها . فأمام الكوارث والتهديدات التي اخذت تتراكم على الامبراطورية، في النصف الثاني من عهد الامبراطور مارك اوريل ، لم يستطيعوا ان يقاوموا الاغراء بعزو هذه الامور، الى غضب الآلهة واستيائها من كفر خصومها ، وعدم اعترافهم بها واحتقارهم لها : هنالك قوى مجتمعة ، مادية وسيكولوجية على السواء ، لا يستطيع اشد السلاطين والملوك استبداداً وبأساً ، ان يوقفوها او يحدّوا منها ، لا سيا عندما يرون في مسايرتها والنزول عندها ، المثال الصوري للتقوى والتقرب الى الآلهة والتسليم بالأساطير المحكية عنها .

اسباب هذا التقدم والنجاح

وهكذا لم نلبث ان رأينا ترتليانوس ، يكتب في سنة ١٩٧ ، في كتابه : « ابولوجيا » او الدفاع، العبارة المشهورة : « دم الشهداء بزار المسيحية » (*Semen est sanguis Christianorum*) . فللاستشهاد سيكولوجية خاصة هي

واحدة في كل زمان ومكان ، خالدة . فالاضطهادات الدامية التي أنزلوهــا بالمسيحيين تلقي نوراً ساطعاً على هذه القضية وتضفي عليها ادق المعلومات واوسعهـا . فالنخبة بين المسيحيين كانت تنظر الى العذابات التي ينزلونها بها ، نظرتها الى معركة يخرج منها الشهيد ظافراً ، مكللاً باكليل المجد، لانه « فاز برضوان الله » ونال الغفران الكامل عن كل خطاياه، وتأكد عنده الفوز بالحياة الابدية الخالدة . فلا عجب ان نرى بينهم من يجودون راضين مرضيين ، بارواحهم في سبيل هذا الشرف المؤثل ، وفي سبيل هذه المغانم ، أمثال هؤلاء المسيحيين الذين تقدموا ، في عهد كومود، من الحاكم الروماني ، في آسيا ، باعداد غفيرة للشهادة ، حتى اذا ما حكم بالاعدام على فريق منهم ، رد الآخرين بعنف ، داعياً لهم الى شنق انفسهم والى الانتحار ، مع العلم ان تعاليم الكنيسة الصحيحة كثيراً ما شجبت مثل هذه الغيرة الزائدة . اما في نظر الذين لم يعتنقوا بعد المسيحية ، فالاستشهاد وبذل الحياة رخيصة في سبيل الدين هو « شهادة » حتى لصحة دينهم ، كما يدل على ذلك الاشتقاق اليوناني لهذه الكلمة ، اذ كان الاستشهاد حجة على صحة العقيدة وعلى الشجاعة التي يبعثها الايمان الصحيح ، في نفس الشهيد وقلبه ، وبالتالي لصدق الرسالة التي اؤتمنوا عليهـا وراحوا يحملونها .

علينا مع ذلك ، ان نحذر من ان نولي ، اكثر من اللازم ، أهمية كبرى على العامل النفساني والحافز السيكولوجي لتعليل انتشار المسيحية في الامبراطورية الرومانية وتكاثر عدد النصارى، بالتالي ، فيها . ومع انه لا سبيل لاحصاءات دقيقة، يبقى امر عدد الشهداء ، مع ذلك ، قليلاً نسبياً . ثم هنالك أقطار بكاملهـا لم تعرف الاضطهادات الدينية لمدة طويلة ولم تتضرس قط بالشدائد التي انهالت على المسيحيين في غير مكان. ومع ذلك فقد انتشرت فيها المسيحية بسرعة، وعلى نطاق واسع ، فقد كان بلغ عدد المسيحيين في افريقيا حداً بعيداً ، عندما أهرقت فيها دماء الشهداء لاول مرة ، عام ١٨٠ .

والحقيقة التي لا تماري ولا لبس فيها ولا غموض ، هنالك عوامل كثيرة أثرت بعيداً في هذا الأمر . فقد همنا ان نعرف ، على الوجه الصحيح ، المناقب التي ميزت شخصية كبار المبشرين بالديانة الجديدة، والصفات التي توفرت لهم للقيام بمطلب الكرازة الدينية ورسالة حملها الى اطراف العـالم الروماني ، اذ ذاك وكلهـا عوامل واعتبارات ساعدت جدياً في نشر الدين الجديد وتأمين النجاحات الباهرة التي حققها بين شعوب الامبراطورية واقوامها المتباينة عرقـاً ولغة . نحن نجهل كل شيء عنهم تقريباً حتى اسماء الذين نهضوا بهذه الكرازة بعد الرسل . ولذا كان لا بد من ان نعوّل هنا على الاسباب العامة والمميزات المفرّدة التي تميزت بها النصرانية من الداخل اي من ذاتها ، طالما لم تكن الوحيدة ، في الميدان، لتتخذ يداً وحدها ولتستفيد دون غيرها، من إعراض الناس عن الشعائر الدينية، وموقفهم موقف اللامبالاة والاستهتار بالطقوس الرسمية .فقد جمعت الديانة الجديدة جماع الصفات التي توفرت للديانات الشرقية الكبرى فأمنت نجاحهـا وانتشارها : قوة التأثر المنبثقة من حادث موت المسيح وقيامته ، وتعاليم ادبية واخلاقية رفيعة

سامية ، ووعد اتباعها بخلاص الأبرار منهم ، واحتفالات مهيبة تحرك مشاعر النفس في المؤمنين . ومع ذلك ، وبالرغم من هذه العوامل المتشابهة المشاركة ، فالتوحيد الذي علّمت به وعملت، صانها من كل مصانعة خطرة . فقد عرفت ان تتفادى كل حركة التفاف ، او محاولة انصهار او ذوبان، يقوم بها مذهب توحيد الفروق الذي تغلغل في كل الديانات المعمول بها اذ ذاك، محاولاً التلطيف من حدة الفروق التي تباعد بينها . فبعد ان عرفت كيف تكسب مؤمناً جديداً ، قلما خشيت من ان تفقده . وهكذا بحرية رأي واستقلال فكر ، راحت تمكّن بصورة اقوى لشرعية مبادئها ، وتنمي ثقتها الوطيدة بالفضائل التي تعمل بها وتعلمها . زد على ذلك ، ان ابوابها كانت مشرعة دوماً للجميع من رجال ونساء ، وكبار وصغار ، دون ان يخضعوا لدور شاق ، صعب ، من الوعظ والارشاد ، فتقدم لهم مجموعة متناسقة من التعالم العقائدية ومبادىء الايمان ، مبسطة ، تستطيع إشباع كبار الحُجَى ، ويستمرئها ذوو العقول الحصيفة .

النتائج الثابتة

فماذا كان من امر هذه الديانة الجديدة ، في اواخر عهد الاسرة الانطونية ، يا ترى ؟ يؤسفنا وايم الحق، الا نستطيع الحكم الا على انطباعات ترتبط صحتها، الى حد بعيد ، بنسبة ما تزيدها وثائق ونصوص ادبية محفوظة ومصونة تعود لذلك العصر ، وإكتشاف الرقم والنقائش القديمة التي تتعلق ، من قريب او بعيد ، بهذه الامور . ولعل ما هو ادهى من هذا واخطر ، هو ان نخرج من هذا بما ينفي وجود مثل هذه الوثائق . هنالك لعمري ، مُعَامِل شك او ارتياب يلابس المسح الجغرافي الذي لا بد من ان نتعرض له فيما يلي.

دون ان تكاثرت المسيحية الحواجز الجغرافية التي انتصبت في وجهها، فلم تلبث ان تجاوزت بسرعة ، من الشرق ، نهر الفرات . وليس ما يشير قط انها رسخت اقدامها في المقاطعات الفارسية الاصل، إلا انها تغلغلت بعيداً فياواسط بلاد ما بين النهرين ، وفي مملكة *Osrhoène* ، حتى ان الملك أبجر التاسع كان على وشك اعتناق المسيحية ، وعاصمة ملكه اذ ذاك ، الرُها ، وهو اسم مقدوني الاشتقاق والاصل ، أطلق عليها ، بعد الاسكندر بقليل ، بعد ان عُرفت من قبل باسم *Oshoe* او *Orrhoe* وبالعربية اورفة ، التي أصبحت مركزاً لإحدى الكنائس الكبرى في الشرق ، ومنها شعّت اللغة السريانية ، إحدى فروع الأرامية ، وانتشرت في هذه الأرجاء من الامبراطورية أيما انتشار . ومن الرها تسربت المسيحية الى الشرق ، لتدخل عبر التركستان ، مشارف الشرق الاقصى ، دون ان تتمكن ، مع ذلك، من تتبع الصوى التي قطعتها، والمراحل التي سجلتها .

ومع ذلك ، فقد بقيت ، اساساً ، احدى ديانات الامبراطورية الرومانية وان اقتصر انتشارها على بعض ولايات منها لا غير .

اما من هذه الناحية من الفرات ، فقد غزت النصرانية مدن سوريا الكبرى دون الأرياف ، بعكس بلاد الاناضول حيث نرى كرازة الرسول بولس تلاقي نجاحاً كبيراً بين اهل فريجية واهل

غلاطية وانتشرت المسيحية بينهم على نطاق واسع ، ولا سيما بين سكان الارياف . وكان الوضع على عكس ذلك تماماً في الاقسام المتبقية من الشرق حيث بقي انتشار الديانة الجديدة ضيقاً ، باستثناء مقدونية .

اما في الغرب ، فاننا نشاهد عناصر عديدة من المسيحيين تقوم في العاصمة روما ، ملتقى جميع الملل والطوائف ومحجة الشعوب على اختلافهـا ، اذ ذاك . فلا عجب ان تتجه اليها ، في تاريخ مبكر ، أنظار أتباع الديانة الجديدة . هنالك مسيحيون انساحوا وتغلغلوا بين طبقات المجتمع الروماني العالية ، حتى أننا نراهم يغشون البلاط الامبراطوري نفسه . أفننم يحكم الامبراطور بالموت ، على فتصلين سابقين ، ويأمر بنفي ابنة أخيه التي كانت زوجة لأحدهما ، هو في الوقت ذاته ابن عمه ؟ هنالك دلائل قوية تحملنا على الظن بأن اتهامهم «بالالحاد» والعادات اليهودية » التي رموهم بهـا لم تكن في الواقع سوى الاخذ بالمسيحية وتبني مقالتها العقائدية. مسيحية ايضاً مارسيا ، محظية الامبراطور كومود ، التي حاولت ان تدسّ له السم . ومع هذا فالأكثرية من أتباع الدين الجديد تتألف من صغار القوم وضعفائهم .

وهذا الدين الجديد ، لم ير في مكان ما من النجاح الذي حققه ما رآه في ولاية افريقيا . لا ندري كيف وصل اليها ، ولا كيف تغلغل فيها ، اذ تطلع علينا فجأة ، في اواخر القرن الثاني ، جماعة كبيرة من المسيحيين ، ناشطة في المـدن والأرياف ، جعلت من قرطاجة مركزها الرئيسي ، ومقرها الأكبر . وعندما يقوم ترتليانوس يعتز مفاخراً ، عام ١٩٧ بعدد المسيحيين ، فهو بالطبع يتصور عددهم في هذه الولاية التي شهدت مسقط رأسه . فاسمعه يقول : « نحن أبناء امس الغابر ، ومع ذلك فقد ملأنا الارض... ويمكننا ان نحصي افراد جيوشكم ، اما عدد النصارى في ولاية واحدة من ولاياتكم، فقد تبز كثرتهم عدد جيوشكم بكثير ». فهو في حماسته يعمم كثيراً ويغلو ، إذ لا يمكننا ان نذكر خارج نطاق افريقيا ، بالاستناد الى اضطهاد عام ١٧٧ ، سوى جماعة المسيحيين في وادي الرون . ثم انه يصف عدد الذين استشهدوا في سبيل ايمانهم في مدينة ليون ، هم أغارقة شرقيون — وليسوا قط من اهل البلاد — اعتنقوا فيها الديانة الجديدة . فاذا كان بولس ، بين دخوله روما لأول مرة وموته فيها، قد وصل في تنقلاته الى اسبانيا وتوقف عند ساحل غاليا ، لمروره في تلك الأرجاء لم يترك بعده أثراً يذكر .

وعلى هذا ، فقد سجلت المسيحية نجاحات تذكر . علينا هنا ان نأخذ بعين الاعتبار ، عدد الولايات التي تدخل في نطاق الامبراطورية الرومانية ومساحتها الشاسعة ، التي لم تكن وطئتها بعد ، اقدام المبشرين . ففي مطلع القرن الثالث ، نرى الاسقف الفريجي أبيركيوس يذكر في رسالة له نقشت عبارة منهـا على شاهدة ضريحه ، تعبر بصورة مجازية وبتوريات تقوية ، عن الانطباعات التي عاد بها من سلسلة من الاسفار والرحلات ، حملته تباعاً الى روما وسوريا وبلاد ما بين النهرين ، جاء فيها : « أينما حللت ، ألفيت الإيمان المسيحي قـد سبقني . فقد وجدت اخوة لنا أنـّى نزلت وأينما هبطت » . بالطبع لم يحط اسقفنا هذا رحاله، الا في المدن.

حياة الكنائس الاولى وتنظيماتها الداخلية

نحس جيداً دون الحاجة للافصاح عنها ، اسباب هـذه الحماسة وأسباب النشاط العارم ، تجيش بها الديانة الجديدة . فهي لا ترى نفسها غريبة عن أي بلد دخلته مها كانت اللغة المحكية فيه .

فاللغة الوحيدة التي عولت عليها المسيحية دون سواها هي اللاتينية . فلا يوجـد للكتاب المقدس ، في مكان ما ، ترجمة لاتينية ، حتى في افريقيا نفسها التي أطلعت اول كاتب مسيحي تجرّأ ، ان يعالج ، في مثل هـذا الوقت بالذات ، باللغة اللاتينية ، قضايا لاهوتية بحتة ، هو ترتليانوس . فجماعة المؤمنين ، في روما ، لا تستعمل في طقوسها ، غير اليونانية . وكذلك مسيحيو وادي الرون يكتبون باليونانية ، الرسائل التي بعثوا بها الى اخوتهم في الايمان ، في آسيا الصغرى . فاللغة اليونانية هي وحدها اللغة الطقسية في جميع البلدان . فالمبشرون الاكفاء الذين يحسنون اللهجات الوطنية الشعبية لا يزالون قلة يبقى معها أثر الكرازة التي يقومون بها ، وفعلها في النفوس ، محدوداً ضيقاً . فأحاديّة اللغة ، كانت الى حد بعيد ، وراء تأخر انتشار المسيحية ، في الشطر الغربي من العالم الروماني ، إلا أنه تأخير أفاد ، من جهة أخرى ، مع ذلك ، في الحفاظ على اولوية اللغة اليونانية بين اللغات واللهجات المحكية ، اذ ذاك .

تبرز وحدة الكنيسة ، على الأخص ، في مراسم العبادة والطقوس . هنالك عشاء مشارك يجمع بينها عرف باسم *Agape* . والكلمة يونانية الاصل ، إنما تعني «انعطاف» ، او مقاسمة عاطفية في اجتماعات مسائية . وبالفعل ، ان كلمة « كنيسة » انما تعني : جماعة . وبعد ان وقع مجيء المسيح وظهر على الارض بجسده ، صار من المتوجب ، على أتباعه ان ينتظموا وان ينظموا ذاتهم . ومنذ ذلك الحين ، اخذ التسلسل الوظائفي ينمو ويتطور على مر الزمن ، وفقاً للحاجة العارضة . فقد نزعوا الى تأخير سر العماد او التنصير ، عن الموعوظين ، أي عن الذين بلغهم الصوت وتردد فيهم « الصدى » ، أي من لُقّنوا الايمان بالصوت الحي ، فأخروا العماد عن موعـده سنتين او ثلاث سنوات . وقد برز عن جمهرة الشعب (*Laos*) فريق الاكليروس ، لفظ اشتق من كلمة يونانية (*Clèros*) عنَت في بادىء الأمر : حصة او نصيباً ، ثم اخذت في الترجمة السبعينية معنى اكليروس او طغمة الرهبان ، وهي طغمة تألفت من رُتب ومراتب عديدة . ومن هـذه المراتب برزت كلمات: « كاهن » ، و « شماس » ، و « اسقف » . فالكهنة *Presbyteroi* او الشيوخ (المتقدمون في السن) يتألف منهم مجمعاً يتولى وضع القرارات ، والشمامسة *Diaconoi* الذين يناط بهم تأمين مهام الطقوس المادية . ولم تلبث ان تفرعت مهام اعمالهم الى شماس رسائلي ، وقارىء ، ومُعزّم ، وحارس الابواب ، ثم الاسقف او المشرف على التعليم وعقائد الايمان ، وعلى سلوك المؤمنين . وقد اخذ النظام الجديد ، بالنظر للخطر الخارجي ، وبالنظر لمقتضيات تأمين خدَمة الهيكل بما يؤثر على النوع او الكيفية ، ينزع الى الحكم المطلق . ففي كل مقاطعة ، يقوم على رأس الجماعة ، بدون استثناء ، اسقف واحد . فالشعب يصطفيه ويختاره ، بدون ان يخضع لمراسم خاصة ، من بين اشخاص يقترح أسماءهم الكهنة . فله وحده حق القطع او الجزم في القضايا التي

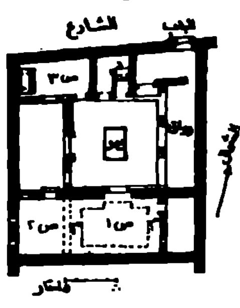
يتناقش الكهنة حولها ويتبادلوا فيها الآراء . وعندما تتكاثر أمكنة العبادة يصبح الكهنة مجرد خدّام لها ، يرعون جماعة المؤمنين فيها ، تحت اشراف الأسقف . فهو وحده يقوم بكسر الخبز وتقديس القربان ، ويدونه تنعدم الحياة المسيحية .

وهكذا تُصان وحدة الجماعة وتحفظ . وهي وحدة لا تذهب ابعد من ذلك . فبالرغم من وحدة العقيدة والطقوس فلا توجد كنيسة بل كنائس . ولكل منها إطارها الخاص، له حجيرته الادارية الاساسية، ممثلة بالمدينة التي تمثل في المنطقة ملء الحياة المحلية في مختلف مظاهرها . وهذا الأسقف يمارس سلطته على الجماعات المسيحية في المدن القريبة طالما عدد الأتباع فيها لا يسمح بوجود أسقف خاص يتولى رَعيتهم . وعندما يصبح هذا العدد كافياً تنشأ كنيسة جديدة مساوية في وضعها للكنيسة التي انفصلت عنها ، مع الاعتراف لها بأولوية ادبية . فليس ما يدعو الاساقفة لإقامة علاقات فيا بينهم ، غير ان المصلحة العملية المشتركة تحدو بهم لتبادل الرأي : إما عن طريق رحلات فردية يقومون بها ، او عن طريق تبادل الرسائل او موفدين خصوصيين . ثم لم يلبثوا ان أخذوا يعقدون « سِينُودساً » وبالعربية مجمعاً إطاره الطبيعي الولاية ، هذه الوحدة الادارية الكبرى في البلاد .

كل هذا اولى أساقفة بعض الكنائس الموجودة في حاضرة الولاية او في مركزها الإداري ، او في القواعد الحضارية التي تؤلف قطب جذب فكرياً او اقتصادياً ، نفوذاً خاصاً ، فهو بالفعل والواقع وليس شرعاً اسقف المدينة . فالسلطة التي يتمتع بها اسقف روما لم تكن لتوازي سلطة بعض الاساقفة في مدن مثل انطاكية او افسس مثلاً . فترتليانوس يعرف جيداً شأن السلطة التي يتمتع بها صاحب الكرسي التي اسسها بطرس في روما عاصمة الامبراطورية. ولكن هذا الاسقف لا يستخدم الحق الذي اولاه اياه شرف الانتساب الى هامة الرُسل او رئيس الحواريين، إما لانه لا يرغب في ذلك او لانه لا يستطيع الى ذلك سبيلاً . فهذه الادارة التي تتصف بنظام مطلق يتوزع بين مدينة واخرى ، لا يبدو عليها ما يشير قط انها في سبيل التكامل ، حتى اننا اخذنا نشاهد بعض الصعوبات والعراقيل تعترض سبيلها الى هذا التكامل .

من غير الممكن ان يخفى مثل هذا الوضع على فطنة الادارة المسؤولة او ان تتجاهله، لا سيا بعد ان تكاثر عدد المؤمنين في الكنيسة بين الطبقات الاجتماعية المتواضعة واخذت تتكون الاوقاف الكنسية وتنشأ . وتكوين هذه الاوقاف لم يلبث ان أثار مشكلات قانونية اخذ الجدل يرتفع بشأنها ، كما اخذت الآراء تتضارب حولها . ومها يكن بالفعل الحل المقترح في تبريرها: سواء أنُسبت الى هيئات جنائزية او الى جمعيات غير شرعية ، فجماعات المؤمنين لم تلبث ان رأت نفسها مالكة لعقارات واملاك على وجه يختلف عن ملكية الفرد ، او لمبان يستخدمونها في اجتماعاتهم الخاصة او يتخذون منها مدافن لهم . فمن بين الفئة الاولى من هذه العقارات ، لم يُتَح لعلم الآثار ان يدرس خرائب اقدم عهداً من خرائب كنيسة دورا يوروبوس، هذه المدينة التي كانت قائمة على نهر الفرات، في الوضع الخاص الذي كانت عليه، في الربع الثاني من القرن الثالث . فمبنى هذه

الكنيسة القديمة لا يتعدى ان يكون منزلاً قديماً خاصاً ، كانت الغرفة الخاصة بإقامة شعائر العبادة فيه تضم مقعداً مستدير الشكل وقد زينت جدرانها بنقوش مختلفة يبدو بينها زمّارات لتقليد الأصوات ، ومساخر للوجه . كذلك نرى غرفة العماد مزدانة برسوم مستمدة من احداث العهدين القديم والجديد . اما الفئة الثانية ، وهي فئة المقابر ، فقد اتاح لنا درس النواويس الموجودة تحت روما ان نتتبع توسعها وامتدادها عن طريق الدهاليز والممرات التي شُقّت تحت الأرض انطلاقاً من مدفن اسرة من الأسر . وقد أُنشئت مثل هذه النواويس، في المدن الكبرى، منذ ان شاع عنها خبر احترام بقايا الاموات المدفونين فيها . فوجود نواويس اليهود ونواويس اخرى في مدينة الاسكندرية يدل على ان عادة النواويس لم تكن محصورة على المسيحيين ولا على الرومان. ففي هذا العهد كانت روما الجوفية لا تزال في بدء امرها . وقد اقتضى تطورها واتساعها ان تكون الشرطة قد أغضت عن هذه الأعمال التي تجري في الخفاء او تحت الأرض ، كما انها غضّت النظر ، ولا شك ، عن هذه الاجتماعات التي كان يتكرر عقدها في الكنائس .



الشكل ١١ – كنيسة دورا يوروبوس. د • درج يفضي بصاحبه الى الدور العلوي المهدوم؛ ص١ صالة لمراسم العبادة جرى توسيعها بإضافة ص٢ اليها وذلك بين ٢٣٢ – ٢٣٨ ؛ م • مقاعد من الترميد ؛ ص ٣ • جرن المعمودية .

والحياة المادية للجماعات المسيحية التي تكونها ، قامت، مثلها في ذلك مثل انتشار الديانة المسيحية على التسامح الضمني الذي أبدته السلطات العامة ، كما تنطق بذلك الشواهد التي استعرضناها وكما يعلمنا تاريخ الاضطهادات نفسه .

الجدل الديني والبدع

كانت المسيحية قد أصبحت ، في مثل هذا الوقت بالذات ، واقعاً روحياً عظيم الشأن والخطر ليبقى بدون صدىً في مجالي الفكر والنظر .

وقد استهدفت لحملات جاءتها من أوساط مستنيرة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالوثنية ، هي من مجلى الحضارة نفسها ، اذ ذاك . فبقطع النظر عن الافتراءات والسعايات التي ألصقوها بالدين الجديد فتركت أثرها ولو الى أمد قصير ، فقد وجدوا فيها مادة ثريّة لمؤلفات لم تَخْلُ من الأهمية ، وان لم يصلنا منها شيء يذكر عن طريق الكتبة المسيحيين انفسهم الذين لم يحفلوا بجمعها ولم يأتوا على ذكرها إلا بنسبة ما أتاحت لهؤلاء الكتبة من غبطة ورضى في دحضها والرد عليها . وخير ما تمثله هذه الكتابات، الكتاب الذي وضعه ، حوالي عام ١٨٠ ، أحد اتباع الفلسفة الافلاطونية المدعو سَلْس *Celse* بعنوان: «خطاب حق *Discours vrai* » والذي يمكن اعادة تكوينه وجمعه من جديد عن طريق الاستشهادات التي ضمنها أوريجينس ردوده عليه في كتابه الموسوم : « ردّاً على سَلْس » . والطعون التي يحاول فيها الكاتب الوثني مهاجمة تعاليم الدين الجديد ، انما تصدر كلها عن نظريات فلسفية، كما انها ترتكز الى نظرات سياسية واجتماعية حرية

بالنظر . فهو يرمي المسيحيين بفريّة تمسكهم بالوعود التي يقطعونها ، اكثر من محافظتهم على « الإيمانات المُغَلَّظة » كما يأخذ عليهم ، من جهة اخرى ، مخالفتهم وتجاوزاتهم لشرائع البلاد والقوانين المعمول بها ، وإعراضهم بسخرية ، عن « التعاليم والعقائد التي غذّت عقولهم يوماً وشبّوا عليها ». فكتابه هذا هو عبارة عن مستودع أسلحة ، كثيراً ما عوّل عليها وصدر عنها ، واتخذ لهم منها بدأ الكتبة الجدليون من الوثنيين الذين تطاحوا ، فيما بعد لدحض المسيحية .

فليس من عجب قط ، والحالة هذه ، أن يهبّ المسيحيون للرد على خصومهم . فها هو القرن الثاني يمدنا بطائفة من أصحاب الردود الأول الذين لا يكتفون بدحض الاتهامات التي يحاول خصومهم إلصاقها بهم ، بل راحوا يهاجمون بعنف الديانات الرسمية المعمول بها في الامبراطورية. فأسماؤهم تؤلف قائمة طويلة ، واصحاب هذه الردود معروفة اسماؤهم لدينا جيداً بعد أن وصلت آثارهم الينا بينما عَفَت آثار خصومهم من الوثنيين ، بعد ان جرى تعقّبها وراحوا يتصيّدونها للقضاء عليها وإتلافها . وببساطة كلية وجرأة لا يخشون معها لومة لائم ، تراهم يوجهون ردودهم للأباطرة أنفسهم ، كما فعل اسقف أثينا كوادراتوس مع الامبراطور هدريانوس ، وكما فعل ايضاً الأسقف ارستيدس الاثيني مع الامبراطور أنطونين ، وغيرهما . ويوستينوس ، هذا الفيلسوف الافلاطوني المتنصّر ، السامري الاصل ، يطلب بجرأة من الامبراطور مارك اوريل ، وهو ايضاً فيلسوف مثله من اتباع المدرسة المذكورة ، ان يوافق على نشر كتابه المعروف باعتدال لهجته ، يرى نفسه مديناً باستشهاده مثلاً لحقد زميل له منافس . وتليانوس « الذي رأى النور على ارض الأشوريين » في مدينة نصيبين من اعمال ما بين النهرين ، قد يكون اشدهم تهكماً وسخرية . ولكي يكوّن القارىء فكرة له عن عنف ردوده وشدة اتهاماته للديانة اليونانية ــ الرومانية ، وتعاليمها الادبية والاخلاقية ، يستهجن مستنكراً تمثالاً يُشيّدونه في روما لأم انجبت ثلاثين ولداً ، عشرون منهم كانوا احياء عند وفاتها . يجب ان نشير هنا بنوع خاص الى ترتليانوس القرطاجي ، وهو اول كاتب مسيحي باللغة اللاتينية ، وضع ، في اواخر القرن الثاني ، كتابه المعرف: « دفاع » عن المسيحية ، وجهه لأولي الامر في الامبراطورية ، كما وضع كتابه الثاني : « الى الشعب ». وهذان الاثران الادبيان ينطقان عالياً ، ببلاغة هذا الكاتب وفصاحته ، ووقاره ومقدرته ، وكلها امور تثير الاعجاب .

إلا ان ترتليانوس اشتطّ في تعليمه وانتهى به الامر الى الهرطقة . فقد عرفت المسيحية في القرن الثاني شقاقاً وجدلاً حول شؤونها الداخلية ، وهي امراض ملازمة للطفولة رافقت نموها وسيرها نحو التكامل ، فعانت منها وتضرّست بها ثمناً للنجاحات التي حققتها ، وللمقدرات الفكرية والعلمية التي توفرت لعدد من كبار اتباعها ، وللوهن الذي رافق تنظيمها في البدء ، فأوجب عليها إكمال هذا التنظيم وتقويته ، ولطراوة إيمانها وتعاليمها . وكان لا مندوحة من هذه الهرطقات لتدفعها على تقوية النظام الداخلي لكنائسها ، ولتحديد قضايا الايمان وتفسيرها وتبسيطها ، وهي بعد في مستهل تاريخ وحركة تطورية طويلين ، خصبين بالحوادث الجسام التي تخللتها.

بقيت الهرطقات قليلة نسبياً ، في ذلك العهد ، اثنتان منها طلع بها داعيان تميّزا بالفردية . اما الاول ، فهو مونتانوس الفريجي الذي راح يتنبأ مدّعياً نزول الوحي عليه . وقــد تأثر ترتليانوس بتعاليمه ، قبل ان يؤسس هو نفسه شيعة مستقلة ، عاشت بضعة قرون في افريقيا ، انتهج لها نهجاً صارماً مجافياً لكل الاوضاع البشرية المعمول بها ، حتى الزواج منها . اما مارسيون الذي رذله ابوه ، اسقف سينوب وحرمه وقطعه من شركة المؤمنين ، فقــد راح يعلم طريقة لم تقلّ زهداً وتقشفاً عن سابقتها . ولم يلبث أتباعــه ان ألّفوا منهم جماعة لعبت ، مدة طويلة ، دوراً بارزاً ، في امور الشرق . وعندما راح يعارض العهــد القديم ، صنيعاً غير مكتمل لباري الكون *Démiurge* ، بالعهد الجديد ، صنيعة المسيح المرسل من الإله الحقيقي ، حمل المسيحيين على الشروع بتحديد قانون الكتب المقدسة ، وهكذا امتد أثر هذه البدعة واستطال .

هنالك بدعة ثالثة هي بدعة الغنوسية التي راحت تعمل على إيهان شأن العهد القديم ، بالطريقة ذاتها التي اعتمدتها البدعة السالفة ، كما انها رأت في المسيحية نفسها ، وجهاً خاصاً من وجوه «الغنوس» ، أي المعرفة الحقيقية التي أضفت على اللاهوت تفسيراً رمزياً للكون . وكانت هذه البدعة أدهى الهرطقات التي عرفتها المسيحية ، الى هذا العهد ، لما حوته من سحر وإغراء ، والنتائج التي أدّى اليها انتشارها السريع ، اذ يصبح المسيح معها كائناً إلهياً بالطبع ، انما يلبثق عن إله أكبر ، ابدعته الفلسفة اليونانية ، كما أضفت على حياة المسيح تفسيرات رمزية او مجازية ، وجعلت حياته وموته امراً صورياً وليس حقيقياً . ومن هذه المقالة المشاقة ، برزت منذ القرن الثاني ، تعالم أخرى ، تحارب الواحدة منها الأخرى . ولو ان المسيحية انزلقت الى واحدة منها لكانت راحت ، هي الأخرى ، فريسة المذهب توحيد الفروق . إلا انها أظهرت ، منذ الاساس مقاومة كان عليها ان تزيدها أكثر صلابة على مر الاجيال ، وأكثر حيوية ويقظة .

الفصل الخامس

الانجازات الأدبية والفنية

حدودها ونجاحاتها

يشعر المؤرخ بشيء من الارتباك عندما يحاول وضع صورة اجمالية لما كانت عليه الحياة الادبية والفنية في الامبراطورية الرومانية . فقد كانت تؤلف هذه الامبراطورية ، عندما أطلّ عليها النظام الجديد عالماً قائماً بذاته ، تباينت منه الشعوب ثقافة ، واختلفت عروقاً وأخلاقاً وعادات . فهو عالم شاسع ، رحب ، مترامي الأطراف والنهايات ، تمّت له مع ذلك من اسباب المواصلات وانتظامها ما قرّب قواصيها الى دوانيها . وهـذا العالم متنوع المظاهر في أقسامه وأجزائه المقومة ، بالرغم مما يشد بينها من عوامل مادية تقرب بين أشتاتها ، وتسّهل لها جميعاً عيشاً مشتركاً ، وادارة حكومية واحدة ، وتؤمن العلاقات المتنوعة بين هذه الأقاليم والمناطق التي يتألف منها ، وتبني الطبقات الموجهة كمُثل مشتركة فيما بينها ، كما تبني لها هذه الوحدة الروحية التي يقوم عليها التطور بعد ان اخذ بأسبابه . فليس ما يذهب بهذا التفاوت القائم بين المدينة والريف ، وهذه الفروق التي نراها بين أنماط الحياة التي يحياها الأهلون في المناطق الزراعية المتحضرة ، ونهج الحياة التي ينهجها سكان المناطق الصحراوية الواقعة على حدود هذه الامبراطورية ، في الشرق والى الجنوب الشرقي من البحر الابيض المتوسط . وليس ما يسد او يملأ ابداً هـذه الفجوة والهوة التي قامت بين الشرق الهليني والغرب اللاتيني . فالعامل الوحيد الذي يجمع بين هذه المفارقات المتضادة ، ويؤمّن لها نوعاً من الوحدة الادبية ، هو هذا الشيء الذي يؤلف في صميمه معجزة ، لأن لا مثيل له في التاريخ ولا كفاء ، اذا ما تمدينا النتائج لنقف عند نقطة الانطلاق. فالفوارق لا تزال قائمة بالرغم من ان التطور الذي ينبع من أفكار مشتركة ، وينزع لأهداف واحدة ، ويتجه من غاية واحدة ، هي العامل المقوّم لهذه الحضارة ، حسبما تتبلور في مظاهرها العامة اذ ذاك ، عند مقارنتها بهذا العالم البربري المتوحش القائم على اطرافها ، وهو عالم أعجز من ان يصل الى خط سَويّ ، لأنه لا يجري على حركة منسقة واحدة مؤتلفة بين جميع الأطراف.

ومهما يكن ، فهذه النزعة نحو الوحدة لا تبدو للعيان في مطلع العهد الامبراطوري . فاذا ما استشعرها بعضهم ، فلم يخطر قط على بال احد انها قريبة المنال ، دانية القطوف . وعلى نسبة

ما يتصف هذا الجهد البناء بالوعي، فهو يستهدف شيئاً آخر، لا مندوحة عنه في نظر أولي الأمر. وهذا الجهد الذي اقتصر سواده الاكبر على روما ، لقي النجاح الكامل وتكلل بالفوز الأتم.

١ ـ عصر اوغسطس

هذا النجاح يصيبه العهد هو السبب بعينه الذي لأجله اصطلح المؤرخون على تسميته بـ : « عصر اوغسطس » ، على غرار ما فعلوا بعهد آخر شابهه من وجوه عدة ، وان جاء بعده بوقت طويل ، هو : « عصر لويس الرابع عشر » .

روما منافسة العواصم الهلينية الاخرى

فالوضع القائم ، كما تبلور في روما من حيث تعبئة الجيوش البرية والاساطيل الحربية في السنوات العشرة الاخيرة من أزمة الحرب الاهلية كان تعبيراً رسمياً لا يختلف كثيراً عن المدلول الظاهر العيان . ففي أكتيوم، جمع اوكتاف او اوغسطس الذي سيكونه، حوله كل قوى الغرب، وانتصر على انطونيوس وكليوباترا المسيطرين على موارد الشرق الهليني وطاقاته الضخمة ومواردة التي لا تنضب . ولما كانت روما قد نالت الفوز بقوة السلاح ، كان لا بد لها من ان تأتي بالدليل القاطع على ان لها من الاهمية والشأن ، في المجالات الاخرى ، ما لا يقل بشيء عما تم لها في الميدان الحربي ، وانها ليست على استعداد قط لتسيء استعمال تفوقها البارز في جميع الميادين . فالشيء الذي كانت الاسكندرية تمثله او ترمز اليه ، لم يخرج عن مظاهر خارجية ، دعائية ، ممثلة بهذه الديانات الفاسدة ، التي طالما عبثت بالاخلاق والآداب، وبهذا البذخ المخل ، وبهذا الترف الفكري والفني الذي يوهن النشاط ويضعفه. فان عجز هذا العالم الشرقي عن ان يرفع رأسه عسكرياً وحربياً ، فهو ، بالرغم من الازدراء له والاستهانة به ، له ، مع ذلك وقعه في النفوس واغراؤه العقول والقلوب ، ويجب بالتالي ، اللحاق به والتساوي معه .

وقد رغب أولو الامر في روما ، دون ان يبدو عليهم شيء من هذا ، ان يحققوا لوطنهم ، هذا التجلي الفكري والادبي والفني الذي اكسب الادب الكلاسيكي : الاغريقي والهليني ، هذه الشهرة البعيدة التي تمتع بها ، وهذه التربية التي تمت له ، هذه التربية المشبعة بالفلسفات والتعالم اليونانية الاصل التي عكست على مرآتها هذا التسلسل الآسر للقيم البشرية التي لم يكن ليخطر على بال احد الإنتقاص منها لئلا تصاب هذه التربية بشيء من رذاذ هذا الانتقاص، فيخدش من رواء أدبها ويتنزل بها الى منسوب البرابرة . فالكل رأى ان تسير القوة في ركاب الحضارة وخدمتها . ولكي تزكي روما انتصارها الباهر وفوزها المؤثل ، كان لا بد لها من ان تظهر، عندما تم لها الأمر ، على ما ظهرت به أثينا وبرغاموس ، وانطاكية والاسكندرية . وكان عليها ان تسير على النهج الذي نزعت اليه منذ نحو من قرنين واحتضنته باحتضانها الادب ، وان تشجعه ، وان تزدان بالمباني الضخمة الجميلة والصروح الفخمة . فالإعراض عن مثل هذا المطلب انما كان يفسّر بالتخلي عن تفوقها ، والاعتراف ضمناً بعدم اهليتها ، والتنازل عن حقها الشرعي في الدفاع

عن الحضارة والثقافة ، وفقدان كل أمل بالتقاف الطبقة المستنيرة وسكان الريف حولها ، والالتقاء معاً في محرابها ، والسير بهديها .

كان هنالك ولا شك ، احتمال لا يخلو من خطر ، لم يفُت بصر النخبة المستنيرة من الرومان وبصيرتهم ، وهو ألا يُقتصَر على جعل روما مجرد عاصمة هلينية ، على شاكلة العواصم الهلينية الاخرى ، بما يحف بها من جيران مزعجين ، ومن فيض فكري وفني لا ضابط له ولا وازع فيه، يزرع الخوف في القلوب وينزل الرعب في النفوس . كان عليها ان تستلهم مُثل العالم اليوناني بحيث تتفادى السقوط في المساوىء التي انتهى اليها هذا العالم . كان عليها ان تقتبس من هذا العالم ما خلقه من وسائل تقنية بشرط استخدامها بعقلية جديدة وروح جديدة ، وان تعمل بهدي الأمور التي استبدت بخاطره على ان تصطفي منها أفضل ما توصل اليه . كان عليها انتهـــاج السبيل الذي انتهجه شريطة ان تعرف كيف تجانب هـــذا السبيل عند الاقتضاء ، فتضع هي لنفسها ، سُبلاً جديدة تتفق والتقاليد الوطنية بما ينسجم مع الوقار والرصانة التي عُرفَ بهـــا الرومان وبها تميزوا .

هذه هي الخطة او المنهج الموضوع تحت الانظار ، وهو منهج لا بد من النهوض به ، والسير معه الى آخر الشوط ، وفقاً للخطوط العريضة التي وضعها له قيصر قبل موقعة أكتيوم ، ولجيل قيصر فضل السبق على اوغسطس في وضع مثل هذه الخطة وترسمها . وقـــد باشر قيصر نفسه وشيشرون وغيرهما كثيرون من النخبة لدى الرومان تحقيقها . وكان من نصيب جيل اوغسطس ان ينهض بهذا المنهج ويحققه على نطاق اوسع وارحب .

« عصر » في صميمه من صنع اوغسطس؟

وأي عصر ! ... فالعرف التاريخي المعمول به، لا يتبنى كل الالقاب والنعوت التبجيلية من هذا النوع التي اعتاد المدلسون إغداقها على بعض الملوك والعهود. ولكن ما من شيء يجعل من العرف قانوناً او يقيم منه قسطاساً . وهذا أمر يجعل التدقيق في الاماديح التي تكال لرئيس دولة كيلاً ، عملية عسيرة للغاية . كذلك ، ليس بين المقاييس التي يمكن ان تخطر على البال ما لا يصح تطبيقه على وضع اوغسطس بالذات ، أهي مدة حكمه المديد التي تبرر إطلاق كلمة «عصر» عليه ؟ فقد مرت اربعون سنة ، منذ ان أطلقوا عليه ، لأول مرة ، هذا اللقب ، في غرة كانون الثاني (يناير) ، من سنة ٢٧ ق . م ، مع انــه كان منذ عهد بعيـــد ، سيد روما المطلق ، وبقي سيدها الأوحد حتى وفاته في ١٤ من آب (اوغسطس) سنة ١٤ للميلاد .

أهو لعمري ، الدور الذي لعبه ؟ فالسلطة المطلقة التي تمت له في الحقل السياسي ضاعفت من شأن الدور الذي لعبه في عالم الفكر والادب . صحيح ان عمله في هـــذا المجال لم يكن كله مجرداً : فقد عمل جاهداً في سبيل المجد ، وفي هذا السبيل وجّــه رجال الفكر والفن ، واوحى اليهم بالموضوعات التي يهمه ان يراها مجلوة . فاذا ما اخذهم تحت رعايته واجرى لهم العطاء ، لمن الغلو القول بانه أوعز او تقدم بطلبات ، إلا ما تعلق بالمباني والانشاءات العمرانيـــة . فلا

بفرجيل ولا بهوراتيوس بمستكتبين عنده. وقد قام بهذا كروماني من ابناء زمانه ومن ابناء طبقته، "حفيّ" بالآداب والفنون الرفيعة. وكلمة « هَويّ » *Amateur* يقصر مدلولها عن التعبير تعبيراً صحيحاً، كما لا يحسن التعبير عن كثيرين من اسلافه او خلفائه الذين عنوا، من قريب بشؤون السياسة. فاسم صديقه وخدينه « مكيني » اصبح رمزاً لنصراء العلم والادب بما اغدقه من مكرمات وأعطيات وهبات كان من شأنها ان تحمل كبار القوم على الاهتمام بامور ابقى وأخلد. الا ان الاكتفاء بالتنويه، والاقتصار على استعمال نفوذ مكيني وكرمه وسخائه على هذا الوجه من شأنه ان ينتقص من قيمة النشاط النير الذي تفرد به نصير من اكبر نصراء العلم والادب في كل زمان ومكان. فقد راح يجرب، هو نفسه حظه ويدلي بدلوه بين الدلاء! فيكتب، ويؤلف في كل موضوع، على شاكلة كتاب ذلك العصر، وعلى مثال الملوك الهلينيين، فراح يُقصّد القصائد ويدير المحاورات ويضع كتباً في التاريخ الطبيعي. والحال فالمَثَل "معدٍ"، ولذا لم يبق وحده في الميدان، فتطلع علينا وجوه عديدة تحلق بصورة ابرز بينهم اول نصراء فرجيل المدعو أزينيوس بوليون. فهو ايضاً يأخذ بنصرة العلماء والادباء نظير مكيني ويرعاهم برعايته، مع انه كان في عداد المعارضين العهد وإن اعترف به ومالأه، فاعترافه هـذا لم يتعدّ طرف لسانه، بعد ان كان من انصار انطونيوس ومن مريديه. فراح يهتم بجمع التحف والأعلاق الثمينة، وينشىء لافراد الشعب مكتبة عامة، في الوقت الذي انقطع هو فيه للتأليف المسرحي ووضع التمثيليات، وكتابة تاريخ عام للحروب الاهلية. واليه يعزى الفضل الاول في اطلاع النـاس على المؤلفات التي يضعها اصحابها، وذلك بقراءات علانية منها، امام الناس، تعريفاً بهـا وبواضعيها.

وقد عاصره، في الوقت ذاته، في موريتانيا، الملك يوبا الثاني، احد ملوك التوميد المعروف بخصومته لقيصر. فقد جيء به يافعاً الى روما وسار في ركاب قيصر عند دخوله روما مظفراً. اعاده اوغسطس الى ملكه هو وزوجته الشابة، كليوباترا سيلانية، ابنة كليوباترا وانطونيوس التي كانت في الموكب الحافـل الذي رافق دخول اوغسطس ظافراً الى روما، بعد معركة أكتيوم. وهذا الملك المزيل الشأن، البربري المحتد، الذي مَلك على قبائل بربرية استنكف اوغسطس من ان يضمّها الى الادارة الرومانيــة مباشرة، ونشأ في روما تحت إشراف عائلة الامبراطور نفسه، يبرز، في غير مغالاة ولا زهو، من كبار نصراء العلم والفن اليوناني: كاتباً، عالماً، عرف ان يُضفي على عاصمته قيصريّة (مدينة تشرشل، اليوم، في المغرب) سناءً بهياً وإشعاعاً عالياً، بما شيّد فيها من المباني والصروح الفخمة، وبما حشد في قاعدة ملكه هـذه من الآثار والتحف والمباني بحيث بدت كأنهـا متحفاً رائعاً، ضمت فيما ضمته، قصراً منيفاً، عثر المنقبون في خرائبه في فولوبيلس، على مقربة من مدينة مكناس، ما وجدوا من الاواني البرونزية التي تثير الدهش بدقة صنعها. وقد وضع هذا المُـلَيك، في الوقت ذاته، عدداً كبيراً مـن المؤلفات باللغة اليونانية، بشتى المواضيع: كالتاريخ والجغرافيا والتاريخ الطبيعي وغير ذلك، وهي

كتب اعتمد عليها ومنها عبّ ، فيا بعد ، بلين الاكبر .

فالاستشهاد ، في معرض الحديث عن أوغسطس ، بمثل هذا الملك الغريب المزيل ، قد يبدو من المزل بمكان ، وهو ، مع ذلك ، استشهاد لا بد منه لندرك جيداً ، الى أي حدّ طبع اوغسطس عصره ، والسجم بمحيطه به . وهكذا نرى بصورة حيّة مُشرقة ، كيف ان أثرياء الرومان وعظماءهم تبنّوا المـُثُل التي نهض بها من قبل ، الفاسيلفس الهليني ، ومنهم امتد الى مثل هذا المـُليك النوميدي الذي كان مديناً بكل شيء، لسراة القوم في روما. وراح اوغسطس نفسه يقرض الشعر ، ويضع المسرحيات التمثيلية ، ويكتب مذكراته ، ويتعهد بالتهذيب والتشطيب مذكراته : « امور الحكم » ، احتذاءً منه بقيصر الذين كتب هو الآخر ، مذكراته التاريخية *Capitulaires* ، وألّف ما ألّف بما عرف عنه من مقدرة . وعندما زيّن روما وحلاّها، وعندما أنشأ فيها مكتبتين عامتين،وعرض على هوراتيوس وظيفة كاتم سره، وعندما يأخذ بمباسطة ومفاكهة المؤرخ تيت ـ ليف الذي رأى النور في مدينة بومبيي ويتعهد اليه بشرف تهذيب حفيده كلوديوس الذي اصبح فيا بعد، امبراطوراً، وتوجيهه وجهة علم التاريخ ، وعندما يأمر باتخاذ جميع الوسائل لتأمين نشر الانياذه *Enéide* لفرجيل بعد ان أوصى هذا عند موته ، باتلافها ، راح يحقق ، على مثل هذا النحو من الشمول والرحب الذي تتسع له نظرة الامبراطور الواسعة ، والمقدرة التي اشتهرت عنه، وبوسائل أوسع وأشمل بكثير مما تمّ منها لمعاصريه ، هذا المثال الذي تبرز صورته الحقة والمثلى في خلفاء هوميروس وطغاة بلاد اليونان القديمة . وهـذه الصورة التي نرسم هنا قسماتها الكبرى،تفاعل على تركيزها وتحييزها نوازع ودوافع عدة. من المحال ان ننكر مثلاً ، رغبته في التلهي والتفريج عن مهام الحكم ، والرغبة في استثارة إعجاب الناس والفوز منهم بالثناء العاطر والأماديح المستملحة، والميل الشديد لاكتساب المجد والعظمة والفخار يخلد ذكرها الدهر . والى هذا ، ارادة صادقة في ان يبرز الناس رجلاً مثالياً لا يُقصِر أطماعه على تأمين نجاح زمني . والى جانب هذا كله – كما يشهد بهذه العظمة النخبة الرومانية التي يكفيها شرفاً ان تكون تسامت في تقديرها الرجل الى مثل هذا الحد – الارادة الصادقة في ان يطلع على الناس برجل نموذجي المِثال لا يُقصر طموحه على نجاح زمني زائل .

كل هذه النظريات وما تثيره من ملاحظات، لأعجز من ان تستنفد مدلول كلمة « عصر » .

ولكي تستحق حقبة من الدهر ان توصف بمثل هذا الوصف ، يجب ان تشهد ازدهاراً عجيباً من الروائع الفكرية والادبية والفنية، ومثل هذه الأجيال من العظماء والمشاهير في كل علم وفن، وتجليّاً منقطع النظير من النوابغ والعباقرة لم يسبق لروما ، في تاريخها المديد ان رفلت بمثلهم .

كذلك من الواجب ، ان تعبر هذه الآثار الادبية والفكرية ، وربما بنسبة اكبر ، وعلى قدر اوفى ،عن نزعة نفسية ليست عادية فحسب ، بل ايضاً وبالاكثر ، كلاسيكية ، إتباعية ، أي تصلح مِثالاً،في خطوطها الكبرى،لاجيال اخرى وعصور اخرى.فجاء ازدهار الآداب والفنون، في عصر اوغسطس يحقق ، الى حد بعيد ، هذا المطلب المروم . فانى أجلنا النظر ، طالعنا ،

هنا وهنالك ، توق عارم : النظام والانضباط ، والاتزان والوضوح ، وكلها مطالب عقلية او بالاحرى عقلانية ، تهيمن على المشاعر وتضبط انطلاقها والتعبير عنها ، وتمحصها وتنقيها مما يُشتم منه العنف او العرض ، فتترك فيما بعد دوياً بعيداً ، خالداً ، يتردد صداه على مر الزمن . فوضع هذه الروائع جنباً الى جنب مع روائع الادب الكلاسيكي الاغريقي ، واتخاذها غذاءً روحياً لنفوس الاجيال الطالعة ولأذواقها ، منذ عهد النهضة والانبعاث الى يومنا هذا ، في كل المدنيات التي توالت على مسرح التاريخ ، ليس فيه ما يدعو للدهش او للعجب . ففي ذلك شهادة حق ، تنطق عالياً بما فيه من جهد كريم حاولنا معه تجاوز نطاق الهواية ، وايمان رشيد قويم بصحة ما يقول ويعمل للوصول الى طريقة صورية ميسرة لا تستحيل لعبة مع نبوغ عارض ، لتمكين العقل من مراقبة تصادم الاهواء والنزعات ، ولاخضاع الشعورية الفردية لمعايير العقل ولقسطاس مثالي من التناسق والانسجام المشرق .

وهنالك ملاحظة اخرى تُركّيّ أيضاً، اذا كان ثمّة حاجة بعد للتزكية، اطلاق اسم اوغسطس على هذا العصر ، تقوم في هذا التوافق البيّن بين تفجر هذه النزعات الكلاسيكية وازدهار الآداب والفنون ، وبين السياسة العامة التي انتهجها الامبراطور . فعندما راح يعيد تشكيل الدولة والمجتمع الروماني ، بعد الفوضى التي رزحت فيها البلاد إثر الحرب الاهلية ، استوحى مبادىء النظام والاتزان التي هي قوام الأدب الكلاسيكي بالذات . فالسلام الذي نشر لواءه على الامبراطورية ، في الداخل والخارج ، شاده سلاماً لا يقوم على الضغط والإكراه ، بل على العقل والاقناع لدى من توخى تهذيبهم ، وحذّر عليهم السير مع الفتنة ، وهو سلام يعكس تماماً روح الانضباط والنظام الذي طبع الروائع الادبية التي طلع بها ذلك العصر وميزها . وهذه الانضباطية التي حققها في المجالات السياسية والاجتماعية والعسكرية كان لا بد لها ، لكي تقوى وترسخ في النفوس ، من ان تقترن بانضباط الناس في اهوائهم ونزعاتهم وطبائعهم . فقد كان يشوقه ان يرى القلوب والأفكار تنعم بجو روحي ملؤه الدعة والطمأنينة بحيث ترسخ وتتوطد الانجازات التي حققها للامبراطورية . فكما ان العنصر الديني لعب هو الآخر دوره البارز في هذا البناء ، وفي هذا البعث الروحي ، ترتب على الآداب والفنون التي يشدها الى الدين اكثر من رابطة وآصرة ان تلعب هي الاخرى ، دورها الفعال في هذا البنيان القومي .

فلا عجب بعد ، ان يستجيب أهل الأدب ورجال الفن لهذا المطلب ، وان يبادروا لتحقيق رغائب الامبراطور على النحو الذي خطط ورسم . فقد تألموا كثيراً هم ايضاً ، روحياً ومادياً ، من هذه الأحداث الدامية التي اصطلحت على البلاد وانزلت بها ما أنزلت من الإحَن والمِحن ، فزعزعت روما وهزت منها الأركان، وهددت حضارتها بالدمار والزوال . وقد راحوا في زكانتهم يستجيبون لهذه الرغائب ويحققون هذا الانسجام المرتجى بين نزعاتهم الشخصية وبين مقتضيات السياسة الرشيدة التي انتهجها الامبراطور . فتجاوبت مشاعرهم عميقاً لما تبينوا الأسس التي ستقوم عليها عظمة روما، والرسالة التمدينية التي تضطلع بها لرؤية لواء السلام يرفرف خفاقاً فوق الجميع .

فقد أتاح لهم حاضرهم الماثل ان يدركوا جيداً ماضيهم المجيد ، وألا يقبعوا متقنعين بالامجاد مجترين ذكريات الماضي البعيد. ولذا راحوا، طوعاً واختياراً ، يتبينون بعفوية ظاهرة، المطالب القومية الكبرى ومستلزماتها الركينة : حب الوطن ، والتمسك بالتقاليد والاعراف الوطنية التي هلبتها وصقلتها النظريات الفكرية المقتبسة من الخارج، ولم تمتّم ان انصهرت بها وتمازجت معها ، والتحدث بفضائل السلف الكريم بعد ان تعرّت من شوائبها الخشنة ، والاعتداد بهذه الامجاد الحربية التي حققها لخير المغلوبين على امرهم . من هنـا ايضاً هذه الأماديح والتقاريظ العطرة التي ضفّرها القوم للمَليك المنقذ ، المخلص، حبيب الآلهة، الذي أعاد الى الامبراطورية: هذا الأمن وهذا الانسجام وهذا التناغي الذي كادت تفقده الى الأبد. وروح هذه الكلاسيكية نفسها، كانت تأبى ان تنطلق عاطفة الامتنان المتأججة في صدور القوم، بعبارات نابية تشذّ عن الصدد لتنزل الى الزلفى المخزية . وهذا الآمر الناهي ، المطلق ، الذي كانه اوغسطس ، لم يأتِ آيةً أفضل على ما تم له من مهابة ووقار ، وعلى ما كنّه من احترام عميق لهذه المثل التي عمِل بها وعلّم ، لو لم يكن على جانب عظيم من المقدرة الفائقة ، بعد ان استعصى على الناس النفاذ الى أغوار نفسه وقلبه ، اذ لم يرض قط ان يوعز ، ولو من طرف خفي ، أو ان يُلمِح ولو من بعيد ، الى خاصته ، وصحبه المقربين من رجال بطانته، وهم بشر كغيرهم من الناس، وله في أعناقهم ما له من أياد بيض وغُرّ الفضائل ، ودانوا له بكل ما لديهم من نعمة ورخاء ، وجاه ونفوذ ، بشيء من هذا الثناء أو من هذا التدليس ، يحسنه أهل البطانة . فكلا الجانبين عرف أن يتفادى مثل هذا الإفراط ومثـل هذا الانزلاق الذي كان من مميزات البلاطات الهلينية . وبذلك صَونٌ لكرامة الرجل وعزته وإبائه .

ولكن هذا التوافق لم يعمّر طويلاً، وقد تجلى ذلك على أتمه ايضاً في الجيل الذي عايش لويس الرابع عشر وعرف بالتالي سيطرة غير سيطرته. ولد كل من فرجيل وهوراتيوس قبل اوغسطس بسبع سنوات الاول ، وبسنتين ، الثاني ، وماتا قبله بـ ٣٢ سنة و ٢١ سنة . وبين كبار رجال الادب في هذا العصر ، كان المؤرخ تيت - ليف وحده أصغر من اوغسطس بأربع سنوات ، كما عاش بعده ثلاث سنوات . فقد عمّر اوغسطس طويلاً ، وعاش في مجتمع اعتنق كبار مفكريه فكرة الملكية وتبنوها بعد ان نسوا او تناسوا الاضطرابات العنيفة التي هيأت لها اسباب الطلوع، كما تناسوا ، على ما يبدو ، مدى المشاغل التي جاشت في صدور اسلافهم .

التاريخ : تيت-ليف

وهذا السَلَف اهتم كثيراً لهذا الوضع الذي نجم عن إنشاء النظام الملكي . ولكي نقف عند أبسط هذه النتائج ، لننظر ملياً الى فن واحد من هـذه الفنون الادبية الذي راج من قبل أيّما رواج في روما، هو الخطابة فنفهم كيف به ينحط ويهبط بعد ان انقطعت مناقشات الهيئات والمنظمات السياسية والجدل الذي كانت تثيره، اذ لم يعد مجال لهذا الفن يتغذّى منه . فالتاريخ والشعر استأثرا وحدهما باهتمام الجميع ، وهو اهتمام له ما يبرره اذا ما اخذنا بعين الاعتبار الصفات التي تحلّت بها المؤلفات التي وصلت الينا من هـذا العهد .

هنالك بالطبع ، مؤلفات ماتت وضاعت وعفا أثرها ، بعد ان لاحقها النظام القائم وجدّ في اثرها لتجاوز أصحاب القيود والحدود التي فرضتها السلطة على حرية المؤرخ . فقد أمر مجلس الشيوخ مثلاً ، بحرق آثار كاتب من المتحمسين للعهد الجمهوري ، لما تبين فيها من نقد جارح للعهد الجديد .

فالتاريخ يتمثل هنا على أحسنه بالمؤرخ تيت ليف ، كما تبدّى في نظر معاصريه وكما نراه نحن في يومنا هذا ، تشيل كفته عالياً اذا ما قارناه بمؤرخي العصر من اليونان امثال ذيوذوروس الصقلي ودنيسيوس الهاليكارناس ، كما ان المؤرخ الغاليّ ترُوغ بمبيوس الذي لا نعرف من آثاره التاريخية سوى مقتطفات ذكرها يوستينس ، ليس بشيء يذكر تجاهه . صحيح انه لم يصلنا تاريخه الضخم الذي أرّخ فيه لروما منذ تأسيسها الى منتصف عهد اوغسطس ، وهذا التاريخ الذي جاء في ١٤٠ جزءاً ، لم يصلنا منه سوى ٣٥ جزءاً لا غير ، تقسم الى قسمين متميزين . يتألف الاول من ١٠ اجزاء ، بينما يضم الثاني ٢٥ جزءاً ، يقص علينا حوادث الحقبة الممتدة من سنة ٢١٨ الى ١٦٨ ق . م . وفي هذا لعمري ما يكفي لنتعرف الى هذا الكاتب ، ونتبين مناهجه وأساليبه والطرق التي اتبعها في وضع هذا التاريخ الضخم ، وميوله الفكرية ، ونزعاته الشخصية ، ومقدرته الفنية وغير ذلك من العوامل التي تقوم عليها كتابة التاريخ .

علينا ألا نتوقع منه أي جهد كبير يبذله في البحث الشخصي وفي التحري عن الحقائق ، او أي نقد متدبر للمصادر التاريخية التي عوّل عليها واستقى منها ، ولا أي تحليل لأغوار النفس البشرية عندما تعرض للحديث عن الاشخاص والجماعات التي يحدثنا عنها ، ولا الاطلاع الكافي لا نظرياً ولا عملياً ، على عوامل التاريخ والمبادىء التي يخضع لها تطور المجتمعات البشرية . فبينه وبين توقيديدس اليوناني ، وبوليب الروماني ، بَوْن شاسع من هذه الناحية ، فهو يفتقر اصلاً الى تربية الرجل السياسي وحنكة القائد العسكري المجرّب ، كما ينقصه ما قد يكون فيه بديلاً عنها : النظرة السديدة المحللة في آثار السلف ، والتفهم العميق للصفات التي تحلّوا بها . فهو يرغب ، تشبهاً بمن سبقه من بعض المؤرخين ، ان يقدم خدمة نصوحة للقارىء من باب تزويده بأخلاقية صحيحة دون ان يهيئه للعمل ويسلحه له . « فالمفيد في علم التاريخ والمثمر معاً هو ان يرى المرء وكأنه على قمة بناء شامخ ، كل الامثال الصالحة التي يجب عليه الاقتداء بها لخيره وخير وطنه ، كما عليه ان يتجنب كل ما من شأنه ان يجرّ الخزي والعار ، في هذه الامثلة ، من مفاتيحها الى مغالقها » . فبين المؤرخين الذين سبقوه في هذا الفن يطالعنا بالطبع بوليب الذي أرّخ لفتوح الرومان في الاقطار الواقعة حول حوض البحر المتوسط . ويشقّ علينا كما يؤذينا في الآن ذاته ، ان يستعمله ، في الحين الذي عاد عليه ، على نسبة واحدة ، مع بعض الرواة الرومان ، دون ان يتبين ما تفوّق به بوليب : من جمع مصادره والاستيثاق بها ، والمقدرة الفكرية التي عالج بها الاصول التي عوّل عليها ، كما ان تيت ليف لم يأبه بشيء الى ما تحلى به تاريخ بوليب من تناسب في معطياته ، وما فيه من دقة ملاحظة وتدبّر ، حتى انه يبدو عليه وكأنه لا يهتم كثيراً بفهم النص الذي بين يديه .

فهو ، اذا ما اشتطّ وغلط، فليس عن سوء قصد او نية ، اذ ان اتساع المهمة التي يضطلع بها، ورحابة المدى التاريخي الذي وضعه نصب عينيه، كل ذلك يرغمه على العمل بسرعة. فالاغلاط التي تتزّى بها شق قلمه لا توهن بشيء نزاهته ، هذه النزاهة التي هي في الصميم من هذه الفضائل السامية التي تشكل ، في نظره هـذا التراث القومي الجيد . فهذا المواطن البدواني الاصل ، والغاليّ المحتد ، الذي رأى النور في منطقة قاومت الفتح الروماني وحاولت صدّه ، بلغ منه التمسك بروماتيته والشد عليها بنواجذه بحيث راح يقول : « فإما انّ حي للمهمة التي ندبت لها نفسي بعميني ، واما ما من دولة فاقت روما: عظمة ونقاءً وغنىً بهذه العظات البليغة الخيّرة التي يجيش بها تاريخها المديد » . ولكنه يتحرّز من الوقوف موقف المبرّر دوماً لروما ، ويتمالك عن حل الحقد والبغضاء ضد خصومها الألداء او الأكثر خطراً عليها . كذلـك ، كتاباته عن القلاقل والاضطرابات الشعبية التي وضعها ، لا تتزى بأي حقد او ضغن . فهو يقف منها موقف اللائم ، الشاجب، انسياقاً منه مع الولاء الذي يحمله لروما . قد يهتز لأمر ما وتتحرك نفسه بعاطفة الاعجاب نحوه . إلا انه يتورع عن البغض والكره ، ليس رغبة منـه بفهم الأمور ، بل انسياقاً لما عرف به من اعتدال ومن تـنصّفة .

وكانت وطنيته خير مُسعف له ، وهي وطنية قوامها الانعطاف النابض والاستلطاف الذي يحمله على تقدير الحقب التاريخية الحاسمة ، وتقدير رجالات روما الذين نهضوا بالامر فيها . واشد ما تجيش هذه العواطف في صدره عندمـا يروح يقص علينا حروب مانيبعل الذي يجعل منها ملحمة وطنية تتعاقب فيها الويلات والامجاد ، الى ان أقبل اخيراً النصر المظفر ، مـكافأة لهذه الروح الوطنية التي تجلت على أتمها في هذه المحنة التي جثمت على صدرها ، وهذه التضحية والبذل السخي الكريم تجود بها الدولة دونما حساب ، وهذا الاباء في النفس والعزة والكِبَر ، ومكارم الاخلاق يتحلى بها الشعب وافراد الرومان على السواء ، واحترام الآلهة الذي ، استبد بالنفوس . فبدلاً من ان ينطلق في عظات مملة مُنَفّرة ، نراه يعرب عن اسفه الشديد لفقدان هذه الفضائل التي ُعرف بها السلف الكريم ، وراح يكشف عن جذورها الاصيلة بهذه الامثلة التي يضربها لنا وبهذه المواعظ التي يسترسل فيها . وهكذا ، بفضل هؤلاء الرومان الذين يجلو لنا تاريخهم ، والذين قال فيهم لابروبير انهم « أشد رومانية » مما يمكن ان يكونه بالفعل اي إنسان ، يضع امامنا تاريخاً لروما ملؤه الجلال والعظمة . فليس من غريب قط ، انه بالرغم من تعلقه الموصول ، بالنظام الجمهوري ـ أقله في المرحلة الاولى منه ، طالما انـه يسلم بانحلال الاخلاق فيه في المرحلة الاخيرة – يرى فيه اوغسطس عـاملاً من العوامل التي يمكن الاعتماد عليها في عملية الاصلاح العام الذي نهض له . كذلك ليس بمستغرب قط ان يعتمد عليه كورنايل ايضاً كما اعتمد على كثيرين غيره من مؤرخي الرومان ، لجلو هذه الصورة البديعة التي رسمهـا عن روما والرومانيين .

وبالفعل فقد استطاع المؤلف ان يحافظ ، بعد سقوط روما القديمة على مـا في فنه من قوة

الاغراء والتشويق ، وإلا لما تمكن ان يروي لنا قصصه بشكل جمع فيه بين الحماسية المرهفة ودقة الوصف مع المحافظة على مـــا فيها من حيوية وجاذبية ، متنكباً في الوقت نفسه ، عن التصنع والتكلف . قلما نراه يرسم لنا شخصيات كاملة، ومع ذلك فشخوصه متنوعة، لكل منها فروقها المميزة ، تتحرك على أقدار وتسام في الاحداث التي يعرضها، فتمر امامنا سراعاً دون أن نشعر بها أو ان نتبين حركتها ، ومع ذلك فهي تلفت اليها النظر . وهذه الشخوص تعرّف بنفسها في هذه الخطب والأحاديث التي يضعها على ألسنتهم ، وهي من الكثرة والوفرة بحيث تصدم ذوق أهل هذا العصر ، ولذا رأت برامج التربية الحديثة ان تخفف من المناهج التعليمية بالغاء تمارين الخطابة في منهاج اللغة اللاتينية التي نرى طائفة طيبة منها في المجموعة المعنونة *Contiones*، والتي منها استمد واضعو المناهج المحفوظات النموذجية . وهذه الخطب تخلو مع ذلك ، من كل قيمة تاريخية ، اذ أنها من نسج خيال تيت ليف، كتبها هو بنفسه أو أعاد كتابتها، وقد سار فيها، ولو من بعيد، على نهج شيشرون ونسج على منواله ، وان كان دون شيشرون بكثير ، جزالة ونصاعة مهما اكثر من استعمال المحسنات اللفظية . وقد استطاع هذا المؤرخ المتحمس كثيراً لتاريخ روما القديم ان ينوّع فنه بحيث يضفي على عبارته قوة تعبيرية اكبر ، لما من قوة الايحاء والابانة ما مكن من إلهاب خيال العديد من الأجيال التي جاءت بعده .

الشعر : فرجيل

وبزّه قوة في شدة تأثيره وبلاغته الآسرة، شاعر العصر الاكبر : فرجيل الذي اطلق الشعر من عقاله وألهب بحماسته أخيلة الشعراء . فهو ايضاً من مواليد مقاطعة غاليا ما قبل الألب ، وأخذ على غرار تيت ليف، بعظمة روما وسمو فضائلها . نزعت نفسه دوماً للعيش في الريف والابتعاد عن محيط المدينة ما امكن ، فبقي ريفياً في قرارة نفسه . ولم يقلّ حبه لايطاليا ، هذه الأرض الثرية ، منبت عظام الرجال والابطال ، عن حبه لروما ، فسكب نفسه الشاعرة على سجيتها في ذوب كلي مع هـــذا النشيد الكوني ، الشجي ، الحقي ، يطلع علينا من اغوار نفسه .

وقد تم لهذا القروي من ضاحية مدينة مانتو ثقافة أدبية وفلسفية ،معرفة، يونانية ولاتينية، على السواء . ولا لخاله يغلو عندما يروح فيؤكد لنا انه استمر يتعهد هذه الثقافة بالنماء والغذاء الموصول . وهذا الشاعر الفنان ، المفتن ، اللبق والظريف ، النحيل البنية والقوام الذي تأثر الى حد بعيد ، بثيوكريتس ، كما يبدو من قراءة قصائده الرعائية *Bucoliques* ، عمل دوماً على صقل قريحته وشحذها . فقد تعهد عشر سنوات متواصلة ملحمته الخالدة الإنيادة ، ومع ذلك تبدت له ، وهو يحتضر ، انها غير خليقة بالحياة ، فأمر باحراقها وإتلافها . خضعت فلسفته هو الآخر للتطور . وهذا الفيلسوف الابيقوري الذي نستشف قسماته من شعره الرعائي ، نراه في «قصائده الزراعية» *Poésies géorgiques* ، يطوّب سعيداً محظوظاً من استطاع النفاذ الى اسرار الطبيعة، ووطىء تحت قدميه الخوف من القدر الذي لا يرحم ». نراه يأخذ، في ملحمته الخالدة، بقدرة وفن عظيمين ، وعلى نسبة متساوية ، بين الفيثاغورية وبين الرواقية . فكل أثر من آثاره

الفكرية يكشف لنا عن نوع المطالعات والقراءات التي أقبل عليها بتدبر ، يتمثلها ويستمرؤها . فقد استلهم الفكرة الاولى لقصائده الزراعية من ملازمته قراءة هزيودس ومنظوماته في علم الفلك ، ولم تتبلور في وضعها الاخير الا بعد ان قرأ ما كتبه فارّون عن الزراعة . من ينعم النظر ملياً في الإنياذة ، ير ان الشاعر اتخذ له بدأ من كل مـا اتصل به او بلغه خبره ، من آثار التاريخ القديم الفكرية ، منذ هوميروس الى معاصريه من علماء الآثار الرومانية . وهذا الطابع الموسوعي الذي يبرز في الانياذة ليس سوى إلفة متناغية من آداب اليونان والرومان وكان له فضل كبير في النجاح الذي اصابته هـذه الملحمة الخالدة خلود الدهر ، اذ كانت تعبيراً بليغاً ، ولقاء جميلا لهذه الروائع الفكرية التي تناثر نضيد درّها على لـُجَيْن التاريخ القديم .

غير ان فرجيل لم تُرْضه هـذه الثقافة الكتابية التي تمّت له من عشرة موصولة الكتاب . فبالرغم مما عرف عنه من « دماثة » ولين الجانب ، فقد عرف ان يتحامى عن شقشقة هـذه المجادلات التي ارتفع عجيجها في عصره. ومع ذلك ، فلم يَحُل ما عرف عنه من استسلام للأحلام المعسولة ، دون الاهتمام بما يجرى حوله من شؤون السياسة وتصرفات رجال عصره ، حتى ولو شاء ان يتجاهلها بالكلية لما استطاع الى ذلك سبيلا، بعد ان أقلقه وهمّه كثيراً ، أمر مصادرة أملاكه في الوقت الذي كان فيـه منقطعاً لنظم قصائده الزراعية . ومعظم قصائده هي رجع صدى احداث زمانه ، وصدى الاحداث البارزة التي ماج بهـا تاريخ روما . فها هو في احدى قصائده الرعائية يغني السلام الذي أمكن تحقيقه ، ولو الى حين ، في مدينة برنديس ، بـين انطونيوس واوكتافيان، كما غنى في احدى قصائده الزراعية الجهد المبرور الذي بذله اوكتافيان لتركيز مكانة ايطاليا الزراعية والأدبية ، على أسس ركينة قوامها حياة الريف . وفي الإنياذه ، نراه يربط اوغسطس عن طريق أسلافه الذين غبروا ، وعن طريق المآتي الغر التي حققهـا ، بتاريخ روما ، هذا التاريخ الذي ملك عليه جماع عقله ولبه ، فراح يكتشف لأينه *Enée* أسراره المكنونة بأسلوب ساحر ، خلاب ، كما راح يعظّم هذا التاريخ ويمجده ويرسم لنا التطور المعظم الذي أخذت روما ، منذ البدء ، بأسبابه ، وفقاً لما قدّرته لها ، إرادة جامحة لا تُرَدّ . وهكذا نراه يتحزب لأوغسطس باكراً، وفقاً للخطة الموضوعة التي دغدغت اماني اوغسطس العِذاب. واذا ما راح ينافح عن رسالته بمثل هـذا التسامي، فقد عرف مع ذلك، ان يتنكب عن كل خسة او دناءة ، او يميل مع الغرض او الهوى . كل ذلك بدافع من نفسه دون أي وازع من اوغسطس ، مدفوعاً بعامل الشكر والمنّة لإعادة أملاكه المصادرة اليه، ولا سيا بهذه العظمة التي تتجلى بهذا السلام وهذا النظام الذي عرف ان يؤمنها للامبراطورية . وهب ان فرجيل كان مدفوعاً، فقد عرف كيف يتعالى كثيراً بما أوتي من نبل الأحاسيس والمشاعر السامية .

هذه الميزة طبعت شعره وأضفت عليه ما فيه من السحر الحلال والروعة المثيرة . فاذا ما وقفنا عند المعنى الاشتقاقي لكلمة « مبدع »، نرى ان فرجيل لم يكن قط شاعراً مبدعاً ، اذ كانت تنقصه الشاعرية الخلاقة . فقد ألبس «إينه» شخصية معقدة تثير البسمة على الشفاه ، وعلى

هذا ، برزت ايضاً من شق قلمه ، شخصية جوبتير المهيب . وبالرغم مما تم له من حدة الذكاء ، فهو أعجز من ان يحرك العواطف في النفوس ما لم تحوّل عاطفته قراءاته ومشاهداته الى أحاسيس حية نابضة . وقـــد منعه طبعه الحييّ عن إظهار خوالج نفسه بصورة بارزة إلا ما ندر ، وهي خوالج من الدعة والحنان تشوبها سحابة من الحزن أكثر منها عاطفة مشبوبة . فاذا ما عرف ان يسمو بعواطفه الى الأوج، فأمام رهبة الموت وامام البؤس البشري والاوصاب التي تترصد الانسان. وبهذا يُبدَوّي الصدى الذي أحدثه اثره الادبي المظم ولا سيا ملحمته الخالدة الإنياذة . فكل شيء روماني فيها ، يبدو ، في ظلال هذه الملحمة ، مـــع الدهر وكرّ السنين ، موعظة بليغة في الوطنية وحب الوطن .

فالانياذة والالياذة فرسا رهان ، لا بل صنوان في عملية صقل العقول وتهذيب الارواح . فليس من عجب ان تُنقل الى اليونانية ، وفي هذا النقل الباكر شهادة حق على قيمتها الكبرى ومنزلتها السامية . فحاول الشعراء القدامى ان ينهجوا دوماً على منوالها ، وان يترسموا ما فيها من أصالة في الشعر وعفوية . فها هم المسيحيون أنفسهم يقفون حيالها وقفة الخاشع امام الخشوع والتقوى التي شعّت من أغوار النفس عند هذا الشاعر الوثني ، وما تحلى به من وقار ديني يبعث النفس على التأمل.ولا يزال يزداد كل يوم عدد المعجبين بهذا الشاعر الملهم لما يأنسون فيه من خصوبة العاطفة ، ومن انعطاف انساني وترّصن ظاهري ، وحدب شغوف على كل ما ينبض بالحياة في الطبيعة ، وبهذه الابيات الشعرية العامرة التي تبعث الكبر في النفس والاعتزاز بالقيم الانسانية .

هوراتيوس والشعراء الوجدانيون

وهوراتيوس نفسه يبدو دونه منزلةً شعرية ، إلا انــه في نظمه املك لصناعة الشعرية من فرجيل. فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تبرز للأنظار قدرته الواعية على قرض الشعر . فهو مشبوب العاطفة ، فياض الشعور، صادق في تعبيره ، متحمس التغني بأمجاد أوغسطس العسكرية ، ملتهب الخيال لا سيا في القصيدة التي نظمها بمناسبة الاحتفالات بالسنة القرنية تعبيراً عن بهجة الجميع للاصلاح الديني والأخلاقي الذي جنّد له اوغسطس ملكه العريض وعمره المديد . هو ابن رقيق أعيدت اليـــه حريته السليب ، ودخل الجيش ورُقي صدفة ، وهو يخدم في اليونان ، الى رتبة عالية في جيش قتلـَــة قيصر ، ثم طارت شهرته بعد ان عانى ما عانى من مشقات وآلام ، وقـــد عرف كيف يصون نفسه من العاطفة التي استسلم لها صديقه فرجيل . وقد نحت لنفسه نوعاً من الأبيقورية جاءت على هواه : مزيجاً من هذه الحماسية الناعمة ، واللذة المترفة الرقيقة على شيء من نِفـــاذ البصيرة والتهكم الساخر حتى من نفسه ، والباقة التي عرف معها أن يحافظ على فرديته في تشابك هذه التيارات التي أخلت بتلابيب حياة العصر ، اذ عرف ان يقف موقفاً وسطاً بين إرضاء مسراته والابتعاد عن سحر المدينة ومفاتن العيش فيها ، يفرغ أيامه في داره ، المدين بهـا لكرم نصيره مكينوس وأريحيته . فلم يلته به تجرده الى المذهب التشككي وصانه من الاستعلاء والكبر . وكان يصدر في سلوكه عن حكمة واعية ، وهي حكمة تجردت من كل عاطفة وحرارة بحيث أحت به

الى الاثرة وحب الذات. فلا عجب أن تلقى عقلية من هذا النوع الكثيرين من المريدين والمعجبين حتى بين مجتمعاتنا العصرية . الا انه يبدو اليوم بارداً بعض الشيء . فالأهمية التي يتمتع بها جاءته من الدور الذي لعبه في تطوير مدينة روما من الوجهة الجمالية . فقد أغنى الآداب اللاتينية بأهاجيه *Satires* وبأغانيه وأناشيده وبرسائله الشعرية ، وكلها روائع اتصفت بالاتزان بين قريحته الفياضة وبيانه المقتضب ، ناحياً في ذلك منحى المُثُل اليونانية والروائع الكلاسيكية التي صَدَرَ عنها ، دون العَبّ كثيراً من شعراء اللاتين القدامى أو من الشعراء الاسكندريين المتحذلقين .

وقد تأثر به كثيراً، أكثر الشعراء المعاصرين لأوغسطس، ممن وصلتنا آثارهم الفكرية، أمثال: تيبول، وبروبيرس، واوفيد. ولا شك في اننا نظلمهم كثيراً ونتزل بهم حيفاً كبيراً اذا لم نصفهم بأكثر من مقلدين ماهرين لهوراتيوس ، نهجوا نهجه وساروا على منواله . فقد امتاز شعرهم بالرقة والجزالة كما امتاز بالعاطفة المشبوبة وبهذه الحساسية المرهفة والخيال الجنح ، والنكتة المستملحة ، وبمقدرتهم الفنية في التعبير عن خوالج النفس الدفينة التي يعلوها تارة الفرح ، وطوراً مسحة من الألم الشاكي الباكي. فقد عالجوا، باستثناء تيبول بينهم، الموضوعات العزيزة على قلب اوغسطس، وطنية كانت أم دينية . ومن مطالعة شعرهم يبرز أمامنا مجتمع دنيوي ، زاهٍ ، ثقيف رقيق بلغ في تألقه حدود الحقة ، وفي أدبه الأناقة والهيام .

هذا هو المجتمع الذي خرج منه أوفيد بعد ان حز الحرمان شديداً في نفسه وهو في بلدة تومي (كونستنزا اليوم) الى الجنوب من مصب نهر الدانوب ، حيث كان اوغسطس امر بنفيه وإبعاده بعد ان اشترك في مؤامرة دبرتها بطانة الامبراطور . وهكذا نرى ان الادب اللاتيني في روما الامبراطورية اخذ يتسم بطابع الصالونات الادبية .

الفن الرسمي

كان على الفن ان يلعب هو الآخر، اسوة بالادب، دوره البارز في الخطة التي وضعها اوغسطس للنهوض بالامبراطورية ، وحرص على الافادة منه الى ابعد حد . فهو يتبجح بانه تسلم مدينة من اللبن وسلم مدينة من المرمر » . في الامكان الاعتماد على كتابه : « امور الحكم » لتنظم قائمة طويلة من المباني والصروح الضخمة التي شيدها ، او رممها ، والمبالغ التي تبرع بها افراد اسرته او بعض اصدقائه الخلص لترميم او إنشاء عدد آخر من هذه المباني . ان رفيقه الاول في الجهاد ، أغريبا الذي اصبح فيا بعد صهره ، كان عنده بمنزلة وزير الاشغال العامة او التعمير . فالانشاءات العديدة التي شيدها في روما كانت غاية في الاهمية ، فجعلت من هذه المدينة عاصمة تليق بعظمة العهد الجديد ، ثم راح كل الاباطرة الذين تعاقبوا على الحكم من بعده ، يتنافسون في تجميلها وتزيينها واستبدال الكثير من معالمها الاولى . ففي هذا المجهود العمراني الموصول الذي كان يوليوس قيصر نفسه اول من أخذ به، والذي استمر العمل به طويلا، كان مُلك اوغسطس حلقة طويلة في سلسلة الحلقات التي استمر الاخذ بها قروناً ، بحيث لا يجوز التغاضي عن التنويه هنا بهذا الفضل ونحن في معرض الحديث عن عصر اوغسطس .

اما في النحت والنقش ، فكان الامر بعكس ذلك ، اذ ان بعض آثار هذه الفترة ، ولا سيما تلك النقوش التي تزين « هيكل السلام » او تلك التي ازدانت بها تماثيل اوغسطس وعلى الاخص تلك التي قامت منها في قصر زوجته ليفيا في بريما بورتا ، على مقربة من مدينة روما ، فقد جاءت كلها منسجمة تماماً مع السياسة الثقافية والحضارية التي انتهجها الامبراطور ، كما جاءت متفتحة تماماً مع روح ادب العصر . الا ان هذه النقائش لا تتم بعد عن بلوغ روما ، في هذا المجال درجة من الاستقلال تستطيع معها البروز والاكتفاء الذاتي . وهذه الآثار هي إغريقية في معالمها الفنية كما هي اغريقية في طريقة صنعها وانجازها، لسبب وحيد بسيط جداً هو وجود الفنانين الاغريق بكثرة في روما اذ ذاك ، ولهم فيها القِدح المعلى من هذا القبيل ، اذ ان بقاء هذه الآثار غفلاً من اسماء الفنانين الذين تولوا صنعها ، انما يدل صراحة على وضعهم الاجتماعي المتواضع، اذا ما قيسوا، من هذه الناحية ، بالادباء الذين كانوا روح الندوات الادبية وراحها . فلم يكن من الصعب قط على اوليـــاء الامر ، ان يوحوا لهؤلاء ، بما يرغبون فيه ، بعد ان يقيدوهم بالموضوع ، ويوجهوهم في انجازه وتحييزه الوجهة التي يرغبون .

وتبدو على هذه الآثار الفنية نزعة ظاهرة نحو الواقعية ونحو الحقيقة المجردة ، كل ذلك بمـــا ينسجم مع اصدق التقاليد الرومانية . كذلك يبدو عليها نزعـــة الى التجريد البطولي ، والى الرمزية الميثولوجية انسجاماً مع هذه التقاليد ايضاً . غير ان النزعتين الفنيتين هما في خدمـــة المشاعر الوطنية، ملكية كانت ام دينية، وتؤولان معاً، وفقاً للروح المسيطرة على النظام الجديد بحيث تؤول الواحدة الى تقوية الاخرى ودعمها . فتمثال اوغسطس لا يصدم الحقيقـة الا بعري الرجلين ، وهو آخر الآثار الباقية من العري الكامل الذي لازم ابطال اليونان ، بينا تفاصيل التوغة تظهر بوضوح كلي وتبدي الدقة الكلية التي لازمت صنعها . فهامة التمثال ، بالرغم مما يبدو عليها من المثالية المصطنعة ، استطاعت ان تحافظ ، مع ذلك ، على قسمات الشبه، والتشدد في الحفاظ على المهابة والوقار يبرز واضحاً في النظرة التي تفيض بالوقار، وبهذه المهابة الهادئة التي تكشف من الوقفة . فرسوم الدرع النافرة تبرز قسمات هذه الوقار هي الاخرى ، لانهـــا تستحضر في الذهن حدثاً تاريخياً ، هو إعادة احد ملوك الفارثيين ، العلم الروماني بصورة سلمية بعد ان استولى عليه العدو اثر هزيمة نزلت بفرقة رومانية ، في اواخر العهـــد الجمهوري ، على الحدود الشرقية للامبراطورية . والرموز المجازية تطالعنا من كل مكان في هيكل السلام . فالاجزاء المتقطعة التي وصلت الينا من افريز هذا الهيكل ،تمثل هي ايضاً حادثاً تاريخياً آخر : موكب حاشد من جمهرة الشعب الروماني من شيوخ وحكام، وموظفين وقضاة، وعائلة اوغسطس يرافقون الامبراطور في مسيرة كبيرة لتقديم الشكر للآلهة ، عند رجوعه مظفراً ، بعد غياب طويل عن روما. فالواقعية التي تشع من خلال الملابس والوجوه والمواقف لا تمس بشيء الفكرة الاساسية الا وهي التفاف المدينة باسرها حول الامبراطور، اذ ان الخاطرة الاولى التي تنط الى ذهن المشاهد هي القيام بعمل ديني هو تقديم الشكر .

ويحسن بنا ان نقارن هذه النقوش الفخمة بهذه التحف الثمينة المثلة بنفس الحجارة الكريمة ،

كالحجر المعروف بـ : « حجر فيينا » الذي نُقش ، ولا شك ، في حياة اوغسطس، بيد النحات الأسيوي الاصل ديوسقوريدس. والحجر الكريم الآخر المعروف بـ « حجر فرنسا » – وهو دون الاول منزلة ، من الوجهة الفنية – والذي اختلف المؤرخون حول تاريخ حفره ونقشه ، ليس ببعيد كثيراً عن موت اوغسطس. وهذه التحف الفنية ، هي بدون شك ، من وحي الفن الهليني وإلهامه المباشر ، لتأييده فكرة الوراثة السلالية ، اذ شدد الفنان فيها على بعث فكرة تأليه الامبراطور . وفي حجر باريس صورة امير مسجى على سريره .

اما النقوش التي تتجه من نظّارة واسعة فيبدو عليها تحفظ كبير ، اذ همها الأكبر هو ان تُبرز الجلال الامبراطوري منسجماً مع العظمة الرومانيـــة ، وان توحي للرأي بأن كليها من مشيئة الآلهة وصنعها ، ولذا توجب على البشر التقدم نحوها بالشكر . وهذه الموضوعات تتخلل بكثرة، الادب والفن الرومانيين . فليس من المنتظر ان يسكب فيها نحاتون غير رومانيين ، روح التقوى والخشوع التي سكبها فرجيل مثلاً ، في قصائده . ان تشبيه مقاطعة غاليا ما قبل الألب بروما هو شيء آخر يختلف عن الخضوع ، حتى ولو كان خلواً من كل فكرة مُضمرة ، الشرق الهليني . فلـــقد قام هؤلاء الفنانون بتنفيذ هذه الطلبات بشيء من المرونة والتفهم السيكولوجي الذي فيها دليـل على ما أوتوا من مهارة فنية ، وعلى انهم الورَثة الخليقون بهذه السلسلة الموصولة الحلقات من هؤلاء الفنانين الذين أنجبتهم الكلاسيكية اليونانية .

٢ ـ الظروف والاوضاع العامة

فاذا كان العهد الامبراطوري استهل بمثل هذا الازدهار البديع للآداب، فلا بدع ان ينتهي عصر اوغسطس بمثل هــذه الكلاسيكية الإتباعية التي عرفنا . فذروة المرتقى برهة وتنقضي . فالحياة لا تتسمر مكانها . فاذا كان من التقاليد المتوارثة التكلم عن رومانطيقية نيرون، فلا حرج قط من التحدث ، والحالة هذه، عن حركة انتكاس ورجعة الى الوراء في عهد هدريانوس . غير ان هذا النوع من التصنيف يصح تطبيقه ، على ما يبدو ، على روما بالذات ، وعلى هذه النزعات التي عملت الدولة على تشجيعها . فالنتائج المسجلة ليست في نتائجهــا على شكل تلزمنا ، وفقاً الوضع القائم في عهد اوغسطس ، الاخذ بهذه النظرية الضيقة .

فالتيار الحضاري راح يتسع ويرحب جغرافياً واجتماعياً، والمظاهر التي تلبسها لم تكن لتصدر عن رجل فرد او عن بطانته التي واجهت مشكلة سياسية ترتب عليها حلّها على اساس ادبي وطيد.

الثقافة والطبقات الاجتماعية العليـــا .

هنالك بعد ، ولاشك ، نخبة تردفهـا بدم جديد ، وتغذيها الطبقات العليا في المجتمع الروماني ، على نطاق أوسع من ذي قبـل ، اذ تبقى ابوابها مُشرعة أمام فريق طيب مختار ، قائم في الولايات. والتربية التي تتلقاها هذه النخبة تصقل فيها الذوق الذي تحمله للآداب والفنون الرفيعة ، كما تذكي عاطفة جياشة

مستمدة من مبادئها ، وان لم يلازم النجاح والتوفيق نتائجها ، في كل ما يتصل بنتـاج الفكر والفن . وهذه النخبة هي مناصرة العـلم ، مشجعة له ، تتعهد حَمَلته ورجاله ، وتحنو عليهم وتغمرهم بوابل من سخي الوجود وكريم العطاء ، وقد وقفت من رجال الفكر موقفاً مشرباً بالعطف والرعاية دونما نظر الى فوارق الحسب والنسب ، والعرق والدين ، وان بدت الفنون نوعاً ما ، دونهم رعاية وعطفاً ، فأمنت لهم الشهرة الواسعة ، والصيت الحسن والحال الرضي . فرتيال *Martial* يؤلف وحده استثناء القاعدة ، اذ بقي ، طوال حياتـه ، في كرب وعسر ونصَب ، أصاره الى بسط الكف والاستجداء ، بينما تنفتح أمام الكاتب ابواب الرزق الحلال ، فيعيش من شق قلمه ، فيدخل عدد كبير من الكتاب الادارة ، ويساعد نجاحهم الادبي عـلى الارتقاء سريعاً في درجات السلم الاجتماعي ليبلغ بعضهم مرتبة القنصلية . فقد لعب الفيلسوف سنيكا هنا دوراً سياسياً مرموقاً ، وتاسيت عهد اليه بمنصب بروقنصل آسيا ، كما ان بلين الأصغر عُين حاكماً لولاية بثينيا ، ونال فرونتون القنصلية مرتين .

وهم الامبراطور كثيراً ، ألا ينأى أو يعزل نفسه عن هذه النخبـة المثقفة . فأباطرة هذا العصر كلهم من كبار البناة ، وقليلون جداً بينهم من لا يتذوق الأدب أو لا يرعى لرجاله وحَمَلته حرمة . فالامبراطور كلوديوس نفسه مؤرخ كبير ، فقيه باللغة وعلومها ، بينما أخوه جرمانيكوس قـد شمل بعطفه صاحب القصائد الفلكية : الشاعر أراتوس ده سولس *Aratus de Soles* . ونيرون نفسه ، ألم يكن ذوّاقة ، موسيقياً ، مغنياً ، وشاعراً . والامبراطور فسبسيانوس الذي لم يسمع أحـد نعته بالكرم ، هو اول من عيّن مخصصات ومرتبات عالية ، بلغت أحياناً ١٠٠٠٠٠ سسترس ، في السنة ، أي ما يوازي مبلغ ٢٥ ألف فرنك فرنسي من العملة عام ١٩١٤ ، تدفع من خزينة الدولة لأساتذة ، أحدهم استاذ الخطابة والبيـان اللاتيني ، هو كونتليانوس ، والآخر استاذ البيان اليوناني ، ودومتيانوس نفسه الذي طالما استهدف لألسنة حداد فهتكت منه كل ستر مغطّى ، أسس الى جانب المباريات الموسيقية ، مباريات لفن النثر باليونانية واللاتينية ، لم تلبث ان استبدلت بمباراة الشعر تقـام على شرف جوبتير الكابيتولي ، كل اربع سنوات . والامبراطور هدريانوس الذي كان هو نفسه كاتباً مجيداً ، عالماً ، فناناً ، امتاز بثقافة عالية ، مكنته من معالجـة موضوعات موسوعية ، بينما عُرف الامبراطور الفيلسوف مارك اوريل بنزعته الروحانية ، العميقة التي شرّفت ليس الامبراطورية فحسب ، بل ايضاً البشرية جمعاء .

وفي مثل هذه الاوضاع والظروف المسعفة ظاهرياً ، والتي توفرت لروما ، راح مؤرخو الفلسفة والادب والفنون ، يتساءلون بحق ، ومنذ عهد بعيد ، عن الاسباب التي جعلت الحضارة الرومانية التي بلغت الأوج في السياسة والحرب لم تبلغ مثل هذا التسامي في المجالات الاخرى . فاذا كان العقل السليم يأبى الأخذ بهذه الأقاويل الفارغة ، وهذه الآراء السفسطائية التي جاؤوا بها ، باسم العلم تعليلاً لهذا التقصير ، فلا بد من التسليم مع ذلك بأن هنالك سراً لا نزال نجهله . فلا تفتّح الروائع الفكرية او فشلها الذريع يرتبط بسببية يمكن تعليلها على مثل هذا الشكل المبتسر .

النظام الاستبدادي

كثيرون رأوا ، وما زالوا يرون ، على أنساب وأقدار متباينة ، ان النظام الاستبدادي الذي عُمِل به اذ ذاك ، هو المسؤول الاول عن هذا التنافر . فكل الذين حاولوا ولا يزالون يحاولون تعليل هذا الشذوذ ، يُقصرون تفكيرهم على الامبراطورية الرومانية وحدها . فاذا ما لاقت هـذه الطريقة ارتياحاً كبيراً لدى احرار الفكر في منتصف القرن التاسع عشر ، فهي تبدو مبتسرة جداً في نظر احرار الفكر ، في منتصف القرن العشرين. لا مراء بأن نظام الحكم في العهد الامبراطوري كان نظاماً مستبداً ، وكان من بعض نتائجه ان يحول دون قيام أية معارضة صريحة ، حتى ولو اقتصرت على مجال الفكر . من الثابت كذلك ان هذا الضغط الفكري تلبّس ،في بعض الاحيان ، ولفترات طويلة ، ولعدة مرات ، في نظر كل من يقيم وزناً بعد ، لحرية الفكر ، مظاهر فظة ، وحشية ، حتى درجة التحقير . كذلك من الثابت اخيراً ، وليس آخراً ، ان علم التاريخ – هذا التاريخ الذي عُرف بأخذه بالوجوه والسير مع الهوى والغرض ، بما لا يتفق ومقتضيات العلم الحديث اليوم ، أثار هواجس السلطات العامة وشكوكها . فقد رأينا اوغسطس ، في اواخر ملكه ، يأمر بحرق كتاب في تاريخ الرومان وضعه مؤرخ عُرف بنزعته الموالية للعهد الجمهوري . وفعل الفعلة ذاتها الامبراطور طيباريوس مع مؤرخ آخر ، للسبب نفسه ، فأوذي صاحبنا واضطر ان ينتحر متخلصاً مما استهدف له مـن أذىً وضرّ .

ومع ذلك ، فقـد عرف العهد فترات خفّ فيها الضغط الفكري ، ان لم يكن ارتفع . فالامبراطور فسبيانوس يهزأ بالهازئين وتبكيت المتكتين. وكثيراً ما سلق النقاد بألسنة حداد، تصرف وسلوك المتوفين من اباطرة هذا العهد . فسنيكا ، مهذب ابن الامبراطور كلوديوس بالتبني وخليفته على العرش (نيرون) ، تهكم بسخرية لاذعة على الامبراطور كلوديوس ، في قصة لا تعني كبير شيء ، وضعها عنه بعنوان *Apokolokyntosis* ، أي المستثنى من شراكة الآلهة ، اذ نرى الـ *Divus* الحديث العهد لا يستحيل بقطينة ، أطلق فيها القاص الفيلسوف العنان للسانه السليط وقذف الامبراطور الراحل بقوارع الكلم . وعندما تستلم اسرة ملكية زمام الحكم ، كالأسرة الانطونية ، مثلاً ، تسترسل في قذف سابقتها في الحكم بأبشع النعوت . فلم يقف الأمر عند حد الهجو ، كما فعل جوفنال ، بل راح المؤرخون امثال تاسيت وسويتون يكشفون ، بكل صراحة وحرية في التعبير ، مساوىء القياصرة الراحلين ، وعوراتهم .

ولِمَ نقف في استعراضنا هـذا عند التاريخ وحده ؟ فأسوأ عهود الارهاب يفتح الباب على مصراعيه امام النمامين والنفاثين ، فاذا ما جاؤوا من فنون الخسة والدناءة ما يجعل النفوس تتقزز لسماعها ، فلدى البعض من افانين البلاغة والبيان ما يؤهلهم للتنويه بالفضل في تاريخ الخطابة . فالقضية هي اوسع من هذا بكثير وارحب ،اذ انها تتعلق بجميع مظاهر النشاط الفكري والثقافي، حيث يمكن لبعض القطاعات ، ولا سيما لقطاعي الفن والعلوم ، ان تنعم برعـاية صاحب الامر دون ان تخشى شيئاً على نفسها من رعاية ضاغطة او خانقة ، ولا من نزواته المتنقمة . كان لا بد

من بوالو ليوجه ، الى شخص لويس الرابع عشر ، كلمة جاءت على لسان مرتيال بشأن نصراء العلم من شاكلة مكيني قالها إيهاماً لسامعيه ، بأنه : « سهل على اوغسطس ان يخلق رجالاً على مثال فرجيل » ، فهو حكم تصدمه الحوادث ويكذبه الواقع . كذلك من الجرأة بمكان ان يذهب المرء الى عكس الآية ، مهما كنْ من كان على شاكلة شيشرون ، لدى التأكيد بأن باستطاعة اشخاص على مثال طيباريوس ونيرون ان يحولا دون بروز او ظهور اشخاص من عيار فرجيل ومنع تجلّيهم . فاذا ما حاول المرء اطلاق مثل هذا القول على الحفّارين او على علماء الفلك ، او على علماء التاريخ الطبيعي ، على نسبة ما كان يسمح العلم اذ ذاك بظهورهم ، فيكون مثله مثل من يتشبث بالمحال او يتعلق بحبال الهواء او بخاط الشمس .

الشعوبيــة

يعلل بعضهم هذا الوضع بنظرية أخرى ، لا حرج عليهم قط باعتمادها اكثر فأكثر ، شريطة أن تكون على جانب من الاقناع او تعيد الفكرة الأساسية التي عالجها الكونت دو غوبينو *De Gobineau* في كتابه الموسوم : « بحث حول التفاوت القائم بين العروق البشرية » . وتشدد النظرية المشار اليها بنوع خاص ، على الشأن الخطير الذي لعبته الشعوبية في روما من جراء توافد سكان الولايات اليها ، من كل جنس ولون ، وما سببته هذه الظاهرة الاجتماعية من فقدان التوازن على الصعيد الإجتماعي في روما ، وما ألحقت بالوقار الروماني من انتقاص ، بعد أن كان هذا الوقار من السمات البارزة التي طبعت الحضارة الرومانية وفرّدتها .

ان علم الأجناس ، شأنه شأن علم تاريخ الحضارات ، يشجب بشدة الرأي القائل بأن التهجين أو الخلاسية مدعاة للانحدار والهبوط ، يجمع بين الشوائب أكثر مما يوحد بين المناقب . ففي هذا الانبساط أو التوسع العرقي والخلقي الذي شهدته روما والذي انتقصوا كثيراً من قدره بعد ما ألصقوا به من ابشع النعوت وأحطها ، لم يكن كل شيء ، بالطبع ، عاطلاً او سيئاً . فالهلينية حملت معها ثمرات جهادها وجهودها الطيبة . وهذه الفلسفات والديانات التي حملتها معها ونقلتها بما امتازت به من طابع شرقي أجنبي ، على ما بينهما من فروق أصيلة او عرضية ، مكتسبة او مستوردة ، أغنت ولا شك ، عقول القوم ، وأخصبت قرائحهم ، وأطلقت مشاعرهم . وليس ما يدل قط على ان فلاسفة اللاتين ومفكريهم وكتابهم فسدت منهم حبالها النفوس والاذواق . وعلى عكس ذلك تماماً نرى ، بشيء من الغرابة ان ما من واحد منهم ، باستثناء « ابوليه » لا غير ، تأثر بما انطوت عليه من جمال ، ولا حاول باي حال من الاحوال ان يعبر عن الخشوع الذي بعثته في قلوب اتباعها . فالفن نفسه ، باستثناء روما بالذات ، لم يجد فيهما اي معين يساعده على التجديد والانبعاث .

اما الغرب ، فقد قدّم لروما ، عدداً من الكتاب وحملة الاقلام الذين بالرغم من اتخاذهم اللغة اللاتينية ، ليعبروا عن آرائهم ومشاعرهم ، كتابة وتكلماً ، لم يتخلوا قط عن ميولهم الفردية الخاصة ونوازعهم النفسية ، مع العلم انه ليس من اللائق ولا من الجائز قط ان يبادر المرء للاستنتاج ، بصورة لا تخلو من الاساءة ، استمرار الخصائص الاقليمية فيهم ومحافظتهم عليها .

فالامر لا يتعدى نزعات فردية ، شخصية، لا يصح تعميمها الا اذا افترضنا فيهم اعتباطاً، مهارة وقدرة خفي علينا خيطها الممدود . فقد كشف ، احد المعاصرين ، على ما قيل ، في لغة المؤرخ الروماني تيتـ ليف، تعابير ومصطلحات لغوية، إقليمية او محلية اللهجة ، من العسير جداً على العلم اليوم ان يلحظها او ان يتبينها لما نحن عليه من جهل مطبق لهذه اللهجة البدوانية التي رضعها تيت ـليف في حداثته . ولم نرَ احداً قط يدّعي انه وجد في عبارة فرجيل او عبارة بلين الاصغر – مع العلم ان تاسيت تشده الى ايطاليا الشمالية وربما الى غاليا الجنوبية وشائج متينة – ما يدل او يشير لغوياً ، الى ارتباط هذين الكاتبين ، بمقاطعة غاليا قبل الألب . فلقد كان لروما من قوة التمثيل والامتصاص ما استطاعت معه القضاء على هذه الخصوصيات . فلماذا يريدونها ، اذاً ، ان تفشل هنا، وفي هذا المجال بالذات، برسالة ومهمة قامت بها على الوجه الأمثل ، في جميع اطراف ايطاليا ؟

وقد راح بعضهم يتذرع بذرابة اللسان التي ُعرفَ بها الخطبـاء اللاتين الذين انحدروا من مقاطعة غاليا . فقد عدت منهم روما ، اذ ذاك ، عدداً كبيراً اصابوا فيها شهرة واسعة . اما ان نرميهم مجاناً ، بثرثرة سطحية، فافتراء رخيص لا يستند الى دليل ، ولا يمكن ان يستحقه ، لا «دومتيوس أفير» الذي ينحدر اصله من مدينة نيم *Nimes* ، في فرنسا ، اذ تمت له في اواسط القرن الاول مكانة عالية في الخطابة عادت عليه بالصيت الحسن ، ولا الآخر يوليوس الافريقي الذي ينسب اصلاً الى مقاطعة سانتونج، ولا هؤلاء الاساتذة الذين يصورهم لنا تاسيت في كتابه : « حديث عن الخطباء » امثال : يوليوس سيكوندوس الذي كد وجد ، وماركوس أبير الذي كان خير من مثل الخطابة والبلاغة في زمـانه والذي جمع الايجاز الى الاعجاز واشتهر ببيانه المنطلق الذي يفيض حماسة واندفاعاً . كذلك ليس من الغلو في شيء ان نرى سنيكا وابن اخيه لوقين ، وكلاهما من مواليد قرطبـــة ، في اسبانيا،يبذلان جهداً ظاهراً التبريز في صقل اسلوبهما البياني لفت النظر والبروز العيان ، وهي من مفارقات الاسبان ، كما يدعون ، اذ عبثاً نحـاول العثور على هذا الاسلوب عند غيرهم من الكتبة المنتمين الى مقاطعة اسبانيـــا الشمالية ، امثال كونتليانوس ومرتيال . وهذا القول يمكن إطلاقه ايضاً على هذا الفريق من الكتبة المعروفين بالكتبة الافريقيين ، امثال فرونتون من بلدة سيرت (قسنطينة اليوم) ، وابوليـــه مادور ، وترتليانوس القرطاجي،مع ان الأول بينهم استثمر ما عرف به من بلاغة ومقدرة خطابية في روما، بينما لم يُلمّ الآخران فيها الا لماماً . ولا يسع المرء الا ان يأنس عندهما ميلاً ظاهراً للغلو ، والعبارة المعقدة البناء ، المتماطلة التركيب. اما حماسة ترتليانوس المناضل عن المسيحية بحرارة وايمان ، فيقابلها، من جهة اخرى، المقدرة البلاغية التي يبديها مواطنه الآخران دونما طائل،اذ تستحيل عند ابوليه ، الى شيء من هذه الرمزية المخلخلة . فهذه الاحكام العامةلا يؤبه لها ولا يؤخذ بها ، بعد تسليط هذه الاضواء الكاشفة عليها . ومهما يكن من الامر ، فليس من يعتقد ان هؤلاء الكتبة الذين وردوا على روما من الولايات ، اساؤوا بشيء الى هذا التجلي الذي تفتّح عنه النبوغ الروماني ، بما تم له من طاقات وقدرات كامنة فيه .

ولكي نصل الى صميم القضية ، علينا الا ننسى، فهم الشجب المبطن الذي تخفيه كلمة «شعوبية» التي اطلقوها هنا ، وبهذه المناسبة بالذات ، ضد السياسة الثقافية التي انتهجتها روما . والتهمة الصريحة التي يوجهها اليها الناقدون هي أنها استقبلت بالترحاب الحار ابناء هذه الولايات التي سبق لها ودوختها وضمتها الى سيطرتها . لا يستطيع المرء ، على عكس ذلك تماماً ، الا ان يقدر عالياً هذه الروح الطلقة التي تميزت بها روما فراحت تحتفي بحرارة، بهذه العلوم والافكار ، والآراء والاذواق التي حملها معهم من ورد عليها من الخارج ؛ وهذا النداء الذي وجهته لجميع الناس ، الى اي عرق اوجنس او طبقة اجتماعية انتموا، وعلى اي مستوى كانوا، وهذه القابلية التي برهنت عنها في استيعاب هذه المؤثرات وتمثلها ؛ وهذه الحفاوة التي احتفظت بها الشرق الهليني ، والعون المؤزّر الذي بذلته للغرب المتخلف ، اذ ذاك ، عن ركب الحضارة فساعدته على قطع المراحل حثيثاً واللحاق بالمستويات المسجلة ؛ ففي هذا كله ، تتجلى على أتمها امثل الفضائل التي حققتها الحضارة الرومانية فكانت مثار مجدها المؤثل، بالرغم من بعض الشوائب التي اعتورتها، فضفرت لها اكليلاً من المجد الابلج الذي لا يخبو له سناء ، مهما تراكمت عليه الدهور .

رهافة الذوق عند النخبة الراعية

وبدلاً من ان يصيخ المرء أذناً صاغية لهذه التمِلاّت المحمومة التي ظاهرها حق وباطنها بطل ، يحسن بنا ، ونحن نسجل توقف ، ان لم نقل افول ، هذا الازدهار الذي شرّف عهد اوغسطس، من الوجهة الفكرية والفنية على السواء ، ان نتبين ما كانت عليه النخبة في المجتمع الروماني العالي من ذوق رهيف ، بعد ان اصبح البحث عن اسباب هذا الوضع الجديد والدوافع اليه ، بمنأى من مناهج التاريخ وأساليبه . وهذه النخبة القليلة العدد نسبياً ، التي هي وقف على العاصمة روما او تكاد ، والتي تنعم بما تنعم به من ثراء عريض ، وبما هي عليه من ظرف عالٍ وثقافة عريضة ، والتي تهفو منها النفس الى المتعة العقلية والمادية على السواء ، كما تهفو الى كل ما يزيد منها الحياة بهجة وبهرجاً من حلي في الخارج ولذة في الروح ، وكلها أمور هيأت ، على ما يظهر ، هذا المجتمع لعبث النوادي وطيش الحلقات ، رأت نفسها مفطومة من كل غذاء ، ومقطوعة عن كل اتصال بدافع الحياة . صحيح هذا كله . ولكن ، ما الذي جعل الكلاسيكية تشيل في فرنسا وتنتصر على تيار التصنع والتحذلق ، دون ان يطرأ أي تغيير على المجتمع الفرنسي اذ ذاك ؟ والى هذا ، فليس من ميزة واحدة من بين هذه المميزات التي توفرت لعصر اوغسطس ، بقي معمولاً بها او متوفرة حتى نهاية الامبراطورية الرومانية العليا . فالارستوقراطية القديمة زالت وتوارت من الوجود ، بينما الارستوقراطية : الجديدة كانت تغتذي دوماً، وبدون انقطاع ، بعناصر جديدة طلعت من مجتمعات طبقية مدنية او اقليمية اوسع . ولم تكن اذواقها المكتسبة لتصدر عن نوازع وراثية، كما لم تكن ميولها ميول اصحاب الذوق الرفيع من أبنائها . وهذا البذخ الجنوني عند الخاصة ، استبد مرة واحدة ، في منتصف القرن الاول ، وفي عهد الاسرة الانطونية ، بينما لم تحدث هذه النخبة فيما نعمت به من غنى وثراء، كان ولا شك، على الاجمال ، دون ما تم من أمثاله النخبة

السابقة مثل، ما احدثت هذه حولها من جَلَبة وقرقعة. غير ان ما تميزت به من نشاط فكري وثقافي وتهافت على كل المظاهر الجمالية ، والاستمتاع بكل ما ينمّ عن ذوق رهيف في تعبيره الفكري والفني، كل ذلك لم يطرأ عليه تغيير يذكر. وليس من اقل فضائل هذا العهد واخلاقيته، وهو شيء لازمها حتى نهاية التاريخ القديم ، ان تحافظ هذه النخبة من نبلاء الدولة ، نزولاً منها عند رغائب الأباطرة ، وان تقدم الدليل دوماً ، على تمسكها بهذه المناقب ، كما تحافظ على هذا المستوى الثقافي والحضاري الذي خُيّل لها انه بلغ سدرة المنتهى .

من الظلم الفاضح ، وأيم الحق ، ألا يقدروا هذه الحضارة حق قدرها ، كما انه من العَمَه ألا يلاحظ المرء هذا الصغائر التي شابت هذه الحضارة والتي لا يمكن الاشارة اليها كلها لكثرتها .

الاعجاب بالماضي

ليس من أقل هذه الصغائر شأناً، سوء الاستعمال في المعرفة او الافراط فيها الذي أدّى الى تفضيل آثار العهود الماضية العقلية باعتبارها أقوى وقعاً ، وأوفر متعة في النفوس . ولقد كان سبق لبعض الاغريق في العهد الهليني ان نَحوا هذا المنحى. ألم ينشئوا في مدينة «برغاموس» شيئاً يشبه المتاحف الفنية؟ وهذه النزعة العارمة نحو القديم والحرص على جمعه والاحتفاء به ، ظهر اول ما ظهر ، في روما بالذات ، اذ راحت تحفل بآداب الاغريق وتُقبل على تلقفها واستمرائها ، اذ لم يكن يوجد بعد آثار رومانية قديمة حرية بالاهتمام . وقد رغب اوغسطس بنقائش الاغريق وهذه النقوش التي كانت سبب شهرة مدينة كورنتس ، منذ القرن السادس ق . م ، ودفع طيباريوس ثمناً باهظاً لصور ورسوم من ريشة الفنان اليوناني برّاسيوس من مشاهير رجال الرسم عندهم في القرن الخامس بعد ان نزلت من نفسه منزلة عالية فضلها على رسوم أبَّيل الاغريقي الذي عاصر الاسكندر . وهذا التصنيف لم يلبث ان استبد بالنفوس فاتخذوا منه منوالاً نسجوا عليه ، بحيث ان آثار بوليكليت وميرون صادفت تقديراً أعلى مما صادفته نقائش فيدياس . ومع ذلك ، لم يظهروا أي إعراض او ازدراء بالاعلاق الادبية الكلاسيكية ، حتى ما عاد منها القرن الثالث . وراح كل روماني على جانب من الثروة والغنى ينشىء له منها مجموعة شخصية ، فذهبوا في ذلك كل مذهب وغالوا فيه حتى خرجوا عن حدود العرف والمعقول ، واستهاموا بالآثار القديمة حتى حدود الهوس والجنون بحيث ان المهندس فتروف خطط في التصميم الهندسي الذي وضعه لمنزل نموذجي ، محلاً لحفظ مجموعة خاصة من الرسوم والصور يأتيها النور من الشمال ، كما عثروا في جميع أنحاء الامبراطورية على مخابىء لمجموعات من الجوهرات ، بينها مجموعة من ١٠٠ قطعة وجدوها في بوسكوريال، على مقربة من مدينة بومبيي، وعلى مجموعة أخرى من نحو ٦٠ قطعة ، في مدينة برتروفيل ، على مقربة من برناي ، من اعمال مقاطعة نورمانديا. ومهما بلغ انتاج الاغريق قديماً من الآثار الفنية ، ومهما بقي هذا التراث الفني متوفراً بالرغم مما تعرّض له على مر الدهر، من سلب ونهب، وتَلَف وعبث، فلم يكن بالطبع ليَسدّ او ليُلبّي رغائب الهواة . ففي الحين الذي نشطت فيه حركة الاتجار بهذه المصوغات والمصنوعات الفنية القديمة منذ العهد الهليني ، راح النسّاخ والمقلدون يزيفون الكثير من هذه

النفائس لتلبية شدة الطلب لها وإشباع نَهَم الطامعين فيها، المتحرقين لجمعها بعد ان اشتدت حولها رغائب القوم وافتتنوا بها دونما حساب . والى جانب هـذه القطع المزيفة التي بلغ الزيف منها درجة من الدقة والاتقان ، بحيث اختلط على أمهر خبراء العصر اليوم ، التمييز بين الزائف منها والأصيل ، كما نشاهد ذلك ، مثلاً ، في صورة هرمس لبراكسيتل التي عُثر عليها في مدينة اولمبيا. فقد كانت معظم الآثار الفنيــة الجديدة تستلهم القديم من هذه النقائش والأعلاق فيها ، احتذاء بالامبراطور هدريانوس الذي افتتن بهذه الهواية الى درجة الهوس . غير ان الانجذاب نحو الماضي أتى فعله السيء على الجهود التي لا بد منها لتأمين مقومات النجاح لكل حركة تجدد وانبعـاث تروم الانفتاح وتسعى الى الانتشار لتبلغ النضج والتمام.

شيء من هذا الهوس ظهر في عالم الادب على اختلاف مجالاته وقطاعاته . فالى جانب روائع الأدب اليوناني الذي كان محط آمال وانظار من يحسنون اللغتين اليونانية واللاتينية ، توفر للادب اللاتيني محصول طيب سَهُل الحصول عليه لمن يرغب فيه. وقد أخذت المكتبات العامة وخزائن الكتب الخاصة يزداد عددها في روما ، بعد ان طلعت على الناس اول ما طلعت في عهد يوليوس قيصر بحيث اصبح عدد المكتبات العامة فيها ، في القرن الرابع للميلاد ٢٨ مكتبة . ومن ناحية اخرى ، اتاح توفر الارقاء والنساخ ، استنساخ الكثير وتضعيف العديد من الآثار الفكرية القديمة التي كانت من الكثرة والوفرة بحيث راح الناس يختصرونها ويؤلفون مجاميع من مقتطفاتها الأثيرة ، واكثروا من هذه المختصرات الأمر الذي افضى الى إهمال المطولات وتعريضهـا بالتالي للزوال ، كلياً او جزئياً ، وبذلك فقدنا الامكانية للتعرف عن كثب ، الى آثار الآداب اليونانية واللاتينية . ولكن لم يكن الوضع ، اذ ذاك ، بلغ مثل هذا الحد من الخطورة. وعلى عكس ذلك تماماً راح الناس يتدارسون هذه الآثار وينعمون النظر فيها ملياً بشيء من الاحترام تجاوز التقديس الى الوثنية، أفسد منهم الروح ، وبهّم المعنى المقصود بحيث اضطر المعنيون بامرها الى استنباط المعاجم الخاصة ، ووضع الشروح والتفسيرات والتعاليق الايضاحية ، للاساليب البيانيـة والتعبيرية ، بدلاً من ان يستوحوا منها موضوعات جديدة ، في معناها ومبناها ، والتعبير عن الاحاسيس التي يجب ان تفيض بها. وقد بلغ منها التبذل في التقليد والمحاكاة بحيث انتحلت شعراء وكتاب العصر الكلاسيكي . ونسج كثيرون على منوال الإنياذة عدداً من الملاحم الاسطورية ، فوضع سيليوس إيطاليكوس ، في عهد الاسرة الفلافية ، ملحمة أدارهـا على تاريخ الحرب البونيقية الثانيـة ، كما يقص لنا تيت ـ ليف خبر ذلك ، واضاف اليها اضافات كتزول شيبيو الافريقاني الى الجحيم رغبة منه في استشارة ابيه والعمل بنصحه وهديه، تشبهاً بإينه الذي راح من قبل يستفتي اباه أنكيز . وقد اوغل بعضهم بعيداً في هذه الحركة بحثـاً عن غذاء اكثر استساغة لاذواقهم . نرى ، منذ اواخر القرن الثاني ، كونتليانوس ، وهو على ما اشتهر به من تعصب الكلاسيكيين يتساءل عمـا اذا كانت دواوين الشعراء الاقدمين تفيد في تربية النشء الجديد وصقل اذواقهم. فلا عجب، والحالة هذه، ان يطرحوا على بساط البحث مثلاً كتاباً بشهرة شيشرون وفرجيل ايضـاً . ولم يتورع هدريانوس من ان يفاضل بهم كاتون وأنيوس. ففي

الرسائل التي ارسلها فرونتون الى تلاميذه من امراء الاسرة المالكة والتي لم يبخل لهم فيها بالنصح والارشاد حول الكتب المستحسن مطالعتها وقراءتها ، لم نره يأتي ، ولو مرة واحدة ، على التنويه باسم فرجيل . وفي النصف الثاني من عهد الاسرة الانطونية ، كان أنيوس موضوع تقدير الجميع كما كان له الكثير من الانصار المتحمسين والمريدين الاشداء . ويروي لنا «أولوجيل» وهو من المتعصبين لأنيوس ، كيف كان يثير حماسة سامعيه في احدى المدن الايطالية عندما يقرأ لهم في مسرح المدينة قصائده القديمة .

الانحرافات الذهنية

القراءات العلانية، هذا ما يطالعنا من مستحدثات العصر ومن عادات المجتمع التي أطلّت علينا من شيوع هذه الثقافة الادبية وانتشارها بين الطبقات الرفيعة من المجتمع الروماني ، اذ ذاك ، والذي يشير بجلاء ووضوح الى الاتجاه الذي اتجهته هذه الثقافة . وهذه القراءات العلانية *Recitationes* التي ادخل اسيليوس بوليون استعمالها في روما، لأول مرة في اواخر عهد الحروب الأهلية ، والتي جعل منها الرومان بديلاً لنظام المحاضرات التي عرفها الاغريق منذ عهد السفسطائيين ولقيت نجاحاً منقطع النظير بما أثارت ، لمدة طويلة من حماسة وألهبت من مشاعر . فقد عرفت ان تجمع بين المتعة العقلية وبين لذة اللقاءات الاجتماعية، كما وجدوا فيها عوَضاً عن هذه المناقشات والمجادلات التي عفا كل أثر لها في المجتمعات والمؤسسات الادارية، ولا سيما في جلسات مجلس الشيوخ . وسواءاً تناولت هذه القراءات الشعر او النثر ، فلم يبق مؤلّف إلا وراح يقرأ تباعاً، على حلقات من المستمعين والمستمعات يتحلقون حوله ، كلما انتهى من وضع فصل او جزء من كتاب يعمل على وضعه ، فيحاولون ، بشيء من التمثيل المسرحي الرخيص ، كالتصفيق الداوي المأجور والالقاء المتصنع المصحوب بالاداء ، ان يثيروا اعجاب القوم، فينطلق الحضور والنظارة بالثناء والمدح الرخيصين، قبل ان يكتمل نشر الكتاب ويرى فيه المتمكنون من العلم . ولا يخفى ما في هذا الاسلوب من أذىً يقع على فكرة التأليف المنهجي في الكتب الطويلة النفس ، كما ان هذه الطريقة أفضت من جهة أخرى ، الى اضاعة وقت الكاتب وهدره جزافاً في البحث عن النكتة المستملحة والتعابير المستظرفة ، والكلمات المثيرة ، والمجازات الغريبة ، والتوريات النابية ، والاستدارات المستهجنة والمفارقات الصارخة، والتراكيب المعبّر عنها بالمعادلات، وغير ذلك من حوشي الألفاظ والاوضاع التي تنبو عن الذوق السليم. كل هذا ظهر في ادب العهد الامبراطوري ، فصبغه بهذا البهرج الزائف وبهذا الطعم التافه الذي يمجه الذوق .

وهكذا ساعد هذا النمط من القراءات العلانية على تقوية هذه النزعات الجديدة التي طرأت على المجتمع الروماني ، فاستسلم لها منذ عهد بعيد . وهذا الانزلاق الى هذا المنحدر الأدبي ، هل نسأل عنه المرأة الرومانية التي رضعت افاويق هذه الثقافة وحلبت أشطُرَها فلعبت دوراً بارزاً في هذه الحلقات والصالونات الادبية ؟ انه لفخر أثيل لروما ان تسهل عتق المرأة بتحريرها اجتماعياً وفكرياً وثقافياً ، سيراً منها مع الحركة التي وجدت منطلقها في المجتمعات والمنظمات

الهلينية. ومهما يكن، فاذا كان الامبراطور هدريانوس هو خير من يمثل هذه الهواية التي استبدت برجال العصر ، اذ ذاك ، فليس المسؤول عن هـــذا التدهور او الانحدار الأدبي هؤلاء النسوة الدّعيّات المتحذلقات ممن شاركن حياة البلاط ، كهاتين الشاعرتين : بَلْبيلا *Balbilla* وتريبولا *Trébulla* اللتين اشتركتا في الرحلة الى مصر عام ١٣٠ ، وفيها ماتتا ونقش احد اشعارهما على حافة تمثال ممنون *Memnon* الى جانب أسماء الامبراطور وزوجته وعشرين غيرهم ممن اشتركوا في هذه الرحلة .

وهذه الهواية التي كانت تتم في الصميم عن فضول عام وحب اطلاع، حملت الناس على السفر والقيام بالرحلة الى الأماكن والأقطار التي كانت مثاراً للخيال بما يرافق تاريخها السحيق من أسرار ، كانت ملهمة لعدد من الكتب والأبحاث في مجالات الفن والادب ، حتى ان بعض الأباطرة راحوا هم أنفسهم يستعملون ريشة الرسام ومنقش الحفار . وهكذا اخذت تدفع الناس الى الاكتفاء بالسطحي من العلم والثقافة ، او الى التصنع في هذه الفنون التي هفت اليها اذواق القوم اذ ذاك ، كالادب مثلاً . فالظهور بالظرف وتكلف الذكاء في الصالونات ، وقرض بعض القصائد من مجزوء الشعر ، وتنميق بعض الرسائل او صقلها ببهرج الكلام والمحسنات البيانية والمجازية ، كل هذه السمات الصغيرة اخذت حق التقدم والصدارة على غيرها من الصفات الاصيلة في صناعة القلم . ولئلا نستفيض في هـــذه الشؤون ونسهب في تفاصيل لا كبير جدوى منها ، يكفي ان نحيل القارىء الى الاجزاء العشرة الأولى من رسائل بلين الاصغر ، اذ ان العاشر منها يؤلف مجموعة رسائله الرصينة مع الامبراطور ترايانوس . ففي كل صفحة من صفحات هـــذه الرسائل مثال حي لسخافة هذا الاسلوب الذي ينم عن اغراف الذوق الذي تثير قراءته مع ذلك ، اللذة لما فيها من رقة ومتعة .

نظام التربية اذ ذاك : الخطابة

من التقاليد المتعارفة ان نجعل نظام التربية التي خضعت لها الشبيبة ، اذ ذاك ، والتي كانت تُعنى ، قبل كل شيء ، بالبيان والخطابة ، مسؤولاً الى حد بعيد ، عن الاتجـــاه الفكري بالمجتمع الروماني الرفيع ، في ذلك العصر .

بالفعل ان ايثار البلاغة والبيان ، كما نصح بذلك ايزوكراتيس ، منذ القرن الرابع ق . م ، وتفضيلها على سواها باعتبارها قوام الفلسفة الحقيقية وخير المناهج التربوية وامثلها يكوّن ، ولا شك في ذلك ، احد هـــذه الاقتباسات التي تعترف الحضارة الرومانية صراحة بنقلها عن الحضارة الهلينية .

فظهور النظام الامبراطوري في روما اوجد شروطاً جد ملائمة لازدهار البلاغة والفصاحة والبيان ، فجاء هذا الظرف شبيهاً بالظروف ذاتها التي هيأها لها منذ عدة قرون، الاخذ بالنظام الملكي في البلدان الواقعة الى الشرق من البحر الابيض المتوسط . فقد انقضى عهد هذه المجادلات والمناقشات التي كانت تدور امام المجالس والهيئات البلدية ، كما زال وانقضى عهد هـــذه الدعاوى

التي كثيراً ما تخللها قضايا سياسية كبرى . فعلى الخطيب ، الآن ، ان يلقي دفاعـــه في نطاق ضيق وحول قضايا خاصة ، او ان يقتصر دفاعه على خطب وهمية ، تقرأ ولا تلقى ، كما فعل ايزوكراتيس ، مع وجوب التقيد بالمبنى او المعنى أو بالشكل والصورة ، او ان يُسهم مع غيره من الخطباء في ما يلقى في بعض المناسبات كالاعياد والحفلات يضمنها الثناء العاطر للملك والتغني بمآثره وأعماله . وهكذا يبدو من غير المعقول ، كما يبدو مخالفاً للعرف والتقاليد المرعية في العالم الرومـــاني والعالم اليوناني ، على السواء، الا تعم الخطابة بمثل هذا الشأن الخطير في النظام التربوي المعمول به ، اذ ذاك ، في العالم الروماني ، في الوقت الذي فقدت الخطابة كل اهميـــة عملية لها .

وكانت الخطابة والبلاغة والبيان خاتمة المطاف في النظام التربوي الذي بقي على ما كان عليه دون ان يطرأ عليه اي تبديل ، وكما انتقل الى البلاد اللاتينية كما هو ، وعمل به فيها على علاته . وقد أهمل في هذه التربية شأن العلوم فقنعوا منها بأوليات الحساب بينما كان تدريس العلوم وقفاً على بعض الخاصة ، ينصرفون اليه بعد انتهاء فترة التعلم العام . والمنهج التربوي العـــام لم يكن ليهدف الا لتكوين ادباء وحملة اقلام ولا سيما خطباء ورجال بلاغة . وبعد التعلم الابتدائي الذي كان ينحصر في الأجرومية ، من صرف ونحو ، كان الطالب يُلقن بعض مبادىء الادب عن طريق تعريفه الى مشاهير الشعراء وآثارهم البارزة، امثال هوميروس وفرجيل، يحفظها الطالب عن ظهر قلبه مع بعض الشروح والتفاسير والتعاليق . والى هذه المبادىء في اللغة والادب كان الطالب يلقن دروساً في المعجمية والشعر والنحو ، كما يلقن دروساً في الاخلاق والميثولوجيـا . وعندما يبلغ سن المراهقة يأخذ الطالب بدرس الخطابة وما اليها من بيان وفصاحة وبلاغة ، في شروح وتفسيرات تتناول كبار الكتاب والخطباء ومشاهير المؤرخين ، وأمثلة من الخطب التي ينحلونها والامثلة العديدة التي يتمثلون بها أو يأتون بها شواهد ، مع ذكر طائفـة من النوادر والنكات المستملحة التي تدل على سرعة الخاطر وحضور الذهن ، كان على الخطيب ان يطلع عليها ليستشهد بها . وتدريباً للطالب على فنون الادب ، كان يطلب اليه معالجة موضوعات غير واقعية ، فيعد لهـــا مذكرات تؤيد او تدحض ، كما يقوم بمذاكرات ومناقشات ، أو ان يقوم باعداد دفاع عن أمر ما *Suasoriae* . ولكي يلهبوا من طالب الخطابة الخيـــال ، ويبعثوا في مُحيّاه النشاط ، كثيراً ما كانوا يضعونه ، عن سابق قصد وتصميم ، امام مواقف خيالية أو اوضاع يواجه فيها صعوبات معقدة ، مستعصية الحل من الوجهتين الادبية والقانونية . ولم يكن ليهول الحكومة او ليحركها ما كان يبلغ مسامعها او ما يُنقل اليها من الدعوة الى الحرية أو التغني بها، او تمجيد من يدعون للطغيان والاستبداد في الحكم وغير ذلك من المبادىء الهدامة في ظاهرها مما تتجاوب ارجاء المدرسة أو المعهد باصدائه ، اذ لم يكن ليخطر على بال احد ان هنـــاك من يستجيب لهذه الدعوة أو ينهض بها ، اذ لم يقصد من هذا القول سوى الارتياض العقلي والذهني ، والتمرج باقانين البيان .

وكان السواد الاعظم من الشبان الذين باستطاعة والديهم ان يكفلوا لهم اسباب التعلم يقتصر

على مثل هذا المنهج الدراسي ، وقليل بينهم من ينهض لدراسة الفلسفة . إلا ان التطور الذي رافق الحركة العلمية والتربوية أوهن كثيراً من الوشائج التي شدّت طويلا ، عند الاغريق قديماً ، بين الفلسفة ، من جهة ، وبين الرياضيات وعلم الفلك ، من جهة أخرى . فقد ازداد عدد مدارس الطب غير ان فريقاً كبيراً من الأطباء كان يتخرّج بهذه المهنة عملياً ، بالمراس والمران ، وذلك بالتحاقه ببعض الأطباء فيلازمهم ويأخذ عنهم. ومن فضل الرومان على تطوير التربية والتعلم ، سبقهم غيرهم الى تدريس الحقوق والشريعة بمعاهد خاصة أنشأوها لهذا الغرض ، بعد ان تبينوا الأهمية الكبرى لهذا العلم. فدرجوا على إعطاء شهادة تخرّج في الحقوق لمن أنهى دراسته القانونية ، وهو أمر لم يجر ما يشبهه في الطب . فاذا كانت هذه الشهادة تفتح امام حاملها ابواب الوظائف ، فلم تكن مع ذلك بشرط أساسي لولوج الادارة ، كما ان ممارسة المحاماة بقيت دوماً حرة من كل قيد .

فليس بغريب قط ان تحتل فنون البلاغة والخطابة ، في مثل هذا البرنامج الطويل الهادف لتأمين الاختصاص ، محلا هاماً أكثر من اللازم ، لا سيما وقد خصوا البيان والفصاحة بدروس ارادوها على مثل هذا الشكل من التقعر والتطويل ، بعيدة عن الحياة العملية ، وهي دروس ادنى الى ادب الخيال والتخصص لا تقيم وزناً إلا للقدرة البيانية والصياغة الحرفية ، بعد ان قضت الظروف بإبتعاد هذه الدروس عن واقع الحياة العملي ، مما لم يغب يوماً عن أعين ايزوكراتيس.

وكانت هذه الدروس تهدف ، في الاساس ، للبحث عن الأفكار والكشف عنها والتنسيق فيما بينها ، وفقاً للتسلسل المنطقي ، والتعبير عنها بأناقة ووضوح ورشاقة ، اذ تمكن من تلقاها من مواجهة أدق المواقف وأصعب المهمات التي تعرض له. فهل حققت ، يا ترى ، الاهداف التي رُسمت لها ؟ ومهما يكن ، لا بد من الاعتراف هنا ما كان للتربية والتعليم عند الرومان من فضل ، اذ زودت الامبراطورية بالأطر والملاكات التي شغلها افراد تسلحوا بالعلم والمعرفة ، بالرغم من بعض النواقص التي شابتها والأمور المستهجنة التي اعتورتها ، وسلحتهم بفضائل ومناقب تمثلت على احسن وجه بهذه النخبة التي قامت على خدمة الادارة ، ونهضت بأعبائها .

هنالك ملاحظة لا بد من ابدائها هنا تتعلق بالسهولة التي يأخذ بها البعض في نقد هذا النظام التربوي فيرمونه بكل فريّة. فاذا ما انتسخ هذا النظام مع روما القديمة ، فقد كُتب له ان يُبعث حياً فيما بعد . فعندما نرسم الخطوط الكبرى التي سارت عليها هذه التربية فاننا نلمح ، ولو من طرف خفي ، الى النهج الذي تبنته الدول الكبرى في غربي اوروبا ، منذ القرن السابع عشر حتى اواخر التاسع عشر . فقد نسجت روما في هذا المضمار على المنوال الذي تسلمته من الحضارة الهلينية. فسلكها هذا انما يعني السير معها على المُثل السامية التي سارت عليها الانسانية ، وليس مجرد التزام تقليد متبع ، وعرف مستبد . وبدون ان نحسب بان هذه المُثل قد زال عهدها وانقطع ، فبالامكان ، مع ذلك ، التزام مناهج اخرى تضمن تحقيق هذه الاهداف . فاذا ما راحت مدنية هذا العصر تتنكر لهذا الدَّين الذي تحمله في عنقها والذي طوقها به الاقربون من الأنسباء ، فتكون بذلك قد أتت أمراً إدّاً واستهدفت بحق لتهمة العقوق ونكران الجميل .

من الانصاف ألا نُهمِل هنا التنويه عالياً بهذه الجهود التي بُذلت اذ ذاك ، لنشر الثقافة عن طريق المدرسة . فالاصطلاح الاداري نَحَتَ من عهد قريب كلمة : التعلم المدرسي *Scolarisation* ، وهو مصطلح يحمل بنا استعماله تنوهاً بالحاجات المشتركة ، من جهة ، وبالحلول المتشابهة التي يعتمدونها لسد هذه الحاجات ، من جهة أخرى ، اذ لو صح ان المبادرة جاءت من افراد يكلفون بالتعلم ، فالادارة الحكومية استجابت بدورها لهذا الشيء الذي طلع حديثاً وشجعته .

ولا بد من ان نردد هنا ما سبق وقلناه من قبل وهو ان الفكرة ، ليست في الاصل ، رومانية ، بل هلينية . وقد قطعت الطريقة الجديدة شوطاً بعيداً في تطورها نحو التكمل ، سواء في الشرق او في الغرب الذي راح يضاعف الجهد ويلهب الخطى ويحث السير ، اذ كان عليه ان ينشيء كل شيء وان ينطلق من الاساس. فباستمرار الأمر الكبيرة على الاستعانة بمربين خصوصيين أخذ عدد المدارس يزداد ويتسع باطراد . وكان التعلم في معظم هذه المدارس تُعين له رسوم وأجور كما يعين للمعلم مرتب لا بأس به ، ان لم يوفر لمعلم الصغار مستوىً كريماً من العيش ، فقد أمّن لمعلم المدرسة الابتدائية دخلاً محترماً . أما أساتذة البيان والبلاغة فكانوا ، على الاجمال ، من اصحاب المقامات المحترمة في البلد . وكثيراً ما كان العبء الذي يقع على الوالدين يخف او يزول تماماً من جراء هبة او تبرع يقوم به احد الخاصة يُسَبِّلُها على إنشاء مدرسة او مكتبة، او يقفها على اقامة احتفال تذكاري ما، او يخصصها لبناء نصب او مؤسسة من المؤسسات . وكان الاهتمام بهذه الوقوفات وتأمين ادارتها يقع على المجلس البلدي فيخصص لها من الاعتمادات ما يكفل لها حسن سير العمل ، ولذا راحت السلطة المحلية تضطلع بالاشراف على هذه المدارس ، وتختار لها المدرسين الاكفاء ، كما انها كانت تعين لها طبيباً تدفع له المرتبات لقاء سهرة على الصحة العامة في المدرسة او المؤسسة .

وكثيراً ما كانت المدن الصغرى تضطر أكثر من الكبرى لبذل مجهود أكبر من التضحيات، في هذا السبيل بالنظر لما للأخيرة من عدد السكان وشهرة المعلمين ما يؤمن حاجتها من الاساتذة والمدرسين والطلاب . وهذا الوضع بعينه يفسر لنا كيف ان الادارة الامبراطورية لم تتدخل حالياً في الأمر إلا بعد تاريخ متأخر . فالاباطرة الذين لم يكن ليستطيعوا الاهتمام بكل المدن الصغيرة اقتصر اهتمامهم على شيء بسيط جداً في المدن التي كانت تدبر شؤونها بنفسها . ولكن إيانا ورميهم بالتهاون او عدم الاكتراث . فمنذ ان ضُمّت مصر الى الامبراطورية أرصدت في باب الموازنة الاعتمادات التي اقتضاها حسن سير المعاهد الثقافية والعلمية التي رأت النور في الاسكندرية في عهد البطالسة : كالمكتبة والمتحف اللذين ألّفا معاً معهداً عالياً للآداب والعلوم والفنون جعل منها مجتمعة ، جامعة الاسكندرية التي طبقت شهرتها الآفاق ، في التاريخ القديم . وانصرف الاباطرة ، في عهد مبكر من النظام الامبراطوري ، الى تأسيس المكتبات في روما . وعندما اخذت هذه الامبراطورية ، في عهد الدولة الفلافية ، على عاتقها تخصيص مساعدات مالية ليس

الشؤون الثقافية فحسب ، بل ايضاً للمدارس الخاصة ، فقد استجابت في ذلك، لرغبتها الصادقة في إظهار عطفها وتشجيعها أكثر منها لواجب مفروض . فلم يكتف الامبراطور فسبسيانوس بتخصيص مرتبات ضخمة لاستاذين من اساتذة البيان والبلاغة في روما ، بل عمم مكرمته هذه على اساتذة الصرف والنحو والخطابة ، كما جعلهم يستفيدون من الاعفاءات التي تتمتع بها الأطباء منذ عهد اوغسطس . وعلى هـذا سار ايضاً اباطرة الأسرة الانطونية . فقد حمّل الامبراطور مارك اوريل خزينة الدولة مرتبـات أربعة اساتذة للفلسفة ومرتب استاذ للبلاغة والبيان ، في اثينا ، وهذه المرتبات كانت دون المرتبات التي كانت تدفع لأساتذة العاصمة ، اذ كان معدلها يتناوح بين ٦٠٠٠٠ و ٤٠٠٠٠ سسترس (١٥ — ١٠ آلاف فرنك فرنسي من عملة ١٩١٤) ، بينما كان يتقاضى الاستاذ في روما ١٠٠٠٠٠ سسترس . صحيح ان الدولة لم تذهب الى ابعد من هذا الحد في امر تمويل التعليم ، إلا انها اخذت تحث المدن على مضاعفة البذل في هـذا الحقل . وهكذا لم تلبث المدرسة البلدية ان أصبحت المدرسة النموذجية .

وكانت الدولة تضع نصب اعينها في هـذا كله تأمين تربية الذكور بنوع خاص، وقد ساعد تطور الاخلاق على التوسيع من الحريات للمرأة . وهكذا فلم تلبث ان قامت مدارس خاصة بالاناث ، حتى ان المربي الفيلسوف موسونيوس روفوس اخذ يتمنى ، منذ اواسط القرن الاول، لو سير في تربية الاناث على الخطة التعليمية او المنهج الذي تخضع له مدارس الذكور . ومن النادر جداً ان نرى المدن او بعض نصراء العلم يولون مثل هذه المدارس اهتمامهم او يخصّونها بمكارمهم.

بين الثقافة والسياسة : الاهداف والنتائج

لم تكن قضية تعليم الذكور لتخفي وراءها أو لتبطن اية فكرة سياسية . فلم يبد اى مسعى أو أية رغبة ، من اي نوع للالتزام بتفسير معين التاريخ او لفرض أية نظرية او فلسفة ملكية ، استبدادية ، على المدرسة . وعلى عكس ذلك تماماً ، كان العرف، التشديدَ عموماً ، على موضوعات تتصل اكثر بطبيعة النظام الجمهوري . فاينما أجلنا الطرف وجدنا هيئات وجمعيات للاحداث *Juvens* تشبه الى حد بعيد، ما عُرف عند الاغريق بمنظمات الفتوة *Ephèbes*. واقتصر نشاط هذه الهيئات على احياء حفلات واقامة اجتماعات تكريمية تتجه من الامبراطور، باستثناء الجمعيات أو المنظمات التي قامت في مناطق الحدود ، اذ كان نشاطها يُصرف في وجوه الرياضة البدنية والتربية العسكرية . وفيما عدا ذلك ، كانت هذه المنظمات توفر لأعضائهـا أسباب اللهو والتسلية والتفريج . وتبدو هذه المنظمات اذا مـا قارناها بشبيهاتها في عصرنا اليوم ، بدائية الغاية ، عدا عن انهـا اقصرت عضويتها على شباب الطبقات الرخية . وموجز القول ، فالامبراطورية لم تكن لتصدر، في التربية كما في غير قطاعات من شؤون الفكر ، عن نزعات اجماعية ، دكتاتورية ، عرفنا منهـا نماذج عدة خلال التاريخ الذي يحدثنا بشيء من الاستفاضة عن التربية في سبارطة قديماً بحيث لم نعد نجهل شيئاً من اسبابها بعد اليوم . فاذا ما حاز هذا النوع من التربية رضى البعض وفاز باعجابهم ، فقد اعتُبِرَ مع ذلك قاسياً ، منفّراً بحيث كان الاغريق اول من اعرضوا عن هذا النهج ، بحيث لم يخطر في بال احد ، في روما ان يتبنى مثل هذا النهج أو ان يقتبس منه ، لعدم صلاحه .

من الخطل في الرأي الظن بان المؤازرة التي بذلتها السلطات العامة في جميع درجاتها ، لتطوير الاسرة انما صدرت عن اهداف مجردة . فقد انطوت حتى عند اكثرهم اخذاً بالمبادىء السامية من اصحاب مذهب الرواقيين ممن تحمسوا بسمو واجباتهم، على أمر مروم ومنفعة يُسعى اليها، فهي تقوم وترتكز على هذه المعطيات الاولية التي تُسَلِّم بان الامبراطورية الرومانية والحضارة امران متلازمان مترابطين لا يمكن فصل الواحد عن الآخر، بعد ان اخذت الامبراطورية على نفسها صيانة هذه الحضارة والمحافظة عليها من عوادي الدهر وعبث البرابرة ، كما ، انه اصبح مترتباً على كل مواطن روماني ان ينعم باسباب هذه الحضارة عن طريق التربية وان يُخلص لها الولاء ، وان يكون دوماً على اتم استعداد لمناصرة الامبراطور والشدّ منه الازر في كل ما يبذ له من الجهود للدفاع عن المصلحة العامة وتأمين الخير للجميع .

من يعرف الى اين انتهى الامر بهذا التطور يدرك جيداً ان هذا الحسبان كان باطلاً اذ ان النجاحات التي حققها التطور لهذه الامبراطورية لم تحُل قط دون تفسخها وانهيارها . وهذا التفسخ والانهيار الذي أتأمته جاء نتيجة منطقية لاسباب خارجية تمثلت في هذه الغزوات المتلاحقة التي شنها عليها البرابرة في أمواج متتالية ،ولاسباب داخلية ايضاً ، ولا سيا لسبب سلبي يبرز من خلال تملي النظر في هذه السياسة الثقافية التي سارت عليها الامبراطورية ، بالاضافة الى الاعتبارات الاخرى التي طالما اشرنا اليها في تضاعيف الفصول الماضية .

فالتعليم الترم حدوداً اقتصرت على سد حاجات الادارة ، ومتطلبات الحياة الاقتصادية ، والبنيان الاجتماعي الذي ساد المجتمع اذ ذاك . فهو ان اشبع ، أو سد مطلب المدينة فقد قصر كثيراً عن اشباع حاجات الولايات والريف. هنالك امثلة فردية قليلة جداً على قيام بعض مدارس في الاقاليم التي قامت فيها المناجم والمعادن . ويستدل من نصب رسمي ان هنالك مدارس قامت ايضاً في ما اصطلحوا على تسميته بـ *Vici* ، وهي كلمة اطلقوها على بعض مجتمعات او اوساط اختلفت شأناً واهمية فيما بينها ، فلم يكتب لها ان ارتقت الى مرتبة حاضرة او قاعدة القضاء . ومهما يكن من امر هذه المدارس ، فهي لم تؤمن سوى تعلم ابتدائي متواضع ، ولم يكن لها ، بالتالي ، اي شأن في القضاء على اللهجات المحكية المباعدة أو التخفيف من حدتها . صحيح ان باستطاعتنا ان نشاهد بعض اساتذة اعلام للصرف والنحو والبيان في مدن الغرب المتواضعة ، اذا ما قارناها بالوضع الذي قام في الماضي . ومهما بلغ من اتساع الجهد المبذول في هذا المجال ، فهو لم يتناول سوى قسم ضئيل جداً من سكان الامبراطورية . ولكن التوسيع من نظام التعليم بحيث يتناول اكبر عدد ممكن يقتضي له مبالغ طائلة لم يكن بوسع الامبراطورية ولا في مكنة منظماتها تقديمها ولا تحملها ، كما كان يقتضي، على الاخص مفهوماً آخر للمجتمع ونظرية جديدة للحضارة لا تحتل فيها المدينة روما مركز الصدارة الضاغط . فليس من عجب ، والحالة هذه ، ان تبقى جمهرة السكان في الريف غير مبالية ولا بمكترثة لمصير حضارة اهملتهم فاسقطتهم من حسابها وكادت لا تشعر بوجودهم .

وهكذا باءت بالفشل الاماني العِراض التي دغدغت خيال احسن الاباطرة وراودت خواطرهم

ولم يكن معدٌ من هذا المصير المحتوم ولا محيصَ منه ، مع انه لم يكن لعمري ، في الأمر شيء عسير او بمستحيل ، اذ يكفي ان نتذكر النجاح الذي حققه لدى قسم من سكان الامبراطورية . فالعناصر المدنية ، أينما كانت ، انضمت صادقة لهذه الحركة . فالتطور التدريجي الذي اخذت هذه العناصر بأسبابه وئيداً ، جيلاً بعد جيـــل ، من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية ، وطلبها الثراء والغنى وانصرافها نحو الوظائف البلدية وهو البــاب المفضي الى طبقة الأشراف الجديدة ، رافقه تطور ثقافي وفكري . وهذه الحركة التطورية عولت على التربية واتخذت منها عماداً لها ، ومكّنت لها الاسباب في المدن اذ كان في مقدور هذه المدن وحدها ، بسبب ما لها من موارد طائلة ، ان تؤمن وسائل التعلم والتربية ، اذ ان التعلم كان الشرط الاول الذي لا بد منه لمن يبغي دخول الوظيفة والتدرج الى أعلى درجاتها . وهــــذا بعينه أتاح للنخبة المثقفة التي بيدها تصريف الامور ان تنصهر بعضاً ببعض ، وان تقيد ، على نطاق واسع ، بالرغم من اختلاف مصادرها وتباين المناطق التي خرجت منها ، من مصدر واحد يغذيها . ولذا رأت الامبراطورية نفسها مدينة لهذا الوضع القائم بكل ما اتصفت به من اتحاد وتضامن ، من الوجهـــة المادية والادبية على السواء .

الوضع اللغوي

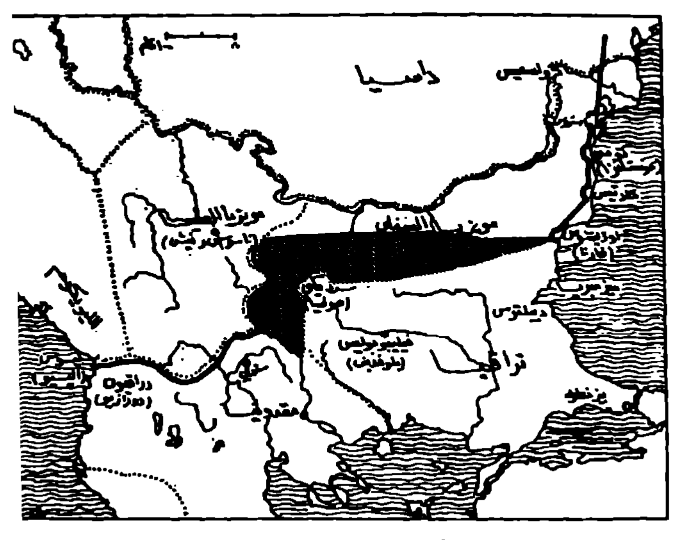
فوحدة اللغة كانت أمثل رمز لهذه الوحدة . غير ان حكومة الامبراطورية لم تجعل من الوحدة اللغوية هدفها الاول لأنها كانت امام لغتين مختلفتين الثقافة اذ ذاك ، ولم يُدر في خلدها قط ان تعتمد الواحدة منها دون الاخرى . فاللاتينية كانت اللغة القومية ، وكل شيء كان يؤهلها لتصبح اللغة الرسمية الوحيدة التي لا بد منها لوحدة الامبراطورية . غير ان اللغة اليونانية كانت هي الاخرى ، تنعم بنفوذ فكري وتكوّن قطب جذب لا يستهان به . فمنذ القرن الثالث ق . م ، كل الذين كانوا على شيء من النفوذ في روما ، كانوا يدرسون اليونانية ويحاولون تجويدها منذ حداثتهم الاولى بحيث كانوا يحسنونها كلغتهم الام ، مستجيبين في ذلك لمقتضيات الادارة والثقافة ، على السواء . وهذا ما حدا بالجماعة البحث عن طريقة واحدة للعيش المشترك . وفي هذا السبيل ، قام الرومان بتضحيات واسعة تجاوز بعضها المعقول ، وفي ذلك دليل على ما كانت روما مستعدة لبذله في سبيل الحفاظ على هــــذه الحضارة التي كانت تشد عليها بالنواجذ .

وقام في الامبراطورية حد لغوي انشطرت معه الى شطرين متناظرين ، وان تعادلا تقريباً ، هما : الشرق الهليني والغرب اللاتيني . اما الى الجنوب من البحر المتوسط ، فقد وقع هــذا الحد بين مقاطعة القيروان وبين ولاية افريقيا التي تبعتها مقاطعة طرابلس الغرب ، ولم تلبث اللاتينية ان غزت صقلية وايطاليا الجنوبية بعد ان كانت ارضاً يونانية اللغة من قبل . اما في البلقان ، فالحدود بين الشطرين انطلقت من شمالي مقاطعة أبيروس ممتدة نحو الجنوب من مجرى نهر الدانوب الى سواحل البحر الاسود . واستقرت على هذا الشكل بفضل مرابطة الجيش في المنطقة ، باستثناء بعض تغييرات طرأت فيما بعد .

وكل من هاتين اللغتين: اللاتينية واليونانية، راح بدوره يعمل على كسب مجالات جديدة محاولاً السيطرة على اللهجات المحكية محلياً . وبدلاً من ان تحاول روما الحد من اللغة اليونانية ، راحت تعمل على تأمين انتشارها ، اعتقاداً منها ، وبحق ، ان كل كسب تحققه في البلدان المتخلفة في تطورها الفكري والثقافي انما يعود عليها هي بالمنفعة والخير العميمين . وهكذا استطاعت اللغة اليونانية ان توسع من نطاق النجاحات التي حققتها منذ العهد الهليني . وبفضل هذه المؤازرة من جانب روما تمكنت اليونانية من ان تكلل ما ابتدأت به قبل الاسكندر بكثير الا وهو السيطرة ، لغة وثقافة ، على مقاطعات آسيا الصغرى. اما في سوريا ومصر ، فقد شهدت طلوع مدن لم يكن عددها ، مع الأسف ، كافياً بحيث تتغلغل بصورة قاطعة في الريف . غير ان ترك اهل الريف وشأنهم أظهر لنا واضحاً الدور الذي لعبته كل من اللغة السريانية ، احد فروع الآرامية ، واللغة القبطية احد فروع المصرية القديمة . اما اللاتينية في الغرب ، فلم يأت نجاحها نهائياً كاملاً ، في كل مكان ، للاعتبارات ذاتها . فقد غزت اللاتينية شبه الجزيرة الايبيرية واستبدت بها. اما في غاليا، فقد زالت اللغة الكلتية من الاستعمال ، الى ان اعاد اليها شيئاً من النشاط الرهبان الارلنديون في مقاطعة الارموريك، وبقيت جارية الاستعمال في بعض مناطق الريف حتى القرن الرابع للميلاد. اما في افريقيا فقد اندرست اللغة البونيقية كلغة عكية ، على الاقل ، منذ مطلع القرن الثاني . ولعل آخر استعمال لها يبرز في هذه الكتابة الثنائية اللغة، المسماة *Leptis Magna* المؤرخة عام ٩٢ للميلاد . إلا ان اللاتينية لم تصبح لغة الريف الدارجة ، ولا عبرة قط هنا النعت : « بونيقية » عندما يشير القديس اوغسطينوس ويقول ان اللغة المحكية في عهده في ضواحي هيبونة كانت البونيقية ، فالاصطلاح يجب ألا يؤخذ هنا بحرفيته . وبقيت البربرية الليبية قيد الاستعمال في ليبيا الى يومنا هذا . وهكذا ، فكل توسع تسجله احدى هاتين اللغتين ، يجب رده ، في الدرجة الاولى الى الإشعاع الثقافي الذي انطلق من المدن وحواضر البلاد الكبرى ، في هذا الوقت او بعده بقليل .

ومؤازرة السلطات العامة الرومانية لليونانية في تأمين انتشارها وتوسعها ، انما يدل بوضوح على ما اتصف به اولو الامر في الامبراطورية، من عمق التفكير والتفهم الصحيح للاوضاع القائمة، وهي مؤازرة تبدو على وجهها الصحيح في موقف السلطة من هذه اللغة وسلوكها معها . كل الدلائل تدل على ان الادارة الرومانية أبت ان تلزم الاغريق الأخذ بتعلم اللاتينية واستعمالها في معاملاتهم اليومية ومخاطباتهم كأنما يخشون فرض شيء ينتقص من كرامتهم ، 'حط لهم . كذلك لم يكن بالامكان ، من جهة ثانية ، ان يتخلى الرومان عن هذه الإزدواجيـة اللغوية التي قامت عليها ثقافتهم ، وعوضاً من ذلك راحوا يفتشون جاهدين عما يؤول الى تأمين حياة مشاركة وتعايش تعاوني . ففي هذا القسم اليوناني من الامبراطورية الرومانية ، كانت اللاتينية وحدها اللغة الرسمية في الجيش والقضاء ، مع العلم ان المناقشات والمرافعات القانونية التي كان يقوم بها المحامون كانت تجري باليونانية مباشرة دون ترجمة . وفي ما عدا ذلك ، عوّلت الادارة دوماً على اليونانية ، كما ان الديوان الامبراطوري في روما ، كانت فيه دوماً دائرة يونانية لتضعيف

ـخ بهذه اللغة ايضاً . لمن كان يرغب بين الشرقيين في احتراف مهنة ما في روما كان عليـ
ـم اللاتينية ، وهوامر لم يقبلوا عليه الا متأخرين ، أي منذ القرن الثاني فقط . وعلى عـ
ـك ، فقد وجدت روما في الشرق ، منذ مطلع الامبراطورية ، موظفين اكفاء احسنوا الا
ودورها ، كما ان نوع التربية التي سادت في البلاد اذ ذاك ، أمّن لها دوماً حاجتهـا من هـ
ـظفين . ففي الامر الثرية ، كان المربون الخصوصيون من اهل الشرق ، من الكثرة والو



الشكل ١٢ — مواطن اللغات وحدودها
الخطوط المتعكسة تشير الى المناطق التي انتشرت فيهـا اللاتينية في القرن الثالث . اما في الجنوب فالمستعمرات التي أنشأها الاباطرة للمعمرين اللاتين ، امثال ديراكيوم ، وستوبي وديبلتوس ، فقد اتخذت اللغة اليونانية أداة التعبير .

ـث لم يقلوا بشيء عن المربين اللاتين . وفي روما بالذات احتل الشعر والبيـان باليوناني
المدارس وفي المباريات الادبية ، المنزلة ذاتها التي كانت للشعر والفصاحة والبيـان باللاتيـ
ـن مدرسون اغريق يعلمون الصرف والنحو والبيان في كل الولايات الغربية . وكان من يرغـ
ـبية في متابعة دروسه العالية ، يذهب لمرسيليا التي كانت تفتخر بمحافظتها على نصاعة ا
ـانية ، وعلى الثقافة الهلينية التي عرفت ، في هذه الحقبة بالذات ، حركة تجدد عادت
ـدهار والاشعاع ، او يذهبون لاثينا كما فعل ابوليه الافريقي وغيره كثيرون . فلانتشار
ـكة واستمرارها طويلاً عاد بالثناء العاطر على هذه المجتمعات الغربية التي كان معظم
ـ البلاد وكان عليها ان تجدّ في السير وتقطع المراحل بسرعة في سبيل تحقيق التطور المرغـ

ومن المستغرب ، وأم الحق ان يقتصر الاتصال مع الحركة العلمية الهلينية إجمالا ، على نتائج جاءت في معظمها سطحية . لما مثل هدريانوس ومارك أوريل سوى نجاح يمكن اعتباره استثناء من القاعدة . غير ان الجهود والنشاطات التي بذلت في هذا المجال ادت ، على الاجمال ، الى نتائج لا يجوز الانتقاص منها او مقابلتها بعدم طرف اللسان . فليس نرى بين المدنيات الحديثة ما استطاع ان يعطي على مثل هذا القدر من العطاء، وعلى مثل هذه النسبة من العظمة او اعطت بالفعل شيئاً يصح مقارنته بما اعطته روما في هذا المضمار .

ثقافة ووحدة ، كل هذه النتائج التي سجلناها هنا تثبت كيف ان قسمة الامبراطورية من الوجهة اللغوية ، لم يُفض الى انقسامها ، وهو انقسام تم بعد ذلك بكثير . فالحدود اللغوية التي قامت الى الجنوب من البحر المتوسط ، أصبحت بعد وقت طويل ، حدوداً سياسية . وهذا الفارق اللغوي لم يؤلف في هذا الإنقسام، سوى سبب فرعي او عذر ثانوي افادت منه واستثمرته، على نطاق واسع ، القوى الدافعة عن المركز ، كما يفيد الصقيع من تخاريب الصخور حتى اذا ما جمد الماء فيها عمل على تفسخها وقلعها ، والا لبقي بدون أذى . اما في شبه جزيرة البلقان ، فالحدود اللغوية الفاصلة لم تكن لتلتقي . وهكذا نرى ان استعمال اللغتين معاً طيلة اجيال متطاولة لم يؤد الى شيء من خلخلة وحدة الامبراطورية .

ولهذا السبب ، فالمشكلة اللغوية ، لم تكن سوى وجه من وجوه مشكلة الثقافة العامة . والحل الذي لاقته هذه الاخيرة ترك اثره في حل القضية الاولى وزادها تعقيداً . فاذا كانت إزدواجية اللغة ، والحالة هذه ، وضعاً لا مندوحة لسكان الغرب ، في الامبراطورية الرومانية ، للاخذ به ، فلأنهم رأوا في هذه الازدواجية عاملاً يشد من وحدتهم ويزيدها تماسكاً ، وذلك توخياً منهم الوصول للمستوى الثقافي الذي بلغه الاغريق في الشرق . وهذه الوحدة اخذت تتحقق في المجالات الاخرى من الحضارة، تارة ونبذاً ، وطوراً بصورة سريعة ، حثيثة . وكانت تنهج ، فيما يتعلق بالدين مثلاً ، سبلاً حاول الاباطرة صدها أو الحد منها ، بينما راحوا كلهم يناصرون هذه المساعي ، عندما كانت تتعلق بامور الفكر والذوق الفني ، وكلها من توابع الكلاسيكية اليونانية ومن مشتقاتها ، التي لم تكن مستوردة كهذه العبادات والطقوس الدينية التي وردت على الغرب من الشرق البعيد، والتي اقبل الشعب الروماني يتلقفها ويتبناها ، بينما تلك كانت من صميم الثقافة التي لم يكن احد ليجرؤ على الانتقاص من كرم محتدها أو الحط من منزلتها السامية . والحقيقة ان الكلاسيكية اليونانية بعيدة لم يطلع عليها الرومان الا من خلال الشروح والتفاسير والتعاليق التي وضعها كتاب العصر الهليني . واي ضر او بأس من هذا ، يا ترى ؟ فالكل رأى في هذه الثقافة الفنية والفكرية التي طلع بها العالم اليوناني ، الثقافة الحقة التي يتوجب على روما اقتباسها وتبنيها ونشرها كعنصر ضام ، موحد لهذه الامبراطورية المترامية الاطراف التي انشأتها .

فاذا ما تعرّف الغرب الى هذه الثقافة وأقبل عليها ورضع أفاويقها فالفضل كل الفضل في

ذلك لروما وحدها . فقد أشرنا مراراً الى النجاحات التي حققها انتشار هذه الثقافة في الغرب . كذلك نوهنا بخواء الابحاث التي تتطلّع القيام بها بعض المفكرين من رجال هذا العصر ، وعدم جدواها . كذلك لا بد من بعض التحفظات التي لا بد من الاعراب عنها هنا والتي لا تتعارض ، مع ذلك ، مع الشيء الذي جئنا به أعلاه ، إلا بصورة ظاهرية ، لأن الخطر المزدوج الناتج عن تجريد النخبة ، من جهة ، ومن سخافات الجماهير من جهة أخرى ، يكون خطراً على الثقافة كما عليها خطر من هذه التفاهات وهذا الاطراد والمحاكاة والفوضى على أشكالها التي تتحالف عليها . وهنا كما في اي ثقافة أخرى في أي زمان ومكان ، فإلى جانب انتاج النخبة المثقفة ، نرى الانتاج العادي جيء به طبقاً لأذواق زبائن يؤلفون الغالبية التي لم تصقل منها الاذواق : فكان ان انحط المعدل الوسط ، لا سيما في ما يتعلق بالانتاج الفني . ومن جهة أخرى ، فهذه الثقافة التي جاءت من فوق ، ومن بعيد ، لم تكن لتمثل سوى ثقافة جماعة اقتُلعوا من بيئتهم وانقطعوا عن كل اتصال مباشر بالجماهير ، حيل بينهم وبين كل غذاء دسم تؤمنه تربة أصيلة . فلا يجوز ، والحالة هذه ، إلا ان نتصور ، ولو بالخيـــال ، ما عسى ان تكون عليه النتيجة لو استُعملت وسائل أخرى . والشيء الذي لا يختلف فيه اثنان هو ان هذه الوسائل كانت ستفضي الى وحدة مملة في السياقة دون ان تتمكن من انتاج أي رائعة من روائع الصف الاول .

وهذه الملاحظات التي لم يكن بد من إبدائها هنا والتي أبديناها بالفعل ، لا تمس بشيء عظمة هذا المشهد الذي يستبد بنظر المؤرخ ، الا وهو هذا الاجماع ، وهذه المطابقة التي اتصفت بها جهود الطبقات الموجِّهة ، العديدة ، والقابلة للنمو والازدياد ، والاستجابة التلقائية التي لقيتها نداءات الاباطرة ، لدى النخبة بين رعايا الدولة في جميع الولايات . وهذه الامبراطورية الضخمـة التي تألفت في البدء من أشتات متباعدة ، متنافرة ، وعلى جانب كبير من البربرية ، أقله في مطلع أمرها ، والنازعة الى الوحدة عن طريق نشر وتعميم ثقافة واحدة ، مؤتلفة ، هي أعلى وأمثل ما عرفه الانسـان او مـــا حلم به عبر التاريخ حتى الآن ، وهذا الايمان الذي اعتلج في صدور الجميع بأن هذا العمل كفيل بأن يؤمن الهيكل اللازم لهذه الوحدة السياسية والادارية والاقتصادية والاجتماعية ، ويضفي عليها ما يلزم من زينة وحلية ، وهذا الحلم بالذات الذي راود خيـــال الاسكندر من قبل ، وأثار في وجهه معارضة معاونيه ومساعديه ، وسبب موته الباكر وعجل في اجهاض الفكرة قبل ان تلد وأدى بالتالي الى فشلها ، فهل من يشك بعد انـــه كان باستطاعة الامبراطورية الرومانية ان تخرج او ان تأتي بما هو دون ذلك ؟

٣ ـ العمل العقلي والادبي

هذه الازدواجية اللغوية تتلبسها الامبراطورية الرومانية ، أفضت الى أدبين مختلفين لا بد من درسهما هنا ، على انفصال الواحد من الآخر . غير ان الحياة العقلية والادبيـــة لا تنطبق ، بالضرورة ، الواحدة منها على الأخرى . هنالك مظاهر في النشاط الفكري او العقلي لا تؤثر ازدواجية اللغة فيها كثيراً على الوحدة ، في مجتمع كالمجتمع الروماني ، حيث اجادة اللغتين معاً ، أقله في

الغرب ، وعلى مستوى واحد ، لم يكن من الأمور النادرة قط . وهكذا يحسن بنـا ان ننظر فيها دون ان نهتم بشيء باداة التعبير اللغوي التي استعان بها من انقطع لمثل هذا العمل .

١ ـ انحطاط الروح العلمية

بين التليفين :
توقف هنا وانحراف هناك

هذه الروح العلمية التي طلعت في الشرق المتوسطي،تجلت بزخم عارم، خلال العهد الهليني . ثم بلغت روما حيث وجدت من الظروف التي هيأتها لها الامبراطورية ، ما اتاح لها الانشاء وتوسيع الفتوحات التي حققتها في هذا المضمار . وتهيأت لهذه الروح العلمية اسباب جديدة اتاحت لها التوسع والافادة بما تم لها من هذا العلم العريض الذي امكن لهـا جمعه وتحصيله والتحكم به وضبطه . فانتشرت في البلاد دور الكتب ومكتبات ، وانشأت لها الادارة الحكومية دوراً للمحفوظـات ، وادوات للبحث والتقصي ، بحيث استطاع البعض الوصول الى هذه الذخائر الفكرية والاطلاع على ما فيها من اسرار مكتونة . والعالم المعروف اذ ذاك ، والذي امكن قياسه واستثمار موارده ، اخـذ هو الآخر ، في الامتداد والتوسع ، بعد ان توفر له ، بنسـبة أكبر بكثير ، فريق من حملة العلم ، تمّ لهم من اوقات الفراغ، ومن الوظيفة التي كانوا يشغلونها، ما حملهم على الرحلة والطواف في ربوعه ومجالاته شرقاً وغرباً . وهذا العالم الذي تعددت منه المناظر وتنوعت بين طبيعية ، ومناخية ، وحيوان ونبات وعروق بشرية ، تهيأت له اسباب المواصلات ويسرت بينه وبين اقطار متنوعة واقعة الى ما وراء حدوده المتنائية . وبختصر القول فقد توفر كل ما يساعد ذوي العقول العطشى الى مناهل المعرفة وحياض العلم ، الافادة من امكانات لا حـد لها ولا حصر ، معظمها جديد مستحدث ، باستطاعة جميع العلوم والفنون ان تفيد منها الى أقصى حد . وهذه الروح الواقعية التي عُرفها الرومان وأخذوا بها على نطاق واسع، كان بامكانها ان تسخّر العقل اليوناني المنطقي الذي انساح في هذه النظريات والتجريدات الفلسفية وهام فيها ، فينصرف بدوره يعلم الرومان كيف يعللون شؤون هذا الكون ويحللونها على وجه يبـين ما بينها من ترابط وانسجام . ويحلو للمرء ان يهيم بالفكر فينطلق مع الخيال الجموح ليتصور ما عسى ان يكون تمّ او خرج من اشخاص كأرسطو وايراتستينس لو عاشا مثلاً ، في القرن الثاني للميلاد .

فلم يكن لأحد منهما قِرْن او منافس . فقد ظهرت بوادر انحطاط الروح العلمية التي ما لبثت ان اشتدت وازدادت باستمرار . صحيح ان الكفاءات لم تغب قط ولا القدرة على العمل ، ولا هذه الروح العلميـة الطُلَعَة . كنا نرى ، كما في السابق، عقولاً تهتم بكل ألوان المعرفة البشرية وتطمع في ان يتم لها علم موسوعي، دائري، في كل شيء . وباستثناء بعض حالات ، نادرة الغاية، لما من احد يطلع بعمل جدي أصيل في أي قطاع من قطاعات العلم . فالعصر الذهبي للروح العلمية التي تجلت قديماً انقضى وذهب دونما رجعة ، وكذلك عصر البحث العلمي والتحري عن أسرار العلم الغامضة . كل ذلك ذهب وذهب معه هذا الاندفاع ، وهذه الحماسة ، وغابت عن

الوجود الروح المجددة في اهدافها ووسائلها ونتائجها وقطوفها ، ويبدو لكل عين باصرة ان الشجاعة العقلية قد زالت، أقله من حيث ترضى بالخضوع لقواعد العقل والمنطق. فها هي الاجيال الوسطى ، بقضّها وقضيضها ، تطل علينا ولو من بعيد .

والذي يهمنا من الأمر الآن ، وفي هذا الوقت بالذات، هاتان النزعتان التي سبق للعالم الهليني ان عرفها من قبل وأخذ يتربصهما أكثر فأكثر ،فيا بعد، إلا انه استطاع التغلب عليهما بشخص أكبر رجاله وممثليه . فبدلاً من ان ينصرفوا نحو الواقع ويخضعوا له اتجهوا كلياً نحو الكتب يجمعون منها ما رأوا فيه خير ما يُمَثّل علوم الاقدمين او توهموا انه يجمع ما سجلوه او رأوه. هذا هو عهد « الموسوعات » بالذات . فما من احد يجهل منافع هذه المجاميع التي لا تخلو من ان تعطّل التفكير اذا ما اقتصر المرء عليها . قدّم لنا عهد الامبراطورية المتأخر أمثلة من هذه الموسوعات التي بقيت غذاء العقل البشري حتى اواخر القرن الخامس عشر . وقد أساؤوا من جهة ثانية ، استعمال الفلسفة ولا سيا هذه النظريات الفلسفية التي تثير الشك والريبة ، اذ انقطعوا لكل ما يثير العُجب والغرابة ، او يشجع على الرمزية التي كثيراً ما آذت المجهود العقلي ، ان لم تكن حوّلته عن غايته . فاذا ما كانت هذه النزعة التي اعتبرت بديلاً عن الروح العلمية لا تميل كفة الميزان ، فهي، مع ذلك لا تلين إلا لاعتبارات اخلاقية، او ادبية لم تكن لتشجع قط على تحصيل العلوم ولا على تبسيطها .

ومها يكن ، فان لم نمس بعد أمام القطيعة التامة ، فنحن أمام بوادر فقدان الاهتمام التام تدريجياً بالروح العلمية واصبحنا بالتالي أمام نهاية الحركة العلمية التي ميزت العهد الماضي وطبعته . وكم نتمنى لو نستطيع الكشف عن الطريقة التي اتبعها هذا التطور ، والغاية التي هدف اليها . فهي بالطبع تتصل بحوادث لمسناها وأشرنا اليها من قبل : ضغط العقائد الدينية الاكثر رمزية والاشد إثارة للعواطف، واحترام مآتي الماضي والمجازاته حتى حدود التعصب والعبادة ، والشغف بالعلوم اللسانية والبيانية كالخطابة والبلاغة والفصاحة والإستمساك بالمحسنات اللفظية . ولكن هذه الأمور نفسها لا تلين كثيراً للدرس والبحث والتحليل ولا تقع تحت المبضع . فالتيارات التي تتجاذب الافكار والعقول بين كر وفر، واقبال وادبار ، تبقى دوماً بمنأى عن البحث لانها غامضة ، خفية ، سرية .

الاستبحار العلمي والتخصص

سمة الاطلاع انحصرت في تجميع المعلومات وحشدها من بين الكتب، وبذلك تتنكر من ذاتها قبل ان تختفي لمطلب المعرفة الحق دون ان تقيم وزناً للاسناد العلمي والمرجع الأصيل وكلها امور تولي المصدر العلمي القوة والحياة .

وهذه الحركة نعمت ببعض الاهمية في مطلع الامبراطورية وظهرت في كثير من المجالات الفكرية على اختلافها ، وتغلغلت بين مناهج علماء اليونان وفي هذا التوافق بين الفيلولوجيا وعلم الاركيولوجيا . وعلى هذه المناهج بالذات ، سار في روما : فارون من معاصري قيصر ،

واللغوي ويريوس فلاكوس ، احد النحاة المشهورين في عهد اوغسطس . وقد طبقا طريقتهما هذه والجهود التي قاما بها في هذا الصدد ، على اللغة اللاتينية وعلى تاريخ روما ، وبذلك قاما بعمل مجيد . وقد صدر برويبرس واوفيد عن المؤلفات التي وضعها هذان الكاتبان ، وهي مؤلفات لم يعد يوجد منها شيء اليوم ، واليها يعزى الفضل في معرفة ما اصطلح عليه الرومان قديماً في امور اللغة والقضاء والدين بفضل الاقتباسات التي أخذت من هذه الكتب .

فالكتبة اليونان الذين سكنوا روما لمدد طويلة ،في عهد اوغسطس، وألفوا فيها ، هم كتاب من المستوى الواطي ، بينهم سترابون الذي جاء من مقاطعة اماسيا في الشمال من آسيا الصغرى . فقد كان مؤرخاً وجغرافياً وترك لنا مذكرات تاريخية لم يصلنا منها شيء ، ومزج في كتابته بين التاريخ والجغرافيا ، الا ان بحثه عن التاريخ القديم بقي موجزاً مقتضباً . ومنهم كذلك ديودوروس الصقلي الذي وضع كتاباً بعنوان : المكتبة التاريخية *Bibliothèque historique* ، وهو تاريخ عام ، واسع الهدف بعيد المرمى ، اذ انه تناول التاريخ القديم الى فتح غاليا على يد يوليوس قيصر . وما تبقى من تاريخه هذا لا يفيد مؤرخي العصر الا بنسبة ما يفتقرون اليه من مصادر تخلو من النقد التاريخي والأفكار البناءة . ومنهم ايضاً دنيسيوس الهاليكرناسي وهو معلم للبيان والفصاحة ، تنقصه دقة النظر ، والناظرة اللاقطة في هذه المؤلفات التي وضعها حول النقد الادبي ، بينا حشا كتابه : « التاريخ الروماني » خطباً مملة ، جوفاء .

ومع ذلك ، فقد عرف ان يحافظ هؤلاء الكتّاب اليونان ، على شيء من هذا التفوّق الذي تحلى به الكتبة الاسكندريون ، وعلى حبهم العلم وتعطشهم اليه ، وهي رغبة لم تلبث ان خمدت شعلتها سريعاً وانطفأت بعدهم بقليل . وفي منتصف القرن الاول نرى رئيس بلغاء العصر واستاذ البيان والفصاحة الاشهر اذ ذاك ، كونتليانوس يتمتع بسمعة ادبيـة طيبة لتمكنه من العلوم الانسانية ، كما انه امتاز بمقدرة على التعليم والتربية تستحق التنويه بها عالياً . إلا انـه يحتاج الى فهم صحيح للتاريخ . فقد أمدّه تدريسه الطويل البلاغة بمنهجية وأصول راح يطبقها على كل شيء . ونرى فرونتون ، في عهد الاسرة الانطونية ، يهتم بالكتّاب القدامى اهتمام فنان يرغب في ان يجد في آثارهم وعلفاتهم الكتابية، الكلمات الميات، يتذوقها ويتدبرها كمعلم حاذق للبيان، دون ان يبالي قط في صوابية وجوه استعمالها ومدلولها وتعبيرها ، عن الواقع الانساني ، مادياً كان ام ادبياً .

وهذا الاستاذ للتكلف الصناعة اللفظيـة والمتحذلق في الاسلوب ، كان بدوره استاذاً لأولوجيل *Aulu - Gelle* الذي أعجب كثيراً ، باستاذه ، ومع ذلك تنكّب عن خطاه ، ولم يحفل ، على شاكلته ، بالبهرج اللفظي الخارجي ، وعرف ان يعود بجنـّي عقلي ، وغذاء ادبي ، أكثر تركيزاً . فقد عاش هذا الكاتب الروماني على مقربة من اثينا ، وهذا ما حمله على تسمية كتاب له : « الليالي الاتيكية » *Nuits Attiques* وهو عبارة عن مجموعـة له من الامسيات واحاديث السمر ادارها بين نخبة مصطفاة من الخلاّن المشهود لهم بذرابة اللسان، وبغيرتهم

الشديدة على الثقافة العالية ، وقد قرأ كثيراً وقيّد الكثير من الاوابد والشوارد . قام بهذا كله كذوّاقة، انتجع خير المجاميع الادبية ومختارات القطوف والمنتقيات المأثورة ، فتدبرها بنظر صاقب ، ورأي ثاقب ، وشرحها بعد معارضتها ، وعرضها على محك النقد . وقد تناول في ابحاثه الصرف والنحو والنقد الادبي ، والنُظُم السياسية والتاريخ . كل ذلك بعناية وتدبر وتفهّم في طول أناةٍ وجلد . فاذا ما رأيناه يوسّع من مطالعاته ويتوّع بينها ويغوص مستبحراً فليس حباً منه أصلاً ، بهذا الايغال ، ولا اخذاً منه بنهج العصر ، ولكن اشباعاً لفضوله العلمي ولنزعته التشككية . فنحن مدينون له كثيراً بمعرفة الشيء الكثير من تاريخ الرومان بعد ان عرف ان ينقل الينا الكثير من النصوص المهمة لعدد محترم من كبار حملة الادب اللاتيني في ذلك العصر ، وهكذا تمكن من صيانتها . فلو قدّر له وجاء قبل زمانه ببضعة قرون وان يسير على منهجية بعض الكتاب اذ ذاك ، ويتمتع على شاكلتهم ، بروح الانضباط التي كانت صانته عن الخوض في هذه الموضوعات وتعرض لها في بحثه أكثر من مرة ، كما لو عرف ان يفيد من هذه المصادر الوفيرة التي كانت تحت تصرفه وتناوله ، لأمكن ان يكون ، بالنسبة لما تجلى به من قدرة وكياسة وطلاوة صانته عن الادعاء والاعتداد، مساوياً لأكابر العلماء الذين عرفهم التاريخ القديم، بعد ان تمّ له ما تم لهم من رجحان العقل وتفهم للواقع .

وهذه الكياسة الادبية افتقر اليها معاصره الكاتب الفريجي بوزانياس كما افتقر الى صفات اخرى صاحب الكتاب الموسوم : « وصف اليونان » . وهذا الكتاب وصف اليونان ، مقاطعةً مقاطعة ، ومدينة مدينة ؛ فذكر لنا ووصف بالتدقيق والتفصيل النادرين ، المباني والمؤسسات القائمة فيها بعد ان زارها في الرحلة الطويلة التي قام بها . وكثيراً ما لقّب المؤرخون هذا الرّحالة بـ « الدليل » *Périgète* ، او بالوصّاف . ويمكن مقارنة كتابه هذا بكتب الأدلة التي يحملها معهم السوّاح في هذا العصر، إلا ان دليله يبدو جافاً ، مهما تحلى بالوضوح . كذلك يفتقر للنظرة الناقدة اللمحة البعيدة، إلا انه معنيّ لا ينضب لعالم الآثار وللاختصاصي بأمور الطقوس الدينية . فقد قام ، من هذه الناحية بعمل غاية في المتعة والافادة ، وذلك في عهد قدّرت الأقدار ان تتوفر له النماذج الطيبة ، والوسائل المسعفة للبحث العلمي ، فبرز نموذجاً للعالم الجمّاع ، هذا النموذج الذي كان في سبيله الى الزوال، فلم يَلْتَئِم عمله هذا، احداً ليطلع لنا أدلة من هذا النوع في بلدان اخرى .

معرفة العالم والنظام الكوني

لم يكن حظ الجغرافيا بأفضل من غيرها من هذه العلوم الانسانية . كان لا بدّ لها بوصفها علماً بأصول من دقة ملاحظة ، بعد ان عجز العلم اذ ذاك عن ان يسجل أي تقدم في العلوم الرياضية وعلم الفلك . وباعتبارها علماً يقوم على الوصف فقد رأت تحت تصرفها تسهيلات عظيمة . فلأول مرة في التاريخ القديم ترى الدولة تُعنى رسمياً بهذا العلم، منذ ان طلع علينا العهد الامبراطوري . فقد عهد اوغسطس الى صهره أغريبا ان يرسم على احد جدران الرواق المعروف برواق أغريبا ، خريطة كبيرة للعالم ، مات قبل ان

يفرغ من رسمها فأكملت بعد وفاته. ولم يصلنا عملياً شيء من هذا قط . فهذا الرسم كما بدا سواداً على بياض لم يتصف بالدقة ، وذلك للفرق القائم بين طول الجدار وعرضه . غير ان النص الذي امر اوغسطس بنشره إثر وفاة أغريبا – وهو نص قام على احصاءات ومقاييس رسمية – ضم ولا شك كثيراً من المعلومات المفيدة . وهذا مثال جديد آخر من عدة أمثلة ، تدل كلها على ما توفر من الظروف المؤاتية الجديدة التي كان من شأنها ان توسع معلوماتنا الصحيحة حول الارض.

وهذا النجاح لم يحصل او يتم بالقدر المرجو . فلم يقم سترابون باي جهد شخصي ملحوظ لاستكمال معلوماته المقصورة على الكتب ليتجاوزها الى ما هو احسن واكمل ، اذ كان همه الاكبر ان يضع لنا كشفاً او ثبتاً دقيقاً للمدن الهوميرية، كما رأى ان لا فائدة من ان يتخطى في رحلته ايطاليا الى الغرب والتعرف الى معالمه. من الممكن كما انه من المؤسف جداً من جهة اخرى ان نضع قائمة طويلة بهذه الاغلاط التي وقع فيها كثيرون كانوا في وضع يسمح لهم ان يجمعوا معه معلومات هامة . فالملك يوبا الثاني ملك موريتانيا ، ومن نصراء العلم في عهده ، توهم النيل ينبع من ضواحي المحيط الاطلسي ثم يغور تحت الأرض في اتجاه الشرق، ليظهر ، من وقت الى آخر، في بعض معالمه ، في بحيرات الشط وغدرانه. وفي اواسط القرن الاول ، راح الجغرافي الاسباني بمبونيوس ميلا ، وهو من المتخصصين بعلم الجغرافيا ، اذ ذاك ، يسلم ويعتقد بهذه الخزعبلات والتلفيقات التي يرددونها حول العنقاء ، والنساء المسترجلات، وغير ذلك من الغرائب والكائنات العجيبة . كذلك كان يرى علاقة بين نهر الدانوب والبحر الادرياتيكي . وفي هذا العصر بالذات ، كان بلين الاكبر ينظر الى بحر قزوين ، خليجاً من هذه الخلجان التي يرسمها الاوقيانوس المحيط بالأرض ، ولم يخامره من جهة ثانية ، اي شك بان اوروبا اكبر بكثير من افريقيا وآسيا .

فالتقدم الصحيح الذي امكن تحقيقه على نطاق ضيق في علم الجغرافيا تناول هذه المناطق التي اخذ بارتيادها تجارة متاجرون. ففي القرن الاول استطاع المؤلف المجهول للكتاب الموسوم: « رحلة حول البحر الاريتري » (اي البحر الاحمر) ان يمدنا بمعلومات جديدة طريفة تتعلق بسواحل الهند حتى وبسواحل الصين الجنوبية . كذلك نرى كثيرين يضعون رحلات يصفون فيها أسفارهم وتنقلاتهم في البحر الاسود ، منها « رحلات الى البحر الأسود » . وقد برهن اريانوس الذي كان حاكماً لولاية قبادوقيا في عهد الامبراطور هدريانوس ، عن اهتمامه الكبير بمقاطعة القوقاس . هذه وما اليها احداث فردية طارئة ، ولا نرى قط اريانوس نفسه الذي كتب عن الهند ، قد افاد كثيراً من المعلومات المستحدثة التي كانت في متناوله . فبعد ان كانت الروح العلمية على اشدها في العصر الهليني نرى هذه الروح التي كانت تشرئب بانظارها الى المجهول تحاول الكشف عنه، لم تعد لتشهد العلماء ، ولا لتؤرق المثقفين ، ولا تراود خواطرهم . فلم نعد نشهد رحلات كبيرة بعيدة يهدف القائمون بها الكشف الجغرافي الواسع . وبالرغم من الطرقات الجديدة العريضة التي امكن شقها ، والاسفار البحرية المتواترة التي حصلت ، نرى هؤلاء الجغرافيين يقعون في اغلاط سمجة، ويقترفون هفوات لا تغتفر لهم عندما يريدون تحديد المسافات والاتجاهات . فما عاد الانسان ليكترث كثيراً، ولا ليهتم بامه الأرض : موطنه ودار سكناه .

ففي ظروف وأحوال كالتي ذكرنا ، ليس من العجب قط ألا يتقدم البحث العلمي ، وألا يسجل أية خطوة ملموسة الى الامام . لم يعد لدينا شيء يذكر من آثار مارينوس الصوري ، احد حملة العلم في القرن الثاني . ولعل أكبر علماء هذه الحقبة وأسيَرهم ذكراً واسماً هو معاصره بطليموس الذي رأى النور في مدينة بتولميس في صعيد مصر ، وعاش على مقربة من مدينة الاسكندرية . كان اختصاصياً بالرياضيات وعلم الفلك ، فوضع في هذا المجال كتابه الخالد : « المجسطي » حول نظام النجوم وعلم الفلك ، وبقي كتابه هذا معمولاً به طوال الأجيال الوسطى حتى وبعد هذا العهد . و « المجسطي » كلمة منحوتة من اداة التعريف العربية الـ ، ومن الكلمة اليونانية *Megistos* ومعناها « العظيم ».والحق يقال ان هذا النجاح النسبي يحققه بطليموس منحول ، مختلس، لأن بحثه هذا كغيره من الابحاث الاخرى التي وضعها هذا المؤلف، عول بالاكثر على ما تقدم من العلماء الهلينيين دون ان يعتمد على مجهود او تحصيل شخصي . فقد أقصر عمله على نقل المبادىء والنظريات التي علّم بها وعمل هيبارخوس ، كما انه أهمل الأخذ بالنظرية التي قال بها وعلّم ارستارخوس الساموسي التي جعلت من الشمس او من النظام الشمسي محور الكون ، كما رذل ، باعتبارها مضادة العقل ، نظرية دوران الكرة الارضية على محورها عند قطبيها .

اما جغرافيا بطليموس فلا تستحق ان يطلق عليها هذا الاسم لأن غرضها الاول هو كيفية رسم الخرائط . فالمعلومات التي تتعلق بعادات الشعوب وأخلاقهم ، وبالمحاصيل الطبيعية لا يأتي على ذكرها إلا بالعرض ، ولماماً . فبعد ان تناول بالبحث النواتىء الطبيعية تراه يضع منطقة بعد منطقة ، قوائم بأسماء الجبال القائمة فيها، وأسماء الانهر ، والشعوب والمدن، ويحاول ان يحدد او ان يشير ، بكثير من الدقة ، إجمالاً الى خطوط الطول والعرض . فهذه الجغرافيا ليست سوى جريدة أسماء ومسميات حاول صاحبها ان يكسوها ما يزينها فأضاف اليها بعض المعلومات والمعطيات الجغرافية ، جمع فيها ، بعد جهد مبرور من المقارنات والتصويبات ، كل ما استطاع علماء عصره جمعه من معلومات . وما كان أسرع ما يتسرب الغلط على يد النساخ الذين تعاوروا على نسخ هذا الكتاب ، الى هذه القوائم الطويلة من المسميات الجغرافية ، الأمر الذي أثار جدلاً ونقاشاً بين علماء هذا العصر حول الشكل الصحيح الذي أورده بطليموس ، لم يخفت صوته به ، حول شكل اوروبا الشمالية وافريقيا ، والشرق الاوسط . ومهما يكن ، فهب ان هذا الكتاب لم يخرج عن كونه كشفاً دقيقاً وليس بعمل أصيل ، ومهما شابه من نقص او شكا من فراغ، فلقد لعب ، مع ذلك ، في التاريخ ، دوراً كبيراً .

ومهما بدا بطليموس صغيراً، اذا ما قارناه بكبار الجغرافيين في العالم القديم،فهو يمثل مع ذلك، آخر حلقة من كبار العلماء الذين اطلعهم التاريخ القديم . وهو الذي اوجزت واختصرت مؤلفاته لمدة قرون متتالية ، وسلمت للأجيال التالية، النتائج التي أدى اليها البحث العلمي في هذه المجالات . فالترجمات العربية واللاتينية التي عرفت ان تؤمنها الأجيال الوسطى لهذه الكتب ، اعتبرت كحقائق مقررة ، ثابتة المعطيات التي فيها حول علم الفلك والجغرافي ، مع

كثرة الاغلاط التي انزلق اليهـا في كتابه الآخر . فاذا كان مارينوس استطاع ان يحصي ، بين جزر الخالدات *Iles Canaries* والصين الجنوبية ٢٢٥ درجة من خطوط الطول ، فقد احصى منها بطليموس ١٨٠ درجة أي نصف خطوط الطول في الكرة الارضية ، وليس الثلث . فاذا ما استطاع رحّالة الاجيـال الوسطى ، ان يحسنوا معلوماتهم حول الصين واضطروا ان يمدوا خريطتها اكثر نحو الشرق ، فقد لاح الأمل الذي حدا بكريستوف كولومبوس القيام بمغامراته الجغرافية .

التاريخ الطبيعي وعلومه

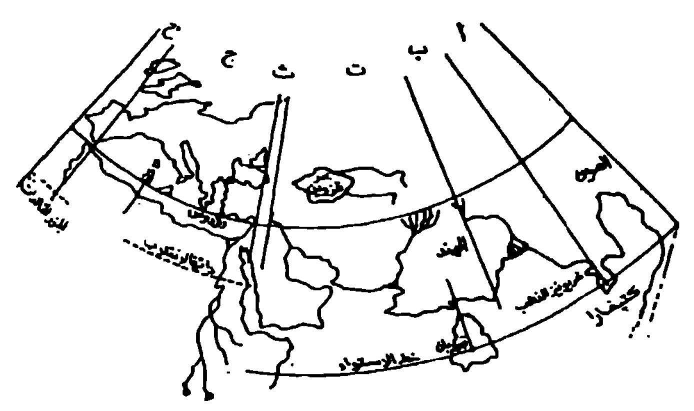
ليس مـا يستحق الذكر في العلوم الرياضية . فالرصد العلمي للنجوم كان أهمل أمره واستعاضوا عنه بهذه الحدسيات والافتراضات المحتملة الوقوع التي انصرفت اليها النجامة ، وعليها اقبل في عهد اوغسطس واليهـا انقطع ، الروماني مانيليوس الذي وضع ارجوزة شعرية في النجوم وعلومها ، اسماها : « علم الفلك » . أما العلوم الرياضية الأخرى ، فقد اقتصرت على اجترار ما سبق للعلم ان حققه من قبل ، وبقي العمل بـه محصوراً ضمن محافل خاصة ، في أثينا أو في الاسكندرية .

وعلى عكس ذلك ، انصرف الاهتمام اكثر فأكثر نحو الظواهر الطبيعية ، وبرز للأنظار في مجالات التاريخ الطبيعي شخصيتان ، هما : سنيكا وبلين الأكبر ، وان كانت آثارهما العلمية ذات قيمة ضعيفة .

فاذا لم يتعرض سنيكا للعلوم إلا لِماماً ، من خلال بعض آثاره العلمية ولا سيما الأدبية منها ، فمباحثه في « العلوم الطبيعية » ، وهي التي وصلت الينا من بين مؤلفاته العلمية، تعطي الدليل على سعة المعلومات التي تمت له ، وعلى تنوعها ، ان لم تدل عـلى الهواجس العلمية التي جاشت في صدره . فهو لم يعالج هذه الموضوعات، بما تستحق من استعداد فكري وتهيئة سابقة . واذ كان يفتقر ، أساساً ، للاستبحار في العلم ويهزأ بفكرة البحث عن اصل بعض أسماء الاعلام الرومانية ويتساءل من ظهر قبل الآخر : الإلياذة او الاوديسة ، فقد كانت تنقصه اصلاً الروح العلمية. فقد كان فيلسوفاً ، وأكثر من ذلك، عالماً اخلاقياً . وبالفعل ، نراه في أبحاثه عن العلوم الطبيعية يستطرد كلما سنحت له الفرصة لبحث القضايا الأدبية التي فيها موعظة للناس ، ويشجب بشدة ، الذوق المترف بمناسبة التحدث عن المرايا ، او هواية الاسفار عندما يتحدث عن مهب الأرياح . ومع ذلك ، فقد برهن عن نظرة صافية ورأي صائب عندما يأخذ بتقويم النظريات المتضادة او المتعاندة. وقد استطاع بما أوتي من نفاذ البصيرة ان يأتي بنظريات تقرب من التنبؤ، عندما استشعر التقدم العظيم الذي سيحققه العلم في المستقبل . إلا انه توقف عند طائفة من الحوادث والوقائع ، ناقصة وغير متناسقة ، التي تم العلم اليوناني درسها دون ان يزيـــد عليها شيئاً يذكر من ملاحظاته الشخصية .

ومع ذلك فقد كانت بحوثه العلمية خطوة كبرى لدى علماء الأجيال الوسطى .

ولم يتم ، من جهة ثانيـة ، لبلين الاكبر ، ما تمّ لسنيكا من قوة الفهم وتوقـد الذهن وصدق النظر . إلا ان ما عُرف عنه من نشاط حمله على بذل الجهود في جمـع ما أمكن له جمعه من المعلومات ، ابّان خدمته في الجيش الروماني ضابطاً ، ثم أثناء عمله في الادارة ، واخذ فيها يرقى سلم الدرجـات الادارية حتى عُيّن أميراً البحر . ومن آثاره الفكرية الكثيرة — وهي عديدة



الشكل ١٣ — خطوط الطول عند بطليموس

أ و ب - التخوم التي يسميها بطليموس « الاراضي المجهولة » يصعب جداً تحقيق مواقع المدن التي يذكر اسماءها وهي كتيغارا ، وتيليه ، وسيرا .

ت - من الفرات الى تشخوروغان (برج الحجر) في مقاطعة سريكول الى بامير، ٦٠ درجة (٢٤ درجة)

ث - من البحر المتوسط الى الفرات درجتان ونصف .

ج - من الجزر الخالدات (كنارى) الى جبل طارق ٧ ١/٢ درجات ، والحقيقة ١٢ ونصف .

ح - البحر المتوسط ٦٢ درجة (٤٢ درجة)

متنوعة تناول فيها القضايا الحربية والتاريخ الطبيعي والاجرومية — لم يبق سوى ٣٧ رسالة من كتابه « التاريخ الطبيعي » *Histoire naturelle* وهو كتاب ضخم وحصيلة جهد موصول من المطالعات ، جمع للمعلومات التي أفاد منها ، على عدد كبير من الجزازات او البطاقات برؤوس الموضوعات ، وضعه في اوقات فراغه . ويحكى عنه انه كان يطالع وهو الى مائدة الطعام ، وفي الحمام . وعالج بذهن يقظٍ متفتح كل الموضوعات : من الجغرافيا ، الى الفنون الجمية ، الى علم النبات ، الى علم الحيوان ، فعلم المعادن . والمؤسف من هذا كله ، هو جعل هذا العطش الى المعرفة مشدوداً الى المطالعة المادية ، أي مربوطاً بالكتاب او المطالعة الحرفية ، دون ان يكترث او ان يهتم بما وراء الحادث والواقع المحيز ، لا نلمس عنده أية نظرة ناقدة ، مفلسفة ، معللة ، إلا ما ندر ، وان فعل ، فيتردد كلي بشيء من الوّجل . وقلما رأينا الشك يخامره او ان يستنكر لما كتبه عن الرخ ، وعن العنقاء ، وغير ذلك مما أثبته من الخرافات المحكية ، والأساطير المتناقلة . وهو يؤكد

في معرض حديثه عن التمّ او الاوز العراقي الذي يغنّي وهو يحتضر ، بأنه لم يتفق له قط ان سمعه . وفي هذا ما فيه من تفويته الفرص التقصي عن الحقيقة العلمية، فقد تبنّى ، دون ان يختلج له طرف عين ، هذه الخرافات المضحكة المبكية حول ساحر يمسّ ليلاً ويطوف متنكراً بهيئة ذئب ، وخلاف ذلك من احاديث أدارها على حيوانات اسطورية . ان ما عُرف به من سرعة التصديق المفرطة، أضرّ كثيراً بعمله العلمي ، وأساء اليه كثيراً بحيث نرى فيه، جنباً الى جنب، الخسيس والممتاز . إلا انه لا يجوز للمرء ، من جهة اخرى ، ان يمر مرور الكرام ، بما تقع عليه العين ، الفينة بعد الفينة ، من قوة الفراسة ، وصدق الملاحظة التي لا يمكن ان يتصف بها كاتب بين بين ، حيث تطلع علينا ، من وقت لآخر ، شطحات فيلسوف من المذهب ، شديد التشاؤم مما يشاهد من بؤس البشرية وتعاستها . كذلك ، يجب ألا يغيب عن ذهن القارىء قط ان هذا الكاتب ، يجب ان يلام لحصر البحث عن الحقيقة والتحري عنها في الكتب . فقد قضى حياته في خدمة العلم وجمع المعلومات ، وتصيّدها وطلبها أينما تجلّت له . فبدلاً من ان ينجو بنفسه من الخطر الماثل امامه والذي يتهدده بموت زؤام ، اذ خف مسرعاً ليشاهد عن كثب ثورة الفيزوف الكبرى ، عام ٧٩ للميلاد ، فكان احد ضحايا العلم ، وهلك في عداد من هلكوا في هذه الكارثة الرهيبة .

الطب

اشتد اهتمام الناس دوماً بالطب وبالاطباء . فليس من عجب ، بعد هذا ، ان يزداد عددهم في كل مكان وينمو بعد ان حرصت كل مدينة على ان يكون لها ، على الاقل طبيب واحد ، فدرّت هذه المهنة على اصحابها الكسب الوافر وتم لبعضهم ثروات طائلة . وقد عرف الطب ان يسجل تقدماً محسوساً في هذه الحقبة ، فأدخلت على الجراحة وادوات الكحالة تحسينات جمة، وتوصل الأطباء لاجراء عملية السادّة (الماء الازرق) في العين، كما امكن تسجيل بعض التقدم في جراحة التجميل لبعض اعضاء الجسم كالأنف مثلاً ، وتوصلوا الى اكتشاف بعض المخدرات الموضعية . وليس بغريب قط ان نرى نِطس الاطباء المتخصصين بأمراض العين والاذن ، والاسنان وغير ذلك ، كما رأينا ، من جهة اخرى ، نساءً يتعاطين مهنة القبالة . واتضحت للعيان بعض الطرق العلاجية التي استنبطوها ، كالاستحمام او التطبب بالتعرض لأشعة الشمس مثلاً ، والسكنى في المناطق الجافة الهواء للمصابين بالامراض الصدرية. كذلك وصفوا لبعض الأمراض العصبية المعالجة بالمياه المعدنية وراحوا في هذا السبيل يحصون ما يصلح منها للاستعمال .

فاذا ما راح علم الاقرباذين يدرس ويتبحر بخصائص بعض النباتات الطبية لما زلنا نرى بعض الاطباء يصفون زرق الحمام وبول الحبر للعلاج ، وقرن الأيل بعد حرقه . وعلى اثر توافد الاطباء الدجالين والعقائد المتناقضة من الأقطار الشرقية ، لم يكن من النادر قط ان يلجأ البعض لطرق التعزيم والسحر والرقية ، في الطبابة واللجوء الى وسائل المنجمين . فكم من طبيب ، مثلاً رفض المباشرة بمعاينة مريض ما، الا بعد ان يستطلع مواقع النجوم وطِلع الابراج، ومواقعها في مداراتها، وتوافقها في المكان والزمان . فالبشرية المتعذبة، راحت تنيط رجاءها في هذا العصر وتتطلع ،

اكثر من أي وقت آخر ، نحو القوى الفائقة الطبيعة التي تتحكم بمصائر البشر ، وبيدهـا الخلاص والنجاة وتشرف على توزيع الحظوظ .

كل هذه النجاحات والتطورات التقنية التي حققها الطب ، انما تمت عن طريق التجربة والاختبار ، ولم تأت نتيجة منطقية لمبادىء علميـة . فقد اقتصر الطب باعتباره علمـاً بأصول ، على التقيد بالفتوحات العلمية التي أمكن لاطباء الاغريق تـسجيلها ، من بعد ان تهيب اللحاق بهم في هـذا المضمار. فلم يكن ليجرؤ احد على الظن ، بالرغم من التجارب والاختبارات الهلينية ، بان الاوردة الدموية تصلح لغير نقل الهواء. ففي عهد طيباريوس ، وضع سلس *Celse* موسوعة تناول فيها فيما تناوله من علوم: البيان والبلاغة والزراعة وفن الحرب ، والحقوق ، كما افرد الطب في زمانه بحثاً مستفيضاً امتاز بالدقة والجزالة واوضح ان هذا العلم لا يخرج ، في عصره ، عما كان عليه في العصور السالفة ، باستثناء بعض ذرائع وطرق جديدة أتبعت في العمليات وفي منتصف القرن الثاني للميلاد توصل الطبيب اليوناني جالينوس البرغامي الى ان يستنبط بعض الوصفات الطبية التي لقيت نجاحاً واطلقت شهرته بعيـــداً في الارض ، بحيث اصبح الطبيب الخـــاص لاواخر اباطرة الاسرة الانطونية . من العسير جداً ان يتمكن المرء من تبيان الاشياء العلمية الجديدة التي ابتكرها . فقد كتب كثيراً ووضع تآليف امتازت بالانسجام بين علم التشريح والنظريات الطبية والطرق العلمية التي اختلفوا نظراً حولها وتباينوا رأياً فيها . فقد كان بما عرف عنه من نبوغ طبي واختصاص ، شأنه في ذلك شأن بطليموس ، آخر عالم أطلعته العصور القديمة . وعلى شاكلة بطليموس ، حالفه الحظ بان ينتقل الى الاجيال الوسطى ، عن طريق المؤلفات التي وضعها بعد ان امن لها مــا أمكن من إتسـاق وانسجام ، هذه الكشوف والابتكارات العلمية التي امكن تحقيقها بفضل ما بذله من جهود طائلة وتقصيات لا تنقطع) فريق من العلماء ظمئت نفوسهم الى المعرفة وجاشت صدورهم بحب الاطلاع ، وهفت عقولهم الى العلم ، فهبطوا موارده في الاجيال السالفة بروح طُلَعَة لم تتم ان خبت شعلتها وكمن نشاطها .

الحقوق

يتضح من خلال الاستعراض العام للنشاط العقلي والفكري في شتى مجالاته ، الدور المتواضع الذي لعبه الكتبة اللاتين في هذا الميدان . فقد حرص الشرق الاغريقي ان يحتفظ لنفسه بالسبق الذي سجله على الغرب ، في هذا المضمار . فالدور الذي قـــام به هؤلاء الكتاب يبرز على اتمه اذا ما أمعنا النظر في بعض العلوم التقنية . فعلم الفلاحـة اللاتينية لا يزال مع فارون ومع زميله الاسباني كولوميل الذي جاء بعده بقليل ، عيالاً على الاساليب والطرائف الهلينية . فالهندسة المعمارية تزداد وضوحاً وواقعية في البحث الاصيل الذي وضعه فتروف حول هذا العلم ، والابحاث الاخرى التي وضعها فرونتون ، والمهندسون الآخرون . ولكن ليس من العدل بشيء ان نقصر على هذه الآثار وحدها حصيلة روما في هذا المجال . فقد استطاع ابناؤها من ان يستنبطوا وان يبتكروا علماً قائماً بذاته .

والمقصود من هذا العلم هو الحقوق . فالطابع الفارق الذي يميز عمل روما في هذا المجـال

ويؤمن لها مرتبة الصدارة هو استعمال اللغة اللاتينية ، دون سواها ، في معاهد ومدارس الحقوق التي فتحت ابوابها في الشرق ، اهمها على الاطلاق واشهرها طراً، المدرسة التي طلعت في بيروت، في مستهل القرن الثالث . ان استعمال اللاتينية دون سواها من اللغات المستعملة في الامبراطورية الرومانية ، كان لا بد منه، في مختلف مراحل القضاء ودرجاته ، اذ ان اللاتينية كانت ، أكثر تهيؤاً من اليونانية ، وأكثر قابلية منها للتعبير عن مفاهيم وافكار قامت في روما، وفيها تحددت وتناسقت . وهذا الواقع لم يحُل مع ذلك ، دون ان يردف الشرقُ العالمَ الروماني وبعده ، منذ منتصف القرن الثاني ، بجمهرة من اعلام الفقهاء والمشرعين ، بينهم : غايّوس ، دون ان يطبعوا الشرع الروماني بطابع الفلسفة . وقد صرف الأخير همه الى توسيع نطاق البحث العلمي في هذا المجال ، وعمل على تطبيق مناهج كانت روما اول من وضع أسسها .

وقد امتازت نخبة من رجال القانون باهتمامها الشديد بأمور القضاء، والاقضية ، التي صدرت عن المحاكم في روما ، كما ان فريقاً منهم عُرف بتضلعه العميق وباستبحاره في هذا العلم فاعتبروا بحق فقهاء *Jurisprudents* أي « حكماء » متضلعين بالحق الروماني. وبهذه الصفة كانوا يتقدمون بالنصح والارشاد، ويفتون في الأمور القضائية التي تعرض عليهم فيتحلّق حولهم اساتذة وطلاب هذا العلم ورواده دون ان يحمل هؤلاء الاساتذة اية شهادة تخصص او دون ان يكون لهم أي عمل رسمي في الادارة الحكومية . وقد تألف من اجتهادات هؤلاء الفقهاء، منذ عهد اوغسطس، مدرستان عُرفت الواحدة منها باسم رئيس كل منها ، هما : السابنيين والبروكوليانيين . وعلينا ان نقر هنا بأن ما كان يباعد اذ ذاك ، بين هذا وذاك، من التيارين المذكورين لم نعد نرى بوضوح ما يبرره الآن. فاذا كان الفريق الاول منها تميز في الاساس ، بقبول النظام الاستبدادي ، أي الامبراطوري ، فلم يبق في القرن الثاني ما يباعد، نظرياً ، بين الفريقين او التيارين المذكورين. وقد عمـد الامبراطور هدريانوس الى تعيين البارزين من مشاهير هاتين المدرستين ، اعضاء في مجلس الامبراطور الخاص ، وكان يحمل من اتفاقهم رأياً واحداً حول موضوع معين ، قانوناً له حق الإلزام . وهكذا برز بوضوح الشأن الكبير الذي مثّله من اصطلحوا على وصفهم بالفقهاء *Jurisconsulles* ، كما برز ما لرأيهم من قيمة قانونية . وهذا الشأن تبلور عن عملية توحيد عامة للحقوق ، اذ نشر هدريانوس ما يُعرف عندهم بـ : القرار الدائم *L'Edit perpétuel* الذي حلّ محل القرارات التي بقيت منذ عهد سحيق، بدون تبدل تقريباً، والتي بموجبها كان القضاة يعلنون لدى مباشرتهم وظائفهم، المبادىء التي يقضون بموجبها . كذلك برز التأثير في تهذيب الحقوق باضفاء العاطفة الانسانية عليها ، وما كان لهذه النزعة من شأن بعيد على التطوير الاجتماعي، اذ ذاك . وفي الاساس من هذا التصرف المزدوج ، أطلّ ظاهرياً مثال واحد انبعث من صميم تعالم الفلسفة الرواقية ، الا وهو استواء الناس في خضوعهم جميعاً لقضاء واحد شامل .

وسيطرق اسماعنا خلال هذين القرنين اسماء عديدة من الفقهاء ورجال القانون واول من وصلنا من بينهم اثر هام، هو غايوس احد معارضي مارك اوريل، ممثلاً بكتابه المعروف *Institues* .
وما ان تميل شمس القرن الثاني للغروب حتى نرى من ألزم مميزات علم الحقوق : التحليل الاصولي،

والدقة والعدالة والمنطق ويأخذا هذا العلم بالازدهار. وهكذا 'يهيء الجو ليشرق في سماء لبنان هذا الاشعاع الحقوقي الذي تمثل في عهد الامبراطور ساويروس ، خير تمثيل باسماء لمعوا عالياً في الفقه الروماني ، أمثال بابليانوس وبولس واولبيانوس . وحري بالتنويه هنا ان هـذا العلم الذي هو من وضع روما، ومن هذه الأشياء التي حملتهـا معها الى الشرق بقي ناشطاً في هذه الحقبة . فساعة الموسوعات القانونية التي في الرجوع اليها غنىً عن البحث والتقصي ، لم تدقّ بعد ، مع انها دقت ، منذ زمن بعيد ، لغيره من المجالات العلمية الاخرى .

٢ - الآداب اللاتينية

لا مشاحة قط ان الآداب اللاتينية اخذت تظهر عليها بوادر الانحطاط غداة عصر اوغسطس. فلم تعد تلسم بهذه الوحدة العميقة الجذور التي تألفت من هذا الاتزان بين العاطفة والعقل، ومن هذا التجانس والانسجام البديعين ، ولا من هذا الجرس الانساني النبرة والصدى ، في ما نقرأه لفرجيل وتيت - ليف، من هذه الآثار الخالدة التي حفظت ذكراها الى الابد.. ولكن ايانا مع ذلك من ان ننبذ جانباً الآثار الخالدة التي خلفتها في هذه الحقبة . فاختلاف النزعات وتباينها ، والاهتمام الزائد بالشكل والمبنى وخفة الروح ، وتأثير الصياغة البيانيـــة والمحسنات اللفظية من انواع المجـــاز والبديع ، كل هذا وما اليه ، يجب الا ينسينا بعض ما فيها من روائع جمة ومقطوعات بديعة .

افراد ، فنون ، مراحل

وهذه النجاحات تحققها الآداب اللاتينية هي، كالمألوف والمتعارف دوماً، انجازات افرادية نوعية . فقد تعددت مناحي العبقرية عند فريق منهم ، وعرفوا ان يبرّزوا في اكثر من فن من الفنون الادبية . ولعـل سنيكا هو خير مثل نضربه على ذلك ، اذ طلع علينا بآثار فلسفية وبابحاث علمية ، كما وضع عدداً من المسرحيات، ورسالة قدح وذم ضد كلوديوس . وتاسيت نفسه كان خطيباً ، مؤرخاً ، واثنوغرافياً ، كما ان بلين الاصغر كان خطيباً مفوهاً ، وكاتب رسائل له شهرته . فقد رأينا بعض هذه الفنون يزدهر فجأة ويشع ثم تنطفىء شعلته ويخبو ضوؤه، كعلم الاخلاق، مع سنيكا، والشعر الملحمي مع لوقين. وعلى عكس ذلك ، لا نجد شيئاً يذكر في الفنون الاخرى كالمسرح مثلاً ، بعد ان أهمل شأنه ، عقب ان حلّت العاب المصارعة وألعاب الاوبرا التعبيرية محله ، بما فيها مسرحيات سنيكا ، التي وضعهـا لتقرأ ، وليس لتُمثل على المسرح .

وفوق هذا كله ، تطل علينا فكرة « تَطوُر » او عهد ، وهي فكرة جديدة ، لا بد منها في مثل هذه الحقبة التي استطالت قرنين بكاملها ، ألّفوا خلالها وكتبوا كثيراً، ووصلنا من هذه الآثار الفكرية الشيء الكثير، بالرغم من ضياع وفقدان جانب كبير منها. فسهولة التعبير التي تميزت بها، لم تحل دون بقائها مبهمة، غامضة، فكانت بالتالي، سبب ارتياب وتشكك للمؤرخين. ولعلها مع ذلك ، تبرز أقل غموضاً وتظهر بوضوح اكبر في تاريخ الادب . ولذا امكن قسمتها من هذه

الزاوية الى ثلاث مراحل او ثلاثة اطوار متباينة ، يتميز الواحد عن الآخر بوضوح .

فالطور الاول يتفق وعهد الاسرة اليوليو ـ كلودية ، وفيه بلغت الآداب اللاتينية الاوج ، لا سيا في عهد ملك كلوديوس ومطلع عهد نيرون . فيه برز سنيكا ولوقين ، وبترون وبيرس . وهذه الحقبة امتاز كتابها : برهافة الحس وتنوعه واتساعه ، ولو جـــاء ذلك على حساب قوة السبك والترابط المنطقي ، في هذا الفوران المزعج الذي أطل علينا من اختلاط الفنون بعضهـا ببعض ، وانطلاق النزعات السياسية نحو واقعية كتافرُ حيناً ، عن جمال رائع ، واحياناً ، عن مظهر قاس متجهم ، قد يبرر وصفها بـ « الرومنطيقية » ، مهما كانت هذه النعوت التي طالما وصفوا بها الحركة الادبية في هذا الطور ، تقريبية ، وبالتالي مقصرة عن اداء التعبير .

ويلي هذا الطور ، طور ثان يمتد فوق اسرتين ، ويوازي عهد دومتيانوس وترايانوس ، فيه حلّق كونتليانوس ومرتيال ، وجوفنال وتاسيت وبلين الاصغر . فالآداب تسبق النضج والتوازن السياسي اللذين ميزا الامبراطورية ، اذ ذاك . فهي تزهر وتزدهر بطلوع كونتليانوس وتجلّيه ، وفي هذا الطور رجعة الادب الى العهد الكلاسيكي ، بعد ان تخفف وتحلل من هذه الطفح والزبد الذي لصق بالادب من قبل . فاذا ما ارتضت الحركة الادبية ، اذ ذاك ، ان تخضع نفسهـــا للانضباط فقد عرفت مع ذلك ، الا تفقد شيئاً من طعمها الدسم ولا من الجرأة التي اتسمت بها .

وبالرغم من ان الامبراطورية بلغت الأوج سياسياً واجتماعياً في عهد الاسرة الانطونية ، فقد انتابت الادب ، اذ ذاك ، اعراض ذبول وتأخر . وأخلق الوجوه الادبية بالذكر والتنويه ، هي اسماء : سويتون ، وابوليه ، وترتليانوس ، وهم عدد ضئيل جداً لعمري ، لفترة امتدت اكثر من ٥٠ سنة ، مع العلم ان سويتون هو رجل ادب اكثر منه رجل فكر وعلم . فقـــد اضفى ، هو وامثاله ، على هذه الحقبة ، مستوى علمياً رفيعاً ، مع العلم ان فضل الاثنين الآخرين يتصل بالادب الديني وبالتعبير عن المشاعر الدينية بصورة مغايرة التعليم الرسمي . والظاهر ان الآداب اللاتينية لم يكن في مقدورها ان تتجدد الا بنسبة ما تتنكر لروما وللفضائل التقليدية التي عرفت بها .

افراد وفنون واطوار : ثلاث نقاط رئيسية على مستوى واحد من الاهمية والقيمة ، في هذا العرض الذي نقوم به والذي يجعله صعباً معقداً ، ما بينها من اختلاف وتباعـــد وتنافر . لنختار واحدة منها ، هي الثانية ، وكلنا أسف ان يضطرنا الاختصار ، الى ترك النقطتين الباقيتين .

الفلسفة

أفلسفة ام خطابة ؟ لا بأس من ان يتردد المرء ويتساءل بمن يبتدىء : بهـــذه او بتلك من الاثنتين . صحيح ان الخطابة هي الميزة التي تطبع بصورة اعمـق ، وبصورة اوسع على كل حال ، العقول والاذهان في هـــذا العصر . ولكن الفلسفة تؤثر بدورها عليهم وتطبع انتاجهم ، كما ان علم التوقيت الخاص بتاريخ الادب يكفي وحده لايلائهـا حق الأولية . فاكبر فيلسوف روماني لمع اسمه في هـــذه الحقبة ، هو الاول ايضاً بين كبار الادباء اللاتين الذين لمع اسمهم بعد عهد اوغسطس : هو الفيلسوس سنيكا . قليلون جداً بين اصحاب

العقول من أوتوا ما أوتي سنيكا من المواهب العقلية ، كما انهم قليلون جداً ، من تم لهم ما تم له من خصب الانتاج الفكري ، وسهولة العمل ويسره ، مكنه من وضع ما وضع ، من آثار فكرية ، مع ان هذا القرطبي ، بعد ان انتقل مع والده الخطيب الى روما ، أضاع فيها جانباً كبيراً من وقته في هذه الحياة الاجتماعية التي استسلم لها . وفي هذه المؤامرات والدسائس التي شهدهـا في البلاط بعد ان عُيّن مهذباً لنيرون ومربياً له ، وفي شؤون الدولة ومهامها السياسية ، بعد ان تربع تلميذه على أريكة الملك . ولعل اسوأ ما نلمسه في انغماسه بهذه الحياة وفي اقباله عليها ، حيـاة سيّرتها ووجهتها فئات اجتماعية ضيقة، لم يظهر ما يدل على انه تعرف الى غيرها ، برهن فيها ، الى جانب الوقت الثمين الذي هدره سدى ، عن وصولية وانتهازية الحذر معها الى درجة الانحطاط الخلقي . فلولا هذا الهدوء والطمأنينة التي تلقّى معها خبر حكم الاعدام يصدره عليـه تلميذه المتوج، الكثير الشكوك والظنون، لاغتظنا كثيراً لهذا التناقض يطالعنا به رجل من بطانة الامبراطور ، اصبح بفضل منصبه من كبار اثرياء زمانه .

فعلم الاخلاق هزّه اكثر من الفلسفة . فلم يتحمس يوماً لعلم المعقولات او علم ماوراء الطبيعة، وقد ابى ان يوضح لنفسه ، العلاقات القائمة بين الالوهية والعالم والانسان ، مقتصراً على المذهب الرواقي الذي صادف من الرواج اذ ذاك، ما اتاح له ان يجد لمدة طويلة، مريدين متحمسين بين المسيحيين انفسهم . والمهم عنده هو علم الاخلاق الذي دعا دوماً الى الاخذ به ، حتى في بحوثه العلمية ، وفي مسرحياته التي حذا فيها حذو يوربيدس ، والى هذا، ان اهم واكثر آثاره الفكرية تتألف من مباحث روعيت فيها قواعد الفن ، او تؤلف مباحث بشكل رسائل الى اصدقائه . وهو يتصرف كأنه معلم ثمة لمن هم من طبقته من سعداء هذا العالم الذين يعانون ، مـع ذلك ، من آلام هذه الدنيـا . فهو يوحي بقبول ما لا سبيل الى تفاديه من شرور هذا العالم بما فيها الموت ، وذلك بمثاليـة ، من بيده مِلاكُ امره ، وبشيء من الحكمـة المدروسة ، على ضوء من التحليل النفساني الدقيق الذي يليق جيداً باسلوبه البياني الآسر وبهذه الطواعيـة الفكرية التي عُرف بها .

وهذه المثالية ، التي وضعها نصب عينيه هي ، مِثالية الرواقيين التي لم تكن بعد أطلّت على روما والتي لم يكن تأثيرها قارَب الزوال بعد . وهذه المثالية ، تبرز اكثر تشدداً وقسوة عند بيرس *Perse*، كما تبرز عند لوقين، اشرق بياناً وأكثر وضوحاً . فالفلسفة بمعناها الصحيح ، لا تستأثر بأحد من مفكري اللاتين في هذه الحقبة ، والوحيد من يخصص لها، بين هؤلاء المفكرين، ثلاثة أو أربعة كراريس، هو أبوليه ، تناول فيها بالبحث ، بعض تعاليم الفيثاغوريين أو الفلسفة الارسطوطالية . وهكذا نرى اخلاقية المدرسة الرواقية ، تتفاعل على أقدار تختلف دقة ، في نفوس الكثيرين ، كما توحي ، في القرن الثاني ، ليس فقط الموقف العام الذي يقفه أباطرة هذا العهد ، بل ايضاً بعض القرارات التي اتخذوها . فان كان اسلوب سنيكا البياني ما لبث ان تناساه الناس، فأفكاره بقيت رائجة بعد موته بكثير .

الخطابة

لا شك في ان الخطابة واسلوبهـــا، طبعت الأدب اللاتيني في العهد المتأخر، من الامبراطورية الرومانية اكثر من الفلسفة . فقد أتيح لنا ان نتعرض للحديث عنها سابقاً، وان نتبين ازدهارها، والشوائب التي اعترتها . ولذا يكفينا هنا ان نشير لماماً، الى ابرز من يمثلونها، أقلهم هؤلاء الذين وصلت إلينا آثارهم .

كثيراً مـــا أتينا، في معرض الحديث، على ذكر كونتليانوس، والكتاب الوحيد الذي وصلنا منه، هو : « فن الخطابة »، فيبرز من خلاله، مربياً كبيراً، وعالمـاً سيكولوجياً نبيهاً . فالطفل "مثل" تختلف كلياً عن "مثل الخطيب"، ولذا يحرص على ان يوجهه في كل شيء. فهو يوصيه بالبساطة، وإمام هذه البساطة، يتناول بالنقـد اللاذع، سنيكا ويتهمه بانحراف الذوق، بينما يمتدح عالياً شيشرون وذوقه الرفيـع الذي يجب ان يكون قدوة الطالب وقاعدته . إلا انه لا يحرؤ على شجب التصنيفات، وهذه الأساليب الملتوية التي راجت ايما رواج في عهده، مع انه رأى ولمس لمس اليد التعقيد الذي لحق بصناعة الكتابة، فلم يكن، على مـا عُرف عنه من وجَـــل، بالرجل الذي يكيل الضربات بعنف للتجاوزات المغالية التي وقعت فيها الخطابة، اذ ذاك، بعد ان وقع هو نفسه، تحت اسرها وأخذ بها .

لم ينتهِ النقاش والجدل الصاخب الذي قـــام بين المعاصرين حول التوقيت الزمني لكتاب تاسيت المعنون : « حديث الخطباء »، ومحله من مؤلفاته العديدة . فالكتاب بمـــا فيه من إستدارات بيانية تشبه الى حد بعيد اسلوب شيشرون، هل كان بين اوائل الكتب التي وضعهـا تاسيت، او انـه اختار له هذا الأسلوب الإنشائي الذي يليق بالموضوع ؟ وراح بعضهم يشك في ان يكون الكتاب المذكور من وضع تاسيت . ومهما يكن، فالكتاب هو من وضع ناقد عليك، يعكس كونتليانوس، معنى علم التاريخ . فما غاب عن ذهنه قط ان انحطاط الخطابة يخرج عن نطاق الأدب، وراح يعلل ذلك ويرده الى التطور السياسي والاجتماعي في البلاد اكثر منه لفساد الذوق، وسوء اساليب التربية اذ ذاك.

وكان في مقدور هذه الحقيقة، لو فُهمت على وجهها الصحيح، ان تخفف من الاهتمام بفن تقادم عهده وزال اوانه . الا اننا لا نرى شيئاً من هذا البتة . فقد استمروا طويلاً في البحث بحماسة، شؤون المعجم والانشاء، والجزالة التي تأتي وليدة قناعة: « صارمة »، « عابسة »، « دقيقة »، واستعمال المحسنات اللفظية والاوصاف الدالة على رهافة الذوق: « ناعم »، «مشرق»، وهو جدل انتقل إليهم من الاغريق قديمـــاً، حول الاسلوبين البيانيين المعروفين بـ : الاسلوب « الاتيكي » والاسلوب « الأسيوي » . فالعلم الأتم هو ان يعرف الكاتب ان يستعمل، عند الاقتضاء، الاسلوبين معاً على ما يقتضيه الموضوع والمناسبة العارضة . وقد أريق المداد مدراراً وجزافاً، حول طبيعـة الاسلوب الخطابي واهمية الموضوعات التي يجب معالجتها في المرافعات القضائية او في الخطب التي تلقى في بعض المناسبات العارضة كالحفلات الرسمية . وهكذا نرى

الكثير من الفن المتصنع المزهر يبذل هدراً ولو أضر بالحد الادنى من الشعور العميق الذي لم نعد نرى احداً يتحسس به .

ففي : « رثاء ترايانوس » ليس احد يشك في صدق عاطفة بلين الاصغر ، صاحب هذا الرثاء الذي عُدّ مع تاسيت اكبر خطباء هذا العصر . كان المجتمع الروماني الرفيع يحمل كرهاً شديداً للطاغية الرهيب دومتيانوس كما كان ، على عكس ذلك تماماً ، شديد الاعجاب بخير الملوك وامثلهم على الاطلاق ترايانوس . فقد رأى كيف تحقق على يده ، كما يقول تاسيت ، واقعان برزا متضادين من قبل: الملكية والحرية ، كما ترك لهم « حرية التفكير بما يشاؤون ، والتعبير عن افكارهم كما يريدون » كما راعه ما رأى ، بتأثر بالغ ، من قوة روما وعظمتها ، وممـا من بعض افضاله عليها . وهــذا الرثاء ليس سوى نسخة منقحة ، مزيدة ، « لفعل الشكر » الذي رفعه بلين للامبراطور ، عملاً بالعرف المعمول به ، اذ ذاك ، عندما رقاه قنصلاً ، في غرة ايلول سنة ١٠٠ ، وقد اتاح هذا التعديل للخطاب إضافة ما لا بد من اضافته من المحسنات الشعرية ، وما فيهـا من اماديح وعبارات تفخيم أضعفت ما فيه من عاطفة مخلصة مشبوبة . ومما لا شك فيه قط ان رسائله التي أدخلت عليها بعض التعديلات لتصلح للنشر ، تحمل الكثير من سحر البيان ورشاقة التعبير ، وان كانت دون رسائل شيشرون بداهة وطبعية ، بالرغم ممـا يدعيه بلين نفسه بانه كفء عدل لشيشرون . فقد كان الافراط في تمهد الاثر الأدبي ، أبداً مفسدة له ، كما ان الافراط في الثقافة يسيء احياناً الى رهافة الذوق .

فالتاريخ القديم لم ير ، على كل حال ، في هــذا كله سوى فضائل وحسنات ، وعلى نسبة الشهرة التي تمتع بها فرونتون في عهد مارك اوريل ، برهنت الشهرة التي تمتع بها بلين الاصغر ، ما كان عليه وما صار اليه ، الذوق العام اذ ذاك . و « رثاء ترايانوس » امكن حفظه وصيانته لانه كان نموذجاً لفن ادبي راج كل الرواج في العهود التالية : فقد جاء الاول في مجموعة من ١١ رثاء ، قيلت في عدد من الاباطرة حتى اواخر القرن الثالث وبدء القرن الرابع ، فكونت مجموعة من قطوف الخطب اللاتينية القائمة على اساس تاريخي . وكم يحدث ان يجد التاريخ مصلحته في الكثير من هذه المحسنات اللفظية التي عُمل بها اذ ذاك ؟

الشعر المثقف هو من عرف ان يضع خطاباً وفقاً للاصول ، كما هو من عرف ان يقرض الشعر وينظم القصائد . ومثل هذه الرياضة العقلية اقبل عليها كثيرون وحاولوا ان يتقنوها . وهذا المران على القريض والتمرس به من عهد التلمذة ، يفسر لنا كيف ان كثيراً من الاساليب ، والالفاظ الشعرية والصور البيانية جرت على اقلام الكتاب والسنتهم في النثر . غير ان صناعة الشعر كانت أبعد من ان تموت أو تضمحل ، ولذا لاتزال آثار شعرية كثيرة تلفت النظر وتستأثر بالخاطر ، في هذا الانتاج الادبي الضخم الذي ليس كل ما فيه خليق بالحفاوة . وهذه المسرحيات التي وضعها سنيكا واتخذ مادتها ، ليس من الاسطورة رأساً ، بل من الآثار الفكرية اليونانية الفنية ، والبس شخوصها لبوساً هي من نسيج خياله الفلسفي ، تتناوح بين سماجة الذوق

والجزالة ، وفخامة الاحداث التمثيلية والمواقف المؤثرة ، ورقص الاموات المرعب والرشاقة الناعمة ، وضغط العاطفة الرواقية ودقة التحليل السيكولوجي ، والاستدارات البيانية والوصفية الطويلة ومتانة السبك والحبك. وبالاجمال كل هذه المتناقضات او بالاحرى هذه الفروق وغيرها من المفارقات التي تتسم بها هذه المآسي ، ساعدت بالفعل كورناي على ان يفيد من بعض التغييرات التي ادخلها (سنيكا) على آثار يوربيدس .

وعندما قتل ابن اخته لوقين ، وهو ابن ٢٦ سنة تنفيذاً للحكم بالاعدام صدر عليه من نيرون ، فقد كان كتب وألف كثيراً . فلم يبق لدينا منه سوى ملحمته : « فرسال » ، دهمه الموت قبل ان يكملها ، وهي ملحمة تدور حول الحرب الاهلية في عهد قيصر ، وقد امتدح فيها ، بعد ان فقد كل حظوة لدى الامبراطورية ، بمبيوس وانصاره ، ولا سيما كاتون عوتيقة ، كما راح يتغنى ، بعد ان اطلق العنان لحقده ، بالنظام الجمهوري الذي عاشت البلاد في ظله قروناً عديدة . فللموضوع عظمته وجلاله . وقد عرف لوقين ان يحافظ على هذه العظمة ويصونها ، اذ جعل الآلهة تتحمس لحروب البشر وتشارك في معاركهم . فقد كانت معلوماته كذلك على جانب من الصحة والدقة . فاذا ما قنع باليسير من سيكولوجية الفرد والغوص في أغوار النفس ، فقد اظهر من جهة اخرى تفهماً صحيحاً لتفاعل العوامل التاريخية المشتركة . ولذا راحوا يلومونه بمعالجة موضوعه بصورة زقاقية ، اي خالية من عنصر الجمال والسمو ، وبذلك قد يكون خان فرجيل وابتعد عنه عندما اطلق العنان لانفعالاته الشخصية باندفاع شديد ، بعد ان استسلم لخيلة جامحة تستبد بالخواطر حتى في ما طلعت به من غريب او مخيف . فيله الخطابة ، ومحاولته التأثير بأفانينها وألاعيبها واساليبها البياني يكشف عن مبلغ تأثره باساتذته من علماء البيان والخطابة . وقد عرف مع ذلك ان يتفادى اسوأ نواقصهم الا وهو تقليدهم الاعمى لمناهج الكلاسيكية .

كذلك عرف ان يتفادى هذه النقيصة ، ثلاثة آخرون من كبار شعراء هذا العهد ، مع الاعتذار الى ستاس ، اذ لا يمكن ان ننسى رواياته « المرتجلة ، *Silvae* » ان لم يكن ملاحمه ، ولا الاشياء الجديدة التي طلع علينا بها . فاذا كان الأدب اللاتيني لم يجهل منذ لوكيليوس وهوراتيوس المنحى الواقعي ولا الهجو ، فقد أتيح لهؤلاء الثلاثة ان يعالجوا هذه الفنون بجرأة ظاهرة ، وحماسة قوية جديرة بالانتباه .

كان بَيْرس معاصراً للوقين ، ومثله توفي وهو في شرخ الشباب ومَيْعة العمر . فقد عالج الهجاء واتخذ منه أداة التعبير عن خوالجه ، والتفريج عن ضواغط نفسه . من هذه الضواغط التي كشف عنها ، التقزز الذي سببه لمُثُله الرواقية ، مشهد المجتمع القائم . فقد عبّر عن شعوره بصراحة تامة ، دون مداورة او مداراة لأحد : لأهل القلم ، والشعب ، والاشراف النبلاء ، حتى وللامبراطور نيرون ، الذي ورّى عنه وألمح اليه باسم ألقيبياذيس. وقد قال ما قال ، بشيء من صلابة العقيدة ، دون ان يكترث او ان يهتم بحسن الاسلوب ، بل على عكس ذلك ، أراده جافاً ، قاسياً ، وعلى شيء من الغموض ، بعد ان يترك القارىء تحت وطأة المشاهد الجارحة التي رسمها بما هي عليه من واقعية وعري .

اما مارتيال فلم يكن تم له شيء من هذا النقاء الادبي ولا من هـذا المنف ، وعلى عكس ذلك، فقد رموه بالملق والتدليس والتزلف الى النبلاء، والامبراطور، حتى ولو كان دومتيانوس، فلم يرض ان يكشف عن أسماء من تناولهم بالنقد . فاذا كان هذا المتسوّل اللجوج الذي لا يكلّ ولا يملّ، ممنب الضمير لوضعه مثل هذه الروايات التي وضع ، وضَفْره مثل هذه الأماديح التي يمجّها الذوق السليم ، فهو مع ذلـك خير من يمثل وخير من يعالج فن القصائد اللاذعة والاهاجي القارصة . وهي ، على الغالب مقطوعات شعرية وجـيزة ، مقتضبة كالمتاد ، انما تتضح بالهزء والسخرية اللاذعة . وها نحن نراه يبذل أقصى ما أوتي من حِذق ومقدرة، ليطلع علينا بالكلمة الجارحة التي تنفذ الى الصميم فتجرح وتدمي . فقد كان أكثر من هازىء او ساخر متهكم . فقد رمى ، بما تمّ له من روح ساخرة ومن دقة في التعبير لا بد منها في الهجاء، الى« أن تتعرف الحياة الى ذاتها وان تتطلع الى ما انحدرت اليه الاخلاق » . ولذا تسلح بالملاحظة الدقيقـة الناعمة . فالسرعة التي يرسم بها الصورة البشعة التي ارادها، ويصور لنا فيه شخوصه تنبض وتتحرك وتعمل بحيث تبعث فينا الضحك، وابراز ما يلبسه فيها من عيوب ومساوىء طبيعية او اخلاقية نمّى كثيراً معلوماتنا حول مظاهر الحياة الخارجية عند الرومان في ما تحيّز منها وبرز. إلا انه اقتصر دوماً على القسمات البرانيـة للمشهد او للشخص الذي يستحضره امامنا ، ويهتم بما فيه وله من عورات ونواقص خارجية ، أكثر مما يهتم بالأشياء الاخرى الحرية بالذكر والتنويه ، بحيث لا يستطيع المرء إلا الشعور بالاسف لأنه لم يهتم لنفوس الناس إلا بقدر ما يعتورها من صغائر ودناءات ، او ما تتصرف اليه من سفاسف هذه الحياة .

اما صديقه جوفنال ، فقـد أوتي على شاكلته ، قوة غريبة على الاستحضار ، فلم يتراجع ، هو الآخر ، امام ما وقعت نواظره على مخـازٍ من العري والصلَف . فقد كان أطول منه نفساً، وهذا الطول في قصائده الهجائية مكّنه من ان يتجاوز بعيداً ، هذه المشاهد الصغيرة التي رسمها مارتيال . أوتي من عمق النظر ونفاذ البصر ما لم يتم بعضه للآخر . فمن الغلو ان نقف مشدوهين حيال شجاعته . فمهما بلغ من تفكيره ، فلن يذهب به بسط اليد الى تدليس مارتيال وتملقاته . فالذي هاجمهم وسامهم بأسمائهم قوم زالوا وأصبحوا في عداد الموتى ، فلم يكن ليخشى شراً من الاخذ بتلابيب دومتيانوس مثلاً ، بعد ان طلعت على العرش أسرة جديدة راحت ترمي سابقتها بالاوحال . ومهما يكن ، فالسخرية الفكهة لا تهمه بقدر ما تهمه الثورة . وكلمته المأثورة لا تزال على كل شفة ولسان : « فاذا ما رفضت الطبيعة انطلق السخط شعراً » . فكلمة « سخط » هنا لا تفي بالغرض ، فهي ضعيفة ، ليس لها من القوة ما يجب . فهو الحقد ، حقد رجل ، عاش على مقربة من متوسطي الحال ، ضد اغنياء قلما فقهوا للاحسان معنىً ، او بالاحرى ، مسكين ، قليل العطاء ، اذ لم يُعْرف عنه انه حمل يوماً بين ضلوعه حباً للفقراء او كنّ لهم شيئاً من هذا ، حقد مُعْجَبٍ بالماضي بعد الذي رأى وشهد من انحدار الاخلاق وتفسخها ، حقد مواطن روماني، عمُرَ قلبه بحب الوطن ضد هذا اللمم من هؤلاء الأغارقة، وهذا الشتيت من المشارقة تغص بهم شوارع روما وأحياؤها . لم تكن هذه النبرة لعمري ، وهذه المواضيع بجديدة . غير ان

«الطبيعة» أي النبوغ، شيطان الشعر هذا، لن يبخل عليه بشعر كالحم، لاذع، لاسع، زاده المران والبيان وضوحاً ، وحرافة . وفخامة ، أضف الى ذلك لساناً ذرباً ، ولغة غنية ، عامرة ، قوية، ملوّنة في خدمة خيال مجنح جموح ، خصب ، لا يلين . وكثيراً ما سلّط هذا اللسان السليط ، الحديد، ما يعيدنا بالذاكرة الى هيغو، في ديوانه *Les Châtiments* . فالشعر اللاتيني، بعد جوفنال ، لن يجود بشيء يستحق الذكر : فقد أغناه وأخصبه . فكفى بذلك اثراً له .

فن الرواية

اذا كان الشعر اقوى تعبيراً عن مشاعر الغضب ، فالنثر ، من جهته ، أطوع على تصوير الحياة في واقعها المتحيز في الزمان والمكان . واذا كان سبق الكتبة الهلينيين ان استعملوا في رواياتهم شخوصاً لا وجود لهم الا في الخيال ، فالقصص التي وضعوها ، انما هدفت التسلية والتفريج، بعد ان اضفوا عليها من نسيج الخيال والوصف الأخاذ ما يشيع البهجة والسرور في النفس . وهكذا لم يلبث الكتبة اللاتين ان كشفوا في فن الرواية ، عن طاقـــات جديدة وقدرات في حبك الرواية وسوقها كان للخيال في ذلك بشأن واي شأن .

لمن بين الآثار الادبية الاقرب الى الرواية الواقعية مما طلع به الكتاب في التاريخ القديم ، الرواية المسماة: «ساتيريكون» التي وصلنا منها بعض نتف ، وقد وضعها الروائي الروماني بترون احد المقربين الى نيرون ، والذي يروي لنــا تاسيت (تكيتوس) خبر انتحاره ، بشكل يتفق تماماً وما اشتهر عنه من ظُرْف . وهذه المقطوعات تفيض بالتعليقات الادبية ، وتتعرض بنوع خاص لفن الملاحم واورد فيها مقتطفات شعرية ، منها واحد ، لا ندري ما الغرض منه ، أهو نقد لوقين او نقد لخصومه — اعاد فيه النشيد الاول من ملحمة فرسال ، بعبارة فرجيلية تمور بالميثولوجيا والحكايات الاسطورية . ولا يخفي من جهة اخرى ، رغبته في التهكم : فهو من نعومة الخلق بحيث اذا رأى الا ّ يقص الأمور على واقعها ، فلا يتورع ، مع ذلك من اللجوء الى التصوير الهزلي الصارخ ، فالفن الروائي يبقى معه والحالة هذه ، فناً كثير التشابك والتداخل . والصفة البارزة التي تتسم بها آثاره العلمية تقوم في سهولة السرد التي تمت القاص ، كما تقوم في هذه الاضواء الكاشفة التي يسلطها على شخوصه فيبرزون في عوراتهم المضحكة المبكية ، او في هذه الزقاقيـة التي يبدون عليها، وفقاً للمواقف والاوضاع التي يهيؤها لهم. وهذا الكاتب الدنيوي الذي عُرف بقدرته على الكشف والتحليل ، استطاع ان يلاحظ اشياء كثيرة خارج الجو الذي عاش فيـــه واحاق به ، حتى بين ثنايا الطبقات الاجتماعية السفلى . فمن الطبيعي جداً ان يتناول بالتهكم الساخر : هذا الفريق من حديثي النعمة الذين وصلوا الى الغنى في غفلة من الدهر ، فراحوا يسخّرون بوقاحة ، ما أوتوه من ثروة وثراء ، التنعم بلذائذ الطبقة الاجتماعية العليا ، على مثال بطل روايته المدعو تريملكيون ، احد هؤلاء المتفاء الاثرياء ، الذي تكوّن « مأدبته » العامرة ، خير الوان هذه الرواية ، على الاطلاق . فقد اضفى عليه من زهو الألوان ومن يمزج الوصف ما يحمل على الهزل والتهريج، ينطلق من كلامه وأقواله، وحركاته وسكناته . وهذا المزاح يضفي على الحقيقة سمات تتجاوز بكثير المعقول او المحتمل ، تجعل من بترون ، بالفعل المبدع الاول لصورة « حديث النعمة » .

اما الواقعية في الادب فتَمَثّلت ، في بعض المناسبات، بالكاتب الافريقي أبوليه الذي قضى معظم حياته الادبية ونشاطه العارم ، في مدينة قرطاجة، في النصف الثاني من القرن الثاني . فقد ترك لنا هذا المحاضر المتعدد الاثر ، انتاجاً متنوعاً ، خصباً ، وضع بعضه باللغة اليونانيـة ، كما يبدو لنا ذلك واضحاً من بعض النماذج التي وصلت إلينا منه . وأشهر مؤلفاته وامثلها على الاطلاق هي الرواية التي وصلت إلينا تحت اسماء مختلفة : التحول *Métamorphoses* والحمار الذهبي ، ولوكيوس . فهو يقص فيها علينا الحوادث والاختبارات والمشاهدات التي تمت لشاب استحال حماراً لدى استعماله مرهماً اخذه من يد ساحرة ، واستطاع بعـد فترة طويلة ان يسترجع شكله الاول ، بفضل تدخل الإلهة ايزيس التي نصحته بأكل نوع معين من الورد . وهذه القصة المليئة بالغرائب والعجائب ، ذات المبنى المتخلخل والتي تحتل فيها قصة : « الحب وبسيشه » اكثر من ربع حجمها ، تفيض بالاقاصيص الماجنة وبأقذع التعابير ، كما تفيض بحكايات قطاع الطرق وشذاذ الآفاق ، والمآسي الغرامية والهزلية من كل نوع وجنس ، نسجت مادتهـا من كثير من القصص اليوناني القديم ليس من السهل علينا تبيين خيوطها ، كما كانت بدورهـا معيناً، ورده كثيرون من واضعي الحكايات بينهم لافونتين في مجموعته *Contes* . وقد اضفى عليها مؤلفهـا ثوباً فضفاضاً من اللغة والبيان افقدها شيئاً من قيمتها لما شابها من التصنع والتحذلق . غير ان وصفه لمشاهد الحياة الشعبية في الريف والمدن الصغيرة القائمة في الولايات يبعث في النفس السرور والحبور . ومع ذلك فهذا كله ليس بشيء يذكر امام هذا الشريط من المشاهـد الدينية الذي امامنا في الجزء الاخير من روايته هذه ، حيث يستسلم ابوليه ، بعبارة تفيض حرارة وحماسة ، لشطحات من الرمزية والتقوى والخشوع لا ترتبط بشيء باجزاء الكتاب ، سوى انها تدور حول بطل الرواية . فالصفحات التي حبرها والتي تلقي بعض الاضواء على مؤلفاته الاخرى، لا مثيل لها في الادب اللاتيني الذي تقدمه . كل ذلك ساهم على جعل روايته هذه *Métamorphoses* من بواكر الادب الواقعي تنطق عالياً بهذا القلق ، وبهذه الآمال ، وبهذه الاعراف والعادات التي تلازم دوماً الآثار الفكرية الخيالية التي صدرت عن الشرق .

التاريخ

هنالك مناهج واساليب عديدة لكتابة التاريخ وتدوينه . ورغبة منهم في توجيه التاريخ نحو النقد، حاول بعض كتاب الاغريق من العصر الهليني ان يفصلوا التاريخ عن الادب . وهذا المنهج التاريخي قد يكون نال رضى اصحاب المنهب الواقعي الذي تميز بـه الرومان ، لو ان الروح العلمية التي تعتبـر الاستبحار في العلم (*Erudition*) ، مظهراً من مظاهرها المقرّدة ، عرفت ان تزيد هذا المنهج قوة واندفاعاً او ان تحافظ على مستواه . ولكن لم يحدث شيء من هذا قط . فالاهتمام بالتاريخ كعلم بقي على قوته ، ولكن لأسباب بعيدة عـن الرغبة في الاطلاع ، كهذه المؤلفات العديدة ، يضعها وفقاً للاسلوب الهليني ، اشخاص مـن الصف الاول ، من بينهم اباطرة امثال اغريبين واللدة نيرون ، او امبراطور كهدريانوس صاحب المذكرات ، فقد أوحت بهـا اعتبارات سياسية وأخلاقية . وهكذا يبقى التاريخ قطاعاً من

قطاعات الادب . وبما هو أكثر من ذلك ، فالكاتب اللاتيني الذي يعلو اسمه باقي الأسماء من بين المؤرخين اللاتين ، بجعل التاريخ هوايته المفضلة ومسلكه المحبب ، هو تاسيت او تكيتوس .

بينه وبين تيت – ليف من كتاب اللاتين ، كثيرون تفرغوا لهذا العلم وانقطعوا له . وقد فُقِدَت معظم مؤلفات أكثرهم ولم يصلنا منها شيء خليق بالذكر . والذي وصلنا ليس له كبير شأن . « فتاريخ الاسكندر » المنسوب الى كوانت – كورس يثير مشكلة تتصل بصميم تاريخ الادب . وراح بعضهم ، امام جهلهم التـــام لهذا الكاتب ، يردّونه الى اواخر القرن الرابع . فالافتراض الذي يجعل منه معاصراً للامبراطور كلوديوس لا يستند إلا على اقتنـــاع شخصي . كذلك يثير هذا الكاتب قضية اخرى تتعلق بالأدب . ففي الوقت الذي يُشنّع فيه المؤرخون الكلام على كوانت – كورس ، نرى بعض مؤرخي الادب اللاتيني ، يكنّون له ، بعكس اولئك ، بعض التقدير . فاذا ما اخذت بقراءته ، فلا يعتريك أي حس بالملل ، إلا عندما يأخذ بايراد بعض الخطب التي لها اول وليس لهـا آخر . يرضينا منه هذا الحس بالفراغ يحدثه فينا ، بسبب أسماء الاشخاص التي يذكرها ، والاخـــلاق التي يروح يصفها . فشخصية الاسكندر تتحرك سيكولوجياً امامنا بصورة مشوقة . والحزّ النفس ان كل هذه العوالم التي يحركها امامنا لا تنهض على سند تاريخي يخلو من الشك ، كما انـــه ينبذ جانباً ويهمل كلياً ، بصورة منهجية ، جذرية ، العنصر الآخر ، الذي يتوفر ، مع ذلك . فلِمَ لم يضع لنا ، والحالة هذه ، رواية واضحة؟

فاذا كان كوانت – كورس لا يعني غير اسم وكتاب ، فتاسيت (تكتوس) ، معروف لدينا جيداً بفضل الانوار الكاشفة التي تلقيها مؤلفاته . اقبل على كتابة التاريخ ومعالجة قضاياه وهو في الاربعين من عمره ، بعد ان كان عنى ، من قبل ، بتحصيل الخطابة والبلاغة التي تركت فيه طابعها ، مع ان اسلوبه وانشاءه بعيدان كل البعد عن التفخيم والاستطرادات البيانية . أحبّ الخُطَب فذكر الكثير منها في كتابه ، عدا عن تلك التي نحتها من وحي الخيال ، كهذه التمارين التي يقوم بها الطلاب . من ذلك مثلاً ، إثباته مرافعة الامبراطور كلوديوس امام مجلس الشيوخ بشأن طلب الغاليين قبولهم في وظائف الحكام والقضاة ، معتمداً في الاساس ، على نص الخطاب الاصيل ، فتوسّع فيه كما شاء له خياله . كذلـك أفاده تمرسه الطويل بشؤون الخطابة في صقل أحاسيسه وتهذيب مشاعره الشخصية فترك لها العنان واطلقها على السجية . ان أكثر الخطباء ابتذالاً لم يستطيعوا ، بعد ان أخذوا بسمو عواطفه ، إلا ان يشددوا على ما تحلى به من الصفات الاصيلة ، من ذوق مرهف في التحليل الادبي ، والرغبة في الإعراب عن التشاؤم الذي سيطر عليه ، حتى باهتمامه بهذا العالم البربري الذي جهلوا عنه كل شيء ، مع انه عالم له جلالاته مهما خشن ، فاضلٌ لابتعاده عن هذه الحضارة الفاسدة المنحلة ، وفيها كل الخطر على روما المتحللة .

هنالك عوامل أخرى أثّرت على تفكيره وروحه ، يرجع أكثرها لهذه الاضطرابات التي سببتها تصرفات دوميتيانوس فسببت هلاكه فنجم عنها هـذا التحالف الذي تم عقده بين مجلس الشيوخ وبين ممثلي الأسرة الانطونية ، فقد قوّى فيه هذا كله الشعور بصدق اخلاصه واندفاعه

في المصلحة العامة، والامتعاض الذي اعتراه من مشاهدة هذا التناقض بين المثالية والواقع المتحيز. كذلك، تم له الاطلاع على بعض القضايا العامة وما كان لها من ردة شعورية في النفوس. فقد تألم في قرارة نفسه كثيراً، من أمور لا تتعلق به شخصياً ولا بأقاربه او أنسبائه بشيء، بل به، باعتباره عضواً في مجلس الشيوخ ومواطناً رومانياً. فقد رغب ان يفهم ويدرك، وان يجعل غيره يدرك ويفهم ايضاً، بعد ان أمّن الامبراطور «نروه» وترايانوس من بعده، حرية الكتابة والكلام لمن يروم الكتابة عن الماضي ويؤرخ له. وهكذا قرر ان ينقطع لكتابة التاريخ وان ينصرف للتحري والتقصّي، أكثر فأكثر، وجمع المعلومات التي يرغب فيها. فابتدأ عمله بالترجمة لحميه أغريكولا، ثم عقد بحثاً مستفيضاً حول جرمانيا من الوجهة الجغرافية والاثنوغرافية، ثم انصرف الى وضع مؤلفاته الكبرى: «التواريخ» و«الحوليات» التي لم تصلنا بكل أسف، كاملة، والتي أرّخ فيها الحقبة الواقعة بين موت نيرون وطلوع الأسرة الفلاقية، ثم انصرف لمعالجة الحقبة السابقة الممتدة من تبوء طيباريوس أريكة العرش. وقد اعرب هو نفسه عن رغبته بالسير القهقرى الى الوراء، إلا ان الوقت لم يتوفر لإكمال بحثه من التأريخ لعهد اوغسطس. وعندما راح يعلن عن رغبته في ان يترك التأريخ للحقبة التي عايشها، للوقت الذي يبلغ فيه سن الكهولة، فكأن به أراد ان يتخلص بلباقة، من تلبية طلبات ورغبات جاءت من فوق. فقد همّه كمؤرخ يحترم نفسه، ان يعبر عن آرائه بحرية تامة، كما رأى نفسه مضطراً، من جهة أخرى، للتوسع بالرجوع الى المصادر والمراجع الأصلية، للوقوف جلياً على بواطن الامور، ودوافعها الدفينة، ومسبباتها.

كان مفهومه التاريخ، وطريقة الأخذ به، يؤلف، من الوجهة العلمية المنهجية، ومن ناحية اصول كتابة التاريخ، تقهقراً، بالنسبة لبعض مؤرخي اليونان، أمثال ثوقيذيذس وبوليب. فقد استقى معلوماته من أفواه معاصريه والتقليد المتواتر على ألسنة الناس، وذلك بالرجوع الى آثار ومذكرات من سلفه، والوثائق والأوراق الرسمية، التي كان في مقدوره الاستفادة منها. فنحن أعجز من أن نتبين اليوم، المدى الذي بلغته تحقيقاته العلمية، والعناية التي وفرها لها وأحاطها بها، وكلاهما جدير بالتقدير والثناء. ولعل الشيء الوحيد الذي نأخذه عليه في جمعه معلوماته: هو قِصَر نظره، اذ انه اقتصر، في جمعها على حاشية الامبراطور وبطانته، وعلى ما تلبّد به جو مجلس الشيوخ وروما من شؤون وشجون. فلم يهتم كثيراً بأمر الولايات ولا بأمر الجيش الا بالقدر الذي كانت امورها، مداراً ضيقاً للبحث في قاعات مجلس الشيوخ وموضوع مناقشاته. فادارة الامبراطورية الرومانية والحياة في أرجاء هذه الامبراطورية، تختلف تماماً عما ارتسم من صورها في ذهن اعضاء مجلس الشيوخ. فالبحث الذي اقتضته معرفة هذه الامور لم يجر بأكمله، والارجح انه لم يستفد كثيراً من الأسفار والاتصالات العديدة، والاقامة احياناً في الريف مما كان يقوم به بوصفه عضواً في مجلس الشيوخ. كذلك لا بد من بعض التحفظ لجهة الطريقة التي استخدم معها هذه المصادر. ولكي يستطيع التمييز والانتقاء بين عدة روايات

مختلفة كان عليه ان يختار بينها، راح يستعمل بنجاح، مقياساً لها،ما هو محتمل الوقوع او الحدوث.
وقلما نراه يحاسب ذاته في تقويمه المصاعب التي تعترض بحثه ، الامر الذي يثير فينا شيئاً من القلق والاضطراب . ففي تعليله وتفسيره التطورات والاحداث التاريخية التي استعرض لها ، يترك بعض الحلول للقضاء والقدر ، ويعزو الحل الى شيء من تدبير الآلهة . فاذا ما كان في عقائده الدينية وتصديقاته الايمانية ، بارداً جامداً، فموقفه هذا يعكس موقف الدولة الرسمي ، مشوباً بشيء من النزعة الفلسفية . فقد عوّل في بعض التعليلات التي طلع بها على طوالع الغيب والقول بالاعاجيب . ولعل ما هو اهم من هذا كله ، فلم نر انه التزم دوماً ، كما يدعي ، جانب النَصَفَة . فقد كان له من الاباء ، ما صانه عن المصانعة والكذب ، حتى ما جاء او اندس تحت قلمه ، من باب الاهمال ، والاحكام التي اصدرها على الافراد والملك والدولة ، صدرت كلها عما رسم لنفسه من مُثُل ، وهي احكام صادقة لا يشوبها ، على الاجمال ، الغرض او العاطفة ، فلا تلبث ان تبرز بعد صدورها والتعبير عنها ، على غير ظاهر الأمور .

ولكي نضعه في الصف الاول بين كبار الأدباء ، ليس في روما الامبراطورية فحسب ، بل ايضاً في كل البلدان والازمان ، علينا إن نلقي نظرة متمليّة على ما أوتي من معرفة نادرة لأغوار النفس البشرية ، وما تم له من فن ، كمؤرخ ومؤلف ، اذ لم يعدله ، في الاولى ، غير المؤرخ اليوناني توقيديدس ، وان اختلفا وتباينا منهجاً ونتائج . فقد راح توقيديدس يحلل الأهداف والآمال والمخاوف التي ساورت الاشخاص الذين تكلم عنهم او أرّخ لهم ، كما أخذ بتحليل الحوادث وتعليلها بحيث يدرك القارىء الاوضاع السياسية العارضة ، ويبعث فيه التحرز من الناس دون ان يدع احداً يشعر بأنه يقوّمهم . اما تاسيت ، فقد رأى في التاريخ وسيلة لموعظة الناس وارشادهم: « فقد حاولتُ دوماً ان أبحث عن الاشياء والافكار التي تتصف بالتسامي او بالدناءة، وانا وطيد الاعتقاد بأن الغرض من التاريخ الا تُغمط الفضائل والا يُزهد بها ، وان يحسب الانسان حساب الاجيال الطالعة ، وان يتبين الضرر والاذى الذي ينجم عن الكلام الفارغ والاعمال الشريرة ». من الغلو الزعم هنا ان محاولته هذه أدت به الى النفور من الناس ومجافاتهم، مع انه عرف بينهم حكماء افاضل ، وشهد لهم بذلك عالياً وهو منشرح الصدر ، وان كانوا قلة ، بحيث ان نفاذ نظرته التحليلية التي لم تكن لتتأنى او لتهادن ، اضفت على تشاؤمه ، حدة أكبر وعمقاً ابعد. ففي سَبْره لنفوس الافراد والجماعات، تقززت نفسه بهول ما وقع عليه بصره او صدم سمعه . فهذه الحقائق المرة من شأنها ان تصدم القارىء اذا لم يتضاعف الكاتب الفنان، بعالم نفساني يُضفي على مشاهداته وعلى المرويات التي سمعها ... لغة جميلة ، وعبارة كريمة ، عصماء ، غنية بالشواهد الادبية والشعرية ، ولو خفض من حدة ما وقعت عليه عينه، او ما اصطكّت له أذناه ، في عبارة مقتضبة وجيزة ، مفتولة العضل ، معجزة المعنى والمبنى . فكل شيء عنده يتضافر ليضفي على عمله الادبي قوة من الاغراء تلقي على القارىء درساً قاسياً يحمله يتشكك بأمر هذه الانسانية ، ما لم يسعفه التفكير فيرجع بالذهن، للزمان والمكان الضيّقين ، في

النطاق الذي عاش فيه هذا المؤرخ وعمل .

بعد تاسيت ، يمكن لنا ان نضرب صفحاً عن ذكر بعض صغار الشأن من كتّاب هـذا العهد ، لنحتفظ من بينهم باسم سويتون لا غير ، الذي عالج نوعاً او فناً آخر من فنون التاريخ، فوصف بالعالِم المتقصّي ، كما اصطلح البعض على تسميته، والشرف الذي ناله من ذلك ، لا يقلل منه ان تعرف ان علمه استأثر بالدرجة الاولى بالنكتة اللاذعة، والتفاصيل السطحية الطفيفةالشأن غالباً ، والملحة التي تثير الغرابة . اشرأب ذهنه بما رُكـّز فيه من فضول وحب الاطلاع ، الى آفاق ومجالات متنوعة : فتناول اللغة ، والصرف والنحو ، والنُظُـم السياسية وعلم الآثار ، وغير ذلك من ابواب العلم . فقد مال لمعالجة فن السِيَر، وانقطع للتراجم الرجال، وأرّخ لكثير من رجالات الادب، ولأباطرة زمانه. وهذه السير التي وصلتنا ، وعددها ١٢ سيرة مختلفة ، تمتد من قيصر الى دومتيانوس . فالوظائف التي شغلها في الديوان الامبراطوري ، في عهد هدريانوس، أتاحت له البحث والتقصي في محفوظات الدولة والمستندات الرسمية والوصول الى وثائق مـن الدرجة الاولى في أصالتها . عُرف بالدقة ، واهتم بضبط الوقائع مجردة عارية ، وعرف ان يجانب الهوى والغرض متنكباً عن المحاباة والاخذ بالوجوه . وكان بعيـداً عن الادعاء الفارغ والغرور ، وتسلح بلغة ناصعة، واضحة ، بسيطة، وحرص على ان يعرض الوقائع، كما هي، جنباً الى جنب ، دون الاهتمام بسوقها على ترتيب زمني ، غير مبالٍ بالفكرة الرئيسية ، بحيث يرسم لنا صورة ، كيفما كانت . وهكذا يتميز في نظرنا عن تاسيت ويكمله من بعض الوجوه . إلا ان كتابة السِيَر والتراجم ليست من صميم علم التاريخ ، والاخذ بهذا الفن من شأنه ان يضعفه . فقد عرف سويتون ان يفيـد شأناً ومنزلة من وضاعة شأن الذين نسجوا على منواله ، وحذوا حذوه ، فراحوا يكتبون تراجمات للأباطرة بعد ترايانوس ثم جمعت في ما بعد ودخلت مجموعتها في الكتاب المسمى *Histoire d'Auguste* .

الخاتمة

يجدر بنا انننهي هذا البحث عن تاريخ الادب اللاتيني في الحقبة الممتدة من وفاة اوغسطس حتى اواخر القرن الثاني، بكلمة مقتضبة عن ترتليانوس، مع ان الفرصة سنحت لخصّه بكلمة وجيزة، في معرض حديثنا عن المسيحية اذ كان الكاتب الذي تصدى للدفاع عنها والنضال دونها . فهو مدين بمـا هو عليه من مقدرة خطابية وجدلية ، لروما ولهذه الحقبة التي عايشها ، ومنها استمد حبه للجدل وحرصه على الدقة القانونية واللهجة الخطابية التي تطبع دفاعه، وهذه الاستدارات البيانية الايقاعية ، وهذه التفخيمات وهذه الاستفهامات . فالشعلة التي تتأجج في صدره لا تمده بسلاح جديد يستعمله ضد خصومه من الوثنيين المشركين، هذه الاساليب الجدلية التي طالما اتخذ منها اداة وعدة . ومع ذلـك فترتليانوس هو كاتب كثيراً ما هاجم الحضارة القديمة : « فأي شيء مشترك بين اثينا والقدس ، وبين الاكاديمية والكنيسة » ؟ . ومهما يكن من أمر هؤلاء الكتاب الذين ناضلوا في سبيل الدفاع عن المسيحية ، وبالرغم من الطابع الثوري

لعقيدتهم ، فهم خريجو معلمي الخطابة والبيان ، تتلمذوا عليهم وقبسوا منهم . فالمسيحية ستفوز بروما ، إلا انها تحذر من قتلها : فتتورع وتتئد .

ولكن الامر لم يصل الى هذا الحد بعد ، ولحن لسنا الا في اواخر القرن الثاني ، وفيه اصبحت روما عاصمة جمة بديعة للادب اللاتيني . وعرفت بعد ما تم لها من ازدهار ، في عصر اوغسطس ، ان تحافظ ، بمدعهود الأسر الامبراطورية الثلاث التي تعاقبت على الحكم ، على هـذا الاشعاع الثقافي ، وان تتفادى الجدب والقحط الادبي . فقد اطلعت عدداً من كبار الكتاب اغنوا تراث اللغة اللاتينية . فضياع الحرية السياسية نهائيـاً لم يقعدهم او يشل منهم النشاط ، كما ان اعجابهم بالماضي لم يحل دون اصالتهم . ومع انه سبق لبعض هؤلاء الكتاب ان نعوا انحطاط الادب في عهدهم ، فعلينا ان نحترز جداً من الاخذ بتذمرات المعاصرين حول تدهور الادب ، وهي شكايات لا بد منها بعد عصر اوغسطس الذهبي .

ليس من يتجرأ ، مع ذلك ، فينكر ، بان الانحطاط ذر بالفعل قرنه ، ولكن ليس بعـد موت اوغسطس رأساً ، بل بعد ذلك بنحو قرن تقريباً ، عند وفاة ترايانوس او عقب ذلـك بقليل ، عند موت المؤرخ الروماني الكبير تاسيت . ولكن لا بد من اشارة عابرة توضح وضع الحركة الفكرية بعض الشيء . فالادب اليوناني ، بعكس الادب اللاتيني يسجل نهضة ادبية جديرة بالملاحظة والتقدير . فالآداب اللاتينية هي وحدها التي تشكو من اعراض هـذا الانحطاط ، ولكن على نسبة ما هي رومانية ، اي تمثل مدينة روما العاصمة ، حيث نشأت وترعرعت .

فاذا ما عرفت هذه المدينة ، مدة طويلة ، ان تجتذب اليها حملة الأقلام ، في الولايات الغربية ، على الاقل ، فقد خسرت شيئاً من منزلتها كعاصمة الفكر في الامبراطورية ، ومناط رحال اهل القلم حيث تختمر الميول الادبية ، وتنضج النوازع الفكرية ، وتبرز الكفـاءات لتعود فتنطلق منها وتشع في جميع الجهات . فالكاتبان اللاتينيان الجديران بالذكر ، في القرن الثاني : ابوليـه وترتليانوس ، ولدا في افريقيا وفيها قضيا معظم سني حياتهما ، ولا سيما في مدينـة قرطاجة . ومما هو اجدر من هذا بالذكر ، هو ان الكاتب الروماني ، الصميم الاصل والمحتدم ، اولو - جيل ، نزح عن روما وجاء وسكن على مقربة من مدينة أثينا . وهكذا ما لبثت روما ان اصبحت من الوجهة الادبية ، مدينة من هذه المدن الحواضر ، لا تتميز كثيراً عن غيرها من الوجهة الفكرية .

كذلك حري بنا ان نلاحظ هنا ان هذه اللامركزية التي اتسمت بها الحركة الفكرية ، برزت في مجالات اخرى . فقد اخذت الولايات تنزع الى اشد اواصرها وروابطهـا الاقتصادية بعضاً ببعض ، دون ان تلوي على روما العاصمة بشيء ، حتى ان اعضاء مجلس الشيوخ انفسهم كانوا يشعرون ، وهم يضطلعون باعباء مسؤولياتهم الادارية ، بشيء من الغصة ، ازدادت مع الوقت ، لفصم علاقاتهم مع الولايات التي ولدوا فيها وترعرعوا في اجوائها . فهل في ربط هـذا الشعور بالحركة اللامركزية التي بدت بوادرها ، ما يلقي ضوءاً على الوضع ؟ قـد يكون ذلك ، اذ ان الجزم والقطع إثباتاً للرأي ، يقتضي له حل بعض الأمور النظرية ، والتوقيت الزمني لما بين هذه

القضايا من ترابط وتماسك بعضها ببعض، اذ كل هذه الأمور تكشف عن تطور عام انطلق بوضوح منذ مطلع القرن الثاني واخذ يتسع ويتضخم مع الزمن .

٣ ـ الآداب اليونانية

منذ هـــذا الانبساط الفكري والتفتح العقلي الذي مر على الشرق ، إثر فتوح الاسكندر ، عرف الشرق الهليني ان يفيد من هذه اللامركزية الادبية التي أخذت بوادرها تدبّ ، هي الاخرى، في الغرب اللاتيني. فقد كان لأثينا منزلة رفيعة، في كل ما يتصل بالادب والفنون الجميلة، او ما يتعلق بتعلم الخطابة والبلاغة والفلسفة . فقد كانت قبلة انظار يؤمها مع رواد المعرفة وطلبة العلم ، كل من جاشت نفسه بالعظائم واشرأب الى العلى، او رغب في ان يستمتع بعشرة هذه المجتمعات التي صَقَلَت منها الانواق وحلت العقول . فقد اتخذ منها داراً ، في النصف الثاني من القرن الاول ، وفي القرن الثاني ، كل من الكتبة والمفكرين ، كالفيلسوف الفيثاغوري ابولونيوس ده تيـان ، القبادوقي الاصل والنشأة ، والخطيب المفوّه ديون الملقب بالذهبي الفم، من مدينة بروس من اعمال مقاطعة بيثينيا ، والمؤرخ اريانوس النيقوميدي، والهجّاء السليط اللساني لوقيانوس السميساطي . وبين هؤلاء من أصهروا في اثينا ، واستوطنوا فيها ودخلوا الوظائف الادارية وتولوا ادارة الاكاديمية امثال امّونيوس المصري الاصل ، كما سكن غيرهم فيها ونالوا حق الرعوية ، ورقّوا الى منصب الاريوباغوس ، امثال فيلوبابوس الكثير البذخ ، وهو حفيد ملك صغير على مقاطعة كوماجين ، جرّده الامبراطور فسبسيانوس من الملك . وهذا الاشعاع الفكري ينطلق من اثينا ، يبرز على أشده في كل من عواصم الشرق الهليني الكبرى: كالاسكندرية وانطاكية ، وأفسس وبرغاموس . زد على ذلك ان الشرق الهليني ، ألّف منطقة ممتازة لفريق من الاساتذة والمحاضرين المتجولين ، ينتقلون من مدينة الى أخرى ، يلقون فيها من الخطب والمحاضرات ويعالجون من الموضوعات ، ما يثير حولهم لَغَطاً، قد ينتهي ببعضهم الى شيء من الشهرة والى بروز كفاءات مخبوءة. وهكذا أمكن للأدب اليوناني ان يزدهر ويحظى ببعض الألق في أماكن مختلفة ، وهي حركة كانت روما وغيرها من حواضر البلاد في الغرب تحفل بها وتشجعها : وهكذا استقطبت روما عدداً من كبار ممثلي الثقافة اليونانية ، في هذا العهد ، امثال: سترابون وديودوروس الصقلي ودنيسيوس الهاليكرناسي ، كما ان الامبراطور فسبسيانوس رحّب احسن ترحيب ، بقدم المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس الى روما، وأنعم عليه بالرعوية الرومانية بعد ان استسلم، عام ٦٧ ، للقوات الرومانية التي قمعت ثورة اليهود بقيادة تيطس . وفي روما وَضَع يوسيفوس تاريخه المعروف عن الشعب اليهودي ، كما أرّخ لثورة اليهود الكبرى التي أخمدها تيطس بالنار والدم .

بين الخطاط ونهضة

هؤلاء الادباء الاربعة الذين ألمعنا الى أسمائهم أعلاه ، كان إشعاعهم ضعيفاً بحيث لا يتمالك المؤرخ ان يرى الثقافة الهلينية ، خلال هذين القرنين، تصاب بالعجز والقصور ، اذ لم تعرف ان تسجل بين حَمَلة الفكر ، اذ ذاك ، من يفضلهم اثراً، بعد ان لم

يحسبوا لقيمتهم الادبية حساباً، في عملية تقويم القيم الفكرية. والصحيح ، انه لا بد من الاعتراف هنا بوضاعة الانتاج الفكري الهليني خلال القسم الاكبر من القرن الاول للمسيح . فالكشف عن الاسباب التي أفضت بالادب الى مثل هذا الوضع الزري ، قضية أخرى ، لا يمكن ردها ، بحال من الأحوال، لهذا الموقف السياسي والاداري المتسم بالحذر وعدم الثقة، يقفه الاباطرة اذ ذاك، من الشرقيين ، الذي لا يمكن ان يجر لوحده الى مثل هذه النتائج .

ووضاعة الانتاج الادبي هذه، اتُخذت ذريعة او ارادة يستار بعض مؤرخي الادب وراءها ليتجاهلوا او ينكروا هذا الانبعاث أو اليقظة الفكرية التي ظهرت بوادرها ، منذ أواخر القرن الاول وشملت القرن الثاني بكامله . فكلمة « إنبعاث » ، الا تبدو هنا ، فضفاضة ، يا ترى ؟ ومها يكن ، فهي الكلمة التي اصطلح مؤرخو الادب على استعمالها تعبيراً منهم عن هـــذه الظاهرة الفكرية ، وان راح لبعض الآخر منهم يُوري عنها بكلمة : ازدهار رجيعي او رجعي . وسواء اكان هذا ام ذاك، فالامر سيان عندنا. فالنشاط العلمي يبذله بطليموس الاسكندري وجالينوس البرغامي ، يصحبه انتاج ادبي أخذت قيمته تبرز اكثر فاكثر وتتضح . ففي الحين الذي اخـــذ الهبوط أو الانحطاط يدب بالآداب اللاتينية ، نرى الآداب اليونانية ، تأخذ من جهتها ، بالاشعاع بعض الشيء . وهذه اليقظة دليل قاطع على انتعاش الحياة في عالم اخذ ، في هذا الوقت بالذات ، عهد الامبراطورية الرومانية يتناصل من أصل اغريقي ، بانتظار الساعة التي يزودها فيها بأباطرة اغريق او متهلينين، ويبعث، الى الغرب ، ما لم تكن سبقت ونشأت فيه من قبل ، بعقائد دينية جديدة . فالتأكيد هنا بان الثقافة الهلينية بقي لها سطو شديد ونفوذ قوي في رومـا ، خلال الامرة الانطونية ، لا يفيد شيئاً . فلم تتمتع هذه الثقافة يوماً في روما ، برعاية وكفالة مثل التي نعمت بها في عهد هدريانوس مثلاً ، الذي كان بثقافته يونانياً اكثر منه رومانياً ، وعندما راح الامبراطور مارك اوريل يحيز بنات افكاره ويسجلها سواداً على بياض ، قرر كتابتها باللغة اليونانيـــة .

بلوتارخوس *Plutarque*

بين رجال الفكر في هذه الحقبة ، لا بد من التنويه عالياً ببلوتارخوس، لانه أسبقهم في الزمن ، ولانه لا يمكن ان نفرق بين المفكر وبين الكاتب الذي كانه هذا الاديب الخصب بعد ان تناول في كتاباته شؤوناً عدة من شؤون الفكر .

ليس أبسط لعمري ولا اكثر وحدة ، من هذا المساق الهادي الذي انتظم سلك حياة هذا السيد الاغريقي ، الرخي البال ، الذي رأى النور في مدينة بيوتيا ، في غرة القرن الأول . فبعد دروس عالية ناجحة في اثينا ، واسفار عديدة القى خلالها محاضرات في الفلسفة الأدبية ، نالت استحسان روما ودوياً بين منتدياتها وصالوناتها الادبية ، استقر ، وهو في الاربعين من عمره ، في وطنه الام ، في اليونان ، الغافية تحت السيطرة الرومانية ، يتولى منصباً ادارياً في مسقط رأسه، ويقوم بوظيفة كهنوتيه في دلفي، يعيش ايامه في عشرة موصولة بين صحبه ورفاقه ، يتناقشون ويتذاكرون ، يتفرغ للكتابة ، ولهذه الاعمال الموكولة اليــه ، مدة اربعين سنة . فساعدت

مناقشاته ومجادلاته مع صحبه وخلانه ، على توضيح افكار هذا الرجل الوادع ؛ وهـذا الحلم الذي استنكف عن ان يستخدم ثقافته العريضة الواسعة، وكفاءاته ككاتب لامع، لتوفير اسباب الشهرة له، فأتته صاغرة طائعة، دونما صخب أو لَجَب، على اجنحة من اعجاب الناس وتقديرهم العالي له .

تقسم مؤلفات بلوتارخوس الى مجموعتين، اطلق مؤرخو الادب على الاول منها نعت: « الآثار الاخلاقية » ضمت ٨٠ بحثاً مختلفاً في موضوعات ادبية شتى ، ساق بعضها احاديث حية ، مرحة ادارها بينه وبين صحبه وخلانه . ومع ان معظم هذه الابحاث تناولت قضايا فلسفية ، أدبية ، دينية ، ، فلا نرى بينها ، مع ذلك ، ما يمكن اعتباره مذهبـاً عقائدياً خاصاً به . افلاطوني النظر والمنهج ، فقد تفاعل ، بعض الشيء ، بتعاليم بعض المقالات الفلسفية الاخرى ، مـا عدا الابيقورية منها . وقد تركت الرواقية فيه بعض اثرها ، مع انه تناولها بالنقد والجرح ، اذ قام بينه وبين هذه الفلسفة ، من الوجهة الدينية ، هوة عميقة الغور ، حالت دون قيام تقارب بينها. ويمكن لنا وصفه بعبارة وضعها هو على لسان احد جلسائه : « هدف الفلسفة اللاهوت » ، واستطاع بما وضع من تفسيرات وشروح رمزية المعنى والمدلول ، ان يوفق بين اهتمامـه بهذه العقائد الشرقية — اذ له بحث يفيض بالمعلومـات الدقيقة حول« ايزيس واوزيريس » — وبين احترامه العميق للطقوس الدينية القديمة في اليونان . وهذه النزعة ينزع بهـا لمحو الوثام ، جعلته بالفعل ، يفيض ، بوصفه مرشداً دينياً ، بنصائح وارشادات تتناوح بين التشديد والتسامح . فقد عرف ، بما تم له من نفس مستقيمة ، صافيـة الاديم ، ان يجانب الضغط القاسي الذي لا يرحم ، وان يعتصم بلهجة كل ما فيها جديد .

اما مجموعته الثانية ، فلنحذر ، في تقويمها ، الاخذ بالشهرة التي اضفتها على: كتاب الابطال ، الثورة الفرنسية . فقد وضع في كتابه هذا ٢٥ زوجاً من السير المتوازية ، اذ يضع تباعاً حيـاة رجل دوليوناني ثم يردفه بحياة روماني . وفي سبيل وضع هذا الكتاب ، لم نره قام لأجله ، بتحريات وتقصيات دقيقة من الدرجة الأولى . فقد راجع ، في هذا السبيل ، كثيراً ، وخير ما وصلت اليه يده في الموضوع، بحيث ان المؤرخ لا يزال يجد فيها اليوم، مادة طيبة له . صحيح انه يتمهل في سرده ، بحيث يورد لنا ملحاً مستظرفة صغيرة ، ودقائق وتفاصيل يرى فيها ما يفرّد الرجل ويميزه ، من خلال عمله او وظيفته . وهذا المرشد الاخلاقي الذي كانه ابداً ، والذي يتخذ له من التاريخ وحده كتاباً، ينتصب امامنا، بلحمه ودمه ، في هذه الملاحظات الشخصية والتعليقات التي يبديها بشيء من الافاضة والاستطراد. فالاستقامة التي اتصف بها تصونه من زيف التاريخ . فهو يرفع ابطاله الى مصاف العظماء ، تقوم مقدرته الحقيقية باشاعة الحياة في شخوصه فينبضون بها بصورة دراماتيكية ، بفضل ما اضفى عليهم من الوان وافياء ، وانوار وظلال . وبفضله استطاعت اجيال متطاولة ، ان تفهم ، كل على هواها، التاريخ القديم حسبا تريده . فاذا ما زينت للبعض نفوسهم ان يروا في هذه الأبطال او العظام ، الفضائل المثالية التي يهفون اليها ،

او ان ترى سيدة ، كمدام رولان ، في هـذه التراجم : « زخرفاً النفوس الكبيرة » ، فليس بلوتارخوس بمسؤول عن ذلك .

خطابة ، تاريخ ، فلسفة

والطريف واللذيذ معاً عند بلوتارخوس ، هو انك لا ترى عنده أي أثر للاسلوب الخطابي إلا ما وضع منها في شرخ الشباب. هذا الاسلوب الذي راج أيما رواج ، هنا في هذا العالم اليوناني ، وهناك ، في العالم اللاتيني ، مع ما رافق ذلـك من جدَل ونقاش بين مختلف التيارات الادبية ومذاهبها ، وان كانت النزعة الاتيكية هي الغالبة ، اذ لم يَحُل تمسك انصار هذه النزعة بالشكليات اللسانية واللفظية ، من تذوقهم الاسلوب البياني الخطابي . بعض هؤلاء الخطباء تبلغ منهم البلاغة ، شهرة واسعة ، فتطير اسماء اصحابها بعيداً ، بينهم مثلاً : ديون ، الذهبي الفم ، الذي ابعده دومتيانوس عن روما ، ثم اعتنق مقالة الرواقيين فراح يدعو لها متنقلاً بين مدينة واخرى ، وايليوس ارستيدس الذي يُعدّ من هؤلاء الكتاب الأسيويين الذين طارت شهرتهم في عهد الأسرة الانطونية ، والذي راح في خطابه : «الى روما» يشيد عالياً بمآتي هذه المدينة الخالدة؛ وهيرودس أتيكوس ، صديق الامبراطور هدريانوس ، ومعلم مارك اوريل ، من نصراء العلم الاغنياء الذي همّه ان يزيّن اثينا وغيرها من المدن اليونانية بأبدع الحلى، ويبني عدداً من المعابد والهياكل . وتراهم ، في القرن الثاني ، يفاخرون مباهين بتسمية أنفسهم : « سفسطائيين » وهي تسمية تكالب افلاطون على تحطيمها وانهاكها . فاذا ما تمت لهم جميعاً هذه المقدرة الخطابية التي عرفها السفسطائيون اثناء حرب البلوبونيز ، وعرفوا ان يثيروا ، على شاكلتهم وأكثر ، الفضول والحماسة ، أينما حاضروا او خطبوا ، نسبة لما كان عليه اهل العصر من تذوق البيان الرفيع والثقافة العامة، فلم يكن في مقدور أي واحد بينهم، باستثناء جورجياس وزملائه، أن يطلع، على اهل زمانه ، بأثر خليق بالذكر، بالفريق الآخر الذي لقّب نفسه بـ « السفسطائية الثانية » ، او ان يحدثوا ثورة روحية.

اما التاريخ ، فلم تكن قسمته ضئزى ، اذ اطلع لنا اريانوس *Arrien* من مدينة نيقوميديا في بثينيا .

فتصل قبادوقيا وحاكمها في عهد هدريانوس ، جاء أرّيانوس ، اثينا ، بعد انتهاء مهمته ، واتخذ منها دار سكنى له ، وانصرف فيها يكتب ويؤلف ، ويضع بضعة ابحاث في موضوعات شتى. وأهم آثاره على الاطلاق: « تاريخ الاسكندر » الذي لم يكفه ان حذا فيه حذو كسينيفون في بساطة الاسلوب والعبارة ، بل راح يسميه كما سمى كسينيفون نفسه كتابه : «اناباز *Anabase* او « الرحلة » . ومن فضله البارز انه عرف ان يفيد كثيراً من هذه المصادر الاصيلة التي رجع اليها — ومعظمها مفقود اليوم — المتعلقة بفتوحات المقدوني الكبير ، هـذه المصادر التي أملها كوانت ـ كورس. والمؤرخان المعاصران له: بوزنياس البريجيت، وأبيانوس الاسكندري اللذان لم يبرهنا قط عن روح نقدية في ما وضعاه من كتب : الاول في الوصف الجغرافي لليونان ، والثاني

في تاريخ حروب روما : مع السمنيين والاسبانيين وقرطاجة . وبعدها بقليل ، يطل علينا ديون كسّيوس ، حفيد ديون الذهبي الفم ، الذي بعد ان نال القنصلية مرتين في عهد اسرة ساويروس، وضع لنا كتابه : « تاريخ الرومان » الذي يمور بالاسلوب الخطابي، مع انه جمع كثيراً من المصادر الاصيلة . ومع هذا ، وبالرغم من التحفظات التي لا بدّ من ابدائها بحق الآثار التي خلفها لنا هؤلاء المؤرخون اليونان ، تجدر الملاحظة هنا ان الكتب التي وضعوها في تاريخ روما ، تَفْضُل بكثير ، هذه التواريخ التي وضعها لها ، معاصرون لهم من مؤرخي اللاتين ، في هذه الحقبة .

فالافكار الفلسفية المنتشرة في جميع أرجاء الامبراطورية الرومانيـة ، هي هلينية الاصل والمنشأ ، ويبقى العالم الروماني يحتل المرتبة الاولى في تمهده لهذه الفلسفيات الدينية . ويكفي ان يُحيل القارىء هنا، على ما ورد بهذا الشأن في البحث المعقود حول الوثنية واليهودية، لندرك لماذا لم تلق الزواقية ، وهي أكثر التعاليم الفلسفية نفوذاً وشيوعاً، من كشف عنها ، في بعض مؤلفات خاصة مهمة الغاية . فقد حفظ اريّانوس في كتابه : « خواطر » *Entretiens* ، وفي كتابه الآخر : « الدليل » *Manuel* ، اللذين لا يخلوان من مقاطع لها سحرها وفتنتها ، اثبتها بوضوح ، هنا وهناك من مظان الكتاب ، حول تعاليم هذا الرقيق القديم ابيكتيتس . وقـد وضع مارك اوريل في « الافكار » وهو المعروف بإنشائه المتقطع المتفاوت – كأنّ به مجرد رؤوس اقلام وضعت على عجل – وهي مفكرة يومية لأحد الاباطرة . فالتعليم واحد هو : الخضوع الاداري العناية الإلهية، التي بدلاً من ان تقضي على نشاط الانسان، تحرّكه وتُوجبه . إلا ان الامبراطور، في ما تم له من مجد وعظمة ، يلاقي من المشقات والعناء في تطبيقه هذه التعاليم ، ما لم يفرض لهذا الرقيق تنفيذه ، من قبل . وهذا لا يعني ان مارك اوريل كانت تعوزه القوة ، انما يبدو عليه انه أكثر تصنعاً ، واقل قسوة ، كما انه اقل وثوقاً بنفسه . وبدون أية شفقة على نفسه ، وببصيرة شحذتها ارادة قوية ، وَضَعَ التكامل النفسي نصب أعينه ، نراه يدوّن شكوكه وعجالتة النفس وكبح ميوله ، ومقاومته للضعف البشري ، ووقوفه في وجه المؤثرات الخارجية التي تجرّب اخراجه عن جادة الحق والرشد. لما من أدب من آداب العالم، وما من أثر فكري بلغ مسامعنا، يشهد بأعلى واحسن ، على هذا الاخلاص الصافي في محاسبة النفس ، عند شخص خليق بالاحترام والحب ، وجدير بأن يشفق عليه لأنه وضع نصب عينيه ، طوعاً واختياراً ، راضياً مرضياً ، بلوغ مثل هذه العظمة .

لوقيانوس *Lucien* لا بد من ان نختم بحثنا هذا بكلمة حول لوقيانوس الذي يحتل مرتبة خاصة . فبين مؤلفي الحقبة الموافقة لعهد الاسرة الانطونية هو اكثر هؤلاء الكتاب فردية ، ولذا يخرج على كل تصنيف وعلى اية صيغة ترابط . فبقدر ما يمكن ان نعتبر رسائل الهجو *Pamphlet* فناً من فنون الادب ، فهو خير من يمثل هـذا الفن ، وخير من اتخذ منه أداة لجلد الآخرين ولنقد الناقدين انفسهم .

سوري الاصل والمحتد من مدينة سميساط، في مقاطعة كوماجين، فقدتأغرق ثقافة وعقيدة،

فبعد ان بلغت شهرته الخطابية أرجاء غاليا ، نراه يقاطع السفسطة ليقيم طويلاً ، في اثينا ، قبل ان يعين لوظيفة ادارية في مصر . فالادب اليوناني مدين له بعدة آثار كتابية ، بعضها رصين ، رزين ، وهي ليست فط بأجودها ولا بافضلها ، والبعض الآخر ، ادب سليط، هازىء ، ساخر، متهكم ، بشكل محاورات ، له منها مجموعة تعرف بـ « محاورات الاموات » . سدد سهام نقده للمذاهب الفلسفية اجمع من خلال نقده للفلاسفة ، فلا تفلت من لسانه شيعة او ملة أو مذهب ، أو مقالة ، حتى الفلسفة الابيقورية والفلسفة الرواقية او الكلبية . فاذا لم يُنر كل مذهب في نفسه الامتعاض والقرف ، فقد يسبب ما يقرب من ذلك إذ ان العقل الفلسفي والروح الدينية هما ، في نظره ، اعدى اعداء المثالية الهلينية على الاطلاق بما يضفيان عليها من رمزية غائمة ، هذه المثالية التي كانت تتمثل بهذا المنطق الجلي ، الواضح المعالم ، الذي كان في نظره، ابرز خصائص الحضارة الاثينائيه ، ومن اطهر سماتها المفرّدة. الا انه على شيء من قصر النظر، اذ فاتته ، على ما يظهر، ملاحظة قوة التجريد التي جاءت تكمل عند أمثل رجال الفكر الاغريق ، في القرن الخامس ق . م ، فلسفة العقليين الجافة . فلم تضعه التربية التي تلقاها ، وجهاً لوجه امام مشكلات العلم وقضاياه . نراه يصول ويجول عندما يخطر له ان يسلط سياطه ، على هواة الخطب الهوائيـة الجوفـاء ، والاساطير الرمزية ، وهؤلاء المدجلين ، المدلسين الذي يهيمنون على معرفة اسرار الغيب وفواتحه المطبقة ، واتباع مذهب زينون وتعاليمه الكالحة الجافيـة ، واتباع الفلسفة الافلاطونية، المتظاهرين بالعظمة. فخياله الخصب الولود يستنبط دوماً اوضاعاً تبعث على الضحك وتثير المجون ، يسري بها على القارىء ، لا يتهيب من التعريض بالآلهة ويسلقها بألسنة حداد ، كل ذلك بلغة عامرة ، بليغة ، وعبارة رشيقة ، وتعبير دقيق ، واسلوب يمور بالحياة والحركة ، والتهكم . ففي عصر من سماته الفارقة التشبه بأساليب الأقدمين ، فهل ألسبق من لوقين لتمثيل اصحاب التيار « الاتيكي »؟

للقيانوس مقلدون كثر ، حذوا حذوه، فلا عجب ، ان يشك، والحالة هذه البعض، في بعض الآثار الفكرية المنسوبة له . وعلى كل حال ، فهذا الكاتب اللامع الذي اسلوبه يلسع وينفذ الى الصميم ، لا يمكن إلا وان يترك له في الارض تلاميذ ينسجون على منواله. فلم يكن ليعالن المستقبل بكفاحه المرير ضد التيارات الجارفة التي كانت تجر معها الحاضر . فالنشاط الادبي والفكري في العالم الاغريقي ، بقي على سيره المطرد الذي حاول لوقيانوس ان يزحزحه عنه ويخرجه منه . والحق يقال، فهذا الكاتب السوري الاصل، الذي استهواه سناء تاريخ اثينا في قرونها الكلاسيكية العظمى ، والذي راح يكافح ، وينافح ضد النزعات والتيارات التي انبثقت من هذا التآلف بين اليونان والشرق ، فأدّى الى مثل هذا الازدهار ، يُعدُّ ظهوره أكثر من مفارقة ، فقد جاء في غير اوانه وزمانه .

٤ ـ الانجازات الهندسية والزخرفية

اذا ما اردنا ان نقف عند المدلول الحرفي لهذين المصطلحين، كان لزاما علينا ان نأبى الاعتراف

بأي فضل لهذين القرنين ونرفض التسليم بأي يد لها على الانشاءات والانجازات الفنية . فما من انشاءات فنية جديدة فيها ، وان حدث وتمّ شيء من ذلك ، فأمر نادر جداً ، والنادر لا يقاس عليه . فليس من الغلو بشيء ، والحالة هذه ، ان نرى في هذه الانجازات ، أية قيمة فنية جديرة بالذكر . غير ان من واجب تاريخ الحضارات ان ينظر اليها من ناحية اخرى . فالعمل البنائي الذي أنجز وتم ، باعتباره واقعاً تاريخياً حدث في الزمان والمكان ، هو تعبير لنشاط مُجتمع، تحيز في دور معين من أدوار التاريخ الروماني ، وهو عمل ضخم ، لم يفقد شيئاً من قيمته بزوال الامبراطورية الرومانية . فاذا كانت هذه المخلفات ليست اليوم بالوحيدة ، كما بدت عليه في عصر النهضة والانبعاث لتعطينا فكرة صادقة عما كان عليه وضع الفن في التاريخ القديم ، فبامكان هذه الآثار الباقية معروضة في المتاحف او منتصبة تنطق وتحدث ، في هذه المشاهد التاريخية القديمة ، يستطيع المعاصرون اليوم بواسطتها ان يتصلوا بهذا التاريخ . ولذا تبقى لها ، على الأقل ميزة واحدة الا وهي تزويدنا بفكرة عن عالم تم لمن اسباب الغنى والثروة ، وجاش بمثل هذه الاماني العراض ، لا يمكن ان يشيد له الحضارة التي راودت خياله ، بدون ان يبذل مجهوداً فنياً ما .

قضية الأصالة

والحق يقال ، لم يبدُ على الفن ، في عهد الامبراطورية الرومانية المتأخر ما يدل على انه حاول التجديد في كل ما يتصل بالبحث والكشف . فجل ما طمع فيه وطمح اليه، هو ان يواصل وان ينشر على الملأ ، المجهود الذي بذله الفن الهليني الذي عرف ان يحافظ على نشاطه ، وعلى قدرته على الانتاج . فكانت هذه الآثار التي ينتجها تتجه مع الفنانين أنفسهم صوب روما ، التي لم تكن في ما مضى معارضة لمثل هذا التيار . ومهما يكن ، فقد كان للاغريق من المرونة ، والطواعية والقدرة ، ما استطاعوا معه ، تكييف أنفسهم وفقاً لمتطلبات الذوق الروماني ، وتطويع ما يقتبسونه من عادات القوم وأعرافهم ، لينالوا حظوة لديهم وليزدادوا منهم تقرباً وتقيّة . قليلون جداً هؤلاء الفنانون الذي بلغتنا أسماؤهم ، ممن عاشوا وانتجوا في هذه الحقبة ، حتى من كان منهم في روما وعمل فيها . معظمهم اغريق بالطبع ، عني بعضهم بالحفر والنقش ، امثال ستيفانوس ، ومينلاوس ، والمهندس ابولوذوروس الدمشقي الذي كان موضوع ثقة الامبراطور ترايانوس . وليس بغريب قط ان يُخلّفوا لهم ، في الغرب ، تلامذة ومساعدين ، بحيث نتبين سبب هذا الانتاج الوافر الذي ظهر ، اذ ذاك . وقد نشأوهم ، على شاكلتهم ومثالهم ، وفقاً للقضايا والمشاغل التي استبدت بتفكيرهم . فما من شيء هام ظهر في الغرب ، اذ ذاك ، كان يعمل وحده في الميدان مستقلاً إلا وتنتقل عدواه الى الشرق . فليس من الغلو بشيء ان ننظر الى الفن في عهد الامبراطورية الرومانية المتأخر، في ما تم من مظهره العام، اذ ذاك ، كحقبة من حقب الفن الهليني ، بلغ فيها هذا الفن ، جميع اطراف العالم الروماني .

من المعلوم ان كل تحديد هنا يبقى تحديداً مقتضباً، مبسّطاً، فهو يحتاج الى بعض الايضاحات التي يتباين الاختصائيون حولها ، رأياً وقولاً ، ويعنف احياناً ، من حيث تحديدها وتقويمها .

هنالك فريق كبير بينهم ، يؤكد بإصرار ، أصالة الفن الروماني ، في هـــذا العهد ، بينا يحاول فريق آخر ان يميز ، بنوع خاص، الفنون التي تجلت في الولايات . كل هذا يتطلب ابحاثاً وتحريات دقيقة ، مكنت لها النجاحات التي حققهـا علم الآثار ، إلا ان بحثنا هذا لا يتسع لها ، بكل اسف . علينـا ان نقتصر هنا ، فيا يتعلق بفن النقش والهندسة المعمارية ، على أهم العناصر التي تقتضيها كلفة تكميلية عامة التعريف ، تبقى مع ذلك عرضة النقاش ، اذ رأينا ان لا مندوحة من التقدم بواحدة منها .

فن النحت والمذهب الواقعي

تحرّز الرومان انفسهم من كل اعتداد او مباهاة لم يستحقوها . فقد كتب فرجيل بهذا الصدد في ملحمته الانياذة الخالدة قائلاً: «ولينحت سوانا ، بمهارة أكبر ، كما اعتقد مخلصاً ، تماثيل من البرونز تستنشق الهواء ، وليحفروا لنا في المرمر وجوهاً تطفح بالحياة ، بينا يحتفظ الرومان بفن حكم الشعوب وادارتها » . ولكن هذا التواضع الذي يختفي وراء هـذا الاقرار العلني ، لا يصح إلا في المجال الفني الاستتيكي او عندما يُطبّق على جنسية هؤلاء الفنانين ، اذ ليس من ينكر ان النحاتين اليونان الذين كانوا يعملون في خدمة الرومان ، اضطروا ان يكيفوا ابحاثهم وفقـاً لمقتضيات الفن الاغريقي ، التي وان لم يكونوا يجهلوها — وهل كان الفنان الاغريقي يجيز لنفسه ان يجهلها بعد ان أوتي مثل هـــذه الروح الطـُلـَعَة التي لا تني ولا تملّ — أهملوا مع ذلـــك ان يتقيدوا بها ، او اسقطوا العمل بها بالكلية .

وقد استهان الفنان الاغريقي في انتاجه هذه الآثار الفنية التي ظهرت في عهـد اوغسطس ، بهذا الوقار الديني وهذه الأنفة القومية ، وقد يكون حدث ذلك بعدان كانت ضعفت لديه هذه المشاعر ، في بعض الاحيان ، وخلال بعض العهود . فهي تظهر في اوقات اخرى ، في هذه النقوش النافرة التي طلعت علينا في عهدي ترايانوس ومارك أوريل لدى تروئنهم احتفالات دينية رسمية . فقد كانت جزءاً لا تتجزأ من فلسفة الحكم ، لازمته وفرضت نفسها عليه ، عندما كان يشترط ان تأتي وفقاً لمشاعر المواطنين واحساساتهم وتقديراتهم . ولكن لات ساعة الانجازات الفنية العظيمة التي تمت في عهد اوغسطس . فتماثيل الاباطرة وهم مرتدون التوغة (*La Toge*) او الدروع المثلة ، وهذه المواضيع التي ترسم لنا تقوى الاباطرة وكرمهم، كلها غاصت في التقاليد والاعراف التي استبدت، وفقدت من جراء تمنها المفرط بالحرية، ما لها من قوة التعبير والمدلول، التي كانت تشع منها .

فالنزعة الواقعية استمرت مدة اطول وظهرت في اكثر من شكل وصورة اولها على الاطلاق تحيز قسمات صورة الشخص . فهذا العدد العديد من التماثيل والتماثيل النصفية ، وهذه الانصاب الجنائزية ، كلها تم وضعها ؟ اذ ذاك ، وقد افرغت معظم رسوم الرجال والنساء في وقفة تظهر منهم الملابس وملامح الوجوه ، حتى في عريها ، اذا ما اقتضى الامر ، وفقـــاً لنماذج تقليدية

وجدوا منها الشيء الكثير بين هذه القوالب التي تم صنعها على يد الفنانين الاغريق، وزادت عليها روما الكثير ، بفضل المثاليـــة التي طلع بها صديق الامراطور هدريانوس المهندس انطينوس. غير ان اشتداد الطلب على هذه الآثار، اضطر رجل الصنعة، بنسبة اكبر مما عرف عنه في مصر الفرعونية وفي الحضارة اليونانية ، على صنع تماثيل شبه جاهزة ، يضيفون اليها ، عند الطلب او التقدم بشرائها ، رأساً يصنع على عجل، يمكن استبداله احياناً، حتى ولو كان التمثال لاستخدام الاباطرة انفسهم . الا انه في بعض الحالات ، كان النحات يتفانى في نحت قسمات الوجـــه بدقة معجزة ، فيرسم اسارير الوجه ، وما ارتسم عليه من سمات وعلامات فارقة او شوّه طبيعي ، وغضون الجبين او بارزة ظاهرة، او خال ، مع موقع الشعر ومفرقه على الرأس . من النادر جداً ان تتجاوز هذه الروح الواقعية الفرد او الحادث ، فيحاول النحات ابرازها بصورة تعبيرية تبرز مكنونات النفس البشرية ، وبعض الانطباعات والاحاسيس الداخلية ، وكلها امور لم تتم الا في هذه التحف والروائع الفنية المشهورة التي قلما جاد العهد بمثلها . وهذه الدقـة المعجزة ، أتاحت لنا اليوم ، ان ننعم برسوم فنية تعبيرية ، واحياناً ، عند تغيير الازياء النسائيـــة (الموضة) ، ببعض مواقف ثابتة للزينة النسائية ، فيتوفر للمؤرخ بذلك ، قواعد للتأريخ وتحديد الازمنـة بصورة ادق . وهكذا لا بد لفن نحت التماثيل الرومانيـــة ، من ان يثير اهتمام المؤرخ ، مع انه كثيراً ما يحمل "هوى" الفن الروماني جامداً لا يتحرك.

وعلى هذا قس عدداً من الرسوم الناتئة التي تمثل حوادث تاريخية بلغ من دقة نحتهـــا وشدة مطابقتها الواقع ان كونت مستندات ثمينة للغاية ، لا يتوفر مثلها في النصوص الادبية التي وصلتنا، او تبقى هذه النصوص حيالها مقتضبة موجزة . بالامكان الاتيان بامثلة عديدة . من ذلك مثلاً ، قوس النصر الخاص بالامبراطور ترايانوس ، والمسيرة المظفرة مع الاسلاب المأخوذة من القدس . وفي صورة ثالثة تقوم على فوروم ترايانوس ، في روما ، او على احد الاعمدة التي يقوم عليها قوس النصر الخاص بترايانوس ، في مدينة بنيفانت حيث تبرز مؤسسة الاطعمة *Alimenta* . لا بد من ان نذكر هنا ، بنوع خاص ، الرسوم الناتئة ، على اكليل اعمدة المرمر المعروفة باعمـــدة ترايانوس ومارك اوريل ، امـــا الصور التي تمثل المعارك التي تقع في وقت واحد مع غيرها من الحوادث ، فشيء معروف في الفن المليني ، كما يظهر على افريز جداري . وصورة البرقع المتدلي بشكل حلزوني ، شيء جديد على الفن في روما ، وان كانت له جذور في مشاهد سابقـــة ، في الشرق ، وفكرة التعبير عن متابعة السير مع مرور الزمن ، مع مشاهد متنوعة من مفاوضات ، ومعارك وحصار مدن ، ومذابح ، وصور استسلام ، كلهـا صور ترسم سلسلة من الحملات العسكرية تشير هنا ، الى حروب ترايانوس ضد قبائل الداس – وهي ١٢٤ مشهداً يشارك فيهـا ٢٥٠٠ شخص منحوتة صورهم على حائط طوله ٢٠٠ متر – كما يشير هنالك ، الى حروب مارك اوريل على الداوب . وقد ابى الضمير المسلكي عند الفنانين ان يتأثر بعدم استطاعة المشاهـد ، التقاط هذه المناظر ، بالدقة المطلوبة ، اذ يوجد بعضها على ارتفـاع ٣٠ متراً . فاينما وقع نظر الانســان ، طالعته هذه الدقة تبرز على أتمها في مشاهدة الملابس والاسلحة ، وكلها متشابهـــة ،

والمباني وانشاءات المهندسين الرومان تبرز بدقة كلية وكأن بهذه الرسوم الناتئة على هذه الاعمدة مظروفاً (ألبوم) من الصور الحيــة ، لا بد للمؤرخ من الرجوع اليها ، ليس فقط التمييز بين البرابرة والجيش الروماني ، بل ايضاً ليستحضر في ذهنه سلسلة من الحوادث تبقى حيالها المصادر التي عول عليها ، شبه صامتة ، لا تلبث ببنت شفة .

وليس بغريب قط ان يسير الفن الخاص على منوال الفن الرسمي ، اذ كثيراً ما نجد الرسوم الناتئة على القبور والمدافن ، تمثل حوادث ومشاهد حياتية تمت للمتوفى او البيئة التي عاش فيها بصلة وثيقة . من ذلك مثلاً ، المشاهد المأخوذة من المقاطعات الغاليــة حيث لم يستنكفوا قط ، كما سبق وأشرنا الى ذلك من قبل ، من تمثيل مزاولة المهنة بشيء من الفخر والمباهاة ، اذ اخـذ الفنانون يَعْنون عناية خاصة ، بالحوادث اليومية وحاولوا ابرازها على شكل يبدو عليهم تقصيرهم الفني ، ومع ذلك فمنظرها يبعث الارتياح . وهكذا نرى المجموعات العامة للرسوم الناتئة ، في غاليا الرومانية وجرمانيا الرومانية ، تؤلف مصادر ثمينة جداً لمن يبغي مـن المؤرخين درس المجتمعات البشرية في هذه الحقبة وما كانت عليه اخلاق القوم ، اذ ذاك ، ووسائل النقل التجاري وأدواته المستعملة ، والاساليب التقنية والعمل المهني . ولكي يعثر المرء على شيء شبيه بهذا في الفن اليوناني ، عليه الرجوع الى الرسوم الموجودة على بعض الآنية التي يعود صنعها لقرون الفن الكلاسيكية ، مع الفارق الناجم عن ان الفنان اليوناني لم يكن ليستوحي عمله من الوضع الحياتي للزبون الذي يوصي بصنع التمثال بل يستلهم فنه من ماجريات الحياة الخارجية . كذلك ، كثيراً ما استمد الفنانون موضوعهم من العمــل في الارض وهو شيء لم يخطر يوماً على النحاتين الغالو — الرومانيين الذين لم يتقدم يوماً اليهم احد من سكان الريف الاثرياء بطلب من هذا النوع .

ففن النقش عند الرومان هو دوماً مجرد نسخ او تقليد أعمى للنقش عند الاغريق . فالآثار التي استعرضناها وأتينا على ذكرها هنا تؤلف جزءاً صغيراً من هذا الانتاج الفني الذي تم اذ ذاك . على كل هي انجازات فنية تميّزت ، يبدو منها ان روما عرفت ، في بعض الحالات والعهود ، ان تضيف لوناً جديداً الى هذا الفن الذي برهن الاغريق في مزاولتهم عليه انهم اربابه وأساتذته .

الهندسة المعمارية : مناهج ونماذج

من حق المرء ان يتوقع من الهندسة المعمارية أصالة أكبر مما وجد عند الرومان ، في النحت والنقش . فالاصالة هنا ، بالفعـل هي أعمق وابرز . فكما ان المذهب الواقعي هو من التقاليد الرومانية المتوارثة في فن النحت الذي أفسح العهد الامبراطوري له المجال للتجلي والبروز ، في المناسبات الكثيرة ، فالانجازات الهندسية الرومانية ظهر الكثير منها قبل العهد الاخير للامبراطورية بكثير . كل ما قام في الامبراطورية او أطلّ عليهـا كان يدعوها للتجديد والابداع : هذه التقنية التي توفرت للمهندس ، وضخامة الموارد والامكانات المتنوعة التي وجدها تحت تصرفه او متناوله ، وهذه الجدّة والاهمية التي طبعت الطلبات والتوصيات تصدر عن عالم اخذ ينظّم ذاته على نطاق لم يألفه من قبـل لا سيا

وأحد نصفيه خال من كل شيء تقريباً ، مع الملاحظة ان التجديدات الاولى ظهرت في العهد الجمهوري . فالامبراطورية لم تستنبط نماذج جديدة للمباني ، فاتجه خيال المهندس بالاحرى للتفاصيل وعني بالمقاييس بالنسبة لما كانت عليه في القديم .

ولما كانت الضرورة تقضي عليهم بأن يبنوا بسرعة . فقد اضطروا ان يهملوا استعمال الحجر المقصوب الذي طالما عوّل الاغريق على استعماله ، بالرغم مما يقتضي اعداده من وقت ، وراحوا يستعملون بديلاً عنه حجارة غير مقصوبة تختلف شكلاً وحجماً ، كما انهم استعملوا احياناً ، الطوب، يُمَسِّكونها بعضاً ببعض بملاط يصنعونه من الشيد وكسارة الحجارة ، نال شهرة واسعة ، مع ان هذه الطريقة افقدت فن العمارة شيئاً من الجمال الاستتيكي ، جربوا ان يعوّضوا عنها بالزخرفة من الداخل . وهذه الطريقة اتاحت لهم استعمال القنطرة والقوس والقبّة ، وكلها عناصر كادت الهندسة المعمارية عند الاغريق تهملها تماماً مع انها اقتبستها من الشرق . وعلى هذه الطريقة ُحلّت قضية السطح ، وهي طريقة عرفوها في العهد الجمهوري ، إلا انهم طبقوها على نطاق اوسع فيما بعد . وخير مثال على ذلك هو مبنى البانتيون، احفظ مباني روما القديمة ، جدد بناءه هدريانوس ، وهو اليوم احدى كنائس روما ، ورفعوا على مبنى اسطواني الشكل قطره ٤٣ متراً ونصف المتر ، قبة على ارتفاع ٤٣ متراً ونصف المتر ، هي الاخرى عن سطح الارض ، تركوا فيها فتحة قطرها ٩ امتار ، ينفذ منها النور الى كل المبنى . ولا بد من الملاحظة هنا ان سماكة الجدار بلغت ٦ امتار وذلك لتتحمل ثقل القبة وشدة ضغطها . وهكذا راح وقع تأثير القبة من الداخل يعوض عن غلاظة المبنى من الخارج . وهذه الجرأة في تشييد سقف هذا المبنى لم تتكرر بعد ذلك ابداً .

والبانتيون هيكل مستدير الشكل ، اذ انه لا يؤلف ، من حيث تصميمه الهندسي ، شيئاً جديداً ، لا في العالم اليوناني ، ولا في روما . هنالك ابنية كثيرة قامت في كلا المدينتين لم يُدخِل عليها الرومان سوى تعديلات طفيفة . فالطراز الهندسي المتعارف عند الاتروسك لهيكل كلاسيكي ، هو الشكل الدائري ، وليس كما كان عليه عند الاغريق ، قائماً على ثلاثة سطوح ، وكذلك الأمر مع المسرح ، اذ جعلوا القسم الخاص منه بالاوركسترا على نصف دائرة ، بعد ان انقضى تماماً وزال ، المهد الذي كانت فيه الجوقة (الكورس) يتغير مكانها وفقاً لمقتضيات الفن ، وينتهي بجدار عالٍ قد يبلغ ارتفاعه احياناً ١٥ متراً ، تُنشأ امامه شرفة ومشكاة من شكل خاص ، وركيزة مستطيلة ، وصفّ من الاعمدة على شاكلة ما يقوم امام القصور .

فقد قام الى جانب هذه الاشياء ، إنشاءات رومانية بحتة : هي المدرج ***Amphithéâtre*** وهي كلمة مشتقة من كلمة مقعد باليونانية ومن الزائدة ***Amphi*** التي تعني : حول ، وهذه المقاعد تقوم حول حلبة أو ساحة ميدان ، إهليلجي الشكل ، حيث كانت تجري معارك المصارعة . اما البعض من اصحاب الاختصاص ، فقد يرى في هندسة مثل هذا المبنى تصميماً اتروسكي المنشأ ، جرى اقتباسه من الشرق أو اليونان ، وهو رأي لا يزال العلماء يختلفون حوله

ويتناقشون ، إلا ان الرومان أدخلوا عليه من التعديلات الأساسية بحيث يصح معهـا اعتباره من مستنبطاتهم الخاصة . وهذا الطراز المعماري ، برز في هندسة السرك ، اذ لا يختلف تصميمه الهندسي لدى الرومان عنه عند اليونان ؛ وجعلوه كله من البناء، بدلاً من استخدام سفح جبـل أو منحدر هضبة . كذلك برز في تصمم البازيليك *Basilique* المستوحاة هندسته مـن هندسة الأروقة الملكية المليئية ، التي أصبحت على مر الزمن صالة كبيرة مستطيلة ، تنقسم من الداخل، طولانياً الى ثلاثة صحون ، بواسطة صفين من الأعمدة ، وفيهـا كان يجلس قضاة العدل للنظر في القضايا المعروضة للنظر . وقد برز ذلك ايضاً في وضع الحامـات التي لم تلبث ان اتخذت ، فيا بعد ، مساحات كبيرة(راجع الشكل ٢٥) فضمت من الداخل العديد من الغرف والحُجر وفقاً للغَرض : هذه للحمّام البارد ، وتلك للحمام الفاتر ، وثالثة للحمام الحـار أو الساخن ، ورابعة لحام البخار *Sudatorium* ، مع ابهاء وساحات للالعاب الرياضية ، ومـا الى ذلك من غرف اضافية للمكتبة ، واروقة للرسوم والصور . وبرز هذا التصميم كذلك في قوس النصر يتكون عادة من ثغرة او فتحة تعلوها قنطرة ، تفتح في سور المدينـة ، ثم اصبح شكلاً من اشكال الزينة ، او تذكاراً يعيد الى الاذهان عهد اسرة ملكية أو عهد سلطان ، كما برز في هذه المدافن والاضرحة التي اتخذت في روما اكثر منها في اليونان ، شكل بناء شامخ ، او هرم من الأهرام ، اسطواني الشكل ، أو مكعبه ، مع حجرات واسعة من الداخل تحمل جدرانها كوى لوضع جثث الموتى . وهذا التصميم يبرز في وضع المنازل الخاصة التي سنخصها بكلمة على حدة ، بعد قليل . ولا بد من الملاحظة هنا ان انماط هذه المباني في اشكالها المختلفة ، جرى استنباطها او الحقت بها تعديلات كثيرة ، في اواخر العهد الجمهوري ، او في مطلع عهد اوغسطس . فالهندسة المعمارية في الطور المتـأخر من تاريخ الامبراطورية ، لم تطلع باي تجديد ولا استنبطت شيئاً في هذا المضمار .

السيطرة العبية على الطبيعة

من اهداف هذه السيطرة على الطبيعة والتحكم بها ، التأثير على أخيلة الناس واذهانهم ، في مجتمع ترفل الطبقات العليا فيه بالمال الوفير والغنى الجزيل . فالتحسينات التي ادخلتها الوسائل التقنية ، وفاعلية الادوات والعدة المستخدمـة مكنت بالفعل من تحقيق انجازات جبارة. فالتمثال الضخم الذي تجـاوز علوه ٣٠متراً ومثّل الامبراطور نيرون مرتدياً شعار الإله الشمس ، ارتفع على مقربة من « البيت المذهب »عرف عندئذ باسم *Colossum* اي التمثال الضخم ، وهي كلمة تحورت الى كلمة كوليزه وبها تُعرف اليوم ، اذ لا تزال تطلق على المدرج الذي شيده اباطرة الاسرة الفلافية . وكان هذا المدرج من الضخامة بحيث كان يتسع لـ ٣٠٠٠٠ مشاهد جلوساً، بينا ذكرت المصادر القديمة انه كان يتسع لـ ٨٠٠٠٠ مقعداً طول دائرته ٥٢٧ متراً وعلو جدرانه ٥٧ متراً ، وفي هذه المقاييس ما يضفي عليه هذه الضخامة دون ردفه بتمثال نيرون القـائم على مقربة منه . والهرم الذي تكوّن من مدفن المقدّم لتشتيوس الذي توفي سنة ١٢ ق .م ، ارتفع ٣٧ متراً. اما ضريح اوغسطس الذي

تركت عليه صروف الدهر وتقلباته أثرها الظاهر، فيُعرَف اليوم بقصر سانت أنج، وهو يتألف من مبنىً قطره ٨٩ متراً، يرتفع على اربعة طوابق من الأروقـــة ، يحف به صف من السرو والشربين كأنها ثلة من الحرس شاكي السلاح تقدم التحية العسكرية ، تتوسطه دعامة علوها ٤٥ متراً ، ارتفع فوقها تمثال الامبراطور ، ونُصبت امام مدخل الضريح مسلتان فرعونيتان ، وعمودان عُلقت عليهما لوحات من البرونز تحدث الناس بأعمال الالهي اوغسطس ، بينما لا يزال ضريح الامبراطور هدريانوس قائماً بعد ان أدخلت عليه ترميمات عديدة ترجع الى الاجيـــال الوسطى .

لا نجد في أي محل آخر ، غير هـــذا المكان ، ولا تقع العين على ما تقع عليه هنا من عناصر الفن الشرقي : من هرم ومسلات فرعونية وقبور ومدافن مخروطية الشكل وكلها عناصر جيء بها خصيصاً لتوحي للرائي فكرة الضخامة والعظمة . ولكن هذا الشعور بالعظمة كان بالامكان اشاعته في النفس بواسطة اشياء اخرى لا تحصى. فقد آثروا الاستعانة بمثل هذه العناصر الشرقية لمـا فيها من قوة إيحاء وتأثير بالغ على النفوس . فالهندسة اليونانية التي همها دوماً الاتـّصاف : بالاعتدال والاتزان والانسجام لم تتنازل عما تم لها من وقع إلا بصورة عابرة .

هنالك نزعة اخرى كانت تميـز المهندس الروماني عن زميله الاغريقي . تصرّف المهندس الاغريقي بعدد اقل من الشغيلة واليد العاملة، كما كان تحت يده القليل من المواد الاولية. ورغبة منه في دمج عمله بالاطار الطبيعي المحيط به ، فقد حاول ان يفيد الى أقصى حـــد من طواعية الطبيعة لمساعدته بتكييفها وفقاً لرغائبه ، على عكس المهندس الروماني الذي جعل من مبانيه الهندسية المجازات ضخمة هي من صنع يديه ومن ثمرة تحكمه بالطبيعة وسيطرته عليها بقوتـه وبأسه وعلمه . فقد اشرنا لماماً اعلاه ، الى ما من فرق بين السيرك وميدان السباق ، وهو فارق يبدو على اشده ايضاً في مفهوم المسرح هنا وهنالك . والجدار المنتصب عنـد مؤخرة المسرح ، والذي يعدل ارتفاعه بارتفاع اعلى صف من المقاعد، لم يكن ليحدّ بشيء من مدى النصر. فاذا لم يتوفر لكل مسرح « الجدار » الذي توفر لمسرح مدينة اورانج وكان سبب شهرته، فكل المدارج كانت تضم ، على شاكلة مسرح نيم ، كل المشاهدين يشاهدوا الالعاب ، وقـــد مدّت فوق رؤوسهم ، سحائب من الستائر ترد عنهم وطأة حرارة الشمس وان حالت ، الى حين ، بينهم وبين منظر السماء . وهكذا كان المهندس يسيطر معاً على المدى فيتصرف ، على هواه ، بقسم منه ، معطياً بذلك ، الدليل على سيطرته على الطبيعة وهيمنته عليهـا . ففي مدينة برغاموس الهلينية التي شُيّدت على منحدر هضبة متدرجة السطوح ، لم تبلغ سيطرة الانسان على الطبيعة ما بلغته عند الرومان ، اذ ان هـــذه المدينة رتّبت مبانيها على مستويات متباينة ، وفقاً لانحدار التل .

وهذه الارادة التي روّضت الطبيعة ، وسيطرت عليها ان لم نقل طوّعتهـا بالعنف والقوة ،

تبرز على شيء من الكبر والتعالي والتيه ، في عدد من الانجازات الفنية التي نثر حباتها المهندسون الرومـان في جميع أرجاء الامبراطورية . من هذه الاعمال الانشائية الجبـارة ، تغيير معالم طوبوغرافية بعض الاماكن ، بعد ان نقلت مقادير هائلة من الأتربة والحجارة بعمق يوازي علو عمود تراجانوس وتمثاله الذي بلغ ارتفاعـه ٣٨ متراً ، فأتاح المهندسين انشاء ميدان (الفوروم) المعروف بفوروم تراجانوس ، بين هضبتي الكابيتول والكويرينال ؛ وانشاء مثـل هذه المرافىء الضخمةعلى شاطىء البحر ، كما نشاهد عند مدينة اوستي (الشكل١٠ـ ص٣٤٣)،واقامة جسور وكباري فوق الانهر ، كجسر القنطرة على نهر التاج ، الى الشرق من البرتغـال ؛ وانشاء أقنية لجر المياه مارة فوق الوهاد والوديان ، بين هَضَبة واخرى ؛ وانشاء الجسور كجسر نهر الغـار الممتد بطول ٢٧٥ متراً وبارتفاع ٥٠ متراً فوق النهر المذكور ، أو جسر غاردون على مقربة من مدينة نيم ؛ وشق أنفاق لمرور الطرقات في الصخور أو بين الغياض والآجام والمستنقعات . كل هذه الاعمال وما إليها، قام بها المهندسون الرومان ، وأمنوا انجازها بنجاح عظيم . فلم يسبق ان خطر للانسان من قبـل تحقيق مثل هذه المشاريع ، كما لم يسبق له ان انجزهـا على مثل هذا النطاق الواسع . والذي يبدو لنا ان الانسان أخذ يشعر بما تم له ، اذ ذاك من غَلَبَة ، بفضل ما أعطي من قوة وبأس، سخـّرها في سبيل الدفاع عن الفتوحات التي تمت على يده ، فأحال جانباً منها وسائل تَرَفّهُ من عيشه وتبعث فيه الطمأنينة والسلام .

الفن الزخرفي من الداخل والخارج

عدد كبير منهذه الانجازات ، يؤلف بحق، نجاحـات تثير الاعجاب ، سواءً من الوجهة الفنية أو من الوجهة الزخرفية والجمالية. ولعل سرَّ ذلك كله يقوم في هذا الاتقان الذي بلغه في نسبة تكييف الفن الغاية التي أريد لها . فهذا التناسق المظم ، بين ارتفـاع طوابق الجسر الثلاثة وبين عرض فتحات القناطر ، ومقاييس العواميد ، أضفت على الجسر القائم ، فوق نهر الغار ، هـذه الصفات التي تميزه ، وعُرف بها . وهذا الانسجام له أثره العميق في النفس ، يزيده وقعاً فيهـا انسياب هذه القناطر وتتابع انسحابها . فما من زخرف او نقش او حلية اخرى ، من أي نوع كانت،تخفف من حدة عرى هذه الخطوط والمساحات والحجوم الجافة التي لها وقعها البعيد في الخاطر ، بما يتم لها من تناسب واتزان وتعادل ، وكلها صفات تشير بذاتها الى تاريخ الجسر وتجعله من عهد اوغسطس .

ويبرز في المهندسين ، اكثر فأكثر ، ميلهم الزخرفـة ، بعد ان اتضح للجميع ان الزخرف يرفـع من تأثير المبنى ويزيد من أثره في النفس ووقعه عليها ، اذا لم تكن هذه المباني معدة للاستعمال او كانت نفعية ، او عندمـا تكون أنشئت على عجل ، او استعملوا لهـا مواداً اولية بقيت على خشونتها الاولى . فيروح المهندس يضفي عليها، من الخارج ، اشكالاً ورسوماً استعمل الاغريق مثلها من قبل . فالجدران ُفرشت بالرخـام من الداخل ، كما تحلـت وتزخرفت على الوجه ذاته: بالركائز والأعمدة، والتماثيل والأفاريز والأضافير المنحوتة نحتاً، ولم يلبث ان تغلـّب استعمال الطراز الكورنثي ، وعمّ استخدامه ان تبيـّن ان زهرة شوكة اليهود(*Acanthe*)البارزة

على اكليل العمود بفيض منظرها في النفس ارتياحاً وبهجة امام افتزار الطبيعة، كما تخفف من حدة نشوفة وجفاف الخطوط الهندسية التي تلبعث من الاطرزة الهندسية الاخرى (الايوني والدوري).
واخذ الميل للزخرف يزداد ويتسع بتأثير الفن الهليني المنطلق من أرجاء آسيا الصغرى وسوريا، يصحب ذلك شيء من الطباق والجانسة، بطلوع الادب الزاهر المشمشع الذي أطل علينا في عهد كل من الامبراطوريْن كلوديوس ونيرون . ومنذ ذلك الحين، لم نأنس أي رجوع الى البساطة الاولى . وقد تتشابك هذه الرسوم الزخرفية الناتئة التي تطل علينا من عمود ترايانوس، أكثر مما تطل من النقوش الظاهرة على عمود مارك اوريل .

حمل الرومان في جنباتهم ميلاً شديداً للرسم. فقد فُقدت وضاعت هذه الآثار التي تم وضعها على المسند، إلا انه بقي منها نماذج، بعضها على الجدران تنطّى ملاطها برسوم نافرة، ناتئة . وقد عثر على بعض هذه الرسوم في روما ولا سيما في مدينة بومبيي . فالصور التي كانت تزدان بها جدران المنازل في هذه المدينة الريفية الصغيرة، لا تحصى لكثرتها . فالهوَس الذي تملك الناس فيها، فجعلهم يُقبلون بداعي ماهم عليه من غنى ورفاه، على الزخرفة والاكثار منها في منازلهم، ليس ما يمنع ان يكون هو نفسه الهوس الذي تملك الطبقة البورجوازية في القسم الأكبر من ايطاليا، فراحت، اسوةً بسكان مقاطعة كبانيا، المعروفة برخاء سكانها، تقبـــل باندفاع كلي، على الزخرف الهندسي . جرى العرف على تميز اربعـــة أطرزة من الصور والرسوم التي وجدت في بومبيي، اقدمهـــا جميعاً طراز اسبق لعهد سيلاّ، اقتُصر فيه على تقليد الرخام المعرّق . اما الثـــاني، فهو الذي ظهر مع مطلع الامبراطورية، اذ تألف معظمه من أشكال من الصور الديني والأسطوري الى جانب رسوم هندسية ومناظر طبيعية مع اهتمام ظاهر بالمدى. ويحدثنا فتروف في بعض كتبه عن « زخارف المسارح »، وليس من النادر قط ان نرى صورة حديقة مرسومة على الجدار الامامي في حديقة صغيرة . اما في النموذجين الآخرين، فالصورة تتألف من عناصر زخرفية لا ترمي الى بعث أي إيهام في خلد الرائي او الناظر، بل همها الاكبر، ان تراعي الذوق والانسجام بين الألوان، حتى ما كان منها وهمياً . وهكذا نرى الفن الروماني يستلهم هنا اقل نزعات الفن الهليني اعتدالاً .

وفن الفسيفساء الذي عرفه الشرق منذ عهد بعيد، ازدهر في جميع انحاء الامبراطورية، أيما ازدهار، مما اقتضى له عدداً كبيراً من الصنّاع المهرة . ففي مدينة بومبيي التي انساحت تحت انهيال حمم الفيزوف، في ثورته الكبرى عام ٧٩ للميلاد، تنشّرت معاول المنقبين بعدد كبير من هذه الفسيفساء في ابنية المنازل او على جدران البيوت حتى المتواضع منهـــا . والاكتشافات الاثرية التي تمت في انطاكية تثبت بصورة لا تدع مجالاً للشك ان سوريا كانت اذ ذاك، من أكبر المراكز لهذا الفن الزخرفي، مع انه لم يَرُج، منذ القرن الثاني، في أي مكان من الامبراطورية، رواجه في افريقيا . فقد انصرفوا مدة طويلة لتقليد هذا الفن عن طريق استعمال مكعبات ملونة صغيرة . وقد وجدوا في بومبيي فسيفساء تمثل اندفاع جيش الاسكندر في هجومه الساحق على

داريوس (دارا) في معركة اسّوس ، بحيث نستطيع معها ان نكوّن لنا فكرة عما كان عليه فن الرسم الهليني على السيبة . وهكذا رسموا ، محاطة بأشكال هندسية ، مناظر ومشاهد ريفية من شتى الانواع وصور الافراد . ثم اقتصروا ، عقب ذلك بكثير ، بعد ان بسّطوا الألوان والرسوم على زخارف خالية من صور الاشخاص ، وهو نمط او طراز أقصروه على الفسيفساء المستعملة في فرش الارضية . وهذا الانتاج الوافر من زخرف الفسيفساء ، اقتضى له من الفنانين ، مقدرة عجيبة على الخلق والابداع ، كما اقتضى له صبراً طويلاً وطول أناة . ففي فسيفساء معركة اسّوس ، في مدينة بومبيي ٠٠٠ ٥٠٠ ١ مكعب صغير موزعة على اربعة ألوان .

والى هذه الفنون الزخرفية الخاصة بتزيين المسطحات وتحليتها ، يجب ان نضيف تلك التي تتعلق بزخرفة المفروشات والاثاث مما كان يستعمله الرومان بين اغراضهم المنزلية . فقد اقبل القوم على استعمال الخزفيات المطبّعة او المحلاة بتزاويق حمراء بعد ان يدمغوها بطوابع تفرّغ في قوالب خاصة . وهذا النوع من الخزف حل محل الخزف المحلى بالرسوم ، عند الطبقة المتوسطة كما اتخذوه بديلاً عن الآنية المعدنية المنقوشة . اما الطبقات الرخية الحال والوضع فقد كانت تفضل الحلي والجوهرات ، مما حدا ببعض الاسر الثرية ، الى تكوين مجموعات ثمينة منها . من اشهر هذه الكنوز على الاطلاق المجموعة المعروفة باسم : « كنز بوسكوريال » التي ضمت المرايا والاقداح والكؤوس . واستمرت صناعة الزجاج في انتاج قطع منه غاية في الروعة والجمال ، ثم اخذت تنتشر في الغرب حتى بلغت ضفاف نهر الرين . وهذه الخبايا التي عثروا عليها بين انقاض مدينة بومبيي المصنوعة من الرخام ، والآنية البرونزية ، من جميع الاشكال والمقاييس ، والتماثيل الكبيرة والصغيرة ، والمصابيح والشمعدانات ، والوجاقات والمدافىء والسّيَب والأسرّة المتخذة من الابنوس المطعم ، كلها تشير الى ما اعتلج به صدور القوم من مُثل فنية ، جمالية ، في مدينة صغيرة من مدن الريف . كل ذلك يعطينا فكرة عما كانت عليه منازل سراة القوم وعِلّيتهم ، او منازل هؤلاء الاغنياء الذين رفلوا باوسع ما يرفل به مجتمع من رفاهية في تلك العهود .

ففي كل هذه الفنون يبقى العنصر الابداعي الروماني قليل الشأن . فالاشكال والموضوعات والاساليب الفنية او التقنية كلها مستوحاة اصلاً من العالم الهليني . وهذه النزعات الخفيفة التي ادخلت عليها مراعاة لذوق الرومان ، كالميل للمذهب الواقعي مثلاً ، لم يلبث الفنانون ان تكيفوا بها وراحوا ينفذونها ويتفننون بها حتى حدود الغرابة احياناً ، وكلهم اجانب اغراب اصلاً في عهد اوغسطس ، اذ قد وفدوا من الشرق المتوسطي . وقد قصّر هذا الشرق ، فيما بعد ، عن تلبية الطلبات المنهالة عليه ، وتقديم العدد الكافي منهم ، انما راح يمدهم بالمعلمين ورؤساء الورش ليبقى محتفظاً بهيمنته وسيطرته ، حتى اذا لم يُرض انتاجه كل الاذواق ، صدّر نماذجه الى الخارج ، حيث يأخذ الناس بتقليدها والسير على نمطها . وهكذا نرى تطور الفن الهليني يمتد ليبلغ دونما تعديل يذكر ، جانباً كبيراً من الامبراطورية الرومانية . الا ان هذا الفن يراعي مقتضيات الاذواق المستبدة بالاهلين في الولايات الاكثر ازدهاراً ، اذ ذاك ، والاكثر نشاطاً ،

اي في آسيا الصغرى وسوريا . وهذا الفن الشرقي اخذ يتصل رأساً بالغرب دون المرور باليونان ليسيطر على روما ، في القرن الثاني ، اي في هـذه الحقبة بالذات التي تسجل الطقوس والديانات الشرقية فيها ، انتصاراتها ونجاحاتها الكبرى ، بحيث تتم الظاهرتان معاً وبحركة تعاونيـة ، في وقت واحد . ففي كل المجالات يبرز الاعتدال المنطقي ويتغلب على كل ما من شأنه ان يحدث صدمة في الاذواق .

المدينـة مركز الانصهار الحضاري

ففي هذه المدن وبواسطتها ، تمت في هذه الحقبة بالذات ، هذه الإلفة ، وحدث الإنصهار بين هذا الازدهار العمراني والانطلاقة في فن الزخرف الذي استعرضنا تطوره في مختلف المجالات التي تجلى فيها .

وهذه الحضارة تبرز مرة اخرى ، وفقاً للفكرة المدينية التي جاءت حاجات الامبراطورية تشد من أزرها ، وهي حضارة لها سمة المدينة وطابعها . فالمدينـة تُسهّل الروابط بين الافراد والجماعات ، وتنظمها وتُقنّنها . فعندمـا تعمل على تيسير الاتصالات واللقاءات بينهم ، فهي تستدرج بالتالي، ما يؤمن النجاحات التي لا بد منها في الحقلين الاقتصادي والفكري وتساعدها على التطور والنمو والتكامل . واذ كانت لها القدرة والطاقة لتدرأ عنها تعديات شذاذ الآفاق وكيد الطامعين وغزو البلاد ، فقد عرفت ان تبعث روح الانضباط بين الجماعة، وتؤمن العدل والعدالة في دولة تشرئب باعناقها العيش الكريم . من الاعتقاد السائد هو ان ما من دولة قوية تتوطد لها الدعائم بدون بورجوازية تأخذ بأسباب الحضارة وترسّخ لها في القلوب والنفوس ، وتهتم لاكثر من تأمين اسباب العيش ووسائله المادية ، وتنزع ، دونما ضعف منها او استجداء، السلام ، لانهـا لا ترضى عن هذه الاشياء كلها بديلاً ، لانها عماد النظام ولبه وصميمه ، هـذا النظام الذي لا بد منه للخير العام ولمصلحتها الخاصة . ولكن ليس من بورجوازية بدون مدينة ، اي بدون مجموعة من المنازل والمساكن ، ومن ادارة تجهيز وتموين ، ومبان عامة تطلع وفقاً لمقتضيات الحاجـة والذوق في الفرد والجماعة . فالحكومة تشجع ، اذاً ، مادياً وادبياً ، حركة تنظيم الامبراطورية وتجميلها . وهذه البورجوازية التي تهيأت لها اسباب الظهور والانفتاح ، او اقله اسباب التطور ، تتصرف بدورها ، لتهيئة مثل هذه الانطلاقة . وهكذا ، فالمدينة تمثل اكثر من اي شيء آخر، واكثر مما تمثله الفنون ، هذا التأليف والانصهار الحضاري ، لا بل ، هي بالفعل ، هذه الإلفـة الحضارية بعينهـا ، اذ ان الواقع المديني الذي يأخذ مثل هذا الاتساع ، وهو واقع سياسي وعسكري واداري ، واقع اقتصادي واجتماعي بقدر ما هو واقع ثقافي . ولما كان قد سبق ودرسنا ، في الفصول السابقة ، هذا الواقع ، من وجوهه العديدة ، بقي علينا ان ندرسه هنا ، في اطاره المادي .

المدينة الامبراطورية ومبانيها العامـة

زينة المدائن وعروسها ، هي بالطبع روما ، التي تؤلف في كيانها وواقعها: استثناء ومثالاً .

اما الاستثناء ، فلأنه لا يمكن لها ان تأتي مدينة بورجوازية او ريفية . فلو حدث ، مثلاً

وصح هذا الافتراض وبرزت على هذا الشكل او الطابع، لما كانت سوى مقر نبلاء الدولة ومجتمعهم الامثل ، أي هـذه النخبة الرسمية في هذه الامبراطورية جمعاء . فالامبراطور لا يترك لمجلس الشيوخ سوى الاضطلاع بالمهام الصغرى في الادارة البلدية ، وهي مهام تقع مع ذلـــك ، تحت اشرافه ، بواسطة المفتشين والمراقبين الذين ينتدبهم لهذه الغاية . والحقيقة ان روما هي المدينـة الامبراطورية، مقر الامبراطور، شاهدة على عظمته وعلى كرمه وسخائه ، وجبروت سلطانه. فما من مدينة اخرى ترتبط بها، تستطيع مزاحمتها في هذا المجال .

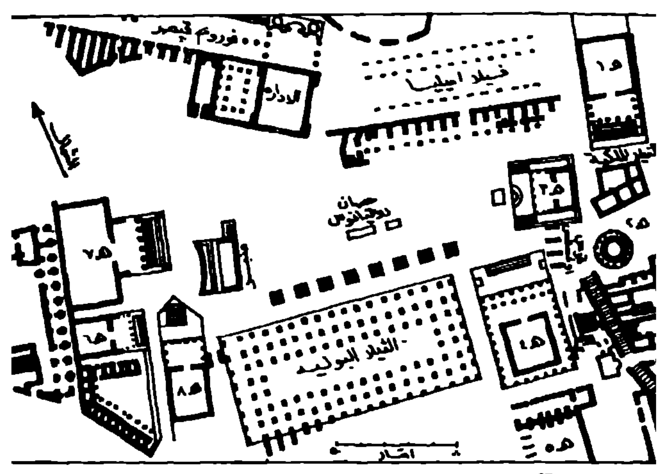
اما كونها مثالاً، فلأنها ملتقى ممثلي كل الولايات وكمبتهم ، وقبلة كبار الموظفين الذين يتولون زمام الادارة في هذه الولايات حيث أقاموا وقاموا بوظائف ادارية او عسكرية . فهي فتنة لهم جميعاً ، تجتذب هولاء واولئك ، بما تم لها من سحر وجاذبية، وهي الوطن الاكبر الجميع، وان كانت لهم اوطانهم الصغرى ، فينظرون اليها لعمري ، نظرهم الى المثال الذي لا يرام ، ويرون فيها الصورة المثالية للمدينة ولكل مدينة . فكل ما سواها من مجتمعات وتجمعات لا تستحق ان تسمى مدناً إلا بقدر ما تحاول الاقتداء بها والسير على منوالها ، ومحاكاتها .

وهذه المدينة التي يفاخر اوغسطس بأنها تسلّمها من لِبن وطين فسلمها رخاماً ومرمراً ، لا يزال مجال العمل بعدُ فيها واسعاً ، ومجال الانشاء رحباً ، ولذا راح كل من الاباطرة الذين تعاقبوا على الحكم بعده يحاول ان يترك له فيها اثراً يحدّث بما شيّد فيها من مبانٍ وما ترك عليها من نظم ومؤسسات تبز بعقابيسها وضخامتها كل ما عداها . كل من فيها يتذوق الفن ويسعى اليه ويفخر بناصرته ومناصرة حَمَلَتِه ، كما يحاول فريق من بينهم ، ممارسته والانقطاع له . وكل هؤلاء الاباطرة ، يدركون جيداً ، بفضل دروس التاريخ التي لقّنوها ، وعلى ضوء عظات عهد الطغاة من اليونان قديماً ، ومن سلوك فراعنة السلالة الرابعة في مصر ، ان سبيلهم الوحيد للبقاء حديثاً بعدهم ، هو إلهاب خيال الناس ، بما يشيدون من المباني والمؤسسات الضخمة . ولذا كان لا بـد من ان نضرب صفحاً هنا وان نمر سراعاً عن سرد ووصف ما قام من هذه المباني ، وبينها مـا اقتضى انجازه أكثر من عهد واحد .

وهكذا ، فالفوروم الذي شرع دومتيانوس ببنائه ، حمل اسم الامبراطور نروه *Nerva* لأنه هو الذي أكمله وأنجزه ، نكاية وتشفياً بسلف بغيض ، كريه الاسم ، ترك من سوء الذكر بحيث تغاضوا عن اغتصاب الشرعية وجعلوا من اللاشرعية شرعية . والى هذا هنالك مبانٍ تعهّدوها اجيالاً طويلة بالتعديل والتحوير ، والتوسيع والتجميل ، منها مثلاً السيرك الأكبر *Circus Maximus* الذي كان يقع بين هضبتي البلاتين والافنتين في المكان الذي خصص له منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، وخضع مراراً للتوسيع بحفر جنبات الهضبتين المذكورتين ، بحيث اتسع في عهد قيصر لـ ١٥٠٠٠٠ مشاهد ، فاذا به يستوعب في عهد ترايانوس ٢٥٠٠٠٠ منهم ، طوله ٦٠٠ متر وعرضه ٢٠٠ متر وطول ميدانه ٢١٤ متراً وعرضه ١٨٠ متراً . فتمداد هـذه المباني الذي لا ينتهي، من شأنه ان يسبب ، ولا شك، الملل ، اذا ما اخذنا بذكر عمليات الترميم

لحقت بها ، كما نسب الضجر والسأم بإيراد اسماء هذه العمائر التي لا حصر لها ولا عد التي
امبراطور يلشئها في عهـــده : من هياكل وميادين ، *Forums* ، ونوادٍ ، وحمامات
. فلنكتفِ هنا ببعض النماذج التي تمثلها خير تمثيل .

ي روما (راجع الشكل ٩ـص٣٢٣)، خضع هذا القطاع الواقع منها بين الكابيتول وال
يلوس والاكيلين والكويرينال ، لتغييرات جذرية . فالمكان الذي بقي فارغاً في هذا ال



الشكل ١٤ – الفوروم الروماني والمباني القائمة عليه في القرن الثاني
اكل: ١ ـ انطونين ؛ ٢ ـ فستا ؛ ٣ ـ قيصر ؛ ٤ ـ كستور و بولوس؛ ٥ ـ اوغسطس ؛ ٦ ـ فسبسيانوس
وتيطس ؛ ٧ ـ الكونكورد ؛ ٨ ـ زحل او ساتورن .

يتألف من الفوروم الجمهوري القديم، وهو ميدان ، ضيّق ، محشور، بقي معروفاً فيا
«الفوروم الروماني» . ولكي ينشئوا في قلب المدينة ـ العاصمة مجموعات من العمائر الض
ة بالعاصمة ، كان لا بد من استعمال مساحات جديدة من الاراضي . فالحريق الكبير ا
ى به روما عام ٦٤ ، حرّر الكثير من هذه المساحات المطلوبة ، مما اتاح لنيرون ان
«المنزل المذهب» *La Maison dorée* ، بحيث امكن في ما بعد، استخدام هذه الار
ة ساحات ومتنزهات ضخمة . وهكذا ارتفعت الى الشرق من المدينة عمائر ضخمة ، م
ليزه ، وحمامات تيطس ، كما شيّدوا ، على هضبة الاسكيلين : حمامات ترايانوس التي
ا ٣٤٠ متراً وعرضها ٣٣٠ متراً ، واخيراً هيكل الزهرة ، وهيكل روما ، وكلاهما
ات الامبراطور هدريانوس .

هنالك مشاريع تجميل اخرى ، جرت في اتجـاه آخر ، أي بين الكابيتول والكويرن
ى كان سبق لقيصر أن انشأ الفوروم الجديد ، الذي يحمل اسمه . ثم تَعقب ذلك انشاء

آخر من الميادين الامبراطورية ، تتالت من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي ، منهـا : فوروم فسبسيانوس مع هيكل السلام ، وفوروم نروه *Nerva* ، وفوروم اوغسطس مع هيكل مريخ - أولتور *Mars - Ultor* (أي « مارس المنتقم » لموت قيصر ، الذي قتل في ١٥ اذار) ، واخيراً الفوروم الذي يحمل اسم ترايانوس . وهـذا الفوروم كان يؤلف جزءاً من وحدة هندسية فخمة أشرف على تخطيطها المهندس ابولودوروس ، بعد ما توفر له من الموارد الطائلة ، إثر وضع يده على كنوز داسيا وما فيها من مناجم الذهب الغنية . وقد اشتملت هذه الوحدة ، فيما اشتملت عليه ، ما عدا ميدان فسيح ، سوقاً تجارية (هال) تألفت من خمسة ادوار ، ومنتدىً ومكتبتين : إحداهما للغة اليونانية ، والثانية للغة اللاتينية ، قامتا في طرفي الساحة التي ارتفع فيها عمود ترايانوس . وأضاف هدريانوس الى هذه الوحدة ، هيكلاً يحمل اسم ترايانوس ، بعد ان أرسى الحجر الأساسي وأودع قاعدة العمود ، حقّاً يضم رماد الامبراطور الراحل .

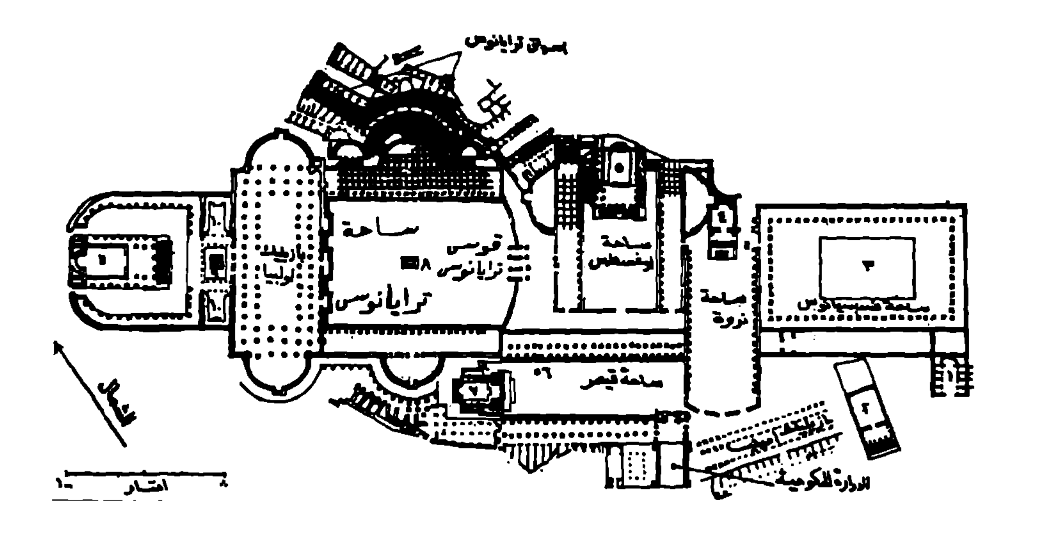
وجاءت بعدهذا ، باتجاه نهر التيبر ، الحدائق المعروفة باسم : شان ده مارس *Champs de Mars* وهي حدائق غنّاء : طليقة ، مفتوحة ، اخذوا ، منذ العهد الجمهوري ، يقيمون عليهـا المباني والعمائر ، زيد عليها ، في العهد الامبراطوري ، الشيء الكثير ، ابتداءً من اوغسطس الذي انشأ فيها ، هو نفسه ، مسرحين واربعة أرْوِقة ، والحمّامات الأربعة الفخمة الاولى التي عرفتها روما ، والتي عُرفت باسم أغريبا ، وبضعة هياكل ، بينهـا هيكل البانتيون ، أي هيكل السلام ، ثم ، وابعد الى الشمال : ضريحه . وحذا خلفاؤه حذوه ، فربطوا بالجسور العديدة التي أقاموها فوق نهر التيبر ، ضفته اليمنى بحدائق شان ده مارس . وهكذا تم دمج هذه الوحـدة بالشبكة الهندسية التي انتظمت مباني العاصمة .

أتينا على الكثير من اسماء هذه المباني ومسميات العمائر ، وقـد كان من الممكن إيراد المئات منها . وهذه الشواهد والأمثلة ، نضربها هنا ، فيها ، على ما نعتقد ما يكفي من دليـل لندرك معه مدى ما تناوب على هندسة المدينة من تعديل وتحوير وتغيير بدلت منهـا المعالم ، خلال قرنين من الزمن . وهكذا تمت لها صورة ولا اجمل ازداد بها منظر العاصمة ، بهاءً وسناءً بما تعهدوها به من تزاويق وتحلية ، في الاجيال اللاحقة ، جعلتها خليقة بعاصمة العالم .

التجميل والتنازل

نزّف عدد سكان هذه العاصمة على المليون ، فبزت بهذا العدد سكان اية مدينة اخرى قامت في ذلك العهد ، وهو عدد لم يكن ليكفي وحده ليؤمن لها مثل هذا المرتبة اذ كان من الضروري ان يتمكن مثل هذا العدد من السكان ، يقطنون في مثل هذا الاطار وفي ظروف مثل التي تحيط بهم ، وسائل العيش الكريم ، خليق بشعب دوّخ الكثير من الشعوب وبسط عليها سيطرته وسيادته .

فهل من عجب ، بعد هذا ، ان يخلق قيام مثل هذا الحشد الحاشد من السكان وتأمين اسباب معيشتهم ، مشاكل طائلة تتعلق بتنظيم المدينة وادارتها ؟ فكان على المسؤولين ان يضطلعوا بها ،



أسواق ترايانوس
ساحة ترايانوس
قوس ترايانوس
بازيليكا أولبيا
ساحة أوغسطس
ساحة نروة
ساحة فسبسيانوس
ساحة قيصر
الوزارة الحكومية
الشمال
أمتار

وهي مشكلات عرفت عواصم الشرق الهليني الكبرى ما شابها ، كما عرف اباطرة روما انفسهم ان يفيدوا ، على نطاق واسع ، من الحلول التي وُضعت لها. وقد رأينا كيف ان هؤلاء الاباطرة، أنشأوا ، في سبيل تيسير اعمال الحكم ، مصالح ادارية وبلدية رئيسية ، عهدوا بمهامهـا وادارة شؤونها ، الى حكام وولاة يؤمنون لهـا حسن سير الاعمال ، كمصلحة التموين ، والشرطة ، ومصلحة مكافحة الحرائق . واقتضى حسن سير الاعمال في بعض هذه المصالح وانتظامها ، القيام ببعض اشغال عامة ضخمة . من ذلك مثلاً ان اخذ الامبراطور كلوديوس، ومن بعده ترايانوس، بانشاء مرفأ ضخم في مدينة اوستي(راجع الشكل ١٠ ـ ص ٣٤٣)تسهيلاً منها لرسو السفن التي كانت تقوم بنقل الميرة والسلع من مختلف الولايات لتغذية هذا الجيش اللجب من السكان ، حاملة على الاخص ، القمح من مصر . وهكـذا قام على ضفاف نهر التيبر ارصفة طويلة كانت تفضي الى روما ، وهي ارصفة لا نزال نجهل ، اليوم ، الكثير من اوضاعها ، كثيراً ما تعرضت المدينة من جرائها ، ولعدم توفر الانشاءات الفنية اللازمة ، لاخطار الفيضانات . كذلك أنشئت في المدينة ، مصلحة تُعنى بشبكة المجارير وتسهر على صيانة وحراسة ونظافة المدينة ، كما أنشئت فيها قناطر عديدة لجر المياه تلبية لاشتداد الحاجة المتزايدة لها ، ولا سيا بعد ما قام من هذه الحمامات الكثيرة . فقد انشأ اوغسطس لوحده ، اربعة من هذه القناطر المائية ، وانشىء غيرها ، فيا بعد ، بحيث بلغ عددهـا ٢٤ قناة لتأمين مقطوعية المدينة ، من الماء التي بلغت في اواخر القرن الاول للميلاد ، مليون متر مكعب ، في اليوم الواحد .

ويصاب المرء بشيء من الخبل والدهش امام ضخامة الانشاءات التي اضطرت ادارة المدينة ان تقوم بها ، لتأمين حسن سير الاعمال ، وهي اعمال وانجازات كانت ، مع ذلك ، اعجز من ان تحل كل مشكلات روما من هذه الناحية ، أو ان تحول دون ما كانت تتعرض له من الإحن والمحن ، وما يتهددها الفينة بعد الفينة ، من اوبئة وافدة . فحالة الطرقات أقـل من ان تفي بالحاجة ، وهي في الغالب ، طرقات ضيقة ، متعرجة . قليلة جداً بينها ، الجادات العريضة التي تفضي الى قلب المدينة لتتصل منه بالشبكة الرئيسية التي تنطلق في مهاب الارياح الاربعة لتتغلغل في جميع ارجاء الامبراطورية ، اذ كان اكثر هذه الطرقات عرضاً لا يتجاوز ستة امتار ونصف . وتفادياً للازدحام ، سبق ليوليوس قيصر ان اصدر امره بمنع دخول العربات والمركبات اليها . وكثيراً ما ارتفعت عقيرة مرتيال وجوفنال بالشكوى والتذمر من قرقعة وجَلَبَة اصوات العربات ليلاً ومن عرقلة السير نهاراً ، كما كانوا يتأففون ويتبرمون من تراكم الاوساخ والاقذار والنفايات في الشوارع غير المرصوفة يلقون بها في جادة الطريق. صحيح ان الانشاءات الصحية، كالمراحيض العامة كانت جمة بما تحلت به من المقاعد الرخامية والتماثيل والانصاب ، انما استعمالها لم يكن بالمجان اذ يترتب على من يستعملها دفع رسم طفيف ، في حين لم نكن نرى اصحاب المبـاني والعمارات الخاصة ينشئون شيئاً من هذه المرافق ، في سبيل المستأجرين عندهم . وكانت المنازل خلواً من المداخن بحيث ان استعمال المواقد والمدافىء ، شتاء ، كثيراً مـا تسبب عن حرائق

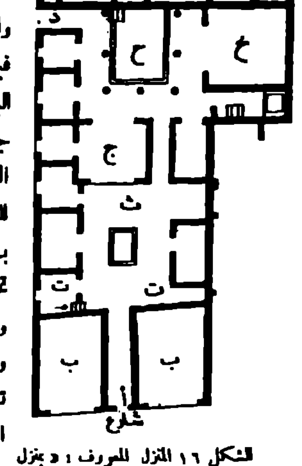
ساعد ضيق الشوارع ، على امتدادها بسهولة فتنزل بالمدينة اضراراً جسيمة لا تلبث ان تتحول الى نكبة نكباء لا يحتاج معها لبد أثيمة توسع من نطاقها . كما راح الرأي العــام يتهم نيرون بذلك ، وهذا ، المسيحيين ، في الحريق الهائل الذي التهم جانباً كبيراً منها عام ٦٤ للميلاد .

يجب ان نعزو السبب الحقيقي لهذه المصائب الى ضيق المساحة وقلة المكان بالرغم من توسيع حدود المدينة الادارية ، في عهد اوغسطس . فلتشييد هذه المباني الضخمة في قلب المدينــة شغل منها المساحة المعدة للسكن ، وهي عمائر لم تقم مكان الحدائق العديدة الواسعة التي توفرت لهــا في مطلع الجمهورية والتي لم يبق منها فيا بعد شيء ، إلا ما جاء منها في الضواحي والارباض ، او حول القصور الامبراطورية . فانشاء ضواح جديـــدة لم يؤلف حلاً للمشكلة بالنظر لبعدها عن المدينة ، فاضطروا والحالة هذه ان يزيدوا من ارتفاع البناء ، الامر الذي فتح المجال واسعاً امام المضاربات المالية، من جرّاء غلاء الاراضي،او من ارتفاع اسعار الايجارات . فقد وضع اوغسطس حداً أعلى لارتفاع المنازل ٢٠ متراً، خفضه ترايانوس ، فيا بعد، الى ١٨ متراً ، ثم راح المسؤولون يغضون النظر ، كما يبدو ، عن بعض التجاوزات هنا ، والمخالفات للقانون ، هنالك . وكان الطابق الارضي يؤلف عادة مسكناً ثرياً او يتخذ منه مخازن ودكاكين للاستثمار . ويقوم فوقه خمسة او ستة طوابق يرقى اليها بواسطة ادراج من الخارج . ولم يكن من النادر حدوث انهيار بعض هذه المباني ، لانعدام المراقبة من قبل السلطة او من اصحاب العلاقة . وكان كل دور من هذه الدور يتألف عادةمن بضعةمساكن ضيقة ، قلما تُقفَل نوافذها ، وان أقفلت فبستائر شفافة ، فيها يحتشد المستأجرون بعضاً على بعض ، ليموتوا شتاءً ، دفئاً من وطأة الزمهرير ، وليختنقوا ، صيفاً ، من شدة وطأة القيظ . فمن المعقول جداً ان يقضي السكان ، نهـاراً ، معظم اوقاتهم في الخارج ، وهذا ما اوجب على الاباطرة الاكثار من الساحات العامة والاروقة والحمامات العامة ، حيث تحتشد جماهير عاطلة عن العمل ، تؤمن لها الدولة ، ما فيه أوَد العيش والكفاف ، تتلهى بالتفرج على بعضها البعض ، ان لم تذهب لمشاهدة الالعاب في المدارج والمسارح .

وهذه المنازل العالية ، المشتركة السكنى ، توصف عندهم بـ « الجزر » *Insulae* او «مربعات» لأنها كانت تقوم عند مقاطع اربعة شوارع . ومن هذه المنازل كان يتألف معظم المساكن في روما وفي مدينة أوستي ، كما دلت على ذلــك الحفريات ، اذ عثروا على جدران بعضها قائم على ارتفاع الدور الثاني ، بينما لا نعرف عن اوضاعها في روما غير ما جاء عنها في الكتب الادبية .

ومع ذلك فقــد كان تحت تصرف الطبقة الثرية في روما – وهي طبقة ازداد عدد افرادها ايضاً في المدن الايطالية الاخرى – منازل *Domus* او دارات خاصة (فيلاهات) من طابق واحد بالأكثر ، ابرزت النماذج الاولى منها ، اثر الفن الهليني. فقد سيطرت العادات والاخلاق اليونانية في مدينة بومبيي ، حيث يمكننا ان ندرس هذه المنازل او الدارات ، كما كانت عليه في هندستها الاولى ، ونتتبع التعديلات التي خضعت لها فيا بعد. ففي أبسط النماذج كان المنزل يتألف بعد رواق مركزي ضيق يُفضي الى الشارع ، من حجرة رئيسية هي الدار او فنــاء البيت *Atrium* كان يقوم على سطحه حوض لجمع ماء المطر شتاءً . وفي هــذا الفناء او الدار كان رب

البيت يقضي معظم ساعاته يستقبل الاتباع و « الازلام » . ويلي الدار حجرة هي حجرة الأسرة *Tablinum* ، وفيها تحفظ ، كما يدل عليها اسمها ، الاوراق والوثائق والقراطيس الخاصة ؛ ويقوم الى جنبها غرفة اخرى هي غرفة الطعام *Triclinium* . ويلي ذلك ، الى الوراء ، مساحة غير مشغولة هي من اثر النموذج الهليني ، حديقة تحت رواق يقوم على أعمدة *Péristyle* مقسمة الى مربعات واحواض ماء ، بينها فستقية ، وتماثيل ، وغير ذلك مما يبهج منظره العين . وهذا النموذج المبسّط ، الناري ، هو بالطبع عرضة التغيير والتبدل ، كلما استطاع صاحب الدار الى ذلك سبيلاً ، فيضاعف مثلاً عدد الغرف والحجر تسهيلاً لعملية تهوية البيت وتعريضه لأشعة الشمس ونورها ، او باضافة حدائق جديدة حول المسكن . وعندما كانت تتوفر لصاحب الدار الوسائل المادية كان يضيف الى منزله جهازاً خاصاً التدفئة ، تفيد منه كل الغرف ، يُعرف عندهم بـ *Hypocaustes* ينقل البخار بواسطة قطع قرميد ، مثبتة تحت ارض الدار او يمر داخل الجدران اذا كانت مزدوجة ، وهو تطور جديد لم تعرفه منازل الاغريق من قبل ، وجهزت به بعض المنازل في روما . فايطاليا الجنوبية لم تعرفه ولم تستعمله ، اذ ان استعماله اقتصر على بعض الولايات المعروفة بقسوة شتائها وببردها القارس .



الشكل ١٦ المنزل المعروف : « بمنزل الشاعر المسرحي » في مدينة بومبيي : أ - المدخل ؛ ب - مخازن ؛ ت - الدرج ؛ ث - دار مع فستقية ؛ ج - حجرة الاسرة ؛ ح - رواق بأعمدة ؛ خ - غرفة الطعام ؛ د - مدخل فرعي . مزين بفسيفساء ورسوم ، منها على العتبة رسم يمثل كلباً مربوطاً بسلسلة ، مع الكلمات : احذر الكلب . في غرفة اخرى جوانح تطلق التمثيل ، ومنها عرف المنزل بهذا الاسم .

حتى بدون هذا الجهاز ، كانت الدارة تختلف من جميع الوجوه عن المسكن العادي المتواضع .

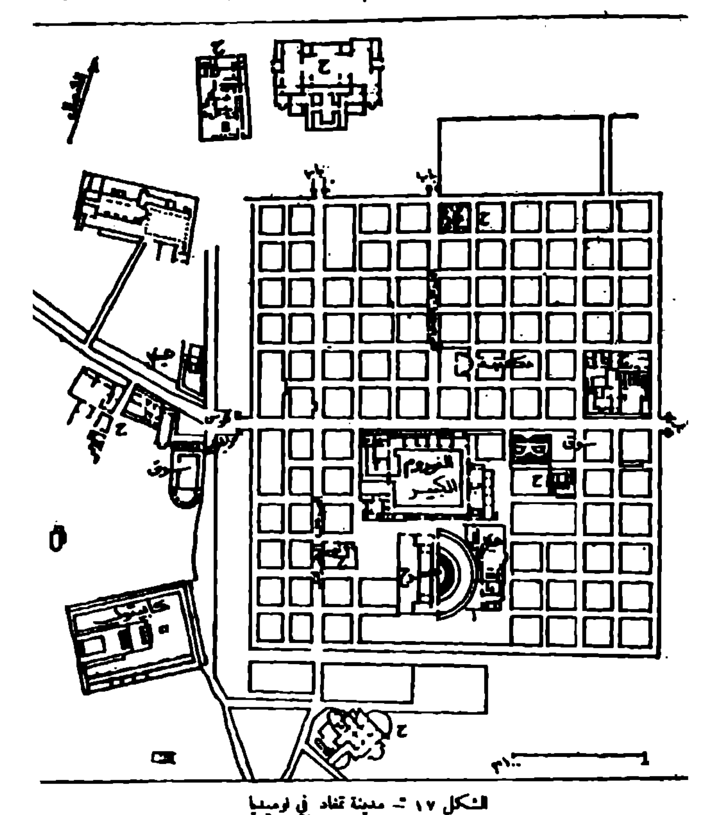
ومما لا شك فيه قط ، تناقص عدد الدارات في روما ، خلال هذه الحقبة التي امتدت قرنين ، بعد ان بلغ الغنى ذُروته في عهد الاسرة اليوليو - كلودية ، ثم اخذ بالانحدار تدريجياً . فالاحصاءات الوحيدة التي لدينا تعود القرن الرابع . فهي تجعل عدد هذه الفيلات نحواً من ١٨٠٠ مقابل ٤٦٠٠٠ مسكن . كان يوجد ، بالطبع ، اذ ذاك ، طبقة من النبلاء ، يعيش افرادها على المرتبات التي يتناولونها من الدولة ، او من ريع ما تدره عليهم املاكهم في الولايات خارج روما ، حيث كانت تجد راحتها ومتعة العيش ، بعد لم تعُد السكنى الفارهة في روما ، في متناول الخاصة .

مدن الولايات

اذا ما وضعنا المدينة - العاصمة جانباً ، فكم تعد الامبراطورية من المدن ، يا ترى؟ أينما اجلنا النظر وقعت العين على مدن جديدة تخرج الى النور بدافع من الحكومة بعد ان تغاضت عن المدن القديمة وصرفت لها تصريداً ، المؤازرة والمساعدة ، مفضلة الاحتفاظ بها

. الناشئة تتعهدها بالتخطيط والتجميل والتوسيع .

وهكذا نرى الامبراطورية تستحيل ورشة عامة للاشغال . وكلما الحت طبيعة الا
. التنقلت من القلعة الضيقة، حيث كانت تجثم منكفئة على نفسها ، ضمن اسوار تحد من انط

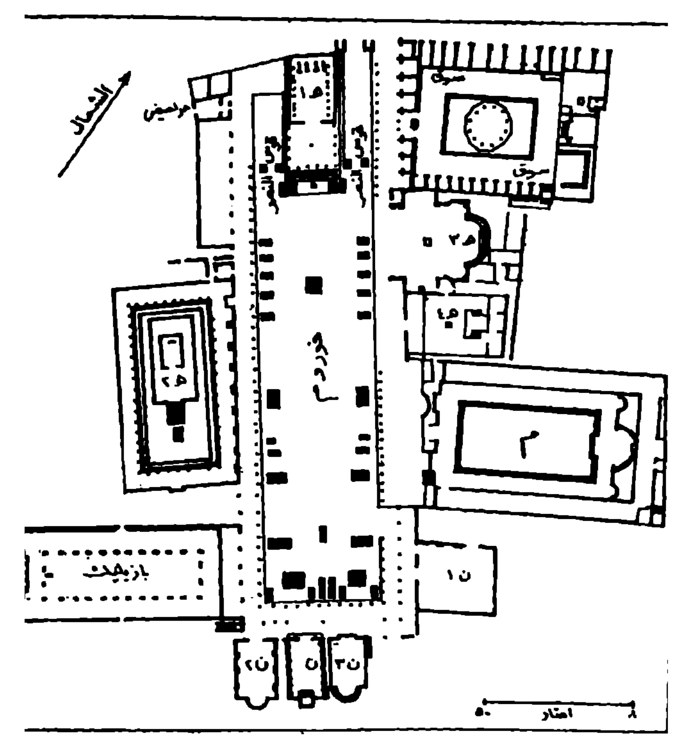


الشكل ١٧ – مدينة تمغاد في نوميديا

- حامات ؛ ب - بازيليك ؛ ت - هيكل صغير في الفوروم مع منبر الخطابة عند واجهة المبنى - مستعمر
المحاربين القدماء انشأها ترايانوس ، اما القوس المدعو بقوس ترايانوس ، هو بعد ذلك بقرن .
وقد اتسعت المدينة وتجاوزت كثيراً السور القائم حولها ، دون اي تخطيط هندسي .

. الى الافق البعيد، او من الحصن الذي كانت فيه والذي طالما ردعنها عاديات الدهر وطوار
، او من المعقل الذي كثيراً ما اعتصم فيه القائمون بانقلاب عسكري، لتنبسط في السهل
ساحاتها العامة ومبانيها ومنازلها . اما المدن التي لا سبيل لديها لتغيير موقعها ، فقد قد
احياء سكن جديدة لها . وكل هذه المدن كانت بحاجة ماسة الفراغ تشيد عليـــه

ي ما فيه حليتها وزينتها ، والدليل على ما تتمم به من يسر وازدهار ، والشاهد على ء
بحيـــة كبار المواطنين وسراة القوم فيها ، بعد ان تحققت منهم المنى والرغائب
الي الحضرية .



الشكل ١٨ — ميدان بومبي

م ـ مبنى على اسم كونكورد اوغست وعلى اسم التقوى ، شيدته اوماخيا ، رئيسة نقابة القصارين ؛ يستعمل مقراً لهذه النقابة .
ن ـ الندوة ؛
ن ١ ، ن ٢ ، ن ٣ ـ مبان أخرى لاستعمال الادارة .
هـ ـ هيكل ؛ هـ ١ ـ الكابيتول؛ هـ ٢ ـ ابولون ، هـ ٣ ـ الآلهة المنزلية (؟) ؛ هـ ٤ ـ فسبسيانوس .

وقد يكون النموذج المثالي لهذه المؤسسات« المستعمرة »مدينة خططت وفقاً للترتيب ه
ن اراض طليقة استوحوا مقومات تخطيطها من الطراز المستوحى من معسكر الج
ذا التخطيط الهندسي المربع الاضلاع«يستلهم عموماً» المبادىء العامة التي انتهجها الاغ

هندستهم ، منذ القرن الخامس ق . م اضاف اليها الرومان ، بدافع من عقائدهم وتقاليدهم الدينية ، هاجس او ضاغوط الاتجاه ، بحيث يستطيع المرء ان يحدد ، في مدينة كمدينة ليون ، في غاليا ، مثلاً اليوم الحقيقي لتأسيس المدينة ، وذلك بملاحظة النقطة التي يلتقي عندهـا خط ينطلق من نقطة تقاطع الخط الرئيسي من هذه الطريق ، *Decumanus maximus* مع الخط الرئيسي للطريق ذي الاتجاه الشمالي الجنوبي ، حيث يجب ان تقوم الساحة العامة في المدينة او الفوروم . وعلى موازاة هذه النقطة المركزية تنطلق خطوط كبرى وصغرى بحيث تتحدد معها مواقع القطاعات الاخرى . فالمباني العامة ذات الشأن تحتل من هذه المواقع مراكز غير قابلة للتغيير ، بحيث لم يعد موجب ليتكيء المسرح على منحدر هضبة او سفح تلة. وهذا النموذج القياسي تولى وضعه بالطبع مهندسون يعملون في مصالح حكومية خاصة .

الا ان تطبيق هذه الهندسة لا يمكن ان يأتي كاملاً ، على الوجه الاحسن ، الا في حالات المدن التي تنشأ دفعة واحدة بجميع مقوماتها وقطاعاتها . اما تلك التي تنشأ حول معسكرات الجيش ، فتأتي عادة ، على غير نظام وانتظام وان كانت قيادة الجيش تسهر على هذه الضواحي وتنظيمها . فالتشويش لا يوجد الا في المدن القديمة ، او بالاحرى ، في الاحياء القديمة من هـذه المدن ، اذ ان الجديدة منها تضطر للنزول عند قواعد التنظيم المعمول بها . وهكذا ، فالمدينة المعروفة بمدينة « هدريانوس » التي تقع الى الشرق من قلعة أثينا ، تنسجم تماماً مع قلعة مدينة تيزيه *Thésée* .

ونجد في معظم الاماكن ، اكثر من جو عائلي لاننا نواجه مباني من نموذج واحد لا بد منه ولا مندوحة عنه لكل مدينة . في اي مدينة كانت ، نجد ميداناً (فوروم) هو قلب المدينة ، وباحتها المركزية ونقطة الجذب منها . وقد يشاد فيهـا ، احياناً منبر الخطابة يسمى عندهم *Rostres* ، كما هي الحال في روما ، مع ان المواطنين انقطعوا ، منذ زمان بعيد ، عن عقد مثل هذه الاجتماعات . ويقوم الى جانب الفوروم، عادة ، ادارة المدينة (*Curie*)حيث يعقد المجلس البلدي جلساته ، كما تقوم البازيليك او النادي، وعلى مقربة من الفوروم تقوم ايضاً السوق التجارية (هال) التي تتألف من مجموعة من المخازن ودكاكين الباعة ، في صف واحد . وفي الاحيـاء تنتصب هياكل ومعابد على شرف آلهة متنوعة . والمدن التي تود ان تأتي بالدليل على رومانيتها وتحرص على المباهاة بهذه العاطفة ، تقيم لها في مكان تختاره لهذا الغرض « كابيتول » اي هيكلا على اسم الإله جوبتير الكابيتولي ، او اكثر من واحد ، لعبادة : « رومـا ـ اوغسطس » او « اوغسطس » ، ولهذا وذاك من هؤلاء المؤلهين (*Divi*).والحاجة للملاهي تقضي بانشاء مسرح تكاد لا تخلو منه مدينة ، وكثيراً ما مدرج . ولا بد في كل مدينة من حمامات ، وملعب للالعاب الرياضية . اما المكتبة ، وأن كانت اقل انتشاراً من غيرها من هذه المؤسسات ، فهي موجودة، مع ذلك ، في مدن عديدة . ويكتمل العقد النظيم اذا ما اضفنا الى هذه السلسلة القناطر المائية .

والفارق الاكبر بين مدينة وأخرى، والمميز بينهما هو ما فيها من المباني الرسمية، وما هي عليه

هذه المباني الرسمية من العظمة وغنى الزخرف والنقش . وعندما أصيبت مدينة بومبيي بالخراب التام ، عام ٧٩ للميلاد ، كانت تعد ميدانين (فوروم) ، احدهما مثلث الاضلاع او الشكل ، وهو شيء غير عادي ، وعشرة هياكل ، بينها اثنان لعبادة الامبراطور ، وصالة للحفلات الغنائية (أوديون) تسع ٩٠٠ مقعد ، ومسرحاً يضم ٩٠٠٠ مقعد ، ومدرجاً يتسع لـ ٢٠٠٠٠ مشاهد ، وثلاثة حمامات ، وملعبين وغير ذلك من الانشاءات العامة . وبالفعل ، فقد كانت بومبيي مدينة غنية . غير ان القرن الثاني ، الذي هو عهد الأسرة الانطونية ، يؤلف العصر الذهبي للمدن ، التي راحت اذ ذاك ، تتنافس فيما بينها لتجميل معالمها ، كما كانت تحث مواطنيها على ان يتبرعوا ، في حياتهم او ان يوصوا ، بعد وفاتهم ، نقداً او عيناً ، بما يساعد على تشييد المباني . وهكذا راحت الميادين تزدان بأنصاب التماثيل ، كما راحت تمتد وتتسع ، وترفل بالرخام والمرمر ، وبأقنية لتصريف المياه ، حجارتها من المرمر ، شريطة ألا تكون مقالعه بعيدة كثيراً عن المدينـــة ، وبالأروقة القائمة على العُمُد بحيث يأمن المارّة حرارة الشمس صيفاً والأمطار شتاءً . وهكذا لا تلبث حصون المدينة وقلاعها ان تزول وتختفي معالمها . وقد يقوم احياناً اقواس النصر مع ما لها من أرتاج ضخمة . كل هذا حدا بأحد الخطباء في آسيا الصغرى – مع ان مثل هذا المنظر ليس بغريب عن النظر في مدن الغرب – هو ايليوس ارستيدس ان يهتف قائلاً : « والظاهر ان العالم كله في شبه عيد ، فقد نزع عنه أثماله البالية ومباذله الرثة المصنوعة من الحديد ليستسلم بكليته للحرية وللذة العيش . كل المدن تناست منازعاتها بعضها مع بعض ، او بالاحرى اخذت تتنافس بعضها مع بعض بحيث تحاول الواحدة منها بز الاخرى جمالاً وبهاءً وسناءً . أينما وقع الطرف ، وجـــد ملاعب واحواضاً للماء وادراجاً ضخمة ، وهياكل ، ومصانع ومشاغل ومدارس » . وبالفعل ، لا نجد مدينة من بين مدن الامبراطورية لا ترتدي ، بين عهدي ترايانوس ومارك اوريل ، حلة جديدة وزينة جديدة – كأنها تسهم من جهتها في تجميل العالم الروماني ، بهـــذه الانصاب البيضاء من تماثيل وعواميد وملاعب بيضاء ... لا – كان ينقصها كما نقص الكاتدرائيات ، في زمانها ، هذا اللون الزنجاري الذي تضفيه الاجيال والعصور على المباني .

الدارات *Villas*

استمرت حركة اتساع المدن وتجميلها ناشطة في عهد اسرة ساويرس . ومع ذلك ، سيراً مع سنّة التطور التي تقتضي أن يجيء الحاضر المستقبـــل ، وألا يطلع شيء بالطفرة ، أطل منذ عهد الأسرة الانطونية شيء جديد . فقد وجدت المدينة نفسها ، وجهاً لوجه ، مع منافسة عرفت حظاً كبيراً ، هي « الدارة » . فقد جاء الحديث عنها في معرض الكلام عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية : فالملكية العقارية الضخمة اخذت تنتظم وحدة متكاملة متكافئة ، كما اخذ كبار الملاكين ينأون عن المدينة هرباً من هذه المراسم والاعراف والعادات وما تجره من مضايقات ، وتفادياً منهم للنفقات الباهظة التي كانت تفرضها عليهم مستلزمات الحياة في المدينة . فلنلقِ الآن نظرة دقيقة على جوهر الوضع الذي قامت عليه « الدارة » في الاساس .

بالطبع ليس المقصود هنا المنزل الريفي *Villa rustica* الذي كان يضم المباني اللازمة لاستثمار

الاقطان مع مساكن الشغيلة والعمال ، وغير ذلك من اصطبلات وصِيَر ، ومزارب الخيل والمراتب ، والاهراء والمشاغل . فليس في هذه كلها مجال لمراعاة الذوق الفني والأخذ بأصوله ، والتقيد بقواعده : من عمارة وترتيب وتنظيم. فالشيء الذي يستبد بالانتباه ويستأثر به هو مسكن صاحب هذه الاقطان . فهذه الدارة ، عند قيامها ، كانت تقع على مقربة من البيت الريفي ، بحيث يتاح لرب الارض مراقبة الاستثمار والاشراف على ما يجري فيه من اشغال واعمال . ليس من المفروض قط ان يقوم مثل هذا النزل في كل الاملاك والاقطان الكبيرة . ولكن لكل من هؤلاء الملاكين الكبار دارة واحدة ، على الاقل ، وقد يكون له أكثر من دارة أحياناً . أفلم نرَ كيف ان بلين الاصغر كان له منها اربع : منها اثنتان في غاية الابهة والغنى ، احداها بالقرب من مدينة اوستي ، والثانية في مقاطعة توسكانا .

عرف الشرق دوماً مثل هذه الدارات التي كانت عادة تقوم في وسط الاملاك الواسعة الشاسعة التي يملكها كبار الاقطاعيين ، اذ كان صاحب الارض يحرص دوماً على إقامة دارة له في قلبها ، يعيش فيها عيش السراة والنبلاء الإقطاعيين . وهذه النُزُل الريفية كانت تبدو كأنها حصون حصينة ، تحيط بها الحدائق الغناء حيث يتوفر القنص والصيد على انواعه ، تعلوها الابراج والقلاع . ليس عندنا فكرة قط عما كانت عليه بالفعل هذه الدارات في عهد الامبراطورية ، ولعلها قد تكون على شاكلة هذه الدور الافريقية المرسومة في بعض الفسيفساء .

وأكثر النماذج شيوعاً وانتشاراً هو النموذج الذي أطل علينا في مكان آخر من ايطاليا. فاذا كان على الملاك الكبير في شبه الجزيرة الايطالية ان يسكن بين املاكه واقطانه، فقد اتخذت الدارة ، قبل نهاية العهد الجمهوري ، طابعاً مستقلاً عن استثمار الارض . وقد اخذ الناس بالزي المستبد بالعرف : فراحوا ينشئون لهم مراكز للاصطياف ، بالقرب من شواطىء البحر او في بعض المواقع الجبلية ، ذات المناظر الطبيعية الفتانة ، من جبال اللاتيوم ، او في نقاط معينة مشهورة، مثل توسكولوم وتيبور. ففي عهد الاسرة اليوليو ــ الكلودية كان كل ابناء الطبقة الارستوقراطية العليا قد انشأوا لهم ، في هذه المراكز ، بيوتاً جميلة للغاية حيث تتوفر كل اسباب الراحة واللهو. وهذا النمط بعينه انتشر في الولايات الغربية اكثر من اي نمط آخر ، لما يوفره لاصحاب الدارة وسكانها من هدوء وطمأنينة وسلام ، ولسيد الدارة ، من نفوذ وشأن بين سكان الريف ، حيث كانت تتم للسيد : المشارفة على مزارعه ومزدرعاته ، وتتوفر له كل اسباب الاستجمام والراحة .

فالدارة السكن ، وحدها مشروع قائم بذاته ومنهاج. والذي يتوق اليه صاحب هذه الدارة ويرغب فيه هو تقليد المنزل الثري في المدينة، بحيث لا يلبث ان يصبح هذا المنزل الدارة المفضلة . بالطبع ، ليس من المتوقع قط ، ان يكون عدد الوافدين والزائرين ، من صُحبٍ وخلان ، على نسبة ما هم عليه في المدينة ، كما تنقص بالتالي وتقل، علاقة سيد الأرض برجال الادارة وبالرسميين من ممثلي الحكومة . ولذا تصغر مساحة البهو أو صالة المنزل، ويُقتصر فيها على ما يؤمن لصاحب الدار ولذويه ، متعة الحياة وهناءة العيش الرخي ، كالاروقة المنتصبة على المواميد ، والحدائق

والرياض الغناء بعد ان اتسعت الأرض ورحبت منها الارجاء ، وعلى نسبة الموارد والدخل الذي يؤمنه الاستثمار لتوفير اسباب الراحة واللذة . ينفرج الرتاج عن غرف يزداد معها المنزل طولاً ، كما يزداد عرضاً بما يضاف عليه من اجنحة جانبية تقوم بينها افنية واسعة رحبة ، وأروقة مستطيلة. ويأخذ بعض مراة القوم بمضاعفة الغرف بحيث يتوفر بينها اكثر من ردهة للاستقبال، واكثر من غرفة الطعام ، والعديد من الغرف، لفصلي الصيف والشتاء، تجهز الاخيرة منها بشبكة التدفئة على الهواء الحار . وكثيراً ما نرى في الدارة مكتبة عامرة بالكتب والمؤلفات مع كوى في الجدران، لاقامة الانصاب والتماثيل، كما نرى الحمامات. وتفرش ارضية الحجر بالفسيفساء كما يتدلى من الجدران رسوم وصور فنية . وكثيراً ما كانت الجدران والعواميد تغطى بانواع فاخرة من الرخام الجميل كالبرفير ، كذلك كانت تقام في الحدائق أكشاك تلتف حولها الاغراس المتمرجة يتخللها متنزهات وملاعب وميادين ، لضروب الفروسية على انواعها وسباق الخيل ، واحواض السباحة وفستقيات تنطلق منهــا المياه وأحواض لتربية الأسماك على أشكالها . ويقوم تحت تصرف سيد الدارة الكثير من العبيد والارقاء لتأمين أعمال الفلاحة والزراعة والاشغال الاخرى التي يتطلبها حسن استثمار الارض ، تحت اشراف وكلاء ورؤساء ورش ، مما يزيد من نفوذه وعلو شأنه في المنطقة حتى وفي المدينة القريبة ، فينصرف بعد انتهاء عمله الرسمي في الوظيفة ، أو بعد إحالته على التقاعد والمعاش ، الى العيش الرخي يستمتع بما تم له من نعمة سابغة وبما وفره له غناه وثروته الطائلة من متع ذهنية ، ومسرات مادية .

وقد تختلف هذه الدارات التي عرفت منها ايطاليا عدداً كبيراً ، بعضها عن بعض بنسبة غنى اصحابها واخذهم باسباب الحضارة . ومن هذه الدارات الفخمة : دارة آل لورنتس ودارة آل توشي، التي خلد بلين الاصغر ذكرها من خلال الوصف الأخاذ الذي تركه لنا في رسائله المشهورة التي وضعها في عهد الاسرة الانطونية . امــا في الغرب ، فالحفريات الأثرية التي جرت هناك ، كشفت لنا عن العديد من هذه الدارات في مقاطعات بريتانيا ، وريتانيا وغاليا ، ويعود معظمها القرن الثاني ، وهي بعد ، لم تبلغ الذروة في تطورها نحو التكامل ، كما لم تبلغ هذا البذخ الذي تم لها بعد ذلك . وهذا البذخ وهذه الابهة التي تجلت في الدارات الريفية يؤلف تكذيباً لمن يدعي وقف الحضارة وإقصارها على المدن دون سواها، انما يبدو في الريف اكثر فردية واثرة، واقتصر على طبقة معينة من الناس اقامت رخاءها على بؤس الشعب وشقائه .

خاتمة المطاف

يجب ان نوسع من نظرتنا الى الافق . فعندما لا تفرض الانجازات الفنية التي طلعت بهــا مدنية ما، نفسها بنفسها، بما لها من قيمة جمالها ، فالفن يبقى لا قيمة له إلا بنسبة ما يؤلف عنصراً زخرفياً للبناء القائم. ليس من عجب قط ان نختم بحثنا هذا عن الجهود البنائي الزخرفي بملاحظات تتناول كل حضارة الامبراطورية الرومانية، في طورها الاخير .

حضارة نبلاء

بين هذه الملاحظات ، ملاحظة ليست بجديدة ، طالما سبق وأبديناها من قبل أكثر من مرة. فبالرغم من هذه النزعة الانسانية التي انبثقت عن هذه الفلسفات اليونانية بقيت هذه الحضارة ، قاسية ، لا ترحم ، شديدة الوطأة على الطبقات الاجتماعية الدانية ولا سيا على هذه الطبقات الريفية منها ، فسخّرتها بلا رحمة لتأمين حاجاتها ولما نمت بـه من كماليات. والحال ، فالكماليات استنفد انتاجها قدراً كبيراً من الوسائل التقنية المعروفة اذ ذاك ، وفي سبيل تأمين هذه الكماليات ، هُدِر جانب كبير من ثروة الدولة ، وقدر كبير من الجهد البشري لتأمين رفاهية أقلية ضئيلة ولتوفير ما يضفي على حياتها : البهجة والغبطة والسرور ، او ما يؤمن لها زينة الدنيا ، دون ان يعود هذا الجهد وهذا الانفاق بشيء يذكر على تطوير وسائل الانتاج ، كما ان هذه الطبقات الكادحة لم تفد ، حتى في أكثر الحالات ملاءمة لها ، سوى شيء يسير من هذا كله. وبأحسن الحالات ، لم تجد هذه الطبقات سوى درس ثقافي لم يُثر فيها على الصعيد الديني اية عاطفة او شعور يعوض عليها ما سَخّت به من عمل شاق. ففي مدينة بومبيي المزدهرة كما في روما الامبراطورية ، نرى السواد الاكبر من المساكن والمنازل في حالة مدقعة من الفقر والقذارة . فماذا نقول عن أكواخ الفلاحين التي تكاد تخلو من الضروريات ، فلم يبق او يصلنا منها شيء ؟

وحدة واطراد

مشكلة التوازن لم تكن مشكلة النظام الاجتماعي الوحيدة . فمتى يا ترى ، فقدت هذه الوحدة قيمتها وأصبحت اطراداً ؟

فمن أشتات هذه الولايات المتباينة ، كونت الامبراطورية دولة ، تولى الامر فيها رجل فرد ، كان من أولى واجباته نحو روما ، تحقيق مثل هذه الامبراطورية او السعي نحو هذه الغاية بعد ان تنكّبت العهود الماضية عن تحقيق مثل هذا الامر ، او باءت المحاولات التي بذلت في هـذا السبيل بالفشل ، فكان ذلك كله مبرراً في نظره لمعاودة الكرة وتحقيقه. ولكي يؤمّن لهذه الدولة ما يلزم من قوة وسلطان ، راح هذا السيد المطلق يحاول ، عن سابق قصد وتصميم ، افراغ هذه الولايات الاقليمية في قالب واحد. فكتب له النجاح في ما يتعلق بالادارة وما يتصل بهـا ، وتدخل شخصياً لكي يزيد من قوة التطور الذي اخذت الامبراطورية باسبابه في المجالات الاقتصادية والاجتماعية ما لا يمكن لاحد نكرانه. إلا انه باء بالفشل عندما راح يحاول تحقيق الوحدة الدينية لهذه المراسم وطقوس العبادة الرسمية ، وهي وحدة تمت فيما بعد لغير هذه الطقوس والعبادات . اما في المجال الفكري ، فالوحدة تحققت بالرغم من الازدواجية اللغوية . ولكن ماذا من الفن بعد هذا ؟

لا يستطيع احد ان ينكر ما تم من وحدة في هذا المجال . كذلك لا يصح اطلاقاً لأحد ان يتجاهل بعض الفروق والنزعات الاقليمية التي طبعت مظاهر هذا الفن. فاليونان وآسيا الصغرى وسوريا ومصر ، لم تكن اراضي جديدة او شبه جديدة ، كما كانت افريقيا واسبانيا او غاليا . ففي مصر ، الامبراطور هو فرعون ، ولذا لا نراه يتنكر للفن المقدس . ففي عهد ترايانوس ، أقيم

الكشك الذي اشتهر به هيكل فيليه . فبعلبك المشهورة باسم هليوبوليس ، وتدمر بما تم لهما من المآثر الفخمة، ومن الاعمدة الضخمة وما فيها من وفرة الزخرف ، لا تشبهان بشيء، مدينة تمقاد او كولونيا. ومع ذلك ، فهذه الفروق زالت وانتفت امام هذه المُثل المشتركة التي هدفت كل المدن الرومانية لتحقيقها .

اما المشكلة الصميم ، فمشكلة هذا الغرب المتخلف عن ركب الحضارة. فلو عرف هذا الغرب ان يتدرج في اقتباسه ، بتؤدة وتمهل ، حضارة ادبية ومادية ، أقل ضغطاً وعنفاً من تلك التي فرضها عليه فاتح غاز ، بقوة السلاح ، اما كان استطاع ان يحقق مثل هذه الحضارة ، بالاعتماد على ما فيه من طاقات اصيلة كامنة ؟ فالفضل في إثارة مثل هذا الشك يعود لكميل جوليان الذي عرف ان يقف وحده ويعارض نظرية تقليدية استبدت بالمؤرخين . وعلى شاكلته ، يمكن لنا ان نفترض طلوع حضارة اسمى بكثير من هذه المدنية الغالو ـ الرومانية ، كما يجوز لنا ان نفرض طلوع مدنية اسبانيا واخرى افريقية .

ولكن ، هذه كلها افتراضات من وحي الخيال ، واحلام خطرت في البال .

الكتاب الثاني

حضارة العهد الأمبراطوري الثاني

(القرنان الثالث والرابع)

لقد أطلق على هذا العهد اسم العهد الامبراطوري الثاني : ولا يعني هـــذا الاطلاق سوى التوقيت الزمني فقط .

ليس هذا العهد محدوداً بتواريخ واضحة . وليس في بدايته وفي نهايته ما يتصف بجلاء تلك الوثبات السياسية ــ الحروب المدنية ، حملة الاسكندر ، الحروب الاهلية التي لقب اوكتافيانوس عنده نهايتهـا بـ « اوغسطس » ــ التي تعين او ترافق احياناً ، اتجاهاً جديداً في الحضارة العامة يراه المعاصرون أنفسهم . فمتى ينتهي العهد الامبراطوري الاول يا ترى ؟ كثيراً ما يلحق به عهد سلالة ساويروس (١٩٣ ــ ٢٣٥)، مع ان التجديدات التي حققها هذا العهد أعظم عدداً وتأثيراً، في نظرة هذا المجلّد الشاملة ، من ان لا نؤثر على هذا الحلّ حلاً آخر . ولكن الاخذ بهذا الرأي لا يعمي بصيرتنا عن الاعتراضات التي يثيرها . وهنالك سؤال أكثر دقة ايضاً لأن الهامش فيه أعظم اتساعاً: أين ينتهي العهد الامبراطوري الثاني ، أي الامبراطورية نفسها ؟ هل في السنة ٣٩٥ ، تاريخ وفاة آخر امبراطور مارس وحده السلطة على مجموع العالم الذي احتلته روما في ما مضى ؟ ام في السنة ٤٧٦ حين فقد الغرب آخر امبراطور له الحق في هذا اللقب ؟ ولكن تواريخ أخرى قد اقتُرحت ايضاً ، منها ما يسبق هذين التاريخين ومنها ما يتوسطهما ومنها ما يتأخر عنها . واذا ما اقتصرنا على التاريخين الاولين اللذين يجمعان حولهما العـــدد الاكبر من الانصار ، فالمجادلات ابعد من ان تهدأ حول الأهمية الحقيقية او الرمزية للحدثين الاول والثاني وحول وعي المعاصرين لهذه الأهمية فوراً او بعد حين . لذلك فالافضل ألا نختار حتى نحتفظ بحريتنا ، عند الحاجة ، في ان نتخطى قليلاً او كثيراً حدود القرن الخامس .

وليس هذا كل ما في الأمر ولا أخطر ما فيه . فما هو مفهوم العهد ؟ هل هو العصور القديمة المتأخرة ام هو مقدمة القرون الوسطى ؟ غالباً ما يختار كل مؤرخ بحسب أصوله الشخصية ، وكل مؤرخ على حق في ما يفعل : فتتفكك العصور القديمـــة تدريجياً وتشيّد الاسس ، الزمنية او

الروحية» لما سيغدو القرون الوسطى ، لا سيا اذا ما درسنا هذه الاخيرة في بيزنطية . كل ما هو بشري ينطوي» في كل آن» على بعض القديم وبعض الجديد . بيد ان العهد القديم ، في ما يعنينا ، هو الذي لا يزال حياً في جوهر مفهومه للانسان وللمجتمع الذي يحاول التكيف حتى لا يدركه الفناء .

نحن نسلّم جداً ان في ذلك تجاوزاً زمنياً . ولكن المهم ليس في ذلك . فمن السهل جداً ، لا بل من الفطري جداً ايضاً» ان نرى في هذه الامبراطورية» «المتأخرة» زمنياً ، وفي حضارتها» الاشكال الذابلة والمريضة وحتى الميتة لحقائق سابقة سليمة . بيد ان هذه الحقائق ليست سليمة بهذا المقدار ، واما « روماني الانحطاط » فلا وجود له إلا في مخيلة الرسّامين والشعراء . فهو ليس براء من المعاضل الجديدة او المتزايدة خطورة التي عليه ان يواجهها فحسب ، بل انه لا يبدو أقل نشاطاً ولا اقل ابتكاراً من أسلافه في محاولة حلّها . اجل ان من يدرس العهد القديم ويراه ينتج هذا القدر من الآراء التي لا يزال العالم المعاصر يتغذى بها ، لا يستطيع الامتناع عن ابداء حكم ازدرائي امام اهمالها التدريجي . ولكن من يرى آنذاك ايضاً كل تعلقه بالحياة ومقاومته لهجوم القوى المضادة لا يستطيع الامتناع عن ابداء شعور اعجاب بهذه الحيوية المستمرة. اما نحن فلنحاول تجنب حكم الاول وشعور الثاني» فالرؤية والفهم هما اهم بكثير من توزيع المديح والمذمة.

الفصل الأول

أزمة القرن الثالث

في شهر نيسان من السنة ١٩٣ أعلن جيش بانونيا سبتيموس ساويروس امبراطوراً ؛ وفي شهر ايلول من السنة ٢٨٤ ، نادى الجيش الذي حارب الفرس بديوكليسيانوس امبراطوراً ايضاً . ان هذين التاريخيين يحدان عهداً – هو القرن الثالث اجمالاً – مليئاً ببوادر ازمة متعددة الاشكال ينجم عنها العهد الامبراطوري الثاني . فليست الرتبة السياسية والعسكرية اذن نادرة الحصول بين هذا العهد الاخير والعهد الذي سبقه . غير ان استطالة هذا العهد النادرة وحدها قد تهيب بنزع هذا الطابع عنه ، فليس من معاصر عاشه كله ؛ وليس من معاصر ذاق آلامه النفسية المبرحة كلها ، الموزعة في الزمان والمكان . وليس من معاصر استطاع التخلص من خداع الوقفات المضحكة التي تخللته ، وليس من معاصر استطاع بالتالي استخلاص معناه الحقيقي . ولكن اكتشاف وحدة العهد يسهل امره اليوم على من لا يتلهى بالاحداث العارضة ، ولمجموع هذه الحوادث من الاهمية في تطور الحضارة العام ما جعل هدف هذا الكتاب بالذات يفرض تحديد مظاهره الرئيسية .

نحن لم نخفِ قط ان التوازن الذي حققه العهد الامبراطوري الاول كان توازناً مترجرجاً : وان الصعوبات التي برزت في القرن الثالث هي بالضبط ما الح في اغلب الاحيان استقصاء وتبيان جراثيمها في القرنين الاولين . كانت مجرد جراثيم آنذاك وكان بالامكان ان تجهض . ولكنها نمت شيئاً فشيئاً . وجاءت الظروف والإعداءات تعطي الأزمة اتساعها الفائق . فبدا العالم الروماني، بعد أن عاش عدة قرون عيشة مشتركة ، وكأنه يتفتت جارّاً في انهياره الحضارة التي وفر لها الاطار .

الفوضى العسكرية

ان اول جرثومة اختمرت وخلقت البلبلة التي افادت منها كافة الجراثيم الاخرى هي الخطر العسكري الداخلي . وهي اخطر جرثومة حقاً لانها استهدفت القاعدة نفسها لنظام نشأ عن انتصار الاقوى خلال الحروب الاهلية . وهي اقل ما جهله الرومان من الجراثيم : فقد سبق وبرهنت عن مفاسدها خلال ازمة السنتين ٦٨ – ٥٩ . لذلك اتخذ ضدها

المزيد من الاحتياطات : وكان تلاقي شرها السبب الموجب للنظام الذي اعطته سلالة الانطونيين طيلة قرن تقريباً ، دوام الحياة وسنى العظمة .

اقلع الرومان ، منذ ترايانوس ، عن سياسة الفتح حادّين جهد المستطاع من دور الجيش . واتخذوا حينذاك ، بنوع خاص ، من الخلافة بالتبني ، مبدأ وعقيدة واعتمدوها مستفيدين من ان بعض الاباطرة قد ماتوا دون ان ينجبوا اولاداً . فالح ذلك اختيار الاجدر بنية التأثير على القادة قبل الجنود .

غير ان الاحداث اخذت على نفسها ، حتى قبل وفاة مارك — اوريل ، اظهار ركاكة هذه الاحتياطات . فعلى الرغم من تصميم روما على السلم ، جدّدت مبادرة العدو الخارجي عهد الحروب الكبرى التي اعادت للجيش شعوره بقوته الحقيقية . فبرهن اقدام اوفيد كاسيوس على اغتصاب السلطة ان القادة ما زالوا معرضين للتجربة وقضى اخيراً انتقال السلطة الى كومودوس على ما في نظام التبني من ابهام: كان من شأن الوراثة ان تبرز، وقد ابرزت فعلاً مرة اخرى ، اباطرة غير جديرين جازت ضدهم ، بعد قطع اي امل آخر ، كافة المؤامرات .

وهكذا فان اغتيال كومودوس قد اعاد الى الجنود ، منذ السنة ١٩٢ ، حق اختيار الامبراطور . فاسرع رجال الحرس ، لا سيا وهم في خير مركز بفعل وجودهم في روما ، الى وضع لقب الامبراطور ، في مزايدة علنية بين طامعين : يختارون بينهما ذاك الذي يعتلي جدار معسكرهم ويمدهم باعظم عطاء ، اي ما يعادل ٦٠٠٠ درهم للجندي الواحد . ثم جاء دور جيوش الولايات التي تعلن قائدها امبراطوراً ثم تحارب احداها الاخرى وتتجه نحو العاصمة لفرضه فيها . خرج سبتيموس ساويروس منتصراً من المباراة الاولى وبدا انتصاره بشيراً بتنظيم المستقبل . فخلفه ابناؤه ، ودامت سلالته ، ببعض الصعوبات احياناً ، اربعاً وعشرين سنة بعد وفاته. ولكن اغتيال آخر انسبائه ، في السنة ٢٣٥ ، كان فاتحة نصف قرن من الفوضى العسكرية نصّبت الجيوش فيه وعزلت عدداً كبيراً من الاباطرة . فعدد هؤلاء اكثر من ان يحصى ، وان المصادر الادبيـة التي حاولت احصاءهم لم تأتِ على ذكر بعضهم : ولولا بعض النقود المضروبة باسمهم ، لجهلنا وجود بعضهم. فنادرون لعمري الاباطرة الذين استمروا في منصبهم بضع سنوات. وان غاليانوس الذي اعترف به امبراطوراً في روما لمدة ١٥ سنة ، منها سبع بالاشتراك مع والده ، قد تفوق على كافة الاباطرة الآخرين بطول ولايته ؛ ولكن اقاليم كثيرة لم تخضع له . اما اسعدهم حظاً بعده ، اوريليانوس وبروس ، فلم يتجاوزا خمس او ست سنوات . وكان نصيب الاكثرية الساحقة بضعة اشهر فقط ، ولم يعش احدهم ، بعد المناداة به امبراطوراً ، سوى ثلاثة ايام . اما موتهم فقد كان ما يجب ان يكون . فمنذ كومودوس حتى ديوكليسيانوس مات احد الاباطرة اسيراً في بلاد اجنبية ، وآخر متأثراً بضربات العدو ، واثنان ، احدهما سبتيموس ساويروس ، مصابين بمرض خلال العمليات الحربية ، وسمح اوريليانوس بتنازل منه لا نظير له ، للعظماء الذين استماد منهم تدمر وغاليا بان يعيشوا ويموتوا بسلام في ايطاليا ؛ ولكن الباقين دون استثناء ماتوا

ضحايا اقاربهم او ضباط اركانهم أو جنودهم او جنود احد منافسيهم

ان الفكر يكل والعقل نفسه يتيه حين نحاول جمع وترتيب التفسيرات التي توفرها المصادر — ويحدث ان تستغني عنها — لاختيار وزوال حظوة هؤلاء الاباطرة المتعاقبين ، والحاكين غالباً في آن واحد . فالجيوش تنتخب طامعاً سخياً بالأعطيات الحقيقية الفورية ، او بالوعود ، وقائداً يوحي لها الثقة بان يقودها الى النصر ، واي شخص آخر تقريباً في بعض الاحيان ، كما لو كان ذلك بدافع اناني ، رغبة منها بالاقتداء بالجيوش المجاورة . ثم تقتل بمثل سرعتها في الانتخاب ، بسبب فشل أو خيبة أمل ، أو شدة قصوى في النظام أو مجرد هوى ، حتى توفر لنفسها اللذة والكسب في انتخاب الخلف . والانتخاب يوازي الحكم بالموت : فاذا اصل البعض في التغلب على القدر ولم يتراجعوا امام الدسيسة ، فان البعض الآخر ترتعد فرائصهم خوفاً ولا يقبلون الا تخلصاً من الموت الفوري . ويحدث احياناً ، في هذه السلسلة الطويلة من الاغتيالات ، ان يتغلب الوجه المضحك الغليظ على الوجه المسرحي المنفر : فهي توفر ، لو ان المصادر اكثر تصريحاً ، حقلا دراسيا واسعاً للشغفين بالسيكولوجيا الخاصة بالجماعات .

لنغض الطرف هنا عن أوجه الزيفان ، مفتنة كانت ام غير مفتنة . ان هؤلاء الرجال ، الخشوشنين بفعل منشإهم ، يسكرون بقوتهم ولا يتقيدون بالنظام في غالب الاحيان . ولكن انفلات هيجانهم الصاخب والاولي يعبّر ، كما نرجح ، عن اندفاع قوى عميقة سنحاول فيما يلي تحديدها . ولا يجوز ان نغفل ان هؤلاء الرجال انفسهم ، وفي الوقت نفسه ، يرضون بالقيام بجوهر واجبهم . انهم يتحاربون بين جيش وجيش ، ولكنهم يحاربون العدوّ ايضاً . ويعرفه رؤساؤهم عند الحاجة ، وهم المستفيدون من هذه المنافات والمقدمون على هذه الاغتيالات ، كيف يعطون المثل في الحزم الانساني وفي القسوة على السواء . وهو الجيش ، في آخر المطاف ، من يخلص الامبراطورية بعد ان اسهم في ايصالها الى شفير الهاوية . وتكفي هذه الملاحظات لاقصاء النظرية السانحة القائلة بجنون جماعي لا يعقل ، على كل حال ، ان يدوم بهذا الاستمرار طيلة قرن تقريباً .

الخطر البربري

ان الخطر البربري ، الذي شجعته فوضى حوّلت الجيش عن مهمته الحقيقية والذي شجعها بدوره لأن تهديده ربط السلامة العامة بحسن ارادة الجنود ، قد ارتدى بسرعة فائقة طابعاً خطيراً مخيفاً . كان العهد الامبراطوري الاول قد حمى العالم المتمدن منه : فوقف في وجه الغزوات ، وحرس الحدود بتيقظ ، وطوّق وراقب نقاطاً نادرة برزت فيها بوادر انشقاق داخلي . فجاء هذا الحل منطبقاً على عالم بربري هادىء نسبياً . ولكنه ما لبث ان أثبت عدم فعاليته حين اخذت تهز هذا العالم ، مرة اخرى ، تيارات عنيفة ، منذ عهد مارك اوريل : ففي السنة ١٦٧ ، اتاح اختراق خط الدانوب لبعض جماعات تضمّ ، في ما تضم ، كواديين وماركوماشيين ولومبارديين ، اجتياز جبال الألب وبلوغ منطقة فينيتيا . فكان

ذلك ، اذ ما استثنينا بعض عهود مصر الفرعونية ، نهاية أمتن وأثبت أمن عرفه مجتمع قديم : نهاية « السلام الروماني » الذي تفتحت في ظله ، طيلة قرنين ، حضارة العالم الروماني .

اشتد ساعد شعوب صغيرة، أهملت عن قصد حتى ذاك العهد لأن احتلال جبالها او صحاريها بدا باهظ الثمن قليل الفائدة . وفي داخل الامبراطورية نفسها تجمع واهتاج بعض المستائين ممن أثقلت كاهلهم الحيـــاة النظامية التي ارادت الادارة فرضها عليهم ، وبعض الريفيين البؤساء ممن ضحي بهم لأجل عظمة المدن. وابان الحروب الأهلية التي اسندت السلطة الى سبتيموس ساويروس، خلق اشتراك قائد جيش بريتانيا في التنازع واستعانته بأفضل جنوده بغية تحقيق آماله في غاليا، وضعاً أسرع الجبليون الشماليون الى استغلاله على الفور؛ وتوفي سبتيموس ساويروس في ايبوراكوم *Eburacum (York)* اثناء حملة لم تنجح في استعادة سور انطونين بشكل حاسم : فاعتبر الرومان انفسهم سعداء اذا استطاعوا الاحتفاظ بسور هدريانوس . وارتدى مثل هــذا الطابع من السرعة التطور في افريقيا ايضاً حيث قطع البرابرة العصاة خطوط المواصلات بين الموريتانيتين بموازة جبال الريف وغامروا بغزوات بحرية حتى على الشواطىء الاسبانية . ومـا لبث البليميون كذلك ان هددوا مصر العليـا عند عالية الشلال الاول ، وايزوريتو جبـــال طوروس، آسيا الصغرى الجنوبية .

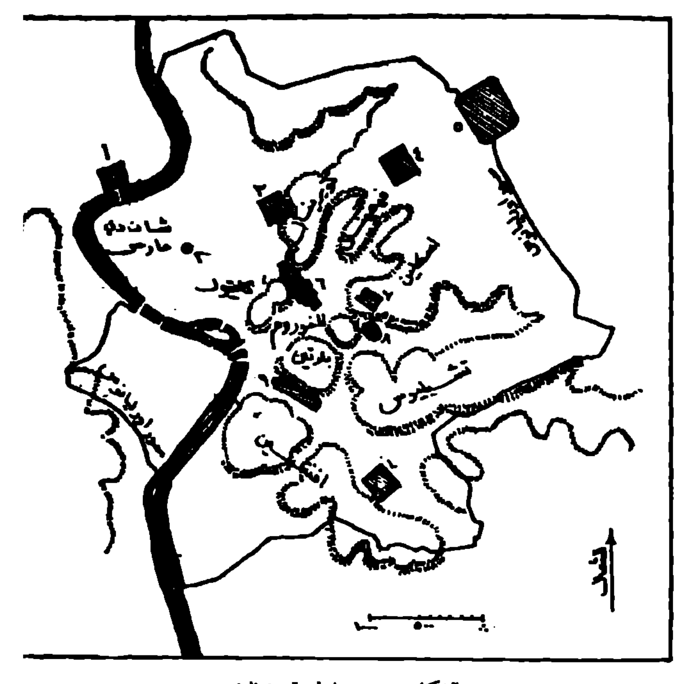
ولكن ما ذكرنا ليس سوى مناوشات لا شأن لها بالنسبة للأخطار الجديدة الكامنـــة في اوروبا الوسطى والشرقية من جهة ، وايران وبلاد ما بين النهرين من جهة ثانية .

اوروبا الوسطى والشرقية

فقد أخذت تحركات بعض الشعوب ، وهي تحركات واسعة وغامضة، تقلق السهول الاوروبية الشاسعة . ويغلب على الظن ان مصدر هــذه التحركات لم يكن آسيا الوسطى بعد، بل يبدو بالتفضيل انما بعثها، في القرن الثالث، هو نزوحات انطلقت من سواحل بحر البلطيق ، فاقضت بالقوط *Goths* جنوباً حتى نهر الدون، وبحر أزوف. فغلى العالم الجرماني ، بفعل تجمعه في الغرب ، طامعاً بثروات العالم الروماني ، وعاجزاً ايضاً ، في ارض اسيء استثمارها ، عن تغذية شعوب يستنهضها مثل اعلى قاس هو مثل المحارب المرتبط إقتساماً لرئيس اختير طوعاً ولا تقبل بالتنظيم الا في سبيل الحرب .

نحن نجهل التفاعل الذي حدث . فقد زالت قوميات قديمة وبرزت اخرى جديدة. وحدثت انصهارات لمصلحة شعوب كانت وضيعة جداً في الماضي. وتعلم سكان الامبراطورية ، بذعر يبرره الاختبار ايما تبرير ، معرفة اسماء جديدة لشعوب لا يهدئها ولا ينهكهـــا شيء : السـاكسون ، المستوطنون جوار مصب نهر الإلب ؛ والفرنك *Francs* المستوطنون ضفاف نهر الرين السفلي والاوسط ؛ والآلامـان *Alamans* المستوطنون ضفاف الرين العلوي والدانوب العلوي ، وقد دفع بهم الى الامام البورغوند والفاندال ، بينما اهتاج الكارب والسارمات الإيازجيين ، على طول نهر الدانوب وحدود آسيا ، بعد ان حركهم القوط والهيرول *Hérules* .

اختل اذ ذاك حبل الأمن في كل مكان ، وباستمرار تقريباً ، حتى داخل الحدود ، منذ
يموس ساويروس. فقام الساكسون بأعمال القرصنة ، حتى في بحر المانش ، وعلى شوا
بط . وحدث ان اجتاز الفرنك غاليا ووصلوا حتى اسبانيا . ودخل الألامان ايطاليـ
سوا الا في بافيا . واجتاز القوط تكراراً نهر الدانوب بغية غزو تراقيا تارة وموسيا والا



الشكل ١٩ ـ روما في القرن الرابع

احاط سور اوريليانوس بمساحة ١٣٧٢٠٥ هكتاراً • في حال ان مساحة مدينة اوغسطس قد بلغت
تاراً . ١ ـ ضريح هدريانوس ؛ ٢ ـ الزون ؛ ٣ ـ حمامات قسطنطين ؛ ٤ ـ حمامات ديوكليسيانوس
كر الحرس ؛ ٦ ـ ساحات عامة امبراطورية ؛ ٧ ـ حمامات ترايانوس ؛ ٨ ـ مسرح فلافيانوس (كوليسا
ميدان سباق العربات ؛ ١٠ ـ حمامات كراكلا .

ة اخرى . واندفعوا نحو البحر الاسود ايضاً وعاثوا فساداً في البوسفور وبحر مرمرة
، نفسه ونهبوا المناطق الساحلية : فاحتلوا افسس وحاصروا تسالونيكي،ولكن اثينا قاو
عبثاً بذل أباطرة كثيرون مزيداً من الجهد او لاقوا حتفهم في مقاومتهم . اجل غالبـ
أ ـ ما حققوا النصر في المعارك بين الجيوش وحملوا الالقاب المجيدة ، ولكن زمن ما
صر ، حين كان باستطاعة روما افناء الجرمانيين ، قد ولّى . وقد توجب اكثار من

منذ ذلك العهد التخلي عن بعض الحقوق وشراء الانسحاب بالمال وبوعد باطل بالهدوء لقاء فريضة سنوية . ثم عمّت طريقة أعطى مثلهـا العهد الامبراطوري الاول : فمن حيث ان اليد العاملة الزراعيـة تصبح نادرة في المناطق التي تجتاحها الحرب ، اقيم البرابرة في الاراضي الرومانيـة وأخضعوا لنظام عطوف نسبياً. واستخدم بعض الاباطرة زمراً أجنبية مأجورة بغية تقوية جيشهم.

ولكن كل ذلك لم يجدِ فتيلاً . استمرت العاصفة حتى ديوكليسيانوس ، فاقفرت الأرياف ، واضطرت المدن الى الانعزال داخل اسوار محصّنة أسرعت الى بنائها أو الى ترميمها: وأحيطت روما نفسها ، في عهد اوريليانوس ، بالأسوار ، متخلية عن بعض الضواحي التي ضمها اوغسطس الى تنظيمها الاداري ، ومستندة في تحديد مكان الأسوار الى أبنية سابقة . وحين عـاد بعض الهدوء ، في اواخر القرن الثالث ، كان الثمن تضحيات اقليمية ملموسة : فقد أخليت أقاليم الحدود الملحقة بأملاك الدولة ، كما اخليت داسيا نهائياً . وتراجع الدفاع عن الامبراطورية من ثم الى الرين والدانوب ، حيث ركّزه اوغسطس : فحدث للمرة الاولى ان اجلي ، على غير أمل بالعودة ، عن اراضٍ راسخة الاحتلال .

الشرق
الفرس الساسانيون

ربما كان من الممكن أن تبدي الامبراطورية مقاومة أجدى ، لو لم تضطر في الوقت نفسه الى مقاومة عدوّ رهيب : وهي لم تتمار قط ، خـلال القرنين الاولين ، في خوض عدة حروب كبرى في آن واحـد لأنها كانت عاجزة عن تعهّد الجيوش التي تفرضها هذه الحروب. وها هي منذ الآن مرغمة على ذلك.

كان عدوها على الفرات ، حتى ذلك العهد ، المملكة الفارتية : جار سجس ، قادر على شن الغارات الجريئة ، وعدوّ يصعب اللحاق به في فلوات يسهل فيها هرب فرسانه ، ولكنه قليل العناد في الهجوم والعداء العقائدي لحضارة اليونانية التي أخذت روما على نفسها الدفاع عنهـا في هذه المناطق ، وخصم ضعيف ، خصوصاً بفعل السهولات التي يوفرهـا للدسيسة الأجنبية تراخي أجهزته ، وجموح امراء العائلة الملكية وكبـار الأشراف . وقد أحرز عليه سبتيموس ساويروس ، بعد جهد عسكري عظيم ، انتصارات مدوية ، واحتل في اعقاب ذلك ولاية ما بين النهرين ، أي ما يقارب نصف البلاد المنبسطة بين منعطف الفرات ودجلة .

تبدّل الوضع بعد ذلك بزمن قصير . فقد برز تيـار قومي ، يستغل زوال الحظوة الذي استحقته السلالة الارساسية بفعل هذه الهزائم ، ويساند تمرد نبيل فارسي يدعي انـه حفيد الاخيمنيين . جاء النجاح كاملاً في السنة ٢٢٤ : زالت المملكة الفارتية من الوجود وحلت محلها المملكة الفارسية بقيادة السلالة الساسانية. فطمعت هذه الاخيرة في استعادة امبراطورية داريوس الاول ، من الافغانستان حتى المتوسط . اجل انهـا لن تبلغ ما تصبو إليه . ولكن المملكة الجديدة اعظم قوّة الى حـد بعيد من سابقتها . لجأت الى حصرية حقيقية ، ارغم الأشراف بموجبها على الاخلاص وازدادت موارد الملك . أضف الى ذلك ان الديانة المازدية التي اعتمدت بتصلب متعصب قد وفرت للروح الوطنية قوامها وكيانها . وتمتع كهنوت المجوس بتنظيم رسمي

وبامتيازات ، فقدم للملكية عضداً فعّالاً . وغدت الملكية من ثم متحدة بذات حضارة هي العدو اللدود للحضارة المتوسطية .

لم يلبث الرومان ان ادركوا خطورة التبدل . فقد تعرضت بلاد مـا بين النهرين لهجمات متكررة ؛ واخضعت ارمينيا حيث استطاع أحد الارساسيين المقاومة اولاً ؛ واجتيز الفرات اكثر من مرّة ، وغزيت سوريا ، وسقطت عاصمتها انطاكية . وجاء دور كيليكيا وقبادوقيا Cappadoce اخيراً حين حدثت ، في السنة ٢٦٠ ، الهزيمة النكراء النادرة : انكسار وأسر فاليريانوس ، الامبراطور منذ سبع سنوات بالاشتراك مع ابنه غاليانوس، على يدي ملك الملوك ، سابور الاول (شاهبور الايرانيين) . فأمر هذا الاخير باعداد نقوش ناتئة ضخمة تمثل الامبراطور متصاغراً ، جاثياً أمـام الظافر . وتوفي فاليريانوس في الاسر . ويروي التقليد المسيحي، الذي حقد عليه حقداً شديداً، ان جثته حشيت بالتبن وصبغت باللون الاحمر، وعلقت في احد المعابد: غير ان الرواية غير مقبولة، أقله فيما يتعلق بهذه الناحية، لأن المازدية لم تشيد معابد حقيقية. ومهما يكن من الامر، فقد كان الكارثة الرومانية دويّها البعيد في الشرق، ولم تتمكن الامبراطورية من استعادة بلاد ما بين النهرين إلا قبيل جلوس ديوكليسيانوس على العرش .

أخطار الانقسام

ان الحكومة المركزية ، أو بالاحرى الحكومة التي اطلقت على نفسها هذا الاسم ، لانها سيدة روما ، قد عجزت ، بفعل مواجهتها الصعاب العديدة والخطيرة ، وبفعل الانقلابات العسكرية المستمرة التي شلتها ، عن الوقوف في وجـه الخطر الخارجي الماثل ابداً في كل مكان . كان عجزها من ثم عاملاً جديداً من عوامل الفوضى. فضعف تضامن الامبراطورية الضروري للدفاع عنها على يد مسؤول واحد يقدر المهام اللازبة نسبياًبغية تكييف توزيع الموارد عليها. وملّت بعض الجيوش والمناطق تقديم المساعدة لغيرها بالرجال والضرائب، بينما احدقت بها الاخطار من كل جهة. وبرز زعماء محليون متفاوتون جسارة في البدء، يغريهم التحرر باستئثار الخدمات التي يؤدونها السكان والهزائم التي يمنى بها الامبراطور المعترف بسلطته في غير مكان. فدب الانقسام الى جسم الامبراطورية في تفتت الدفاع الآني وفي استقلال الاقاليم الدائرية المتروكة لأمرها .

ومما يدعو الى الدهشة ان هـذا الانقسام لم يكن أشد بروزاً بفعل قوّة الاسباب ومؤاتاة الظروف التي من شأنها تطوير هذا الانشقاق بسرعة . فان النطاق الضيق الذي برز فيه ، اذا ما قورن باتساع الاراضي الرومانية، لدليل على فعالية عمل الالتحام الذي قام به العهد الامبراطوري الاول . ولمقاومة مثل هذه الازمة ، يجب ان يكون العالم الروماني قد حقق في السابق وحدة أدبية مستقلة عن الوحدة المادية التي أصبحت الآن أثراً بعد عين . فهو قـد اجتاز دونما انفصام مرحلة الحروب الأهلية التي طبعت آخر العهد الجمهوري بطابعها الخاص . ولكن العاصفة كانت أقصر زمناً ولم تلابسها الفوضى العسكرية ولا الهجمات الخارجية الجدية . فمنذ نهاية القرن الثالث بالذات يمكننا حقاً تقدير متانة مركب متعدد الاجزاء اوجده الفتح وألحمه ملاط وحدة الحضارة.

أضف الى ذلك ان ما يلفت الانتباه هو ان الدولتين الهامتين اللتين قامتا على اساس اقليمي واسع ودامتا بعض الوقت ولعبتا دوراً غير عرضي لم تقوما بمحاولات انفصالية حقيقية .

يطلق عادة اسم « امبراطورية الغاليين » على تلك التي حكمها بوستوموس ثم تيتريكوس ، خلال خمسة عشر سنة تقريباً ، في اوائل النصف الثاني من القرن ، في جو سلام عكره أحكار من حادث خطير . وينطبق الاسم عليها ، لمعرفي ، مع انها تمتد الى بريطانيا ، والى اسبانيا مؤقتاً ، ومع انها لا تشمل غاليا الناربونية التي لم تنفصل عن ايطاليا . فهي تكرس القوى التي تجمعها للدفاع عن خط الرين والساحل الغالي غير مبالية باجتياز نهر الرون وجبال الألب. ولكن هذه الامبراطورية تبقى رومانية ، ومن المحال البحث عن أي أثر للقومية الكلتية في أسيادها الذين يعينون القناصل ويحملون الألقاب الامبراطورية التقليدية ويدوّنون على نقودهم الاساطير القائلة بأزلية روما .

اما الدولة الاخرى التي قد تثير الشبهة فهي تلك التي قامت في جوار واحة عربية سورية ، تدمر السامية ، او بلميرا . جمعت ثروتها بفضل تجارة القوافل . وكانت في القرن الاول تابعة للامبراطورية ثم ضمت الى ممتلكاتها ، ثم انعم عليها هدريانوس بنظام تطور مع الزمن حتى غدت مستعمرة . وكانت تختار مجلس شيوخها بين افراد ارستوقراطية من التجار المضطرين للدفاع عن قوافلهم ضدّ غزاة الصحراء ، والطامحين الى حق المواطنية الرومانية . وفي القرن الثالث احدث فيها الخطر الفارسي القريب تطوراً نحو الملكية . فكان الاباطرة سعداء جداً بتشجيع هـذا التطور لأنهم اكتشفوا في زعماء احدى العائلات الكبيرة مواهب عسكرية اسرعوا الى استخدامها لا سيا غداة هزيمة فاليريانوس وسقوطه في الاسر . وفي الواقع قام اذينة بنجاح بهجوم معاكس على سابور : فاستحق اللقب الملكي وحظي بألقاب رومانية على بعض الغموض . وفي السنة ٢٧١ اخيراً ، صممت ارملته زنوبيا على القطيعة ، بعد ان اتضحت لها استحالة كل تسوية ، فحملت اللقب الامبراطوري وحمّلته ابنها الذي كانت تحكم باسمه . فسيطرت تدمر آنذاك على الشرق الروماني أي على سوريا ومعظم آسيا الصغرى ومصر . في هذه المدينة التي أتمت تشييد أبنيتها الفخمة في قلب الصحراء ، ازدهرت في ذاك العهد حضارة مختلفة ، هلينية وسامية في آن واحد، وبهجة بالحياة الفكرية بفضل وجود الفيلسوف والخطيب لونجينوس في بطانة زنوبيا، الذي سيموت ضحية القمع الروماني ، وعاطفة على مذهب توحيد الآراء الدينية الذي شجّعه ، على ما يبدو ، مستشار الملكة الثاني، مطران انطاكية، بولس الساموزاطي الذي حكم عليه اخيراً بجرم الهرطقة . فمن ذا الذي سيستطيع يوماً كشف سر الاحلام التي راودت زنوبيا ، احد تلك الوجوه النسائية التي يحيطها الشرق بسرابه والتي تسحر الخيلات المعجبة ، على غرار « الجواهر المفقودة في تدمر القديمة » ؟ ولكن يكفي ، لاظهار قوّة الطابع الروماني على « الملكة الشهيرة والتقية سبتيميا باتزاباي » — او على مواهبها كممثلة مهازلة — ان نلفت النظر ، وفاقاً لما جاء في « التاريخ الاوغوسطي » الى انها كانت تخطب في الجماهير على طريقة الاباطرة الرومانيين معتمرة الخوذة

ومرتدية المطف الارجواني ، وانها كانت تفهم اللغة اللاتينية دون ان تتكلمها، « فأرادت ان يتعلمها ابناؤها ، حتى انهم تكلموا اليونانية بصعوبة ، او نادراً على الاقل » . اضف الى هـذا ، من جهة ثانية ان الشرق كان قد قدّم لروما احدى سلالاتها ، اعني بها سلالة ساويروس التي انتقل احد اعضائها ، ايلاغابال من كهنوت إله حمص الى حكم الامبراطورية الذي استولى عليه طيلة اربع سنوات .

ندرك من ثم بعض الشيء كيف ان مجـدد الوحدة ، اوريليانوس ، بعد انتصاره على تدمر وتخريبها واقصاء قائد جيش امبراطورية الغاليين ، وبعـد ان اشرك في موكب نصره زنوبيا وتيتريكوس وأبناءهما على السواء ، اسكن ، في احد مقاصف « تيبور » ، التدمرية التي ستزرى احفادها في روما بعـد مرور قرن كامل ، وأعاد الغاليّ الى مجلس الشيوخ والى الادارة ايضاً . وينمّ هذا الحلم ، على الارجح ، عن شعوره بأن فائدة على هذين الملكين ، بعد كل حساب ، املم وهن السلطة المركزية ، فاقت اضراره للقضية الرومانية .

التضخم النقدي الاول في التاريخ

اعار المؤرخون القدماء هذه الخلال السياسية والعسكرية ما تستحقه مـن أهمية . ولم يقف منها مؤرخ معاصر موقف اللامبالاة . وليس من ريب في ان الجماهير قد تأثرت بها من خلال انعكاساتها الاقتصادية . واذا كانت مسؤوليتها واضحة من هذا القبيل ، فان البلبلة التي نزلت حينذاك بحياة الامبراطورية وسكانها المادية تدخل في مجموع هو اعظم اتساعاً الى حد بعيد. فالخلل الاقتصادي في القرن الثالث يشكل ظاهرة نادرة الاهمية بفعل خطورته وشموله وطابع الجدة في بعض مظاهره .

للمؤرخ اليوم عذره اذا ما شدّد عـلى ظاهرة التضخم النقدي الذي زاد الازمة خطورة ، فبعثته هي بعثاً مستمراً ايضاً. وهو ليس اول تضخم يمكن تتبع تطوره المتزايد باطراد فحسب، بل هو ايضاً اول تضخم عرفته البشرية . واذا لم تستطع ضحاياه تحليل اسبابه وجوهره ، فان عاقبته كانت قاسية جداً .

برز الخطر باكراً جداً بوقائع نقدية. ومنشأ هذه الوقائع قديم العهد لان العهد الامبراطوري الأول، لا سيما فيما يعود القطع الفضية ، لم يستطع المحافظة على استقرار تام . فمنذ سبتيموس ساويروس ادى الجهود العسكري الى زيادة النفقات . فزادت باستمرار بينما كانت الواردات الاميرية آخذة بالتناقص . وقد الحت الحاجـة ، لسد العجز ، على الرغم من المصادرات ، الى تقرير التضخم بشكله البدائي أي بافساد معدلات المعادن المركبة الذي حتمه فيما بعد انخفاض الانتاج في المناجم ثم الانفصال الذي قطع الولايات الغربية ، وهي اغنى الولايات بالمناجم ، عن باقي الامبراطورية . وتعزو المصادر الى كركلاّ ، ابن سبتيموس ساويروس وخلفه ، مبادرة هذا التطور الكارثة . ولعله اقتصر ، كما نرجح ، على اتخاذ قرارات رسمية ، بدلاً من التدابير الخفية ؛ فمنذ عهد والده انخفض عيار الدينار الفضي بمعدل الثلث . ومهما يكن من الامر ، فان كركلاّ قد انقص ١١ ٪

من وزن الـ « اوريوس » واحدث قطعة فضية جديدة ، الـ « انطونيانوس » [1] الذي ما لبث وضرب بكميات كبيرة وحل اخيراً بصورة نهائية محل الدينار القديم : فقد خفض عياره ٥٠ ٪ بالنسبة للدينار وكان ضعفه وزناً ، اي اكثر من خمسة غرامات بقليل ، وضعفه قيمة . وقد بدأ الافساد ببعض السرعة ثم ازدادت هذه السرعة ازدياداً فائقاً منذ السنة ٢٥٠ بنوع خاص . اما عيار القطع الذهبية فلم يفسد ، ولكنّ ما ضرب منها كان قليلاً ومتفاوت الوزن جداً . وانخفض وزن « الانطونيانوس » حتى ثلاثة غرامات تقريباً ولم يتوقف انخفاض عيـــاره عند حد : فعنصر الفضة لا يتجاوز الـ ١ ٪ في بعض قطع النقود المضروبة باسم غاليانوس أو باسم كلوديوس الثاني . ولما كان النحاس نفسه غالي الثمن فقد اتجهوا الى الاستعاضة عنــه بالخارصين والقصدير والرصاص .

نتيجة لذلك ، تعددت اصدارات هذه القطع الفضية المزعومة ، لا سيا وان ارتفاع الاسعار قد فرض مضاعفة وسائل التسديد وان كل امبراطور جديد ، مهما ضاقت رقعة سلطته ، كان بحاجة الى سك النقود بغية تأمين الموارد . فارتفع عدد المصانع النقدية ارتفاعاً كبيراً ، مما جعل الرقابة عليها امراً صعباً وافسح المجال امام الكثير من الاختلاسات. وقد اكتشفت ، ولا تزال تكتشف ، مئات الالوف من قطع القرن الثالث هذه التي تم عيوبها عن السرعة في انجازهـــا . ولم تتحسن السياسة المالية بعض التحسن الا في عهد اوريليانوس الذي اضطر ، من جهة ثانية ، الى قمع ثورة ضاربي النقود في روما حين اقفل مصانعهم ، والذي توفر له المعدن الثمين بعد استعادة تدمر وغاليا.

الف العالم المعاصر ، منذ اربعين سنة ، التضخم ونتائجه التي لا يستغربها احد : غير ان ما لم تتوصل التقنية المحكمة الى التغلب عليه قد ناء بثقله على مجتمع غر واعزل .

بديهي ان انخفاض وزن وعيار القطع النقدية الجديدة قد ادى الى اختفاء القطع القديمة الجيدة التي جمعتها السلطات الصهر او خزنها الافراد . وعندما اختل الامن ، اهملت هـــذه الكنوز المكدسة في مخابئهـــا بعد وفاة مكدسيها : وتساعدنا خريطة المكتشفات التي تنظم اليوم ، وتواريخ طمرها ، التي يمكن تعيينها على التقريب بواسطة احدث القطع عهـــدا ، على استعادة تاريخ تنقل زمر الغزاة ، لا سيا الفرنك والألامان منهم ، في غاليا ما بين السنة ٢٧٥ والسنة ٢٧٨ .

بديهي ايضاً ان التضخم قد افضى الى ارتفاع الاسعار بسرعة . بدأ هذا الارتفـــاع في عهد مبكر ، وقد فرضته اسباب اخرى اهمها انخفاض الانتاج العام. ولكن هبوط النقد الى الحضيض قد اسهم في ذلك اسهاما عريضاً . غالباً ما فسرت النصيحة التي يقال ان سبتيموس ساويروس قـد اسداها الى اولاده تفسيراً حرفياً — « اغنوا الجنود واسخروا من الباقين » — بغية نسبة زيادة الاجر العسكري ، بمعدل النصف ، اليه ، في حال ان كركلا هو الذي حققها . غير انهـــا في

---

(١) ارتبط سبتيموس ساويروس ، بتبن صوري ، بسلالة الانطونيين ، وقد دعي كركلا رسمياً « مـــارك اوريل انطونين » . - وينكر بعض العلماء ان يكون « الانطونيانيوس » قد ساوى دينارين .

الواقع تكاد لا تعوض عن انخفاض النقد ، ويغلب على الظن ان الغاية منها كانت اعادة القيمة الشرائية للاجر القديم . ثم ارتفعت الاسعار باستمرار . وتوفر لنا البرديات المصرية ، وهي في العهد الروماني اكثر منها في العهد اللاجي ، ابلغ ايضاحات بهذا الصدد: فقد ارتفع سعر الحبوب عشرين ضعفا بين السنة ٢٥٥ والسنة ٢٩٤ . وقبل التسليم بمرسوم الحد الاعلى الذي اصدره ديوكليسيانوس ، حاولت زيادة الاجور والهبات عبثاً اللحاق بهذا الارتفاع . فوزعت بعض القطع الذهبية حين يكون ضربها امراً ممكناً . ثم الحت الحاجة بتسديد اجور الجنود والموظفين عينا . ولكن الاختبارات المعاصرة تحملنا على الاستنتاج ان اية حيلة من هذه الحيل لم توفر لذوي المصالح ما يعادل النقد الثابت .

ويديهي ايضاً ان المضاربات النقدية قد رافقت تضخم النقد وانخفاض قيمته الذاتية . عبثاً حاولت السلطات ايقاف تيارها قسراً ومعاقبة تجارة النقد في السوق السوداء والمحافظة على السعر الرسمي . وماذا تستطيع الدولة عمله ، في عهد الفوضى هذا ، ضد تيار على مثل هذه القوة ؟ فقد حدث ، في مصر نفسها ، ان المصارف المرتبطة بالادارة ارتباطاً وثيقاً ، قد رفضت احياناً النقد الامبراطوري . وتهافت الناس على القطع البرونزية الصغيرة على الاقل التي لم تبع بأكثر من قيمتها . ولكن مجلس الشيوخ والمدن اللذين كانا قد احتفظا بحق ضربها اوقفا الاصدار الذي غدا باهظ الاكلاف بسبب ندرة المعدن . فكانت النتيجة، مع فقدان السمات النقدية التي توحي الثقة، تجميد التداول وتهديم الأسس الاولية لحياة اقتصادية ترتكز الى شيء آخر غير المقايضة .

ويديهي اخيراً ان التضخم قد قضى على كل ما بني منذ قرون على امتلاك واستثمار رؤوس الاموال المنقولة: يسار الطبقات الوسطى ، ومؤسسات عديدة ذات صالح جماعي .

وهكذا ، فان التضخم النقدي ، في موجة معقدة من الاحداث وانعكاساتها الكثيرة ، قد لاشى موارد الدولة في الوقت الذي ازدادت فيه نفقاتها ، وحكم على نفسه من ثم بتصاعد دائم لا حدّ له ، وغذى الفوضى ، وقلب المجتمع ، وألقى على الارض ، في انهيار عام ، بجنبات كاملة من حضارة درج الناس على الاعتقاد بأنها الحضارة المتينة الوحيدة التي باستطاعتها اسعاد البشر .

الازمة الاقتصادية وعواقبها الاجتماعية

ولكن الازمة الاقتصادية برزت في ذاتها، مستقلة عن التضخم النقدي الذي فرضته الضائقة المالية على الاباطرة . وان اسبابها ونتائجها أكثر من ان تعد، وغالباً ما تكون نتائجها اسباباً ثانوية تسهم في زيادة خطورتها . واذا ما شعرنا هنا بمرارة فقدان الاحصائيات ، فان ذلك لا يمنعنا من مشاهدة تشابك البلية العظيمة التي تجتاح العالم الروماني الشاسع .

انخفضت كثافة السكان بفعل تطور الاخلاق السابق ، وبفعل الغزوات ، والحروب الاهلية، واعمال السلب ، والاوبئة التي تعقب كل هذه الشرور . اجل لم يبرز هذا النقص ، في بعض المناطق ، إلا في عهد متأخر . ولكن افريقيا ، التي نجت منه حتى آخر عهد سلالة ساويروس،

قد منيت به ايضاً ابتداء من الاضطرابات التي انفجرت في السنة ٢٣٨ .

كانت النتيجة نقصاً في اليد العاملة النشيطة برز اثره في الارياف والمناجم بنوع خاص ، فكان كارثة شاملة لأنه أفضى الى هبوط في انتاج يعوّل عليه . فانتهز الأشقياء فرصة الفوضى وخرجوا من الامكنة المحدّدة لهم : وقد حدث أكثر من مرة في صقليا وغاليا ومصر ان عاثت زمر الفارين والفلاحين والعمال الهاربين في المناطق الريفية فساداً . وزادت في الطين بلة المصادرات الوحشية بغية سدّ حاجات الجيوش ، او حاجات سكان المدن حين يكون عضدهم ضرورياً . فنزلت الكارثة بمناطق الحدود خصوصاً : فأسكن البرابرة فيها ، في البقاع الخالية من السكان . ولكن الغزوات الموغلة وتنقلات الجيوش وهجوم الواحد منهما على الآخر خلقت القلق المضر بالانتاج : فان بعض الفرنك المستوطنين في تراقيا مثلاً قد نجوا بحراً ولجأوا الى المنطقة اليونانية .

وبوجه أعم ايضاً ، توقف تداول المصنوعات . فلا مجال من بعد ، عملياً ، لقيام تجارة دولية . اما التجارة بين مدينة ومدينة ، وولاية وولاية ، ومنطقة ومنطقة ، فتقهقرت ايضاً امام اللصوصية مرّة اخرى في البر والقرصنة في المتوسط وبحار اخرى نجح البرابرة في التسرب اليها ، وامام خطر المصادرات وما تستتبعه من تخريب في مواد النقل وانقاص في عدد الزوامل . فعرفت المدن الفاقة ، حتى تلك التي لم تعرفها قط في سالف الازمان . وانقطع اتصال روما احياناً بمصر او افريقيا اللتين تؤمنان لها ، في الظروف العادية ، معظم مؤنها . ثم أصاب الشلل نشاط الصناعة اليدوية والتجارة الذي هو نشاط المدن في الدرجة الاولى .

أضف الى ذلك ان كافة مظاهر الحياة البلدية ، التي كانت مزدهرة من قبل ، قد اخذت في الهبوط والسقوط . وانخفض دخل الضرائب البلدية ، كما تناقص سخاء البورجوازية التي كانت تستنفد رؤوس أموالها دون امل بتجديدها ، والدخل العقاري ايضاً . فكان ذلك نهاية التحسينات التي تنشط الاقتصاد وتوفر الاجور للطبقات العاملة . ولم تبن آنذاك سوى الاسوار تقريباً بغية الدفاع عن المجموعات السكنية التي غدت قليلة السكان .

وهكذا ، بتجمع هذه الاسباب ، ليس الازدهار الماضي وحده ، على تفاوت توزعه ، ما انتهى الى الزوال . فان ما زال ايضاً هو العناصر الجوهرية للجهاز الاجتماعي في العهد الامبراطوري الاول : تنظيم اليد العاملة للمشاريع الكبرى والانتاج الزراعي ؛ نظام الرقي البشري التدريجي الذي يقابل الرفاهية في المدن ، وهو المثل الأعلى للحضارة المتوسطية . لذلك فان الازمة الاقتصادية تمثل احد العوامل الرئيسية للاضطراب الذي سيطر آنذاك على المجتمع .

الاضطرابات الدينية
الاضطهادات العامة الاولى

كانت نتيجة هذا السيل من خيبات الامل والبلبلة والمصائب العامة أو الخاصة إثارة الازمة الدينية التي اخذت بالظهور منذ القرن الثاني .

ابتعدت النفوس عن العبادات الرسمية ، ولم تكن لتفكر بالعودة اليها . فقد غدت وعود هذه

العبادات ، امام واقع النكبة ، موضوع هزء وسخرية . فالسلطات حريتها في تأدية الايماءات التقليدية ، التي تناقصت ابهتها من جهة ثانية ، وفي توزع القاب « إلهية » جديدة ، ولكن كل ذلك ليس سوى طقوس باطلة بعد اليوم . واخذ قلق البشر ، فرديا كان ام جماعيا ، يبحث عن ضمانات اخرى في تعزيات اخرى . فوجدها حيث قام بالبحث عنها من قبل ، اي في العبادات الشرقية ، بما فيها النصرانية ، وفي مذهب توحيد الآراء الذي يعبّر عن نزعة واخزة الى حماية اعظم لانها توفق بين كافة القوى الفائقة الطبيعة . ولكن البلبلة الدينية قد اتخذت ايضاً ، في الصراع ضد النصرانية ، اشكالاً سلبية وحاقدة .

لا ريب في ان اكثر من مسيحي ، آنذاك ، قد فسر على طريقته الخاصة واستقبل اهوال هذه الحياة. ومال الوثنيون بالفطرة الى جعل اتباع هذه الديانة المنشقة مسؤولين عن هذه الاهوال: ان القوى الالهية ، ايا كانت ، تثأر من عموم السكان ، انتقاماً من جسارة الملحدين . فحدث من ثم ، احياناً ، وعلى غرار ما حدث في العهد السابق ، ان طالبت الجماهير بالتدابير العنيفة ، واذا هي لم تطالب بها فانها تستصوبها وتهلل لها ابداً .

بيد ان غضبها ، في الواقع ، لا يفضي ، في حال تدخلها ، الا الى خلق الحوادث المحلية او تجسيمها . وان الاضطهاد ، على الصعيد العام ، ابعد من ان يكون مستمراً . اجل اتصف هؤلاء الاباطرة الكثيرون بالشدة ؛ فقد قدروا ثمن الوحدة الادبية ، وكانت غريزتهم كافية لان توقفهم في وجه عقيدة بدت لهم وكأنها تثني مؤمنيها عن واجباتهم نحو الدولة. الا ان المصاعب الخارجية والداخلية ، بصرف النظر عن تنوع ميزاتهم الشخصية التي يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار ، قد حدّت من حريتهم في العمل .

استفاد المسيحيون اذن ، في اغلب الاحيان ، من تساهل السلطة . وتساهلها لامبالاة مقسورة ، وعطف في بعض الظروف الاستثنائية فقط. فقد استدعت احدى الاميرات السوريات ، ابنة شقيق سبتيموس ساويروس ، الى انطاكية ، المعلم السابق في مدرسة الاسكندرية المسيحية ، اوريجينوس وبادلته اطراف الحديث. وقد وضع ابنها ، الامبراطور ساويروس ألكسندروس ، صورة يسوع في مُصلاه ، الى جانب صور ابراهيم واورفيوس وغيرهم من عظام الرجال . وربما كان فيلبوس الاول « العربي » مسيحيا – اول امبراطور مسيحي – كما نلاحظ او نقدر بعض العطف على المسيحيين في بطانة بعض الاباطرة . ولكن العداء المستحكم واقع يتكرر غالباً .

وقد برهنت الاعمال عن هذا العداء احياناً . فان سبتيموس ساويروس ، الذي كان مسايراً تقريباً ، انتهى الى منع ومعاقبة الارتدادات الى اليهودية والمسيحية . وصدرت آنذاك احكام عدة بالموت ، تحت ضغط الجماهير ، في كل مكان تقريباً : فان « آلام القديستين بربيتوا وفيليسيتا » اللتين نفذ الاعدام بهما في قرطاجة في السنة ٢٠٣ مع مسيحيين آخرين كثيرين ، واحد من اعمق النصوص تأثيراً في سِيَر الشهداء .

ولكن الحوادث كانت متفرقة آنذاك ولم تتناول التدابير ، في اسوأ الحالات ،سوى منطقة واحدة . اما التجديد العظيم فقد ظهر في منتصف القرن الثالث . ففي السنة ٢٥٠ اولاً ، ثم في السنتين ٢٥٧ و ٢٥٨ ، دشنت بعض البراءات الاضطهادات العامة النظاميـــة : ارغم داسيوس المسيحيين على تقديم الذبائح للآلهة او اقله على تقديم شهادة تثبت القيام بذلك،ثم جدد فاليريانوس هذا الأمر وحدد سلّم العقوبات للمخالفين، الموت لاعضاء الاكليروس والنخبة اطلاقاً، والاشغال الشاقة للآخرين . واستمرت الحال على هذا المنوال حتى ديوكليسياوس ، على ان العمل بالبراءات لم يدم طويلاً . فان هموماً اخرى كثيرة قد شغلت بال هؤلاء الحكام وخلفائهم : مات داسيوس في حربه ضد القوط منذ السنة ٢٥١ ؛ ولم يسر غاليانوس على سياسة ابيه الذي اسره الفرس منـــذ السنة ٢٦٠ . ومع ذلك فقد كان الاضطراب عميقاً وكانت الضحايا كثيرة بين الطوائف المسيحية.

لا نستطيع هنا اثبات ما اذا كان نموّ هذه الطوائف قد تأثر بهذه الاضطهادات التي لم توقفه على كل حال : فشاهد وآلام الحياة الارضية تقوي بالضرورة الامل بمكافآت الحياة الأخرى . ومنذ قبـــل نهاية عهد الانطونيين ، كانت جذور الديانة المسيحية أعمق من ان يستطيع العنف اقتلاعها . فهي ، من حيث عدد اتباعها، ومن حيث مزاياهم الاجتماعية غالباً،تمثل قوة لا يستطيع احد ، في ايام تلك المنافسات ، ان يهملها .

غير ان وجودها وانتشارها في قلب الامبراطورية قـــد زادا في اضطراب وتصدع مجتمع انقضّت عليه آنذاك كل هذه الأعاصير .

الثورة الاجتماعية ودواعي المصلحة العليا

فالأزمة من ثم واقـــع راهن متعدد الأشكال ، وقد شدّدنا الكلام عن قصد ، في تحليلنا اياها تحليلاً مستفيضاً ، على ما فيه من ايجـــاز ، بالنسبة لواقع الحـــال ، على تعدد وتشابك مظاهره وأسبابه . ومن العبث محاولة رد هذه وتلك الى الوحدة .

من الواجب ، والحق يقال ، ان نعير اهتماماً كبيراً التفسيرَ العام الذي قدّمـــه منذ ثلاثين سنة مؤرخ رومي الأصل ، هاجر بلاده بعد ثورة السنة ١٩١٧ ــ وكأنه معدّ لفهم اشياء كثيرةــ هو ميخائيل روستوفتزيف *Michaël Rostovtzeff* . فقد عبرت الفوضى العسكرية في القرن الثالث ، من وراء احداثهـــا اليومية ، عن ثورة اشد الطبقات الفلاحية خشونة ، التي ينتمي إليها الجنود ، على كبار الملاكين العقاريين والبورجوازيات البلدية ، أي على كافة المتنفعين بالنظام الاجتماعي والسياسي السابق الذين دانوا بسلطتهم وترفهم لاقتسار واستثمار الوضعاء . فهي من ثم ثورة اجتماعية شبيهة بكل الحركات المماثلة ، يرافقها انفجار الاحقاد وفظاعة الانتقـــام وانفلات الغرائز البدائية . ونحن نلمس الدافع اللاواعي الذي خضع له منفذوها الرئيسيون بفضل بعض الدلائل : معاملة قاسية نادرة عوملت بها بعض المدن التي رافقت احتلالها اعمال التقتيل والنهب، (بيزنطية) في السنة ١٩٥ ، و (ليون) في السنة ١٩٧، و(قرطاجة)في السنة ٢٣٨ ،و(أوتين) في السنة ٢٦٩ مثلاً ؛ الارهاب ، لا سيا في عهد أباطرة سلالة ساويروس الأولين ، الذي استهدف

الطبقة الجلسية ، فتعرضت لأحكام بالموت ، ولمصادرات لا تحصى ؛ التدابير السياسية والادارية التي حصرت دور الجلس والشيوخ ؛ التدابير التي فرضت على العناصر الميسورة من سكان المدن أعباء مالية واقتصادية ثقيلة جداً .

ولكن كلاً من هذه الأحداث ، أو مجموعات الأحداث، اذا ما استجاب لنزعة عامة لا شك في وجودهـــا ، يستجيب ايضاً لضرورات ملحّة مباشرة : معاقبة وتقويض كل مقاومة ؛ العجز المالي والضائقة الاقتصادية ؛ التصميم ، مهما كلف الأمر ، على تسيير الدولة ، كيفما كان التسيير ، على الرغم من الحروب الأهلية والخارجية التي تشل حركتهـا . لذلك ، فان التفسير الاجتماعي ، مهما بلغ من اتساعه ، يبدو محدوداً ، ولا يعالج سوى ناحية واحدة : وان ميخائيل روستوفتزيف،بعد ان قدّمه في السنة١٩٢٣،قد ادخل عليه بعد ذلك،اكثر من تصحيح ومفارقة.

ان ما يلخّص الحركة العامة ويرمز إليهـا جيداً ، على ما فيها من تعقيد وتشويش ، في هذه السنوات المظلمة ، هو طابع الأباطرة المشترك وعملهم الذي أفضى الى تفريج الأزمة . أجـل ، لقد تمّ اختيار الرؤساء المتماثلين ، بحسب قاعدة مطردة ، عن تفضيل اجتماعي : فقد كانوا رؤساء عسكريين ، لا شك في ذلك ، ولكنهم ، أتوا عن طريق غـير عضوية الجلس التي اكسبت فسبسيانوس، أو ترايانوس قيادة توكياهـا . ولم تكن الجيوش، وشأنهـا في ذلك شأن ملهميها ، حين ترضى بالسير وراءهم ، لتقدم على عمل دام ، يقوم به أشخاص عادمو الحزم يثيرون السخرية: فهي تبحث ، برجفات محيّرة ومتناقضات وتقلبات في الرأي يفسّر انفلات الغرائز وجـه الغرابة فيها ، عن زعيمها ، أي عن ذاك الذي يشاركها الميول الصاخبـة ، ثم يكون سعيداً في تحقيقها . وهكذا يبرز ، ويتعاقب في كرسي الحكم، خلال الثلث الأخير من القرن الثالث اجمالاً، ذاك الجيل المدهش من « الأباطرة الألـيريين »، الذي بشر به داسيوس ، ومثله كلوديوس الثاني، وأوريليانوس و بروبوس *Brobus* وكاروس خير تمثيل ، قبل ديوكليسيانوس الذي فرض نفسه مدة طويلة . فزالت مع هؤلاء ، بانتظار قيام غيرهـــا ، سلالات الأباطرة المثقفين ، هواة الفن والآداب الجيلة والفلسفة ، وتلاشى احترام صيغ التسوية المداهنة التي تراعي الظواهر وترسخ في المناصب أفراد النخبة المستنيرة . اجل ، لقد حدث ، منذ اغتيال كومودوس ، ان تسلم الحكم أباطرة ينتسبون الى الطبقات الشعبية في ايطاليـــا أو في الولايات ؛ ولكن ذلك لم يتعدّ العرض قط . وهـا نحن أمام سلسلة من رجال وضعاء المنشأ ، متوسطي الثقافـــة ، ولدوا في اليريا *Illyricum* ، أي في الولايات الشمالية الشرقية من شبه الجزيرة البلقانيــة ، حيث توطدت حضارة لاتينية فظـة ، لم ينخرطوا سوى في الجيش ، منطلقين من أدنى مراتبه ومرتقين ، بفضل أهليتهم وحدها ، الى المراكز الهامة .

فاذا ما جاز لنا ان ننتظر منهم التحلي بضمير نطلق عليه اليوم صفة « الطبقي » ، فان هذا الضمير ابعد من ان يلهمهم وحده ، وحتى ان يكون الغالب فيهم . لا ريب في انهم احتقروا تسلسل المراتب القديمة وجهلوا مفاتن الحضارة الرقيقة . ولكن مـــا يشجعهم قبل كل شيء هو

وطنية شبه متعصبة ، وحزم لا يثنيه أي وازع ، وتصميم فولاذي ، لا يرحمهم ولا يرحم سواهم بعنفه ، على انقاذ الامبراطورية وعمل روما التي يشعرون بانهم ابناؤها. وقد شجعهم ، في الوقت نفسه ، بما فيه الكفاية لمقاومة الميل الى العطف على ثورة دائمة يقدم عليها الوضعاء ، الاقتناع بان ما من شيء يتحقق دون اعادة نظام شديد : فان هذا النظام ، الضروري للجيش في الحروب التي ينهض بها ، يشكل ايضاً العلاج الوحيد للصعوبات الداخلية .

بفضل الجهود العنيد المتواصل الذي بذله هؤلاء الاباطرة وكلفهم حياتهم ، انتهت الازمـــة الكبرى اخيراً ونجم عن الاطلال التي كدستها نظام جديد يكاد يكون مستقراً . ومـع ذلك ، فان الجنود والطبقة التي عبروا عن غضبتها ، لم يحققوا اهدافهم. فاذا كان المحظيون القدماء قد تواروا ، فقد حل علهم محظيون آخرون : ولم تفض الثورة الاجتماعية الى تحقيق المساواة . ومما لا شك فيه ان قوى اخرى كثيرة، غير تصميم الريفيين، الثملين بامكاناتهم ، على الانتقام لبؤسهم، قد فعلت فعلها في هـــذا الاعصار الغريب . ولعلهم افتقروا الى قادة الفكر الذين لم تفتقر اليهم بعض الحركات الثورية اليونانية، وحتى الرومانية في عهد الجمهورية . فهل كان ممكناً، بما اشتهروا به من خشونة وفظاظة ، ان يفهموا هؤلاء القادة ويسيروا وراءهم ، لو انهم توفروا لهم بعد قرنين من النظام الاجتماعي والادبي ؟ ومهما يكن من الامر ، فان موانع كثيرة قد اوقفت وحبست وحولت عملاً لم يخضع لبرنامج .

وهكذا فان المصلحة العليا ، التي تفقدها انتهازيتها معنى الرحمة ، قد أفلحت في اعـــادة نظام مادي يتيح للجماعة العيش ، مسايراً نزعاتها الروحية ، ومضحياً بها عند الحاجة .

الفصل الثاني

تجدّد الأخطار والاضطرابات خلال الأصلاحات الهزيلة في القرن الرابع

انقذ حزم الاباطرة الالـيريين الامبراطورية من الغزو والثورة الفوضوية. وأعادوا في الوقت نفسه تنظيمها بسلسلة من التدابير املتها عليهم ذهنية العهد وحاجاته الملحة. ثم جاء ديوكليسيانوس وهو اوفرهم مواهب في حقل الادارة ، على الرغم من انتهازيته ، فوسّع هذه التدابير وأعاد النظر فيها طيلة عشر سنوات على الاقل ، قبل ان ينظم عملا اكمله قسطنطين بدوره . وعلى الرغم من بطء ومشقة هذا الاصلاح ، فلم يفت المعاصرين ان يتذكروا اوغسطس . لقد بدا ، فعلاً ، في اوائل القرن الرابع ، ان انطلاقة جديدة قد حدثت ، في القوة والوحدة المستعادتين ، قوة خارجية شبيهة ، اقله فيما يعود لسلطة الامبراطور والمركزية ، بتلك التي استطاع اوغسطس تأمينها للامبراطورية الحديثة ، ووحدة تفوق الى حد بعيد تلك التي اوجدها.

وليس من ريب في ان حضارة قد برزت آنذاك من الخواء : هي تلك التي يجب ان نعتبرها حضارة العهد الامبراطوري الثاني لانها وحدها بلغت درجة كافية من التلاحم العضوي ، حين لم تعد بمجرد مظاهر عرضية متلاصقة .

فهل اعطت جميع امكاناتها الكامنة يا ترى ؟ مهما يكن من الأمر ، فان فترة ازدهارها كانت قصيرة جداً . ومهما يكن من الأمر ايضاً ، فانها قد اصطدمت بعقبات شديدة ، يجدر بنا ان نحددها منذ الآن ، حتى ندرك شوائبها وقصر مدتها .

١ ـ الجهود الباطلة ضد البرابرة

ان اشدّ خطر تعرضت له جاءها من الخارج .

توفق القادة العظام في اواخر القرن الثالث ، باقل تضحيات اقليمية ممكنة ، الى استعادة مناطق الحدود وقمع حركة المنشقين في الداخل . وقد حدث في عهد ديوكليسيانوس وقسطنطين ان اجتازت جيوش رومانية نهري الرين والدانوب اللذين نظم عليهما مرة اخرى دفاع متين . واستعاد ديوكليسيانوس بلاد ما بين النهرين ، لا بل ارغم الساسانيين على التخلي عن بعض الاقاليم

وراء دجلة : ولم يسبق لروما ان حققت مثل هذا التقدم في الشرق .

وفرت هذه الانتصارات والتنظيم الدفاعي الذي وطدها سلماً نسبياً استمر ثلاثة أرباع القرن. اجل كانت هذه القوة وهذه الطمأنينة سريعتي الزوال . ولكن الجهود العسكري الذي نهض به العهد الامبراطوري الثاني ، على الرغم من ان الانهيار الاخير قد برهن عن عدم جدواه ، ليس مجهوداً يجوز اهماله ، وما من امبراطور ، حتى وفاة ثيودوسيوس *Théodose* في السنة ٣٩٥ ، إلا وقام بواجبه العسكري خير قيام .

١ - الجيش في العهد الامبراطوري الثاني

أثبت الاختبار قصور الجيش القديم ، وعدم انطباقه على ظروف الحرب التي يفرضها الاعداء الآن . فزيد عدد الجندين وعُدِّل تنظيم الجيش .

تنظيم الحدود

ما زال المثل الأعلى مثل كل دولة عرفت الاستقرار ، أي حماية كافة الأراضي الرومانية : وهو يوجب عدم اهمال مناطق الحدود . ولم يتغير طول الحدود قط ، اذ انه ازداد بفقدان المناطق الملحقة بالأملاك الأميرية ، ونقص بفقدان داسيا . ولكن حدوداً محصنة كثيرة قد زالت ، وعلى الرغم من الجهود المبذولة لم يتوفر الوقت لاعادتها الى مثل ما كانت عليه من متانة . ويبدو ان العمل الذي انجز على طول نهري الرين والدانوب ، لا سيا في عهد فالنتينيانوس الأول كان أهم عمل نظامي . فقد اهملت الخنادق المتصلة واستعيض عنها ، انطلاقاً من أهمية الطرق والانهار ، ببناء المزيد من الابراج والقليعات والحصون والمعسكرات ، وفاقاً لتقنية غدت أعظم مهارة بفضل العلائق بالفرس : فاقتبست في الغرب بعض النماذج الشرقية . واعتني كذلك بأسوار المدن فأدخلت التحصينات عليها : فكانت المدن، أمام البرابرة الذين ما زالت وسائلهم بدائية ، معاقل تكاد لا تقهر .

بفضل هذه الأشغال ، حدث تطور بطيء جداً ، بدأ منذ نهاية عهد سلالة ساويروس على الأرجح ، وبلغ الذروة في عهد قسطنطين . أضف الى ذلك ان لا مجال للخيار : فالافتقار الى العدد الكافي من الجنود المتازين اقتضى ابقاء أقلهم نشاطاً وقوّة في مناطق الحدود التي تسهل التحصينات فيها المهمة العسكرية بمعناها الحصري . وقد حُددت لهم اجور أقل ارتفاعاً ، وخصصوا بقطع ارض يتولون زراعتها لتأمين معيشتهم ومعيشة عائلاتهم . ووكل إليهم امر المراقبة في الدرجة الأولى وأمر رد الهجمات في الدرجة الثانية ، وأمسى الكثير منهم ،في الواقع، جنودا لا كفاءة عندهم يلجأون الى التحصينات اثناء الغزو، فكانوا من ثم يتلقون الصدمة الأولى ولا يفلحون في مقاومتها إلا نادراً . اجل ، لقد بلغت الصدمات اتساعاً وعنفاً لم يضطر جيش العهد الامبراطوري الاول ، الذي لعب كله تقريباً جوهر هذا الدور ، لتحملها إلا في ظروف استثنائية . ولكن رجال وحدات الحدود، قد أعوزهم آنذاك، كما يبدو ، التدريب والمناورات التي انقطعت القيادة عن فرضها عليهم .

جيش الريف

ليست هذه حال الوحدات الاخرى . في فترات الهدوء تؤلف هـذه الوحدات حاميـات تقيم على مسافة كبيرة من الحدود ، وحتى في قلب الاراضي الرومانية في اغلب الأحيان . ويفرض الامن الداخلي احتياطات تفوق بعددهـا الاحتياطات السابقة . فقد رغب المسؤولون بنوع خاص في ان تعبأ هذه الوحدات بعرفة تامة ، وان تجمع اولاً حتى يؤلفوا منها جيشاً ريفياً . واخضعوها لهـذه الغاية الى تنقلات هامـة احياناً ، من طرف الامبراطورية الى طرفها الآخر ، وقد ازداد تكرر هذه الحركات بفعل الاغتصابات التي تستلزم حملات داخلية .

تتألف هذه القوى ، في الدرجة الاولى ، شأنها في الماضي ، من الحرس الامبراطوري . ولكن فرق حراسة القيصر ، التي مقتتها الوحدات الاخرى على الدوام ، بسبب امتيازاتها ، زالت من الوجود على اثر الهزيمة التي انزلها قسطنطين بـ « مكسانس » عند جسر ميلفيوس في السنة ٣١٢. فحلت محلها تدريجياً فرق من الجرمانيين الذين قدموا منـذ اوغسطس حرس الامير الخاص ، وابقي ايضاً على وحدة « المظاهرين » التي انشئت في القرن الثالث والتي استجاب وجودهـا في الوقت نفسه لاهداف اخرى .

يحمل الجنود الآخرون في الجيوش الريفية اسمـاء تنم عن ميزة وربما عن اصل وحداتهم ، كـ « البلاطيين » و « المرافقين » مثلاً : والمقصود بذلك الاشارة الى فصلهم عن الجيش او اقله التذكير بانهم يؤلفون الوحدة التي يتولى الامبراطور قيادتهـا شخصياً في زمن الحرب . وقد عسكر بعضهم ، في الواقع ، في الولايات ؛ بينما كان طبيعياً ان يقيم عدد كبير منهم على مقربة من المقر الامبراطوري.

بيد ان الصعوبات التي واجهها العهد الامبراطوري الاول في ادارة حرب هامة لم تحل بفعل هذا الفصل بين جنود الحدود وجنود الإحتياط . فقد ثبت ابداً خطر إخلاء منطقة كاملة من فرقها الريفية . وليس من ريب ، حين جهز ليسينيوس ١٦٥٠٠٠ رجل في السنة ٣٢٤ ، وقسطنطين ١٣٠٠٠٠ لمهاجمته ، في انهما كليهما تصرفا بكل امكاناتهما في فترة استثنائية من الهدوء الداخلي . ثم تبدلت الأمور تبدلاً هاماً بعد انقضاء اربعين سنة تقريباً : فان جوليانوس على الرغم من اهمية الاعدادات ، لم يستطع قيادة اكثر من ٦٥٠٠٠ رجل في حملته على الفرس . وفي السنة ٣٧٨ ، لن يجمع فالنس منهم سوى ٣٠٠٠٠ جندهم في الحقيقة من الشطر الشرقي في الامبراطورية فقط .

التجنيد

كانت هنالك اذن ، على غرار ما حدث في العهد الامبراطوري الاول ، حاجة الى الرجال ، على الرغم من الجهود المتزايدة ، من حيث قيمتهم النسبية — بسبب نقص السكان — وقيمتهم المطلقة على السواء .

ليس لدينا اية دلالة يوثق بها لتحديد عدد المجندين الاجمالي وتتبع ما طرأ عليه من تغيرات . ولكن ما لا ريب فيه هو ان ديوكليسيانوس قد تعهد جنوداً اكثر منهم عدداً في عهد سبتيموس

ساويروس الذي سبق واحدث ثلاث جوقات جديدة من الطراز الكلاسيكي ، وان قسطنطين قد رفع عدد وحدات الجيش ايضاً . وقد تكلمت وثيقة نظرية عن عدد يبلغ ٥٠٠٠٠٠ رجل تقريباً ، في اواخر القرن الرابع . ومهما يكن من الأمر ، فان العدد يفوق الى حد بعيد ما بلغه في القرن الثاني .

مهما يكن من الامر ايضاً ، فان هذا العدد لا يزال غير كاف ، لان المهام الواجب تنفيذها امست ، من جهتها ، صعبة جداً . فخمسمائة الف رجل لا يفون بحاجة دولة عليها آنذاك ان تعبىء كل قواها ، ولديها موارد بشرية عظيمة لم تستطع ، لا بل لم تحاول ، تجنيدها . اجل يجب ان لا نحكم عليها بقياس الجمهوريات البلدية القديمة ، ولا بقياس الدول المعاصرة : فمنذ العهد الجمهوري ، استبعدت روما مبدأ الخدمة الاجبارية . ولكن ما هو اخطر من كل ذلك هو ان مبرر الاعتبارات المالية الذي خضع له اوغسطس في اكتفائه بجيش محدود ، قد توارى الآن امام مبرر آخر هو فقدان الاعتبار الملازم لصفة الجندي بالذات .

يبدو ، انه في بعض المناطق ، كإليريا مثلاً ، ان الدعوة للتطوع الاختياري كانت تؤدي الى نتائج حسنة في القرن الثالث . ثم غدت نتائجها العملية دون جدوى في القرن الرابع فتوجب اللجوء الى الاجبار عن هذا العجز ؛ ولكنه زاده خطورة ايضاً ، لان هذا الانتساب لمهنة الجندية قد فقد طابعه الطوعي .

تناول الاجبار في الدرجة الاولى ابناء الجنود . منح سبتيموس ساويروس هؤلاء حق عقد الزواجات الشرعية : فكان ذلك بمثابة تعميم واقع راهن بجعله قانونياً . وكذلك ، فان الدولة ، بتخليها عن قطع الارض لجنود الحدود ، قد عممت نظاماً قديماً لم يستفد منه الا بعض جنود الحصون فقط . ثم فرض مبدأ الوراثة في المهنة الوالدية على كافة الطبقات الاجتماعية ، فطبق بكل شدة في الجيش . فاضطر ابناء الجنود الى الانخراط فيه ، ما لم يكونوا ضعفاء البنية ؛ وخلفوا بالتالي آباءهم في الانتفاع بالاراضي التي كان يستثمرها هؤلاء .

غير ان ارتفاع نسبة الوفيات جعل هذا المورد غير كاف . ولم يفكر احد بمراعاة المساواة في قيد الشبان البالغين سن دخول الخدمة العسكرية . بل اقتصروا على جعله وقفاً على الملكية العقارية . فقد فرض على الملاكين ، منفردين اذا كانت أملاكهم على بعض الاتساع ، ومجتمعين ومكتتبين اذا كانت املاكهم على عكس ذلك ، ان يقدّموا المجندين . وهم يختارونهم حيث يستطيعون ، في أدنى طبقات السكان الريفيين وحدها تقريباً ، محاولين استمالة المتطوعين بالمال ، او بين العبيد ، محاولين استمالتهم بالإعتاق : وقد ظهر بعض التجار الذين سهلوا هذه المهمة . وحاول الامبراطور احياناً حماية الضعفاء الذين يُقدّمون مرغمين ، وفي أغلب الاحيان معاقبة المتمردين : وصدر اخيراً قانون اقرّت بموجبه عقوبة الاحراق لمن يبترون احد اصابعهم . فكانت نتائج طريقة التجنيد هذه من الضعف بحيث ان الحكومة فضّلت ان يقدّم لها الخضعون مالاً لا رجالاً : فهي تستطيع عن طريق المال تأمين حاجتها في غير مكان.

ويعني « غير مكان » البرابرة الخشنين ، المعتبرين جنوداً ممتازين ، لا سيا لمحاربـــة برابرة آخرين ، واقل ميلاً الى التمرد على الامبراطور الشرعي . وقد سبق للامبراطورية الاولى ان أدخلت بعضهم في خدمتها سامحة لهم بالاحتفاظ بعاداتهم القومية . وبسبب الافتقار الى نظام احسن ، انتشر هذا النظام في القرن الثالث وزاد انتشاراً في القرن الرابع. وبديهي ان الرومان قبلوا بتطوعهم الفردي كما قبلوا بهم في المجتمع ايضاً . ولكنهم لظموا في النهـــاية تجنيدهم . ثم أسكن عدد كبير من الاسرى واللاجئين في اراضي الامبراطورية بغية تعمير واستثمار المناطق التي تندر فيها اليد العاملة : وتقوم مهمة الادارة في مراقبتهم ، ويفرض على أبنائهم ، على غرار ابناء الجنود ، الانخراط في الجيش . ونعم آخرون بنظام « الحلفاء » وقدموا وحدات منظمة بحسب عاداتهم يرئسها ضباط قوميون : وقد حدث في الواقع ، تدريجياً ، ان الذين دخلوا الامبراطورية عنوة تعذر طردهم منها وسمح لهم ، لقاء معاهدة ، ان يعيشوا في منطقة معينة كشعب غريب الى جانب من بقي فيها من الرومان .

من الخطأ الفادح الاعتقاد بأن اللجوء الى هؤلاء البرابرة لم يجنِ سوى الغموم للامبراطورية : فلولاهم، لحصل انهيارها قبل موعده بزمن بعيد؛ اضف الى ذلك انهم، بفعل اخلاصهم للامبراطور الذي يدفع لهم اجورهم ، قد منعوا او قمعوا كثيراً من الاغتصابات ، وبالتالي من الاضطرابات التي طالما أثارتها الجيوش المدنية في القرن الثالث . ولكن وجودهم قد أسهم في اقصاء المواطنين عن الجيش ، وربما كان الخطر يقضي باعانتهم اليه . فهم يمثلون حلاً سهلاً قـــد تكون عواقبه ، وستكون ، خطيرة جـــداً . فبصرف النظر عن الرغائب التي قد يبعثها فيهم الشعور بقوتهم وبالخدمات المؤداة، لم يعد الجيش الروماني المزعوم ، الذي انتهوا الى تشكيل أكثريته الساحقة، تلـــك الأداة الممتازة لنشر الحضارة الرومانية كما كان في القرنين الاولين: بل غدا اداة لنشر البربرية . وكان كل شيء ، في الحقيقة ، قضية تقدير ونسبية . ولكن من ذا الذي استطاع ، في ما يتعلق باللجوء الى غير الرومان، الاستشهاد بسوابق قديمة جداً تظهر فيها حدود الخطر ؟ وفي أي وقت ، خلال القرن الرابع ، اجتيزت هذه الحدود ؟ فأولى بنا من ثم الاكتفاء بأن نلاحظ ان الآراء الخاطئة القديمة ، ذات الطابع الاجتماعي والثقافي معاً، التي دفعت الى إلقاء مهمة الدفاع عن المصلحة العامة على أشدّ عناصر السكان فظاظة ، تحمل عبء مسؤولية هـــذا الوضع وازدياد خطورته .

التنظيم وفن الحرب

تأثر الجيش بأعدائـه وتسلحهم وأساليبهم الحربية تأثره بانخراط البرابرة فيه . فميزته فروق عظيمة عن جيش العصور السالفة .

عرفت الجوقة التقليدية البقـاء . ولكنها كانت كثيرة العدد بطيئة الحركة . وما كانت لتستطيع العمل إلا بضم وحدات مساعدة متنوعة محصورة العدد اليها . وقـد صنف التجنيد الرجال ، بينها وبين هذه الوحدات ، وفاقاً لنظامهم القانوني ؛ غير ان هذا التمييز قـد زال ، منذ براءة كركلاّ في السنة ٢١٢ ، بفضل شمول حق المواطنية الرومانية كافة الرجال الاحرار

العائشين في الامبراطورية باستثناء المعتقين ؛ فلن ينظر الجيش بعد الآن الى الفئات القانونية ولن يرفض سوى العبيد. لذلك فان تكرر استخدام فصائل الجوقات، منذ العهد الامبراطوري الاول، قد أفضى بالنتيجة الى تجزئة هذه الجوقات ـ لا يزال الاسم يطلق عليها، ولكن نادراً ما يتجاوز عددها ألف رجل في ذاك العهد ـ والى مساواتها عملياً بالوحدات المساعدة . وقد ارتفع العدد الاجمالي لهذه الوحدات المختلفة ارتفاعاً كبيراً .

وتبدّل التسلح على طريقة البرابرة . فأهمل المشاة الاسلحة القومية ، البيلوم ، والمنصل ، والترس الكبير ، والدرع المعدني ، واعتمدوا الرمح ، والسيف ، والخنجر ، والقوس نفسها احياناً ، والترس المستدير ، والدرع الجلدي . وتسلحت بعض وحدات الفرسان ، على غرار الفرس، بالاقواس الجبارة، وحدث في بعضها ان ألبس الرجال والجياد صفائح حديدية او زروداً.

منذ القرن الثالث ارتفع عدد الفرسان ارتفاعاً عظيماً مطرداً . ويعود ذلك الى ان الجيش يجب ان يكون سريع الحركة . كما يعود الى أن الفرسان الثقيلي التسلح ، القادرين على الانقضاض على العدو ، فرقاً متلاحمة في المناورة ، قد أحدثوا اتجاهاً جديداً في التاريخ العسكري وأثبتوا مجدداً تفوقهم على المشاة . ويمكننا القول ، دون مبالغة في أهميتها ــ لأن هنالك سوابق ، ولأن هذا المثل لا يحدث تقليداً ــ ان معركة اندرينوبولس (ادرنه) في السنة ٣٧٨، التي ربحت بفضل كرّ الفرسان القوط ، يمكن اعتبارها مقدّمة الفن الحربي في القرون الوسطى . ولكن الرومان ما زالوا يتلمسون طريقهم. فان اوريليانوس،قبل استلامه الحكم، كان قائداً لكافة وحدات الفرسان في الجيش ، المكوّنة فرقة مستقلة للنهوض بحركات جماعية : غير ان هذه الوحدات الهامة لن تظهر في القرن اللاحق. ومع ذلك فقد أصبح الكر مهمة الفرسان الرئيسية الذين حملت وحداتهم اسم « الاسافين » المميز .

القيادة

وتحسنت القيادة اخيراً تحسناً كبيراً . وقد لعب الحذر السياسي دوره في ذلك لأن الرومان ما زالوا يخشون ، في القرن الثالث ، طموح اعضاء الطبقة المجلسية الذين كان لهم وحدهم الحق ، دون المرور بالدرجات الدنيا ، في تولي قيادة جوقة او جيش . ولكن الاهتمام بالنوع قد لعب دوره ايضاً الذي أمسى في النهاية أهم دور : فقد ارادوا ، بعنادهم في إلغاء امتياز النسب ، اكتشاف الافاضل وتخصيصهم في دورهم العسكري . فحدث من ثم تطور مزدوج . أقصي الشيوخ من جهة عن القيادات. وقد سبق لسبتيموس ساويروس ان وضع فرساناً من الأشراف على رأس الجوقات التي احدثها . ويعزو التقليد الى غاليانوس براءة تجعل من هذا الاقصاء مبدأ . اجل هنالك وقائع ثابتة تناقض هذا التقليد ؛ ولكن الغلبة في النتيجة للنزعة التي تكلم عنها هذا التقليد. وارتسمت من جهة ثانية، وبصورة اجدى، ثم انتصرت، مع قسطنطين، النزعة الى فصل الوظائف المدنية عن الوظائف العسكرية .

وهكذا ، فان تعيين المراتب ، وترفيع ذوي الأهلية دون غيرهم ، اللذين يمثلان التجديد

الاجتماعي الرئيسي في القرن الثالث قد عمل بها في القرن الرابع ايضاً . فبينما لم يكن الجندي من قبل ليتجاوز الا استثناء ، درجة قائد المائة ، أي درجة صغار الضباط ، أصبح الآن من شأن جدارتـه أو حظه ، ان يقوداه الى أعلى الوظائف في سلم المراتب ، وبمـا ان هذه التمييزات الاجتماعية ، فقدت أو كادت تفقد كل أهمية سياسية ، فانـه قد احتل مع الزمن مرتبة الفارس الشريف ، ومرتبة عضو مجلس الشيوخ بعد ذلك . ويرافق هذا الوضع نيله الطبيعي : فكافـة القادة العسكريين ضباط ممتهنون لا يخدمون طيلة حياتهم إلا في الجيش .

بفضل زوال كل تمييز قانوني ، غدا التدرج ممكناً للبرابرة انفسهم ، وكثيرون هم الذين أفادوا منه . وقد أخذ بعض المعاصرين على قسطنطين انه خصّ الفرنك بمحبته ، ووجه اللوم عينه الى ثيودوسيوس بصدد القوط . وباستطاعتنا فعلاً وضع لائحة طويلة بالقادة البرابرة الذين اشتهروا ولعبوا دوراً خلال النصف الثـاني من القرن الرابع ، ناهيك عن القرن الخامس . بيد اننا نقتصر على الاشارة الى وجود القوطيين غيناس والاريك والفاندالي ستيليكون والقفقاسي باكوريوس على رأس وحـدات الجيش الرئيسية التي اتاحت لثيودوسيوس ، في السنة ٣٩٤ ، الانتصار على جيش المغتصب اوجينيوس بقيادة الفرنجي اربوغاست . فالاريك وحده بين هؤلاء ، وهو ملك الفيزيقوط الحلفاء ، لم يكن ضابطاً رومانياً، في حال ان جميع الآخرين قد كسبوا القيادة في خدمة الامبراطورية .

مر كثيرون من هؤلاء الضباط ، الرومانيين او البرابرة ، في اوائل خدمتهم ، في وحـدة « الحماة » . وقد تشكلت هذه الوحدة ، منذ إحداثها في القرن الثالث ، من صغار الضباط ذوي المناقب والكفاءات فقط . ثم اجيز الانخراط فيها ، في القرن الرابع ، لابناء الشيوخ ، ولكن دون ادخال تغيير جوهري عليها . وكانت هـذه الوحدة تؤلف جزءاً من حرس الامبراطور الخاص ، حتى ان افرادها لقبوا اخيراً بـ « المنزليين » فالفوا البلاط وكيفوا عليه تصرفاتهم . ولكنهم لعبوا دور الاركان العامة ايضـاً واسندت اليهم المهام الخطيرة . واختير بينهم قواد الجوقات الذين اتيح لهم بعد ذلك تسنم مراتب اعلى . فان هذه الوحدة ، التي اوجدت لاعداد النخبة ، قد حققت هدفها : ومن عناوين فخر العهد الامبراطوري الثاني انها لم تعرف الانحطاط .

فرضت تجزئة الجيش وحدات محصورة العـدد تنظم حشود لم يكن الفصل بين الوظائف المدنية والعسكرية ليسمح بوضعها ، كما في السابق ، تحت امرة حكام المناطق . وانما احدث لقب « القائد » ، في القرن الثالث ، لرؤساء هذه الحشود بالذات . فمنذ ديوكليسيانوس رئس من يحمل هذا اللقب ، مبدئياً ، كافة الجنود في احدى ولايات الحدود ، التي اصبحت اراضيها ، من جهة ثانية ، من جراء التقسيمات النظامية ، اضيق منها في السابق . وقد حدث احياناً ان مارس بعض القـادة سلطتهم على اقليم اوسع ؛ فاطلق عليهم آنذاك لقب « الكونت » (رفيق) ، ولكن هـذا اللقب لا ميزة نوعية له . اما جيش الريف ، فقد عين له قسطنطين « معلمي جنود » *Magistri militum* احدهما للمشاة والثاني للفرسان : وقد راعت هـذه الازدواجية سلطة

الامبراطور بكل عناية . ثم وزع هذا اللقب على نطاق أوسع، فعين « معلمون» لجيشين . ولكن مالنا ولهذه الاصطلاحات التي يكفي ابتذال الألقاب تدريجياً لأن يجعلها غامضة جداً . فالمهم هو اننا نادراً ما نرى احد هؤلاء الموظفين الكبار متهماً بعدم الاهلية . اجل كان لهؤلاء الرجال نقائصهم ، وقد لجأوا الى الدسيسة . ولكنهم لم يبلغوا في ذلك ما بلغه شيوخ القرن الاول . وهم قد عرفوا مهنتهم خير معرفة .

وفي القمة اخيراً كان الامبراطور وحده الذي ما زالت صفته العسكرية مسيطرة عملياً ، ان لم يكن نظرياً . وما زال الجنود يهلكون للأباطرة ، الذين غدت سلطتهم ، في القرن الرابع ، سريعة الزوال ، ان هم لم يعنوا بواجبهم : وغالباً ما دانوا بالمناداة بهم اباطرة ، كجوليانوس وفالنتيليانوس الاول وثيودوسيوس ، للبراهين التي أعطوها من قبل عن أهليتهم العسكرية . ولا يقبلون بالتواري لتسليم القيادة العليا الى القادة؛ بل يشتركون شخصياً في الحملات ولا يترددون في المخاطرة بحياتهم ، وحتى في التضحية بها . فولايتهم سلسلة متواصلة الحلقات من الجولات يفرضها عليهم الصراع ضد الأعداء في الخارج وفي الداخل .

ونلاحظ بالتدقيق في عداد التبدلات الملموسة التي أفضى اليها موت ثيودوسيوس نهاية النشاط العسكري الشخصي الذي كان يقوم به الامبراطور . فهذا الاخير ، منذ السنة ٣٩٥ ، ينزوي في قصره في القسطنطينية او في رافينّا ، جلَـَّة ومنفرداً ، تاركاً لبعض القادة ممن تلقف لهم دسائس البلاط بالمرصاد امر قيادة الحملات العسكرية . وفي حين ان المزيد من الصعوبات يدعوهم للعمل ، نرى في اعراض هؤلاء الرجال الذين لا يشكون من ضعفهم بل من بعدهم عن عامة البشر بفعل عظمتهم ، – لن يظهر أي امبراطور شرقي في الجيش قبل السنة ٥٩٢ – مقاطعة التقليد الامبراطوري الروماني . ولعل هذا الإعراض سبب آخر لنهاية الامبراطورية او دليل عليها على الأقل .

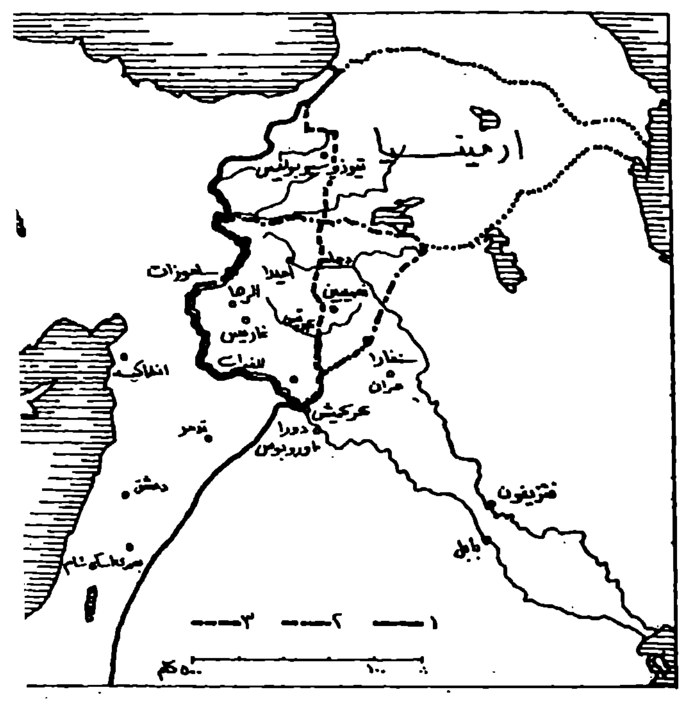
٢ - هجوم البرابرة

ذاك هو جيش العهد الامبراطور الثاني في خطوطه الجوهرية. أمّن سلامة الاراضي الرومانية حتى منتصف القرن الرابع . حينذاك ، ودون ان تتمكن من رؤية التراخي فيه او بداية انحطاط داخلي ، اخذ يبرهن عن انه دون المهمة الملقاة على عاتقه . والحقيقة هي ان هذه المهمة قد أصبحت اعظم ثقلاً : فمن كل جهة ، جدّد العدوّ هجومه ، بحيث لن يترك الامبراطورية تذوق طعم الراحة حتى انهيارها .

الفرس — لا ريب في ان الفرس شعب اتصف بالصلابة ، ولكنهم لم يكونوا مع ذلك أكثر الاعداء اقلاقاً للرومان .

كانوا الاول في الانتقال الى الهجوم حين بلغ ملكهم الشاب، شاهبور الثاني ، سن الرشد ، في اواخر عهد قسطنطين : وبقي شاهبور هذا حتى مماته (٣٧٩) عدو الرومان العنيد . توفرت

، الوسائل القوية والفيلة الهندية والآلات لمحاصرة الحصون . ولن تواجه الامبراطورية ،
مكان آخر ، عدواً على مثل هذا التنظيم وهذا التصلب توفق في السنة ٣٥٩ ، بعد ثلاث
بعين يوماً ، الى دخول« اميدا »عنوة(ديار بكر الحالية على دجلة). وكانت ضرباته قا
مم جوليانوس على وضع حدّ لهذه التعديات بشن هجوم على الطريقة القديمـــة ، وسار



الشكل ٢٠ ـ حدود الامبراطورية شرقاً في القرن الرابع
١ ـ الحدود بعد هزيمة فاليريانوس في السنة ٢٦٠؛ ٢ ـ بعد حملات ديوكليسيانوس ؛ ٣ ـ بعد الاتفاق الذي عقد في عهد ثيودسيوس .

زيفون ، وأصيب ، أثناء انسحابه ، بجرح مميت . فاضطر خلفه ، بغية إنقاذ الجيش ، الى
جميع الاراضي الواقعة وراء نهر الخابور : وهي لن تستعاد بعد ذلك .

بيد ان الفرس لم يدخلوا سوريا قط كما فعلوا في القرن السابق . فهم ايضاً واجهوا مش
ى : الغزاة الرحل في تركستان والقفقاس ، والنصرانية التي لم يفلح تصلبهم في استئصالها
لتهم ، والهيجان في ارمينيا التي ارادوا اخضاعها او فرض حمايتهم عليها على الاقل . و

خلفاء شاهبور الثاني دونه حزماً وتدبيراً . فارسل احدهم الى ثيودوسيوس وفداً قدم له الهدايا ، وتخلى اخيراً للرومان عن الجزء الغربي من ارمينيا حتى كارنا (ارزروم الحالية) التي اطلق عليها اسم « ثيودوسيوبوليس » .

اما الخطر الحقيقي ، المخيف ، فقد اتى من مكان آخر .

الرين

برزت المصاعب مرة اخرى على نهر الرين منذ السنة ٣٥٠ حين نودي بالقائد ماغناس امبراطوراً . فدفع آخر ابناء قسطنطين ، كونستانس الثاني ، الذي مـا زال على قيد الحياة ، احد ملوك الألامان الى اجتياز النهر في عملية تلهية ، بينما توجه المغتصب على رأس خيرة فرقه الى بانونيا وايطاليا كي يستطلع حظه فيهما : فشمل الغزو كافة انحاء غاليـا الشمالية الشرقية .

استعيدت الحدود بعد ذلك ببعض المشقة لا سيما على يد جوليانوس الذي سحق الألامان على مقربة من ستورا سبورغ في السنة ٣٥٧ . ولكن كونستانس الثاني كان مشغولاً بالدس حين انتقل اللقب الامبراطوري الى جوليانوس الذي توجه هو ايضاً الى البلقان على رأس خيرة جنوده.

توجب من ثم بذل المزيد من الجهود ، وعلى الرغم من الهمة القعساء التي برهن عنهـا اسياد الغرب المتعاقبين، فالنتينيانوس الاول وغراسيانوس ، فان امد سلامة الدولة لم يطل قط . ومنذ نهاية القرن الثالث سمحت الامبراطورية لبعض القبائل الجرمانية ، ولا سيما الفرنجية منها، بالاقامة عند مصاب نهر الرين ، مسندة اليها مهمة المحافظة على هـذا الجزء من الحدود . فاتسع آنذاك نطاق التعديات الجرمانية حتى شمل المنطقة الشمالية الشرقية من بلجيكا الحالية . ويعود تاريخ آخر حملة رومانية اجتازت نهر الرين من جهة كولونيا الى السنة ٣٨٨ ، وقد انتهت بهزيمة منكرة. ولن يلبث الغزو ، على طول نهر الرين ، ان يقذف بالبرابرة الى كافة انحاء غاليا .

وصول الهون وتعدي القوط

كان تصدع خط الدانوب ، بفعل حصوله قبل تصدع خط الرين ، أدهى خطورة ايضاً ، لأنه عرض البلقان وايطاليا مباشرة للخطر .

جاءت الهزة من بعيد ، من قلب آسيا الوسطى ، التي اتجه منها نحو اوروبا جمهور غفير من الهيونغ – نو (أي الهون) الذين أقلقوا الصين زمنـاً طويلاً : دفعة لا تقاوم تعاظمت باستمرار بين البدو المختلفي الاجناس الذين تغلبت عليهم وجرتهم ، بقيادة رؤساء نجهل كل شيء عنهم ، مع اننا مضطرون للاعتراف بانفطارهم على قوة عزيمة نادرة ، وتحت ضغط ظروف بشرية واقتصادية ملحّة ، وبدافع الاحتقار للحضريين وجاذب الثروات التي ينتظر استلابها رجـال الاخبية . دفـع هؤلاء المغول جنوباً بقبائل التركستان ثم ضموا اليهم الـ « آلين » وبلغوا روسيا الجنوبية حيث واجهوا القوط . فقدموا ، وسيقدمون طيلة قرن وأكثر ، اول مثـل تاريخي معروف – يتيح تصور هجرة الهنود الاوروبيين على غرار الغزوات التي غمرت مصر وبلاد مـا بين النهرين في الالف الثاني واوائـل الالف الاول – لجولات وصولات شعوب وامبراطوريات

السباسب الشاسعة التي كان انهيارها النهائي صاعقاً على غرار نجاحها .

لم يكن القوط حينذاك جيراناً مقلقين للامبراطورية . فقـد عرفوا الاستقرار ، ويقسمهم المامرون فئتين[1]. ويبدو ان فئة الاوستروقوط الشرقية قد ألفت دولة حسنة التنظيم فرضت حمايتها على بعض قبائل السباسب الروسية : فوُضع بذلك حدّ لأعمال قرصنتها . اما فئـة الفيزيقوط الغربية فقد كانت أكثر اهتياجاً . اقام احد افرادها ، اولفيلا ، مدة طويلة في آسيا الصغرى في عهد قسطنطين . اعتنق الديانـة المسيحية على المذهب الآري وسم اسقفا وعاد الى مواطنيه وشرع يبشرهم بالانجيل : وفي سبيل ذلك نقل الكتاب المقدس الى اللغة القوطية التي اضطر لأن يضع لها أبجدية. بيد ان تبشيره قد اثار بعض الهيجان . فاضطر ، بعد سبع سنوات قضاها واعظاً ، الى الالتجاء الى الاراضي الرومانية ، مع جمهور من المؤمنين ، في السنة ٣٤٨ . فاستقل الامبراطور فالنس ، الذي شكا من الغزوات ومن العضد الذي لقيـه احد المغتصبين ، هذه الاضطرابات الداخلية لبعث منافس مسيحي للزعيم الوثني .وبالاختصار ، لم يكن القوط ، بعد ان تأثروا بحضارة اعظم تطوراً ، ليشكلوا وحدهم خطرا ذا شأن.

ولكن ها هم الهون يجتازون نهر الفولغا حوالي السنة ٣٧٥ وينطبق عليهم آنذاك ، لا على ما سيكونون عليه بعد قرن ، وصف اميانوس مرسلّينوس الشهير : « هذه الحيوانات المفترسة السائرة على قدمين » ، هؤلاء الفرسان المزدرون بالتعب ، المختلفون شكلاً خارجياً عن الاوروبيين ، المرتدون الالبسة المرعبة، المتمشون على عادات تقز منها النفس، الزارعون الحريق في كل مكان . قضوا على مملكة ألاوستروقوط ثم قطعوا نهر الدنيستر ودنوا من الفيزيقوط الذين ما لبثوا ان انهزموا وطردوا نحوا ترانسيلفانيا أو الدانوب حيث التحق بهم الاوستروقوط الذين لم ينصهروا في زمر الهون .

استجار المسيحيون بالامبراطور.فسمح لهم فالنس باجتياز النهر املاً منه بالاستفادة من رجالهم. ولكن القطيعة بينه وبينهم وقعت منذ السنة ٣٧٧ ، ومع ان عدد محاربيهم لم يجاوز الـ ١٠٠٠٠ ، فانهم قد حطموا ، في التاسع من شهر آب من السنة ٣٧٨ ، الجيش الامبراطوري في الشرق امام اندرينوبولس على الرغم من تفوقه عدداً ، وهلك فالنس نفسه ، واستحال العثور على جثته . سار الظافرون حينذاك نحو القسطنطينية . واذا هم لم يستطيعوا دخول اية مدينة ، فانهم قـد نقلوا الخراب الى الارياف . فـلم ير ثيودوسيوس ُبدّاً ، على الرغم من بعض الانتصارات التي ابعدت اسوأ الاخطار، من ان يتفق معهم بادخالهم في خدمته، وباغداق الوعود عليهم بالخدمات، وبالسماح لهم بالعيش بين الدانوب والبلقان .

امسى القوط منذئذ في الامبراطورية ، على غرار الفرنك ، ولكنهم توغلوا فيها توغلا ابعد ، والفوا كتلة اعظم تراصاً وبرهنوا عن مزيد من الجسارة . ويمكننا هنا ان نستعيد تعبيراً

---

(١) « اوستروقوط » لا تعني « القوط الشرقيين » بل اللامعين. وكذلك « الفيزيقوط » هم « القوط المتعلمون ».

لارنست ستاين ونقول ان يوم اندرينوبولس يحدّد « بداية نهاية » الامبراطورية الرومانيــة كامبراطورية العالم المتوسطي .

المجوم الشامل

فان المثل الذي اعطاه القوط والضربات التي سدّدت لقوة الامبراطورية ونفوذها قد دفعت باعدائها الآخرين الى التمادي في جسارة مطامعهم ومحاولاتهم : فانتقلوا الى الهجوم في كل مكان بعزيمة متزايدة واحرزوا انتصارات كثيرة .

قام بهـــذا الهجوم أصغر الشعوب عدداً : الايزوريون في آسيا، والاسماعيليون في الصحراء العربية والبليميون في مصر العليا . وفي افريقيا ، خرج البدو من الصحراء الكبرى ، والمنشقون من جبالهم ، مستغلين البلبلة التي اوجدهــا الاضطراب الاجتماعي في البلاد تحت ستار الهرطقة الدوناطية(نسبة لدوناط اسقف قرطاجة) ، والثورات التي نظمها بعض زعماء البرابرة او بعض الموظفين . وفي بريطانيا أكثر البكتيون والسكوتلنديون والايرلنديون من هجماتهم على الحاميــة العسكرية الرومانية التي عجزت عن المحافظة على سور هدريانوس ؛ ثم جاء السكسون عـــن طريق البحر الشمالي؛ وفي اوائل القرن الخامس جرّ احد المغتصبين فرق الجيش وراءه الى غاليا، فأخليت الجزيرة التي لم يبق فيها، في السنة ٤٤٩ ، أي بعد اربع وثلاثين سنة ، أي اثر السيطرة الرومانيــة .

ما كان كل هذا، باستثناء الانشقاقات الافريقية الكبرى التي أوقفت تصدير الحنطة الى روما، ليرتدي طابع الأهمية العظمى لو لم تنتقل العدوى ، في الوقت نفسه ، الى قلب الامبراطورية . فالبرابرة، القدماء والجدد منهم على السواء ، شنوا الغارات على حدود الدانوب والالب وغاليا. فحدث ان قاومهم اسلافهم ، ولكنهم توفقوا اخيراً الى شق طريقهم . ولم يبق للحكومة الامبراطورية نفسها ، التي انقسمت ، بعد موت ثيودوسيوس ، الى بلاطين ، متعادلين غالباً ، ملتفين بالدسائس ابـداً ، من مورد آخر سوى محاولة استغلال التنافسات بين الزعماء والزمر والشعوب .

ستوفق القسطنطينية ، بفضل استنادها الى آسيا الصغرى ، الى ابــداء مقاومة اجدى . ولكن شبه الجزيرة البلقانية كانت الاولى التي تعرضت للخراب في كل اتجاه: بعد وفاة ثيودوسيوس، اجتاز الفيزيقوط « الاريك » تراقيا واليونان حتى البلوبونيز . فلنصغ الى الاحصاءات المحزنة التي ذكرها القديس ايرونيموس في السنوات الاخيرة من القرن الرابع : ها هو الدم الروماني يسيل كل يوم منذ عشرين سنة وأكثر بين القسطنطينية وجبال الالب الجوليانية . فبلدان سكيتيا (بلاد الغز) وتراقيا ومقدونيا ودردانيا وداسيا[1] وتساليا واخيا والابير ودلماتيا والبانونيتان

---

(١) تراقي ولاية سكيتيا آنذاك منطقة دوبرودجا الحالية تقريباً . وبعد اخلاء داسيا الحقيقية ، اطلق اسمها على ولايات جديدة جنوبي الدانوب تراقي ، مع دردانيا ، القسم الشرقي من صربيا القديمة .

أضحت فريسة القوط والسارماط والألين والهون والفاندال والماركومان الذين اجتاحوهـا ومزقوها واستلبوها .

بعد ان عم الخراب البلقان ، جاء دور الغرب الذي لم يتردد بلاط الشرق في ان يحوّل اليه الغزاة المتكالبين على الثروات السليمة البكر . استهوتهم ايطاليا بنوع خاص فبلغوها بعد ان داروا حول الادرياتيك . وفي الرابع والعشرين من آب من السنة ٤١٠ ، دخل « الاريك » روما ، التي كانت تحت رحمته طيلة السنتين السابقتين،وأخضعها لسلب دام ثلاثة ايام . ثم جاء دور غاليا واسبانيا حيث تدفق غزاة آخرون سبقوا اليها القوط عن طريق الرين . وجاء دور افريقيا نفسها اخيراً . ففي السنة ٤٥٥ دخل الفاندالي جنسريك، المستقر في قرطاجة ، الى روما التي أباح سلبها طيلة اسبوعين . ولكن مراكبه ، في السنوات الاخيرة ، غزت السواحل والجزر اليونانية : وهذا دليل على ان الشرق لم يحصل على سلام حقيقي بتخليه عن الشرق .

الفوضى

لنقف هنا في عجالتنا الخاطفة هذه: فلم نقصد من ورائها سوى ان نبين كيف نشأت وبأي عنف انفلتت عاصفة فوضوية ليس من هدف هـذا الكتاب تتبع تطورها وعواقبها من قريب او بعيد .

وفي الواقع ، عبثاً يبحث المؤرخ ، في هذه الفوضى ، عن حدث او تاريخ يستطيع ان يربط بها عرضه ويكتشف منعطفاً حاسماً في التطور . فاحتلال رومـا نفسها ، في السنة ٤١٠ ، قد أذهـل المعاصرين . ولكن الرمز الذي يشكله هـذا الاحتلال يستخلص قيمته الوحيدة من ماضي المدينة لا من حاضرها آنذاك – لا يستطع الاريك ان يختطف شخصية رسمية سوى غالاّ بلاسيديا ابنة ثيودوسيوس وشقيقة الامبراطور هونوريوس، التي تزوج منها صهرها وخلفها اتهولف بعد سنوات ، بأبهة عظمة في ناربونا – ولا من مستقبلها . والفكرة التي يوحيها اليوم هي تلك التي ادلى بها القديس ايرونيموس على الفور : « من كان يستطيع الاعتقاد بان روما ، التي يؤلف سافاتها هذا العدد الكبير من الانتصارات المحرزة على العالم بأسره، ستنهار يوماً ؟» ولكن في هذا النهول بعض السذاجة ، اذ ان شيبيون اميليانوس قد عرف ، قبل ذلك بخمسة قرون ونصف ، ان هذا الانهيار سيحصل يوماً بصورة محتومة . ولكن ما هو اقرب الصواب الدهشة التي يبعثها تدقيق يسمح به بعد الاحداث في التاريخ : فان هذا الحدث ، الذي يستهوينا وصفه بالعظيم ، ليس نتيجة أو بداية لاي شيء،بل مجرد عرَض في مركّب ابتدأ قبل ذلك بكثير ، وسيمتد الى ما بعد ذلك بكثير ايضاً .

كيف لا نعتبر ان هذا البطء وهذا الاندراس بالذات هما من عناوين مجد رومـا ايضاً ؟ فلم يقتض لهدم مـا شيدته مدة طويلة فحسب ، بل كانت هي نفسها ملتشرة في عالم اصبح سكانه ابناءها ايضاً: وكان باستطاعتها الاستمرار في الحياة خارج الاسوار التي دخلها السلاّبون عنوة .

قضى الانسجام مع تقاليد ماضيها ، بالضبط ، ان يمسي هؤلاء البرابرة ابناءها بدورهم . وقد

خدمها اكثر من واحد باخلاص حتى ضد بني جنسهم . وأوحت ، حتى بعد سقوطها، الاحترام العدد الاكبر منهم فتركت لهم إرثاً ما . ولكن الاستساغة لم تحدث . فهم كانوا كثيري العدد وهي لم تظهر امامهم ، كما في الماضي ، مزدانة بفتنة النصر . فهي قد ماتت ، لعمري ، لانها لم تستطع متابعة عملها التربوي .

لم يحل طول نزاعها دون موتها في القرن الخامس . واذا ما استطاعت القسطنطينية البقاء حينذاك ، فانها قد عاشت حياة حقيرة قبل ان تعرف ، في زمن لاحق ، ايام عز جديدة .

٢ ـ الصعوبات الداخلية

اذا كانت عودة الاخطار الخارجية واستمرار تجسمها بعد منتصف القرن الرابع يفسران اموراً كثيرة ، فيجب الا يحملانا على اهمال الصعوبات الداخلية التي بلبلت جهود الامبراطورية بلبلة دائمة وشلته شلاً احياناً . كان القسم الاكبر من هذه الصعوبات قديم العهد . وقد حاولت الامبراطورية ان تضع حلولاً جديدة لعدد منها دون ان تتوفق مع ذلك الى السيطرة عليها .

بديهي ان كل الصعوبات لا تستحق ، منذ الآن ، ان ندرس كلا منهـا على حدة . ولم تخل جماعة بشرية من الهموم الكثيرة التي اعاقها كل منها في تفتحها . بيد ان تسلسل هذه الصعوبات بحسب اهميتها يتضح للاجيال اللاحقة ، ان هو لم يتضح للمعاصرين . فلنقتصر اذن على الخطرين الاعظمين .

١ ـ انتقال السلطة والحروب الاهلية

سنفكر دون ابطاء ، بسبب الاضطرابات المادية التي تجرّ اليها الحروب الاهليـة ، بأزمات الخلافة في الامبراطورية وبالاغتصابات، تلك الامراض المزمنة في العهد الامبراطوري الذي لم يتوصل قط ، طيلة مدّته ، الى وضع وتطبيق قواعد ثابتة لانتقال السلطة . بيد انه أفرغ كل مجهوده ، آنذاك وقبل ذاك ، وبصورة مبتكرة جداً احياناً ، وببعض الفعّاليـــة اخيراً ، وفي ظروف دقيقة جداً ، بغية سدّ هذا النقص .

الظروف العامة

فالصعوبة ، في العهد الامبراطوري الثاني ، مصدرها الاول دروس الفوضى التي لقنتها ازمة القرن الثالث . واذا ما قدّر لبعض هـذه الدروس البقاء آنذاك ، فانها قد مزقت كافة الحجب : ولم يشك احد ، بعد رؤية هذا العدد الكبير من الاباطرة السريعي الزوال ، في ان رضى الجنود ، الخاضع نفسه لكل تقلب مفاجىء ، يتيح تسلّم السلطة والحفاظ عليها . فأمسى السعي وراء السلطة ، على ما في ذلك من مغالطة ، أكثر من طموح عادي بالنسبة القائد : فهو احياناً حظه الاخير في النجاة من الموت الفوري الذي قد يجرّ اليه زوال حظوته . ففي السنة ٣٥٥ مثلاً ، حاول الفرنجي سيلفانوس ، الذي سبق له وأدى خدمات جلّى لم تمنع

أعداءه الشخصيين من ان يقدموا لكونستاس الثاني كل وشاية كاذبة عنه ، تخليص حياته بحمل أنصاره على المناداة به امبراطوراً في كولونيا: غير انه ارتكب خطأ فادحاً، اذ ان الامبراطور، الذي اكتشف ، في هذه الاثناء ، ما انطوت عليه هذه الوشايات من تجنّ وافتراء ، قد اضطر مع ذلك الى اعدام المغتصب قبل مرور شهر على المناداة به . نحن امام حادث لا طائل تحته في حدّ ذاته ، ولكنه يكشف عن المحاولات التي كان يدفع اليها الاتصال الدائم بالجنود .

نجمت الصعوبة ايضاً عن ثقل وشمول المهام المنوطة بالامبراطور . فمن حيث ان وجوده في كل الجبهات أمر مستحيل ، قضي عليه بأن يرى باستمرار بروز منافسين جدد ، حيثما يتجمع جيش وتسنح فرصة لاكتساب مجد ما او شعبية ما لدى الجنود . واذا ما اضطر التغيب لمحاربة عدو داخلي او خارجي ، فان غيابه يكون كافياً لبروز منافسين آخرين . اجل كان بالامكان اشراك امبراطورين او أكثر : فهناك سابقة مارك اوريل ولوسيوس فيروس (*Lucius Vérus*) في العهد الامبراطوري الاول . ولكن هذا الحل يفرض اختيار الشركاء والمحافظة ، باتفاقهم ، على وحدة الدولة .

كان من شأن هذا الحل ان يبدو مغرياً جداً لأنه يوافق نزعة فطرية الى الاستمرار السلالي . فمنذ ان كان بشر وملكيات ، كان اشراك الابن في سلطة أبيه طريقة دارجة جداً لأنها تحول دون شغور السلطة عن طريق تأمين الوراثة . وقد اعتمدت الامبراطورية الاولى هذه الطريقة أكثر مرّة غير مكتفية حتى بلقب الامبراطور للخلف المعين على هذه الصورة : فان مارك اوريل قد منح ابنه كومودوس لقب « اوغسطس » ، محتفظاً لنفسه بالخبرية العظمى دون شراكة وبالنفوذ الذي يوليه اياه فارق السن . ومن جهة ثانية ، كان هذا الفارق حجر العثرة ، اذ ان هذا النظام ما كان ليسير سيراً حسناً إلا اذا بلغ الابن ، عند وفاة أبيه ، سناً تسمح له بفرض نفسه . ولذلك فقد استفيد ، في عهد الانطونيين، عملاً بمبدأ اختيار « الأجدر » ، من عدم وجود ابن شرعي للامبراطور ، طيلة أجيال عدة ، للجوء الى التبني .

وبالاختصار ، كان باستطاعة الملكية في العهد الامبراطوري الثاني ، التي ألجئت الى تعيين مساعد ، بل عدة مساعدين ، للامبراطور ، بغية تأمين المهام الحكومية ، لا سيا العسكرية منها، والتي نزعت مع ذلك ، على غرار سواها ، الى الوراثة السلالية ، ان تستند الى سوابق كثيرة . وهي قد عملت ، وفاقاً للظروف والبشر ، بهذه السابقة تارة وبتلك السابقة أخرى ، لا بل أدركت خير ادراك ، غداة موت قسطنطين ، صعوبة تكاد تكون جديدة – فقد سبق مثل نيرون وبريتانيكوس ، ومثل ابني فسبيانوس ، وخصوصاً مثل ابني سبتيموس ساويروس – بل هي جديدة على كل حال بحدة المنازعات التي أثارتها ، اعني بها تلك الناجمة عن امبراطور يترك عدة أبناء لا يفصل بينهم أي فارق كبير سناً او نفوذاً . فلا عجب من ثم اذا كلّفها الافتقار الى حق ملكي صريح وثابت ثمناً باهظاً من الحروب الاهلية .

نظام ديوكليسيانوس الرباعي

قد يكون من الملّ حقاً استعراض كافة الحلول التي جرّبت آنذاك. ففي القرن الثالث وحده نماذج وافرة عنها . وقد حدث في السنة ٢٣٨ أن اختار مجلس الشيوخ اثنين من اعضائه ومنحهما بالتساوي الالقاب نفسها والسلطات عينها بما فيها الحبرية العظمى التي أسندت للمرة الاولى الى شخصين في آن واحد . دام هذا التدبير الثنائي تسعين يوماً وانتهى ، شأن غيره ، بقتل المستفيدين منه . لنهمل اذن هذه المحاولات الفاشلة حتى نتوقف عند محاولة ديوكليسيانوس التي تنطوي على أهمية أعظم واقعية . فهي لم تكن سريعة الزوال ـ دامت أربع سنوات ـ وامتازت بأنها كاملة ومبتكرة ، اذ انها اضافت عنصراً جديداً ، هو الاستقالة في موعد محدد ، الى غيره من العناصر التي اوجدتها الاختبارات السابقة .

كان نظام « التترارشية » ، أي الحكومة الرباعية ، منذ زمن بعيد ، موضوع جدل ونقاش . فمنذ قرن ، فسّرها يعقوب بوركارت ، بأنها نظرية عالم ربما انتسب الى « اسرة سييّس Sieyès» على حد قول احدهم . ولكن هذا القول ، لم يعد له من قيمة كبيرة في هذه الأيام : فان ديوكليسيانوس لم يتوصل الى هذا النظام إلا تدريجياً ، بخضوعه لشتى ضروب الضغط وبتعديل مقررات املتها انتهازية عملية . ولكن ما لا ريب فيه مع ذلك ، هو ان نظام حكومة رباعية قد قام بعد تسلمه الحكم ، وان واضع هذا النظام قد اعتقد بأنه وضع حداً بواسطته للأزمات التي غالباً ما تعرض لها العهد .

قضى هذا النظام بتعيين امبراطورين في آن واحد ، يكون أحدهما ، رسمياً ، شقيقاً للآخر ، ويكون لهما الصلاحيات نفسها والألقاب عينها ، على ان يعتبر احدهما بمثابة البكر اي « الأقوى » و« الاول » بغية تحاشي كل خلاف بينهما . كما قضى بأن يعين ، الى جانب هذين الامبراطورين « قيصران » يكون كل منهما مساعد الامبراطور الذي اختاره لجدارته دون أي اعتبار للنسب الطبيعي – فقد أقصي بعض الابناء – وتبناه حين اختياره . أضف الى ذلك ان كل قيصر كان يخلف امبراطوره حين وفاته او استقالته . ولم يتردد ديوكليسيانوس في اصدار قرار يقضي على كل من الرؤساء الاربعة بالاستقالة في مستهل السنة العشرين لممارسته السلطة . وقد استقال هو نفسه في اول ايار (مايو) من السنة ٣٠٥ ، متجاوزاً الأجل بسبعة عشر شهراً فقط بغية ارغام « اخيه » مكسيميانوس على احترامه ، ومتيحاً بذلك ارتقاء القيصرين الى مصف امبراطور ، واختيار قيصرين جديدين .

أمام هذا النظام ، لا نعلم في الحقيقة ، ما هو الأجدر بإعجابنا : الابتكار ، أم الصرامة ، أم السذاجة . فهو قد استلزم مبدئياً المحافظة الدائمة على الاتفاق ، أقله بين الامبراطورين. وقد أهمل بعض العواطف الفطرية : الرغبة في الاستمرار عن طريق الابناء والأحفاد ، النفور من الاستقالة ، وجزع القياصرة بالتبني ، ويأس الابناء المحرومين من الإرث الوالدي . اجل قضى الاختبار بأن لا يستسلم لهذه الأوهام امبراطور استقال في سن الستين . ولكنه استطاع التأكد ،

قبل ان تدركه الحمية في السنة ٣١٣ ، من فشل نظامه وتخلي المسؤولين عنه نهائياً . فقد سددت له الضربة الاولى منذ السنة ٣٠٦ ، حين سارع الجيش المرابط في بريطانيا، الذي توفي الامبراطور كونستانس كلور بين وحداته ، بالمناداة بابن الفقيد ، قسطنطين ، دونما اكتراث لقيصره . ومنذ السنة ٣١٠ كان في العالم الروماني عشرة اشخاص يحملون لقب امبراطور ، لا يدخل في عدادهم ديوكليسيانوس الامبراطور الشرفي : فأخذت الفوضى تخيم مرة أخرى .

حل قسطنطين المتعرج

بعد حروب طويلة باهظة الثمن ، استعادت الامبراطورية السلم الداخلي بقيادة سيد فرد ، هو قسطنطين الذي لم يأبه للعودة الى النظام الرباعي . واذا استحال القول بأنه لم يفكر بأمر الخلافة ، فمن غير المعقول ان المقررات الوحيدة التي اتخذها تقابل مشاريعه النهائية . فهو قد اقتصر ، قبل وفاته بسنتين ، على تقسيم الاراضي الامبراطورية خمسة اجزاء ، أسندت ولاية ثلاثة منها ، وهي الاجزاء الكبرى ، الى ابنائه الثلاثة ، وولاية الجزئين الآخرين الى اثنين من ابناء اخوته .

فهل هذا حله الحقيقي يا ترى ؟ اذا كان الجواب ايجاباً ، فمعنى ذلك انه كان ، قبل الميروفنجيين *Mérovingiens* والكارولنجيين *Carolingiens* ، بزمن بعيد ، اول من ذهب حتى الحال في تطبيق مفهوم غريب هو مفهوم الدولة الملكية كإرث عادي. ولكن ذلك يعني اما تصديع الدولة واما الالقاء بها في منازعات جديدة ، في حال انه يستحيل الاعتقاد بامكان وجود مثل هذا العمه عند ذاك الذي صادف صعوبات كثيرة في اول عهده . فالأجدر بنا، من ثم، الاعتقاد بأنه احتفظ لنفسه ، بعد امتحان الامراء الخمسة ، بحق الاختيار وتعيين الامبراطور الحقيقي الذي يخلفه في دور التنسيق . ولكن الموت لم يترك له الوقت اللازم لذلك .

حكم الجماعة في استمرار الوحدة

لنضع حداً لهذه النظرة التاريخية التي لم تضعنا ، على كل حال ، امام اي حل جديد . اما الجديد الذي تحقق ، فعملي اكثر منه قانوني ، وفي ذهنية المسؤولين والرعايا اكثر منه في المقررات الامبراطورية .

فمن جهة ، ما عادت السلطة العليا لتتجسد الا استثناء في امبراطور فرد. فقد ملك قسطنطين وحده ثلاثة عشر سنة ، من السنة ٣٢٤ حتى وفاته . ومنذ السنة ٣٥٣ ، تعاقب طيلة عشر سنوات الاباطرة : كونستانس الثاني وجوليانوس و جوفيانوس . ولكن الملك الفردي ، لن يعود بعد ذلك ، إلا خلال الاشهر الاربعة التي سبقت موت ثيودوسيوس في شهر ك ٢ (يناير) من السنة ٣٩٥ ؛ ولا وجود له مع ذلك الا عملياً ، لا قانوناً ، اذ ان اخوين ، هما ابنا الإمبراطور ، قد حملا حينذاك لقب امبراطور ايضاً . لمدّة عودته قصيرة جداً : اذ ان الشراكة كانت ضرورة ملحة لأسباب عملية .

بيد انه يجدر بنا ان لا نخطىء في فهم هذا الواقع: فالمقصود شراكة وجمعية لا تقسيم اقليمي ، او دستوري اذا جاز التعبير . الامبراطورية واحدة نظرياً مع ان كل امبراطور ، سواء عين

معه قيصر ام لا ، او امبراطور آخر أقل نفوذاً ، كان مكلفاً عملياً ادارة قسم منها او الدفاع عنه. ولم يكن أي امبراطور جديد ليُقبل رسمياً في هذه الهيئة إلا بعد موافقة زميله او زملائه، ولم تكن وحدة التشريع شيئاً نظرياً فحسب -- دون ان نرى حتى اليوم ، على كل حال ، كيف توصلوا الى الابقـاء عليها . والمصير المختلف الذي قرره البرابرة « لشطري » الامبراطورية هو وحده بالنتيجة الذي أفضى الى التمييز بين امبراطورية شرقية وامبراطورية غربية ، وقد تكرس هذا التمييز في الوقائع زمناً طويلاً قبل الاعتراف به رسمياً . لا بل ان الاعتراف الرسمي لم يحصل قط في العصور القديمة مهما تجاسرنا في اطالة هذه العصور . ففي السنة ٤٧٦ ، حين اعاد « الاسكير » اودواكر (ابن اتيلا) الى القسطنطينية ، التي كان متربعاً على عرشها الايزوري تاراسيكوديسا باسم زينون اليوناني ، الشارات الامبراطورية الموجودة في ايطاليا ، اعتبر رجال القانون الشرقيون ان وحدة الامبراطورية ، التي ما زالت قائمة في نظرهم ، قد توطدت في الواقع: وهذه المزاعم هي التي سيستند اليها جوستينيانوس في وقت لاحق قريب . ولكن « الاجماع » ، وهو موضوع تفنن دائم ، قد فقد معناه منذ زمن بعيد .

قبل ان يتحقق كل ذلك ، أضر تعدّد الاباطرة بالامبراطورية. وكان عجيباً ان يسود الاتفاق فيما بينهم بصورة دائمة . وجرت اقامتهم في مقرات بعيدة الى ازدواجية البلاطات والاجهزة المركزية . وقد اصطدم تصميم الملوك على الاتفاق ، حتى ولو كان مطلقاً وحازماً ، بشتى بوادر البطء او اقله بانانية مستشاريهم ودوائرهم وحتى الاهالي انفسهم . اضف الى ذلك ان العمل العسكري ، الذي يستلزم وحدة القيادة ، قد تجزأ أو تقهقر أو ارتدى طابع السرعـة بفعل الجهل أو الحماسة : فان فالنس مثلاً ، رغبـة منه في احراز النصر منفرداً ، قد هاجم القوط امـام اندرينوبولس دون ان ينتظر وصول الامبراطور الآخر الذي كان متوجهـاً لنجدته . وهكذا فان العهد الامبراطوري الثاني ، الذي الجأته الظروف الى الحكم الجماعي ، قد تأثر بمساوئه .

الفكرة السلاليـة وفشل الاختصاصات

هنالك جدة اخرى لامراء فيها ، الفكرة السلالية . لم يعرف القرن الرابع ما عرفه القرن الثالث ، وحتى القرن الاول ، من اضطرابات . فبعد ان شهد سلالة قسطنطينية وسلالة فالنتينية، ترك القرن الخامس سلالة ثيودوسية. أجل لم تكن الجدة في اشراك الابن أو الابناء مع ابيهم ، ولا في استمرار حكمهم ، زمنـاً طويلاً أو قصيراً ، بعد وفاة هذا الاخير ، بل في لجوء الامبراطور نفسه الى عائلته : فقسطنطين قد فكر بابناء اخوته، وفالنتينيانوس الاول قد اشرك اخاه فالنس معه . وبلغت الفكرة العائليـة من القوة ما حملهم على ايجاد رابطة زواجيـة بين سلالة واخرى : حين بلغ غراسيانوس السادسة عشرة من عمره زوّجه ابوه فالنس من حفيدة قسطنطين البالغة من العمر ١٣ سنة ، ولم يتزوج ثيودوسيوس من ابنة فالنتينيانوس لمجرد جمالها فقط .

لا يعني كل هذا ان تاريخ هذه السلالات قد استمر هادئاً ابداً. فان تاريخ العائلة القسطنطينية

بنوع خاص يقدم لنا امثلة متعاقبة وافرة عن مآسي البلاط والاغتيالات والخصومات بين الاخوة التي ادت الى الحرب الاهلية . وحدثت ايضاً ثورات واغتصابات رافقهـا اغتيال الامبراطور الشرعي . بيد ان اية حادثة من هذه الحوادث العنيفة ، على نقيض ماجرى في القرون السابقة ، لم تنته بانتصار المغتصب . ولعله من حسن طالع جوليانوس ، الذي نادى به جنوده امبراطوراً في لوتيسيا ، ان مات ابن عمه قسطنطين الثاني قبل ان يصطدم الجيشان . وهو الثائر الوحيد في ذلك العهد الذي نجحت محاولته ، وليس انتاؤه الى العائلة القسطنطينية بغريب عن نجاحه .

يبدو جلياً من ثم ان شعوراً بالاخلاص للسلالة قد بدأ يظهر ويؤثر حينذاك على الرغم من موانع كثيرة. ولعل افضل دليل على ذلك ان عدم كفاءة أعقاب ثيودوسيوس سياسياً وعسكرياً لم تحل دون موتهم موتاً طبيعياً . ولم يحدث ان اغتيل احد حفدته إلا في السنة ٤٥٥ : ومنذ نشأة الامبراطورية لم يقدّر قط لأباطرة على مثل هذا الهزال ان يستمروا في الحكم هذا الوقت الطويل . والدليل الآخر هو عدد القادة البرابرة الضئيل – ثلاثة او اربعة – الذين حاولوا ، على الرغم من القوة التي تمتعوا بها ، اغتصاب اللقب الامبراطوري. فقد اقترب الهدف الذي كثيراً ما طمح اليه دون جدوى كافة الاباطرة منذ اربعة قرون : ان احترام الارجوان الامبراطوري كان سائراً ، تدريجياً ، في طريق الاستقرار . ويجوز لنا ، بهذا الصدد ، ألا نجزم بعدم جدوى جهود الملكية في العهد الامبراطوري الثاني في تنظيم انتقال السلطة .

استمرار داء الامبراطورية المزمن

ومع ذلك ، فمهما يكن من ضآلة عدد الاضطرابات بالنسبة لمقتضيات منطق تخلخل النظام ، فان الاضطرابات قد قامت ، ويعرضنا اهمالها لعدم فهم حضارة هذا العهد . اجتاحت الامبراطورية حملات داخلية تصادم فيها جيشان تتعهدهما الامبراطورية للدفاع عنها. وقد عرفت الامبراطورية ايضاً مذابح الحروب الاهلية وشدّة وطأتها بالاضافة الى ما عرفته من وطأة وعنف الحروب الاهلية . وقد رافق هذه النزعات ، أكثر من مرة طلبات التدخل الاجنبي التي شكلت خيانات حقيقية . فهي قد حوّلت الجنود ابداً عن القيام بواجبهم ، وخدمت ، باضعاف حراسة الحدود ، العدو الذي كان يتحين الفرصة للاعتداء عليها: فأدت كل حرب اهلية الى تجسم الخطر الخارجي .

قام النظام بما لم يقم به أسلافه لمعالجة داء الامبراطورية الوراثي هذا . ولكنه لم يتوفق إلا الى تخفيف ضرره فقط . ولكن هذا الضرر ما زال كافياً لأن يلحق بالناس إساءة فوق إساءة في ممتلكاتهم وألماً فوق ألم في أجسادهم وحزناً فوق حزن في نفوسهم .

٢ ـ النزاعات الدينية

كان باستطاعة الديانة وحدها ، امام هذه الاحزان، ان توفر التعزية والسلوان. وسنبين في الصفحات التالية انها لم تتخلف عن القيام بهذا الواجب : فان الآلام النفسية المبرحة والمستمرة

قد ساندت الانطلاقة التي أحيت الشعور الديني ووطدته منذ القرن الثاني . ولكن الحرارة التي رافقت هذا الشعور قد أثارت بدورها بعض النزاعات التي غالباً ما تشابكت بالنزاعات الاخرى، الحروب الأهلية وحتى الخارجية ، التي زاد هواها عنف التعصب الديني .

السلم الديني وانتشار الديانة المسيحية في اواخر القرن الثالث

اذا كان القرن الثالث قد دشّن الاضطهادات الكبرى ضد المسيحيين، فان هـذه الاضطهادات ، قد توقفت في السنة ٢٦٠ وعرفت الديانة المسيحية حينذاك اربعين سنة تقريباً من السلم الخارجي أفادت منها افادة كبيرة .

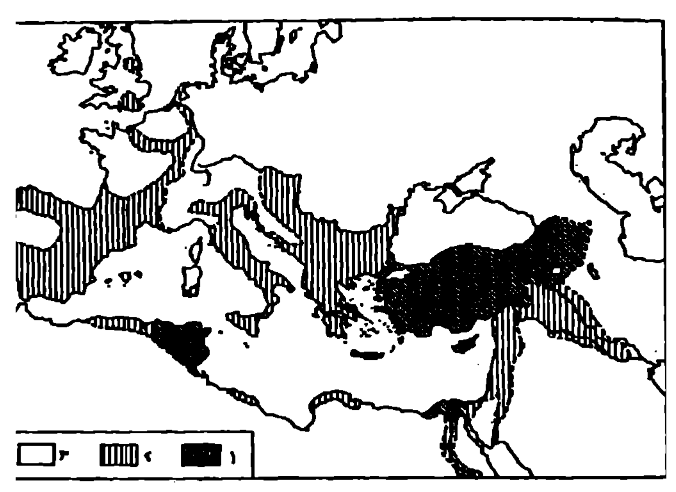
ما كانت الحكومة لتستطيع تجاهل وجودها أو انتشارها العلنيين . فلم يتستر رؤساءها واتباعها بل عملوا على مرأى من الجميع : فقد شيدت الكنائس الجديدة وأحدثت المدافن . وبعد ان استعاد اوريليانوس انطاكية من التدمريين اضطر للفصل في نزاع قسم المسيحيين في هذه المدينة : ففصل فيه لمصلحة اولئك الذين يؤيدهم أساقفة روما وايطاليا ضد اسقف انطاكية السابق ، بولس الساموزاتي الذي عزل بسبب الهرطقة المنسوبة اليه . لا ريب في ان علائق بولس بزنوبيا ، كان لها أثرها في القرار الامبراطوري . ولكن في هذا القرار ، مع ذلك ، اثباتاً لتساهل رسمي لم يدخل عليه ما يعكره طيلة النصف الاول من ولاية ديوكليسيانوس. فلا عجب من ثم اذا تكاثرت الارتدادات التي حصل بعضها في بطانة الامبراطور نفسها . ومنذ القرن الثالث أصبح المسيحيون اكثرية في آسيا الصغرى وفي جزء من تراقيا ؛ وفي الأماكن الأخرى ، لا سيا في الشرق ، كانت الديانة المسيحية آخذة بالانتشار . ورغبة في الاختصار نقول ان افسيفيوس ، اسقف قيصرية ، ربما اعتمد المغالاة في « التاريخ الكنسي » رغبة منه ، عن طريق المقابلة ، في اظهار فظاعة الاضطهاد القريب ؛ بيد ان اللوحة المطوفة التي يرسمها حينذاك عن علائق المسيحيين بالمجتمع العلماني تبدو ، في خطوطها الكبرى ، منطبقة على الواقع .

اضطهاد ديوكليسيانوس

وفجأة ، تبدل كل شيء .

فما هو سبب هذا التبدل يا ترى ؟ لكل مؤرخ تقريباً تعليله الخاص .
فدون أن ندخل في التفاصيل ، نرى أن أقرب الأدلة للعقل والمنطق هو ذاك الذي يربط بين اضطهاد ديوكليسيانوس والنظام السياسي الديني الذي انتهى الى إقراره : وسنرى ان الانحراف عن الوثنية كان معناه ، في نظر المسؤولين ، التباهي بعدم الإخلاص وعدم الموالاة . أضف الى ذلك ان بعض الحوادث قد جرت في الجيش ، أقله في افريقيا : كإقدام بعض المجندين الجدد او القدماء ، وحتى الضباط ، على رفض القيام بالخدمة العسكرية . ولم يبرهن المسيحيون جميعهم عن انهم رعايا خاضعون تماماً للموجبات المدنية . وما زالت الهرطقة المونتانية ، التي رأى رأيها ترتوليانوس *Tertullien* الافريقي في البداية ، تلبث فروعاً على الرغم من حكم الكنيسة عليها . فقد يكون ديوكليسيانوس ، ذلك الجندي الذي أصلح الدولة ، قد رغب في اعادة الوحدة

لنظام الادبيين يمثل الشقة التي اعاد بها الوحدة والنظام في الحقول الاخرى. ولعله ، اخيراً ،
تقليد المسيحي ، تأثر بالحاح قيصره غاليريوس ، الوثني النشيط ، وبآراء العرّافين . ولد
مضطرون للاعتراف بأن هذه التفسيرات كلها لا تشبع نهم العقل ، لأن كلاً منها يقابله
ر يضعفه . ولا تزال معضلة أسباب الاضطهاد ، دون حلّ منطقي. ولكن الامبراطورة
رف النظر عن كل الاعتبارات ، لا يخضع دائماً للمنطق وحده .



الشكل ٢١ ـ النصرانية في اواخر القرن الثالث
١ ـ مناطق تضم نسبة مرتفعة ، وربما اكثرية ، من المسيحيين ؛ ٢ ـ مناطق دخلتها النصرانية ؛ ٣ ـ مناطق
لم تدخلها النصرانية بعد .

ولكننا ندرك ادراكاً أفضل التدبير المتعصب الاول الذي استهدف المانويين في السنة ٢٩٧
اشعت عقيدتهم بنوع خاص من اراض خاضعة للمملكة الساسانية ، أي من اراض عدو
، البراءة ، التي ساوت بين ممارسات تقواهم وممارسات السحر والتي قضت بنفيهم أو بموتهم
قت في الاسكندرية في اعقاب استعادة مصر حيث ساند الملك الفارسي أحد المغتصب
نت من ثم تدبير حرب وتدبير سياسة دينية معاً .

وكان ما صمم ديوكليسيانوس على تنظيمه ضد المسيحيين تدبيراً لا يعرف الشفقة
ا . ولكن عمله هذا قد نفذ في عهد متأخر وبصورة بطيئة ولم يصل إلا تدريجياً الى تد
ة لتدابير داسيوس وفاليريانوس بشمولها وعنفها . فتقرر في الدرجة الاولى تطهير الج
يوش والادارات واقصاء الذين يرفضون تقديم الذبيحة . ثم جاءت المراسيم . فتعاقب

منها خلال السنة ٣٠٣ وفي اوائل السنة ٣٠٤ ، وارتدى كل منها ، بالنسبة لما سبقه ، مزيداً من الشدة بسبب اشتداد الصراع : وبنوع خاص ، عزيت الى المسيحيين الحرائق التي اندلعت في قصر نيكوميديا الامبراطوري حين اقامة ديوكليسيانوس وغاليريوس فيه . اقتصر المرسوم الاول على حظر الاجتماعات واقرار هدم الكنائس ومصادرة الكتب المقدسة واتلافها . ثم أرغم الطمانيون أخيراً ، على غرار ما حدث قبل ذلك بخمسين سنة ، على تقديم الذبيحة ، تحت طائلة عقوبات متفاوتة الصرامة قد تصل الى الموت احراقاً .

يعتبر التقليد المسيحي هذا الاضطهاد أقسى الاضطهادات شدّة . ومهما يكن من الامر ، فانه أطولها امداً . ولكن مدته وشدته قد اختلفتا كثيراً باختلاف مناطق الامبراطورية . وبسبب ازدياد عدد المسيحيين الذي زاد من المخالطات في الحياة العامة ، لم تنفجر الاحقاد الشعبية انفجارها في الماضي ، على ما يبدو ، بغية ارغام الموظفين والقضاة على استعمال الشدة . فقد خضع كل شيء بالتالي لميول هؤلاء الشخصية ، الحليمة جداً في أغلب الاحيان ، وفي الدرجة الاخيرة التعليمات المتفاوتة شدّة التي يتلقونها . وقد صدرت هذه التعليمات عن الامبراطور او عن القيصر الذي ترتبط به الولايات . ففي غاليا وبريطانيا المرتبطتين « بكونستانس كلور » ، أرفق بالاشخاص وأسيء الى الممتلكات أدنى إساءة يفرضها احترام سلطة ديوكليسيانوس : ومال كونستانس شخصياً الى التساهل لا سيا وقد بدا ضعف الديانة المسيحية في ولاياته خلواً من أي ضرر ممكن . اما في أنحاء الغرب الاخرى فقد كان الاضطهاد عنيفاً ولكنه كان قصير الامد ايضاً لأن مكسيميانوس قد استقال منذ السنة ٣٠٥ . ولم تشتد وطأته اشتداداً طالت مدته إلا في الشرق حيث توقف في السنة ٣١٣ وتجدّد حوالي السنة ٣٢٠ ولم ينته إلا بانتصار قسطنطين على ليسينيوس في السنة ٣٢٤ .

تمرد قسطنطين : اقتناع ومصلحة

اعاد هذا الانتصار وحدة الامبراطورية تحت سلطة سيّد فرد ، سيد مسيحي هذه المرة . هكذا انتهى – بعد ان أصبح قسطنطين مسيحياً – العهد المضطرب الطويل الذي ابتدأ في السنة ٣٠٦ ، حين نادى به امبراطوراً ، في بريطانيا ، جنود أبيه المتوفى . ولا مجال للدهشة امام الأهمية التي ترتديها هذه الأحداث وهذا الارتداد ، اذا ما نظرنا الى نتائجها بالنسبة لتطور الانسانية جمعاء في العصور اللاحقة . وقد أثارت هذه الأهمية شتى المناقشات منذ زمن بعيد .

وان ما سهّل هذه المناقشات الصفة التاريخية الركيكة والتحيز الواضح في المصادر الأدبية المسيحية التي تعظم قسطنطين على حساب أعدائه المتعاقبين . اضف الى ذلك ان العوامل المختلفة الكثيرة التي كان لها أثرها حينذاك قد زادت في البلبلة والغموض . ثم ان الخصومة قامت بين أشخاص عديدين . ولم يتظاهر أي واحد منهم باللامبالاة الدينية ، لا بل لم يشعر بها : فقد كان العصر مندفعاً بالكلية ، ومن الجهتين ، نحو الخرافات بالتفضيل على العناية . ومع ذلك فقد جاش في الجميع طموح وحشي ايضاً بحيث يتعذّر معرفة أية عقيدة أو أي طموح قد سيطرا على

كل منهم في هذه الفترة او تلك وفي هذه الدرجة او تلك من المنافسة بينهم ، ما لم تتوصل الى الوقوف على سرّ كل نفس على حدة . ولنضف هنا ان كلا منهم قد استند الى اقليم وطمح الى أقاليم أخرى . ولكن المسألة الدينية ، في كل مكان ، قد عبرت عن وجه خاص متميز من أوجه الظروف المحلية . فقد كان بالامكان الاعتقاد بأن لباريس قيمة قداس ، او قيمة براءة ثانت على الاقل ؛ غير انه كان بالامكان ايضاً ، من جهة ثانية ، القنوط من الحصول على مساعدة طائفة تسير وراء منافس، او على حيادها، وبالتالي القنوط من القضاء عليها . لذلك فان تبدلات السياسة الدينية قد أملاها آنذاك ، في وقت واحد ، الهوى والمصلحة ، بنسبة تختلف باختلاف الطبائع ، والظروف ، والمعلومات والتخمينات حول واقع الرأي العام ، ووحي وحتى رهان الساعة . ولا يمكن لمنازعات متعددة المعطيات كهذه إلا ان تكون معقدة جداً : فكيف لا تبقى حتى اليوم على جانب كبير من الغموض ؟

انها لمنازعات غامضة ولكنها خلابة . ويعترينا الخجل لاننا لا نستطيع هنا ان نقدّم ، الا بايجاز هزلي ، اهم قضية تنجم عنها: قضية ارتداد ، أو بالاحرى ، تنصر قسطنطين. فقد وجدت لها حلول كثيرة وان قريحة المؤرخين من علماء النفس لم تنته بعد، في الارجح ، من اكتشاف حلول اخرى جديدة . والجدل قائم اليوم ، انطلاقا من المصادر المختلفة ، التي يولي النهج النقدي فيها مركزاً ممتازاً للمسكوكات، حول تاريخ هذا الارتداد، واسبابه ، ونتائجه المباشرة ، وبالتالي حول صدقه وحتى حقيقته. يفسره البعض بوحي الهي نزل على قسطنطين في احدى الليالي التي سبقت المعركة التي شنها على مكسانس ، على ضفة التيبر اليمنى ، فوق جسر ميلفيوس ، الى الشمال من روما ، في الثامن والعشرين من شهر ت١ (اكتوبر) من السنة ٣١٢ ، وهؤلاء يرون عادة في الامبراطور مسيحيا مقتنعاً . وعلى نقيض ذلك فان غيرهم يفسرونه كتظاهر املته ، دون اي اقتناع، انتهازية سياسية مدروسة. وهنالك ، بين هذين الحلين المتطرفين، حلول اخرى كثيرة لن نتولى تحديدها أو درسها . فيكفي قولنا اعلاه ان اللامبالاة لم تتمكن من النفوس آنذاك للدلالة على اننا نصرف النظر عن كل حل تستلزمه : فعلى غرار اوغسطس من قبل، تصرف قسطنطين تصرفاً آخر . ولكن يبدو من المستحيل ايضاً ان تنكر انه قد اعتقد ، باقدامه على تخليص شخصه، الذي لم يفصل بينه وبين الامبراطور ، بانه انما يخلّص الدولة ايضاً : وان الاله الذي كان قد اولاه النصر على مكسانس ، ثم على ليسينيوس بعد مرور اثني عشرة سنة ، لن ينقطع عن ارشاده وحمايته وارشاد وحماية خلفائه . فكان الإرتداد بهذا المعنى ، بالنسبة لقسطنطين ، عملية سياسية ايضاً : واذا اعوز تنصره الرقة ، وبقي « خشناً » ، كما قال المطران دوشين ، فقد اعوزه التجرد ايضاً .

تساهل وامتيازات

مهما يكن من الأمر ، فقد كان سيد الامبراطورية مسيحياً : فهل تسير الاضطهادات في اتجاه آخر ؟

تمشى قسطنطين على مبدأ التساهل . وهو قد ورث التساهل عن والده ، ذلك التساهل الذي

بدا ، خلال هذه الحروب، لكثير من الناس ، وكأنه الحل الوحيد. وقد اضطر غاليريوس نفسه، عدوّ النصرانية اللدود ، الى القول به . فحين أصيب بمرض عضال ، قبل وفاته بأيام معدودة ، في ربيع السنة ٣١١ ، سلّم بنشر براءة اعترف فيها صراحة بفشل الاضطهاد وأعاد للمسيحيين حرية عبادتهم : « عليهم أن يبادلوا حلمنا بالصلاة لأجل خلاصنا ولأجل الدولة ولأجل نفوسهم، حتى تنعم الدولة بازدهار تام ، وحتى يستطيعوا العيش في بلادهم بطمأنينة » . ولم تلغ هذه البراءة قط من بعده . وفي اوائل السنة ٣١٣، قبل ان يصطدم ليسينيوس« بمكسيمينوس دايا »، الذي لم يعمل بها في الشرق ، اجتمع ليسينيوس هذا في ميلانو بقسطنطين ، الذي سبق له وانتصر على مكسانس واصبح سيد الغرب . فاسفر هذا الاجتماع عن تعليمات بمكتبنا ان نحفظ لها ، اصطلاحاً ، اسمها التقليدي « براءة ميلانو » . وقد اصدر ليسينيوس امره فيها باعادة الممتلكات المصادرة من المسيحيين ونادى بالتساهل حيال كافة المعتقدات : « بعد البحث بكل عناية عما يمكن ان يكون نافعاً لخير وسلام الدولة ، وعما يمكن ، في جملة ذلك ، ان يؤدي خدمة لاكثرية الناس ، رأينا قبل كل شيء آخر وجوب تسوية كل ما هو مختص بالاحترام الواجب للذات الالهية ، بغية اعطاء المسيحيين وكافة المواطنين حرية التمشي على الدين الذي يختارونه ». ولم يضف قسطنطين شيئاً الى ذلك بعد ان انتصر على ليسينيوس في السنة ٣٢٤ واصبح مضطهداً بدوره، حين اعلن، محاولاً طمأنة وثنيي الشرق : « ليسر كل منكم على الرأي الذي يفضل » .

غير ان هذه التصريحات لم تحل دون فقدان توازن كان من المستحيل على كل حال المحافظة عليه اذ ان الرجل والامبراطور كانا شخصاً واحداً .

انه لمن الشطط لعمري ، على الرغم من بعض الحوادث النادرة ، الكلام عن الاضطهاد ضد الوثنية . فقد استمرت طقوسها في الحياة الرسمية ؛ وهي الضرورات المالية التي اوجبت جرد ممتلكات المعابد، دون ان يكون لدينا اي دليل على المصادرة . ولم يُقصد كذلك سوى ايجاد المساواة من ترميم الكنائس القديمة ، وتشييد الكنائس الجديدة ، واعفاء الاكليروس المسيحي من الموجبات المالية الذي تمتع به الكهنة الوثنيون من قبله والذي لن يلبث الكهنوت اليهودي ان يحصل عليه . وكان من الطبيعي ايضاً ان تعدّل الشرائع التي لا تأخذ الاخلاق المسيحية بعين الاعتبار : بالغاء العقوبات القانونية التي اصابت منذ اوغسطس ، في مادة الارث ، العازبين والمتزوجين الذين لم يرزقوا اولاداً .

ولكن قسطنطين ذهب الى ابعد من ذلك. فان بعض الذبائح على الاقل – ونحن لا نعرف اياً منها – قد حرّمت. وغدا يوم الأحد يوم الراحة القانونية وحظّر القيام فيه باي عمل رسمي غير الاعتاق . واعتبر القانون الاعتاق الذي يحصل في الكنيسة ثابتاً شرعياً كذلك الذي كان يحصل بحسب الاجراءات السابقة . وتقلد الاساقفة حقّ السلطة القضائية على اعضاء اكليروسهم . واعترف بتحكيمهم المبرم في الدعاوى المدنية بين العلمانيين حتى ولو لم يطلب هذا التحكيم سوى احد الطرفين فقط . وقد بلغ من افراط هذه الامتيازات ان فرض احد خلفاء قسطنطين رضى

الطرفين وان الاعتراض على السلطة القضائية الجنائية على الكهنة قد توالى حتى اواسط القرن الخامس .

ان مثل هذه التدابير تتخطى إطار الاقتناع الشخصي . وليس لها من تفسير سوى الرغبة في جعل الكنيسة جهازاً رسمياً واشراكها في حياة وسير الدولة وتقوية الدولة بما لرؤساء الكنيسة من تأثير على المؤمنين . وهكذا فان الديانة المسيحية ، بفعل انقلاب الوضع انقلاباً غريباً وشبه محتوم ، اصبحت تدريجياً دين دولة بعد ان كانت في الأمس القريب ديناً محرماً .

نهاية الوثنية

ومع ذلك فان الديانة المسيحية كانت ابعد من ان تحرز غلبة نهائية عند وفاة قسطنطين . فما زالت الوثنية محتفظة بمراكز قوية جداً . كان الجيش ، باكثريته ، متمسكاً بها . وما زال ينتسب اليها كافة رجال الفكر المشهورين تقريباً . وما زالت تعتنقها ، بنسبة كبيرة ، لاسيما في روما ، العائلات الجليلة التي تملك ثروة عقارية طائلة وتقدم للدولة عدداً لا يستهان به من كبار الموظفين . وكان من الممكن ، لو قدّر لامبراطور وثني ان يتولى السلطة بعد قسطنطين مباشرة ، ان يبدّل الاتجاه الذي سار فيه قسطنطين تبديلاً دائماً .

أخفق جوليانوس لأنه تأخر في المجيء وزال بسرعة . وارتسمت ردة فعل وثنية بعده بثلاثين سنة ايضاً ، غذاها فيريوس نيكوماخوس فلافيانوس الاديب والموظف الكبير ، بعد ان استفاد المجتمع الروماني الرفيع ، حيث نشأت ، من فتور الشعور الديني للمسيحي في المغتصب اوجانيوس الذي أصبح امبراطوراً بفضل الفرنجي « اربوغاست » وأخذ يبحث عن عون على ثيودوسيوس الذي رفض الاعتراف به . فهبت «الريح الشمالية» بعنف في وجه جنود اوجانيوس وشلت جهودهم على ضفاف « النهر البارد[1] » ووضعت حداً لردّة الفعل في شهر ايلول من السنة ٣٩٤ . وهكذا فللمرة الثانية كانت الغلبة « للجليلي » بتوجيهه الريح الشمالية كما سبق له ووجه الرمح الفارسي الى جنب جوليانوس . انتحر فلافيانوس ؛ فارتدّ ابنه البكر وحصل بذلك على استعادة ممتلكات أبيه كما حصل ، مرّتين متواليتين ، على وظيفة « حاكم المدينة » التي سبق له ومارسها في ايام المغتصب .

اذا ما استثنينا هذه الفترات القصيرة التي لم تجد فتيلاً ، فان السلطة قد بقيت في أيدي المسيحيين منذ قسطنطين. وبديهي ان كل امبراطور قد تصرف بحسب مزاجه الشخصي، وبحسب الظروف احياناً . فعاد بعضهم الى فكرة التساهل: فأشهرها فالنتينيانوس الاول واخوه فالنس في قانون سنّاه في السنة ٣٦٤ وجدّداه بعد ذلك بسبع سنوات . ولكن التطور جاء على العموم متصلباً : فقد سيطرت التقوى على الجميع يدفع اليها تكاثر الارتدادات والخوف من التوسلات السحرية وتشجيع هاتفي الغيب للمتآمرين . ولا تفسير لاحتفاظ الامبراطور بلقب الحبر الاعظم سوى رغبته في مراقبة الوثنية مراقبة اجدى . وكان ثيودوسيوس اول من انقطع

---

(١) يعرف اليوم باسم « فيباكو » وهو احد روافد الـ « ايسونزو » .

عن حله حين اعتلائه العرش. فجاء انقطاعه هذا اثباتاً لفصل الدولة عما حاول مكسيمينوس دايا وجوليانوس تنظيمه كنيسة وثنية مع ما يستلزمه ذلك من مراتب كهنوتية. وقد سبق لكونستانس الثاني ان امر بأن ينزع من قاعة جلسات مجلس الشيوخ الروماني المذبح المنصوب امام تمثال إله النصر الذي كان الشيوخ الوثنيون يحرقون عليه بعض البخور؛ بيد ان جوليانوس اعاده في وقت لاحق؛ ولكنه ازيل في السنة ٣٨٢، ولم يظهر مرة اخرى، ولفترة قصيرة، على الرغم من الاعتراضات المتكررة، إلا في عهد اوجانيوس. ونحن نعرف تمام المعرفة قضية «مذبح النصر» هذه بفضل الجدل الادبي الذي أثارته، ومن الجائز ان نولي حوادثها قيمة الحوادث الرمزية.

ولكن الأخطر من ذلك هو خنق الوثنية اقتصادياً بمصادرة او تدمير ممتلكاتها وبتحريم تقديم الذبائح واستشارة هاتفي الغيب والعرافين وزيارة المعابد، أي كل ما يدر دخلاً عارضاً. ولعل ما هو أدهى من ذلك ان هذه التحريمات قد استهدفت مثل هذه الاعمال بالذات كمظاهر الايمان الفردي. فسلت شرائع صريحة وقاسية في السنة ٣٥٦ قضت، تحت طائلة عقوبة الموت، بالكف عن «الاحتفال بالذبائح»، و «عبادة الاصنام»، و «الدخول الى المعابد». كانت هذه التدابير سابقة لأوانها، فاضطر المسؤولون الى تعديل هذه القوانين. ولكن ثيودوسيوس قد نشر في ٨ ت٢ (نوفمبر) من السنة ٣٩٢ قانوناً سرى مفعوله هذه المرة قضى بفرض غرامات ثقيلة على المخالفين والموظفين المهملين وحظر كل عمل عبادة، ولو لم ترافقه الذبائح، حتى داخل المنازل والاملاك الخاصة. فقضي منذئذ على الوثنية التي ما لبثت ان زالت عملياً خلال القرن الخامس.

الكنيسة والدولة

فلا ريب من ثم في ان مساندة الدولة القوية قد خدمت انتشار الديانة المسيحية التي ما كانت، لولا هذه المساندة، لتنتصر بمثل هذه السرعة. وهل كان من المقدر ان تنتصر يا ترى؟ ان هذا الاعتقاد لجائز. اما تبيانه فأمر آخر، وليس باستطاعة التاريخ ان يفصل في هذه المسألة. وكذلك فان التاريخ لا يستطيع البت فيما اذا كانت الكنيسة، في النتيجة، قد رضيت حقاً عن هذه المساعدة. فالارتدادات الحاصلة تحت الضغط الرسمي تمثل في نظرها مكاسب قد تكون ظاهرة أكثر منها واقعية: وان نفوساً كثيرة لم تتناولها حينذاك عملية التطهير المسبقة الضرورية. اضف الى ذلك انها، من حيث علاقاتها بالدولة، قد فقدت بعض استقلالها بمسارعتها الى طلب مساعدة «السلطة المدنية» على المراطقة والحصول على هذه المساعدة: ففي الشرق حال استمرار السلطة الامبراطورية دون افلاتها من قبضة رضيت بها في السابق؛ ولكن اصدار الحكم في كل ذلك منوط بالمفهوم الشخصي الذي نكوّنه عن المسيحي والديانة المسيحية والكنيسة.

يختلف الأمر عن ذلك فيما يتعلق بالدولة، اقله من زاوية نظرنا اليها في هذا الفصل. فقد رغبت الدولة، بشخص قسطنطين، في توطيد سلطتها، ان لم يكن بالوحدة الأدبية التي قد يوفرها لرعاياها، في أجل قريب، انتصار ايمان يحلّ محل الوثنية الحائرة، فأقله بالعضد الذي قد تجده

في الكنيسة بغية تأمين اخلاص المؤمنين الكامل . ورضيت ببعض التضحيات سعياً وراء هذه الغاية . ولكن لن يتجاسر أحد على القول بأنها حصلت على المكافأة المرتقبة : فهي ، على نقيض ذلك ، قد اصطدمت، بفعل هذا الواقع ، بعراقيل جديدة .

خسرت هي ايضاً بعض استقلالها . وقد سبقت الاشارة الى اعطياتها وتنازلاتها الاميرية والقانونية . واضطر الامبراطور من جهة ثانية لأن يحسب حساباً ، لا لأخلاق فحسب ، بل لنصائح ايضاً قد يثبت له قيمتها منذئذ ، بحجج جديدة، رجال يتصفون بالتصلف احياناً ، وقد حدث أكثر من مرة ان الرجل السياسي، في ذاته ، قد خضع للمؤمن . وان في مجزرة تسالونيكي التي أدّت في السنة ٣٩٠ الى استحكام الخلاف بين ثيودوسيوس وأسقف ميلانو القديس امبروسيوس لأشهر مثل عن هذه الحوادث التي نرجح انها لم تكن مكدّرة فقط لكبرياء الامبراطور . ففي أعقاب شغب انطلق من الملعب وأدى الى قتل موظف كبير ، اصدر ثيودوسيوس ، تحت تأثير الغضب ، امراً لم يرجع عن رأيه فيه إلا بعد فوات الأوان : طوّق الجنود الملعب ثم قتلوا، طيلة ساعات ، ألوفاً من المشاهدين . أنذر امبروسيوس الامبراطور آنذاك بأنه لن يحتفل بالقداس ، بحضوره ، قبل ان يكفّر عن عمله . تردّد المذنب طيلة ستة أشهر على الاقل ثم تواضع اخيراً : فاعترف بخطيئته علناً وسمح له ، في عيد الميلاد ، بتناول جسد الرب . يستحيل علينا هنا لسوء الحظ ان نبين بالتفصيل في أية مجموعة معقدة من القوانين المنشورة والملغاة تدخل هذه القضية . ولكن لما اوردنا عنها ، على الاقل، فضل اظهار مدى السلطة الادبية التي تعرض سيّد الدولة المطلق للخضوع لها منذ الآن . فعلى الرغم من العطف الذي قد يثيره فينا موقف الاسقف من هذه القضية بالذات ، علينا ان ندرك حقيقة مغزاها : ان مبدأ السلطة المدنية نفسه في خطر ، وان لمنازعات مقبلة كثيرة أصولها في ما أوجزناه .

الدولة والهرطقات

على ان ذلك لم يعد ، على الفور ، أسوأ ما تعرضت له الدولة . وما كان قسطنطين ، بعد ان جعل من الكنيسة نصيراً له، ليرضى بأن تنقسم على نفسها ، فادارة النفوس يجب ان تكون واحدة على غرار ادارة الأجساد ؛ ويجب بالتالي منع كل انشقاق . ولكن المصادفة قضت بأن يصبح الامبراطور مسيحياً في فترة قيام مشادّات عنيفة خلقت البلبلة في صفوف الاكليروس وبين المؤمنين .

نشأت احدى هذه المشادات عن الاضطهادات . فقد اخذ على بعض الأساقفة وقوفهم موقفاً مرناً جداً من السلطات او قبولهم ، بمزيد من الحلم ، بعودة الملحدين . انفجرت مشادة من هذا النوع في مصر ولكنها بقيت محصورة ولم تدم طويلاً . وانفجرت اخرى أشد خطورة في افريقيا ، زادت في حدّتها المخاصمات الشخصية والخلافات حول أصول الاجراءات ، فأفضت منذ السنة ٣١٢ الى تعيين اسقف منشق في قرطاجة . كان هذا الانشقاق ، المعروف بالدوناطي نسبة لباعثه الرئيسي ، دوناط ، معداً ، طيلة أكثر من قرن ، لأن يعرف نجاحاً كبيراً لا سيا في نوميديا ، متعهداً في مدن كثيرة اساقفته وكهنته وكنائسه ؛ وكان لا يزال مستمراً

في اواخر القرن السادس ، مستعداً للاستفادة من كل فرصة مؤاتية .

اضفت المشادة الاخرى خطورة خاصة على الجادلات الكبرى حول المسيح التي يجدر بنا ان نعود اليها فيما بعد رغبة منا في تبيان التقدم الذي حققته في ايضاح العقيدة . منذ كان ليسينيوس حاكما في الشرق ، اقدم كاهن اسكندري اسمه آريوس على اتهام اسقفه بالهرطقة . القي عليه الحرم ، فذهب الى آسيا حيث استفاد من قوة حجته وتضلعه في اللاهوت وحتى في الفلسفة واستمر في الجادلة موضحاً بقوة منطق حقيقة العقيدة التي دعيت بالآرية نسبة لاسمه . كان لدعاوته صداها البعيد حتى بين الاساقفة ، وحين استولى قسطنطين على الشرق بعد انتصاره على ليسينيوس ، علم واجباً بقيام هذه المشادة التي اوجدت في كل مكان انقسامات عميقة .

امام هاتين المشادتين ، راى قسطنطين التدخل ضرورياً لا سيما وقد طالبه الجميع بذلك . فلجأ الى الجامع اعترافاً منه بعدم الاختصاص : مجمع « آرل » في السنة ٣١٤ لمعالجة الهرطقة الدوناطية ؛ ومجمع نيقيا في السنة ٣٢٥ لمعالجة الهرطقة الآرية . بيد انه لم يسمح لهذا الاخير بالمذاكرة بحرية كاملة ، فضغط الامبراطور ، الذي كان مستشاره الاول هوسيوس اسقف كوردوبا حتى تعتمد الصيغة التي اصبحت « قانون نيقيا » . ولمس من نفسه القدرة على اعتمادها فنفى آريوس وانصاره الرئيسيين . وهكذا تدخلت الدولة في خلافات النصرانية الداخلية حتى تلك التي لا علاقه لها بها .

وليس هذا كل ما جرى . ففي كلتا القضيتين لم يثبت قسطنطين على قراراته الاولى . فمن طوعاً او قبل باعادة النظر فيها ، واصغى الى الاعتراضات ونزل عند تأثير اعضاء عائلته أو اهل البلاط . حمله ذلك على اجراء تبديلات دائمة . فلوحق الدوناطيون ثم اغضي عنهم ثم لوحقوا مرة اخرى . ومنذ السنة ٣٢٧ ، بعد ان استدعى آريوس للتحدث اليه ، اعتبر قسطنطين عقيدته عقيدة قوية ، اما اسقف الاسكندرية الجديد ، اثناسيوس ، الذي رفض الانحناء امام اعادة الاعتبار هذه ، فقد عزل واقصي . وقد رافق كلا من هذه التقلبات ضغط على مجامع الاساقفة وتعليمات الى الموظفين .

ان هذا التصرف المستبد بتصرفه قسطنطين اوجد تقليداً سار عليه خلفاؤه الا القليل منهم ، فوضعوا هم ايضاً القوة العامة في خدمة وحدة الايمان والنظام . وقد جرّ ذلك الى التحزب بحسب اقتناعهم الشخصي الذي غالباً ما تمليه تربية تلقوها او دسائس تحاك من حولهم . اجل لقد لمسوا عادة ان رأيهم تعوزه السلطة الادبية . ولكنهم كانوا يحاولون حينذاك اثباته شرعاً عن طريق مجامع تتفاوت شمولاً وتحضّر وتراقب وتوجه بكل عناية . وزغبت الادارة ، من جهة ثانية ، في فرض الطاعة . فاستنفدت الدولة جانباً كبيراً من قوتها باستخدام هذه الاساليب . واصطدمت بمقاومات افقدتها الاعتبار احياناً . ومما زاد في الطين بلة ان تدخلها نفسه ، الذي اعوزه الاستمرار ، قد زاد في امد وخطورة اضطرابات كان بالامكان تهدئة بعضها في وقت مبكر قصير .

لم يتبدل موقف الأباطرة المبدئي من الدوناطية الافريقية : ولم يساندها أي منهم علناً . ولكن اكثر من واحد ، ابتداء من قسطنطين ، قد سلموا بتخفيف أعمال القمع . أضف الى ذلك أن الانشقاق قد استمر لأنه جسد استياء وهياج الريفيين البائسين الثائرين على النظام القائم . فتضررت الكنيسة ، بهذا الصدد ، من جراء الحماية التي رغبت الدولة في توفيرها لها .

بيد ان المشادات حول الآرية بنوع خاص هي التي اظهرت المساوىء المتبادلة الناجمة عن التدخل الامبراطوري في الشؤون الروحية . فلم تعرف هذه الهرطقة عملياً انتشاراً واسعاً في الغرب . وقد اصطدمت في الشرق نفسه اخيراً بالشعور الشعبي الذي اثاره وغذاه تصلب اثناسيوس ، ولكنها مدينة بقوتها وديمومتها الى انها حصلت تكراراً على ايد الامبراطور : كونستانس الثاني ، سيد الشرق وحده اولاً وسيد الامبراطورية جمعاء آخراً ؛ وفالنس ، في الشرق ؛ واخيراً جوستينا ارملة فالنتينيانوس الأول والوصية على ابنها ، في ألّيريا وايطاليا وافريقيا . فنشأت عن ذلك منازعات ملتوية لانهاية لها يتعذر درس تطوراتها الكثيرة . وقد انتقلت المشادة الدينية بين الاباطرة الشركاء أو بين الاباطرة الشرعيين والمغتصبين الى الصعيد السياسي احياناً فرافقتها تبدلات وحوادث لا يحصى لها عد . ويكفينا لاعطاء فكرة عن تصلب بعضهم فيها ممن بلغت جسارتهم حد إهانة السلطة الامبراطورية ، ان نذكر ان اثناسيوس،الذي عاد عن المنفى بعد وفاة قسطنطين مباشرة ، ارغم ، قبل ان تدركه المنية في السنة ٣٧٣ ، على مغادرة الاسكندرية ثلاث مرات يضاف اليها نفيه ، في هذه الاثناء ، بسبب مقاومته لجوليانوس الوثني .

بعد اخفاق الآرية في الغرب ، بفضل الحرب الشعواء التي شنها عليها هيلاريون اسقف بواتيه والقديس امبروسيوس، كان الفضل لحزم ثيودوسيوس في القضاء عليها اخيراً في الشرق. ففي السنة الثانية من ولايته ، اي في السنة ٣٨٠ ، اصدر براءة تنص على ان لمستقيمي الرأي دون غيرهم حق حمل لقب « المسيحيين الكاثوليكيين » . ثم استند الى مقررات مجمع القسطنطينية الكبير الذي انعقد في السنة ٣٨١ وانتزع من الاساقفة الآريين كنائسهم . فلم يبق عملياً ، عند موته ، آريون في الامبراطورية سوى البرابرة . ومرد ذلك الى ان المسيحيين بين هؤلاء – وعددهم كبير – قد تنصروا على يد القوط ، الذين تنصروا على يد اسقفهم اولفيلا ، الذي تنصر هو نفسه على يد اسقف آري في آسيا الصغرى . وما كان الامبراطور ليستطيع اتخاذ اي تدبير ضد البرابرة .

كانت الآرية اهم هرطقة عرفها القرن الرابع . غير ان الدولة ساعدت الكنيسة على الوقوف في وجه هرطقات اخرى كثيرة . فمنذ قسطنطين حكمت براءات عديدة بالزيف على مذاهب قد لا نعرف عنها شيئاً تقريباً . ولكن اول حكم باعدام الهراطقة المسيحيين لم يصدر الا في عهد متأخر نسبياً . وفي براءة السنة ٣٨٠ ، التي خطأتهم جميعاً ، اكتفى ثيودوسيوس باسترذالهم، مضيفاً : « ان الرب سيثأر منهم ، ونحن ايضاً » . ولن يذهب الى ابعد من ذلك سوى احد المغتصبين ، ففي السنة ٣٨٦ ، حين حكم مجمع بوردو على تعليم بريسيليانوس اسقف لوزيتانيا

بالزيف ، اعدم الاسقف مع بعض انصاره : وقضت الضرورة ، تبريراً لهـــذا العمل بتشبيههم بالمانويين ، الملاحقين بكل شدة منذ دقلديانوس ، والمصنفين ، منذ قسطنطين، بين الهراطقة المسيحيين المثبتين . وقد احتج اسقف تور القديس مارتينوس على تقتيل البريسيلانيين ، ولكن احتجاجه لم يلق اذناً صاغية. فقد سلم الجميع بتدخل السلطة المدنية حتى ولو ادى الى نتائجه القصوى . ونحن سنرى ان ضحاياه كانت كثيرة جداً .

وهكذا فان الدولة ، بتحالفها مع الكنيسة ، قد اوغلت في الخلافات الدينية ، وان في تاريخ القرن الرابع لدلالة كافية على انهـــا ، في عملها هذا ، قد زادت في الاضطرابات التي هزت الامبراطورية .

الفصل الثالث

الملكيّة المطلقة والبيروقراطية

لقد أطلق بعضهم على العهد الامبراطوري الثاني اسم « الخراب المرمّم » . ولكن هذا التحديد غير منصف . فهو يهمل الاخطار التي كان على هذا العهد مواجهتها ، والهزات التي خلخلت ركائزه باستمرار . ويهمل بصورة خاصة تحقيقاته الجديدة ، اذ انه لم يكتفِ بالترميم لا في القصد ولا في الواقع. شعر هذا العهد ، بحنين الى الماضي ، لا سيا الى « السلم الروماني » . ولكنه اضطر ، في محاولة استعادته ، على الرغم من تبدل معطيات المسألة، الى اكتشاف واعتماد أساليبه الخاصة التي رافقتها بالضرورة بعض التحول. أضف الى ذلك ان الزمن ، مهما طال أمده، يعمل عمله في خدمة اولئك الذين يجرّهم وراءه. فما هو شأن مدى التطور اللازم للحياة، حين يتعرض لأزمة على مثل ديمومة وشمول أزمة القرن الثالث ، ولثورة روحية على غرار انتصار المعتقدات الجديدة ؟ ان صرح العهد الامبراطوري الثاني يمثل بناءً متميزاً ، مشيداً ، شأن اكثرية المساكن البشرية ، وفاقاً لتسويات شاقة ، تعدّل باستمرار ، بين التقاليد القديمة ومقتضيات العصر والمثل المتناقضة .

وتمثل تقوية الدولة ، أهم تبدل على الصعيد السياسي : فقد غدت الملكية الامبراطورية مطلقة وبيروقراطية .

أسباب تحول الدولة

سبق للامبراطورية الاولى ، ان أخذت تتطور في هذا الاتجاه . ولم تسلك هذه الطريق ، كما رأينا، بدافع الميل أو اللذة، بل بحثاً عن الفعالية والتلاحم في العمل . لقد بقي النظام ، في عهد الانطونيين ، خاضعاً لمثل أعلى في الحرية . وكان جل مبتغاه ، ان تحكم المدن نفسها حكماً ذاتياً مستقلاً ، محتفظاً للحكومة المركزية ولممثليها الاقليميين بدور التنسيق فقط . وبدلاً من ان يحاول خنق هذه الحياة البلدية ، حيث قامت من قبله ، بذل جهده في إيقاظها ، حيث لم تستند الى أي تقليد . فهو قد آثر ، بسبب افتقاره الى الرجال، أي الى الموظفين الأكفاء، عدم الاهتمام بالشؤون الصغرى . ولكن ضغط الأحداث القاهر ، لا سيا الصعوبات المالية التي تعرضت لها المدن ، قد أرغمته على التدخل ، في سبيل المساعدة أولاً ، واحتكار السلطة اخيراً . وحدث الشيء نفسه لمجلس الشيوخ ، اذ ان التطور الذي يعنينا قد

فرضه بسرعة ، منذ البدء ، الحذر السياسي ؛ ولكن ، اذا كان لهذا الحذر أثره العظيم ، فان الضرورات التقنية كان لها أثرها ايضاً . وهكذا فقد ازدادت سلطات الامير ، عملياً او قانوناً ، ازدياداً مطرداً، جرّ بالضرورة ، تحت اشراف هذا الاخير ، الى تنظيم جهاز دولة ازداد تعقيده وتكاثرت اجزاؤه باطراد ايضاً .

انطلقت الحركة اذن . ولعله كان باستطاعة ثورة أدبيــة ، او « فلسفية » ، بحسب مفهوم القرن الثامن عشر الفرنسي ، ان تقضي على هذه النزعة بأن تعيد الى مثل الحرية قوته الاولى . ولكن هذه الثورة لم تحدث . فان التيار العقلي ، الذي برز من قبل في العهد الامبراطوري الاول ، قد جرّ النفوس الى حيث اجتنبتها الوقائع ايضاً . ثم ان الشرق قد قدم ، بالاضافة الى دياناته ، ذكرى ومثل ملكياته المطلقة ذات الحق الالهي : وكانت مصر بينها دولة لا تزال الادارة فيها تراقب كافة مظاهر حياة ونشاط الرعايا ، ان لم توجهها توجيهاً كما فعلت في زمن الفراعنة والبطالسة . وجاءت من الشرق ايضاً مثل محبة البشر والعطف على الضعفاء التي تسربت تدريجياً الى النفوس : وجلي ان هذه المثل مرتبطة بمثل الملك الكلي القدرة المطالَب ضميرياً باستخدام قدرته الكلية لسعادة رعاياه ، والقادر وحده على ان ينشر بينهم عدالة انسانية تفضل العدل في معناه الحصري . وقد صادفت هذه الاختبارات والآراء والمشاعر عضداً قوياً لدى سلالة ساويروس التي كان مؤسسها ، المولود في افريقيا ، متزوجاً من سورية : فطيلة أربعين سنة تقريباً ، في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث ، كان الشرق أثره البعيد عن طريق الأباطرة أنفسهم ولنساء عائلتهم وكثير من الموظفين .

علينا ألا نتجاهل هذه السوابق وهــذه التأثيرات . ومع ذلك ، لم يكن لأي عامل ، في تكوين دولة العهد الامبراطوري الثاني ، فعالية الظروف التي أرغمت هي على العيش فيها . فطيلة قرن كامل هدّدت وجودها بالخطر أزمة فريدة ، ولم يحل تغلبها عليها دون الاخطار والاضطرابات التي كان من حسن طالع الامبراطورية الاولى أنها لم تحدث في آن واحد . فهناك البرابرة على الحدود ، وفي قلب الاراضي الامبراطورية احياناً . وهناك ، في الداخل ، الاغتصابات والحرب الاهلية والفوضى ؛ وفي الداخل ايضاً ، العجز المالي والازمة الاقتصادية وزوال الازدهار والامن في المدن التي كانت حتى ذاك الحين مراكز اولى للحضارة . لم يكن من علاج لهذا الواقع ولهذا الخطر الدائم ، سوى جمع كافة السلطات في ايدي الامبراطور والاعتراف بحقه في مصادرة كافة الموارد البشرية والمادية ، ووحدة العمل في مجهود متزايد وحازم . اجل ان الحرية قد ماتت منذ زمن بعيد ، أي منذ آخر العهد الجمهوري . ولكن ما زالت هنالك بعض الحريات : فهذه هي التي زالت ، وكأنما بنخ غدا مستحيلاً .

١ ـ اموال الدولة

يتوجب علينا ، انطلاقاً من هذه الملاحظة ، ان نستهل هذا البحث بمطالب الدولة من رعاياها . سبق ورأينا كيف أمنت الرجال لجيشها . ولا تزال امامنا المطالب التي لا مفر من تسميتها

بالمالية ، في مفهومها الواسع ، مع ان الدولة غالباً ما تحاول تحصيلها عن طريق غير طريق النقد .

النفقات

جر ازدياد الاعباء الى ازدياد المطالب . وقد نشأ هذا الازدياد خصوصاً عن ارتفاع عدد الجندين وعن ارتفاع اعظم في عدد الموظفين . وتلقى اصحاب الحقوق القسم الاكبر من اجورهم او من مرتباتهم عيناً ، اي حصصاً غذائية أو البسة : وفي ذلك ضمانة ضرورية ضد ارتفاع الاسعار ، وظرف مؤات ، كما لا يخفى ، لتبذير وخسارة تثقل وطأتها بالنتيجة على المكلفين . اضف الى ذلك ان تجهيز الامبراطورية المادي ، تحقيقاً لهذه الغاية او لغيرها ، يتطلب تعهداً وتحسيناً : فالضرورة تقضي بايجاد المخازن للمحاصيل والمكاتب للادارات ، والطرقات ووسائل النقل وسعاة البريد ، الخ . فالجيش والبيروقراطية يمثلان عبئاً ثقيلاً جداً ، لعله اثقل عبء اطلاقاً على الرغم من افتقارنا الى الاحصاءات المالية .

غير ان كل شيء يحملنا على الاعتقاد بان النفقات الاخرى لم تتدن قط . فالاباطرة ، على غرار اسلافهم ، ارادوا ربط اسمهم بالانشاءات الكبرى . وبما ان هنالك عدة اباطرة في اغلب الاحيان ، فهنالك عدة بلاطات ايضاً . فهم يتركون روما وينتقلون بسهولة ، مما يؤدي الى تشييد وتعهد قصر لكل منهم . انفق قسطنطين اموالاً طائلة حين شيد على البوسفور روما ثانية والى خلفاؤه تجميلها من بعده . ولا يعني ذلك ان سكان العاصمة الساقطة من مرتبتها قد حرموا نعم الدولة ؛ وقد اسرع قسطنطين الى شمل سكان القسطنطينية بها ايضاً . ولم يكتف اوريليانوس بتوزيع القمح مجاناً ، بل شرع في توزيع الخبز ايضاً ، ثم عمد خلفاؤه الى التوفير بتخفيض نوع الطحين ، ولكن فالنتينيانوس عاد فاقر الخبز الأبيض ، واقر اوريليانوس نفسه توزيع الزيت والملح ولحم الخنزير في بعض المواعيد ، كما اقر توزيع القمصان الذي لم يعمل به قط . ولم تفقد الالعاب شيئاً من سناها ، لا بل ادخلت زيادات على ايام الاعياد .

الموارد

اقتضى من ثم زيادة المجهود الجبائي . اجل كان الاقتصاد اقل ازدهاراً منه في الماضي . ولكن كركلا منح المواطنية الرومانية كافة الرجال الأحرار في الامبراطورية ؛ فمن حيث انهم أصبحوا كلهم متساوين قانوناً امام الدولة ، أصبح ممكناً اخضاعهم للموجبات الاميرية ، واستطاعت الحكومة ، دونما اهتمام للامتيازات القديمة ، ان تأتي بشيء جديد .

اما هذا الجديد فقد حققه ديوكليسيانوس الذي توصل في اوائل القرن الرابع ، بعد ان تلمّس طريقه ، كما فعل حين اقام النظام الرباعي ، الى اعداد ما اصبح منذئذ الضريبة الرئيسية ، أعني بها الضريبة الشخصية (الاعناق) . ان المعاضل الكثيرة التي تثيرها هذه الضريبة والتي يدور حولها جدال عسير لا تسمح بأن نعطي هنا سوى فكرة موجزة عن مبدئها ، لا سيما وان تطبيق هذا المبدأ قد تفاوت شدة بحسب المناطق . كان الهدف منها استبدال الضريبة العقارية المتنوعة الاشكال والمعدلات ، والضرائب على الفلاحين او على المواشي ، بضريبة موحدة يكون مطرحها ثابتاً وعادلاً . يجري لهذه الغاية مرّة كل خمسة عشر سنة ، تقدير مبني على مسح الاراضي

والاحصاءات، تجمع بموجبه العناصر المختلفة الضرورية للانتاج الريفي ، أي الاراضي والاشجار والمواشي واليـــد العاملة ، وتُردّ ، بالاستناد الى معدّلات عدّده بحسب جنس الاشخاص ، وطبيعة المواشي ، والاقليم ، ونوع التربة ، والمزروعات ، الى عـــدد معين من الوحدات الاصطلاحية المعتبرة متساوية بين بعضها، ومن ثم قابلة للجمع. هذه الوحدة الجبائية الاصطلاحية هي « النير » ، او « الرأس » كما درجت تسميتها. تقف الادارة بهذه الطريقة على مجموع الرؤوس المحصاة في الامبراطورية وتوزيعها بين الولايات والمناطق والملاكين . ويكفيها من ثم ان تقدر حاجاتها السنوية حتى تحدّد تدريجياً ، بصورة آلية ، الفريضة المطلوبة من كل مكلّف .

تجبى الضريبة الشخصية عيناً بكليتها تقريباً: وتتشعب منها رسوم عدة أهمها الضريبة العينية السنوية التي تخصص لتموين الجيش والمدن الكبرى. ولكن الدولة بحاجة الى مداخيل نقدية ايضاً، ولا يمكن ، من جهة ثانية ، ان تبقى الزراعة وحدها حقل نشاط السكان . لذلك أبقي على بعض الضرائب غير المباشرة ، المحدودة الدخل ، على الرغم من ارتفاع معدلها . ولذلك ، خصوصاً ، أحدث قسطنطين ضرائب تدفع ذهباً او فضة وتتناول بالتالي أعضاء بعض الطبقات الاجتماعية . وفرض على أعضاء الطبقة الجلسية ، وجلّهم من الملاكين الاثرياء ، ان يدفعوا ذهباً رسماً عقارياً اضافياً تراوح معدله بين ١ و ٤ خلال القرن الرابع، بحسب ثروتهم. ودفعت العائلات الكهنوتية في المدن ضريبـــة « ذهب التاج » : والمقصود بها مبدئياً تقديم تاج للامبراطور لمناسبة حدث سعيد ؛ ولكن فالنتينيانوس نزع عنها الطابع الاختياري دون ان يجعلها دائمة على كل حال . وكان على التجار ، والصناعيين ، والبغيات أنفسهن ، والفلاحين الذين يقصدون المدينـــة لبيع محاصيلهم ، ان يدفعوا ، ذهباً وفضة ، مرة كل أربع سنوات ، رسماً نجهل معدله .

تضاف الى كل ذلك ايرادات ممتلكات الدولة وممتلكات الامبراطور الخاصة ، وقد ميز بينهما سبتيموس ساويروس . ان هذه الممتلكات ، التي كانت واسعة جداً في العهد السابق ، قد ازداد اتساعها بفعل المصادرات التي كان ضحيتها أعضاء الطبقات الغنية خلال أزمة القرن الثالث . ثم ازداد اتساعها في القرن الرابع ايضاً ، إذ وضعت الدولة يدها على أملاك المدن ، ولم تتنازل لهذه المدن اخيراً إلا عن ثلث ايرادات هذه الأملاك وثلث المكوس المفروضة عليها . وعلى الرغم من الاعطيات الامبراطورية التي تكاثرت في القرن الثالث وما بعده، ما زالت هذه الممتلكات شاسعة جداً . وعاش البلاط ، اجمالاً ، من مداخيـــل الممتلكات الخاصة التي أوكل أمر استثمارها الى القيّمين . بينما سلمت الادارة الممتلكات الاخرى الى بعض الملتزمين .

التسخير

واكتمل النظام المالي في العهد الامبراطوري الثـــاني بما فرضه على الافراد من خدمات كثيرة مجانية أو شبه مجانية ساعدت على تخفيض نفقات الدولة دون ان تساعد على تخفيض العبء الحقيقي الذي يتحمله الرعايا . وهذه الخدمات هي ما ندعوه اليوم بـ « السخرة » ، وما أطلق عليه الرومان اسم *Munera* . وكان لهذا التعبير ، منذ البدء البعيد ،

مفهوم مبهم اذ انه قد استخدم للدلالة على المهام الممارسة وعلى النفقات والموجبات الاخرى التي تستلزمها ، مع فارق سخاء يتجلى في القبول بـ « معارك المسايفين » التي يقدمها الشعب اولئك الذين ينالون شرفاً ما . اما الآن فقد انتفى عنه أي معنى من معاني التلقائية ، بحيث ان تطور معاني المفردات يعكس تطور العلائق بين الجماعة والفرد بالذات : فقد غدا الراجب يقضي بتنفيذ ما كان يقام به في السابق شكراناً او غيرة او مجـداً باطلا . وتجدر الاشارة الى ان طبيعة « التسخير » واطار الخضعين قد عرفا في الوقت نفسه اتساعاً عظيماً : فليس المقصود به بعد اليوم المهام الشريفة فقط ، التي تستهوي الاثرياء او الميسورين .

تتنوع المهام تنوعاً لا حد له كما تتنوع لائحة الخاضعين لها بحسب مرتبتهم الاجتماعية وثروتهم ومهنتهم ومكان اقامتهم أو مكان أملاكهم ، مع ان هناك نزعة جلية الى فرضها على كافة الاهالي بغية التخفيف من وطأتها عن كل فرد . قد نحاول عبثاً وضع لائحة كاملة بهذه الخدمات أو وضع نبذة تاريخية عنها تحدد تاريخ ظهور كل منها وتتتبع تطورات تطبيقها : اننا في اغلب الأحيان نفتقر الى المعطيات . فالدولة تفرض ايواء رجالها من موظفين أو مجندين ، وتلزم المكلفين بنقل الضريبة العينية السنوية الى المخزن القريب ، ومن مخزن الى مخزن احياناً ، وتصادر اليد العاملة وادوات العمل والمواد اللازمة لتعهد ابنيتها والطرق والجسور ،وتلزم بتقديم الزوامل وحيوانات الجر تأميناً لخدمةالبريد العام الذي اعسف المقيمين على جوانب الطرق بعد ان اثقل تقدم الادارة. ولكن « التسخير » يطلق على موجبات متنوعة ايضاً: كاستئجار الأملاك العامةالتي لم يستأجرها احد ، وتسليم كميات تعينها الدولة من المصنوعات أو من المواد الغذائية باسعار محددة ، وتأمين وظائف عامة ، وضيعة جداً احياناً ، في المدن ، واخيراً وخصوصاً — وهـذا اثقل تسخير — جباية الضرائب اي تحمل مسؤولية ايراداها .

النواقص

هذا هو النظام باجزائه المختلفة اصلاً ومفهوماً ؛ لم توحـه اية فكرة نظرية ، بل الحاجـة فقط . وهو لا يختلف بذلك عن اكثرية الانظمة في كل البلدان وفي كل الازمنة . فان التجديد الرئيسي نفسه فيه ،أي إلزام كافة المواطنين ، بمن فيهم اولئك الذين يقيمون في ايطاليا التي اعفيت اراضيها من الضريبة منذ السنة ١٦٧ قبـل المسيح ، ليس نتيجة لبراءة كركلا الا جزئياً. فقد سبق ، قبل هذا الاخير ، ان دفع الضريبة العقارية مواطنون كثيرون جداً ممن يقيمون في الولايات . وقد افضى الغاء الامتياز الايطالي الى اغتصاب ، اذ ان مكسانس قد استفاد في السنة ٣٠٦ ، من الاستياء العام . ولكن الدولة تصلبت بسبب حاجتها الى الضرائب الايطالية . وكذلك فان الاعباء الاميرية المفروضة على الطبقة الجلسية لا ترد الى عداء استهدف هذه الطبقة . ولو ان هنالك نزعة الى ايجاد المساواة ، وراء السياسة المالية ، لظهرت في امكنة اخرى حيث لا نلمس لها أثراً . ولكن من الطبيعي ان تطلب الدولة المال حيث هو متوفر .

لا مراء في ان هذه الضرورة قد اتاحت تحقيق بعض التقدم اقله نحو توزيع الاعباء توزيعـاً كثر انصافاً . ولكن ، ما اكثر الشكاوى ! فهناك ، كما هو طبيعي ، شكاوى المكلف المزمنة.

وقد اعترض لاكتانس بقحة ساذجة على دقة مأموري الاحصاء في تنفيذ عملهم . ومع ذلك فان سير النظام سيء ، واذا لم تعرف الدولة في القرن الرابع الضائقات التي عرفتها في القرن الثالث ، فانها كثيراً ما تتخبط في العسرى وتضطر في مدار السنة لزيادة رسم اضافي علىالضريبة الشخصية التي حددت هي نفسها قيمتها في اول السنة . وقد يحدث احياناً ان تتكدس المتأخرات الاميرية بحيث يجب الغاؤها ، فتسمح لموظفيها ، اقله لصغار موظفيها ، ذوي الدخل المحدود ، بأن يؤمنوا لأنفسهم دخلاً عارضاً بتقبل هبة ، لا يحددها قانون ، من المكلفين المرتبطين بهم .

تثبت جميع هذه الدلائل عدم انطباق النظام على الحاجات . وتقوم سيئته الكبرى في تعذر ضبط جدول الضريبة الشخصية يومياً بتتبع تقلبات مطرحها . اضف الى ذلك ان حسن سيره يفرض ألا يتسع أي اعفاء وألا يتهرب أي مكلف من واجباته . ولكن كلا هذين الشرطين لم يتوفرا : فهنالك اعفاءات رسمية من هذا المطلب او ذاك، كما ان هنالك شخصيات كبيرة كثيرة لا تدفع الضريبة الشخصية المتوجبة على املاكها الى جباة لا يتمتعون حيالها بأية سلطة. فتزداد من ثم أعباء الجيران ازدياداً مرهقاً احياناً ، اذ ان الدولة تتمسك بمطالبها من كل مدينة وتتجه ، في سبيل الحصول عليها ، الى المأمورين البلديين دون غيرهم .

لو ان الدولة ، التي ألغت الاجهزة الادارية القديمة وأحدثت العديـــد غيرها ، اوكلت الى موظفيها ، بمساعدة القوة العامة أمر تحصيل الضريبة المباشرة ، لخضعت لعمري لمنطقها الخاص . اما ما اعوزها فهو الجرأة على التخلص من عاداتهـــا المتأصلة ، او بالاحرى ، على ما نرجح ، الرجال الاكفاء المستعدون للخدمة . والدليل على ذلك ان فالنتينيانوس الاول قـــد حاول الاصلاح وأوكل الى مكاتب حكام الولايات امر جباية الضريبة الشخصية ، ولكن وجب العدول عن هذا الاصلاح ، بعد مرور عشرين عاماً، امام اعتراضات هذه المكاتب نفسها: فألقيت الجباية مرة أخرى ، شأنها في السابق ، على عاتق المأمورين في كل مدينة .

ولكن هذا العمل الذي اضيف الى أعمالهم الكثيرة قد أنهكهم ، فأضاعوا وقتهم في الجولات والمساعي . ومن حيث هم مسؤولون جماعياً عن ايراد الضرائب ، فانهم تعرضوا لشتى ضروب الضعف والانهيار . فكانت النتيجة انهم انتهوا الى الافلاس .

٢ الادارة المحلية والاقليمية

الخطاطر المدينة

ويقودنا ذلك، عن طريق اموال الدولة – ولكن العامل الرئيسي هو نقص التنظيم الجبائي – الى احد الفوارق الحقيقية العظيمة النتائج بين العهد الامبراطوري الثاني والعهد الذي سبقه . فلم يعد هنالك من بورجوازية بلدية تتبرع بادارة الشؤون المحليـــة ، بل « قواد عشرة » ، « مرغمون » ، كما حدث بين حين وآخر في عهد الانطونيين تفرض عليهم الدولة القيام بدور الموظفين المجانيين المقوتين في نظر مواطنيهم ونظر انفسهم . فلم يعد بالتالي

من مدينة بالمعنى الذي اطلقه الاغريق والرومان على هذا الموصوف في السابق . فزال بزوالها، عنصر مقوم جوهري من عناصر الحضارة التي تباهى بها العالم المتوسطي، ذاك العنصر الذي تعلق به الناس ايما تعلق بسبب قربه في الزمان وحيويته .

على الرغم من الصعوبات التي بدأت تعرفها الموازنات البلدية والتي حملت الاباطرة على توسيع جهاز الاوصياء ، فان عهد سلالة ساويروس الامبراطورية ما زال عهداً خيّراً بالنسبة للمدن - لا بل عهداً ذهبياً ، كما يبدو في بعض المناطق ، كافريقيا التي ينتسب اليها مؤسس السلالة والتي خصها برعاية خاصة . وقد برهن سبتيموس ساويروس عن تنازل هام بادخال النظام البلدي الى « قواعد الولايات » في مصر وباعطاء الاسكندرية الـ « بولي » ، اي مجلس الشيوخ الذي طالب به سكانها دون جدوى منذ زمن بعيد . ولكن سرعان ما قامت الأزمة الكبرى التي لم تنهض اكثرية المدن العظمى ، بعدها ، نهوضاً حقيقياً .

انكمشت المدن آنذاك داخل اسوارها ، ومات قسم من سكانها أو صفروا من المال ، ومع ذلك فقد بدت للسلطة الامبراطورية درجات ادارية مريحة من حيث ان سكانهـا يؤلفون الجماعات الوحيدة بين الرعايا التي تتقيد بانظمتها وتسهل مهمتها . وما زالت هناك في الظاهر بعض الاجهزة البلدية . فاذا ما زالت جمعية الشعب من كل مكان ، فهنالك العائلة (*Curie*) والقضاة الذين تنتخبهم . وقد يقوم في المدن الكبرى ، التي حافظت على نشاطها التجاري أو استعادته، متطوعون يطمحون الى هذه المراكز ويبسطون يداً سخية امام الجماعة. اما في المدن الاخرى فليست هذه المراكز سوى ضرب من« التسخير ». فغدت وظيفة ممثل العائلة - الذي أخذ اسمه يحل تدريجياً محل اسم « قائد العشرة » ، على ما بينهما من فوارق - واجباً تفرضه الدولة على كل من يملك حداً ادنى من ثروة زهيدة نسبياً .

سنعود الى المظهر الاجتماعي الذي ينطوي عليه هذا التبدل العميق، مقتصرين هنا على المظهر الاداري. فلا تزال اجهزة المدينة مستقلة. ولا تتعهد الدولة الى جانبها اي موظف أو ممثل دائم. فان الوصي *(Curateur)* نفسه الذي عينه الامبراطور في السابق،تنتخبه اليوم عائلته انتخابا . ولكن هذه الاجهزة تتلقى الاوامر وكافة اعضائها يتعرضون العقوبات اذا لم ينفذوها . فالابقاء الظاهر على الاستقلال ليس بالتالي سوى حيلة تستهدف ارغام ما تبقى من الطبقة المتوسطة على التكرس لخدمة الجماعة المحلية والدولة،ليس بالمجان فحسب،بل بالمجازفة بالثروة ايضاً. فهم ملزمون، على الرغم من كل العراقيل، بتأمين المهام البلدية العادية ، المحافظة على الامن، والعناية بالابنية والشوارع ، والتموين ، والاعياد ، الخ . ، وتلبية الأوامر الحكومية بتولي جباية الضرائب، وجمع المجندين، وتنفيذ اعمال« التسخير »المختلفة .فهل ما يدهش والحالة هذه اذا لم يحسنوا القيام بجميع هذه الاعمال ، حتى بمساعدة « حامي المدينة » الذي لن يلبث ان يمسي واحداً منهم ؟

بدء اقتصاديات الاملاك الكبرى

تقوم الحياة الحقيقية خارج نطاق ادارات المدن التي تسير نحو الزوال ولا يبقيها سوى القسر .

اخذت هذه الحياة تنتقل الى املاك الاثرياء الذين تهزأ سلطتهم العملية من الاوصياء ، ومن

الموظفين انفسهم ، مع ان الانظمة لم تعترف لهم بعد باية سلطة قانونية . ان ارتباط الفلاح (« المستعمر ») بالاملاك ارتباطاً شرعياً ، الذي اقرته الدولة حينذاك للحيلولة دون فرار اليد العاملة ، لا يولي الملاك اية سلطة ادارية . ويصح القول نفسه في الحماية التي يمنحها الملاك بعض الفلاحين الاحرار في الجوار . ولكن الواقع غير ذلك . فالاثرياء يوزعون ويجمعون الضرائب كما يطيب لهم في الاراضي العائدة اليهم دونما اكتراث منهم لتسديد حصة الضرائب. ولما كانت الشرطة لا تتجاسر على التعرض لهم ، فانهم يمارسون حق الحماية ، ويحصلون حقهم بايديهم ، ويستولون على ممتلكات واشخاص مدينيهم . ويعود تحريم السجون الخاصة لاول مرة الى السنة ٣٨٨ ، ثم يعقبه تحريمات عدة في القرن الخامس ، وسيصدر في الوقت نفسه امر بتحريم تعهد الزمر المسلحة . فبدأ من ثم القضاء على حقوق الدولة ، بفعل اغتصابات يستحيل قمعها ، لمصلحة ذوي الاملاك الكبرى .

البيروقراطية

بيد ان كل ذلك ليس سوى تباشير تطوّر سيقود الى نتائج بعيدة جداً . وان أجهزة الدولة ، على نقيض ذلك ، لم تعرف يوماً مثل هذا العدد ومثل هذه القوة. فالمركزية ، مع ما تستتبعه من ادارات وموظفين ، احدى الميزات الخاصة بالعهد الامبراطوري الثاني . ليس لدينا ، بصدد العهد السابق ، مصدر افضل من « لائحة الوظائف » التي تضع امام امام اعيننا « بياناً بالوظائف » والقوات العسكرية في كل من « شطري » الامبراطورية ، الشرقي والغربي ، في اواخر القرن الرابع . ومع ذلك فلا يجوز لنا ان نشك دقيقة واحدة في النمو المظم الذي طرأ على المصالح الاقليمية والمركزية. فالواجب يقضي على الحكومة ان تواجه اعباء لا تسمح لها نوائب الدهر بعد اليوم باهمالها. اضف الى ذلك ان تقسم العمل غدا ، الى حدّ ما ، فرضاً واجباً : فهي ، بدافع الحذر ، وحرصاً منها على الكفاءة والفعالية ، فصلت فصلاً نهائياً بين الادارة المدنية والقيادة العسكرية . واضطرت اخيراً الى احداث درجات وسيطة بغية تخفيف عملها الخاص وتنسيق النشاطات المحلية تنسيقاً افضل . ولكن ، اذا طرأت هذه الزيادة العظيمة على عدد المصالح ورؤسائها من موظفين كبار ومتوسطين ، فاننا نلمس هذه الزيادة في عدد صغار الموظفين في المكاتب ايضاً: في اواخر القرن الرابع ، كان لكل حاكم ولاية ١٠٠ مستخدم ؛ ولكل نائب ٣٠٠ ؛ ولكونت الشرق (القائد العسكري) ٦٠٠ ؛ ولكونت الاعطيات المقدسة في الغرب ٨٥٠ ؛ ولرئيس الحرس الامبراطوري في الشرق أكثر من ١٠٠٠ .

خضع صغار الموظفين هؤلاء لتنظيم عسكري على الرغم من صفتهم المدنية . فوزّعوا فرقاً فرقاً ، لا بل سجلوا اسمياً في وحدة عسكرية احياناً . فقد اعتبرت الوظيفة العامة ، في حدّ ذاتها ، *Militia* أي « خدمة عسكرية » . وخضعت لتسلسل داخلي دقيق ، ولنظام خاص ، ولقواعد ترفيع ؛ وحق عادة للموظف ، بعد قضاء عشرين او خمس وعشرين سنة في الخدمة ، التمتع « بالشرفية » أي الاحتفاظ باللقب والامتيازات الشرفية . لم يبق كل ذلك دون نتيجة على الصعيد الاجتماعي ، وأسهم ، على الصعيد الاداري ، في توفير التلاحم الشديد لما يجب تسميته

بالبيروقراطية الامبراطورية ، وهي الاولى ، بوضوح معالمها ، بعد البيروقراطية المصرية .

هذا واقع لا شك فيه، ولا أبسط منه ايضاً. ولكن ما هو جوهري ، على استحالة تحقيقه، هو التمكن من تقدير قيمة هؤلاء الموظفين تقنياً واخلاقياً . فللوراثة دورها الاول في تعيينهم ، وللوسيط ، الى جانب الاستحقاق والاقدمية ، دور في ترفيعهم . وعلى الرغم من ان كافة التعيينات منوطة بالامبراطور الذي يتحرّر ، حتى عند ملء المراكز الرفيعة، من الواجب القديم القاضي باختيار الموظفين بين اولئك الذي شغلوا هذا أو ذاك من مناصب القضاء ، فانه يشعر بالحاجة الى مراقبة موظفيه . وهو يستخدم لهذه الغاية « موظفي الشؤون » الذين يكلفون تنفيذ مهام تستوجب الثقة ويقومون بأعمال التجسس في المصالح ايضاً . ونحن نرجح ان هــذا الجهاز كان ضرورياً ، اذ انه ، بعد اقدام جوليانوس على إلغائه ، قد أعيد مرة ثانية ، وضم في النهاية عدّة ألوف من هؤلاء الموظفين . بيد اننا لا نستطيع الفصل في فعّالية هذا الجهاز. لما هي الأهمية التي يجدر بنا ان ننسبها ، لأجل الحكم على هذه الادارة ، الى القرارات الامبراطورية في سبيل تقويم الاعوجاجات والى شكاوى المكلفين ؟ ان البيروقراطية لا تنتظم دون تلمّس وتردد، ولم تنظر الطبقــات الاجتماعية ، التي تعبّر مصادرنا عن آرائها ، نظرة رضى الى تسلط الدولة الثقيل على الممتلكات والاشخاص . ومهما يكن من الامر ، فيجب التسليم للمستائين من النظام انه يفضي الى البطء ويقضي على روح المبادرة ، ولكن الانتقادات تتلاشى امام هذه الحقيقة : لولا هذه الادارة لصارت الدولة الى انهيار سريع .

الولايات

ما زال اسم « الولاية » قائماً ؛ ولكن مفهومه قد تبدل تبدلاً كبيراً . وها نحن نشير الى التبدلات الرئيسية دون ان نغامر في ردّها الى اطارها التاريخي، وهي مغامرة مملة لا تفضي بنا الى الحقيقة الثابتــة على كل حال . لم يعد هنالك من تمييز بين الولايات وايطاليا : باستثناء روما التي قسّمت، منذ ديوكليسيانوس الى دوائر شبيهة كل الشبه بالولايات ، دون ان يطلق عليها هــذا الاسم الذي قد يثير النزق والانفصال . ولم يعد من تمييز كذلك بين الولايات المجلسية والولايات الامبراطورية : فالامبراطور وحده ، دون مداورات ، يعين الحكام أجمعين ويشرف على الادارة جمعاء . وليس هناك عملياً ، باستثناء حالات نادرة جداً ، مــن قيادات عسكرية يمارسها الحكام : فقد عادت هذه القيادات الى الرؤساء العسكريين . وتجزأت الولايات القديمة خصوصاً ، بدافع الحذر السياسي ، وتخفيفاً من العبء الملقى على كاهل الحكام ايضاً . كان عددها يناهز الخمسين تقريباً حين تولى ديوكليسيانوس الحكم . فرفعها هذا الأخير الى ضعف هــذا العدد تقريباً وأحدث سبع ولايات في ايطاليا . وعند وفاة ثيودوسيوس أضيفت سبعة عشر ولاية ايطالية الى أكثر من مائة ولاية .

لم تتساو هذه الولايات ، لا أهمية حقيقية ولا مرتبة ، وتنعكس منزلتها في لقب حاكمها . ولا يزال ثلاثة من الحكام ، بقوة استمرار غريبة ، يحملون لقب « بروقنصل » القديم : وهؤلاء هم، بحسب تقليد العهد الامبراطوري الاول، حاكما آسيا وافريقيا اللذان أضيف اليها ، احتراماً

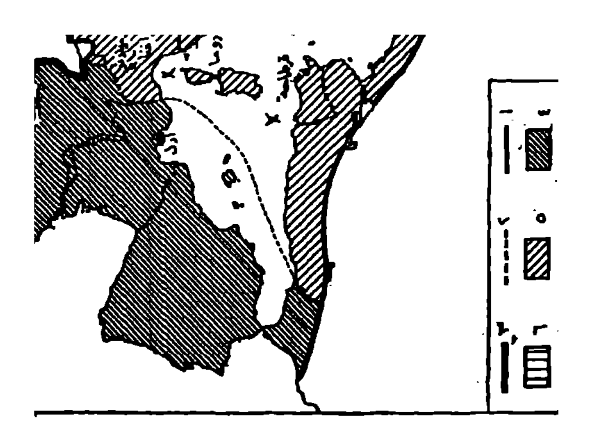
لماضي اليونان ، حاكم آخيا. ويقسم الآخرون ثلاث فئات. ولكن أهمية هذه التمييزات الوحيدة محصورة في تحديد درجة الحاكم في سلسلة مراتب الموظفين . وتتفاوت حرية الحكام في العمل بنسبة قربهم من الرئيس او بعدهم عنه، او بنسبة أهمية الرئيس العسكري الموجود في ولايتهم . وكان عليهم ، قبل أي شيء آخر ، حتى اذا ما نجوا من مثل هذه القيود ، تأمين تنفيذ الاوامر الصادرة عن رؤسائهم . وما كنا لنرى فيهم خلفاء الحكام القدماء لو لم يتعاظم دورهم القضائي في أعقاب انحطاط المدن : فتدرجت تسميتهم كلهم « قضاة » . ولكن أحكامهم قابلة الاستئناف .

ان نزعة العهد الى السلطة المطلقة ، بما تنطوي عليه من تناقض ظاهر أكثر منه حقيقي ، لم تفض به الى إلغاء الجمعيات في الولايات : فهو على نقيض ذلك قد احدث جمعية في كل ولاية . والاغرب من ذلك ان اعتناق الامبراطور للديانة المسيحية لم يلغ واجب هذه الجمعيات ، حتى في عهد متأخر ، في القيام بطقوس العبادة الامبراطورية : فهي تعين ، شأنها في الماضي ، كاهن الولاية ، والعبادة الامبراطورية هي الوحيدة بين « أمجاد » التنظيم القديم ، اقليمياً ومحلياً ، التي حافظت على ملء رونقهـا . واستمرت الحكومة المركزية في السماح للجمعيات بتهنئة كبار الموظفين ومحاولة افقادهم الحظوة ، ولكن نجاح هذه المحاولة ما زال عسيراً كما في السابق . لا بل سمحت لها آنذاك بأن تتقدم منها بتمنيات ، جريئة جداً احياناً : وهكذا في السنة ٣٩٩ لم تتردد جمعية ولاية « المدن الخمس » *Pentapole* الافريقية في اثارة النقاش لمعرفة رأي الاعضاء في ارفاق تقدمة تاج ذهبي للامبراطور اركاديوس والتماس تخفيف الضرائب بطلب إلغاء القيادة العسكرية التي تخضع لها. وان هذا التساهل ، الذي لم ينجم عنه أي خطر ، قد اتاح للامبراطور الحفاظ على حدّ أدنى من الاتصال بالرأي العام في المواضيع ذات الصالح المحلي : وهو حد تحتاج اليه كافة الانظمة ، حتى المطلقة منها .

الابرشيات والوكلاء

لم يكن بمكنة حكام الولايات ، بسبب كثرتهم ، الاتصال اتصالاً مباشراً دائماً بالحكومة المركزية . لذلك احدث ديوكليسيانوس درجة وسيطة هي « الابرشية » اسندت السلطة فيها الى وكيل قائد حرس القيصر . كان عدد الابرشيات في البدء اثنتي عشرة ثم أمسى خمسة عشر في اواخر القرن الرابع . ضم كل منها عدداً معيناً من الولايات في وحدة اقليمية كبرى. بيد ان مدينتي روما والقسطنطينية والولايات الثلاث التي اسندت السلطة فيها الى برونقصل لم تدخل في هذا التقسيم ، بل ارتبطت مباشرة بالحكومة المركزية . فالفت بريطانيا ابرشية ؛ وغاليا ابرشيتين ، احداهما النصف الجنوبي والثانية القسم الشمالي ، وكانت مدينتا « تريف » وفيينا مقر الوكيلين؛ ومصر وكيرينا ابرشية ؛ الخ . وقامت في هذه الابرشيات جمعيات على نمط الجمعيات في الولايات .

راقب الوكلاء عمل الحكام ومارسوا سلطة قضائية استئنافية . واستفاد « كونت الشرق »، وهو وكيل الابرشية التي ضمت الولايات حول سوريا ، من مركز استثنائي بسبب جوار بلاد



الشكل ٢٢ - الابرشات وقيادات الحرس في السنة ٣٩٥ .
١ - حدود الامبراطورية؛ ٢ - حدود الابرشية؛ ٣ - الحدالفاصل بين شطري الامبر
غربي (هونوريوس) في السنة ٣٩٥ ؛ ٤ - قيادة حرس غاليا ؛ ٥ - قيادة حر
٦ - قيادة حرس الشرق .

فارس . اما في الابرشيات الاخرى فلم يحظ الوكلاء بهذا المركز الهام. كانوا يراسلون الامبراطور مباشرة ، ولم تحدث وظائفهم الا لاضعاف قيـــادة حرس القصر ، ولكن التنظيم الجديد الذي ادخل على هذه الاخيرة اخضعهم لها في النهاية . وما لبثوا ان اصبحوا مجرد جهـــاز للتحويل ، وما عتمت بعض المراكز ان بقيت شاغرة . فتغلبت النزعة الى المركزية ، مع ما تستلزمـــه من تسلسل دقيق في المراتب ، على النزعة الى النظام الاقليمي التي لم تبرز يوماً بقوة على كل حال .

قيادة حرس القصر

ادخل قسطنطين تعديلات عظيمة على قيادة حرس القصر . منذ العهـــد الامبراطوري الاول تعدت صلاحيات هذا الجهاز ، الى حد بعيد ، قيـــادة فرق الحرس التسع : فقد مارس قادة الحرس سلطة قضائية وتوصلوا من جهة ثانية ، لا سيما منذ القرن الثالث ، بفضل اشرافهم على تموين الجيش ، الى فرض رقابتهم على كل الادارة المالية تقريباً. ، مع ذلك ، لم تحدث تجزئة اقليمية قط ، على الرغم من ازدواجية الحكم غير النادرة . بيد ان النظام الرباعي قد ادى الى هذه التجزئة عملياً بتخصيص كل امبراطور ، ان لم يكن كل قيصر ، بقائد حرس . ومع ان قسطنطين قد اعاد الوحدة الامبراطورية في شخصه ، فقد رجع تدريجياً الى تقسيم الامبراطورية دوائر اقليمية كبرى اسندت الى قادة حرس مختلفين . اجل كان هؤلاء القادة ، لمدة طويلة ، معتبرين وكأنهم هيئة واحدة . ولكن مبدأ التجزئة الجغرافية قد سيطر في النهاية . اما بصدد التجزئة نفسها ، فالتردد والغموض امران غير نادرين ، ومرد ذلك الى اختلاف عدد الاباطرة و « الحصص » المخصصة لكل منهم . قامت في اغلب الاحيـــان ثلاث قيادات : واحدة للشرق ، من كيرينا حتى تراقيا ، واخرى لايطاليا وافريقيا والمناطق الباقية من شبه الجزيرة البلقانية ؛ وثالثة لبريطانيا وغاليا واسبانيا ومراكش . امـــا المعضلة ، التي برزت منذ قبل وفاة ثيودوسيوس ، فكانت في التوصل الى التوفيق بين هذه التجزئة وتقسيم الامبراطورية الى شطرين بفضل ازدواجية الاباطرة التي افضت الى ازدواجية الامبراطوريات. وقد طالب الشرق بزيادة حصته في شبه الجزيرة البلقانية ، فجر ذلك الى نزاع حول ابرشيتين .

بعد ان الغى قسطنطين فرق حرس القصر ، الغى سلطات القادة العسكرية وجعل منهم موظفين مدنيين فقط . كانت صلاحياتهم واسعة ومتنوعة ، ويتناول اهمها ، بالاضافة الى البريد العـــام والتطوع والتسعير والمحافظة على النظام بصورة عامة ، الخ ، الضرائب والقضاء . وهي في الحقيقة صلاحيات هامة جداً؛على الرغم من ان عطف ثيودوسيوس وحده يفسر مكانة قائد الشرق الغالي، روفينوس الايلوزي – من بلدة ايوز في مقاطعة الأكيتين –، وقد تركه لابنه اركاديوس في السنة ٣٩٥ . وروفين هـــذا هو الذي عرف كيف يسوّي قضية تسالونيكي بالاتفاق مع القديس امبروسيوس . اما القادة الثلاثة الذين اقاموا في القسطنطينية وميلانو وتريف – نقل هذا المركز الاخير الى « آرل » في السنوات الاخيرة من القرن الرابع – فقد اشرفوا على التشريع واقترحوا كافة تعيينات الموظفين في الولايات وسيروا الادارة،؛ ومارسوا سلطة قضائيـــة تمييزية اصدروا بموجبها احكاماًمبرمة ، فكانوا ، اذا ما وضعنا قيادة الجيوش جانباً ، اشبه بنواب الملك : لذلك

ارتأى الامبراطور احياناً اسناد منصبهم الى هيئة مؤلفة من قائدين .

العاصمتان روما والقسطنطينية

تتضح بالتالي ، في الادارة المحلية والاقليمية ، حتى تلك التي ابقي فيها على الاسماء القديمة ، الخلافات العميقة بين العهد الامبراطوري الثاني والعهد الذي سبقه . ويصح القول نفسه في العواصم ، على الرغم من ان رواسب العهد السابق تبرز فيها بروزاً على جانب اقوى .

يجب الا نخطىء في صيغة الجمع هذه: العواصم . فليس لاي من قادة الحرس مكاتبه في روما . ولا يقيم الامبراطور فيها الا استثناء ولفترات قصيرة . ففي الغرب نفسه ، نراه يمضيا ايامه في تريف ، أو ميلانو – ولن يلبث ان يمضيها في رافنا التي تتصل بالبحر ويسهل الدفاع عنها – أو سيرميوم (ميتروفتزا الحالية على نهر الساف) الخ. ولكن ليست هذه كلها سوى مراكز اقامة ، لا عواصم ؛ فلا تزال روما هي « المدينة » ، ولا تزال الامبراطورية « رومانية » .

غير ان قسطنطين قد احدث روما ثانيــة ، خاضعاً لاعتبارات لا يزال الخلاف قائماً بين المعاصرين حول طبيعتها وأهميتها . ليس باستطاعة احد ان ينفي رغبته في تخليد اسمه بمشروع هندسي عظيم : فان قسطنطينوبولس ، « مدينة قسطنطين » ، المبنية في موقع يضمن له قدم بيزنطية الأهمية الاقتصادية ، ستكون مدينة تختلف عن سيرتا النوميدية التي رممت وأطلق عليها اسم قسطنطينة . وليس باستطاعة احــد ايضاً ان ينفي الاعتبارات العسكرية : مناعة الموقع الطبيعي ؛ أهميته الستراتيجية عند مصب البوسفور الذي اجتازه القوط في القرن الثالث ؛ قربه من الدانوب السفلي الذي يهدده خطر البرابرة؛ جوار الولايات الشرقية التي يهددها الخطر الفارسي والتي خضعت لسلطة ليسينيوس الذي هزم في شهر ايلول من السنة ٣٢٤ ، بينما تقرر اختيار الموقع منذ شهر تشرين الثاني . ولكن الاتفاق حول اعتبارات روحية ممكنة ليس أمراً بسيطاً. قــد يكون قسطنطين اراد عاصمة مسيحية غير روما المتسمة اتساماً عميقاً بالطابع الوثني : ولكنه ، اذا لم يدرك مسبقاً ان تواري الامبراطور ، في عداد اسباب اخرى ، سيفضي الى جعل روما عاصمة النصرانية الغربية ، لم يفته مع ذلك ، في القسطنطينية ، ان يوعز بالقيام بكافة الطقوس الوثنية المعدّة للتأسيس ، ثم التدشين في السنة ٣٣٠ ، وبتشييد أكثر من معبد . ومن جهة ثانية ، اذا كان هذا الامبراطور الذي لم يتقن اليونانية قــد فرض اللاتينية لغة رسمية في القسطنطينية ونقل اليها كثيراً من العائلات الرومانية ، فانه قد ارتكب خطأ فادحاً اذا كان قد اعتقد بأنه يوطد ، بهذه الطريقة ، الحضارة اللاتينية في البلاد اليونانية : لما لبثت مدينته ، في الواقع ، ان باتت حصن الحضارة اليونانية في وجه روما نفسها .

لقد خاب امل قسطنطين في هذا المقصد او ذاك من مقاصده ، ولكنه مع ذلك قــد حقق منها ما هو جوهري : فالقسطنطينية ، التي استلمت منه صدارة العاصمة والتي اشتركت فيها مع روما قبل ان تغدو عاصمة الشرق الوحيدة ، لم تفقدها قط إلا في القرن العشرين . وقــد آثر الامبراطور نفسه الاقامة فيها على الاقامة في روما. فكثيراً ما أقام قبل تأسيسها في نيكوميديا

او انطاكية حين كان يقصد العيش في الشرق . وما زال ، بعد السنة ٣٣٠ يقيم في هذه او تلك من هاتين المدينتين : ولكنها اقامة قصيرة في مجموعهـا ، إلا اذا انصرف الى اعداد الحرب ضد الساسانيين؛ ولكننا لا نرى، على كل حال، الى جانب القسطنطينية، مدناً توازي ميلانو ورافنا.

الرواسب الشرقية في العواصم

ان روما مدينة لماضيها بالابقاء على أنظمة خاصة، كما ان القسطنطينية مدينة لمساواتها لروما نظرياً بالتمتع بأنظمة مماثلة . ولكن هـذه الانظمة ما لبثت ، في الاولى كما في الثانية ، ان فقدت سلطتها كلياً بفعل تطور ظهرت بوادره منذ أمد بعيد .

في كلا العاصمتين مجلس شيوخ ، منظم على غرار مجلس الشيوخ في العهود السابقة ، أي خاضع لسلّم المراتب وفاقاً للوظائف التي يمارسها القضاة او يسندها الامبراطور اليهم اسمياً. اما مجلس روما فقد فاق مجلس القسطنطينية عزاً، لأن باستطاعة ايطاليا ان تنتدب اليه ممثلين عن العائلات الكبيرة أكثر من الشرق البلقاني. وقد بقي، لمدة طويلة، المجلس الوحيد الذي يبلغه الامبراطور جلوسه على العرش ، فكان يسرع ، كما هو بديهي ، الى الاعراب عن استحسان هـذا الجلوس . الى هذه البادرة انتهت النظريات والمشادات الكثيرة المختلفة حول تعيين الامبراطور ، او أقله تثبيته، من قبل المجلس : فالامبراطور الاخير الذي اختاره هذا المجلس هو تاسيتوس الذي ملك عدة أشهر في السنة ٢٧٥ . وهكذا دواليك : فليس بعد من ولايات مجلسية ؛ وليس من خزانة باستثناء الصندوق البلدي؛ وليس من ضرب نقود؛ وليس من احتكار في ممارسة بعض الوظائف؛ وليس من سلطة قضائية . ولا تتناول مناقشات الجمعيتين سوى المواضيع العادية . ولا يأخذ الامبراطور امانيها بعين الاعتبار إلا كما يطيب له شخصياً : فلم يفلح المجلس الروماني مثلاً في استصدار قرار باعادة مذبح إله النصر الى قاعة جلساته الخاصة .

لم يحافظ اي من مناصب القضاء الجمهورية القديمة، على نقيض ما حدث في العهد الامبراطوري الأول ، على اهمية اثره في الحصول على الوظائف العامـــة : فهذه قد غدت مستقلة عن «سلّم الامجاد» . لا يزال الامبراطور يسند الى بعضهم مناصب قضاء اسمية، لا سيما القنصلية ، ولكنه يفعل ذلك بغية مكافأة الذين خدموه خدمة صادقة ، اثناء تقاعدهم على العموم ، لا سعياً وراء مزيد من الحرية في العمل ، عند اختيار وترفيع الموظفين ، كما في السابق .

اصبح ارفع هذه المناصب القديمة لقباً على مستوى الامبراطورية دون روابط عملية بالعواصم. فعلى الرغم من ازدواجية هذه الأخيرة، لم يبق هناك سوى قنصلين اثنين يعود أمر تعيينهما للامبراطور دون سواه . وفي حال تعدد الاباطرة ، لا يتم الاختيار ، الذي يحاول ايجاد المساواة بين الشرق والغرب ، الا بالاتفاق بينهما . ورغبـــة في تلافي الخاصمات ، قرّ الرأي منذ السنة ٣٩٦ ، اذ كان الامبراطوران ، ابنا ثيودوسيوس ، قنصلين في آن واحد ، على ان يعين كل منهما القنصلين مناوبة ، كما قر الرأي ، بعد فترة قصيرة ، على ان يعين كل منهما احد القنصلين . غير ان هذا المنصب لم يبق له من امتياز سوى تنظيم الالعاب العامة . ولما كان الامبراطور يتنوع عن

« القناصل » ، بما لهذا التعبير من مفهوم قديم ، فـلم يقدم الا نادراً على تعيين القناصل القضاة . فازدادت من ثم قيمة اللقب الشرفية ازدياداً كبيراً ، واحيط بابهة عظيمة . ونحن لا نعرف ، الى جانب الاباطرة، سوى حالة واحدة حصل فيها قنصل قديم على قنصلية ثانية في القرن الرابع ، هي حالة قائد فرنجي .

لم يدم عملياً ، بين المناصب الاخرى ، سوى وزارتي المالية والعدلية . وهمـا قد نظمتا في القسطنطينية ايضاً . وكانت وزارة العدلية بنوع خاص كثيرة النفقات بسبب الالعاب التي تقع اكلافها على كاهل شاغلي هـذه الوزارة . فانتهوا الى تعيين هؤلاء قبل موعد الاستلام بعشر سنوات: حين عين ابن سيمناكوس وزيراً للعدلية، اقيمت العاب استمرت سبعة ايام واستلزمت نفقات باهظة ، مع ان البذخ فيها كان عادياً – انفق آخرون ضعف ما انفقه عليها ، اي مـا يزيد عن اربعة ملايين فرنك ذهباً بسعر الفرنك في السنة ١٩١٤ – غير ان الوقت قد توفر لسيمناكوس حتى يطلب من اصدقائه الحيوانات المفترسة والألاهي . اما بالمقابلة فالصلاحيـات شبه لاغية لا تتعدى واجب القيام ببعض الاعمال القانونية . فنحن اذن امام « تسخير » حقيقي، ولن تلبث التعيينات ان تصبح من نصيب الذين يضبطون حسابات ثرواتهم لاجل الضريبة الخاصة المتوجبة على اعضاء الطبقة الجلسية . ولكن هؤلاء القضاة ، على نقيض ممثلي الوحدات العائلية في المدن العادية ، لا يكسفون وجوههم لانهم قادرون على تحمل ضخامة مثل هذه النفقات .

ان الشخصية الاولى ، في العاصمتين ، هي « حاكم المدينة » الذي احدثت وظيفته في رومـا في العهد الامبراطوري الاول، وفي القسطنطينية في أواسط القرن الرابع. فهو يمثل الامبراطور الذي يعينـه ، وكثيراً ما يستبدله . يرئس مجلس الشيوخ ويفصل في دعاوى المدينة والملحقات المحددة في روما بنطاق المائة ميل التقليدي . يسهر على النظام والتموين متغلباً بذلك على حكام الامن والضريبة العينية السنوية . فيكسبه كل ذلك سلطة حقيقية لا سيا في روما التي لا يقيم فيها الامبراطور : ويختاره هذا الاخير ، بالتالي ، في صفوف الارستوقراطية الوثنية ، كسيمناكوس مثلاً ، حين يكون ساعياً وراء اظهار رغبته في تحقيق الوئام .

يتضح لنا ان حياة العاصمتين، بفعل التوزيع المجاني على الشعب وسخاء الاغنياء ، أعظم بهاء منها في المدن الاقليمية . ولكنها ، على الرغم من الرواسب ومظاهر المراعاة المعدة للحفاظ على نفوذها ، لا تتمتعان ، بالنسبة لها ، بمزيد من الاستقلال الحقيقي . ومهما يكن من الامر ، فان التقليد يرغب في ان تسهم اجهزتها المحلية ، وهي وريثة أسماء مجيدة ، في شؤون الدولة : ولكن هذا الموضوع اقل وروداً آنذاك منه في الماضي .

٣ ـ الحكومة المركزية والامبراطور

أنيطت شؤون الدولة هذه ، بالاضافة الى رقابة الادارة والدفع بها الى الامام ، بالامبراطور دون سواه .

الدولة والنظام الشخصي

اقتضى لمثل هذه الدولة ، التي ترى توسع أعمالها وتعتمد ، بغية تنفيذها تنفيذاً افضل ، أساليب مركزية ضيقة ، تنظيم حكومي قوي . لم يخل العهد الامبراطوري الثاني من هـذا التنظيم . لا بل يلفت النظر انه توصل ، على الرغم من قصره ، الى تحقيق تنظيم بمثل هذه القوة ، وبمثل هـذا الاستقرار نسبياً ، أقله بصدد المصالح ، ان لم يكن بصدد الرجال . وقـد توصل ، في بعض المواضيع ، الى التمييز بين مفهوم الدولة ومفهوم الامبراطور .

بيد ان مفهوم الامبراطور ما زال يسيطر على مفهوم الدولة ، ويلاشيه ملاشاة في أكثر الاحيان. ولكن هذه الظاهرة ليست نتيجة الطابع البدائي الذي تتسم به دولة في طور التكون، كما حدث في العهـد الامبراطوري الاول ، بقدر ما هي نتيجة السلطة المطلقة التي تفسح مكاناً كبيراً لأهواء الامبراطور الشخصية والتأثيرات الخاصة التي قد يخضع لها . وكان تجنبها يستلزم ملكة عقلية ووضوحاً منطقياً يسيّرهما نهج فكري ساد في عهد الانطونيين ، ولكنه أهمل بعد ذلك . ومتى ميزت الدول العصرية بين هذين المفهومين يا ترى ؟

قامت ، في ما بعنينا ، مصاعب أخرى ايضاً : تعدّد الاباطرة أولاً ، وتبدّل عددهم ثانياً وخصوصاً . فقد وجب لكل منهم حكومته ودوائره المركزية المحدثـة تقسيماً او دمجاً بحسب التقلبات السياسية . ولحسن الطالع ، انتهى هذا التعدد في أغلب الاحيان الى نظام ثنائي قسمت الامبراطورية بموجبه الى شرق وغرب . ومهما يكن من الأمر فان هذا النظام هو الذي وطّده وجود ابني ثيودوسيوس في اوائل القرن الخامس ، واذا ما زالت حكومة الغرب بعد ذلـك ، فان حكومة الشرق قد استمرت في الامبراطورية البيزنطية .

الكونتية

ان التقدم الذي احرز في مثل هذه الظروف أهمية يزيد من شأنها ان النزعة التي يعكسها لقب الـ *Comes* ، أي « الرفيق ، الذي اشتقت منه كلمة « كونت » كانت قادرة على إيقافه نهائياً .

لم تجهل الامبراطورية الاولى هـذا اللقب الذي عرف باسم « الصديق » آنذاك ، ولكنه لم يفض قط الى ما يشبه الرتب البلاطية في الملكيات الهلينية . أعاده قسطنطين ، بعد فترة زوال، بمنحه موظفين اوكلت اليهم في البداية مهمات خاصة تخـل بالنظام السائد . ولكنه لن يلبث ان يفرط في توزيعه ، فيحتذي حذوه خلفاؤه . وعلى الرغم من ان اللقب ، في بعض الحالات ، — سبق وأشرنا الى كونت الشرق — لا يتميز عن اسم الوظيفة الرسمي ، فانه قد أصبح سمية تزيينية قبل كل شيء آخر استلزمت احداث ثلاث درجات اطلق عليها اسم « الرتب » .

ان الكونت ، نظرياً ، لا يخدم الدولة بل الامبراطور الذي تربطه به صلة شخصية قوامها المودة والشكران والاعجاب ؛ كما ان مجموع الكونتيـة يؤلفون « معيته » نظرياً ويرافقونه في تنقلاته . ولكن ليس لهذه النظريات من نتيجة عملية : كانت هذه المثل ، منذ أمد بعيد ، اساس التنظيم الحربي عنـد البرابرة الجرمانيين . وليس ما يمنع الاعتقاد بتأثير هؤلاء على قسطنطين .

ومن المحتمل جداً ايضاً ان تكون هذه المثل حنيناً الى العادات والاعراف الهلينية والرومانيـة على السواء : فما زالت الملكية الامبراطورية ، في جوهرها ، ملكية شخصية مبنية على مفهوم الانسـان المتفوق . ويغلب على الظن ان ما اوجب الاخذ بها ، في البدء ، هو واجب حل بعض الصعوبات حلا سريعاً . ثم فقدت جدواها ، في التطبيق العملي ، بفعل حتمية صيرورة الالقاب البلاطية الى الابتذال والحاجة الى المحافظة على الآلة الادارية العادية . ومهما يكن من الأمر ، فان « معية » قسطنطين وخلفائه ليست مسؤولة قط عن انقسام الدولة في القرن الخامس ، وانما اقتصرت الـ « معية » التي كانت لها الغلبةبعد ذلـك ، والتي كانت ابعد تأصلاً جرمانياً ، عـلى استخدام مفرداتها.

المجمع والمصالح الكبرى

بعد اجهاض هذا الخطر ، قامت على رأس الدولة ، بغية ممارسة أهم صلاحياتها، اجهزة وظائف ثابتة . واذا ما كان بعضها ، من هـــذا القبيل ، موروثاً عن العهد الامبراطوري الاول ، فان التقدم في الطريق التي شقها هذا الاخير ، واقع راهن .

يطلق على «مجلس الامير » القديم ، بفعل متطلبات آداب المجتمع، اسم « الموقف » (المجمع) اذ ان اعضاءه يشتركون فيه وقوفاً . تعود رئاسته ، في غياب الامبراطور ، الى « وزير مالية القصر » . يدرس شتى الشؤون ، ويشترك كبار رؤساء المصالح في جلساته . وللموقف ، بالاضافة الى ذلك ، امناء سره الذين يؤمنون استمرار اعماله بواسطة الاختزال .

اما اولئك الذي يمكن تسميتهم بالوزراء فلا يزالون قليلي العدد جداً . فهناك « رئيس امناء السر » الذي يضبط يومياً جدول الموظفين والرؤساء العسكريين ويمارس بالتـــالي وظيفة على بعض الاهميـــة . ويدير الخزانة ، بحسب مصدر الواردات ، « كونت الاعطيات المقدسة » و « كونت الاملاك الخاصة » . ويرئس دوائر المستشارية « سيد الدوائر » الذي تتعاظم اهميته باستمرار ، كما يبدو ، ولعل السبب في ذلك انه رئيس «موظفي الشؤون» ايضاً ، الذين يمارسون، بفعل انتشارهم في كل مكان ، عملاً اتهامياً لا يختلف عن الجاسوسية احياناً . ويجدر بنا ايضاً ان نضيف الى هذه القائمة قائد حرس القصر المعين على رأس الادارة الاقليمية .

تجدر الاشارة هنا الى ان الحكومة المركزية خلو من وظيفة وزير اول . وربما كان « وزير مالية القصر »مؤهلاً قبل غيره لشغل هذا المركز. وربما اسندت الوظيفة الى رجال لم يعرفوا كيف يستثمرون طاقاتها : ومهما يكن من الأمر فقد فقدت اهميتها .ولكن السبب الرئيسي، في الارجح، هو ان اباطرة القرن الرابع كانوا حذرين فقسموا السلطة بين مساعديهم حفاظاً على سلطتهم الخاصة . ولنشر مرة اخرى هنا الى فصل الوظائف العسكرية عن الوظائف المدنية : « فسيد الدوائر» هو من يرئس الجنود البرابرة في الحرس الشخصي ، ولكن «للحامين» رئيساً خاصاً هو «كونت المنزليين» ، كما ان « اسياد الجنود » يرئسون الجيوش ، حتى تلك المقيمة في جوار المقر الامبراطوري . فقد فرضت امثولة العديد من الاختبارات المؤسفة اللجوء الى التبصر والحكمة . ولن يحدث الا بعـد

وفاة ثيودوسيوس ان يبرز اشخاص يصبحون اسياد الحكومة الحقيقيين، على الرغم من تعرضهم الدائم لفقدان الحظوة بصورة مسرحية مفاجئة : القائد ستيليكون في الغرب ، وقائد الحرس روفينوس وافتروبوس مدير غرفة الامبراطور في الشرق ، الذين سيبرز بعدهم كثيرون سواهم . بيد ان تنوع الوظائف الرسمية التي يشغلونها يبين ان لا صلة عضوية بين اية وظيفة منها وسلطتهم. فهم لا يدينون بهذه السلطة الا لعطف الامبراطور الشخصي ولعدد الزبن ، وحتى القرابات اللامعة التي اتاح لهم هذا العطف تكوينها : تزوج ستيليكون من ابنــة عم الامبراطور في السنة نفسها التي ولد فيها هذا الأخير ، فعين وصياً عليه ثم زوجه ابنتيه على التوالي. ولكن الملكية ، حتى في زمن اباطرة ضعفاء من امثال اركاديوس وهونوريوس ، لم تسمح بقيام وظيفة قد تعطي صلاحياتها الرسمية دور تنسيق ، وبالتالي دور ادارة حقيقية لمن تسند اليه.

كان للامبراطور مفضلوه المقربون : وهل خلا منهم اي حكم مطلق ؟

دسائس البلاط

قام هنالك بلاط اقل فجوراً منه في العهـــد الامبراطوري الأول — ومرد ذلك الى ان النصرانية ، بعد ارتداد قسطنطين، قد تركت اثراً قوياً في الاخلاق — ولكنه ليس دونه بطانة أو حقلاً خصباً للدسائس . وقد يحدث فيه ان تتدخل النساء في السياسة . ولكن ذلك لم يبلغ قط ما بلغه في بلاط سلالة ساويروس حيث تذكرنا الاميرات السوريات جوليا دومنا امرأة سبتيموس ساويروس ووالدة كركلا وشقيقتها جوليا ميزا ، وابلتا هذه الأخيرة جوليـا سوامياس وجوليا ماميا ، والدتا ايلاغـابال وساويروس اسكندر ، بطموحهن وعزمهن اللذين لا يقفان عند حد ، باكثر الملكات السلوقيات او اللاجيات افتاناً وتهيجاً . ومع ذلــك فاذا كان من الطبيعي ان تتوارى النساء في فوضى القرن الثالث ، فانهن قد ظهرن مجدداً في القرن الرابع . فقد ادمت بعض المآسي البلاطية ملك قسطنطين الذي اوعز بقتل ابنه كريسبوس بتحريض من امرأته الثانية فوستا التي ما لبثت ان اعدمت الحياة بعد اشهر معدودة . وافاد جوليانوس افادة جلى من عطف الامبراطورة افساقيا عليه لدى كونستانس الثاني . وجعل موت فالنتينيانوس الاول من ارملته جوستينا ولية العهد ، واسرع ثيودوسيوس في ترفيع ستيليكون بعد ان وافق على زواج ابنة شقيقه منه . ويمكننا الاستشهاد بمزيد من الامثلة التي يوفرهـا لنا خلفاء ثيودوسيوس .

كان للرجال ايضاً تأثيراتهم ولم تكن دون تأثيرات النساء طابعاً شخصياً . فان « القصر المقدس » ، بالضرورة ، مصالحه التي يحتل رؤساؤها مركزهم في تسلسل الموظفين . وقد وفرت احدى هذه المصالح بنوع خاص، « الغرفة المقدسة »، لمن ينتمي اليها، تقرباً شخصياً وحميماً من الامبراطور . فعلى نقيض كافـة المصالح الاخرى التي أقفلت في وجه العبيد او المعتقين ، إلا في بعض المراتب الدنيا ، ما زالت هـذه المصلحة مخصصة بهم تقريباً : لا بل كان بينهم شرقيون كثيرون ، وخصيان كثيرون ايضاً بحسب عادة يفسرها منشأهم. وعلى الرغم من هـذا الذل ، وربما بسببه ، فقد حدث احياناً ان توصل بعضهم الى التأثير على الامبراطور نفسه . اجل قامت

سوابق مماثلة في عهد سلالة كلوديوس، ولكنها سوابق غير مشينة. اما الآن فاننا نشاهد خصياناً « يتولون شؤون الغرفة المقدسة » ، أي مدراء غرفة كباراً يسند اليهم القيام بالمهـام الدقيقة وبالدورات التفليشية وبأكثر من ذلك . تلك حال افسيفيوس الذي أوحى بأكثر من قرار من قرارات كونستانس الثاني ، ثم اعدم في اوائل ملك جوليانوس. وتلك خصوصاً حال افتروبوس الذي كان متقدماً في السن حين دخل في خدمة ثيودوسيوس وتوصل بسرعة الى احدى الوظائف العليا ، فتركه ثيودوسيوس لابنه الذي كلفه بعد ذلـك القيام بحملة عسكرية ورفعه الى رتبة القنصلية .

نعتقد بأن هذه الأمثلة كافية للتكهن بما عرم به بلاط القرن الرابع من دسائس وبما سيكون من امره في القرن الخامس حين ينقطع الامبراطور عن العيش مع الجيش حيث كان ينجو مـن بعض هذه التأثيرات . واذا ما انجز في القصر عمل حكومي واداري جدي ، فقد حيكت فيه ايضاً مؤامرات مظلمة تقز منها النفس احياناً ، ناهيك عن الوشايات والخيانات وما تجرّ اليه من تحاسد وما تثيره من تنافس حاد بين موظفين يساندهم اقرباؤهم او زبنهم .

الامبراطور : الرئيس العسكري

كان كل هذا ثمن الحكم المطلق. بيد ان الامبراطور لم يتمتع يوماً ، في الواقع، بمثل هذا الحكم .

فهو لا يزال رئيس الجيش ومختاره. وقد سبق وألمحنا اعلاه الى حقيقة اعتراف مجلس الشيوخ به ؛ اما اتصالات الشعب الوحيدة به فلا تجري ، كما هي الحال منذ امد بعيد ، إلا في الملعب أثناء الالعاب. بيد ان الأمر على خلاف ذلك مـع الجنود . فالحدث الرئيسي، الفعلي والنظري معاً، الذي يرافق جلوس امبراطور جديد على العرش هو تقديمه الى فرق مختارة تنادي به امبراطوراً ؛ ثم يلي الاحتفال اعلان توزيع الهبات . هذه هي الحال حين يجري كل شيء في ظل النظام ، فماذا نقول اذن عن الاغتصابات ؟ ان خير ما نعرفه عنها في أصوله الاجرائية هو ذاك الذي استفاد منه جوليانوس في لوتيسيا في اوائل السنة ٣٦٠ . فحين خضع للتمرد ، الذي اعدته الاركان خير اعداد على كل حال، رفع على ترس احد المشاة ووضع على رأسه ، عوضاً عن التاج ، عقدُ احد حملة الاعلام الكلتيين. وعد حينذاك بتوزيع الذهب والفضة (ما يعادل ١٤٠ فرنكاً بسعر السنة ١٩١٤ لكل جندي) . وفي اليوم التالي ألقى خطبة في ميدان مارس فصفق له الجنود وأعربوا عن استحسانهم بضرب تروسهم بالرماح . ظهرت للمرة الاولى في هـذه المشاهد طقوس بربرية، أهمها اعتلاء الترس الكبير ، تدل على التطور الذي طرأ على التجنيد ، ولن تستقر إلا في عهد لاحق على الارجح . وبقي اخيراً دور الجيش كجيش ، الذي يتفق وأعرق تقاليد النظام : والجدّة الوحيدة هي ان الجيش قد غدا وحده منذئذ صاحب الحق في منح السلطة .

ان هذا الطابع العسكري لا يزول بجلوس الامبراطور على العرش. فالموظفون الذين يعتبرون جميعهم ممثلين للامبراطور او معاونين له يعتبرون جميعهم جنوداً ايضاً . بزتهم تستلزم النجاد . والنجاد يدخل كذلك في بزة الامبراطور الاعتيادية مع المعطف الارجواني الذي يرتديه الرئيس

الحربي . واذا ما ندر الاحتفال بمواكب المنتصرين ، فان فكرة النصر تدخل في الاحتفالات التي حلّت عملياً محل هذه المواكب في اعياد الجلوس التي تقام برونق خاص كل عشر سنوات : فكان هنالك الذكرى العشرية الاولى والذكرى العشرية الثانية ، وحتى الذكرى العشرية الثالثة لجلوس قسطنطين . واستمرت هذه الفكرة في النعوت التي ما زالت تضاف الى الالقاب الامبراطورية .

تمثل الاله

إلا ان الجيش، الذي هو القوة فحسب، لا يستطيع ان يعطي السلطة إلا مرتكزاً أدبياً خشناً اذا ما اكتفي به . وقد ساد الاعتقاد ، تصريحاً او تلميحاً ، بأن الجنود، الذين لا ينتخبون باختيارهم، يكتفون بأن يعترفوا وينادوا بذاك الذي أعماه « الكائن السماوي » و « رسول السماء » . وحين كان الجيش الجمهوري ينادي بقائده امبراطوراً بعد النصر ، كان يحيي فيه حبيب الاله . وكان للامبراطور منذ القدم ارتباطات خاصة بهذا الإله . ولكن طابع الملكية الديني ومظهر الامبراطور الإلهي قد برزا بقوة منذ الامبراطورية الاولى التي حرصت على ألا تنقل الى روما مثالية الملكيات الهلينية كلها .

برزت قوة هذه النزعة منذ اواخر القرن الثاني بنوع خاص حين احرزت التأثيرات الشرقية غلبة حاسمة .ولم يبلغ النظام يوماً ، في سلوكه هذه الطريق، ما بلغه قبيل جلوس ديوكليسيانوس. ولنهمل هنا تجاوزات ايلاغابال التي ليست سوى حدث عابر . ولكننا نلاحظ ، طيلة القرن الثاني، التقدم المستمر في العلاقة بين فكرة « الاله الشمس » ، سيد الكون ، وفكرة الامبراطور ممثله على الارض ، بل أقنومه البشري . لقد رغب بعض الاباطرة في السابق بأن يمثلوا على قطع النقود حاملين تاجاً مشعاً يرمز الى الشمس : اما الآن فيظهر هذا التاج على رأس كافة الاباطرة . وقد بلغ هذا التطور ذروته في عهد اوريليانوس.فقد درجت منذ سلالة ساويروس عادة غير رسمية تقضي باطلاق لقب « الاله » على الامبراطور . اما اوريليانوس فقد أرفق اسمه ، على النقود ، بالصيغة الرسمية « المولود إلهاً وسيداً » : ويستلزم هذا التحديد عبادة شخصية تؤدى فروضها للامبراطور وهو على قيد الحياة .

لا مراء في ان ديوكليسيانوس قد خطا خطوة الى الوراء . بيد ان الحلّ الذي اعتمده أبعد تقدماً من ذاك الذي اعتمده أباطرة القرنين الاولين. اقتصر هؤلاء على اعتبار أنفسهم أبناء سلفهم « الالهي » . اما ديوكليسيانوس فقد أطلق على نفسه اسم « جوفيوس » وأطلقه على قيصره ، بينا اختار الامبراطور والقيصر الآخران اسم هرقوليوس . ومعنى هذين الاسمين «ابن جوبتير» و « ابن هرقل » ، أي ابنا إلهين هما أوسع آلهة الزون الروماني شهرة آنذاك ، الاول كسيد العالم والثاني نظراً لوضع قوته في خدمة سعادة البشر . تسلم أبناء هؤلاء الآلهة النعمة الالهية من آبائهم. فكانوا وسطاء بين الآلهة والبشر يحظون بالهام وعضد اولئك، بينا يقدم لهم هؤلاء الطاعة والاحترام الديني دون ان يستلزم ذلك العبادة بالذات .

قد نجد احياناً ، حتى ابان الاضطرابات التي عقبت اعتزال ديوكليسيانوس الحكم ، استمرار عرف اعتماد هذه الالقاب الرسمية في كلا السلالتين . وعلى كل حال فان مفهوم الطابع الإلهي في

الاباطرة قد امتد حتى ظفر الامبراطور المسيحي قسطنطين . على ان هذا الظفر لا يكون ثورة من هذا القبيل. فقد ساءت النصرانية على الدوام، كما قال القديس بولس ، بأن « لا سلطان إلا من الله » ، ولا يعقل ان يسمح قسطنطين بزوال الاساس النظري لسلطته في نظر الوثنيين من رعاياه. ولا يلزم لذلك سوى حد أدنى من التوفيق بين الاتجاهين ، أي إلغاء الابوة الالهية ، وأسمي جوبتير وهرقل دون ابدالهما بأي اسم آخر : وقد درجت الوثنية نفسها ، منذ زمن بعيد ، على الكلام عن « الالوهة » و « الإله » بمعناهما الواسع . فجوهر الفكرة من ثم لا يزال باقياً للخير الجميع : الله يختار الامبراطور نائباً عنه ؛ يده تمد له الصولجان ؛ يقويه ويلهمه .

الحقوق والواجبات

يستتبع ذلك واجبات على الامبراطور لا يجد الوثنيون من امثال ثيميستيوس وسينيزيوس — الذي لم يكن بعد أسقفاً على بتوليمايس في كيرينا حين وجه الى اركاديوس ، في السنة ٣٩٩ ، خطابه « حول الملكية » — او المسيحيون من امثال افسيفيوس أسقف قيصرية ، صعوبة في الاتفاق عليها . ولا تختلف هذه الواجبات ، في الواقع ، عن تلك التي حددها أكثر الفلاسفة منذ اواخر القرن الرابع قبل المسيح. وقد انطوت عليها كلها تقريباً مثالية الملكية الهلينية نفسها ، كما انها لم تكن بعيدة عن مثالية الامبراطورية الاولى . غير ان الامبراطورية الثانية تتكلم عنها بمزيد من التشديد، وتضفي عليها طابعاً يتسم بمزيد من الصوفية .

لن يتميز الملك عن المستبد اذا هو بنى سلطته على الخوف لا على المحبة ؛ واذا هو لم يمارس كل الفضائل ، لا سيما العدل ومحبة البشر ؛ واذا هو لم يقدم لرعاياه مثل الخير بغية ارشادهم وتخليصهم ؛ واذا هو لم يقتد بالاله ، « مثاله الاول » بالنسج في بناء الدولة وادارتها على منوال المدينة السماوية . عرف الاباطرة جميعهم هذه الواجبات؛ وقد سمع كثير منهم الخطباء بتوضيحها وتفسيرها امامهم بلهجة تعليمية لا تخلو احياناً من درس ضمني على الاقل ، دون ان تنقلب يوماً الى انتقاد صريح . فقد قال سينيزيوس لاركاديوس : « اما انت فعليك ان لا تسقط من المرتبة التي عينت لك ، وان لا تحط من لقب الملك الذي تحمله على غرار الله ، وان تتقيد ، على نقيض ذلك ، بهذه القدوة ، وان تغمر المدن باحسانات لا تحصى ، وان توفر كل سعادة ممكنة لكل من رعاياك » . وليس من امبراطور ، على كل حال ، يعترض على تبني هذه الافكار . فان بياناتهم الرسمية وبراءاتهم تستوحي باستمرار هذه الفضائل التي يعرفون ان من واجبهم التحلي بها . فلنكتف ، بين نصوص كثيرة مماثلة أخرى، بأن نقرأ هذا المقطع من مقدمة براءة ديوكليسيانوس حول الحد الاعلى : « فإلينا نحن الساهرين، نحن آباء الجنس البشري ، يعود واجب احقاق الحق حتى تجد الانسانية ، التي لم يحالفها الحظ في الدفاع عن نفسها ، انفراجاً يؤول الى الخير العام ، بفعل تدابيرنا الاحترازية » . وان في التشريع ، الذي يتميز ، في القرن الرابع ، بالقسوة في مكافحة الزنى والخطف، لتعبيراً عن تصميم المسؤولين على الزام الرعايا بالتقيد بالانظمة الاخلاقية .

بيد ان هذا المفهوم يمنح الامبراطور سلطات غير محدودة ايضاً . عرّف الملك ، في العهد الهليني، بانه «الشريعة الحية»، فرُجع اليه غالباً آنذاك ، وهو يقبل تفسيرين : اما الانسان الذي

يعطي الشريعة حقيقتها الحية بفرض التقيد بها ، واما الانسان الذي تكون ارادته الحية الشريعة بالذات . ويتجنب كثيرون توضيح فكرهم ويحتمون وراء تأكيدات مطمئنة ، فقد قال ثيميستيوس : « الملك هو شريعة حية ، شريعة الهية آتية من العلاء ، هبة زمنية من الكرم الازلي ، انبثاق من طبيعته » . . . لا بد له ان يتجه اليها وينزع الى الاقتداء بها » . ولكن ثيميستيوس هذا نفسه لا يتردد في مكان آخر في ان يقول للامبراطور : « انت الشريعة الحية ، ودونك الشرائع الكتابية » . غير انه لا يلبث ان يضيف بان واجبه يقضي عليه ، والحالة هذه ، بتفسير الشرائع وتخفيف صرامتها .

مهما يكن من الأمر ، لمن ذا الذي يستطيع الحكم في استعمال الامبراطور لحقوقه وفي طريقة قيامه بواجباته ؟ فليس سوى القديس امبروسيوس ، الذي يجول امام المؤمن بالسلاح الروحي الذي تعطيه اياه الاسقفية ، من يستطيع حمل ثيودوسيوس على الاعتراف بخطيئته . ولذلك فالامبراطور عمليا هو « الشريعة الحية » بكل ما لهذا التعبير من معنى .

العادات الجارية في الاحتفالات

ينعكس كل ذلك في اصول الاحتفالات . ابقى الاباطرة المسيحيون على الكثير مما خلفته لهم الوثنية . حملوا حتى ثيودوسيوس لقب الحبر الاعظم الذي تخلى عنه غراتيانوس في السنوات الاخيرة من ملكه . وفي الولايات استمر الاحتفال بالعبادة الامبراطورية باستثناء تقديم الذبائح فقط . وما زالت طقوس التأليه ترافق الجنائز الامبراطورية في القرن الرابع ، كما ان النصوص الرسمية ما زالت تلقب كل امبراطور ميت بـ « الالهي » .

اضيفت الى ذلك عناصر اخرى خالية من اي طابع مسيحي أو وثني مميز ترمز كلها الى سلطة الملك النظرية واشتراكه في طاقات لا تتوفر للبشرية العادية . وانه لمن الصعب ، في الحقيقة ، توقيت ظهور كل منها وتحديد أصلها وتفسيرها الحقيقيين . فالوراثة الهلينية واضحة في كثير منها . ولكن ما هي السوابق المتفرقة التي قدمتها الامبراطورية الأولى ؟ وما هي العناصر المنتقلة من التقليد المستمر في الشرق ، داخل حدود الامبراطورية ، الذي ازداد رسوخاً آنذاك بفعل الغليان الشرقي ؟ وما هي اخيراً نسبة استيحاء مثل الملكية الساسانية التي انتقل اليها ايضاً بعض الارث الهليني وقسم كبير مباشر من الارث الايراني ؟ تبدو بعض المصادر المعادية لديوكليسيانوس ميالة الى المغالاة في الكلام عن ابتكاراته وتقليده للاعداء . اما نحن فيكفينا ، دون الدخول في هذه المجادلات ، ملاحظة اتجاه ملموس نحو غاية واحدة .

حلت الكلمة (« سيدنا ») ، اخيراً ، في اعلى لائحة الالقاب الامبراطورية ، على اللقبين التقليديين (« الامبراطور القيصر ») . وكان كل ما يعود للامبراطور « مقدساً » : قصره ، غرفته ، مجمعه ، صوانه ، الخ . يحمل التاج ، رأسه يحاط بالهالة في صوره . تمارس « العبادة » امامه بالسجود وبتقبيل اسفل معطفه . يمسك الكرة بيده رمزاً للقوة الكونية .

اخذت اصول آداب المعاشرة تنظم حياته . غير انها لم تحرمه الملذات الشاقة . فهو يتعاطى القنص حتى ولو انقطع عن التوجه الى الجيش . وتعد المآدب في البلاط حيث تؤدي معاقرة

الخزرة الى المشاجرات . ولعل وجود القادة البرابرة قد ساعد على استمرار هذه الاذواق الخشنة . ولكن الابهة تتجلى في ايام الاحتفالات باحمرار الارجوان ، ولمعان الذهب والمينـــا ، واشعاع عرق اللؤلؤ والحجارة الكريمة والجواهر ، بما وصفه سينيزيوس ، في السنة ٣٩٩ ، بـ « سطوع الوان متقلب شبيه بسطوع الوان الطواويس» ، يأتون من بعيد بالرمل الحاوي الذهب ويذرونه على طريقه ، من رأسه حتى قدميه – اذ ان الحجارة الكريمة تثبت في وشاح التاج والالبسة والنجاد والاحذية نفسها – يحمل الامبراطور بيتاً ثقيلاً وزاهياً يجمده على العرش الذي يستقر فيه وراء طنفسة تزاح في البرهة الأخيرة ، بينا يراقب « الصامتون » القاعة . واذا وصف يوحنا الذهبي الفم ، حتى في السنة ٣٩٩ ، في كلامه عن الامبراطور حين يخرج الى المدينة ، « الجنود المجللين بالذهب ، والزوامل البيضاء المزينة بشتى انواع الزينة الثمينة ، والعربات المنزلة بالحجــارة الكريمــة مع اغطيتها الناصعة البياض وصفائحها المعدنية المترجرجة ، والتنانين المطرزة على الملابس الحريرية ، والتروس المزدانة بالسرر الذهبية ، والحجارة الكريمة المنثورة على الحمائل..، والاحصنة المتوشحة بالذهب مع حكاتها المذهبة » ، فانه يسارع الى القول ان زينة الامبراطور الفائتة تفوق بذخ الموكب .

ان مدينة بيزنطية القديمة أصبحت القسطنطينية . ولكن الأبهات البلاطية في بيزنطية القرون الوسطى انتقلت ، منذ ذاك الحين ، الى روما الجديدة .

الحكم المطلق

سبق ورأينا ان دسائس البلاط وحظوة المقربين غير المستقرة قد لازمت هــذه الابهات بالضرورة . ويصح القول نفسه في الحكم المطلق الذي أوحى بهــذه الابهات دون ان يفيد منها افادة تذكر .

لنعد اليه في آخر هــذا الفصل الذي دار كله حوله . بديهي ان قانون الجلالة القديم لا يزال يحمي العرش وتسهر على تطبيقه محاكم عادية او خاصة برعت الشرطة في تمرينها بالدعاوى مع ما يرافقها من اعمال تعذيب ماهر في الاستجواب وتنفيذ الاحكام . فقد زال مفهوم « المواطن » منذ زمن بعيد ، عملياً . اما الآن فالتعبير نفسه يتلاشى امام التعبير « رعايا » وتبرز في اللغــة اليونانية كلمة *Douloi* « العبيد » . والحقيقة هي ان سلطة الدولة ، التي يجسدها الامبراطور ، تلجأ الى الاقتسارات الكثيرة : فهو يتولى ، كما رأينا ، فرض معتقداته عـلى غيره ، ويدّعي ، كما سنرى ، بحق فرض العمل والمنزلة الاجتماعية على الغير .

الفصل الرابع

التجديدات الاقتصادية والاجتماعية

تتسم الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العهد الامبراطوري الثاني بثلاثة طوابع رئيسية .

هنالك في الدرجة الاولى تدخل الدولة . فالدولة لم تتمش على مذهب جديد اخذت على على نفسها تطبيقه ونشره ، بل نزعت ، بتأثير أرسخ المفاهيم قدماً ، وعلى غرار كافة الدول ، الى اعتبار حقها النظري في التدخل في هذه الحقول غير محدود تقريباً . ولكنها شأن النظام السابق أبعد من ان تفكر باستخدام هذا الحق استخداماً تلقائياً . اما التشريع الذي توحي به لها ، خدمة الضعفاء ، آراء الفلاسفة حول محبة البشر والتعاليم الاخلاقية المسيحية ، فلم يؤثر تأثيراً حقيقياً في التطور العام . فالى أية نتيجة كان من الممكن ، في الظروف العادية ، ان يؤدي التيار الذي يعبّر عنه هذا التشريع ؟ ليس باستطاعة احد ان يجيب على هذا السؤال . والحقيقة الثابتة هي انه اصطدم منذ القرن الثالث بحاجات مباشرة اعتبرتها السلطة السياسية اعظم إلحاحاً. وهذه الحاجات هي بالضبط ما أدركته السلطة . فطبقت في معالجتها حلولاً بدت لها غاية في البساطة — وهي غاية في البساطة فعلاً — ، ولكن هذه الحلول ، المعتمدة في البدء كحيل فقط، كان نصيبها الاستمرار والشمول ، اذ ان شنشنة ونهجاً قد تكوّنا ، هما شنشنة ونهج التدخل المستبد اللذان كان الخضوع لهما امراً محتوماً : ان بعض الآلات المتشابكة ، اذا ما اخضعت الحركة ، لا تتوقف بل تلتقف الجسم بكليته .

وهنالك رسوخ الحضارة بين الأغنياء والفقراء وبين المقتدرين والضعفاء ، ليس على الصعيد الاقتصادي فقط، بل على الصعيد الاجتماعي والقانوني ايضاً . وان في ذلك لعمري مغالطة بل مغالطات . فواجب الدولة ، وفاقاً للمثالية المسيطرة ، يقضي عليها بحماية الوضعاء . وتقضي مصلحتها والخطط العام لسياستها المستبدة بالحؤول دون تعاظم قوة الأقوياء القادرين أكثر من غيرهم على الوقوف في وجهها . ولعل مهمتها السلبية اخيراً تجد تسهيلات نادرة في اضمحلال القسم الأكبر من النخبة الاجتماعية القديمة الذي تحقق في القرن الثالث . ولكن شيئاً من كل ذلك لم يحدث . فقد برزت ارستوقراطية جديدة كان قوامها ، حتى ولو حملت أسماء اعرق العائلات ، حفدة جامعي الثروات ابّان الاضطرابات، ولاسيا حفدة كبار الموظفين الذين جمعوا بفضل العطف

الامبراطوري ممتلكات عظيمة جداً في غالب الاحيان . وقد بلغت في الواقع من القوة ما أرغم الدولة على ان تحسب لها حساباً . فلم تقدم على التدخل ضد تجاوزاتها إلا نادراً وبدون جدوى . لا بل انها كثيراً ما شجعت التطور لا سيما بصدد العلاقات بين الملاك الكبير والعاملين في اراضيه. فكانت النتيجة محاولة المقتدرين التوسط بينها وبين الطبقات الدنيا .

اما الطابع الاخير فهو تنظيم مجتمع خاص ، أعني به الكنيسة ، داخل الجسم الاجتماعي . كان للكنيسة ممتلكاتها وتنظيمها وتعاليمها الاخلاقية . فشكلت بفضل هذا الاستقلال قوة تزيد في عظمتها ان الدولة لم تقدم جدياً ، لأسباب مختلفة ، كجهل الخطر او تقوى المسؤولين مثلاً ، على الحد من انتشارها .

فماذا كانت النتيجة ؟ صحيح ان تسلط السلطة السياسية على الحياة الاقتصادية وعلى التنظيم الاجتماعي لم يواجه بعد مقاومة جدية . ولكن بعض القوى اخذت تتكون وستمسي مستعدة لأن تخلف الدولة حين تضعف سلطتها .

١ ـ تكييف الاقتصاد

لم تتوفر للنشاط الاقتصادي السهولة التي توفرت له في العهد الامبراطوري الاول ، ولكنه في القرن الرابع لا يقتصر على الاشكال البدائية . قد يلقى الصعوبات بعد ان فقد حريته السابقة ، ولكنه يلبس لكل حال لبوسها ويبلغ توازناً معيناً ، بل درجة معينة من الازدهار .

الوضع النقدي

تتراءى لنا هذه التسوية اذا ما القينا نظرة على الوضع النقدي الذي هو ميزان الوضع الاقتصادي والذي تركت تقلباته اكثر الآثار الملموسة ، على ما يكتنفها من غموض . افضى اختلال الأموال العامة ، في القرن الثالث ، الى هبوط النقد . فكان توطيد سلامة النقد شرطاً من شروط الاقتصاد المنتظم . ولكن الاباطرة ، على الرغم مما بذلوه من جهود، لم يتوصلوا الى تحقيق هذه الغاية تحقيقاً كاملاً.

عاد ديوكليسيانوس الى ضرب النقود الجيدة . فلم يطرأ اي تغيير على عيار الذهب ، اما وزن القطعة الأصلية فقد بقي على ما حدده قسطنطين : ٤٫٥٥ غرامات ، وهو الوزن الذي ابقت عليه الامبراطورية البيزنطية ، بينما سينتهي الغرب الى ١٫٥١ غرام . وضربت النقود الفضية الجيدة ايضاً ولكن باوزان مختلفة . وتبدلت نسبة القيمة بين المعدنين لصالح الذهب : فانتقلت من ١/١٢ تقريباً في البداية ، كما في زمن اوغسطس ، الى ١٣٫٧١ في زمن قسطنطين، و ١٤٫٤ في السنة ٣٧٩، و١٨ في السنة ٤٢٢؛ وسيعود بها جوليانوس، بعد مرور قرن الى ١٤٫٤ . ولكنها تغيرات غير مزعجة في الحقيقة : ولم تؤد الا الى حمل العالم الروماني على اعتماد الذهب قاعدة ، وهذا ما لم يفعله حتى ذاك الحين ، كما لم يفعله العالم اليوناني من قبله .

قضت الضرورة باصدار كميات وافرة من هذه القطع تأميناً لحاجات التداول . ولكنهم لم يستطيعوا ذلك . فراجت قطع نحاسية ادخلت عليها نسبة ضئيلة من الفضة، وقطع برونزية ايضاً:

بواسطة هذا النقد غطت الخزانة عجزها موفرة حاجة الى التقيد بالوزن القانوني. لذلك فقد هبطت قيمة النقد مرة اخرى . وباستطاعتنا تتبع هذا الهبوط في مصر بفضل مصادرنا من البرديات، غير ان هذه البلاد خضعت لنظام نقدي خاص بحيث ان ملاحظاتنا فيهـــا قد لا تكون ذات قيمة بالنسبة لمجموع الامبراطورية . ومهما يكن من الأمر ، فاننا نرى قيمة الذهب ، خلال القرن الرابع ، تزداد فيها ١٨٠٠٠ مرة على الأقل [١] بالنسبة للنقد العادي .

كانت نتيجة هذا الانخفاض في سعر النقد انحصاراً شديداً في العلائق الاقتصادية، على مـــا نرجح. ومع ذلك فهي دون ترجيحنا. فالنقد الذهبي قد بقي ثابتاً . كما ان النقود الجيدة المتداولة كانت قليلة ، وكان باستطاعة اي كان من الناس ان يكتنزها . ولكنها ، قليلة او كثيرة، كانت نقداً متداولاً، وقد ازداد في ايام ثيودوسيوس ضرب القطع الذهبية والفضية الصغيرة والصغرى: ولم يكن القصد من ذلك ، في الأرجح ، سوى تسهيل تداولها .

لم تكن المعادن الثمينة ، في الحقيقة ، وافرة كما في الماضي، ولكنها لم تنضب . ومـــا ان دهشتنا أمام الكميات الضخمة من الذهب المضروب التي استطاع جمعها اثرياء افراد : فقد انفق سيمناكوس مثلاً ما زنته ٦٥٥ كيلوغراماً ذهباً على الألعاب التي اقامها لمناسبة تعيين ابنه قاضياً وقد حصلت الدولة على المعادن : فقد استثمرت المناجم المتبقية في الامبراطورية بعـــد فقدان داسيا ، وراقت اقفال المعـــابد أو تخصيصها لغاية جديدة مصادرة كنوزها ، وجمعت بعض الضرائب اخيراً ذهباً وفضة . غير انها لم تحصل على الكفاف منها .

كان من ثم لزاماً عليها ، بفعل حاجتها الى النقد الثابت ، ان تلجأ الى التحصيل والدفـــع عيناً : كما جرى ذلك في استيفاء الضريبة الشخصية ودفع معظم الأجور العسكرية ومرتبات الموظفين . واعتمد الناس اقتصاداً مختلطاً ايضاً بني على المقايضة تارة وعلى الدفع النقدي اخرى. فحين حاصر الاريك روما للمرة الأولى في السنة ٤٠٨ ، أرسل اليه وفد من المحاصرين فقدم له ٥٠٠٠ ليرة ذهباً و ٣٠٠٠٠ ليرة فضة و ٤٠٠٠ قميص حريرية و ٣٠٠٠ جلد مصبوغ بالأرجوان و ٣٠٠٠ ليرة من التوابل : وقد اقتضى جمع هذه الفدية ، من جهة ثانية ، بالاضافة الى ما طلب من الاغنياء ، تذويب تماثيل ذهبية وفضية اخذت من المعابد . وان في هذا المثل لدلالة كافية على ما كان يفرض عليهم من تسويات .

الاسعار : « الحد الاول »

واضطروا كذلك الى تعود ارتفاع الاسعار ، وهو النتيجـــة الحتمية لانخفاض قيمة النقود الرائجة .

لسنا نعلم حقيقة أسباب الارتفاع الذي حاول ديوكليسيانوس الحدّ منه في السنة ٣٠١ مـــع

(١) وهناك من يتكلم عن ٥٠٠٠ ، وحتى ٦٦٠٠٠ مرة. نحن نجهل التحديد الصحيح لما عرف بـ « الدرهم » في مصر ولما عرف قديماً بـ « الدينـــار » الذي يختلف عن الدينار الفضي في العهد الامبراطوري الاول . وجلي ان الدولة كانت اعجز من ان تضرب نقوداً برونزية كافية بهذا السعر ، فما هو الحل الذي اعتمدته يا ترى ؟

انه قد وضع في التداول قبل هذا التاريخ نقوداً ذهبية وفضية جيدة . غير ان هذه المحاولة لا ترد الى رغبته في التنظيم فقط ، اذ ان في المقدمة الطويلة لما يعرف بحق بـ « مرسوم الحدّ الاعلى » وصفاً لوضع مخيف . فهي تذكر بالمصلحة العامة ومصلحة الجنود المحرومين من مكاسبهم الشرعية، وتعسّف التجار المحتكرين والمضاربين « المصمّمين على الاثراء ، ليس خلال سنوات او أشهر ، ولا خلال يوم واحد ، بل خلال ساعات وفي برهة واحدة ، الذين ينزلون الى الاسواق ، حين تثقل وطأة القحط، مواد غذائية مجموعة في السنوات السابقة » . وهذا ما يبرر التدابير المتخذة: عقوبة الموت لمن يخفي البضائع المخزونة ولمن يفرض او يدفع سعراً أعلى من الحدّ الأعلى القانوني . ويلي هذه المقدمة جدول يعين هذا الحد الأعلى لأكثر من ألف صنف : المواد الغذائية، والخامات، والمصنوعات ، وأجور النقل ، ومرتبات المهن الحرة ، والاجور ، وقد رافقت هـذا التعيين تميزات دقيقة جداً تناولت الكية والنوع .

ان هذا النص ، الذي أتاحت مكتشفات كتابية كثيرة جمع القسم الأكبر من متنه ، ينطوي على أهمية عظيمة بسبب هذه التميزات وبسبب المقارنة بين الاسعار : وهكذا فان الأجر اليومي الأعلى لعامل ريفي ينفق على مأكله من جيبه يوازي على وجه التقريب السعر الأعلى لكيلو غرام واحد من لحم العجول او لنصف كيلو غرام من لحم الخنازير او الضأن او لخمسة ليترات من الحنطة . ويكوّن هذا النص أول تجربة تحاوَل في ارض على مثل هذا الاتساع وبنطاق على مثل هذا الشمول بغية تحديد الاسعار التفصيلية . غير اننا ، مهما كان من أمر عظمة الجهود ، لا نشعر بحاجة الى التشديد على عظمة خرقه ايضاً: اذ انه لم يأخذ بعين الاعتبار تقلبات الاسعار الاقليمية، التي لا نشك في ما يمكن ان يكون من أمرها في داخل هذه الامبراطورية الشاسعة ، بل اقتصر على لفت انتباه الشارين الى ضرورة حساب أكلاف النقل وغيرها مما يسهم في رفع سعر كلفة المحاصيل التي يرغبون في بيعها. ولم يتكلم عن تدبير ديوكليسيانوس هذا سوى مصدر أدبي واحد: ويغلب انه أفضى الى اراقة دماء كثيرة ولم يؤد إلا الى اختفاء المحاصيل وارتفاع أسعارها وفي النتيجة الى إلغاء المرسوم . وليس هـذا المؤلف سوى لاكتانس، وهو مسيحي اشتهر بعدائه للامبراطور المضطهد. فيجوز لنا بسبب تحيزه ان نشك في أمر الأحكام بالموت. بيد انه لا يجوز لنا الشك في الفشل الكامل . فمنذ السنة ٣٠٤ ، حين ألزمت الحكومة الأثرياء المصريين بأن يتخلوا لها عن الذهب، عرضت عليهم ثمناً له، كما يبدو ، عشرة أضعاف سعره المحدد في المرسوم.

لم تحدث ، على ما نعلم ، سوى محاولة ثانية مماثلة . في السنة ٣٦٢ أدت الاستعدادات للحرب ضد الفرس الى ارتفاع عظيم في الاسعار غذّى نقمة الانطاكيين على جوليانوس الوثني . فأصدر هذا الأخير مرسوماً يحدّد السعر الاعلى ايضاً . لا نعلم شيئاً واضحاً عن نصه ، ولكننا نرجح انه لم يكن سوى تسعير محلي فقط . اما الشيء الثابت فهو انه لم يعط أية نتيجة .

ليس افضل من مصر ، بالاستناد الى بردياتها ، لتتبع ارتفاع الاسعار هنا ايضاً . لننطلق من سعر الحنطة في السنة ٢٩٤، اذ انه قد تحدد أعلاه بالنسبة للأسعار السابقة . فمنذ السنة ٣١٤ ، ارتفع ٣٠ ضعفاً ؛ وفي السنة ٣٣٤ ، ٢٦٠ ضعفاً ؛ وبُعيد السنة ٣٤٤ ، ٦٦٨٠ ضعفاً ؛ الخ .

وطاب لبعضهم اجراء حساب المال اللازم ، مبدئياً، لشراء الحنطة في آخر القرن، فتوصلوا الى ان ثمن ٢٥ كيلو غراماً قد بلغ آنذاك ١٦ طناً من النقد البرونزي. ولكننا نجهل كيف حلّت، عملياً ، الصعوبات التي أوجدها مثل هذا الوضع . كما نجهل نسبة أثر هـذا الوضع في خلق وضع مماثل في الأقاليم الاخرى من الامبراطورية .

ولكن هنالك قاعدة ثابتة هي الذهب الذي يوزن وزناً او يعدّ قطعاً نقدية. فقد سمح ثباته باجراء المقايضات ، وتولت سلطة الدولة كل أمر آخر .

مطالب الدولة الاقتصادية

كانت الدولة مستعدة لاتخاذ أي تدبير يقتضيه بقاء وتسلم الانتـــاج الضروري للحياة العامة. وليس من ريب في أنها اتخذت فوق ما نعرفه من تدابيرها ، ولكن ما نعرفــه كافٍ لإزالة كل ريبة حول اتجاه سياستها . فالأولوية المطلقة ، حتى ولو لم تنفذ أعمالها بالأمانة المباشرة، مضمونة في كل مكان لمقتطعاتها ومصادراتها ومشترياتها وطلباتها على أساس الضريبة او بأسعار تحددها هي ، ولا تخضع رأسمالية الدولة إلا الى اقتصاد توصلت الى تصميمه واقراره ، عن طريق ما فرضته من مِيَرٍ وخدمات ، وراقبت العديـد من نطاقاته .

كان عليها تأمين الغذاء للعناصر المخطية من السكان . فامنته الضريبة المستوفـــاة عيناً ، التي الحت تسديد أجور الجيش والموظفين . وخصصت احدى ابرشيتي ايطاليا لتموين ميلانو ، كما فرض على مصر تموين القسطنطينية ، على ان تصل ضريبة الحنطة العينية الى الاسكندرية قبل العاشر من ايلول . اما روما فقد احتفظت بافريقيا بسبب عجز ابرشية ايطاليا الثانيـة عن سد حاجتها . وهكـــذا تتضح التدابير الشديدة المتخذة تأميناً لاستيفاء الضريبة واستثمار الاملاك العامة ووجود اليد العاملة الريفية في الاملاك الخاصة .

ليس كذلك من نقص ممكن في انتاج الخامات والمصنوعات . فالمناجم والمحاجر بكليتهـــا تقريباً ملك للدولة التي تمتلك من جهة ثانيـة مصانع يدوية مختلفة . لا بل انها احتكرت بعض الصناعات ايضاً . فقد اخضعت الاقمشة الثمينة على الدوام لتنظيم قاس تناول بصورة خاصة اللون الامبراطوري ، اعني به الأرجوان : كان عـــلى صيادي « الموركس » ان يسلموا كل حصيلة صيدهم التي لا يجوز ان تنقص عن حد ادنى معين ، وحظرت صباغـة الحرير ارجوانا كما حظر انتاجه في غير المصانع الامبراطورية ، الخ . اما المصنوعات التي لم يتناولهـــا الاحتكار، فقد نزعت الدولة، بصددها، الىتعميم نظام «الهيئات» الذي ظهر في أيام الامبراطورية الأولى . فكانت التعاونيات الاولى المنظمة تلك التي تتولى تموين روما بالمواد الغذائية: الخبازون، والقصابون ، الخ . وكان ثمن الاحتكار والامتيازات الممنوحة لها التقيد بموجبات عمل قانوني مستمر. ثم شمل النظام تدريجياً المهن الاخرى في كل مدينة: فكان على كل هيئة — والهيئات كثيرة جداً بسبب تجزئة العمل — ان تنتج حداً ادنى من المصنوعات .

يصح القول نفسه في النقل البري ولا سيما البحري. فتنظيم اصحاب المراكب الذين يمونون روما عن طريق اوستيا قديم قدم تنظيم الخبازين . ثم عم هذا التنظيم تدريجيـــاً . فصودر مجهزو

المراكب في كل مكان وجمعوا شركات ذات مسؤولية جماعية وتوجب عليهم ان يؤمنوا في الدرجة الأولى ، وبسعر محدد ، عمليات النقل التي تفرضها الدولة .

تتألف مستنداتنا ، بنوع خاص ، من قرارات رسمية تهدف الى دعم اقتصاد الدولة هـــذا بتوسيع نطاق تطبيقه ، وتلافي الصدوع ومعاقبة الغش وانذار الموظفين الفاسدين أو المهملين . وتشتمل كذلك على شكاوى الرعايا الكثيرة من وطأة الاعباء عليهم ومن تجاوزات المتنفذين . ولكننا لا نعرف دولة في التاريخ لم تدخل تحسينات مستمرة على نظمها ولم يستثقل الرعايا أو المواطنون مطالبها . أجل ان هذه السيئات حتمية: ولا تنجو منها الدول المعاصرة نفسها عندما تنهج النهج نفسه ، على الرغم مما يتوفر لديها من وسائل عملية اقوى . ولا يجيز النقـــد النزيه ان تستوقفنا هذه السيئات وقتاً طويلاً . فنتائج النظام الاجتماعي كانت في الحقيقة اعظم خطورة من نتائجه الاقتصادية .

نظرة عامة

فهو لم يؤدِّ الى الخراب ، اذا ما نظرنا الى الناحية الاقتصادية فقط . ولعل مرد ذلك الى ان تنظيم الدولة قد تمتع بصفات لم يعن أي مصدر معاصر بلفت انتباهنا اليها . وقد قام من جهة ثانيـــة ، في جميع حقول النشاط ، ما يعرف اليوم بـ « النطاق الحر » الذي يموّنه التهريب والفائض الذي لا تضع الدولة يدها عليه : وليس من شك في واقع هـــذا النطاق على الرغم من عجزنا عن تقدير أهميته . ومهما يكن من الامر ، فان القرن الرابع يخلق فينا شعوراً – لأن الاحصاءات تعوزنا – مختلفاً جداً عنه في القرن الثالث .

لا يزال السكان ، واليد العاملة اذن ، اقل عدداً ، كما ان توطين البرابرة ، الذي لم يحدث في كافة أنحاء الامبراطورية ، لم يسدّ هذا العجز إلا جزئياً . اجل هنالك ميل الى اهمال الاراضي الجدبة . ولكن الاراضي الاخرى تزرع خير زراعة . وقد يجدب الاهالي احياناً ولكن جدبهم أقل خطورة منه في العهد الامبراطوري الاول ، باستثناء روما حـــين يوقف المغتصبون عنها المستوردات الافريقية . وانتشرت بعض التحسينات التقنية . فالعربة الحاصدة ، وهي اختراع غاليّ أشار اليه « بلين القديم » ، يصفها مرة أخرى مهندس زراعي في القرن الرابع ويؤكد آنذاك ان استخدامها أكثر رواجاً في السهول الغاليّـــة . وكثرت المطاحن المائية . وفي السنة ٢٨٠ ، ألغى الامبراطور بروبوس كافة موانع زراعة الكرمة ، أقله في الاقاليم الغربية . لا بل يغلب انـــه اصدر اوامره الى الجنود بزراعة الكرمة في منطقتي الساف والدانوب . وفي الواقع انتشرت هذه الزراعة وتحسنت انواع العنب في ألّيريا وغاليا : فقد امتدح « اوزون » عنب منطقتي بوردو والموزيل. وغدا انتاج المناجم والتعدين وافراً. اما مصانع الزجاج الرينانية ، التي كان مركزها كولونيا، والتي حققت نجاحات تقنية هامة، فقد صدرت مصنوعاتها الى الاسواق البعيدة لأن التجارة بين الاقاليم قد استعادت نشاطها . وقد لفت الانظار ، في اواخر القرن الرابع واوائل القرن الخامس بنوع خاص ، وجود التجار « السوريين » في كل مكان . فلم يضن احد الجغرافيين الاغفال ، في ما كتبه حوالي السنة ٣٥٠ عن غنى المصنوعات وتعدّدها وتنوعها،

باعجابه ومدحه ، إلا على مصر وشبه الجزيرة البلقانية . وقد جاء علم الآثار يؤيد تحفظه حيال مصر حيث أدى النقص في سكان الارياف . الاهمال في تعهـد الأقنية الى اختفاء بعض القرى القديمة في الفيوم تحت الرمال المتراكمة . ولكنه يؤيد أقواله في اماكن اخرى ايضاًبصدد الأبنية الجديدة او الموسّعة وبنوع الأشياء المنقولة .

برزت نهضة الازدهار في اكثر من ولاية ، ولكن الشرق استفاد منها اكثر من الغرب . فهي قد بلغت الذروة ، اقله بعد الفتح الروماني ، في بعض مناطق آسيا الصغرى ، ولا سيا في سوريا. استعادت التجارة مع الشرق البعيد نشاطها وحركتها . ويبدو ان العالم الروماني ما انفك يصدر اليه المعادن الثمينة بنوع خاص ، وما زال يستورد منه المصنوعات البنخيـة والعطور التقليدية والتوابل والجواهر والحجارة الكريمـة والحرير الذين ازداد طلبه في الاسواق . واذا احتفظ بالحرير القصر الامبراطوري حين تتخلله الخيوط الذهبية أو حين يصبغ باللون الأرجواني ، فانه ما زال ضالة الاغنياء المنشودة حين يكون مطرزاً بالرسوم أو مصبوغاً بالألوان النباتية . وقد اهملت بصدد هذه التجارة الملاتق المباشرة عن طريق المحيط الهندي. ولكن البضائع ، والتجار احياناً ، يمرون في المملكة الساسانية التي عقد معها صلح دائم في اواخر القرن الرابع . وحين تبلغ البضائع نهر الفرات حيث تتولى الدولة اعمال رقابة جمركيـة شديدة في سبيل استيفاء الرسوم ، تتجه الى الموانىء المتوسطية ، كما تتجه اليها صموغ الجزيرة العربية الجنوبية وعطورها التي تتولى نقلها عبر الصحراء السورية قوافل يقف لها الاسميليون السجسون بالمرصاد. لذلك فان انطاكية ، والمدن الفينيقية ، والاسكندرية التي ما زالت تتمون عن طريق البحر الأحمر ، قد حافظت على صناعاتها الفنية الخاصة .

غير اننا نخطىء ان نحن غالينا في تجميل هذه اللوحة . ليس من ريب ، اذا مـا نظرنا الى الامبراطورية في مجموعها ، في ان الانتاج الزراعي والصناعي كان كافياً لسد حاجات السكان . اما المقايضات فلم تتجاوز قط مستواها السابق ، لا بل لم تبلغه الا في مناطق معينـة . فهنالك ظاهرة كافية لابراز الفرق بين هذا العهد والعهد الامبراطوري الأول: ان اكثرية المدن الصغرى والمتوسطة قد تقهقرت وتأخرت. ويرد ذلك الى منافسة « المقاصف » حيث نمت المصانع التي باعت مصنوعاتها من الريفيين المجاورين. كما يرد الى منافسة المدن الكبرى ايضاً التي تميل الادارة بدافع طبيعي الى تشجيعها بسبب سهولة الرقابة فيها . أجل كان انهيار روما الاقتصادي ، بين هـذه المدن الكبرى ، عميقاً جداً : فهي لم تعد ، بعد انتقال البلاط منها،مركز الجذب العام، كما كانت في القرون الأولى . ولكن العواصم الاقليمية ، قرطاجة والاسكندرية وانطاكية، قد احتفظت باهميتها ، حين لم تستطع انماءها . اما بين المقرات الامبراطورية الجديدة ، فان « تريف » قـد نمت نمواً كبيراً . ومع ذلك فليس من تقدم يمكن مقارنته بتقدم القسطنطينية ، العاصمة الجديدة للامبراطورية . فمنها تنطلق كل التجـارة البحرية في الشرق المتوسطي . والطريق البرية التي ربطت بين البوسفور ونيكوميديا، مروراً بآسيا الصغرى، قد شهدت حركة سير ناشطة جداً. ويمكن القول نفسه عن طريق الغرب ايضاً . فلينست « الطريق الاغناطية » القديمة ما يقود ، كما

في السابق ، الى الأدرياتيك ، مروراً بمقدونيا والابير ، بل تلك التي تجتاز سيرميوم وتتجـه مباشرة الى غاليا أو ايطاليا الشمالية دون ان تمر بروما .

ليس من السهل وضع ميزان هذه العناصر المختلفة ، والمتناقضة في أغلب الأحيان . غير ان الامر الثابت هو ان الامبراطورية لا تشكو من فقر الدم في اواخر القرن الرابع ، وان شطراً كبيراً من الشرق يعرف ازدهاراً حقيقياً . فمن ذا الذي يستطيع التكهن بمصير كل ذلك لو لم يحدث ما حدث في القرن الخامس ؟ مهما يكن من الأمر ، فان احداث القرن الخامس ستكرس أولوية القسطنطينية التي حلت منذ الآن محل روما كعقدة المواصلات بين اقاليم الامبراطورية .

٢ ـ المجتمع العلماني

ما كانت الدولة لتستطيع توطيـد سلطتها على الاقتصاد لو لم توطدها في الوقت نفسه على المجتمع ، او لو لم توطدها بقوة على بعض الطبقات على الأقل .

مرسوم كركلا

لم تقف الامبراطورية الاولى نفسها موقفاً حيادياً على هذا الصعيد .

على الرغم مما انطوى عليـه سلوكها من اعتبارات اخرى ، فان باستطاعتنا القول ان انعامها بالمواطنية الرومانية على عدد مطرد الزيادة من الاقليميين ، أي من المغلوبين السابقين ، هو نوع من التدخل . وقـد حصل على هذه المواطنية كل الذين رضوا بالاحتكاك بالحضارة . فهم قد انضموا بذلك الى روما التي استطاعت من ثم توجيـه واستخدام ارتقائهم الاجتماعي وارتقـاء أنسالهم من بعدهم . أفضى هذا السخاء المقيد للنظام ، في السنة ٢١٢ ، الى مرسوم كركلا الذي انعم بالمواطنية على كل الرجال الاحرار المولودين في ارض رومانية، باستثناء البرابرة الذين اقاموا آنذاك في الامبراطورية واخضعوا لنظام ادنى خاص . ولعل مرد هـذا التدبير الى اسباب جبائيـة كان الهدف منها فرض بعض الضرائب على الجميع دون استثناء . ولكن المرسوم كان نهاية تطور بدأ منذ زمن بعيد واستجاب بعد ذلك لمقاصد اخرى .

جاءت الامبراطورية الثانية تعمل به ايضاً. فشملت مفاعيله آنذاك البرابرة الذين يدخلون في خدمتها من غير « الحلفاء » . ولم تحاول الامبراطورية الثانية قط فرض نتيجته المنطقية، اعني بها تطبيق القانون الروماني الخاص على كافة المواطنين الجدد ، بل سمحت بان تبقى بعض القوانين البلدية سارية المفعول في الشرق . اما نتيجة المرسوم الرئيسية فكانت تبسيطاً لعمل الدولة باتحاد المساواة في الخضوع لها : فلم يعد من اهمية عملية للتمييز بين المواطن والاجنبي الا عندمـا يتوطن البرابرة جماعات منظمة .

جدة السياسة الاجتماعية

قامت السياسة الاجتماعية الحقيقية في العهد الامبراطوري الأول على تنظيم الارتقاء من درجة الى درجة في السلّم الاجتماعي، دونما قسر ، ووفاقاً لما ترى فيه خيرهـا . ارادته تدريجياً يمتد على عدة أجيال رغبة منها في تجنب الفوضى . كما ارادة

مدرّجاً بحسب عدد من العوامل كانت الثروة والتأثر بالحضارة اليونانية أو الرومانية بينها عاملين رئيسيين ، وارادته مفيداً للدولة اخيراً يبعث طوعاً تكوّن وتجدد النخب التي تنتقي كبار موظفيها من بينها .

هذه هي السياسة التي اضطرت الامبراطورية الثانية الى التخلي عنهـــا تحت تأثير الظروف . فاحتفظت لنفسها ، من جهة ، بحق اختيار خدامها حيث تريد، وبترفيعهم كما يطيب لها؛ ورأينا فيما سبق ما كان من هذا الأمر في الجيش ؛ وقد النفي ، في السنة ٣٦٤ ، بتأثير الذهنية نفسها ، تحريم دخول مجلس الشيوخ على ابناء المعتقين . ولما كانت بحاجة الى ان تنفذ جميع المهـــام الاجتماعية ، فقد عمدت من جهة ثانية الى محاربة فرار الموظفين واقرت انتقال المهن بالوراثة ؛ وبحثت عن مسؤولين غير الأفراد المتفرقين والزائلين ، فارغمتهم على التجمع وحمّلت ارزاقهم مسؤوليتهم حتى بعد انتقال هذه الارزاق الى ايد غير ايديهم . فشجعت الطريقة الاولى الارتقاء الاجتماعي السريع، اما الطريقة الثانية ، التي طبقت على نطاق أوسع ، والتي ما انفك التشريع يحسنها ويكملها، فقد لاشت الطريقة الاولى بتنظيم الطبقات وبفرض حقوق الارتفاق على ممتلكات اعضائها . وان في التناقض الصريح بينهما لدليل على فقدان كل برنامج مدروس : تمتعت الدولة بسلطة مطلقة على رعاياها فاستخدمت هذه السلطة استخداماً انتهازياً .

الطبقة الوسطى والحياة المدنية

اضرت هذه السياسة في الدرجة الأولى بالطبقة الوسطى ، تلك البورجوازية البلدية التي ادت مزيداً من الخدمات الجلى في العهد الامبراطوري الاول ، والفت درجة وسيطة بين الكادحين المدنيين وطبقة الفرسان ، وامنت حياة المدن التي شعّت منها الحضارة.

درجت العادة تقليدياً على ان تقدم نخبة هذه الطبقات الموظفين الذين يشغلون «الأعباد البلدية»: اذ ان أعضاءها يمثلون العائلات الصغرى . وقد سبق لنا وتكلمنا عن وطأة مطالب الدولة المالية عليهم وعن مصيرهم الى الافلاس في تنفيذ هذه المطالب . ولذلك فان القانون يفرض عليهم هذه الوظيفة ويعند في منع تهربهم او فرارهم. فان الانتساب الى « الجماعة » التي يؤلفونها في كل مدينة الزامي لكل شخص لا ينتمي الى الطبقة الجلسية والادارة او الجيش ويمتلك ، مع ذلك ، في ارض المدينة ، ارزاقاً لا تقل مساحتها عن ٦,٢٥ هكتارات على الاقل . وقد يحدث في حال ملء بعض المراكز الشاغرة – مراكز الممثلين المحليين – ان يقفوا عند حدّ أعلى ، او ان يعينوا حداً أدنى من هذه المساحة . ومهما يكن من الأمر ، فلا يجوز بيع ممتلكات الممثل دون مبرر. وترث « الجماعة » ممتلكات الممثل الذي يموت دون ان يخلّف ابناً او وصية . وعلى الوريث ان يتحمل أعباء هذه الممتلكات . وبديهي ان الابن يخلف أباه في وظيفته ؛ وكان في النهاية ان النساء أنفسهن قد استفدن من هذا الحق ايضاً . ولا يستطيع أي ممثل الانتقال الى الطبقة الجلسية اذا لم يمرّ مسبقاً في كافة « الاعباد » البلدية واذا لم يخلف ابناًيتوجب عليه ان يكفله ايضاً؛ كما لا يستطيع ان يصبح كاهناً اذا لم يجد من يحلّ محله او لم يتخلّ عن ممتلكاته . وعلى الفار ، اذا حالفه الحظ في

قراره ، ان يعود الى صفوف الممثلين حال اقصائه عن الأدارة او الكنيسة . لذلك فقد رثى الجميع لهذا الوضع الذي يؤدي بأفراد هذه الطبقة الفاضلة الى الافلاس ويدفع بهم الى الهرب.ويزيد بذلك مساحة الاراضي المهملة التي يتوجب على الممثلين الباقين تأمين زراعتها او اقله تحمل أعبائها.

اما وجه المأساة في ذلك فهو ان هذه النخبة ما كانت لتتجدد، كما في السابق ، بارتقاء رجال توصلوا الى اليسار عن طريق ممارسة الصناعة اليدوية او التجارة . فقد استلزمت حاجات اقتصاد الدولة تنظيم المهن المختلفة في كل مدينة وفاقاً لتشريع دقيق مماثل يلجأ الى التدابير نفسها. ونحن لن نحاول هنا تعداد كل التعاونيات التي احدثتها السلطة العامة بغية تأمين ممارسة المهن وتقديم الخدمات الجماعية ، بل نكتفي بالقول ان المناجم نفسها قد اعتبرت «ضرورية» في آخر المطاف؛ ولم ينج من اعتبار « الضرورة » هذا سوى المهن الحرة ، كالطب والتعليم والمحاماة ، التي تتمتع ببعض الحصانات، ولكن الذين مارسوا هذه المهن ، ممن تفرض عليهم طبقتهم ممارسة مهن اخرى، قد تعرضوا للمطاردة الشديدة . ولن نحاول ايضاً تعداد كافة الاقتسارات التي استهدفت الحيلولة دون تدني أهمية هذه الهيئات ، فهي متشابهة كلها وتوحي بها الذهنية نفسها ، وتدور جميعها حول ثلاثة مواضيع رئيسية : خطر الهرب من الوظيفة، الوراثة ، المسؤولية عن الممتلكات التي تتفاوت الشدة فيها وفاقاً للحالات النوعية وطابع الاضطرار النسبي فيها . وليس أهم ، كما هو بديهي ، من شؤون النقل والتغذية . لذلك فلا أسهل علينا من ان نختار ، بين الأنظمة الكثيرة حول هذه المهن ، بعض امثلة تقارب الغرابة بتعقيدها وتحكمها . فالهبات التي يتقبلها الخباز ، ومهر زوجته والهبات التي تتقبلها، تضاف الى مجموع ممتلكاته وتخضع الى حقوق الارتفاق نفسها التي تخضع لها ممتلكات الخباز . وماذا يحدث من ثم اذا كانت هذه الممتلكات الجديدة نفسها مرتبطة قبل ذلك بهيئة أخرى يا ترى ؟ فالبحار الذي يرث خبازاً مثلاً يرتبط بهيئة البحارة لجهة بعض ممتلكاته وبهيئة الخبازين لجهة البعض الآخر. لذلك نكتفي بهذا القدر من الدلائل التي تبين بوضوح كاف ما يمكن ان تتوصل اليه الدولة تدريجياً .

ان هذا العدد الكبير من القوانين الدقيقة والصارمة ينم عما ينطوي عليه النظام من شوائب . ولا يؤخذ على الامبراطورية الثانية وحدها ان تتغلب مساعي المخالفين المبتكرة على احتياطات المشترع حين يكون موضوع المخالفة مغرياً . فقد توفق كثير من الصناعيين اليدويين وممثلي العائلات الى الهرب مثلاً واستقبلت الحكومة نفسها بعضهم وعينتهم في وظائفها على الرغم من الجهود التي بذلتها لاعادة الفارين الى مراكزهم الاولى . وقد وضعت جداول بالطلاب الذين ورد ذكرهم في مراسلات ليبانيوس الذي درس الحقوق طيلة اربعين سنة تقريباً في النصف الثاني من القرن الرابع : فمن أصل ٦٢ بينهم ممن عرف منشأهم الاجتماعي واتجاههم الاول اللاحق ، أصبح ٢٢ من أبناء ممثلي العائلات ممثلي عائلات كآبائهم ، وسلك ١٨ طريقاً اخرى تمكن ٥ او ٦ منهم السير فيها دون صعوبة .

اما عاقبة هذه المضايقات فيمكن معرفتها بسهولة . فمن حيث ان الطبقة الوسطى قد توزعت فرقاً أسند لكل منها خدمة عامة او سد حاجة اقتصادية ، ومن حيث ان كلاً من

أعضائها قد ألحق بشخصه وممتلكاته باحدى هذه الفرق ، ومن حيث انها ترغم قسراً على القيام بواجبها الأول حين تحاول المخالفة ، ومن حيث انها حرمت المبادهة الحرة وامكانات الارتقاء التي هي سبب وجودها ، فقد اعرضت عن القيام بالدور الذي عينته لها السياسة الاقتصادية ، وحتى العامة ، في العهد الامبراطوري الاول . لذلك فان ضرراً كبيراً قد لحق بالحياة البلدية التي هي جزء أساسي لا يمكن فصله عن حضارة لا يتنكر احد آنذاك لمثلها الاعلى. فقد توقفت التبرعات الخاصة بغية سدّ عجز الميزانيات المحلية . وتضاءلت الحركة العمرانية بسبب الحاجة الى المال وعدم توفر المكان داخل الاسوار التي يكفي تعهدها لاستنزاف الموارد. وتدنى عدد الأعياد لأن المسؤولين اقتصروا بصددها على « التسخير » المفروض . بديهي ان تفاوت النشاط الاقتصادي يفسّر بعض الاستثناءات . فما زال البذخ مسيطراً في المدن الكبرى ، وما زال حكامها أسخياء نحو عامة الشعب . وقد وصلت الينا تفاصيل مدهشة حول عظمة انطاكية بنوع خاص والملاهي المتوفرة لسكانها : فالشوارع تضاء ليلاً ؛ وقد فوجيء السكان ، وهم في المسرح ، بهجوم الفرس في السنة ٢٦٠ ، كما فوجئوا أثناء مشاهدتهم لسباق عربات، في السنة ٢٧٢ ، بوصول اوريليانوس على رأس جيشه ، في طريقه الى تدمر ؛ وقد ازدادت هذه الملاهي طيلة القرن الرابع وحتى في اوائل القرن الخامس . ولكن هل نستطيع تعميم ازدهار انطاكية وسوريا على كافة أنحاء الامبراطورية؟ فان الحضارة المدنية القديمة ، لا سيما في الغرب ، قد فقدت سناها وفقدت بالتالي جاذبها : وهي لم تعد لتستجيب لأية بداهة بعد ان غدا استمرارها مصطنعاً في اطار ضيق ومفتقر .

الاشراف الرسميون

وقد أبرز انعكاسها على حياة المدن وكثرة القوانين والشكاوى العائدة لحالة البورجوازية البلدية هذه المضادة بين مجتمع الامبراطورية الثانية ومجتمع القرنين الاولين. وحدثت تغييرات هامة ايضاً في الطبقات الاجتماعية الاخرى لم تبق الدولة غريبة عنها، على الرغم من ان تدخلها فيها أصبح نادراً وأفسح مجالاً لعوامل أخرى تتفق تارة وتتنافس اخرى.

اثبت تدخلها جدواه في تنظيم طبقة الاشراف. مال المجتمع الرفيع منذ زمن بعيد الى ان يصبح طبقة شرفاء رسميين . وقد حقق التطور في هذا الاتجاه تقدماً حاسماً بفضل الاقتطاعات والمصادرات التي رافقت الأزمة الثورية في القرن الثالث ، وبفضل حاجات الجيش والأدارة من جهة ثانية . فزالت الفروق المبنية على النسب والثروة . ورفعت الضريبة عن طبقة الفرسان . ولم يعد الضريبة الجلسية من وجود قانوني . فاستطاع عبد قديم ان يصبح شيخاً وقنصلاً : ولم تقدم حكومة هونوريوس في الغرب ، إحتجاجاً على قنصلية افتروبوس ، سوى خصاء مدير الفرقة هذا . وكان على الدولة ، لو انها كانت منسجمة مع نفسها ، الا تعترف الا بالنبل الذي تنعم به على خدامها من مدنيين وعسكريين والذي تخضعه لتسلسل يوازي التسلسل في وظائفها .

غير انها اكتفت ، في ما يعنينا ، باقتفاء اثر نظام الانطونيين الذي تقررت في ظله سلسلة

ألقاب رسمية . فانتهت ، منذ احداث المرتبتين العليين في ٣٧٢ ، الى الدرجات الاربع التالية ، من اعلى الى اسفل : المجيدون ، المحترمون ، اللامعون ، الكاملون . وقد وزعت عليها الموظفين المنظورين والمرموقين وفاقاً للوظيفة المشغولة . وتمثل الدرجتان الاخيرتان إرثاً من القرن الثاني . اما الاوليان اللتان اقرهما الانطونيون فقدلشأتا عن الاستعمال : وغادتا اساساً الى طبقة الفرسان التي زالت دون ان تترك اثراً سوى لقب « الكامل » .

بديهي ان مثل هذه الألقاب مصيرها الابتذال لان كل وظيفة تحاول الارتقاء في سلمها. ولو اننا تتبعنا مراحل التوزيع ، لوقفنا على امثلة كثيرة تثبت ذلك . فلنكتف هنا بالاشارة الى ان الحكام الوحيدين الذين بقوا في فئة الكاملين هم حكام أقل الولايات شأناً . ولما كان هذا الانزلاق محتوماً فقد جر بالضرورة الى احداث ألقاب عليا جديدة والى قبول صغار الموظفين في الدرجات الدنيا : وقد عمدت الامبراطورية الى استخدام هاتين الطريقتين استخداماً متكرراً .

يقضي منطق النظام اساساً بهذه الموازاة الدقيقة بين التسلسلين ، تسلسل الألقاب وتسلسل الوظائف : وهذا هو المثل الاعلى للتشن (*Tchin*) الروسي . ولكنه قد اصيب في الواقع ببعض الالتواءات .

من هذه الالتواءات أولاً وجود لقبين آخرين لا يدخلان في تسلسل الألقاب ويمنحان مستقلين عن وظائف معينة . أولهما لقب الكونت الذي سبق الكلام عنه ؛ والثاني لقب *Patricius* . استخدمت هذه الكلمة في السابق للدلالة على رتبة الاشراف (بطريق) بمفهومها الديني. ولكن هؤلاء الاشراف قد زالوا ، ولم يعد للدولة ، التي لا تهتم التقاليد الوثنية ، من حاجة لتعيين سواهم كما سبق لها وفعلت في العهد الامبراطوري الأول . فاعاد قسطنطين هذا اللقب الجاهز الذي درج المؤرخون منذئذ على ترجمته بـ «بطريق»، وانعم به على شخصيتين كبيرتين . وضن خلفاؤه في القرن الرابع بمنح هذا اللقب ، فحافظ من ثم على سحره ونفوذه : وقد تكلم المعاصرون بصدد البطاريق ، عن « آباء الامبراطور » .

ومنها ايضاً ابهام لقب « اللامع » . احدث هذا اللقب في العهد الامبراطوري الاول واطلق على جميع اعضاء الطبقة الجلسية ، وما زال وقفاً عليهم وحقاً وراثياً الغاية منه اكرام هذه الطبقة الشريفة القديمة ، على انه فقد من اهميته بعد احداث لقب « المجيدين » و « المحترمين » . لذلك يستطيع بعضهم حمله دون القيام باية وظيفة ، بينما يحمله آخرون بسبب الوظائف التي يمارسونها . غير ان هؤلاء اكثر عدداً الى حد بعيد من اولئك الذين ينحدرون كلهم تقريباً من موظفين سابقين ايضاً . فليس من ثم الطبقة الجلسية ، وشأنها في ذلك شأن مجلس الشيوخ ، من كيان مستقل عن الدولة .

ومنها اخيراً التعيين في وظائف اسمية غير نادرة اطلق على المستفيدين منها لقب « المشرّفين » أو « الشرفيين » كما ندعوهم اليوم . وغالباً ما يكون ذلك في الترفيع، حين الاحالة الى التقاعد ، الى مرتبة اعلى من تلك التي تستحقها آخر وظيفة مارسها المتقاعد . وقد يحدث احياناً ان

يستفيد منها فرد من الافراد ، ولا سيا ممثل العائلة ، بما حمل الامبراطور ، احتياطاً من سخائه بالذات ، على وضع نظام عام يحدد الشروط المفروضة على « الممثل » قبل الخروج من اطـــار « جماعته » .

يتضح من ثم ان النظام ، اذا ما نزعت الدولة وتوصلت في الغالب الى الجمع بين الوظيفـــة والنبل ، يحافظ مع ذلـك على بعض المرونة . والهدف الاول من هذه المرونة توفير مزيد من السهولة للامبراطور في توزيع احساناته : ويماثل الحكم المطلق ، في ذلـــك ، بين الامبراطور والدولة . بيد ان هذه المخالفات لا تنطوي في الواقع على أهمية تذكر : فقد نظم الاشراف في الامبراطورية الثانية وفاقاً لتسلسل الالقاب ، فهم بالتالي اشراف دولة او اشراف رسميون .

أعباؤهم وامتيازاتهم

لقد نجم عن صفتهم هذه أعباء وامتيازات . وكانت الغاية من هذه التعويض عن تلك ولكنها فاقتها الى حد بعيد لأنها استهدفت في الوقت نفسه مكافأة الخدمات المؤداة والحث على طلب الوظيفة والتفاني في ممارستها .

يدخل في عداد الأعباء ، مثلاً ، الضريبة الخاصة المفروضة على الطبقة المجلسية ، وربما أعفي منها الاعضاء الموظفون . ويدخل في عدادها ايضاً ، اذا اراد هؤلاء الأعضاء قطف ثمـار الأمجاد المجلسية ، واجب الانفاق على الألعاب عند تعيينهم في منصب القضاء ، ما لم يعين الامبراطور دراكاً ، في مجلس الشيوخ ، قضاة او قناصل سابقين .

ويدخل في عداد الامتيازات امتياز هام هو اعفاء كل من يحمل لقباً ما من «التسخير القذر» أي من المصادرات الشخصية . وبديهي ان الأشراف معفون مــن واجبات « الممثلين » ايضاً . اجل لا يزالون يقدمون الحماة للمدن ، ولكنهم لا يهتمون لصعوباتهم المالية ، وقلما يهتمون لمعيشتهم . فهم يفلحون في تسجيل أراضيهم على حدة لأجل تحديد الضريبة الشخصية بغية تجنب المسؤولية الجماعية المترتبة على الاراضي البلدية . وقد عين « محامون عن المجلس » ، بمعدل واحد او اثنين في كل ولاية ، أسند اليهم أمر السهر على مراعاة امتيازاتهم الجبائية .

أبطلت المساواة ايضاً لمصلحتهم في الحقل القضائي . وكان الانطونيون سباقين هنا ايضاً في فرض عقوبات مختلفة على « الاشارف » و « الادنين » . أحصي « قواد العشرة » في الفئة الاولى آنذاك ، فأقصي المثلون عنهـا الآن . ولكن الفرق في العقوبات ما زال قائماً : فقد استبدلت عقوبات المحظيين الجسدية والعمـل في المناجم بالغرامة النقدية او النفي ؛ كما منع عنهم التعذيب والموت المشين إلا في حال الخيانة العظمى. ولم يكن للحكام اخيراً حق النظر في دعاوى الاشراف .

وما القول عن الوراثة ؟ فهل كانت عبئاً عليهم ام امتيازاً من امتيازاتهم يا ترى ؟ اقرهـــا قسطنطين للموظفين قاطبة : فالدولة بحاجة الى ابنائهم كما هي بحاجة الى ابناء الجنود و « الممثلين» والتجار والصناعيين . ولكن ليس من مهنة انفع من مهنة الموظف : فالمحامون انفسهم يتوقون اليها كما يتضح من مراسلات ليبانيوس . لذلك فنحن لا نرى وجوباً ، فيما يتعلق بهـــذه الطبقة الاجتماعية ، لان نرى في مبدأ الوراثة اي جزاء

الثروة العقارية ومعيشة الاغنياء في املاكهم

بيد ان كثيراً من الاشراف اثرياء ، اذ ان مرتبات عالية ، تميهـا الانعامات الامبراطورية ، تخصص للوظائف الرفيعـة . ولا تتكلم مصادرنا البتة عن مخالفات لواجبات الوظيفة، ولكنها غالباً ما تتكلم عن زواجات موفقة . فكان باستطاعة هؤلاء الاشراف ان يعيشوا عاطلين عن العمل لو أرادوا. ولكن الذين يرضون بهذه الحياة قليلون: اذ ان الميل الى الامجاد والرغبة في العمل اللذين كان لهما ابداً مكانها في المثـل الاعلى الروماني ، يجذبانهم نحو خدمـة الدولة . ومهما يكن من الأمر ، فان الاغنيـاء جميعهم اشراف ، ان لم يكن بسبب عملهم الشخصي ، فأقله لان احد جدودهم قد رفع العائلة الى الطبقة الجلسية .

بلغت بعض الثروات نسبة عالية جداً وفاقت اعظم الثروات التي جمعت في عهـد سلالة جوليوس - كلوديوس . ويؤكد احـد مؤلفي اوائل القرن الخامس ان املاك عدة عائلات في روما تؤمن لها ٤٠٠٠ ليرة ذهبية (١٣١٠ كيلوغرامات) دخلاً سنوياً ، يضاف اليـه دخل عيني يوازي ثلث هـذا المبلغ . فكيف يجوز لنا ، على جهلنا الايراد الوسطي للاملاك العقارية ، الشك في ضخامة مثل هذه الثروات ، لا سيا وان تقديرها يجب ان يأخذ بعين الاعتبار ما تهمله هذه الأرقام : مساكن الاسياد وممتلكاتهم المنقولة. وها نحن نورد مثلاً من شأنه اعطاء فكرة عما يمكن ان تمثله هذه المساكن : حين تولت القديسـة ميلانيا وزوجها فاليريوس بنيانوس ، في السنة ٤٠٤ ، رغبة منهما في تكريس كل ما يملكانه لاعمال البر ، بيع « بيت » عائلة فاليريوس في حي شيليوس ، لم يجدا ، على الرغم من مساعدة الامبراطورة ، مشترياً مستعداً لدفع قيمته الحقيقية، الا في السنة ٤١١ ، اي بعد ان نهبه جنود ألاريك من القوط .

لسنا نستطيع الكلام عن مراحل تكوّن اية ثروة من هذه الثروات . ولكننـا على نقيض ذلك نعرف وجهة استخدامها . فمن البديهي انها لم توظف في مشاريع صناعية أو تجارية خوفاً من اقتصاد الدولة ، بل في ابنية تدر دخلاً محترماً في المدن الكبرى ، كما نرجح ، مع ان هـذه الابنية لم يشر اليها قط في مصادرنا . وعلى نقيض ذلك ، فهنالك ، بكل تأكيد ، الى جانب الحلي والمصنوعات البذخية، كثير من الذهب المسكوك او غير المسكوك: ولكن الذين يتعاطون المراباة قليلون جداً . فلا يبقى من ثم سوى الأرض. وكان جميع الاغنياء في الواقـع اصحاب ثروات عقارية طائلة . فكان لعدد كبير منهم ، بفضل الهبات الامبراطورية والارث والزواج والمشتريات التي تجري حين ينتقل الموظف من مركز الى مركز آخر ، أملاك موزعـة على عدة مناطق في الامبراطورية . وان في هذا التوزيع في المكان لتعبيراً ملموساً عن وحدة هـذه الامبراطورية : فقد كان على القديسـة ميلانيا وزوجها مثلاً ، عندما باعا قصرهما في روما ، ان يبيعا في الوقت نفسه املاكهما في ايطاليا وصقلية وافريقيا واسبانيا ، الخ .

امتلك ثري القرن الرابع اذن ، بالاضافة الى قصره الخاص في المدينة ومتنزهاته في مناطق الاصطياف - وقـد اختارها الروماني ابداً في مرتفعات اللاتيوم وشواطىء كمبانيا - المقصف الذي يتوسط املاكه الكبرى والذي علمه ثري القرن الثاني كيف يؤمن فيه كل اسباب الراحة

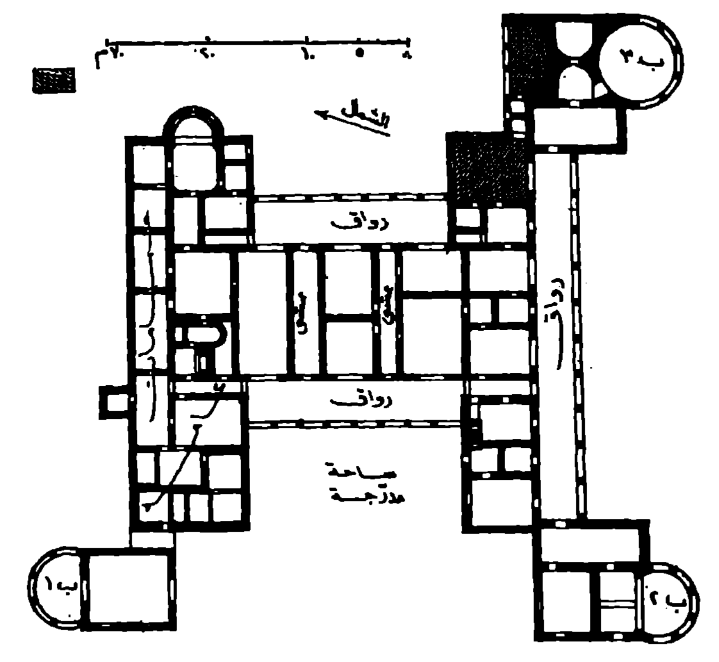
المادية والألاهي الضرورية للمجتمع الرفيع . فتوجب عليه اعادة بنائه لأنه قد تهدم في هـــذه الاثناء . واستفاد من هـــذا الظرف لتوسيعه وتجميله ، كما استفاد منه احياناً لتقوية جدرانه الخارجية ولتحصينه ببعض الابراج لجعله بمأمن من هجمة قد يفاجئه بها قطاع الطرق او فرسان برابرة . في هذا المقصف يطيب له تمضية اوقات طويلة ، والى هذا المقصف يجيء ، بعد صرفه من الخدمة ، ليقضي شيخوخته في هناء وسعة عيش . ولنقرأ هنا وصف حلم السعادة الذي استسلم له « بولين دي بيلاّ »حفيد اوزون: « لم اتق يوماً إلا الى حياة متوسطة تقارب سعة العيش وتبعد عن الطمع . اشتهيت بيتاً مريحاً واسع الغرف صالحاً لقضاء فصول السنة المختلفة ، وطاولة لامعة وملأى بالاصناف ، وخداماً كثيرين في سن الشباب ، وأثاثاً متنوعاً يستخدم لأغراض مختلفة ، وفضية ثمينة بصنعها لا بوزنهـا ، وفنانين في شتى الحقول قادرين على تنفيذ الطلبات بسرعة ، واصطبلات ملأى بالجياد، وعربات متينة وأنيقة النزهة». حين نظم بولين هذه الأشعار في السنة ٤٥٩ ، كان في سن الثالثة والثمانين ، ولعله كان معتمداً على حسنات المحسنين لتأمين معيشته في جوار مرسيليا، بعد ان قضى البرابرة على ثروته . ولا شك في ان هذا الحلم الذي يصفه بالتواضع كان متواضعاً حقاً اذا ما قورن بواقع البذخ الذي عاشه ، خمسين سنة من قبل ، وسط الكروم الخصبة في منطقة بوردو ، مسقط رأسه . ويجب ان نضيف الى هذا الحلم ، اجتماعات الاصدقاء، والاحاديث العلمية او المازحة، والملابس الحريرية المطرزة، وميدان السباق والمسرح في الحديقة، وقفص الطيور في الاملاك المحيطة بالمقصف وألف تسلية وتسلية أخرى ، كلعبة الكرة التي كان بولين يستحضر لوازمها من روما .

وهكذا فان مثل الارستوقراطية القديم ما زال قائمـــاً . ففي الوقت الذي فرضت الدولة التضحيات على الجميع ، لا يزال هناك محظيون لا توفر موجباتها في طمأنينتهم وهناءة عيشهم .

العبيد استلزم هذا المثل وهذا الواقع عنصراً جديداً ، أعني به سلطة كبيرة وواسعة على أناس آخرين لا نعرف لها مثيلاً في السابق .

اجل كان هنالك عبيد في السابق . وما زال هناك عبيـــد في ذاك العصر . ولا يسع المؤرخ البت في ما اذا كان عددهم قد تدنى ، اذ انه يفتقر الى الاحصائيات فيما يعود لهذا العصر ولمـــا سبقه . فالرق لا يزال قائماً ولا يزال يتموّن من المصادر نفسها ، أي من الحرب خصوصاً ، كما في السابق . يلقي الرومان القبض على البرابرة : وقـــد أكد سينيزيوس الذي عاش في كيرينا ، في منطقة بعيدة عن العمليات الحربية ، ان في كل بيت عبداً من القوط . ويلقي البرابرة بدورهم القبض على رعايا الامبراطورية ويجدون بسهولة من يشتري مغانمهم . وما زال العبيد – يقدرهم القديس يوحنا فم الذهب بين ألف وألفين – يدخلون في خدمة كبـــار الأثرياء . واذا كانت الكنيسة قد سهلت الاعتاق باجراء مبسط اعترفت الدولة بشرعيته منذ قسطنطين ، او اذا هي شجعته اخيراً ، فانها لا تلزم نفسها ولا أتباعها به، بل تصدر حكماً قاسياً على العصاة والمهيجين منهم . « اذا اقدم شخص ما ، بداعي الشفقة ، على حث العبد على احتقار سيده والتحرر من

العبودية والاعراض عن الخدمة بحسن نية واحترام ، فليكن "مبتلاً" : ان هذا القرار الصادر عن مجمع «غانغر *Gangres*»[1] سيلاقي تأييداً دائماً. وبالاختصار، كان المنطق يقضي بأن يتدنى عدد العبيد الى حدّ بعيد . ولعل هذا التدني يفسّر نمو استخدام الطاحون المائية ؛ كما ان الصعوبات الكثيرة التي واجهتها الطبقة الوسطى في المدن لم تبق ، في الارجح ، دون نتيجة ايضاً . ومع



الشكل ٢٣ — « مقصف » اوردرانغ شمالي ترير

ب ١ — المدخل؛ ب ٢ و ب ٣ — كشكان؛ كانت بعض أقسام المقصف، على الأقل، تستلزم طبقة علوية.

ذلك فنحن مضطرون، ربما بسبب النواقص في مصادرنا ، للاعتراف بأن الوقائع لا توفر لبرهاننا الاثبات الحاسم الذي نود لو نكتشفه فيها .

كان من حقنا ايضاً ان نتوقع تشريعاً أقلّ صرامة بصدد العبيد . ولكن الديانة المسيحية لم تعمل ، كما يبدو ، على تقوية النزعة التي أوجدتها الفلسفة الانسانية في عهد الانطونيين والتي لم تحرز تقدماً يذكر . فان قسطنطين قد منع ملاحقة السيد الذي يموت عبده المذنب متأثراً

(١) مدينة بافلاغونيا *Paphlagonie* . التأم هذا المجمع في القرن الرابع في تاريخ يتعذر تحديده .

بالعقوبة المفروضة عليه ، ولن تلغى قبل القرن السادس الشروط التي قيّد بها اوغسطس حق الاعتاق .

ثم ان للأخلاق أهمية دونها أهمية الانظمة والقوانين . لم يتبدل مصير العبيد المنزليين تبدلاً كبيراً ، بل بقي مطاقاً شأنه في السابق؛ بيد ان التطور في الاخلاق الجنسية قد كبح جماح أهواء السيد في الارجح. ولم يطرأ كذلك تبدل يذكر على مصير العبيد المدنيين: تدنى عدد مصارعات السايفين ، وغدا بعض العبيد يمارسون صناعة يدوية في حوانيت خشبية . ألغيت المصانع في المعابد الشرقية ، ولكنها ضمّت الى مجموع المصانع الامبراطورية ، وليس ما ينبئنا بمصير العمال الذين تستخدمهم هذه المصانع . وعلى نقيض ذلك، فنحن نرى الدولة جاهدة في توفير اليد العاملة لمشاريعها الكبرى ، ولا سيا لمناجمها ، بواسطة الأسرى والمحكومين من البرابرة ، الذين ينهضون بأعمالهم الشاقة دونما أمل بتحسن حالهم . اما التبدل الرئيسي ، كما نرجح ، فهو زوال «عائلات» العبيد العاملين فرقاً في الاملاك العقارية الكبرى . وليس ذلك سوى نهاية تطور طويل بدأ منذ زمن بعيد، اذا صح ان طريقة الاستثار الريفي هذه قد اعتمدت في غير بعض المناطق الايطالية . ومع ذلك فان حياة العبد الريفي العملية ، اذا ما وضعنا نظامه القانوني جانباً ، تشبه حياة الفلاح الحر قديماً .

وان لهذه الظاهرة تفسيرها ، من جهة ثانية ، في التبدل الذي طرأ على مصير الفلاح الحر .

الكادحون الريفيون : القطافون

لا نتوقفن عند الكادحين المدنيين . فنحن لا نشاهدهم إلا في العواصم لمناسبة التوزيعات المجانية والألعاب ؛ فهم ، من هذا القبيل ، ما زالوا كما نعرفهم : عاطلين عن العمل، متطلبين، سجسين، سريعي الاحتداد والتشيع ونزع الثقة . فان ما يهمنا هو تطور الكادحين الريفيين .

كان بين هؤلاء ، منذ القدم ، أجراء كثيرون — وافريقيا هي المنطقة الوحيدة ، في هذا العهد بالضبط ، التي يلقى فيها بعض الضوء عليهم . اطلق عليهم آنذاك اسم « *Circoncellions* » الذي يعني بالتدقيق « القطافين المتنقلين » ، أي العمال الذين يتوجهون نحو الشمال في اواخر الربيع وينتقلون من بستان الى بستان عارضين خدماتهم المأجورة للقيام بالقطاف . اما مصيرهم فيزداد سوءاً ، او يتميزون بمزيد من الجرأة عندما يشدّ أزرهم العبيد الهاربون وصغار الملاكين المقترين والبلديون الثائرون على كل ما هو روماني . وعندما حدثت الاضطرابات الدينية بفعل مقاومة الدوناطيين لكنيسة الرسمية التي تساندها الدولة بصورة عامة ، سنحت لهؤلاء المستائين المتكتلين فرصة الانتفاض على النظام القائم فأطلق عليهم مستقيمو الرأي اسماً واحداً هو « القطافون المتنقلون » الذي وازى ، في نظرهم ، اسم « قطاع الطرق » . فجعلوا منهم « لصوص مخامر » يعمدون الى اشعال النار واعمال العنف في كل مكان ويوقفون العربات ، ويحلّون فيها العبيد محل السيد الذي يرغمونه على الهرب سيراً على الاقدام ، وينشدون في كل أعمالهم الأناشيد الدوناطية، ويصيحون صيحة التجمع الخاصة بالمراطقة . ويساعد هذا الغليان على تفسير محاولات

الاغتصاب المتكررة في افريقيا . اما اعمال القمع ، التي لم تعرف الشفقة معنى ، فلم تتغلب على هذا الغليان إلا في النصف الاول من القرن الخامس .

الفلاحون الشركاء

كانت هذه الاضطرابات محصورة في افريقيا . فالصوصية المسلحة المتفرقة ، في المناطق الاخرى ، لم ترتد هذا الطابع من الخطورة ، لا بل ان وطأتها قد خفت في مصر نفسها – سنرى بعد ذلك ما سيحل محلها – أقله في أشكالها التقليدية . ولعل السبب في ذلك ان العمل الريفي المأجور شيء نادر في المناطق الاخرى : ففي كل مكان تقريباً تألفت طبقة الفلاحين ، بصورة عامة ، في اواخر القرن الثاني ، من صغار الملاكين الاحرار ومن فلاحين شركاء ، أي من مزارعين يتقاضون أجورهم حصة من الاثمار .

غير ان تطور الامبراطورية الثانية ، الذي شجعته الدولة حيناً وحاربته حيناً آخر ، قد ربط الفلاح بالارض وحدّ في الوقت نفسه من حرية الملاك الصغير لمصلحة جاره القوي ، ومال بالتالي الى تعميم نظام المشاركة الزراعية الذي يختلف كل الاختلاف – باستثناء الاسم – عن العقد الحرّ نظرياً والملغى ، في عهد الامبراطورية الاولى ، بين الفلاح الشريك وصاحب الملك . ولنحاول هنا اعطاء فكرة عن هذا النظام دون اخفاء صفة التحكم في عرضنا الموجز السريع . ولكن هل يجوز لنا التفكير ، على ما في ذلك من فائدة نظرية وعملية ، بالتطرق الى مسائل معقدة وشائكة يثيرها هذا التطور الشرعي الذي يفوق بقوته القوانين والذي يتحول وفاقاً للوضع الزراعي وكثافة السكان في المناطق التي تتألف منها الامبراطورية ؟

في الاصل كانت الصعوبة ، في كل مكان ، مماثلة لتلك التي تؤدي الى وضع نظام سكان المدن . ففي سبيل تأمين الغذاء للجماعة وجمع المطلوب للدولة ، يجب ان يعهد باستثمار الارض الى يد عاملة مستقرة ، جهد المستطاع . وبما انهم قد اقتصروا على استثمار الاراضي الجيدة المخصبة ، بسبب الافتقار الى اليد العاملة ، فقد ازدادت المساحات البائرة ازدياداً مطرداً . لذلك سارت الدولة على تشريع هدريانوس الذي يجيز لأي كان الاقامة فيها . ثم أدخلت بعض البرابرة الى الامبراطورية وفرضت عليهم واجبات تتفاوت شدة وليناً بحسب نسبة القوى المتقابلة . ولكن هذه التدابير كانت غير كافية ، فاضطرت الى معاملة رعاياها أنفسهم معاملة قسرية .

من الطبيعي ان تهدف هذه المعاملة الى خير الاملاك العامة في الدرجة الاولى . فأفضت الى عقد اتفاقات تأجيرية طويلة المدى ، او دائمة احياناً ، وانتهى الامر ، عملياً ، الى الاعتراف ، قبل سن قانون بذلك ، بأن اقامة تدوم ثلاثين سنة تكفي لاعطاء حق دائم . ثم اعتمدت هذه التدابير لمصلحة كبار الملاكين ، بانزلاق تفسره توزيعات الاملاك الامبراطورية ، ولا سيما واجب الملاكين في تنفيذ المطالب الأميرية . فصدرت حينذاك سلسلة من الأنظمة تتفاوت تاريخاً بحسب المناطق ، وأهمية قانونية بحسب بدء الاقامة في الاملاك ، وتربط الفلاح الشريك بالارض وحتى بالملاك . وقابل هذه الانظمة نظام آخر يحول دون فصله عن الارض التي يزرعها . ولكنه لا يستطيع مغادرتها ، كما لا يستطيع ابناؤه الابتعاد عنها إلا لأجل الخدمة في الجيش او بموافقته

السيد . واذا جاز له اقتناء ملك خاص خارج هذه الارض ، فانه يحظر عليه بيعه بدون اذن السيد الذي قد يكون له بعض الحقوق عليه . وهكذا يمكننا القول ان وضعه يتوسط وضع الرجل الحر ووضع العبد. اجل ما زالت هنالك بعض الانظمة الاخرى في اوائل القرن الخامس. ولكنها تميل كلها الى الانصهار في نظام المشاركة الزراعية . كان المشارك الزراعي في السابق خاضعاً لسيطرة الملاك الاقتصادية فقط ، فخضع الآن لسيطرته القانونية ايضاً .

الحماية

شجعت الدولة هذا التطور بقدر تعلقه بالاملاك التقليدية ، ولكن موقفها منه قد اختلف حين كان يتناول الفلاحين الاحرار . ولا يرد ذلك الى ان هؤلاء قد ضايقوها، بل الى انها قد لاحظت ان التطور قد حصل آنذاك يرافقه تصمم على مقاومة مطالبها الاميرية بالذات . يسعى الفلاح ، في أغلب الاحيان ، وراء « حماية » الملاك الكبير ، هرباً من دفع الضرائب مباشرة ومن مطالبات الجباة ، فيتخلى له عن ارضه ، ولكن ملاكاً كبيراً واحداً لم يفكر بانتزاعها منه فعلياً . فيبقى فيها ويستمر في استثمارها . ولكن هذا الامتياز يستلزم واجبات مختلفة تميل في الواقع الى تمثيله بالمشارك الزراعي والى أكثر من ذلك احياناً . فيحصل من معطه ، بالمقابلة ، على حماية امام القضاء وامام السلطات .

لم يكن انتقال الرجال الأحرار هذا الى مزارعين يحميهم ملاك كبير ليروق لأي مسؤول ، لا للممثلين ولا للدولة الذين أصبح عليهم التعامل مع فريق اعظم قوة . لذلك حاول بعض الاباطرة مقاومة هذا التطور . وعلى هذا الاساس ، كما يبدو ، يجدر بنا تفسير ما اقدم عليه فالنتيليانوس حين استحدث في كل مدينة وظيفة « المدافع عن عامة الشعب » الذي وكل اليه أمر انصاف المساكين ، لا سيا في حقل الجباية ، بغية صرفهم عن اللجوء الى الحمايات القوية ، ولكن هذه الوظيفة ما لبثت ان انحرفت عن غايتها الاولى ، فلم تتميز في النهاية عن وظيفة « محامي المدينة » الذي ما كان ليهتم لأمر عامة الشعب . وصدرت كذلك عدة قوانين بمنع الحماية، تفرض العقوبات على الفلاحين والملاكين على السواء ، يعود اولها الى السنة ٣٦٠ . ولكن الحركة أقوى من القوانين التي نجد الدليل على عدم جدواها في عددها وتكرارها . ستلجأ الامبراطورية الشرقية اليها زمناً طويلاً بعد ذلك ، اما الامبراطورية الغربية ، الضعيفة ، فقد عزفت عنها منذ اوائل القرن الخامس .

أفضى التطور أحياناً الى المغالطة ، أي أنه جاء ضد الملاك نفسه . فإن الدولة ، منذ عهد مبكر ، بغية تحديد المسؤولية الأميرية الجماعية في القرية ، قد شجّعت وأوجبت أحياناً انشاء الجماعات الريفية ، على غرار الجماعات المدنية ، ولكنها منحت الجماعة امتيازاً على ممتلكات أعضائها . فأخذ الفلاحون الأحرار وغيرهم في بعض المناطق ، لا سيا في الشرق ، يتجمعون على أساس القرية ، حتى ولو عادت كافة أملاك القرية الى ملاك واحد . ولكن هذه الجماعات ، التي بحثت عن سيد جماعي يحميها من الدولة ، قد بحثت أحياناً عن يحميها من الملاك نفسه ، هادفة الى أن تفرض عليه تخفيف اعبائها . وهكذا فان ليبانيوس قد رأى نفسه

وجهاً لوجه أمام قائد يحمي فلاحيه بالذات . أما نحن فنميل الى الاعتقاد بأن مثل هذه الحوادث كانت نادرة حين يكون الحماة أقوياء حقاً . ولكن الدولة شعرت بالخطر يهدّدها فسعت الى منع هذا النوع من الحماية الجماعية في الوقت نفسه الذي سعت فيه الى منع الحماية الأخرى ، ولكنها فشلت في المحاولتين .

الاسياد والاتباع

كل ذلك يتيح لنا ادراك التزايد العظيم في القوة والثروة العقارية ، والمنقولة احياناً ، التين استفاد منها الملاكون في القرن الرابع . وقد سبق لنا وأشرنا الى الحقوق التي يحصلون عليها او يدّعون بها في الحقل الاداري : فالاملاك تصبح غريبة عن المدينة التي تمتد هي في أراضيها ، وسيدها يتصرف فيها على هواه تقريباً .

لا يهتم إلا لان يؤمن، باشرافه أو اشراف قهرمانه، أفضل استثمار لاملاكه. وقد توفرت لديه منذئذ تسهيلات متزايدة لبلوغ هذه الغاية . فهو لا يتخلى عن استغلال « الاحتياطي » استغلالاً مباشراً يعود اليه محصوله الكامل . لا بل يبدو بصورة عامة ان مساحة هذا الاحتياطي تتسع باطراد . ولكنه يعتمد في زراعته طريقة اقل كلفة من تعهده ، على مقربة من مقصفه ، عبيداً كسالى لا يقومون بعمل مثمر ، لانه يستحيل مراقبة عملهم مراقبة مستمرة . فيعامل عبيده معاملة الشركاء الزراعيين ويسكنهم في اراض يكل اليهم أمر زراعتها . وبالمقابلة ، يفرض على كافة محميه أو مزارعيه ، وشركائه أو عبيده ، اعمال تسخير مختلفة تتيح له استثمار احتياطيه . وهكذا ، بعد تطور طويل الامد ُحلت المسألة الاقتصادية التي أوجدها قيام الاملاك الواسعة في ايطاليا ، اعني بها مسألة افضل طرق الاستثمار ايراداً : فمن جهة ، قطع ارض مستقلة يستثمرها الاتباع باشراف سيدهم لقاء حصص من الاثمار ، ومن جهة ثانيــة ، احتياطي يستثمره السيد مباشرة بفضل خدمات اتباعــه الشخصية . وسيعتمد هذا الحل ، ببعض المرونة ، طوال قرون عديدة .

ان استخدام كلمة « اتباع » ، في هذا المجال ، امر واجب لانها قد تنطوي على انظمة مختلفة يجمع بينها انها تولي احد الرجال سلطة على شخص رجال آخرين . ان مصير العبد الريفي ، في الواقع، سائر نحو التحسن: فالعبد منذ ذاك التاريخ يعيش وحده مع عائلة لا يمنعــه احد من تأسيسها لانه يتعهد وحده باعالتها . ولكن القانون ، مع ذلك ، ابعد من ان يعتقه . وعلى نقيض ذلك ، اذا لم يتبدل وضع الآخرين تبدلاً عملياً يذكر ، فانهم قد فقدوا النظــام الذي جعلهم يتمتعون بحريتهم الكاملة : اذ انهم قد تخلوا عن بعض حريتهم القانونية للملاك الذي اصبح سيدهم . فيتضح من ثم ان تطوراً هاماً جداً قد تحقق، وسيسير هذا التطور طريقه بفعل احداث وتأثيرات اخرى . ولكن النظام السيدي ، منذ اواخر القرن الرابع ، قـد تأصل وتوطـد في الأراضي الامبراطورية .

وهكذا فقد رسخت المضادة الاجتماعية في الأرياف.وصفنا اعلاه حياة الاغنياء في مقاصفهم. اما منازل الفلاحين الوضيعة فلم تترك لنا سوى آثار حقيرة ، وقد ترفع كافة المؤلفين عن ان

يتكلوا عن حياتهم . ولكنه ليس من الصعب تصورها جانحــة ابداً الى الأرض في عمل يومي متكرر . فهل هم سعداء مادياً يا ترى ؟ كلا ثم كلا : فالنظام قد أوجد لغايات اخرى . ولكن آلامهم ، في الأرجح، أخف من ان تحملهم على الثورة، اذ انهم لم يحذوا حذو القطافين الافريقيين. أجل لقد ذكر ثيميستيوس ، في السنة ٣٦٨ ، ان بعضهم قـد تمنوا مجيء البرابرة . ولكن حين جاء هؤلاء في السنة ٣٧٧ ، لم يلتهز الفرصة سوى عمال المناجم في تراقيا ، وكان كثيرون منهم من البرابرة ، كي يثوروا على اسيادهم . ولعل هؤلاء الكادحين الريفيين ، عندما دقت الساعـة ، شعروا بانهم رومان على الرغم من بؤسهم . ولعلهم شعروا بنوع خاص ان مجيء البرابرة لن يعود عليهم بفائدة ، لا سيا وان هؤلاء الغزاة لم يهتموا القيام باقل اصلاح اجتماعي . ولكن مـا تجدر الاشارة اليه ايضاً هو ان الدولة لم تأخذ على نفسها أمر البحث بين رعاياها والفلاحين وغيرهم عن جنود يتيحون لها الدفاع عن نفسها دفاعاً افضل : ولعلها ، في ذلك ، ما زالت تتذكر أزمــة القرن الثالث وتخشى الاخطار التي قد تعرضها لها الاستعانة بالطبقات الفقيرة .

٣ ـ المجتمع الكنسي

قامت بين المجتمع الكنسي والمجتمع العلماني روابط كثيرة على الرغم من تميز الاول . فهو آنذاك في طور التنظيم ولا يجوز اهماله .

ازدياد الاهتداءات

ليس من ريب في ان العقيدة الجديدة ، منذ تنصّر قسطنطين ، قد وجدت في السلطة السياسية خير معوان لتوسيع عدد أتباعها. فقد أدى العطف الحكومي، في الامبراطورية، أقله الى تقريب ساعة انتصارها. واذا لم تنتظر النصرانية هذا الانتصار وهذا العطف حتى تتخطى الحدود ، فقـد حالفها الحظ احياناً ، حتى في الخارج ، واستمالت بعض الملوك ، الشيء الذي سهّل لها نجاحاتها .

منذ اواخر القرن الثاني، اعتنق النصرانية ملك « اوسروينا » وراء منعطف الفرات. وبعد مرور قرن اعتنقها ملك ارمينيا بدوره . فسار الرعايا هنا وهنالك على خطى ملوكهم . اما في المناطق النائية شرقاً، فلم تحدث على يد المبشرين سوى اهتداءات قليلة: فقد تم بعضها في القفقاس وحتى في آسيا الوسطى ، وقام الساسانيون دون جدوى ، لا سيا في بــلاد ما بين النهرين ، باضطهادات عنيفة في اواسط القرن الرابع ، خلال الحروب التي قامت بينهم وبين روما . اما الاسماعيليون ، على نقيض ذلك ، فقد تولت شؤونهم فترة من الزمن ملكة مسيحية اختطفوهـا من بين رعايا الامبراطورية . وفي عهـد قسطنطين بلغ الهند بعض المسافرين المسيحيين واستمالوا بعض الاتباع على الرغم من قتل رئيسهم. وقد عاد احد هؤلاء المبشرين من الشرق الاقصى وقصد مصر ثم سافر عن طريق البحر الأحمر الى مملكة « أكسوم » عند أعالي النيل ، ونصّر الملك ، ثم أسس كنيسة الحبشة بعد ان سامه اثناسيوس الاسكندري أسقفاً . ودخلت النصرانيــة الى اليمن نفسها . اما في اوروبا فقد سبق وتكلمنا عن دور اولفيلا عند القوط وعن تنقــل هؤلاء

المرطقة الآرية الى الجرمانيين : غير ان أكثرية الفرنجة قد حافظت على وثنيتها حتى كلوفيس . واخيراً ، في القرن الخامس، تنصّر البريطانيون على يد القديس جرمانوس الاوكسيري وتنصرت ايرلندا بعد سكوتلاندا على يد القديس بطريقيوس وبالاّديوس – إلا اذا كان هذان الاسمان قد أطلقا على شخص واحد هو « اسقف السكوتلانديين » نفسه .

حظي كثير من هذه الرسالات الخارجية بأيد الحكومة الامبراطورية التي شجّعت تشجيعاً خاصاً شبه مستمر ، بقوانينها وعملها الاداري اليومي ، نشاط الرسالات في داخل الامبراطورية. ومع ذلك ، فان الارياف ، لا سيما الغربية منها ، قد بقيت بعيدة عن هذا النشاط حتى اول القرن الخامس . وما لبثت كلمة *Paganus* أي الفلاح ان اتخذت ، على الصعيد الشعبي ، ثم على الصعيد الرسمي ، معنى « الوثني » الذي ما زالت منطوية عليه في كلمة *Païen* . ولا يزال مصدر هذا التحول موضوع مجادلات كثيرة؛ ولكن أبسط تفسير لذلك ، كما نرجح ، هو مقاومة الفلاح التخلي عن عباداته التقليدية . ومهما يكن من الأمر ، فان الارياف الغربية كانت ، في الزمان ، آخر ما انتشرت فيه الديانة المسيحية . اما تطور هذا الانتشار فلسنا نعرفه إلا في غاليا حيث قام القديس مارتينوس بعمل مجد حاسم . أسس هذا الضابط السابق ، بمساعدة أسقف بواتيه ، دير ليغوجيه ، ثم سيم أسقفاً على مدينة تور فأسس، في السنة ٣٧٢ ، دير مارموتيه ايضاً . فكان هذان الديران منبتين حقيقيين للرسالات تربى فيها وخرج منها وعاظ ساروا على خطى المؤسس. ولم يمت هذا الاخير إلا في السنة ٣٩٧ . فاشتهر طيلة قرون عديدة بـ « رسول غاليا » بفضل تقشفه وجولاته المستمرة والمعجزات التي اجترحها وتعلق تلاميذه بـه والترجمة التي وضعها له سولبيس ساويروس. ولكن عملاً مماثلاً ، يتفاوت شهرة او سرعة ، قد تم في كل مكان آخر . ولم تحتفظ الوثنية في اوائل القرن الخامس ، إلا ببعض النقاط المتشتتة داخل الامبراطورية .

قوة الكنيسة الاقتصادية

لقد رافق كسبَ النفوس هذا ، بصورة طوعية اجمالاً ، كسبُ الممتلكات الزمنية . فقد اخذ الأنفاق يتزايد تزايداً عظيماً : تشييد الأبنية ، والعناية بها، والعناية بالمدافن، ونفقات العبادة، وحياة الاكليروس المادية، ومساعدات المعوزين . ولكن الاعطيات اخذت تنهمر من كل جهة ايضاً ، من الدولة والافراد . وفي السنة ٣٢١ اعترف قسطنطين للكنيسة بحقها القانوني في تقبل الهبات بواسطة الوصيات (الاوقاف) . ولم ينتظر المؤمنون ، في غالب الاحيان ، ساعة الموت ليبرهنوا عن سخاء مدهش أملاه التقشف والتصميم على الزهد بخيرات هذا العالم : فقد سبق القديسة ميلانيا وزوجها أكثر من سلف ، الشيخ بوملخيوس مثلاً او بولين النولي الذي أصبح اسقف نولا ، مسقط رأسه في كمبانيا . غير ان فالنتينيانوس الاول ، ذلك الحاكم العبوس ، ما لبث ان اغتاظ من بعض ضروب الضغط المريبة والنفعية : فحظر على الكهنة مساعيهم لدى الاوانس والارامل ، وألغى الهبات الوقفية التي قد يقدمنها لهم . ولكنه أغضى ، على ما يبدو ، عن اعطياتهن وعن هبات الرجال الوقفية ، وليس هؤلاء دون النساء حرصاً على خلاص نفوسهم .

وهكذا باتت الكنيسة على جانب عظيم من الثروة. ولم تصدر حكمها على الثروة عند الفقراء، لا بل لم تقل ، كما كانت تقول بصدد الزواج والتبتل ، ان الفقر خير منها . ولم يشذ عن موقفها هذا سوى اصوات معدودة لا شأن لها امتدحت اشتراكية المتلكات : فأفضى اتفاقها مع المجتمع العلماني ، على غرار ما جرى بصدد الخدمة العسكرية والتبتل ، الى تخفيف حدة بعض الحيات . ولكنها قد أوصت بتجنب الجور في جمع الثروة وبتجنب التمتع بها بأنانية وبخل . وقد أعطت المثل في هذا الصدد بتوزيع الاحسانات وتشييد المآوي العجزة والملاجيء للأرامل وتربية الايتام . فألقت الدولة على عاتقها عمل برّ لم تعره يوماً أهمية جدية : اذ ان مشروع « التغذية » نفسه الذي تحقق في عهد ترايانوس كان يستهدف غاية أخرى . وقدمت النصرانية للعالم القديم مفهوماً جديداً هو مفهوم التقوى الفاعلة ، فجعلت منه الكنيسة حقيقة واقعة في مجتمع شكا من جروح كثيرة. وقد قدّر القديس يوحنا فم الذهب مسيحيي القسطنطينية ، دون المراطقة ، بـ ۱۰۰۰۰۰ كان نصفهم من الفقراء ، أي من تؤدي لهم الكنيسة المساعدات .

كانت هذه الثروة متنوعة الاشكال . فقد ضمت العبيد . أجل لم تبتعهم الكنيسة ابتياعاً ، ولكنها كانت ممسكة في اعتاق من تحصل عليهم من اسيادهم أو من يولدون في كنفها . فهي قد اصدرت حكمها ، كما رأينا ، لا على الرق كنظام ، بل على اولئك الذين اغضبهم وجودها ؛ وقد حاول القديس اوغسطينوس تقديم الدليل على ان الشريعة الموسوية، التي أوجبت تحرير العبد اليهودي في اول السنة السابعة من عبوديته كابعد حد ، لا يمكن تطبيقها على المسيحيين . وامتلكت الكنيسة كثيراً من الأراضي ايضاً : وما لبثت ان اصبحت اهم ملاك عقاري في الامبراطورية ، بعد الامبراطور والدولة . غير ان وجود هذه المتلكات قد خلق معضلة الواجبات نحو الدولة . فلما كان من غير المعقول ان تضعف الدولة ، اخضعت الأملاك الكنسية للموجبات العامة التي تناولت الاملاك الامبراطورية نفسها . وقد برز في كثير من المدن « المدافع عن الكنيسة » وهو مماثل « للمدافع عن المجلس » و « المدافع عن المدينة » ، الذي يتولى المشورة والدفاع في علائق الكنيسة بالادارة . وقدمت الكنيسة المجندين للجيش . ورفضت الدولة الاعفاء من الضريبة الشخصية وحتى من الحجز لمصلحة الجماعات حين تكون المتلكات موضوع مثل هذا الحجز : فقد تخلى القديس اوغسطينوس باسم كنيسته عن هبة مجمول احد الزوارق خوفاً من الكوارث التي قد يترتب عليه الاشتراك في تحمل مسؤوليتها . واكتفت الدولة بالاعفاء من التسخير الذي سبق للاشراف والاكليروس ان افادوا منه .

لا يظهر دور الكنيسة الاقتصادي في مصادرنا الا بوجود موازنة البر والقوانين الجبائية . ويؤسفنا في الحقيقة الا نعلم عنه اكثر من ذلك، اذ ان هذه القوة لم تبق دون اثر في المجتمع العلماني كما نرجح . بيد انه يجوز لنا التساؤل عما اذا لم يسهم سوء ادارة هذه الأملاك ، كما نقدر ، في تدني انتاج عام لم يكن يوماً فائضاً . ويغلب ان نتائجه قد انضمت الى ما هو طبيعي وعادي دون ان يستطيع احد تحديده عددياً : اعني به الاقتطاع الذي حصل ، بفعل تزايد عدد افراد الاكليروس، – في الوقت نفسه الذي رفعت فيه ادارة الدولة عدد موظفيها – من مجموع الطاقات

البشرية المتنجة الموجودة في الامبراطورية ، وهو مجموع لم يكن قط فائضاً ايضاً .

التنسك والترهب

ان هذه الملاحظة ، التي قد تظهرنا بمظهر من يعود الى رأي طلعت به الفولتيرية ، وأفاد منه بعض المسؤولين المستبدين ايما افادة ، تؤدي بصورة طبيعية جداً الى بحث بعض مظاهر الحياة الدينية التي ابعدت بعض المؤمنين ابعاداً تاماً عن النشاط العـام : التنسك والترهب .

ظهر كلاهما في مصر في اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع ، وعرفا في البداية نجاحاً عظيماً في الشرق . ليس من السهل تحليل اصولها واسباب انتشارها . بيد انه يستحيل الا نرى فيها نتيجة لحرارة صوفية راسخة في هذه المناطق : وقد سبق للنصرانية ان اكتشفت فيهـا ، لدى سكان الأرياف ، بيئة انتشار مؤاتية قل نظيرها ، حين خرجت من المدن في القرن الثالث واعتمدت في وعظها اساليب الكلام البلدية الغريبة عن النخب المثقفة . غير ان الصوفية والتقشف لا يستوجبان مغادرة المنزل : فقد عاش الكلبيون اليونانيون في المدن . فنحن نرجح ان بعض الاعمال التي حققها « مصارعو الايمان » بتسابقهم في هذا الحقل كان من شأنها ، لو اتسمت بمزيد من الصعوبة ، ان تتسم بمزيد من الروعة . اما الحقيقة فهي ان هذه الحركة ، التي انطلقت من ادنى الطبقات الاجتماعية ، كانت بمثابة احتجاج على التسويات الرسمية والزمنية التي فرضهـا على الكنيسة انتصارهـا . فيجب من ثم ان نحترز من اسم « الفارين » الذي اطلق بسرعة على المتفردين : فهو يشملهم باولئك الهاربين الذين حاولوا في مصر ، منذ القرن الثالث قبل المسيح ، التخلص من الاقتسارات الادارية بالابتعاد عن المجتمع العادي . بيـد ان فكرة الثورة الفردية والسلبية نفسها ، وهي تتجلى في التضحية بكل مـا يعلق عليه الرجل المتوسط تلك القيمة العظمى ، قد أوحت بهذه الاحتجاجات التي لم تختلف عن الاحتجاجات الاخرى الا بإيمانها الذي اعطت عنه برهاناً باهراً . وما هي ، بهذا الصدد ، بين اليأس والأيمان ، العاطفة التي تنبثق من الاخرى أو العاطفة التي تساند الاخرى ؟ وباية نسبة يحل الأيمان محل اليأس ، امـا في التطور الداخلي لكل شخص ، واما في اساس قراره بالذات ، بفضل قوة المثل ؟ فيتضح بالتالي ان كل حالة تشكل مسألة خاصة ، كما يتضح ايضاً ان هؤلاء الرجال لم يهتموا لايضـاح سيكولوجيتهم الفردية للاجيال الطالعة : اذ ان كثيرين منهم ، ابتداء من القديس انطونيوس ، كانوا اميين .

أعطى المثـل القديس انطونيوس الذي قصد ، حوالي السنة ٢٧٠ ، الصحراء الى الجنوب الشرقي من الدلتا حيث عاش حياة حرمان وصلاة مقاوماً تجارب الشيطان . ثم أرغمه اقبـال المقتدين به من المعجبين على الابتعاد نحو البحر الاحمر بحثاً عن خلوة هادئة . وعندما ادركته المنية ، بعد ان تجاوز سن المائة ، في اواسط القرن الرابع ، كانت معجزاته وتقواه قد أعطته قداسة احترمها واعترف له بها قسطنطين واولاده انفسهم ؛ وقد كتب ترجمته القديس اثناسيوس الذي كان هو قد ايّده في صراعه الحاد ضد الآرية ، فانتشرت في جميع أنحـاء الامبراطورية وقرأها الكل بشغف . ولكن الصحراء ، منذ قبل وفاته ، قـد أهلت بالنسـاك ، اما في جوار

انطونيوس ، واما غربي النيل في وادي نيتريا . فكان فيها ، حتى قبل وفاة قسطنطين ، عدة آلاف من النساك لا يجتمعون إلا يوم الاحد للخدمة الإلهية، ويعيشون في قلالٍ صغيرة ، متبارين في الاعمال التقشفية الرائعة : فان مكاريوس مثلاً ، الذي كان يقضي الليالي منتصباً على قدميه ، لم يقفل عينيه طيلة اربعين يوماً ، وبقي سبع سنوات دون ان يأكل غذاء مطبوخاً .

كان هؤلاء رهباناً بكل ما في الكلمة من معنى ، أي اشخاص « منفردين » لا يخضعون إلا للالهام الشخصي في مسلك حياتهم. وقد أسس مصري آخر هو القديس باخوميوس ، قبيل هزيمة ليسينيوس ، ما أطلق عليه خطأ اسم « الدير » بينما هو « الحياة المشتركة » بالضبط ، وذلك الى الغرب من طيبه في مصر العليا . وما لبثت هذه المؤسسة ان ضمت أكثر من ٢٠٠٠ رجل . ثم تأسست لها فروع في أنحاء مختلفة : فعند وفاة باخوميوس في السنة ٣٤٦، كان هناك تسع جمعيات للرجال واثنتان للنساء. اما النظام المكتوب الذي وضعه المؤسس لهذه الجمعيات، اذا ما استثنينا منه بندي الانفراد والفصل بين الجنسين ، فلم يكن صارماً جداً : الزام باستظهار العهد الجديد والقيام ببعض الاعمال ، وحرية في المأكل والمشرب . ولكن أنظمة أخرى ، في مصر نفسها ، كانت اشد صرامة .

اقتدي بهذه الممارسات التقوية في كل مكان ، وفي آسيا في الدرجة الاولى . فكان هنا ايضاً زهاد أثاروا الدهشة بتجلدهم وابتكاراتهم التقوية.. ولكن واحداً منهم لم يتفوق على القديس سمعان الذي ترك ، في اوائل القرن الخامس ، احد الاديرة حيث طلب اليه الاعتدال في اماتة نفسه ، وارتأى ان يقيم على عامود مبني ، على مقربة من انطاكية ، لم ينزل عنه إلا ليعتلي عواميد اخرى تزداد كل مرة ارتفاعاً ، آملاً بذلك تجنب مضايقات الجماهير الآتية بأعداد غفيرة بغية التطلع اليه والتأمل به : وهكذا ارتفع ، خلال ٣٧ سنة ، من ثلاثة امتار الى ١٨ متراً عن الارض . واقتدى به « عاموديون » آخرون ، كما قام « الشجريون » الذين اعتلوا الاشجار ، و « البئريون » الذين اقاموا في قعر الآبار، الخ. اما في الاديرة فان القانون الذي وضعه القديس باسيليوس حوالي السنة ٣٦٧ هو الذي عرف أكبر نجاح : وقد أخضع فيه الجمعية لسلطة الرئيس المطلقة وقسم اوقات الرهبان بين العبادة والقراءة والعمل ، لا سيا العمل الزراعي . ثم انتقل هذا القانون الى البلقان حيث لا يزال معمولاً به في اديرة العالم اليوناني والسلافي .

وأسس بعض اتقياء الغرب ، من امثال القديس ايرونيموس في بيت لحم ، والقديسة ميلانيا القديمة ، عدداً من الاديرة في فلسطين. وفي النصف الثاني من القرن الرابع، ظهرت فيها الحياة النسكية ايضاً ، وكانت الغاية منها تنظيم الحياة المشتركة للاكليروس أولاً ، وابتعاد رجال الدين عن اهواء الجيل ثانياً. ولكن سيطرة هذين النظامين لم تحل دون تنوع الحياة النسكية كما يتضح من الجمعيات التي أسسها القديس مارتينوس .

يبدو ان الاهالي قد نظروا ، في كل مكان ، بعين راضية معجبة الى هذه الحركة وما رافقها من تضحيات طوعية دائمة . وفي مصر وسوريا بنوع خاص ، اسهم الرهبان ، الذين انتموا بمعظمهم الى اوساط ريفية وضيعة لم تتسرب اليها اللغة اليونانيــة ، في نهضة اللغات القومية

المنحطة . فبرزت في اللغة القبطية ، وريثة اللغة المصرية الشعبية القديمة ، معالم ادب جديد كان باعثه الاول شنودي ، رئيس « الدير الابيض » الذي كان قد اسسه في منطقة طيبة واخضعه لنظام اشد صرامة من نظام باخوميوس . وكانت الحياة النسكية عوناً للغة السريانية ايضاً ، وهي وريثة اللغة الآرامية ، التي كانت صائرة الى الزوال في مناطق الفرات . لذلك فان الحياة النسكية هذه ، اقله في هذا العهد ، لم تخدم قضية الحضارة التي كان على الامبراطورية الدفاع عنها . وفي اغلب الاحيان ايضاً ، عبر الرهبان عن الفطرة الشعبية وخدموها بمساندتهم النصرانية على الوثنية وعقيدة مجمع نيقيه على الآرية . ولما كانوا سريعي التأثر والانفعال ، فقد كانوا يتركون عزلتهم أو يخرجون من بعض الأديرة ، بالاتفاق مع رئيسهم أو بأمر منه احياناً ، ويجتمعون زمراً في المدن . فقد اشتركوا ، لا سيما في الاسكندرية حيث جعل منهم الاتفاق بين انطونيوس واثناسيوس ادوات طيعة في يد الاسقف ، في اكثر من عمل شغب عنيف . وكانوا في مثل هذه الظروف يتسلحون بالعصي وينشدون الاناشيد .

لذلك لم يكن باستطاعة الدولة ان تشعر نحوهم باي عطف . ولكنها ، على الرغم من ذلك ، قلما تجاسرت على محاولة اخضاعهم لقانونها . وقد وجب ان يستلم الحكم امبراطور آري ، هو فالنس ، كي يأمر بالبحث بينهم عن « المتملين » الهاربين لاعادتهم الى مدنهم الاصلية ويفرض الخدمة العسكرية على نساك نيتريا بعد اصطدامهم بالجنود : ولكن هذا التدبير لم ينفذ . ولم يبطىء ثيودوسيوس نفسه ، بعد اصلاح ذات البين بينه وبين القديس امبروسيوس ، في الغاء قانون يحرم على الرهبان الاقامة في المدن ، كان قد اصدره منذ اشهر قليلة .

كان امبروسيوس ، في محاربة الآرية ، حليف اسقف الاسكندرية الذي كان يعرف كيف يستخدم سجسهم نفسه . لذلك فقد نظر اليهم بعين راضية . ولكن اساقفة آخرين كثيرين قد وقفوا منهم غير هذا الموقف لانهم لم يرضوا عن سجسهم وعن احتقارهم السلطات الكنسية الرسمية . وفي اعقاب حوادث متكررة – لم تخل منها غالبا نفسها بعد وفاة القديس مارتينوس – في الشرق اولاً ثم في الغرب ، التأمت بعض المجامع في اواسط القرن الخامس واخضعت الاديرة لرقابة الاسقف الشديدة: فحلت بذلك معضلة كانت مدعوة لأن تثار مراراً فيما بعد . لا ريب في ان الحياة النسكية قد زخرت باعمال تقوى تثير الاعجاب ، ولكن المسؤولين عن السلطة قد شعروا بحاجة الى ضبط هذه الحرارة التي كانت تخفي رواسب كثيرة من الفوضى التي ميزت عامة الشعب في السابق .

الاسقف وكنيسته

هؤلاء المسؤولون هم الاساقفة . فالكنيسة ما زالت منظمة كنائس مختلفة ترافق كل منها مدينة من المدن . وقد أدت الى هذا النظام قرون من الحضارة والادارة افرغت في هذا الاطار حياة رعايا الامبراطورية . اما عند البرابرة الذين حافظوا على تنظيمهم القبلي ، فالاسقف يعينه رئيس القبيلة ، لا المدينة . وقد تقوم في ارض هذه الاخيرة معابد كثيرة ، وقد حدث ذلك بسرعة بسبب ارتفاع عدد المؤمنين . ولكن كل هذه

المعابد تخضع له وحده . اجل لقد حصلت بعض الخلافات بين الاساقفة وبعض كبار الملاكين الذين يخصصون في املاكهم بناء العبادة ويحاولون، شأنهم في شؤون ادارية كثيرة ، تجاهل المدينة ، ولكن الغلبة كانت للاساقفة في النهاية .

فهم يعينون ويديرون اكليروساً مطرد الزيادة يضاف اليه عالم اكليريكي أكثر عدداً ايضاً غير واضح المعالم احياناً : فان قراء العزائم مثلاً ، الذين يلعبون دوراً في الاعداد للعمودية ، قد اعتبروا اكليريكيين في الغرب دون الشرق . ولهم دواتهم وكتابهم الشرعيون ورجال أعمالهم وقهارمتهم . يستشيرون سواهم ولكنهم ينفردون في اتخاذ مقرراتهم ، والكاهن الذي لا يخضع لهم انما يرتكب خطأ معثراً . يحظون بأيد الحكومة ، أي الادارة ، إلا في بعض الحوادث الفردية . ونحن لن نعود هنا الى تدخل السلطة المدنية ضد الهراطقة والملحدين، ولا الى تنازل قسطنطين عن قسم من السلطة القضائية للأساقفة . ولكن هذه التدابير قد رفعت من شأن سلطتهم الادبية التي كانت عظيمة جداً على المؤمنين والتي أيدتها سلطة اقتصادية متزايدة. فلا عجب والحالة هذه اذا أصبح الاسقف رئيس المدينة حين اضمحلت الامبراطورية في الغرب.

لم يلطف هذه السلطة المطلقة إلا الرأي العام . فهذا الأخير يبرز حين تعيين اسقف جديد ، وهذا الحدث ، بفعل سلطة الاسقف بالذات ، اهم من ان يقصى عنه المؤمنون . يقترح على « الشعب » احد الاسماء بعد التشاور بين أساقفة الجوار والاكليروس المحلي ، فتقوم المناداة به مقام الانتخاب ويسام المنتخب اسقفاً على يد احد الاساقفة الحاضرين . ولكن فقدان الانظمة القانونية يثير احياناً منازعات تؤدي الى الانشقاق والاصطدامات الصاخبة : فقد سقط قتلى كثيرون حين عين داماز اسقفاً على روما .

لم يفرض أي شرط لشغل هذه الوظائف . اجل لقد تكلم البابا ، في عهد متأخر ، عن ٣٠ سنة لمنصب الشماس الانجيلي، و ٣٥ للكهنوت، و ٤٠ للأسقفية واوجب التبتل في هذه الدرجات الثلاث . ولكن المخالفات كثيرة حتى في الغرب ، وهي أكثر منها في الشرق حيث اقتصر على تحريم الزواج بعد الحصول على درجة الكهنوت دون ابطال الزواج المعقود سابقاً. ولا يجوز القول بأن هنالك تألباً في المناصب الكنسية . فاذا كان الاسقف قابلاً للعزل بقرار من احد المجامع ، فهو لا يستطيع مبدئياً مغادرة مدينته الى مدينة اخرى : فقد حرّم ذلك مجمع نيقيه، وقد اضطر غريغوريوس النازينزي ، امام الانتقادات التي أثارها نقله من أسقفية أسيوية صغيرة الى أسقفية القسطنطينية ، الى تقديم استقالته والالتجاء الى خلوة قضى فيها ايامه الاخيرة . إلا انه يجوز اختيار الاسقف ، مهما كانت مرتبة اسقفيته ، حتى من بين العلمانيين ، وحتى من بين العلمانيين غير المعمدين ، على الرغم من مقررات مجمع نيقيه ومن اندثار العادة القديمة التي كانت تؤخر المعمودية حتى وقت الاشراف على الموت. فهذا الاسقف كان شماساً انجيلياً . واوغسطينوس ويوحنا فم الذهب كانا كاهنين ، ولكن الاول سيم اسقفاً في هيبونا حيث كان كاهناً ، بينما انتقل الثاني من انطاكية الى القسطنطينية . وكان امبروسيوس حاكماً على ولاية ميلانو حين انتخب اسقفاً لهذه المدينة . اما الروفي الكيريني سينيزيوس ، فان كثيراً من العلماء يشكون في انه

كان مسيحيا حين نزل عنـد الرغبة العامة ورضي بأسقفية بتوليمايس . غير ان الشعب ، في اكثر الاحيان ، اعظم تأثراً ، لا سيا في الغرب، بتقشف المنتخب وتقواه ومحبته للقريب منه باستقامة إيمانه . ثم فعلت التأثيرات الاجتماعية أو السياسية فعلهـا بصورة تدريجية . فغدا حظ أبناء العائلات الكبرى في الفوز بمنصب الأسقفية عظيماً جـداً . ولم تكتف السلطة السياسية بالتدخـل تدخلاً فقط في بعض الانتخابات ، بل فرضت فيها رأيها أحياناً ، كما فرضته دائمـاً تقريباً بصدد تعيين أسقف القسطنطينية بنوع خاص . فيوحنا فم الذهب مثلاً مدين لأفتروبوس، مدير غرفة الامبراطور ، بوصوله الى هذه الاسقفية في السنة ٣٩٨ ، كما انه أقصي عنها بعد مرور خمس سنوات ، بتأثير من الامبراطورة .

الكنيسة : المجامع

بيد ان الكنائس ، صغيرة كانت أم كبيرة ، لم تكن منعزلة في حياتهـا الخاصة التي يشرف عليها اساقفة يتمتعون بسلطة مطلقة . فهي ، من حيث مرور كافة علائقها الخارجية بالاساقفة ، تعي انتماءها الى جسد واحد هو الكنيسة . أجـل لقد جمع بينها ، منذ القدم ، الاتحاد في الايمان . ولكن العهد الامبراطوري الثاني قـد أتى بشيء جديد هـو احداث تنظيم تدريجي . لم تجمع القوانين بصورة نهائية بعد ، ولا يزال سير الآلة الطرية العود عرضة لصعوبات كثيرة . غير ان التطور التنظيمي قد ابتدأ ، مهما كان من غموضه ومن تقلب اتجاهه .

سلكت الكنيسة طريقاً تعوّدت سلوكها منذ القدم هي طريق المجامع : اذ ان الهيئة الأسقفية فوق كل اسقف . فالتأمت مجامع كثيرة متنوعة جداً من حيث السلطة التي تدعو اليها، ودائرة الاختصاص التي توجه الدعوات في اطارها ، وعدد الاساقفة الذين يشتركون في هـذه المجامع . وكان اهتداء الامبراطور فرصة لعقد المجامع المعروفة بـ « المسكونية » ، وهي قليلة على كل حال : مجمع نيقيه في السنة ٣٢٥ ، ومجمع القسطنطينية في السنه ٣٨١ ، ومجمع افسس في السنة ٤٣١ ، ومجمع خلقيدونيا في السنة ٤٥١ . فهو الامبراطور الذي يدعوهم اليها لأنه بحاجـة اليهم للفصل في مسائل عقائدية، او الحكم على اسقف ذي نفوذ كبير . ويشارك في هـذه المجامع أساقفة من خارج الامبراطورية : كاولفيلا الذي توفي في القسطنطينية ، وبعض أساقفة الارمن والفرس ، الخ . ولكن هيهات ان يجتمع كافة الاساقفة : فلم يضم مجمع القسطنطينية منهم سوى ١٥٠ فقط ، لم يكن بينهم أي اسقف غربي ، حتى ممثل البابا نفسه . وقد التأمت ايضاً مجامع اقليمية كثيرة تتفاوت أهمية . ولكن صغار الاساقفة لم يرضوا عادة عن مثل هذه المجامع ، لأنها تتدخل احياناً في شؤونهم . إلا ان التئامها ما لبث ان اصبح تقليداً راسخاً . فاذا اخذنا بعين الاعتبار بعض التغييرات اللازمة ، اتضح لنا ، على الرغم من شتى ضروب الضغط ، ان شكل الحكم الجماعي هذا ، كان آنذاك ، في الكنيسة ، بفعل انتخاب الاساقفة ، أشبه بالحكم البرلماني : والفارق الهام بينها هو ان هذه المجامع لم تكن دورية .

رؤساء الاساقفة والبطاركة

وقد رافق شكل الحكم هذا شكل آخر غير جديد تماماً عرف آنذاك انتشاراً عظيماً : سلطة فعلية وقانونية يمارسها بعض الاساقفة على أساقفة آخرين يصبحون مرؤوسيهم . اما صلاحيات هـذه السلطة فهي تصديق الانتخابات ، والتوبيخ ، والقضاء الاستئنافي ، والدعوة الى المجامع ، الخ . واما اصولها فمختلفة جداً ، وهي عرضة لتبدلات كثيرة بفعل حزم او ضعف الافراد ، وبفعل التطور في أهمية المدن ، ولا سيا أهميتها الادارية، اذ ان للحكومة مصلحتهافي إحكام تسلسل السلطة التي تسهل على رقابتها وضغطها اذا اعتمدت تقسيماتها الادارية الجغرافية نفسها . فلا سبيل من ثم لأن ندرس هنا هـذا التطور المرتج ؛ لذلك فنحن سنقصر الكلام على نتائجه الرئيسية .

اخضع الجمع النيقاوي اساقفة كل ولاية لأسقف مركز هذه الولاية ، « رئيس الاساقفة » . غير ان هذه الدرجة لم ترتد طابع الاهمية آنذاك، بسبب تجزئة الولايات ، إلا في آسيا الصغرى. وكان هنالك تقسيم اداري آخر هو الابرشية : وقد استطاع اسقف مركزه هنا وهنالك ان يحظى ببعض النفوذ ، وقد أطلق عليه احياناً ، في الشرق ، اسم « اكسارخوس » ؛ بيد ان كل ذلك لم يخرج في الواقع عن نطاق المصادفات والملاءمات .

اما المراكز الاسقفية التي انفصلت حقاً ، أي تلك التي اطلق على أساقفتها اسم« البطاركة »، فبدينة بنفوذها وأولويتها الى أسباب اخرى . فكان الباعث الى ذلك في أغلب الاحيان، أهمية المدينة المادية ، واشعاعها على منطقة كاملة ، وقدم كنيستها ، وتأسيسها على يد أحـد الرسل ؛ ولكن الرجال كان لهم أثرهم أيضاً . فان أسقف قرطاجة الذي لم يفز قـط بلقب « البطريرك » قد مارس مع ذلك سلطة لا جدال فيهـا على افريقيا . واعترف الجمع النيقاوي برتبة خاصة لاسقفي الاسكندرية وانطاكية : فكان الاول سيداً مطلقـاً حقيقياً في مصر ، وبدا في بعض الظروف وكأنه يسيطر على الشرق بأجمعه . وفازت اورشليم، في القرن الخامس ، بالبطريركية . اما النجاح الذي يلفت الانتباه ، فهو نجـاح القسطنطينية ، التي حالت بعض الأسباب دون ايراد ذكرها في نيقيه في السنة ٣٢٥. حرص الامبراطور على رفع مقام عاصمته. فاعتُرف لاسقفها، منذ السنة ٣٨١ ، بالمرتبة الثانيـة ، مباشرة بعد اسقف روما ، ولكنه لم يفز بهـا ، في مجمع خلقيدونيا ، إلا بعد جهود شاقة وسلسلة من الأحداث الصاخبة .

البابوية

لا يبقى أمامنا سوى اسقف روما .

لم يكن ممكناً ان تنافس هذه المدينة ، بسبب أهميتهـا الواقعية ، أية مدينة اخرى . فان عظمتها التاريخية ، المرتبطة بفكرة الامبراطورية نفسها التي لم يزعزعهـا غياب الامبراطور ، كانت آخذة بالازدياد : أضف الى ذلك ، على الصعيد الديني ، ان وجود مدفني القديسين بطرس وبولس ، والوعد الذي قطعه المسيح لبطرس مؤسس الكنيسة الرومانية ، قد أوليا هذه الكنيسة حقوقاً أخرى. فمتى طالب أساقفتها بهذه الحقوق يا ترى ؟ ان المسألة موضوع

جدال ، غير ان النصف الاول من القرن الثالث ، هو التاريخ الفاصل في هذا الموضوع ، ولا يعني ذلك ان مطالباتهم كانت شديدة دائماً . ولم ينكر أحد في الحقيقة اولوية البابا الشرفية – درجت العادة على اطلاق هذا الاسم عليه ، بعد ان اطلق على كافة الأساقفة في البداية – فقد اعترف له بها اعترافاً صريحاً المجمع النيقاوي وكافة المجامع المتعاقبة . ولكن شتان بين هذا الاعتراف وبين الخضوع له في العقيدة والنظام ، كالسماح له بأن يمارس فعلاً سلطة قضائية استئنافية : فكان هنالك ميل طبيعي الى الاستعانة بسلطته ، حين يرتقب المستمين وقوفه الى جانبه ، والى انكار قدرته على الفصل ، في الحالة المعاكسة . لذلك ستبرز ، في وجه سلطته منازعات لا يحصى لها عدّ .

برهن الشطر الاكبر من الغرب عن لين قياده بصورة عامة . ففي شبه الجزيرة الايطالية بنوع خاص شابهت سلطة البابا بقوتها سلطة اسقف الاسكندرية في مصر . أما في المناطق الاخرى ، كغاليا واسبانيا والّيريا ، فقد تميزت العلائق ، من كلا الطرفين ، بمزيد من الدقــة . ولا تعود اول براءة بابوية اصلية ، في المجموعات التي وضعت في القرون الوسطى والتي تتضمن نصوصاً مزورة كثيرة ، الى ما قبل السنة ٣٨٥ . وقد انطوت هــذه البراءات ، وهي في الغالب اجابة على سؤال يتقدم به أحد الأساقفة ، على أنظمة عامة مبدئياً . ولكنهــا قد بقيت نادرة – ١٧ حتى آخر القرن الخامس – ولم يهتم بعض الأساقفة الغربيين التقيد بها .

اما المسيحيون الافريقيون ، بقيادة رئيسهم اسقف قرطاجة ، فلم يتراجعوا امام مشادات على بعض العنف في القرن الثالث اولاً ، ثم في القرن الرابع مرة اخرى . وقد ألهمت احدى هذه المشادات القديس اوغسطينوس كتابة كلمته المشهورة : « تكلمت روما ، اذن انتهت الدعوى » . ولكنه ما كان ليكتبها لو ان البابا زوسيموس لم يحكم له في ما كان يدافع عنه ، ناقضاً حكمه الاول ونازلاً عند القرار الامبراطوري .

اذا كانت هذه حال الغرب ، فباستطاعتنا ان نتصور حال الشرق بسبب وجود البطريركيات العظمى والعناد الذي رافق المشادات العقائدية . فقد جرت حوادث مؤسفة جداً . وقد اعترضت البابوية عوائق كثيرة ، فكانت نجاحاتها بطيئة جداً ايضاً ، لا بل ليس من الجسارة انكار واقع هذه النجاحات . ومهما يكن من الأمر ، فان شيئاً نهائياً لم يتقرر في العهد الامبراطوري الثاني . وأكثر من ذلك ، فان نفوذ أسقفية القسطنطينية المتزايد قد اقام اخيراً ، في وجه اسقفية روما ، منافساً كانت القطيعة معه ، في غد قريب او بعد ، امراً محتوماً .

يردّ ذلك الى العامل السياسي . فان امبراطور الشرق ، الذي اقام في القسطنطينية ، ومارس حيال الكنيسة ما درجت تسميته بـ « بابوية القيصر » ، لم يترك لأسقف عاصمته مزيداً من الحرية ، ولكنه ، بالمقابلة ، سيساند مقاومته لروما . وعلى نقيض ذلك ، فان ضعف امبراطور الغرب وبعده عن عاصمته ، حتى قبل زواله ، قد أعطيا البابا استقلالاً عملياً عظيماً : فان حزم القديس

ليون مثلاً (٤٤٠ – ٤٦١) قـد صادف بالتالي ظروفاً مؤاتية . فهو انما فاوض اتيلا في السنة ٤٥٢، وجنسريك في السنة ٤٥٥، بناء على طلب الحكومة ومجلس الشيوخ: وكان من سلطته الادبية انها فرضت نفسها حتى على البرابرة الوثنيين او الآريين وانه قام مقام الامبراطور الحائر . فغدا البابا رئيس روما في الوقت الذي غدا فيه الاساقفة رؤساء مدنهم .

لا ريب من جهة ثانية في ان تطوراً مقابلاً قد قلّل من سلطته على الكنيسة في الشرق حيث لم تكن قوية في يوم من الايام ، وفي الغرب حيث ذهب اقتسام الامبراطورية بين عدة ممالـك بربرية بالسهولات التي وفرها له وجود ادارة مركزية .

ولذلك فان مستقبل البابوية لم يكن بعد واضح المعالم عند نهاية العصور القديمة .

الفصل الخامس

الفكر والفن

ان المقومات الثقافية في حضارة الامبراطورية الثانية ، اذا ما نظرنا اليها ككلّ ، لا تتسم في الحقيقة ، من حيث قيمتها المطلقة او النسبية ، بأهمية شبيهة بتلك التي تتسم بهـا حضارات أخرى في العالم المتوسطي القديم . ولكن هـذا التفاوت محصور في الحقلين الفني والفكري . فالفكرة الدينية تنم عن قوة حياة مدهشة ، ولا حاجة بنا للتشديد على الاهمية التي ترتبط ، في التطور العام ، بعهد يتسم بانتصار ديانة لا تزال حية في مئات ملايين النفوس حتى ايامنا هـذه . وقد بلغ خلال هذين القرنين ، من المركز الذي احتله الواقع الديني ، ومن الدور الذي لعبه في الحياة الفردية وحتى الاجتماعية ، انه اتحد بجوهر مظاهرها السياسية والاقتصادية والاجتماعية . فلا سبيل لادراك أي من هذه المظاهر بدونه . ولذلك فقد توجب علينا فيما سبق ، عند الكلام عنها ، ان نتطرق اليه وندرس بعض شؤونه وبعض نتائجه . وقد آن الوقت لأن ندرسه في حدّ ذاته .

١ ـ الفكر الديني

سنحت الفرصة أكثر من مرة ، في الفصول السابقة ، للاشارة الى التأثيرات التي كان الشرق مصدرها آنئذ. ولكننا اشرنا اليها في عداد تأثيرات اخرى دون ان نحلها في المرتبة الاولى. اما الحقيقة فهي انها تحتل هذه المرتبة دون منازع على الصعيد الديني . فقد كانت شرقيةً العبادات التي اضطرت النصرانية لمناهضتها حتى تتحقق لها الغلبة. وكانت شرقية الديانة المسيحية نفسها. ونشأت في الشرق الجادلات الدينية وما رافقها من مشاقّات أرغمتهـا على التعمق في عقيدتها بالذات . وهل من سبيل ، والحالة هـذه ، لأن نستغرب هذه الاولوية ؟ فلم يبق الشرق ارضاً دينية ، شأنـه في السابق ، فحسب ، بل تغلب من جهة ثانية على الغرب بالحذاقة الفكرية والسحر الجمالي، والنشاط الاقتصادي ، أي بكل ما يحمل البشر جُسُراً ومغامرين ومستميلين ومقنعين .

١ - الوثنية

العبادات الشرقية ومذهب توحيد الآراء

لقد ظهر اثر الشرق ، فيما يعود للوثنيـة ، بصورة قوية جداً ، منذ الامبراطورية الاولى ، ونحن لن نرجع هنا الى الدلائل التي قدمناها على اسباب وميزات التيارات الكبرى التي احدثها فيها . ولكننا نقول انها برزت في القرن الثالث بمزيد من القوة .

فالقرن الثالث هو الفترة التي عرفت فيها عبادات الآلهة الشرقيين منتهى نجاحها . ونذكر على سبيل المثل ان عبادات ايزيس وسيبيل ولا سيا ميترا ، وهي العبادات الرئيسية ، قد بلغت آنذاك اوج انتشارها الذي سهّله لا تساهل الاباطرة فحسب بل مشايعتهم الشخصية ايضاً . ففي السنة ١٩٧ أحيا سبتيموس ساويروس ، في مدينة ليون ، بتضحية ثور عظمى ، ذكرى انتصاره على كلوديوس ألبينوس. وشيّد ابنه كركلا ، في روما ، هيكلاً لسيرابيس ، وجهّز معبداً لميترا في ديامیس حماماتها العامة . وغدا لقب ميترا (المنيع) لقباً من الالقاب الامبراطورية ، ويتضح من كتابة رسمية تعود الى عهد ديوكليسيانوس انهم جعلوا من هذا الإله شفيع الامبراطورية .

وقد برز في القرن الثالث بمزيد من القوة ، ميـل الى مذهب توحيد الآراء حظي بمساندة السلطة . فجسده ايلاغابال تجسيداً يستدعي السخرية باحتفاله بأبهة بزواج بعل حمص ، الذي كان هو كاهنه الاكبر وحمل اسمه ، من سيليستيس أي تانيت التي استحضرها من قرطاجة . وكذلك فقد نقل الى المعبد الذي شيده لإلهه نارفيستا ، وتروس مارس المقدسة ، وكعبة الأم العظمى ، أيْ سيبيل ، التي أتى بها مجلس الشيوخ من بسّينونته الى روما ، في اواخر الحرب البونيقية الثانية ، الخ . ولكن الواقع ، اذا ما وضعنا المستهجنات جانباً ، هو انهم قد رغبوا في التقريب بين الآلهة فوق رغبتهم في الابعاد بينهم . ولعلّهم شعروا ايضاً بميل فطري الى ان يقيموا ، في وجه إله المسيحيين ، إلهاً واحداً يجمع في ذاته كافة الطاقات الكونية . وبحسب الفكرة التي كونوها عنه ، كانت الغلبـة لهذا الإله الخاص او ذاك : كالشمس مثلاً ، اما باسم ابولون ، واما مباشرة باسمها اليوناني هليوس، او اسمها اللاتيني سول ، او كجوبيتر وسيرابيس وميترا . وقد يحدث ان تطلق عليه جميع هذه الأسماء في آن واحـد . ومهما يكن من الأمر ، فقد انتقلت الصفات الإلهية من لمعان وسيطرة على العالم كله ، ومناعة ، دون أي تمييز ، من هذا الإله الى ذاك ، ونسبت في آن واحـد الى الامبراطور نفسه الذي غدا تجسيداً لهذا الإله الكلي القدرة على الارض .

الافلاطونية الافلوطينية الحديثـة

لقد سبق ورأينا ان الحركة الفلسفية قد جارت هذه الحركة الدينية منذ زمن بعيد ايضاً . فقامت في القرن الثالث بآخر خلق عظيم طلعت به العبقرية اليونانية في حقل برهنت فيه عن اخصابها : اعني به الافلاطونية الحديثة التي رسم خطوطها في الاسكندرية امونيوس ساكاس ، في اوائل القرن الثالث . وقد اتقنها ودرّسها

في روما ، ما بين السنة ٢٤٤ والسنة ٢٧٠ تقريباً ، اغريقي من مصر هو افلوطين . فبرزت فيها نزعات العصر بالذات ، اي الحرارة المتهوسة والدعوة الى الرفق واشتراك عناصر نظريات اخرى بالجوهر الافلاطوني ، اي البيثاغورية والارسطوطاليسية والرواقية .

استحث افلوطين الفكر على ان يتصور ، بفعل جهد تجريدي جريء ، وحدة مطلقة تنبثق عنها كل الموجودات ، العقل والنفس والجسد ، وكأنها سلسلة انعكاسات يزداد ضعفها تدريجياً . ولم يكن للواقع الظاهر من اهمية ، في نظره ، الا بالترتيب الذي يدخله عليه كائن اول تنصهر وتلتقي فيه كل الاشياء . فيمكن القول ، من ثم ، ان دافعاً داخلياً قد حدا به الى الوحدة الالهية . ولكن نظريته في وحدانية الكون قد انطوت على الوهية الكون ايضاً ، لا بل انها لم تتنافَ ونظرية تعدد الآلهة . افليس الآلهة جميعهم منبثقين عن الكائن ؟ اضف الى ذلك ان بين العالم الإلهي الذي تنتسب اليه الكواكب وبين العالم الأرضي جماً غفيراً من الابالسة ليس باستطاعة الانسان اهمالهم .

انتهى تعليمه عملياً الى الحث على قهر النفس والتقشف أمام المحسوسات . فاذا ما اخفق الانسان في ذلك ، فان هذه النفس الخالدة تتجسد في الحيوانات ، لا بل في النباتات احياناً. واذا ما نجح ، فانها تشارك الكواكب نورها وتتلاشى في النهاية بذوبانها في الاله . ولكن النجاح منوط بالاختطاف الصوفي الذي يعطي وحده الالهام السماوي ويوفر رؤية السعادة الاخيرة الاكيدة ، ويتيح بالتالي الفوز بهذه السعادة . وهكذا فان الافلاطونية الحديثة قد صرفت العقل عن البرهنة ولم تلجأ اليها الا لدحض فعاليتها

السحر

لم يرض افلوطين الاعتراف بديانة لا تكون داخلية . غير ان الافلاطونية الحديثة ، بما انطوت عليه من تعليم حول الابالسة ومن تخلٍّ عن العقل ، قد افضت الى نتائج بعيدة الاثر . فقد انضمت الى نزعات اخرى قديمة وكثيرة تعهدها واستغلها مخرقون عديدون. ولم يؤمن الانسان يوماً ، اقله في العالم اليوناني الروماني، بمثل ما آمن به في هذا العهد من تأثير القوى الخارقة عليه تأثيراً مباشراً يومياً ، اي العرافة والتنجيم والسحر والرقية .

بين المؤلفات الادبية التي عرفت مزيداً من النجاح حتى اواسط القرن الرابع ، « حياة ابولونيوس التياني» التي وضعها معلم البيان فيلوستراتوس بناء على طلب جوليا دمنه امرأة سبتيموس ساويروس . فقد أظهر هذا البيثاغوري ، الذي عاش في عهد نيرون وسلالة فلافيانوس ، ليس فقط كزاهد يطبق المبادىء التي وضعها مؤسس المدرسة وعززها احياناً بالانقطاع عن أكل اللحم ، وارتداء الكتان الذي لا يداخله أي خيط من أصل حيواني ، والسير عشقياً ، وارسال لحيته وشعر رأسه ، والامتناع عن الكلام طيلة خمس سنوات ، والتجول في آسيا الصغرى وايران والهند ومصر قبل ان يقيم في روما حيث دعا الى عبادة الشمس وتعاليم حكمته ، بل كمجانيّ ايضاً يجترح المعجزات المدهشة وينفذ الى أفكار البشر الخفية ويفهم لغة البهائم وينبىء بالمستقبل ويشفي العرجان والعميان والمخلّعين ويوقف الاوبئة والزلازل .

نحو هذا الاتجاه انحرفت الافلاطونية الحديثة بتأثير من خلفي افلوطين في ادارة المدرسة ، بورفيروس الصوري، ولا سيا جمبليكوس السوري (من خلقيس) في عهد قسطنطين. فقد صادق جمبليكوس منتهي علم « هتافات الغيب الكلدانية » . ودرجت عادة الكلام عن « السحر » بدلاً من «اللاهوت»الذي لم يف بالمرام،لأنهم لم يكتفوا بمعرفة الآلهة بل طمعوا بالعمل معهم وبواسطتهم وعلى غرارهم . فبرز كهنة أنشأوا « مختبرات » اخرجوا فيها مشاهد خادعة أذهلت المبتدئين بما تخللها من أشباح نورانية وموسيقى وأصوات غير مألوفة وروائح عطرية وأبخرة ، وظلال وتماثيل متحركة ، وأضواء متقلبة . ونحن نعرف أسماء بعضهم ممن كانو ، في آن واحـــد ، فلاسفة وسحرة يتمتعون بكل سلطة وجاذب . ففي افسس ، علّم مكسيموس ، في اواسط القرن الرابع ، أوّليات اسرار هيكات التي تأثر بهـــا الامبراطور جوليانوس ساعة إلحاده ، كما تأثر بالتفسيرات التي قدمت له عن هذه الطقوس وهذه الرموز . وقد عرف جوليانوس في اثينا، بعد مرور عدة سنوات ، بريسكوس الذي كان شبيهاً بمكسيموس . وربطته بكليهما ، عندما أصبح امبراطوراً ، علائق صداقة كانت له جليلة الفائدة : فعندما علم بدنو اجله اخذ يتحدث اليهما ، من على فراش موته ، عن سمو عظمة النفس .

مارس جوليانوس عبادة ميترا ايضاً ؛ كَفرُش بالدم لمناسبة تضحية ثور ، وأشرك في اسرار ايزيس . يتضح من ثم ان الوثنية التي تخلى من أجلها عن المسيحية لم يجمع بينها أي جامع تقريباً —تقريباً فقط ، لأن اسرار القسيس التي أشرك فيها ايضاً لم تخل من الانصار القدماء — وبين وثنية القرون الكلاسيكية العظمى التي ادعى هو الاعتزاء اليها . فقد كان قوام وثنيته دفقاً عاطفياً امام سر الطبيعة المعظم ، وقلقاً حيال خلاص نفسه واندفاعاً نحو سعادة الخلود السماوي. فشتان بينه وبين بريكليس واوغسطس وحتى مارك اوريل الذين اعتقدوا بالخرافات، ولا ريب في ذلك ، ولكنهم وجدوا التهدئة بالخضوع لنظام الكون ! غير ان وثنية جوليانوس هي وثنية عصره . فقد غدا اولو الفضائل العقلية ، من أمثال الابيقوريين ، نادرين جداً ، واخــذ الناس ينظرون اليهم نظرهم الى الملحدين .

الحضارة اليونانية والوثنية

بيد ان جوليانوس والوثنيين المثقفين قد طمحوا الى الدفاع عن الحضارة اليونانية ، حتى بالخضوع الى هــذه النزعات وباللجوء الى علوم السحر والتنجيم . ففي لغة الانجيل نفسها تظهر المضادة بين « هليني » و « يهودي » : ولم يكن المقصود آنذاك تعدد الآلهة والتوحيد بقدر ما كان جهل شريعة موسى او التقيد بها . فلم تتم المعادلة بين هليني ووثني إلا في العهد الامبراطوري الثاني ، وكان من استمرارها ان صفة « هليني » قد بقيت ازدرائية ، في البلاد اليونانيــة وفي لغة العهد البيزنطي وما بعده ايضاً ، حتى تحقق الاستقلال اليوناني في القرن التاسع عشر . وتأبى جوليانوس بنوع خاص على اعطائها هذا المعنى الذي اعتبره تقريظياً اذ انه درج على تسمية المسيحيين بـ « الجليليين » قاصداً بذلك « البرابرة » بكل ما في الكلمة من معنى محقر .

غير ان قانونه حول المدارس ، الذي سنعود اليه ، قد أعطى فكرة واضحة عن هـــذا الاستعمال لكلمة « هليني » . فليس هناك من مدلول عنصري او لغوي ، بل مدلول ثقافي فقط . وان ما ابتغى اثباته الوثنيون هو اخلاصهم لمجموع تراث اضطر المسيحيون لأن يميزوا فيه بين المبنى الذي قـد يثير اعجابهم والمعنى الذي يرغبون على اهماله . ومردّ ذلك الى ان الميثولوجيا المبنية على مذهب تعدد الآلهة قد اشبعت الروائع الادبية والفنية ، مفخرة الحضارة اليونانية التي نشأت في اليونان وتبنتها روما . وكان باستطاعة الوثنية ، مهما طرأ عليها من تبدل ، ان تقبل بهذه الميثولوجيا التي هي جزء لا يتجزأ من تراث فريد لم ترفض منه شيئاً واعتبرت من ثم انــه وقف عليها .

وهذه لعمري هي الفكرة الوثنية بعد موت جوليانوس وبعـــد اخفاق آخر محاولة سياسية التف الوثنيون فيها حول المغتصب أوجانيوس . غير ان الحكومة الامبراطورية اخذت على نفسها ، منعاً واضطهاداً ، – فقد صدرت في عهد فالنس بعض احكام الاعدام – القضاء على هذه الفكرة . فبينما لا يزال الوثنيون المثقفون الاخيرون مكبين على علم اللغات في الغرب ، نراهم ، في الشرق ، متغنين بماضي اليونان العلمي والفلسفي المجيد ، ولا سيما بافلاطون ، وبارسطو عرضاً . بيد ان الافلاطونية الحديثة قد واصلت تعاليمها ، بصورة علنية ، في مدرستين مشهورتين همـا مدرسة الاسكندرية ومدرسة اثينا . ويبدو انالاولى، وهي وريثة متحف البطالــة، قد حادت عن الخرافات جمبليكوس واهتمت بالعلوم ، اقله الرياضية منها . وخير من يمثل هـــذه المدرسة هيباتيا الحسناء والفلفلة ، ابنة الرياضي ثيون ومؤلفة بعض الابحاث الرياضية . فقد تتلمذ عليها سينيزيوس ، الذي ما انفك ، على الرغم من سيامته اسقفاً ، يعتبر نفسه « فيلسوفاً » . ولكن شهرتها اغضبت زعيم المسيحية في مصر ، الاسقف كيرلـّوس المتجبر . فحدث في السنة ٤١٥، في اعقاب اشتباكات لم يلعب الوثنيون فيها اي دور ، ان قبض عليها بعض المتجنين وقتلوها ضرباً بالقرميد ومزقوا جثتها واحرقوها . فقرر هذا الاعتداء مصير مدرسة الاسكندرية . امـــا مدرسة اثينا فقد عاشت حياة اطول ، ولكنها لم تنفرد بشيء يميزها ، بل اكتفت بشرح اراء عظام المعلمين : امر جوستينيانوس باقفالها في السنة ٥٢٩ فلجأ اساتذتها الاخيرون الى بلاد الساسانيين .

٢ ـ المسيحية

كان جوليانوس في عالم الأموات حين استجوبه غريغوريوس النازينزي قائلاً : « فما هو المبرر الذي يعطيك الحق ، دون غيرك ، في اعتبار نفسك هلينياً »؟ والواقع هو ان المسيحية نفسها قد أفادت من الفلسفة اليونانية نفسها .

اوريجينوس

كان على المسيحية ، كلما اتسع شعاع انتشارهـــا ، واذا هي حرصت على ارضاء تطلبات المثقفين ، ان توضح وتنظم لاهوتها ، الشيء الذي يعني عمليـــاً ادخاله في الاطارات الفكرية المحددة منذ زمن بعيد .

كانت المحاولة الجدية الاولى في هذا الاتجاه محاولة مدرسة الاسكندرية التي انتصبت منافسة للمتحف في اوائل القرن الثالث . دانت بنفوذها وأهميتها ، بعد القديس اكليمنضوس ، الى اوريجينوس الذي درس على امونيوس ساكاس ووقف على دقائق الفكر اليوناني . كان ايمانه عظيماً ، فحاول ، انطلاقاً من تفسير الكتب المقدسة ، ان يدخل على العقيدة المسيحية عبارات توافق عادات الفلاسفة العقلية . وقد انطوت المحاولة على مزيد من المخاطر بسبب اطلالها على مذهب المعرفة وبسبب ابهام العقيدة في اول عمرها ايضاً . فاضطر اوريجينوس للدفاع مراراً عن وجهة نظره . وأرغمته الصعوبات المسلكية التي باعدت بينه وبين أسقفه لأن يقضي السنوات العشرين الاخيرة من حياته خارج الاراضي المصرية ، لا سيا في قيصرية فلسطين . اجل لم يصدر الحكم على بعض تعاليمه إلا بعد وفاته بزمن طويل ؛ ولكنه قد صدر اخيراً .

مسألة المسيح

ما لبثت هذه الجهود التي بذلت لتحديد اللاهوت المسيحي وتنظيمه ان اسفرت عن مسألة عقائدية مخيفة هي مسألة العلائق بين الآب والابن اللذين هما اقنومان الهيان متحدان ومتميزان في آن واحد .

اوقفتنا بعض البرديات المنشورة حديثاً على الخطوط الكبرى لجدال حاد اشترك فيه اوريجينوس ، حوالي منتصف القرن الثالث ، في الولاية العربية في الارجح . وقد بلغ منه في حمّى الجدال ان قال : « نحن نعترف بأن هنالك إلهين » . وكان قصده في ذلك الوقوف في وجه آراء مختلفة صادفت نجاحاً كبيراً في آسيا كانت تستهدف ، قبل أي شيء آخر ، الحيلولة دون تهشيم الوحدة الإلهية . اما سابيليوس فقد اعتقد بأن الإله واحد وبأنه كلّ ، وبأن الروح القدس والمسيح ليسا سوى خاصياته ، وبأن هذا الاخير بنوع خاص ليس سوى الاسم الذي أطلق على مجيئه وعلى ما صنعه على الارض لأجل خلاص البشر . وعلى الرغم من الحكم على تعليمه بالهرطقة ، فقد ترك هذا التعليم أكثر من أثر في بعض الاذهان في اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع . أضف الى ذلك ان حلولاً أخرى كثيرة وجدت من يناصرها : ويكفي ان نذكر بينها ، على سبيل المثل فقط ، مذهب التبني الذي رأى في المسيح انساناً تبناه الله وأسكن فيه كلمته . كانت هذه فاتحة الجدال حول مسألة المسيح : وسيقتضي لاقفاله قرون عدة .

وهكذا فقد قدّم آريوس ، قبيل فتح قسطنطين الشرق ، وخلال الجدال الذي قام بينه وبين اسقفه الذي اتهمه هو بنصرة مذهب سابيليوس ، الخطوط الرئيسية لمذهب وضّحه في وقت لاحق حين التجأ الى آسيا ، حيث تابع مجادلة التي لا تزال معروفة باسمه : ان المسيح الذي دنّسه الجسد ، وخضع للموت ، أبعد من أن يكون إلهاً أزلياً ؛ فقد خلقه الله وسيطاً بينه وبين الأرض من مادّة تختلف اختلافاً كليّاً عن مادته . تلقى هذا الكاهن الاسكندري علومه في انطاكية . وتميز بمعارف لاهوتية وفلسفية غير عادية : وباستطاعتنا أن نظهر أوجه التشابه بين حلّه والحل الذي قدمته الافلاطونية لمسألة العلائق بين الكلمة والإله الخالق . ومهما يكن

من الامر ، فانه قد برهن ، في الدفاع عن آرائه وفي بثها ، عن حذاقة جدلية ، وقريحة رشيقة ، جعلتا منه ابناً للحضارة اليونانية ايضاً .

القضية الآرية

حين أعيد له اعتباره ، بعد الحكم عليه في مصر ، بقرار من مجمع محـلي التأم في آسيا الصغرى ، كان ذلك تكريساً لقيام المشادة الآرية الكبرى . فطوال القرن الرابع كله تقريباً ، مزقت هذه المشادة الكنيسة ، بل مزقت الامبراطورية نفسها أحياناً ، كما سبق وقلنا ، اذ ان تهور قسطنطين قد جعل السلطة العلمانية تشترك في النزاع . ويبدو راجحاً على الاقل ، من جهة ثانية ، ان تدخل الدولة ، الذي أضر كثيراً براحتها ومصالحها، قد خلّص في النهاية وحدة الكنيسة التي كانت آنذاك أعمق انقساماً من ان تتغلب على انقساماتها بوسائلها الخاصة . وقد رافقت هذه المشادة الطويلة حوادث ذات طابع سياسي أو اداري لا يحصى لها عد . أما تلك التي أثارها تحديد العقيدة تحديداً ملزماً ، فلا ريب في انها أقل عدداً ، ولكنها على كل حال، اكثر عدداً واشدّ تعقيداً وأعمق بحثاً لاهوتياًمن ان نتعرض لها هنا ببعض التفصيل.

بدا التحديد الذي أقره المجمع النيقاوي في السنة ٣٢٥ وكأنه تسوية نهائية : الإبن مولود غير مخلوق مساوٍ للآب في الجوهر (جوهر واحد *Homoousios*) : ولكن مقاومـة الآريين ، جدّدت النقاش وأطالته ، لا سيا بعـد ان حظوا بعضد الامبراطور قسطنطين الثاني . وانتهى الأمر بهم الى الانقسام شيعاً عديدة. فقبل البعض منهم، وهم المعتدلون ، بتحديد المسيح« مساوياً للإله في الجوهر » ، لا سيا وان الصفة اليونانية *Homoios* نفسها تحمل تفسيرين : امـا « مماثل » وإما « شبيه » . أما البعض الآخر ، وهم المتطرفون – وقد عطف عليهم قسطنطين في النهاية – فقد رفضوا التشابه ، وقالوا بدونية المسيح المطلقـة . فالتأمت بعض المجامع في سيرميوم في السنتين ٣٥٧ و ٣٥٨ ، وأقرت على التوالي ، تحت ضغط الامبراطور ، ثلاث صيغ تتفاوت تطرفاً ، ثم ابتدعت صيغة رابعة في السنة ٣٥٩ . ولعل الارثوذكسية (الرأي القويم) لم تحقق الغلبة في النهاية إلا بفضل اغتصاب جوليانوس الذي أتاح لها أن تتنفس الصعداء على الأقل.

الهرطقات الاخرى

عاد المجمع المسكوني الثـاني (القسطنطينية ، في السنة ٣٨١) ، في جوهر مقرراته ، الى قانون المجمع النيقاوي . وهكذا غدا هذ القانون قانون ايمان الكنيسة الكاثوليكية . ومع ذلك فلم يكن الفصل في مسألة المسيح الا فصلاً جزئياً ، فقد برزت فيها نواح اخرى وما لبثت ان تعقدت بمسألة مريم « والدة الاله » وكان المجمع نفسه قـد حكم على مذهب انكر كمال ناسوت المسيح الذي لا يمكن ان يتفق وكمال الوهيته . فأثيرت مناقشات ستفضي في القرن الخامس الى نشأة هرطقات كثيرة نكتفي بذكر اهمها: النسطورية المدعوة لحياة طويلة ، ان لم يكن في الامبراطورية ، فانه في سوريا وبلاد ما بين النهرين ، وحتى التيبت ومنغوليا ، ومذهب الطبيعة الواحدة . فيتضح بالتالي ان توضيح العقيدة كان آخذاً بالتقدم البطيء في وسط المنازعات الحادة .

اجل حادة ، ولكن في الشرق خصوصـاً ، حيث امتدت الى الشعب نفسه مثيرة في بعض الاحيان ، بفضل تأثير الرهبان ، اضطراباً على جانب كبير من السجس . اما الغرب فقد كان

اكثر هدوءاً . فعلى الرغم من الدور الذي لعبه في النزاع الآري بعض البابوات واسقف بواتيه ، القديس هيلاريون ، واسقف ميلانو القديس امبروسيوس ، فمن الجلي ان المعنى الحقيقي لهـذا النزاع قد فاق اكثرية المؤمنين ومعظم الاساقفة تقريباً الذين اعوزتهم قرون من الحذاقة الفلسفية التي اعطت ثمارها آنذاك في ذهن الشرقيين .

لم تبرز حينذاك هرطقات كثيرة في الغرب . برزت اثنتان منها حول قضايا مسلكيـة واخلاقية : الدوناطية التي نجمت عن آراء متباعدة في السلوك الواجب اعتماده حيـال اولئك الذين تراخت عزيمتهم أمام الاضطهاد ، وتحولت بسرعة الى نزاع اجتماعي الطابع ، والبريسليانية التي نادت بصوفية متقشفة . ولم تداخلها الا في عهد لاحق ، اي في اوائل القرن الخامس ، المسألة العقائدية : مسألة الخطيئة الاصلية والنعمة ، وقد وقف القديس اوغسطينوس فيها موقفاً شديداً ضد البلاجيانية التي حكم عليها في النهاية . فجلي ان هذه الهرطقات ليست شيئاً يذكر اذا ما قورنت بالمناقشات حول المسيح التي اتصفت بمزيد من الحرارة والعنف في الشرق. اضف الى ذلك ان الشرق ، على تحمسه لقضايا العقيدة ، قد عرف في الوقت نفسه ، اكثر من الغرب ، شيَعاً تتصرف في حياتها اليومية تصرفات تتفاوت تشدداً في الأمور الأخلاقية : فظهرت قوة نسغه الديني في النصرانية ، كما ظهرت من قبل في الوثنية .

المانوية

من النافل تعداد هذه الشيع : اذ ان واحدة منها لم تنتشر انتشاراً واسعاً . اما المانوية فقد عرفت انتشاراً اوسع . ولكنهـا لم تكن مسيحية المنشأ ، واذا احصاها اباطرة القرن الرابع بين الهرطقات التي حكموا عليها في قوانينهم ، فمرد ذلك الى انها قد جمعت اتباعها من بين المسيحيين ايضاً .

تأسست حوالى السنة ٢٤٠ في بلاد بابل على يد ماني – امـا مانيشه فتحريف التسمية السريانية « ماني الحي » – احد رعايا الملك الساساني الذي عاقبه بالموت في السنة ٢٧٧ وزيـنا علق جثته المحشوة مَوْصاً عند مدخل احدى المدن. اقتبست هذه العقيدة عن المادية الايرانية فكرة ثنوية اساسية هي التضاد بين الخير والشر . ولكنها جمعت الى هـذه الفكرة عناصر اخرى بوذية ومسيحية ومعرفيـة . قالت بنهاية العالم وأوصت ، انسجاماً مع هذا القول ، بالامتناع عن خدمة الدولة وبالعفة عن طريق رفضْ الزواج . وقد قام على ادارة شؤون اتباعها كهنوت منظم المراتب يضم « المختارين » الذين « يصنعون الخير » ، و « الكهنة » و« الاساقفة » ، و « الرسل » ، ورئيساً اعلى .

منذ عهد باكر جداً ، وحتى قبل معاقبة ماني بالموت ، انتشرت الدعاوة المانوية خارج المملكة الفارسية . فمن جهة بلغت الهند وآسيا الوسطى حيث اصبحت المانوية في تركستان دين الدولة في القرن الثامن ، وانتقلت من جهة ثانية ، بواسطة العرب ، الى مصر حيث كانت نجاحاتها امراً واقعاً حين قام ديوكليسيانوس بحملته . وامتدت بعد ذلك الى آسيا الصغرى وافريقيا واسبانيا وايطاليا ، على انها لم تتعد في هذه المناطق اطارات ضيقة من المطلعين على اسرارها . فأصدر

الاباطرة المسيحيون ، بعد قانون ديوكليسيانوس ، اوامر عدة باضطهادهما . ولكن الاضطهاد لم يسفر عن نتيجة في البداية : والدليل على ذلك ان القديس اوغسطينوس ، قبل اهتدائه ، كان مانويا في افريقيا وفي ايطاليا بكل طمأنينة . الا انه اصبح اعظم فعالية منذ اواسط القرن الخامس ؛ وعلى الرغم من ذلك ، فلعل حياة المانوية كانت اطول من حياة الامبراطورية من حيث انها وجدت وريثاً لها في هرطقة الانقياء الألبيجيين(*Cathares albigenis*) .

تكيفات العبادة والتحولات الاخلاقية

على الرغم من الاضطرابات التي هزّت المسيحية ، فقد انضم اليها باطراد مسيحيون جدد كثيرون . غير ان تهافت هؤلاء لم يبق دون نتيجة . لا سبيل الى انكار الرواسب الوثنية في العبادة المسيحية . اجل لا يجوز ان نجسمها او نمتقد خصوصاً بالابقاء عليها عن سابق قصد وتصميم . ومما لا ريب فيه ان الاساقفة ، منفردين او مجتمعين ، قد قاوموها جهد المستطاع ، واصمين اخفاءها والعود اليها بالعار . ولم يكن القديس مارتينوس ، المتصلب جداً ، ممن يتساهلون مع الاصنام والخرافات . ومع ذلك فان خير دليل على قوة العادات التي لم يستطع المسيحيون الجدد التخلص منها هو التسليات والتخليات التي وجب القبول بها .

فرض هؤلاء المسيحيون اعياداً . فأحدث المرفع بتأثير من أعياد ساتورن واحتفل به بتاريخ أعياد اللوبرك . ولما كانت بعض العبادات الوثنية تحيي ذكرى ولادة إلهها ، فقد توجب احياء ذكرى ميلاد المسيح . وقد حصل بعض التردد في تحديد تاريخه . فاختاروا في البداية اليوم السادس من شهر كانون الثاني (يناير) الذي يوافق في مصر عيد ولادة اله ابن عذراء ايضاً . ثم ما لبث هذا التاريخ في القرن الرابع ان اصبح تاريخاً لعيد الظهور (العماد) لأن الرومان فرضوا على كافة المسيحيين اليوم الخامس والعشرين من كانون الاول (ديسمبر) تاريخاً لعيد الميلاد: فان هذا اليوم يوافق في نظرهم، منذ القرن الاول قبل المسيح، انقلاب الشمس الشتوي، وقد ارادوا ان يكرسوا للمسيح العيد الذي يحتفل به في هذا اليوم احياء لذكرى مولد الشمس.

وفرض الايمان الشعبي الابقاء على الاماكن المقدسة بما فيها الينابيع والبقع الجرداء في الغابة، الخ . كما فرض الملائكة والصور والتمائم وتوسيع عبادة الشهداء وذخائرهم .

ومن حيث ان عبادة الديانة الظافرة توجهت منذئذ الى الجماهير ، بات من غير المعقول احياؤها على غرار عبادة الفئات الصغيرة المرغمة على التخفي خشية من الاضطهاد . فأفضى ذلك الى الفصل بين المؤمنين والاكليروس. وأحيطت العبادة خصوصاً بأبهة وفرتها لها ثروة الكنيسة. فشيدت الكنائس الملكية ووسعتها وجملتها . واعتمدت طقوساً أكثر تدقيقاً . وأضافت الى الصلاة والقراءات الروحية والتناول بعض العادات الخارجية ، كالايماءات والترانيم والموسيقى ، القمينة بتغذية وتحريك حرارة الايمان في النخبة والسذج على السواء .

وهكذا استطاعت المسيحية ، بغنى مساكنها الالهية ونبل طقوسها وعظمة اعيادها ، ان تقدم لمؤمنيها فوق ما قدمته لهم الوثنية. واذا ما أتى بعض الآلهة بوعود خلاص مماثلة لوعودها،

فان تعاليمها قد انطوت على شيء جديد على الاقل، هو المحبة؛ فما من قيمة للايمان ، في نظرها، بدون الاعمال ، وقد سبق لنا ورأينا ان هذه الاعمال ، بفعل دعوتها ، قد تكاثرت بغية محاولة تخفيف الشقاء البشري . « فليبرهن كهنتنا عن محبتهم للقريب بأن يضعوا ، بطيب خاطر ، القليل الذي لديهم تحت تصرف المعوزين » . بهذا الأمر الذي اصدره الى الكهنوت الوثني ، أتى جوليانوس ببدعة جديدة اقتبسها عن المسيحية واعترف اعترافاً ضمنياً بتفوق الكنيسة التي ابتعد عنها . وانطوت بالاضافة الى ذلك على شيء جديد آخر دفع الى تمجيد البتولية ، ان لم يكن الى الحكم على الزواج ، هو جحد الدعارة والفجور . وأدت كذلك ، بعد فشل محاولة الاسكندر في ذلك الى نقصان مبارزات المسايفين تدريجياً . ولا يمنع الابقـــاء على الرق من الخلوص الى استنتاج واجب ، الا وهو ان الثورة الدينية قد رافقتها ثورة اخلاقية .

٢ ـ الحياة الفكرية

لا يسعنا القول ، على نقيض ذلك ، ان ثورة فكرية قد رافقتها ايضاً .

١ ـ الظروف العامة

استمرار سحر الثقافة التقليدية

ان التصميم على الاستمرار ، في شؤون الفكر ، يبرز بقوة في تصرفات النخبة الاجتماعية .

غالباً ما ينحدر الاباطرة من طبقة أكثر اتضاعاً منها في السابق . ولكن هـذا القول يصح خصوصاً في الكلام عن جنود سعداء وخشنين هم الاباطرة الاليريون في النصف الثاني من القرن الثالث . فكلهم ، بعد غاليريوس ومكسيمينوس دايا ، ابنـاء أباطرة أو اقله أبناء ضباط من المراتب الرفيعة نسبياً . واسوة بما جرى في العهد الامبراطوري الاول ، كان مهذبو الامراء الحديثي السن من الاساتذة الذائعي الصيت. فقد طلب قسطنطين الى لاكتانس تهذيب كريسبوس، وأتى فالنتينيانوس الاول بأوزون من « بوردو » الى « تريف» لتهذيب ابنه غراسيانوس ، ووكل ثيودوسيوس الى ثيميستيوس أمر تهذيب ابنه اركاديوس. وأسوة بما جرى في العهد الامبراطوري الاول ايضاً ، توصل بعض الادباء الى المراتب الرفيعة وحتى الى مناصب الادارة . وخير مثل ، من هذا القبيل ، هو اوزون : عيّنه والد تلميذه كونتاً ووزير مالية البلاط ، ثم عينه تلميذه ، الذي أمسى امبراطوراً ، قنصلاً وقائد حرس في غاليا التي ضمت الى ايطاليا بهذه المناسبة ، بينما عين كافة أعضاء عائلته في وظائف مرموقة . واذا ما تركنا لحالة جوليانوس طابعها الاستثنائي، وهو من يستهوينا القول بأنه كاتب قبل كل شيء آخر ، لو لم يكن فوق ذلك فيلسوفاً صوفياً ، فاننا نلمس عند جميع أباطرة القرن الرابع عطفاً حقيقياً على النشاطات الفكرية . ولم يعبروا عن هذا العطف بأعمال يفيد منها بعض المحظيين دون غيرهم : فهم ، بدون استثناء ، قـد أعفوا الاساتذة من فريضة التسخير ، غير انهم لم يدخلوا في عدادهم المعلمين الابتدائيين .

ليس الخطأ خطأ النظام اذا ما بدت لنا هذه النشاطات متوسطة الصفات . اجل كان النظام مطالبيه ، ولم يترك مزيداً من الحرية . ولكن نظام الامبراطورية الاولى نفسه قد دعا الى امتداح الملك في خطب رسمية ، وبرع في اذلال المقاومة على صعيد الفكر اذا لمس ان لها أدنى انعكاس سياسي . فحدث الشيء نفسه آنذاك ، ولكنه اتصف بمزيد من القسوة في استجواب المشتبه بهم وفي اعدام المحكوم عليهم . ولعلّ نفوذ علماء البيان أتاح لهم اسداء النصائح الطنانة بمزيد من الحرية ، وغالباً ما يخفي ذلك نقداً ضمنياً . فلسن نرى شيئاً ، « في تأبين ترايانوس » ، مما يستشف من الخطب التي وجهها ثيميستيوس الى فالانس . وقد يشعر ليبانيوس ببعض المخاوف الشخصية في بعض محاولات الاغتصاب ، ولكن ليس ما يشغل منه الفكر حين يدافع عن المعابد الوثنية او ينتقد حق الحماية . اما في التاريخ ، حتى القريب منه ، فيبدو ان اميانوس مرسلينوس يتمتع بحرية تامة في النقد والمديح .

لا يزال المثل الثقافي الاعلى ، في الحقيقة ، مماثلاً له في السابق . فعلى غرار ما حدث في النطاق السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، تابع التطور سيره في الاتجاه الذي يمّمه منذ زمن بعيد . أضف الى ذلك انه لم يطرأ عليه ، تحت تأثير صدمة الكوارث الزمنية ، ذلك الاستعجال العنيف الذي أفضى الى تصلب السلطة المطلقة وشجع الدولة على توجيه الاقتصاد واختار المجتمع . فالنبلاء الجلسيون ، في المقاصف ، ما زالوا يملأون أوقات فراغهم بالنوادر الفكرية والادبية ، على غرار ما كان يجري في عهد الانطونيين ، وكأنهم استمرار للعائلات الكبرى التي قضت عليها أعاصير القرن الثالث الثورية ، ومرد ذلك الى ان حداثة عهدهم في الغنى قد جعلتهم يتجاهون بالاستئثار بأفضل التقاليد . واننا لنجد بين « اللامعين » ، كفئة الشيوخ الرومان التي شكلت في النصف الثاني من القرن الرابع ، حصن الوثنية المنيع في ايطاليا ، عقولاً رزينة وأدباء ظرفاء ومفسرين لروائع الادب اللاتيني يتحلون بعلم واسع . ولكن السيئات نفسها متماثلة ايضاً . فاننا نجد المتكلفين الذين يعتمدون طريقة الأشعار القصيرة وطريقة التقليد ، بصنمية هي أشبه بصنمية عهد هدريانوس . أضف الى ذلك ان المجتمع الرفيع كله قد اولع بالبيان . اجل ان الميل اليه قديم العهد ولكنه قد ازداد قوة . ولم يحتل في يوم من الايام المركز المرموق الذي احتله آنذاك : فليس من احتفال امبراطوري بدون خطبة أبهة ، وقد درجت الولايات على هذا التقليد بغية الاحتفاء بكبار الموظفين الذين يسارعون الى توزيع هذه المدائح . ولجأت الادارة احياناً ، لملء المراكز الفنية ، الى تعيين قدامى تلامذة معلمي البيان ، بعد عدة سنوات على الأكثر يقضونها في المحاماة ويتعودون خلالها معالجة الشؤون المختلفة : وهذا دليل على الاعتقاد السائد بأن البيان هو مادة التربية الاساسية التي تعد الانسان لتولي شتى المناصب . ويحلو لنا الاستشهاد بكلمة مشهورة لأحد خطباء اوتين : « ان علم اجادة الكلام هو علم اجادة العمل ايضاً » .

ان لهذا الاستمرار تفسيره في استمرار التعلم ، كما انه بدوره يفسّر استمرار التعليم التعلم ايضاً .

تواصلت الجهود في سبيل فتح المدارس وتضاعفت واستلزمت تضحيات يتوجب علينا ان

نصفها بالبطولية اذا ما فكرنا بالصعوبات التي اعترضت آنذاك سبيل الطبقة المتوسطة. ويبدو في الواقع ان الدولة لم تبذل مزيداً من الجهد : فهي لم تنظم التعلم العالي في القسطنطينية قبل السنة ٤٢٥ . ولكن المدارس البلدية توفرت منذئذ لكافة المدن تقريباً ، على تفاوت في العدد وفي درجة التعليم . اما انتقاء المعلمين فنوط بالعائلات المحليـــة التي تنظم مباريات حقيقية – في الفصاحة ، طبعاً – بين المرشحين ، والتي كثيراً ما تخضع لضغط الادارة : فكبـار الموظفين ، وحتى الامبراطور نفسه ، قد أعاروا هذه التعيينات اهتماماً خاصاً في المراكز الكبرى. ودفعت المدن للاساتذة مرتباً رسمياً ما لبثت الحكومة ، بوحي من اوزون الذي ما زال يتذكر عمله التدريسي في بوردو ، ان حددت قيمته في النهاية . ولكن هذا المرتب ليس سوى كسب مضمون لا يكفي لتأمين المعيشة، يضاف اليه مجموع الرسوم المدرسية المستوفاة من التلامذة . لذلك فقد لجأت المنافسة ، بين مدينة ومدينة ، وبين معلم ومعلم ، الى أساليب مضاربة تخلو من اللياقـة احياناً . ويمكننا التأكيد بأن معلم بيان ذائع الشهرة، كـ«ليبانيوس» في انطاكية مثلاً ، ابعد من ان يتوفر له يسار مالي دائم . ولذلك ايضاً فان تدني المنتسبين الى البورجوازية مرده الى سبب غير نقصان المدارس : فهي في المدن أكثر منها في أي وقت مضى ، ولكنهـا ما زالت نادرة في الارياف كما في السابق .

المسيحية والمدرسة : قانون جوليانوس

لم يتبدل النظام التربوي اذن منذ العهد الامبراطوري الاول . فما زال ينطلق من دراسة الشعراء ، والخطباء ، والمؤرخين الذين ينظر اليهم ابداً من زاوية البيان ، وبكلمة من دراسة الروائع الكلاسيكية العظمى موضوع الاعجاب العام : وما زال الولد ، حتى في ذاك العهد ، يتعلم القراءة في مؤلفات هوميروس وفرجيل .

لم يحاول المسيحيون أنفسهم تغيير هــذه العادات على الرغم من الانتقادات التي وجهها اليهم أشدهم تصلباً في امور الاخلاق ، كـ«ترتوليانوس» مثلاً. لقد سلموا هم ايضاً بأن التربية الكلاسيكية ضرورية لتهذيب العقل ، اذ انها تجمله بالذوق والادراك ومعنى الجمـال وقواعد البرهنة . فهي بالتالي ابعد من ان تقف في وجه أي نمو لاحق ، لأنها بدت وكأنها تجيز وحدها كل نمو . فكان كافياً للديانة الجديدة ان تحذر من عبادة الاصنام وان تستخدم ما هو أمامها بأن تضيف اليه تعليمها الخاص بواسطة العائلة او الكنيسة . ومنذ القرن الثالث كان الفوز حليف هذه التسـوية ، كما نرجح . فمارس بعض المسيحيين، دون تنازل منهم عن أي من معتقداتهم أو أي من التقاليد المدرسية ، مهنة التعليم في مدارس الاولاد ، حتى الوثنيين ، اولاً ، ثم في معاهد التعلم العالي من بيان وفلسفة ، بينما تابع تلامذة وطلاب مسيحيون دروسهم على أيدي معلمين وثنيين : وقد سلم الطرفان بكل ما استلزمه هذا الوضع الراهن من تساهل متبادل .

لم يبرز الخلاف ، وهو قصير الامد على كل حال ، إلا بمبادرة من جوليانوس . فلم يرض هذا الاخير ان يميز ، في الثقافة اليونانية التي اراد الدفاع عنها جملة ، بين المبنى والمعنى ، بين التعبير الجمالي والعقيدة . ولذلك فقد اصدر في السنة ٣٦٢ قانوناً مدرسياً قيد السلطات البلدية بشروط

اخلاقية في انتقاء المعلمين المطلوب منها تعيينهم وألحقه بكتاب دوري يوضح ان هذه الشروط لا تتوفر في المسيحيين لأنهم لا يستطيعون تفسير الروائع الكلاسيكية تفسيراً نزيهاً: « يا للعجب ! أفلم يعترف هوميروس وهيزيود وديموسثينس وتوسيديد وايزوقراط وليزياس بالآلهة هداة لكل تربية ؟ ... فمن الخرق في نظري ان يلجأ مفسر روائعهم الى احتقار الآلهة الذين أكرموهم ... واذا ما نسب احد الناس الحكمة الى من يفسّر روائعهم ، فالواجب يقضي عليه قبل كل شيء باقتفاء تقواهم نحو الآلهة. اما اذا تصوّر انهم أخطأوا بصدد أعظم الكائنات احتراماً ، فليذهب الى كنائس الجليليين كي يفسر فيها متّى ولوقا ». بديهي ان هذا الاقتراح تهكمي في نظر جوليانوس بسبب ركاكة الاناجيل الادبية . وهكذا ارتأى المسيحيون ايضاً ، وقد ثار ثائرهم بعد ان أقصوا بذلك عملياً عن التعليم ، على ان بعضهم قد سارعوا الى نظم الكتاب المقدس شعراً والى تأليف المآسي والمهازل في مواضيع مستوحاة من العهد القديم والى افراغ الاحاديث بين يسوع ورسله في حوارات على الطريقة الافلاطونية .

غير ان قانون جوليانوس المدرسي قد مات بموت واضعه : فقد فتح باب التعليم مرة اخرى للمسيحيين الذين عادوا الى النصوص التقليدية وما تنطوي عليه من ميثولوجيا ولّى عهدها . وسيقتضي زمن طويل حتى تظهر المدارس وأصول التربية المسيحية بالذات . وليس اللاهوت نفسه آنذاك ، على الرغم من بعض المحاولات ، كمحاولة اوريجينوس في الاسكندرية مثلاً ، موضوع دراسات نظامية: وليس امام الكهنة والمؤمنين الوقوف على مبادئه ، سوى المناقشات لتي يحضرونها والعظات التي يسمعونها والقراءات التي قد يقومون بها . اما المدرسة الإبتدائية فقد انتظمت في بعض الادرة فقط بغية تعليم الرهبان الاميين. لذلك فسيكون نموها بطيئاً في هذه الادرة ، على غراره في المدرسة التي سيرغم الاساقفة في الغرب على احداثها ، لأجل تعليم كهنتهم ، اختناق الحياة في المدن .

اقتبس النظام المدرسي في العهد الامبراطوري عن النظام الذي وضعه الاغريق خلال العهد الهليني ودام ما دامت العصور القديمة . وهو لم يضمحل في تاريخ معين بل تلاشى تدريجياً . وبما ان المدرسة هي التي توجه او تسيّر الحياة الثقافية في مجتمع ما ، فان ديمومة هذا النظام هي التي تدعو الى القول بامتداد العصور القديمة نفسها حتى النصف الثاني من القرن الخامس ، دونما بحث عن ربط نهايتها بحدث سياسي معين .

الوضع اللغوي

على ان تبدلاً قد حصل منذ العهد الامبراطوري الثاني: فالمدرسة لم تحسن الحفاظ، كما في السابق ، على الوحدة التي وفرتها اللغة بل اللغات للامبراطورية ما دام الشرط الذي قامت عليه هذه الوحدة هو ازدواجية اللغة .

استمرت هذه الازدواجية أساساً ومثلاً أعلى للتربية التي يتلقاها الشباب . وقام الشرق ٤ من هذا القبيل ، بمجهود حقيقي لتعلم اللغة اللاتينية . فقد تعاظم شأن دور الادارة ، وتعاظم بالتالي شأن اللغة اللاتينية التي بقيت اللغة الرسمية الوحدة لقيادة الجيش والوثائق التشريعية وأحكام

القضاة . القسطنطينية مدينة يونانية ؛ ولكن الموظفين فيها يكتبون باللاتينية تاركين السلطات المحلية أمر تأمين الترجمة . ولم يبدأ استخدام اللغة اليونانية في الاحكام ، إلا في اواخر القرن الرابع ، وفي التشريع ، في عهد جوستينيانوس . أضف الى ذلك – على نقيض ما حدث في السابق – ان بعض الشرقيين قد استخدموا اللغة اللاتينية في نشاطهم الادبي : كالمؤرخ اميانوس مرسلينوس الانطاكي في القرن الرابع ، والشاعر كلوديانوس الاسكندري في اوائل القرن الخامس ، وغيرهما ايضاً ممن هم دونهما شهرة . وكان كل ذلك نتيجة لاولوية الغرب السياسية والعسكرية ولاعجاب بعض الشرقيين بروما وبماضيها المجيد . فلا يجب من ثم ان نرى في ذلك دليلاً على تفوق الحضارة اللاتينية فكرياً على الحضارة اليونانية . واذا حققت اللغة اللاتينية آنذاك ، كلغة رائجة ، بعض التوسع الاقليمي في البلقان (انظر الشكل ١٢–ص ٤٦٣) ، فمرد ذلك ، في الارجح ، الى وضع احصائي نجهل معطياته والى وجود الجيش على الدانوب وتزوح العناصر اللاتينية عن دإسيا المتخلى عنها .

اما في الغرب فقد مال استعمال اللغتين الى الزوال . فقد انطوى انتشار هذا الاستعمال ، في الحقيقة ، خلال العهد الامبراطوري الاول ، على عمل بطولي متناقض لانه سبق للغة اللاتينية ان أثبتت اهليتها كلغة ثقافة . وبعد ان اعتمدت الكنيسة الغربية اللغة اللاتينية كلغة طقسية ، لم تعد معرفة اللغة اليونانية ضرورية للاكليروس . ومنذ القرن الرابع اكتنف الغموض الجادلات اللاهوتية بسبب الجهل المتبادل لدقائق اللغتين : فمع ان تركيب الكلمة اللاتينية *Substantia* (جوهر) مماثل لتركيب الكلمة اليونانية *Hypostasis* ، فليس للكلمة اللاتينية المعنى نفسه قط ، الشيء الذي اثر اكثر من سوء تفاهم بين انصار القانون النيقاوي . وما زال بعض الاساتذة اليونانيي الاصل يعلّمون اللغة اليونانية في المدن اللاتينية . وقد عرفنا منهم ، بواسطة أوزون ، خمسة في بوردو . ولكن الجهود قد صعب على التلامذة فنفروا من هذه الدروس : وقد اعترف اوزون « بانه ارتكب في حداثة سنه خطأ فادحاً صرفه عن الدروس اليونانية » ، واضطر القديس اوغسطينوس ، لمقتضيات لاهوته ، الى تعلم اللغة اليونانية في شيخوخته ، ولكن الأمر لم يكن سهلاً عليه ، فلم يتمكن قط من اتقانها جيداً . ولم يدم استعمال اللغتين الا في اوساط الارستوقراطية الرومانية الواسعة الثقافة التي ما زال باستطاعتها استخدام المربين الخصوصيين .

على الرغم من استمرار الوحدة السياسية ، جاء التطور مماثلاً في الواقع لذلك الذي ظهر في الشرق بفعل نهضة اللغتين البلديتين ، القبطية والسريانية . بيد ان نجاح اللغة اللاتينية ابعد رسوخاً في الغرب على الرغم من يقظة اللغة الكلتية آنذاك واتيان القديس اوغسطينوس على ذكر اللغة البونيقية ، اللذين قد يفسرهما نشاط جديد استعادته هذه اللغات القديمة . ولكن تقهقر المدن وضعف البورجوازيات البلدية قد رافقها بالضرورة بعض الانكماش منذ ذاك الحين ؛ فكانت النتيجة المحتومة ظهور اللهجات الاقليمية الخصوصية تحت تأثير الفطرة الشعبية ، التي ستزداد قوة في العهود اللاحقة بفعل تأثيرات اخرى . واذا ما اقتصرنا على اليونانية واللاتينية ، جاز لنا التأكيد ، حين تقضي الاحداث السياسية وغزوات البرابرة الى انفصال الإمبراطوريتين ،

ن هذا الحدث سيسهل الحد من استعمال هاتين اللغتين .

لا يجوز ان نغالي في نتائج هذا الوضع على الصعيد الفكري . لمنذ قبل نهاية العهد الامبراطوري الأول كان لكل من اللغتين تراث قمين ، بثروته وتنوعه ، بتهذيب العقل وتوجيهه في اية طريق يسلكها . اضف الى ذلك ان كل كتاب ينطوي على بعض الاهمية لا يلبث ان ينقل اقله من اليونانية الى اللاتينية .

٢ - المؤلفات

ليس والحالة هذه من تبدل يذكر في الظروف العامة . ومع ذلك فان النتائج المحققة ، اذا ما نظرنا اليها كمجموع، ليست من الأهمية بمكان. فالانحطاط الذي نلمسه في القرن الثالث بنوع خاص – والذي يحتمه الاضطراب العام – قد توقف بعض الوقت في القرن الرابع ، ثم عاد الى الظهور متسماً بحركة حثيثة .

التقهقر العلمي

ان هذا التقهقر لمحزن على الصعيد العلمي . فان بعض التقدم في التطبيقات العملية، الذي لا يجوز ان نقدره فوق قدره ، أبعد من ان يخفي ما هو أعظم خطورة : تأخر الروح العلمية وانصرافها عن الملاحظة والبحث بشغف بمجرد ووفاقاً لقواعد المنطق . فهل من ريب في ان المسؤولية الكبرى في ذلك تقع على الاولوية التي سلم بها الانسان آنذاك للمشاغل الدينية ؟ شقت الوثنية هذه الطريق بفعل سيطرة الصوفية عليها . فهي قد شعرت قبل أي شيء آخر بالميل الى دفق عاطفي وبالحاجة الى الاتحاد بالكائن المطلق : لم تبد لها معرفة أسرار الكون أمراً مرغوباً فيه إلا اذا قادت الى يقين راسخ حول الحكمة الإلهية ؛ بل تصبح محزنة اذا صرفت النفس عن العبادات التي تشكل واجبها الرئيسي وعزاءها الاوحد . غير ان هذا الموقف المنافي للعلم قد صادف انصاراً أشد حماساً ايضاً عند المسيحيين الذين حصلوا على الوحي الاعظم الذي آتاهم اياه الكتاب المقدس فتوجب عليهم بالتالي ان يستغرقوا في درسه . وليس من العسير علينا ان نجمع ، لدى آباء الكنيسة ، تصريحات مبدئية تصدر حكماً مبرماً على كل مجهود يبذل في سبيل غايات أخرى . ولم يشذّ عن هذه القاعدة سوى القديس باسيليوس الذي رضي بالابقاء على بعض التحقيقات السابقة بمقدار ما تتيح ادراك عمل الخالق العجيب ادراكاً افضل . اما النظرية التي عرفت الرواج فهي تلك التي حددها القديس اوغسطينوس باعلانه نافلاً كل ما هو خارج اطار الكتاب: «كل ما يستطيع الانسان تعلمه خارج الكتاب يخطئه الكتاب اذا كان مضراً، ويحتويه اذا كان مفيداً » .

ليس بكاف من ثم ان نتكلم عن ركود العلم: فهنالك تقهقر يرثى له على كل صعيد. ولنقتصر هنا، دونما استشهاد بأسماء المؤلفين والمؤلفات ، على الاشارة الى اهمال الرياضيات التي انحصر تعليمها في الاسكندرية ، وتأخر علم الفلك الذي طغا عليه علم التنجيم ، والذي مقته المسيحيون اسوة بهذا الاخير ، بصورة غير مباشرة، وذوبان العلوم الطبيعية في الكيمياء الممقوتة ايضاً، بسبب اتصالها

بالسحر ، وفي التلميات المعجبة ، واندثار المعارف الجغرافيــة التي كان تحصيلها في السابق امراً عادياً ، وذلك على الرغم من وجود البرابرة الآتين من المناطق النائية ، ومن المحافظة على العلائق التجارية بالشرق الأقصى . انتحلوا بلين القديم وبطليموس دونما اهتمام للحفاظ على ما جمعه هـذا الاخير. أنكروا ان تكون الارض كروية الشكل وان يكون بحر قزوين بحراً مقفلاً ، كما انكروا شمس نصف الليل وتفسير المد والجزر بجاذبية القمر . وأضيفت « الطريق البحرية » الى فهرست « طريق انطونينوس » (أي كركلا) وأحصي فيها البارثاس في عداد الجزر .

فلا أهمية من ثم للتراث العلمي الذي تركته للعصور الوسطى ، بصورة مباشرة ، عصور قديمة تلفظ أنفاسها الاخيرة ، وسيكون للقرون الوسطى الفضل أقله في العودة الى مؤلفات القرن الثاني العظمى .

القانون

اما القانون ، وهو علم روماني دخل الشرق في العهد الامبراطوري الأول ، فلم يزدهر في هذا العهد ، بل في عهد سلالة ساويروس . وقد بلغ رجال القانون من الشهرة آنذاك ، وهم في معظمهم من السوريين ، ما جعل هذه السلالة الشرقية تستدعيهم الى روما ، فاصبح الثلاثة المشهورون بينهم ، وهم بابيليانوس وأوليبانوس وبولس ، قادة لحرس القيصر ، ولم يكن ذلك لخيرهم على كل حال اذ ان وظيفة الاولين قد انتهت بهما الى موت فاجع . اتصفت مؤلفاتهم بالقوة والاقتناع وحاولت التوفيق بين النظام والعدالة . وانمت وضع تنسيق وتسلسل المبادىء وميزت المفارقات الضرورية لتطبيقها . فرفعت القانون الروماني ، بعد مؤلفات كايوس ، الى مستوى فكري لن يتجاوزه فيما بعد .

فاذا ما حافظت بعد ذلك مدرسة بيروت ، التي اشهرها رجال القانون ، على اولوية لن تتخلى عنها للقسطنطينية قبل القرن الخامس ، فان هؤلاء لم يهتموا للمنطق النظري اهتمامهم للتطبيق العملي . اضف الى ذلك ان غزارة القرارات التشريعية والادارية انما رسمت لهم هـذا الاتجاه . وقد غدت مهمتهم الرسمية محصورة في الحفظ والتنسيق . فظهرت حينذاك ، في اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع ، « مجموعات الدساتير » الامبراطورية ، اي النصوص الرسمية التي تحدث او تحور القانون ، مرتبة ترتيباً منطقياً وزمنياً بحيث يعمل باحدثها عهداً اذا كان مناقضاً لما قبله . جاءت هذه المجموعات في البداية ثمرة مجهود خاص ، ثم غدت عمـلاً رسمياً في القرن الخامس حين تألفت لجنة ، باتفاق الامبراطورين ، عملت طوال تسع سنوات في القسطنطينية وانتهت في السنة ٤٣٨ الى نشر « مجموعة القوانين الثيودوسية » التي اطلق عليها هـذا الاسم اكرامـاً لامبراطور الشرق ثيودوسيوس الثاني . وقد عادت اللجنة فيها الى قسطنطين لجمع وتنسيق الدساتير الحقيقية . ولكن صدور الدساتير الجديدة لم يتوقف سيله . فظهرت حينذاك « دساتير اباطرة الشرق » المتعاقبة ، الخاصة بهذا الملك او ذاك ، بانتظار مجهود اجمـالي جديد سيقوم به جوستينيانوس . هذه المجموعات عمل مفيد حقاً لا سيما للمؤرخ ، ولكن اهميتها عملية اكثر منها علمية .

في السابق وجد الميل الهليني الى علم اللغات ارضاً مؤاتية جداً في رومــــا حيث اسفرت الابحاث العلمية الواسعة في حقل الصرف والنحو، والابحاث الاثرية ، في حقلي القانون والدين ، عن مؤلفات هامة .

العـلم الواسع

اضمحل كل ذلك ، في القرن الثالث ، في الشطر الغربي من الامبراطورية، ولم يسفر في الشطر اليوناني الا عن مؤلفات صغرى خالية من القيمة الفكرية أو اقله من الايضاحات المفيـــدة للعلماء المعاصرين : وليس في الحقيقة ما هو جدير باستيقافنا هنا في كتاب « السفسطيون في المأدبة » لاثيناوس ، وكتاب «تراجم مشاهير الفلاسفة» لديوجينس لايرس، وكتاب « تراجم السفسطيين» لفيلوستراتوس ، وجميع هؤلاء المؤلفين من معاصري سلالة ساويروس .

لم يتوصل خلفاء هؤلاء المؤلفين ، في الشطر اليوناني ، الى التفوق عليهم . اما في رومـــا فقد حدثت نهضة حقيقية في النصف الثاني من القرن الرابع رافقت المقاومة الوثنية التي شجعها جوليانوس. فليس من باب المصادفة ان ينكب مشاهير الشيوخ، الذين حاولوا الدفاع عن الوثنية آنذاك ، بريتكستاتوس وسيماكوس وآل نيكوماكوس فلافيانوس ، على نشر وشرح الروائع الكلاسيكية الكبرى ، ولا سيا مؤلفات فيرجيل وتيت – ليف . واعتبروا الحفاظ على هذا التراث الادبي ، المدين بالبقاء لهم الى حد كبير ، واجباً من واجبات المواطن الروماني والمتم على اخلاصه للديانة القديمة . وقد دون « ماكروب » احاديث هذه الندوة الفائقة الثقافة في كتابه « اعياد ساتورن » الذي اطلق عليه هذا الاسم بسبب العيد الذي درجوا على اختيـاره للاجتاع عند هذا أو ذاك من اعضاء الندوة . تناول هذا الكتاب في الدرجة الأولى مؤلفـــات فيرجيل وفضله ، واننا لنجد فيه كما في الشرح الذي يكرسه ماكروب لـ « حلم شيبيون » الذي اختاره من احد ابحاث شيشرون، شتى المعارف الدقيقة التي تفرض مطالعات كثيرة وجّهها تفكير صائب تحلى به هذا الفيلسوف الوثني الصوفي . ولكن ما يدعو الى الاسف ان هذه الشعلة الاخيرة لتقليد طويل قد انطفأت بسرعة خاطفة .

ومما يدعو الى الاسف ايضاً ان شعلة مماثلة لم تتّقد في المعسكر المقابل ، لا تقليداً ولا تصميماً على المجادلة ، مع ان الطريقة القديمة ممكنة التطبيق على مــــادة جديدة . وليس بمكنتنا ان نستشهد ، من الجانب المسيحي، الا بالقديس ايرونيموس الذي تتلمذ في صباه على دوناط . تاق الى الوضوح والدقـــة في تفسير الكتاب المقدس فدرس العبرية كي يترجمه : وستصبح ترجمته « فولجاتا » (أي الترجمة العامية) الكنيسة اللاتينية . نهض بعمل تفسيري عظيم تطلب منه جدّاً وجهداً لا سيا في الاسفار النبوية ، وقاده الى ترجمات وابحاث عديدة . ولكن عمله الذي لم يقدره مسيحيو عصره حق قدره لن يصبح نهجاً لغيره الا في عهد لاحق .

التاريخ

سار التاريخ سيراً موازياً تقريباً .

فقد برزت في الشطر اليوناني ، في القرن الثالث ، بعض الاسماء المحترمة كـ « ديون كاسيوس » و « ديكسيبوس » و « هيروديانوس » : ومع ان واحداً من هؤلاء الكتبة لم يكن

عبقرياً ، كما يبدو ، فان ما وصل الينا من مؤلفاتهم يجعلنا نأسف لتشويهها او لايجازها .
اما من الجانب اللاتيني فليس آنذاك ما يستحق الذكر سوى مجموعة مغلوطة صدرت في القرن الرابع تجب الاشارة اليها رغبة في اظهار فساد لون من الالوان الادبية ، هي المجموعة المعروفة بـ « التاريخ المعظم ». فنحن هنا امام تراجم الاباطرة ما بين هدريانوس ودبوكليسيانوس . اما مرد المقت فليس في عددهم الذي ضاعفته الفوضى ، وبالتالي في فقدان الوحدة الموضوعية . وليس كذلك ، الى حد ما ، في تقليد فاسد لـ « سويتون » وايثار الاماليح وعطورات الحياة الخاصة . فان شر ما هنالك ، وما لا يمكن ان تعوّض عنه أية صفة من صفات الكتابة ، انما هو عدم الاستقامة الفكرية . فقد زيّن كثير من هذه التراجم بكذب مفتعل لا ينطلي على احد . يتضح لنا منها ان واضعيها مؤلفون تجهل عنهم كل شيء ، وانها مقدمة اما لديوكليسيانوس واما لقسطنطين. ولكن تحليل النزعات السياسية والمستندات الكاذبة يرغمنا الى استبعاد هذين التاريخين . وتقوم « معضلة التاريخ المعظم » اليوم ، التي لم يفصل فيها بعد ، في تحديد تاريخ آخر لوضع هذه التراجم او عدة تواريخ اخرى للتحويرات المتعاقبة التي أدخلت عليها .
وصلت الينا هذه المجموعة كاملة ، في حال ان الاجزاء الثلاثة عشر الاولى – المكرسة للانطونيين في القرن الثالث والنصف الاول من القرن الرابع – من مؤلف اميانوس مرسلينوس المشهور قد اضمحلت بأجمعها ايضاً . اجل ان الاجزاء الثمانية عشر التي قدر لها البقاء هي أهم اجزاء هذا المؤلف لأنها تتناول السنوات الخمس والعشرين التي سبقت موت فالنس : فمن حيث ان اميانوس قد عاشها اما ضابطاً واما مراقباً مقرباً متحمساً ، فقد تجمع لديه عنها أصدق الاخبار وادقها . لقد آثر هذا الاغريقي الكتابة باللغة اللاتينية ، واذا ما حالف التوفيق مجهوده احياناً ، فان طريقته الكتابية غالباً ما تتصف بالخشونة والصلابة . بيد ان هذا العيب يتضاءل امام صفات الفكر والمبنى. سار اميانوس على خطى « تاسيت » وبدأ تاريخ الامبراطورية حيث توقف هذا الاخير . وهو ليس دونه حدّة في السيكولوجية ، ولا حياة نابضة في الرواية ، ولا اصطفافاً في المشاعر . بل هو يتفوق عليه بخبرته العسكرية ، وباهتمامه لحياة الولايات وحتى حياة الشعوب الغريبة ، وبعدم تحيزه في الاشارة الى سيئات بطله جوليانوس وصفات كونستانس الثاني او فالنس . ومن دواعي الاعتزاز لروما ان القرن الاخير في تاريخ عظمتها قد اجتذب اليها رجل عمل وفكر من امثال هذا المواطن الانطاكي .
غير ان اميانوس مرسلينوس كان آخر مؤرخ كبير ، ولن يبرز مؤرخ سواه قبل مرور فترة طويلة . فلم يكن بمكنة المسيحيين آنذاك ان يكتبوا التاريخ إلا عرضاً لأجل الدفاع عن ايمانهم والدعاوة له . وكانت هذه ، في اوائل القرن الرابع ، حال لاكتانس الذي روى « موت المضطهدين» ، وحال افسيفيوس القيصري الذي وضع مؤلفاً تاريخياً قيماً هو « التاريخ الكنسي » . وهذه ، بعد ذلك ، حال واضعي التراجم الكثيرين الذين قلدوا لون الترجمة القديم بغية تقديم قدوة للمؤمنين . قد يجد المؤرخ المعاصر ما يفيده في كل هذه المؤلفات . ولكن شتان بينها وبين ذلك النظام الفكري الذي أوحى في اليونان وفي روما بذاك القدر الكبير من الروائع .

البيان

لقد جرى اميانوس مرسلينوس على النهج القديم فنثر الخطب في تاريخه . ومرد ذلك الى ان البيان لا يزال يحتل مركز الصدارة ، ويمتّ بصلة الى كل المواضيع. فالعالِم بأصول البيان يفضل الخطيب المحترف من حيث انه الانسان المثقف بالذات الذي تتقد صفاته العقلية والكتابية والفكرية واللغوية المتلازمة ، في كل مكان : الى جانب الخطب ، توفر له الابحاث القصيرة ، والمقالات الانتقادية ، والرسائل، وسائل تعبير متنوعة جداً.

يثبت لنا اسما فيلوستراتوس ولونجينوس ان البيان لم يضمحل من العالم اليوناني في القرن الثالث . أما من الجانب اللاتيني فان هذا القرن صفر وخاو ؛ بيد ان بوادر نهضة قد رافقت فيه العودة الى النظام الامبراطوري . فقد لمع اذ ذاك نجم مدرسة (اوتين *Autun*) ووضع بعض اساتذتها أفضل الخطب الاحدى عشرة التي جمعت ، مع « تأبين ترايانوس »، في مجموعة « التأبينات اللاتينية » . واشتهر بعد ذلك المؤلف سيماكوس الذي تحلّى بثقافة عالية وامتاز بالأناقة والظرافة ، وبرهن أحياناً عن صدق طوية مؤثر . ومع ذلك ، فقد بقي البيان اليوناني اكثر لماناً في القرن الرابع : فقد برز فيه أربعة محترفين ذائعي الشهرة هم بروهيريسيوس وهيميريوس في اثينا وتيميستيوس في القسطنطينية وليبانيوس في انطاكية ، وقد اتقنوا جميعهم رخامة دوائر الكلام التي زاد في ابرازها فنهم في الإلقاء : ولكننا نؤثر على هذا الاتقان مادة أعمق جوهراً . ويجب ان نضيف اليهم جوليانوس الذي تتلمذ على الأولين وأعجب بهم جميعهم ونافسهم في مؤلفات حالت هموم حياته ومنيته دون الاكثار منها .

هذا هو مظهر النشاط الأدبي الذي فاق المظاهر الاخرى استمراراً . فقد تأثرت به بعض مؤلفات سينيزيوس نفسه ، كما تأثر به مباشرة اكثر من واحد من آباء الكنيسة .

الشعر

أما اللون الاخير من الألوان الأدبية الدنيوية ، فهو كان الشعر اليوناني في مظهره الكلاسيكي ، متهدّماً ، ان لم يمس ميتاً. بيد انه يجدر بنا الاشارة الى طرفة غريبة هي استمراره حتى اواخر القرن الخامس في « القصائد الديونيسية » ، للشاعر (نونوّس *Nonnos*) الذي ولد في بانوبولس في مصر العليا . فقيل في ذلك : ان تومبو كتو ألجبت آخر مقلّد لـ « راسين » ؛ وقيل في ذلك فكاهات أخرى يصعب تبريرها ؛ ولكن هذه الفكاهة تلفت الانتباه الى ما ينطوي عليه الفكر اليوناني من قوة استساغة مدهشة دائمة .

اما الشعر اللاتيني فلا يزال ينبض بالحياة في اواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس ، تغذيه الذكريات ويسانده التقليد . ومع ذلك فهو قد استعاد بعض التميز . ولنقتصر هنا على اسمين لا يستحق الذكر سواهما . فان استاذ البيان اوزون يجسّد الاعتدال ، بعد ان تاه فترة من الزمن في حياة البلاط والسياسة : والدليل على ذلك ان مسيحيته لا تتراءى في قصائده القصيرة التي تتجلى فيها سهولة الاتقان؛ واذا ما شعر بعواطف صادقة والتمس شعوره بالنضارة امام جمالات الطبيعة ، فانه يقتصر على التعبير عن مشاعره تعبيراً مازحاً ورقيقاً لأنه يمقت المغالاة والافراط؛ ولكن هذا الاعتدال يضفي على أشعاره بعض السحر احياناً . وعلى نقيض ذلك فان القوة الفاعلة

التي اعوزته تقبض فيضاناً عند كلوديانوس، وهو اغريقي من أتباع ستيليكون الذي جمع قصائده بعد موته ونشرها في شتى الاوساط . اجل لقد تملقت هذه القصائد القائد الحامي . ومع ذلك فقد ألهب كلوديانوس يقين حاد . فهو يجمع ، باعجاب واحد ، بين عظمة روما وعبقرية حاميه، كما يجمع ، بكراهية واحدة لا تتراجع امام أية امانة ، بين الثائر الافريقي والبرابرة والخصي الحقير افتروبوس الذي يسيّر حكومة القسطنطينية على غير ما ترى ميلانو . وترغمنا متانة الفنة التي توصل هذا الاسكندري الى اتقانها ، ومهارة صناعته الشعرية ، ونضارة استعاراته ، وحيّا وطنيته ، على ان نتذكر ، في الكلام عنه ، اسماء فيرجيل ولوكان وجوفينال .

والى جانب الشعر الدنيوي ، ظهر آنذاك الشعر الديني : فلدفق الروح مطالبه الموسيقية ايضاً . فبعد ان كان الشعر فلسفياً ، بما انطوى عليه مفهوم هذه الكلمة آنذاك في اناشيد الاغريقي سينيزيوس ، غدا مسيحياً صريحاً في مؤلفات اللاتينيين بوردانس والقديس بولين النولي، احد تلامذه أوزون . ولكن افراغ المشاعر الجديدة في قالب كلاسيكي كان مهمة شاقة : وقليلون جداً هم المسيحيون الذين توفقوا الى النهوض بها قبل زوال الثقافة القديمة .

آباء الكنيسة

يبقى امامنا ، في القرن الرابع ، انتاج رائع هو انتاج آباء الكنيسة اليونانيين واللاتين على السواء . افليس مغايراً اللياقة ان نتوقف عندهم هنا وننظر اليهم من زاوية الأدب يا ترى ؟ لا ريب في انهم كتبوا وان بعضهم كتبوا بغزارة ، وغالباً ما اصغى اليهم بعض المستمعين واختزلوا كلامهم نفسه بغية تأمين نشره . ولكن هذا المظهر الأدبي لنشاطهم يبقى ثانوياً في نظرهم . فهم قد اهتموا ، بالاضافة الى دورهم كاساقفة ، ومن ثم كساسة زمنيين، لنفسهم وللنفوس الموكول امرها اليهم في الدرجة الأولى . ولا حياة ، من جهة اخرى ، بدون صراع : فقد ناضل المؤلفون المسيحيون الاولون ضد الاعداء الخارجيين ؛ ثم توجب عليهم ، بعد احراز الغلبة ، الدفاع عن الايمان ضد الهرطقة ، وتعليم المؤمنين وتوجيههم في الحياة الأرضية الملأى بالمكائد . فالعقيدة والتعليم والاخلاق كانت من ثم مواضيع ابحاثهم المذهبية وعظاتهم ورسائلهم .

بيد انهم ، على الرغم من كل ذلك ، وبما صرح به بعضهم ، كتبة يمثلون عهدهم . استعجلهم الوقت فاقتصدوه . وانسجموا عن قصد احياناً مع من يستمع اليهم من عامة الشعب . ولكنهم لا يستطيعون احتقار مستمعين او قراء آخرين . أضف الى ذلك انهم تلقوا تربية تطبع الانسان بطابعها الخاص، وتخرجوا من مدارس تعلّم الآداب الجميلة وألقوا فيها الدروس احياناً . فالقديس باسيليوس، الذي كان ابن معلم بيان، وعلم البيان هو نفسه حيناً ، كان رفيقاً في التلمذة لغريغوريوس النازينزي – وليوليانوس ايضاً – في اثينا ؛ ولعله تتلمذ على ليبانيوس على غرار فم الذهب ؛ ودرس القديس اوغسطينوس البيان في قرطاجة وروما وميلانو . ولذلك فقد توجب عليهم الاعتناء بالمبنى .

فاذا غذى الكتاب المقدس يقينهم وشحذت الافلاطونية جدلهم احياناً وغمرت التقوى الحارة

كل وجودهم ، فقد توفق بعضهم ، في مخالطتهم الطويلة لروائع الادب الكلاسيكي ، الى امتلاك وسائل التعبير التي روضها كتبة العهود السابقة . فيحق للكنيسة ، بفضلهم ، ان تعتبر نفسها ، على هذا الصعيد ايضاً ، وريثة الحضارة المتوسطية .

لنقتصر على ذكر اثنين منهم فقط من الجانب اليوناني : القديس غريغوريوس النازينزي ذو الفطرة الشعرية والخيال الفاتن والتأثر الحزين، والقديس يوحنا فم الذهب الذي يكفي لقبه للدلالة على فصاحة ذائعة الشهرة تبررها مواعظه الانجيلية الرشيقة وأماليحه التي تهدىء ، بتأثير من قوة سحر كلامه ، غضبات الجماهير المائجة ، في انطاكية والقسطنطينية .

ولنقتصر ، من الجانب اللاتيني ، على ذكر عظيم واحد فقط هو القديس اوغسطينوس . اتصف الرجل والاسقف فيه بقوة لا تجارى: كان في مدينته الصغيرة، هيبون (عنّابة)، الرئيس الروحي للعالم المسيحي الافريقي ، وحتى الغربي احياناً . لا ريب في انه مدين بهذه القوة الى عمله التنظيمي ونضاله الذي لا يعرف الكلل ؛ كما انه مدين بها ايضاً الى علمه اللاهوتي الذي لا يجاريه علم في الغرب آنذاك . ولكن كتابين فقط ، من اصل مؤلفاته الكثيرة التي يصعب مطلب معظمها على غير الاختصاصيين، ما زالا ينبضان بحياة دافقة : « الاعترافات » و « مدينة الله ». كلاهما يفيض فصاحة وشعراً مطرباً ، وصوراً وأسلوباً غنائياً، واحساساً مصطفقاً وحرارة حماسية. الاول هو التاريخ الداخلي الخاص لانسان ولروح قاما في ضلال الخطيئة وبحثا عن الحقيقة بقلق حتى الاستنارة النهائية : فالعصور القديمة لم تترك لنا أي أثر سيكولوجي تناول تحليلاً مؤثراً على مثل هذا العمق . اما الثاني فبحث فلسفي في تاريخ العالم الغاية منه اثبات النزاع القائم بين مدينتين موجودتين معاً ، احداهما قارس « محبة الله حتى نكران الذات » بينما تمارس الثانية « محبة الذات حتى نكران الله » . وهو لا يكترث بانحطاط روما حين ينظر الى الأشياء بهذا المنظار . فالشيء المهم الوحيد في نظره هو انتصار المدينة الالهية الذي هو معنى الحياة الحقيقية ومبرّر وجود العالم : هذا هو المثل الاعلى الذي ستتغذى به القرون الوسطى والذي ستحييه قوة تعبير مدهشة .

أجل القرون الوسطى : ولكن المبنى ، مهما كان من طابعه الشخصي ، قد بقي قديماً . فما هي مدة هذا البقاء يا ترى ؟ توفي القديس اوغسطينوس في السنة ٤٣٠ ، ولم يأت بعده خلف بكل ما الكلمة من معنى . فعرف الأدب المسيحي بعده ، بمقدار تمادي الأدب الكلاسيكي فيه ، الانحطاط البطيء العقيم الذي دبّ في هذا الأخير بعد نهضة القرن الرابع لا سيما في الغرب

٣ ـ الفن

ان الحياة الفنية في العهد الإمبراطوري الثاني أشد تعقيداً من الحياة الفكرية ايضاً . فهي شأن هذه الأخيرة تخضع لبعض التقاليد . ولكنها أسرع تأثراً بالصعوبات المادية وأقل خصباً ، بالتالي ، منها في العهود السابقة . أضف الى ذلك ان الذوق العام يتطور فيها تطوراً سريعاً ،

أو بالأحرى ان متطلبات الحياة الروحية الجديدة تتخذ فيها طابعاً أشد إلحاحاً: هذه المتطلبات هي ما يجب النزول عنده في الدرجة الاولى ، وقد زاد في وضوح الاتجاه الذي فرضته ، ان الموارد لم تتوفر للمحافظة على انتاج وفير وفيّ للأشكال التقليدية .

قسط الماضي

لم يفكر أحد قط بالاقدام عن قصد وتصميم على التنكر لتراث القرون السابقة الذي ما زال يثير اعجاباً شمل الوثنيين الذين اعتبروا المثل الكلاسيكي الأعلى أحد نظم الحضارة الوحيدة الخليقة بالانسان ، والمسيحيين الذين ما كانوا ليقفوا من هذه العظمة موقف اللامبالاة .

كان كونستانس الثاني امبراطوراً منذ عشرين سنة حين جاء في السنة ٣٥٧ للمرة الاولى الى روما ، وقد روى اميانوس مرسلينوس زيارته في احدى اشهر صفحاته : انتقل الامبراطور، كما يقول المؤرخ المسرور بتفصيل عجائب المدينة الأزلية ، من افتتان الى افتتان « معتقداً كل مرة بأنه لن يشاهد شيئاً أجمل مما شاهده. ولكنه ، ما ان بلغ ميدان ترايانوس ، «حتى وقف مشدوهاً.. وحين شعر بعجزه عن تحقيق شيء مماثل ، صرح بأنــــه يريد ويستطيع الاكتفاء بتقليد تمثال ترايانوس على صهوة جواده المنتصب في وسط الميدان » . فأوحت رغبته هذه نصيحة خبيثة أسداها اليه امير فارسي لاجيء الى البلاط الامبراطوري : « ياشهر ، اذا استطعت ، بناء اصطبل من هذا الطراز ، حتى توفر لجوادك الإقامة المتوفرة لهذا الجواد » .

على الرغم من نوايا اميانوس السيئة الواضحة ، ليس ما يبرّر الشك في واقع هــذه النادرة . انها تحدّد خير تحديد موقف رجال ذاك العصر امام تحقيقات الماضي . فكلما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، سارعوا الى العودة الى هذا الجمال والاقتداء به . وما زلنا ، حتى في اواخر القرن الرابع ، نشاهد نهضة كلاسيكية في الفن موازية لتلك التي شاهدناها في الادب . وقد دبت هذه النهضة في الاوساط نفسها ، أي في عائلات مجلس الشيوخ الرومانية الوثنية الكبرى : فهـــذه اللوحة العاجية مثلاً ، التي درج القناصل على نقشها احياء لذكرى الوظيفــة المسندة اليهم ، تستوحي ، بموضوعها واختيار نقوشها التزيينية وطريقة صناعتها ، نزعات ترقى الى قرن اوغسطس على الاقل . اجل نحن هنا امام حالة قصوى ، وقد حدثت تبدلات عظيمة حتمية . غير ان التبدلات الهامة لم تنته الى مقاطعة شاملة ومفاجئة وواعية . فلكل منها أكثر من جذر في العهد الامبراطوري الاول . ولم يتناول احد التقاليد بالنقد المنظّم . ولم يعتقد المعاصرون يوماً بأنهم « عصريون » . فغدوا « عصريين » على كره منهم .

المقاصف

اننا نشاهد هذا الاستمرار ، بصدد اطار الحياة المادي ، في تلك الاماكن بالذات التي تبدو فيها الظروف العامة مؤاتية جداً للتميز والابتكار ، ولاسيما في « المقصف » . المقصف هو نموذج مساكن كبار الملاكين العقاريين الذين أشرنا الى أهمية دورهم الاقتصادي والاجتماعي . وُسِّع في هــذا العهد وحُسِّن وجهز بغيــة تأمين الرفاهية والتسلية لضيوفه . ففي

معظم مناطق الامبراطورية – ومنها ما استحال فيها ترميم اطلال القرن الثالث بسخاء – حين توصل المنقبون الى التمييز بين التحويرات المتعاقبة في هذه الابنية ، يبدو ان أعظم بذخ قد تحقق في القرن الرابع . وان تاريخ المقاصف الغالية – الرومانية ، وهي أشهر المقاصف باتساعها وزخرفها ، في مناطق نهر الموزيل ، (نينيغ ، اودرانغ الخ .) ، يعود ، وفاقاً لوضع ترميمها اليوم ، الى ذاك العهد الذي اقام فيه ملك وبلاط في تريف ، ما بين ديوكليسيانوس وثيودوسيوس. ولكن نموذج المقصف كان قد ظهر في وقت سابق ، ومن النافل اعادة الوصف الذي أعطي عنه في الكلام عن القرن الثاني : فقد اقتصرت حضارة القرن الثاني على تحقيق عدد كبير منه وعلى توسيعه وتحسينه .

استمرار المثل الاعلى للمدينة : روما

لم يحل هذا التطور ، على الرغم من ارتباطه بالتطور الاجتماعي ، دون الحفاظ على الوفاء للمثل الاعلى القديم الذي استلزم في الدرجة الاولى الابقاء على مظهر المدن الفخم وتحسينه . استفرغت الامبراطورية الثانية جهودها على هذا الصعيد دون ان تحدث تغييراً جوهرياً في النماذج التقليدية . بيد ان المعبد قد تضرر من جراء اعتناق السلطة الرسمية الديانة المسيحية ، مع ان قسطنطين نفسه قد أمر بتشييد بعض المعابد في القسطنطينية . لذلك فقد أتى الفن البنائي المدني هنا وهناك بتحقيقات عظيمة .

في عهد سلالة ساويروس ارتدت المدن الافريقية أبهى حللها ، لا سيما مدن منطقة طرابلس الغرب ، لأن سبتيموس ساويروس الذي ينتسب الى لبتيس العظيمة قد غمر هذه المنطقة باعطياته: فالأبنية المدنية التي احاطتها أعمال التنقيب الايطالية ، ما بين الحربين العالميتين ، بشهرة حلال ، تعود الى هذا العهد .

غير ان روما لم تهمَل ، اقله خلال فترة طويلة نسبياً (راجع الشكل ١٩ ص ٥٩٣) . فبالاضافة الى قوسي نصر ، جهز سبتيموس ساويروس قصراً منيفاً على أكمة البالاتين ، وحجب أساساته بجبهة كاذبة مماثلة ، بطبقات أعمدتها الثلاث وجدرانها المتعرجة ومشاكيها ، للجبهات الكاذبة التي ازدانت بها الجدران الخلفية في المسارح . وقام كركلا في حيّ الافنتين ببناء حمامات لا تزال أطلالها تحدث تأثيراً قوياً في نفس الزائر المعاصر . فبينما تبلغ مجموع مساحة الميادين الامبراطورية في القرنين الاولين تسعة هكتارات ، بلغ آنذاك ١٤ هكتاراً ، واتسعت الحمامات المبنية في وسط الحدائق لألف وستمائة مستحم ، لا يدخل في عدادهم اولئك الذين كانوا يمارسون التمارين الرياضية في ميادين الرياضة الجسدية او يترددون الى دار الكتب وأروقة التصوير والنقاشة : في هذه الحمامات وجدت التحف الهلينية المعروفة باسم « هركول فارنيز » و « ثور فارنيز »

من البديهي ان اضطرابات القرن الثالث قد أثرت في هذه الحركة . ولكن الحركة لم تتوقف يوماً توقفاً تاماً : فقد حرص غورديانوس الثالث وداسيوس وغاليانوس واوريليانوس ، على الرغم من قصر عهد ملكهم او صعوباته ، على ان يعزوه بتشييد الابنية . وما ان استتب النظام حتى بدت الحركة وكأنها عادت الى حالتها السابقة . فان متحف الحمامات الوطني ، في روما الحالية ،

قد أنشىء في جزء ما زال قائماً من اجزاء حمامات ديوكليسيانوس التي تجاوزت مساحتها البالغة ١٥ هكتاراً مساحة حمامات كركلا . وأكمل قسطنطين الكنيسة الملكية التي شرع ببنائها ماكسانس وشيّد قوس نصر ورواقاً وحمامات .

بيد ان هذا الجهود لم يدم طويلاً . فليس باستطاعتنا، بعد قسطنطين ، ان نذكر سوى قوسي نصر وبعض الاعمال الترميمية : ومرد ذلك الى ان الاباطرة قد أقاموا في غير مكان ولم يهتموا لتزيين العاصمة التي لم تعوزها مظاهر التزيين . فانطفأت حياة العمران في روما التي أمست مدينة ـ متحفاً قلت العناية بها تدريجياً: لا بل أخضعت، بما انتزع من روائعها الفنية وأعمدتها ومسلاتها لتجميل القسطنطينية ، لعملية استلاب مماثلة لتلك التي جمعت بها هذه الثروة من التحف . فبدا الهبوط في الافق شيئاً فشيئاً .

المقرات الامبراطورية : القسطنطينية

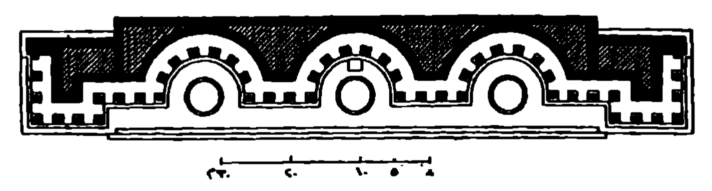
على نقيض ذلك ، استأثرت بالعناية الامبراطورية ، منذ ديوكليسيانوس ، المدن الاقليمية التي اختيرت ، لاعتبارات ادارية او عسكرية ، مقرات للأباطرة والقياصرة. فتوجب تشييد الكنائس الملكية والحمامات والمسارح والملاعب في نيكوميديا وسيرميوم وميلانو وتريف وفي مدن أخرى ايضاً . وتوجب كذلك تشييد القصور التي يبدو انها اختلفت شكلاً عن مساكن اللهو التي هواها في روما أباطرة القرنين الاولين . ألحقت بها الحدائق كما في السابق ؛ ولكن قاعات الابهة ، انسجاماً مع تبدّل النظام ، غدت أعظم روعة ، كما ان الابنية العسكرية أمست أكبر عدداً . وألّف القصر ، داخل السور المحصّن ، مدينة حقيقية : اما نموذج هذه الابنية الجديدة فهو القصر الذي قضى فيه ديوكليسيانوس أيامه الاخيرة بعد تنازله عن العرش والذي لا تزال اطلاله حية حتى اليوم في مدينة سبالاتو على شاطىء الادرياتيك .

بذل أضخم مجهود، في سبيل تجميل المدن ، في القسطنطينية التي أرادوها منذ البدء مساوية لروما . غير ان اعمال التنقيب الأثري، لسوء الحظ ، كانت محدودة فيها حتى تاريخه، اذ ان آثار القرون الوسطى العظيمة تحجب ما تركته فيها العصور القديمة : ولا يمكننا اليوم سوى تكوين فكرة اجمالية عما كانت عليه المدينة في القرن الرابع واوائل القرن الخامس .

نمت المدينة بسرعة بفعل ارادة اسياد الاقاليم الشرقية وبفضل النشاط الاقتصادي الذي ظهر فيها . كانت البقعة التي خصصها لها قسطنطين اربعة اضعاف بقعة بيزنطية القديمة ؛ ولم يمرّ قرن واحد حتى أبعد السور كيلومتراً الى الوراء . لم يدخل على الاحياء القديمة ، في الشمال الشرقي ، تحوير يذكر ، ويبدو انهم لم يعتمدوا في المدينة الجديدة تصميم المربعات المتساوية الذي اعتمده التجميل اليوناني ، والروماني من بعده ، في التحقيقات المماثلة . إلا انهم اتخذوا احتياطات بنائية ، بتحديد ارتفاع البيوت مثلاً ، وبارغام الملاكين على تجهيز القسم الاسفل من هذه البيوت بأقواس تطل على الشوارع العامة . لم يكن هناك في القسطنطينية سوى « جزر » سكنية نادرة، ولعلها لم توجد فيها اطلاقاً . ولكن السكان تكدسوا فيها تكديساً ولم تنج المدينة من الحرائق .

تم تزيين المدينة جزئياً ، رغبة في السرعة ، على حساب مدن او معابد أخرى . وهكذا فقد نقل قسطنطين ، من دلفي ، مشجب «بلاتيه» في ميدان السباق، ومن روما ، العمود المنتصب في وسط ساحتها العامة ، الذي وضع في أعلاه تمثالاً ذا رأس شعاعي الشكل كان يمثله في الارجح. واقتفى أثره عدد من خلفائه. وعلى الرغم من ذلك فقد توجب تشييد أبنية كثيرة أنهكت الخزانة الامبراطورية .

توسط المدينة الرسمية ميدان الاوغسطيون الذي قامت الى الجهة الجنوبية منه ثلاثة قصور



الشكل ٢٤ – السبليزونيوم او صرح سبتيموس ساويروس
في اتجاهها نحو الشرق، ازدانت هذه الواجهة بتماثيل الكواكب السبع ، وأهمها جميعاً تمثال الشمس الذي رمزوا به الى الامبراطور سبتيموس ساويروس ، وكان يقوم في المشكاة الوسطى . وهذا المبنى شاهد على تأثير التنجيم والنزعات التي تأثرت بها الايديولوجيا الامبراطورية .

تؤلف غالبا على حدة . كان باستطاعة الامبراطور ان ينتقل مباشرة من احد هــذه القصور الى مقصفه في ميدان السباق الذي شيّد في عهد سبتيموس ساويروس ثم وسّع حتى يساوي ميدان سباق العربات في روما . من هذا الميدان انطلق الشارع الرئيسي الذي ينقسم بعد ساحة طوري التي أعدها ثيودوسيوس، الى شارعين فرعيين: يؤدي الشمالي منها الى كنيسة الرسل القديسين التي جهز مردابها قبل وفاة قسطنطين وأعدّ لاستقبال جثمان الاباطرة المتوفين. وقد حرص جوليانوس على ان ينقل اليه بأبهة عظيمة جثمان كونستانس الثاني الذي كان هو قد اغتصب منه الحكم في لوتيسيا .

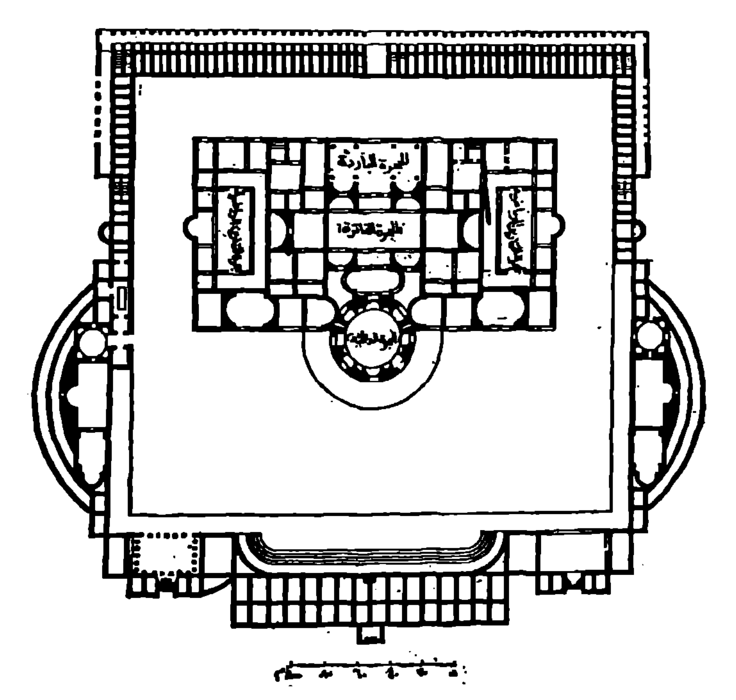
لن تستطيع القسطنطينية ، اذا ما استثنينا قصورها ، مضاهاة رومــا بعظمة أبنيتها وستنحصر مظاهر الأبهة والبذخ فيها تقريباً في حياة البلاط والاعياد التي تقام في ميدان السباق. ولكنها وفرت للامبراطور ، منذ اواخر القرن الرابع ، اطاراً لائقاً بنفوذه وعظمته .

الخطاط التقنية

ولكن ، ما هو شأن مدينة ، بل عدة مدن ، في جانب أعمال لا تحصى حققتها الامبراطورية الاولى؟ فالجهود البنائي قد توقف عملياً في المدن الصغيرة والمتوسطة التي انحصرت في طوق من الأسوار . وفي سبيل تشييد هذه الاخيرة استخدمت الأبنية القديمة محاجر أو مساند . ثم ان الخزائن البلدية قد أقفرت ، والعطاء الخاص قد نضب، فأعوز المال حتى لتعهد الأبنية الباقية . تدنى من ثم طلب البناء ، ولم يعوّض عنه بتجديد المقاصف وترميمها ، فأفضى ذلك الى كارثة حقيقية ، نزلت في القرن الثالث بمهندسي العمارة والنقاشين والمزينين واليد العاملة الماهرة . وقد دام هــذا التدني الى ما بعد استعادة الاستقرار . فــلم يكن باستطاعة

الامبراطورية ، اذا ما نظرنا إليها كمجموع ، ان تقدم على ما أقدم عليه الانطونيون .

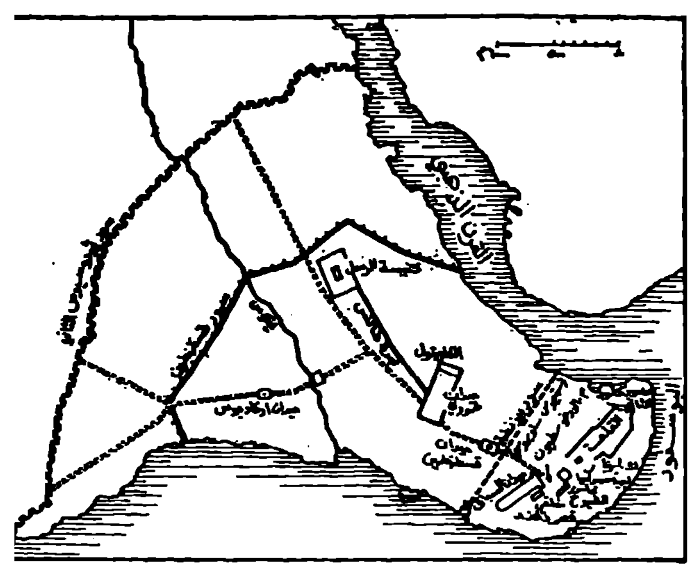
لذلك ، فنحن لا نكون مسلمين بنظرية مادية ، اذا ما حاولنا أن نفسر بذلك واقعاً راهناً: أعني به التدني الصريح في تقنية المنفذين المتوسطة . فهؤلاء قد غدوا أقل عدداً ، وقلما مارسوا مهنتهم أو تطوهـا تعلماً فقط ، ففقد معظمهم سر المخارط اليدوية ، والحيل الصناعية . لقد



الشكل ٢٥ – حمامات كركلا

شكا الفن الامبراطوري الروماني ابدأمن الحاجة الى انتاج كثير وضخم وسريع؛ ولكنه برهن في السابق عن مهارة تلفت النظر في تحقيق ما يطلب منه . أمـا الآن فيتوجب عليه انتاج ضخم وسريع : برغمه عليه نفوذ النظام والامبراطور . ولكن التدني المظيم في كمية الانتاج، قد رافقه تدنٍ أعظم في النوعية : فلا أثر للاتقان ، وحتى للمهارة احياناً . وليس من الصعب علينا ان نرى بين اللاحظتين نسبة العـلة للمعلول : فقد تدنى عدد الحارفين الممتازين ؛ وخف انتقال الصناعيين الماهرين في الامبراطورية ؛ وأصبح من العسير وجود العمال المتمرنين محلياً وتأليف الفرق من بينهم .

بديهي ان هذا التأكيد العام يستدعي بعض المفارقات . فقد برهنت صناعة البذخ ، عـ
موم ، في حقل المصنوعات الصغيرة ، عن صفات حقيقية : اذ ان وجود طبقة اجتماعية
ـأ قد وفر لها زبناً يبتاعون هذه المصنوعات . وهـا هي صناعة الزجاج الرينانية قد حا
ـنوعات تم عن مهارة مبتكرة نادرة ، ان لم تحقق مصنوعات يعوزها الذوق اللطيف .



الشكل ٢٦ - القسطنطينية في أواخر القرن الخامس

ـث ان حققت روائع صغيرة ، تم عن مهـــارة تقنية كبرى ، على أيدي الصائغ والجوهـ
ـاش العاج ورواسم الصور المصغرة على رق المخطوطات، الذي أخذوا في القرن الرابع يطو
ـكل كتاب ، بدلاً من لفه على طريقة البرديات . لذلك ، اذا ما وضعنا صناعة التماثيل النـ
ـناعة المسكوكات القديمة جانباً ، فان الفنون التي يطلق عليها اسم الفنون الصغرى لم تصـ
ـكل محسوس ، بالانحطاط التقني .

ما زالت هندسة العمارة من جهتها تحقق أعمالاً متينة ، ان لم تحقق اعمالاً أنيقة . فقد اعتمـ
أغلب الأحيان القباب الواسعة الضخمة . ولجأت ، اكثر منها في العهد الامبراطوري الاو
استخدام القرميد الذي يوفر لها افادتين : كلفة أدنى ، وعمـل منظم اسرع . وقد درـ
ـع خاص آنذاك عادة ادخال عدّة سافـات من القرميد ، على مسافات متساوية ، في جد
ـية بالرخام . لم يدخل أي تعديل على نوع الملاط ، ومع ذلك فقد أمن البقاء حتى اليوم لا

عديدة من القرميد . ولكنهم ، لم يترددوا أحياناً في استعمال الحجر دون ملاط : فهـا هو « الباب الأسود » في تريف قد سخر من الزمن ، ولا تزال ضخامته ، التي تتفق وغايته كحصن ، تفرض اعجاب الزائرين المعاصرين .

نهاية النقاشة

اما النقاشة ، بالمقابلة ، فتتصف بمزيد من الفلاظة . وليست هذه الفلاظة ، لسوء الحظ ، احتقاراً للاصطلاحات او عودة الى طوية أكثر بهيمية ، بل مجرد خرق مرده الجهل . وها نحن نختار قليلاً من كثير من الأمثلة المحزنة على ذلك . فالتهشيم الذي تعرض له قوس نصر غاليريوس في تسالونيكي لا يخفي دونية تنفيذه . اما قوس قسطنطين في روما ، فان القطع المنتزعة من بعض أبنية القرن الثاني والمنزلة فيه تبرز بمزيد من الوضوح ركاكة القطع التي نقشت له . وكيف لا نذكر هنا جمود الامبراطورين والقيصرين المتعانقين الذين تمثلهم المجموعات الارجوانية في كنيسة القديس مرقص في البندقية ؟

تحسنت النوعيـة في اواخر القرن الرابع . ولكن بعض المكاسب التي حققتها النقاشة منذ اواخر العهد اليوناني القديم ، فقدت نهائياً . فقد فقدت في الدرجة الاولى معرفة الجسم البشري : فتوارت قسماته تحت الثياب الكثيفة والخطوط الايحازية . وفقـد في الدرجة الثانية ، بنتيجة مباشرة ، ايحاء الحركة وحتى تمثيلها : فجمدت الاجسام وبدت متصلبة ، هندسية ، مبسطة ، جبهية ، موزعة بتناسق في النقوش الناتئـة على النواويس وغيرها . فكان ذلك نهاية المطابقة والحياة في الحجر ، أي نهاية النقاشة كما فهمتها الحضارة اليونانية الرومانية التي أنتجت ذاك القدر العظيم من الروائع .

التأثيرات الشرقية

ولكن كل هذه المصطلحات ، من جمود كهنوتي وجبهية وتناسق ، مصدرها شرق بعيد جداً في الزمان خنقت نظرتـه الجمالية القديمة او اخمدتها ، منذ الحروب الميدية ، قوة النظرة الجماليـة اليونانية المدنية ، فأحيتها الآن تأثيرات عديدة مختلفة ومتشابكة . لم تترك في الفن الهليني ، وفي فن الامبراطورية الاولى من بعـده ، سوى عناصر ثانوية قليلة ، كبعض المواضيـع التزيينية مثلاً ، او بعض النزعات المريضة ، كالميل الى ما هو عظيم وما يفوق الانسـان . اما الآن فنحن وجهاً لوجه امام نهضتها العلنية والجريئة والتوسعية التي شجعها رجوع المملكة الساسانيـة القومية ، كما شجعها ، داخل الامبراطورية ، نشاط الولايات الشرقية على الصعيد الاقتصادي وغليانها الديني ويقظة تقاليدها البلدية .

الشرق : كلمة غامضة ونطاق شاسع تتراءى فيه أكثر من نزعة خاصة . فدراسة الفن في العهد الامبراطوري الثاني هي اليوم احد أعظم نطاقات علم الآثار نشاطاً ومستقبلاً باسماً بالآمال . ولا يرد ذلك الى أهميتها الخاصة بقدر ما يرد الى انها تحضير الفن البيزنطي . وبفضل تقدم هـذه الدراسة ، اخذ العلماء يلقون بعض الضوء على اسهامات مختلفة ، القبطية والسورية والايرانية . ولكن غالباً ما يجدون أنفسهم امام شرق هو نفسه معقد التركيب اذ ان ماضيه التاريخي قد اوجد

اتصالات قوية بين مختلف اجزائه . فليس باستطاعة بحثنا ، والحالة هذه ، ان يتناول سوى الخطوط الكبرى .

فالشرق يعود الافراط في التزيين الذي أظهر الفن الامبراطوري نفسه ميلاً إليه ، رغبة منه في اخفاء المواد السيئة المستعملة في البناء : وقد برز هذا الافراط في عهد سلالة ساويروس ، ولا سيا في اواخر القرن الثالث ، كما يمكننا التأكد من ذلك في بقايا قصر ديوكليسيانوس . وأضاف هذا التزيين ، الى الافراط ، الغنى المادي المعد للتأثير في المخيلة ، وذلك عن طريق استخدام الألوان اللامعة ، لا سيا الذهبي منها ، والخامات النادرة الثمينة : كالأرجوان المصري مثلاً للنواويس الامبراطورية ؛ والعاج ، والجواهر ، ومكعبات معجون الزجاج ، وميناء الفسيفساء ، والخيوط الذهبية في الحرائر المطرزة ، الفنون الصغرى ؛ الخ . ثم نزع هذا التزيين، الذي لم يترك سوى حد أدنى من المساحات المكشوفة ، الى فرض نفسه بنفسه ، مستقلاً عن المشاهد المصورة ، مع ما يستلزمه ذلك من ابتكارات غريبة قوامها الخطوط المتشابكة . فبرزت آنذاك مواضيع تزيينية يعود أصلها الى ما قبل التاريخ . ونحن نكتفي بتقديم مثل بسيط عن ذلك : صفوف القلوب التي تزين اطارات صور « روزنامة السنة ٣٥٤ » ، وهي مخطوط نفيس جداً متقن الخط كتبه وزينه فيلوكالوس ، أحد فناني روما المشهورين في ذاك العهد . فان هذا الموضوع التزييني موجود على الفخاريات النيوليتية في بلاد ما بين النهرين . ثم زال بعد ذلك ولن نراه إلا في الفن اليوناني – البوذي في القرن الأول للميلاد ، وفي فن روسيا الجنوبية في القرن الثالث ، وعلى بعض الأقمشة القبطية في القرن الرابع، واخيراً في هذا المخطوط الروماني.

الروحانية

كانت نتيجة أهمية التزيين نقصاً في الرسوم الحية ؛ وغالباً ما انتهت هذه الأخيرة الى الزوال نهائياً في الموشيات والأقمشة والفسيفساء مثلاً . وحين لا تزول ، فانها تفقد حياتها وحركتها وتجمد في تصلب نقلته النقاشة عن الفنون الاخرى ، ولا سيا عن التصوير، ولكن الفنان يسعى الى جعل اوضاع اليدين والوجوه تنم عن تعبير باطني خالص . ولهذه الاوضاع ، في معظم الحالات ، معنى طقسي ، كالتقدمة والصلاة والبركة . وفي معظم الحالات ايضاً ، لا يتوقف خرق التنفيذ الى اخفاء القصد الذي يجب ان يعبر الوجه عنه . وترتسم في الأعين بنوع خاص ، وحتى في غضون الشفاه ، روحانية كانت آنذاك مشتركة بين الوثنيين والمسيحيين : فان هذا العصر عصر صوفية ، ويحلم الناس جميعهم بخلاصهم في حياة ثانية .

لقد سبق وظهرت مثل هذه النزعة في الفن الهليني : ولم يجهلها الفن الروماني نفسه كلياً . ولكن ذلك لم يتعد المفارقات الطفيفة . أما فن العهد الامبراطوري الثاني فقد اندفع عن قصد، وبعاطفة حادة مؤثرة ، على ما فيها من خرق ، في استقصاء الخيال الذي يستسلم له الآدميون، ملقياً عليه أحياناً ضوء اليقين الرائق . فهل هذا هو الشرق ايضاً ؟ أجل، أقله بمقدار إيحائه بهذا القلق الديني ، الذي لم يعرفه فن اليونان الكلاسيكية المستندة الى العقل ، ولا فن روما الظافرة المستندة الى القوة .

الكنيسة : البناء والزخرف

وجدت هذه النظرة الجمالية الجديدة ، في الكنيسة ، خير حقل تطبق فيه ، بالاتفاق مع الظروف التي أوجدها انتشار المسيحية . فالمسيحية ، على نقيض الوثنية التي تبقي جمهور المؤمنين خارج المعبد ، تفرض حضورهم الى الكنيسة حيث تقام مراسم العبادة ويلقن التعليم الديني .

ألحت الحاجة من ثم الى أبنية أكبر من المعابد ، لا سيا وان المعابد ، حتى في حال اتساعها ، كانت مقسمة الى عدة حجر . فمن النادر جداً ان يحول معبد الى كنيسة ؛ أضف الى ذلك ان هذا الحدث ، ويصح قولنا في الابنية العالمية الاخرى ، لا يمكن ان يحصل إلا في عهد متأخر ، لأن المسيحية تستقر الى جانب مجتمع وثني ومجتمع علماني يستمران في ممارسة حياتها الخاصة . فتوجب عليها البناء . ولكن الموارد الكثيرة التي وفرها لها سخاء الأباطرة والمؤمنين أتاح لها احداث أبنية عديدة : فمنذ اوائل القرن الرابع برز النشاط البنائي في تشييد الكنائس بنوع خاص .

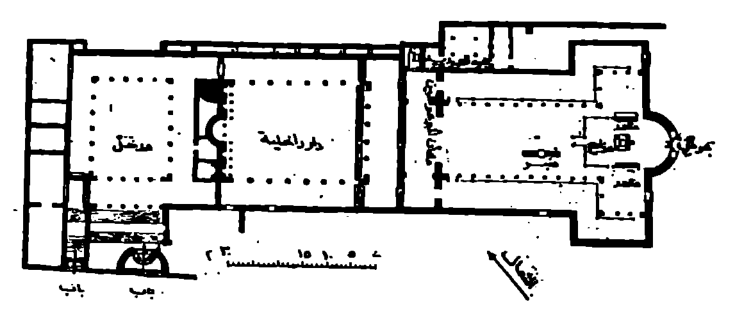
اعتمدت في هذه الكنائس نماذج مختلفة جداً : فلم يكن هنالك من تقليد يفرض نموذجاً معيناً . ولا يزال الغموض ، على كل حال ، يكتنف مدى تأثير هذا النموذج في ذاك ، او هذه المنطقة في تلك ، او هذه المدينة في تلك المدينة الاخرى . وليس من سبيل الى جلائه إلا بمعرفة تلك الابنية المسيحية الاولى ، في حال ان معظمها قد اندثر او قامت على أساساتها أبنية احدث عهداً ، كما لا سبيل الى ذلك ايضاً إلا بتحديد التواريخ . لذلك فمن التحكم في الايجاز ردّ جميع الكنائس الى نموذجين رئيسيين .

قد يكون منطلق النموذج الاول مدفن شهيد يقوم في وسطه ويرغب العدد الأكبر من المؤمنين في الاقتراب منه . اما بصدد السقف فقد لجأ نموذج الكنيسة هذا ، عادة ، الى القبة ومشتقاتها .

واعتمد النموذج الثاني وهو أكثر تطبيقاً ، في الكنائس الكبرى . وهو لا ينطوي في الحقيقة ، على أية ميزة خاصة ، اذ انـه حوّل للاستعمال الديني ، بأقل تغييرات ممكنة تقتضيها حاجات الطقس ، طرازاً بنائياً قديماً غير غريب عن هندسة العمارة العلمانيـة الرومانيـة ، كان الطراز الوحيد الذي صمم بغية استقبال جمع كبير نسبياً . و « الكنيسة الملكية » المسيحية — التي لم يتبدل اسمها — بناء مستطيل يستند سقفه الى هيكل خشبي ويقسمه في أغلب الاحيان الى ثلاثة صحون صفان من الاعمدة ، او الى خمسة صحون احياناً أربعة صفوف من الاعمدة في الكنائس الكبرى ، كما في روما مثلاً (كنيسة القديس يوحنا ، كنيسة القديس بطرس ، كنيسة القديس بولس ؛ وفي القصاء يقوم المذبح ، كما يعد عرش الاسقف في حنية شبيهة بتلك التي كان يحتلها القاضي جالساً على المنبر في الكنائس الملكية العلمانية . ثم وسّع البناء تدريجياً وأحدثت طبقة ذات منصات لاستقبال المزيد من المؤمنين . ثم ادخل على هذا التصميم البسيط ، تدريجياً ، مزيد من التعقيد : فأحدث النارثكس عند المدخل لجلوس الموعوظين (غير المعمدين) وظهر في بعض الكنائس ، بين صحن الكنيسة والخوروس ، رواق أفضى الى توسيع هذا الصحن . اما نشأة هذا الرواق فلا تزال موضوع جدل بين علماء الآثار وقد تكون تغيرت وفاقاً للحالات المختلفة . ومها

يكن من الأمر فان هذا الرواق ما زال نادراً ولم ينتشر انتشاراً واسعاً .

ليس بالتالي من ميزة هندسية تذكر ؛ وليس ايضاً ، باستثناء المواضيع التي عالجتها الرسوم المصورة ، من ميزة زخرفية . فالنزعات العامة لفن الامبراطورية الثانية ، انما برزت ، بكل لمانها ، في الكتيبة والكنيسة . أجل لم تجمّل الكتيبة ، مؤقتاً ، بأي تزيين خارجي. ولكن داخلها يعوّض عن هذا العري بغنى زخرفه . فاستخدم المرمر للأعمدة ولتلبيس الأرض وتلبيس



الشكل ٢٧ — كاتدرائية مدينة فيلبي
في مقدونيا (أواخر القرن الخامس)

الجدران حتى علو معين . أما الأقسام العليا في الجدران ، لا سيا في صدر الكتيبة ، فتغطى بالرسوم والفسيفساء التي تمثل العقيدة وبعض المشاهد الانجيلية . وهكذا يجد المؤمن في بيت الله الصورة القمينة بإكمال التعلم الشفهي ومساعدته ، بينا تتعاقب الاحتفالات الطقسية المؤثرة في جو فخفخة من الزخرف والأثاث الفاتنين ، وانسجام بين الأناشيد والموسيقى . فوفرت المسيحية لجميع المؤمنين اطمئنان النفس ، وللفقير بهجات جمالية استأثر الفن ، حتى ذاك العهد ، بالنصيب الأعظم منها خارج الكتيبة : ساعدته عن طريق الاحساسات الزمنية ، ولكنها لم تبخل عليه بالجمال ايضاً .

استخدم الفن المسيحي تقنيات الفن الدنيوي نفسها ، وخضع لنزعاته عينها ، فلم يلبث أن ساواه ؛ ولن يمر وقت طويل حتى يزول هذا الأخير ، أقله في الغرب ، ويبقى الفن المقدس وحده.

موت روما القديمة وإرثها

استمرار العهد الامبراطوري الثاني في الشرق

هل كان من شأن حضارة الامبراطورية الثانية هذه التي استعرضنا مظاهرها الرئيسية ان تعطي انتاجاً اوفر وأجل لو قدّر لها أن تعيش حياة أطول ؟ يجيب بعض المؤرخين على هذا السؤال بالإيجاب، ولكنهم قليلون جداً . اما الآخرون ، وهم السواد الأعظم ، فيكتفون بملاحظة دونيتها امام الحضارات القديمة الكبرى والخطاطها المفاجىء في اوائل القرن الرابع : فيستندون الى هذين الواقعين لإصدار حكمهم المطلق على الحضارة التي شيدها القرن الرابع كيفما استطاع الى ذلك سبيلا.

بيد ان في طرح السؤال خطأ كما يبدو . فلم تمت حضارة الامبراطورية الثانية ، بموت الامبراطورية نفسها ، سوى في الغرب : اذ انها قد استمرت في الشرق . فقد تمادت روما في بيزنطية . ولم تغتصب هذه الأخيرة اسم « روما الجديدة » اغتصاباً . فاذا ما اخذت الكلمة « هليني » آنذاك ، بتبدل غريب ، ولأسباب بيّنها جوليانوس ، المعنى الذي تنطوي عليه كلمة « وثني » ، فإن كلمة « روماني » قد اطلقت طيلة العهد البيزنطي وحتى بعده ، — رومي — على كل مسيحي دونما اعتبار للأصل العنصري : وهذه المفارقة الدينية هي التي سيستفيد منها السلافيون حين يلقبون موسكو ، الوريثة الارثوكسية للقسطنطينية ، بـ « روما الثالثة » . ولكن الارث الذي تركته الامبراطورية الثانية لبيزنطية يتخطى النطاق الديني تخطياً بعيداً ، يستحيل هنا ان نضع به بياناً مفصلاً .

وغالباً ما يحدث ان تنكر أهمية هذا الإرث . والحقيقة هي ان الحضارة البيزنطية ليست حضارة الامبراطورية الثانية . فعلى غرار ديانة هذه الاخيرة ، لم تبق نظمها وأساليبها واخلاقها ومثُلها الفكرية والجمالية دون تبدل في القسطنطينية ، حين حافظت عليها هذه العاصمة وحدها، منذ القرن الخامس . وقد تأثر التطور المحتوم الذي تناولها بظروف البيئة الخاصة التي حدث فيها . وقد تفوق الشرق آنذاك على الغرب في الحقل الاقتصادي بفضل تجارته الدولية وصناعاته البذخية : فاستطاع الحفاظ على اشكال حياة كانت في طريق الزوال في الغرب . فكان بصورة خاصة الشرق المستقل ، دونما نظير في الغرب ، تسيطر عليه حضارة يونانية لا تخشى سوى

التأثيرات البربرية ، ولا سيما التقاليد الشرقية ، التي عادت آنذاك الى الظهور بعد ان ساد الاعتقاد بأنها أثر بعد عين . ولو ان اطار التطور الجغرافي والبشري كان اكثر اتساعاً ، كما في السابق ، لسلك هذا التطور سبيلاً آخر ، ولبدا نسبه الروماني بسهولة .

زواله في الغرب

أما في الغرب ، فقد زالت حضارة الامبراطورية الثانية ، وحدّد زوالها نهاية عهد تاريخي عظيم . فهي قد مثلت التجسيد الأخير ، ان لم يكن الذروة ، لحضارة الوحيدة التي احتفظت ببعض الحياة ، منذ ستة أو سبعة قرون ، في العالم المتوسطي . بل مثلت في الحقيقة حاصل العصور القديمة كلها ، اذ ان الاغريق والرومان لم يتأخروا ، في تشييدها ، عن أن يضموا إليها كل ما بدا لهم ، في أرسخ الحضارات قدماً، مفيداً ومنسجماً مع نزعاتهم الخاصة ، ومع حاجات العصر . فقد جهـل الغرب منذئذ ، وطيلة قرون عدة ، ما استمر الشرق في معرفته وحبته . وقد حدث في القرن التاسع نفسه ، كما جاء في أملوحة رواها بسلّوس *Psellos* ، ان رجلاً من حاشية الامبراطور في القسطنطينية قد اكتفى ، كي يعبر عن اعجابه باحدى النساء ، باستعارة الكلمات الاولى مما ورد على لسان الشيوخ في الالياذة حين مرت هيلانة أمامهم . فهل كان باستطاعة أي رجل بطانة في الغرب ، آنذاك ، ان يستشهد ببيت شعر من أشعار هوميروس ، وحتى من أشعار فرجيل ؟ يجب ان تحدث النهضة ويبرز (رونسار *Ronsard*)، حتى تجتمع مرة اخرى العاطفة الشخصية والتذكرات الهوميروسية .

ليس طمس الثقافة الكلاسيكية سوى مظهر من ظاهرة أعظم شمولاً . بيد انه يستهوينا ان نعطيه قيمة الرمز . فكما تعذر تعداد كل ما تسلمه العصر الوسيط البيزنطي من الامبراطورية الرومانية الثانية، كذلك يتعذر الآن تعداد ما رفضه العصر الوسيط الغربي من هذه الامبراطورية.

اجل ان الخطوط المميزة لحضارة العصر الوسيط، اذا ما وضعنا الديانة جانباً، اخذت ترتسم، في أكثر من نطاق ، في حضارة القرن الرابع، وقد اقتضت الاشارة ، عندما حاولنا تحديد هذه الاخيرة ، الى بذور ، بل الى أسس تلك التي ستغدو حضارة المستقبل . وعلى الرغم من ذلك ، فالفاصل كبير جداً بين الحضارتين ! فما هي قيمة الرواسب امام التخليات ؟ ونكتفي هنا بذكر أبسط هذه التخليات الماثلة للعيان ، وهو تخل يستتبع اموراً اخرى كثيرة، أعني به انهيار النظام السياسي والوحدة الامبراطورية ، أي نهاية دور التوجيه الذي لعبته روما ، طيلة قرون ، في مصائر العالم المتوسطي .

كان موت حضارة الامبراطورية الثانيـة في الغرب ، في الدرجة الاولى ، انحطاطاً لروما كعاصمة . وقد مرّ زمن طويل قبل ان تعوّض لها اولويتها الدينية عن خسارة اولويتها السياسية نهائياً . وفي هذه الأثناء تجزأ الغرب ، الذي كان واحداً من قبل، أجزاء حققت كلها استقلالاً تاماً في تنظيمها السياسي والاقتصادي والاجتماعي . وقد بقي إحياء الامبراطورية الغربية في يوم عيد الميلاد من السنة ٨٠٠ مشوباً ابداً بالنقص . أضف الى ذلك ان روما لم تكن يوماً مركزها الزمني الحقيقي . وما عسانا نقول عن الحياة ، الحقيرة غالباً ، التي عاشتها هذه الامبراطورية حتى

تنازل فرنسوا الثاني الذي أصبح ، في ٦ آب (اغسطس)من السنة ١٨٠٦ ، فرنسوا الأول ، امبراطور النمسا فقط ؟

أسباب الانهيار

فنحن اذن امام تبدل كبير في مصير الانسانية ، تساءل المؤرخون ـ وغيرهم ـ عن أسبابه منذ زمن بعيد . ولا سبيل الى انكار ما قدمه احدهم حديثاً بقوله ان الحضارة الرومانية لم تمت « موتاً طبيعياً » بل « اغتيالاً » بأيدي البرابرة: وان في استمرارها في شرق لم تنل منه الغزوات إلا في عهد متأخر لدليلاً قوياً جداً . غير ان الاكتفاء بهذه الصيغة، أي بهذا السبب الخارجي ، ليس سوى تبسيط لقضية معقدة يدعونا تحليلها الى تحمل قسطنا من مسؤولياتها . فلا سبيل كذلك الى انكار الحقيقة التالية الاخرى : كان لدى الامبراطورية ، وهي اطار هذه الحضارة ودعامتها الطبيعية ، موارد بشرية تجعلها قادرة ، لو استخدمتها ، على ابداء مقاومة اقل ضعفاً في وجه مغتاليها . وتجدر الاشارة هنا ، دون ادعاء منا بقول كل شيء ولا بتقديم كافة الايضاحات اللازمة لما سنقوله ، الى ان هنالك ملاحظات لا تسمح لنا أهميتها باهمالها . ولكن لن يدهش احد ، بعد هذه الابحاث التي غالباً ما شدّدت ، في العهود المختلفة ، على اقتباسات الحضارة الرومانيــة عن حضارة الشرق اليوناني ، اذا ما بدت المسؤوليات ، من وراء الامبراطورية الثانية ، منعكسة على الحضارة الرومانية بصورة عامة ، وغالباً ، من وراء هذه الاخيرة ، على الحضارة الهلينية التي هي امتداد لها بألف حجة ودليـــل . ولعل بعض المسؤوليات ، في الحقيقة ، تنعكس على التاريخ القديم كله الذي جاء وانصهر في الامبراطورية الرومانية .

لنبدأ بانكار ترغمنا عليه انتقادات عرفت انتشاراً واسعاً : ليس من الانصاف ان يستوقفنا هنا ، بين اسباب الهبوط ، التطور العاطفي والديني الذي بعثتـــه الحضارة الهلينية واقتصرت الحضارة الرومانية على مواصلته بمزيد من السرعة منذ القرن الثاني . فان هذا التطور ، بعد كل حساب ، وعلى الرغم من زيغان مؤسف ، قـد جنّل الانسان باقصائه عن تجريد عقلي جاف لم يكن إلا باستطاعة نخبـة مثقفة قليلة بلوغ ذراه . وبعد كل حساب ايضاً ، لم ينزع من الجندي ومن الدولة سلاحها ، بـــل اضاف ، بمثل الملكية ذات الحق الإلهي ، طابعاً دينياً الى واجب الطاعة السياسية والعسكرية : فأفضى الى مبدأ سلطة الملك المطلقة ، من حيث هو إله او نائب إله ، وكان من شأنه ، بالتالي ، ان يوطد متانة الدفاع .

يجدر بنا هنا ان نفكر بالتحيز الذي أفادت منه المدن افادة دائمة . كان لا بد من الوحدة الادبية كي يسهم كل فرد طوعاً في الجهود المشترك ، ولكنها لم تتحقق . اما سبب هذا الاخفاق فيجب البحث عنه في اهمال سكان الارياف باعتماد سياسة هدفت الى استمالة العناصر المدنية، فعلاً او قوة ، دون غيرهم تقريباً . فنتج عن ذلك ان الأعباء التي استتبعها الطابع العمراني والمدني للحضارة كما نظروا اليها قد سحقت الفلاحين سحقاً : فحال البؤس الذي كان يصيبهم بفعل هذه الاعباء دون التفاهم المخلص ودفعهم احياناً الى اللصوصية المسلّحة والتمرد ، ودائماً الى السلبية .

اجل سبق للملكيات اليونانية الشرقية ان تألمت من هذا الداء . ولكن روما لم تستخلص أي درس من امثولة مصير هذه الملكيات . بل قوّى فيها اتصالها بالعالم اليوناني مثل المدينة الذي كان مثلها منذ البدء ، فخدمت هـذا المثل في نطاق جغرافي أوسع بمزيد من الثبات والوسائل المادية ، وبالتالي بمزيد من النجاح الظاهر . فقطفت من مجهودها الطويل الثمار المرّة نفسها : وهل يعقل ان يتفانى الريفيون بحماس ، او اقله بخضوع ، في سبيل قضية ما زالت غريبة عنهم ؟

وعلى غرار الحضارة الهلينية ايضاً ، لم تحاول الحضارة الرومانية استخدام المعارف النظرية التي توصل اليها العلماء لصناعة الآلات المتقنة . وليس من الاهمية بمكان هنا ان لا يحقق العلم أي تقدم في روما . فان روما قد وقفت على العلم اليوناني ولم تستفد منه عملياً ، كما لم يستفد منـه العالم اليوناني من قبل . ولعل النخبة الاجتماعية الرومانية تفوقت على النخبة الاجتماعية اليونانية ، لا سيما في اواخر الجمهورية ، على صعيد استثمار رؤوس اموالها ، كما تفوقت عليهـا في الاهتمام لاستثمار أملاكها وبيع مصنوعاتها . ولكن ذلـك لم يدم طويلاً ، اذ ان نشاطها الاقتصادي الرئيسي ، حتى في هذه الفترة ، قد تناول الربا عـلى أشكاله . وهي لم تحدث ، على كل حال ، مصانع كبرى تقوم الآلات فيها مقام اليد العاملة وتؤمن انتاجاً صناعياً أوفر بكلفة أدنى : فبقيت الآلة أداة حرب او طرفة غريبة . ومع اننا لا نستطيع اهمال قـوة الحكم القديم عـلى العمل الصناعي ، فان وجود الرق يفسر جزئياً هذا الاحجام . ولكن هذا الاحجام بدوره يفسر استمرار الرق : اذ ان شخصاً واحداً لم يفكر بإلغائه لأن شخصاً واحداً لم يتصور امكان تنفيذ الأعمال المادية الضرورية بدون ارقاء . ويمكن القول ، من ثم ، بسبب التنافس بـين الارقاء وكلفة الانتاج المرتفعة ، ان هذا الاحجام يفسر ايضاً استمرار بؤس الطبقات الاجتماعية الدنيا ، الريفية منها والمدنية .

لم يحسّن الانتاج الزراعي والتعديني والصناعي اذن طرائقه القديمة . فقد أنيط ، في مجموعه ، بيد عاملة متألمة وغير راضية بمصيرها ، لا يستميلها الى عملها شيء ، ويميل عددها الاجمالي – اقله بسبب صعوبة الحصول على أرقاء جدد – الى الانخفاض ، بينما يزداد عدد السكان العاطلين عـن العمل . فهل من عجب اذا ما هدد هذا الانتاج خطر عجز دائم؟ لم يعرف التوازن الاقتصادي في العالم الروماني أي استقرار : فكان تحت رحمة موسم سيء ، او اضطراب ، او حادث يخشى منه ان يتطور الى أزمة .

لذلك فان الدولة التي تتوقف مواردها في النتيجة على الانتاج العام قـد عرفت المزيد من الصعوبات المالية . ولم تنج منها الجمهورية إلا بفضل اسلاب أفقرت المناطق التي احتلتها ، كما لم تنج منها الامبراطورية إلا خلال فترات قصيرة جداً ، بعد وضع يدها على الكنوز التي كدّسها أفراد أثرياء صادر الامبراطور ثرواتهم او شعوب غرباء كالداسيين الذين هزمهم ترايانوس . ثم ألحت الحاجة بأن تصبح الدولة بيروقراطية ولتستلم زمام الاقتصاد وتسن نظام جباية مرهقاً : فلقنتها الدرس هنا ايضاً ملكية هلينية على الاقل هي ملكية البطالسة في مصر .

نشأ الخطر الأشد أخيراً من ماضي روما الجمهوري الذي اوجب عليها تأمين الغذاء للشطر الأكبر من الكادحين الرومانيين ، ومن النظرية الملكية التي فرضت سياسة البذخ في البناء ، فكان للعجز المالي صداه في القوى المسلحة بنوع خاص . ولم يكن الجندون يوماً يكفون للقيام بالمهام المطلوبة منهم . فقد ورثت الامبراطورية من الجمهورية جيشاً محترفاً باهظ النفقات . ومن حيث انها ملكية قامت على أشلاء الحريات السياسية ، لم يسعها اعادة خدمة عسكرية اجبارية ألغاها النظام الذي سبقها : فتوجب عليها ، والحالة هذه ، استمالة المتطوعين بالوعود المادية . وتوجب عليها ، بسبب افتقارها الى المال ، اللجوء الى اقل العناصر البشرية تطلباً، أي الى غير المواطنين، وتدريجياً ، الى البرابرة : فكان وقت فقد فيه الجيش الامبراطوري صفته الرومانية . غير ان هذا الجيش لم يبلغ عدداً مرتفعاً في يوم من الايام : فكان التوازن العسكري متضعضعاً على غرار التوازن الاقتصادي . فمنذ ان أضافت الثروات الناتجة عن الفتوحات ، خلال القرن الثاني قبل المسيح ، الى اجر حقير يتقاضاه مواطن يخاطر بحياته لأجل وطنه ، الغنيمة والمكافآت التي توفر له اليسار ، صدر الحكم على روما بهذا التضعضع . ولن يلبث هذا التضعضع ، عاجلاً ام آجلاً ، ان يعود عليها بالشؤم .

بعد قولنا هذا ، او بالاحرى بعد جمعه ، – لأن عناصره كانت موزعة على اجزاء هذا الكتاب – يجدر بنا الاعتراف بأن هنالك مجهولاً لا يجوز نكرانه . لنتصور حضارة اقل طابعاً مدنياً، تبذل جهدها لتحقيق المزيد من الانتاج ولتوفير المزيد من اليسار للساكين، وتقدم للدولة المزيد من الموارد، وتتيح لها تعهد جيش أكبر عدداً، وتلجأ الى خدمات مواطنيها على مدى اوسع : فهل كان من شأن كل ذلك ، الذي يبدو ممكناً نظرياً ، ان يسمح لروما بوقف موجات البرابرة المستمرة التي يدفعها نحو الرين والدانوب شعوب أخرى تتدافعها من الوراء آتية من عوالم نائية؟ ان في الاجابة على هذا السؤال ، اثباتاً او نفياً ، لجسارة كبرى: لا سيما وان الطريقة الاختبارية لا يمكن تطبيقها للتأكد من مثل هذه الافتراضات . فلنكتف بالقول ان هذه الشوائب قد أضعفت دفاع روما حين احدقت بها كل هذه الاخطار : فالداء مزمن ولم تستطع الامبراطورية الثانية معالجته على الرغم مما انطوت عليه انتهازيتها من حزم .

انهيار حضارة

لقد ماتت روما القديمة اذن . في السنة ٤١٧ ، اي بعد مرور سبع سنوات على غارة ألاريك ، عاد روتيليوس ناماتيانوس ، الغالي الوثني ، الى مسقط رأسه ، ورغب في الرد على تصريحات القديس اوغسطينوس اللامبالية في « مدينة الله » ، فأعرب آنذاك ، في ابيات شعرية كلاسيكية مؤثرة عن اليقين الواثق الذي اوحى به اليه مستقبل « المدينة » الزمني : « ان القرون التي ستعيشينها لن تعرف نهاية ما دامت الارض ارضاً والكواكب سابحة في السماء . انت تستمدين قوة جديدة مما يهدّم الممالك الاخرى . فالبحث في المصائب عن مبدأ النمو هو سنة الانبعاث » . ولكن الوقائع لن تلبث ان تناقض هذا التفاؤل . فماذا بقي من الامبراطورية الغربية مائة سنة بعد ثيودوسيوس «الكبير» ؟ او ماذا بقي من الحضارة الرومانية

التي هي الأم في منظار هذا الكتاب ؟

لا شيء يذكر مما هو حي. لا شيء تقريباً سوى المسيحية التي لا تزال تحمل في تنظيم كنيستها وفي الفكرة المسكونية التي تجيش فيها طابع الامبراطورية الذي لا يمحى . ولكن المسيحية ديانة تبنتها روما وشاركتها دون ان تصدر عنها اساساً : لذلك فالمسيحية أثر عظيم بحدّ ذاته ، هزيل بالنسبة الوقائع السابقة . اما ما تبقى فأطلال وأطلال : ممالك بربرية مستقلة ؛ مناطق تنكمش على نفسها انكماشاً بدائياً وتعيش حياة خاصة ولن تلبث ان تنفصل ، حتى في لغاتها ، عن جذع الحضارة اللاتينية المشترك ؛ مدن مشلولة تعاني سكرات الموت تتداعى ابنيتها شيئاً فشيئاً ؛ مجتمع ريفي بنوع خاص يسيطر عليه سيّد تنازلت له الدولة عن حقوقها .

ارث روما

بيد ان هذه الانقاض المتراكمة لم تحل دون بقاء ارث غير مادي . ولا نعني بقاءه في القلوب : لأن لنكران الجميل ، الذي يفرضه النسيان ، مزية تسمح للانسانية بأن لا تذوب أسفاً على الماضي المفقود وتتطلع الى المستقبل . بل في الكتب التي ما زال بعضهم يستنسخونها ، ولو لم يفهموها دائماً ، والتي سيوجد في عهد لاحق من يعرف كيف يجمعها ويحيي تعليمها .

فروما لم تكتف بأن نقلت الى الغرب العناصر الهامة في الحضارة اليونانية بعد ان استساغتها لاستعمالها الخاص. بل أضافت اليها إسهامها ببناء القانون وبناء دولة غير المدينة الصغيرة . اجل، وضعت الملكية الهلينية الرسم الايحازي لهذه الدولة . ولكن روما هي الاولى التي سوّت ، امام السلطة الموكول اليها امر ادارة المصالح المشتركة ، الوضع القانوني لكافة الرجال الاحرار . وهي الاولى التي تخطت انتصارها وألغت التمييز بين غالب ومغلوب بإحلال قوميتها محل كافة القوميات . فقد أطلق المعاصرون على الامبراطور فيلبوس اسم « العربي » ، وهو الذي احتفل في السنة ٢٤٨ بأعياد الذكرى الالفية للمدينة التي أسسها رومولوس : وهو في الواقع قد ولد في ما وراء الاردن ، وان صفته الامبراطورية في مثل هذه الذكرى لرمز الى اعظم المظاهر تميزاً في السياسة الرومانية . وكذلك فان روتيليوس ناماتيانوس قد كتب ، لمناسبة « عودته » الى غاليا هذه الأبيات الشعرية المشهورة ، موجهاً كلامه الى روما :

« صنعت وطناً واحداً من شعوب مختلفة »
... وصنعت « المدينة » مما كان العالم من قبل »

وتحمل شهرتها الحلال ، احياناً ، على اهمال التحفظات التي تستوجبها : فان لقب « المواطن الروماني » ، حين وزعته الامبراطورية الرومانية بسخاء ، كان خالياً ، منذ زمن بعيد ، من جوهره السياسي ، كما ان « المدينة » ، التي أصبح حامل هذا اللقب ابناً لها لم تعد هي نفسها مدينة الاخوين غراكوس ، او حتى مدينة شيشرون . بيد ان « المواطن » الجديد قد انتسب الى دولة تسهر على سيادة النظام وتفرض الطاعة على الجميع وتمنع تجاوزات السلطة وتحيط النشاط الجماعي

بإدارة منظمة . فهذه المفاهيم لن تنتظر عهد النهضة حتى تنهض ، اذ انها في الاساس من شكل جهاز سياسي معاصر .

وهل يجوز للمؤرخ اخيراً ان يبتعد عن روما دون ان يعبّر عن دهشته وذهوله امام مصيرها الذي هو واحد من اعجب المصائر التي رسمها التاريخ؟ ولدت ولادة مغمورة كمركز لناحية ريفية صغيرة ، فأصبحت سيّدة عالم بأسره ، ثم عاصمته ، قبل ان تنحني امام هجوم فوضوي انطلق من عالم آخر . عرفت كل الانظمة على التوالي : الملكية التي حلت محلها جمهورية ارستوقراطية ، والديموقراطية المترنحة التي انتهت الى الدكتاتورية العسكرية ، والملكية المتدلة التي انتهت الى الحكم المطلق ذي الحق الإلهي . كما عرفت ، في داخلها ، شتى الانظمة الاقتصادية والاجتماعية : الاملاك الريفية الصغيرة والاملاك الواسعة ، والشركة المالية القوية ، والصناعة اليدوية الفردية ، والفل التعاوني القاسي الذي فرضته السلطات العامة ، وملوك الثروة ، والعاطلين عن العمل الذين تغذيهم الدولة ، والمصارعين الذين تقدم معاركهم ودمهم وموتهم ألاهي الجماهير . وحققت بجهودها المتواصلة واقتباسها عن الاجانب ، ثقافة عقليــة وكلاسيكية ما لبثت ان طغى عليها تدريجياً التصنع والإسفاف والرمزية . فما هي الجماعة البشرية التي قطعت مثل هذا الخط المتحني الطويل وجمعت هذا القدر من المظاهر المختلفــة في ديمومة تطورها المنطقية ؟ ان من يرغب في تكوين فكرة عن التناقضات والتحولات التي يمكن ان يطلع بهــا مجتمع ما ، لن يجد في غير مكان امثلة ومواضيع تأمل اهم عظمة ووفرة وافادة علمية .

القسم الثالث

آسـيا الشـرقيـة

من مطلع المسيحية حتى أواخر القرن الرابع

تخصيص مجلدين لهذا القسم اضطرنا لأن نقوم بعملية انقطاع او توقف في اواخر القرن الاول قبل الميلاد . فقد سبق ونوهنا ، في المجلد الاول[1] (ص ٦٠٤) ان ما من تغير ملحوظ حري بالانتباه طرأ على تطور الحضارة في الهند والصين ، يبرر مثل هذا الانقطاع . قد يكون له ما يبرره نوعاً ما ، من الوجهة التاريخية : فسقوط عهد سلالة الكتوا ، حوالي سنة ٥٠ ق.م. قد يكون مهّد الطريق لظهور سلالة اخرى ، في الهند ، ابعد الى الشمال ، هي سلالة كوشانا . الا ان هذه الامرة الجديدة ، رغبة منها في تيسير الاتصالات بين شمالي الهند والمناطق القندهارية ، اخذت بعد هذا التاريخ بعدة تحرص على بقاء طرق المواصلات هذه ، قائمة بين الطرفين لتأمين تسرب المزيد من النفوذ الهندي وتغلغله نحو الجنوب ، ولكن هذا الامر لم يعطل قط الاخذ بأسباب التطور الحضاري . وهكذا الامر مع الصين . فاستبدال فرع هان السابق ، عام ٢٥ بعد المسيح، بفرعها اللاحق ، لم يترك له اثراً يذكر في مجال الحضارة التي لن يطرأ عليها اي تغيير ملحوظ الا بعد هذا العهد بنحو مائتي سنة .

ولكي نفهم جيداً ، وعلى وجه اتم ، الاحداث التي هي موضوع بحثنا هنا ، قد يبدو من الضرورة بمكان ان نعالج ، من جديد ، احداثاً تاريخية ، سبق ان عالجناها في السابق .

---

(١) الشرق واليونان القديمة ـ منشورات عويدات.

الفصل الأول

وصف عام لآسيا الشرقية

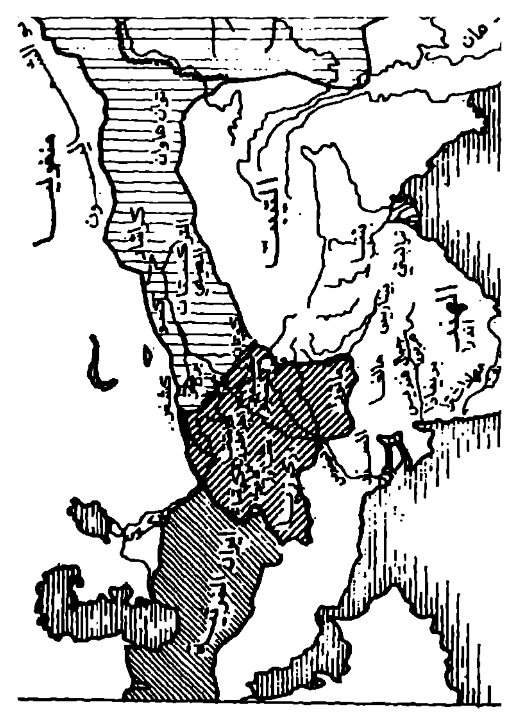
١ - ثلاثة اقطاب للاشعاع الحضاري

بلغت المراكز الحضارية التي تألفت من قبل، في تطورها الصاعد، درجة من النضج بحيث تمت لها سلطة مركزية واشعاع ديني متقدم ومواصلات تجارية منتظمة. وعلى كل، فميزة هذه الحقبة ليست الازدهار المقترن السوي – بل شيئاً اشبه ما يكون بهذا الغليان الفكري الذي عرفته الاجيال الوسطى حيث كان يجيش، تحت ستار من التوازن الظاهر، فكر غلاب، مبدع، خصيب، نذير فيض من الحيوية التي تسبق حقبة من الانجازات التي تتسم بالنضج والكلاسيكية.

فكل ما في هذه الحقبة يدل على انها حقبة اختبار وانتقال – حقبة تركيز العناصر التي لا بد منها لكل نظام، وتأكيد السيطرة المكتسبة.

ايران من الخارج

حقبة الانتقال هذه، تتميز بسلسلة متصلة الحلقات من الغزوات الحقت تغييراً كبيراً في الممالك الهند – اليونانية التي قامت بين الهند وايران، في الحقبة السابقة. فهؤلاء الغزاة الجدد: الساكا هم اقوام من الغز او السكيثيين، في شبه حركة دائمة منذ عدة قرون، فاضطروا للرجوع القهقرى بعد ان اصطدموا بشعوب هيونغ – نو (الهون)، فنكصوا على اعقابهم الى بكتريان ومنها ارتدوا بموجات متتالية حتى مشارف الهند، في القرن الاول قبل الميلاد، واستقروا في دلتا نهر الهندوس، فاتخذوا منه ممراً ليهاجموا ممالك اليونان في غندهارا، وما لبثت هذه الممالك الهند الاوروبية ان تفتتت وزالت تباعاً من الوجود. وما عتمت اقوام الساكا التي استقرت في هذه المنطقة واتخذت منها موطناً جديداً لها، ان راحت تقتبس الكثير من الحضارة الهلينية التي نقلها معهم الهند – اليونان. وقد جاشت هذه القبائل بالاطماع، واشرأبت باعناقها الى الفتح، فاتجهت باحدى نواظرها نحو ايران الواقعة تحت حكم الاخيليين، وبالاخرى نحو الهند تحاول اقتباس الكثير من عناصر حضارتها. فالنقود التي خلفوها توضح تماماً هذا الاتجاه ولا تدع مجالاً للشك قط. فهي كالعملة اليونانية، جميلة المظهر،



الشكل ٢٨ – آسيا في القرنين الأول والثا
بعـــد الميلاد

فقد اسقطت اسم الفازلفس واستبدلته باسم ملك الملوك ، وهو لقب ملوك الدولة الاخيلية ونقشته بالحرف اليوناني من جهة ، وبالحرف الكاروشتي ، احدى لهجات الهند ، من الجهة الاخرى . وتتمثل السلطة المركزية في الولايات بمرزبان ، كما يتولى امر الجيش فيها قائد يحمل لقب ستراتيج *Stratège*، كما عُرف عند الاغريق، ولو حملوا اسماء هندية. ومن جهة اخرى نرى رابطة قربى بين قبائل الساكا وبين الفارثيين (فهلوى) ايران .

فالمؤثرات الهلينية التي تزداد وتنمو في عهد السيطرة الهندو - اليونانية ، تتسرب بدورها بمؤثرات ايرانية ، وان شئت ، فقل تنتقل عن طريق ايران التي سبق لها وتهلينت نوعاً . ولا يلبث مَثل روما ان اصبح مثالاً يحتذى ، لدى ملوك الشرق . وبهذا تحتل روما محل اليونان في مجال التأثير . وهكذا نرى الشعوب المجاورة للهند ولايران لا تلبث ان تقع تحت جملة من المؤثرات الاجنبية فتعملان على تمثلها واستمرائها وتكييفها ، طبقاً للتقاليد المرعية عندها . ويظهر ذلك كله بوضوح في هذا الفن المعروف بالفن اليوناني البوذي ، حيث نرى عناصر فنية هلينية ، رومانية وتدمرية ، ثم بيزنطية ، بعد فترة قصيرة .

في القرن الاول للمسيح ، نرى سيطرة قبائل الساكا والفهلوى في خطر من جراء غزاة أطلوا من جديد لم يلبثوا ان قضوا عليها واطاحوا بها ، هم الكوشانا ، الذين يمتون بنسب وثيق لقبائل يوه - تشه الذين يرجح العارفون انهم من التوخاريين سكان منطقة خوتان ، من هذه العروق الايرانية الشرقية . فقد مرت عليهم عهود كانوا فيها من البدو واهل ظعن ، يهيمون في فيافي نهر الاوكسوس والبكتريان ، وبقيادة زعماء محنكين (حمل اولهم اسم كوجولاكاسا وباليونانية : كوزولوكادفيزيس ، وبهذا اللقب عُرف ايضاً ابنه وخليفته على رئاسة القوم ، المسمى : فيماكاتفيزا) ثم اقتطعوا من الفارثيين ، مقاطعات كابول واراكوزي وكل البنجاب . واستطاعوا ، خلال القرن الاول والنصف الاول من القرن الثاني ، ان يصلوا بغزواتهم الى مدينة بنارس ، ومنها جنوباً حتى مقاطعة نربودا ، ومنذ ذلك الحين اخذ هؤلاء الملوك يلقبون انفسهم : بـ « ملوك العالم اجمعين » وهو لقب مستمد من الالقاب التي كان يحملها ملوك الفرس قديماً . واستطاع الثالث بين ملوكهم، وهو المدعو كانيشكا ان يوسع حدود سلطانه ، اذ جعل عاصمة ملكه ، شتاء ، مدينة بشاور ، كما جعل من مدينة بغرام عاصمته خلال فصل الصيف ، جامعاً تحت سيطرته المباشرة : مقاطعات غندهارا وكابول . كذلك بسط سيطرته على كشمير والبنجاب ووادي نهر الغنج حتى مدينة بلتنا وقد يكون اخضع لسلطانه مقاطعة ماهاراشترا ، كما يرجح بعضهم . وكان مركز الثقل في امبراطوريته ، بالنسبة الى دولة موريا بلخ ، من الشمال الغربي ، كما تدل اتصالاته العديدة على الحدود الشمالية الغربية ، مع الفارثيين (الفهلوى) الذين يعملون على نشر المؤثرات الهلينية والايرانية ؛ ومع الصين والتركستان الشرقي ، الذي ضرب عليه الجزية ، وان لم يتمكن من بسط سيطرته على هذه المنطقة . وفي عهده ، كما يرجحون، ارسل عدة وفادات هندية، الى الصين فسارت البهامتبعة



الشكل ٢٩ – الهند في عهد الكوشانا والأندرا

طريق بحار الجنوب (١٤٧ – ١٦٧) .

ومع اننا نجهل بالتدقيق حدّيّ حكم كانيشكا، فالارجح انه حكم مدة اربعين سنة ، في النصف الثاني من القرن الثاني (اي كما يرجح غرشمان: من ١٤٤ – ١٨٥) . فهو يمثل ، على شاكلة موريا اسوكا ، العهد الذي بلغت فيه امبراطورية كوشانا ، الذروة من المجد والسلطان ، وراح يعمل على نشر البوذية بعد ان اعتنقها ، كما اخذ تحت حمايته ايضاً الجانية والبراهمانية ، واذا كان الاول بين ملوك الهند يضرب السكة حاملة صورة بوذا ، فقد حرص كذلك على سك بعض عملات تحمل آلهة الايرانيين . « سيد المفترق الكبير لهذه الحضارات الناشطة التي عرفها عهده». فقد تمت لهذا الملك شخصية ممتازة تحدثنا عنها التقاليد البوذية المرعية في شمال الهند والتيبت والصين حتى ومنغوليا . ومع انه سيطر على جانب كبير من الهند ، فهو يبدو ، في الصور التي أخذت له في المناسبات الرسمية ، مرتدياً الزي الدارج في قبيلته وبني قومه بلحية كثة . وهو شيء لم تعرفه الهند ، مع عمة طويلة وقفطان مسترسل، وجزمة ضخمة من اللباد ، وهو لبس قائد حلة ، يقطع الفيافي على صهوة حصانه ، يطأ على حين غرة ، ما تناءى من البلدان . ومع هذا ، فالفن البوذي في ذلك العصر ، الممثل خير تمثيل في ماتورا ، يستمر في تطوره وفقاً للنماذج المعروفة ، دون ان يبدو عليه اي تأثير من الخارج .

فهذه الوحدة السياسية التي تمتعت بها الهند جزئياً ، في عهد كوشانا، وهذا الاختمار الفكري الذي سببه اتصالها بالخارج، هيأ لها ازدهاراً فكرياً وفنياً انبثق من تقاليدها الوطنية المتوارثة. والراجح لدى اهل العلم ، ان الملحمة الهندية الرمَيّانا اكتمل وضعها في هـذه الحقبة ، كما ان الملحمة الاخرى : المهبهراتا ، كانت ، هي الاخرى ، في سبيل الانجاز . ومن المظنون كذلك ان هذه الحقبة شهدت ايضاً وضع البهاغافات جيتا. فان صح هذا الرأي ، فالقضية لا تخلو من اهمية ، لانها تعني ظهور نظرية البهاكتي وهي النظريـة التي تقول بامكان وصول الانسان الى الالوهية ، ليس فقط عن طريق التضحية والزهد والتنسك ، والمعرفة الروحانية ، بل ايضاً ، ولا سيما ، عن طريق التعبد والتهجد ومحبة الله . كل هذا انما يعني وجود اله واحد احـد ، ويسجل تقدماً ملموساً وتطوراً محسوساً بالنسبة للحقبة المنصرمة . ونظراً لاختلاط الشعوب وتمازجها بعضاً ببعض ، في هذه الحقبة ، ولظهور المسيحية واقترابهـا من الهند ، راح البعض يتساءل ما اذا كانت هذه العقيدة الدينية تأثرت ، من قريب او بعيد ، بالتعـاليم المسيحية الناشئة ، كما تشير الى ذلك بعض الدلائل . من الامور المسلم بها ، حسب التقليد المسيحي ، ان الرسول القديس توما هو اول من حمل الكرازة بالانجيل الى هذه الناحية الشمالية الشرقيـة من الهند ؛ وبدون ان نأخذ بهذا التقليد الذي لا ينهض على اساس تاريخي ثابت ، قـد يكون في التنويه به ، اشارة من بعيد او دلالة ما ، على شيء من هذا التفاعل الممكن .

وهذا النشاط يبدو على الآداب الدينية يقابله ، من جهة أخرى ، ظهور أقـدم محاولات فن الدراما في الهند ، ممثلة بما وصل إلينا من بعض آثار أسفاغهوشا *Açvaghosha* التمثيلية ، الذي كان ، حسبما ترويه التقاليد المتوارثة ، وزيراً للملك كانيشكا ، وغيرهـا من هذه المسرحيات

الكاملة التي وضعها بهاسا ، (اواخر القرن الثالث ومطلع القرن الرابع) ويمكن ان نتبين في هذا الانتاج ، كما يبدو ، اذ ذاك ، أسس المسرح الكلاسيكي ، الذي سيبلغ ازدهاره ، الذروة في عهد الاسرة الملكية الغوبتا . كذلك يمكن ان نرد الى هذا العصر ، ظهور مجموعة من الحكايات على لسان الحيوانات ، هو كتاب المكائد الخمس ، وهو كتاب أريد به الموعظة ، وعليه عولت البوذية كثيراً في الحقبة السابقة . ومن النتائج التي أدت اليها هذه الغزوات والفتوحات ، نشر اللغة السنسكريتية وتعميمها ، وذلك باطلاقها من حيّز البرهمانية الضيق واستعمالها ، على نطاق واسع ، ليس فقط في الأدب العلماني او الدنيوي ، بل أيضاً في لغة العلم والثقافة ، واللغة الرسمية ، شاهد على ذلك هذه النقوش والكتابات الحجرية . وقد استخدمت البوذية هذه اللغة في المناطق الغربية الشمالية من الهند ، واتخذتها بديلاً عن اللهجة الهندية الوسطى المحكية في المناطق الاخرى . اما الأسباب التي جعلت السنسكريتية ، هذه اللغة القديمة المقدسة ، لغة حية ولغة علمانية ، فهي ، من جهة ، ردة الفعل التي قابلت بها الهند الغزاة ، فواجهتهم باداة تعبير لها احترامها في النفوس ومنزلتها في القلوب ، مفهومة لدى الهنود جميعاً ، ومن جهة اخرى ، أنَفَة من هؤلاء الدخلاء الأجانب الذين لم يتورعوا عن استخدام هذه اللغة المقدسة لأغراض دنيوية.

لم يكن للمتأخرين من ملوك دولة كوشانا ، من السؤدد والشأن ما كان للمتقدمين منهم . فقد أثارت الدولة الساسانية في ايران امامهم مصاعب كأداء ، تعثروا بها وتضرسوا بويلاتها فجلبت نهايتهم ، اذ توالت عليهم في منتصف القرن الثالث للميلاد ، انكسارات تقلصت معها سيطرتهم ، وانكمشت سيادتهم على آسيا الوسطى والسند . واذ كنا لا نزال نرى ، في القرنين التاليين ، بعض ملوك دولة كوشانا ، يحكمون في بعض مناطق الهند الغربية الشمالية ، فلن يعتموا ان يطويهم التاريخ ، ويدخلوا في خبر كان ، بعد ان اقتطع الايرانيون ، خلال فترة غامضة ، طويلة ، ولو تعذر علينا تحديدها ، بعض ممتلكاتهم . وهكذا انتقلت نقطة الثقل ، قليلاً ، ابعد الى الشرق ، مع ان نفوذ ايران بلغ اشده في الهند في هذه الحقبة ، واستمر فيها حتى عام ٤٥٠ .

واستجابة منها لهذا الازدهار الذي تألق سناه في مناطق الهند الشمالية ، شهدت المنطقة الدزافيدية طلوع عدد من الممالك على ارضها ، أخذ بعضها يظهر للوجود في الحقبة السابقة ، ثم ما لبث ان ازدهر وتألق . من اشهر هذه الممالك ، بالنظر للآثار الفنية التي خلفتها ، مملكة أندهَرا ، التي قامت بين المجرى الأسفل لنهري غودافاري و كريشنا . ومع أن الأحداث التاريخية التي ميزت عهد شاتاكارني أحد ملوك هذه الدولة ، لا يزال الغموض يكتنفها ، فالآثار الباقية تشهد عالياً على قيام مدنية وطيدة الاركان ازدهرت في هذه المنطقة ، كانت مدينة أمارافاتي حجر العقد فيها . والذي يبدو لنا ان ملوك هذه الدولة ، اضطروا مراراً ، للدفاع عن مملكتهم ضد تعديات ملوك تشاكا واليونان (ياقانا) والفارثيين ، وبعبارة اخرى ، ضد كبار المرازبة ، خلال القرن الاول ومطلع القرن الثاني . ولعلهم اضطروا ايضاً لصد غزوة جاءتهم من الكوشانا . بعد هذا حدثتهم نفسهم بالفتح ، فاستولوا تباعاً : على مالفا (وحلوا فيها محل آخر ملوك دولة كانفا) ،

وعلى منطقة الكونكين الشمالية ، ومقاطعة فيدربها وعلى قسم من بلاد كنارا ، ومدينتها الكبرى فيجايانتي ، ونرى عدداً من الكتابات التي خلّفوها ، عُثر عليها في نازك وكارلي وكنهاري . الا ان هذه الدولة اصيبت بالانحلال ، في اواخر القرن الثاني ومطلع القرن الثالث، ولم تلبث ممتلكاتها ان تشتتت بدداً ، بين شعوب الفنجي والبلاّفا الذين كُتِب لهم ان يلعبوا دوراً بارزاً في التاريخ (عاصمتهم كلشيبورام) .

أما في اقصى الجنوب من الهند ، فقد قام في بلاد التامول، ثلاث ممالك تقاسمت مقاطعاتها فيما بينها ، منذ عهد أسُوكا ، وربما قبل ذلك : اما هذه الممالك فهي مملكة : بنديا ـ التي دعاها بطليموس : بنديون ـ وعاصمتها مادورا ، ومملكة كيرالا ، في ولاية ترافنكور اليوم، ومملكة تشولا ، على ساحل كورومانديل ، ومن حواضرها الكبرى تنجور ، الواقعة على حدود اندراه. اما حقيقة تاريخ هذه الممالك، فسلسلة متلاحقة من الحروب مع بعضها البعض او ضد ملوك سيلان.

كان القسم الجنوبي من الهند في منأى من المؤثرات الخارجية مبدئياً ، ومع ذلك فقد تعرض لبعض منها جاءته من الغرب وانتقلت اليه ، بحراً ، عن طريق العلاقات التجارية التي شدت هذه المنطقة بروما وآسيا ومصر . فقد قامت حركة من التبادل التجاري مع غندهارا ، وبذلك تمهّد السبيل للاتصال ، عن طريق البحار الجنوبية ، بما قام من الممالك المتهنّدة ، منها : فو ـ نان ، في الكوشنصين ، اليوم ، ولن ـ يي في مقاطعة شمبا ، على ساحل الهند الصينية الشرقي ، ودول شبه جزيرة الملايو ، وبعض نقاط في الانسولاند ولا سيا في سومطرا .

الصين

الى جانب هذه الكتلة الهندية قامت ، في الشمال ، الصين التي عَرَفت هي الاخرى عهداً عظيماً استتب فيه السلام، هو عصر الهان اللاحق الذي كان تتمة او استطراداً لعهد الهان السابق . اما الحاجز الذي انتصب حداً فاصلاً بين فرعي هذه الاسرة ، فقد وقع سنة ٨ للميلاد ، عندما اغتصب وَنغ مَنغ، العرش واستأثر بالسلطة . وكان ونغ منغ هذا ، احد مشاهير مثقفي عصره ، عمل وزيراً في البلاد كما كان احد فلاسفة الكونفوشية . وعندما تمّ له الأمر واعتلى العرش ، راح يحاول اصلاح النظام المعمول بـه في المملكة اذ ذاك ، كفيلسوف كونفوشي اشتراكي . وقد لقيت محاولته الاصلاحية هذه مقاومة قوية من قبل الفئة المستبدة بالوضع الاجتماعي اذ ذاك، منذ اجيال . فقد استطاعت طبقة كبار الملاكين منذ عهد بعيد ، ولا سيا في عهد اسرة هان ، ان توطد نفوذها وأن تنميه وترسخه ، وان تزيد كثيراً من ثروتها العقارية على حساب صغار الملاكين، وعلى هذه الفئة من الافراد الذين تمتعوا بحرياتهم الذين ما لبثوا ان أصبحوا من التوابع او من الارقاء . وكما كان السيد المسيح، في فلسطين يرفع عقيرته عالياً ضد الاغنياء، هكذا راح معاصره: المصلح الاجتماعي الصيني ونغ منغ ، يهاجم بعنف ، نظام الرق والعبودية الذي رزحت البلاد تحت وطأته الشديدة . وفي هذا السبيل وضع نظاماً اشتراكياً زراعياً وتشدد في تطبيقه . فقام بعملية توزيع الاراضي من جديد ، وفرض نظاماً من الاقتصاد الموجه رمى منه ليس الى توحيد الاسعار فحسب ، بل ايضاً ، الى تكوين احتياطي من غلال

الارض ومحاصيلها السنين العجاف . فلا عجب ، والحالة هذه ، ألا يلاقي عمله الاصلاحي هـذا معارضة قوية من قبل المحافظين ودعاة الشرعية ، فنشبت في البلاد ، من جراء هذه الاجراءات اضطرابات ونزلت بها قلاقل اجتماعية ، قامت على أثرها ، في مقاطعة شان تونغ ثورة لاهبة دامت ثلاث سنوات حاولت المعارضة استغلالها وتحويلها لمصلحتها ، مما اضطر ونغ منغ ، الى اعتزال الحكم . فأعاد الموالون للعهد الماضي وانصار الشرعية ، الأمرَ الى أسرة هان من جديد[٢] في شخص احد أبناء فرعها الاصغر . وقد امتد عهد هذه الدول الجديدة ، من سنة ٢٥ للميلاد حتى سنة ٢٢٠ ، فعادت معه الامور سيرتها الاولى ، دون ان يترك هذا الانقطاع في الحكم الذي استمر ١٧ سنة ، أي تغيير يذكر في سير تطور الصين . وفي عهد اسرة هان اللاحق عادت الصين الى سابق سيرها المألوف نحو التطور ، سواء في الداخل ام في الخارج ، كأنّ شيئاً ما لم يحدث . فقد استقرت فيها الامور ، من الوجهة الفكرية والروحية على ما عُرفت به من تقاليد المحافظة ، كما تابعت في المجال الفني ، الاخذ بالاساليب والمناهج ذاتها التي كان سُبق للبلاد ان اخذت بأسبابها ، في الماضي ونهجت فيها نهجاً سوياً ، أصبح معه من الصعب التمييز احياناً ، بين آثار هذا العهد والآثار التي تعود الى عهد الملوك الحاربين .

تمكن الفرع الثاني لأسرة هان من ان ينشىء له امبراطورية واسعة في الصين . فـلم يقنعوا بانجاز فتوحاتهم في آسيا الوسطى ، بل راحوا يفرضون عليها نظاماً شديداً ، استحالت معه هذه البلاد الى حماية فعلية ، بفضل الجهود الحربية التي قام بهـا نابغة الحرب الصيني بان ـ تشاو ، *Pan Tchao* ، الذي راح بين سنة ٧٢ – ١٠٢ ينظم ويدبّر الواحات القائمة في صحراء غوبي ، فأحسن بها العناية وتعهدها ، واستثمرها على أحسن وجه ، ملشئاً فيها ومتخذاً منها: مراحل يأتمُّ بها تجار الحرير في ما يسلكون من طرق تربط عبر جبال بامير ، الصين بالعـالم الهندي ، والصين بروما في عهد الدولة الانطونية ، احتذاء بالتقاليد التي اتُّبعت في الحقبة الماضية ، اذ بلغ فيها الغرب ، الصين بواسطة علاقاته التجارية . وقد حاول بان ـ تشاو ان يقيم ، كما يقال ، على أسس قومية ، علاقات تجارية وسياسية مع روما بالذات ، إلا ان محاولته هذه فشلت . غير ان الحركة التجارية بقيت ناشطة على طول هذا الطريق ، وذلك بفضل السلام الصيني ، كما يلاحظ المؤرخ الفرنسي رنيه غروسيه ، هذا السلام الذي تلاقى مع السلام الروماني ، عبر ايران الفارثية .

نظر الصينيون ، في القرن الثالث ، الى الامبراطورية الرومانية وسيادتها ، نظرة ملؤهـا التقدير والاعجاب ، كما يبدو لنـا ذلك من خلال ما تم لهم من معلوماتهم المسرّدة جمعوها بالتواتر ، أي بالنقل عن ألسنة الناس ، لا تتسم بالضبط والدقة . وقد يكون من المثير الفضول أن نورد هنا نتفاً من هذه المعلومات : كانت تا ـ تسن ، أي تسن الكبيرة ـ وبهذا الاسم عُرفت الامبراطورية الرومانية في الصين قديماً ـ تضم ما يزيد على ٤٠٠ مدينة ، وان عاصمتها كانت تقع عند مصب أحد الأنهر ، وان أسوار المدن كانت تقام من الحجارة . في هذه البلاد ، ينمو السرو والشربين ، والشوح والحور والصُّفيرا ، والصفصاف وشتى اصناف الحشائش والأشجار . معظم الناس يعنون بالزراعة ، فتدرّ عليهم الأرض الحبوب على أنواعها . بين الحيوانات الأليفة عندهم :

الحصان ، والحمار ، والبغل والبعير . في البلاد عدد من المشعوذين والمخرقين ، يُخرجون النار من أفواههم ، لهم من الشطارة والقدرة ما يستطيعون معه من تقييد أنفسهم بأنفسهم ، وان يرقصوا على عشرين كرة . ليس لهذه البلاد سيد أو ملك دائم ، فالأهلون يختارون لهم ملكاً كفوأً عندما يتهددهم خطر طارىء ، دون ان يثير ذلك أي اعتراض من قبل الملك المستبدل ؛ (في هذا تلميح الى النظام الجمهوري ، الذي سارت عليه روما قبل العهد الامبراطوري ، ولاسيما النظام القنصلي) . والناس فيها فارعو القامة ، معروفون بالعدل والنَّصَفة كالصينيين ، وهم يرتدون ملابس كملابس الأغراب ، ينظرون الى بلادهم نظرتهم الى صين ثانية ، دون ان تحمل هذا الاسم : تا ـ تسن. وقصور الملوك مكرمة لدرجة التقديس. يستعمل الناس فيها الأعلام ويقرعون الطبول ، ولمركباتهم سقف أبيض . في البلاد كذلك مراحل البريد وفيها محطات كالصين تماماً. ويقوم عند كل لِي علامة وعند كل ٣٠ لي ، يقوم مركز هام للبريد. ليس في البلاد سَرِقة ولا لصوص، تسرح في بلادهم السباع والضواري ، وكثيراً ما تهاجم المسافرين ، ولذا كان السفر والتنقل في قوافل . وللملك عشرة ملوك توابع ، ودائرة مقره تزيد على ١٠٠ لي ، وللملكهم خمسة قصور . يقضي الملك في شؤون الناس ويتولى القضاء في احدى سراياته ويجلس للاقتساء والقضاء من الصبح الى المساء . اما قواده فعددهم ٣٦ قائداً (رقم ٣٦ هو رقم مقدس عند الصينيين) ، يرجع اليهم الناس في كل ما يتصل بشؤون السياسة . فاذا ما تخلف أحدهم عن الحضور في الوقت المضروب ، رُفِعَت الجلسة ولم تُعقَد. وعند خروج الملك يصحبه مرافق يحمل حقيبة من الجلد يُلقي فيها أصحاب القضايا مطالبهم وتشكياتهم مكتوبة ، حتى اذا ما عاد الملك الى مجلسه في القصر ، نظر في كل قضية ، على حدة . اما اعتاب القصر فمن البلور . والناس يعرفون القوس والنشاب ، وعملتهم من الفضة والذهب بنسبة واحد لعشرة . عندهم أقمشة ينسجونها ، على ما يقال ، من صوف الغنم . ويزعم البعض بأنهم لا يكتفون بأصواف الغنم ، فهم يستخدمون غزولاً نباتية او من الحرير الخام المحلول . ويحسنون صنع السجاجيد ».

يتضح من هذه الفقرة ، التي نقلها الى الفرنسية بول بيليوه ان بين التا ـ تسن والصين شبه كبير ومميزات مشتركة . لقد علق في ذهن الصينيين في ذلك العهد ، ان هذه الامبراطورية الرومانية التي يجهلونها ولا يعرفون عنها إلا اسمها ، هي واحدة من هذه الامبراطوريات الأربع التي ينقسم اليها العالم بنسبة واحدة من الاتساع . ففي العالم اربعة أبناء السماء : احدهم في الشمال هو ملك الحصان (الهندو ـ الغز) والثاني في الجنوب هو ابن سماء الفيلة (الهند) ، وثالث في الشرق هو ابن البشر لأنه يحكم على احسن ناس في العالم (الصين) ، ويقوم في الغرب ابن سماء الثروة والغنى (التا ـ تسن) .

كانت الصين قد أقامت ، منذ القرن الثاني ، علاقات لها مع أسرة كوشانا ، في الهند ، عبر جبال البامير ، إلا انها فشلت في ربط سيطرتها على أرجاء آسيا الوسطى وقنعت منها بالجزية صاغرة . ففي الصين ، كما في الهند ، نرى الشعوب في هرج ومَرْج ، والأفكار ابداً في غليان محموم. فنجم من جراء ذلك ان تسربت البوذية ، الى داخل البلاد بعد ان سلك القائمون بالدعوة

لها ، الطرق نفسها التي سلكتها التجارة . وقد تابع ملوك اسرة هان في الشرق ، المهمة التي بدأ بها أسلافهم من قبل، فرسّخوا اقدامهم في كوريا حيث كانت الحضارة الصينية دخلت واستقرت، منذ عام ١٩٤ ق. م . ويُستدل من الآثار الكثيرة التي عُثر عليها في شمال تلك البلاد وفي الشمال الغربي منها ، ان حضارة عالية ازدهرت فيها ، خلال عهد اسرة هان ، أساسها هذه المدارس الفنية التي زهت في عدة مناطق منها ، فتطالعنا ، كما في الصين ، مدافن وأقبية قبرية تحلت جدرانها بزخارف مختلفة غاية في الدقة ، كما تطالعنا مصنوعات ، كالمشابك البرونزية ، والحلى والجوهرات وحجر اليشب واللآلىء ، والتماثيل المصنوعة من الخزف . والحفريات التي قام بها علماء الآثار من اليابانيين ، تنطق عالياً بما بلغته حضارة الهان ، في هذه الحقبة من الازدهار كما انها تساعدنا كثيراً على درس شأن الفنون في هذه الحقبة . ومن بين هذه الآثار التي عثروا عليها: حُبيبات من الزجاج الملون، جيء به ، كما يقدرون ، من الشرق الروماني ، وفيها الدليل الناصع على هذه الحركة التجارية التي نشطت ، اذ ذاك ، فبلغت أقاصي الصين ، متبعة في تنقلها طريق تجارة الحرير . ونشّطت الصين كذلك ، علاقاتها مع الشرق ، فبلغت اليابان . ويمكن تحديد اول اتصال بين البلدين ، حوالي عام ٥٧ للميلاد ، ممهدة بذلك الطريق امام علاقات انتظم حبلها واتصل ولم ينقطع إلا بعد ذلك بكثير .

وقد توطد فتح الصين لمقاطعة التونكين ، في الجنوب ، ولم ينقطع حبل هذه المواصلات بينهما إلا بعد قرون ، لتعود للرسوخ من جديد بعد تغلغل الصين في الشمال من بلاد الانّام .

ويقابل الازدهار الفكري ، في الهند ، خلال اسرة كوشانا ، حركة من الركود الفكري والعقلي في الصين . وقد راح بعضهم يفسر ذلك باعتبار الادب الكلاسيكي الذي ميز عهد دولة الهان السابقة ، ككل متجانس ، بالرغم من اختلاف المصادر وتباينها. وهذا المجموع الكلاسيكي هو الركيزة التي قام عليها اذ ذاك ، واقع البلاد السياسي والاجتماعي . ويمكن اتخاذه مثالاً لما اتصف به هذا العهد من الاخلاقية والتمسك بالتقاليد المتوارثة . ومن بين الفنون الادبية التي اشتهرت بها الصين ، فن التاريخ بحسب تتابع الازمنة . وهذا الفن راج أيما رواج في عهد دولة هان . فقد اشتهر فرعها السابق بتجلي المؤرخ سو ما ــ تسن، الملقب بحق: هيرودوتس الصين (١٤٥ — ٨٦ ق . م) فترك لنا أثراً تاريخياً وثيق الاصول ، دقيقها . اما في عهد الفرع الثاني واللاحق فقد اشتهر بهذا الفن شقيق القائد بان ــتشاو وشقيقته، وهما : بان ــكو(٣٢ — ٩٢) وبان ــ تشاو التي توفيت بعد عام ٢٠٢ للميلاد . فقد أرّخا للأسرة بمهارة فائقة .

وعندما انهارت دولة الهان ، عام ٢٢٠ ، انقسمت الصين على نفسها وظهرت فيها ثلاث دول وطنية متنافسة . وعند مطلع عام ٣١٦ ، أطلّت على البلاد الغزوات الكبرى فمزقتها شرّ ممزق، ولم تسترجع البلاد وحدتها من جديد إلا في عام ٥٨٩. فالحرب الاهلية والفوضى والغزوات والاحتلال الاجنبي ، كل هذه المآسي تتكالب على البلاد وتنوخ عليها بكلكلها ، فتجر عليها الفقر . ويرافق هذا الانهيار حركة دينية انبعثت من هذا القلق الفكري الذي سيطر على عقول الناس وقلوبهم . فالديانة التاؤوية *Taoïsme* تبدو للناس بمظهر جديد وتتقدم منهم كأنها خشبة

الخلاص ومناط الأمل، وتغلغلت بين طبقات الشعب وقويت شكيمتها بحيث أصبحت دولة ضمن الدولة. والادب نفسه اصطبغ بالنزعة الدينية الجديدة، واستلهم موضوعاته من احداث الفروسية والبطولة ، ومن حياة البلاط وروحه، فسيطر الدين على عقول الناس وأذهانهم في عهد اختلط فيه الحابل بالنابل ، وتلاحمت المعارك وسيطرت حوادث الحب الفج . اما الفن فقد سار في ركاب التقاليد المرعية في عهد اسرة هان ففسدت مزاياه . اما النحت المضلَّع ، النافر ، فقد سيطر واستبد . فنحن في حقبة انتقال : فبعد هذا الازدهار والاشعاع الذي عرفه الادب في عهد دولة الهان ، وبعد الحقبة المضطربة المترجرجة التي ميزت ادارة السلالات الملكية الست التي تناوبت على الحكم، بين سنة ٢٢٠ و ٥٨٩، انفرجت غمة البلاد وكربتها عن وحدة جديدة لمّت الشمث، وضمت الاوصال ، بعد تقاطع طويل ، وخيم السلام من جديد على الصين في عهد الاسرة الملكية الجديدة هي اسرة سواي *Souei* .

٢ ـ التبادل التجاري والثقافي

ان استتباب الأمر ، ورجوع السلطات المركزية الى نصابها ، في العهد السابق ، والازدهار الذي لاقته ، والتوسع الجغرافي الذي بلغته بعض الدول الكبرى : كالهند والصين، والتألق الذي بلغتاه فتجاوز حدودهما الى ما حولها من بلدان وأصقاع ، كل هذا وما اليه ، كان له أكبر الأثر في تشجيع مرافق التجارة وتنشيطها . والدور الذي كانت ايران من جهة اخرى ، على أتمّ استعداد لتلعبه ، كوسيط ناقل ، والسطو الادبي الذي كان للصين على روما فاجتذبها وحرّك منها الفضول ، كل ذلك زاد في أوار الحركة التجارية، كما ان اتصال الصين المباشر بالاقوام الهند ـ الاوروبية التي ماجت بها آسيا الوسطى ، والعلاقات التي شدّت كذلك الهند بالشعوب الهندية العرق مما يقع في نهاياتها ، والحركة الخلاسية الواسعة النطاق، وما استتبع ذلك من تبادل الافكار واحتكاك الآراء ، اقتضى الآن ، أكثر من أي وقت مضى ، قيام علاقات دولية نامية على أساس وطيد من الاستقرار .

وفي سبيل هذا كله ، وتيسيراً لهذا كله ، قامت طرقات سار عليها الناس واستخدموها منذ عهد بعيد . من هذه الطرق، طريق انطلق من شمالي البحر الاسود وبحر قزوين عبر منغوليا ليُفضي بسالكه الى منطقة بكين . إلا ان هذا الطريق كان دوماً تحت رحمة الايرانيين والغزّ ، يتحكون به كيفما شاؤوا . وهنالك طريق آخر سلك جنوبي صحراء غوبي *Gobi* او شمالي الجبال السماوية .

فطريق الحرير وفروعه المتشعبة بقي الطريق الرئيسي بين هذه المسالك ، ان لم يكن أكثر الطرق التي شدت العالم الروماني بالعالم الصيني ، وما اليه من توابع ولواحق . وهذا الطريق الذي امتد من انطاكية الى سي ـ نغان ـ فو *Si - Ngan - Fou* ، عبر بكتريان، والذي سلكه التجار منذ أقدم العصور ، كان ملتقى القوافل المنطلقة من سوريا او القادمة من الصين ، فتتلاقى في احد

أودية جبال بامير ، في مكان عُرف باسم « برج الحجر » ، هو اليوم تاش كورغان ، على مقربة من يارقند . وكانت مدينة كابيشي ـ بغرام ، عاصمة كوشانا الصيفية ، تقع على قارعة الطريق ، كما كانت مركزاً هاماً للتبادل التجاري ، كما دلت على ذلك ، الحفريات الاثرية التي قامت بها بعثة فرنسية اشترك فيها كل من الاساتذة: جوزف وريا هاكين ، وجان كارل ، حيث عثروا على آثار مهمة تدل على ما بلغته الحركة التجارية في هذه المدينة من نشاط . فقد كشفت هـــذه البعثة الاركيولوجية عن حُجرتين حَرصوا على تعميتها بكل عناية ، ضمتا مجموعة مختلفة من الاغراض والحاجيات المستوردة من روما وسوريا والاسكندرية ، او من الهند والصين . وهذا الاكتشاف الاثري المعظم ساعد كثيراً على تنمية معلوماتنا حول الحركة التجاريـة التي شدت ، اذ ذاك ، الغرب الى الشرق ، كما تثبت بصورة لا تدع مجالاً للشك ، ما بلغته المقايضات التجارية من نشاط. فقد صدّر العالم الروماني موازين وعيارات من البرونز بشكل صورة نصفية للإلهة اثينا ، مـن ذات الطراز الذي كشفت عنه حفريات مدينة بومبيي ، وقوالب مفرغة من الجبص كان يستعملها من يتولون صبها وإفراغها ، وصوراً هليلية الصنع ، يقوم بافراغها فنانون من الغرب . كذلـك من بين الاشياء المستوردة من الاسكندرية ، حاجيات ملونة ورسوم وصور كلاسيكية ، منها مثلاً: حادث خطف يورُوبّا ، وحادثة خطف غانيميذيس على يد رب الارباب زفس بعد ان تلبّس بصورة نسر ، ومعارك المتصارعين ، واعمال فروسية من الطراز القديم ، وغير ذلك . اما بين مصنوعات الهند المصدرة ، فقد وُجدت : كراس ومقاعد تقوم على قوائم ، وخزائن وغير ذلك من قطع الأثاث والمفروشات ، اتخذت مادتها من الخشب المطعّم والمكفف ، او المصفح بصفائح من العاج المنقوش او المحفور ، لا تزال تظهر عليها بعض الألوان والتزاويق ، او لُبّست بالميكا او الطلق . فاذا كانت أشكال هذه القطع وصورها المتنوعة معروفة لدينا الآن ، فالفضل يعود لمـــا وصلنا من رسوم ذلك العصر ، واذا كنا نعرف اليوم ، ان العاج كان يستعمل في المفروشات ، كما نقرأ ذلك في ادب ذلك العصر ، فلم تتوفر لنا الفرصة من قبل لمشاهدة بعض آثار هذه المفروشات بعينها ، لأن اقليم الهند او تربتها لم يكن ليساعدا قط على حفظها ، وكان يقتضي لبقائها وصيانتها ان يتولى احد من سكان المقاطعات الشمالية التابعة لامبراطورية كوشانا ، جمعها وحفظها في محل امين يكون بمنأى عن غزو طارىء مفاجىء ، قام به الملك سابور الاول ، على ما يرجحون . اما الصين ، فقد كانت تصدّر طوساً من صمغ اللك ، تزينها رسوم خاصة ، مما استقرت عليه الإذواق في عهد دولة هان. وفي هذا الكشف ما فيه من دليل على الحركة التجارية التي كانت تعتمد على مصنوعات يستوردها التجار من الشرق والغرب على السواء .

فاذا كان هذا الكشف هو أهم الكشوف التي تعثرت بها معاول علماء الآثار في نقطة كانت تمر بها تجارة الخز والحرير ، من حيث طبيعـة المقايضات التجارية والحضارية التي كان يتبادلها الطرفان ، فهنالـك ، الى جانب هــذا ، أدلة كثيرة على مبلغ نشاط المقايضات التجارية بين الطرفين ، في هذا العهد . من ذلـك مثلاً ، وفرة قطع النقود الرومانية التي عُثر عليها في عدد كبير متلاحق ، من الاقطار الأسيوية ، سواء في الهند ام في الصين . فقد كانت الصين تستورد

عدداً كبيراً من البضائع المصنوعة في الغرب ، كالزجاج الروماني او الاسكندري ، والعنبر او الكهربا (الملقب بروح النمر) الذي كان يؤتى به من شطآن بحر البلطيق ، والمرجان المستخرج من مغاوص البحر المتوسط في عرض جزيرة صقلية ، اذ كانت السفن تتولى نقله الى مدينة بومباي ، في الهند ، ومنها تنقله القوافل البرية ، عبر التركستان الصيني حتى الصين ، وحجر الفتيل ، وهو ايضاً من محاصيل بلدان البحر المتوسط ، والارجوان والطيوب ، والعطور على أنواعها ومختلف ألوانها ، وأنواع الديباج الغالي الثمن المزركش بأسلاك من الذهب والفضة ، وغير ذلك من الانسجة والمحبوكات كالسجاجيد ، والمصنوعات الهلينية التي عثر عليها في قبور نورين ـ أولا المغولية .

وهذه الطرقات العابرة القارات ، لم تكن وحدها السُبُل التي سلكتها التجارة ، في ذلك العصر . ويدعونا اكثر من سبب الظن والاعتقاد ، ان عدداً كبيراً من هذه الحاجيات التي وجدت في عدد من الأماكن الأسيوية ، تم نقلها عبر البحار على متن قوافل من السفن . علينا ان نعوّل هنا على مصدرين يونانيين ، اولها : « رحلة في بحر أرثريا » ، وهو دليل مقتضب التجار الذين يتجرون مع الهند ، يعود تاريخ وضعه النصف الثاني من القرن الأول . أما الثاني منها ، فهو القسم الخاص بالهند ، من جغرافية بطليموس التي يعود تاريخ وضعها الى حوالي سنة ١٦٠ ، ويكوّن هذا الجزء ، قائمة طويلة لأهم المراكز الجغرافية المعروفة ، اذ ذاك ، في الهند ، وقد اعتمد صاحبه في وضعه على مؤلف سابق ، هو من تأليف مارينوس الصوري . وتمدنا مصادر لاتينية أخرى بالمزيد من المعلومات ، بينها الكتاب الذي وضعه بمبونيوس ميلا ، بعنوان « *De Chorographia* » ، ومنها « التاريخ الطبيعي » الذي وضعه بلين الاصغر (الكتاب السادس منه) ، وكلاهما من القرن الاول للميلاد . وبعض معلوماتنا بهذا الصدد مقتبسة من مصادر خرى ، منها : *Niddesa* ، الذي يعدّ من الكتب القانونية *Canonique* في اللغة بالي ، يعود تاريخ وضعه الى القرن الاول للمسيحية ، ومنها ايضاً : « الحوليات الصينية » ، وهي ثمينة جداً لما تتسم به من دقة وضبط .

وقد انتظمت حركة النقل البحري ، في هذا العهد ، وبلغت فيه درجة من الانضباط والدقة لم تعرفه من قبل . فمنذ ان اتضح للرومان ، في مطلع القرن الاول للميلاد ، الفوائد والمغانم التي تعود عليهم من الاعتماد على نظام الارياح الموسمية لبلوغ الهند ولمبارحتها في الوقت المناسب ، رأينا (راجع ص ٣٤٩) كيف ان حركة الرحلات البحرية أخذت بالتحسن . فقد كانت تغادر في اوقات معينة من كل سنة ، قافلة قوامها ١٢٠ سفينة ، سواحل البحر المتوسط متجهة نحو الهند . وكانت السلع تنطلق من موانىء النيل ، عابرة البحر الأحمر ، مستعملة مرافىء شبه الجزيرة العربية لتبلغ منها موانىء الهند ، بعد رحلة تستغرق ثلاثة أشهر تقريباً . وكانت هذه السفن تفرغ شحنها في موانىء « معينة » متفق عليها من قبل ، أشهرها على الاطلاق ، ميناء موزيريس و باريغازول ، الواقعتان على ساحل بومباي. أما السلع التي كان على الهند ان تقدمها بالمقابل ، فكانت تودع عنابر رحواصل « معينة » هي الأخرى ، بحيث لا يمتد بقاء البحارة الغربيين في

الهند ، طويلاً ، اذ كان عليهم ان يغادروا الهند قبل ان تحول الرياح الموسمية دون ذلك. وكانت الرحلة ، ذهاباً وإياباً ، تستغرق نحواً من ثمانية اشهر . ومن المرجح ، ان قسماً من هذه البضائع كان يشحن ، فيما بعد ، عن طريق المجاري النهرية ، وعن طريق القوافل البرية ، لتبلغ أطراف البلاد في الداخل ، حيث كانت تلتقي بطرقات تجارة الحرير . ولم تكن هذه السلع دوماً من المواد الغالية الثمن . فقد كان بينها كائنات بشرية : فقد كانت الاسكندرية تتولى تصدير الراقصات والمغنيات والقيان والسراري ، والمهرجين والراقصين على الحبال . وقد تلقت الصين منهم عدة دفعات ، منها دفعة وصلتها عام ١٢٠ ، تألفت من فرقة من الموسيقيين والبهّالين ، بلغت بلاد بورما والصين : كذلك كانت الهند تستورد باستمرار ، فرقاً من الراقصات والنساء « المحاربات » عُرفن باسم« يافاني » مؤنث يافانا ، وهو المصطلح السنسكريتي الذي أطلقوه على الإيونيين ، والذي اطلق ، فيما بعد على كل غريب أو أجنبي عن البلاد، ولا سيا على أهل الغرب، دون تمييز بين عروقهم واجناسهم ، وكانوا يُستخدَمون لعدة قرون ، حراساً للأمراء في الهند يسهرون ، بالأخص ، على سلامة « الحريم » وهم يمسكون بمقابض الرماح .

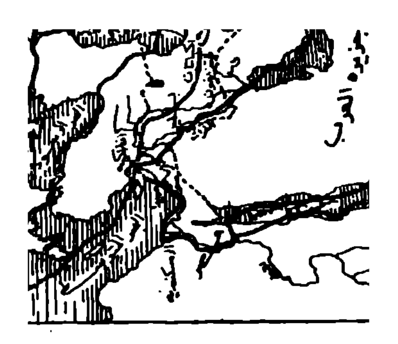
والطريق البحري الذي كان يفضي الى ساحل مدينة بومباي ، في الهند ، لم يكن بالوحيد ، اذ كان هنالك طريق أطول وأبعد بكثير ، يفضي الى هذه المنطقة من سواحل الهند ، ويوصل على الاخص ، الى جوار مدينة بُنديشري التي ورد ذكرها عند بطليموس ، تحت اسم «بوذوكيه». فقد جمع هواة المسكوكات والاخصائيون بعلم النُميّات ما يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف قطعة من النقود الرومانية ، يرجع معظمها الى عهدي اوغسطس وطيباريوس ، كما عثروا على بقايا مركز تجاري يقع على مقربة من القرية المعاصرة اليوم فيرمباتنام . وقد ذهب الظن عند البعض ، قبل العثور على هذا الاكتشاف الهام ، الى ان تجارة الرومان مع هذه المنطقة كانت تتم مباشرة . فقد جاء الكشف الجديد يؤيد هذا الظن الى حد بعيد . فقد اطلعت الحفريات التي قامت بها بعثتان : انكليزية وفرنسية ، في هذا الموقع بالذات ، مستودعاً هاماً من الخزف الأحمر والاسود ، من مصنوعات ايطاليا ، يحمل طابع الخزّافين وهو خزف اشتهرت مدينة أرزّو بصنعه ، بين سنة ٢٠ — ٥٠ للميلاد ، ولا سيا فواخير فيبيانلي *Vibienli* . كذلك ، وجدوا ، بين محتويات هذا المستودع ، جراراً وخوابي من الشكل الكلاسيكي المعروف ، لا تزال تحمل معالم الراتنج المستعمل زاووقاً للنبيذ المستورد من مناطق مختلفة من بلدان البحر المتوسط، لحفظه في هذه الخوابي . أضف الى ذلك عدداً كبيراً من حُبيبات وكسارة الزجاج الملون ، كأنها « لآلىء » ، رومانية الصنع ، وهي زجاجيات ، هام بها وراح يقتنيها ، سكان هذه المناطق الأسيوية، كما وجدوا كذلك، قطعاًمن العقيق الاحمر، حفر عليها رسم اوغسطس وصورة شخص صغير على الطراز الهندي ، منقوشة على قطع من الزجاج وفقاً لطريقة الحفر الرومانية .

ولكن هذه الاسفار والرحلات الطويلة لم تكن لتقف او لتتوقف عند مجال الهند ، فما كانت الهند سوى مرحلة او حلقة في سلسلة هذه المحطات ، لأسفار ورحلات قام بها البحارة الغربيون، أبعد من الهند نحو الشرق الاقصى ، اذ اجتذبتهم ثروات الهند الصينية واندونيسيا ولا سيا كنوز

هان الاصفر الرنان والافاويه على اختلافها. ومع انتظام توقيت هذه الأسفار والرحلات، لا بد من ان ننوّه هنا بالتحسينات الفنية التي أدخلت على وسائل النقل البحري فزادت الحركة التجارية نشاطاً في بحار الجنوب. ولدينا الآن معلومات هامة عن السفن الشراعية، التي درج استعمالها في الصين وأعدّت للاستخدام في عرض البحار والسير في عباب اليمّ في القرن الثالث. وهــذه السفن الشراعية، سواء أكانت ايرانية الصنع او هندية او صينية، فقد تتاوح طولها بين ٤٥ — ٥٠ متراً، بينا بلغ ارتفاع جانبها من ٤ — ٥ أمتار فوق أديم الماء. فكانت تصنع من ألواح تُشد بعضاً الى بعض بواسطة حبال من ألياف الكوكو دون ان يضربوا فيها مسماراً من الحديد، وكانوا يلفطونها بنوع من الملاط او الورنيش، ويجهزونها بقلوع أربعة وينشرونها عمودياً بالنسبة لمحور السفينة، اما منحنية او مائلة بنسبة الواحد منها الى الآخر، فتتكلقّى تباعاً، هبات النسيم او هبوب الريح، فيكسرها الواحد ويحولها للآخر. وتجهيز السفن بهذا النوع، جعلها تستغني عن الصواري العالية، كما زادها سرعة وجرياً، كما كان يسمح لها عند الاقتضاء بتخفيف السرعة بطيّها. وهذه السفن الشراعية التي كانت تستخدم لنقل الركاب والبضائع على السواء، كانت طاقتها من الشحن تبلغ ٧٠٠ راكب او مسافر و ١٠٠٠ طن من الشحن.

ورَدَفت طرُق النقل البحري، وسائل أخرى كثيرة، ممثلة بالنقل النهري، وهذه القوارب المعدة للعمل في مجاري الانهر. ففي مقاطعة فو ـ نان، كانت هذه القوارب، في القرن الثالث، عبارة عن جذوع شجر ضخمة جرى تجويفهـا، يتراوح طول الواحد منها بين ٢٢ — ٢٤ متراً بعرض متر ونصف تقريباً، يُقص مقدمها ومؤخرها على شكل ذنب سمكة، يقوم على العمل في كبيراتها مائة مجذّف، وقد جهّزت بمجذاف طويل للمدى البعيد، وبآخر قصير لحفظها في مكانها، وبعتّاف للاستعمال في المياه القليلة العمق. وكان المجذفون يأتون حركاتهم بانسجام كلي « كأنهم يصرخون بصوت واحد ».

كانت هذه السفن تنطلق من عدد كبير من الموانىء التي تخدم الملاحة في بحار آسيا الجنوبية. فالى جانب الوكالات التجارية التي جاء بطليموس على ذكرها مراراً، غير بروكيه، قامت كارا، المعروفة باسم خباري اليوم، وهي عند مصب نهر كافرت *Kavert*، ومرفأ سوبَتما *Sopatma* القريبة من الاولى. والسفن التجارية الكبرى المسماة باليونانية *Kolandia*، وبلغة التامول *Kalam* وبالصينية: كوانـ لوّن ـ نان كانت تسير باتجاه اقليم خريزيه (او بلاد الذهب) الواقع وراء دلتا نهر الغنج. ويقع على مقربة شيكاكول، الى الشمال، مرفأ يعتمده المسافرون القاصدون مقاطعة خيرسونيز الذهب، وهنالك مرفأ آخر، على مقربة من مصب نهر الغنج، عند غرالبتي (تملوك اليوم) عُرف بنشاط حركته التجارية. يعتمده سكان وادي الغنج، الراغبون في السفر الى بلاد الذهب وبورما. اما على الشواطىء الغربية، فالموانىء كانت تتناثر حباتها على خليج بومباي، مؤمنة الاتصال مع الانسولاند (اندونيسيا)، منهـا بهاروكاكا (اليوم: بروش)، وتشوربارا كا (*Sopara* او *Suppara*) او مرفأ موزيري (وباليونانيـة *Muziris*)، واليوم تُعرف باسم غرانقانور.



الشكل ٣٠ – طرق المواصلات بين أوروبا وآسيا

وأيا كانت نقطة الانطلاق هذه ، فقد بلغت التجارة البحرية اقطار جنوبي شرقي آسيا ، على نطاق واسع ، بحيث أمكننا العثور على بقايا مهمة من هذه المبادلات التجارية ، وعلى الاخص في مقاطعة الكوشنصين الغربية حيث كانت تقوم مملكة فو ـ نان، في القرن الاول للميلاد. فالحفريات التي جرت في نقطة أوك ـ أيو ، توصلت الكشف عن مركز تجاري يتولى ادارته اجانب أغراب عن البلاد . فقد كان من بين هـذه الآثار المكتشفة ، العدة والادوات الخاصة بأحد العاملين في صناعة الصب ، واحدى الصفائح الذهبية تحمل رسم الامبراطور انطونين التقي ، مؤرخة عام ١٥٢ للميلاد. كذلك وجدوا بعض قطع من العقيق الاحمر عليها رسوم ونقوش رومانية الطابع، ورأس من الزجاج الازرق الفاقع، عليه حفر ناتيء يمثل صورة احد ملوك الدولة الساسانية او احد امرائها . والى جانب هذه المصنوعات المستوردة من الغرب ، او من ايران ، عدد كبير من الحلى الذهبية من صنع الهند بينها طوابع نقش عليها بالسنسكريتية، وخواتم حفر عليها صورة ثور ، وغير ذلك ، وكلها تشير الى هذه الحركة التجارية التي نشطت بين فو ـ نان والهند ، والى ما كان يصادفه من رواج ونجاح، التجار الذين يتعاطون بيع المصنوعات الرومانية والايرانية. وهنالك دلائل أخرى تتناثر معالمها في طول البلاد وعرضها حتى تصل الهند الصينية وجزر الانسولاند ، كما توجد على سواحل الهند الصينية الشرقية : في مدن شمبا ودونغ ـ دو ـ ونغ ، حيث تتمثل بتمثال لبوذا من البرونز ، من أصفى طراز أمارافاتي ، هو خير نماذج وأمثلها على الاطلاق . وهنالك صور من الطراز نفسه ، انما اقل مهارة واتقان صناعة ، وُجِدت في جزر السليبس وجافا الشرقية وسومطرة .

والملاحة البحرية التي وصلت الى أقصى النهايات التي بلغها الاستعمار الهندي ، اتخذت كلها مسالك مختلفة : بين بحرية ونهرية وأرضية . انطلق احد هذه المسالك من خليج البنغال شرقاً ، مجتازاً الممر البحري الضيق الواقع بين جزر أندمان ونيكوبار ، او بين نيكوبار ورأس أشين ، ليفضي بالسفن الماخرة في عباب اليم الى شبه جزيرة الملايو ، فترسو السفن في مرفأ تاكوا ـ بوا ، او في كيدا . وبعد ان يجري نقل البضائع براً، عبر برزخ كرا ـ كان باستطاعة المسافرين ان يأخذوا سفينة تقلهم شمالاً باتجاه الصين ، او باتجاه جزر السوند . اما نقل البضاعة براً فكان يتم بسهولة كلية، نظراً لما كان عليه البرزخ من ضيق العرض ، وتكاثر من كلا جانبيه المرافيء ، كما دلّت على ذلك الحفريات الاثرية التي أجريت في بعض الاماكن ، في جايا مثلاً .

هنالك طريق آخر ربط ، على الطريقة ذاتها ، الهند بالبلدان المطلة على بحار الجنوب . وكان هنالك طريق ثالث ينطلق من اواسط الهند ويسير مع الشاطيء حتى مدينة تاتوى ، ومنها تجتاز سلسلة الجبال لتبلغ خليج سيام ودلتا نهر مينام عن طريق نهر كانبوري ، حيث كشف علماء الآثار عن مناطق قطعت شوطاً بعيداً في استهنادها واقتباسها الحضارة الهندية، منها بونغ ـ توك ، وبرا باثوم . والظاهر انه تم فيما بعد ، وَصْل نهر كانبوري الصغير الشأن بنهر ميكونغ ، وذلك بطريق بري ، مرّ عبر سهل كورات ، المرتفع وببلدة شِرِيْدَب، وهي نقطة قديمة، ثم بوادي نهر مون فتفضي بالمسافرين الى مقاطعة تشينلا التي ستصبح في ما بعد مهد حضارة الخمير *khmer*. وأخيراً

طريق بورما القديم الذي كان معروفاً منذ القرن الثاني ، قبل الميلاد ، وكان لا يزال مطروقاً ، ولا شك ، في القرن الثاني بعده . وهذا الطريق كان ينطلق من شمالي الهند ماراً بمقاطعة أسّام وشمالي بورما ويو ـ نان حتى يفضي بسالكيه الى الصين .

وهكذا نرى كيف ان الصين كانت تقع ضمن شبكة المواصلات البحرية والبرية على السواء ، التي كان يعتمدها التجار في مقايضاتهم بين الشرق والغرب . وحوالي القرن الثاني ، وربما قبل ذلك ، ربطت هذه الشبكة اليابان وكوريا . وهكذا ، فمن مشارف حوض البحر المتوسط حتى اطراف الشرق الاقصى ، كان العالم اليورو ـ آسيوي مرتبطة أطرافه وأجزاؤه بعضاً ببعض . وشبكة طرق المواصلات هذه ، في شتى شعابها وفروعها ، كانت تهدف لتيسير التجارة وتسهيل سبلها ، بالرغم مما اعتورها من تقلبات على مر العصور وكر الاجيال ، وفقاً للدول التي قامت في تلك العهود وما اعتراها من تغييرات ، وقد تحكمت بها ايران بما تم لها من موقع جغرافي ممتاز ، لوقوعها من الصميم في هذه الشبكة الدولية للطرقات البرية والبحرية ، كما يعترف بذلك الكتبة الصينيون ، في ذلك العهد ، اذ ورد بالحرف الواحد عند بعضهم ما يلي : « ان سكان تا ـ تسين (الامبراطورية الرومانية) رغبوا دوماً في إيفاد سفارات وبعثات دبلوماسية الى الصين ، إلا ان ملوك الدولة الارشاكونية او الفارثية ، رغبةً منهم باحتكار فوائد التجارة مع الصين ، حالوا دوماً دون ذلك » . فقد حاولت ايران، في مناسبات عديدة، ان لم نقل بصورة مستمرة، ان تبقى مسيطرة على تجارة الحرير والطرق التي تمر بها ، وقد نهجت هذا النهج بعـد الدولة الارشاكونية ، الدولة الساسانية ، بالرغم من المحاولات التي قام بهـا الاسكندر لكسر هذا الاحتكار ، ومن بعده بيزنطية اذ كانوا يعلقون أهمية كبرى على حرية التجارة مع أصقاع آسيا الشرقية .

المبادلات التجارية

كل الدلائل تشير الى ان الحركة التجارية كانت ناشطة ومزدهرة في القرون الاولى للمسيحية . فالطريق الذي شقه الاسكندر المقدوني ، بين العالم الغربي والشرق الاقصى ، عرف عهداً عظيماً من نشاط الحركة التجارية ، لأسباب شتى ، منها قيام دُوَل في كل من الهند والصين تميزت بحسن تنظيمها الاداري واستتباب الامن فيها ، كما ان شدة احتياجات الامبراطورية الرومانية، من جهة أخرى ، وشدة طلبها لهذه الكماليات الغالية الثمن ، ساعد جدياً على بقاء الحركة على هذه الطرقات ناشطة للغاية . وهذه الكماليات الغالية الثمن والتي رغب الرومان في الحصول عليها بأغلى الأثمان ، لم يكن ليتيسر لهم الحصول عليها إلا من الهند والصين ، أو من الاقطار الواقعـة الى الجنوب الشرقي من القارة الأسيوية ، وكان من مصلحة الهنود والصينيين معاً ، تأمين وصول هذه البضائع والسلع وغيرها من المصنوعات التي كانت تصنع في البلدان او المقاطعات التابعة لها أو الواقعة تحت نفوذها او الدائرة في فلكها ، اذ ان مواداً تجارية كثيرة كانت تَرد من البلدان الواقعة ما وراء نهر الغنج ، كالماس والافاويـه والند والصندل والمندل *Bois d'aigle* والكافور ، والكُرْكُم ، والبخور الجاوي واللُبان ،

والقاقلّة او حب الهال ، والعاج والخز ، والديباج وغير ذلك من الانسجة الغالية الثمن ، وكلها من صنائع الهند والصين وايران ، او من محاصيلها . أضف الى ذلك ما كان للأصقاع الواقعة في بحار الجنوب من قوة الجذب ، لّما فيها من الذهب ، بعد ان حالت الصين ، قبل ظهور المسيحية بقرنين ، دون حصول الهند ، كما في السابق ، على الذهب الوارد من الشمال ، أي من سيبيريا وجبال الألتاي . ولذا راحت الهند تحاول استيراد الذهب من الامبراطورية الرومانية بشكل نقود رومانية ، وهذا ما يفسر لنا جيداً وجود النقد الروماني من الذهب بكثرة في الهند . وقد شعر اولو الأمر في روما بتسرب الذهب من البلاد ، فراح الامبراطور فسبسياوس (٦٩ – ٧٩) يصدر مرسوماً يحظر فيه خروج الذهب من الامبراطورية ، بأي شكل كان . ولهذا اخذت الهند تحاول ان تستعيض عن هذا المورد الذي نضب او كاد ، بالاقطار الجنوبية الشرقية من القارة الأسيوية التي اشتهرت مناجمها بانتاج الذهب ، والتي لم يكن يصح ، مع ذلك ، مقارنتها بوجه من الوجوه ، بما بلغه انتاجها منه في العصور الحديثة .

وكان استيراد الغربيين لهذه السلع والحاصيل يكلفها غالياً وينهك ثروة البلاد اذ كان الاستيراد يكلفها أكثر بكثير مما يدره عليها التصدير ، بعد ان قلت قيمة هذه الصادرات ، وهي تتألف ، على الغالب من العنبر (الكهربا) والمرجان وحجر الفتيل ، والارجوان وبعض الانسجة (التي بقي منها بعض النماذج في منغوليا) وصحائف من البرونز ، والزجاج والعقيق المنقوش ، والمصابيح الرومانية وغير ذلك . فاذا كانت حركة التبادل التجاري تدر كثيراً على تجار الاسكندرية وسوريا ، فقد كانت روما ، على عكس ذلك ، تتكبد كثيراً من جراء تجارتها مع البلدان الأسيوية ، الامر الذي حدا بالمصلحين الاجتماعيين والغيُر على الاخلاق ، الى شجب السعي وراء هذه السلع والتكالب على اقتنائها ، في القرن الاول للميلاد .

المؤثرات الفنية

وهذه الطرقات المائية والبرية تسلكها القوافل البحرية ومواكب التجار ، كانت بدورها خير أداة وخير مسعف على تسرُّب المؤثرات الفنية والادبية وانتقال القصص الشعبي والاساطير والعقائد الدينية والافكار .

ان استيطان الهندو – اليونان في شمالي غربي الهند ، والهندو – الفرز ومجاورتهم لايران الفارثية ، وعلاقاتهم النامية بمقاطعات وأصقاع آسيا الوسطى والصين ، وتكوين هذه الامبراطورية الشاسعة الاطراف على يد قبائل الكوشانا بعد ان وحّدوا بين الاقوام التي تألفت منهم ، وكلهم آريون ، وبين اقوام غندهارا وكابيشا المتهلينة ، كل هذا وما اليه ، ساعد كثيراً ، على انتشار الافكار الغربية في آسيا الوسطى . وقد عزّ الدليل على اثبات العكس ، مع العلم ان البضائع والسلع الأسيوية كانت تصل الى الغرب هي الاخرى . شاهد على ذلك مِقبض مرآة مصنوع من العاج عليه نقوش من طِراز سانشي ، عَثر عليه المنقبون بين أنقاض مدينة بومباي .

فبمعزل عن هذه الاتصالات المباشرة التي شدّت الغرب الى الشرق ، قام عنصر آخر هام جداً مكّن لها ورسّخ لأسبابها ، وشجّع عليها ، يتمثل في البوذية . فعلى عكس البراهمانية ،

جاشت البوذية بروح تبشيرية ، فراحت تدعو لمقالتها وتعمل على بثها ونشرها ، ولذا حاولت الاستفادة من الطرق البحرية التي عوّل عليها التجار لتحمل رسالتها ودعوتها بعيداً ، فأصبحت بذلك من أهم العناصر للاشعاع الهندي في الخارج . وهذا المركب المزجي اليوناني البوذي الذي نشأ في غندهار والبكتريان ، بعد حركة بعث الممالك الهندو - اليونانية ، اخذ بالنمو على نطاق واسع ، يتقبل رويداً ويتمثل بصورة لاشعورية ، المؤثرات الرومانية ، سواء أصدرت عن العاصمة روما نفسها ام عن ولايتي مصر وسوريا ، فتألف من هذا المركّب ، الفن الهجين الذي استبد بالأذواق اذ ذاك .

وقد خضعت البوذية البدائية في هذا العصر ، لتطور ملحوظ من الداخل تميز ، من الوجهة الفنية بالايكونوغرافيا (فن رسم الصور) الخاصة ببوذا ، اذ أخذت بوادر هذه الحركة بالظهور والتجلي في منطقة غندهارا الشمالية الغربية في الهند ، وفي مدرسة ماتورا . ويوحي الطراز الذي سيطر على غندهارا أثر الغرب عليه ، اذ يحمل كل سمات النظريات الفنية الهلينيـــة والميزات الاصيلة للفن الشرقي الاصيل (راجع صفحة ٧٠٣) . ففي طراز صناعة التماثيل الذي سيطر على مقاطعة كابيشا بالغرب من كابول ، نرى تتجمع حول هذه الشخصية اليونانية البوذية ، كل النماذج الفنية التي عرفها العالم اليورو - آسيوي اذ ذاك ، فأقبلوا على تمثلها بكل حماسة ، كالتي نجدها في تاغرا . وحول هذه النواة الهلينية ، ظهرت نماذج فنية تحمل الكثير من سمات هذا الطراز ، أشهرها على الاطلاق ، الطراز الفني الذي ساد ميران القائمة في احدى الواحات الجنوبية في آسيا الوسطى . فالمعتقدات والتقاليد البوذية نراها مرسومة على الجدران وهي تحاكي ، من قريب ، بفنها وألوانها، معالم الرسوم الرومانية في سوريا .

من الحيف ان يحاول المرء الانتقاص من شأن التطور الفني مرت به نماذج الطراز الفني الهليني الذي ظهر في أقصى حدود الهند. فقد عاش فيها طويلاً حتى الى ما بعد زوال النظم السياسية التي أوحت به ، فدخلت على أنساب مختلفة ، الفن البوذي ، فانتشرت في جميع أرجاء الهند ، وبلغت ، بعد بضعة قرون : الصين واليابان والانسولاند والتيبت ، مُتيحة ، الى حد ما ، امتداد الحياة للفن البيزنطي ، في هـــذه الانماط الفنية التي درجت عليها البلدان الصقلبية والبلقانية . ويمكن ان نعزو اليها الفضل في بقائها مستمعة لأجيال طويلة في هذه البلدان حيث خلـّدت حتى عصرنا هذا ، ذكر تلـــك المحاولة الجبارة التي أريد بها ، جمع العالمين الشرقي والغربي ، في وحدة تامة .

وهنالك آثار غربية ، رومانية الطابع والسمة ، يمكن ملاحظتها بسهولة في آثار المدرسة الفنية التي سيطرت على القسم الشرقي الجنوبي من الهند ، ولا سيا في منطقة أمارأفاتي حيث توجد احسن النماذج . فهي تبرز بهذا المظهر او الوقفة التي تبدو على بعض صور بوذا ، في هذه المقاعد على شكل كراسي، لها قوائم تشبه قوائم السباع والضواري.

ففي الحين الذي تأخذ فيه امبراطورية الكوشانا بالتفسخ والتفتت فالانهيار ، تحت الضربات

التي انهالت عليها من الدولة الساسانية ، في ايران ، نرى النفوذ الايراني يبرز في هـذه المناطق الشمالية الشرقية بالذات التي فيها رأى الفن اليوناني ـ البوذي النور ، قبـل ذلك بنحو قرنين تقريباً . والعنصر الجديد الذي انضم الى هذا المركّب الفني ، الذي ألمنا إليـه اعلاه ، فرض سماته المميزة على المجموع . وهكذا يطل علينا طراز فني جديد ، هو الطراز الايراني-البوذي ، الذي ذاع وانتشر في مقاطعة كابتشا ، وفي آسيا الوسطى . فبوذا يبرز مرتدياً حلة من الارجوان (بدلاً من القفطان الأصفر الذي يرتديه الكهنة البوذيون) ، ويتربع على ارض نثرت عليهـا الازاهير حلقات في وسطهـا رؤوس خنازير برية ، او صور من البط تحمل في منقارها لآلىء . اما راهبات بوذا فيحملن في شعورهن أهلّة في وسطها لؤلؤة . فيعيد هذا المنظر الى الخيـال ، هندام الشعر الذي عُرف عنـد الساسانيين ، ويلوح فوق أكتافهن اطراف مناديل درج الناس على استعمالها في ايران قديماً . ومثل هذه المناديل تُشَدّ حول الأعمدة ، وتربط حول الآنية التي تتدفق منهـا المياه، وحول اشكال الستوبا *Stupa* . أما العلمانيون فيرتدون ملابس من الزي الايراني يتألف من سترة مشدودة الى الخصر ، لها ثنية مربعة تُرَد الى الوراء ، وفي الوسط زنار او نطاق ، وسراويل مع جزمة للرجال . اما النساء فيلبسن تنورة جَرَسِيّة القطع والشكل. كذلك يبرز الفن الايراني في هذه الاشكال الهندسية . وأسوة بالفن اليوناني البوذي ، نرى العالم الهندي يبرز جنباً الى جنب مع العالم الروماني : شخوص نصفية عارية ، تحمل الكثير من الحـلي الى جانب رجال ونساء بكامل ثيابهم يمثلون أسياد ذلك العصر. وعلى الشكل نفسه نرى النظريات الفنية الايرانية تعيش طويلاً في الهنـد ، حتى بعد زوال الدولة الساسانية ، وتنتشر بعيداً في جميع أرجائها . وهكذا نرى لبس الأحذية (الجزمات) ، يتفشى في الايقونوغرافيـا الهندية ، ولا سيا في صور الإله الشمسي « سوريا » ، وسيبقى على مظاهره هذه حتى العصر الحديث .

وهذه العناصر الفنية اليونانية ـ الهندية وبعض الاشكال الفنية الايرانيـة الأخرى ، شاع استعمالهـا في جميع أطراف آسيا ، ودخلت الهند رأساً ، كما وصلت الصين واليابان بالواسطة . فقد اهتمت الهند بنقل بعض هذه النماذج الفنية الى بعض ممتلكاتها في الخارج ، وبلغ من شدة تأثر هذه المقاطعات بالفن الهندي ، ولا سيا الهند الصينية والانسولاند منها ، ان أخذت تترسمهـا وتستوحي نماذجها لأكثر من ألف سنة . ففي العصور الاولى للميلاد ، يصعب كثيراً ابداء حكم صائب بهذا الشأن لندورة الآثار التي ترجع الى هذا العهد . ويمكن للانسان أن يصل بصورة جازمة للحقيقة ، عندما يتبين ، من جهة ، القطع المنتشرة في أرجـاء مقاطعة أمارافاتي التي بلغها تجارة هنود، ومن جهة اخرى، القطع المقلّدة، الموجودة في تايلاند الشمالية والوسطى منها.

غير ان الصعوبة تبدو أكبر عند التكلم عن المؤثرات الفنية في الصين . فنحن هنـا امام مدارس فنية تطبع عدداً من الولايات ، اكثر ممـا نحن امام انتاج محلي متأثر بفن البلاد الأم . ولعل كوريا هي أشد هذه المقاطعات صموداً ، وأثبتها قدماً في وجه هذه السيطرة. ومع ذلك، فالطراز الكوري الذي فيه هذا الترصيد المطبّع ، وهذه التزاويق الجدرانية هو الذي يحمـل عميقاً اكثر من غيره اثر الفن الصيني . امـا المصنوعات الخزفية التي نراها في التونكين ، فهي

صيلية الطابع ، في الصميم .

وجوه أخرى من التبادل الثقافي

وعلى هذه الشبكة من الطرقات التي استعرضنا لها على اختلافها ، من بحرية ونهرية وبرية ، تمت هذه الاتصالات الديلوماسية والدينية والفكرية ؛ وتيار المبادلات بين شرقي آسيا والامبراطورية الرومانية الذي نشط خلال القرن الاول للميلاد ، بقي على أشده مدة قرنين ونصف القرن ، أي من مطلع النصرانية حتى عام ٢٥٠ تقريباً . ومع ان خريطة لجغرافية الامبراطورية الرومانية ، في القرن الثالث معروفة باسم : جدول پوتنجر *Table de Peutinger* ، تشير الى وجود هيكل لأوغسطس في مدينة موزيري او موشيري ، فاهتمام آسيا بالغرب خف وتحول ليقتصر على الممالك الجديدة التي أطلت في الجنوب الشرقي من آسيا : في الهند الصيلية وفي الانسولاند . فطريق المواصلات بين الشرق والغرب انقطع وتعطل لمروره في ايران ، والامبراطوريتان العظيمتان اللتان تألفتا في عهد الهان وكوشانا ، قد زالتا من الوجود ، والعوامل التي مهدت لسلام دائم ، ساعد على قيام مثل هذه الحركة التجارية والمبادلات التي رافقتها ، زالت هي الاخرى وانقطعت .

هنالك اكثر من اشارة لهذه العلاقات الدولية ، وردت اكثر من مرة ، وفي عدة مناسبات خلال هذين القرنين والنصف . فمنذ غرة القرن الأول ، حتى وقبل ذلك بكثير ، نرى اسم آسيا يَرِد على لسان سترابون ، كما ان مصطلحات فلكية ، يونانية واسكندرانية ، دخلت المعجم الهندي والصيني ، وربما وصول الدعوة المسيحية والكرازة بها على يد احد الحواريين هوالقديس توما الذي يقال أنه بشر بالانجيل في هذا القسم الشمالي الغربي من الهند ، كما ان جزيرة سيلان ترسل عام ٢٧ للميلاد ، بعثة دبلوماسية الى الامبراطور اوغسطس . ويشار الى هذه العلاقات في مصادر عديدة ، ولا سيما في هذه الحوليات السلالية الصينية . ويأتي سترابون على ذكر بعثة دبلوماسية أرسلها الى اوغسطس نفسه ، أحد الملوك المدعوه بانديا ، وباليونانية *Pandionos* وهو من ملوك التامول الذين سيتمكنون ، فيما بعد ان يحققوا لهذه المنطقة الجنوبية ، من الهند ، المعروفة بالبلاد الدرافيدية ، إشعاعاً كبيراً . وفي سنة ٧٩ ، وهي السنة التي لقي فيها بلين الاكبر الموت الزؤام ، مختنقاً بالغازات الخانقة المتصاعدة من حمم بركان الفيزوف الذي أهلك بومبيي تحت الرماد المتصاعد ، دفنت هذه المواد المصهورة تحت الانقاض ، مقبض مرآة من العاج يحمل نقوشاً هندية ، كل هذا وما إليه شهادات متواضعة على هذه العلاقات المباشرة التي قامت مع آسيا الشرقية . وقد حاولت الصين ، من جهتها ، انما عبثاً ، ان تقيم بواسطة قائدها الحربي الكبير بان ـ تشاو ، علاقات دبلوماسية مع روما ، (حوالي عام ٩٠) ، ومع ذلك فالمؤرخون الصينيون ، ينوهون ، عام ١٢٠ ، بوصول فرقة من الموسيقيين واللاعبين على الحبال ، من الرومان الى بورما والصين . وقد اتسمت المواصلات في هذه الفترة بالدقة والانضباط . وفي عام ١٦٦ ، وصلت الى البلاط الامبراطوري ، في الصين ، بعثة من التجار السوريين ، يَدّعون انهم مرسلون من قبل الامبراطور مارك اوريل. قد يكون هذا الادعاء من باب

التمويه والتزوير ، إنما فيه دليل قاطع على هذه الاسفار الطويلة لا يحجم معهـا تجار أغنياء من القيام بها ، وتجشم المشقات في سبيلها . وفي سنة ١٧٠ ، كان باستطاعة بطليموس ، ان يصف الهند بأوصاف جمعت من الدقة بحيث اعتمدت عليها الحفريات الأثرية التي قامت فيها .

وفي القرن الثالث، يقدم لنا التاريخ صورة لما يشبه جسراً، ارتفع فوق القـارة الأسيوية ، يتمثل في حياة المصلح الديني ماني . ولد ماني في بابل عام ٢١٦ للميلاد ، وابتدأ رسالته الدينية التبشيرية برحلة الى ضفاف نهر الهندوس، وهي رحلة تمت بين سنة ٢٤٠ — ٢٤١ — ٢٤٢—٢٤٣ ثم اشترك فيما بعد بحملة عسكرية قام بها سابور ضد الامبراطورية الرومانية ، أي بين ٢٤٢—٢٤٤ ضد الامبراطور غورديانوس الثالث أو بالأحرى ، كما يرجحون ، الامبراطور فاليريانوس ، بين ٢٥٦ — ٢٦٠ . فلو صح الافتراض الأول ، فلقد كان ماني موجوداً في الجيش الذي كان فيـه أفلوطين مؤسس الأفلاطونية الحديثة ، اذ كان يحارب ، بصفة جندي متطوع ، بحيث يستطيع إشباع فضوله بالتعرف الى الديانات القائمة في ايران والهند. فقد كانت حياة ماني، فيما بعد سلسلة من الأسفار ، قام بها عبر الامبراطورية الرومانية، ثم أوفد من قبله مبشرين الى مصر (عام ٢٤٤ و ٢٦١) كما أوفد غيرهم من المبشرين الى المناطق الواقعة حول ضفاف نهر الأوكسوس. وفي عام ٢٦١—٢٦٢ ، أرسل فريقاً منهم الى المنطقة الواقعة جنوبي نهر الزاب الصغير . وهذا المثل ليس بالطبع حادثاً فردياً ، إلا أنه كانت له نتائج بعيدة جداً . ألم نشهد ، بالفعل ، في انتشار آخر مدرسة فلسفية رأت النور في الاسكندرية، وهي الأفلاطونية الحديثة، مع افلوطين وبورفيروس التي أفضت الى هذه التعاليم الباطنية ، الموقوف الاطلاع عليها ، على بعض قلة من المريدين ، كما أفضت الى هذه الأعمال التي تتعلق بالنجامة والسحر ، وكلها أعمال وأفعال هي في النقيض من الروح اليونانية ؟ فالحقيقة الأخيرة ، النهائية ، والواحد الأحد ، والجوهر الفرد ، التي قال بهـا أفلوطين وعلم ، لا يمكن أن تفهم إلا اذا رددناها الى علم الوجود الهندي ، اذا مـا أخذنا بعين الاعتبار الفراغ المطلق الذي تقول به البوذية، أي الوجود المطلق الذي تعلم به الفلسفة البراهمانية *Vedanta* ، كما يطلل ذلك ويفسره المؤرخ المشهور غروسيه. وهكذا نشهد عملية غسل العقول من الروح الهلينية ، في ذلك العصر ، وهي عملية تمت في هذه المنطقة التي كانت دومـاً ملتقى للعروق والاجناس والعقائد ، من العالمين ، الايراني والهندي . ومن المحتمل جـداً أن تكون هذه الظاهرة ليس ردة فعل وحسب ، بل ايضاً صدمة هزت هذه المؤثرات الشرقية في الهلينية، أو بالأحرى ، هجومـاً تشنه الديانات الباطنية الأسيوية ضد العقـل اللاتيني المتميز بالاتزان والانضباط . ويمكن ان نجد دليلاً على هذا في الكتاب الذي وضعه، عام ٢٣٠ القديس هيبوليت (١٧٠—٢٣٥) في روما، بعنوان *Réfutation de toutes les hérésies* « دحض كل الهرطقات»، وفيه عرض دقيق لتعاليم البراهمانية، في الدَّخَن(الكتاب الأول، ص ٢٢٤) . وهنالك مصادر يونانية كثيرة ، تتعلق بالفلسفة والتاريخ والجغرافيا ، تشيد كلها بالمكانة التي أحرزتها حكمة الهند في الغرب ، تُبَسّط ، بكثير من الإفاضة ، كل ما يتعلق ببراهما ، وفلاسفة الهند وحكمائها ، والسامان *Samanes* أو كهنة بوذا . ولا بد هنا من التنويه عالياً باسم برديصان (القرن الثاني)

السرياني ، وفيلوستراتس (غرة القرن الثالث) ، الذي يقص علينا خبر رحلة ابولونيوس ده تيان المجانثي ، الى كهنة براهما .

وعلى عكس ذلك ، فالعلم الهليني ، والعلوم الربانية ـ الروحانية ، والتعاليم المسيحية ، والمانية ، ونظرات ايران السياسية ، وغير ذلك من عوامل هذا التراث الحضاري في الغرب ، بلغ الأقطار الآسيوية ، ولا سيا الهند منها ، وساعد بدوره على إغناء إرثها الحضاري . وعلى هذا يجب أن نقيس هذه التيارات وهذه المجاري ، التي حملت في ثناياها هذا القصص الشعبي ، وهذه الحكايات كلها التي اتبّعَت، في انتقالها وتنقلها، شبكة المواصلات التي أتينا على ذكرها، وغير ذلك من الأدب الحكي أو الشفوي ، المتوارث خلفاً عن سلف ، انتقل من أقصى الغرب الى أقصى الشرق . وهذا التيار ساعد الهند على ان تعي حقيقة حكمتها وتفهم حضارتها ، وان تصون تقاليدها ، وان تنشّط من حيويتها العقلية والثقافية، والروحية والفنية ، وذلك بشكل من الحس اللاشعوري .

إلا ان طريق الاتصال بين العالم المتوسطي وأصقاع آسيا الوسطى، منذ أواسط القرن الثالث وربما قبل ذلك بكثير ، فيا يتعلق بالصين وما اليها من الارضين ، انقطع تماماً من جراء قيام الدولة الساسانية في ايران . واذ وجدتا نفسيهما منقطعتين عن الغرب ، ارتد كل من الهند والصين الى ممتلكاتها ، مهتمة كل منهما بتجارتها الخاصة ، تصدّر اليها فلسفاتها ، في كل ما يتصل بالسياسة والاجتماع ، والدين والفن ، بعد ان تمهدت السبل أمام ذلك كله . فمنذ القرن الاول نرى الصين تعيّن حكاماً لها في واحات آسيا الوسطى ، كما أدخلت مقاطعة التونكين ، في الجنوب ، تحت تابعيتها . كذلك استطاعت الهند، بما تم لها من قوافل التجار والرواد المغامرين، من اعادة بعض المالك ، الى الوجود ، في الهند الصينية : من ذلك مملكة لن ـ يي ، عام ١٩٢ ، التي عُرفت فيا بعد ، باسم مملكة شمبا *Shampa* ، وهي مملكة أسسها احد المواطنين على حساب ولاية جي‐نان الصينية ، ثم أخذت هذه المملكة تتمثل حضارة الهند منذ تأسيسها . كذلك ، تأسست مقاطعة فو ـ نان التي لم تلبث ان تصبح مركز مملكة الخير على يد مغامر يدعى كوندينيا *Kaundinya* ، الذي دخل البلاد اما من جنوبي الهند ، او من شبه جزيرة الملايو ، او من احدى جزر بحر الجنوب . وقد قام في شبه جزيرة الملايو ، عدد من المالك الصغيرة المستهندة الطابع ، منها مملكة لانغ ـ يا ـ سيو (مطلع القرن الثاني) ومملكة تمبرالنغا (حوالي القرن الثاني) ومدينة تاكولا (في القرن الثاني) ، وكيداه ، وبيراك ، بعد ذلك بقليل .

وتميز القرن الثالث الذي عرف ان يستغل هذه الاجراءات، بقيام تبادل البعثات والسفارات وبعلائق دبلوماسية اخرى . ففي الحين الذي كان فيه ملك من اواخر ملوك كوشانا ، ان لم يكن آخرهم بالفعل ، هو الملك فازوديفا ، يوفد ، عام ٢٣٠ ، بعثة دبلوماسية الى بلاط ملك الصين ، كنا نرى ممالك الجنوب الشرقي من آسيا ، يقيمون لهم علاقات سياسية مع الهند والصين على السواء . وبين ٢٢٠ ـ ٢٣٠ ، ارسلت مملكة لن ـ يي الى حاكم مقاطعة التونكين ، بعثة اهتمت لها ايضاً مقاطعة فو ـ نان .

وبين ٢٢٥ ـ ٢٥٠ ، قرر ملك فو ـ نان ان ينشيء له علاقات دبلوماسية مع الهند ، وذلك إثر ما سمعه وقصه عليه شخص قدم من مقاطعة تقع الى الغرب من الهند ، والذي سبق له ان زار الهند قبل قدومه الى فو ـ نان. وكان المتقدم في البعثة الدبلوماسية احد أنسباء الملك نفسه، فركب البحر من مدينة تاكولا (شبه جزيرة الملايو) كا برجسون، وبلغ مصاب نهر الغنج وصعد مجراه حتى ادرك عاصمة شعب موروندا *Murunda* ، وهم أقوام يمتّون بصلة الى كوشانا والساسانيين . ورحّب الملك الهندي بالقادمين وأتاح لهم زيارة مملكته ، وقدم لهم عدداً من الخيول المطهمة هي من خيل الفرز، وعين لهم دليلاً هندياً من رعاياه، رافقهم الى بلادهم، وعادت البعثة من حيث جاءت ، ووصلت فو ـ نان ، بعد غياب أربع سنوات . وفي سنة ٢٤٣ (وقد تكون السنة نفسها التي التقى فيها أفلوطين وماني) ، أوفد ملك فو ـ نان ، بعثة دبلوماسية أخرى الى الصين ، هذه المرة ، مقدماً لملك الصين هدايا من محاصيل البلاد ، معها فرقة من اهل الطرب والغناء والعزف . وحوالي عام ٢٤٥ ـ ٢٥٠ ، أوفد اليه ملك الصين بدوره ، وفادة من شخصين هما : كنغ ـ تاي وتشو ـ ينغ ، فقاما بزيارة المملكة ، واجتمعا في البلاط بممثل ملك موروندا الذي كان لا يزال باقياً هنالك ، منذ رجوع البعثة الدبلوماسية من الهند الغنجية . والخيراً ، في سنة ٢٨٤ ، كررت مملكة لن ـ يي محاولة أولى قامت بها بين ٢٠٠ ـ ٢٣٠ ، فأرسلت الى بلاط الصين بعثة رسمية .

غير ان الوضع الحرج الذي آلت اليه أسرة هان ، في الصين ، وانهيار امبراطورية كوشانا ، في الهند ، وما كان لذلك من صدى وردة فعل ، وطلوع عهد الغزوات الكبرى ، كل ذلك تألب وتجمع ليضع حداً ، الى حين ، لهذه الاتصالات الدبلوماسية التي لن تستأنف سيرتها الاولى، إلا في القرن الرابع .



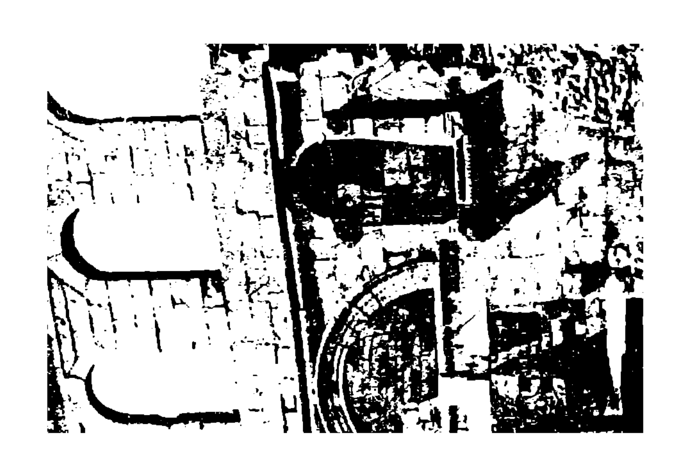


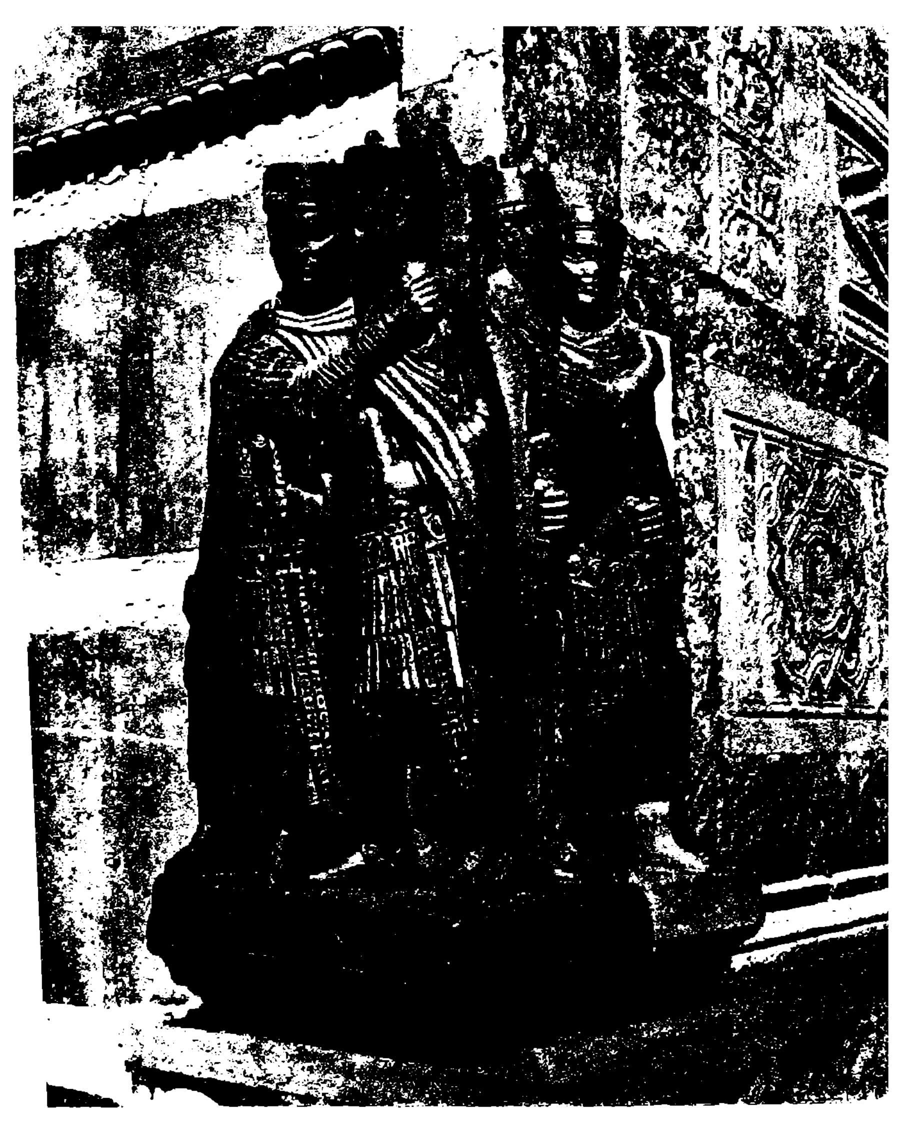




٣٦ – اورشليم: مقبرة اليهود والمدافن المعروفة بمدافن الانبياء.







٣٩ – أباطرة الحكم الرباعي : ديوكلتيانوس ومكسيميانوس ، غاليريوس وكونستانس كلور (القرن الرابع) .





٤١ – بودهيساتفا . مدرسة غندهارا الفنية (حوالي القرن الثاني بعد المسيح) .



٤٢ – ملك ـ حية (ناغاراجا) .

٤٣ – نقش عاجي اكتشف في افغانستان (حوالي القرن الثاني بعد المسيح) .



٤٥ – معبد كارلي من الداخل (حوالي القرن الثاني بعد المسيح).





٤٨ – تمثال « هانيوا » من الخزف . اليابان (القرن الرابع؟)

الفصل الثاني

تطور الهند (الهندية)

إطار المدينة والريف

عندما أطلّ هذا العهد، موضوع بحثنا هذا، كان من المحتمل جداً الظن بأن نقش الأرْوِقة التي تزيّن درابزونات الستوبا رقم ١ *Stupa* كان في طريقه الى الاكتمال. فنحن امام مناظر ومشاهد تساعدنا كثيراً على تكوين فكرة صحيحة عن الوضع الذي برزت عليه كل من المدينة والريف، عندما كان المجتمع الهندي، في حقبة ما بعد عهد الموريا *Maurya* آخذاً بالتطور. كان باستطاعة المرء ان يرى، من جهة، انه لم يقم، اذ ذاك، أي فارق بين هذه الحقبة والعهد الماضي، كما انه لم يحدث، من جهة اخرى، أي انقطاع او أي فاصل، بين هذه الحقبة والحقبة السابقة التي تألفت من القرنين الماضيين. فاذا ما حصل شيء من ذلك، فبالأكثر، بعض تفاصيل طفيفة دخلت على الرسم الهندي، كما حدثت سهولة أكبر في تصوير الاشياء، وبالتالي، في تبسيط دراستها.

هنالك شيء يستبد بالفكر عندما يلقي المرء نظرة عملية على مختلف المظاهر التي طلعت في القرون الاولى من ظهور المسيحية، الا وهو هذه الوحدة، وهذا التلاحم الذي اتّسم به المجموع ككل. فاذا ما قام بالفعل حدود سياسية بين مختلف الممالك، واذا ما وقعت ماتورا *Mathura* وكابتشي بين ايدي الكوشانا، واذا ما وقعت امارافاتي وقنهاري *Kanhari*، وكارلي بين ايدي تشاتا كارني، فالفروق التي نلاحظها في قطاعي الحياة العامة والخاصة، وبين الشمال والجنوب، او بين الشرق والغرب، في الهند، هي بالحقيقة فروق طفيفة للغاية. فالفضل كل الفضل في هذه الوحدة يعود، اولاً واخيراً، للبوذية، اذ ان معظم مصادر هذه الحقبة هي بوذية في سوادها الاعظم، وتتألف من رسوم وصور بوذية الطابع.

فالمدينة الملكية او الامبراطورية التي تتخذ مثالاً للوصف الادبي او موضوعاً للتصوير والرسم هي، مبدئياً، مربعة التخطيط، يقوم في وسطها القصر الملكي يحيط بها، كما في السابق، سور كبير حصين، تتخلله بوابات ضخمة يعلوها عدد من الطوابق للسكن. وهذه البوابات تتألف من مصراعين كبيرين يدوران على نفسيهما بواسطة رزّة. اما الشوارع الكبرى في قلب المدينة، فتتقاطع عمودياً وتفصل بين مختلف الاحياء والجادات المخصصة للطبقات الاجتماعية الاربع:

الصناع والتجار ، ورجال البلاط والبطانة والحاشية ، ورجال الفن والموسيقى . ويقوم في قلب المدينة أبهاءٌ كبيرة عديدة : للرسم والتصوير ، للموسيقى، للقراءة ، والمطالعة ، والمستشفيات ودور حضانة، ومؤسسات البر، والجامعات وغير ذلك . فالحي الاداري يسكنه كبار الموظفين ورجال الحاشية وفيه يقع بيت المال ، ومكاتب الموظفين وكتبة السر ، وكلهم على مقربة من القصر . اما الاسواق التجارية وما إليها من المخازن والدكاكين والمستودعات ، والمصانع ، فتقوم في حي واحد ، اما البساتين التي ترتفع فيها الأشجار المقدسة ، فهي تقع على الغالب ، في قلب المدينة . ولكل حي من أحيائها هيا كله الخاصة به . كذلك تنوّه هذه المصادر بوجود مخارج سرية ، تحت الارض يستطيع معها الناس الخروج من المدينة او الدخول اليها ، دون ان يشعر بهم احد .

فالقصر الملكي او الامبراطوري ، هو مدينة بذاتها تحتل منها القلب ، تحيط به الأسوار العالية ، ويضم المئات من الغرف والحجر والابهاء والصالات التي يزداد طابعها سراً مطبقاً كلما اقترب الداخل من جناح الملك الخاص . وعلى مقربة من البوابات التي يقوم الجيش على حراستها الصارمة،تقع الاصطبلات ، وصير الفيَلة ، ومرائب المركبات الحربية . والميادين الموقوفة على مصارعة الطواويس والديكة والأكباش . ويأتي بعد ذلك ، الاجنحة الخاصة بولي العهد وغيره من الامراء ، والوزراء ، وأكابر رجالات البلاط ، وصالات للمقابلات العامة . ثم يأتي الجناح الخاص الذي تقوم فيه مراسم تنصيب الملك ، ودار الاسلحة ، ومستودعات الاغذية والمَؤَن ، وغرف الحلى والجوهرات ، واخيراً دائرة مطبخ الملك وما فيها من غرف الطعام ، وداز الحريم، والغرف الخاصة بزوجة الملك الشرعية ، وغرفـــة المجلس الخاص ، وحدائق الملك الخاصة التي تسرح فيها جميع الحيوانات الاليفة : كالقطط والطواويس، والببغاء والأيلة والغزلان والنُمُوس، والبط ، وغير ذلك ، مع احواض وبرك تشيع حولها الطراوة والرطوبة ونعومة الهواء العليل. والجناح الخاص بسكنى الاسرة الملكية يتألف من عدة أدوار يُصعد اليها بسلالم وأدراج من الداخل . اما القسم الخاص بالنساء ، فقد كان محظوراً على أي كان ان يدخل اليه او ان يقترب منه باستثناء الحارس الخاص الذي يقوم بنوبة الحراسة .

وكل منزل خاص هو صورة مصغرة ، من حيث المبدأ ، للقصر الملكي ، يشاد على الغالب ، بالقرب من بئر ماء او ينبوع ، وينقسم إلى قسمين . فالقسم الخارجي منه ، هو خاص برب المنزل يقوم عادة بقربه ، حديقـــة جمعت ما طاب منظره ولذ طعمه من الازاهير والثمار الشهية ، والخضروات ، وأرجوحة . ويدخل في بناء المنزل مواد عديدة ، منها الخشب على أنواعه والقرميد والتراب والحجارة ، والقش وغير ذلك .

اما القرى ، فكل واحدة منها عادة ، وقف على أصحاب مهنة او حرفة واحدة . فالقرية، في مظهرها الخارجي أقل متعة للعين من منظر المدينة . فالمنازل ، فيها ، بسيطة ، مبنية من اللبن المكسو بالقش ، وفيها مبانٍ عامة للادارة المحلية ، كما فيها ما يجب من المعابد والهياكل . وقد تكاثرت المؤسسات الدينية في البلاد ، فقد كانت تقام عادة ، في الريف او في وسط

الغابات والاحراج . فالواحدة تتألف عادةً ، من عدة مبانٍ معدّة لسكن الرهبان والاساتذة ، والمريدين والطلبة ، يقوم في كل منها ما يلزم من الانشاءات الخاصة بالمساكن والمطابخ وغرف الطعام ، وصالات الاجتماعات ، والمطالعة ، والحمامات ، وحواصل للمواد الغذائية ، والاهراء ، وغير ذلك من الاقسام . وينشأ فيها احواض مقدسة وأماكن للوضوء والاغتسال والتطهير . ويقوم في الجامعات ، ليس الرهبان وتلاميذهم ، بل ايضاً علمانيون من كل الاعمار ، ونساء ، وامراء ، حتى والاولاد. ويقصد الناس هذه الاماكن للتبرك بالزيارة والحج اليها او لعقود الزواج. وقد أنشأت البوذية ، ديارات كبيرة لسكنى الرهبان تضم في ما تضمه ، كل مستلزمات الحياة المشتركة : من مساكن وحجر الطعام والمطابخ والمتنزهات ، وغرف للحمامات يصلها الماء الساخن من موقد خاص له من وطأة الحرارة والوهج ما يحمل المستحمين يسترون وجوههم بأيديهم ، او يطلونها ببعض الاتربة ، للتخفيف من وطأة اللهب ، ومعامل تحاك فيها ملابس الرهبان الخاصة ، والمراحيض ، وبئر ، وحواصل للمواد الغذائية وخزنها ، ومخزن للعقاقير والادوية الطبية ، واخيراً منتدى يقوم على أعمدة ، خاص بالاجتماعات المشتركة .

أما قليّات الرهبان ، فقلما طرأ عليها أي تغيير اخرجها عما كانت عليه من قبل ، أي في العهد الماضي ، فهي ، في الغالب ، عبارة عن أكواخ مصنوعة من القرميد او الطوب وكثيراً ما من القش والحشائش ، تستخدم عادة لسكنى النساك ، ومزودة بخدمات ومنافع ، منها حجرة تحفظ فيها النار المقدسة . ويقوم في الحدائق والاحراج ، وعلى الطرقات ، ملاجىء يأوي اليها الحجاج والزوار ، في طريقهم اليها او ذهابهم ، بعضها محفور في الصخر الصلب .

فالمعابد بقيت على ما كانت عليه في العهد الماضي ، فلما طرأ عليها أي تغيير او تبديل يذكر ، انما زاد عددها في البلاد ، كما زاد بعضها اتساعاً . فمعبد امارافاتي كان يغطي مساحة ، قطرها ٥٠٠ متر . وكان بناؤها يتم وفقاً لطراز هندسي مرعي الاجراء . فبدلا من مبنى ضخم ، قليل النوافذ ، نشاهد في هيكل سانشي (الذي يعود للقرن الثاني ق . م .) وفي هيكل امارافاتي (القرن الاول او مطلع القرن الثاني للميلاد) مبنى مجهزاً بفتحات بشكل عَجَل له عوارض جانبية . وهـذا النوع من البناء كان يساعد ، من جهة ، على تحمل ضغط القسم العلوي بشكل نصف دائري ، كما كان له ، في البوذية رمز خاص ، اذ ان العَجَل يرمز ، عند البوذيين لتعاليم ناموسهم . وكان منظر الهيكل *Stupa* قد طرأ عليه بعض التغيير ، فأصبح أكثر ضخامة ، من قبل ، والاساس الذي يقوم عليه ، أعلى كذلك . اما الدرابزون فكان يزداد زينة وزركشة ، كجسم الهيكل نفسه ، اذ كانوا يفرشونه بمربعات من الحجارة وبلاط عليه نقوش نافرة . اما الاروقة *Torana* التي كانت تقام امام المعابد والهياكل او عند الممر الذي ينتهي الى الباب الرئيسي للمدينة ، فقد لحقت بها بعض التغييرات ، بحيث أصبحت ، في أواخر هذا العهد ، قريبة من شكل القوس الذي سيعم استعماله فيما بعد ، كل أقطار الهند الغربية .

وقد استمروا في تشييد المعابد من الخشب ، او ينقرونها في الصخور الصماء المطلة على الوديان ، بشرط ان يحمل الخشب الذي يستعمل فيها رسوماً ناتئة . وكانت هـذه المعابد تقسم في وسطها

الى ثلاثة صحون ينفصل بينهـــا صفان من الاعمدة ، أكبرها أوسطها ، وينتهي المعبد بشكل حنية . ويزينون جدرانه بالنقوش والحفر الناقر ، ويقوم في الجدار الامامي ، ثغرات عـلى شكل أهلة ، كما نرى ، بعض الاحيان ، (في معابد كنهاري وكارلي ، مثلاً) رسوماً وصور أشخاص محفورة حفراً ناتئاً . اما أكاليل الأعمدة فتزدان بصور حيوانات متشابكة يعلو صهوتها اناس ، ولعل ذلك آخر أثر من آثار الدولة الأخيلية .

والهندسة المعمارية الطمانية ، تبنّت ، هي الاخرى ، الكثير من هذهالعناصر . فالأبواب صار يعلوها عتب او إفريز بشكل نصف دائري ، كما أكثروا فيها من الدرابزونات وأكاليل العواميد ، وهي عناصر توفر وجودها في القصور كما وجدت في المنازل الخاصة . ويتعاقب ، في هذه المباني ، اهلم الابواب ، الرواق ، ونصف الدائرة . والابواب ، هي عادة ، من مصراعين ، كذلك النوافذ والفتحات وتتخذ شكل قوس هندي تشبهاً بطراز العهد الماضي . وتطالعنا ، أكثر فأكثر ، مبانٍ ، تحيط بها الاروقة القائمة على الاعمدة بحيث يشتد الاقبال عليها في العصور التالية ، وفيها تعقد ، عادة ، الاجتماعات العامة او الخاصة . وصالة الاجتماع هذه ، تزدان من الداخل بالنقوش والدرابزونات والاعمدة ، أسوة بما هي عليه من الخارج . وفي غرف النوم ، تتدلى ستائر من السجاد ، شدّت أطرافها بمسامير دقّت في الجدار او في العواميد .

اما الأثاث والمفروشات ، فهي ، في هذا العصر ، أكثر زينة وزخرفاً منها في العهد الماضي . وهو يتألف ، على الغالب ، من أسرّة ومقاعد وكراسٍ ، لها متكأ الظهر او الساعدين ، وقد تخلو منه أحياناً ، ألبست أغطية ، كما نرى اسكملات وخزائن اتخذ في صنعها مواد كثيرة متنوعة : كالحجر ، والمرمر ، والخشب ، على أشكاله ، ألبس بعضها صفائح ورقاق من العاج المنقوش او المخرّم ، رُكزت في الخشب بواسطة مسامير صغيرة من النحاس . ونرى بعض الاحيـان ، مقاعد ، حلّ فيها العاج محل الخشب ، وقد حُفرت من كلا وجهيها . وتبرز احياناً للعيان بعض معالم ألوان الرسم الذي كان عليهـــا (ابيض واسود) ، او صفائح من اللك أنزلت في الأماكن المخرّمة . والغالب على الظن ان مقاعد هـذه الحقبة كانت تشبه ، الى حد بعيد ، المقاعد التي وجدت في مخبأ بغرام ، كما يستدل من رسوم الشخوص المحفورة ، او من الصور المرسومة على الجدران . وكان يبدو على بعضها ، بصورة واضحة ، تأثير هذا الفن الغربي ، ولبعضها قوائم تشبه اقدام الحيوانات .

اما المصوغات والجوهرات والحلى وكل المصنوعات المتخذة من المعادن ، فقد سجلت في هذه الحقبة ، تفوقاً فنياً ، لم تعرف مثله في العهد الماضي . فالصندوق الخاص بحفظ بقايا الاولياء ، والكؤوس ، والكوب العريضة الفتحة التي عثر عليهـــا في تاكسيلا ، تقلّد كلها ، أشكالاً هلينية ، بعضها غني ، فاخر ، سني ، من الذهب المنقوش او المرصع بالحجارة الكريمة والفصوص الثمينة الكبيرة ، والبعض الآخر اتخذت مادته من الفضة او النحـــاس . اما ادوات المطبخ العادية ، فتتألف من أشكال وأنواع مختلفة : فالكؤوس تبدو احياناً شفافة ، وكأنها من هذه الزجاجيات الاسكندرانية الصنع ، تشبه الى حد بعيد ، هذا الشكل الذي وجد في بغرام

وكابتشي . وراجت صناعة السلال أيما رواج . فالى جانب مقاعد الزينـة تختلف اليها السيدات لتصلح من هندامهن ، نجد كثيراً من الاسكملات تصنع من الخيزران ، كما تصنع منه صوان وأطباق تستعمل لتقديم الفاكهة : كالسلال ، والمراوح ، وكلها تصنع من الخيزران المحبوك .

اما ادوات الزينة ، فهي الادوات ذاتها التي كانت ، قيد الاستعمال في العهد الماضي ولا سيما المرايا منها . فالمذبّة ، والمظلة ، والعَلَم ، هي من سمات الاشراف الذين يؤلفون حاشية الملك وبطانته ، في حله وترحاله .

وللموسيقى ، في هذا العهد شأن لا يقل عن شأنها في الماضي . فحفلات الطواف ، والمسيرة والمواكب الاحتفالية والزياحات تجري كلهـــا على انغام الموسيقى تنطلق من اجواق المغنين والمطربين والمطربات ، يسيرون كلهم على وقع الانغام . فالامراء والملوك ، في خدورهم يقيمون حفلات راقصة تشترك فيها نساؤهم . اما القانون فهو آلتهم المفضلة .

في المنزل العادي ، كما في القصر ، غرفة خاصة بالاسلحة ، عدة الحرب والقنص ، ولكل من هذه القطع رمزها الخاص ، وهي تمثل دوراً هاماً في حياة الملك وحياة النبلاء وسراة القوم . فعلى كل محارب ان يقتني له خمس قطع ، لا مندوحة له عنها : السيف والقوس ، والفأس الخاص ، والنبّوت ، والرمح او المزراق ، والمِجَن . فهي كلها تستعمل وفقاً للهدف وعلى نسبة بعده : ابتداءً من أسلحة الرماية وختاماً بالسلاح الابيض . بعض هـــذه الاسلحة جميل الصنع ، غالي الثمن ، له مقابض متخذة من عظام وحيـــد القرن والجاموس ، او من العاج والخشب المطعم بالحجارة الكريمة . وهي تختلف شكلاً ونوعاً . والى جانب هذه القطع الخمس يمكن لرجل الحرب ، ان يقتني له أشياء أخرى ،منها خطّاف مثلث الشوكات ، وسيف قصير ، عريض النصل ، وخنجر وحربة . ويقتني هواة الصيد شباكاً وأحابيل وأنشطة من أنواع شتى تلائم طبيعة الطرائد المنوي صيدها . ويستعملون في نشر العاج أنواعاً شتى من المناشير .

اما وسائل النقل وعدته ، فهي اوسع واوفر مما كانت عليه في العهد الماضي. فهي تعوّل على الحصان والفيل والجمل ، في المناطق الشمالية الغربية ، يصنعون لها اسرجة بسيطة للغاية. فسراج الحصان لا رِكاب له ، على ما يظهر ، فيستعيضون عنـــه بالرباط . ويتّخذ في سوق الفيلة من معقوفة ، وللحصان : اللجام والسوط ، والمركبات ذات العجلتين يجرها زوج او زوجان مـن الخيل يفصل بينها عَريش العرَبة او مِجرّها . والعربة عرف استعمالها العهد الماضي انما احتفظ بها للملك ، وهي تحاكي ، في صنعها ، المركبات التي جرى الرومان على استعمالها ، وقد زُهد بها منذ القرن الثـــاني وسقط استعمالها ، إلا في الايقونوغرافيا الخاصة ببعض الآلهة ، كإله الشمس وسوريا *Sūrya* . ونرى في المقاطعة الواقعة الى الشمال الغربي من الهند عربات تجرها الخِراف . اما العربات التي تبدو بشكل صندوق مربع ، والمغطاة بالهوادج فتجرها الثيران المكدونة تحت النِير ، وهي تستعمل لنقل الأسر والعائلات،وفي النقل التجاري، كما هي الحال معها اليوم. وبعض الاثقال والاحمال ترفع، مُعلّقة على القضبان، وتحمل على الاكتاف او في قِفاف وسلال الحالين.

والملاحة التي اتسعت مرافقها كثيراً وتشعبت، استخدمت قوارب كبيرة والسفن ، يقوم على

صنعها نجارون ، شأنها في ذلك ، شأن المركبات والعربات . هيكلها يتخذ من قشر الخشب السميك او من جذوع الشجر بعد تفريقها ، واطرافها في المقدمة والمؤخرة مرتفعة ، تستخدم في تحريكها المجاذيف .

الحياة الاجتماعية

واقتصاد الهند نهض ، في هذا العصر ، كما في الماضي ، على التجارة والصناعة والزراعة والحياكة ، وصناعة الحديد وجمع العاج وتوضيبه ، كل هذا كان موضوع حركة تصدير عرفت ازدهاراً كبيراً اذ ذاك . فصيانة الطرُق ، وقيام المحطات والملاجىء على جنباتها ، ومراقبة المجاري النهرية وتنظيمها ، وانشاء الموانىء البحرية ، كل ذلك وما اليه ساعد على تنشيط الحركة التجارية في الهند التي عرفت في هذه الحقبة عهداً من الازدهار لم تعرفه من قبل ، أقله بين الطبقات الحاكمة .

فالمعلومات التي تمدنا بها مصادر العصر في الادب والفن ، لا تصف لنا سوى حياة الملك وحاشيته : فالحياة الاجتماعية التي تتطبع ، أكثر فأكثر ، بالتسلسل الطبقي ، محورها الاول والاخير ، نهج الحياة الملكية . فالملك هو النموذج الاكمل ، والمثل الاعلى للمجتمع اذ ذاك ؛ كل شيء مرتبط به او متوقف عليه ، وكل شيء وُجد او صُنع لأجله او الصفة الملكية التي له . فكل الاصداء التي وصلتنا من هذا العهد ، تعكس تماماً هذه الذهنية او العقلية التي تربط كل شيء بالملك وتردّ اليه كل شيء . فالشعر يعبق بجو البلاط . فالملاهي والالعاب الرياضية هي من نفحات الآلهة التي يمثلها خير تمثيل وأتمه : والعلاقات الدبلوماسية والمبرات الخيرية والدينية لا وجود لها بدونه ؛ والفنون الصناعية والموسيقى هي من وحي رغائبه واستجابة لطلباته ، و « العلوم » والمعرفة لم يُعلن عنها الا لخدمته . ولهذا راحوا يصورونه بطلاً من الأبطال ، تمت له أسباب العلوم والفنون ، واستبحر في أفانين المعرفة البشرية ، يمارس أشرف الهوايات وأمثلها ألا وهو الرمي بالقوس والنشاب ، واقف على مكنونات السياسة وأسرارها ، لا تفوته خدعة من خدع الحرب ، مطلع على كل ما يؤمن سير امور مملكته ، مُشرف على ادارتها ، ابتداءً من التجارة ، يهيمن على نظام « الكون » ، فهو منه المحور ، وقطب الدائرة .

حاكم فرد مطلق ، أوتي الكمال ، وبطل أمثل ، وسياسي محنك ، وقائد حرب مجرّب ، هذا هو الملك كما يبدو من خلال الصورة التي ترسمها له النصوص الأدبية ، وهذه هي الشخصية المثالية التي تتمثل على أتم وجه من خلال الـ *Kshatrya* . فهو الى هذا كله ، وبعد هذا كله ، ممثل الالوهية على الأرض وتجسيمها الحسي . ومع ان انتقال الحكم هو أمر وراثي ، فالملك شخص قدّرت ظهوره الآلهة منذ الازل ، وهيأته الأقدار ، يحمل تكوينه علامات مفرّدة ، مميزة ، منها الحجى ، او العقل ، وهو من ألزم صفات الكهنة ، أو ان خارقة من الخوارق الطبيعية تظهره للملأ بكونه الوحيد ، الخليق بأن يجلس على عرش الملك . وعندما يتم الإعلان عنه يمسح بالدهن ، ويكرّس ، وينصّب في حفلة رسمية ، فيها من المراسم والطقوس ما فيه الكثير من الكنايات والتوريات الرمزية . وهذه المراسم توليه ليس فقط السلطة العليا ، وتؤمّن له استقرار

الأمر بين يديه، بل ايضاً تجعل منه شخصاً إلهياً، مساوياً لرب الأرباب، وملك الملوك، كفأً عدلاً لأندرا *Indra*، والذي يعادل كرامةً ويجسمه بصورة حسية، على الارض كما هو اندرا في السماء. فالملك هو قبل كل شيء الـ *Kshatrya*، يتفرّد عن غيره بقدرته الفائقة، ومهارتـه على الرمي بالقوس والنشاب. فهو يعلو الجميع ويتربع دَسْت الملك عرشاً رفيعاً، ويرتدي خفاً (صندالاً) يرمز إليه في غيابه، وينوب عنه في حكم المملكة. فهو وحده يملك «الجواهر السبع» التي هي من حق الملك وحده؛ وهي: زوجـة، ووزير، وحصان، وعرش وعَجَل *Chakra*، ومِظلّة بيضاء، ومِذَبّة تنتهي بذنب القُطاس (بَقَر وحشي له ذنب الفرس).

كل ما حوله ينمّ عن البذخ والزهو الشرقي. فهو في بلاطه بين بطانة كبيرة وعدد لا يحصى من الحَشَم والخدم. فحياته مليئة بالأعمـال الجيدة، كما في العهود السابقة، وطريقة استعماله الوقت وتوزيعه على ساعات النهار، موضوع طالمـا تعرض له الكتّاب ووصفته آداب العصر. فيومه مقسم الى ثماني «ساعات» لكل من الليل والنهار، يضبط تعاقبها بالدقة اللازمة مِزْوَلة وساعة مائية، من السهل أن نكوّن لنـا عنها فكرة صحيحة من خـلال وصف «علمي» وصلنـا من أدب ذلك العصر؛ فهذه الساعة، تتألف أساساً من طشت أو جنطاس كبير من النحاس يُملأ ماءً تطفو على وجهه حبات صغيرة من حجم واحد، دقيقة الغـاية، مثقوبة من الأسفل، وفقاً لبعض المعادلات الحسابية، فالماء يدخل في الوقت المعين في الحبة من الثقب الذي تحمله، وعندما تمتلىء من الداخـل تهبط الى أسفل الحوض فتحدث فيه رنّة، وعندئذ يقرع الحارس أو الخادم الواقف بإزاء الحوض، طبلة على مقربة منه إشعاراً منه بالحضور بالوقت الذي عبر وانقضى.

يستيقظ الملك في آخر هَزيع من الليل، أي عند الساعة السادسة صباحاً، وهي ساعة شروق الشمس في كل الفصول، ويقوم حالاً، ببرامج التطهير، ويقدّم القرابين للنار المقدسة، ثم يستقبل حاجبه والقيّم على امور منزله، ثم يتجه الى ديوان مظالمه، حيث يستمع الى شكاوى رعاياه ومطالبهم وقضاياهم، ليخلو بعد ذلك، الى محل سرّي مُنزَوٍ، مع وزرائه، للتداول وتبادل الرأي. على قراراته يتوقف خير المملكة ورفاهها، وبعد أن يكون نظر ومعه وزراؤه في شؤون الدولة ومهـام الحكم والادارة ينصرف ليقوم بقسطه من الألعاب الرياضية، وعند الظهر يستحم ويعود الى جناحه الخاص، فيتناول وجبة الطعام الذي يهيأ له بكل عناية، تحت مراقبة خدم مجربين، دوماً على أتم استعداد لتذوق الأطعمة قبل تقديمها للملك، تسييجاً حول صحته ليكون في مأمن من السموم المدسوسة. وبالرغم من هـذا التحفظ، والاحتياطات المشددة، ينصح له الاطباء بتناول الترياق ضد السم، ويحمل الحلي والجوهرات لكي تمنع عنه فعل السموم. وبينا هو منهمك في تناول الطعام، تفِد عليه نساؤه وزوجاته، بعد ان يخضعن لتفتيش دقيق، لئـلا يخفين تحت ملابسهن سلاحاً أو سموماً، ويأخذن بالترويح عنه بالمراوح، وينضحنه بالماء والطيوب والعطور. وبعد تناول الطعـام يترك له فرصة لمداعبتهن، ثم يعود للديوان يتابع النظر في شؤون الدولة والرعية. وبعد ان يرتدي ثياب الميدان، ويتخذ عدته،

ينصرف لاستعراض حرسه ، وما لديه من فِيَلة ومركبات وأسلحة وعتاد . وعند المساء يقوم بواجباته الدينية ، ثم يخلو الى جناح خاص يجتمع فيه الى عيونه وأرصاده ، يستمع الى تقاريرهم السرية ، ثم يعود الى جناحه الخاص، حيث تنضم اليه زوجاته فيتناولوا معاً وجبة العشاء . وبعد العشاء يحضر حفلات موسيقية تنظمها الفرق الموسيقية التابعة للبلاط ، ثم ينصرف للنوم والراحة ليستيقظ في صباح اليوم التالي ، وهو على خير ما يكون من نشاط .

وهذا النهج النظيم لحياة كل ظواهرها تنم عن الانتظام ، يفرغ في جو ومحيط ملؤهما البذخ الشرقي والزهو المعروف . فالقصر هو محور النشاط في حياة الدولة . يموج بالعديد من الناس ، لكل فرد منهم مهمته الخاصة ودوره المعين . بعضهم يعمل بمعية الملك مباشرة ، بينما ينصرف فريق منهم لتأمين اسباب العيش الرغيد والرفاهية والطمأنينة للجميع ، وهي طمأنينة تبعثها في النفس ما يقوم على مداخل القصر ومخارجه من الحرس ، والحرس المؤلف من النساء الذي يحف دوماً بالملك ، والذي يذكـّرنا بهـــذه النساء المسترجلات (*Amazones*) اليونانيات الاصل اللواتي كثيراً ما جاء ميغاستيلس على ذكرهن، في القرن الثالث ق . م . أكثر اقسام القصر الملكي ازواءاً هو قسم الحريم حيث تعيش نساء الملك وسراريه . فالملكة وحدها زوجته الشرعية، ولها جناحها الخاص . ولا يسمح لأي رجل بدخول دار الحريم إلا للملك وللحارس القديم الذي يُتخذ دوماً من الخصيان، ذي الشعر الذهبي، ويرتدي قفطاناً أبيض ويحمل بيده خيزرانة . فهو يسير الهوينـــاء بين شقق الحريم يندب فعل الشيخوخة وينتحب لسوء حظه وقسمته الضِيزى ويشكو من ثقل المسؤولية التي تقع عليه في السهر على راحة هذه الحسان الجميلات . اما شغل هؤلاء النسوة الشاغل ، فالاهتمام بهندامهن وزينتهن والتخضب والتضمخ بالطيب والعطر ، والظهور امام المرايا واسترقاق النظر الى بعضهن البعض ، والى جانب كل واحدة ، عدد من الوصيفات يأتمرن بأقل اشارة تبدو منهن . ولكل من هذه الوصيفات عمل خاص : هذه تعنى بدلك جسم سيدتها وهي مستلقية ، نائمة على سرير من الرياش الوثير ، تحمر لها أخمص الاقدام وتقدم لها الحلي والجوهرات وتساعدهـا على لبسها وارتدائها ، وتمدها بما هي بحاجة إليه من التُبل والافاويه ، وقماقم المراهم والمساحيق ، وسلال الاقمشة الحريرية ؛ بينما فريق آخر منهن يعمل على ترطيبهن بالمنعشات والمرطبات ، والترويح عليهن بالمراوح والمِذبّات ، في حين تقوم جوقة من الراقصات برقص إيقاعي على انغام الموسيقى الصادحة . ونرى في قسم الحريم ، احياناً ، نساء أقزاماً بثياب الرجال . وبعد ان تطمئن هذه النسوة الى زينتهن بالرضى عما تعكسه المرايا منهن ، يتجهن الى حديقة القصر والى ما فيها من أفناء عديدة بصحبة وصيفاتهن ، فيختلفن الى الاكشاك الظليلة وافياء اشجار الموز ، يرتشفن بعض المشروبات او يتناولن أقراص الحلوى ويتلهين باقتسامها مع أسراب البط والببغاء والاوز الاليف . وهذه المرايا تتألف من اقراص من المعدن الصقيل تنتهي بمقبض من العاج البضّ . ثم يأخذن بضفر باقات من أغصان الكوكو ، رمز الحب المشبوب والربيع الأفيح ، او يلعبن بالكرة . وكثيراً ما يأخذن بالترطيب والتبريد عن أنفسهن بالاستسلام للأراجيح المنصوبة في الظلال الظليلة ، ويأخذن باللعب ، ويستسلمن للعبث البريء بعيدات عن

كل عين او رقيب ، يقوم على حراستهن من بعيد ، فرق لا حصر لها ولا عد من الحرس يسهر على امن القصر وسلامة من فيه . وكثيراً ما ترافق الملكة وغيرها من نساء الحريم ، والسراري والمغنيات والقيان والمطربات ، الملك في غدواته وروحاته ، خارج القصر . وتعرض مناسبات كثيرة يخرج فيها الملك من قصره ، يحف به عدد كبير من رجال الحاشية والبطانة والخدم ، في طليعة سَرِيّة غزو يقوم بها ، او حفلة صيد كبيرة او في زيارة حج التبرك لدى بعض المعابد والمزارات المشهورة ، او لزيارة وليّ اشتهر بالتقوى والخشوع ، ولترأس حفلة تأسيس معبد او هيكل . وقد يخرج الملك سيراً منه على الاقدام ، او ممتطياً صهوة جواده ، او راكباً على ظهر الفيل ، يتقدمه حامل سلاحه ، وفوق رأسه مِظلة تردّ عنه وطأة الشمس المحرقة ، تحيط به حاملات للمذبات ، وامرأة عُهد اليها بحمل سيفه المُغْمد ، ورجل يحمل ، مشدوداً الى صدره ، خِفّ الملك ، وغيرهم من الخدم حَمَلة الاعلام والبيارق ، ويسير في اثره ، موكب طويل يتألف من رجال حاشيته وأعضاء اسرته ، ترافقهم جوقة من اهل الطرب والعزف ليشنفوا آذان الملك وصحبه ، حاملين آلات الطرب على أنواعها ، ولا سيا القانون منها والطبل .

فالأعياد ، في هذا العهد، كما في السابق ، عديدة ، يحتشد الناس لحضورها ومشاهدتها. بينها الأعياد الدينية والمدنية ، يضاف اليها الاعياد التي تفرض إحياءها ، بعض ذكريات خاصة في حياة الملك : كعيد مولده ، وذكرى ارتقاء العرش ، وولادة ولي العهد ، والفوز بنصر مبين ، وفتح أغر ، كل ذلك على نطاق واسع من الزهو والبذخ ، فتنتصب السُرادقات الثمينة لمناسبة العيد او الاحتفال ، وتقام الاروقة المزدانة بالاعلام ، وينصب العرش العاجي ، وتهوّم المراوح والمظلات والمذبات المتلألئة بما فيها من اللآلىء والجوهرات . ومن المشاهد المستحبة لدى الجماهير ، مواكب العربات والمركبات تخرج في عرض عام ومَسيرة طويلة ، وحفلات الكرنفال .

وبمعية الملك، يسير الحاجب، والوزراء ، والخصي العجوز الذي يتولى حراسة جناح الحريم، وحرسه من النساء ، وفرق الشرطة ورجال السر والمباحث ، وهذه الحشود من الخدم والحشم الذين يعهد الى كل واحد بينهم بمهمة خاصة ،فيحمل هذا صناديق الافاويه والعطور وذاك المرايا، وآخر علب الجوهرات، وآخر المذبات والمظلات ، وبينهم فرقة الاقزام والحُدْب والقزمات . كذلك في رفقته دوماً صياد هو دوماً على أتم استعداد لنصب الافخاخ والشباك والاحابيل . هنالك حراس مدججون بالسلاح يقومون على حراسة الغرفة التي يعقد الملك فيها مجلس وزرائه. وفي الموكب الملكي سائق عربة الملك ، وقائد الفيل الملكي وسائسه الذي يهتم كذلك بجواده ويجعله دوماً على أهبة الاستعداد، ومهمتهم في هذا كله لا تعدو مهمة خدام الملوك في الاجيال الوسطى.

فالقصر هو قطب الحياة ورحى الحركة الناشطة في البلاد، يحتشد في باحاته الخارجية الصاغة وتجار الجوهرات وما اليهم من صنّاع ومساعدين الذين يقومون باستمرار بفحص مجوهرات الملك واختبارها وعجم عودها . يقضون نهارهم في تركيب الحجارة الكريمة واصلاح ما يطرأ من خلل على الحلي ، وصنع الجديد منها ، او يُعدّون للملك الجوهرات التي يحملها او يعدها لحفلة قريبة . وعلى مقربة منهم الخدّام في حركة دائمة ، يغدون ويروحون لتأمين علف الماشية والحيوانات من

أفيال وخيل وأكباش المصارعة ، والعصافير والحيوانات الأليفة .

والحرف والمهن ، كالوظائف الحكومية ، تنوعت هي الاخرى ، وتخصصت ، واخذت الطبقات الاجتماعية تتميز أكثر فأكثر ، الواحدة عن الاخرى وتتفرّد عنها . فطبقة فيكيا تضم بين ثناياها : الفلاحين والتجار والصيارفة ، وأخذت تنعم بالامتيازات التي كانت وقفاً من قبل على الـ *Kshatrya* وأصبحوا ، على شاكلتهم ، قادرين ان يقدموا الذبائح ، ويدرسوا الكتب المقدسة ، ويقدموا القرابين للبراهمان . كذلك كان من واجبات الـ شودرا ، ان يقوموا دوماً بخدمة البراهمان ، وان لم يكن لهم نظرياً أي حق ديني ، فهنالك دلائـــل واضحة تشير الى اندماجهم تدريجياً في الطبقات الثلاث الاخرى التي كانت وحدها ، في العهد الماضي ، تمثل العرق الآري الاصيل . فالى جانب الفلاحين والارقاء المشدودين الى الارض ، نرى قوماً يحترفون الصيد وتربية الماشية ، يؤمنون معيشتهم كما يستطيعون ، من الاعمال اليومية ، التي يقومون بها ، وسكان الادغال ، ونصف العريانين ، وقاطعي الحشائش ، وقادة المركبات والعربات ، وحاملي الاسلحة ، وسائقي الفيلة ، وسوّاس الخيل ، وحمَلة الاعلام والمظلات ، والمذبات ، وحملة سيوف الملك وخَدمة القصر الامبراطوري ، وسراة القوم والموسيقيون ، والمهرجون ، والراقصون والمطربون . ويدخل في هذه الطبقة الدنيا من السلم الاجتماعي ، في الهند ، الاغراب والاجانب .

فاذا كانت معلوماتنا قليلة ، نادرة ، حول هذه الطبقة الاجتماعيــة السفلى في الهند ، فنحن أوسع احاطة بوضع الطبقات الاجتماعية العليا . فالحَبَل يحتفل به عندهم ببرامج وطقوس عديدة ، لا سيما عندما تدخل الحامل شهرها الخامس . وعلى مثل هذا ، تنعم حوادث الولادة ، وخروج المرضع لأول مرة بعــد الوضع ، واختيار الاسم للمولود الجديد ، والحفلة التي تقام بمناسبة قص الشعر ، ومراسم الزواج والمآتم والدفن التي أصبحت منهجية أكثر من ذي قبل . كل مظاهر الحياة العادية ترافقها مراسم وطقوس دينية . فعبادة النار تُستبدل بعبادة الـ *Sandhya* ، أي بعبادة الشمس المشرقة في الصباح ، ومراسم الوضوء والتطهير ، وتمارين التنفس والاستـلام التأمل والتجريد . كل يوم يجب تقديم خمس تقادم تكرّس تباعاً : للنار والبراهمان ، والآلهة ، الخ . والمراسم المتعلقة بالضيافة ارتدت طابعاً مهماً كالمراسم الخاصة بالغذاء والطعام . فعملية التغذية تكاد تصبح عمليـــة دينية طقسية : تبتدىء بتلاوة البركة على الاكل وتنتهي بصلاة الشكر . ومراسم الصوم هي كفّارة عن الذنوب والمعاصي والخطايا ، وفرائض الصوم والقطاعة الموقتة يراد منهـا تأمين بعض الاغراض والاهداف الخاصة . فالمنع الديني يحرم بعض اللحوم والبقول والثوم والبصل وبعض المشروبات ، بينها مشروب *Sûrrâ* .

حياة البراهمان والكشاتريا والفيكيا تتوزع كما في العهد الماضي بين أربعة أدوار او مراحل : مرحلة الطالب ، مرحلة رب البيت ، مرحلة الزاهد ، مرحلة المتنسّك (راجع المجلد الاول[1] ، ص ٦١٩) . لم يتبدل شيء من هذا كله ، ولن يطرأ عليه أي تبدل في القرون التالية ، وقـــد راحت البوذية تقتبس ، هي الاخرى ، من التنظيم البراهماني ، وهي ظاهرة جديــدة طريفة . فبعد ان مرّت بطور تاريخي تميز بهذا التضامن الذي شدّ العلماني الى الراهب ، راحت البوذية ،

(١) الشرق واليونان القديمة ـ منشورات عويدات .

بدورها ، نرى في حياة الفرد أربعة ادوار متتالية : دور رب البيت – دور المبتدىء – دور الراهب المستعطي او المتجول – دور الزاهد المتنسك . كذلك الدعوة البوذية التي كانت غير منتظمة لا بل فوضوية ، اخذت الآن طابع التسلسل والارتباط ، من المبتدىء الى الدرجات العليا ، مع اعتمادها على العلمانية التي لم تلبث ان أصبحت أشبه شيء بعلمانيين خاضعين لقانون رهباني ولعدد قليل من الفرائض . وقد حدث ما لا بد من حدوثه ، في مثل هذا الوضع ، الا وهو ظهور رؤوساء وطلوع قادة يلتفون على نسبة ما فيهم من مؤهلات ، وليس بنسبة سنهم كما كان الأمر في العهد الماضي . ولكي يحافظوا على النظام الرهباني ، كان لا بد من وضع فرائض وقوانين اخذت تقسو وتشتد وتنتظم مع الزمن ، وتنظم كل تفاصيل الحياة المشتركة . وهذا التسلسل الاجتماعي الذي لا بد منه ولا ندحة عنه امام التوسع والانتشار الذي بلغته البوذية ، تضاعف بتسلسل ديني وروحي لا يصل اليه إلا كل من تفرّد بالروح الرهبانية الحقة وتقيد بفرائضها . وهذا الانفصال بين العلمانيين والرهبان ، دفع بالبوذية ، في ذلك العهد، لتستحيل الى شيء من الفلسفة والى مقالة تجادل وتناقش .

التطور الفلسفي والديني

وهذا التحول يطرأ على البوذية بزدوج ، من الناحية الفلسفية والدينية بالتطور الآخر الذي اخذت به البراهمانية . فالحقبة هي من اخصب الحقب التي عرفها الادب المقدس او القانوني . فالملاحم الهندية الكبرى هي في سبيلها الى التكوين والبروز ، وكذلك سِيَر بوذا او ياتاكا . فالتعالم الفلسفية لدى البراهمانية *Darçana* تطلع لنا . أصولها الكبرى ، وهي : *Mîmâmsâ* ، و *Nyâyasûtra* ، و *Vaiçeshika Sûtra* ، و *Sûtra* بينما يطلع علينا أشهر الادباء الجدليين الذين عرفتهم البوذية ، امثال : *Vasumitra* و *Açvaghosha* ، و *Vasubandhu* ، و *Asanga* و *Aryadeva* ، و *Nagârjuna* . وكلهم يشاركون في المعارك العنيفة في سبيل نشر البوذية . وفي هذه الحقبة تطلع علينا النصوص الاساسية ، منها ديفي الافادانا (القرن الثالث) وساتياذيديستر1، وتاكاكا مالا وغير ذلك . كذلك تأخذ البوذية المبادرة في حقل الفنون . فليس من باب الصدف قط ، بل نتيجة لهذه السيطرة السياسية في شمالي الهند الغربي ، ان نرى الهندو – الاغريق يعتنقون البوذية . وليس من المستبعد قط ان يكون حدث تمازج او تفاعل بين هذه الفلسفات : الغنوصيّة والمانيّة والتوحيدية والتي كانت مقاطعات الهند الشمالية مسرحاً له فشهدت حركة فكرية ضخمة أتأمت الميتافيزيقا او فلسفة علم الوجود ، بينما لم تكن البوذية ، الى ذلك العهد ، سوى تعالم اخلاقية تلاحظ سلوك الانسان . فالعناصر الهلينية والسامية والايرانية من جانب ، وقرب المؤثرات الصينية ، من جانب آخر ، كل هذا ساعد جدّياً على حدوث تحول عظيم . فالديانات الشعبية تتركز وترسخ لتنضم للديانات الرسمية وتتغلغل في السواد ، في البوذية والبراهمانية وتمدها بعناصر جديدة ، هو هذا القلق وهذه الروح الرمزية وهو شيء لم يكن معروفاً من قبل . وهكذا تتبادل البوذية والبراهمانية القبس الواحدة من الاخرى فتنزع كل واحدة منها نحو الشمول الكلي او نحو الروح المسكونية .

ان بُعد كرازة بوذا في الزمن ، حمل أتباعه ومريديه على اتخاذ موقف تجريدي ، فلفي أكثر فأكثر . فراحوا يحاولون تحديد الناموس البوذي عن طريق نظرات تجريدية وليس بالاعتماد على بعض حوادث معينة من حياة المعلم . وتحت ضغط هذا الفوران الفكري الذي سيطر على الافكار ، في ذلك ، راحت البوذية تحاول ألا تحصر نفسها في الاخلاقية وفي خدمة الفرد بعد ان أصبحت فلسفة عامة وروحاً مسكونية . فالخلاص الفردي يستعاض عنه بخلاص الجنس البشري المتضامن مع كل ما في هذا الوجود .

وفي القرن الثالث تقريباً ، حدثت الوقيعة بين هذه الفئة التي تمثل البوذية المتمسكة بأهداب التعاليم الاولى ، وبين البوذية الحديثة او المستجدة التي جاشت بمثل هذه الحركة التي تتمطّى بها المدنيات المجاورة للهند والتي كانت احدى مفارقات هذا العصر . فمنذ الآن فصاعداً تعرف الفئة الاولى باسم: هينايانا، أي الباب الضيق بينما أطلق على الثانية اسم مهايانا او الباب الكبير أو الواسع. وستعرف كل فئة مصيراً مختلفاً عن الاخرى كما ستخرج كل منها بنتائج مختلفة سواء في الهند او في غيرها من الأصقاع الشرقية .

فالمهايانا التي سادت في جنوبي الهند وسيطرت على المنطقة ، التزمت جانب تقريرية سلبية ارتكزت على جدلٍ آمر ، شديد الشكيمة . وقد كان خير من يمثله ناغارجونا ، الذي عاش بين ١٥٠ ــ ٢٠٠ بعد الميلاد . لا نعرف شيئاً يذكر عن سيرة هذا الخطيب الجدلي الذي لا يُضام ولا يرام . فالذي نعرفه عنه انه من مقاطعة بيرار، في الدكن الأوسط، الذي كان اذ ذاك، جزءاً من مملكة أندهرا . فقد ترك لنا عدداً كبيراً من المباحث بينها بحث بعنوان: « في الطريق الوسط»، وغير ذلك . فالموقف الذي وقفه يقارب القول بالعَدَمية .

وقد سار على نهجه ، ونسج على منواله ، تلميذه : أرياديفا السنغاليزي العرق والدم(النصف الأول من القرن الثالث) ، ثم تعود هذه النظرية للظهور ثانية ، في القرنين السادس والسابع . محور تفكيره يرتكز حول مشكلة الخواء أو العَدَم ، ونظرية النسبية الشاملة ، أو اللاجوهر . فالمشكلة في حد ذاتها ليست جديدة ، اذ رأينا في الحقبة السابقة البوذيين يقولون ويعلمون: « كل شيء خاوٍ خالٍ » ، غير أن ناغارجونا يطبق هذا القول على عدم وجود النسبي . فهو يمضي في نفيه بحيث يصل الى أفكار ونظريات من هذا الشكل : « عندما نقر بوجود الأشياء التي استولدها الخيال ، فقد فقدت هذه الأشياء وجودها » .

بين الأشخاص البارزين الذين اطلعتهم المهايانا ، في القرن الثاني شخصية أشفاغوشا ، الذي كان معاصراً للامبراطور كانيشكا، والمرجع الاكبر ، والثقة العليا في الجمع الذي التأم في كشمير خلال حكم هذا الامبراطور . رأى أشفاغوشا النور في مقاطعة « أوده » ، فكان صناجة زمانه وموسوعة علم وأدب : شاعراً ، موسيقياً ولاهوتياً . نحن مدينون له بعدد كبير من المؤلفات التي بلغ فيها سُدرة المنتهى ، فتُعَدّ من اروع ما عرفه التراث الفكري البوذي ، على الاطلاق ، بينها : « بوذا كاريتا ، و سوترالامكارا». وهو يرى نقيض ما كان يقول به ناغارجونا ، ان العَدَمية ، ليست فقط محور هذه المشكلات، بل الد« تهاتا *Tahata* »، أي الجوهر الذات أو الفرد،

أي الواقع الجوهري ، أو الطبيعة المطلقة للأشياء والكائنات . فهو من هذا القبيل ، من القائلين بـ « اليوغا » التي ترى الحل في هذا الاستجماع الفكري الذي يبلغ تدريجياً أبعد ثنايا الروحية الشاملة فيتيح للفرد ان يتحرر من عوارض الزمان والمكان . فالعمل الذي قام به اشفاغوشا ، والذي سيكتمل فيا بعد على يد أسنغا ، في القرن الرابع ، هو هذه الميتافيزيقا البوذية التي كان من شأنها ان تجعل الديانة البوذية مفهومة من قبل العقول المشبعة بالثقافة التقليدية ، ويمكن للمرء ان يرى فيها محاولة للتقرب من البراهمانية ، وهي محاولة جاءت منسجمة مع نزعة انتقاء الأفضل التي عُرف بها الامبراطور كانيشكا وراح يعطف عليها ويرعاها ، ان لم يعمل بها .

كل هذه الفورة الميتافيزيقية لم تخلُ من بعض الاضطراب بحيث يجب ألا نتصور وضع الفلسفة في هذه الحقبة متميزاً بالانسجام والوحدة . فقد قام بين الفئتين البوذيتين منافسة شديدة ، وان غامضة ، كان من بعض نتائجها عدد لا يحصى من الملل والشيع بعضها شايع الأخر في جوهر مقالته ، وبعضها الآخر استقل بنفسه ، كما عرف بعضها بحيوية ونشاط عارمين . ومن مراكز هذا النشاط (كشمير) ، التي تقع على مقربة من غندهارا ، حيث ازدهرت شيعة ، قريبة من الشيعة المعروفة باسم سارفاستيفادين ، في مقاطعة ماتورا ، والتي ساهمت كثيراً في تطوير « الباب الواسع » . من هذه الملل ايضاً ، الملة المسماة فايدهاسيكا التي سلمت بمذهب الذرية مع استمرارها على نكران : « الأنا » أو الذات .

ويقابل هذه الوفرة في الملل والنِحَل ، تمازج او تخالط عقائدي فيا بينها مع كثير من المفارقات بين الواحدة والاخرى ، بحيث لم يقم بينها أي تجانس ، ونشاهد بينها شيئاً من التلاحم اللاشعوري او المقصود مع البراهمانية ، يبرز أثره ليس في النظريات والمبادىء فحسب بل أيضاً في مواصفات الآلهة التي يؤمن الطرفان بوجودها . فمنذ الآن وصاعداً ، لم يَعُد وحده ، هذا البوذا المعظم ، رجل الله ، بل هنالك سلسلة لبوذا تظهر جنباً الى جنب ، هي ثمرات تجريدات ذهنية ، في تشا كياموني ، خير ما يمثلها وأهمها على الاطلاق هما : اميتابها وأميتايوس ، أي النور الذي لا نهاية له (في الاول) والديمومة التي لا آخر لها ولا نهاية (في الثاني) . فالاول هو أشبه ما يكون بإله النور ، فيه الكثير من قسمات ايران والبراهمانية كما تتجلى ، على أحسن وجه ، في أوصاف فيشنافا . وهذه الميتافيزيقا التي طلعت علينا بمثل هذا العدد من الآلهة ، اوجدت فكرياً ، الى جانب هذه الصور المتعددة لبوذا التي عرفناها في الماضي ، بوذا المستقبل ، هو متراايا ، حيث تبرز بوضوح مفارقات فيدية وايرانية ، وربما رومانية ايضاً ، اذ نجد فيه بعض معالم ميترا ـ ميترا . وهؤلاء الكائنات السامية ، يصحبها كائنات فكرية ، مجردة هي الاخرى ، تُعرف عندهم باسم *Bodhisattva* ، الذي سيلعب ، أكثر فأكثر ، دوراً بارزاً في الاجيال الطالعة ، ويأخذ عددها فيا بعد ، بالازدياد ، منسجمة مع ذلك ، مع التطور الذي طلع على الذهنية البوذية . فبعد ان تمت لهم حالة الاشراق ، لم يعودوا ليكترثوا كثيراً ببلوغ الغبطة او الطوبى او النرفانا ، بحيث يتاح لهم الانبعاث من جديد لينصرفوا العمل على فداء البشرية وخلاصها : فالعبادة والمحبة الشاملة حلا محل الفكر الذي كان في « الباب الضيق » يفضي بصاحبه الى الخلاص .

وهذا التعلم أفضى حتماً الى التطور الذي مرّ به التعلم البراهماني المعروف باسم : بهاكتي و الذي يعني : المشاركة والمساهمة ، ثم توسع المدلول فيا بعد بحيث أصبح يعني : تعبّد او عَبَد او سَجَد. وهذا التعلم الذي ظهر في هذا القسم الشمالي الشرقي من الهند صدر عن الطقوس والعبادات الشعبية التي تأثرت ، على أقدار مختلفة ، بالبوذية ، المسيطرة على هذه المنطقة . وهو يرتكز أصلاً ، على حركة مزدوجة: انجذاب الفرد نحو الالهي ، واستجابة الالهي للفرد . في هذا التبادل الرمزي السري حيث تلتهي المشاركة ، بالتحرر ، بالخلاص *Moksha* مع انه يوجد فعل عبادة *Bhakti* . ففي هذه الحقبة التي تهمنا هنا ، تبدو هذه العاطفة نتيجة العقل ، وبالتالي اقرب الى «الغنوز »، الى الروح الشامل ، إلا انها في تطورها اللاحق ستتجه بالأكثر نحو العاطفة او الدفق الديني . فالعبادة *Bhakti* ليست سوى مظهر من مظاهر التعلم البراهماني .

وقد رأت هذه المدرسة البوذية ، بدافع من حركة رجعية ضد بوذية المهايانا والنِحَل الاخرى التي انبثقت عنها ، ضرورة تنظيم تعاليمها هي الاخرى وتأمين انسياقها . ففي الحين الذي كانت فيه المهايانا تتطور ، ظهرت على البراهمانية مدارسها المستقيمة الصحيحة التي ستضفي عليها، أكثر فأكثر ، طابعها التقريري المدرسي . وقد نشأ بين القرنين الاول والسادس للميلاد ، ست مدارس مختلفة في قلب البراهمانية ، ترجع في جذورها الكبرى الى أبعد من ذلك ، وكلها تدعي انبثاقها من التقليد الفيدي الذي يمكن اعتباره بالنسبة لها، المعدود الاصغر المشترك .واقدم هذه المدارس، على الاطلاق ، هي المدرسة المعروفة باسم *Vaiceshika* ومدرسة *Mimamsa* ، التي ترجع تعاليمها وفرائضها -سيتراً- على ما يرجح العارفون، الى القرن الثاني. اما المدرسة المعروفة باسم نيافا، فهي تعود للنصف الاول من القرن الثالث . والمدارس الثلاث الباقية ، وهي : الفيدانتا ، واليوغا ، والسمخيا ، فقد ظهرت للوجود نتيجة لهذه الاجتهادات التي قامت فيا بعد ، وليس هنا موضع الاستفاضة فيها والخوض في غمارها . واصحاب المدارس الثلاث الاولى ، مشكوك جداً بوجودهم تاريخياً . والمبادىء والنظريات التي تميز الواحدة منها عن الاخرى تتباين فيا بينها تباين الملل والنحل البوذية ، هي الاخرى ، انما يوجد شيء يوحد فيا بينها ، هو انتسابها جميعاً ، الى جذر واحد ، وأصل واحد ، هو الجذر الفيدي. فبينما كانت المدرسة الميامزا لا تهتم إلا بالاصول والمراسم الطقسية دون ان تقدم أي تفسير لتناسخ الارواح، نرى المدرسة الثانية فايسشيكا منها، تجعل من قضية الخلاص مشكلتها الاولى. فهي تبني تعاليمها على النظرية الذرية التي تعارض جوهر الفرد الروحي بالهيولى او المادة . ومن اتصال هذين العنصرين : الروح والمادة ، تبتدىء هذه السلسلة من التوالد والتناسخ التي لا انفصام لها ولا حد . ولكي يصبح في مكنة الجوهر الروحي الفرد الانعتاق من الجسم، وبالتالي ، حقيق الخلاص عن طريق انضمامه الى الجوهر الفرد للروح ، يجب ان تتم له معرفة تجريبية ، اختبارية تذهب بكل أثر للوهم أو الخيال . اما عند مدرسة نيايا ، فالتناسخ لا يقوم اساساً في هذا التناقض او التضاد بين الروح والهيولى ، بل في هذا النشاط الذي يسبب الغلط . ولكي نأمن جانب الغلط ، علينا الاعتصام بالمنطق الذي فيه الدليل القاطع الذي يعصم عن الغلط ، قبل التعبير . فالقياس ، في نظر النيايا ، قادر وحده على

ان يضع حداً لسلسلة التناسخ ، ويهيء الفرد النجاة والخلاص .

وهكذا تلتقي البراهمانية والبوذية ، خلال هذا العهد، عند البحث عن المطلق. وهذا البحث الموصول عن المطلق ، من نتائجه ان يسبب تغييرات مهمة يجب ان تدخل في الحساب ، عندما يراد تقويم هـذا العهد ، على الوجه الاكمل ، وتقديره حق قدره ، وهي تغييرات من شأنها التأثير على الفنون التجسيمية .

فالشعب الذي لا يهتم كثيراً بالامور التقريرية والتفسير ، يطلق بسهولة كلية العنان لمشاعره وعواطفه التي يحيِّزها بتشييد مثل هذا العدد الكبير من المعابد والهياكل . وهكذا ازدادت البوذية غنى بعد ان خلصت من أسباب الفوضى التي خلخلتها فأرزحتها، وكسبت المزيد من الحظوة لدى العظماء . فهي بحاجة اكبر للمزيد من الأديار الكبيرة لتتسع لجماعاتها الآخذة بالازدهار يوماً بعد يوم ، وبفضل العطف الذي نعمت به لدى العظماء واصحاب النفوذ في البلاد، تلقت مساعدات مالية واسعة راحت معها تشيد الكثير من المباني ازدادت على مر الأيام غنىً وزهواً وزينة فنية . ففي الحين الذي راحت فيه تعمل على تنظيم ذاتها ، شعرت بحاجة ملحة مُلحِفة لتقوية نقاطها العقائدية الأساسية لتصمد في وجه الصدمات والهجوم الذي تلقاه من خصومها ، بحيث تستطيع عندما تحين الساعة ، الدخول معها في منافسة ، في مجال تشييد المؤسسات والمباني والانشاءات الفنية ، في حقلي الحفر والنقش . فمعابدهـــا لا تزال ، الى ذلك العهد قليلة العدد ، محدودة ، والايقونوغرافيا شبه معدمة عندها .

الفـــن

تسجل البوذية ، في هذه الحقبة ، في مجال الفن ، اكبر النجاحات وأمثلها . فهي الملهمة لفن العصر ، والمسيطرة عليه والمستبدة بأصوله ومناحيه، لا منازع لها في ذلك . فهذا العهد ، يقع ، من الوجهة الفنية ، بين قطبي جذب ، يتمثل اولها بزخرف الستوبا ١ و ٣ ، في مقاطعة سانشي ، (اواخر القرن الأول للميلاد) . امـــا الثاني ، فيتمثل بظهور بوادر فن الغوبتا ، (النصف الأول من القرن الرابع) فليس هنالك ، مبدئياً ، أي انفصـــال أو تقاطع ، بين العهد الماضي وبين هذه الحقبة ، اذ ان هذا الاستمرار الموصول يفضي بالفن الهندي من الطراز القديم الذي يتمثل بآثار بهارهوت و سانشي – والآثار الاخرى المتصلة بهـا – الى الطراز الكلاسيكي الاتباعي الذي تجلى على أحسنه في عهد الغوبتا ، وخلفائهم من بعدهم . ومع ذلك، يصح وصف هذه الحقبة موضوع هذا البحث، ونعتها بكونها حقبة انتقال، اذ انها تكملة ، من جهة ، للفن القديم ، كما انهـا ، إيذان ، من جهة اخرى ، بطلوع طراز جديد لا يلبث ان يحل محل الفن القديم تدريجياً . فالحقبة هي ، ولا شك بذلك ، من أخصب الحقب في تاريخ الهند من جهة اكتشاف الموضوعات الايقونوغرافية ، وتطوير الفن الجمالي وفلسفته . فالفـن يعكس اذ ذاك ، بدقة كلية : هذا التشابك السياسي الذي ميز وضع البلاد آنئذ ، واكتمال البوذية التي بلغت فيه الأوج .

في البلاد ، اذ ذاك، ثلاثة محاور أو مدارس تحتضن هذا الفن، ممثلة لأقطاب السيادة الثلاثة،

في الهند ، وهي مملكة الكوشانا في شمال غربي الهند (غندهارا) ومملكـــة ماتورا في الشمال ، وسيطرة الأندهرا، في الجنوب الشرقي(أمارافاتي) . والمدارس الثلاث امتازت في التطور الذي اخذت بأسبابه ، بهـذه الروح التجديدية التي أدخلت على فن الرسم ، ولا سيما عــلى الرسم الايقونوغرافي الخاص ببوذا . ففي القرنين الاول والثـاني للميلاد ، يغلب استعمال صورة بوذا ، ومع ان صورته لم تكن تظهر قط ، في العهد الماضي ، في هـذه المناظر او المشاهد التي تُبرز حوادث ووقائع حياته على الارض ، اذ كانوا يكتفون بالرمز اليه تورية ومجازاً ، فكيف لعمري بهذه السلسلة من النقوش المعروفة بالحفر الناتيء . ومع انه يجب التحفظ كثيراً عند التأكيد في ان هذا الرسم، طلع اول ما طلع، في منطقة غندهارا أكثر منها في منطقة ماتورا ، فما لا شك فيه قط ان هذه الصورة ظهرت في امارافاتي ، بعد ذلك بقليل .

قد يمكن ان تكون الفكرة يونانية المصدر والمنشأ ، نشرها على ما يرجحون ، فنانون يونان ورومان ، أصلهم من آسيا الغربية . وقد تركزت الفكرة، في مقاطعة كابيشا التي رأينا ما كانت عليه من نشاط الحركة التجارية ، في القرنين الاول والثاني للميلاد ، في هذه الحركة التي لم تلبث ان امتدت الى جميع أطراف العالم البوذي . فبروز هـذه الصورة الجديدة لبوذا ، لم يكن له تأثير كبير في الاسلوب الايقونوغرافي البوذي ، وان كان أضفى عليه شيئاً من عنصر الاستقرار ، عن طريق وضع رسوم المشاهد الحياتيــة الخاصة ببوذا ، وهي رسوم اتصفت أكثر فأكثر ، بالتناسق والتناظر .

لصورة بوذا كما تجسمت في المدرسة الشمالية الغربية قسمات ابولونية لمراهق شاب ، مستقيم الانف، بينما فمه يبرز بوضوح ، غير ان حواجبه الكثيفة تكاد تغطي الى النصف عينيه البارزتين. إلا ان وجهه المقلطح ، واستطالة شحمة أذنه لثقل الاقراط الذهبية المتدلية منها ، كل ذلــك يضعنا امام سحنة شرقية الطابع . وهو يرتدي قفطاناً يكاد يختفي تحت إسكيم رهباني غطّى منكبيه ، وبدا كأنه غلالة ملتصقة تماماً بالجسم ، لها ثنايا مربعة تبرز للعين بوضوح . وهو يلبس الشارات الرسمية التي تحدّث عن قداسته . نرى الحواجب المقفولة تظهر بوضوح ، وهو يمسك براحتي يديه العَجَل الذي يرمز الى الشريعة البوذية وسيرها الى الامام. اما شعره المتجعد بانتظام فتراه وقد شُدّ جاعه الى الامام بواسطة اسلاك ذهبية . وقد ذهب المفسرون مذاهب شتى في تفسير هذا التشوّه في الشعر الذي أدّى الى جحوظ الرأس على هذا النحو . وهذه العلامة تبرز في كل صور بوذا أينما وجدت في جميع ارجاء آسيا ، حتى يومنا هذا .

ففي مدرسة ماتورا نجد صورة نموذجية لبوذا الغندهاري ، برزت قسماتها وفقاً لمبادىء هذه المدرسة الفنية ، سواءاً أكانت مَحلّية او مقتبسة من الخارج . فهي من طابع الصور التي وضعت في العهد الماضي ، من نفس الطراز المعروف بطراز يكشا او طراز ماغاراجا . يبرز فيها بوذا برأس مستدير يشبه رأس دمية تطفو الابتسامة على ثغره ، حليق الرأس كرأس الرهبان ، تغطيه قبعة يزيد لونها بروز الجمجمة . فانسان العين يبرز من خلال الهُدْب . وهو يرتدي معطفاً يشبه معطف الكهنة يظهر من فتحة فيه مائلة ، نصف جسمه . والنسيج الذي يلبسه يبدو أكثر

نعومة من النسيج الذي يظهر في النموذج المصنوع في مدرسة غندهارا ويلتصق بجسمه ، وتظهر عليه بوضوح هــذه الثنيات البارزة والمتوازية . فهو في مظهره الضخم نراه واقفاً على رجليه المتباعدتين قليلاً ، ويقوم بحركات بسيطة ، طبيعية ، لا تلبث ان تصبح تقليدية . ليس في هـذا الرسم ما يدل على وجود تأثير أجنبي او غريب فهو من صميم وحي التقليد الهندي ، وينسجم تماماً مع الاصول الفنية التي تقيدت بها المدرسة القديمة .

اما بوذا مدرسة امارافاتي الفنية ، فكل شيء فيه يدل على ان هذا الرسم جاء بعد النموذجين السابقين . وليس من النادر قط ان نشاهد في تقاطيع هذه الصورة البارزة بعض الطرق الفنية التي استعملتها المدرستان السابقتان ، أي ان الرمز يحمل محل الصورة ، او ان صورته تحمل السمات التقليدية المعروفة في الفن الهندي . فصور امارافاتي ، على شاكلة الصور الصادرة عن مدرسة ماتورا ، لها سمات هندية أصيلة ، افادت من التجارب الفنية الماضية . تبرز على سحنة بوذا هنا ، الاستطالة التي تميز المدرسة الدرافيدية الفنية ، هذه السمات التي يحمل منها فن الرسم الجمالي فيما بعد ، شيئاً نموذجياً . فنتوء الجمجمة يبرز قليلاً . فهو يستقر كباقي أجزاء رأسه ، تحت جدايل مضفورة ، رقيقة ، مائلة الى اليمين . فهو يرتدي معطفاً رهبانياً ، أكثر سماكاً من الذي نراه في نموذج مدرسة ماتورا ، ويظهر منه عري كتف اليمين ويبدو على جسمه ثنيات منسجمة تظهر من مقدمة الرأس الى مؤخرته ، ابتداء من الساعد المثني على صدره .

وهذه الفروق بين النماذج الفنية الثلاثة لصورة بوذا ، كما وضعتها هذه المدارس ، تبرز بوضوح المظاهر الفنية الاخرى . ففي غندهارا والمناطق التي تأثرت بالفن الهليني ، نرى الرسوم الفنية التي وضعها فنانو هذه المدرسة ترسم هذه المبادىء . فشخصية بوذا كما تبدو في رسوم هذه المدرسة ، تُبرز بوضوح هذا المُركّب من المؤثرات اليونانية البوذية وتمدنا بصور مستوحاة من النظريات الفنية الهلينية او من التقاليد الهندية الصرفة ، من ذلك ، مثلاً : صور هؤلاء الاولاد ينفخون في الشبابة والناي المزدوج ، او حاملين الأكاليل المضفورة او عناقيد العنب : وهــذه الاعمدة المنحوتة بشكل أشخاص مفتولي العضلات لهم اجنحة « غريبة » ، وهذه النسوة وقد برزت في شعورهن المصففة ، رسوم على شكل أهِلّة او ابراج مصغّرة مسنّنة ؛ ورسوم رجــالٍ مفتولي الشوارب لابسين قفاطين قصيرة ، وأكمام ضيقة ؛ وهذه الراقصات ينقرن الكمان والعود ويضربن الطبول ؛ حاملات جراراً او عناقيد عنب . وفي المجال الزخرفي ، يجب ان ننوه بوجود أكاليل أعمدة كورنثية الطراز ، يضاف اليهـــا من وقت لآخر صورة بوذا بين الشجر وبعض سعف النخيل . والشخوص الهندية تبرز وفقاً للطراز الهليني المشبع بعناصر فنية مستوحاة من انطاكية وتدمر وسوزه وسلوقية ، أي مستمدة من هذا الشرق الروماني الذي نرى الفن اليوناني البوذي يستلهم الكثير من عناصره . وهذا الفن الذي يحمل سمات الفن الكلاسيكي ، والذي جيء بــه لخدمة الديانة الهندية ، يحمل بين مقوماته كثيراً من سمات الفن الروماني ، كما يبدو بعد ذلك واضحاً من هذه الرسوم التي يدخـــل في تركيبها الملاط ، والتي عُثر عليها بأعداد كثيرة في الافغانستان ، ولا سيا في مقاطعة هدّا ، وبينها رسوم تبدو على قسماتها العناصر اليورو ـ آسيوية ،

كهؤلاء النساك والزهاد ذوي الوجوه النحيلة الضامرة ، الشبيهة بالصور المعروفة للسيد المسيح ، في الفن الروماني التوطي ، او يحاكون هؤلاء الرجال مُفْر الشعر والزرق العينين ، والشارب المعتدل الذين يشبهون الغاليين، وهؤلاء الرهبان الحليقي الشَعر ذوي الملامح الرومانية . وخلافاً التقاليد الهندية نحن امام فن يرغب في ابراز كل أطوار الحياة : اولاد صغار، ومراهقون وشيوخ مُطلقي اللحى ، والجباه المتغضنة بحيث تبرز الشخوص جميلة حية ، مثيرة .

وبالرغم من هذا التنوع الذي امتاز به الفن في هذه الحقبة ، يطالعنا مع ذلك ، شيء من الوحدة بفضل هذه العناصر المشتركة بين المدارس الفنية الثلاث والاشكال الهندسية الواحدة ، ومظاهر الحفر والرسم التي نشاهدها لاول مرة والتي لم تخضع كثيراً كما نلاحظ لاول وهلة ، لهذه التغييرات التي اقتضاها الزي المحلي الغالب . إلا انه لا يسعنا ، بعد هذه النظرة العامة نلقيها على الفن الهندي ، إلا ان نؤكد بأن هذا الفن كما تجلى في هذا القسم الشمالي الغربي من الهند ، لا يمكن ان يدخل في هذه الجمالية الخاصة بالهند لانتمائه الفاضح ولانتسابه للعالم الروماني .

فالهندسة المعمارية ترتبط مباشرة بالفن المعماري الذي سيطر في الحقبة السالفة . فهي نتيجة منطقية لهذا التطور الذي اخذت بأسبابه ، مع مراعاة الحركة التطورية التي سارت عليها البوذية. فالمعابد المحفورة في الصخور ، حافظت على الرسم الهندي المعروف ، وقلّدت دوماً أشكال الهياكل المصنوعة من الخشب، إلا انها تزداد منهجية ونموذجية، كما نرى مثلاً ، في هياكل كنهاري ونازك رقم ٣ . فالهياكل التي نالت أهميــــة ملحوظة ، في العصور الماضية ، تغطي ، في بعض الاحيان ، مساحات شاسعة أي نحواً من ٥٠٠ متر قطر دائرتها، كما هو هيكل امارافاتي ، والبناء يزداد ارتفاعاً كما يرتفع الاساس أكثر من ذي قبل ، وقبابها تصبح أكثر كروية ، والاروقة التي تقام عند خطها الدائري تتطور بشكل واضح ، كما نرى ذلك، مثلاً،في هيكل سانشي، وفي هذه الثغرات الزخرفية التي تكثر منها الهندسة المعمارية، وهي ثغرات بشكل نضوة حصان . ويقوم الى جنب هذه الهياكل من الطراز التقليدي ، الديني الطابع ، هياكل ترتفع على أعمدة ، كما ان لبعضها الآخر شكلاً مستطيلاً ، ولها ابواب ضخمة ، كما هي هياكل الاجيال الوسطى .

اما التجديد فأكثر ما يتمثل في فن النقش والحفر ، مع الحرص على الاحتفاظ بالعمود الفني الذي ميز الاطرزة الفنية السابقة. فهو،من الوجهة التقنية فوق ذلك بكثير ، بعد ان جاء الفنانون بالدليل على تضلعهم من الاصول الفنية وتجويدهم لها تماماً . لمظاهره الخارجية متنوعة للغاية ، ليس من حيث طريقة الحفر والنقش ذاتها ، او المواد المختلفة المستعملة، بل أيضاً من حيث المنهجية التي تميز كل مدرسة من هذه المدارس الفنية ، في ما يبرز من هذه الصفائح العاجية الصغيرة التي نجدها في هياكل بغرام وكابتشي حيث تقوم هذه التماثيل الضخمة ذات الحفر الناتىء التي نراها ماثلة في هياكل كارلي وكنهاري ، مروراً بهياكل ماتورا ، ذات الحجارة النافرة ، وبهذه النقوش البارزة التي لا تحصى، الممثلة في هيكل امارافاتي حيث يبرز نتوء الاشخاص نحواً من ٢٠ سنتمتراً. فالحجر الرملي الوردي يضفي على هيكل ماتورا مظهراً يتسم بالمحافظة ويقربه جداً من طراز معبد بهارهوت ، بينا المرمر الابيض او الحقيف المروق الذي نجده في هيكل امارافاتي يضفي

عليه مسحة من الخشوع تنسجم تماماً مع الطراز الفني لهــــذه المدرسة التي لا تخلو من بعض أثر التصنع .

فالجمالية البادية في مدرسة ماثورا تبرز بوضوح التعقيد الذي ميز وضع دولة كوشانا اذ عرفت ان توفق بين مهابة ووقار هؤلاء الملوك الاغراب من سكان الفيـافي والقفار الذين ما زالوا محتفظين بألبسة البدو الرحل وأزيائهم والعمائم التي اصطلح الفز على لبسها ، وبين رهافة النساء الهنديات اللواتي تطفو البسمة على شفاههن ، في هذه السجدة المثلثة الرسمية التي يقمن بها بكل انسجام .
اما مدرسة امارافاتي الفنية فيشيـع منها شعور يختلف عن ذلك تماماً: مظهر عال ، مديد ، يبدو عليه بعض التصنع ، وهـذا التمهل الفاتن الذي عُرف به الطراز الفني المعروف بطراز غوبتا الارستوقراطي .

هذه المميزات المفردة تطبـع كذلك فن الرسم والتصوير ، في هذا العصر ، واليه تعود بعض الصفائح العاجية التي عُثر عليها في مقاطعة كابتشي ، والتي تمتاز بدقة القسمات وبروزها ، وبهذه الوقفة السليمة ، وهذه الدقة التي ترافق الصنعة مع الحفاظ على فن المنظور الهندي .
فالفن الهندي ، بعد حقبة الانتقال الفنية بالمؤثرات الجديدة التي جاءته من الخارج ، وبعـد التجارب العديدة التي تمرّس بها ، لن يلبث ان ينضج وان يهيء لهذا الازدهار الذي سيتجلى على أتمه في عهد دولة الغوبتا والحقبة التي عقبت هذا العهد .

الفصل الثالث

مراحل النفوذ الهندي في الأقطار الواقعة جنوبي شرقي آسيا

هذا الاهتمام الذي أظهره الهنود ، منذ مطلع المسيحية ، بالبلدان الواقعة على بحار الجنوب ، ازداد نشاطاً ، منذ الحين الذي وقفت فيه ايران حائلاً دون المواصلات التجارية مع الغرب . فراحت تجارة الذهب والافاويه تبحث عن منافذ لها، وطرق مواصلات أخرى. وهذا الاهتمام، من جانب الهند ازداد أواراً عن طريق تحسين طرق المواصلات . فقد قام في الهند الصينية وشبه جزيرة الملايو ، عدد من « الدول » ، قدّر لها ان تسجل ، بعد قليل ، عهداً كبيراً من الازدهار التجاري ، وان تجتذب إليها أنظار الناس، بعد أن عرفت كيف تنمّي علاقاتها بالهند، وان تقتبس من الحضارة الهندية ما فيه قوام أمرها .

مملكة فو - نام

من هذه « الممالك الهندية » مملكة عرفها المؤرخون الصينيون ، في القرنين الثاني والثالث للميلاد ، باسم مملكة فو - نام ، وهي مملكة تقع في مقاطعة كمبوديا اليوم ، وفي هذا القسم السفلي من مقاطعة الكوشنصين . اما عاصمتها ، فتقع على مقربة من رابية با - فنوم ، على بعد ٥٠٠ لي أو ٢٠٠ كلم من البحر ، حيث عثر المنقبون ، على آثار مهمة لمركز تجاري ، قام في ناحية أوك - ايو *OC - EO* ، الى الجنوب من فنوم - باتيه . فالمصادر الصينية ونقيشة سنسكريتية من القرن الثالث ، عثر عليها في فو - كانه ، من أعمال مقاطعة شامبا ، هي خير ما يمدنا بأوثق المعلومات ، عن تاريخ هذه البلاد في هذه الحقبة التي تعنيناهنا .

فالظروف الاسطورية التي رافقت عملية استهناد هذه المقاطعة واقتباسها حضارة الهند ، في المصادر الصينية الممثلة بهذه الحوليات التاريخية ، وبالنقيشة التي عثر عليها في فو - كانه ، تكشف لنا بصورة غير واضحة تماماً، عن أولى هذه الاتصالات بين مدنية متخلفة عن الركب، وحضارة تفوقها سمواً وسناءً . فالمصادر الصينية تروي القضية على الوجه التالي : تراءى لرجل غريب قد يعود نسبه الى إحدى مقاطعات الهند الشرقية، يعرف باسم هوان - تيان، وبالسنسكريتية : كوندينيا *Kaundinya*، كان يعترف بالآلهة (اسلوب تعبيري عن عبادة البراهمانية) حلم رأى

فيه جنياً يسلمه قوساً ويأمره بركوب سفينة شحن يخرج بها لعرض البحر . وعندما استيقظ هوان ـ تيان من نومه ذهب رأساً لمعبد هذا الجن، وما لبث ان وجد عند جذع احدى الأشجار القوس الذي سبق ورآه في منامه . ثم انضم لركب من التجار على أهبة السفر بحراً، وما كادوا يوغلون حتى راح هذا الجن يُعمّي الطريق عليهم ، فغير، من حيث لا يدرون، اتجاه السفينة التي حملتهم الى شواطىء مقاطعة فو ـ نام التي كانت اذ ذاك تحت ادارة امرأة تدعى ليو ـ يه ، أي ورقة الصفصاف، التي سوّلت لها النفس الأمّارة بالسوء ، نهب السفينة القادمة وسلب ركابها، فأرسلت ثلة من جيشها نحو الشاطىء كما أرسلت بعض السفن المسلحة لمهاجمة سفينة هوان ـ تيان. وبدلاً من أن يعتري الخوف هوان ـ تيان، أوتر قوسه ورمى سهماً اخترق هيكل سفينة الملكة وأصابت احد جنود الملكة فقتلته . واذ ذاك ، دب الخوف في نفس « ورقة الصفصاف » ، فاستسلمت له وتزوجها ، واستولى على المملكة . أما الرواية المستمدة من النقيشة ، فتقول بأن أحد البراهمان سلم كونديينا مِزراقاً ، ولما وصل الى مقاطعة فو ـ نام رمى بمزراقه ليحدد المكان الذي ستقوم عليه العاصمة التي ينوي تشييدها ، ثم تزوج من احدى كريمات ملك الـ « ناغا » ، المدعوة سوما .

في كلا الروايتين نرى سلالة جديدة من الملوك تطلع من هذا الزواج بين الملكة الوطنية والغريب الطارىء الفاتح . فانصرف في بادىء الامر الى تطوير طباع شعبه المتخلف عن ركب الحضارة مبتدئاً منهم بالملكة . فقد ساءه ان يراها تسير عارية ، فراح يخيط لها بزة تلبسها . وكان من عادة البلاد قديماً ان يسير النساء عراة وعلى أجسامهم الوشم وجدائل الشعر متدلية على أكتافهن. وبعد أن أرغم هوان ـ تيان الملكة على ارتداء الملابس، راحت النساء يحتذين حذوها بارتداء ملابس بدائية الرجال والنساء الذين كانوا ، على السواء ، قبيحي المنظر وزنوجاً ، انما استمروا على السير حفاة مدة طويلة ، كما سنتبين ، ذلك ، فيما بعد .

كانت خلافة هوان ـ تيان عسيرة ، على ما يبدو ، اذ حاول رعاياه مراراً ، ان يأتوا بملك من أهل البلاد ، وليس من ذرية طارىء غريب . قام على الحكم بعده ابنه وعقبه ملك آخر اسمه هوان ـ بان ـ هونغ، مات في القرن الثاني وله من العمر ٩٠ سنة. وسلّم ابنه الاصغر أمره لقائده المظفر فان ـ مان ، او فان ـ شي ـ مان الذي تربع على سدة الملك حوالى ٢٢٥ ـ ٢٣٠.

وفان ـ شي ـ مان الذي نصبه على دست الحكم « أبناء المملكة » قد يكون هو نفسه شري ـ مارا الذي جاء اسمه في رقيمة فو ـ كانه. وقد أوتي من « الشجاعة والاقدام » ما كان معه بالفعل باني دولة فو ـ نان وباعث عظمتها ورافع لوائها عالياً. فقد اخذ البوذية تحت رعايته، وجعل السنسكريتية لغة الديوان . فرقيمة فو ـ كانه صريحة واضحة في هذا المجال ، لا تدع مجالاً للشك . ثم راح يغزو الممالك المجاورة له ويضمها الى ملكه حيث تم له ما أراد ، ولقب نفسه بملك فو ـ نان الكبير . ثم بنى له بعد ذلك عمارة بحرية من السفن الكبيرة وراح يغزو بها عدداً من الممالك ولا سيما ما وقع منها في شبه جزيرة الملايو . ويرجح العارفون ان في عهده ، أنفذ لو ـ تاي، حاكم مقاطعة التونكين، رسلاً نحو الجنوب لينشروا في ارجائها الحضارة الصينية.

وقد دفع فان ـ شي ـ مان الجزية لأول امراء وو ، بين عام ٢٢٥ ـ ٢٣١ ؟ وارسل الى حاكم المقاطعة بعض المصنوعات الزجاجية التي كان الصينيون يرغبون جداً في الحصول عليها . اعتراه المرض في احدى غزواته وتوفي مجاهداً ، فتابع ابنه الاكبر : فان ـ كن ـ تشانغ الحملة التي كان باشرها ابوه ، بينا راح ابن شقيقه فان ـ شي المدعو فان تشان يستولي على الملك . وقــد يبدو محتملاً جداً ان يكون تشان هذا هو صاحب النقيشة التي عُثر عليها في فو ـ كانه ، في المقاطعة المعروفة باسم نها ـ ترانغ ، الأمر الذي يشير الى ان مملكة فو ـ نان ، امتدت حدودها الى هذه المنطقة ، في ذلك العصر .

في عهده الذي امتد عشر سنوات ، وصل الى فو ـ نان تاجر غريب الاصل يدعى كيا ـ سيانغ ـ لي ، قادماً من الهند حيث كان مكث من قبل . فراح يقص على فان ـ تشان اخبــار الهند وعادات أهلها ، ويخبره ما القانون فيها من حرمة ورعاية ، ويروي له ما فيها من الكنوز المكنوزة ، وما عليه تربتها من خصب وعطاء وانتاج وفير ، وانها تحوي كل ما يمكن للمرء ان يرغب فيه او يحلم به ، وان الممالك الكبيرة في الارض تكن الاحترام لهذه المملكة منــذ اقدم العهود . فسأله فان تشان ، اذ ذاك : ما هي المسافة للهند من هنــا ، وكم تستغرق الرحلة اليها من الوقت ؟ فأجابه كيا ـ سيانغ ـ لي قائلاً : تقع الهند على مسافة ٣٠٠٠٠ لي من هنا ، وان الرحلة اليها تستغرق ذهاباً وإياباً ثلاث سنوات ، وربما لم يرجع الراحل اليها قبل اربع سنوات. فهي قطب السماء والارض ، فما الذي راح الملك يحاول فعله بعــد الذي سمعه من التاجر ؟ ومهما يكن ، فقد قرر ، بين ٢٤٠ ـ ٢٤٥ ، ان يوفد لهذه المملكة البعيدة بعثة برئاسة احد اقاربه ، هو : سو ـ وو. فأبحر سو ـ وو من مرفأ تيو ـ كيو ـ لي (قد يكون تاكولا التي ورد ذكرها عند بطليموس) فوصل مصب نهر الغنج . وبعــد ان سار في النهر مسافة ٧٠٠٠ لي،بلغ بعدها بلاد موراندا ، الامر الذي ذهل له الملك وراح يسأل متعجباً ، أهنالك أناس يعيشون في أقاصي اطراف الاوقيانوس ! وأمر بأن يرحبوا بمقدم سو ـ وو وان يطوفوا به في جميع ارجاء مملكته ثم اعاده الى فو ـ نان مصحوباً بأحــد رعاياه هو الهندي تشان ـ سونغ . ولكي يظهر شكره لفان ـ تشان ، على هــذه الوفادة، أرسل مع سو ـ وو اربعة احصنة اصيلة من بلاد يو ـ تشيه (الهندو ـ الغز) . وبعد أربع سنوات قضاها في الخارج ، عاد الى فو ـ نان . وفي غيابه كان فان ـ تشان قد ارسل عام ٢٤٣ ، وفادة الى الصين ، عادت منها بفرقة من الموسيقيين . وهكذا دشن عهداً من العلاقات الدبلوماسية سيستمر طيلة القرن الثالث .

عندما عاد سو ـ وو الى بلاده ، وجد ان فان ـ تشان ، قد توفي مقتولاً على يد الإبن الأصغر لفان ـ شي ـ مان ، الذي قتــل بدوره بيد قائد فان ـ تشان ، فنودي به ملكاً باسم : فان ـ سيون. وهذا الملكهو الذي استلم الأحصنة الأربعةالمرسلة من الهند، كما هو الذياستقبل الرسول الهندي الذي صحب سو ـ وو في طريق عودته الى بلاده . وبعد رجوع هذا الأخــير بقليل ،

أي بـــين ٢٤٥ – ٢٥٠ ، تلقى فان ـ سيون سفارةً من الصين تتألف من كانغ ـ تاي [1] ، وتشو ـ ينغ ، اللذين وجدا في بلاط ملك فو ـ نان موفد ملك الهند الذي لم يكن غادر البـلاد بعد . وقد ضاعت أخبار رحلة كانغ ـ تاي ورفيقه الى فو ـ نان ، إلا ان الحوليـــات الصينية التالية تأتي على ذكر هذه الرحـلة ، وإليها يعود ، كما يرجح العارفون ، معظم المعلومـات التي نملكها عن هذه البلاد ، في العصر المذكور . كان فان ـ سيون حاكماً مستبداً ، وطاغية عنيداً ، فبنى له السرادقات والأروقة الجميلة ، يختلف إليها للاستجمام والراحـة . وكان يقيم بين الصباح والظهر من كل يوم ثلاثة مواعيد للمقابلات . وكان الأجانب وابناء الشعب يقدمون له الهدايا من الموز وقصب السكر والسلاحف والطيور . وقد استغرب الموفدان الصينيان ، كيف ان النساء في هذه المملكة يلبسن قطعة قماش بحيث لا يظهر سوى الرأس ، اذ ان منذ عهد هوان ـ تيان، بقي الرجال عارين ، لا يسترون عوراتهم . « فالبلاد جميلة بديعة ، والحق يقال ، انمـا على الرجال فيهـا ان يظهروا بمظهر الحشمة ؛ انه لأمر غريب ! » . فبعد ان أبدوا هذه الملاحظة ، اصدر فان ـ سيون امراً ، أوجب على كل رجل في المملكة ان يرتدي ثوباً من القماش .

وكانت البلاد على جانب من التنظيم . « تقوم فيها مدن لها أسوارها الحصينة ، وفيها قصور وصروح ومنازل سكن ، والناس معروفون بدماثة اخلاقهم ورقــة جانبهم ليس من اثر السرقة بينهم يشتغلون للأعمـــال الزراعية ، يبذرون الأرض سنة ويستغلونهـا ثلاثة مواسم متتالية . يجيدون الحفر والنقش ، معظم اواني المائدة من الفضة ، والضرائب تجبى عندهم ذهباً وفضة ولآلىء وعطوراً . في البلاد كثير من الكتب والمؤلفات ولهم دور للمحفوظات ، امـــا حروف كتابتهم فتشبه كثيراً الحروف المستعملة عند الهُو *Hou* (أي سكان آسيا الوسطى الذين يستعملون حروفاً هندية الأصل) . والحال ، فالزمن هو تقريباً العهد الذي قـــام فيه المركز التجاري الذي وُجِد حيث مدينة أوك ـ أيو كانت آخـذة بالنمو والتطور : فالمدينة كانت واسعة جداً ، رحبة تقوم على بقعة مستطيلة الشكل مُنبسطة ،طولهـا ٣ كيلومترات وعرضها ١٥٠٠ متر وتزيد مساحتها على ٤٠٠ هكتار . وكان يخترقها ماراً في وسطها قنـــاة تنتهي الى مقربة من مرفأ . أمـــا سكانها من ابناء البلاد فلم يتجاوزوا في تطورهم الحضاري مستوى العصر الحجري الجديد ، يقوم بينهم جوالٍ من تجار الهند يستعملون السنسكريتية ، وكانت كتابتهم تشبه الكتابة المستعملة في شمالي الهند بين القرنين الثاني والخامس للميـلاد . وقد سبق وذكرنا بالتفصيل الموجودات التي عثروا عليها بين الانقاض . ومن المفيد حقـاً ، ان نعود للموضوع من جديد ، بينها اغراض وحاجيات رومانية الصنع من الحجر العقيقي الأحمر المحفور حفراً نافراً ، أو من البلّور الصخري ، واكثر من سبعة آلاف لؤلؤة من البلور الصخري والعقيق ، والجزع والجَمَشت والزجاج الملون والرقاق الذهبية من عهد مارك اوريل وانطونين الوَرِع ، وكلها من مصنوعات القرن الثاني . والى هـــذا العهد بالذات ، يمكن ان نرد ، بقية مرآة صينية من البرونز عُثر عليها بين هذه المكتشفات . كذلك هذا الرأس الزجاجي من الفن السـاساني الذي

(١) قد يكون أصله من مقاطعة الصغديان أي من أقطار آسيا الوسطى.

ألمعنا اليه والذي يمكن ردّه الى القرن الرابع . وعلى هذا الأساس يمكن لنا ان نفترض بأن هذه المدينة التي مر على وجودها اكثر من ثلاثة قرون، هي من بين المدن التي زارها كانغ ـ تاي وتشو ـ ينغ ، اذ ان منظر سكان البلاد الاصليين يسيرون عراة ، ويستخدمون الفؤوس الحجرية، كان يثير العجب والدهشة اذا ما قارناه بهؤلاء التجار الاغراب وما كانوا عليه من حضارة رفيعة . غير ان عدداً من المسافرين ، في ذلك العصر الذين أظهروا دهشتهم من خشونة الاهلين وما كانوا عليه من تخلّف ، ينوهون من جهة ثانية ، بمستوى حضاري او بدرجة عالية في بعض تطورهم ، عندما يتكلمون عن الآنية الفضية والذهبية التي يستعملها الاهلون في منازلهم ، وعما اشتهروا به من مهارة في الحفر والنقش. لا شك في انه قام في البلاد اذ ذاك يد عاملة عرفت بنشاطها بعد ما عثروا عليه من ادوات خاصة بصنع القوالب وصب المعادن ، وما في ذلك كله من دليل على استخدامهم المعادن ، ولا سيا القصدير والرصاص . ومع اننا لا نستطيع ان نحدد بوجه الضبط من أين كانوا يأتون بهذه المعادن ، من المهم ، مع ذلك ، ان ننوه هنا الى أي حد بلغ عندهم استخدام هذه المعادن في فو ـ نان . فاذا ما أغفل الرحالة الصينيون ان يشيروا الى عقائد القوم اذ ذاك ، فالآثار والعاديات التي اكتشفت ، تدل بوضوح ، على وصول البوذية والبراهمانية الى تلك البلاد . فالابحاث العلمية الصارمة والاكتشافات الأثرية التي لا بد ان تطلع من بطن الارض ، من شأنها ان تمدنا بمعلومات ثمينة ، بهذا الصدد .

تبع زيارة الموفدين الصينيين لبلاط فو ـ نان عدة بعثات أرسلها فان ـ سيون ملك فو ـ نان ، الى امبراطور الصين ، سنة ٢٦٨ ، و ٢٨٥ ، و ٢٨٦ ، و ٢٨٧ . وبقي يدفع له جزية تتألف من قصب السكر والصنادل (عدة مئات من الازواج) والخيزران. وكان موفدوه ينضمون الى العشر او العشرين موفداً للدول الاجنبية الاخرى ، بينهم ممثلون عن مملكة كوريا (٢٨٦) وبلاد الصغديان (٢٨٧) . ومع ذلك لم يكن خضوع ملك فو ـ نان كاملاً او تاماً ، اذ نرى حاكم مقاطعة التونكين نفسه مضطراً للتوسل الى امبراطور الصين الجديد ، الامبراطور تسن ، لكي لا يخفض عدد الحامية المرابطة باستمرار في المقاطعة، وذلك لأن ملك لن ـ يي ، يقوم دوماً بتعديات على حدوده ، بمؤازرة ملك فو ـ نان . فهو يكتب له قائلاً : « قبائلهم عديدة وفرقهم الصديقة المتحالفة، تتعاون وتشد أزر بعضها البعض ؛ وبالنظر لطبيعة بلادهم الجبلية واعتمادهم عليها ، فهم لا يخضعون للصين ولا يخلصون الولاء لها » .

ومع ذلك ، فتاريخ فو ـ نان يبقى غامضاً في هذه الفترة الواقعة بين اواخر القرن الثالث والنصف الثاني من القرن الرابع . يقوم بأعباء الحكم فيها ، حوالي عام ٣٥٧ ، ملك غريب الاصل ، يشير اليه الصينيون باسم : تشان ـ تان ، وهو اسم يشير بالفعل الى لقب ملكي جرى اطلاقه واستعماله عند قبائل كوشانا ، بين سلالة كانشكا . والحال ، كانت الهند ، في هذا العهد تحت حكم الغوبتا بعد ان تمّ لهم اخراج الكوشانا خارج البلاد ؛ فليس بغريب قط ان يكون احد اعضاء هذه الأسرة الملوكية وصل بحراً الى فو ـ نان واستقر به المطاف في هذه المقاطعة ، حيث نرى دلائل كثيرة تشير الى العلاقات التي قامت من قبل ، بين أولياء الأمر فيها وبين

الكوشانا . ونرى هـذا الأمير، يدفع عام ٣٥٧، جزية لامبراطور الصين بينها الفيَلة الأليفة . والظاهر ان هذه الهدية لم تلقَ حظوة في عيني ملك الصين ، فأصدر رقيماً امبراطورياً جا فيه : « نظر أسلافنا من الاباطرة الى هذه الحيوانات المهداة من البلدان الاجنبية نظرة شؤم لما جرته على سكان البلاد من شرور وولايات ، فراحوا يمنعونها . والآن ، لما كانت هـذه الحيوانات لم تصلنا بعد ، كان من اللازم اعادتها من حيث جاءت » . وفي هـذا ، الاشارة الوحيدة ، لهذا الشخص « الذي يدعى انه ملك » . فتاريخ فو ـ نان لا يلبث ان يكتنفه الظلام من جديد ، في فترة تمتد حتى اواخر القرن الرابع ومطلع القرن الخامس .

شبه جزيرة الملايو ودولها العديدة

بالاستناد الى بعض المقتطفات من النصوص التاريخية الصينية ، والنقائش السنسكريتية والآثار القليلة التي كشفت عنها حفريات شبه جزيرة الملايو ، يمكن ان نذكر هنا بعض الممالك التي قامت هناك منذ عهد بعيد ، وأخذت بأسباب حضارة الهند . من هذه الممالك ، مملكة تيان ـ سون او توان ـ سيون التي أخضعها الملك فان ـ شي ـ مان لسيطرة فو ـ نان ؛ ومملكة لانغ ـ يا ـ سيو التي تغطي رقعتها عرض شبه الجزيرة من البحر الى البحر ، فكانت تتحكم بالحركة التجارية والنقل البحري في خليج سيام وخليج البنغال؛ ومملكة تامبرالنغا التي وردت الاشارة اليها في *Niddesa*؛ ومملكة تاكولا الواقعة على الساحل الغربي لبرزخ كرا ، او قليلاً الى الجنوب منه ، ومـن مرفئها أقلعت البعثة التي أوفدها ، في القرن الثالث ، ملك فو ـ نان ، الى الهند . واذا كان يحق للمؤرخ ان يفترض بأن هذه الممالك المختلفة عرفت شيئاً من الازدهار في القرنين الاول والثاني للميلاد، فما من أثر باقٍ لها يعود لهذا العهد السحيق ، ومن الصعب جداً العثور على تفاصيل تنير السبيل وتلقي ضوءاً على تاريخ هذه الحضارة ، قبل العهد التالي لهذه الحقبة .

مملكة لن ـ يي

وكما ان مملكة «خير» ستقوم على أنقاض مملكة فو ـ نان ، كذلك قامت مملكة تشامبا على انقاض مملكة لن ـ يي، اول نواة لمملكة مستقلة قامت على الساحل الشرقي لشبه جزيرة الهند الصينية . فحتى سنة ١٩٢ للمسيح ، حسب التواريخ الصينية ، ومنذ اواخر القرن الاول قبـل الميلاد ، بسط الصينيون سيطرتهم على هذه البلاد . كانت مقاطعة جي ـ نان الواقعة بين مشارف الاننام « ونهر الفيوم » تمارس شيئاً من السيطرة تمتد نحو الجنوب حيث يقطن اقوام من اصل اندونيسي، يعيشون على الفطرة ، عراة ، حفاة ، تغطي اجسامهم أشكال من الوشم، لا يعرفون شيئاً من امور الزراعة، ويقتاتون مما يقعون عليه من صيد وقنص. ويتألبون بطوناً وأفخاذاً ، اشهرها جميعاً بطون الكوكوتيـة والأريكوتية التي منها طلعت الاسر الملكية الاولى التي حكمت البلاد . وبالرغم مما كانت عليه هذه الاقوام من تخلف وتأخر، فقد اشتهرت بالقلاقل التي سببتها وبالاضرار التي الحقتها بالمعاقل الصينيـة وحامياتها اذ كانت تهاجمها على حين غرة منها وتنزل بها الحيف والخسف لا تحسب حساباً لاية ردة فعل من جانب الصينيين ، اذ كان رجالها يسارعون للتسلل الى الغابات الملتفة وبذلك يأمنون كل عمل تأديبي

ضدهم . ومنذ عام ١٣٧ للميلاد ، يقوم فريق من سكان البلاد الاصليين يُعرَفون ، في المصادر الصينية ، باسم كي - يو بمهاجمة مقاطعة جي - نان ويحرقون حصونها ومعاقلها ويقتلون حكامها. وقد اضعفت هذه الهجمات المتكررة الحاميات الصينية الواقعة عند اطراف الامبراطورية الصينية ، فراح اولو الامر من الصينيين يضربون اخماساً بأسداس ، حول ما اذا كانوا يُزيدون من حاميتهم هناك ، او ان يتركوا الوطنيين وشأنهم في مهاجمتها ، كما يحلو لهم . ولم يدُر في في حساب الصينيين ، ولم يدخل في سياستهم ان يسخوا برجالهم واعتدتهم واموالهم ، للدفاع عن منطقة خطرة وغير صحيّة . فقنعوا بالخيبة والفشل لقاء ثمن تغاضيهم . وعندما يستتب الأمن ، قال احد مستشاري الامبراطورية ، سنوعز الى هؤلاء البرابرة ان يتدبروا امرهم فيما بينهم بالتي هي احسن ، بحيث يقدمون لنا ذهباً وكمية من الانسجة الحريرية تعوض الخسارة التي تكون لحقت بنا» . وقد آثر الصينيون اتخاذ هذا الموقف مفضلين الوسائل الديبلوماسية على وسائل العنف ، وراحوا يستغلون بوادر الاضطرابات التي شجرت في البلاد ، موطئة لسقوط دولة «هان» ، بقيادة موظف من سكان البلاد الاصليين ، تذكره المصادر الصينية باسم كيو - ليان ، وهو الاسم نفسه الذي عرفت به القبائل الوطنية التي اخذت بمهاجمة المراكز الصينية ، تولى ادارة الثورة التي انطلقت شرارتها ، عام ١٩٢ ، فانقض على جي - نان ، وقتل نائب الحاكم ، واحتل الولاية برمتها . ثم نادى بنفسه ملكاً ، ونقل كرسي مملكته الى حاضرة ولاية سيانغ - لن ، المعروفة اليوم باسم توا - تيان .

من الاهمية بمكان ان نلاحظ هنا ، ان هذه الحقبة الموافقة القرن الثاني ، تتفق كما يرجحون مع الحقبة التي تم فيها صنع تمثال بوذا البرونزي في منطقة «كريشنا» والذي عثر عليه في دونغ - ديو - ونغ . وليس ما يمنع قط ، لا بل من المعقول والمحتمل جداً ، ان يكون تمثال بوذا هذا ، وصل الى لن - يي - في مثل هذا الوقت ، ففي ذلك دليل قاطع على تغلغل البوذية وتسربها الى الساحل الشرقي من شبه الجزيرة الهند الصينية ، في هذا العهد بالذات الذي كانت فيه القوات الوطنية آخذة بمهاجمة القوات الصينية . جاء سقوط اسرة الهان ، عام ٢٢٠ ، يخدم قيام الدولة الجديدة المعروفة باسم ، لن - يي التي برزت للوجود في هذا العهد بالذات . فالولاء الذي تكنه الصين مهما كان إسمياً ، بقي مرعي الجانب بحيث ان المملكة الجديدة ما كاد يستتب الامر فيها حتى راحت عام ٢٢٠ و٢٣٠ ترسل بعثاتٍ دبلوماسية للحاكم الصيني في التونكين . فلم تحُل هذه البعثات ، مع ذلك ، من متابعة لن - يي ، مهاجمة الممتلكات الصينية وتشديد الخناق عليها . وفي سنة ٢٤٠ ، هاجمت القوات الوطنية مقاطعة هويه واحتلت مدينتين ، ودكت معالمها بعد ان قامت بنهبها وسلبت جميع ما فيها من المقتنيات ، وقد استطاعت ان تصمد في وجه عمارة بحرية صينية جاءت تحمل تعزيزات للحاميات الصينية وأرغمها على التراجع والإنكفاء. وحوالي عام ٢٧٠ ، قام الملك فان - هيونغ ، حفيد الملك كيو - ليان من ابنته ، يستأنف هجماته على القوات الصينية بعد ان عقد حلفاً مع ملك فو - نان المدعو فان - سيون - الذي قد يكون بينه وبين الملك الآخر ، آصرة نسب ، كما يستدل من الكنية المشتركة : فان . وقد اقتفى حاكم

التونكين عشر سنوات من الجهاد المرير والصمود ، استطاع بعدهـــا حمل القوات المهاجمة على النكوص واخلاء المقاطعات التي كانت احتلتها : وهكذا لم تطل سنة ٢٨٠ ، حتى رأينا قوات لن - يي وفو - نان تعود على أعقابها الى داخل بلادهـا . وقد تمتع ابن فان - هيونغ وخليفته على العرش ، وهو المعروف باسم فان - يي ، بملك طويل دام خمسين سنة ؛ واليه يعزى الفضل بارسال اول وفادة رسمية لتمثيل بلاده في بلاط ملك الصين، عام ٢٨٤ ، اذا ما رأينا ان نضرب صفحاً عن البعثات التي كانت أرسلت بين ٢٢٠ - ٢٣٠ ، الى مقاطعة التونكين . وقـــد ساد السلام البلاد ، في عهده ، بعد ان زاد من عدد جيشه ، واحسن تدريبه على فنون الحرب ، وزاد في تحصين المدن الكبرى في البلاد . وقد وجد في ادارته وحكه البلاد عوناً كبيراً ، من قبـل شخص يعرف باسم : وَن يقوم الشك حول أصله وفصله ، وحسبه ونسبه ، اذ يرى فيه بعضهم ، صينياً من مقاطعة يانغ - تشيُو ، بيع في أسواق النخاسة والرق وهو صغير ، كما يرى بعضهم فيه رجلاً من أبنـــاء البلاد تخلّق بأخلاق الصينيين . فقد عمل ، في بادىء الامر ، في خدمة زعيم متوحش في احدى مقاطعات جي - نان ، حيث كشفت له الاقدار بصورة عجيبة، الدور الذي أعدته له . وبعد ان هرب من خدمة سيده ، استجار بأحد التجار في مملكة لن - يي وعمـل في خدمته ، وفي هذا السبيل قام بعدة رحلات الى الصين. واستقر به المطاف اخيراً، بعد عام ٣١٥ بقليل ، في لن - يي ، ولم يلبث ان دخل في خدمة ملكهم الذي عرف ان يفيد من المعلومات والاختبارات الواسعة التي تمت لهذا الرجل ، خلال أسفاره ورحلاته الطويلة ؛ فأطلعه فيما أطلعه عليه من أشياء ، على كيفيـة تشييد القصور على الطراز الصيني ، مع الأبهاء القائمة على الاعمدة ، وطريقة أقامة التحصينات حول المدن ، وبناء القلاع والخنادق حولها ، وكيفية صنع المركبات الحربيـة والاسلحة على أنواعها ؛ كذلك تولى تدريب عدد من العمال والصنّاع على صنع آلات الطرب والموسيقى على اختلافها . وهكذا تمكن ، بما تم له من رجحان العقل وبمـا أوتي من الكفاءات ان ينال حظوة عند الملك ، فعينه قائداً عاماً لجيشه ، وعرف ، بهذه الصفة ، ان يكسب ولاء جميع ضباط الجيش . ثم راح يوغر صدر الملـك ضد أولاده ، وهكذا تمكن من ابعادهم عن البلاط وبالتالي من حرمانهم حق الوراثة . ولما شاخ الملك وطعن في السن،دس قائده السم لورثته ، ثم اعتلى العرش ، عام ٣٣٦ ، باسم الملك فان - ون .

وعندما تم له الأمر ، اخذ في إنجاز ما كان باشر به من اصلاحات في عهد سيده ، واستخدم جيشه القوي للقضاء على الممالك المستقلة التي استطاعت ان تحافظ على استقلالها الداخلي . وما ان تمت له السيطرة التـامة على البلاد ، حتى أرسل عام ٣٤٠ ، هدية الى الامبراطور تسن ، تضم فيلة أليفة مع رسالة مكتوبة بخط هندي ، الامر الذي يدل على درجة اقتباس لن - يي الثقافة الهندية . وقد رمى من وفادته الدبلوماسية هذه ، لتحقيق هدف معين ، اذ طلب من الصين ان تُرجع حدودها الى جبال هوانغ - سن ، أي الى أبواب الانـام، اذ كانت نفسه تزين له الاستيلاء على أراضي جي - نان الخصبة. ولما تأخر جواب امبراطور الصين وفرغ صبره من طول الانتظار ، اغتنم فان - ون اول فرصة سنحت له واستولى على الاراضي والمقاطعات التي رغب في امتلاكها؛

وقد تم له ذلك سنة ٣٤٧ ؛ وقد كان سكان جي ـ نان يتألمون كثيراً من المظالم وأنواع التعسفات التي كان الموظفون الصينيون ينزلونها بهم ؛ وهم على الغالب ، من شذاذ الآفاق فيرهقون الاهلين بصنوف أعمال الجور والاستبداد ، الامر الذي كثيراً ما حمل سكان البلاد على الثورة والانتقاض على الحكم الصيني . وقد اتفق ان راح حاكم المقاطعة يفرض على السكان ، عام ٣٤٧ ، ضرائب جديدة أثقلت كواهلهم ، كما اندفع بدون حساب لميوله الفاسقة . واذ ذاك قرر فان ـ ون استغلال هذا الظرف بالذات وان يستفيد الى أقصى حـــد ، من هيجان الشعب وانتفاضته ضد الحاكم الصيني، فهاجم المقاطعة، وألقى القبض على الحاكم ، وأمر بقتله، ونهب مدنها ودك معاقلها وحصونها . ثم وضع شروطه للسلم ، منها ضم المقاطعة لمملكته . وقد ردّت الصين على هـــذه الاعمال بارسال حملة عسكرية تأديبية إلا ان فان ـ ون هاجمها بقوة وشلتها في السنة ذاتها . وفي سنة ٣٤٨، هاجم وهو واثق من قوته، الولاية المجاورة ، وقام بمجزرة هائلة بين الحامية الصينية . وفي سنة ٣٤٩ ، جهّز حملة عسكرية جديدة ، الى الشمال من حدوده الجديدة . إلا انه أصيب في المعركة بضربة قاتلة فمات وخلفه على الملك ابنه فان ـ فو .

وراح الملك الجديـــد يتابع السير في الخط الذي رسمه أبوه ويسير على السياسة التي نهجها أسلافه في توسيع نطاق مملكته الى الشمال . وما كاد يعتلي العرش حتى استأنف الحملة العسكرية التي لقي أبوه فيها حتفه . إلا انـــه أصيب بالفشل تباعاً ، عام ٣٥١ و ٣٥٩ ، وهكذا أرغِم التخلي عن معظم الفتوحات التي قام بها فان ـ ون . واضطر منذ ذلك الحين فصاعداً ، ان يرعى حرمة الولاء التي تربطه بامبراطور الصين ، ويرسل له بانتظام ، الجزية المترتبة عليه ، كما أرسل اليه وفادتين : الاولى عام ٣٧٢ والثانية بعد ذلك بخمس سنين ، أي في عام ٣٧٧ ، ومات عام ٣٨٠ . وقـد يمكن ان نرى في فان ـ فو نفسه ، الملك بهادرافارمان الاول ، صاحب النصب التذكاري لتأسيس اول معبد شُيّد في مقاطعة مي ـ سون . فان صح الافتراض ، فقد يكون تم لنا البرهان القاطع ، على اخذ الطبقات الحاكمة في البلاد ، بأسباب الحضارة الهندية ، منذ هذا العهد بالذات ، وتغلغل سلطة البراهمان اليها . فهذه النقيشة التي تُعد بحق من أهم الآثار التي أطلعتها الارض الهندية الصينية تشيد عالياً وتثني على الإله سيفا ماهسفارا ، وعلى زوجته أوما، وعلى براهما وفيشنو ، وعلى الارض ، والريح والفضاء والنـار . ثم تأخذ بتحديد الدائرة التي تكون أساس وقفية دائمة باسم الإله سيفا بهادرسفارا الذي يذكرنا اسمه باسم مؤسس هـــذه الوقفية ، وفقاً لعادة يعمل بها سواءً في مقاطعة تشامبا او في بلاد خمير . في هذه الدائرة المحددة «تُوقف الارض ومن عليها من السكان» . ويترتب عليهم ان يقدّموا للإله ، قسماً من غلة الارض، باستثناء قسم ضئيل جداً، يحتفظ به سيدالبلاد. ومقابل هذه الحصة المسلمة للإله ، يُعفى صاحبها من العمل المترتب عليه إلا ما كان لا بد منه لتأمين حياة الملك والبلاط ، ومع ان أسلوب انشاء هذه الرقيمة يتصف بالركاكة، وقواعد الاعراب فيها مضطربة قلقة، فهي تبرز مع ذلك ، شيئاً هاماً ، وهو ان الملك يحمل ، منذ اواخر القرن الرابع ، اسماً هندياً ، ويستعمل السنسكريتية كلغة رسمية مقدسة ، ويتشبه باله الهيكل فيحمل اسمه . ويشير الى الأهمية التي يعلقها على هذا

الانتساب بتخصيصه وقفية يجريها باحتفال رسمي . ومن المحتمـــل جداً ان يكون الإله يهادرسفارا إلهاً محلياً، ويرمز الى سيفا الذي تمت عبادته بأهمية كبرى في مقاطعتي كمبوديا وشمبـا .

فالمعلومات التي نجمعها مـن المصادر الصينية حول عادات لن ـ يي تلقي ضوءاً جديداً على حوادث هذا العهد . فالملك ، يخرج راكباً الفيل ، يتقدمه حملة الاصداف والطبول ، فوق رأسه مظلة ، ويحيط بـــه خدَم يلوحون بالاعلام والبيارق . وهو يعتمر عمة مستطيلة محلاة بأزهار الذهب ، لها شرابة من الحرير . مراسم دفنه تتم في اليوم السابع من وفاته .« يُلف جسمه بكل اعتناء ، وينقَل الى شاطىء البحر او النهر ، على قرع الطبول ورقص الراقصين ، ثم يحرق على كومة من الحطب يجمعها الحاضرون. وتجمع العظام وتوضع في وعاءمن الذهب وتطرح في البحر».

والتسلسل الاجتماعي او الطبقي يظهر بأشكال مختلفة . ففي الوقت الذي يلبس فيه الجميـع زياً بدائياً ، هو عبارة عن قطعة من القماش يلفونها حول اجسامهم ، وأقراطاً في آذانهم ، نرى الطبقة الممتازة او المتميزة تضع احذية في أرجلها ، بينما العامة من الناس يمشون حفاة . كذلك مآتم الموظفين تقام ثلاثة ايام بعد وفاتهم ، في حين ان العامة من الشعب يدفنون في اليوم التـالي لوفاتهم : وبينما رفات كبـــار القوم توضع في وعاء من الفضة وتطرح في مصب النهر ، نرى سواد الشعب الذي لم يتميز عن غيره بشيء يقنع بوعاء من الفخار ويطرح في مياه البحر .

تعقد حفلات الزواج أبان شهر الحصاد . فالبنات يتقدمن من الشبان بطلب الزواج وليس محظوراً قط على ذوي القربى ان يتزوجوا من بعضهم البعض . ويضفر النساء شعورهن فوق الرأس بشكل مطرقة او قدوم . وعلامةً على الحداد ، يقص أقارب الزوجين ، خـــلال المآتم شعورهم . وبعض النساء الارامل اللواتي لا يردن ان يتعزين لفقد ازواجهن يدعن شعورهن تنمو ويرسلنه على أكتافهن الى آخر ايامهن .

اما المظهر الخارجي لسكان البـــلاد الاصليين الذين كثيراً ما نوّه المؤرخون والرواة بقسوة طباعهم ومغامراتهم في الحرب ، فقد وصفه لنا الصينيون كما يلي : « هم رجال حرب قساة ، لا تعرف الرحمة سبيلاً الى قلوبهم . عيونهم غارقة في محاجرها ، والانف عندهم بارز مستقيم والشعر أسود، جعد ، يسكنون بيوتاً من اللبن المشوي طُليت حيطانها بالجص ويعلوها سقف مسطح ، أبوابها تتجه دوماً الى الشمال ، وان شذ البعض عن العرف . سلاحهم القوس والسيوف القصيرة والرموح والنبال يتخذونها من الخيزران .. وعندهم عدة للطرب بينها القيثارة والعود ذي الخمسة الاوتار والناي .

وفي الحقبة التالية ، سيتاح لهذا المجتمع ان ينمو وينفتح . فترسخ عظمة بلاد لن ـ يي بعد ان صارت تعرف باسم شمبا وتتوطد ، بعد ان تخوض معارك قاسية ضد الصينيين وسكان بـلاد الأنام . واذ ذاك فقط ، يمكن اعتبار عملية استهناد هذه البلاد تمت واكتملت .

الفصل الرابع

الكتلة الصينية

لسنا نقصد العودة الى اللوحة التي رسمناها عن صين الهان في المجلد السابق والتوسع فيها . فالتبدلات التي يمكن الاشارة اليها بين صين الهان السابقين وصين الهان اللاحقين ليست ذات شأن. ولذلك نرى من الافضل هنا استعراض بعض مظاهر الثقافة الصينية في القرن الاول حتى اواخر القرن الرابع وتشديد الكلام على ما قد تنطوي عليه من تفرد وما يميزها حقاً في هذا العهد . فالصفحات السابقة وتلك التي كرست لها في المجلد الاول[1] قد أبرزت تطورها السياسي ووصفت حياتها اليومية واطارها . ويجدر الآن ، حتى تأتي اللوحة كاملة ، ان نعلق أهمية خاصة على نمو الفكر والديانات والعلوم، أي ، بكلمة موجزة ، على كل ما يعطي معنى عميقاً لهذه الحياة اليومية المستمدة بفضل علم الآثار والنصوص .

تنفتح امامنا ثلاثة نطاقات لجولتنا هذه في حياة الماضي : في الدرجة الاولى ، نطاق يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة السياسية والتطور التاريخي ، هو الوضع الاجتماعي طيلة هذا العهد وميزاته وأزماته . وفي الدرجة الثانية نطاق الديانات الذي يحمل طابع حدث على جانب كبير من الأهمية : دخول البوذية الى الصين ، وتحضير هذا الدخول بفضل موقف الطاوية ، وردود فعل هذه الاخيرة امام الداخل الجديد . وعلينا اخيراً امعان النظر في النطاق التقني والعلمي حيث احتل التنجيم مركزاً هاماً وحيث ظهرت بعض الاكتشافات الخطيرة .

ستبرز حينذاك الحضارة الصينية في عهد الهان والسلالات الست على حقيقتها الكاملة : حضارة بلاد شاسعة الاطراف ، لا تزال في طور التكوين ، تفيد من حيوية وذكاء سكانها من اعداد ثروة ثقافية ستجعل منها احدى حضارات العالم العظمى. وحين تتبصر فيها كمجموع تتجلى امامنا بتعقيدها الكلي ، وبوحدتها الكلية ايضاً . يبدو مجتمعها ، المرتكز الى العائلة : خاضعاً للتسلسل على غير جمود ، وطافحاً حياة ونشاطاً ، ومتمتعاً بسلم حقيقي، وخابراً مع ذلك عهود اضطرابات وثورات ومولعاً بالبذخ والمغامرة وموسعاً بفتوحاته التجارة والاستعمار، ومستنداً الى شغفه الفطري بالتمرف. الى العالم الذي ينبئه المسافرون بعجائبه وموطداً اخيراً واقعيته العميقة على الرغم من اخذه بالاساطير والخرافة .

---

(١) الشرق واليونان القديمة - منشورات عويدات .

١ ـ الوضع الاجتماعي

المجتمع

ان هذه اللوحة الشاملة للمجتمع الصيني في عهد الهان تستوجب تعميق النظر في نقاط عدة . ليس حينذاك في الصين من مدن كبرى سوى العاصمتين الامبراطوريتين والعاصمتين او العواصم الثلاث للامارات الاقطاعية العظمى السابقة : وليست المدن سوى حصون صغيرة يعيش فيها الموظفون والحامية العسكرية وبعض التجار . يمارس الصناعيون اليدويون عملهم على نطاق ضيق في المدن والقرى ؛ ويستنتج بالتالي ان عددهم لم يكن مرتفعاً . يعيش باقي السكان في الأرياف : لذلك ألف الملاكون ، صغارهم وكبارهم ، مع الفلاحين ، الشطر الأهم في المجتمع ، ولذلك كان سواد السكان ريفيين لا مدنيين . غير ان كثافة السكان ما زالت متدنية لأن البلاد واسعة جداً .

في أعلى السلم الاجتماعي يتربع كبار الملاكين ، أعني بهم «الملوك» ، أي أبناء الاباطرة الذين تسلموا امارة تابعة ، والاميرات التي يدير القيّمون ممتلكاتهن ، والمقدمون الذين أنعم عليهم باقطاعة بسبب لقبهم الشرفي ، والافراد الاثرياء ، ومعظم الموظفين. وتأتي بعدهم طبقة الفلاحين الكادحين الذين يملكون القليل من الاراضي وقد لا يملكون شيئاً. وفي أسفل السلم نرى العبيد الذين يخصصون للخدمة المنزلية والأعمال الشاقة ، ولا يحرثون الارض على العموم . وغالباً ما يكون هؤلاء العبيد من مجرمي الحق العام ويشتغلون بأكثريتهم لحساب الدولة : فيستخدم عدة آلاف منهم في المشاريع القومية لاستثمار الحديد والملح ، بينما يخدم غيرهم في الادارات والقصر الامبراطوري . ولكن سوادهم الأعظم خدام العائلات الاشراف ومستخدمون عند التجار الأثرياء . وتتغذى سوق الارقاء بوسائل أخرى غير جمعهم بين المحكومين : فغالباً ما يسرق الاولاد او يُبتاعون من والديهم ، ويختطف الفتيان عنوة او مفاجأة ، ويبيع البرابرة أسرى غزواتهم من الجماعات الصينية . ولكن أبناء الارقاء ، كما يبدو ، كانوا احراراً في نظر القانون ، ما لم يبعهم والدوهم او يبقوهم في حالة الرق التي كانوا فيها .

عاشت العائلات الثرية حياة زهو كثيرة النفقات : فقد كان لدى بعضها عدة عشرات من السراري المجموعات في الاحرام ، وعدة مئات ، او ألوف احياناً ، من العبيد والموسيقيين والمغنين والممثلين والكلاب والجياد؛ وأقامت في مقرات رحبة تستلزم الاكات المشجّرة والابواب الضخمة والفساطيط والشرف والشوارع والطرقات .

النظام العقاري

ان هذا التنظيم الذي يكاد يكون ريفياً ، ورثته صين الهان عن العهد السابق . فكبار الملاكين ومتوسطوهم لا يتعاطون الزراعة بأنفسهم . وهم فئتان : اولئك الذين يمتلكون الارض فقط ويطلق على أملاكهم اذ ذاك « منغ ـ تيان » ؛ واولئك الذين يمتلكون أرضاً تعرف باسم « يي » ، ويستوفون بالاضافة الى ذلك رسماً على سكان الارض . اما امتلاك الارض « يي » ، الذي يقرّه مرسوم امبراطوري يمنح لقباً شرفياً ، فلا يخضع لبيع او ابتياع .

والاراضي الـ « يي » قليلة في عهد الهان لأن عدد المقدمين قليل جداً ، وليس لدينا من ثم سوى معلومات نادرة عنها ؛ وجل ما نعتقده هو ان سيد الـ « يي » يتسلم محصول الضرائب — الضريبة العقارية والضريبة الشخصية — ويدفع رسماً على السكان . فنحن نعرف مثلاً، سيداً يتوجب عليه ٢٥٠٠ قطعة نقدية عن ألف شخص ، في حال انه يستوفي ١٢٠ قطعة عن اليافع . فتصور الربح الصافي الذي يحققه .

اما الملك الخاص ، « منغ ـ تيان » ففي متناول الجميع ، النبلاء وعامة الشعب ؛ ولا يقرّر مساحته سوى الثروة الشخصية . وبما ان موارد الثروة الطبيعية محصورة في الاستثمار الزراعي ، فالملاكون العقاريون كثيرون : ولما كانت الادارة والمثقفون يتصمدون عرقلة التجارة والصناعة ، كانت الارض وحدها ما يوفر سبل العيش للعائلة الريفية . ولا يضم هؤلاء الملاكون الموظفين وعامة الشعب فحسب ، بل كافة العائلات الكبرى ايضاً .

لا يخضع بيع وابتياع هذه الاملاك لأي قيد . ويبدو ان الاسعار غير مرتفعة ايضاً . امـا العقود فقصيرة الاجل وصريحة جـــداً يحدّد فيها التاريخ الكامل وقياسات الارض بالخطوات والسعر الاجمالي واسم الشاهدين والقيمة المخصصة لكل منهما لقاء أتعابهما. ووحدة قياس المساحة هي الـ « ميو » : وهي طريدة طويلة تبلغ ٢٤٠ خطوة طولاً وخطوة واحدة عرضاً أي حوالي ٢٤٥ م × ١٫٤٥ م ، او خمسة آرات تقريباً . وهـذه المساحة هي ما تستطيع العائلة زراعته ، ولا يتجاوز محصول الـ « ميو » — الذي تفتح فيه ثلاثة اثلام — الـ ١٠٠ « شي » (*Che*) أي ٢٠ هكتوليتر تقريباً .

تؤجر الاملاك، لا سيا أملاك الموظفين الذين تمنعهم وظيفتهم من مغادرة المدينة، الى مزارعين او شركاء يتقاسمون محصول المزروعات مناصفة مع الملاك . اما املاك الافراد العاديين فيزرعها العبيد والعمال الزراعيون الذين تدفع لهم أجور خدماتهم . وهنالك فئة الاراضي المشاعية التي تكل القرية امر زراعتها مؤقتاً الى الفلاحين ، والاراضي البائرة التي يحوّلها الفلاحون المهاجرون الى ارض صالحة للزراعة ويستثمرونها لحساب الدولة .

يعيش كبار الملاكين ومتوسطوهم حياة على بعض السعة تؤمنها لهم أتاوات مزارعيهم ؛ ولا يدفع الموظفون بعض الضرائب ولا تتناولهم اعمال التسخير . عندما ينهون أعمالهم ، يعدّون وجبة لذيذة قوامها لحم الضان فيأكلون ويشربون النبيذ، ثم يغنّون الاغاني في جو عائلي يرافقهم عبيدهم وينهون السهرة بالرقص

اما حياة الفلاح فغير ذلك، لأنه يخضع لأعمال التسخير الرسمية ويقوم بأعمال الارض الشاقة . « يفلحون في الربيع، ويقلعون الحشائش في الصيف، ويحصدون في الخريف ، ويخزنون المحاصيل في المزي في الخريف، ويقومون بأعمال السخرة، ويقطعون الخشب للتدفئة، ويخدمون السلطات . في الربيع لا يستطيعون النجاة من الريح والغبار ؛ وفي الصيف من الحر والشمس ، وفي الخريف من تقلب الطقس والمطر ؛ وفي الشتاء من البرد والجليد ؛ لا يتمتعون طيلة الفصول الاربعة بيوم

راجة واحـــد . ناهيك عن أعمالهم الخاصة : فانهم يشيّعون المسافرين ويستقبلون العائدين ؛ يعزّون بالموتى ويعودون المرضى ، يغذون الايتام ويربون الاولاد . وعليهم ، بعد هـذا التعنى والشقاء، ان يتحملوا كوارث الفيضان والجفاف واوامر الحكومة الملحة بالطلب ودفع الضرائب في غير مواعيدها والاوامر المتناقضة بين صباح ومساء . حينذاك يضطر الذين يمتلكون شيئاً الى بيعه بنصف ثمن والذين لا يمتلكون شيئاً الى الاستقراض والتعهد باعادة الضعف ضعفين ؛ وقد يبيع بعضهم حقولهم وبيوتهم واولادهم وحفدتهم حتى يدفعوا ديونهم» («تشاورو تسو» في كتابه تسيان – هان تشو ، الفصل ٢٤ ، الجزء الاول ، ترجمة شافان) .

يملك بعض الفلاحين بيتاً وحقلاً او عدة حقول . اما الباقون فلا يملكون شيئاً . وغالباً ما يضطر صغار الملاكين بينهم الى بيع ممتلكاتهم : وتستخدم العائلات الغنية احياناً اساليب مغايرة القانون لتوسيع املاكها ؛ فهنالك امثلة عدة عن ضغط كبار الملاكين على صغار الملاكين بغية انتزاع املاكهم منهم بثمن بخس : وبعد هذا التوسيع يشيدون في اراضيهم قصراً يحيطونــه بحديقة غناء . اما الذين افقروهم فيضطرون آنذاك العمل في الزراعة لقـــاء اجر يومي ؛ وقد يخصصون موقتاً بقطعة ارض مشاعية لا تكاد زراعتها تنتج لهم ما يسدون به حاجات عائلتهم ؛ اضف الى ذلك ان تصرفهم بهذه القطعة محدد الاجل ، ولا تمتلك كل قرية اراضي مشاعية تكفي لجميع الفلاحين ، فلا يبقى امامهم الا الهجرة الى المناطق البائرة الواسعة . ولكن استثمار هذه الاراضي يستوجب اعمالاً – صرف مياه وري – تكلف الدولة اموالاً طائـــلة ، وباستطاعة الدولة وحدها ان تتحملها. اضف الى ذلك وجوب النظر الى تعاقب زراعة الارض واستراحتها وادخال ذلك في حساب توزيع الاراضي على الفلاحين. واضف الى ذلك اخيراً ان ضيق مساحة الاراضي المزروعة من جهة ، ووفرة اليد العاملة الزراعية من جهة ثانية ، غالباً ما يضعان الكادحين الريفيين في وضع عسير جداً . فيغادر الارضَ فلاحون كثيرون ويطلبون عملاً زراعيـــاً في الممتلكات الصينية الجديدة في الجنوب او يمتهنون الجندية او القرصنة ، دون ان يتمكنوا مع ذلك من التخلص نهائياً من بؤسهم .

اقترحت على التوالي عدة علاجات لمداواة هذا الوضع . فحاولوا اما تحديد مساحة الاملاك الخاصة تحت طائلة حجز الفائض عن المساحة المرخص بها ؛ واما تحديد عدد العبيد والعمال الذين يشتغلون عند كبار الملاكين ، وهذا يدني بكل تأكيد امكانات الزراعــة ويفضي بالضرورة الى تجزئة الاملاك الخاصة . وواجهوا ايضاً تحسين تقنية الزراعة بغية الحصول على انتاج اوفر . وقد سبق وتحققت هذه النجاحات في القرن الاول قبل المسيح ، وقامت بنوع خـاص بحمل الدورة الزراعية على اساس التلم لا على اساس القطع الكاملة ، وبايلاء نزع الحشائش مزيداً من العناية ، على ان يلي هذا النزع تكويم التراب حول المزروعات الفتية حال ظهورها ، واستخدمت كذلك بذّارة تصلح لبذر ثلاثة اتلام في آن واحد. فنزعت هذه التدابير الى ازالة نظام استراحة الارض بصورة تدريجية .

ولكن القانون لم يطبق يوماً بحذافيره ، فبقيت الاملاك الواسعة ، في اغلب الاحيـان ، على

ما كانت عليه ، وشأنها في ذلك شأن وضع الفلاحين .

الاعباء الاميرية ومداخيل الدولة

فرضت بعض الرسوم والضرائب على السكان ، فأثقلت كاهلهم بصورة خاصة الضريبة الشخصية التي تناولت اليفعان والاولاد الذين تجاوزوا سن السابعة ، والرسم العسكري ، والضريبة العقارية ، والضريبة على الدخل التي تناولت الصناعيين والتجار في الدرجة الاولى . ولم تدفع كل هذه الاعباء نقداً بل عيناً ايضاً ، وحبوباً في اغلب الاحيان . وغالباً ما تكلف هذه الطريقة الاخيرة غالياً اذ انها تستلزم نقل الحبوب الى المستودعات الامبراطورية ، والنقل عملية بطيئة معرضة لاخطار اللصوصية المسلحة : فإذا ما حجزت الحبوب ، توجب نقل غيرها . واضيفت الى هذه الرسوم المباشرة تلك التي تعود الى احتكارات الدولة ؛ وهذه تتناول الملح والحديد والنقد والمحاصيل الطبيعية كمحاصيل الصيد والقنص والعسل وخشب الاحراج ، والخمور في عهد « وانغ مانغ».

تستخدم الدولة هذه الاحتكارات وهذه المحاصيل استخداماً يتيح لها ان تجني منها حداً اعلى من الارباح . وهكذا فهي تشتري الحبوب حين تبلغ سعرها الادنى وتعيد بيعها حين تبلغ سعرها الاعلى . واذا ما افضت هذه الطريقة الى اثراء الخزانة ، فمن الثابت ان الشعب هو الضحية لان هذه الضرائب وهذه «الرقابات» تتناول في الواقع المواد الغذائية الضرورية جداً . وقد جنت الدولة مزيداً من الارباح ايضاً من تقلبات الاسعار بين مناطق الامبراطورية المختلفة عامدة الى الشراء حيث تكون الاسعار اكثر تدنياً .

اصلاحات وانغ – مانغ

في القرن الاول بعد المسيح، ادخل المتغصب «وانغ مانغ» اصلاحات بلبلت الاقتصاد الصيني لفترة قصيرة . ولكن مهما بلغ من قصر هذه الفترة، فمن المفيد ان نتوقف عندها بعض الوقت لأن اصلاحاتها ترتكز الى النظريات الكونفوشيوسية التي وجهت الفكر الصيني والاخلاق الصينية منذ قرون . غير ان محاولة وانغ مانغ تتصف في آن واحد بأنها ترتدي طابع العمل المبتكر وتنطوي على سيئة تطبيق التقليد الكونفوشيوسي تطبيقاً اعمى دون اي اعتبار الى ما عليه الاختبار . كان وانغ مانغ (٩ – ٢٣ بعد المسيح) في الحقيقة شخصاً غريباً : فهو الممهد الحقيقي للنظريات الاشتراكية ، وكان ماهراً جداً في توجيه الرأي العام كما يشاء. وإنما يبدو، على الرغم من تدشينه سياسة ترتكز الى الاصلاحات الاقتصادية، انه لم يكترث برفاهية الشعب ومصالحه ، بل ضحى بها في النهاية على مذبح انانيته . فكان في الواقع ، على علمه بالاصول ، واقفاً عند النظريات ، متعصباً لمثل كونفوشيوس الذي نادى بتقليد العادات القديمة . بيد ان الكونفوشيوسية كانت في عهد الهان السلطة الوحيدة المعترف بها التي تساندها الحكومة الامبراطورية وتطبقها على اقل الاحداث اهمية في الحياة الخاصة او الرسمية.
وكان وانغ مانغ ، وهو ابن عم الامبراطور ، كونفوشيوسيا متحمساً ، إلا انه كان فقيراً لا يحمل لقباً شرفياً . عاش في البدء حياة تقتير ، مواظباً على درس الكلاسيكيين ومرتدياً ملابس رجال الفكر من الكونفوشيوسيين . اصبح نبيلاً في السنة ١٦ قبل المسيح وخدمته الظروف تدريجياً – وفاة الامبراطور ، وصاية عمته – فتوصل يوماً بعد يوم الى أن يكون له

أثر بعيد في البلاط الذي فرض عليه الأخلاق الكونفوشيوسية بشكل تشدّده . فازدادت بذلك شهرته وتعاظمت شعبيته ، حتى ان العرش ، عرض عليه ، حين توفي الامبراطور الشاب في السنة ٦ بعد المسيح . وافق ذلك طموحه وشغفه بالدسائس ، فاعتلى العرش في السنة ٩ بعد المسيح ، وشرع دون إبطاء في تحقيق اصلاحاته . شمل برنامجه النظام النقدي ، وأنظمة اقطاع الاراضي ، وإلغاء الرق ، واحتكارات الدولة والضرائب ورقابة الاسعار . فبرهن وانغ مانغ عن أنه دكتاتور حقيقي ، على بعض المثالية ، واستخدم لمصلحته شعبية المذهب الكونفوشيوسي ، ولكنه ضيّق الخناق على الشعب بتصميمه على ان يفرض عليه نهجاً حياتياً لا يتفق والمعاضل البشرية التي أثارها . في السنة ٢٢ بعد المسيح ، انفجرت الثورة عليه ، ففقد شعبيته لدى الشعب وزاد في فقدانها ما علق الشعب عليه من آمال ، وفي خريف السنة ٢٣ استولى الثائرون على العاصمة وقبضوا على وانغ مانغ وقتلوه .

ان الاصلاحات التي بعثت هذه البغضاء تناولت في الواقع كل اقتصاد الامبراطورية . فقد باشر وانغ مانغ اقرار التأميم في كل الحقول ، مما خلخل توازن النظام الذي اعتمده الهان ، والوضع الاجتماعي الذي وصفناه اعلاه .

كانت مسألة النقد اعظم المسائل حدّة . فقد كانت قاعدة النهب ، حتى ذاك العهد ، متداولة بحرية ، بشكل سبائك ، تزن الواحدة منها ٢٤٤ غراماً . ومع ان ضرائب وأجوراً كثيرة كانت تدفع عيناً ، كلها أو نصفها ، فان الذهب كان ضرورياً لتسديد الضريبة الشخصية التي تتناول البالغين والأولاد فوق سن السابعة ، والضريبة على الدخل المفروضة على الصناعيين ، والرسوم المطلوب جمعها من الحكام الاقليميين في كل سنة ، والضرائب على بعض الأصناف التي لم تدفع عيناً إلا بنسبة ٥٠٪ فقط . فاتخذ وانغ مانغ ، منذ استلامه الحكم ، تدابير قاسية جداً لم يكن القصد منها ، على ما يبدو ، تطبيق النظريات الكونفوشيوسية فحسب ، بل إثراء الخزانة الامبراطورية أيضاً وبنوع خاص . ومع ذلك ، فعلى الرغم من الاعباء العسكرية التي أوجدها بمهاجمة الهون ــ وقد اوجب عليه ذلك إرسال ٢٠٠٠٠٠ رجل الى الحدود على أهبة الاستعداد للحرب ، وتعبئة ٣٠٠٠٠٠ رجل للقيام بحملة ضدهم ــ جمع وانغ مانغ اموالاً طائلة ؛ فقد وجد في الماكن الامبراطورية ، بعد اعدامه ، ١٤٠٠ طناً ذهباً ، يضاف إليها القطع الحريرية الثمينة والجواهر واليشب وغير ذلك مما جمع في مكاتب القصر المختلفة . غير أن وانغ مانغ لم يمسّ هذه الثروة لمنفعته الخاصة ، حتى ولو اضطرته الحاجة الى ذلك ، ولم ينقطع قط عن حياته التقتيرية .

لقد قرر وانغ مانغ ، رغبة منه في جمع الذهب المتداول لمنفعة الخزانة الامبراطورية ، ألا يسمح إلا « للملوك » باقتنائه . فتوجب على الأشراف والشعب ، تحت طائلة عقوبة الموت او النفي ، نقل كل ما هو بحوزتهم منه الى خزانة الامبراطور الخاصة . ووضعت الخزانة في التداول ، بالمبادلة ، قطعاً برونزية متفاوتة الوزن هي أبعد من ان تعوض عن الذهب . فكان لهذا التدبير الجذري في اسقاط قيمة النقد نتائجه الوخيمة على ذوي العلاقة ، لا سيا وان الذهب

هو القوة الوحيدة لدى طبقة الأثرياء الذين يحتاجون اليه بصورة ملحة لدفع الضرائب والمطالب المخزانة . وقد افتقر ، بالاضافة الى النبلاء ، التجار والافراد الذين كانوا يملكون وحدهم تقريباً كل النهب الذي لم يكن في حوزة الحكومة . ولعل اصابة التجار بهذا التدبير كانت أعظم من اصابة غيرهم لأن القانون حرّم عليهم امتلاك الاراضي والانخراط في الوظائف الرسمية . اما الفلاحون فكانوا افضل حالاً : لأنهم لم يستعملوا النقد إلا نادراً معتمدين المقايضة في الدرجة الاولى ؛ أضف الى ذلك ان سياسة الحكومة كانت تستهدف محاربة التجارة وتشجيع الزراعة ، فقدمت الدولة للمزارعين تكراراً قروضاً متنوعة قد تكون بذاراً او مواد غذائية او ثيراناً الفلاحة ؛ وكان عليهم مبدئياً اعادتها للدولة ؛ ولكن غالباً ما تركت لهم بقرار امبراطوري .

غير ان حال الطبقة الزراعية لم تكن في الواقع كما يبدو من هذا الوصف : فعلى غرار قسم كبير من السكان اضطر الفلاحون الى الاستدانة بفوائد مرتفعة جداً . وإنما لجأوا الى الاستدانة للتمكن من الانفاق على الاحتفالات الدينية ، ولا سيما الجنائز منها ؛ وعقد التجار قروضاً بغية النهوض بمشروع تجاري جديد ، والنبلاء الجدد بغية التمكن من اقتناء العدة المفروض عليهم تقديمها للاشتراك في الحملات العسكرية .

ما ان نشرت المراسيم الامبراطورية التي اقر بموجبها تخفيض قيمة النقد ، تحت طائلة عقوبة الموت أو النفي ، حتى عم الاضطراب الشعب بأكمله . ومردّ ذلك الى ان ثلاثة ارباع الصينيين تقوضت ثرواتهم بصورة قاسية ، وكسدت المواد الغذائية في الاسواق ، وبات الفقراء « يبكون وينوحون في الساحات العامة والشوارع» . فأصبح من الصعب احصاء المحكومين بالموت ابتداء من الوزراء حتى افراد الطبقات الدنيا . وارتفعت الأسعار ارتفاعاً مضطرباً ، ولم تستوف الضرائب إلا نقداً قليل القيمة ، ولم تكف الأجور لتأمين المعيشة . فاضطر وانغ مانغ في السنة ١٤ بعد المسيح الى اقرار نقد سليم ، ولكنه لم ينفذ قراره إلاّ جزئياً واعطى مهلة ست سنوات لاستبدال القطع النقدية القديمة بالقطع النقدية الجديدة . وفي هذا التحويل الثاني ، فقد اصحاب الثروات تسعة اعشار ما كان متبقياً لديهم . لذلك فقد زيف النقد على نطاق واسع . فأمر وانغ مانغ ، للحيلولة دون التزييف ، ان تؤلف العائلات من خمسة اشخاص يكون كل منهم مسؤولاً عن تصرفات الأربعة الآخرين ، ويعاقب الخمسة اذا أقدم أي منهم على مخالفة القانون . ولكن عدد المخالفات وتكررها جعل تنفيذ هذا التدبير امراً مستحيلاً . ومع ذلك فقد نفي السكان بأعداد كبيرة وحكم على عائلات كاملة بالعمل في ظروف بلغ من قسوتها انها أدّت الى موت ستة او سبعة اشخاص من اصل كل عشرة .

اما سياسة اقطاع الارض فلم تكن اقل سوءاً . كان عدد السكان قد ارتفع ارتفاعاً كبيراً في ظل سلم الهان السابقين ؛ فشجع ذلك نمو الاملاك العقارية ، كما أدى احياناً الى المجاعة وازدياد أعمال اللصوصية . فأقر وانغ مانغ في السنة ٩ بعد المسيح اصلاحاً مبنياً على نظام نادى به منشيوس وزعم التقليد الكونفوشيوسي انه يرتقي الى عهد الـ « تشيو » . قسم الـ « لي » (١٢١،٥٠ م٢) بموجب هذا النظام الى تسعة مربعات متساوية تعود الى مجموعة من ثماني عائلات؛ تزرع كلاً من المربعات الخارجية ، ومساحته ١٨٢ آراً ، عائلة تؤمن منه أودها لسنة كاملة .

ويقسم المربع الوسيط بدوره الى تسعة اجزاء تبلغ مساحة كل منها ٢٠ آراً ؛ تزرع كلاً من الاقسام الدائرية الثمانية احدى هذه العائلات الثماني ويقدّم محصولها فريضة للدولة ؛ اما المربع الوسيط فيكرّس للأبنية الريفية والمساكن . ومعنى ذلك ان كل عائلة تزرع هكتارين تقريباً يعود محصول عشرها للدولة . يبدو هذا النظام ممتازاً من الناحية النظرية . ولكنه يكاد يكون مستحيل التطبيق من الناحية العملية : فالارض الزراعية لا يمكن تقسيمها الى مربعات متساوية تماماً ، ولشجون الارض دورها في تقرير حدود كل جزء من الاجزاء . أضف الى ذلك ان هكتارين لا يكفيان لتأمين معيشة عائلة ، إلا اذا كانت الارض جيدة جيداً . وبحجة اولى ، لا يمثل عشر محصول هذه الاجزاء شيئاً يذكر – غير الجهود – اذا كانت الغاية منه تكوين احتياطي جماعي ، كما ان بيع الحبوب لا يمكن ان يسهم في اثراء الخزانة بالنظر الى ضآلة المجموع منها سنوياً . لذلك فقد أضيفت رسوم كثيرة الى هذه الفريضة حتى غدا الفلاحون ، في النهاية ، يدفعون خمسة أعشار دخلهم .

في سبيل تطبيق هذا النظام ، الذي يغلب انه لم يطبق قبل وانغ مانغ او انه لم يطبق إلا على نطاق ضيق ، بدأ وانغ مانغ بتأميم كل الارض ؛ واعتبر الحقول ملكاً للسلطان يمتنع بيعها او نقلها او هبتها . ثم أعاد توزيع الاملاك بالاستناد الى عدد الافراد الذين تتألف منهم العائلة . وهكذا فقد أجيز لعائلة تضم تسعة يفعان من الذكور فما فوق « امتلاك » ٩٠٠ « مو » من الارض الصالحة للزراعة كحدّ أعلى (١٧ هكتاراً تقريباً) ، وفرض على كل عائلة تضم عدداً أعلى او أدنى من اليفعان الذكور ان « تعطي » الفائض من أراضيها الى الانسباء او الجيران . ففقدت الارض من ثمّ قيمتها التجارية ولم يعد باستطاعة كبار الملاكين ان يجنوا منها دخلاً كافياً . وكانت مخالفة هذا القانون ، وحتى انتقاده ، تعاقب بالنفي الى خارج الحدود او بالموت .

وفيما يتعلق بالرق – الذي كان ، الى حد ما ، شرطاً لازدهار الطبقة الثرية – اراد وانغ مانغ كذلك تطبيق النظريات الكونفوشيوسية ؛ وقد سبق ، قبله بمائة سنة ، ان فكر المسؤولون ، دون نتيجة مجدية ، بالغاء الرق . وكان سلف وانغ مانغ قد خفّض عدد العبيد بنسبة وضع الملاكين الاجتماعي : فلم يكن بمكنة الملوك ان يقتنوا منهم أكثر من مائتين ، والاميرات والمقدمين مائة والافراد ثلاثين فقط . ولكن هذا التحديد ايضاً لم ينفذ عملياً . فصمّم وانغ مانغ على إلغاء العبيد إلغاءاً جذرياً ، مستنداً في ذلك الى نص من كونفوشيوس ، ومحوّلاً إياهم الى خدمة الدولة دون غيرها : فلم يبق بموجب القانون الجديد سوى العبيد الذين قضت عليهم أحكام الحق العام بتنفيذ بعض العقوبات . غير ان وانغ مانغ اصطدم هنا ايضاً بمقاومة عنيفة ابداها أثرياء الملاكين فاضطر الى الغاء قانونه سنتين بعد صدوره تحاشياً لثورة معلنة . وحين فرضت ، في السنة ١٧ بعد المسيح ، ضريبة قيمتها ٣٦٠٠ قطعة على كل عبد مستخدم ، لم يكن ذلك لمنع الرق بصورة غير مباشرة ، بل لأن الخزانة الامبراطورية كانت بحاجة آنذاك الى مداخيل هامة .

وكانت الاحتكارات خاتمة تدابير وانغ مانغ الاقتصادية . سبق ورأينا ان بعضها يعود الى العهد السابق – التدابير العائدة للنقد والملح والحديد بنوع خاص ، ورغبة منه في ربط عمله

بكونفوشيوس ، أطلق عليها اسم « كوان » ، أي رقابة ، الواردة في الادب الكونفوشيوسي ، فأقرّ الاحتكارات التي قامت من قبله والاحتكارات الملغاة ، واقام احتكارات اخرى ، كاحتكار المشروبات المخمرة مثلاً : فلم يعد باستطاعة الشعب منذئذ ان يستهلكها إلا لقاء رسم خاص ، بعد ان استأثرت الدولة بحق انتاجها وبيعها . واعاد احتكار محاصيل الجبل : ففرضت الدولة ضريبة على من يقطع الاشجار وعلى كل من كان بحاجة الى هـــذه المحاصيل : اسماك ، قنيص ، الخ .. فأحدثت بالتـالي ضريبة على القناصة والصيادين ومربي دود الحرير والصناعيين اليدويين والمهن الحرة : وتوجب على كل فرد تعيين دخله السنوي ودفع جزء من احد عشر من قيمته . وحكم على كل مـــن يرفض تقديم تصريحه السنوي او يقدم تصريحاً كاذباً بقضاء سنة عبودية في خدمة الدولة . اضف الى ذلك ان الرسم الذي فرض على الاراضي البائرة حدّد بثلاثة اضعاف الرسم العادي . ونشرت قوانين نظمت كلاً من هـــذه الاحتكارات ونصت على ان مخالفتها تعرّض مرتكبها لبعض العقوبات وحتى لعقوبة الموت احياناً . حاولت عدّة شخصيات مقاومة هـذا التشريع وهذه الضرائب التي جعلت حياة الوضعاء عسيرة جداً ، ولكن وانغ مانغ وقف من هذه المقاومة موقفاً صلباً لا يعرف الشفقة معنى . افضت هـــذه التدابير في الحقيقة الى ارتفاع أسعار المواد الغذائية الرئيسية ارتفاعاً عظيماً ثابتاً والى استئثار الدولة بمعظم المشاريع الممتازة في ذاك العهد . غير ان أثرها في الشعب كان أقوى منه في طبقات الاثرياء المجهزة تجهيزاً افضل بفعل امتيازاتها او اجورها . كما ان الموظفين والمستخدمين لم يكونوا في مأمن من هـذه القوانين القاسية : فان أجرهم كان يقرّر كل سنة بالاستناد الى وضع المحاصيل ، فتعذر عليهم من ثم التفكير بغدهم . غير ان بعضهم ، كما نرجح ، قد لجأوا الى الاختلاس وجمعوا بعض الثروة ، اذ ان وانغ مانغ قد امر ، في السنة ١٩ بعد المسيح ، بأن يدفع كافة الموظفين ، باستثناء ذوي الأجور المحدودة منهم ، اربعة أخماس ما تملك يداهم . واعتمد على الوشاية في جمع هذه الضريبة – المعدّة اساساً لتعهد جيش الحدود – : فطاف المفتشون في طول البلاد وعرضها وحثوا العبيد والمرؤوسين على الوشاية بأسيادهم . وقد طلب الى الموظفين ، بالاضافة الى ذلك دفع ضريبة خاصة بغية مكافحة أعمال اللصوصية المسلحة .

فلا عجب من ثم اذا ما لقيت ثورة اوساط الفلاحين ، التي اندلعت ضد وانغ مانغ في السنة ٢٢ بعد المسيح ، تأييد ومساندة كافة السكان القائمين بعمل من الأعمال .

وهنالك أخيراً اصلاح جبائي سادس – هو أطرف الاصلاحات إطلاقـــاً – تناول رقابة الاسعار وحصر القروض في الدولة دون غيرهـــا . ولم يكن هذا الاصلاح بالجديد ، إذ ان محاولات مماثلة قد جرت قبل ذلك بأربعة قرون : فكانت الحبوب ، مثلاً ، تجمع في سني الاقبال ، ثم تبيعهـــا الدولة حين تمحل المحاصيل ؛ فتتساوى حينذاك الأسعار ، ويتلافى القحط . تبنى وانغ مانغ هذا النظام ؛ وفي سبيـل تطبيقه ، وكّل أمر مراقبة الأسواق الست الكبرى في الامبراطورية الى رؤساء عاون كلاً منهم خمسة أشخاص في امور المقايضة ، وشخص واحد في امور النقد . وشيد المخازن ؛ فكان على كل رئيس سوق تحديد أسعار كل صنف من الموادالغذائية ،

أي الحد الاعلى والحد الوسط والحد الأدنى ، دونما اهتمام لأسعار الأسواق الاخرى . كما كان عليه تطبيق هذه الأسعار على الفئات الخمس التالية: الحبوب والمنسوجات والحرائر والخيوط وكتل الشعل والوبر ، التي يأتي بها المزارعون . فاذا لم تبع كلها ، اشترى مكتب الرقابة الفائض منها بسعر السوق . واذا تجاوزت الاسعار الحدود المعينة ، باع المكتب البضائع المجموعة بالأسعار المحددة . فيحال بذلك دون تقلبات الأسعار ، وتستحيل المضاربة على التجار ويضمن المزارعون تصريف محاصيلهم ، أقله من الناحية النظرية ، اذ ان النظام قد انطوى على كثير من العيوب ، كما سنرى ذلك.

أما مسألة القروض ، فقد اتصفت بمزيد من الجدة . احتاج الشعب باستمرار الى المال للانفاق على الذبائح والجنائز ، وهي احتفالات غالباً ما تكلف أموالاً باهظة ؛ واضطر آخرون الى استقراض المال لدفع أجور اليد العاملة التي يستخدمونها . فاختير بعض أغنياء التجار لتسلّم مكاتب الرقابة المعدّة لتأمين القروض ، في حالات الحاجة القصوى فقط . ضاربت هذه المكاتب في تجارة المواد الغذائية ومارست تسلم القروض التي تغذيها الضريبة على الدخل المفروضة على الصناعة اليدوية والمهن الحرة. وحددت الفائدة بـ٣٪ في الشهر ، وهو معدل اعلى من المعدل العادي المحدد بـ ٢٠٪ في السنة ؛ غير ان بعض النصوص قضت بأن لا يدفع طالب القرض اكثر من ١٠٪ من دخله الصافي: فتحدد القرض من ثم بالنسبة لثروة طالب القرض .

غير ان نظام الرقابة والقروض ، الذي وضع نظرياً لتشجيع المزارعين بتأمين بيع محاصيلهم واستقرار الأسعار والمساعدة المالية عند الحاجة ، قد انطوى على مساوىء عديدة . ولم يؤد الى حماية الطبقة التي تؤمن مؤونة الامبراطورية ، مع ان هذه الحماية هي الغاية الأولى من وضعه . فقد لجأ اغنياء التجار المكلفين رقابة الأسعار الى الغش بغية جني الأرباح دون مشقة ؛ أضف الى ذلك ان ست اسواق فقط قد أخضعت للرقابة ، في حال ان الاسواق الاخرى قد تعرضت للتقلبات . أما مضاربات الدولة في الاسعار فكانت محصورة نسبياً ، لأن بيع المواد الغذائية التي تشتريها لا يمكن ان يتجاوز سعراً منخفضاً نسبياً بغية الحفاظ على ظاهر المعيشة الطبيعي ؛ لذلك فقد نزعت الى رفض الشراء إلا بأدنى الاسعار ؛ وقد تعذر حينذاك على المزارعين تصريف محاصيلهم .

لذلك ، فان اصلاحات وانغ مانغ ، في مجموعها لم تأت ، عملياً ، بأي جديد سوى التطبيق الآني لبعض النظريات التي قال بها كونفوشيوس ومنافسوه دونما اعتبار الى الناحية العملية . فنحن لسنا في الحقيقة أمام ثورة أو محاولة اشتراكية : فان وانغ مانغ كان دساساً وطموحاً اكثر منه مثالياً ، يغار على خير الشعب.. واذا ما هدفت تدابيره في الظاهر الى حماية الطبقات الدنيا وإفقار الطبقات الثرية لمنفعة الدولة ، فانها قد أفضت الى خلخلة الاقتصاد الصيني ، واستياء جميع السكان ، وافقار الملاكين ، كبارهم وصغارهم ، وموت وتعذيب أفراد لا يحصى لهم عد . وقد برهن وانغ مانغ في الدرجة الاولى عن منتهى القسوة امام الويلات التي تسببت فيها ، ولم يمنعه ذلك من مضاعفة العقوبات الصارمة المعدة لتأمين تطبيق نظامه .

في السنة ٢٢ بعد المسيح ، قام الفلاحون ضده وضد ممثليه بثورة حقيقية .(اطلق عليها اسم

حرب الحواجب الحمراء) . فشعر آنذاك بحقيقة وضعه اليائس ، وحاول القيام باصلاح معاكس بإلغاء معظم قوانينه . ولكن الأوان قد فات . فغضبة الشعب لم تهدأ ولم ترض إلا بموت ذاك الذي رفعه الشعب الى العرش منذ خمسة عشر سنة .

الازمة الاجتماعية في آخر عهد الهان

استمرت الفوضاء ثلاث سنوات بعد ذلك ، ثم تنظمت الحياة الاجتماعية على غرارها في عهد الهان السابقين . ثم أعاد سلم الهان اللاحقين توازن الصين الاقتصادي . غير ان الفكر والسياسة سارا ببطء نحو تطور البلاد تطوراً كلياً، وهو تطور سيتحقق نهائياً حوالي السنة ٦٠٠ بعد المسيح. وبمكنتنا اليوم، بفضل الدراسة التي وضعها « اتيان بالاز » (« تونغ باو » ، المجلد ٣٩ ، ١٩٥٠) تقدير التغييرات العميقة التي ظهرت بين السنة ١٥٠ والسنة ٢٥٠ والتي ميزت نهاية عالم هو عالم الهان . يمكننا في هذا العهد مشاهدة حياةفكرية ناشطة، تميزها عودة المجتمع الى النظام الاقطاعي – وافتقاره ايضاً، وشعور ديني عميق ، ونشأة الشعر الغنائي وفن نقاشي جميل. وترافق كل ذلك اخيراً اخطار غزو أجنبي مداهم . في ذاك العهد مهّدت نظريات المثقفين لتطور سياسي هام .

منذ ولاية وانغ مانغ المشؤومة والاضطرابات التي عقبتها ، أتاحت عودة السلم للثروات الفردية ان تتكون مرة أخرى ، فتضاعف عدد السكان . غير ان السلطة الامبراطورية، بالمقابلة، ضعفت بالنسبة نفسها: فقد غدت السلطة الحقيقية مطمع اعظم الناس طموحاً. وجرّ الامبراطور النبلاء في ضعفه ، فعجز عن ان يضمن لهم الامتيازات القديمة ؛ كما ان النبلاء قد أخطأوا ايضاً اذ أنهم اخلدوا بحياة البلاط الفاتنة فأهملوا ادارة أملاكهم وآثروا اللهو والقنص والرقص والبطالة والترف على القيام بمهام اعتبروها تافهة . وانما البلاط عش دسائس : لذلك يجب انتهاز الفرصة السانحة ؛ فالثروات حينذاك تجمع وتنهار بسرعة كلية ، والنجاحات المدهشة تعقبها الانهيارات المدهشة ايضاً . كلّ تكتل يتكون ويسعى وراء بلوغ السلطة وينجح في مسعاه ثم يزول تماماً (بعد فترة ازدهار تتفاوت مدتها) جارّاً وراءه ، مع قادته ، اولئك الذين ساعدوهم او خدموهم . ويستسلم حديثو النعمة لحياة بذخ جامح ؛ وتتجمع لدى رئيس التكتل « المالك » ، ثروة تقدر بثلاثة مليارات وتخضع له المراكز الحساسة في الامبراطورية عن طريق الأعطيات أو الفائدة؛ ويعطى متنزهه القائم على بعض المسافة من لو - يانغ ، العاصمة ، كمثل نموذجي عن بذخ ذاك العهد ، اذ انه مجهز في وسط منظر صنعي ، بحديقة حيوانات ملأى بالطيور والحيوانات الغريبة . ولكن كل تكتل لا يلبث ان يتنازل صاغراً عن صلاحياته لأحد الطامعين الى السلطة. ومن أقوى التكتلات، تكتل الخصيان الذي خطي، حوالى السنة ١٦٠، بالعطف الامبراطوري؛ وقد تألف بصورة خاصة من خمسة خصيان يستخدمهم الامبراطور للقضاء على تكتل الدليانغ، الذي تولى السلطة من قبله . وقد كوفىء الخصيان بلقب المقدمية الذي أعطاهم حقاً باستيفاء الضرائب المفروضة على ٧٦٠٠٠ عائلة ، ومبلغ من المال يعادل ٥٦ مليوناً . واعتمدوا على التجار والصناعيين ورجال الاعمال وحتى على انسباء الامبراطور وبرهنوا عن طمع أكّال .

ولكنهم ، على نقيض تكتل « ليانغ » الذي كان رؤساؤه قادة امين متفاخرين بنبلهم ، انتسبوا الى عامة الشعب ، وسعوا وراء العلم ، واستطاعوا تحمل المسؤوليات وشجعوا المخترعين (العالم مدين بالورق الى أحدهم) والتنظيم المدرسي المستقل .

غير ان سرعة نجاح تكتل الخصيان قد أثارت سخط طبقة المثقفين الذين شعروا بالخطر يهدد في امتيازاتهم القديمة : وكانوا في السابق يتولون الوظائف العامة ويحتفظون بنفوذ التربية والمعرفة . فالفوا في سبيل الدفاع عن انفسهم جمعية هي اشبه بحزب سياسي وسعوا الى ان تستظهر النزاهة على فساد المسؤولين . كان الانتقاد سلاحهم الرئيسي ، وفي سبيل ايصاله الى المسامع ، اكثروا من الانذارات والمذكرات ، والعرائض والاعلانات الهجائية والقوادع الشعرية، وبرعوا في اصول الدعاوة فاشهروا سيئات النظام وتجاوزات متسلمي السلطة وتحدي البذخ عند الاسياد العظماء وحديثي النعمة وارتشاءهم – بينما امتدحوا ، بكلمات نافذة ، فضائل رؤسائهم وتباهوا في كل مناسبة بنزاهتهم الكلية . وقد عرف معظمهم حياة المدرسة ووقفوا على مايثيره الفقر من معاضل ، اضف الى ذلك انهم استفادوا في الولايات من صغار الموظفين والمستخدمين والطلاب الذين يطلعونهم على آلام شعب يشاركونه حياته بوصفهم صناعيين أو عمالاً زراعيين او مرؤوسين . ناهيك عن ان افراد الطبقة المثقفة كثيرو العدد وموزعون على كافة انحاء البلاد. فكانوا بمثابة جمعية سرية حقيقية وما لبثوا ان اصبحوا عدواً رهيباً لتكتل الخصيان الذي سيشتد الصراع بينه وبينهم في سبيل السلطة . صراع لا هوادة فيه سينتقل النصر اثناءه من جبهة الى جبهة تكراراً وستكون نتيجته الاخيرة خراب البلاد والحرب الاهلية . والبؤس العام وتفكك السلطة الامبراطورية .

اما فصول المأساة فأطول من ان تروى ، وهي ،على كل حال ، لا تدخل في موضوعنا ، لانها احداث تاريخية ، ولكن ما يهمنا هو فحص كل ما انطوى عليه هذا الصراع ، فلم يكن هنالك موضوع استلام السلطة فحسب ، بل بؤس الارياف الذي اوجد ثورة كامنة ، وتطور آراء الفلسفة الاجتماعية التي هي ، في الصين ، اساس الفلسفة الفلسفة . وان هذا التطور ، الذي تم على يد ثلاثة فلاسفة رئيسيين ، قد طبع هذا العهد بطابعه . اما الوسط الذي تكونت فيه هذه الآراء فهو وسط هذا الاضطراب الذي اسعره المثقفون والذي انتظر كافة بؤساء الامبراطورية اول فرصة سانحة للاشتراك فيه .

كانت عودة النظام الاقطاعي ثقيلة الوطأة على الكادحين الزراعيين . وكان الفلاح الحر سائراً في طريق الزوال ، تحت تأثير المجاعة الدائمة ، والضرائب واعمال التسخير ، وما تعرض له تعرضاً دائماً من فقدان اراضيه بفعل اقدام الملاكين الجشعين على استملاكها ، والكوارث الطبيعية ، من فيضان وجفاف ، التي لا مهرب له منها ، والديون الكثيرة التي غالباً ما يعقدها . فأخذ رويداً رويداً يعمل بالأجرة ، وتحول الى شريك في زراعة الارض ، واشتغل كعامل زراعي او هاجر الأرض ، واصبح تاجراً متنقلاً ، او صناعياً ، أو خادماً منزلياً ، أو جندياً أو قاطع طرق. وباع اولاده كعبيد وننذر بناته البغاء . وكان والحالة هذه حقلاً خصباً جاهزاً

لاسمار الثورة . حاولت شيعة طاوية نشأت منذ عشر سنوات تنظيم وجمع هذا الجمهور الفاقد التوازن ؛ فأسست طوائف ريفية تتناول افرادها وجبات الطعام مجتمعين في مكان واحد واعترفوا بخطاياهم علانية . واختار اتباعها لأنفسهم اسم «العمائم الصفراء» – إذ ان اللون الأصفر يرمز إلى الأرض ، وتلقنوا مبادىء ديانة تكثر فيها الصيغ السحرية والإشارات والرموز الطاوية ، وبشروا بعهد ازدهار ، عهد المساواة النعمي (تاي – بنغ) ، ووُعدوا بشفاءات عجائبية . وقد خضعوا لتنظيم عسكري وتمكنوا في السنة ١٨٤ من تأليف جيش ضمّ ٣٦ فرقة (٣٦٠٠٠٠ رجل) وتحرك بغية احتلال الصين الآهلة بالسكان . فدخل الولايات واستولى على مراكز الادارة وقتل الموظفين أو طردهم ، وابدلهم بعمائم صفراء ، وجمع الضرائب واصلح الطرقات . كانت هذه الحركة مقدمة لاضطرابات خطيرة: فقد سيطر الموت الذي ترك وراءه اكداساً من الجثث ، وانتشرت المجاعة في اعقاب هجرة السكان المفزعين ، وقامت الحرب الاهلية مع ما تستتبعه من موكب دام . فسوف تغدو الصين ، طيلة ثلاثين سنة ، فريسة المغامرين الذين سيستفيدون من الحالة الراهنة للانقطاع الى اعمال اللصوصية نهباً واستلاباً وتقتيلاً واحراقاً .

في هذا الجو المضطرب الذي انقلب فيه كل نظام وسيطر القلق والجزع والارتياب ، تبادل رجال الفكر الآراء . لم يؤلفوا بعد طبقة متلاحمة ، فزاد ذلك من تشوشهم ؛ اضف إلى ذلك ان الشك قد تسرب منذ اوائل القرن الثاني الى عقل مفسري التعليم الرسمي ، ولم تصادف الكونفوشيوسية حتى ذاك العهد شرحاً متلاحماً . فتطلبت الأزمة القاسية حلاً للخروج منها ، وجلي ان السلوك بمقتضى الظروف الذي نادى به الكونفوشيوسيون لم يوفر هذا الحل : فلم يعد من جامع يجمع بين اللياقات والاعراف والطقوس وآداب المعاشرة وعدم التحيز والحقوق والواجبات وبين العالم الفاقد التوازن الذي احاط بهم حينذاك . اما اتباع مذهب الفقهاء الذين نادوا بالعدل عن طريق القوة ، فقد اصطدموا بالفوضى الثورية ، وعجزوا عن إعادة النظام الى نصابه . واكتفى الطاويون الفوضويون المتشائمون اخيراً بالمناداة بالعودة الى الطبيعة ، دون شرائع وعلم أخلاق : وهذا أعظم المواقف « ترينا » بين مواقف الفلاسفة المختلفة في هذا العهد المخيف . فلم يعد الموضوع تعيين « من » يسن القانون لأجله ، بل « ضد من » يجب أن يسن . أضف الى ذلك ان هذه المواقف الثلاثة قد انطوت على مفارقات اخرى كثيرة ، جعلت الغموض يكتنف الروابط السياسية والفلسفية ـ مع انها واقع راهن دائم في الصين. والحقيقة ، في نظر بالاز ، هي ان كلاً من هذه المواقف يعكس مثالية طبقة اجتماعية : الكونفوشيوسية تعكس موقف البيروقراطية وكبار الموظفين ، والحركة الفقهية موقف الأوساط العسكرية والتجار والفنيين ، والطاوية موقف صغار الموظفين وطالبي الاستخدام والفلاحين الذين تنكروا لوطنهم الريفي. وقد شرح هذه المذاهب وفاقاً لترتيبها اعلاه الفلاسفة : وانغ ـ فو (حوالي ٩٠ – ١٦٥) ، تسواي ـ شي(حوالي١١٠ – ١٧٠)، تشونغ ـ تشانغ ـ تونغ (المولود حوالي السنة ١٨٠) .

ولد وانغ ـ فو من سرية ، ولم يتمكن ، من ثم ، من تولي الوظائف الرسمية . ومع ذلك فقد كان على صلة طيبة بأشهر رجال عصره ، ولكنه كان شديد الحقد على مجتمعه ، وهذا ما يفسّر

حدّة كلامه . وان مؤلفه ذو قيمة كبرى لرسم لوحة عن المجتمع الصيني . خلال النصف الأول من القرن الثاني ، أي في الفترة التي سبقت ثورة العمائم الصفراء ، نادى وانغ ـ فو باصلاحات أساسية مبنية على الكونفوشيوسية : العودة الى الزراعة ، صناعة يدوية منظمة ونزيهة ، حتى لا يتجاوز الناس حدود رفاهية دون بذخ فاضل ، تجارة معتدلة محصورة في مقايضة محاصيل الاقتصاد الطبيعي . وطالب بأن يقاس الرجال بكفاءاتهم وفضائلهم الخاصة وليس بوضعهم الاجتماعي أو العائلي أو المالي . ولعلّه رضي بإسناد الوظائف الرسمية الى الأجانب اذا أجازت مؤهلاتهم ذلك . وثار على المحسوبية ، وعنّف اولئك الذين « يوزعون الثروات بسخاء على خدامهم وسراريّهم » ، واولئك الذين « لا يقرضون الغير فلساً واحداً » ، واولئك الذين « يعرفون تمام المعرفة ان الحنطة تفسد في مستودعها، ولا يرضون بإقراض الغير مكيالاً واحداً ».
وان وصفه « للبذخ المفرط » الذي انتشر في الصين آنذاك لجليل الفائدة . فقد قال : « ان جيل اليوم يترك الزراعة ويتهافت على التجارة (التي ندّد بها الهان الكونفوشيوسيون تنديداً دائماً كما سبق ورأينا) . الثيران والأحصنة والعربات تسدّ الطرقات والمسالك . عدد الفلاحين يتناقص ، بينما يتزايد عدد اولئك الذين يكسبون معيشتهم بتعاطي مهنة باطلة . في هذه الايام يبذر الناس اموالهم في الإنفاق على الملبس والمأكل والمشرب . يحاولون طلاقة اللسان ويمارسون الغش والاختلاس » . فالفلاحون الحقيقيون أنفسهم يهملون دورهم الأساسي في الزراعة : يتخلون عن الحراث ، ويتركون الحقول فريسة الجرذ والطيور ، ويقتنصون في الجبل ويصنعون الألعاب ، أما نساؤهم ، فبدلاً من ان يعنين بالنسج والشؤون المنزلية ، ينكببن على أعمال السحر والرقص والرقي التي يجنين منها مكاسب ضخمة ، بفضل سذاجة الفقراء والمرضى . ولا يقع البذخ عند الاثرياء تحت وصف لأنهم يتنافسون رغبة في التفوق بعضهم على بعض . واذا ما حاول الفقراء تقليدهم ، فانهم ينفقون على وليمة واحدة كل ما جمعوه من مال في حياتهم . بيد ان احتفالات الزواج والجنائز تفوق كل ما سواها ، لأنها تكلف اموالاً طائلة ، وتجند لها اليد العاملة من طرف الامبراطورية الى طرفها الآخر ، من لو ـ لانغ الى تران ـ هوانغ . وقد أوضح وانغ ـ فو ذلك بقوله : « ان النبلاء الأثرياء في العاصمة وكبار الملاكين في الأرياف، الذين لا يعيرون كبير اهتمام للانفاق على ذويهم في حياتهم ، يكرمونهم بجنازة فخمة عند موتهم ».
وثار وانغ ـ فو اخيراً على اعمال الحاكم التي تضر بالشعب ببطئها واجراءاتها . وقارن بين انتاج دولة حسنة الادارة وجدب دولة فوضوية ، واحتج على امتيازات وطفيلية الطبقات الثرية ، وقال بإرساء النظام الاجتماعي على قانون غير متحيز يفرض على الجميع دون استثناء .
أما الفيلسوف الثاني الذي يمثل الفقهاء والذي وصفه اتيان بالاز في كتابه المشار إليه اعلاه ، فهو تسواي ـ شي الذي ينتمي الى جيل عقب جيل وانغ فو مباشرة . أضف الى ذلك انه كان ابن صديق كبير لهذا الأخير . انتسب الى عائلة نبيلة أضاعت اموالها في عهد هو ـ باي الحاكم ، واستدعي في السنة ١٥١ الى البلاط حيث عمل في المحفوظات وفي تحرير حوليات الهان الرسمية . ولكنه كان مرتبطاً بتكتل « ليانغ ـ كي » ـ الذي لن يلبث تكتل الخصيان ان يتغلب

عليه – فأقصي عن مركزه . غدت حياته منذئذ رمزاً لعهده ، وتخصص في المسائل التي يثيرها سكان الحدود ؛ ولما كان مشايعاً صادقاً لمدرسة القانونيين ، لم يكتف بالنظريات ، بل انتقل الى التطبيق العملي ، فعلّم البلديين ، الذين كانوا يرتدون الحشائش ملبساً ، كيف يستعمل القنب ، واشترى لهم من ماله الخاص دواليب المغازل والأنوال ، واعاد تنظيم الدفاع العسكري بواسطة الاشارات الضوئية . في هذه الحياة التي جعلته على اتصال يومي مباشر بالفقراء ، احتقر المراءاة الكونفوشيوسية وفجور الطبقات الثرية ، وتملّك منه الشعور القومي ، في مجاهــل حدود الامبراطورية النائية ؛ وثار على الخداع والفساد المسيطرين على الوطن . وحين اعترف له بجدارته ، عين حوالي السنة ١٦٠ والياً على لياوو – تونغ في منشوريا الجنوبيـــة . ولكن اضطهاد المثقفين الخصيان فرض عليه موقف الحكمة ، فرفض مركز أمين سر الدولة الذي عرض عليه في وقت لاحق . ثم أضاع أمواله على جنازة فخمة أقامها لوالده نزولاً عند مقتضيات الاثرة السائدة في عصره ، فغدا على التوالي مقطرّ مشروبات روحية وتاجراً متنقلاً . ثم توفي معدماً لا يملك شروى نقير .

وضع دراسة « في السياسة » او « في الحكومة » (حوالي السنة ١٥٠) بلغ من صدق تعبيرها عن آراء معاصريه ان طالب بعضهم « بأن يستنسخها كل ملك ويضعها الى جانب عرشه » .

قاده فكره الواقعي الى طرح أسئلة واضحة والاجابة عليها اجابة جلية جذرية . رأى ان الشنشنة هي العدو الحقيقي للدولة الحية ، وان التكيف بحسب الظروف ، الى جانب الاختبار ، يمكن وحده من الحكم حكماً فعلياً مجدياً . ورأى وجوب تفسير التقليد الذي قد يناسب الاحداث ويستجيب الحاجات . اما اذا بقي متحجراً فيتأخر الناس عن ركبهم ويتعذر عليهم فهم حقيقة واقــع الامور . ونادى تسواي شي ، لتلافي البلبلة المسيطرة على الصين ، بالعودة الى القوانين الصارمة التي قد تقضي بمزيد من المكافآت او مزيد من العقوبات على السواء ، وفي سبيل ذلك يجب ان توضع وتفسر بشكل يسهل فهمها . وقال كذلــك بالعقوبات الجسدية وثار بتهكم لاذع على تصوّف « الطاوية » الذي كان آخذاً في الانتشار بين السكان الريفيين .

رسم ، على غرار وانغ فو ، لوحة ملأى بالحياة عن اخلاق عهده : ان البذخ الذي تميــل اليه الطبيعة البشرية بالفطرة « لا يزال يشحذه عرض البضائع النادرة وصناعة الادوات الجميلة . ان البذخ يرفع سعر الكماليات ويخفض سعر المحاصيل الزراعية . لذلك يترك الفلاح محراثه ويتهافت على مهن اوفر دخلاً . الاهراء فارغة والسجون غاصة بالسجناء . ان بذخ العبادة الجنائزية يفضي الى الافلاس . وكي يتفوق الانسان على جاره لا يتردد في التضحية بثروته العائلية ، فيجر البؤس بعد ذلك الى امتهان السرقة . وكذلك فان مفاعيل هذه الاخلاق مؤسفة لدى الموظفين والشعب ، اذ ان الشعب يتجرد لاعمــال اللصوصية من جراء تجاوزات الموظفين » (بالاز ، ص ١١٣) . وماذا نقول عن عدم الاستقامة : فالموظفون لا يدفعون فواتيرهم ويرغمون التجار على استعادة ادوات اشتروها واستعملوها ، والصناعيون ينتجون مصنوعات سيئة ، وبائعو الاسلحة للجنود يسلّمونهم أسلحة معطلة – وسكان الحدود مضطرون الى صنع أسلحتهم الخاصة ليدافعوا عــن

أنفسهم ضد هجمات البرابرة المتكررة . الدعاوى لا تحصى والقضاء فاسد .

المرتبات غير كافية وتدفع بالموظفين الى الاختلاس . وقد ذكر تسواي شي بعض الايضاحات بهذا الصدد : « ان كبار الموظفين ، المسؤولين عن منطقة لا تقل مساحتها عن مساحة الاحاذات في السابق ، يتقاضون مرتب كاتب بسيط . يخصص لهم عشرون مكيالاً من الحبوب عيناً ، و ٢٠٠٠ قطعة عملة نقداً . واذا لم يكن لديهم عبيد ، فانهم بحاجة الى خادم على الاقل يقبض من سيده ألف قطعة نقدية شهرياً . وينفق نصف الالف الثاني على العلف والشحم واللحم بينما ينفق النصف الآخر على خشب التدفئة والفحم والملح والخضار . يأكل هذان الشخصان ، الموظف وخادمه ، ستة مكاييل في الشهر الواحد ، ولا يكاد الباقي يكفي للأحصنة . فكيف يؤمن ثمن الملابس الشتوية والصيفية ، والانفاق على الذبائح في الفصول الاربعة وعلى الزائرين والاقرباء والزوجة والأبناء ؟ » (بالاز ، ص ١١٥) .

وعاش احدث هؤلاء الفلاسفة الثلاثة سناً ، في عهد عصيب جداً : ولد في السنة ١٨٠ ، بعيد اضطهاد الخصيان للمثقفين وقبيل ثورة العمائم الصفراء ، وعرف كل الصين الشمالية ، وهي آنذاك في غليان مفرغر : رسافر كثيراً لإكمال ثقافته ، ككل ابن عائلة ثرية ، وزار عدداً من الحكام الاقليميين الذين لم يترددوا في مصارحتهم في سلوكهم . في سن الثلاثين ، حوالي السنة ٢١٠ ، طلب لتولي أمانة سر الدولة . وتتبع عن كثب احداث زمانه السياسية الى جانب سيون ــ يو الاديب الكبير وأحد الوجوه الرئيسية في صراعات جيله ، الذي كان في خدمة تساوو تساوو المدعو لتكريس انهيار الهان . كان متعصباً للصدق لا يرضى بالسلوك على مقتضى الظروف ، وقال بفلسفة السعادة والرفاهية التي اوحت له بها التعاليم الطاوية . تنبأ بزوال السلالة مثبتاً ان هوان السلطة يدفع بالشعب الى الثورة وان غزو البرابرة يزيد في الطين بلة . بيد ان اللوحة التي رسمها (حوالي السنة ٢٠٦) عن طبقة الاثرياء في عهده لا تسمح بعد بافتراض حصول مثل هذا الانهيار : « تتجاور قصور كبار الملاكين بالمئات . وتغطي حدائقهم الغناء مساحات واسعة من الارياف ، ويعد عبيدهم بالالوف وزبنهم بعشرات الالوف . يتجول التجار بمراكبهم وعرباتهم في كل الاتجاهات ، وتملأ المدن بضائع كدّسها المضاربون . لا تتسع أعظم القصور لحليّهم وجواهرهم ، ولا تتسع الجبال والوديان لأحصنتهم وأبقارهم وأغنامهم وخنازيرهم . وتعج القصور الفخمة بغلمان وسراري آية في الجمال ، وتردد القاعات الكبيرة صدى انغام المغنيات وموسيقى البغايا . وينتظر الزائرون موعد استقبالهم ولا يجترئون على الذهاب ، ويزدحم الفرسان والعربات فيتعذر عليهم التقدم . ينتن لحم الحيوانات الأليفة دون ان يتمكن احد من أكله ، وتفسد افضل الخمور تصفيقاً دون ان يتمكن احد من احتسائها . لا يحتاج السيد لأكثر من طرفة عين حتى يطاع ، كما يكفي ان يظهر سروره او غضبه حتى يعرف الناس حقيقة فكره . هذه هي ملذات النبلاء ، وهذه هي ثروات الأسياد في جوهرها . وهذا ما سيبلغه اولئك الذين سيلجأون الى الخداع والاختلاس ! وحين يبلغونه ، لن يطالبهم احد بمخالفاتهم ! فمن ذا الذي يرضى آنذاك باقتفاء أثر المثقفين الطامعين ، وايثار الاملاق والبؤس على المجد والملذات ، والتخلي عن الراحة والحرية

لعبودية الواجبات ؟ » ولكن هنالك ، الى جانب هذه البحبوحة ، مدناً متهدمة ومناطق مقفرة من السكان. ويستنتج تشونغ - تشانغ تونغ بحفظة قلقة : « لا اعرف الى أين نحن سائرون ... ».

نادى برنامجه السياسي بالغاء الارستوقراطية ، وباصلاح زراعي يحدّد مساحة الاملاك ، وبسن قوانين جزائية أشد صرامة - على انه لم يطالب بحكم الاعدام إلا لجريمة القتل والثورة وسفاح ذوي القرابة . واقترح تخفيض مساحة التقسيمات الادارية بغية تسهيل رقابتها . وطالب بتدقيق ضبط جداول الضرائب وسجلات السكان ، واعادة تنظيم الشرطة بتوزيعها فرقاً تضم عشرة وخمسة رجال ، وتشجيع الزراعة وتربية دودة القز . وأعلن الحاجة الملحة الى التربية والتطهير الاخلاقي باشهار الأعمال الصالحة ، والحاجة الى حسن اختيار النخبة الادارية المدنية والرؤساء العسكريين ، وطالب اخيراً بقوانين صارمة ضد التجاوز والاخلال وبعقوبات ضد المشرّدين وبالتحقيقات في ابتزاز الاموال .

وكي يتحقق كل ذلك ، يجب الاعتماد على نخبة ذات سلطة قدّرها تشونغ - تشانغ تونغ حسابياً بالاستناد الى نسبة السكان الأصحاء . فجاء ما طلع به برنامج دكتاتورية تضمن ، في ما تضمن ، زيادة مرتبات الموظفين ، وزيادة الضرائب ، وسلطة الادارة المطلقة .

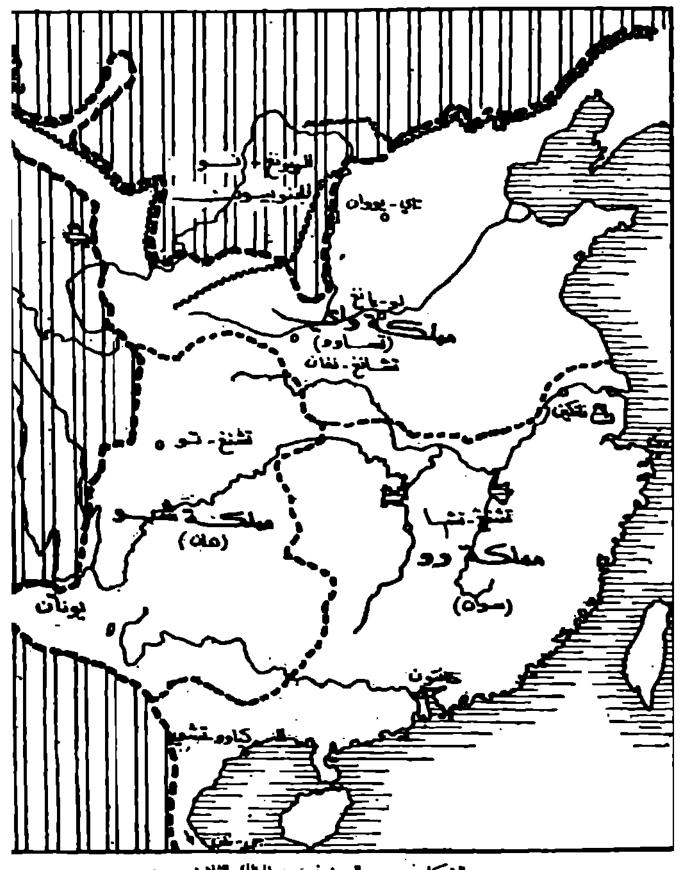
لسنا ندري ما كان من شأن الاصلاحات التي اقترحها هؤلاء الفلاسفة ان تصنعه من خير . فقد بلغ من الأزمة الاجتماعية ما جعل التوازن مستحيلاً اذا لم تجاز الصين شدائد عظيمة . ولم تعط تحذيرات الفلاسفة والمثقفين أية نتيجة في عالم فاسد ومتقلقل. فتمت نبوءة تشونغ - تشانغ تونغ بحذافيرها : في السنة ٢٢٠ من العهد المسيحي ، انهارت سلالة الهان وتفتتت السلطة ، وفي السنة ٣١٦ توغل البرابرة - التتر او الهون والمغول الاولون - في الشطر الشمالي من الامبراطورية . ولن تستعاد الوحدة قبل السنة ٥٨٩ .

الممالك الثلاث والسلالات الست

طيلة ستين سنة ، من السنة ٢٢٠ حتى السنة ٢٨٠ ، انقسمت الصين بين سلالة تساو تساو في الشمال ، وسلالة سوان كيووان في نانكين ، وأباطرة الهان اللاحقين في سو - تشووان . لم تستطع البلاد ان تنهض من كبوتها بفعل هذه التجزئة السياسية . فحصل نقص عظيم في السكان . وأخفقت ثورة الفلاحين . واخذ الجور الاقطاعي يزداد وطأة بعد ان تنازلت الحكومة المركزية عن اخاذات واسعة ومنحت أسيادها سلطة مطلقة على السكان . أضف الى ذلك اخيراً ان الحرب الاهلية قد استمرت . بيد ان عائلة سو - ما حاولت تحقيق وحدة سياسية ، فاستولت على مملكة الهان الشرعية في سو - تشووان في السنة ٢٦٣ ، كما استولت على عرش الصين الشمالية في السنة ٢٦٥ وعلى عرش مملكة نانكين الجنوبية في السنة ٢٨٠ ، وأعلن رئيسها نفسه امبراطوراً . وأطلقت السلالة الجديدة على نفسها اسم « تسين » . ولكن هذه الوحدة كانت قصيرة الامد (٢٦٥ - ٣١٧) ، وتعرضت منذ السنة ٣٠٤ لخطر غزوات البرابرة الذين سيستولون على كل الصين الشمالية وسيمهّدون لتجزئة الاراضي الصينية طيلة أكثر من قرنين .

كان التبدلات التي حدثت آنذاك مغزاها الهام : استسلمت السلالة الجديدة بسهولة للبذخ والترف ، فلم يدخل على الاخلاق العامة أي تحسن ، واستمرت الكونفوشيوسية في الهبوط ،

تسرّب الى طبقة المثقفين رجال كثيرون غير اهل للانتماء اليها مؤملين بذلك النجاة من ال
العمل اليدوي. وطرأ على مستوى الدروس تقهقر جلي . وانتشرت البوذية، وعرفت الد
كأنها شعرت بحاجة للدفاع عن نفسها ، نوعاً من النهضة بوصفها فلسفة وديانة .



الشكل ٣١ — الصين في عهد الممالك الثلاث

كانت التبدلات الاجتماعية والاقتصادية اعظم التبدلات اطلاقاً . انخفض عدد السكان ،
ضطرابات آخر عهد الهان ، الى ثلثي عددهم في عهد الهان : فقد ترك الموتى والمفق
المهاجرون والفارون فراغاً مشؤوماً في مجتمع صين سلالة التسين . فبرز مرة اخرى نظ
حماية ، الكبار الصغار : غدا المرؤوسون متاعاً لأسيادهم ، واعتبر المستخدمون الحكو

أنفسهم مرتبطين ارتباطاً خاصاً برؤسائهم: حتى انهم لبسوا الحداد، بعد وفاتهم طيلة ثلاث سنوات، بحسب العرف السائد، وحصل المعلمون كذلك، لتلامذتهم على الاعفاء من أعمال التسخير، وخضع الزبن (كو) لسلطة كبار الملاكين، ولم تختلف حالهم عن حال العبيد (إلا بأنهم لا يباعون). وارتفع عدد الزبن والعبيد في عهد ولاية التسين. وقد لجأت الدولة، في مناسبات عديدة وظروف طارئة، الى مصادرتهم وتجنيدهم وادخالهم في فرق العمل، على الرغم من احتجاجات العائلات التي ينتسبون إليها.

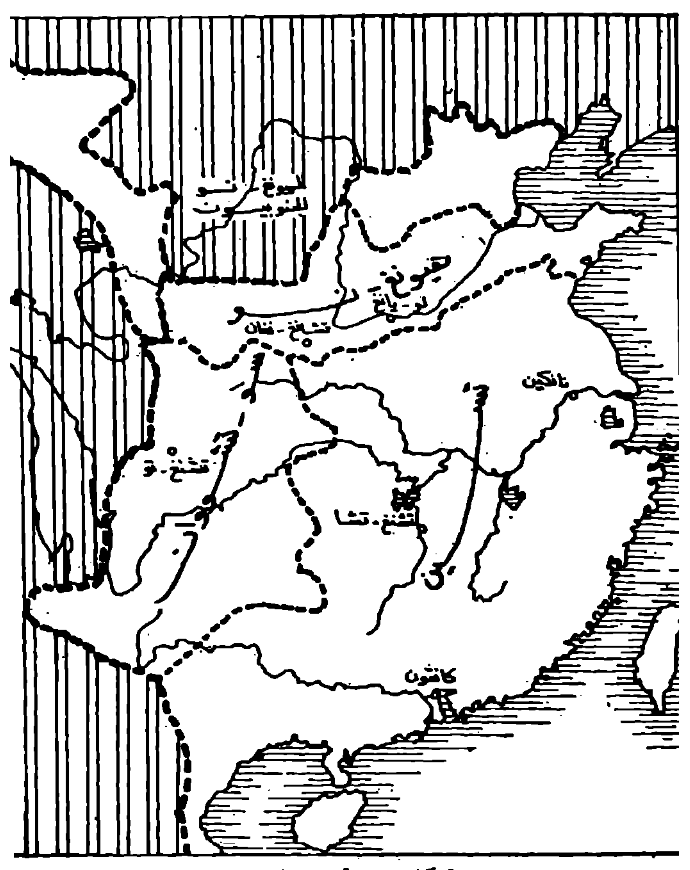
غير أن دولة سلالة التسين، قد حاولت تشجيع العودة الى الأرض، بتشجيع الزراعة، وإحداث المستعمرات الريفية وتمهد أعمال الري. ويعتبر هذا الجهود أول نظام زراعي عرفته الصين. كان اساس النظام، كما في العصور القديمة، تقسيماً ادارياً هو القضاء (هيانغ). وتوزع الاراضي داخل القضاء على عائلات الفلاحين. كان اليفعان حق في استلام حصة كاملة، بينما لم يعط هذا الحق الصغار والشيوخ ولم يعط إلا جزئياً للفتيان والمتقدمين في السن. يجري التوزيع سنوياً، ولكنه لا يتناول سوى قسم من الأراضي، لأن اليافع يستلم حصة يحتفظ بها حتى مماته: فتوضع حصته حينذاك تحت تصرف الجماعة. غير ان هذا التوزيع قد تنوعت أشكاله، في الأرجح، وفاقاً لكمية الأراضي في القضاء، بسبب تفاوت عدد السكان في الأقضية. ويجب ألا نهمل ايضاً الاملاك التي يهبها الأباطرة، أو الأفراد للمعابد البوذية والطاوية، وقد ازدادت هذه الهبات السخية في عهد سلالة تانغ. أضف الى ذلك ان العائلات الكبرى المقيمة في أملاكها لا يسمح لها باقتناء بيوت أخرى، وحقول أخرى في العاصمة، وقد حظر عليها قانون صدر في السنة ٣٣٦، تحت طائلة الموت، تسييج أجزاء أراضيها، التي تشمل جبالاً ومستنقعات، بغية اتاحة دخولها لأفراد الشعب الذين يستطيعون بذلك جني العسل وصيد السمك. ولكن هذا القانون لم يعطِ نتيجة كبرى.

راقب تشجيع الزراعة موظفون محليون مكلّفون، وفاقاً لمرتبتهم، تأمين محصول الارض. كان لهم سلطة مطلقة على القرية وسكانها، فقد حق لهم، في سبيل غاية ما، مصادرة أدوات الصيد واسلحة القنص، بغية ارغام الفلاحين على الانصراف الى أعمال الزراعة وتربية دودة القز والى اعمال العناية بالاشجار المثمرة ويحذران صيانة المزروعات. وقد أضافوا أحياناً الى هذه التدابير العون السحري الذي توفره، بفعل الجاذبية، رايات خضراء تنصب في اليوم الاول من فصل الربيع، خارج المدينة على مقربة من ابواب سورها. كما انهم فرضوا كذلك تقديم الذبائح لإله الارض.

بموازاة هذه التدابير، يجب ان ننظر في مسألة النقد والضرائب ايضاً. فمنذ انهيار الهان حدث انخفاض أكيد في تداول النقد المعدني: اذ انّ صفقات كثيرة قد تمت لقاء اثواب حريرية او منسوجات، وان بعض الضرائب جمعت عيناً.

يبدو ان الضريبة العقارية لم تحدّد بشدة في أيام التسين. ويبدو انها تنوعت تنوعاً كبيراً بحسب المناطق والسنين. ان معلوماتنا بهذا الصدد لعلى بعض الغموض ولكن ما لا شكّ فيه هو ان هذه الضريبة قد اقتطعت ابداً من دخل السكان واستوفيت حريراً ووبراً وحبوباً بنوع خاص، وقدّرت بالنسبة لعدد اليافعين تارة ولأهمية الاملاك تارة أخرى، على ان هذه الطريقة

أخيرة قد ألغيت في السنة ٣٧٧ ، ولكن الطريقتين ربما اعتمدتا في آن واحد قبل هذا التا
ند شكل ذلك ضريبة مزدوجة لبعض الافراد . ويغلب ان هذه الضرائب كانت ثقيلة اذا
تمدنا على شهادات المعاصرين .



الشكل ٣٢ - الصين حوالي ٣١٦

كان من الجائز الاعتقاد بأن محاولات التسين لتوحيد الصين بعد الفوضى التي عمت البلا
ثل القرن الثالث ستعطي ثمارها. ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل، وكانت نتيجة ضعف الـ
ديدة تدفق الغزوات الكبرى على الصين الشمالية . ففرّت السلطة الامبراطورية امام البر
تجأت الى نانكين التي جعلت منها مركز ادارة الحكم في الصين الجنوبية . ورافقت هـ

الانتقال هجرة السكان الشماليين – الذين اسهموا ، بمجرد وجودهم ، في « صينة » هـذه المناطق التي لم تستعمر إلا منذ عهد قريب نسبياً. فقد تراوحت نسبة المهاجرين بين الطبقات الحاكمة بين ٦٠ و ٧٠ ٪ ، ويمكن تقدير الشماليين « المرتحلين » بمليون شخص تقريباً . أدخلت هذه الموجة خللاً عظيماً على الاقتصاد ، واعتبر المهاجرون أنفسهم ، في البداية ، في اقامة مؤقتة ، ولم يفقدوا الامل في عودة قريبة الى اخاذاتهم في الشمال . واتخذوا من موقفهم هذا حجة لاهمال واجباتهم المدنيـة . ولكنهم أرغموا منذ السنة ٣٦٤ على اتمامها ، على انهم حصلوا قبل ذلك على املاك واسعة ، مما أتاح لهم السيطرة على حشد ضخم من الزبن الوراثيين .

بينما كانت حياة المهاجرين ، في الصين الجنوبية ، سائرة في طريق التنظيم ، وبينما كان الادب والفن فيها ، على ما انطويا عليـــه من تشويش ، سائرين في طريق الازدهار ، عرفت الصين الشمالية ، في قبضة امراء الهون الظافرين ، اختلاطاً وبؤساً لا يوصفان . حافظت حكومة الغزاة على طابع عسكري صرف ، وبرز تقهقر ثقافي مخيف . كان الاسياد الجدد برابرة أميين عاشوا جميعهم حيـاة المغامرات التي قادتهم الى فتح مناطق الشرق الغنية ، على انهم لم يفتقروا الى الذكاء والعاطفة الانسانية ، كما انهم حرصوا على ان تربطهم أطيب العلائق بالمثقفين الذين أطلعوهم على نتاج الكلاسيكيين الصينيين ، لا بل تأثروا بالبوذية نفسها . ولكن معاضل خطيرة ، تفوق طاقات هؤلاء البدو السابقين ، جعلت حكمهم عديم التأثير . فقد أنهكت السكان الاضطرابات التي سبقت دخول الهون الى الصين وأفقرهم استلاب المدن والارياف على أيدي هؤلاء الاخيرين وأحدق بهم خطر المجاعـة ، فعاشوا في بؤس مريع ضعضع قوامهم ، واستهدفهم جور اسيادهم . وقد زاد الصراع العنصري بين الصينيين والهون في خطورة الوضع وشل جهود الحكومة الجديدة في سبيل اقامة سلطة ثابتة .

ستعرف الصين ، بعد هذه الاضطرابات وهـــذه التجزئة الفاجعة ، أياماً باسمة تتفتح فيها الثقافة الصينية تفتحاً بهياً . ولكن لا بــد للفكر من تمخض طويل وايناع شاق حتى تقطف الصين أخيراً ثمار هذه الاختبارات المؤلمة .

٢ ـ النطاق الديني

يغلب ان هذا العهد المديد ، والمضطرب ، والمعقـد ، والغني بكل جديد وكل كارثة ، قــد ولـد في من عاشه سخطاً وقنوطاً . فهو قد قام على المتناقضات ، اذ اننا نرى فيه ، جنباً الى جنب ، ازدهاراً عجيباً عند البعض ، وعوزاً مطبقاً عند البعض الآخر ، كما نرى البذخ والبؤس، والبحبوحة والمجاعـة ، والسموّ والانهيار . تجاورت في هذا العهد الخرافة والواقعية ، وذابت فيه الأفئدة بكلمة رأفة ، ودعا اليأس العميق الى الثورة ايضاً .

في هـذه الاضطرابات والازمات ، جاءت الديانات وألقت بمنازعاتها الخاصة ، كما سعت الى توفير التهدئة والطمأنينة .

دخول البوذية

ان أهم حدث على هذا الصعيد هو دخول البوذية الى الصين في منتصف القرن الاول للميلاد . كانت الطاوية آنذاك منتشرة في كافة الاوساط ، وسندرس مميزاتها فيما بعد ، ولكن تسرب البوذية كان له أثره وتفاعله فيها ، ولذلك رأينا لزاماً علينا ان نتكلم عن البوذية اولاً .

يبدو هذا التسرّب مرتبطاً بفتوحات الصين في آسيا الوسطى . فان الصينيين، الذين اقاموا فيها منذ القرن الثاني قبل المسيح ، كانوا على صلة مباشرة بالبختيار وفارتيا والهند وأقاموا علاقات دبلوماسية مع الملوك الكوشانيين . ولعل المبشرين الاولين دخلوا تلك البلاد في أعقاب دخول التجـــار الذين أحضروا الى الصين خشب خوطان وطنافس فارس وكشمير وعادوا بالحرير الى الغرب . ولكن الاسطورة ترى رأياً آخر : فهي تقول ان امبراطور الهان ، منغ ، رأى في الحلم ، في السنة ٦٤ بعد المسيح ، انساناً من ذهب يقترب اليه طائراً . في صباح اليوم التالي ، طلب ان يفسّر له حلمه فتكلم له احد وزرائه عن بوذا ؛ وتضيف الاسطورة انه قرّر حينذاك ارسال وفد الى الهند أحضر له كتباً وتماثيل وكهنة هنوداً . مهما كان من أمر هذه الاسطورة ، فالواقع هو اننا نجد ، في ايام هذا الامبراطور ، اول ذكر لطائفة بوذية في الصين ، أقامت الى الشمال من كيانغ ـ سو الحالية في املاك ملك تشو . في السنة ٦٥ ارسل هـذا الامير الى البلاط الامبراطوري ثلاثين ثوباً حريراً تكفيراً عن أخطائه : بعد ان صدر عفو عام من عقوبة الموت اذا سدّد المخالفون المفروض عليهم أقمشة ومنسوجات . فأعلن الامبراطوار براءته آتياً على ذكر « ذبائح بوذا الخيّرة » التي مارسها ملك تشو ، وأرفق المرسوم الامبراطوري بالمنسوجات « كي يستخدمها في تأمين الغذاء الوفير لـ « اوباسكا » و لـ « شرامانا » : وهذا لا يعني من ثم الرهبان فحسب ، بل المؤمنين العلمانيين ايضاً ، أي المهتدين . ولكن الحقيقة الثابتة هي ان البوذية بدت للصينيين وكأنها شيعة طاوية، او طريقة لبلوغ الخلود تختلف بعض الاختلاف عن طريقة الطاويين آنذاك . فلا يجوز اذن ان نستخلص من ذلك ان ملك تشو نفسه قد اعتنق البوذية ، فهو قـد مارس في الارجح عبادة توفيقيـة معترفاً ، في الوقت نفسـه ، ببوذا و بـ « هوانغ ـ لاو » ، الإله الرئيسي في الديانة الطاوية آنذاك .

لم تمت هـذه الطائفة الطاوية البوذية ، او البوذية فعلاً ، بموت حاميها الذي انتحر في السنة ٧٣ . فقد ورد ذكرها في الفترة ١٧٢ ـ ١٧٨ والفترة ١٩٠ ـ ١٩٤ اللتين أضيفت فيهما بعض الأبنية الى الدير : « ستوبا » مدفنية ، و « ستوبا » أخرى مؤلفة من عدة طبقات يحيط بهـا معبد يتسع لثلاثة آلاف شخص ، اذا صدق الراوي .

ولكن طائفة بوذية أخرى تأسست في العاصمة لو ـ يانغ نفسها ، على أيدي مؤمنين أتوا من كيانغ ـ سو ، في الارجح . وقد بلغ من نموها فيها ان الامبراطور ، هوان ، أحيا في القصر ، حوالي السنة ١٦٦ ، احتفالات بوذية وطاوية . وقد سبق في السنة ١٤٨ ان نقلت بعض الكتب البوذية الى اللغة الصينية على يد الفارتي نغان شي ـ كاو ، ثم واصل النقل مبشرون آخرون نذكر منهم الهندي تشو ـ شو ـ فو والفارتي تشي تشان . وكان أثر الطاوية هنا وفي كيانغ ـ سو،

قوياً جداً اذ ان النقل قد اعتمد لغة ملأى بالمصطلحات الطاوية . ويستدل من اختيار الكتب المنقولة ان النقل قد تناول المواضيع التي اهتم لها الطاويون : كتب اخلاقية وكتب تأمّل . وقد اختصت هذه الاخيرة بالممارسات التحضيرية للتأمل ولا سيما التمارين التنفسية والمواضيع نفسها المفروضة للتأمل . وجلي ان المهتدين الصينيين انفسهم هم الذين قاموا بهذا الاختيار : ولم يهتموا لمعرفة المميزات الاساسية في البوذية بقدر اهتمامهم لاكتشاف الصلات بين هذه الديانة وديانتهم . وفسّرت بعض الكتب البسيطة الحياة الدينية للموعوظين، وبالغت في افهامهم واجبات سلوكهم في الاحتفالات الدينية: يجب سماع الشريعة مراراً كثيرة ، دونما اهتمام الى طول العظة وقصرها، والاصغاء اليها بكل انتباه ، دونما تفكير بأي شيء آخر ، والتأمل ملياً بما ورد على لسان الواعظ ؛ ويلي ذلك تعداد المبادىء الاولية للأخلاق والتقوى: الشرور العشرون التي تحول دون تقدّم المؤمن ، الخطيئة ، الفضائل الثلاثة عشر ، الخ . ثم تقترح مواضيع التأمل بمثل هـــذه البساطة متدرجة من المحسوس الى المجرّد .

بيد ان هذا الالتباس الذي قام ، عن قصد او عن غير قصد ، بين البوذية والطاوية ، قــد زال شيئاً فشيئاً ، ومرد ذلك الى ان البوذية الصينية وعت واقعها وحقوقها وحاولت اثبات شخصيتها . منذ اواخر القرن الثاني بعد المسيح ، انتهى «طاوي» سابق اعتنق البوذية ، واسمه ماو ــ تسو ، الى رفض مبادىء لاو ــ تسو رفضاً كلياً والتمهيد للكونفوشيوسية التي اعتبرها مذهب الدولة .

افادت البوذية ، منذ دخولها ، من حماية بلاط اقليمي ثم من حماية بلاط الإمبراطور نفسه، فبلغت من القوة الراسخة ما سيتيح لها المقاومة والبقـــاء في احقاب الاضطراب التي ستلي سلم الهان . واستمر البوذيون الاجانب في دخول الصين معتمدين في أسفارهم طرقات القوافل او الطرقات البحرية : فبين السنة ٢٢٣ والسنة ٢٥٣ ، قام ابن سفير هندي ــ غزّي بنقل مؤلف بوذي جديد الى الصينية ، هو « اميتابها ــ سوترا » ، وفي السنة ٢٤٧ ، جاء تاجر سوغدياني من اقليم سمرقند ، مروراً بالهند والهند الصينية ، واخذ يبشر في نانكين . وبين السنة ٢٨٤ والسنة ٣١٣ ، قام الهندي ــ الغزي ، تشي فا ــ هو ، والهندي ، تشو شو ــ لان ، في مي نغان ــ فو ، بنقل مؤلف سادهارما ــ بونداريكا (بشتين الشريعة الجيّدة) الشهير من اللغة السنسكريتية الى اللغة الصينية .

لعبت البوذية ، دون ان تفقد طابعها التبشيري والتحضيري ، دوراً كبيراً في الظروف المؤلمة التي قسمت الصين في عهد التسين . فقد بعث نصائح الرهبان البوذيين ، في زعماء القرن الرابع البرابرة، بعض الحنو والشفقة في الصين الشمالية . كان احد هؤلاء الرهبان ، المدعو فو ــ تو ــ تنغ او فو ــ تو ــ تشنغ ، والمولود في كوكا من أبوين هنديين في الارجح ، قد وصل الى الصين الشمالية في السنة ٣١٠ ، أي قبيل الغزو بالذات . وكان قد زار قبل ذلك كشمير وأوساطاً بوذية كبيرة أخرى . وكان قصده من المجيء الى الصين تأسيس مركز ديني في العاصمة الامبراطورية . لكن هجوم الهون المفاجىء في السنة ٣١٦ حال دون تحقيق مشروعه ، فرأى فو ــ تو ــ تنغ ، بدافع

روحه التبشيرية الحقيقية ، الكسب الذي يستطيع جنيه من الحقل الجديد المنبسط امامه، فوطد علاقته بالرئيس ، تشي لو، المشهور بقسوته ، ثم بابنه وخلفه، شي هو، الذي لم يكن دونه قسوة. توفق في الدرجة الاولى الى اقناعها بالاقلاع عن المشاريع الدموية، اذ ان تشي لو بنوع خاص كان مصمماً على تقتيل كل تقي مدين . وسعى طيلة ٣٧ سنة الى تحسين طبائع هؤلاء الزعماء وظروف حياة السكان الصينيين. وأخذ يبرهن عن سحر قوة البوذية في حقول مختلفة : كالزراعة، والحرب، والطب، والسياسة ، واستغل بمهارة فائقة سذاجة ايمان البرابرة ، فأوهمهم بقدرته على « استنزال المطر » ، وأعطى نصائح حصيفة في أصول فن الحرب ، وشفى من بعض الامراض (ممارساً الطب الهندي ، في الارجح ،) ، وبذل جهوداً متواصلة في سبيل استمرار التحالف بين حماته وفضح دسائس أعدائهم . فحظي بشعبية كبرى وحصل على ثقة زعماء الهون ، واعتبر حينذاك ان باستطاعته نشر عقيدته . وكان الظرف مؤاتياً جداً لأن البوذية كانت قد تسربت الى اوساط المثقفين ولأن الفلسفة الطاوية كانت ميالة للاعتراف ببعض النقاط المشتركة التي تقربها اليها . غير ان الشعب ، لا سيا في الصين الشمالية ، كان ، عملياً ، يجهل كل شيء عن هذه الديانة ، ويغلب ان معظم الرهبان البوذيين الذين كانوا في الصين قبـــل غزوة الهون قد لاقوا حتفهم خلال انقلابات القرن الرابع . كانت المهمة عظيمة ، ولكن بدا ان ساعة الاصلاح قد أزفت . فقام فو ـ تو ـ تنغ ، بمساعدة زعماء الهون ، يجمع التلاميذ وبتشييد المراكز الدينية المعدّة للعب دور تبشيري في كافة المناطق حتى النائية منها ، وأدخل رهبانه الى البلاط وتدبّر أمره حتى يكون لهم أثرهم في النطاق العام والنطاق الخاص على السواء . فوسمت هذه التدابير الاخيرة ، بطابع خاص مميز ، بوذية الصين الشمالية التي غدت بذلـك ديانة شعبية منظمة بغية العمل مع الشعب ، وكان معنى ذلك، من جهة ثانية، اسهاماً حكومياً في ادارة المعابد وعمل المترجمين والفنانين والمفسرين. وباستطاعتنا القول ان كل ذلك قد ترك صداه العميق في وحدة الصين في عهد سلالتي « سواي » و « تانغ » .

كرّس شي ـ هو عمل فو ـ تو ـ تنغ ، فأصدر مرسوماً يجيز تأسيس جمعية رهبانية بوذية . فواصل أعضاؤها بجدارة رسالة هذا الراهب المعظم الذي كان لعمله الديني والتحضيري والتاريخي تلك الأهمية العظيمة . ومنذ الساعات الاولى انضمت الى الرهبان بعض الراهبات . فدخلت «صيننة» البوذية ، بفضلهم جميعهم ، مرحـلة التحقيق في الشمال والجنوب على السواء . فسار على خطى الملكين تشي لو وشي هو، في شن ـ سي ، الملك فو ـ كيان (٣٥٨ — ٣٨٥) الذي حمى المبشر الشهير كوماراجيفا ، المولود من أب هندي وأم تنتمي الى كوكا في كشغاريا . بعـد ان استقر هذا الاخير في تشانغ ـ نغان ، نقـــل من السنسكريتية الى الصينية عدداً كبيراً من النصوص البوذية، ولا سيا الـ «سوترالمكارا» الشاعر الهندي « اشفاغوشا » ، وكتاب « فراديس الطهارة » (سوخافاتي) ، والنظام الرهبـــاني لمدرسة الـ « سرفستيفادين » ، وأبحـاث مدرسة الـ « مادهياميكا » ، الخ .

ينم مجموع هذه الترجمات عن انتقاء تفضيلي في النصوص الهندية. وقد برزت في ممارسة البوذية

في الصين ، في عهد مبكر ، طريقة ستفضي في العهد اللاحق الى الأميدية التي نجحت ذاك النجاح الباهر في الصين وفي اليابان : فقــد تأسست منذ عهد التسين اخويات المتعبدين لـ « اميتابها » (اميدا في اليابانية) واخذت تعقد الاجتماعات بغية القيام بتمارين تقوية وتأدية صلوات مشتركة . ونمت عبادة الـ «بوذيساتفا» العظماء نمواً كبيراً ، بأسماء صينية صرفة منقولة عن السنسكريتية : « فالوكيتشفارا » ، الرحيم ، أصبح « كويان ـ ين » ، الذي يخلص المبتهلين اليه من كافة الاخطار ومن الموت المفاجيء ، و « كشيتيغاربها » أصبح « تي ـ تسانغ » الذي يتجـوّل في الجحيم وينجي الهلكى .

تستلزم الحياة الدينية درجتين : الحياة الرهبانية والحياة العلمانية . الراهب يمتنع عن الزواج وعن اقتناء أملاك خاصة ، يعتمد في معيشته على الاحسانات ، ولا يأكل إلا مرّة في اليوم قبل الظهر ، وينصرف الى التأمل . ويكتفي المؤمنون العلمانيون بأعمال البر . ولكن البوذية الصينية ، على غرار الطاوية التي تحيي امام علمانييها احتفالات يتجلى فيها البذخ والأبهة ، لم تكتف بالعبادة البسيطة التي درجت عليها ، أي السجود وتقادم الزهور والبخور . فقد أحدثت آنذاك احتفالات التكفير ، واحتفالات الجدود الموتى ، واحتفالات للأشخاص الذين انتهوا الى مصائر سيئة : الجحيم ، الأبالسة الجياع ، الخ . تقرأ في هــذه الاحتفالات مقاطع من الكتب المقدسة وترنم الصلوات ويشارك فيها المؤمنون ، على ان الكهنة يحتفظون بالدور الرئيسي . واتصفت بعض الاحتفالات بمزيد من الحياة : « في الاحتفال المقام لخلاص الجدود الموتى (ويغلب أنــه صيني صرف) ، يقوم احد الكهنة الجنود ، وعلى رأسه قبعة بشكل زهرة البشنين ، وفي يده عصا قصديرية ذات حلقات رنانة ، بتمثيل دور تي ـ تسانغ متجولاً في الجحيم ومرغماً الأبالسة على فتح ابواب سجون الهلكى ؛ وللدلالة على فتح كل باب ، يحطم أناء خزفياً بضربة من عصاه السحرية . اما الميت الذي ينجو على يده ، فيجتاز النهر الجهنمي في مركب ، بينما يقلّد بعض الرهبان الصغار حركة الجذافين مدخلين على نشيدهم مزاحاً لا يخلو من التطرف . وفي احتفـال تخليص الغرقى ، تلقى في النهر اساطيل ورقية من زهر البشنين التي تحمل كل منها شمعة مضاءة ، يستخدمها الغرقى كمراكب تقلهم الى « الضفة الاخرى » فينجون » . (هـ . مسبرو ، الديانات الصينية) .

تجمّع المهتدون الاولون طوائف علمانية حول المبشر والمعبد الصغير . ثم اخذ الصينيون ، في القرن الثالث ، يترهبون بأعداد كبيرة ، فغـدا المعبد الصغير ديراً . ثم شيّدت أديرة أخرى ازدادت ثرواتها تدريجياً بازدياد المؤمنين وتكاثر احساناتهم التي هي افضل وسيلة لمكافأة الاعمال. فأعطوا الطوائف الاراضي والمساكن والعبيد والمال . ومنذ القرن الرابع كانت هــذه الاملاك واسعة جداً ، وقد اقام فيها العديد من الرهبان المتقنين، وقد اعفي هؤلاء وأراضيهم ومزارعوهم من الضرائب ، ولذلك فقد اتفق كثير من الفلاحين وصغار الملاكين مع الرهبان على ان يتنازلوا لهم صورياً عن ممتلكاتهم : فكانوا بموجب هـذا الاتفاق يؤدون لهم بعض الخدمات متأكدين بالمقابلة من انهم لن يدفعوا ضرائب ولن يلزموا بأعمال التسخير او بالخدمة العسكرية .

تولى ادارة الأديرة رئيس قام تأثيره العظيم على قيمته الاخلاقيـــة فقط . عاونه أمين صندوق وذوو رتب مختلفـة . وشملت سلطته الاملاك والسكان . وكان يحاكم بحسب الانظمة الرهبانية حتى ولو أتى عملاً يطاله القانون المدني .

الطاوية

نشأت في القرون الاخيرة التي سبقت العهد المسيحي ، وانتشرت خصوصاً في عهد الهان والسلالات الست ، حين كان العالم الصيني في غليان سياسي وديني . « لعبت في عالم الشرق الأقصى دوراً مماثلاً لدور عبادة اورفيوس والاسرار في العالم اليوناني» (هـ. مسبرو) ، وهي في جوهرها ديانـة خلاص . فأثارت من ثم مسألة الخلود ، بمفهومها الصيني ، أي بشكل تتفوق فيه المادية على الروحانيـة . فليس هنا للنفس دور المقابل الروحي الغير المنظور للجسد المادي المنظور ، الذي قال بـه العالم اليوناني الروماني . ان نفوساً كثيرة – عشر في مجموعها – تقطن الانسان الذي ليس له بالمقابلة سوى جسد واحد يحاولون بلوغ الخلود فيه . فالمطلوب اذن اطالة دوامه او بالاحرى ابداله ، خلال الحيـــاة ، بأعضاء خالدة تحل تدريجياً ، بقوة الممارسة الدينية والتقشفية ، محل الاعضاء الزائلة ، وتتيح للمؤمن الخلاص من الموت و « الصعود الى السماء في وضح النهار » . فلا يكون موت هؤلاء الخالدين من ثم سوى موت ظاهر فقط : وليس مـا يودع في التابوت سوى سيف او عصا اعطاهما الخالدون ظاهر الجثة بينما هم انتقلوا كي يعيشوا بين الخالدين .

اما تحول الجسم الزائل الى جسم خالد فيتم بحياة دينية فردية ، وبحياة اخلاقية واعمال فضيلة ، وبتمارين جسمانية ، وبعلائق ذاتيـــة بالآلهة . وفي الاساس من الصوفية الطاوية الامتناع عن الحبوب ، والتنفس الجنيني . ولا تحظـر الحِميةُ الحبوبَ فحسب ، بل النبيذ واللحم والنباتات ذات الطـُعمة القوية كالبصل والثوم . اما التمارين التنفسـية فتستهدف تعلم «حصر النفس» للتغذي منه ، بعد التغلب على كافة الاضطرابات الجسمانية التي قد يتسبب فيها هذا الحصر . ويمكن ان يمهد التنفس الجنيني لاستخدام النفس ، أي الى شتى أساليب تنقل النفس في الجسم . ولكن يجدر لبلوغ ذلك تدريج التمارين بغية الحصول منه على نتيجة أكيدة. وترافق هذه التمارين عقاقير تحضر كيماوياً وتوزع بكل فطنة ، لا سيما الزنجفر الذي يصعب الحصول عليه بسبب ارتفاع ثمنه . بيد ان الانسان ، حتى ولو بذل هذه الجهود في سبيل بلوغ الخلود ، لا يستطيع الخلاص من مصيره اذا مات في سن الشباب ، فبلوغ الخلود يتطلب وقتاً طويلاً ، ومقرر المصير يضبط بدقة كتاب الموت وكتاب الحياة ، ونادرون جداً هم الذين تدون أسماؤهم في هـــذا الاخير قبل ولادتهم . ويجدر لضمان هذا التدوين ارفاق هـذه التمارين الجسمانية بتقنية روحيـة تفضي الى المشاهدة الداخلية والتأمل والاتحاد الصوفي .

يجب في الدرجة الاولى ان يعيش المؤمن عيشة طاهرة ويأتي اعمالاً صالحة : اطعام الايتام ، وتعهد الطرقات ، وتشييد الجسور ، وتوزيع الثروة على الفقراء ، وتخليص القريب من الاخطار ، ووقايته من الامراض ، وتجنيبه الموت العجول . ولكن عدد الخطايا يفوق عدد الاعمال الصالحة الى حد بعيد ، ويكفي عمل سيء واحد لافقاد الافادة من كافة الاعمال الصالحة . إلا ان تلافي

ذلك ممكن اذا مورست بعض الطقوس . فغالباً ما يبحث الآلهة والخالدون عن المؤمن الجاهل، ولكن الواجب يقضي على المستنيرين بأن لا يقفوا هذا الموقف السلبي : عليهم ان يخطوا الخطوة الاولى ويبحثوا عن الآلهة الذين يستطيعون وحدهم تأمين الخلاص لهم . وهؤلاء الآلهة أكثر من ان يحصوا ، ويجب ان نرى في تعيينهم أثراً للزون البوذي . فهم موزعون بحسب تسلسل كثير المراتب يؤلف الخالدون فيه الوسطاء بين الآلهة والبشر. وكلما تقدم الاتباع المستنيرون أصبحت لهم صلة بالخالدين وتسلقوا درجات هذا التسلسل وغدوا تدريجياً من خاصتهم . ويقلّد نسب الآلهة هذا التسلسل الامبراطوري وادارته ويعيش على غرارها في القصور . وغالباً ما ينحدر الآلهة الى الارض ويقيمون في مغاور الجبال ، ولكن لا يخدم كل من يريد وجودهم اذ ان البحث عن الآلهة في العالم عمل شاق وطويل ، اضف الى ذلك ان الاسفار باهظة النفقات ولا تيسر للجميع .

هنالك سبيل مباشر للوصول اليهم لأنهم ليسوا في العالم فحسب ، بل في كل فرد ايضاً ، والانسان عالم صغير ، وهو يجمع في داخله ، بهذه الصفة ، آلهة العالم الكبير . فبالامكان اذن ، بجمع الأفكار في التأمل ، الاتصال بهم، وهذه تقنية تقتضي علماً وتدرباً لأن المشاهدة في البداية على كثير من الغموض . ولا تتحسن إلا بالتمرين ، فتتضح التفاصيل تدريجياً مظهرة الآلهة بكل ميزاتهم .

غير ان المشاهدة الداخلية ليست سوى عتبة الحياة الروحية : فيجب الوصول الى المشاهدة العليا ، وهي الخطاف حرّ طليق ، التي تتيح بلوغ الطريق، « طاو » ، أي الحقيقة الفائقة الدائمة الوجود التي يتحقق الاتحاد الصوفي بها . ولكن يبدو ، اذا كان هذا هو الهدف ، ان الحياة الصوفية لم تعرف رواجاً في الطاوية اذ ان المؤمنين قد استهووا اقل الممارسات سمواً .

تأسست الديانة الطاوية أصلاً لجمهور المؤمنين ثم تنظمت تدريجياً متخطية الى حد بعيد إطار الطبقات المحظية حتى تشمل الشعب بكليته . وحين برزت ، في السنة ١٧٤ ، بوادر ثورة العمائم الصفراء ، كانت قد أصبحت ديانة راسخة التنظيم خاضعة لقانون على بعض الصلابة على الرغم من مظهرها الوالدي. وخضعت طوائفها ، على الرغم من المسافات الطويلة التي فصلت بينها ، لنظام واحد . وقام في أعلى سلّم مراتبها ، عند العمائم الصفراء ، الى الشرق ، رئيس أعلى يعاونه رئيسان آخران . وجاء بعده السحرة (فانغ) الذين تقاسموا ادارة الاقضية : كبار السحرة (تا ـ فانغ) يديرون شؤون عشرة آلاف مؤمن فما فوق ، وصغارهم (سياو ـ فانغ) بين ستة وثمانية آلاف . وجاء اخيراً الرؤساء الكبار الذين كانوا وسطاء بين السحرة وجمهور المؤمنين . واذا اختلفت هذه الأسماء عند العمائم الصفراء في الغرب فان الرتب متعادلة تقريباً .

يستلم رئيس الطائفة ، المعلم (شي) ، وظيفته من ابيه ويسلّمها بدوره الى ابنه ، او الى عمه او اخيه ، الخ ، اذا لم يرزق اولاداً . يعاونه مجلس رعية مؤلف من اعيان طاويين ، رجالاً ونساء ، ينعم عليهم برتب تسلسلية ؛ ويبدو ان عمل هذا المجلس كان ، في الدرجة الاولى ، تأمين الاموال اللازمة للعبادة. ويتولى الرئيس احصاء « رعاياه » ، فيدون الولادات والوفيات،

ويسلّم نسخاً عن « سجل المصير » يستصحبها الميت الى العالم الثاني كي يحصل بموجبها على المعاملة التفضيلية التي يستحقها المؤمنون الاتقياء .

دور الرؤساء ديني في الدرجة الاولى : فهم مبشرون قبل أي شيء آخر ، ويجمع فرقهم عن طريق الاهتداء . وتحيي لهم العائلات ، في مناسبات مختلفة ، (ولادة صبي ، او بنت ، او موت احد افراد العائلة ، الخ .) احتفالاً أشبه بالعيد يقوم في جوهره على مأدبة وهدايا . ودور المعلمين ديني كله ايضاً : الجرائم تعتبر خطايا ، والامراض كذلك ، وتنال بهذه الصفة ، عقوبة صارمة : فيحكم على المرضى بدخول « بيت عزلة » - شبيه بالسجن - ويفرض عليهم تقديم خمسة مكاييل أرزاً في السنة . والغاية من ادارتهم نشر التقوى بين الجماهير ، وتوزع الرتب والالقاب ، وفاقاً لدرجة التقدم في الممارسة الدينية ، على الرجال والنساء على السواء ، لأن أبواب الحياة الدينية مفتوحة لكلا الجنسين دونما تمييز . وتستند هذه الحياة الى التمارين التنفسية ، والامتناع عن الحبوب ، وممارسة الفضائل والعناية بالصحة الجنسية ، وهي معدة لتوفير الصحة والحياة الطويلة والسعادة والبنين . في أقل من عشر سنوات استمال هذا التقشف وهذه الاخلاق وهذه العناية ٣٦٠٠٠٠ مؤمن ، الشيء الذي يفترض اهتداءات بالجملة . اما مظاهر هذه الحياة الدينية فجماعية : اعترافات علنية ، وشفاء بالجملة ، وصلوات مشتركة لشفاء المؤمنين . تقام أعياد كبيرة في تواريخ انقلاب الشمس واعتدال الليل والنهار ، يطلق على بعضها اسم « الصوم » وعلى البعض الآخر اسم « الجمعية » ، ولا يجتمع في الاولى منها سوى عدد محدود من المؤمنين (بين ستة وثمانية) تحت اشراف احد المعلمين ، في حال ان عددهم غير محدد في الاعياد الثانية . ولا تخضع الاعياد لطقوس ورتب معينة متماثلة ، بل تختلف بين شيعة وأخرى ، ولا يحتفل بها كلها في تواريخ ثابتة ، اذ ان بعضها تفرضه المناسبات ايضاً . بيد انها كلها تقام في الهواء الطلق في مساحة مقدسة . وتقوم بقرابين مختلفة هي ضحايا بشرية في الذبيحة الكبرى التي تقام لإله السماء ، وتوزع فيها تمائم حربية معدّة لمقاومة أبالسة الرقى الشافية التي توزع على المرضى . وفي « صوم » الوحل والفحم ، المعدّ لتجنب الامراض ، يطلى الوجه بالفحم والجبهة بالوحل ، ويستقيم المؤمنون منكّسين رؤوسهم ومرسلين شعراً متشعثاً يدخل أفواههم ، ويسيرون عاقدين الاصابع . ويصومون طيلة ثلاثة أيام ويضيئون مصابيح المذابح ويمارسون التوبة ويلتمسون الرحمة للجدود الذين ماتوا او سوف يموتون . وترتدي بعض هذه الاعياد طابع الافراط في الاكل والانهماك في السكر ويرافقها نكاح علني ، الشيء الذي يفتمّ له البوذيون . ولكن معظم الاعياد تتصف بالهدوء مستلزمة اخراجاً يوفر جواً صوفياً فقط : المصابيح والبخور والموسيقى وضرب الطبول والصلوات المشتركة الطويلة والسجود ، وقد تدوم حتى خمسة او سبعة أيام ، ويقام منها اثنان في الشهر على الاقل .

لقد أسهمت هذه الاعياد وهذه الاحتفالات الى حد بعيد في نجاح الطاوية .

الكونفوشيوسية

ان الكونفوشيوسية ، على نقيض الطاوية والبوذية لم تهتم بالفرد بل للأخلاق الحكومية في الدرجة الاولى . بدت وكأنها عقيدة رسمية وانحصرت في الطبقات الحاكمة لأن اكتشاف الديانة الشخصية يوجه اليها كافة الاذهان الشعبية . فالكونفوشيوسية اذن

نقيض الصوفية : اذ انها مذهب عقلي ملحد عملياً . ولن نرى عقيدة المثقفين هـذه آخذة في الانتشار إلا ابتداء من آخر عهد سلالة « تانغ » ولن تزدهر إلا في زمن لاحق ، في عهد سلالة « سونغ » وفي عهد الهان اللاحقين ، حين لجج مفسران مشهوران، هما « ماجونغ » (بين ١٤٠ و ١٥٠) و « تشنغ هيوان » (بين ١٦٠ و ٢٠١) في اعطائها ، للمرة الاولى ، مظهراً متلاحماً . فأتت بجوهرها مذهب حكم مبنيا على مبادىء فلكية ومستنداً الى تعليم الكتب الكلاسيكية . وقد درجوا تقليدياً على نسبة هـذا التعليم الى كونفوشيوس في حال انه ، في مجموعه ، اقدم عهداً . فقد كان هنـاك « كتاب التحولات » (يي ـ كنغ) ، و « كتاب الاناشيد » (شي ـ كنغ) ، و « كتاب الوثائق » (شو ـ كنغ) ، و « فصول الربيع » و « فصول الخريف » (تشون ـ تسيو) و « كتاب الطقوس » (لي ـ كنغ) . اما التعليم فتقني ينطوي على صيغ عرافية وقصائد اخلاقيـة او تفسيرية النزعة ومختارات نثرية تتعلق بأخلاق الحكم والسياسة والحكومة والاخبار المحلية ووصف الاعياد والاحتفالات . واذا سعوا ، في عهد الهان ، لأن يستخلصوا منهـا عناصر علم المقولات الذي سيوضع في عهد لاحق ، فقد سعوا خصوصاً لأن يكتشفوا فيها الحكم على النظام او تأييده . وقد بنوا على مشتملاتها تعليماً فلسفياً لا ينطوي بعد على أية وحدة او بحث فلسفي ، ولكنه اتخذ ، للمرة الاولى ، شكلاً رسمياً . ثم تعددت مراكز التعليم تدريجياً : فبلغ عددها ١٥ في القرن الاول واقترح كل منها تفسيراً شخصياً ، واختلفت الآراء اختلافاً بيناً احياناً ، ولكن الاختلاف تناول التفاصيل دون الجوهر ، وهو قد دار عملياً حول تفاعل العالم المادي والعالم الادبي . ويتألف العالم من السماء التي تغطي وتلتج ، ومن الارض التي تحمل وتغذي ، وبينها الكائنات الحية والاشياء . الانسان أشرف هـذه المحاصيل ، ويتمتع وحده بالوعي والشعور . ويسير العالم سيراً طبيعياً طالما لا يخالف الانسان الطريق ، « طاو » ، التي تسوس النظام كله ، او تعاقبَ المبدأين « ين » و « يانغ » اللذين ينظمان توازنه . والحكم السيء ، قبل الافعال السيئة ، مسؤول عن اضطراب العالم الادبي ويستجلب الكوارث السماوية والارضية .

أقر الهان السابقون مذهب المثقفين فأصبح تعليماً عاماً في كافة أنحاء الامبراطورية. وفي عهد الهان اللاحقين اشتملت « المدرسة الكبرى » ، الموكول اليها امر نشره ، على عدد ضخم من الابنية : فكانت أشبه بمدينة جامعيـة بقاعات دروسها ومكتبتها ومساكن معلميها وطلابها . وقد ألحقت بها في كل قضاء عدّة مدارس يتولى احد المدرسين فيها تدريس كتاب او عدة كتب من مؤلفات الكلاسيكيين . ونحن نرجح ان عدد الطلاب كان مرتفعاً جداً في السنة ١٣٠ بعد المسيح اذ ان المجموعة البنائيـة بلغت ٢٤٠ والغرف ١٨٥٠، وقد استقبل فيها، بعد سنوات ، ٣٠٠٠٠ مستمع بالاضافة الى الطلاب المسجلين . أسندت ادارتها الى رئيس ، وكان تحت امرة المعلمين أساتذة مساعدون يتلقون تعليمهم وينقلونه الى الطلبة . اوجب نظام السنة ١٥٦ بعد المسيح درس مؤلفين كلاسيكيين في سنتين ، وأخضع الطلبة في آخر الدورة الى امتحان يحق للناجحين فيه حمل لقب وتقاضي مرتب . اما الراسبون فيضطرون لمتابعة دورة ثانية تمكنهم من

التقدم الى الامتحان مرة أخرى . واذا رغب البعض في متابعة دروسهم ، درسوا المؤلفين الكلاسيكيين الثلاثة الآخرين بمعدل واحد في دورة تستغرق سنتين ، أي ان الدروس كلها تستغرق ثماني سنوات يتخللها امتحان في نهاية كل دورة . ويقوم الامتحان بسلسلة من الأسئلة المكتوبة على لوحات خشبية ، صغيرة اذا كانت الاسئلة سهلة ، وكبيرة اذا كانت الاسئلة عويصة . كانت هذه اللوحات تعلّق الواحدة قرب الاخرى ويختار الطلبة أسئلتهم بجهم يسدّدونه اليها .

هذّب هذا التعليم المنظّم عقل الطبقات الحاكمة . وقد تطور بسرعة ما بين القرنين الثاني والرابع نحو إلحاد وخلق سياسي كان لهما شأن كبير في ردود فعل المثقفين ابان الازمات المتعاقبة في ذاك العهد . ومن حيث هو مذهب اشراف ، لم يفسح مجالاً للفرد : فكل شيء مآله الى الآلة الكونية الضخمة . واذا ما حصّل الانسان ثقافة ، فليس تحصيله لغاية شخصية بل للمساعدة على حسن سير العالم ، أي للتمكن من شغل الوظائف الرفيعة اذا احتاج احد الملوك الصالحين الى مستشارين. ولم يفسح المجالَ لبعض مبادىء الاخلاق الاجتماعية سوى التقوى البنوية التي خصّص له كتاب هو « هياو ـ كنغ » . ولكن هذا الشعور الطبيعي بواجب الأبناء نحو والديهم ليس في الواقع سوى عنصر من عناصر الحركة العامة : فنحن امام دستور دقيق الوصف يفرض بعض الاعمال نحو الوالدين الاحياء والاموات ويتخطى الى حد بعيد الأطار العائلي، منظماً العلائق بين الرؤساء والمرؤوسين،وبين الرعايا والملك ، وبين البشرية قاطبة . ويؤدي هذا الدستور بالانسان الى تكامل ذاته من زاوية جماعية وكونية .

غير ان التلاحم الذي حققه المثقفون حتى القرن الثالث لم يصمد امام الهزات التي ذهبت بعد الهان. فأعاد الفوضى الى التعليم الرسمي انقسامُ الصين في عهد الممالك الثلاث. ولن ينهض المذهب الكونفوشيوسي قبل القرن السابع .

النزعات الى توحيد الآراء

أنجز الصينيون، خلال هذا العهد، بتأثير من الاضطرابات التي فرضت على الافراد الى البحث عن عضد عاطفي في الديانة ، وبتأثير من البوذية التي قدمت لهم علماً اخلاقياً بسيطاً وخلاصاً فردياً ، الى مبدأ توحيد الآراء الدينية ايضاً الذي ترك أثره في الارستوقراطية الكونفوشيوسية نفسها . أضف الى ذلك ان اختلاطاً حقيقياً قد قام بين الطاوية والبوذية منذ دخول هذه الاخيرة ؛ واذا تجادل رجال الدين في بعض النقاط العقائدية ، فان عامة الشعب لم تعرها أية أهمية : اذ ان اهتمامها الاول قد انحصر في الخلاص والحصول على الحياة الخالدة السعيدة . فلم يميز الشعب من ثم بين الفردوس البوذي والفردوس الطاوي ، وكلاهما محسوس ومفهوم .

تسرّبت عقيدة التقمص ، بتأثير من البوذية ، الى الطاوية التي تحوّل آلهتها تدريجياً بفعل التأثير نفسه . وسلبت البوذية ، من جهتها ، بتسرب الحرارة الروحية التي كانت سائدة آنذاك ، واستوحت احتفالاتها تلك الاحتفالات التي احرزت ذاك النجاح المعظم لدى المؤمنين الطاويين .

وتوالت ، من جهة ثانية، الظواهر «النفسانية الخارقة» التي رويت عنها بعض الحالات النموذجية: ففي اوائل القرن الثالث شرعت احدى المريضات فجأة بتكلم السنسكريتية وكتبت على الفور مؤلفاً سنسكريتياً من عشرين فصلاً تبين بعد ذلك انه « سوترا » بوذية . وحدث في اواخر القرن الرابع ان ابنة احد معلمي المدرسة الكونفوشيوسية الكبرى قد أملت باللغة الصينية ، بين سن التاسعة وسن السادسة عشرة، قرابة عشرين مؤلفاً بوذياً نزل الوحي عليها بها. وتسربت كذلك بعض الآراء البوذية الى مذهب المثقفين ، ومنها التقمص بنوع خاص .

سيزداد هذا التسرب المتبادل خلال القرون اللاحقة على الرغم من المحاولات التي بذلت هنا وهناك وهنالك للحفاظ على نقاوة العقيدة. غير ان البوذية والطاوية قد أنهكها صراعها في سبيل كسب النفوس الصينية ، فكانت الغلبة في النهاية للكونفوشيوسية . ولكن ذلك لم يحدث قبل سلالة « تانغ » .

٣ ـ الاكتشافات التقنية والعلمية

ان العهد الذي نحن بصدده هو عهد الاكتشافات الآلية والادوية او عهد استخدامها على نطاق واسع . وهي قد رافقت ، كما هو بديهي ، الثورة الفكرية التي أشرنا اليها ، والفتوحات الصينية، والميل الجشع الى البذخ والجدّة اللذين يميزان الصين في عهد الهان اللاحقين وعهد التسين.

وانما انتشرت هذه الاكتشافات ، او انتشر تطبيقها ، في حقول مختلفة . ففي الحقل الآلي ، يمكننا ان نذكر المحراث ذا السنن الثلاث الذي سبق واكتشف في القرن الاول قبل المسيح وانتشر آنذاك في كافة أنحاء الامبراطورية ، والمطحنة المائية التي عرفت منذ اوائل العهد المسيحي ، واستخدمتها بعد ذلك جميع طبقات المجتمع ، لا سيا في القرنين الثالث والرابع ، والنول الذي بُسّط وحُسّن في القرن الثالث ، فخفض عدد الدراسات فيه من ٥٠ و ٦٠ الى ١٢ فقط ، و « العربة الجنوبية » التي صممت وفاقاً لمبدأ القطارات الآلية والتي دارت عجلاتها بواسطة أجهزة مسننة ومحاور متحركة يدفعها مِكبَس (بستون) الى الامام .

وفي حقل آخر ، اكتشف احد خصيان القرن الثاني صناعة معجون الورق الذي ستكون له تلك الاهمية العظيمة في المستقبل .

غير ان هذا العهد قد توصل الى العدد الأكبر من الاكتشافات في حقل علم الفلك . ليس من ريب في انه استفاد من بعض اكتشافات القرون السابقة ، ولكن ما ادخله عليها من تحسين وتكميل جعل الصينيين يعتمدون عليها حتى القرن الثالث عشر ، وهو تاريخ ادخال الآلات الفارسية الى الصين على أيدي المغول .

عرف الصينيون قبل الهان الادوات التالية : الساعة المائية ، والمزولة ، ولوحة القياس ، والساعة الشمسية . فأدخل الهان التحويرات عليها وأضافوا اليها المنظار والدوائر المعدنية التي تمثل حركات الاجرام السماوية ، والكرة السماوية . وبفضل ذلك ، « توصل علماء الفلك آنذاك

إلى تحديد الطول التقريبي للسنة الاستوائية ، ووضع روزنامة قانونية ، والاهتداء الى حركات السيارات ، والنهوض بأولى النظريات العلمية لتمثيل العالم ، وايجاد تقنية خاصة بملاحظة الفلك « (هـ . مسبرو) . أوضحوا حركات السيارات ، ولا سيما حركات القمر ، وتوصلوا الى بعض التدقيق في تحديد مواعيد الخسوف والكسوف واكتشفوا مبادرة نقطة الاعتدال (بين ٣٢٥ و ٣٥٠ بعد المسيح) . وباستطاعتنا القول ان علم الفلك قد انتقل بفضلهم من مرحلة التلمس الى مرحلة التحقيقات « العصرية » .

الساعة المائية

كانت الساعة المائية (ليو ـ هيو ، كو ـ ليو) أشبه ببناء حقيقي ، وقد حلّت محل ساعة مائية أقدم عهداً ، وصممت بحيث تقيس يوماً كاملاً . نظمت حياة القصر الجمهوري ليلاً ونهاراً ، لأنها كانت مزدوجة . تألفت من ثلاثة احواض مغطاة منضدة على مراقٍ : خزان ، وحوض ينظم الحركة ، ومَصَب . في اسفل المراقي يقوم اناء بشكل الساعة المائية القديمة يعلوه غطاء مثقوب يمر فيه ساق معدني مدرّج ، والاناء الاخير هذا هو اناء الساعة بالذات . الساق مثبت في عوامة ومقسّم اجزاء متساوية بخطوط يشير كل منها الى مرور ربع ساعة (كو) . ويقف امام الثقب تمثال يبسط ذراعيه يقوم بدور وكيل الساعة . يداه تشيران الى اقسام الساق التي تتوالى بين ذراعيه كلما ارتفعت العوامة بارتفاع مستوى الماء في الاناء . وتتصل هذه الاحواض ببعضها بواسطة صنبور تنيني الشكل مثبت في القسم الاسفل من الاحواض العليا الثلاثة يقذف بالماء من شدقه . أضف الى ذلك ان الحوض الذي يعلو الساعة مباشرة ينطوي على مصب يحول دون ارتفاع مستوى المياه وينظم تموين الساعة بها . وتعلو الاغطية هذه الاحواض جميعها حتى لا يتسرب الى الماء أي جسم غريب قد يسدّ الانابيب .

واجه مهندسو ذاك العهد مسألتين : تأمين استمرار معدّل كمية المياه وتفاوت طول النهارات والليالي بحسب الفصول . كان الحوض الاعلى بمثابة خزان تكفي سعته نظرياً لاثنتي عشرة ساعة ، ولكنهم كلفوا مراقبين مستوى الماء فيه ويملأونه عند الاقتضاء بوسيلة من الوسائل . وكان الحوض الثاني اناء منظماً الغاية منه الحفاظ على مستوى ثابت . اما الثالث فقد كان معداً لاستيعاب الفائض من مياه الحوض السابق . وبفضل هذا الجهاز كانت المياه تصب في الساعة بانتظام تقريباً . وكانت هذه الساعة مزدوجة ، فالاناء السفلي مجهز بصنبورين : احدهما يفتح في اول النهار ويقفل في اول الليل ، والثاني يقفل في اول النهار ويفتح في اول الليل . اما الساق الذي يرتفع بارتفاع المياه ، فيخرج كله من الثقب حين يمتلىء الاناء ، أي انه يشير آنذاك الى ربع الساعة الاخير من النهار او من الليل . وعلى الرغم من ان شيئاً لم يذكر عن طريقة تفريغ اناء الساعة ، فالارجح انه كان يؤمن بصنبور او سدادة في اسفل الاناء ، وكان الوقت متسعاً جداً للقيام بهذا التفريغ لأن كل « ساعة » تتوقف اثنتي عشرة من أصل اربع وعشرين . ولا ريب في ان كمية الماء الصابة في اناء الساعة قد خضعت لحساب مدقق ، ويمكننا الاستنتاج ، بناء لتقديرات هـ . مسبرو ، انها كانت تصب ببطء ونقطة نقطة . وقد وجب لتأمين هذه النتيجة ان يكون الضغط في الحوض

المنظّم ثابتاً، وكان هذا الحوض الوسيط ضرورياً من حيث ان المهندسين لم يفكروا بجر الماء الى الخزان . ولكن هذا الحوض الوحيد غير كاف لتنظيم كمية المياه الصابة في اناء الساعة (كان من الواجب ان يقوم الى جانبه حوض ثان) ، ولذلك اوجد فيه جهاز آلي يؤمن التنظيم : هو ، على ما يبدو ، أشبه بميزان احد طرفيه متحرك يسدّ مصب فائض المياه والثاني ثابت عند المستوى الذي يجب ألا تعلوه الماء . وقد جهز هذا الطرف الاخير ببعض الزئبق. فما ان تعلو الماء المستوى المحدد لها حتى تتحرك بعض نقاط الزئبق فيرتفع طرف الميزان المتحرك ويفتح مصب فائض المياه ، وحين تعود الماء الى مستواها في الحوض يعود الزئبق الى مكانه ويستوي الميزان افقياً ويسدّ مصب فائض المياه مرة اخرى ، وبذلك ينتظم الضغط .

اما بصدد تقدير الوقت فقد واجه المهندسون الصينيون بعض الصعوبات لأنهم قد استخدموا ساعتين احداهما للنهار والاخرى لليل ، ولأن ابدال الاولى بالثانية كان يجري عند شروق الشمس وغروبها : وقد استوجب ذلك عمليات ضبط متعاقبة لماشاة قصر النهار والليل . ولكنهم تلافوا ذلك بتغيير الساق كلما طال النهار او قصر ربع ساعة كاملاً (كو : = ١٤' و ٢٤'') . فيتكون من ثم فرق يجمع أربعاً وعشرين ساعة خلال السنة ، وكان هناك بالتالي اربعون ساقاً (عشرون منها نهارية وعشرون ليلية) تبدل كل تسعة ايام . وجلي ان هذا التقدير قد أفضى الى فروقات على بعض الاهمية بالنسبة الى الواقع ، فحوّره « هو جونغ » في اواخر القرن الاول باستخدام ٤٨ ساقاً تبدل كل سبعة أيام ونصف. وعلى الرغم من الأخطاء التي كان من شأن هذا التقدير ان يجر إليها ايضاً، فقد عمل به حتى القرن الثاني عشر . اضف الى ذلك ان هذه الاخطاء لم تكن ذات شأن : خمس دقائق ونصف كحدّ أعلى في منقلب الشمس الشتوي مثلاً ، وهي اخطاء لا أثر لها في الحياة اليومية ولا تضايق سوى المنجمين .

المزولة اقتصرت المزولة في عهد الهان على وتد طويل يغرز في الارض عمودياً في مكان شامس. حدّد علوّه بثمانية اقدام (او بأحد أضعاف الثمانية) . ينتصب في ارض أفقية تماماً يستثبت من استواء سطحها بواسطة قادن مائي (استخدم قبل الهان) يجب ان يكون هو نفسه عمودياً تماماً ايضاً : فتشد لهذه الغاية ثمانية حبال من أعلى الوتد الى زوايا الارض المربعة وأوساط ضلوع هذه الارض ، فيؤدي توتر الحبال – المتساوية طولاً ٤ × ٤ – الى جعل الوتد عمودياً تماماً.

استخدمت المزولة لقياس الظل الذي يرسمه الشمس على الارض ودرس انتقاله ؛ فاستعمل علماء الفلك الصينيون لهذه الغاية « لوحة القياس » (تو – كواي) . عرفت هذه اللوحة في العهد السابق، وكانت تصنع من اليشب او الخزف او البرونز او الخشب، شكلها شكل المربع المنحرف، ويتراوح طولها بين ٣٤٢ مم و ٣٢٤،٨ مم . توضع ارضاً بجانب الوتد ، وفي نهار المنقلب الصيفي ، ظهراً ، يساوي ظل الوتد طول اللوحة . بعد ان يحدّد تاريخ المنقلب الصيفي ، يحدّد تاريخ المنقلب الشتوي حسابياً انطلاقاً من هذه الملاحظة : أي بعد مرور مائة واثنين وثمانين يوماً وخمسة أثمان اليوم . وقد انطوت هذه الحسابات على خطأ محسوس يبلغ يوماً وبعض اليوم بعد المنقلب الشتوي الحقيقي .

منذ عهد الهان أبدلت هذه اللوحة مسطرة حقيقية مدرّجة وطويلة يمكن استخدامها لقياس الظلال في كافة أيام السنة بما فيها ظل المنقلب الشتوي ، أطولها اطلاقاً . فقل منذئذ شأن الاخطاء ، ولكن الخطأ في تقدير السنة الشمسية رافقه بالضرورة خطأ في تقدير الشهر القمري ، والتقديران مترابطان في الروزنامة الصينية . ولم يتوصلوا الى مزيد من الدقة إلا في القرن الرابع بعد اجراء حسابات كثيرة بواسطة لوحة القياس ، كما لم تتح هذه الاداة ، المحسّنة والمتممة للوتد الشمسي ، إلا في القرن الخامس فقط ، اثبات تفاوت الفصول الذي لم ينتبهوا له حتى ذاك التاريخ . وعلى الرغم من كل ذلك ، فان الوتد الشمسي كان للصينيين الاداة الاساسية في علم الفلك التي بنوا عليها أبعد معارفهم وضوحاً حول شكل العالم .

الساعة الشمسية

استخدمت منذ عهد الهان أداة خاصة قريبة من المزولة للتأكد من تواريخ تغيير الساق في الساعة المائية . وكانت هذه الاداة لوحة (من يشب) مستطيلة الشكل ٢٨٨ مم × ٢٨٢ مم حفر في وسطها ثقب مستدير يبلغ قطره ٩٫٦ مم ورسمت حواليه دائرة يبلغ قطرها ٢٤٣ مم . وقد حفر في الثلثين السفليين من هذه الدائرة ثقوب صغيرة متساوية الأبعاد مرقمة من ١ الى ٦٩ تصلها بالوسط خطوط مستقيمة . تشير هذه التقسيمات الى عدد أرباع الساعة في النهار ، وتستخدم تقسيمات الاطراف في حساب سمت الشمس عند شروقها وغروبها . وقد توصل الصينيون في عهد الهان الى معرفته معرفة تامة . وجليّ ان هذه اللوحة توضع أفقياً على سطح مستو ، فيشير الساق المغرز في الثقب الوسطي الى تقدم الشمس . ويوجه القسم الغير المرقم نحو الجنوب . ولا يمكن ان يكون القصد منها معرفة الساعة لأن ثخانة الساق تحول دون التدقيق ولأن ظله يغطي أكثر من خط ، او خطين او ثلاثة احياناً . ولكن الساعة الشمسية ، على نقيض ذلك ، استخدمت ، بمراقبة الظل ، في تحديد موعد تغيير الساق في الساعة المائية . لمن الأهمية بمكان ألا يحصل خطأ في موعد هذه التغييرات ، لأن ضبط الوقت متوقف بكليته على ضبط تغيير الساق الذي يضيف او ينقص ربع ساعة ، صباحاً ومساءً . بفضل هذه الاداة أصبحت المراقبة أمراً ممكناً ؛ فكل يوم يلاحظ إتجاه الظل عند شروق الشمس وغروبها ؛ وكلما انتقل الظل من خط الى خط يكون النهار قد زاد او نقص ربع ساعة .

المنظار

وجد المنظار (وانغ – توانغ – يو – هنغ) منذ عهد الهان السابقين واستمر استخدامه الى ان أدخل اليسوعيون المرقب . اقتصر استخدامه على عزل حقل محدود المساحة بغية تتبع حركة نجم ثابت أو سيار معين . قوامه خيزران يبلغ ثمانيـــة اقدام طولاً ويبلغ قطر فراغه الداخلي بوصة واحدة . يثبت على قاعدة تؤمن استقراره .

الدوائر المصنفة لتمثيل حركات الاجرام السماوية

أتاحت الساعة المائيـة والساعة الشمسية والمزولة ولوحة القياس والمنظار تحديد الوقت بالضبط وقياس حركات الأجرام السماوية بتدقيق لم تبلغه العهود السابقة . غير ان القياسات الحيزية ما زالت ناقصة ومشوّشة . فاستخدمت في النصف الثاني من القرن الاول دائرة استوائية لتمثيل

حركات الاجرام السماوية في مرصد « المنجم الكبير » : قدّم كنغ شيو - تشانغ هـــذه الآلة ، للامبراطور في السنة ٥٢ قبل المسيح ؛ وكان باستطاعتها « قياس حركات الشمس والقمر والتثبت من شكل الفلك وحركاته » . وهي في جوهرها دائرة برونزية مقسمة الى درجات قياس الواحدة منها بوصتان ، يبلغ قطرها ٥٧٤ مم ومحيطها ١٫٨٠ م تقريباً . فخطر لـ « فو نقان » في السنة ٨٤ بعد المسيح ان يعطي احدى الدوائر انحناء مدار الشمس، فصنع ادوات خاصة : هي الدوائر المصنوعة وفاقاً لهذا الانحناء والمؤلفة من دائرة برونزية مدرّجة مثبتة بحيث تكوّن مع خط الاستواء زاوية قياسها ٢٤ درجة تقريباً ، ويرجح ان منظاراً متحركاً قـــد مرّ بوسط الدائرة ايضاً . فقدمت آلة مماثلة للامبراطور في السنة ٨٥ بعد المسيح ، واستخدمت آنذاك في مكتب « المنجم الكبير » لقياس حركة القمر اليومية والتثبت من مداها بالدرجات. فاستطاع علماء الفلك الصينيون منذ ذاك العهد، او بالاحرى منذ السنة ١٠٣ بعد المسيح، ان يصفوا حركات السيارات الظاهرة وصفاً يكاد يكون صحيحاً . غير ان هذه الآلة التي افتقرت الى دائرة خط الطول والى تعيين مركز القطب لم تكن سهلة الاستعمال عملياً، ولعل هذه الصعوبة هي احد اسباب اكتشاف الكرة التي جمعت الدائرتين في آلة واحدة .

جهاز الكرة والدوائر

ظهر هذا الاكتشاف بعد مرور عشرين سنة على اكتشاف الدوائر المعدنية المنفردة ، ولم يكن تحقيقها عملية سهلة . خطر لمكتشفها ، تشانغ هنغ ، حوالي السنة ١٢٤ ، ان يمثل الكرة السماوية كلها تمثيلاً ايحازياً بأن يضيف، الى الدائرة الاستوائية ودائرة مدار الشمس ، دائرتين أخريين تمر احداهمـا بالقطبين وسمت الرأس وتحدّد سطح خط الطول ، وتكون الثانية افقية ؛ وحاول ، بالاضافة الى ذلك ، ان يخضع هـــذه الكرة ، بقوة الماء ، لحركة الدوران الذي يتم في يوم واحد . وقد كرّس تشانغ هنغ لاكتشافه مؤلفاً خاصاً لم يصل الينا لسوء الحظ ، ولكننا نعلم ان جهازه قد استخدم في لو - يانغ حتى غزوها في السنة ٣١٤ ، وان الغزاة قـد قلدوه (٣٢٣) في مي - نغان - فو ، عاصمتهم الخاصة في تشن - شن . وكذلـك قلده أباطرة حوض الـ « يانغ - تسو » في نانكين . ويبلغ جهاز تشانغ - هنغ ٢٫٩٠ م محيطاً و٠٫٩٧ م قطراً داخلياً تقريباً، وقد مر في وسطه منظار يتحرك في كل الاتجاهات . وكان وزنه عظيماً في الارجح ، ولم يقم على قاعدة بـــل علّق تعليقاً . ونحن نعلم اليوم كيف استعمل جهاز مي - نغان - فو : « يبدأ العالم بتدوير دائرة مدار الشمس المتحركة ، وفاقاً لحركة الشمس في الفلك ، حتى تنطبق على وضع الفلك ساعة الرصد ، ثم يثبته في هـــذا الوضع بواسطة السنة الاقفال والرزات ، وبعد ذلـك يدوّر الدائرة الداخلية المتحركة حول الجرم الذي يرغب في رصده، ثم يرقب هذا الجرم بواسطة المنظار الذي يرفعه او يخفضه عمودياً بقدر حاجته الى ذلك» (هـ . مسبرو) بفعل قوة الماء . كان هذا الجهاز يدور ويتبع باحكام حركات الدوران التي تتم في يوم واحد ، وتضبطه ساعة مائية ؛ ونحن نرجح ان الجهاز الداخلي وحـده كان متحركاً ، بينما تبقى بدون حركة الدائرتان الخارجيتان المكونتان بتقاطعهما زاوية مستقيمة .

قد يغرينا أن نرى في هذا الجهاز تأثيراً غربياً ، اذ أن بطليموس قد وصف في العهد نفسه تقريباً جهازاً مماثلاً من حيث المبدأ والمظهر العام للجهاز الصيني ، ولكن الحقيقة الثابتة هي ان الجهازين يختلفان تماماً ، لأن الدائرتين المتمدتين في الصين وفي الغرب ، ليستا متشابهتين كلياً : فجهاز بطليموس قد انطوى على دائرتين ثابتتين ، هما دائرة مدار الشمس الموازية لسطح مدار الشمس ، ودائرة خط الطول التي تكوّن مع الاولى زاوية مستقيمة ، وبالاضافة الى ذلك ، على دوائر متحركة هي دوائر بعض خطوط العرض ؛ بينا لم ينطوِ جهاز تشانغ ـ هنغ إلا على دائرة خط الاعتدال ، التي هي دائرة خط الطول نفسها ، وعلى دائرة خط الاستواء ايضاً ، دونما إشارة الى القطبين ؛ أضف الى ذلك اخيراً ان عِضادة الرصد قد وضعت في السطح الاستوائي. ثم ان الصينيين قد جهلوا علم الزوايا الذي اكتشفه هيبارخوس في اليونان قبل ذلك بعدة قرون، فاضطروا الى اعتماد وسائل اختبارية فيحل مسائلهم ، وكانوا من ثم منجمين لا علماء فلك . فيرد معظم الاختلاف بين الطريقتين ، اليونانية والصينية ، الى تأخر العلوم الرياضية في الصين .

الكرة السماوية

وكان هنالك جهاز يتميز عن الكرة والدوائر الموصوفة اعلاه ، هو الكرة السماوية (هوان ـ تيان ـ سيانغ) التي كانت تصنع من خشب أو من برونز « مستديرة كالكرة » ، ويمر فيها محور باتجاه شمالي جنوبي ، وتتحرك بقوة الساعة المائية . وكان قد سبقها وضع خرائط الفلك حسنت في القرن الرابع ، وأشير فيها الى البروج بألوان خاصة . وستنتقل هذه الخرائط في القرن الخامس الى الكرة السماوية فتكمّلها .

وهكذا اكتشفت ثم تحسنت الرزنامة والساعة والنظام الكوني ، فعمّ انتشارها خلال هذا العهد ، الذي كان من جهة ثانية غنياً جداً بالاكتشافات .

الفصل الخامس

انتشار الحضارة الصينية

في العهد الذي يعنينا ، شمل النفوذ الصيني اراضي واسعة جداً : التركستان الصيني الى الغرب وقد احتلته الصين بكليته تقريباً، وكوريا الشمالية الى الشرق ، والتونكين وجزءاً من انام الى الجنوب . سببت لها هذه « المستعمرات » بعض المتاعب ، ولكنها فتحت لهـا بالمقابلة اسواقاً تجارية . فباستطاعتها ان ترسل إليها حاميات عسكرية تقدر بمئات الالوف تؤمن المواردالحلية تغذيتها . وجنت منها مكاسب تجارية ايضاً ، ولا سيما من التركستان الصيني الذي تجتازه طرق القوافل الرئيسية . وتوفقت فيها ، على الصعيد الثقافي ، الى الاتصال بالعالم الغربي آنذاك ، الغني بكل خير فكري وديني ، وبشعوب « جديدة » مستعدة لتقبل نِعم (؟) حضارة ابعد تقدماً من حضارتهم . وعلى الرغم من تقلبات احوالها الخاصة ، فانهـا قد استقرت بثبات في مناطق الحدود الثلاث هذه ، ولعبت فيها دور الدولة العظمى . وكان كل ذلك ، والحق يقال ، لتحقيق الهان السابقين (إلا في كوريا) الذي ورثه وواصله الهان اللاحقون من بعدهم .

تكلمنا اعلاه عن فيتنام بصدد النفوذ الهندي ، ولن نكرر هنا ما قلناه ، اذ اننـا أبدينا في المناسبة نفسها ملاحظاتنا حول النفوذ الصيني . فسنكتفي بإيجاز العلائق التي ربطت الصين بالتركستان الصيني وكوريا، لا سيا وان هذه الاخيرة قد لعبت دور الوسيط مع اليابان في اوائل عهدها التاريخي .

آسيا الوسطى

رأينا ان الهان السابقين قد تولوا فتح آسيا الوسطى في التركستان وان احتلالهم لهذه البلاد « الغربية » قـد أتاح لهم الاتصال بالحضارات الهندية ـ الاوروبية . وطّد الهان اللاحقون هذا الفتح وفرضوا على البلاد حماية راسخة . تتناثر في هذه البلاد الصحراوية، التي يجتازها نهر تاريم ، واحات تمر بها القوافل المنتقلة من البختيار الى الصين . اما الطريقان المعتمدتان في الذهاب والاياب فيها : طريق تمر في الشمال بـ « طرفان » وقاراشهر » و « كوكا » و « اكسو » و « اوك ـ طرفان » و « قشغر » ، واخرى تمر في الجنوب بـ « ليو ـ لان » و « خوطان » و « يرقند » . كانت هذه الواحات تؤلف ممالك صغيرة تتوقف حياتها على انتظام الاقنية القائمة فيها ، وكانت خاضعة آنذاك لهنود ـ اوروبيين يتميزون بلونهم الاصهب وعيونهم

الزرقاء ، ويتكلمون اللغة الطخارية في الشمال ولغة « الشاكا » في الجنوب ، وانتشرت بينهم لغة مشاركة هي اللغة السوغديانية المستعملة بين التجار بنوع خاص . واستوطن مناطق حدود هذه البلاد ، من جهة ثانية ، شعوب هاجرت الصين الغربية الى سوغديان والبختيار ، اشتهرت باسمها الصيني « يو – تشي » ، وأطلق عليها المؤلفون الكلاسيكيون اسم « الهنود – الفز » ، وقامت بينها وبين الايرانيين الحضريين في فارس علائق طيبة ، وكان هؤلاء اليو تشي من جهة ثانية على اتصال بالهند فاهتدوا الى البوذية في عهد مبكر ، وبواسطتهم دخلت البوذية الى التركستان الصيني الذي استخدمه المبشرون البوذيون جسراً للعبور الى الصين . وتبع هذا التسرب الطريق نفسها طيلة قرون عدة ، اذ ان معظم مترجمي النصوص البوذية الى اللغة الصينية ، كما رأينا ، انتسبوا الى الهنود – الفز او الفارتيين او السوغديانيين ، وهل يجب ان نذكر هنا بتاجر سوغدياني من سمرقند بشّر بالبوذية في نانكين في السنة ٢٤٧ ؟ او بفو – تو – تنغ الذي لعب في القرن الرابع ذلـــك الدور الكبير لدى شي لو وتشي هو ، وهو قد ولد في كوكا من ابوين هنديين ؟ او بكوماراجيفا ، في النصف الثاني من القرن الرابع ، الذي ولد من أمّ كوكية الاصل ايضاً ؟

كان من الطبيعي ان تثير الاهمية التجارية ، التي اشتهرت بها واحات حوض التاريم ، طمع الصينيين الذين توفقوا كما رأينا الى القضاء فيها على تدخل الهند ، وقد اهتمت ، هي ايضاً ، لأمر رقابة طرق القوافل هذه . فتأسست تدريجياً ، بفضل عدد من القادة الصينيين ، ولا سيما بان تشاو ، مستعمرات عسكرية وزراعية في الواحات . وكان لزاماً على هذه المستعمرت ، المنعزلة بين شعوب غريبة ، ان تدافع عن نفسها وتهتم لاستثمار اراض زراعية خصبة جداً . قبل سكان التركستان الصيني بهذا الاحتلال مرغمين ، ولكنهم حالفوا جيرانهم الـ « هيونغ – نو » وثاروا تكراراً مهددين الجنود والموظفين الصينيين بخطر مدام . بيد ان بان تشاو استغل المنازعات الداخلية والاطماع وجشع السكان وفرض سلطة الصين حتى السنة ١٠٢ . ثم مرّت فترة نكبات أبعدت الصين عشرين سنة تقريباً ، ما لبث الوضع بعدها أن تحسن واستقر . غير ان الصين لم يحتفظوا فيها إلا بسيادة بروتوكولية . ولكن الصين استمرت في الاستفادة من حركة الانتقال على طرقات التركستان ، جانية منهـــا مكاسب هامة باعتماد الاستيراد والتصدير ، وكان يشب خوطان وأحصنة تاريم وموسيقيو كوكا مطامعها الرئيسية .

كوريا

استولى الهان السابقون كذلـــك على النصف الشمالي من شبه الجزيرة الكورية . ولكن كوريا لم تكن ممراً على غرار التركستان الصيني بـــل منطقة مقفلة ستمثل اليابان مؤقتاً استمرار ثقافتها . فتوغل فيها التأثير الصيني وركد وتأصّل ، متأهباً التوسع نحو الشرق دون أي اصطدام ، كما يبدو .

يعود وجود الصين في كوريا الى حوالي ١٩٤ – ١٠٨ قبـــل المسيح حين استولى احد القادة الصينيين على الشمال الغربي من شبه الجزيرة وأسس امارة لو – لانغ (راكورو ، في اليابانية) ثم ما لبثت المنطقة المحتلة ان تجاوزت حدود هذه الامارة – التي بقيت مركز الحكومة – وقسّمت

الى ثلاث امارات اخرى . فمين على رأس هذه الامارات الاربع حكام صينيون اعتمدوا فيها نظاماً ادارياً مقتبساً عن نظام الهان . وما لبثت الرقابة الصينية بعد ذلك ان شملت ، بواسطة هؤلاء الحكام ، المنطقة الجنوبيـة التي لم تعين حدودها بوضوح . وقد برزت سلطة الفاتح بنقاط عسكرية موزعة على جميع المراكز الهامة .

كانت كوريا منطقة آهلة بالسكان : فالحوليات الصينية تزعم بأن عدد البيوت فيها قد بلغ في عهد الهان ٦٢٨١٢ بيتاً وان عدد سكانها قد بلغ ٤٠٦٧٤٠ نفساً ، على ان امارة لو ـ لانغ كانت أهم الامارات الاربع من حيث عدد السكان والازدهار .

اما العاصمة ، التي قامت على بعض المسافة من بيونغ ـ يانغ الحالية ، فكانت مدينة يحيط بها سدّ ترابي وتبلغ قياساتها ٥٥٠ م ×٦٥٠ م . بليت مساكنها بالقرميد الذي اكتشفت منه كمية ضخمة : والقرميد محكم الصنع يزدان برسوم متقنة ويحمل في غالب الاحيان كتابة تشير الى انه يعود الى مسكن احد الموظفين . وقد حفرت المدافن ، وهي كثيرة جداً (أحصي منها ١١٣٠ منذ ٢٠ سنة) ، على مقربة من المدن والقرى ، وكانت ضخمة الحجم احياناً ومتقنة الصنع ، واكتشف فيها أثاث مدفني ثمين ؛ شيدت جدرانها بقرميد مماثل لقرميد المنازل المدنية يحمل اسم الميت وبعض الصلوات القصيرة . وتبرهن الآثار التي جمعت فيهـا – اسلحة وزخارف وحلي وخزفيات واوان برونزية ونقود ومرايا – ، بنمطها وصناعتها ، عن انها قد أنتجت خصيصاً للجاليـة الصينية ، اذا لم تكن صينية المصدر ؛ فان جمال التقنية ، والصمغ ، ولا سيا المصوغ الذهبي المشبك ، ليس دون الانتاج الصيني ميزة . وقد أثبتت دراسة هذه المصنوعات ان عدداً كبيراً منها قد أنتج في كوريا وانها انتشرت في جنوب البلاد وفي اليابان .

ارتبط مصير مركز ثقافة الهان هذا بمصير هذه السلالة فعرف الهبوط حين عرفته هي .

اليابان

قامت علاقة اليابان بالصين بواسطة كوريا . وكان لطابع اليابان الجزائري أثره في حمايتها من جوار حضارة آسيوية ، في حال انها تنتسب عنصرياً الى اصل اينوي او اندونيسي في الارجح . وقد بقيت اليابان ، قبل تسرب سكان اليابسة اليها ، في المرحلة النيوليتية ، تجمع بينها وبين كوريا بعض اوجه التشابه . وحين دخلها النفوذ الصيني ، في السنة ٥٧ بعد المسيح ، كما يقال ، كانت الثقافة اليابانيـة متميزة بخزفيات بدائية وادوات محدودة (فؤوس ظرانية ، ومدى ، ونبال ، وسيوف ، ومصنوعات عظمية مختلفة ، الخ .) ؛ وتشير التلال المدفنية الى القبور التي قامت بجانبها – وكانت على صلة بها في الارجح – تماثيل خزفيـة مصنوعة بواسطة الخرطة ، تعرف باسم « هانيوا » ، وتمثل رجالاً ونساء وحيوانات . وعلى الرغم من ان طابع الأثاث المدفني والـ « هانيوا » طابع مميز ، فمن الواجب ان نبحث عن أصلها ، كما يبدو ، في البر الأسيوي ، وبالتفضيل في الصين الجنوبية ، مروراً بكوريا ، ممـا يحملنا نقول بعلائق سابقة للشهادات التاريخيـة . ويبدو في الواقع ، ان هذه العلائق قد قامت منذ القرنين الرابع والثالث قبل المسيح . ولكن اول ذكر لاتصال قام بين اليابان والبر الأسيوي لا يرقى إلا

الى السنة ٥٧ بعد المسيح ، وهو التاريخ الذي جاء فيه وفد ياباني الى الصين وقام بزيارة البلاط الامبراطوري في لو ـ يانغ. ويجدر بنا هنا ان نستشهد بالوصف الذي جاء في «الحوليات الصينية» عن اليابان : تقوم بلاد « وا » الى الجنوب الشرقي من كوريا الجنوبية ، في وسط المحيط، وتتألف من بعض الجزر وتشمل أكثر من مائة مملكة . ومنذ ان فتح الامبراطور « وو ـ تي » كوريا الشمالية (في السنة ١٠٨ قبل المسيح) ، أصبح لأكثر من ثلاثين مملكة من هـــذه الممالك علائق بالصين بواسطة الموفدين او المؤلفين ... سكانها يتقنون فن النسج ... اسلحة جنودهــا الرمح والترس والقوس والنبال الخيزرانية التي قد يصنع رأسها من عظم . رجالها يستوشمون اجسامهم بالرسوم التي تعين تسلسل المراتب بشكلها وحجمها. يستخدمون اللون الوردي واللون القرمزي لطلي اجسامهم كما يستخدم الصينيون غبار الارز ». وتجدر الاشارة الى ان العلامات القرمزية التي تزين وجه ورقبة الـ « هانيوا » ليست وشماً ، لأن الوشم ، بحسب الأساطير والروايات اليابانية ، وقف على الطبقات الدنيا . وهنالك تفاصيل اضافية وصلت الينا عن طريق الـ « واي » يستفاد منها ان سكان بلاد « وا » يغوصون في المياه لجمع الاصداف وان اجسامهم مزدانة برسوم الحيتان.

يتمّم هذه المعلومات مقطع من « تسيان ـ هان شو » لِـ « بان كو » دخـل التقليد الادبي ، نستشهد به نقلاً عن جان بوهو : « يقيم الـ « وو' وو' » الى الجنوب الشرقي من مقاطعة « تاي ـ فانغ » (الى الجنوب الشرقي من لو ـ لانغ) ودول الهان الثلاث (شن هان ، وماهان ، وبيان هان ، التي بقيت زمناً طويلاً مستقلة عن الصين) . يقطنون الجبال والجزر ... يؤلفون أكثر من مائة دولة ربطت حوالي الثلاثين منها علائق بالهان بواسطة الموفدين والمراسلات منذ ان قضى الهان « وو ـ تي » على كوريا الشمالية . يحمل رؤساء هذه الدول لقب الملوك وتنتقل السلطة فيها من الاب الى الابن . ومنهم الـ « وو'وو' العظيم » الذي يقيم في بلاد « ياماتاي » (ياماتو ؟) ... التربة جيدة للحصائد : الارز ، والقنب ، والـ « تشو » (؟) ، والتوت . السكان يعرفون النسج والغزل ، وحياكة الحرير والكتان. ويجمعون الجواهر البيضاء واليشب الاخضر (؟) . في الجبال تربة حمراء (« تانتو » ، زنجفر) او حديد غير خالص يذكّر لونه بالدم . الهواء رطب وحار . البقول والنباتات الصالحة للأكل متوفرة صيفاً وشتاء . ليس في البلاد أبقار ، واحصنة ، وأنمر ، وأفهدة ، ونعاج ، وطيور داجنة . الاسلحة حراب وتروس وأقواس خشبية ونبال خيزرانية قد يصنع رأسها من عظم أحياناً .

« الرجال يستوشمون ويزينون أجسامهم بالرسوم . وتميز المرتبة الاجتماعية بحسب (مكان) هذه الرسوم الى اليمين او الى الشمال وبحسب قياساتها . ملابس الرجــــال مصنوعة من طرائد معترضة تعقد وتجمع . النساء يرسلن شعرهن على ظهورهن (او) يثنينه ويعقدنه ؛ ملابسهن أشبه بُدثر بسيطة يرتدينها بادخال رأسهن فيها . يزيّنّ أوجههن بالزنجفر على طريقة نساء « بلاد الوسط » ؛ وتستعمل النساء غبار الارز . المساكن محاطة بالجدران والسياج . لكل من الاب والام والابناء مسكنه الخاص . لا ينفصل الرجال عن النساء إلا في الجمعيات. يشربون ويأكلون بأيديهم ، ولكنهم يستعملون السلة والصحن .

« من عاداتهم انهم يسيرون حفاة ؛ ويرون في جلوس القرفصاء دليل احترام . ومن مزاجهم الاكثار من شرب خمر الارز . يعمّرون طويلاً ، وكثيرون منهم يتجاوزون سن المائة . النساء كثيرات في البلاد ؛ فلدى الكبار منهن أربع او خمس زوجات ولدى الآخرين اثنتان او ثلاث. والنساء بعيدات عن الطيش والحسد .

« من أخلاقهم انهم بعيدون عن اللصوصية والسرقة والمنازعات ؛ واذا ما خالف احدهم القوانين، فانه يحرم من زوجاته وأولاده، واذا كانت مخالفته خطيرة، يباد أفراد عائلته وأنسباؤه.

« في حالة الموت ، تحفظ الجثة عشرة أيام أو اكثر . افراد العائلة يبكون وينتحبون ، ولا يتناولون نبيذاً او طعاماً ، ولكن الاصدقاء يأتون ويرقصون ويغنون ويحاولون الالهاء. يحرقون العظام لمعرفة الغيب ولإقرار ما هو فأل وما هو شؤم . في الرحلات البرية والاسفار البحرية ، يطلبون الى احد الرجال الامتناع عن الاغتسال وتسريح الشعر وأكل اللحوم ومقاربة الزوجة ، ويطلقون عليه اسم « لابس الحداد » (الزاهد) . فاذا كانت الرحلة ناجحة ، كافأوه بالهدايا الثمينة ، واذا مرض المسافرون او تعرضوا للاعتداء ، اعتقدوا بأن « لابس الحداد » كان مهملاً واتفقوا على قتله » .

في السنة ٥٧ بعد المسيح ، قصد احد اعيان « كيوشو » بلاط الهان ، حاملاً جزية جزيرته وتهانئه للبلاط الصيني ، فكافأه الامبراطور بان وهبه خاتماً ووشاحاً . ولعل هذا الخاتم هو ما اكتشفه احد فلاحي « شيكوزن » في السنة ١٧٨٤ . ولا يرد ذكر علائق اليابان الرسمية بالصين مرة اخرى إلا في السنة ١٠٧ ، حين ارسل « ملك » ياباني الى البلاط الصيني مائة وستين عبداً كما جاء في التقليد . ويروى بعد ذلك ان احدى العوانس المتقدمات في السن قد انتخبت في السنة ١٩٤ ملكة بالاجماع ، ويقال انها مارست عبادة الابالسة وعرفت كيف تفتن الجماهير بسحرها . « كان لديها ألف من الإماء ، ولم يسمح برؤيتها إلا لعدد قليل من الناس . وأنيط برجل واحد تقديم المشرب والمأكل لها ونقل كلامها وخطبها. اقامت في قصر أسندت حراسة ابراجه واسواره الى جنود مسلحين . وقد سادت في عهدها قوانين وعادات الزامية وصارمة » . ولعل هذه « الملكة » هي التي أرسلت الى لو ـ يانغ بعض الوفود في السنتين ٢٣٨ و ٢٤٣ وأقامت علاقات دبلوماسية مع الحاكم الكوري في تاي ـ فانغ . ويروى ان ألف شخص قد دفنوا معها حين أدركتها المنية ، وقد وضعت جثتها في ضريح يبلغ ١٠٠ قدم عرضاً .

بيد ان كل ذلك يكتنفه الغموض ويختلط بالاسطورة . ويبدو من المرجح ان العلائق بين اليابان والصين كانت آنذاك تجارية أكثر منها دبلوماسية ؛ اضف الى ذلك انها بقيت متقطعة حتى القرن السابع . فحتى هذا التاريخ قايضت اليابان عبيدها بالمنسوجات والاسلحة الحديدية والمرايا البرونزية . وقامت هذه العلائق ، في الدرجة الاولى ، بواسطة كوريا الجنوبية التي ربما جمعت بين سكانها وسكان الجزر اليابانية بعض اوجه التشابه . ولكن العلائق الصينية ـ الكورية ، على ما يبدو ، قد اتسمت مع ذلك ببعض العداء ؛ اجل لقد ورد ذكر بعض المقايضات : ففي اواخر القرن الثالث مثلاً، وصل احد امراء « ميانا » (كوريا الجنوبية) الى بلاط « يماتو » حيث قدّم له

حرير أحمر ؛ وبعد مرور زمن قصير قاسى اليابانيون الامرين من آلام المجاعة فقصدوا كوريا يطلبون الارز . وانما ورد ايضاً ذكر الاهانة التي وجهها احد القادة الكوريين ، في السنة ٢٤٠ ، الى رئيس وفد ياماتو الى مملكة « سيلا » (كوريا الشرقية) ، وذكر استيلاء اليابانيين ، في السنة ٣٩١ ، على جزء كبير من كوريا الجنوبية ؛ ويروى ان كوريا الشمالية قد دحرت اليابانيين ، فانسحبوا ، ثم أعادوا الكرة في السنة ٤٠٤ .

من الجليّ الثابت ان أثر الصين في اليابان قد بقي محدوداً : فقد عاشت هذه الاخيرة في شبه عزلة ، خاضعة لحضارة خاصة ، ومحتاطة ، على ما يبدو ، لكل تدخل اجنبي في شؤونها . يشق علينا اليوم معرفة ميزات هذه الحضارة معرفة تامة ، ولكننا نستطيع التنويه بتلك البيوت التي استندت العارضة الخشبية في أعلى سقفهـا الى اوتاد عمودية وتقاطعت روافدها بشكل × متجاوزة العارضة تجاوزاً عظيماً ، وقد غطي سقفها بالتبن الطويل وقشر الشربين ، وثبتت كافة أجزائه بالرُّبُط ؛ كما احيط المسكن بسياج خشبي أو اكثر . ونعلم كذلك ان اليابانيين كانوا مُضرِّين (كثيري الزوجات) ، وان الشبان والشابات كانوا يعيشون منفصلين ولا يستطيعون الاجتماع في مكان واحد إلا أثناء الليل . كما نعلم ان الزواج بين الاقارب الادنين كان غير نادر . ونعلم اخيراً ان الجثث لم توار الثرى ــ في نواويس فخارية ــ إلا بعد انحلالها .

اما الديانة ، الـ « شنتو » ، فقد سيطرت عليها فكرة النقاوة الطقسية : فالموت والمرض وكل اراقة دم مجلبة للدنس . لذلك بنيت أكواخ خاصة للولادة والحيض والنكاح الاول والموت ، على غرار المساكن العادية. اما الإمساك الطقسي على أنواعه فقد أنيط بـ « لابس الحداد » الذي يتعهد بالتقيد به عن جمهور معين . ولم يكن للآلهة (كامي) سوى أهمية محليـة ولم يخصصوا بمعابد مسقوفة ؛ وكان هنالك غابات مقدسة . وربما كانت الضحايا التي تقدم الـ « كامي » رمزية فقط : أحصنة وابقار بيضاء ، قنيص ، نسيج كتان ، قنّب ، ورق . وقد أمنت الاتصال بالآلهة نساء وسيطات تعاطين مناجاة الارواح والسحر .

قام المجتمع على أساس العائلة او التكتل الذي يكرم جداً مشتركاً ، دون ان يكون هنالك عبادة خاصة بالجدود كما في الصين . وقد ضمت النقابات او المهن الفلاحين والصيادين وعمال الغابات ؛ ولابسي الحداد والعرافين والمغنين ؛ والقصابين ؛ وصناع التروس والحاكة والخياطين ؛ والجنود والسوّاس والقيمين على خزائن الاسلحة ؛ والكتبة والتراجمة والسرّاجين والرسامين والخزافين .

لم يكن بعد للصين ــ او لكوريا الصينية ــ أثر يذكر في هذه الحضارة الجزائرية التي ما زالت ابنة بيئتها . ولن تتفتح اليابان حقاً امام التأثير الاجنبي قبل تسرب البوذية في القرن السادس .

الخـــاتمـــة

ان المجلد الثاني من « تاريخ الحضارات العام » هـــذا ، بتناوله بالبحث الغرب المتوسطي والاوروبي ، قد وسّع النطاق الذي تناوله المجلد الاول توسيعاً عظيماً . ولكننا حتى الآن لم نستطع ذكر شيء عن مناطق شاسعة في الكرة الارضية : اوستراليا ، القارة الاميركية بأكملها، آسيا الشمالية ، معظم اوروبا الشمالية والشرقية ، والشطر الاكبر من افريقيا .

ولا يعني ذلك ان الانسان لم يعرفها . فوجوده فيها ثابت كما في غير مكان . وهو قـد انتظم فيها مجتمعات، ودولاً احياناً. واستثمر الارض وحول محاصيلها الضرورية لحياته ولهوه ونزاعاته. وخضع لموجبات اخلاقية فردية وجماعيـة . وتساءل عن مصيره ، فأدى واجباته نحو موتاه . وحاول تفسير الظواهر الطبيعية ، فاعتقد بقوى خارقة متفوقـــة على ضعفه ، وصرف ذهنه وفطنته في استمالتها اليه، او اقله في اخماد عدائها نحوه . وقد يكون كل ذلك بدائياً ، ولكنه ليس في الواقع أكثر بدائية منه في ما بدا عند نشأة شعوب عديدة خصّها هذان المجلدان بأكثر من فصل من فصولها .

غير ان هذا التحيز الظاهر لا يستدعي أي حكم هام، ولا أية تخطئةبصدد برنامج هذه المجموعة كما حددته المقدمة العامة . وان في الانتباه الذي أعرناه الشرق الاقصى لدليلاً كافياً على ان درس « الحضارات » لم ينحرف نحو درس « الحضارة » المتمثلة ضمناً بالحضارة الاوروبية . إلا ان التاريخ لا يمكن وضعه دون حد أدنى من النور ودون هيكل توقيتي أولي ايضاً . فحتى الآن ، بخلت علينا مصادرنا الأثرية المتفرقة بالنور والتوقيت اللازمين في كافة هـــذه المناطق : ولن نستطيع إلا في عهد لاحق ان نشمل بنظرتنا الانسانية جمعاء .

شملت هذه النظرة هنا نطاقاً واسعاً يمتـد من اليابان إلى المغرب ومن سكوتلندا الى الحبشة فشبه الجزيرة الماليزية : فراقبت فيه حضارات متباينة، مختلفة المصائر، زعزعتها ازمات مستقل بعضها عن بعض . لقد جرت بينها بعض الاتصالات : وقد حاولت استعراضاتنا أعلاه الاشارة اليها والى الاقتباسات المتبادلة بين حضارة وحضارة . وقد جاءت الحصيلة ، لعمري ، في هـــذه القرون الاولى من العهد الميلادي ، اوفر منها في العهد السابق .

هنالك في الدرجة الاولى عمل روما الامبراطوري الذي وحّد الحوض المتوسطي كله وضمّ اليه قطاعات كبرى من اوروبا الغربية . ففي كل مكان ، وطيلة اربعة او خمسة قرون ، قامت دولة واحدة، ان لم يكن لغة واحدة، كما قام ، بفوارق اقليمية بسيطة، مجتمع واحد ، ومظاهر

حياة خارجية واحدة ، ومعتقدات واحدة ، وشواغل فكرية واحدة : ولما كان تحقيق الوحدة السياسية والعسكرية على بعض السهولة نسبياً ، لأنها لا تحتاج إلا الى القوّة، فقد آزرتها نجاحات الوحدة الاقتصادية والاخلاقيـــة التي أتاحت هي تحقيقها . واذا كانت العوالم الأسيوية ، التي تكونت من قبل ، لم تتبع آنذاك مراحل الوحدة هذه ، فان احدها على الاقل ، اعني به العالم الصيني(وأننا نهمل العالم الهندي الذي خلخله دخول الغزاة الى أقاليمه الشمالية الغربية) ، يوفر لنا مشهد عظمة مماثلة .

ولكن هنالك ما هو أهم من الوحدة الداخلية في كل من هذه الكتل الاقليمية والبشرية . فقد قامت بينها علائق أقل ندرة وربما اوفر اثاراً من ذي قبل . فالمصنوعات الكمالية قويضت بكميات كبيرة ، ونقلت على طرقات طويلة ، لأن الحرير فعل في الغربيين فعل السحر ، وجعل منهم ، منذئذ ، زبن « بلاد الحرير » ، أي الصين . وقامت بعض العلائق الروحية ايضاً . فقد ظهر الفن اليوناني ـ البوذي بظهور صورة بوذا البشرية . وربما اقتبس أفلوطين بعض الشيء عن الهند ، ومهما يكن من الأمر ، فان غالبا نفسها قد تأثرت بالمانوية التي جمعت عناصر مختلفة أتتها من تعاليم زردشت وبوذا والمسيح . كما ان الإيمان بالمسيح ، من جهة ثانية ، قد دخل الى الهند ، ان لم يكن منذ القرن الاول بواسطة برتولوماوس وتوما ، فأقله في القرن الرابع : فان العجائبي المدهش ، تاوفيلوس الملقب بـ « الهندي » ، الآتي من جزيرة ثانية ، قد لعب دوراً على بعض الأهمية في بلاط كونستانس الثاني ، كما يبدو . وقد أخذت المسيحية ، في الوقت نفسه تقريباً ، تتجه نحو آسيا الوسطى متبعة في سيرها الطرق البرية المعروفة. اضف الى ذلك اخيراً ان تضامن هذه العوالم المختلفة ، وهو تضامن غير مباشر ، قد برز عند اكتمال العصور القديمة، بصدمة رجّع الغزوات : فهو دفاع الصينيين المستميت على حدودهم الغربية الذي دفع بالهون نحو الجنوب الغربي وأفضى الى النتائج التي جرّها هذا الدفع على البختيار والهند ، ثم على الامبراطورية الرومانية .

بيد أن شيئاً من كل ذلك لن يؤثر في جوهر الامور . فالغرب لن يتأثر بالمانوية ، كما ان الشرق الأقصى لن يتأثر بالمسيحية . لا بـل ان غزوات البرابرة ستباعد بين العالمين بدلاً من أن تقارب بينهما . فهي في العالم الروماني القديم ، قد تسببت في نهاية الحضارات القديمـة ، أو في سرعة تطور ما بقي منها . أمـا في آسيا الشرقية ، فلا شيء يولد أو يموت في اواخر القرن الرابع ، او اوائل القرن الخامس : الحضارتان الصينية والهندية ، تستمران في الحيـاة بحسب نسقها القديم . فقبل ظهور الإسلام الذي لن يلبث أن يدخل بين هذين العالمين كإسفين أصلب وأثبت من الممالك الارساسية والساسانية ، أضعف انهيارُ الغرب العلائقَ السطحية القائمة بينهما: وستمر قرون وقرون قبل ان تشتد وتؤثر تأثيراً حقيقياً في مصير البشر .

١ - الغرب والامبراطورية الرومانية

١ - دراسات عامة

A. PIGANIOL, **Histoire de Rome,** (Paris, P.U.F., 4e éd., 1954).

P. LAVEDAN, avec la collaboration de S. BESQUES, **Histoire de l'Art, I, L'Antiquité** (Paris, P.U.F., 1949).

L. DELAPORTE, E. DRIOTON, A. PIGANIOL et R. COHEN, **Atlas historique, I, l'Antiquité** (Paris, P.U.F., 1937).

J. DELORME, **Chronologie des civilisations** (Paris, P.U.F., 1949).
A. PIGANIOL, **La conquête romaine** (Paris, P.U.F., 4e édit., 1944).
E. ALBERTINI, **L'empire romain** (Paris, P.U.F., 3e édit. 1939).
L. HALPHEN, **Les Barbares, des grandes invasions aux conquêtes turques du XIe siècle** (Paris, P.U.F., 5e éd., 1948).

Série de l'Histoire romaine :
- t. I, E. PAIS et J. BAYET, **Des origines à l'achèvement de la conquête, 133 avant J.-C.** (Paris, P.U.F., 2e éd., 1940).
- t. II, v. 1, G. BLOCH et I. CARCOPINO, **Des Gracques à Sylla** (Paris, P.U.F., 1935).
- t. II, v. 2, J. CARCOPINO, **César** (Paris, P.U.F., 1936).
- t. III, L. HOMO, **Le Haut-Empire,** Paris, P.U.F., 1933 .
- t. IV, v. 1, M. BESNIER, **L'Empire romain de l'avènement des Sévères au concile de Nicée** (Paris, P.U.F., 1937).
- t. IV, v. 2, A. PIGANIOL, **L'Empire chrétien** (Paris, P.U.F., 1947).

Dans la série Histoire du Moyen Age :
- t. I, **Les destinées de l'Empire en Occident de 395 à 888,** v. 1, F. LOT, **De 395 à 768** (2e éd. 1940).
- t. III, CH. DIEHL et G. MARÇAIS, **Le monde oriental de 395 à 1081** (1944).

L'Encyclopédie photographique de l'art.
- t. II, **Mésopotamie, Canaan, Chypre, Grèce** (1936).
- t. III, **Grèce, Etrurie, Rome** (1938).

CH. PICARD, **La sculpture antique** (Paris, Laurens), t. II, **De Phidias à l'ère byzantine** (1926).

٢ - ايطاليا في أوائل عهدها والاتروسك

Storia d'Italia illustrata (Milan, Mondadori), t. I, P. DUCATI, **L'Italia antica dalle prime civiltà alla morte di Cesare, 44 a. C.** (1936).

R. BLOCH, **Les origines de Rome,** dans la collection « Que sais-je ? » (Paris, P.U.F., 2e éd., 1949).

Du même, **Les Etrusques,** dans la même collection (1954).
B. NOGARA, **Les Etrusques et leur civilisation** (Paris, Payot, 1936).
P. DUCATI, **Le problème étrusque** (Paris, Leroux, 1938).

M. PALLOTTINO, trad. R. BLOCH, La civilisation étrusque (Paris, Payot, 1949).

A. GRENIER, La religion étrusque, dans le fasc. 3 du t. II, Les religions de l'Europe ancienne, de la collection « Mana» (Paris, P.U.F., 1948).

٣ - قرطاجنة

S. GSELL, Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, t. I-IV (Paris, Hachette, 1913 et suiv.).

CH.-A. JULIEN et CH. COURTOIS, Histoire de l'Afrique du Nord, des origines à la conquête arabe (Paris, Payot, 1951).

P CINTAS, Céramique punique (Paris, Klincksieck, 1950).

G. CHARLES-PICARD, Les religions de l'Afrique antique (Paris, Plon, 1954).

C. PICARD, Carthage (Paris, Belles-Lettres, 1951).

٤ - الغاليون

C. JULLIAN, Histoire de la Gaule, t. I-III (Paris, Hachette, 1908-1909).

H. HUBERT, Les Celtes et l'expansion celtique jusqu'à l'époque de la Tène, Les Celtes depuis l'époque de la Tène et La civilisation celtique, vol. 21 et 21 bis de la collection « L'évolution de l'humanité» (Paris, A. Michel, 1932).

J. DECHELETTE, Manuel d'archéologie préhistorique, celtique et gallo-romaine (Paris, A. Picard), les quatre premiers volumes publiés de 1908 à 1914 et réédités en 1924-1927.

A. GRENIER, Les Gaulois (Paris, Payot, 1945).

E. THEVENOT, Histoire des Gaulois, dans la collection «Que sais-je ?» (Paris, P.U.F., 2e éd., 1949).

J. VENDRYES, La religion des Celtes, dans le fasc. 3 du t. II de la collection «Mana»

L. LENGYEL, L'art gaulois dans les médailles, (Montrouge, Corvina, 1954).

C. JULLIAN, les t. IV-VIII de l'Histoire de la Gaule (1914-1926).

E. THEVENOT, Les Gallo-Romains, dans la collection «Que sais-je?» (Paris, P.U.F., 1948).

P.-M. DUVAL, La vie quotidienne en Gaule pendant la paix romaine (Paris, Hachette, 1952).

J. CARCOPINO, Points de vue sur l'impérialisme romain (Paris, Le Divan, 1934).

٥ - رومـــا

L. HOMO, La civilisation romaine (Paris, Payot, 1930).

T. FRANK, An economic survey of ancient Rome (5 vol., Baltimore, The Johns Hopkins press, 1933-1941).

L. HOMO, Les institutions politiques romaines, de la cité à l'Etat, vol. 18 de la collection «L'évolution de l'humanité» (Paris, A. Michel, 1927).

A. GRENIER, Le génie romain dans la religion, la pensée et l'art, vol. 17 de la même collection (1925).

P. GRIMAL, La vie à Rome dans l'antiquité, dans la collection «Que sais-je?» (Paris, P.U.F. 1953).

J. BAYET, Littérature latine : histoire et pages choisies traduites et commentées (Paris, A. Colin, 6e éd., 1953).

H.-I. MARROU, Histoire de l'éducation dans l'Antiquité (Paris, éditions du Seuil, 1948).

E. STRONG, L'art romain, dans la collection «Ars una» (Paris, Hachette, 1932).

٦ - روما في العهد الجمهوري

G. BLOCH, **La République romaine, conflits politiques et sociaux**, (Paris, Flammarion, 1913).

E. MEYER, **Römischer Staat und Staatsgedanke** (Zurich, Artemis Verlag, 1948).

G. COLIN, **Rome et la Grèce de 200 à 146 avant J.-C.**, fasc. XCIV de la « Bibliothèque des Ecoles françaises d'Athènes et de Rome» (Paris, Fontemoing, 1905).

P. GRIMAL, **Le siècle des Scipions; Rome et l'hellénisme au temps des guerres puniques**, (Paris, Aubier, éd. Montaigne, 1953).

٧ - روما في العهد الامبراطوري

G. BLOCH, **L'Empire romain, évolution et décadence**, dans la collection «Bibliothèque de philosophie scientifique» (Paris, Flammarion, 1921).

M. ROSTOVTZEFF, **The social and economic history of the Roman empire** (Oxford, 1926), dont des éditions revisées et complétées ont paru en allemand (1931), en italien (1933) et en espagnol (1938).

M.-P. CHARLESWORTH, trad. par G. BLUMBERG et P. GRIMAL, **Les routes et le trafic commercial dans l'Empire romain** (Paris, éditions de Cluny, 1938).

F. CUMONT, **Les religions orientales dans l'Empire romain** (Paris, Leroux, 4e éd., 1929).

L. HOMO, **Rome impériale et l'urbanisme dans l'Antiquité**, vol. 18 bis de la collection «L'évolution de l'humanité» (Paris, A. Michel, 1952).

A. et M. CROISET, **Histoire de la littérature grecque**, t. V (Paris, de Boccard, 3e éd., 1914).

٨ - الامبراطورية الاولى

L. FRIEDLANDER, **Darstellungen aus der Sittengeschichte Roms, in der Zeit von Augustus bis zum Ausgang der Antonine**, (10e éd., 4 vol., Leipzig, 1920-1923).

J. CARCOPINO, **La vie quotidienne à Rome à l'apogée de l'Empire** (Paris, Hachette, 1939).

J. CHARBONNEAUX, **L'art au siècle d'Auguste** (La guilde du livre, 1948).

٩ - الامبراطورية الثانية

E. STEIN, **Geschichte des spätrömischen Reiches**, t. I, **Vom römischen zum byzantinischen Staate, 284-476 n. Chr.** (Vienne, 1928).

F. LOT, **La fin du monde antique et le début du Moyen Age**, (Paris, A. Michel, 1927).

R. LATOUCHE, **Les grandes invasions et la crise de l'Occident au Ve siècle**, (Paris, Aubier, 1947).

H.-I. MARROU, **Saint Augustin et la fin de la culture antique** (Paris, de Boccard, 2e éd., 1950).

Du même, **Saint Augustin et l'augustinisme**, (Paris, éditions du Seuil, 1955).

١٠ - الكنيسة

L'histoire de l'Eglise depuis les origines jusqu'à nos jours, fondée par A. FLICHE et V. MARTIN (Paris, Bloud et Gay).

- t. I, J. LEBRETON et J. ZEILLER, **L'Eglise primitive** (1933).
- t. II, Des mêmes, **De la fin du IIe siècle à la paix constantinienne** (1935).
- t. III, P. DE LABRIOLLE, G. BARDY et J.-R. PALANQUE, **De la paix constantinienne à la mort de Théodose** (1936).
- t. IV, P. DE LABRIOLLE, G. BARDY et L. BREHIER, **De la mort de Théodose à l'élection de Grégoire le Grand** (1937).

Mgr L. DUCHESNE, **Histoire ancienne de l'Eglise** (4 vol., Paris, de Boccard, 1910-1929).

H. LIETZMANN, trad. JUNG, **Histoire de l'Eglise ancienne** (3 vol., Paris, Payot 1936-1941).

P. DE LABRIOLLE, **Histoire de la littérature latine chrétienne**, 3e éd. revue par G. BARDY (2 vol., Paris, Belles-Lettre, 1947).

A. PUECH, **Histoire de la littérature grecque chrétienne** (3 vol., Paris, Belles-Lettres, 1928-1930).

CH. DIEHL, **L'art chrétien primitif et l'art byzantin** (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1928).

١ ـ آسيا الشرقية منذ اوائل العهد المسيحي حتى آخر القرن الرابع

١ ـ دراسات علمة

راجع مصادر الجلد الاول : الشرق واليونان القديمة ١٩٦٤ ، ص ٦٤٧ وما يليها . منشورات عويدات — بيروت .

٢ ـ الهنـــد

A. L. BASHAM, **The Wonder that was India**, (Londres, Sidgwick et Jackson, 1954).

H. DEYDIER, **Contribution à l'étude de l'art du Gandhâra** (Paris, A. Maisonneuve, 1950).

A. FOUCHER, **L'art gréco-bouddhique du Gandhâra**, 3 vol. (Paris-Hanoï, 1918-1951).

R. GROUSSET, **Les philosophies indiennes**, 2 vol. (Paris, Desclée de Brouwer, 1931).

R. GHIRSHMAN, BEGRAM, **Recherches archéologiques et historiques sur les Kouchans**, Mémoires de la Délégation archéologique française en Afghanistan, t. XII (Le Caire, 1946).

J. et R. HACKIN, **Recherches archéologiques à Begram**, chantier N° 2 (1937), 2 vol., Mémoires de la Délégation archéologique française en Afghanistan, t. IX (Paris, Les éditions d'Art et d'Histoire, 1939).

Des mêmes, **Nouvelles recherches archéologiques à Begram** (1939-1940) (Paris, P.U.F., 1954).

J.-E. VAN LOHUIZEN-DE LEEUW, **The «Scythian» Period** (Leyde, Brill, 1949).

H.-G. RAWLINSON, **Intercourse between India and the Western World— to the fall of Rome** (Cambridge, 1926).

J.-Ph. VOGEL, **Ars Asiatica**, (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1930).

L. RENOU, **La civilisation de l'Inde ancienne**, (Paris, Flammarion, 1950).

٣ ـ الصين

HIRTH, **China and the Roman Orient** (Leipzig, 1885).

H. MASPERO, **Les religions chinoises**, (Paris, S. A. E. P., 1950).

H. MASPERO, **Le taoïsme**, (Paris, S. A. E. P., 1950).

P. PELLIOT, **La haute Asie**, s. l. n. d.

٤ ـ الهند الصينية وجزر جنوبي شرقي آسيا

G. MASPERO, **Le royaume de Champa** (Paris, Van Oest, 1927).

P. DUPONT, **La statuaire préangkorienne** (Ascona, Ed. Artibus Asiae, 1955).

٥ ـ اليابان وكوريا

J. BUHOT, **Histoire des arts du Japon**, I (Paris, Van Oest, 1949).

A. ECKARDT, **A History of Korean Art** (Londres-Leipzig, 1929).

G.-B. SAMSON, **Le Japon** (Paris, Payot, 1938).

مراجع عربيـــة

تتمة للبحث ، واستكمالاً لجريدة المصادر المرتجعة ، رأت دار منشورات عويدات في بيروت ، تكليف الاستاذ يوسف أسعد داغر ، الاختصاصي بفن المكتبات ، والخبير العالمي بالبيبليوغرافيا الشرقية ، وأحد المترجمين لهذه الموسوعة التاريخية ، إعداد قائمة بأهم المراجع والمصادر التاريخية العربية العامة التي تتعلق بأهم مواد هذا الجزء . وقد لبى الاستاذ داغر رجاءنا وقام بإعداد هذه القائمة خدمة منه للبحث العلمي والباحثين في عالم الضاد ، ممن يهتمون بالدراسات التاريخية في هذا العهد من تاريخ البشرية الممتد من أواسط القرن الثامن قبل الميلاد ، حتى اواخر القرن الرابع بعده .

الإدارة

١ – التاريخ العـــام

يوحنا ايكاريوس: قطف الزهر في تاريخ الدهور – بيروت، المطبعة الأدبية ،١٨٨٥– ص٥٢٩.

بوسويه : خطاب في التاريخ العـام . ترجمة شاكر عون والشيخ عبد الله البستاني – بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٨٨٢ ص ٣٤٤ .

جرجي زيدان : التاريخ العام ، منذ الخليقة الى يومنا هذا – القاهرة .

الطبري : تاريخ الأمم والملوك – القاهرة ، المكتبة التجارية ٨ أجزاء ، ١٩٣٩ .

مايرز ، فيليب فان نيس : التاريخ العام . ترجمة عن الانكليزية – بيروت ، المطبعة الأميركية ، ١٩٢٨ – ١٩٢٩ ، ٣ أجزاء في مجلد واحد .

هامرتن ، السيرجون ألكسندر : تاريخ العالم. ترجمة وزارة المعارف العمومية – القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨ ، وترجمة ادارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم – القاهرة،مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٦ – ١٩٦٠ في ٢٢ عدداً.

ولز ، هربرت جورج : معالم تاريخ الانسانية . ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد – القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٧ ، ٣ مجلدات .

لانجر ، وليم ليونارد : موسوعة تاريخ العالم. أشرف على الترجمة محمد مصطفى زيادة – القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ – ١٩٦٢ ، في ٤ مجلدات .

فير سرفس : أصول الحضارة الشرقية. ترجمة رمزي يس – القاهرة، دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع ، ١٩٦٠ ص ٢٧٨ (الألف كتاب – ٣٠٤) .

رالف لنتون : شجرة الحضارة . قصة الانسان منذ فجر ما قبل التاريخ حتى بداية العصر الحديث – القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٨ – ١٩٦٠ ، جزءان في مجلدين .

برستد ، جيمس هنري : العصور القديمة . ترجمة داود قربان ، وهو تمهيد لدرس التاريخ القديم واعمال الانسان الأول – بيروت ، ١٩٣٠ ، ص ٦١٦ .

« : انتصار الحضارة . تاريخ الشرق القديم . نقله الى العربية احمد فخري – القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٥ (يحتوي هذا الكتاب ٣٠ فصلاً ... لم يترجم منها إلا الفصول الثانية الاولى) .

ديورانت ، وليم جيمس : قصة الحضارة ، ١٩٥٩ ، عدة اجزاء :
ج ١ ق ـ ١ : نشأة الحضارة
ق ـ ٢ : الشرق الادنى
ق ـ ٣ : الهند وجيرانها
ق ـ ٤ : الشرق الأقصى ـ الصين
ق ـ ٥ : « « ـ اليابان
ج ٢ ق ١ ـ ٣ : حياة اليونان
ج ٣ ق ١ : قيصر والمسيح او الحضارة الرومانية.

٢ ـ ايطاليـــا

فرنسيس دينوار : ايطاليا ... شعبها وارضها . ترجمة محمد نظيف، مراجعة عبد الرحمن زكي، تقديم عز الدين فريد ـ القاهرة . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٣ ص ١٢ .

٣ ـ رومـــا

فوستيل دى كولانج : المدينة العتيقة. دراسات لعبادة الاغريق والرومان وشرعهم وأنظمتهم. ترجمة عباس بيومي ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠ ص ٥٥٠ .
الدكتور أسد رستم : عصر أوغسطس قيصر وخلفاؤه : ٤٤ ق.م ـ ٦٩ ب.م ـ بيروت ١٩٦١ ـ الجامعة اللبنانية ـ قسم الدراسات التاريخية ـ ٧ .
فيشر ، هربرت البرت لورنس : تاريخ اوروبا في العصور القديمة . ترجمة ابراهيم نصوحي ومحمد عواد حسين ـ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٠ ص ١٧٨ .
بلوتارخوس : العظماء . عظماء اليونان والرومان والموازنـــة بينهم . ترجمة ميخائيل بشاره داود ـ القاهرة ، دار المصور ، ١٩٢٨ .

٤ ـ الفينيقيون

جورج نقولا عطية : مباحث في المدنيـــة الأولى ـ بيروت ، دار النشر الجامعيين ، ١٩٥٦ ص ٢٠٣ (قدم له خليل الجر) .
عبد الله يوسف نحاس : الفينيقيون وركاز الذهب واكتشاف اميركا ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة مطبعة جريدة البصير ، ١٩٥٠ ص ١٢٦ .

٥ ـ الساسانيون

كريستنسن، آرثر: ايران في عهد الساسانيين. ترجمة الدكتور يحيى الخشاب، راجعه عبدالوهاب عزام ـ القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٧ ص ٥٩١ .
محمد محمدي : النظم الادارية الساسانية في دولة الخلفاء وما ظهر من اثر في الأدب العربي ـ بيروت ١٩٤١ (اطروحة بالدائرة العربية في الجامعه الاميركية) .
ديورانت ، وليم جيمس : قصة الحضارة الفارسية . ترجمة امين الشواربي ـ القاهرة ، مكتبة الخانجي ١٩٤٧ ص ٨٩ .

جَدول زمني مقارَن

ان التوقيت القديم غير اكيد في الغالب . لذلك اضطررنا الى استعمال مصطلحات تشير الى تاريخ تقريبي فقط :

– ان كلمة « حوالي » تشير الى تاريخ متأرجح قد يبلغ التفاوت فيه بين نصف قرن وعشر سنوات .

– ان علامة الاستفهام (؟) تشير الى تاريخ متأرجح يبلغ التفاوت فيه عدة سنوات فقط .

ظهور حضارة هالستا في اوروبا الوسطى ، وحضارة المدينة الجديدة في ايطاليا الشمالية . وعقبت هذه الاخيرة ، دون فاصل زمني، الحضارة الاتروسكية في ايطاليا الوسطى .

تأسيس قرطاجة ، مستعمرة صور .

التقليد يحدد السنة ٧٥٣ تاريخا لتأسيس روما . بدء الاستعمار اليوناني في ايطاليا الجنوبية وصقلية .

سيادة الاتروسك على روما . قرطاجة تجمع تحت سيطرتها الاسواق الفينيقية في المتوسط الغربي .

الاغريق الايوليون يؤسسون مرسيليا (٦٠٠) . الاتروسك يقيمون في كمبانيا . الكلتيون يدخلون شبه الجزيرة الايبيرية

الاتروسك والقرطاجيون يهزمون الاغريق كورسكا . ثم لا يلبث الاتروسك ان يقيموا في سهل البو .

روما تقلب الملكية وتتخلص من سيطرة الاتروسك .

استبداد الدينومينيين في سيراكوزا : انتصار المستبد جيلون ، في ٤٨٠ ، على القرطاجيين في هيميرا . اخوه وخلفه هييرون يهزم الاتروسك على كوم في السنة ٤٧٤ . الاتروسك يتخلون تدريجيا عن كمبانيا للسمنيين . بدء حروب روما ضد جيرانها في اتروريا وايطاليا الوسطى . بدء صراع عامة الشعب للحصول على المساواة المدنية والسياسية بالاشراف : في ٤٩٤ ، احداث منصب المحامي عن عامة الشعب . فالان يونانيان يزينان معبدا في روما .

شريعة اللوحات الاثنتي عشرة .

ظهور الحضارة الثينية في اوروبا الوسطى والغربية .

تجدد الحرب بين قرطاجة والاغريق في صقلية : استبداد دنيز القديم في سيراكوزا (٤٠٥-٣٦٧) . الرومان يحاصرون (٤٠٦ - ٣٩٦) ويحتلون مدينة فييس الاتروسكية . ظهور الغاليين في ايطاليا في اوائل القرن الرابع ويلوحهم روما التي ينهبونها في ٣٩٠ . اقامتهم في سهل البو بعد طرد الاتروسك منه . احتلالهم فلسينا (حوالي ٣٦٠) التي تصبح بولونيا

الشرق الادنى	الهند والصين
ت الهنود الاوروبيين وغزواتهم في الشرق الادنى يد . الامبراطورية المصرية الحديثة (١٥٨٠ ـ ١٠٩٠) . الحضارة الايجية حوالي ١٥٠٠ .	حضارة الهندوس (موهنجو دارو هارابا) . كتابة لم تحل رموزها بعد . في الصين : سلالات هيا وشانغ وتشيو . حوالي ١٥٠٠ وصول الآريين الى حوض الهندوس .
ركات الشعوب في الشرق الادنى : « شعوب البحر » ، ة الفلسطينيين على ساحل فلسطين ، انحطاط الامبراطورية ية والمصرية ، غزو الدوريين لليونان .	
الفتوحات الاشورية الكبرى في القرن التاسع .	امتداد الآرية نحو الغانج
روع بوضع لائحة الفائزين في الالعاب الاولمبية .	
ريطى القوة الاشورية على ايدي البابليين والميديين واحتلال وى وهدمها في ٦١٢) . شرائع دراكون في اثينا (٦٢١)	
وخذ نصر يحتل اورشليم : سبي بابل . في السنة ٥٩٤ رائع صولون في اثينا حيث يقيم بيسستراتوس نظام الاستبداد	
ـد ولاية قورش ، فتوحات فارسية عظمى ، يخضع الاغريق ياجرون بعد فتح آسيا الصغرى .	الهند : امتداد الآرية شرقا وجنوبا . قورش يحتل كابول (؟) . مولد بوذا (٥٥٦) . مولد جينا (٥٤٠ ؟) . فتوحات داريوس في الهند الشمالية . الصين : مولد كونفوشيوس (٥٥١ ؟) .
لب الاستبداد الاثيني في السنة ٥١٠ .	
لحروب الميدية : في ٤٩٠ و٤٨٠ ـ ٤٧٩ الاغريق يهزمون الفرس . نشأة ونمو القوة البحرية الاثينية . اسخيل سوفوكليس . حوالي ٤٧٠ مولد سقراط .	الصين : الممالك المتحاربة . حياة الفيلسوف مو ـ تسو (٤٨٠ ـ ٤٠٠ تقريبا) . موت كونفوشيوس (٤٧٩) . الهند : موت بوذا (٤٨٧ ؟) موت ؟ جينا ، ٤٦٨
في ٤٤٧ ، الشروع ببناء البارثنون . من ٤٤٣ حتى ٤٣٠ بريكليس قاض اول في اثينا . عاصمة ادبية .	انشقاق التشيو (حوالي ٤٤٠)
٤٣١: اندلاع حرب البلوبونيز ٤١٥ ـ ٤١٣ : حملة الاثينيين على سيراكوزا . ٤٠٤ : استسلام اثينا ، سيطرة اسبارطة على اليونان حتى ٣٧١ . توسيديد يضع تاريخ حرب البلوبونيز . مهازل ارسطوفانوس . دعوى سقراط وموته في السنة ٣٦٩ افلاطون يؤسس الاكاديمية في السنة ٣٨٠ .	

عامة الشعب الرومانية تسوزيللساواة بالاشراف • حصولهافي السنة ٣٦٧ على حق القنصلية ، للمرة الاولى يصبحاحد افرادها لنصلا في ٣٦٦ ودكتاتورا في ٣٥٦ ورقـ احصاء في ٣٥١ •

سلسلة الحروب « السمنية » بين روما وجبليي الابنـين الجنوبي • ٣٢١ : هز الرومان • روما تحتفظ انحهاكمبانيا حيث تضرب النقود منذ٣١٢ وتخضع السمنيين

ابيوس كلوديوس للاعمي احصاءالقناة الابية والطريق الابيـة

حملة صتيـد سيراكـوزا ،اغاثوكليس ، في افريقيا ضدقرطاجة •

حملة بيروس ملك الابير علىايطاليا بناء على دعوة طارنتا•حروبه في ايطاليا ضد الرومان وفي صقلية ضدقرطاجة وعودتهالى اليونان • دخول الغاليـينالى مقدونيا وبلوغهم دلف اول ٢٧٨ • استيطانهم تراليااوقلب آسيا الصغرى •

خضوع طارنتا لروما •

ادخال مبارزات المسايفين الىروما • الرومان يدخلون مدينةفولسيني الاتروريةّ وبعد ثم ينتقلون الى صقليةويحتلونمسينا : بداية الحرب البونيقيةالاولى •

نـــزول ريغولوس الى البـرالافريقي ، هزيمته واسره •

حياة بلوت

نهاية الحرب البونيقية الاولى:سيادة الرومان على صقلية •

اول ماساة مسرحية لليفيوسالدرونيكوس •

حياة اينيوس •

« حرب المرتزقة » في افريقيا•قرطاجة تتخلى عن سردينيـــاوكورسكا لرومـــا • في هاميلكار برقا يقصد اسبانيا ويبسط عليها سيطرة قرطاجة

مولد شيبيون الافريقي وكاتونالقديم •

حملة الديمقراطيين على مجلسالشيوخ : فلامينيوس محطم عزسلوك الشعب •

الحرب الالليريـــة الاولى : اولتدخل لروما وراء الادرياتيك• موت هاميلكار برقا : صـ مقتله •

الشرق الادنى	الهند والصين
الديمقراطية الى اليا منذ٤٠٢ • قيام الاتحاد البحري ولي ٣٧٧ • حزيمةسبارطةفي لوكترا في ٣٧١ وبده للوذ حتـــى ٣٦٢ • فيلبوس يحكم مقدونيا من ٣٥٩ حتـــى ، ولي ٣٣٨ يبسطنفوذهعلى اليونان بعد انتصاره فـــي نيا على الرغم من جهـود ديموستينيس •	الصين : حياة منشيوس (تسو) حوالي ٣٥٠
ـ ٣٢٣ : ملك الاسكندرالذي يمر في آسيا الصغرى في ويفتـــح صور في ٣٣٢ويؤسس الاسكندرية في ٣٣١ ع بابل في ٣٣١ ويخضـعالايرانيين مـن ٣٣٠ الى ٣٢٧ رب في الهنـــد في ٣٢٦و٣٢٥ ويموت اخيرا في بابـل ٣٢٣ • بعد موته يتنازعقواده ارثه بقوة السلاح •	الهند : سلالة الموريا (١٩٦)
	الهند : عاندراكـــوبتا يه العرش ٣١٣-٣١٢ ؟
، انتيغونس الاحول وابنـهديمتريوس بوليوركيتس فـــي اظ على وحدة امبراطوريـةالاسكندر لمصلحتهما • منـــذ ة ٣٠٦ حمل عدد منالقادةلقب الملك •	الصين : قيام محكمة الك (٣١٠) • الهند : وفـ ميغاستين الىباتاليبوترا (٣٠٠) •
رار الملكيـــات الهلينية : الانتيغونيون فـي مقدونيـا ، جيون في مصر،والسلوقيونفي ايران وبابل وسوريا وآسيا رى • بوادر سـلطةالاتاليين عـــل برغـــامس • مولـد كوستينوس في ٢٧٥ •	
، ابيقور	
، زينون مؤسس المدرســـةالرواقية •	الهند : اشوكا يعتلي ا ٢٦٤ - ٢٦١ ؟
لي ٢٥٠ اول عهد سلالـــةالارساسيين الفارثية •	استقلال البختيار بفضل الـ ديودوتوس الاول • اشوكا يعتنق البوذية (٢٤٦ : مباشرة بناء سورا

اخر غزو يقوم به الغاليون على شبه الجزيرة الايطالية : القضاء عليهم في راس تيلامون (٢٢٥)، بعد هذا النصر انتقل الرومان الى احتلال سهل البو السفلي بيد انه كان خاضعا لروما حين اندلعت الحرب البونيقية الثانية

الحرب الايلرية الثانية. هنيبعل الذي خلف ابن عمه ، في ٢٢١ على راس قوات قرطاجة ، يحتل ساغونتا ، فيؤدي عمله الى الحرب ضد روما .

استثناء كلوديوس الذي يحظر التجارة البحرية على الشيوخ وابنائهم .

الحرب البونيقية الثانية ٢١٨ : هنيبعل يجتاز غاليا الجنوبية والالب ويبلغ ايطاليا ويهزم الرومان على التيسين وتريبيا ، ٢١٧ : هزيمة فلامينيوس ومقتله في بحيرة ترازيمينا ، دكتاتورية ق . فابيوس مكسيموس الثاني ، تدابيره الدينية ، ٢١٦ : معركة كانا ، فابيوس بكتور يستشير هاتف غيب دلفي . ٢١٥ : استسلام كابوا الى هنيبعل ، هنيبعل يحالف فيليبوس الخامس المقدوني ، قانون اوبيوس ضد بذخ النساء . ٢١٤ : سيراكوزا تنفصل عن روما التي تستعيدها في ٢١٢ بعد حصار طويل مات ارخيميدس في نهايته . ٢١٢ : هنيبعل يحتل طارانتا التي لن يستعيدها الرومان قبل ٢٠٩ ، اول احتفال باعياد ابولون في روما على الطقس اليوناني . ٢١١ : استعادة كابوا ، هزيمة السيبيون ومقتله في اسبانيا على يد هاسدرو بعل شقيق هنيبعل ، اتفاق روما والايتوليين والطال الثاني للقيام بالحرب المقدونية الاولى في اليونان . ٢١٠ : شيبيون الشاب يوفد الى اسبانيا حيث يحتل قرطجنة في ٢٠٩ ، في ٢٠٨ يهزم هاسدروبعل الذي يتجه الى ايطاليا لمساندة اخيه . ٢٠٧ : هزيمته عند الميطور ، قبل اتصاله باخيه ، التراجع يحدث قلقا كبيرا في روما حيث تتخذ تدابير دينية : نشيد ليفيوس اندرونيكوس .

٢٠٦ شيبيون يقضي على قوة قرطاجة في اسبانيا ، ثم يعود الى روما . ٢٠٥ : روما تعقد الصلح مع فيليبوس المقدوني . شيبيون ، الذي عين قنصلا ، يحضر حملته على افريقيا .
٢٠٤ : ادخال عبادة سيبيل الى روما ، شيبيون ينزل الى البر في افريقيا ويحالف ماسينيسا .
٢٠٣ : هنيبعل يجلو عن ايطاليا . ٢٠٢ انتصار شيبيون في زاما . ٢٠١ : الصلح مع قرطاجة .

موت نافيوس

العالم الروماني وجيرانه	الهند والصين
الحرب المقدونية الثانية وتدخل روما العسكري في اليونان . ١٩٧ : انتصار ت . كوانكتيوس فلامينيوس في سينوسيفال . ١٩٦ : اعلان استقلال المدن اليونانية المسلوخة عن مقدونيا . ١٩٤ : جلاء القوات الرومانية عن اليونان جلاء تاما .	
روما تحتل غاليا الايطالية مجددا وتخضع القبائل الليغورية	
القوانين البورکية التي لا يعرف واضعوها والتي تهدف الى حماية المواطنين ضد تحكم القضاة .	
هنيبعل يقوم باصلاحات داخلية في قرطاجة . منفاه والتجاؤه الى انطيوخوس الثالث ، موته في بيتينيا في ١٨٣-١٨٢ بعد مطاردة روما له .	
قنصلية كاتون . انشاء القانون الادبي . كاتون يقمع ثورات القبائل الاسبانية .	
حياة تيرانس .	

وس الخامس يفرض السلم على اعدائه اليونانيين في ٢١٧ يه بطرد الرومان من الممتلكات التي احتلوها في يا . ٢١٢ الى ٢٠٥ ، السلام انطيوخوس الثالث ، الذي سبق ع محاولة اغتصاب في آسيا الصغرى بحملة عسكرية كبرى ارمينيا وهضاب ايران : بعد اعادة السلطة السلوقية عليه المناطق التالية ، ذاعت شهرته في طريق عودته نحو سط . وس الخامس وانطيوخوس الثالث يقومان باعمال متوازية آسيا وبحر ايجه ، منذ ٢٠٣ للافادة من انحطاط قوة بين أسياد مصر .	الصين : سلالة الهان (٢٠٦ قبل المسيح – ٢٢٠ بعد المسيح) .

التواريخ	العالم الروماني وجيرانه
١٩٢ – ١٨٨	الحرب بين انطيوخوس الثالث والايتوليين . شتاء ١٩٠–١٨٩ معركة مغنيزيا . ١٨٨ : معاهدة اباميا تحد من القوة السلوقية بعد الحملة على غلاطيي آسيا الصغرى ، لم يبق ، بعد ٨٧ اي جندي روماني في آسيا واليونان .
١٨٦	فضيحة الرقصات الخلاعية
١٨٥ – ١٨٤	كاتون قاضي احصاء . مولد شيبيون اميليانوس .
١٨٣	موت شيبيون الافريقي الذي اقيمت عليه دعاوى عديدة في اواخر حياته .
١٨٠ (؟) – ١١٠ (؟)	حياة باناتيوس الرودسي .
١٨٠ (؟) – ١٠٣ (؟)	حياة لوسيليوس
١٨٠ – ١٧٨	حرب الكلتيبير التي اشتهر فيها ط. سامبرونيوس غراكوس اب الاخوين غراكوس .

الحرب المقدونية الثالثة ضد الملك برسيه : انتصار بولس اميل في بيدنا . بوبيليوس يرغم انطيوخوس الثالث على الجلاء عن مصر . ١٦٧ : تنظيم اربع جمهوريات مستقلة في مقدونيا . الغاء الضريبة المباشرة. نفي ١٠٠٠ آخي الى ايطاليا بينهم بوليب .

مشورة مجلسية تقضي بطرد الفلاسفة وعلماء البيان من روما. روما تحالف اليهود الثائرين على المملكة السلوقية .

حرب ثانية ضد الكلتيبر .

السماح لـ ٣٠٠ آخي بقوا على الحياة بالعودة الى اليونان

الحرب البونيقية الثالثة : شيبيون اميلیانوس يعين قنصلا لادارتها . يهدم قرطاجة في ١٤٦ . احتلال ولاية افريقيا. في الوقت نفسه . احتلال حاسمة في اليونان . ١٤٩ : ثورة مقدونيا التي يلي قمعها تحول البلاد الى ولاية . ١٤٧: الاتحاد الآخي يعلن حربا تؤدي في ١٤٦ . الى هدم كورنثوس على يد القنصل ل. موميوس .

الحبر الاعظم موسيوس سكافولا يوعز بتحرير ونشر الحوليات العظيمة » .

اللوزيتانيون يقاومون السيطرة الرومانية . وقد اغتيل رئيسهم فيريات في ١٣٩

الحرب الثالثة والاخيرة ضد الكلتيبر . ١٣٧ : كارثة رومانية امام نومانس . شيبيون اميليانوس يعين قنصلا مرة ثانية في ١٣٤ لادارة الحرب التي ١٣٣ يحتل نومانس ويهدمها .

الحرب البدية الاولى

حياة بوزايدونيوس

طيباريوس غراكوس محلم عن الشعب. قانونه الزراعي وموته. اطال الثالث يموت بعد ان عين الشعب الروماني وريثا له .

تحويل المملكة الاطالية القديمة الى ولاية « آسيا » بعد انكسار ارسطونيكوس . موت شيبيون اميليانوس . البارثيون الارساسيون ينتزعون بلاد بابل نهائيا من المملكة السلوقية .

احتلال وتنظيم ولاية غاليا الناربونية . ١٢٢ : تأسيس اكواسكستيا (اكس) . ١٢١: هزيمة بيتويت ملك الاوفرن . ١١٨ : تأسيس ناربونا .

كايوس غراكوس محلم عن عامة الشعب .

الصين : ووديتي (١٤٠ ــ ٨٧) . امة الفتوحات نحو التركستا

حوالي ١٣٠ . بلغ ال م البكتريان واخضعوها .

العالم الروماني وجيرانه	الهند والصين
ماريوس محام عن عامة الشعب:قانون سرية الانتخاب .	
مولد فارون الذي سيموت في ٢٧ .	علاقات دبلوماسية بين ا والبنجاب
الحرب ضد جوغورتا . ١٠٧ تعيين ماريوس قنصلا لادارتها. ١٠٦ بوخوس ملك موريتانيا يسلم جوغورتا .	
غزوة السمبر والتوتون. ١٠٥:هزيمة الرومان في اورانج . ١٠٢ و١٠١: انتصارات ماريوس الحاسمة في اكس وفرسيل .	الهند : هليودوروس يلي الـ « فيديشا »
مولد شيشرون وبومبيوس .	
الحرب العبدية الثانية	
مولد قيصر .	
قنصلية ماريوس السادسة .اضطرابات في روما وموت ساتورنينوس	
حياة لوكريس	
ليفيوس دروزوس محام عن الشعب في السنة ٩١ . موته يثير الايطاليين . « الحرب الاجتماعية » تتصف بالعنف حتى السنة ٨٨ . تاريخ توسيع حق المدنية .	
نشاط التماثي باسيتيلس فيها،	
بدء الحرب الاول ضد متريداط ، يأمر في السنة ٨٨ بتقتيل الايطاليين في آسيا وديلوس.اليونان تثور ، سيلا يستعيد اثينا في ٨٦ . يعقد صلحا مع متريدات في ٨٥ . اثناء غيابه اصبح الديمقراطيون مع ماريوس (الذي مات في ٨٧) وسينا (الذي مات في ٨٤)اسياد روما . سيلا يعود على راس جيشه ، وفي السنة ٨٢ يهزم خصومه امام روما التي يدخلها عنوة ، احكامه بالنفي.	
مولد كاتولوس ، الذي سيموت حوالي ٥٤ (؟) ، وسالوستوس الذي سيموت في ٣٥ دكتاتورية	
سيلا ، اصلاحاته الدستورية ،تشييد الابنية في روما وبرانيستا .. سيلا يستقيل في ٧٩ .	
الحرب في اسبانيا ضد الديمقراطي سرتوريوس . بومبيوس يضع لها حدا ويعيد الهدوء الى منطقة البيرينه .	ا شاكاه ينزلون نحو البنجاب ومالفا .
الحرب العبدية الثالثة (سبارتاكوس) . فيريس قاضي صقليا .	الصين : سيوان ـ تي يعتلي العرش في الصين (٧٣ـ٤٩) فتوحات جديدة نحو الغرب
بدء الحرب الثانية ضد متريدات بقيادة لوكولوس حتى ٦٧ . جيشه يثور عليه ليفقد الافادة من انتصاراته .	

قنصلية بومبيوس وكراسوس-تعرى فيريس • الغاء قوانين سيلا • مولد فيرجيل الشاعر ـــ توفي في السنة ١٩ •	اول عهد « الا و الفرا » في جا ... الهند •
حملات بومبيوس في الشرق ضد القراصنة (٦٧) • ضد متريدات (٦٦) الــذي يلتجئ الى مملكة البوسفور حيث يموت في ٦٣ • بومبيوس يجوب ارمينيا • وسوريا التي يضمها الى الامبراطورية وينظمها ولاية (٦٣) • وفلسطين حيث يحتل اورشليم (٦٣) •	
قنصلية شيشرون • انتخاب قيصر حبرا اعظم • مؤامــــرة كاتيلينا • مولد اوكتافيوس • امبراطور الغد •	
عودة بومبيوس الى روما • قيصر يعين حاكما في اسبانيا بعد ان شغل منصب القضاء (٦٢)	اول عهد « الا » كاثقا » في ا ... (٦٤ ـ ٥٠)
قيصر ينتخب قنصلا في السنة ٦٠ قنصلا للسنة ٥٩ بفضــل اتفاقية مع بومبيوس وكراسوس (الحكومة الثلاثية الاولى) • القانون الزراعي • استـــعمار الولايات الغالية • مولد تيتـ ليف (٦٤ ؟) الذي سيموت في السنة ١٧ بعد المسيح •	
فتح غاليا المستقلة على يـــد قيصر • في اواخر ٥٣ • ثورة عامة برئاسة فرسنجيتوريكس • ٥٢ : اليزيا • ٥١ : نهايــــة المقاومة في اوكســـلودونوم • اضطرابات في روما طيلة هذه الفترة •	
قنصلية بومبيوس وكراسوس الثانية • بعد اعادة الحكـــم الثلاثي •	
الفارثيـــون يهزمون كراسوس ويقتلونه في كار •	
الفوضى في روما • مـــــوت كلوديوس قتلا في اصطدام مع زمرة ميلون • بومبيوس قنصل اوحد •	
الحرب الاهلية ودكتاتورية قيصر • ٤٩ : اجتياز الروبيكون • ٤٨ : معركة فرسال • موت بومبيوس في مصر • قيصر يصل الـــى الاسكندرية ويجتمع بكليوباترا • يبقى في مصر حتى ربيع ٤٧ • ٤٦ : انتصار قيصر في تابسوس في افريقيا • موت كاتـــون الاوتيكي • عودة قيصر الــى روما • انتصاراته • اصــــلاح الروزنامة • ٤٥ : انتصار قيصر في موندا في اسبانيا • ١٥ اذار ٤٤ : اغتيال قيصر •	
الحرب الاهلية • ٤٤ : ذهاب قاتلـــي قيصر • بروتـــوس وكاسيوس الى الشرق • شيشرون ينتقد واكتافيـــانوس ضـــد انطونيوس ويلقي الخطــب الفيليبية ٤٣ • اتفاق انطونيوس واوكتافيانوس وليبيـــدوس (الحكومة الثلاثية الثانية) • احكام بالنفي • موت شيشرون • ٤٢ : هزيمة بروتوس وكاسيوس في فيليبي • اوكتافيانوس يعود الى ايطاليا ليوزع الاراضي على الجنود القدماء • انطونيوس يبقى في الشرق ويغازل كليوباترا • ٣٩ : اتفاقـــه مع سكستوس بومبيوس سيد البحر المقيم في صقلية • ٣٦ : اختلافــــات سكستوس بومبيوس الذي هزم ... مات في ٣٥ • حملة انطونيوس على الفارثيين • ٣٤ : انطونيوس يهب كليوباترا واولاده منها اقاليم رومانية • ٣١ : معركة اكتيوم • ٣٠ : وصـــول اوكتافيانوس الى الاسكندرية • موت انطونيوس وكليوباترا •	حوالي السنة ٣٠ اول عهـ ... « كوشانا » في شمالي الهند

٢٧ قبل المسيح – ٦٨ بعد المسيح : السلالة الجولية الكلودية

م ادارة الولايات بين مجلس الشيوخ واوكتافيانوس
لذي لم يلبث ان لقب باوغوسطس .

ع شمالي شبه الجزيرة الايبيرية .

مملكة موريتانيا وتسليم عرشها الى جوبا الثاني

، مع الفارتيين حول الحدود وارمينيا واستعادة اعلام
ات المباحة في كار .

فيرجيل قبل ان ينهي ملحمة ايبيه ، وموت تيبولوس .

، القرلية .

، قصيرة وطويلة لتحدود ايستريا والليريا الى
ب .

، « هيكل السلام »

، متكررة في جرمانيا لنقل الحدود الى نهر الالب .

ميسينوس وهوراسيوس .

يسوع ، حدد خطا في القرن الرابع ، بتاخير اربع
ت في الارجح .

هزيمة القائد الروماني فاروس امام الجرمـــاني ارمينيوس : اوغسطوس يتخلى من مشاريـع الفتح في جرمانيا ويعيد الحدود الى الرين ٠

١٤ - ٣٧ : طيباريوس

موت اوغسطوس

خطوة القائد حـــرس القيصر «سيجان» ، الذي يقتل امـــراء عديدين ، افتضاح امره وقتله٠

موت اوفيد

موت سترابون

تجارة منتظمة مع رومانية

وفد ملك سيلان (بلديا الامبراطور اوغسطوس

التاريخ المرجح لموت المسيح

اهتداء القديس بولس

كوجولاكاتلـا يمتلـــي ا (في الارجح) ٠

٣٧ - ٤١ : كاليغولا

ضم موريتانيا الى الامبراطورية

اغتيال كاليغولا

٤١ - ٥٤ : كلوديوس

٠ فتح بريطانيا

بحار الجنوب	اليابان وكوريا	التواريخ
	العهد النيوليتي	القرن الاول
		٨ بعد المسيح
		٩
		١٤
		١٤ — ٣١
		١٨
		٢١ (؟)
		٢٣ — ٢٥
		٢٥
		٢٧
		٢٨
		٣٠
		٣٠ (؟)
		٣٢
		٤٠
		٤١
		٤٣

لحرب ضد الفارثيين بسبب تدخلاتهم في ارمينيا ، صلح اوربولون .

٥٤ - ٦٨ : نيرون

مقتل بريتانيكوس

مقتل اغريبينا

موت بورسوس

حريق روما ، اضطهاد المسيحيين

موت سينيكا ولوكان وبترون

رحلة نيرون الى اليونان . ثورة اليهودية : اسناد قمعها لفسباسيانوس .

حرب اهلية ٦٨ : ثورة فنديكس في غاليا ، المناداة بـ جالبا » امبراطورا ، انتحار نيرون . ٦٩ : جيش الر ينان يـ فيتليوس امبراطورا.فيتليوس يهزم » اوتون » ويث جالبا بالتبني ، في ايطاليا . جيوش الشـ والدانوب تنادي بفسباسيانوس امبراطورا ، هزيمة فيتليو ومقتله في ايطاليا .

٦٩ - ٩٦ : سلالة الفلافيين

قمع ثورة سيفيليس في غاليا ، احتلال وهدم اورشليم على تيطوس

احداث منابر لتعليم البيان اليوناني واللاتيني في روما

	٤٩
	٥٠ (؟)
	٥١ — ٦٣
	٥٥
ابان (كيوشو) ترسل وفدا الصين (لو-يانغ) • وهي تزال في عهدها النيوليثي • • ترك « بان كو » عنها وصفا يلا •	٥٧
	٥٩
	حوالي ٦٠ — ٧٠
	٦٢
	٦٤
	٦٥
	٦٦
	٦٨ - ٦٩

العالم الروماني وجيرانه	الهند
احتلال الحقول التي كانت ملحقة باملاك الدولة وتقويم الحدود بين الرين الاعلى والدانوب الاعلى .	
	بدء العهد المعروف بعهد المرازبة (كشاتارابا) غربي الهند .
٧٩ - ٨١ : تيطوس	
انفجار الفيزوف ، تهدم بومبيي وهركولانوم ، موت بلينيوس القديم .	
٨١ - ٩٦ : دوميتيانوس	
المسرح الفلافيانوس (الكوليزه) الذي بوشر ببنائه في ايام فسباسيانوس	
دوميتيانوس يحمل لقب «فاحص الاحصاء الدائم» .	
مناوشات مع الداسيين على الدانوب	
احداث الالعاب الكابيتولية	
الالعاب القرنية	الامبراطور الكوشاني يطا الزواج من ابنة ملك الص فيرفض طلبه
اغتيال دوميتيانوس	
٩٦ - ١٩٢ : سلالة الانطونيين	
مجلس الشيوخ يعلن (نرفا) امبراطورا	
نرفا يتبنى ترايانوس . قنصليته الثالثة .	
موت نرفا	

يقدم للامبراطور
الشمس

الفيلسوف والخ لو

العالم الروماني وجيرانه	الهند
٩٨ - ١١٧ : ترايانوس	
تصليه بلين القديم الـــذي يلقي « تقريظ ترايانوس » .	
	تزيين الـ « ستوبا » في سانشي – ظهور صورة بوذا فـ غندهارا . البلاد التصـ الجينية . البوذية تزدهر ا سيلان .
	الـ « اندرا » في الجنـــ يوسمون للوذهم . انشقاق البوذية يتم نهائيا .
ضم داسيا الى الامبراطورية بمصريين ضد الداسيين	
اعمال مرفا اوستيا	
موت مارسيال	
ضم الولايـــة العربيـــة الى الامبراطورية	
تدشين فوروم ترايانوس	
موت بلين القديم الـــذي كـان حاكما في بيتينيا في الســنــة ١١١-١١٢	
الحرب الفارثيـــة . ترايانوس يضم ارمينيا وما بين النهريـــن الى الامبراطورية. يبلغ سلوقية على دجلة وكتيزيفون . ١١٥: ثورة اليهود في المدن الشرقية. ترايانوس يتراجع . يموت في ١١٧ . وخلفه يتخلى عـــــن فتوحاته .	
١١٧ - ١٣٨ : هادريانوس	
مـــوت تاسيت و (؟) بلوتارك	كتابة « ناسك » تذكر الـ هرتاميبوترا (سلالة اندرا) الـ « شاكا »
هادريانوس يقوم بعدة رحلات تفتيشية الى حدود الامبراطورية	
الشروع ببناء متصف طيبور	

بان تشاو مؤرخة الهان
ه القائد بان تشاو
الفيلسوف تسواي شي

البهالين والموسيقيين
ن عن طريق برما

حنغ يخترع جهاز الكرة
بة داخل دوائر تمثل
ه الاجرام السماوية

احد ملوك اليابان يرسل
بلاد الصين ١٦٠ عبدا ٠

العالم الروماني وجيرانه	الهند
مولد ابوليوس	نهاية ملك « ناهاباتا » مزربان للمالوه الغربية ـ ؛ الفن اليوناني البوذي ومدر امارافاتي « ومدرسة « ماثور
	تجميل الستوبا في امارافاتي يد خليفة كوتا ميبوترا (الـ الذكره بطليموس) .
موت جوفينال	
مولد اولو جيل	
نشر « البراءة الدائمة »	
ثورة اليهود بقيادة سمعان بن كسبه في فلسطين . منع اليهود من دخول اورشليم التي اصبحت ايليا كابيتولينا .	
١٣٨ - ١٦١ : انطونينوس	
	الامبراطور كانيشكا يصـ بالامبراطورية الكوشانية الذروة
	اشفاغوشهاه رجل بطالة وادي وموسيقي وفيلسوف .
	الهند ترسل عدة وفود الى الصـ عن طريق بحار الجنوب .

« كيـــو » (لن – يي) المحاربون الـ « كيو » يهاجـ
جـون جي – لان المراكز المحصنة في جي –

ولغ يشرح عقيدة كونفوشيوس

ود الهندية ثانيها عـــن الوفود الهندية تمر فيها
ق بحار الجنوب طريقها الى الصين ·

جمات البوذية الاولى على يد
لي « لنان شي كاو »

اكتشاف مـــــسالة الطولين
اللحيــــــة في اولو – اي
(كونفوشيوس) ·

، الخصيان كلـــي القدرة

ق – هيوان يشرح عقيـدة
...صين ·

١٦١ - ١٨٠ : مارك - اوريل

لوسيوس فيروس يحمل لقب الأمبراطور ويشترك في الحكم حتى مماته في ١٦٩

موت سويتون

هجوم الفارثيين ، افيديوس يقود الحرب ضدهم بقوة

بدء ملك « شاتاكارني » (الارجح) الذي يخصه تاغا برسالة

هجوم الجرمانيين على الدانوب . يبلغون اكويليا في ايطاليا في ١٦٦ . مارك اوريل يوجه ضد الماركومانيين والكواديين والسرماطيين سلسلة حروب شاقة . يصد الحدود . مات في المعسكر في فينا بينما كان يستعد لاحتلال بوهيميا .

اغتصاب افيديوس كاسيوس في الشرق ينتهي بالقمع . موت اوريانوس

انشاءات اربعة منابر للفلسفة ومنبر لعلم البيان في اثينا

مارك اوريل يشرك ابنه كومودوس بالحكم ويحمله لقب امبراطور . . استشهاد الاسقف بوتين والقديسة بلاندينا ومسيحيين آخرين في ليون .

موت كايوس مؤلف كتاب : الانظمة .

١٨٠ - ١٩٢ : كومودوس

كومودوس يضع حدا لمشاريع ابيه على الدانوب بعد انفراده بالامبراطورية

الة ابنية جديدة الى ديـــر
كيانغ ـ سو » البوذي

له الفيلسوف تشونغ تشانغ
لغ

رة العالم الصفراء

الات جديدة الى دير كيانغ ـ
ر البوذي

تأسيس « لن ـ جي »

العالم الروماني وجيرانه	الهند
## ١٩٣ - ٢٣٥ : سلالة ساويروس ## ١٩٣ - ٢١١ : سبتيموس ساويروس	
سبتيموس ساويروس يتغلب على المطالبين بالعرش لا سيما بسينيوس نيجر في الشرق (١٩٤–١٩٥) وكلوديوس البينوس (معركة ليون ، ١٩٧)	
ترتوليانوس يضع كتابه في الدفاع عن العقيدة المسيحية	
حملة على الفارتيين : احتلال وتنظيم ولاية ما بين النهرين .	
كركلا يحمل لقب امبراطور	
	تجزؤ مملكة الـ « اندرا »
	توسع التجارة البحرية (سفن شراعية كبيرة) ـ ملحميا الفلسفي ـ الـ « اكشاكو » يملكون في الجنوب الشرقي (ناغارجونا كوندا) .
موت غاليانوس	
اوريجينوس يخلف اكليمنضوس في ادارة مدرسة الاسكندرية المسيحية . المعلم السبتيزوليوم	
الالعاب القرنية	
اعدام بلوتيانوس قائد حرس القيصر وتعيين القانوني بابينيانوس خلفا له .	
سبتيموس ساويروس يحارب في بريطانيا . في ٢٠٨ ابنه الثاني جيتا يحمل لقب الامبراطور . موته في يورك (٢١١) .	
	الـ « بلافا » ينتشرون حتى الـ « اندرا »
## ٢١١ - ٢١٧ : كركلا	
اغتيال جيتا . الحكم على بابينيانوس . براءة كركلا .	
مولد ماني في بلاد بابل	
اغتيال كركلا خلال حملة على الفارتيين .	

لسوف كشولغ كشالغ لوا
، سر الدولة لي دكتاتور،
و كساو -

٢٥ - روما وامبراطوريتها

العالم الروماني وجيرانه	الهند
٢١٨ - ٢٢٢ : ايلاغابال	
بعد مقتل مكرينوس القصير ،ايلاغابال يعتلي العرش	
اغتيال ايلاغابال وامه لمصلحة ابن عمه الذي تبناه في ٢٢١ . موت ترتوليانوس حوالي هذا التاريخ ..	
٢٢٢ - ٢٣٥ : ساويروس الكسندروس	
اردشير الساساني يدخل كتيزيفون ظافرا : المملكة الفارسية تحل محل المملكة الفارثية	
	الـ « شوكولا » يملكون لـ « بالاناسي »
	الامبراطور الكوشاني فاسوديو يحالف ملك ارمينيا ضد اردشير
مقتل قائد حرس القيصر ، اولبيانوس ، على يد الحرس	
قنصلية ديون كاسيوس الثانية للامبراطور ساويروس الكسندروس .	
اوريجانوس يضطر الى مغادرة الاسكندرية .	آخر وفد كوشاني الى البلاط الصيني (في عهد فاسوديفا الملك « بو - تيزو » في الحوليات الصينية) .
الحرب الاولى ضد الفرس .	
اغتيال ساويروس الكسندروس ووالدته في مايانس .	

ـ الهان اللاحقين • تقسيم
اطورية الى ثلاث ممالك
« لن يي » (ولوستان) •

لن ـ يي ولو ـ لان يرسل
وفدا الى البلاط الامبراطو
الصيني

ابن احد المولديين الهنود
الغز ينقل الى الصينية كتـ
« اميتابها سوترا » •

لان شي ـ مان (كوري مارا
في لو ـ لان ـ حاكم التوك
لو ـ كاي يرسل وفدا الى الجنو
لان شي ـ مان يخلع الجـ
الامير الـ « وو » •

العالم الروماني وجيرانه	الهند
٢٣٥ - ٢٨٤ : الفوضى العسكرية	
تعاقب اباطرة سريعي الزوال في جو من اسوأ المصاعب الخارجية والداخلية . الحدود تهاجم وتجتاز . ثورات وانفصالات في الولايات . الازمة الاقتصادية تتفاقم .	
المناداة بغورديانوس الاول والثاني امبراطورين في قرطاجة ومقتلهما .	
موت اردشير . شابور الاول يعتلي العرش .	
	رحلة ماني الى شمالي الهند
	ولد فولتان الى ا د موروثا
	ايران الساسانية تحتل الامبراطورية الكوشانية .
حملة غورديانوس الثالث على شابور (سابور) .	
افلوطين يقصد روما لممارسة التعليم فيها . يموت في السنة ٢٦٩ .	
فيليبوس العربي : يحتفل باعياد روما الالفية في السنة ٢٤٨	
بعثات مالوية الى مصر	
مقتل داسيوس الذي يموت في حملة على القوط . في السنة ٢٥٠ . اضطهاد المسيحيين .	
	شابور يهزم فاسوديفا .
هورموزد يحمل لقب « ملك ملوك الكوشانا » .	

الصين	بحار الجنوب	اليابان وكوريا
، اليابان		ملكة اليابان العانس (؟) بعثة الى البلاط الصيني لو ـ يانغ وتقيم علاقاتدبا مع كوريا .
	فان تشان يرسل وفدا الى الـ « موروندا » (منطقة الغانج)	
ا لو ـ لان واليابان	فان تشان يرسل وفدا الى الصين .	ملكة اليابان العانس ترسل الى الصين .
ط الامبراطوري يرسل وفدا لو ـ لان مؤلفا من كانغ وكثو ينغ	فان سيون (لو ـ لان) يستقبل الموفدين الصينيين كانغ تـاي وتشو ينغ اللذين يلتقيان موفد الموروندا الذي لحق بوفد السنة ٢٤٠ـ٢٤٤	
تجار سوغديانا يبشـــر رذية في نانكين .		
ـ يي تهاجم منطقة هواي	لن ـ يي تهاجم المراكز الصينية المحصنة في منطقة هواي	
	قائد كوري يهين موفد يماتو (اليابان) في مملكة سيـــلا (كوريا الغربية) .	

ملك فاليريانوس ٠ ٢٥٧ : اضطهاد ٠ ٢٥٨ : الالمان يصلون حتى ايطاليا الشمالية ٢٦٠: فاليريانوس اسير الساساني شاهبور الاول ٠

بوستوموس يحكم غاليا وبريطانيا واسبانيا٠ تتريكوس يخلفه ٠

غاليانوس ينفرد بالحكم بعد اشتراك ابيه فاليريانوس منذ ٢٥٣

بعثة مانوية الى جنوبي الزاب الصغير ٠

استقلال تدمر في عهد اذينة وزنوبيا والغة وهب اللات ٠

ملك كلوديوس الثاني القوطي الذي يطرد الالمان من ايطاليا والقوط من البلقان ٠

القديس انطونيوس يتنسك في الصحراء ٠

ملك اوريليانوس ٠ في ٢٧٢ ، يقوض دولة تدمر ، اعدام لونجينوس ، تحكيم في موافق ابولس الساموزاطي اسقف انطاكية الهرطوقي ٠ في ٢٧٣، تتريكوس يستقيل ٠ التخلي عن داسيا والاراضي الملحقة باطلاق الدولة نهائيا ٠ تشييد اسوار محصنة حول روما ٠

غزو عام : الفرنجة يبلغون اسبانيا ٠

موت ماني ٠

ملك كاروس الذي يقود جيوشا ظافرا حتى كتيزيفون

المتاحلة، بديوكليسيانوس امبراطورا في خلقيدونيا ٠ عقد الصلح مع الفرس

٢٨٤ - ٣٠٥ : ديوكليسيانوس والحكم الرباعي

اول عهد ديوكليسيانوس وتنظيم الحكم الرباعي ٠ ٢٨٥ : انتصاره على كارينوس ٠ مكسيميانوس قيصرا ثم امبراطورا في ٢٨٦ ٠ في ٢٨٨ : اغتصاب كاروسيوس في بريطانيا ٠ ٢٩٣ : اختيار كونستانس كلور، ثم غاليريوس قيصرين ٠

الصين	بحار الجنوب	اليابان وكوريا
ة سو ـ ما تستولي عـلى ـ تشوان ثم على الصين ـالية .		
ـلوسان في عهد فان سيون	فان سيون (لو ـ لان) يرسل وفدا الى بلاط الصين .	
ـ يي تهاجم جي ـ لسان ـاعدة لو ـ لان	لو ـ لان ولن ـ يي تتحالفان وتهاجمان جي ـ ثان	
سو ـ ما « يطلقون اسمهم ـة باسم « تسين » .	الصين تهزم لن ـ يي ولوـلان إلى تونكين	
لصوص سنسكريتية الى ـبنية . وفد لن ـ يي	لن ـ يي ترسل وفدا الى بلاط الصين .	
لو ـ لان	فان سيون (لو ـ لان) يرسل وفدا الى بلاط الصين	

العالم الروماني وجيرانه	الهند
حملات مكسيميانوس الرئيسية على الرين .	
استعادة حدود الدانوب .	
اخضاع بريطانيا حيث كان الكتوس قد خلف كاروسيوس.	
ديوكليسيانوس في مصر حيث يقمع اغتصاب اشيليوس .	
صدور البراءة ضد المانويين .	
حملة ديوكليسيانوس على الفرس. استعادة ما بين النهرين	
حملة مكسيميانوس في افريقيا	
	الكاتب « فاسا »
مرسوم الحد الاعلى .	
تدابير ومراسيم ضد المسيحيين.	
تنازل ديوكليسيانوس ومكسيميانوس .	
٣٠٥-٣٦٣ : السلالة القسطنطينية	
٣٠٦-٣٣٧ : قسطنطين	
وفاة كونستانس . الجنود ينادون بابنه قسطنطين امبراطورا.	
عهد اضطرابات يكثر فيه القياصرة والاباطرة . اخيرا ، في السنة ٣١٢ ، قسطنطين ينتصر على مكسانس في معركة جسر ملفيوس ، وفي ٣١٣ ،ليسينيوس يتغلب على مكسيمينوس دايا في الشرق .	
وفاة غاليريوس الذي توقف عن اضطهاد المسيحيين قبل ذلك بزمن قصير .	

لاه عبد لاوغسطس فـــي
وزيريس (كرالكالور) .

احد امراء صيالا (
البحرية) يصل الى
(اليابان) .

كتاب « لاليعالستارا » ينقل
رة اخرى الى الصينية .

ناية الغزوات الكبرى

لد الراهب فو ـ تو ـ لنغ
ـ كوكا .

٥١ ـ روما وامبراطوريتها

لين وليسينيوس يجتمعان في ميلانو ويتفقان على مبـــدا
ل الديني ٠

الاول بين قسطنطين وليسينيوس الذي يفقد الاقاليم
بة٠ مجمع آرل يحكم على الدوناتيين ٠

قسطنطين فـــي روما ٠حوالي هذا التاريخ ، لاكتانس
« ميتة المضطهدين »

شاندراغو
الـ د غوبتا
الهند .

الثانية بين قسطنطين وليسينيوس الذي يغلب على
٠ قسطنطين يعيد وحدة الامبراطورية ٠ تكريس المركز
لبناء القسطنطينية ٠

نيقيه ٠

طين يأمر بقتل ابنـــه كريسبوس ، ثم زوجته فوستا٠

يوس اسقف الاسكندرية٠

، القسطنطينية ٠

طين ينظم الخلافة من بعده بين أبنائه الثلاثة وابني أخيه .

ملك سابور
الكبير،الذي
من اوروبـا

ية ووفاة قسطنطين ٠

٣٣٧ - ٣٦١: كونستانس الثاني

ابناء اخي قسطنطـــين(٣٣٧) ٠ كونستانس الثاني
اخاه كونستان في ٣٤٠ليهزم ٠ المنتصر ينتحر بعـــد
ب ماغنانس على الريـــن(٣٥٠) ٠ كونستانس الثانـــي
كان يحكم الشرق ينتصر على المغتصب في ٣٥٢ ٠

، يعودون الى الهجوم بقيادة ملكهم سابور الثاني عدو روما
د٠الفرس يحاصرون نصيبين تكرارا ثم يدخلون اميدا فـــي
٣٥٩ على الرغم من دفاع روماني مستميت اشترك فيـــه
س مرسلينوس ٠ لـــم يدخلون سنغارا ايضا في السنة
٠

بحار الجنوب | اليابان وكوريا

العالم الروماني وجيرانه	الهند
المملكة الساسانية تضطهد المسيحيين بشدة .	
اولفيلا ، اسقف القوط ، يلتجيء الى الاراضي الرومانية.	
	تاريخ فتوحات سامودراغوبتا العسكرية التي ينشيء اوسع امبراطورية منذ الموريا .
كونستانس يعين ابن عمه غالوس قيصرا ويسند اليه ادارة الشرق، يأمر بقتله في السنة ٣٥٤ .	
جوليانوس ، اخو غالوس يعين قيصرا ويرسل الى غاليا لمحاربة الالامان . انتصاره في ستراسبورغ (٣٥٧) . الجيش ينادي به امبراطورا (٣٦٠) .	
كونستانس يحظر تقديم الذبائح	
مجامع سيرميوم وقوانين الايمان المتوالية .	
موت كونستانس في طريق عودته من الشرق لمحاربة جوليانوس .	
٣٦١ - ٣٦٣ : جوليانوس	
جوليانوس في القسطنطينية	
قانون يحظر استعمال النصوص الكلاسيكية على المعلمين المسيحيين. جوليانوس في انطاكية .	
حملة جوليانوس على الفرس . وفاته اثناء التراجع .	
٣٦٤ - ٣٩٥ : السلالة الفالنتينية وثيودوسيوس	
عقد صلح جوفيانوس القصيرة الذي يضع حداً لأعمال الحرب ضد الفرس . الجيش ينادي بفالنتينيانوس الاول امبراطورا الذي يشرك اخاه بالحكم ويسند اليه ولاية الشرق .	
داماز بابا	
فالنتينيانوس يعين ابنه غراتيانوس امبراطورا .	

الصين	بحار الجنوب	اليابان وكوريا
. لن ـ يي	فان ون (لن ـ يي) يرسل وفدا الى بلاط الصين .	
ـ يي تحتل جي ـ نان . ـ الراهب لو ـ تو ـ تنغ .	فان ون تنتزع جي ـ نان من الصين .	
	موت فان ون (لن يي) . ابنه فان لو يملك باسم فادرا فارما	
	هزيمة فان لو في تونكين .	
لو ـ نان قبيلة مروضة)	تشان ـ فان (فو فان) يرسل وفدا الى بلاط الصين .	
ـ كيان ، ملك شن ـ سي ي للبحر الهندي كوماراجيفا		
	فان ـ فو يهزم ثانية في تونكين .	

العالم الروماني وجيرانه

القديس مارتينوس اسقف تور. موت اثناسيوس اسقف الاسكندرية . امبروسيوس الذي كان حاكم الولاية يصبح اسقفا لميلانو .

ثورة فيرموس في افريقيا . المعاهد يد ثيودوسيوس الاب الذي اعدم بأمر من غراتيانوس .

وفاة فالنتينيانوس الاول . المناداة بفالنتينيانوس الثاني امبراطورا لتحكم امه جوستينا باسمه .

الهون يهاجمون الاوستروغوط .

القوط يجتازون الدانوب . وفي السنة ٣٧٨ يهزمون فالنس ويقتلونه في ادرنا .

غراتيانوس يشرك ثيودوسيوس بالحكم . يتخلى عن لقب الحبر الاعظم . قنصلية اوزون . القديس ايرونيموس يرسم كاهنا .

ثيودوسيوس يوطن القوط كحلفاء جنوبي الدانوب . يحصر اسم المسيحيين الكاثوليكيين في انصار قانون نيقية .

مجمع القسطنطينية المسكوني الذي عزل في اعقابه كافة الاساقفة الاوزوبيين . غريغوريوس النازينزي يعين اسقفا على القسطنطينية ثم ينسحب .

قضية مذبح اله النصر : فشل مسعى سيماكوس لدى ثيودوسيوس .

مكسيموس يأمر بقتل غراتيانوس . ثيودوسيوس يعين ابنه اركاديوس امبراطورا .

وفد فارس الى القسطنطينية : المفاوضات تفضي الى اتفاق يعين الحدود بين الدولتين ويقسم ارمينيا . ستيليكون يتزوج من ابنة اخت ثيودوسيوس سيرينا . القديس اوغسطينوس يعين استاذا في ميلانو .

القديس ايرونيموس يقيم نهائيا في فلسطين .

اعدام بريسيليانوس وانصاره الزليسيين .

مكسيموس في ايطاليا . معمودية القديس اوغسطينوس .

ثيودوسيوس يأتي الى ايطاليا ويهزم مكسيموس .

مجزرة تسالونيكي . الصراع بين ثيودوسيوس والقديس امبروسيوس . ثيودوسيوس يعين نيكوماكوس فلافيانوس قائد حرس القيصر ، ويخضع كمؤمن للاسقف . خطبة ليبانيوس « من اجل المعابد » .

تحظر العبادة الوثنية ، هدم معبد سيرابيس في الاسكندرية . قنصلية سيماكوس . القديس اوغسطينوس يرسم كاهنا .

اليابان وكوريا	بحار الجنوب
	فو (شامبا) يرسل وفدا البلاط الصيني .

مقتل فالنتينيانوس الثاني على يد اربوغاست الذي ي
اوجــانيوس امبراطوراً .ارستوقراطية روما الوثـ
هذا الاخير • يثبت نيكوماكوس في قيادة حرس القيصر
كافة الذبائح ، حتى المنزلية •روفينوس يعين قائــد
القيصر في القسطنطينية• والقانونون •

تيودوسيوس يعين ابنه هونوريوس امبراطورا • اعتناء رو
ال المسيحية • وفاة ليبانيوس(؟) •

انتصار تيودوسيوس على اوجانيوس •

وفاة تيودوسيوس • ابناه اركاديوس وهونوريوس يملكا
في الشرق والثاني في الغرب• القديس اوغسطينوس ا
...

بحار الجنوب	اليابان وكوريا
	اليابان تستولي على قسم كوريا الجنوبية .

– أ –

— ب —

— ذ —

— ر —

— س —

ـ ش ـ

— ق —

ـ و ـ

ـ ي ـ

فهرست الخرائط والتصاميم

ص

ص

فهرست الصور

(متحف الوظائف ، فلورنسا . تصوير الليناري) .
١٧ — بومبيي : طريق المدافن خارج باب هرقل . (تصوير الليناري) .
١٨ — عرس ألدوبرنديني (قطعة) تصوير على حائط (القرن الاول بعد المسيح) .
(مكتبة الفاتيكان . تصوير الليناري) .
١٩ — تقدمة خنزير وكبش وثور. نقش رخامي (القرن الاول بعد المسيح) .
(متحف اللوفر. تصوير اندريه فيليو) .
٢٠ — سر ديونيسي (قطعة) صورة على حائط. (القرن الاول بعد المسيح) . بومبيي مقصف الاسرار . (تصوير الليناري) .
٢١ — اول الطريق الآبية من جهة روما (تصوير فيوليه)
٢٢ — روما : الكوليزه . (تصوير جان روبيه) .
٢٣ — روما : عمود ترايانوس (في آخر القرن السادس عشر حل تمثال القديس بطرس محل تمثال ترايانوس) . (تصوير فيوتيه) .
٢٤ — القوس المعروف بـ « قوس ترايانوس » في تمغاد (الجزائر) .
(تصوير مرسيل بوفيس) .
٢٥ — صورة محفورة تمثل مأتم احد الزعماء (القرن الثاني بعد المسيح) (تصوير مرسيل بوفيس).
٢٦ — ضريح آل جوليوس في سان ريمي في مقاطعة بروفنسا . (تصوير مرسيل بوفيس) .
٢٧ — بقايا مسرح اوستيا (تصوير فيوليه) .
٢٨ — غنائم واسلاب اورشليم . نقش في قوس تيطوس في روما (القرن الاول بعد المسيح) .
(تصوير الليناري) .
٢٩ — ميترا يقدم الثور قرباناً . نقش رخامي (القرن الثالث بعد المسيح) .
(متحف اللوفر . تصوير اندريه فيليو)
٣٠ — قناة ماء سيغوفيا (اسبانيا) . (تصوير بول انفولفان) .
٣١ — الفوروم في هيبون (عنابة ــ الجزائر) . (تصوير مرسيل بوفيس) .
٣٢ — مسرح سبراتا ــ ليبيا . (القرن الثاني والثالث بعد المسيح) .
(تصوير مصلحة الآثار في ليبيا) .
٣٣ — احد مشاهد الصيد . فسيفساء . متحف جيلة (الجزائر) .
(تصوير مرسيل بوفيس) .
٣٤ — شحن سفينة ، فسيفساء في رواق النقابات في اوستيا . (تصوير فيوليه) .
٣٥ — عربة سفر . نقش في كنيسة القديسة مريم . سال ، على مقربة من كلاجنفورت
(تصوير الليناري) .
٣٦ — اورشليم : مقبرة اليهود والمدافن المعروفة بمدافن الانبياء . (تصوير فيوليه) .

٣٧ – روما : نقش وصورة جدارية ، في دياميس القديس سيباستيانوس . (تصوير فيوليه) .
٣٨ – قصر ديوكلتيانوس في سبليت (يوغوسلافيا) . (مجموعة امانة الآثار ، سبليت) .
٣٩ – أباطرة الحكم الرباعي : ديوكلتيانوس ومكسيميانوس ، غاليريوس وكونستانس كلور (القرن الرابع) . كنيسة القديس مرقس ، البندقية . (تصوير فيوليه) .
٤٠ – ضريح غالا بلاسيديا في رافينا (النصف الاول من القرن الخامس) .
(تصوير الينادي) .
٤١ – بوديساتفا . مدرسة غندهارا الفنية (حوالي القرن الثاني بعد المسيح) . منضد .
(متحف غيمه . بعثة الفرد فوشيه . تصوير لافو) .
٤٢ – ملك – حية (ناغاراجا) . مدرسة ماتورا (حوالي القرن الثاني بعد المسيح) . (متحف غيمه . تصوير لافو) .
٤٣ – نقش عاجي اكتشف في افغانستان (حوالي القرن الثاني بعد المسيح) .
(متحف كابول . تصوير متحف غيمه) .
٤٤ – المعيشة في قرية هندية . مدرسة اماراڤاتي (حوالي القرن الثاني بعد المسيح) . رخام ابيض . (متحف مادراس . تصوير فيكتور غولوبيف)
٤٥ – معبد كارلي من الداخل (حوالي القرن الثاني بعد المسيح) . (تصوير متحف غيمه) .
٤٦ – بلاطة مدفن وو – لينغ – تسو (١٤٧ – ١٦٧ بعد المسيح) . سلالة الهان . نقش حجري .
(تصوير متحف غيمه) .
٤٧ – صورة مصغرة لمدفن خزفي في بيت صيني اكتشف في مقاطعة تونكين (القرن الثاني او الثالث بعد المسيح) . (متحف غيمه . تصوير لافو) .
٤٨ – تمثال « هانيوا » من الخزف . اليابان (القرن الرابع ؟) (متحف غيمه . تصوير لافو) .

فهرست عام

ص

ص

القسم الثاني

مدنيات الوحدة الرومانية

الكتاب الاول

المدنية الرومانية في عهد الامبراطورية الاولى

ص

ص

ص

الكتاب الثاني

حضارة العهد الامبراطوري الثاني

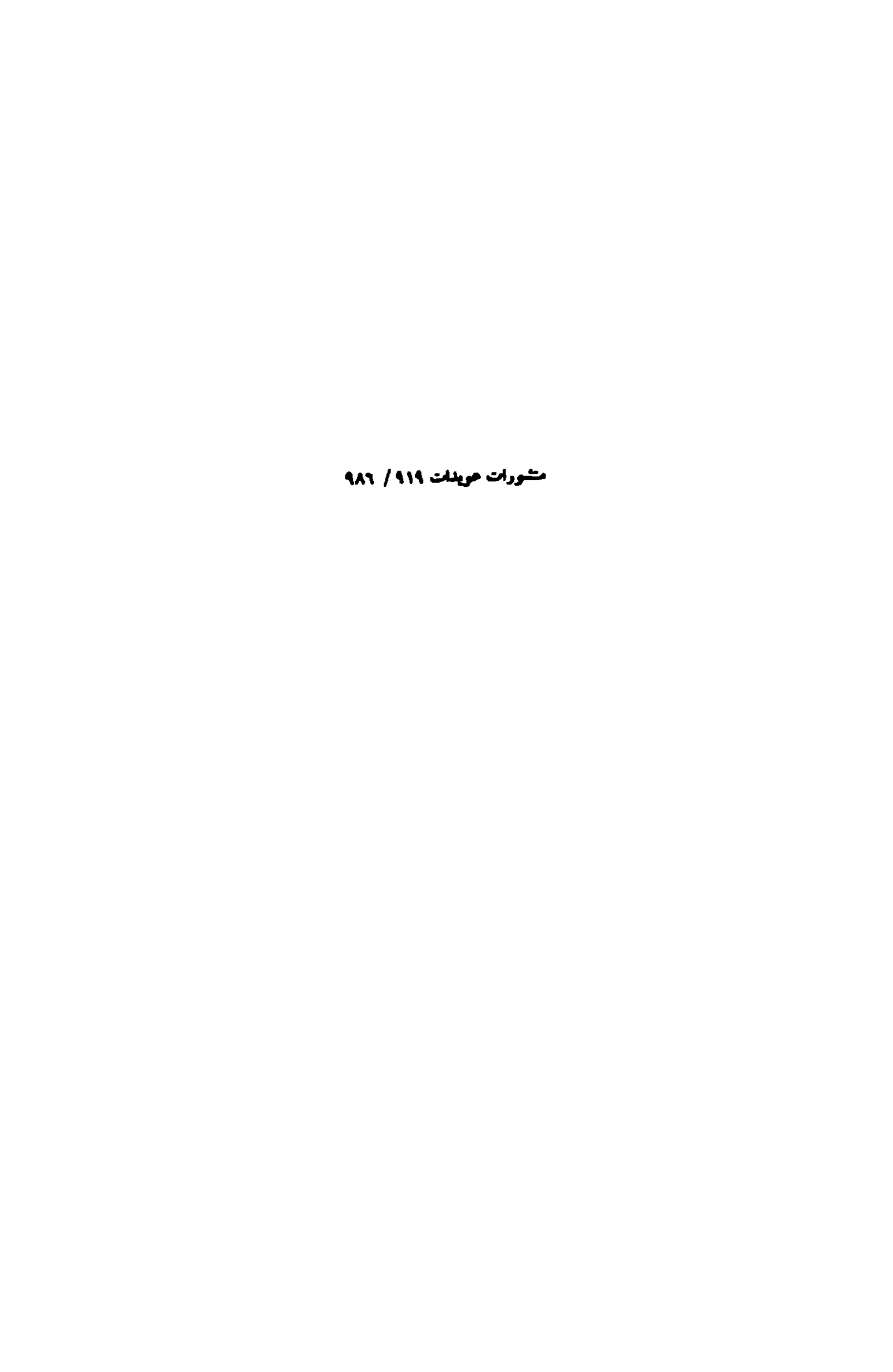
ص

القسم الثالث

آسيا الشرقية

انتهى المجلد الثاني، ويليه المجلد الثالث

القرون الوسطى



منشورات عويدات ٩١٩ / ٩٨٦

HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS

publiée sous la direction de
MAURICE CROUZET
Inspecteur général de l'Instruction publique

TOME II

ROME
ET
SON EMPIRE

par

André AYMARD et **Jeannine AUBOYER**
Professeur à la Sorbonne *Conservateur au Musée Guimet*

Texte Traduit en Arabe

Par

Youssef A. DAGHER et Farid M. DAGHER

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth — Paris

موسوعة

تاريخ الحضارات العام

٢

روما وإمبراطوريتها

تأليف

أندريه إيمار
أستاذ في السوربون

جانين أوبوايه
أمينة متحف غيمه

هذا الجزء ، من ثلاثة أقسام:

١- يعالج الغرب ووحدة البحر المتوسط، من خلال المغلوبين على أمرهم (الأتروريين، القرطاجيين ، الغاليين)، ومن خلال حضارة روما الجمهورية (الفتح الروماني، فشل مفهوم المدينة، التطوّر الإقتصادي والإجتماعي، هيلينية روما: الديانة واليقظة الفكرية والفنية).

٢- يعالج مدنيّات الوحدة الرومانية تتابعاً: المدنية الرومانية على عهد الامبراطورية الأولى في القرنين الأول والثاني (ب-م) من خلال الإنتقال من الحرب الأهلية الى السلام الروماني، ومفهوم الدولة بين النظر والواقع، ولمحة موسعة عن الحياة الإقتصادية والإجتماعية، والديانات القديمة والجديدة، والإنجازات الأدبية والفنية، ومن خلال حضارة العهد الإمبراطوري الثاني (في القرنين الثالث والرابع) بما فيه من أزمة القرن الثالث وتجدّد الإضطرابات في القرن الرابع، وفترة الملكية المطلقة والبيروقراطية، والتجديدات الإقتصادية والإجتماعية، والنهضة الفكرية والفنية، وما بقي من روما بعد موتها إرثاً.

٣- يعالج مرحلة آسيا الشرقية من مطلع المسيحية حتى أواخر القرن الرابع بدءاً من وصف عام للمنطقة، فتطوّر الهند الهندية، ومراحل النفوذ الهندي في الأقطار الواقعة جنوبي شرقي آسيا، حتى الكتلة الصينية وانتشار الحضارة الصينية واسعاً.

يقع هذا المجلد في ٩١٠ صفحات من القطع الكبير، مجلد بالقماش، ومزود بـ ٣٢ خريطة وتصميماً و٤٨ صورة فوتوغرافية لمعالم اثرية الى جانب جدول زمني مقارن وجدول أعلام وأماكن.



تاريخ الحضارات العام

منشورات عويدات - بيروت - باريس